موسوعة الأوبئة الوثائقية

Encyclopedia of Coronavirus

Covid-19

كورونا

من المهد إلى اللقاح

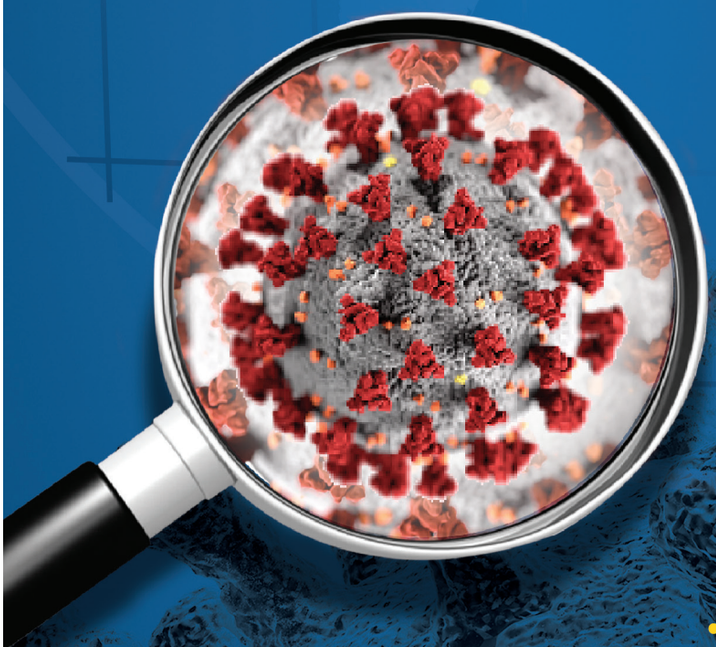

حمزة عليان

منشورات
ذات السلاسل
الكويت

موسوعة الأوبئة الوثائقية

Encyclopedia of Coronavirus

Covid-19

كورونا

من المهد إلى اللقاح

حمزة عليان

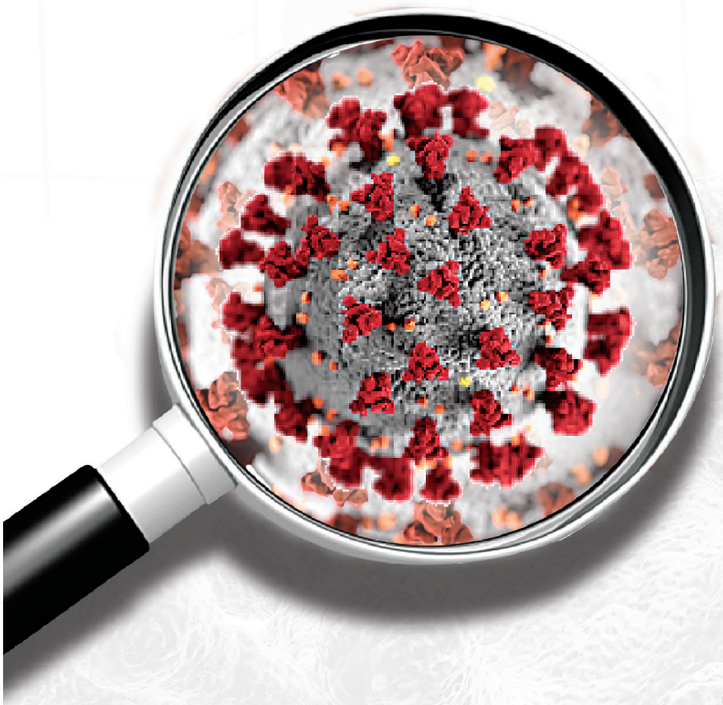

منشورات
ذات السلاسل
الكويت

الموقع الإلكتروني

https://covidpedia.info

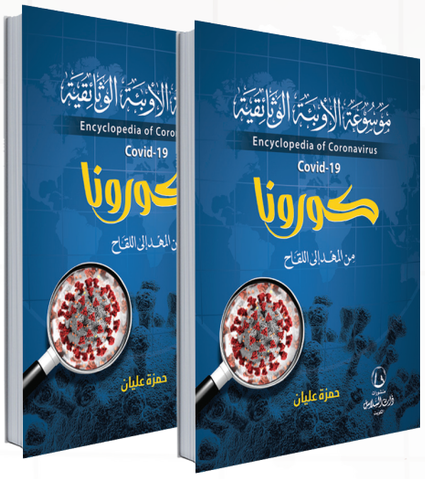

كورونا من المهد إلى اللقاح

المشرف العام: حمـزة عليـان

E-mail: hamzaolayan@icloud.com www: hamzaolayan.com
facebook : hamzaolayan twitter: hamzaolayan
instagram: hamza.olayan Tel.: +965 99793245

الكويت: ذات السلاسل، 2021
752 ص ؛ 30 سم.

الردمك: 978-9921-766-49-3

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
1443 هـ - 2021 م

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع

منشورات
ذات السلاسل
الكويت

الناشر ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع P.O.Box 12041 Al-shamiyah, 71651 Kuwait

Thatalsalasil
Thatalsalasilbookstore
www.thatalsalasil.com.kw
+965 22466266/55
+965 22438304
info@thatalsalasil.com.kw

إهداء

إلى ضحايا فيروس كورونا «كوفيد – 19» أينما كانوا وإلى أي جنسية انتموا، هؤلاء دفعوا حياتهم ثمناً للوباء الذي جعل العالم قرية واحدة بعد عبوره الحواجز الجغرافية والحدود بين الدول.

تخليداً لذكراهم نهدي
هذا الإصدار

إستهلال

منذ الشهر الأول عام 2020 وبعد إنتشار الفيروس في عدد من البلدان وخروجه من مدينة ووهان الصينية، عقدنا العزم على متابعة الحدث الجلل.

كانت قراءاتنا أن الفيروس سيأخذ مدى أطول من حيث التمدد والذهاب إلى أقصى نقطة تجمع بشري على الكرة الأرضية.

إستشعرنا خطورة الموضوع، وقررنا تشكيل فريق من الباحثين، وضعنا خطة العمل وأوكلت المهام على مجموعة من الذين لديهم المعرفة والخبرة في البحث والرصد والكتابة وممن يملكون المؤهلات الأكاديمية الكافية.

كانت الكويت هي المحطة الرئيسية أما الباحثون فقد توزعوا على عدد من العواصم ومنها القاهرة وكندا والكويت وبيروت وعلى مدى سنة ونصف تقريباً وهذا الفريق يعمل دون توقف.

مطلع 2021 إكتملت ملامح وعناصر المشروع وبما يتناسب مع كونه عمل «موسوعي» تتوفر فيه مواصفات الموسوعات ذات الصفة الدولية.

أحطنا بتاريخ الأوبئة منذ ظهورها ورتبت الفصول الخمسة عشر بحيث تغطي مختلف جوانب وأبعاد الطواعين والجوائح.

توسعنا «بوباء القرن الحادي والعشرين» وبحروب «الجيل الخامس» كما أسميناه من منظور الصراع بين الإنسان والأوبئة.

عمل دؤوب وجهد متواصل تطلب سهر الليالي بالإعداد والمراجعة والتدقيق اللغوي والتعاون مع «مطبعة الخط» الكويتية والقائمين عليها وبرعاية خاصة من الزميل والصديق سامي أيوب والفريق الفني المعاون له.

ونكرر الشكر للرعاة الذين دعموا هذا المشروع وكانوا ذو مسؤولية اجتماعية في مستوى وعيهم لمواجهة هذا الوباء بالتوعية الثقافية والعلمية.

حظيت دولة الكويت بإهتمام خاص بإعتبار ان المشروع إنطلق من أرضها، وأفردنا لها فصلاً خاصاً تضمن تغطية شاملة كما حصل من تطورات وما شهدته من أحداث وعلى كافة الأصعدة.

كنا في سباق دائم مع الزمن وكورونا، متى نتوقف ومتى يأتي الوقت المناسب لإطلاق المشروع وخروجه من المطبعة إلى حيث يجب أن يكون في متناول الناس والقراء والمختصين.

وسط ظروف صعبة واجهها العالم في مواجهة فيروس «كوفيد - 19» سطع نور من الأمل يشير إليه وقوف البشرية أمام عدو مشترك يجبرنا جميعاً على تناسي الفوارق العرقية والجنسية والطبقية لنقف معاً امام متغيرات جديدة، لا نملك إجابة قاطعة عليها، سوى القدرة على التفاؤل، لنصنع «عالماً جديداً رائعاً» بتعبير الروائي البريطاني آلدوس هكسلي الذي اختار هذه العبارة عنوانا لرواية له واختار تفاؤل الشجعان وإيمانهم بمبدأ التقدم محورا لكتاباته.

بهذه الروح وضعنا هذه الموسوعة وبهذه الروح ننظر إلى المستقبل ونحن نرصد دفاع الجنس البشري عن بقائه في مواجهة عدو غامض وخطير.

أملنا أن تكون «موسوعة كورونا» وتاريخ الأوبئة من الأعمال المستدامة نظراً لما تحمله من توثيق علمي وكتابة تاريخية، ومرجعية موثوقة.

المشرف العام

حمزة عليان

الكويت 2021

بقلم - محمد جاسم الصقر

رئيس مجلس ادارة
غرفة تجارة وصناعة دولة الكويت

حياة جديدة بعد الجائحة

أما وقد عجز العالم عن مواجهة هذا "الفيروس الغادر" وغير المرئي بالعين المجردة، وخضع الكون لجائحة مؤلمة على كل المستويات، فيقيناً هي جائحة العبر وإعادة تجديد الحياة، لكن دعونا نعتبرها صدمة إيجابية بين قرون مضت وحياة مقبلة، لن يكون ما هو قادم فيها كما مضى، فالتغيير سنّة كونية لابد من مواكبتها رضاءاً أم قضاءاً.

إنها اختبار للعقل البشري وريـادة السوق وعجرفة التكنولوجيا الحديثة، إنها اختبار للتفكير غير النمطي، وللتضامن الفعلي وللإنسانية أيضاً، اختبار للتعاضد وكشف حقيقة الإنسان تجاه الإنسان، ولكل راع وللرعية .

إنها دافع لإعادة اكتشاف الحياة ودعوة لدراسة المخاطر التي قصرها الانسان على جانب آحادي .. دون أي وزن لمآلات الحياة.

جائحة دافعة للتأمل في فلسفة التملك والفقد ، لتحدي الإنسان وصراعه الأزلي مع الغير، وكيف أصبح عدو نفسه بين عشية وضحاها لا يستطيع الاقتراب من أبيه أو أمه أو أخيه أو ابنه خوفا منه وعليه .

جائحة تحثنا وتدفعنا إلى تأمل هذا السيناريو الذي لم يخطر في أحلام البشر أو في الخيال العابر، فعجز عن مواجهتها العالم لأكثر من عام كامل، بكل إمكاناته العلمية وثوراته التكنولوجية التي أذهلت العقول، وغيرت معها الحياة وكل المفاهيم التقليدية.

العالم اليوم يولد من جديد ، علاقات مختلفة، حياة غير تلك التي ألفها الانسان على كوكب الأرض لقرون طويلة، نماذج أعمال مبتكرة ستسود وأخرى ستندثر، صراع بين الإنسان البشري والروبوت الأقل كلفة والأكثر ربما إنتاجية، صراع بين قيم سادت ثم بادت .

يقف العقل البشري اليوم أمام تحدي مختلف عجز أمامه لبعض الوقت لكنه تمكن من التعايش وإيجاد الحلول عن طريق حزمة من الإجراءات وإيجاد اللقاحات، فهو القوة الكامنة التي تمكننا من العبور من الظلام إلى النور، إلى كل ما هو مشرق وجميل.

نعم نستطيع أن نغير ونؤثر في هذا الكون وهذا التأثير قد يكون سلبا أو إيجابا، وهو ما يتوقف على طبيعة التفكير، نفكر بطريقة إيجابية فنحصل على نتائج إيجابية، أو نفكر بطريقة سلبية فنحصل على أنصاف نتائج.

في هذا المأزق نحتاج إلى عامل الرغبة الذي يرفع من معدلات التحفيز وشحذ الفكر بالقوة، وقوة إرادة تمكننا من التغلب على الخوف والضعف، مدفوعة بالقابلية نحو تخطي التحديات وإنجاز ما نصبو إليه.

لا سبيل للعبور من هذا النفق المظلم إلى النور إلا بالعزيمة والمثابرة والإبـداع وإعـادة ترتيب الأولويات ومواجهة سلبيات وأمراض العصر الحديث التي انتشرت وتمددت وباتت تصيبنا بلا استئذان ، والعمل على إعادة الاهتمام بالاستثمار في الثروة البشرية، ذخيرة المستقبل للأوطان، ولنتحصن بسلاح العلم الذي سيسمح لنا باستكمال خط السير في الحياة حتى النهاية بنجاح .

وهيا بنا لننهض من جديد مستلهمين من اخفاقات الماضي ونجاحات الحاضر، وكما يقول الفيلسوف الصيني كونفوشيوس احد ابرز المؤثرين في تاريخ الصين القديم ان اعظم مفخرة لنا في الحياة ليست في عدم الإخفاق بل في النهوض بعد كل مرة نسقط فيها .

كان السؤال الأكثر إلحاحاً وجدلاً على صناع القرار، كيف تتم الموائمة بين الثبات على مستويات من سبل العيش وبين الحفاظ على أرواح المواطنين؟ وأيهما أكثر أهمية، أرواح البشر أم إنقاذ الاقتصاد؟

وهل يستلزم بقاء الناس وحجرهم في بيوتهم ووقف دورة الحياة والعمل لمواجهة إنتشار الوباء مهما كانت الخسائر المالية؟ أم يجب إستئناف بعض الأعمال أو كلها لتجنب خسائر إقتصادية فادحة؟

هذا التحدي الذي واجه العالم كان يرى أن العلاج لابد وأن لا يكون أسوأ من المرض، وإن كانت حياة الإنسان تتقدم على الاقتصاد كما يراها عدد من المحللين والخبراء في علوم المستقبل.

لقد خاضت المجتمعات البشرية، واحدة تلوى الأخرى، معارك لمكافحة إنتشار الوباء وسارت على خطين متوازيين الأول فرض تدابير وقائية لإجبار الناس على التباعد الاجتماعي والوقاية الصحية، والثاني ضخ أموال لتحقيق إستقرار الأسواق.

إنصبت الجهود على كيفية حماية الدول من الإنهيار فهذا "العدو القاهر" يجتاز الحدود الجغرافية ويهاجم حتى المختبئين خلف الجدران .

لجأت الـدول ومنها دولة الكويت إلى وضع خطط طوارئ صحية وحفزت الاقتصاد المنهك لمواجهة تداعيات الجائحة، وتوجهت الحكومات لتبني إجراءات وسياسات طارئة .

إتخذت العديد من بلدان العالم تدابير صارمة للغاية بعد أن عصفت أثار الوباء السلبية وتكاليفه الباهظة بمعظم قطاعات الأعمال وإقتصاديات الدول.

حقاً .. إن العالم اليوم يولد من جديد.

فيروس

نشأته وطبيعته وإنتشاره

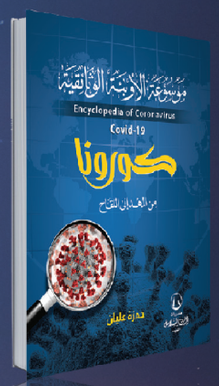

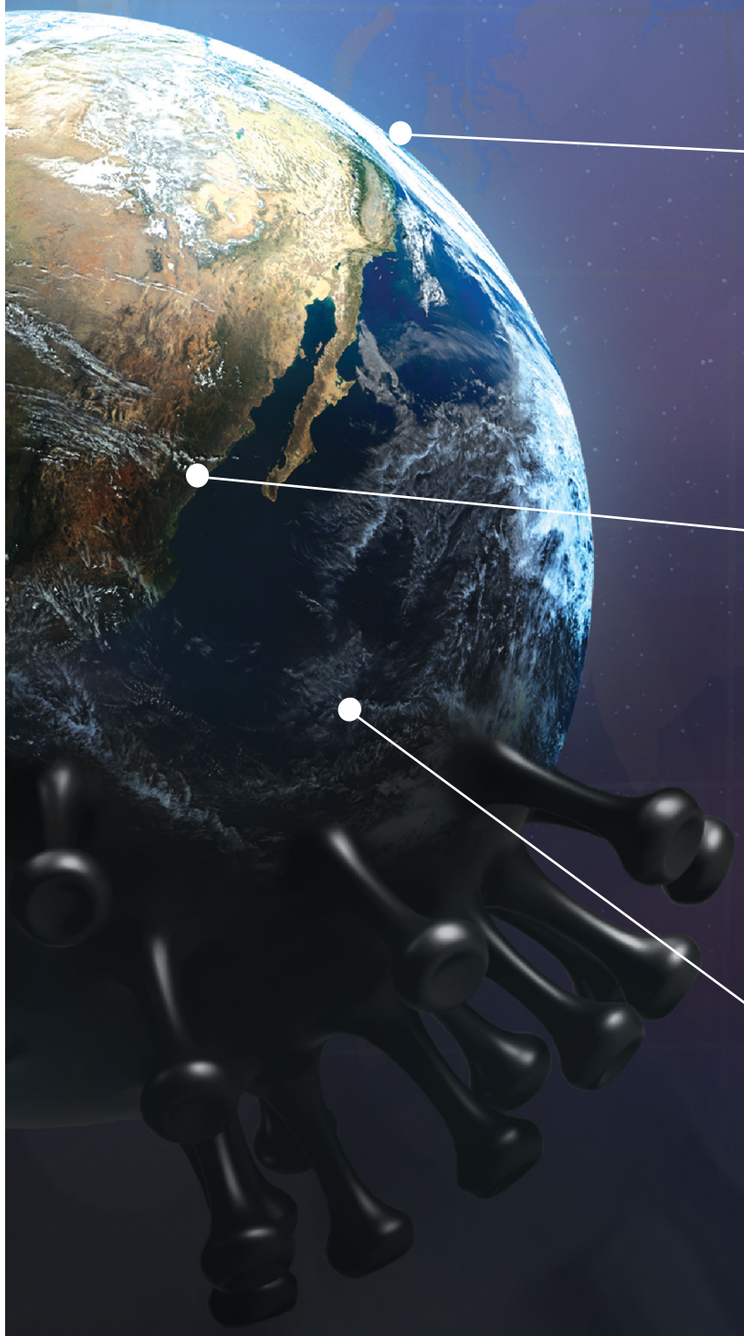

1- نشأته وطبيعته

ظهر لأول مرة في مينة «ووهان» في مقاطعة «هوبي» في الصين بتاريخ 31 ديسمبر 2019، أخذ في الإنتشار في عدد من المقاطعات ثم خرج إلى العالم مثل أستراليا وتايلند واليابان وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية وغيرها وتتابع إنتشاره إلى القارات الجغرافية قاطبة.

2- ماهو فيروس كورنا المستجد ؟

فيروسات كورونا، هي مجموعة من الفيروسات التي يمكنها أن تسبب أمراضاً مثل الزكام والإلتهاب التنفسي الحاد والمعروفة بإسم "متلازمة الشرق الأوسط" .

تم إكتشاف نوع جديد من فيروسات كورونا بعد أن جرى التعرف عليه كمسبب لأحد الأمراض

يشبه إثنين من الفيروسات القاتلة هما "سارس " و يرس" أو كورونا الشرق الأوسط .

حدد العلماء المرض، على انه سلالة جديدة من فيروس كورونا ومصدره حيواني ، وأطلقوا عليه إسم "N.COV.19" والشائع " covid- 19" "كوفيد – 19" أي فيروس كورونا المستجد .

3- سيد الخداع يضرب ويهرب

تسبب في توقف الحياة التي نعرفها، ففي المراحل المبكرة من

كورونا

السلالات واللقاحات

الإصابة يكون الفيروس قادراً على خداع الجسم إذ ينتشر في الرئتين ومع ذلك يعتقد جهاز المناعة أن كل شيء على ما يرام ! ويسمح لك بأن يكون لديك مصنع فيروس في أنفك ومع ذلك تشعر بأنك على ما يرام ! ولديه قدرة مذهلة على إيقاف المواد الكيماوية المعروفة في الجسم باسم الإنترفيون .

4- تاريخ ومكان ظهور السلالات المتحورة

البلد	إسم السلالة	التاريخ
بيرو	لامبادا	14 يونيو 2021
الهند	كابا	04 أبريل 2021
بريطانيا	ألفا	18 ديسمبر 2020
الهند	دلتا	04 أبريل 2021
أميركا	كوتا	24 مارس 2021
البرازيل	غاما	11 يناير 2021
جنوب أفريقيا	بيتا	18 ديسمبر 2020
دول عدة	إيتا	17 مارس 2021

5- حصاد الوفيات والاصابات

تجاوز الـ 5 ملايين وفاة لتاريخ 30 اكتوبر 2021 وسجل الرقم التالي 5,007,621 مليون، وبلغ عدد الاصابات 246,903,114 مليون إصابة

6- اللقاح يكتب حياة جديدة للبشرية

إعتباراً من 5 ديسمبر 2020 دخل العالم أكبر عملية تلقيح في تاريخ البشرية، بينما لا يزال فيروس كورونا يطوف حول العالم في شكل سلالات متحورة وقد خاض العالم سباقاً ضد الزمن من أجل تطعيم أكبر عدد ممكن من المواطنين .

المدخل

الإنسان والأوبئة
حروب الجيل الخامس

- في تاريخ الآلام: شواهد وشهادات
- الطاعون الكبير
- الجوائح عند الشعراء الروائيين والمصلحين
- في موسم كثرت فيه الوفيات

في تاريخ الآلام: شواهد وشهادات

أولا : الشواهد

في كل محطة من محطات الوباء على طريق الآلام يقوم شاهد، دُوِّنت عليه أسماء ضحايا الوباء، من كل عرق وملة. رُسمت عليه خرائط ارتحال الموت: من قارة لقارة، ومن قطر لآخر، ومن بلدة لبلدة، ومن قرية لقرية، ومن شارع لشارع، ومن بيت لبيت. نُقِشَت عليه التفاصيل: العذابات، والأعراض، والأدوية، والتراتيل الجنائزية، ونواح النائحين.

ثانيا : الشهادات

لكل عصر آلامه، فهذا العذاب متجاوز للزمن. وفي كل عصر شهود من الشعراء والروائيين والكتاب والدعاة إلى الحق، والمصلحين. وفي كل ما كتب هؤلاء عن ما عاينوه من فصول الملحمة المتواصلة التي هي قدر الإنسان عنصران من أهم العناصر الملموسة في هذه الكتابات: إرادة التحدي، وتجاوز الخوف من الخطر الماثل إلى نهوض بواجب كل وقت: واجب الحفاظ على نعمة الحياة وترقيتها.

جوائح وبائية

عرف العالم ثلاث جوائح طاعونية كبرى حددتها مصادر عديدة موثوقة، بينها موسوعة الموت الأسود THE Black Death Encyclopedia، بأنها الطواعين الثلاثة التي وقع تسجيلها في الأعوام 541و1347و1894م وقد تسبب كل طاعون منها بارتفاع هائل في أعداد الموتى من البشر والحيوانات في مختلف قارات العالم. وفي كل جائحة من هذه الجوائح تغيرت البنى الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات. لكن ما يهدد البشر من الأوبئة ليس الطاعون وحده فسجل الأمراض التي قاسى البشر أهوالها عبر العصور أطول من هذه القائمة الثلاثية السوداء. كان البشر ولازالوا يسيرون على طريق الآلام التي تنفجر بوجوههم، فتدمر كثيرا ممن حولهم ومما حولهم، ثم تمضي تاركة وراءها للحضارة الإنسانية نظما وعلاقات ورؤى جديدة وآمالا تنبثق من ظلمة الآلام. وفي سجلات المعاناة نجد التواريخ التالية :

من العام 541 وحتى العام 750 الميلاديين

طاعون جوستينيان

بدأت من مصر سلسلة الطواعين المعروفة بطاعون جوستينيان Justinian Plague نسبة إلى الامبراطور البيزنطي جوستينيان الأول الذي ظهرت في عهده، وضربت هذه السلسلة من الجائحات حوض المتوسط وشمال غرب أوروبا لقرنين من الزمان. ويبدو أن الأمور تحسنت واختفت الطواعين حتى أربعينات القرن الرابع عشر.

بعد ظهور الطاعون في مصر انتقل إلى فلسطين ومنها الامبراطورية البيزنطية، ثم اجتاح كافة الأقطار في حوض المتوسط. ونتيجة للطاعون تغير مسار التاريخ البيزنطي وفشل مشروع الامبراطور جوستينيان الذي أراد إعادة توحيد مكونات الامبراطورية الرومانية ونشأت مشكلات اقتصادية كبرى، لكنه نشر بين الناس الشعور بقرب نهاية العالم، فصار الطريق ممهدا لانتشار المسيحية.

ويمكن النظر إلى طاعون عمواس باعتباره موجة

من موجات متتالية لطاعون جوستينيان، الذي أنهك الامبراطورية البيزنطية وسهل انتشار الحكم العربي ومن ثم انتشار الإسلام، شرقي المتوسط.

أفضت موجات الطاعون المتتالية، على مدى قرنين من الزمان، إلى موت خمسين مليونا من البشر كانوا أكثر من ربع سكان المعمورة. وتعتبر تواريخ الأوبئة أن ذلك كان أول انتشار، على مدى واسع، للطاعون العقدي الذي يتميز بتضخم الغدة الليمفاوية والذي تنقله الفئران والبراغيث.

جذام القرن الحادي عشر

عرفت الإنسانية الجذام Leprosy المعروف أيضا باسم مرض هانسن Hansen›s disease منذ القِدَم لكنه تحول إلى جائحة ضربت أوروبا في القرون الوسطى ما أدى إلى إنشاء العديد من المستشفيات التي تركزت جهودها على علاج المصابين به. وقد انتشر بين الناس الاعتقاد بأن هذا المرض البكتيري البطئ التفاقم هو عقاب سماوي للخطاة ومن يرتبطون معهم برباط القرابة. ولهذا السبب اقترن خوف الناس من انتقال العدوى إليهم من المصابين بالمرض باحتقار لهم وتخويفهم. ولم يزل هذا المرض يهاجم عشرات الألوف من البشر، حول العالم كل عام ويهدد حياة من لا يجدون العلاج الكافي له بالمضادات الحيوية. لكن اسمه القديم لم يعد شائعا وصار يشار إليه باسم مرض هانسن.

الموت الأسود في القرن الرابع عشر

تلخص موسوعة لاروس الفرنسية حقبة الموت الأسود في القرن الرابع عشر بقولها «إن الجائحة الكونية الثانية للطاعون العقدي، الذي يعرف باسم»الطاعون الكبير» أو «الموت الأسود»راحت تفتك بأمم الغرب في الفترة من 1346م وحتى 1353م، لكنه بلغ ذروته في العام 1348. ولاشك في أنه جاء من القرم، واجتاح حوض المتوسط، ليبلغ فرنسا داخلا إليها من مارسيليا في نوفمبر من العام 1247. وانتقل الطاعون بعد ذلك إلى ألمانيا، فأوروبا الوسطى، فالجزر البريطانية. ومن سواحل المتوسط انتشر الطاعون الأسود حتى السويد وبروسيا في خريف العام 1349. وفي العام 1350 عم انتشاره كافة أرجاء منطقة الرابطة الهانسياتية l'espace hanséatique " وكانت تضم مدنا ومناطق داخلة في تحالف تجاري ودفاعي في شمال غرب أوروبا وفي وسطها.

وتضيف لاروس "وهذا الطاعون الأسود الذي ضرب مناطق انتشر فيها سوء التغذية بلغ من الضرر درجة تجعلنا نتحدث عن نقلة مأساوية في تاريخنا. ولم يقل عدد من ماتوا بهذا الوباء عن ثلث سكان غرب أوروبا، بحال من الأحوال. ومن أسوأ ماترتب على هذا الطاعون تكاثر الأوبئة في القرن التالي".

وتقول مصادر يمتد اهتمامها إلى أبعد مما تمتد إليه أبصار واضعي موسوعة لاروس إن الطاعون الذي روع النصف الثاني من القرن الرابع عشر قضى على ثلث سكان العالم، ومن المرجح أن ظهوره في ذلك التاريخ كان مرتبطا بآسيا التي خرج منها لبقية أنحاء العالم، وبخاصة أوروبا التي تقول مصادر لها ثقلها إنه دخلها من صقلية، فظهر فيها في العام 1347 ثم انتقل منها إلى مسينا(التي تغنى بها الشاعر العربي القديم قائلا: يامن يمسيني على مسيني). وقد أدى الانتشار الهائل للطاعون في مختلف أنحاء أوروبا أن صارت الجثث تتكوم في الشوارع لاتجد من يدفنها وانتشرت رائحة الموت في كل مكان.

وباء الأنفلونزا الإسبانية الذي أصاب العالم عام 1918

ويبقى أن نذكر أن شراسة الطاعون تسببت بأن جنحت أهم أمتين متحاربتين آنذاك، وهما فرنسا وانكلترا، إلى السلم. وأفضت ضغوط الطاعون، الاقتصادية والسكانية، أيضا إلى إضعاف النظام الإقطاعي في بريطانيا، وأضعفت غزاة الشمال المعروفين باسم الفيكينغز، وكفت أذاهم عن مختلف الشعوب.

طاعون مارسيليا: 1347م

وترصد المصادر الفرنسية دخول الطاعون إلى فرنسا في أول نوفمبر من العام 1347 عندما سمح المسؤولون عن ميناء مارسيليا لسفن تجارية من جنوا بدخول الميناء على رغم علمهم بأن السفينة موبوءة بالطاعون. وبهذا القرار أطلق مسؤولو الميناء وحش الطاعون على أوروبا. فمن أين جاء الجنويون بالطاعون؟ من منغوليا، على الأرجح. وتتفق غالبية المصادر على أن العدوى انتقلت للبشر من فأر يدعى، المرموط السيبيري، le tarabagan marmotte de Sibérie ".

وأكثر مدينة ابتليت بالطاعون كانت العاصمة المنغولية في ذلك العهد، وهي مدينة "سراي". وكان ملك منغوليا جانيبيرغ في مدينة قريبة من العاصمة تدعى تانا، في العام 1346، عندما نشبت مشاجرة بين تجار إيطاليين من جنوا وجماعة من المسلمين، أسفرت عن مقتل واحد من الجماعة المسلمة، وتبعهم الملك بقواته عن طريق البر. وبعد أن بلغ الملك المدينة ضربت قواته عليها الحصار لمدة عام.

لكن القوات ضربها الطاعون، فراح الجنود يقذفون بجثث القتلى الحاملة لعدوى الوباء، عبر أسوار المدينة، بمن فيها من الناس المحاصرين داخلها وبينهم الجنويون – نسبة إلى مدينة جنوا – الذين طالتهم العدوى، فصار الطاعون سيد الموقف على جانبي الأسوار. وهرب من نجا من الجنويين بطريق البحر، في مايو من العام 1347 بعد أن أخذوا معهم البكتيريا المرعبة الحاملة للطاعون. وخلف الناجون من سكان جنوي وغيرهم، وراءهم، الجثث الحاملة للعدوى لتأكل لحومها القطط والكلاب

ومختلف الحيوانات البرية. ونزلت أول سفينة تحمل الجِنْويين الناقلين للعدوى إلى اسطنبول، فمات بالطاعون تسعون بالمئة من سكان المدينة، في فترة قصيرة تماما.

وفي أكتوبر من العام 1347 م، جاءت سفينة جنوية أخرى من كافا إلى صقلية، فيما كان طاقمها يترنح أفراده تحت ضغط المرض الذي وضعهم بين الحياة والموت. وهنا قتل الطاعون نصف السكان ثم انتقل إلى مسينا. وعندما هرب السكان أخذوه معهم إلى مختلف أنحاء إيطاليا، فمات ثلث سكان البلاد بحلول الصيف. وفي نوفمبر من العام 1347م بلغ الطاعون فرنسا، على متن سفينة ثالثة آتية بالتجار الجنويين –سفراء الموت الأسود – من كافا، لينزل من على متنها إلى مارسيليا، ناقلين إليها المرض. وفي العام 1348 كان المرض قد بلغ آرل وآفينيون، فقتل أحد عشر ألفا في ستة أسابيع. وفي ابريل كان في أوفيرن وتولوز ومونتوبان. وفي يونيو كان في ليون. وفي يوليو كان في بوردو وفي بواتو. وفي أغسطس من العام 1348 قالت التقارير إنه ظهر في باريس، وواصل الانتقال منه لبقية أرجاء فرنسا.

أوروبا أمام حقبة جديدة

الطاعون الكبير في لندن: 1348م

بلغ الطاعون لندن في صيف العام 1348عبر الطريق الآتي من بريستول عبر أكسفورد، كما تسلل إليها من السفن المتنقلة بين الموانئ النهرية. وما أن حل شهر يونيو من العام 1349 حتى كان الطاعون يقتل 29 إنسانا في اليوم الواحد. وتشير الوثائق الضريبية إلى أن ثلث الشريحة الأكثر ثراء من سكان لندن ماتوا(لمختلف الأسباب) مع وفاة نسبة مماثلة بين بقالي المدينة. ومات نصف رهبان ويستمنستر وكبيرهم معهم، كما مات مئة من القسس الفرانسيسكان ولم تعد الكنائس تجد المساحة اللازمة للدفن حسب القواعد الدينية في المساحات الضيقة المخصصة لكنائس الحَضَر . فأنشئت مقبرتان جديدتان، شمالي المدينة وجنوبيها، استقبلا معا 12 ألفا وأربعمائة جثة.

ومات قادة الروابط الحرفية وحل غيرهم محلهم ومات أعضاء مجلس المدينة، مجمع الأنشطة التمويلية في لندن. وبالإجمال، فقد أودى الطاعون بحياة أربعين بالمئة من سكان لندن. وقد وجدت السلطات القضائية مشقة بالغة في حماية الأيتام وضمان الانتقال القانوني السليم للمواريث. ومن نتائج الطاعون أيضا السعي في العام 1349 لاستصدار قانون تنظيم العمالة بتقرير المقبول من الأجور والرسوم والأسعار. ولأن نتن الطاعون صار بنظر الكثيرين سبب عودة الوباء في العام 1349، فقد حدت قذارة لندن وافتقارها للخدمات والمرافق الصحية المناسبة بالملك إلى أن يأمر أعضاء مجلس بلدية لندن إلى البدء بتطهير المدينة. وربط طاعون العام 1349 والأعوام التالية ببقايا طواعين الأعوام السابقة له صلة وثيقة بنظرية المؤامرة التي اعتبرت أن حريق لندن الذي أعقب الطاعون الكبير في العام 1665 كان مدبرا، من قبل جهات نافذة، جكومية أو أهلية. وكرر الملك أوامره في العام 1361عندما عاد الطاعون. وشأن المراكز الحضرية الكبرى الأخرى في أوروبا، فقد تعافت لندن سريعا، وبقيت متعافية لبعض الوقت، وانتقلت إليها أعداد كبيرة من الرجال والنساءآتين من المناطق المجاورة، لكن الطاعون كان يستعد لتكرار هجماته.

التوسع الأوروبي والأوبئة : 1492م

بعد وصول الإسبان إلى منطقة الكاريبي انتقل الجدري

رسم تخيلي لأطباء خلال فترة انتشار الطاعون بأوروبا

والحصباء والطاعون العقدي من القادمين الجدد إلى مختلف أنحاء الأميركتين الجنوبية والشمالية، فأبادت هذه الأمراض ما يقدر بتسعين بالمئة من السكان الأصليين الذين لم يسبق لهم التعرض لمثل هذه الأمراض وبالتالي لم تكن لديهم قدرة على احتمال أذاها. ففي أول لقاء بين الأوروبيين وبين أهل تلك الأنحاء، وجد كريستوفر كولومبوس، في جزيرة هسبانيولا، شعب التاينو الذي كان عدد أفراده ستين ألفا، لم يبق منهم في العام 1548 سوى خمسمئة إنسان.

وفي العام 1520 قضى الجدري على امبراطورية الآزتك، بعد أن قتل الألوف وترك ألوفا غيرهم في حال من الوهن البالغ، فلم يعد بوسع المقاتلين أن يقاوموا المستعمرين الإسبان ولم يعد بوسع الفلاحين زراعة أرضهم وتأمين الاحتياجات الغذائية المطلوبة.

طاعون لندن الكبير: 1665

عاود الطاعون لندن 18 مرة في الفترة بين 1369 و1458بما لايقل عن 27 عاما في غمرات الوباء. وبقي عدد سكان لندن منخفضا حتى القرن الخامس عشر، فكان أربعين ألفا في العام 1400 ولم يزد عن خمسين ألفا في العام 1500، عقب هجمة قوية للطاعون استمرت من 1498 إلى 1500. ثم عاود الطاعون هجماته في الأعوام 1513 و 1315 و 1325 و 1528 و 1532 و 1535 و 1543 و 1548 و 1558متواصلا حتى 1559ثم في 1563 و 1578 و 1582 و 1593.وشهد القرن السادس عشر، على الرغم من كل ذلك شهدت نهضة ارتفعت بعدد السكان إلى مئتي ألف نسمة، وبدأت الإدارات الملكية تحاكي الإدارات الأوروبية. وفي العام 1578 نُشرت الأوامر الملكية المعروفة باسم»أوامر الطاعون Plague Orders“

والمتصلة بإجراءات لمواجهة الأوبئة، على اختلاف أنواعها. لكن تنفيذ الأوامر كان متباطئاً، ولم تسجل حالة حجر صحي لسفينة مشتبه بأنها تحمل أشخاصا و/ أو بضائع ناقلة للعدوى إلا في العام 1580.

وعطل الطاعون الذي قتل 8000 من سكان لندن إجـراءات تتويج اليزابيث الأولـى في 1558؛ وعطل الطاعون الذي قتل أكثر من 35 ألفا تتويج جيمس الأول في العام 1603؛ وعطل الطاعون الذي قتل أكثر من واحد وأربعين ألفا تتويج تشارلز الأول في العام 1625. وبين عامي 1603و1666 الذي شهد نهاية طاعون لندن الكبير، أودت الطواعين بحياة 190 ألفا من سكان المدينة. لكن عدد سكان لندن واصل تناميه.

وإبان الطاعون الكبير 1665–1666، فقدت المدينة من السكان ما قدَّرته وثائقها الرسمية بأنه بلغ ثمانية وستين ألفا وخمسمئة وستة وتسعين شخصا؛ لكن هناك من يؤكد أن عدد موتى ذلك الطاعون تجاوز المئة ألف من 460 ألفا كانوا إجمالي السكان آنذاك. وتسبب ذلك بهجوم كاسح من السكان على القطط والكلاب، فقتلوا ألوفا منها معتبرين أنها سبب محتمل للوباء الذي لم يتوقف بل واصل الانتشار عبر موانئ نهر التيمس. وتراجع الطاعون في خريف العام 1666لكن المدينة مُنِيَت بحريق هائل استمر يروع المدينة طيلة خمسة أيام في سبتمبر، يعرف هو الآخر باسم حريق لندن الكبير. وظن كثير من سكان البلاد أن الحريق مدبر من جهات أرادت تطهير المدينة من بقايا الطواعين المنحسرة؛ وقال آخرون إن الحريق كان مؤامرة كاثوليكية ضد أعظم أمة بروتستانتية في العالم آنذاك. لكن هذه الظنون لم تجد من يثبتها، على نحو مقنع. واتُّهِم الماسونيون أيضا بأنهم تسببوا بالحريق، ربما لأن أهم مقاول ساهم في إعادة تعمير المدينة بعد الحريق كان ماسونيا؛ وهذا الاتهام أيضا لم تثبت صحته.

أول جائحة كوليرا: 1817م

جائحة ذلك العام كانت الأولى بين سبع جائحات على مدى قرن ونصف القرن، وكانت بدايتها في روسيا، حيث قتلت مليونا من سكانها. ونقل الجنود البريطانيون الكوليرا إلى الهند فمات بسببها ملايين الهنود. ولاتساع نطاق حركة رجال الامبراطورية البريطانية ونسائها من مدنيين وعسكرين، وحركة أساطيلها الحربية والتجارية وبضائعها، على مستوى العالم، نقلت بريطانيا الكوليرا إلى إسبانيا وإلى مختلف اقطار إفريقيا وإندونيسيا والصين واليابان وإيطاليا وألمانيا وإلى الولايات المتحدة وكندا حيث قتلت الكوليرا مئة وخمسين ألفا من البشر.

لم يمنع التوصلُ إلى لقاح ضد الكوليرا في العام 1885 تكرارَ ظهور هذا المرض بقوة في مختلف أنحاء العالم طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، وطوال ما مر بنا من سنوات القرن الواحد والعشرين، إذ أعلنت السلطات في زيمبابوي، مثلا، حالة الطوارئ في البلاد بسبب الكوليرا في سبتمبر من العام 2018.

جائحة الطاعون الكونية الثالثة: 1855

بدأت جائحة الطاعون العقدي في الصين وانتقلت منها للهند وهونغ كونغ، فقتلت 15 مليونا من البشر. منشأ الجائحة كان براغيث انتشرت بين العاملين في التعدين، في ذروة نشاط تعديني في مقاطعة يونان. ويعد هذا الوباء من بين أسباب التمرد الذي اندلع في تايبينغ. وبلغ الطاعون ذروة شراسته في الهند فسقط أكبر عدد من ضحاياه في تلك البلاد التي ثار أهلها ضد إجراءات صارمة اتخذتها السلطات البريطانية بهدف محاصرة الطاعون، الذي يقال إنه بقي نشيطا حتى ستينات القرن

أعضاء الصليب الأحمر الأمريكي يقومون بإخراج ضحايا الإنفلونزا الإسبانية من منزل في سانت لويس عام 1918 (تي إن إس)

العشرين حين بدأ عدد ضحاياه ينزل إلى مادون المئتي قتيل سنويا؛ لكن المرض ظهر مجددا في العام 1994.

الانفلونزا الروسية : 1889

بدأت أول جائحة انفلونزا في سيبيريا وكازاخستان وانتقلت إلى موسكو، لتصل إلى فنلندا وبولندا ومن هناك انتقلت لبقية أقطار أوروبا. وما أن جاء العام التالي حتى كانت الجاحة قد عبرت المحيطات إلى أميركا الشمالية وإفريقيا، ليبلغ عدد ضحاياها ثلاثمائة ألف قتيل، نهاية العام 1890.

الانفلونزا الإسبانية : 1918

هذه الانفلونزا التي تنقلها الطيور قتلت قرابة الخمسين مليونا من البشر في مختلف أنحاء العالم. ظهرت بعض الحالات في أوروبا والولايات المتحدة وآسيا، قبل أن تنتشربكل سرعة في كافة أنحاء العالم. لم يكن هناك، آنذاك، وجود لعلاج فعال أو للقاح لمواجهة هذا النوع من الانفلونزا. وبعد أن نقلت وكالات الأنباء خبر ظهور الانفلونزا في مدريد في ربيع العام 1918 صار اسمها الانفلونزا الأسبانية.

بحلول شهر أكتوبر، صار ضحايا هذا الوباء من الأميركيين يقدر بمئات الأوف، وصار تخزين الجثث ونقلها مشكلة كبرى. لكن الخطر تراجع في صيف العام 1919 بعد أن مات من مات واكتسب الباقون مناعة ضد الوباء.

الانفلونزا الآسيوية : 1957م

بدأت هذه الجائحة في هونغ كونغ، وانتشرت منها

للصين وللولايات المتحدة ثم لبقية أقطار العالم، لكن انكلترا عانت منها بدرجة لافتة، إذ بلغ ضحاياها في ذلك البلد أربعة عشر ألف إنسان فقدوا حياتهم في ستة أشهر. وارتدت الانفلونزا في موجة ثانية في أوائل العام 1958ليبلغ إجمالي من ماتوا بسببها مليونا ومئة ألف شخص على مستوى الكوكب، كان بينهم في الولايات المتحدة وحدها مئة وستة عشر ألأف إنسان. وتم التوصل للقاح كبح جماح الجائحة.

نقص المناعة المكتسبة «إيدز»: 1981م

اكتُشِف الإيدز، لأول مرة، في العام 1981 كعدوى فيروسية تدمر جهاز المناعة وتتسبب بالموت نتيجة الإصابة بأمراض من المعتاد أن يقاومها الجسم. ومن يصيبهم هذا الفيروس يعانون الحمى والصداع وانتفاخ العقد الليمفاوية. ومع تراجع حدة الأعراض يبقى حاملو الفيروس ناقلين للعدوى عبر الدم وسوائل الأعضاء الجنسية، وهذا المرض يدمر الخلايا التائية.

ولوحظ الإيدز، لأول مرة، في أوساط التجمعات المثلية الأميركية، ولكن من المعتقد أن منشأه هو فيروس انتقل من قرد شمبانزي في غرب إفريقيا في العشرينات من القرن الماضي، وانتقل إلى هاييتي في الستينات ثم إلى نيويورك وسان فرانسيسكو في السبعينات.

وزعمت نشرات عسكرية سوفيتية متتالية، في الفترة 1986–1987 أن الفيروس تسرب، عن طريق الخطأ، من مختبرات للحرب البيولوجية تابعة للجيش الأميركي، مؤكدة أن الفيروس ذو أصل غير طبيعي. وقد أنكرت السلطات الأميركية صحة هذه المزاعم.

وقد تم التوصل لعلاجات تسمح بإبطاء تفاقم مرض قتل بالفعل، خمسة وثلاثين مليونا من البشر، في مختلف أنحاء العالم منذ ظهوره. ولم يتم التوصل لعلاج يحقق الشفاءمنه، حتى الآن.

متلازمة الإلتهاب الحاد للجهاز التنفسي (سارس) 2003

وقع التعرف على أولى حالات الإصابة بهذا المرض بعد عدة أشهر من اكتشاف حالات التهاب حاد في الجهاز التنفسي، ويروج الاعتقاد بأنه نشأ بالانتقال من الخفافيش إلى القطط ثم إلى البشر في الصين، التي انتقل منها إلى 26 بلدا، فأصيب به أكثر من ثمانية آلاف إنسان مات منهم 774 شخصا.

وهذا المرض الذي يصيب الجهاز التنفسي يصحبه سعال جاف وحمى وأوجاع في الرأس والبدن، وتنتقل عدواه عبر الرذاذ الناشئ عن السعال والعطس.

وقد أثبتت إجراءات الحجر الصحي جدواها، وفي صيف العام 2003 تم احتواء الفيروس ولم يعد بعدها للظهور. وواجهت الصين حملة من الانتقادات بعد أن حاولت حجب أخبار هذا المرض، في مبدأ ظهوره.

واعتبر خبراء الشؤون الصحية الدولية أن السارس كان صيحة تحذير تنبهنا إلى ضرورة تحسين قدراتنا على مجابهة الأوبئة، ووقعت الاستفادة من الدروس المكتسبة إبان أزمة سارس لتحسين مناهج وآليات المواجهة مع أمراض مثل انفلونزا H1N1 وإيبولا وزيكا.

كوفيد 19: 2019

في الحادي عشر من مارس من العام 2020 أعلنت منظمة الصحة العالمية أن كوفيد – 19 قدأصبح، رسميا، جائحة كونية، بعد أن اجتاح 114 بلدا في ثلاثة

ممرضة تسحب دمًا للتحقق مما إذا كانت لديها أجسام مضادة لـ SARS-CoV-2، AFP .

أشهر وبلغ عدد المصابين به 118 ألف شخص. ولم يكن هناك ما يشير إلى أن الجائحة تتراجع.

نشأ مرض كوفيد- 19 عن فيروس كورونا جديد لم يسبق التعرف عليه في حالات بشرية. وتشمل الأعراض مشكلات في الجهاز التنفسي وحمى وسعالا، ويمكن أن يتسبب هذا المرض بالالتهاب الرئوي والموت. وشأنَ سارس، فهو ينتشر بسبب رذاذ العطسات والسعال.

بانتصاف شهر مايو كان قد اجتاح 163 بلدا من بلدان العالم. وفي 11 فبراير من العام 2020 صار اسمه الرسمي هو كوفيد- 19.

كانت أولى حالات الإصابة بهذا المرض في 17 نوفمبر من العام 2019 في الصين، لكن لم يتم التعرف عليها. وبعد ظهور ثماني حالات أخرى في ديسمبر قرر الأطباء والباحثون أنهم يواجهون فيروسا غير معروف. وعرف الكثيرون بالفيروس الجديد عندما تحدى الطبيب الشاب لي وينليانغ أوامر الحكومة ونقل لغيره من الأطباء معلومات تتعلق بالسلامة. في اليوم التالي أبلغت الصين منظمة الصحة العالمية ووجهت للدكتور لي اتهاما يالتورط في سلوك جنائي. وبعد شهر واحد توفي الدكتور لي بالمرض الذي حذر من أخطاره: كوفيد – 19. ولأنه لاوجود للقاح ضد هذا المرض في حينه فقد انتقل إلى خارج حدود الصين.

الشهـــادات

الجوائح عند الشعراء والروائيين والمصلحين

كل عمل من الأعمال التي نقدمها هنا أو نقدم جزءا منها – مقتطفا يعرض جوهرها ورسالتها الكلية – هو

تعبير عن الطريقة التي رأى بها العصر الذي ينتمي إليه ذلك العمل معنى الوجود الإنساني وكيف يمكننا كبشر أن نعيش حياة تجعلنا أقدر على مواجهة الطواعين والأوبئة، على مر القرون.

في الموروث العربي

يرد ذكر الطواعين والأوبئة في عديد من الأحاديث النبوية وفي كثير من أقوال الفقهاء والعلماء. لكن حديثا رواه عبد الله بن عمر يعد أقرب شئ إلى أن يكون الإطار العام لرؤية فقهاء المسلمين للأوبئة والطواعين عبر العصور، وفي هذا الحديث يقول ابن عمر: كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله، فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال: «يا معشر المهاجرين، خمس خصال، وأعوذ بالله أن تدركون، ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى أعلنوا بها، إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله عز وجل ويتخيروا في كتاب الله عز وجل إلا جعل الله عز وجل بأسهم بينهم.

ويحتل مكانة مماثلة حديث آخر روته عائشة، تقول فيه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون، فأخبرني أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين، ليس من أحد يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابراً محتسباً، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد.

ولا شك أن كل حديث يروى عن النبي له مكانة مطلقة القيمة، ولكننا نتحدث عن معدلات التواتر، ما يعطي الحديث الذي رواه ابن عمر مكانة مركزية في رؤية المسلمين للأوبئة وغيرها من أشكال البلاء. وعلى رغم ذلك، بقي معظم الكتابات من شروح وتعليقات، محصورا في تبيان السلوكيات الواجب اتباعها وتلك المنهي عنها مع وعي بأثر السلوكيات التي تكتسب درجة معينة من الانتشار والتفشي على السلامة المادية والمعنوية لمجتمع ما؛ لكن المثقفين والكتاب والباحثين والمؤرخين المسلمين ظلوا عاجزين، ربما حتى ظهور ابن خلدون(توفي في العام 1406)، عن ملاحظة أثر التطورات المادية الواسعة النطاق على العلاقات والسلوكيات والأخلاق والحالة النفسية والبدنية لأهل مجتمع ما.

وإذا كان أبوبكر، عبد الله ابن محمد الذي اشتهر بلقب الحافظ ابن أبي الدنيا، سبق غيره بكتابه»الطواعين» في القرن التاسع الميلادي، فقد يكون أبو بكر الرازي، في القرن العاشر، في طليعة من أضافوا إلى الكلام على الشروط الخلقية والسلوكية، الفردية والجمعية، المحيطة بكل نازلة صحية كبرى توصيفا طبيا للطاعون. لكن ابن سينا الذي توفي في العام 1037، حين يتكلم على الطاعون، ينتقل بالعقل المسلم إلى مرحلة أرقى من كل ما بلغه السابقون من العلماء والفقهاء حين يعرض لتطور فهم الناس للوباء بتطور أوضاعهم وترقي معارفهم، عبر العصور. وهذا خروج على استاتيكية عجز معظم من سبقوه عن الانعتاق منها، وبقيت كثرة ممن لحقوه يعمهون في ظلماتها.

ويقيض الله للثقافة العربية، بعد تمهيد مطول،عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الذي توفي في العام 1406، ليؤسس لرؤية مجتمعية غير مسبوقة للأوبئة والطواعين. وهذان العالمان، ابن سينا وابن خلدون(مع الإقرار بريادة الرازي) علامتان مائزتان في الثقافة المسلمة عبر

القرون. وسوف نتوقف في فصول لاحقة عند ابن سينا. أما في هذا الفصل فسوف تكون لنا وقفات مع المقريزي وتلميذه ابن تغري بردي ومع ابن حجر العسقلاني ومع ابن كثير الدمشقي وزين الدين ابن الوردي، وأخيرا مع ابن خلدون.

في الموروث العالمي

لكننا نحب أن نؤكد على أنه في تاريخ الأدب العالمي ثلاثة أعمال نطيل الوقوف أمامها وندعو لأن يفوق الاهتمامُ بها الاهتمامَ بغيرها مما كتب في كل العصور عن مأساة الانسانية وهي تواجه جائحة تهدد بقاء النوع وتهدد ازدهار الحضارة : تلك الأعمال هي : رواية "الطاعون La Peste" لألبير كامي، وقد صدرت في العام 1947؛ وكتاب"يومية عام الطاعونA Journal of the Plague Year" لدانييل ديفو" ، الذي طبع لأول مرة في العام 1722، كتقرير عن أحوال العام 1665الذي شهد جائحة الطاعون العقدي التي اجتاحت مدينة لندن وكانت آخر جائحة طاعون في تاريخ تلك المدينة؛ والثالث والأخير في قائمة هذه الأعمال العظيمة هو كتاب "ديكاميرون"The Decameron لجيوفاني بوكاشيو، الذي يرجح مؤرخو الأدب أن بوكاشيو بدأ يفكر بتأليفه بعد ظهور الطاعون في العام 1348 وانتهى منه في العام 1353. كتاب كامي يقف معنا في القرنين، العشرين الذي لازال حيا في قيمنا وأفكارنا وسلوكياتنا وعلاقاتنا ونظمنا، والواحد والعشرين الذي ربما كانت جائحة الكورونا عتبة انتقاله إلى عالم جديد بمثل ما كانت جائحة الاتفلونزا الآسيوية عتبة انتقال العالم من القسم الأوروبي إلى القسم الأميركي من أقسام الحداثة؛ وكتاب ديكاميرون باق ضمن موروثات قيمة تنتمي للحظة انتقال الحضارة الأوربية (التي تجر العالم وراءها منذ تلك اللحظة) من العصور الوسطى الى بدايات العصور الحديثة. ويمكن أن نطلق على هذا الكتاب اسما نقابل به الاسم الذي أطلقه الغربيون على كتاب ألف ليلة وليلة عندما أسموها "الليالي العربية" The Arabian Nights، فنشير إلى ديكاميرون باسم "الليالي الفلورنسية" لأن الكتاب يتألف من مئة حكاية سردها نساء ورجـال من فلورنسا هربوا من وجه الطاعون ووجدوا مأمنهم في بيت ريفي، لمدة أسبوعين خصصوا منهما عشرة أيام للحكايا.

ونقطع الفاصل الزمني بين الكتابين المهمين، "الطاعون" و"ديكاميرون"، نازلين مع الزمن، مرورا بما كُتب عن كورونا في القرن الواحد والعشرين، وما كتب عن مختلف الجوائح في القرن العشرين، ثم ننزل إلى القرون السابقة الثامن عشر فالسابع عشر حتى نجد أنفسنا في مواجهة بوكاشيو في القرن الرابع عشر.

هذا متجاوز للزمن...

في نهاية الرواية التي تعد – حتى الآن – العمل الأدبي الأكثر أهمية بين الكتابات التي عالجت موضوع «الطواعين» في القرنين العشرين والواحد والعشرين، وهي رواية «الطاعون» لألبير كامي، يكشف الراوي عن نفسه، بعد أن حققت الجماعة البشرية التي ينتمي إليها ما ظنت أنه «النصر النهائي» على الطاعون؛ إنه ريو المجاهد الفذ ضد الموت. وتقول لنا الرواية:

بالنهاية، وحين راح ريو يصغي إلى صخب الفرحة يصاعد إليه من المدينة، كان يتذكر أن هذه الفرحة كانت دائما مهددة. فقد كان يعلم ماجهلته الحشود المنتشية، مما يمكن للمرء أن يجده في الكتب، من أن «البكتير» المسبب للطاعون لايموت ولايختفي نهائيا، وأنه قد

يكمن، لعشرات السنين، في الأثاثات وفي الثياب؛ وأنه قد ينتظر، صابرا، في الغرف، وفي الأقبية، وفي مناديل اليد، وفي الكتب والكراسات والرسائل والمستندات الورقية. وقد يأتي يوم، يتسبب به سوء الحظ ومقدار ما عند الناس من معرفة في أن يوقظ الطاعون فئرانه ويبعث بها لتموت في مدينة سعيدة.

تعد هذه الخلاصة من أهم وأثمن ما ينتهي إليه قارئ رواية كامي، حين يبلغ نهايتها. وهذه الخلاصة وثيقة الاتصال بالجدل الذي دار لفترة طويلة من العام 2020 حول قصيدة باللغة الانكليزية، قصيدة نثرية –لاتلتزم بأحكام الـوزن القافية – عن البقاء بالبيت، امتثالا لضرورات حماية النفس وحماية الآخرين من مخاطر الاختلاط في زمن الوباء. عنوان القصيدة هو"هذا متجاوز للزمن..." وقد تساءل الناس: متى كتبت هذه القصيدة، هل في أيامنا هذه أم في أيام الانفلونزا الفرنسية، أم في قرن مضى؟ وتعددت الإجابات واحتدم الجدل الذي يذكرنا بالحقيقة التي أبرزها ألبير كامي في نهاية قصته، وأبرزتها، في العنوان، القصيدة التي لم يدر الناس لأي زمن ينسبونها: أن هذا الألم متجاوز للزمن.

زعم البعض أن القصيدة كتبتها في العام 1869، أثناء مجاعة إيرلندا الشهيرة، روائية فرنسية من القرن التاسع عشر تدعى تدعى كاثلين أوميرا التي اتخذت لنفسها الاسم الأدبي غريس رامسي، وأن القصيدة تكرر تداولها في العام 1919، في غمرات الانفلونزا الإسبانية. لكن تحقيقات وكالة رويترز أثبتت أن القصيدة كتبتها في شهر مارس من العام 2020 مدرسة من ماديسون الأميركية تدعى كاثرين (كيتي) أوميرا تعيش مع خمسة كلاب ومع"الواحد العزيز" وهو الاسم الذي تشير به إلى زوجها المدرس المتقاعد فيليب. وإليك القصيدة:

باب الأمل...

ولزم الناس بيوتهم
وطالعوا الكتب
وأصاخوا السمع
واستراحوا
وأدَّوْا تدريبات
ومارسوا الفن ولعبوا
وتعلموا طرائق جديدة للحياة
وتوقفوا ليصيخوا السمع
بمزيد من العمق
مارس أحدهم التأمل، وأدى أحدهم الصلوات
وقابل أحدهم ظله
واختلف تفكيرُ أناسٍ
وتعافى أناس
ومع غياب الناس الذين
مارسوا الحياة بطرق تنم عن جهل
طرق خطرة، بلامعنى، وبلا قلب
بدأت الأرض هي الأخرى تتعافى
وعندئذ انتهى الخطر
ووجد الناس أنفسهم
حزنوا لموت من ماتوا
ومضوا إلى خيارات جديدة
وتجلت لهم رؤى جديدة
وابتكروا طرائق جديدة للعيش
وأكملوا تعافي الأرض
تماما كما اكتملت لهم العافية

يرى البعض أن القصيدة جميلة لأنها تفتح باب الأمل. لكنها جميلة لأكثرمن سبب. أهم هذه الأسباب هو أن عنوانها ينسجم مع الأسطورة التي نُسِجت حولها، والتي ربطتها – كما ربطها العنوان – بمآس جمعية قديمة، وبأمل يعود فينبثق كلما واجهنا –نحن البشر – خطرا يهدد وجودنا بسلوك ملتزم يعيد للبشر عافيتهم، كما يعيد العافية لأُمِّهِمُ الأرض. الشحنة العاطفية التي يطلقها العنوان لا تنبثق فقط من مدلول الكلمات التي تألف منها، بل وأيضا من النقاط الثلاث التي تعطي المشهد الذي ترسمه القصيدة نهاية مفتوحة.

وكَـذِبُ ما قيل عن أن القصيدة كُتِبَت في القرن التاسع عشر ثم تجددت حياتها عبر محطتي الألم الرئيسيتين الأخيرتين، حتى الآن (1919و 2019) هو الكذب الأكثر تعبيرا عن الحقيقة، شأن كل عمل فني ذي قيمة : أعذب الشعر أكذبه. وفي كتابه "الثورة والتمرد والمقاومة"(ترجمة أسامة الغزولي) يقول إيريك سيلبين إن الحكاية قد تكون تلخيصا لما توصل إليه جيل ما من حقائق. ويضرب مثلا على ذلك بالحكاية الأكثر شهرة عن ماري أنطوانيت، وهي الحكاية التي زعمت أن الملكة عرفت أن الجماهير غاضبة لأنها لا تجد خبزا، فتساءلت: ولم لا يأكلون الكعك؟ هذه حكاية وليست حقيقة تاريخية، لكنها هي الأكثر تعبيرا عن حقيقة الملكة وحقيقة النظام الملكي لحظة الثورة: حقيقة انفصال الملكية، بكل رموزها البشرية والمادية والمعنوية، عن واقع فرنسا الثائرة. وبالمثل فتمرير قصيدة أنبتتها آلام الإنسانية اليوم، وأضاءهتها الثقة بالمستقبل، تمريرها على محطات الألم السابقة واللاحقة يعمق فهمنا للألم كبعد ثابت في التجربة الإنسانية.

ولأن القصيدة، كما أوضحنا، تتحدث عن ديمومة الألـم، كمكون من مكونات التجربة الإنسانية عبر العصور، فهي نقطة انطلاقنا هنا للأطلال على إبداعات مشابهة.

تذكرنا هذه القصيدة التي راجت في الشهور الأخيرة بقصيدة، راجت هي الأخرى في الشهور الأخيرة، كتبها أول أديب(روائي وشاعر) من سكان أميركا الشمالية الأصليين(الهنود الحمر) يحصل على جائزة بوليتزر للأدب، والشاعر هو نافار سكوت موماداي، الذي تكاد قصيدته، رغم شاعرية لاتنكر، أن تكون دليلا إلى ما يجب عمله وما يجب التفكير به، في زمن يمر بجائحة مثل زماننا هذا، وهي روح براغماتية يمكن أن تجدها، متناغمة مع الروح الشعرية أيضا، في قصيدة أوميرا التي سبق ذكرها، وفي أعمال شعراء عرب، مثل ابن الوردي الذي يزن الموت والحياة، في بيتين لهما أثرهما الباقي على مر القرون، بميزان عملي يكاد يحول الحياة والموت إلى حسبة نفعية خالصة، وإن لم تضعف هذه النزعة "المحاسبية" من الشحنة العاطفية التي يحملها البيتان. وسوف نعود إلى ابن الوردي.

عنوان قصيدة موماداي هو"في زمن الطاعون" وقد نشرتها نيويورك تايمز في 22مايو من العام 2020ضمن أكثر القصائد شعبية بين ما كُتِب عن الجائحة. وتقول القصيدة:

نبقى وراء الأبواب
وعندما نتجاسر على الخروج
نبقى حذرين. جيراننا
يبتسمون، لكن في عيونهم
الشك والحذر
يبقوْن بعيدين
ونبقى بعيدين، في توافق مكتوم.
مخاوفنا تبقى صامتة، في الغالب
فهناك، بالنهاية، ضغوط الاعتياد

سهولة الاعتياد على التعزي.
نحتمل أفكارا عن النهاية
ونقيس المسافة بيننا وبين الموت
والموت، بدوره، يرتدي قناعا.
ولكن تذكر أن في تعاستنا طيبات
ننعم بها إن استطعنا أن ندركها. إنها
تتخفى في ظلمات مخاوفنا.
فاكتشفها وتبين أنها الأمل
وما هو أكثر؛ إنها هدية المصادفة.
أمامنا الفرصة النادرة للانتصار
لنطرح حلا لتَجَدُّدِ العالم.
يمكن أن نصبح أفضل من كل ما سبق.
يمكن أن نُحَسِّن الحالة البشرية.
يمكن أن نتخيل ما هو ممكن
من رفاهٍ ونبالة، ثم نكدح لتحقيقه.
يمكننا الانتصار على الطاعون، والحرب، والفقر.
يمكننا أن نبقي على هدفنا المقدس. يمكننا
أن نقرر من نحن، في جوهر وجودنا
وما يمكن أن نكون عليه، نحن نلتزم بهذه الغاية
من أجل أنفسنا ومن أجل أولئك
الذين يأتون بعدنا. فلننهض بهذه المهمة
ولنكن جديرين بالمصير الأفضل

تنبهنا قصيدة موماداي، وهي تتحدث عن "الانتصار على الطاعون والحرب والفقر" بأن البشر حين تلم بهم جائحة، مهما كانت شدتها، لا يبقى اهتمامهم منصبا على مواجهة الجائحة، بل تقترن بالهموم التي تثيرها الجائحة هموم أخرى تتصل بضرورة البحث عن السلام والعدالة. ولهذا فنحن نتفهم كيف أن قصيدة أوميرا "هذا متجاوز للزمن ..." تثير قضية أخرى يصعب تجاهلها اليوم هي قضية حقوق المرأة. ، وهكذا نستعيد ما كتبته مطلع العام الماضي، وقبل ظهور وباء كورونا بشهور طويلة، ريبيكا أنيون على موقع سليت غروب SLATE GROUP، حول التجاهل الدولي لذكرى مئوية الانفلونزا الإسبانية، بعنوان»هل نسينا أن نحيي ذكرى الانفلونزا الإسبانية لأن الأدوار البطولية في مواجهتها كانت للنساء؟» وتحت هذا العنوان عنوان فرعي يقول:»صحيح أنها أعقبت الحرب الأولى، مباشرة، لكن قتلاها كانوا أكثر بكثير».

يبرز عنوان المقالة بعدا نسويا واضحا وهو ما قد نجده أيضاً في حقيقة أن القصيدة الأولى المحتفى بها «هذا متجاوز للزمن...» هي إبداع نسوي، أي تندرج ضمن إبداع الأقليات، كما أن قصيدة موماداي التي مررنا بها تنتمي، هي الأخرى، لإبداع الأقليات. وقد عادت أنيون لموضوعها، على الموقع ذاته، مطلع مايو من العام 2020بمقال يحمل العنوان» قتل الوباء الملايين في العام 1918، فلماذا تبدو أصداؤه الثقافية واهية هكذا؟»؛ وأهم من العنوان – مادمنا نتحدث عن بروز قضايا النسوية والأقليات العرقية، وسط أهوال المعاناة الدولية من كورونا – أن كاتبة المقال أحالت قراءها على كتاب إليزابيث أوتكا" الحداثة الفيروسية: "جائحة الانفلونزا وأدب ما بين الحربين (فضاءات الحداثة) Viral Modernism: The Influenza Pandemic and Interwar Literature (Modernist Latitudes) –2019".

وأهم ما في كتاب أوتكا أنه يلقي أضواء كاشفة على كتابات عمالقة مثل الشاعر (الأعظم في القرن العشرين) والناقد تي إس إليوت، ومثل الروائية العظيمة فيرجينيا وولف، والشاعر الحائز على جائزة نوبل، للعام 1923، وليم بتلر ييتس. وتوضح أوتكا أن هؤلاء وأمثالهم تفاعلوا مع مأساة الجائحة التي ضربت العالم في الفترة 1918–1920، ولكن على نحو غير مباشر. وتمزج أوتكا التحليل الأدبي بالكتابة التاريخية لتخلص إلى أن الانفلونزا الآسيوية لم يطوها النسيان، لكن وقعت

التغطية على ذكراها. لماذا؟ قدمت أنيون الإجابة في عنوان مقالها الأول، حين ذهبت إلى أن السبب هوأن النساء قمن بالدور الأهم في القضاء عليها. هي تعتبر أن الحرب كانت ملحمة البطولة الذكورية التي غطى ذكرها على ملحمة مكافحة الكورونا، ملحمة البطولة النسائية. صحيح هذا الزعم أم غير صحيح، يصعب تقرير ذلك هنا، لكن المهم أن هذه صرخة من كاتبة تعتنق النسوية مبدأ، وأن زمن الجائحة يتحول، في سرعة واضحة، إلى زمن الاحتجاج وربما التمرد.

ثم تستعيد أونيون قدرة الفيروس الذي ضرب العالم في العام 1918" كانت الانفلونزا تأتي بموت مخيف ومفاجئ: يظهر المرض في الصباح، ويمكن أن يسلب المصابَ كلَّ قدراته بحلول الليل، فلايأتي الصباح إلا وهو ميت. وبسبب الخواص البيولوجية لهذا الفيروس، كان نصف من ماتوا بسببه بين العشرين والأربعين من أعمارهم. وبعكس الفيروسات الأكثر شيوعا والتي كانت تقتل الشبان والكهول، فقد تركز أذى هذا الفيروس على الشباب من عاملين وجنود وسياسيين وأمهات وآباء لأطفال صغار –وهم الناس الأكثر انخراطا في قوة العمل. وربما بلغ عدد ضحاياه من الأميركيين، في العامين 1918و1919 حوالي 675 ألفا – وهو ما يفوق، بفارق هائل، قتلى معارك الحرب العالمية الأولى، الذين كان عددهم فوق 53 ألفا وأربعمائة واثنين.

1918 - الجائحة المنسية

ومن الغريب، تقول أنيون، أن يصدر "أول تقرير شامل" حول تلك الجائحة في الولايات المتحدة، وهو كتاب" الجائحة المنسية في أميركا America›s Forgot-ten Pandemic: The Influenza of 1918 by Alfred Crosby" الذي وضعه ألفريد كروسبي في العام 1967؛ وفقط بعد ظهور ذلك الكتاب، أي بعد عقود من الجائحة التي انتهت في العام 1920، بدأ المؤرخون يتساءلون في السر وراء ضعف الأثر الذي تركته تلك الجائحة في الثقافة الأميركية. وأغرب ما تنقله أونيون عن كروسبي هو قوله إن الجائحة لم تثر مخاوف الناس، لا في العام 1918 ولابعده، إذ انشغل الكل، من العامة والخاصة، بالحرب عن كل ماعداها، فلم يكتب عنها سوى قلة من الكتاب، على مدى العقود التالية، وكانت بينهم، في العام 1939، كاثرين آن بورتر في كتابها "الحصان الشاحب، الغريب الشاحب Pale Horse, Pale Rider by Kather-ine Porter–1939".

احتوى الكتاب ثلاث روايات قصيرة بينها "الحصان الشاحب ، الغريب الشاحب".وتتحدث القصة عن ميراندا التي ترى في المنام أنها تصحو من نومها لتنهض من سرير تعرف أنه ليس سريرها. تشعر أنها ترى ما يدور حولها بعيني عمتها التي ماتت. تقول لنفسها"هنا وُلِد الكثيرون؛ بكوا كثيرا هنا، وضحكوا كثيرا، وأعرب بعضهم لبعض عن الغضب والسخط"

ثم تستعيد ميراندا صورة من تصفه بأنه"غريب طويل ونحيل ومُخْضَرِّ البشرة، يدور حول المكان، ويرحب به جدها، ووالدة عمتها، وابن عم لها، وكلبها وقطتها الفضية اللذين دمرهما الكِبَرُ والإهمال. وتتساءل:"أين هو الغريب الآن؟" متذكرة أنها شاهدته أول المساء خارج النافذة".

لم تزل ميراندا تحلم. ترى نفسها وهي تنهض من السرير لتبدأ رحلة غامضة لكي "تسبق الموت والشيطان". تسأل نفسها أي حصان تمتطيه: غرايلي، أم فيدلر، أم الآنسة لوسي؟ ويقر قرارها على غرايلي"لأنه لايهاب اجتياز الجُسُور".

ينطلق الحصان بميراندا. يتجلى لها الغريب الذي كانت تستعيد صورته، فتراه بجوارها على ظهر حصان رمادي. للغريب «وجه شاحب» تعلوه «مسحة مُجْهَدَةٌ وشرية». تمعن ميراندا النظر في وجهه، فتدرك أنها رأته من قبل:» ليس هذا بغريب عني».

تصحو من نومها، وتتوجه لعملها كمحررة ثقافية، وهي وظيفة تتسبب لها بإرهاق دائم. يأتيها رجلان يحاولان إقناعها بشراء واحد من «سندات الحرية» لمساندة المجهود الحربي. ليس معها مال، لكنها إن لم تشتر السندات فسوف تفقد وظيفتها، فتعد بشراء واحد من السندات، فيما بعد. تضيق بالحرب وبما يتصل بها. تذهب مع صديقة لتقديم هدايا لجرحى الحرب في المستشفى. هي لاتجد معنى لذلك. تخرج مع الجندي الشاب آدم الذي يستأجر مسكنا مجاورا لمسكنها، والذي يقضي عطلة قصيرة، بعيدا عن وحدته العسكرية. يمران بعديد من الجنازات، لكنهما مصممان على ألا يتركا مأساة الانفلونزا أو مأساة الحرب تصيبهما بالقنوط. يمازحها آدم قائلا لها إنه قد يموت إن بعثوا به إلى الميدان، تجاريه ميراندا في مزاحه لكن قلبها ينقبض لأنه يبدو مستعدا للموت.

وكلما عادت لمكتبها شعرت بإجهاد شديد، بسبب كثرة ما يُطْلَب منها عمله، ولأنها تقضي وقتا طويلا مع آدم، ويقلقها أنها قد تتعلق بشاب سيذهب للحرب قريبا، ويمتلئ عقلها بالهواجس ولا تستبعد أن تموت قبله. وفيما كانت تهم بدخول المسرح لمشاهدة عمل يتعين أن تكتب عنه، فيستوقفها ممثل ساءه ما سبق أن كتبت عن أدائه، قائلا لها إن غيرها من النقاد امتدحوه وإن المشكلة هي في ذوقها الذي لم يرق لمستوى يسمح لها بإدراك تميز أدائه. لكنها لا تعبأ به. وداخل المسرح، تجد رجلا سمينا ينهض أثناء الاستراحة ويطلب من الناس دعم المجهود الحربي بأموالهم. يغضبها تسابق الناس على إظهار وطنيتهم.

يتزايد لديها الشعور بأن نهاية آدم وشيكة. لكنها هي التي تمرض ويأتيها آدم بالدواء. تحاول صاحبة البيت طرد ميراندا حتى لا تنتشر العدوى بين المستأجرين الآخرين. يقنعها آدم بأن لاتفعل ذلك ويعدها برعاية ميراندا حتى تتعافى. يبقى بجانبها وهي تهذي بسبب الحمى. تقول له إنها تحبه وتعلم أنه يحبها. ويُقَبِّلها، لأول مرة، غير عابئ بخطر العدوى. ويردد الاثنان أغنية «الحصان الشاحب، الغريب الشاحب»، وهي أغنية تتحدث عن وحدة كئيبة تمضي إليها حين يختطف الموت الأهل والأصدقاء. تغفو ميراندا، فترى في المنام أن آدم تقتله سهام تصيب صدره، وتتمنى لوأنها هي التي ماتت وليس هو. حين لايكون آدم بجوارها، يأتي الأطباء ليمضوا بها للمستشفي، وتخشى أن لا يعرف آدم مكانها.

المستشفى يغص بالمرضى، فتتمدد ميراندا على نقالة في الطرقة. يأتي آدم فيجدها نائمة، ويترك لها رسالة موجزة تقرأها عليها الممرضة. تُراوح ميراندا بين نوم ويقظة، وتعاودها الرؤى. تصحو على مشهد ميت يحمله الممرضون بعيدا، ويحل محله رجل يهذي. يغلبها النعاس، فترى في المنام أن طبيبها جاسوس ألماني يطعن رضيعا برمح وأن الممرضة تحولت أصابعها إلى عناكب، وتجد نفسها على حافة هاوية لا تملك الهرب منها. وفجأة تصبح الرؤيا جميلة، وتجد ميراندا نفسها في مرج أخضر يعلوه قوس فزح، باهر الألوان، ويقف أهلها وأصدقاؤها في انتظارها. تصحو لتجد الممرضة تحقنها بما ينقذ حياتها، قبل فوات الأوان.

تتعافى ميراندا وتضع الحرب أوزارها، لكن الشفاء يُشْعِرُها بالبهجة ولا انهاء الحرب يعنيها. تتمنى لو أنها

أوقعت الأنفلونزا ضحايا في أبعد الأصقاع، كما تشهد بذلك قبور عمال مناجم قضوا بمستعمرة نرويجية نائية.

لم تتعاف، لو أنها عادت إلى المرج الجميل،لكنها تتظاهر بالفرحة بالشفاء حين يأتي زملاؤها لأداء واجب الزيارة والتهنئة بالتعافي. تصلها رسالة تبلغها بأن آدم أصيب بالانفلونزا ومات في مستشفى عسكري. تومض ذكراه في عقلها وتملأ كيانها بنور سرعان ما يخبو وتنتهي الرواية بأن تمتثل ميراندا لضرورة مجاراة الحياة والأحياء بالتظاهر بأنها سعيدة بالنجاة، في حين أن بداخلها يقينا بأنها سوف تبقى، دائما، شديدة الرغبة في الموت وفي العودة إلى المرج الأخضر.

توقفنا أمام هذه الرواية القصيرة التي تعرض لأجواء المعاناة الإنسانية بسبب الانفلونزا الإسبانية، وهي رواية ظهرت مع روايتين قصيرتين أخريين في العام 1939 حين كانت البشرية «تجد نفسها على حافة هاوية لا تملك الهرب منها» قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية. ومن أهم أسباب اهتمامنا بهذه الرواية أنها ترسم صورة مؤثرة للأحوال إبان انتشار تلك الجائحة، وأنها تتصل بالبعد النسوي الذي ركزت عليه ريبيكا أونيون، وأنها تتخذ موقفا نقديا من الحروب التي تنفجر بدعوى الوطنية وتلهي الناس عن أخطار أشد وأبعد مدى. وسوف يتبين القارئ، في ما يلي من فصول، كيف أن أفكارا وتوجهات كهذه تكتسب الآن مزيدا من القوة مع تعاظم مأساة الإنسانية بفعل تشابك جائحة الكورونا مع جوائح سياسية وعسكرية وثقافية تضغط على عالمنا المعاصر.

ويتعين علينا الآن أن نعود إلى رواية ظهرت في القرن العشرين ورسمت صورة للطاعون قد تكون هي الأبقى أثرا بين كل الصور التي رسمتها الأعمال الأدبية في ذلك القرن، وتلك الرواية، كما سبق وقلنا هي رواية الحائز على جائزة نوبل للأدب البير كامي، «الطاعون».

رعب التسعينات

وإذا كانت الانفلونزا الآسيوية التي عرضت لها بورتر في الرواية القصيرة التي تحدثنا عنها، وهي الجائحةُ الأكثرُ شراسة في القرن العشرين، جائحةً منسيةً، فربما كانت جائحة نقص المناعة المكتسبة، إيدز، هي الأوضح في ذاكرة القرن العشرين. ومن أشهر القصائد التي ارتبطت في أذهان الناس، في مختلف أنحاء العالم، بتلك الجائحة قصيدة بالغة القصر كتبها في صيف العام 1982الشاعر المثلي تيم دلوغوس، الذي اختلطت في أعماله الشعرية مؤثرات شوارعية ونخبوية، والذي أرجع أحد النقاد قدرة شعره على اجتذاب قراء كثيرين إلى «سحر غير مسؤول» تميز به هذا المثلي الذي قتله مرض نقص المناعة المكتسب حين كان يدرس اللاهوت استعدادا للعمل كقس في الكنيسة الأسقفية.

وفي قصيدة دلوغوس ما يذكر القارئ بتفصيلات بالغة الأهمية وردت في رواية بورتر»الحصان الشاحب، الغريب الشاب» وهي تلك التفصيلات المتصلة بالترحيب بالموت، سواء عند من انتصر عليهم الموت الذي رحبوا به عند الشعور باقترابه منهم واستعداده للوثوب عليهم، أو عند البطلة التي بقيت حية بعد المأساة المزدوجة، مأساة اقتران الحرب بالجائحة، ولكن ماعايشته من مآس أضعف قدرتها على تذوق حلاوة النجاة، وأضعف ثقتها في احتمال أن تمضي بها الحياة إلى «المرج الجميل». عنوان القصيدة هو «مماتي MY DEATH. By Tim Dlougos":

بعد أن لم يعد بمقدوري
أن أشعر بأنفاسه
نازلة على عنقي، فهاهو يوشك أن يدور
حول زاوية الطريق (ياهلا بالجار)

والإيجاز في هذه القصيدة يذكرنا بما كتبه ابن الوردي، إبان جائحة ألمت بمصر والشام، وتركها في رسالة، وهي من بيتين، يمثلان أربعة سطور، كما في قصيدة دلوغوس:

ولست أخاف طاعونا كغيري
فما هو غير إحدى الحسنيين
فإن مت استرحت من الأعادي
وإن عشت اشتفت أذني وعيني

وهناك من تشكك في صحة قول ابن الوردي "اشتفى"، وهو فعل ماض لم نألفه نحن أبناء وبنات القرنين العشرين والواحد والعشرين، فظن أنه من ركاكات العصر المملوكي الذي عاش فيه هذا القاضي الأديب؛ لكن القاموس المحيط يوضح أن ابن الوردي استخدم اللفظ استخداما صحيحا ولم يكن اللفظ مشتقا على غير أساس لغوي. وسنعود لابن الوردي في حينه.

ونعود إلى قصيدة دلوغوس، فنقول إنه برغم ما يقوله النقاد الذين احتفوا بهذه القصيدة من أنها إشارة إلى إدراك الشاعر باقتراب الموت الذي اختطفه، بعد نشره قصيدته بثمانية أعوام، فنحن نرى أن الأمر لايتصل بإدراك للمستقبل بقدر ما يتصل بإدراك لحقيقة الخطر المحيق بالشاعر لأنه عاش حياة انفلتت من كل قيد، سواء من حيث علاقاته الجنسية أو من حيث إفراطه في تعاطي المشروبات الكحولية، فهل كان التحاقه بكلية اللاهوت في جامعة ييل خطوة باتجاه سلوك حياة مختلفة؟ لا ندري. لكن من المؤكد أن قصيدته القصيرة هي ومضة ضوء تغشى به أبصار قرائها، لأنها تصور لحظة اتصال بالموت الذي ينزل من علٍ، فتنزل أنفاسه على العنق الذي يوشك أن تلتف حوله مشنقة لامهرب منها.

وبحسب الغالبية الساحقة من الكتابات النقدية حول رواية كامي فهي تنظر للمجتمع الإنساني باعتباره سوق الغرور، أو مهرجان الخيلاءVanity Fair، على النحو الذي انتقده ونهى عنه وقدم نقيضه الكاتب الانكليزي جـون بانيان، في مجلدين حملا العنوان "مسيرة المتقين"Pilgrim›s Progress، وظهرا في العامين 1678 و1684، وقدما رؤية رمزية للكيفية التي يتعين أن يحيا بها الإنسان الطيب. وبلغ هذا العمل من النجاح درجة جعلت قراء الانكليزية يضعونه في المرتبة الثانية بعد التوراة. وفي القرن التاسع عشر، في ذروة الغرور الفيكتوري الذي أسس لامبراطورية دانت لها جباه العالمين من كافة الأجناس، وافتتحت فيها بريطانيا السباق على تمزيق أوصال إفريقيا وتوزيع أشلائها على وحوش الكولونيالية كان الناس في بريطانيا وغيرها من عواصم الكولونيالية يقرأون رواية كتبها وليم ثاكري، ونشرها مسلسلة بين العامين باسم Vanity Fair وسخر فيها من نزعة الاستعلاء والغزو والضم التي تجسدت في الحروب النابوليونية؛ وهنا أيضا تصوير للمحتمع البشري كسوق للخيلاء وتصوير للبشر باعتبارهم قراقوزات، او دمى، يلعب بها اللاعبون من وراء ستار. وإذا كان البعد الديني هو الأوضح عند بانيان فقد مال ثاكري إلى تصوير الحضارة البشرية باعتبارها ملعبا كبيرا يتسابق على ساحته الأثرياء والمغرمون بالمظاهر عموما والموضات، على وجه التخصيص ومن هنا اتخذت مجلة Vanity Fair التي بدأت بالظهور في العام 1983،ومطبوعات أخرى، لنفسها هذا الاسم.

لكن كامي في رواية الطاعون هو الذي يعتبر أن مصدر الوباء القاتل هو غرور المجتمع المعاصر(كما تقول غالبية نقاده، وربما كل نقاده) وانشغاله بالمال والعبث عن الأخطار التي تتهدد وجودهم. لكن كاتب هذه السطور يرى في هذه الرواية تحذيرا من كاتب فرنسي ولد في الجزائر، في العام 1913، تحذيرا موجها للمستوطنين البيض في مختلف أنحاء العالم من أن خطر ا هائلا يكمن تحت تراب الأرض الغريبة – أرض الآخرين – التي تطؤها أقدامهم، وهو خطر يستعد دوما للوثوب عليهم، صاعدا لهم من تحت التراب ونازلا عليهم مع عدوهم الأشد ضراوة: الشمس التي لا ترحم. وهو لا يذهب إلا ليعود ولا يكمن إلا ليستعد لوثبة جديدة، حتى ينتهي عرض الخيلاء الذي انغمسوا فيه(في الحالة الجزائرية) منذ العام 1830. وهذا التحذير هو أكثر صراحة وانكشافا في روايته التي نال عليها جائزة نوبل للأدب"الغريب" حيث العدو ليس العربي البائس الذي يقتله بطل الرواية، بل هي الشمس التي تفقده توازنه لأنه لم يولد لكي يعيش تحتها.

والمهم هو أن الجائحة المخيفة في رواية "الطاعون"، و الاغتراب والجريمة المرتبطة بالاغتراب والناشئة عنه في رواية "الغريب" يأتيان ضمن إطار هيمنة الشواغل الاجتماعية والثقافية والسياسية على كل شئ، حتى على أسلوب البشر في مواجهة خطر يهدد حيواتهم. وفي مجمل الأعمال التي تعالج المأساة الإنسانية في كل العصور، في القرنين الواحد والعشرين والقرن العشرين الذي سبقه، ستجد الهموم الاجتماعية والثقافية والسياسية أكثر هيمنة على حياة الناس حتى من حرصهم على حياتهم.

أما في كتاب جيوفاني بوكاشيو فسوف تلمس الأصول الثقافية لمجتمع الغرور والخيلاء، فالقصص المئة تفيض سعادة بالطيبات والنِّعَم التي جادت بها الرأسمالية التجارية على أهل فلورنسا وغيرها من المدن الإيطالية التي وضعت أسس حضارتنا الإنسانية الراهنة، بميزاتها وعيوبها، ووضت معها أسس مجتمع الخيلاء والاغترار بالقوة المادية وبمظاهرها البراقة؛ ومن هنا استحق كتاب

بوكاشيو اسم "الكوميديا الإنسانية"، كنقيض لأهم عمل أدبي بالإيطالية وأحد أهم الأعمال الأدبية في تاريخ الإنسانية وهو كتاب"الكوميديا الإلهية" الذي انتهى منه دانتي الليغييري في العام 1320، قبل وفاته بعام واحد.

شعرية المرض عند العرب

ما قلناه عن ابن الوردي ينقلنا للمعالجات العربية عموما ، وإن توقفنا الآن عند معالجات القرن العشرين، لأحوال الناس في مواجهة الوباء، على أن نعود إلى المعالجات العربية عند مؤرخي القرن الخامس عشر، وعند الأستاذ الأكبر عبد الرحمن بن خلدون (1332-1406). ويستعيد كبار المثقفين ومعهم المعلقون والصحافيون، هذه الأيـام، ماكتبه الشعراء العرب القدامى عن الجوائح. ويستعيد بعضهم ما كتبه المتنبي عن الحمى، وما كتبه عنها في القرن العشرين الشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير مؤلف رواية «واإسلاماه» التي احتفت بها الثقافة العربية في الخمسينات والستينات أيما احتفاء. ويضيف كتاب ظهر في العام 2018، سنتوقف عنده) إلى هذه القائمة قصيدة خليل مطران عن ضعيفين استبدا به، هما المرض والحب، واضعا نفسه في إطار التشكي والوهن المميزين لكثرة من أشعار الرومانسيين الغربيين. ويذكر جابر عصفور في مقالة له بعنوان» شعرية المرض» قصائد لبدر شاكر السياب وأمل دنقل وحلمي سالم.

لكن قصيدة كتبتها نازك الملائكة المولودة في العام 1923 والمتوفاة في العام 2007،هي الأكثر اتصالا بموضوعنا. وقد صورت نازك الملائكة في قصيدتها هذه أحوال مصر حين اجتاحتها الكوليرا في العام 1947. تقول القصيدة، تحت العنوان، « سكن الليل»:

أصغِ إلى وَقْع صَدَى الأنَّاتْ
فى عُمْق الظلمةِ، تحتَ الصمتِ، على الأمواتْ
صَرخَاتٌ تعلو، تضطربُ
حزنٌ يتدفقُ، يلتهبُ
يتعثَّر فيه صَدى الآهاتْ
فى كل فؤادٍ غليانُ
فى الكوخِ الساكنِ أحزانُ
فى كل مكانٍ روحٌ تصرخُ فى الظُلُماتْ
فى كلِّ مكانٍ يبكى صوتْ
هذا ما قد مَزّقَهُ الموتْ
الموتُ الموتُ الموتْ
يا حُزْنَ النيلِ الصارخِ مما فعلَ الموتْ
طَلَع الفجرُ
أصغِ إلى وَقْع خُطَى الماشينْ
فى صمتِ الفجْر، أصِخْ، انظُرْ ركبَ الباكين
عشرةُ أمواتٍ، عشرونا
لا تُحْصِ أصِخْ للباكينا
اسمعْ صوتَ الطِّفْل المسكين
مَوْتَى، مَوْتَى، ضاعَ العددُ
مَوْتَى، موتَى، لم يَبْقَ غَدُ
فى كلِّ مكانٍ جَسَدٌ يندُبُه محزونْ
لا لحظَةَ إخلادٍ لا صَمْتْ
هذا ما فعلتْ كفُّ الموتْ
الموتُ الموتُ الموتْ
تشكو البشريّةُ تشكو ما يرتكبُ الموتْ

الكوليرا
فى كَهْفِ الرُّعْب مع الأشلاءْ
فى صمْت الأبدِ القاسى حيثُ الموتُ دواءْ
استيقظَ داءُ الكوليرا
حقْدًا يتدفّقُ موْتورا
هبطَ الوادى المرِحَ الوُضّاءْ
يصرخُ مضطربًا مجنونا
لا يسمَعُ صوتَ الباكينا
فى كلِّ مكانٍ خلَّفَ مخلبُهُ أصداءْ
فى كوخ الفلاّحة فى البيتْ
لا شىءَ سوى صرَخات الموتْ
الموتُ الموتُ الموتْ
فى شخص الكوليرا القاسى ينتقمُ الموتْ
الصمتُ مريرْ
لا شيءَ سوى رجْعِ التكبيرْ
حتّى حَفّارُ القبر ثَوَى لم يبقَ نَصِيرْ
الجامعُ ماتَ مؤذّنُهُ
الميّتُ من سيؤبّنُهُ
لم يبقَ سوى نوْحٍ وزفيرْ
الطفلُ بلا أمٍّ وأبِ
يبكى من قلبٍ ملتهِبِ
وغدًا لا شكَّ سيلقفُهُ الداءُ الشرّيرْ
يا شبَحَ الهيْضة ما أبقيتْ
لا شيءَ سوى أحزانِ الموتْ
الموتُ، الموتُ، الموتْ
يامصر شعوري مزقه ما فعل الموت.

هذه القصيدة التي تعتمد وحدة التفعيلة تقف بنا، إن جاز التعبير، على ساحل بحر الخبب، من حيث اعتمادها على تفعيلة «فعلن» التي تضرب سمع القارئ ووجدانه فيبلغه وقع خطى الموت وهو يجوس خلال الديار المصرية، في أيام الكوليرا من العام 1947ميلادية. وتكاد تكون كلمات نازك الملائكة، وهي تصف كيف كتبت قصيدتها وما تناهى إلى سمعها من وقع حوافر الخيل التي تجر عربات محملة بالجثث، تفسيرا لاختيارها هذه التفعيلة الصاخبة. تقول نازك الملائكة:

«نشرتها يوم 27/ 10/ 1947 وأرسلتها إلى بيروت، فنشرتها مجلة العروبة في عددها الصادر في أول كانون الأول 1947 وعلقت عليها في العدد نفسه «وكنت نظمت تلك القصيدة أصور بها مشاعري نحو مصر الشقيقة خلال وباء الكوليرا الذي داهمها وقد حاولت فيها التعبير عن وقع أرجل الخيل التي تجر عربات الموتى من ضحايا الوباء في ريف مصر. وقد ساقتني ضرورة التعبير إلى اكتشاف الشعر الحر».

نقل هذا التوضيح الدكتور سعيد شوقي في كتابه» الأدب المقارن – من الأطر النظرية إلى الدراسات النصية – 2018». وقد عالج الكاتب قصيدة نازك صادق الملائكة – الأستاذة السابقة بجامعة الكويت – في فصل يحمل العنوان» قصيدة كوليرا لنازك الملائكة وقصيدتا كوليرا أجنبيتان(دراسة مقارنة). وفي هذا الفصل قارن بين هذه القصيدة وبين قصيدتين، إحداهما لشاعرالامبراطورية البريطانية روديارد كيبلينغ، والأخرى لِقِسٍّ من لانسبيرغ، وهي قرية في شمال ولاية نيويورك. لكن الدكتور سعيد شوقي أخطأ في ترجمة لقب قس minister وهو لفظ يترجم إلى قس أو كاهن، كما يترجم إلى وزير ، فاختار الدكتور سعيد شوقي أن يترجمه إلى وزير (وهي الترجمة الشائعة للفظ) ناسيا أنه في الولايات المتحدة وفي

بريطانيا التي استلهم الأميركيون نظامهم السياسي من بنيتها التي كانت قائمة أيام ملكها جورج الثالث، لا يوجد وزراء؛ فكل أعضاء الحكومتين يحملون، إلى اليوم، لقب سكرتير: سكرتير الدولة، أو كاتب الدولة، الذي نترجمه نحن العرب إلى وزير الخارجية، وسكرتير الدفاع الذي نترجمه إلى وزير الدفاع، وما إلى ذلك.

في قصيدة نازك الملائكة التي يعالجها سعيد شوقي، كما في كل إبداع عالج الجائحات، ستجد البشر، على عمق إحساسهم بهول الكوارث التي يَخُضْنَ غمراتها، حريصين على مواصلة النضال من أجل حياة أفضل. وليست نـازك الملائكة استثناء من ذلـك. الجائحة دفعتها إلى التأسيس لمرحلة جديدة في تاريخ الإبداع العربي صار اسمها "الشعر الحر" الذي انضوى تحت لوائه بعدها عمالقة مثل بدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور وأحمد حجازي ومحمود درويش وغيرهم. وفي سرد أكثر إسهابا للسياق الذي انتهى بها إلى كتابة هذه القصيدة، توضح نازك الملائكة كيف أن ما كان يبلغها من أخبار الكوليرا، وما كانت تعايشه من أصدائها، ظل يتنقل بها من نص شعري للآخر، ومن إيقاع لإيقاع حتى انتهى بها الأمر لهذا الإيقاع الذي جسد وقع أقدام الخيل وهي تمشي خببا، محملة بأكداس من جثث الموتى. ووسط هذه الظلمات انبثق نور الشعر الحديث، بكل عظمة شعرائه الذين أشرنا إلى أفضلهم، بإجماع غالبية النقاد والشراح. من قلب الظلمة(ونستعير هنا اسم رواية جوزيف كونراد الشهيرة) تنبثق الأنوار. وقد لخصت جريدة الاتحاد الإماراتية هذا السياق بقولها" مرضت مصر بالكوليرا، فتعافت القصيدة"(الاتحاد، الملحق الثقافي- 2 يونيو 2010). ونحن نرى هنا الهيغلي الذي يتفاعل فيه الشئ(الحياة) مع نقيض الشئ(الوباء) ليولد مركب الشئ(الحياة الأكثر ثراء).

لكن هذا القول يتصل بالسياق التاريخي ولا يتصل بسياق القصيدة، ولا يتصل بمعالجتها لمأساة الكوليرا. ويهمنا في المقارنة التي عقدها الناقد بين قصيدة نازك الملائكة وبين القصيدتين المكتوبتين بالانكليزية، ما ورد في النقطتين الثالثة والرابعة، من النقاط الخمس التي غطتها المقارنة، وهي: مقارنة خلفيات الشعراء؛ مقارنة سياقات النصوص؛ مقارنة النصوص، من حهتين، من حيث المضمون؛ ومن حيث البنية.

في ما يتصل بالنقطة الثالثة وهي نقطة السياقات، يخلص الدكتور سعيد شوقي إلى أن نازك الملائكة، مقارنة بالشاعرين البريطاني والأميركي، كانت هي الأقل اتصالا بالتجربة التي صورت عذاباتها في قصيدتها. وهذا قول خاطئ تماما. فالشاعر الانكليزي روديار كيبلينغ الذي عمل بالصحافة في الهند، غادرها في العام 1889 قبل عام من نشر قصيدته هذه في مجموعة شعرية باسم مواويل غرفة في الثكنة Barrack-Room Ballads، كان ناشرها هو بيتر بوبر بريس في نيويورك، في العام 1990.

وبناء على ما ذكره تشارلز كارينغتون في كتابه "روديارد كيبلينغ: حياته وأعماله"(Carrington Charles, His Life and Works-1955) فقد كتب الشاعر البريطاني هذه القصيدة وهو بعيد عن الهند البريطانية وعن مخيمات جنود الامبراطورية فيها بآلاف الأميال، في فيرمونت الأميركية مع عروسه التي هرب بها من وجه الوباء في لندن. أما القصيدة "الأجنبية" الثانية فهي لشاعر مجهول، ويوحي نصها وموقف السلطات السياسية والكنسية الأميركية منها بأنها كانت أشبه بمنشور توعوي، شأنَ قصيدتي كيتي أوميرا ومومادای، في بعض جوانبها، وإن لم تتصف بجماليات هاتين القصيدتين الأحدث والأكثر فردانية في روحهما وتعابيرهما.

عـاش كيبلينغ حياته مدافعا عن الامبراطورية البريطانية، ما أهله للقب "نبي الامبريالية البريطانية» الذي خلعه عليه جورج أورويـل، ما يقرب نصه إلى نص القس المجهول، الذي عينه سعيد شوقي وزيرا. أما نازك الملائكة، فباعتبارها من سكان القاهرة آنذاك، حيث الخدمات الطبية أقل كفاءة، بكثير، من تلك التي تمتع بها سكان فيرمونت ولانسنبيرغ وغيرهما من بلاد الغرب، وحيث السلوكيات أقل انضباطا، فلاشك أنها كانت في دائرة الخطر، وأن تعاطفها مع ضحايا الوباء لم يكن بعيدا عن احتمالات وقوعها هي ذاتها بين فكي وحش الكوليرا. وهذا يدلنا على مكونين من مكونات المضمون: التعاطف مع الجيران القريبين والبعيدين من أهل البلد المنكوب؛ وخوف الشاعرة من أن تلقى ذات المصير الذي لقيه غيرها.

لكن هذا لا يلغي وجود مكون ثالث، لاشخصي بالمرة، تضافر مع شعور نازك الملائكة بالخطر، ومع تعاطفها مع جيرانها، وهو الحس السياسي الذي يجسده، داخل القصيدة الحديث عن «النيل» و «الوادي»، ثم قولها في آخر سطر: يامصر شعوري مزقه ما فعل الموت». وبالوقت ذاته، فذلك الموقف السياسي يجسده، من خارج القصيدة، أن الشاعرة أرسلتها إلى مجلة بيروتية يتضح توجهها السياسي من اسمها: العروبة. وهذا بالضبط هو الإطار الذي يحتوي تعاطف الشاعرة مع جيرانها: الروح العروبية.

عربية باريسية

لكن هناك تقريرا آخر عن الوباء في مصر في ذلك العام عرضته الروائية الفرنسية آندريه شديد التي كانت مصرية المولد والنشأة ولبنانية الأصل، وماتت منتحرة في باريس، في روايتها التي حولها المخرج يوسف شاهين لفيلم سينمائي شهير احتفظ باسم الرواية، وهو «اليوم السادس» الذي يعرض لأحوال الريف المصري في زمن الكوليرا في أربعينات القرن العشرين.

في مفتتح روايتها تنقل أندريه شديد عن محاورة أفلاطون «غريغورياس» ما يمكن اعتباره تلخيصا لجوهر ما تسرده في روايتها. وهذا الذي أوردته آندريه شديد بالفرنسية منقول عن اليونانية، وقد أعاد المترجم المصري حمادة ابراهيم ترجمته إلى العربية، ليأتي على النحوالتالي:استمع...ستظن أن هذه أسطورة، ولكنها في رأيي رواية منقولة؛ فاستمع إلى ما سأتلوه عليك عنوان الحقيقة.

وهذه ترجمة لا بأس بها؛ لكن مدلول كلمة recit في الفرنسية تعجز عبارة"رواية منقولة" عن توصيله للقارئ العربي. فهذه الكلمة، كما قال الطبيب والناقد الشهير روجر شاتوك، هي سردية تشد الانتباه إلى محتواها. وتُشْعِرنا، ونحن ننصت إليها، بأننا على مسافة خطوة واحدة من الحدث". وما يريد قوله إفلاطون، وما تريد قوله، من بعده بعدة قرون، آندريه شديد، هو ما أشار إليه إيريك سيبلين عندما تحدث عن ماري آنطوانيت والجوعى والكعك؛ المقصود هو أن الحكاية تقدم جوهر الحقيقة، وربما بأدق مما يقدمها تسجيل يومي للأحداث. ونضيف نحن: وهذا هو سر قوة الإبداع الأدبي.

ويمكن أن نلخص رواية آندريه شديد على النحو التالي: في قلب عذابات الكوليرا يتمسك الأهل بعضهم ببعض، يرفضون أن يستجيبوا للسلطات التي تريد أن تنتزع من أحضانهم كل من تشك في إصابته بالمرض، حتى تحمي الآخرين من العدوى. وعلى رغم أن الحماية هي الهدف الواضح من هذه الإجـراءات، فالقرويون يرفضونها، لأنهم يرفضون كل ما يصدر عن سلطة لايثقون

ممرضات خلال أزمة الإنفلونزا الإسبانية عام 1918

بها. يضمون صفوفهم، تتشابك أيديهم، تتراص أكتافهم، في انتظار أن تنزاح الغُمَّة، في انتظار اكتمال مجد الرب في اليوم السادس. ويتخطفهم الموت لكنهم يبقون على تماسكهم وتراصهم.

وعندما تظهر علامات الإصابة بالكوليرا على حسن ترفض جدته «صِدِّيقَة» التي صار اسمها أم حسن، لأن حفيدها هذا هو محور حياتها وحياة زوجها البائس، يطلب إليها أحد المدرسين أن تمضي به للمستشفى، لكنها ترفض ذلك وتمضي به للنيل، للمياه القادرة بظنها على أن تطهره من الوباء، وهناك تبقى معه منتظرة اليوم السادس.

واليوم السادس هو يوم اكتمال ملكوت الرب. ففي سورة الأعــراف»إن ربكم هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش»؛ وفي سفر التكوين في التوراة:»ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا. وكان مساء وكان صباحٌ يوما سادسا». وبالنهاية، في اليوم السادس، تموت الجدة وهي تسمع صيحات تقول لها عن حفيدها الذي رأته يموت، إن الصغير لم يمت. ويكون هذا في اليوم السادس، بعد أن أكمل الوباء عمله واكتسح القديم ليفسح المجال للجديد.

التعاضد والتعاون في هذه الرواية مرتبطان بنفور عميق من السلطة. تجد هذا من بداية الرواية، ويتجسد الموقف السلبي من السلطة في هذا الحوار بين «صِدِّيقة» وبين القروي «صالح»:

... يدخل الممرضون المنازل بالقوة فيأخذون أمتعتنا ويحرقونها، ويحملون مرضانا ويذهبون.

- إلى أين؟
- لايخبروننا بذلك مطلقا

- لقد علمت أخيرا أين حبسوا والدي وأخي؛ تحت الخيام. لقد ذهبت إلى هناك،ولقد طاردونا أول الأمر بالهراوات، ولكننا كنا نعود إليهم ونحن نصيح، أمي وأنا، بأسماء ذوينا حتى يعلموا أننا لا نتخلى عنهم.

وهكذا، فالهم السياسي، همُّ انعدامِ الثقةِ بالسلطة هو الأوضح والأشد قوة، في الجو المأسوي لرواية آندريه شديد، حتى من هموم هؤلاء الناس، المؤمنين بالقضاء والقدر، تلك الهموم التي نشأت عن خطر الوباء القاتل. وهذا الموقف من السلطات الصحية الخاضة لسلطات أجنبية عرفته القرى المصرية –وربما عرفته الأحياء الشعبية في المدن وأحياء الصفيح على هوامشها – في بواكير الخمسينات بعد أن زالت الهيمنة الأجنبية وورثت السلطات المحلية بعضا من تعاليها وقسوتها.

ونحن لاننظر هنا في أدب آندريه شديد بعامة، بل نركز على المعالجات العربية (وإن بلغة غير العربية) لظروف الوباء في بلادنا. تقول الباحثة الأميركية إن مأساة «صديقة» بطلة اليوم السادس هي مأساة امرأة تعيش اضطهادا دينيا وتهرب من يلات الحرب. ونقول نحن إن هذه الشخصية كبقية شخصيات الرواية – من رجال ونساء، من كبار وصغار، وباستثناء بعض المتعلمين– هي شخصيات تعيش مأساة لا يجد الناس فيها القدرة على الثقة بمن يفترض بهم أن ينقذوهم، ليس لعيب في الناس فقط، ولكن لعيوب أخرى تعاني منها السلطات، فيلجأون للغيبيات، وتكون النتيجة خسران المعركة مع الوباء.

الحكيم والانفلونزا الإسبانية

وننتقل الآن إلى رواية عربية رسمت صورة للحياة في مصر أيام الانفلونزا الإسبانية، وهي رواية توفيق الحكيم»عودة الروح».

تبدأ الرواية بسطور من «كتاب الموتى»، تقول:

عندما يصير الزمن إلى خلود

سوف نراك من جديد

لأنك صائر إلى هناك

حيث الكل في واحد

يرتكب توفيق الحكيم خطأ بسيطا حين يقول إن السطور مأخودة من نشيد الموتى، وهي بالحقيقة مأخوذة من واحد من أناشيد كتاب الموتى. أما الخطأ الأكبر فهو توظيف الحكيم لفكرة»الكل في واحد» للتعبير عن رؤيته لحدث سياسي هو انتفاضة العام 1919 المصرية، وهو ككل حدث سياسي أخر أمر عابر، لا يتناغم مع أبدية الرؤى التي يطرحها «كتاب الموتى». اعتبر توفيق الحكيم أن روايته يتلخص جوهرها في السطور التي صَدَّر بها الكتاب، ثم فَصَّل ما يقصده فيما ورد داخل النص. والمفهوم من الرواية أن الشعب وجد نفسه، أو عاش لحظة البعث، حين انصهر بكل عناصره في انتفاضة 1919 الثورية التي صعد بها السلطان فؤاد إلى مرتبة الملكية فصار فؤاد الأول، وانتقل بها الاحتلال البريطاني من حماية فاقدة للشرعية إلى قوة موجودة في البلاد بناء على علاقة تفاوضية انتهت في العام 1936باتفاقية منحت الوجود البريطاني شرعية كان يفترض أنها ستمتد إلى خمسين عاما تالية، لولا التطورات التي شهدتها مصر والعالم بعد الحرب العالمية الثانية واضطرار بريطانيا للجلاء في العام 1956. لكن أسوأ ما أسفرت عنه الرواية كان إضفاء الطابع الميتافيزيقي على الثقافة الوطنية وتأليه الزعامات السياسية من سعد باشا زغلول إلى الرئيس جمال عبد الناصر.

وهكذا أُسيء فهم السطر الذي يقول» حيث الكل في واحد» ليصبح تبشيرا بزعامة يذوب فيها كيان أمة بكاملها،

وإن كان المقصودبذلك السطر، في النص الديني القديم الذي نُقِل عنه، وقد نقول انتُزِع منه، أن البشر يصبحون، يوم يكون النشور، كيانا واحدا ينصهر في الذات الإلهية. وهذا هو المعنى الذي بشرت به المسيحية حين قالت «يستسلم المسيح للآب، وعندها يكون الرب هو «الكل في الكل» "، كما أوضح القس كلارنس لاركين في كتابه" سفر الرؤيا".

لكن ما يعنينا هنا، في المقام الأول، هو أن الرواية تبدأ بهذه الفقرة التي تبين، بكل جلاء، أن الهم السياسي طغى على الشعور بالخطر الذي هدد الجماعة البشرية في كافة أقطار الأرض وبينها مصر، خطر الانفلونزا الإسبانية. وهذا يذكرنا بما سبق أن ذكرناه عن انشغال الناس في الولايات المتحدة وفي غيرها من الأقطارعن الجائحة بالحرب. يقول توفيق الحكيم عن المجموعة الرئيسية في روايته، مشيرا إلى تلك المجموعة باسم"الشعب":

"أصابتهم كلهم في عين الوقت الحمى الإسبانيولية، وعادهم الطبيب. فماكاد يقع بصره عليهم حتى دهش: قاعة واحدة اصطفت فيها خمسة أَسِـرَّة "عيار بوصة وربع" اصطف الواحد منها بجانب الآخر. وخزانة واحدة كخزائن الخطاطين مخلوعة إحدى عارضتيها، فيها ثياب على كل لون ومقاس؛ وبعضها ملابس بوليس رسمية بـأزرار نحاسية. وآلة موسيقية بمنفاخ عتيقة ..."هارمونيكا" معلقة بالحائط...

-أعنبر في ثكنة؟

في نهاية هذا المشهد يُسْتأنفُ السرد:

ما يحملهم على هذا الحشر وفي الشقة غرفة أخرى، حجرة الاستقبال على الأقل؟ وسألهم في ذلك فأجابه صوت ارتفع من أعماق السرير:

- مبسوطين كده!

لُفِظَت هذه العبارة بلهجة صادقة بل عميقة...يدرك المتمعن فيها سرورا داخليا بهذه المعيشة المشتركة. ولو استطاع أحد لقرأ على وجوههم الباهتة ضوء سعادة خفية بمرضهم معا، خاضعين لحكم واحد، يُعْطَوْن عين الدواء، ويَطْعَمون عين الطعام، ويكون لهم عين الحظ والنصيب."

وإن لاحظ قارئ الرواية أن كلمة الحشر التي أوردها الكاتب في عبارته التي تقول "ما يحملهم على هذا الحشر" هي كلمة ذات دلالة دينية تتضح، بدرجة أكبر، عندما يتحدث عن تجدد الروح المصرية أو انبعاثها، حين اتحد الكل في الانتفاضة الثورية وفي شخص سعد باشا، فلابد وأنه سيلاحظ أن الهم السياسي يطغى على كل هم آخر، وأن الحشر سيتحول إلى احتشاد حول فكرة الثورة أو حول شخص الزعيم، وكلاهما واحد. يطغى الهم السياسي على هم الجائحة التي هي كارثة مؤقتة لابد وأن تزول، كما يطغى على أمور باقية بقاء النوع البشري، وهي العواطف الإنسانية، وأهمها الحب بمعناه الواسع غير المرتبط بالضرورة بعلاقة بين رجل وامرأة أو بين الإنسان وأسرته وأصدقائه. وهذا مايحدث حين يطلب المدرس من الصبي الذي هو بطل القصة أن يختار موضوعا يتحدث فيه إلى زملائه في الصف، فيختار الصبي أن يكون الموضوع هو الحب فيَدْهَشُ الطلاب وتثور ثائرة المدرس، ويُسْمِع الصبي كلاما قاسيا.

وكما بـدأت الرواية بمشهد الكل وقد جمعتهم «الحمى الاسبانيولي»، فهي تنتهي بمشهد مماثل، حين يجد الطبيب الأسرة التي صادفها في بيتها في مفتتح الرواية، وقد جمع أفرادها هذه المرة عنبر في مستشفى دخلوه بسبب الحمى. ويعيد المؤلف مشهد البداية هذا،

في نهاية الرواية، ليعيد التأكيد على فكرته التي تتلخص فيها الرواية كلها، فكرة ذوبان شعب بكامله في زعيم وفي المشروع السياسي لهذا الزعيم، متعاليا بهذه الفكرة على قسوة الوباء المهدد لحياة الألوف.

عندما انتهى توفيق الحكيم من وضع روايته هذه، في العام 1928، وقبل نشر الرواية بعدة سنوات، ينشر أكبر شعراء القرن العشرين تي إس إليوت قصيدته، التالية، المعبرة – بحسب تحليلات بروكس التي سبقت الإشارة إليها – عن ضغط الوباء وضغط الحرب وضغط الأزمة الاقتصادية التي جاءت بعد الوباء والحرب، معا، على الأجيال الناشئة. والقصيدة بعنوان «أيتها الروح الصغيرة»:

تنبعث من يد الرب ، الروح البسيطة،
إلى عالم مسطح متقلب الأضواء والأصوات،
إلى ضوء ،ظلمة ، جفاف ، رطوبة ،برد أو دفء؛
وإذ تتحرك بين قوائم الطاولات والمقاعد
وتشب أو تتداعى،
متشبثة بالقبلات واللُّعب ،
فهى تتقدم فى جسارة ، وتتوجس فجأة،
منسحبة لتركن إلى ذراع و ركبة.
ومتلهفة على نوال التطمينات، متلذذة،
بالبهاء الفواح لشجرة الكريسماس،
بمسرّة فى الريح ، وفى نور الشمس والبحر،
لتتدبر النقش على الأرضية وقد أضاءته الشمس،
وتدير حفلات العزاب حول صينية من فضة،
وهى تخلط الواقعى بالمتوهم،
قانعة بلعب الورق وبالشيّاب والبنات،
بما تفعله الجنيات وما يقوله الخدم.
والعبء الثقيل لروح تكبُر،
يصبح أكثر إرباكا وأكثر استفزازا،
مع ضرورات يفرضها «ما هو كائن وما يبدو»؛
وما يجوز ومالايجوز، والرغبة والسيطرة.
وجع المعاش وسكرة الأحلام،
يكوّمان الروح الصغيرة على مقعد وراء النافذة،
أمام الموسوعة البريطانية.
تنبعث من يد الزمن الروح البسيطة،
محلولة العريكة وأنانية ،شوهاء ،عرجاء،
عاجزة عن المضى قدما أو عن التراجع،
خائفة من الحقيقة الدافئة ،من الخير الممنوح،
منكرة ما يشتهيه الدم؛
فهى ظل ظلالها ،شبح ظلمات تخصها،
إذ تخلف وراءها أوراقا مبعثرة فى غرفة متربة،
لتحيا ،لأول مرة ، فى الصمت الذى يلى قربان الموت.
صلى من أجل غويتريز ،الذى يتشهّى السرعة والقوة.
من أجل بودان الممزق إربا.
من أجل ذاك الذى حاز ثروة عظيمة،
وذاك الذى مضى إلى حيث شاء.
صلي من أجل فلوريه ،ذبيح الخنازير البرية وسط شجرات الطقسوس.
صلى من أجلنا الآن وفى ساعة الميلاد.

القرن التاسع عشر : الجوائح الأربع

عرف القرن التاسع عشر أربع محطات رئيسية للجوائح. الأولى هي أول جائحة كونية للانفلونزا في العام 1817؛ والثانية هي الجائحة الكونية الثالثة للطاعون في العام 1855؛ ثم جائحة جدري فيجي في العام 1875؛ وأخيرا الانفلونزا الروسية في العام 1898 .

ونتوقف هنا مع قصيدة إميلي ديكنسون التي كتبتها في العام الذي عبرت فيه الانفلونزا الروسية المحيط إلى الولايات المتحدة، قادمة من أوروبا التي انتقلت إليها من بولندا، وقبلها فنلندا. وما أن أتمت الانفلونزا مهمتها المخيفة في ذلك العام حتى كان عدد ضحاياها قد بلغ الثلاثمئة والستين ألفا من البشر.

وعنوان القصيدة الأصلي هو «لأني لم أملك التوقف من أجل الموت – Because I could not stop for Death1890"؛ لكننا ترجمناه إلى "العربة». والعربة هي الرمز المركزي في القصيدة. تقودها البطلة التي تنطق القصيدة بلسانها. يريد الموت أن يركب عربتها ولم تكن هي تريد الاستجابة له. لكن من منا يملك الاختيار إذا حُمَّ القضاء؟ تقول القصيدة:

لأنى لم أجسر على التوقف من أجل الموت
تعطف هو وتوقف من أجلي
ولم تتسع العربة إلا لنا نحن
وللخلود.

مضينا متمهلِيْن ،لم نكن متعجلِيْن
وأنا اطّرحت
كل عناء ،وكل مسرة أيضا
احتراما لتأدّبه.

مررنا بالمدرسة ،بأطفال يلعبون
ولم تكد تنتهى دروسهم
مررنا بحقول الحنطة المحدّقة فينا
مررنا بالشمس الغاربة

توقفنا قبالة بيت كان يبدو
أرضا تورّمت
والسقف لايكاد يبين
ومحيطه مجرد ركام
ومن تلك اللحظة والقرون تمضي
وكل قرن منها كأنه أقصر من يوم
أنا خمّنت من البداية أن رؤوس الأحصنة
كانت تتجه نحو الأبدية.

وبين كل ما يمكن أن يقرأه الإنسان عن الموت، وبين كل ما يقابله من شعور بالاستسلام بالموت، بل وبالترحيب به، كما لمسنا في أمثلة تناولناها، قد لا يجد المرء، أبدا، مثل هذا الاستسلام الراضي: تَعَطَّف الموت وتوقف من أجلها، ولم يكن في العربة متسع لأحد غيرها وغير رفيقها والخلود. لكننا نجد صورة للأمل البائس، أمل الجندي الكامن في قاع خندق مظلم و موحل في حرب شرسة، لشهور طويلة، وهو يحلم بإطلالة عابرة على وجوه رفاق في خنادق قريبة، نجد صورة هذا النوع من الأمل، في قصيدة عن الأمل كتبتها ديكنسون في العام 1861 ونشرت في العام 1891، وتجد فيها إشارة إلى

الأراضي الأشد برودة، فهل هي إشارة إلى روسيا وفنلندا وبولندا، التي يأتي منها الموت الذي عبر المحيط « البحر الأشد غرابة» إلى الولايات المتحدة في العام 1898؟

«الأمل» هو الشئ ذو الرياش

«الأمل» هو الشئ ذو الرياش–

الذي يُعَشِّشُ في الروح–

ويتغنى بلحن من دون كلمات–

ولا يتوقف أبدا –بالمرة–

وتبلغ عذوبته أقصاها–حين يُسْمَعُ– وسط العواصف–

مؤلمة هي العواصف–

التي تُسْكِت العصفور الصغير

الذي أبقى الدفء في كل هذه الكيانات–

سمعته في الأرض الأشد برودة–

وفي البحر الأشد غرابة

لكنه– في أشد الشدائد –،

لم يطلب مني فتفوتة واحدة

العبودية والمرض والموت

شهد القرن التاسع عشر الإلغاء الحاسم (سبقته إلغاءات أقل حسما) لتجارة الرقيق وتحريمها دوليا، بعد أن شبع منها العالم الصناعي واستعاض عن قوة عمل العبيد بالطاقة البخارية. ويمكنك أن تجد في رواية محمد المنسي قنديل «كتيبة سوداء» التي ظهرت طبعتها الأولى في العام 2015مشاهد من أواخر عصر العبودية وتجارة الرقيق، وما كان يحل بالمستعبَدين من آلام وأمراض، حين يمضي بهم تجار الرقيق والسادة الذين يشترونهم من إفريقيا إلى مختلف أنحاء العالم .

وتضعنا الباحثة من جامعة ستانفورد في كاليفورنيا لوندا شايبنجر أمام حقيقة مخيفة من حقائق القرن الثامن عشر، تكررت على نطاق ضيق محوط بالكتمان في القرن العشرين(في العام 1972 في الولايات المتحدة) عندما أجريت تجارب طبية على العبيد في المستعمرات البريطانية والفرنسية في ستينات القرن الثامن عشر، وهي التجارب التي تواصلت حتى أوائل القرن التاسع عشر. ففي تقرير كتبه في 20 أغسطس من العام 2017 في ستانفورد نيوز Stanford News المحرر آليكس شاشكيفتش أن أستاذة التاريخ في ستانفورد لوندا شايبنجر عثرت على أرشيفات توثق لتجارب أجراها الطبيب البريطاني حون كواير الذي بحث عن علاج لمرض الجدري بإجراء تجارب على 85 عبدا في أرياف جامايكا في القرن الثامن عشر. وهنا نجد مثالا على اختلاط الطيب بالخبيث في مختلف عصور الحضارة، مثالا على أمر بشع تعرض له السود، واستفاد منه كل البشر، بعد ذلك، من بيض وسود.

ويربط بحث نشر في التاسع من مايو من العام 2020، على موقع Max Planck Society الألماني بين انتشار الأوبئة عبر المحيطات وبين تجارة الرقيق. وإذا كان المدخل إلى هذا البحث هو أن العبيد نقلوا الأبئة من مواطنهم الأصلية الموبوءة، فهو يلقي الضوء أيضا على ظروف تعيسة مر بها هؤلاء في حياتهم كعبيد في مستعمرات الرجل الأبيض، في الدنيا الجديدة، منذ صرح ملك اسبانيا تشارلز الأول، في القرن السادس عشر، بنقلهم من إفريقيا إلى خديوية إسبانيا الجديدة التي نعرفها اليوم باسم جمهوريةالمكسيك. ونتوقف هنا، لا أمام قصيدة أورواية كما فعلنا في محطات سابقة، ولكن أمام ما كتبه القاضي الأميركي صمويل سيوول في يومياته، بتاريخ الرابع والعشرين من يونيو من العام 1700 عن رسالته التي تحتل مكانا مرموقا في أدبيات الدعوة

إلى تحرير العبيد، والتي تحمل العنوان" إلغاء الرق وبيع يوسف". يشير القاضي سيوول إلى أنه بعد مشاركته في إحدى الجنازات اتجهت أفكاره إلى قضية الرقيق التي" لطالما ولشد ما أغضبته".

لكن استياء سيوول من مسألة جلب العبيد من غينيا والاتجار بهم، كان يتوارى وراء هموم كثيرة، ثم يعود ليلح عليه. " وأخيرا، بعد قراءة تقرير كتبه بول بين عن الخدم، ورد فيه ذكر المغاربة السود، أزعجني أن تأخرت كثيرا في فعل شئ بهذا الخصوص. وفيما كنت أفكر حضر الأخ بلكناب ليطلعني على التماس قرر التقدم به للمحكمة العامة لتحرير رجل وزوجته، وهما من الأفارقة السود، يرزحان تحت نير العبودية على غير أساس من القانون. وتتجه لجنة في بوسطن إلى استصدار قانون بفرض غرامة قدرها أربعون دولارا على كل رأس من السود يجلبها تاجر رقيق، لردع الناس عن هذه الممارسة. إضافة أن السيد "سي. ماثر" عقد العزم على نشر رسالة تدعو مالكي العبيد إلى تحويلهم إلى المسيحية. وهكذا اعتبرت أن الله يدعوني للدفاع عن هؤلاء العبيد؛ فلينعم علي الرب بمباركة ما سأكتب".

يقول القاضي سيوول في رسالته:

"بمثل ما أن الحرية ، من حيث القيمة الجوهرية، لا يفوقها شئ سوى الحياة: فلا ينبغي لأحد أن ينسلخ عنها بإرادته أو أن يحرم غيره منها، إلا وفقا لأنضج الاعتبارات»

وهو هنا، على الأرجح، يشير لحرمان الناس من حريتهم بحكم قضائي يضعهم وراء قضبان السجون.

ويضيف»وكثرة عدد العبيد اليوم في البلاد، ومعاناتهم تحت ضغط الاسترقاق، جعلتا الكثيرين يتشككون في صحة ومتانة الأسس التي قام عليها نظام الرق. فمن المؤكد أن كل البشر، باعتبارهم أبناء آدم، هم الورثة المتساوون، وتتساوى حقوقهم في الحرية، وفي غيرها من متع الحياة الظاهرة»

وحينما يقول سيوول إن البشر «هم الورثة المتساوون» فهو يقصد المساواة في موروث المسيح عيسى ابن مريم، وأن الله استخلف آدم وبنيه على الأرض، كما يتضح في الفقرة التالية.

«أنعم الله بالأرض [وبكل ما فيها من الطيبات] على بني آدم، المزمور 115–16؛ وأجرى دما واحدا في عروق جميع الأمم، ليعمروا الأرض؛ وقرر أحداث الأزمنة، ورسم حدود العيش، وخلقهم بهدف أن يسعوا إليه، ولهذا نصبح عيالَ الرب».

ومن أجمل ما جاء في هذه الرسالة، قول القاضي سيوول:

«ولأننا رأينا أن الرب قال : ذاك الذي يسرق إنسانا ويبيعه، أو يشاهَد وهو ممسك به بيده، سوف يُقْتَل لا محالة(سفر الخروج 12–16).

ولأن هذا القانون المتصف بحسم وقوة يضع من يتاجر بالبشر بين الجرائم الأكثر بشاعة الموجبة لعقوبة الإعدام، فأي صيحة تعلو على هذا النذير الأعلى؟

لكن القاضي سيوول يدرك أن جريمة الاسترقاق والاتجار بالبشر هي صورة من صور بحث عن المال لا يعرف الحدود ولا الروادع، ولهذا فقد تكررت في رسالته، في أكثر من موضع، عبارة باللاتينية هي Auro pretiosior Omni.. ومعناها: وهذا كله أغلى من الذهب. وهو يقصد بذلك أن احترام إنسانية الإنسان والخضوع لمشيئة الرب الذي ساوى بين مخلوقاته هما أثمن الذهب، الذي من أجله تُرْتَكَب هذه الجرائم، جرائم الاتجار بالبشر.

الغضب الإلهي والطاعون

وأعظم ما نجده في القرن السابع عشر من كتابات عن الطاعون «يوميات عام الطاعون» لدانييل ديفو. لكننا نبدأ استعادة موروث ذلك القرن، بتقديم رؤية شاعر كبير لأثر الطاعون على مجتمعه وعلى العالم. تتمثل الرؤية بهذه القصيدة التي ترجمناها عن النص الذي كتبه، في العام 1678، الشاعر جان دي لا فونتين (1631–1695) الذي تحدث عن الحيوانات، في قصيدته «حين ضرب الطاعون الحيوانات Les Animaux malades de la peste " وإن كان بالحقيقة يقصد البشر حين ضربهم الطاعون وهدد وجودهم لكنه لم يخلص السادة من غرور القوة ولم يخلص الأتباع من النفاق. تقول القصيدة:

شَرٌ ينشر الرعب

شر، في ساعة غضب من السماء،

تَخَلَّق جزاءً لما يعم الأرض من خطايا

الطاعون(ولْنَدْعُهُ باسمه)

قادر على أن يملأ نهر العذابات آتشيرون،

في حربه على الأحياء

لم يموتوا، جميعا لكنه مسهم جميعا

فلم نر أحدا منهم ينشغل

بما يقيم أود حياة تحتضر

ولم نر الطعام يثير شهيتهم؛

كفت الذئاب والثعالب عن التلصص

بحثا عن الضحايا البريئة

حلقت الحمائم الناجية

وزادت بهجتها

اتعظ الأسد،فقال: يا أصدقائي الأعزاء

أظن السماء قضت علينا

بهذه التعاسة بسبب خطايانا

فليُضَحِّ أكثرُنا جرما بنفسه

ليسترضيَ السماء الغاضبة

وقد ينال العفو

يعلمنا التاريخ أنه في نوازل كهذه

نقدم مثل هذه القرابين:

فلنكف إذن عن خداع النفس بمعسول الكلم ولننظر بكل صرامة في ما في ضمائرنا أما عني أنا، فقد أرضيت شهواتي بافتراس العديد من الحِملان.

هل أجرمت الحملان بحقي؟ لم يحدث.

بل إني في بعض الأحيان كنت أفترس الراعي

سوف أردع نفسي عن الشر، إن لزم الأمر، لكني أرى

أن من الخير أن يقاضي الكلُّ أنفسَهم ويقاضوني:

لأن العدل يجب أن يكون بغيتنا، نحن جميعا

فليهلك الآثمون.

فقال الثعلب:»مولاي، أنت الملك الأشد طيبة

وما تبديه من ندم يشف عن كثير من الرقة

ماضَرَّ إن أكلتَ الغنماتِ، تلك الكائناتِ الوضيعةَ الحمقاء

أهذه خطيئة؟ كلا،كلا. أيها السيد إنك تُشَرِّفهم

حين تلتهمهم.

أما عن الراعي، فبوسعنا القول

أنه يستحق ما نزل به

فهو واحد من الناس الذين لا يمكن تمييزهم عن الحيوانات

هكذا تكلم الثعلب، فنال الاستحسان

فلم نعد نجرؤ أن نمضي لأبعد من ذلك

لا إلى النمر ولا إلى الدب ولا إلى غير ذلك من القُوَى

التي ارتكبت من الجرائم ما لايغتفر.

فكل مثيري المتاعب، نزولا إلى الكلب الانكليزي البدائي

كل واحد منهم برى نفسه قديسا صغيرا.

وتقدم الحمار بدوره، فقال:

أذكر أني مررت بمرج كان لرهبان

دفعني الجوع، وغواية الفرصة، وطراوة الحشائش

وشيطان أظنه كان يحركني

فالتهمت من حشائش المرج ما وسعني التهامه.

لم يكن هذا من حقي، ما دمنا نتحدث بصراحة.

عندئذ صاح الجميع بالحمار مستنكرين

ونطق ذئب كهنوتي، كما تشير جعجعاته

منددا بالحيوان اللعين

ذلك الأجر الذي هو مصدر كل شر

الجنحة التي تورط بها تقضي عليه بالشنق.

يأكل عشب الآخرين! ياله من جرم كريه!

لاشئ يمحو ذنبه سوى الموت:

نعم أوضحنا له ذلك

فطبقا لوضعك، قويا كنت أم ضعيفا،

تقرر أحكام القضاء لونك: أأبيض هو أم أسود.

والإشارة التي تستدعي الوقوف عندها هي إشارة دي لافونتين إلى نهر آتشيرون وهو نهر موجود في شمال غرب اليونان لكن الأساطير القديمة زعمت أنه نهر في مملكة الموتى التي يحكمها هاديس الأسطوري. وينتقل جان دو لافونتين إلى العالم المعاصر له، والذي قصده بكل ما قاله القوة السياسية والعسكرية التي يراها سبب فساد العالم؛ فهو يرسم صورة عامة بقوله إنه لن يشير «لا إلى النمر ولا إلى الدب ولا إلى غير ذلك من القُوَى التي ارتكبت من الجرائم ما لايغتفر». والمقصود بالقوى هو القوى التي تتصارع على السيادة على العالم، ثم يصبح أكثر تحديدا، بالإشارة لمنافس فرنسا عبر العصور، إلى انكلترا التي نافست فرنسا في البر والبحر، وعبر قارات العالم الخمس، حين يتحدث عن» كل مثيري المتاعب، نزولا إلى الكلب الانكليزي البدائي».

والخلاصة هي أن السماء ترسل شواظ غضبها على الخطاة لكن الخوف من بطش السلطة والرغبة في استرضائها يمنعان الحيوانات/ البشر من استيعاب الدرس القاسي الذي نزل بالغابة/ بالعالم المعاصر.

وإذا كان الفرنسي جان دي لافونتين يحلق في آفاق الشعر ويعمد إلى الترميز، فقد نقل (ولا نقول رصد) الانكليزي دانييل ديفو وقائع»طاعون لندن الكبير» في «يومية عام الطاعون» التي نشرت بعد ذلك الطاعون بعدة عقود، في العام 1722، في أسلوب صحافي يعده مؤرخو هذه المهنة الأساس التاريخي للصحافة، كما نعرفها. يُقدم ديفو مؤلفه ذاك بالقول:

«يومية عام الطاعون، باعتبارها ملاحظات أو تذكارات تتصل بأهم ماجرى، من أحداث عامة وخاصة، وقعت في لندن إبان آخر نازلة من النوازل الكبرى، وهي تلك التي وقعت في العام 1665. والكاتب مواطن لم يفارق لندن طوال تلك النازلة. ولم يسبق نشر هذه اليومية من قبل».

ولأن الطاعون الكبير ضرب العاصمة الانكليزية حين كان ديفو في الخامسة فهو ينقل عن مصدر يقول إنه يثق به وهو عمه هنري فو الذي يسرد الوقائع من وجهة نظره. لكن أحد كتاب الغارديان اللندنية وهو سام جورديسون يذكرنا، في تقرير نشر في 28 إبريل من العام 2020، بأن ديفو زعم أن روايته روبنسون كروزو كتبها رجل عاش، حقا وصدقا، على جزيرة نائية لثمانية وعشرين عاما، وأن روايته مول فلاندرز منقولة عن مذكرات لصة بذلك الاسم.

لكن ذلك لا يمنع جورديسون من الإقرار بما أقر به النقاد والمعلقون، طوال القرون، من أن يومية ديفو عن الطاعون تتمتع بقيمة تاريخية بقدر ما تتمتع بقيمة أدبية. وإذا كان مؤرخو الصحافة يضعون هذا العمل، كما قلنا، بين الأعمال التي أرست قواعد العمل الصحافي، فمؤرخو الأدب يضعون مجمل أعمال ديفو بين كلاسيكيات الأدب الروائي في مراحل التخلق الأولى. والأقرب لتصوير طبيعة هذا العمل أن نقول مع القائلين بأنه عمل أدبي حافظ على صلته بالواقع بما احتواه من إحصائيات وبيانات ووثائق حكومية.

تبدأ اليومية (أو الجورنال، بعاميتنا العربية المعاصرة) بهمسات في العام 1663 عن عودة الطاعون للظهور في هولندا، في أمستردام وروتردام، قادما من إيطاليا أو من المشرق. ولا فرق بين المصدرين المفترضين، لأن إيطاليا تأتيها البضائع من المشرق، وهكذا يبدو المشرق، منذ الجائحة الأولى، طاعون جوستينيان(541–750) هو مصدر الأوبئة بمثل ما أنه مصدر كل ماهو ثمين ومرغوب من السلع والمقتنيات، ومصدر لكل ما هو عظيم ومقدس باعتباره أرض الحكمة القديمة ومحل ميلاد اليهودية والمسيحية؛ ويضعنا ديفو بذلك أمام أول تجسيد لصورة الآخر بتعقيداتها :» الآخر كمصدر للشر الخالص/ الآخر كمصدر للخير والشرمجتمعين.

ثم يصبح الطاعون واقعا معيشا لاخبرا منقولا؛ يقتحم لندن. يصبح الحي ميدان غزوته فيتوقاه الناس ولا يجرؤون حتى على الاقتراب من شوارعه ليتبينوا بأنفسهم الحجم الحقيقي للخطر. ويحل محل الشبح البعيد شبح قريب، ربما كان قبل أيام قليلة جارا وصديقا. ويتطور الأمر أكثر فأكثر، فتقرر السلطات نظاما قاسيا يستهدف محاصرة الوباء. فإذا أصيب أحد أفراد أسرة ما بالطاعون، فرضت السلطات على بقية أفراد الأسرة من المرضى والمعافين على السواء أن يبقَوْا داخل الدول. ويوصد باب البيت بقفل من الخارج ويعلق فوق الباب صليب أحمر(رمز الرعب الذي حولته الإنسانية في القرن التاسع عشر رمزا للرحمة، مع ظهور اللجنة الدولية للصليب الأحمر).وهكذا ينتقل المرض من المصاب للسليم. ويتخذ الآخر المثير للنفور شكلا أكثر تحديدا وأشد استدعاء لما في النفس البشرية من قدرة على القسوة وإنزال الأذى بالغير.

وبعد فترة يبدو فيها وكأن الطاعون يستريح، يعود هذا الوحش الخرافي لاستئناف هجماته مع ارتفاع درجات الحرارة في مايو من العام 1666. ويقرر الهرب من يملك القدرةعلى الهرب، من يملك مقرا في مكان خارج لندن، من يتحمل نفقات السفر وتأسيس حياة جديدة في مكان جديد. وتحدث عملية انتخاب اجتماعي: ينجو القادرون بأنفسهم ويبقى العوزون حيث هم. ويكتسب الآخر ملامح اجتماعية وثقافية تقسم الناس بين مرشح للسقوط بين براثن الطاعون وناج من المصير المشؤوم بحكم موقعه وثروته وجاهه.

الراوي، أو بطل الرواية إن نظرنا إلى هذه اليومية من زاوية مكونها الأدبي، هو عم المؤلف، وهو لا يكشف لنا عن نفسه إلا في آخر صفحة حين يوقع على النص بالحرفين الأولين من اسمه ولقبه. وهو يتردد بين مغادرة

لندن مع من غادرها من أهله وأصدقائه وبين البقاء فيها لمواصلة العمل كسراج لديه موظفون وخدم سيفقدون مصدر رزقهم الوحيد إن أنهى هو نشاطه وفر مع الفارين. لخص أخوه له الموقف الواجب اتباعه، من وجهة نظر الأخ، بقوله:»أنج بنفسك، يامعلم».

يخطط هنري فو الهرب، في صحبة خادم اعتبره أجدر العاملين معه بالثقة. لكن الخادم يهرب منه. ويرى هنري في الهرب غير المتوقع من الخادم المخلص الأمين إشارة من السماء توحي إليه بضرورة البقاء اطمئنانا إلى أن الرب سيرعاه. وهنا يستعيد ديفو، الكاتب الذي يعبر عنه بطل اليومية، سواء كان ذلك البطل عمه أو كان شخصا آخر، أو شخصية مبتدعة من الأساس، والأرجح أنه مركب من هذا كله وأكثر، يستعيد التوجه الديني الذي لمسه القارئ في «روبنسون كروزو» التي سبقت هذه اليومية إلى لانشر بثلاث سنوات، وهو الشخصية التي تعد أقدم تجسيد أدبي للكولونيالي الأبيض. وبشكل خاص، فإن قرار هنري بعدم مغادرة لندن يمكن النظر إليه باعتباره وفاء بالعهد الذي نقضه روبنسن كروزو فحل به العقاب. عاهد كروزو الرب على أن يبقى بين أهله وذوويه والمنتمين لعرقه وعقيدته في لندن، ثم حنث بعهده فرمت به العواصف في منفى استمر 28 عاما. هذه المرة يستجيب هنري فو لما اعتبره إرادة السماء ولا يغادر لندن. لكنه بعد ذلك يشعر بأنه أخطأ بالبقاء في لندن ويجد من الصعب عليه أن يظل حبيس بيته، ويعود التوجه الديني ليعبر عن نفسه باعترافاته أمام الرب بخطاياه وتوسله للرب أن يعفو عنه.

ويكتسب هذا الأمر أهيمة مصدرها اعتقاد البطل/ المؤلف أن الطاعون هو عقاب السماء نزل بأهل لندن ليطهرهم من خطاياهم، فمن هرب من وجه الطاعون، ولم يبق ليعين إخوانه بالقول والفعل على احتمال الألم،

تجميع الجثث للدفن الجماعي. لوحة لميشيل سير خلال طاعون مرسيليا العظيم، 1720-1721

هو في الحقيقة هارب من فرصة التطهر. وبهذه الروح المسيحية النقية ينفر هنري فو من قرار السلطات الإبقاء على الأصحاء من أفراد أسر نزل الطاعون ببعض أفرادها، وإغلاق الأبواب على الأصحاء والمرضى معا، وتعيين خفراء على كل بيت نزل به الطاعون، ومعاقبة السليم الذي يحاول الهرب.

يبقى هنري، ويعتبر أخوه أنه ارتكب حماقة بالبقاء في مدينتهما الموبوءة. وكما فعل روبنسون كروزو من قبل،

يفتح هنري التوراة وهو عاقد العزم على أن يتخذ من الآيات التي يقع عليها بصره هاديا ونبراسا له في طلمات المدينة الموبوءة. ويجد نفسه أمام المزمور الواحد والتسعين في صفر المزامير من أسفار العهد القديم. وف ما يلي نص المزمور كما جاء على موقع الأنبا تكلا هيمانوت:

1 – الساكن في ستر العليِّ ، في ظل القدير يبيت

2 – أقول للرب: ملجئي وحصني. إلهي فأتكل عليه

3 – لأنه ينجيك من فخ الصياد ومن الوبإ الخطر

4 – بخوافيه يظللك، وتحت أجنحته تحتمي. ترس ومجن حقه

5 – لا تخشى من خوف الليل، ولا من سهم يطير في النهار

6 – ولا من وبإ يسلك في الدجى، ولا من هلاك يفسد في الظهيرة

7 – يسقط عن جانبك ألف، وربوات عن يمينك. إليك لا يقرب

8 – إنما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار

9 – لأنك قلت: أنت يارب ملجإي. جعلت العلي مسكنك

10 – لا يلاقيك شر، ولا تدنو ضربة من خيمتك

11 – لأنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك في كل طرقك

12 – على الأيدي يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك

13 – على الأسد والصل تطأ . الشبل والثعبان تدوس

14 – لأنه تعلق بي أنجيه . أرفعه لأنه عرف اسمي

15 – يدعوني فأستجيب له، معه أنا في الضيق، أبقي ذِكْرَه وأمجده

16 – من طول الأيام أشبعه ، وأريه خلاصي

لكن تدين الرواي/ المؤلف هو تدين الانكليزي الذي عاش بدايات عصر التنوير الذي انتزع انكلترا من تطهرية أوليفر كروميل، السيد الحامي وهو الجنرال الذي حكم بريطانيا باسم الرب لخمس سنوات انتهت في العام 1658، ليمضي بها تشارلز الثاني بعد ذلك إلى أفق أرحب وأكثر إنسانية. ويكاد ديفو، في كل مؤلفاته، يكون تجسيدا لتردد تشارلز الثاني بين العلم والدين.

وحين يدفعه تدينه إلى النظر لمأساة لندن في ذلك

العام الكئيب بعيني الإنسان المتدين الورع، تنبهه ثقافة العهد الجديد، عهد تشارلز الثاني، بما فيها من تدين يحترم العقل والتجريبية والخبرات الفردية، إلى ضرورة أن يحصر نفسه في مهمة المؤرخ أو المراقب وأن لا يعطي نفسه سلطة الكاهن أو الواعظ. وتبلغ سطوة العهد الجديد من القوة درجة تضطره إلى أن يقدم لقارئه مبرره لشكر السماء إذ أنعمت عليه بالنجاة من خطر الموت الأسود:

«ولو قلت إن ماجرى كان نذيرا يحضنا جميعا على شكر الرب، وبخاصة نحن الذي عشنا فترة تصاعد الخطر المرعب، فلربما ظن البعض، وقد انقشعت سحائب الخطر، أني أتستر وراء مسوح دينية، وأعمد إلى إلقاء المواعظ بدلا من تسجيل وقائع التاريخ، وأجعل من نفسي معلما بدلا من أن أكتفي بتدوين الملاحظات؛ وهنا أتوقف عن الاسترسال فيما كنت أحب أن أمضي إليه. ولكن لوأن عشرة مجذومين كتبت لهم النجاة من الجذام، ولم يكن بينهم من ينطق بالحمد إلا واحد فقط، فأنا راغب في أن أكون ذلك الواحد، وأن أنطق بالحمد بيني وبين نفسي.

في هذا الابتعاد التدريجي والمتردد عن تدين حرفي وتطهري صارم كان يمثله اللورد الحامي أوليفر كروميل ويحكم باسمه الجزر البريطانية، نجد العلاقة بين تجربة الطاعون وبين انتصار التنوير والعقلانية في انكلترا ابتداء من عهد تشارلز الثاني. لكن نفور ديفو من دور الواعظ يتخذ صورة أخرى، في هذا الهمل المتعدد الأبعاد، إلى درجة التناقض أحيانا. تلك الصورة واقعية وتقوم على خبرة مباشرة، ما يؤكد لنا، مرة أخرى استيعاب ديفو للروح التجربية التي اتسم بها العهد الذي عاش في ظله، وهي الروح التي تُغَلِّب دور المؤرخ والمراقب على دور الواعظ. وبهذه الروحية رسم لنا ديفو صورة سولومون إيغل كأسوأ تجسيد للواعظ، الديني أو العلماني، ذلك الذي يظن أن بوسعه التعالي على الخطاة والجناة، الذين هم الآخرون، أو الآخر في هيئته الجمعية. وهكذا نرى سولومون إيغل وهو يذرع الشوارع في طريقة استعراضية، ناطقا بحكم الإدانة الذي يشمل كل سكان المدينة العظيمة»ويكون في بعض الأحيان عاريا من كل ثوب يستره، واضعا فوق رأسه إناء به قطع من الفحم المشتعل» .

صورة أحدث للمأساة القديمة

في روايتها» سنة الأعاجيب – Year of Wonders 2011" تقدم لنا جيرالدين بروكس صورة لما جرى في القرية الانكليزية الباسلة إيامEyam، التي ضربها الطاعون في سبتمبر من العام 1665، ففرضت على نفسها الحجر الصحي، وقرر أهلها البقاء فيها حتى لاينشروا الوباء في بقية أنحاء البلاد، مع يقينهم بأن بقاءهم في تلك البقعة الموبوءة هو استسلام للموت بالطاعون . كتبت بروكس هذه الرواية بعد أن احتفل البريطانيون بذكرى القرية مطلقين عليها الاسم العجيب" قرية الطاعون". وتجد اليوم على الانترنت موقعاً خاصاً بتمجيد ذكرى هذه القرية الشجاعة، باسم -EYAM PLAGUE COMMEM ORATION SERVICE

تقول الحكايا الموروثة عن ذلك الزمن أن الطاعون بلغ أهل تلك القرية في قطعة من قماش جاءتهم من لندن. وتنقل جيرالدين بروكس وقائع صمود تلك القرية لا بروحية كاتب روائي، بل(وهذا ما يقربها من نموذج دانييل ديفو) بروح المراسل الحربي، وهو الدور الذي أدته بتغطية الأحداث في غزة وفي الصومال وفي البوسنة. وبالدقة التي تفرضها صحافة القرن الواحد والعشرين تسجل بروكس تقاريرها المليئة بملاحظات

عميقة وبحقائق مرعبة، تقاريرها الواردة من خط النار في القرن السابع عشر.

وهكذا نقابل أولئك الذين وقفوا على مسافة خطوة واحدة من الموت، لعام كامل، تضاءت فيه قدرة الموت – بحكم الاعتياد– على إثارة الخوف؛ ونقابل أولئك الذين فرحوا بالنجاة التي أوصلتهم إلى بر النجاة المظلل بظلال الذكريات الموجعة وبصور الراحلين الأعزاء. وتسرد بروكس وقائع قصتها بلسان أرملة شابة، في الثامنة عشرة، لديها طفلان، تدعى أنا فريث وهي تعمل قروية تساعد كاهن القرية في محاولته الدؤوبة لاحتواء خطر الطاعون. هذه الفتاة الشجاعة الماهرة تجد كل عون ورعاية من زوجة الكاهن الذي يختلف في رواية بروكس عن الكاهن الحقيقي لتلك القرية الذي امتلك من الإيمان وقوة الشخصية ما مكنه من إقناع أهل القرية بأن يرضوا بقضاء الله ويمكثوا حيث هم حتى لا يستعصي الخطر وينتقل الطاعون من القرية إلى قرى مجاورة.

الكاهن الذي ابتدعته بروكس مايكل موبيليون المراوغ الذي يتمتع بكاريزما لاتقاوم، تتخفى وراءها رغبات شيطانية. صحيح أنه أقنع أهل قريته بقبول مشيئة الله وبالاستسلام لقدره، لكن وراء ذلك رغبة في السيطرة تقترب بالكاهن من الكفر، ومزيج من الرغبة في تعذيب النفس والرغبة في تعذيب الآخرين.

وعلى رغم أن زوجة الكاهن وتلك المساعدة الطيبة آنا فريث تبذلان كل ما بوسعهما لتخفيف آلام الناس وتقدمان لهما العلاجات العشبية المتوفرة في ذلك الزمن، فإن قسوة التجربة التي مر بها أهل القرية والسادو مازوكية التي تحرك الكاهن الذي صار أشبه بملك مطلق السلطات داخل القرية المنطويةعلى نفسها، يفجران غضب القرويين. ومن سخريات القدر أن يستهدف القرويون بغضبهم، في المقام الأول، زوجة الكاهن والقروية الطيبة أنا باعتبارهما "ساحرتين"، قبل أن يتجرأوا على الكاهن نفسه. وانتشرت بين القرويين عادة جلد الذات تكفيرا عن ذنوب حقيقية أو متخيلة، ثم بدأت تظهر بينهم عبادة الشيطان.

والخلاصة أن الانغلاق، وإن بدأ بدافع نبيل، فهو يمضي بالناس إلى ماهو أسوأ من الموت؛ والقيادة الصارمة القاسية النرجسية التي تزعم أنها تنطق باسم الرب هي، ، قيادة فاسدة ومضلة. وهنا تبدأ تساؤلات بطلة الرواية أنا فريث حول دور رجل الدين وحول الدين وحول معنى التجربة الإنسانية كلها. وبهذا تضع الكاتبة تجربة تلك القرية مع الطاعون ضمن السجل الطويل للألم الذي يفتح بوابات الأمل على اتساعها.

شكسبير والموت

ولاشك في أن أهم من كتب في القرنين السادس عشر والسابع عشر هو شاعر الانكليزية الأكبر وليم شكسبير. وسوف نستعرض هنا بعض العبارات التي يمكن القول إنها اكتسبت حياة خاصة بها، خارج السياق الشعري و/ أو الدرامي الذي تنتمي إليه والتي تحدث بها الشاعر الكبير عن الموت:

يموت الجبناء المرة تلو المرة، قبل أن يلتقوا الموت

لكن الشجعان لا يذوقون الموت إلا مرة واحدة

ينطق يوليوس قيصر(مسرحية يوليوس قيصر– 1599) بهذه الكلمات عندما تنصحه زوجته بأن ينزل عند رأي الكهان والعرافين الذين أكدوا له أن الآلهة قررت أن تنهي حياته، بعد أن رأت زوجته في المنام رؤيا أفزعتها خوفا

على حياة زوجها- فهرعت زوجته تسأل الكهان العون، فقرروا أن يفتدوه بذبيحة. وعندما شقوا بطن الذبيحة لم يجدوا لها قلبا؛ فاعتبروا أن تلك إشارة من الآلهة بأن يوليوس قيصر هالك لا محالة، ولما رأى يوليوس قيصر خوف زوجته قال ما قال.

هذه الكلمات، لها مبررها الدرامي، كونها ترسم لنا ملامح نفسية لرجل لا يهاب الموت ولا يعاند القدر، خاصة وأنه يقول أيضا:

كيف يمكن لإنسان أن يتفادى ما ترمي إليه الآلهة؟

يبدو هذا كله منطقا بسيطا يؤمن به الناس، أو معظمهم، في كل العصور لكن حقيقة أن التراجيديات التي تنتهي كل واحدة منها بموت رجل عظيم يؤكد رواجها وشغف الناس بها، من الملكة حنى الإسكافي، كما قيل عن عشاق شكسبير، يؤكد ما ذهبت إليه مؤلفتا «تحولات رمز جنائزي» من أن تكرار حدوث الطواعين شغل الناس بالموت.

وفي مسرحية ريتشارد الثالث (1592-1593) يتحدث الملك إلى ليدي آن بكلمات بقي السطر الثالث منها بين أكثر التعابير الشكسبيرية شهرة عن الموت في الحياة:

كنت أتمنى لو أني أموت الآن

فهما تقتلانني بموت حي

عيناك هاتان اللتان ملأتا عيني بدمع مالح

وفي مسرحية هاملت(1599-1601) التي قد تكون أكثر أعماله شهرة يقول أمير الدانمرك الحائر:

... أن نموت يعني أن نغفو

أن نغفو: قد تعني أن نحلم: أجل، وهنا ما يحير

فأي حلم ذلك الذي يأتي في غفوة الموت

وفي مسرحية ماكبث (1606) يسمع الأمير الطموح بموت قرينته:

غدا، ثم غدا، ثم غدا

وهكذا نزحف بخطانا التعيسة من يوم ليوم

حتى أخر لحظة من الزمن المكتوب

وكل أمس مررنا به، أوقد الشمعات للحمقى

على طريق الموت المُغْبَرِّ. انطفئي، أنطفئي أيتها الشمعات القصيرة العمر

فما الحياة إلا ظل يمشي

وقد يكون هذا أشد ماقاله شكسبير قتامة، فهو – وفقا لما ينطق به ماكبث – لا يعتبر الحياة حقيقة بل هي ظل لحقيقة ما، وهي:

حكاية يرويها أحمق، حافلة بالصخب والهياج

ولا معنى لها.

شرق يغفو وغرب ينهض من سباته:

نترك شكسبير وننزل إلى القرن الخامس عشر، حيث نجد أصل الرؤية الشكسبيرية للموت. وانكليزية ذلك القرن هي الانكليزية الوسيطة التي يبدو فيها الأصل الجرماني للغة الانكليزية واضح الأصداء. وقد اختار الباحث الصيني هسين -شي بيرنست قصيدة من ذلك القرن في رسالة تقدم بها لجامعة أوتريشت الهولندية لنيل الماجستير في الدراسات القروسطية. وقد اخترنا الوقوف عندها لأسباب تختلف عن الأسباب التي ذكرها بيرنست، كما تختلف عن بعض ما تبنته الباحثة جيني ربيكا روتينغ(التي تأثر بها بيرنست)، نقلا عن باحث آخر هو كلاوس يانكوفسكي.

هو يرى أن هذه القصيدة تتميز بأنها "معارضة" (بالمعنى المعروف عند الشعراء العرب إلى اليوم) للقصائد التي شاعت في القرون الوسطى، والتي كانت تقوم على حوار بين الجسد والروح. ونحن نرى في القصيدة تنويعا على هذا التوجه الأساسي، لا يسخر منه كما يرى بيرنست، بل يؤكد صدقيته. هذا الحوار يقول لنا: لم يصغ الجسد لما وجهته إليه الروح واغتر بجماله الزائل وبسطوته على قلوب الرجال. فأين هذا الجمال الآن؟ أين السطوة؟ وكأن الشاعر بذلك يقول لنا العبارة اللاتينية التي شاعت بين شعراء أجيال سبقت:

Ubi Sount Qui Ante Nos Fuerount

ومعنى هذه العبارة هو : إلى أين مضى من سبقونا؟ وهي مأخوذة من سفر باروخ في الترجمة اللاتينية للتوراة

وبيرنست يريد أن يرى في القصيدة معارضة لتقاليد شعرية سلفت، لأنه تأثر بما قالته روتينغ. تركز روتينغ، التي تنقل بدورها عن كلاوس يانكوفسكي، على أن الحوار الدائر بين الجسد والدود يفصل القصيدة عن تقاليد زمانها، وقد أوضحنا خطل ذلك الرأي؛ ثم إنها ترى أن رسم شخصية النبيلة الميتة فيه من الخصوصية ما يميز أسلوب الشاعر الذي كتب هذه القصيدة عن أساليب غيره من الشعراء الذين تحدثوا عن الجسد بلغة عمومية. وترى روتينغ في ذلك اقترابا من الفردانية التي هي من أهم خواص الحداثة والتي ستعززها العصور التالية وإرهاصا بها. وهذا صحيح. لكن الصحيح أيضا أن القصيدة لم تنته بتصوير أهوال القيامة، بل انتهت بباشرة الخلاص عندما يعود المسيح، ولا نجد هنا إرهاصا بفهم أكثر عصرية وإنسانية للدين، بل نجد أن أصداء الطاعون الكبير في القرن الرابع عشر خفتت نوعا ما فانتعشت آمال الناس الذين يعبر عنهم الشاعر. وأخيرا، فالرسوم التي

الصلاة من أجل الإغاثة من الطاعون الدبلي أو الموت الأسود (الصورة هولتون جيتي).

زين بها الشاعر مخطوطة هذه القصيدة، أو التي زينها بها ناسخو القصيدة تذكرنا، بالفعل بالازدواجية التي تميزت بها مقابر الأثرياء بعد أن شاعت فيها ثنائية تصوير الميت في أيام نضارته ومجده، وتصويره وهو هيكل عظمي تنهشه الديدان.

وفي كتاب «تحولات رمز جنائزي Metamorphosis of a Death Symbol" لكاثلين كوهين وكاثلين روجرز كوهين، تقول المؤلفتان إن تتابع موجات الطاعون على أوروبا جعلت الموت يفقد كثيرا من رهبته، بل جعلته موضوعا شائعا على الأسنة، جعلته صوتا تصغي الناس لندائه من غير فزع، طوال القرون الوسطى، فانتشر ما يسمى بالانكليزية Transi Tomb والمقصود بذلك نحت يصور شخصا ما بعد أن يموت ويبقى مجرد هيكل عظمي. وهكذا انتشرت هذه الأشكال البشعة على قبور النبلاء والارستقراطيين وكبار قيادات الكنيسة، وقد امتلأت عيونهم وآذانهم بالديدان ووقفت فوق رؤوسهم الضفادع، ونقشت تحت هذه التصاوير البشعة قصائد تذكر القارئ بأن كل ما في جسده ومكونات حياته ومقتنياته من جمال (كما تُظْهِرها صورة فوق ذلك النحت البشع) إنما هي مظاهر موقوتة وزائفة سرعان ما يمحوها الموت ليحل محلها العفن والعطن والزواحف والقوارض.

نعود إلى القصيدة التي اهتم بها ثلاثة باحثين ذكرناهم وهي القصيدة التي تحمل العنوان»جدل بين الجسد والديدان». هي قصيدة غير مشهورة، وإن كانت تنويعة على «تيمة» كانت واسعة الانتشار في القرن الخامس

فى عام 1348 اجتاح الطاعون العالم، وسماه المصريون الوباء الأصفر

عشر. راجت في ذلك القرن قصائد تثور حوارا بين الروح والجسد، وهذه القصيدة تقدم حوارا بين جسد نبيلة شابة جميلة وبين الدود الذي يتخذ من ذلك الجسد مسكنا له، بعد دخوله القبر. ويرجح الباحثون أن القصيدة كتبت في العام 1450. وتحدثنا القصيدة عن رحالة يتنقل بين البلدان. وقد هرب من آخر بلد بلغه، محدد زمن ارتحاله بأنه كان

في موسم كثرت

فيه الوفيات

بعد أن انتشرت الإصابات بالطاعون

وفيما كان يؤدي الصلاة في كنيسة مر بها، لفت نظره قبر مشيد لسيدة نبيلة، وفيما استغرقه التفكير في ما شهد، غلبه النعاس وغرق في أحلام شهد فيها نقاشا بين الجسد الميت والديدان التي تتغذى عليه. يلوم الجسد الديدان التي تنهش ما تبقى منه ويحكي عن أيام كان فيها هذا الجسد معبود العظماء من الرجال، وتكتفي الديدان بأن ترد بقولها إنها تؤدي وظيفتها، فهي تنظف المكان من ما يأنف غيرها من التورط في تنظيفه. لكن، لاشئ من ذلك يردع الجسد عن استعادة أيام العز والتبجح بولع الرجال به، منتديا العشاق القدامى حتى يأتوا ويخلصوه من الديدان.

لكن هذا لا يعني شيئا للديدان التي نهشت لحوم ما لايحصى من البشر والحيوانات، من الجميلات، من المشاهير، من الملوك والأمراء، من الوحوش، والهوام. ولم يبق من كل هؤلاء سوى الرماد والعظام

وبالنهاية، يسلم الجسد بأنه لاحيلة، ويجد العزاء في انتظار عودة المسيح وقيامة الأموات. ويصحو الرحالة من غفوته ويقول إنه دوَّن رؤياه على هذا النحو لأن واحدا من رجال الله نصحه بأن يفعل ذلك. ثم يحض قراء قصيدته على أن يحيوا حياة نقية من الخطيئة وأن يكرسوا وجودهم الدنيوي للمسيح لا لطلب اللذات.

ما نحب أن نركز عليه هنا هو أن أوبئة ذلك العصر، وابتداء من القرن الرابع عشر، قضت بين ما قضت على الأوضاع والعلاقات والرؤى القديمة، وبمثل ما فتحت أبواب القبور لضحاياه من العظماء والحقراء، ومن الشيب والشباب، فقد فتحت الطريق إلى الحداثة. لكن هذا لايبرر اعتماد رؤية ميكانيكية للتاريخ: (الغرب/ الموت الأسود/ الانطلاق باتجاه الحداثة) مقابل (الشرق/ الطاعون/ التراجع الشامل) هذه الرؤية الميكانيكية تتصور أن بوسعها أن تجد بدايات الحداثة تحت كل حجر في الطريق، في كل مدينة أوروبية، ولاتجد سوى الاستمساك بالماضي والحرص عليه، وربما الغرق فيه، في مدائن الشرق.

ابن تغري بردي

ونتوقف أمام مؤرخ من الشرق هو المصري ابن تَغْري بِـرْدي الذي رصد ما فعله الطاعون بمصر والشرق والعالم في العام الثالث والثلاثين من القرن الهجرى التاسع. يبدأ ظهور الطاعون بحالات في شمال مصر وفي قلب دلتا النيل. يقول المؤرخ، في الجزء الرابع عشر من كتابه» النجوم الزاهرة» الذي قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين:

وفي هذا الشهر وقع الطاعون بإقليم البحيرة والغربية بحيث أنه أُحْصي من مات من أهل المحلة زيادة على

خمسة آلاف إنسان. وكان الطاعون أيضا قد وقع بغزة والقدس وصفد ودمشق من شعبان في السنة الخالية"

ولأن فلسطين وجملة الأقطار الشامية كانت تنتمي للسلطنة المملوكية، فحديثه عما وقع هناك لا يمكن اعتباره خروجا عن الموضوع، لكنه يمضي لما هو أوسع لإطار إقليمي يضم أقطارالمشرق، بقوله:

وكان قَدِم الخبر أيضا بوقوع الطاعون بمدينة برصا من بلاد الروم وأنه زاد عدة من يموت بها كل يوم على ألف وخمسمائة إنسان.

وبرصة مدينة تركية مسلمة تقع بين مدينتي اسطنبول وأنقرة. ثم ينتقل من الرصد الإقليمي للوباء إلى رصد حركته العالمية، فيقول:

ثم قدم الخبر بوقوع الوباء أيضا ببلاد الإفرنج

ولا يكون أول ما يرصده المؤرخ إجراءات رسمية تحاصر الوباء والموت وتُؤَمِّن ما يمكن تأمينه من الأدوية والعلاجات. وقع الطاعون في ربيع الآخر وجاء أول رد فعل جمعي في الشهر التالي، في جمادى الأولى وكان رد الفعل هذا يتصل بالطقوس الدينية:

ثم في يوم الخميس أول جمادى الأولى نودي بالقاهرة بصيام ثلاثة أيام، وأن يتوبوا إلى الله تعالى عن معاصيهم، وأن يخرجوا من المظالم. ثم إنهم يخرجون في يوم الأحد رابع جمادى الأولى المذكور إلى الصحراء. فلما كان يوم الأحد رابعه خرج قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني في جمع موفور إلى الصحراء خارج القاهرة، وجلس بجانب تربة الملك الظاهر برقوق، ووعظ الناس فكثر ضجيج الناس وبكاؤهم في دعائهم وتضرعهم، ثم انفضوا.

فتزايدت عدو الأموات في هذا اليوم عما كانت عليه في أمسه.

ومن الواضح أن ابن تغري بردي يبرز هنا التناقض بين ضرورات الاحتراز، الذي ندعوه اليوم التباعد الاجتماعي، وبين اجتماع هذا العدد الغفير من البشر، حتى وإن كان الغرض نبيلا، يتصل بـأداء طقوس مقدسة، ويجمع أهل المدينة، كبيرهم وصغيرهم، بين يدي الخالق.

وبعد احتماع الناس على هذا النحو، وبعد أن زادت أعداد ضحايا الطاعون، ترد أول إشارة من المؤرخ لإجراء رسمي ما، بعد سبعة أيام من خروج الجموع الغفيرة إلى الصحراء:

ثم عظم الوباء في هذا الشهر، وأخذ يتزايد في كل يوم. ثم ورد الخبر بأنه ضبط من مات من النِّحْريرِيَّة بالوجه البحري إلى يوم تاريخه بأنه تسعة آلاف سوى من يعرف وهم كثير جدا، وأنه بلغ عدة الأموات في الاسكندرية في كل يوم نحو المائة، وأنه شمل الوباء غالب الأقاليم بالوجه البحري.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن المؤرخ يبين في العبارة السابقة قصور الجهود الحكومية عن الرصد الدقيق لأعداد الموتى. وهو ما يعود إليه بعد ذلك، بقوله:

ثم في يوم الخميس ضبطت عدة الأموات التي صلي عليها بمصليات القاهرة فبلغت ألفين ومائة، ولم يرد منها في أوراق الديوان غير أربعمائة ونيف، وببولاق سبعين.

وقوله ضبطت عدة الأموات يعني أنه وقع رصد أهلي لأعداد من ماتوا، لابالرجوع إلى بيانات رسمية

ولكن بإحصاء أعداد الموتى الذين صُلِّي عليهم. ومقابل الرصد الأهلي يبدو الرصد الحكومي عاجزا عن رسم الأبعاد الحقيقية للمأساة.

ويصور ابن تغري بردي قسوة الوباء تصويرا ينتقل به من مجال الرصد العلمي المحايد إلى السرد الأدبي المتعاطف مع المشهد الذي يصوره تصويرا تبلغنا شحنته العاطفية القوية، وحزنه العميق، على رغم ما يفصل بيننا وبينه من القرون، فبعد أن يقول لنا إن الطاعون لم ينج من شره حتى "الظباء والذئاب" وحتى " السمك والتماسيح"، فينقل قول المقريزي:

وفشا الطاعون في الناس وكثر، بحيث إن ثمانية عشر إنسانا من صيادي السمك كانوا في موضع واحد فمات منهم في يوم واحد أربعة عشر، ومضى الأربعة ليجهزوهم إلى القبور فمات منهم وهم مشاة ثلاثة، فقام الواحد بشأن الجميع حتى أوصلهم إلى القبور فمات هو أيضا. قاله الشيخ تقي الدين المقريزي في تاريخه، ثم قال أيضا: وركب أربعون رجلا في مركب وساروا من مدينة مصر نحو بلاد الصعيد، فماتوا بأجمعهم قبل وصولهم إلى الميمون.

ويضيف ابن تغري بردي:

قلت: والذي رأيته أنا في هذا الوباء أن بيوتا كثيرة خلت من سكانها مع كثرة عددهم، وأن الإقطاع الواحد كان ينتقل في مدة قليلة عن ثلاثة أجناد وأربعة وخمسة. ومات من مماليك الوالد رحمه الله في يوم واحد أربعة من أعيان الخاصكية.

وقوله الأجناد يعني القادة العسكريين الإقاعيين من بكوات المماليك؛ والمقصود بأعيان الخاصكية أن من ماتوا من مماليك أبيه كانوا من كبار الضباط المقربين إلى السطان.

وتضيق دائرة الموت وتبلغ دار ابن تغري بردي:

ثم أصبح من الغد مات سنقر دوادار الوالد الثاني، وكان من الأكابر في الدولة المؤيدية. هذا خلاف من مات منهم من الجمدارية ومن مماليك الأمراء. وأما من مات عندنا من المماليك والجواري والخدم فلا يدخل تحت حصر. ومات من إخوتي وأولادهم سبع أنفس ما بين ذكور وإناث، وأعظمهم أخي إسماعيل؛ فإنه مات وسنه نحو العشرين سنة، وكان من محاسن الدهر.

ثم ينقل ابن تغري بردي عن المقريزي "ارتفاع أسعار الثياب التي يكفن بها الموتى، وارتفع سعر سائر ما يحتاج إليه أقارب الموتى كالسُّكَّر" . ويقول لنا المحقق إن الناس كانوا يتداوون بالسكر أيامها. وارتفاع سعر السكر إدانة للسلطان الذي كان- كما أوضح المحقق – يحتكر صناعة السكر، بل ويحتكر زراعة قصب السكر، مسيطرا بذلك على تلك المادة التي صارت دواء يتكسب منه السلطان الأشرف برسباي برفع سعره مستغلا بشاعة المأساة لزيادة واردات خزينته الشخصية.

ويضرب الوباء النظام الاجتماعي فتضطرب المقامات. وينتقل المؤرخ من التلميح إلى أخطاء السلطان وحكومته إلى التصريح بما نزل بالمجتمع من اضطراب خلقي لم يسلم منه حتى الموتى:

وقلت أنا :" إنه مات بعض أعيان الأمراء مقدمي الألوف Lieutenants–Colonels فلم يقدروا له على

تابوت حتى أخذ له تابوت من السبيل. وأما الأخ رحمه الله فإنه لما توفي إلى رحمة الله تعالى وجدنا له تابوتا غير أنه لا عدة فيه، فلما وضع الأخ فيه طُرِح عليه سلاري سمور من قماشه، على أن الغاسل أخذ من عليه قماشا يساوي عشرة آلاف درهم.

وهكذا فأحد كبار الضباط يموت فلا يجدون له كفنا سوى كفن ملقى على قارعة السبيل. وأخو المؤرخ، وهو من علية القوم، يسرق المكلف بغسله من عليه قماشا يقدر ثمنه بألوف الدراهم. وكما سرد علينا ابن تغري بردي حكايا مبكية فهو يسرد علينا أيضا المضحكات المبكيات:

ومات لشخص في خدمتنا يسمى شمس الدين الذهبي ولد فخرجنا معه إلى المصلي، وكان سن الميت دون سبع سنين، فلما أن وضعناه للصلاة عليه بين الأموات جئ بعدة كبيرة أخرى إلى أن تجاوز عددهم الحد، ثم صُلِّيَ على الجميع، وتقدمنا لأخذ الميت المذكور فوجدنا غيرنا أخذه وترك لنا غيره في مثل عمره، فأخذه أهله ولم يفطنوا به؛ ففهمت أنا ذلك وعرفت جماعة أخرى، ولم نعلم أباه بذلك، وقلنا لعل الذي أخذه يواريه أحسن مواراة، وليس للكلام في ذلك فائدة غير زيادة في الحزن. فلما دفن الصبي وأخذ أهل الحانوت التابوت، صاحوا وقالوا" ليس هذا تابوتنا، هذا عتيق وقماشه أيضا خلق". فأشرت إليهم باسكات وهددهم بعض المماليك بالضرب، فأخذوه ومضوا؛ فكانت هذه الواقعة من الغرائب المهولة.

وأهل الحانوت هم المكلفون بإتمام إجراءات تجهيز الميت للدفن، وهم لا يريدون أن يرجعوا لحاوتهم بتابوت قديم وبقماش قديم، ويحدثون ضجة بسبب البحث عن أمور لها سعرها في السوق ولا يسكتون إلا حين ضربهم المماليك.

بهذا كله لانعقد مقارنة بين نص أدبي انكليزي وبين نص لمؤرخ مشرقي، هو أديب بقدر ما هو مؤرخ. لكننا، بعد أن أوضحنا كيف أن قراءة بيرنست ورويتينغ ويانكوفسكي لنص القصيدة الانكليزية بهدف البحث عن إرهاصات الحداثة هي قراءة تقوم على رؤية ميكانيكية للعلاقة بين المبدع والظروف العامة لعصره، نبقى حريصين على تجنب الوقوع في خطأ البحث في نص ابن تغري بردي عن ملامح التحجر والانغلاق اللذين حلا بالشرق العربي بفعل ما تعرض له من حملات صليبية ثم حملات مغولية. وهذا خطأ، لأن ابن تغري بردي وأستاذه المقريزي وغيرهما يمثلون الوجه المضئ في ثنائية منيرة – مظلمة نجد بعض تفصيلاتها عند الدكتور كرم حلمي فرحات في تقديمه لكتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة" لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة 845 هجرية.

ففي مقدمته لهذالكتاب للمقريزي يتحدث المحقق الدكتور كرم حلمي فرحات عن الأثر الذي أحدثته الحملات الصليبية ومن بعدها الهجمات المغولية على الشرق العربي من رد فعل ثقافي تمثل بتدهور ثقافي عام، حل بحضارة كانت بلغت درجة عالية من النمو والتقدم. ومرد ذلك إلى أن الحضارة المشرقية المسلمة، وقد صارت مهددة في وجودها ذاته، تركز نشاطها على "الحفاظ على التراث الفكري المجيد بأكثر من [التوجه نحو] المشاركة في إثراء هذا التراث فابتعدت عن الابتكار والتجديد والإبداع

ليصبح التجميع والتأليف الاجتراري والشروح وشروح الشروح السمة الملازمة لهذا النشاط".

هذا الوجه المظلم يقابله وجه من الوجوه المضيئة، يقدمه لنا الدكتور فرحات بقوله:

إلا أن حركة التدوين التاريخي كانت مزدهرة بشكل لافت للنظر حيث وصلت الكتابة التاريخية في العصر المملوكي إلى أرقى مستوى وصلت إليه في تاريخ الفكر العربي الإسلامي. لقد كان هذا العصر بمثابة المعرض الحي لمدى التنوع والثراء الذي وصل إليه التدوين التاريخي، ومن بين مؤرخي العصر المملوكي يقف الإمام المقريزي عالي الرأس، عملاقا لايدانيه أي مؤرخ آخر".

وكتاب" إغاثة الأمة" الذي حققه فرحات هو تأصيل للعلل الاجتماعية – الاقتصادية التي مرت بها مصر عبر العصور، وهي علل وثيقة الصلة بالوباء الذي خصص له المقريزي كتابه هذا. وكأي كاتب يملك رؤيةعلمية واقعية لحركة التاريخ، فالمقريزي، في تدوينه لأخبار المجاعات يحاول أن يتقصى أسبابها. ويقترح العلاج الصحيح لدرئها ومداواتها، كما أنه يتناول طبقات المجتمع المصري في عهده بالتقسيم والتصنيف، ويصف كل طبقة من طبقاته بشئ من التفصيل"

إضافة إلى ذلك، فهذا الكتاب، كما نفهم من دراسة الدكتور شاكر مصطفى التي تحمل العنوان"» التاريخ العربي والمؤرخون: دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام» يبرز إيمان المؤرخين بوحدة الشعوب والبلدان المسلمة، وحدة شاملة ينطبق عليها – كما يقول شاكر مصطفى – ما نفهمه اليوم من مصطلح الوحدة الإسلاميةPan– Islamism.

ويرتبط بهذا المفهوم، مفهوم الوحدة بين الشعوب المسلمة، إيمان مؤرخي الفترة التي نحن بصددها بفكرة تمتد جذورها لأزمنة أقدم، وهي أن المسلمين هم آخر أمم الأرض وأن تاريخهم هو آخر التواريخ، ما جعل الأوبئة الشاملة تبدو لأهل العصر الذي يشهد كل وباء نذيرا بنهاية العالم.

ومن السمات المميزة لهذا الكتاب أيضا الموسوعية في البحث، ويعتبر شاكر مصطفى أنها تعكس" الشمولية الإسلامية في الجو السياسي وتكمله". ونرى نحن أنها طابع كل الباحثين في كل الأمم في ذلك الزمن وفي أزمنة قبله، سبقت عصور التخصص. صحيح أن الموسوعيين Encyclopédistes ينطبق، تحديدا، على المنتمين لجمعية فرنسية كانت تدعى Société des gens de lettres وأعضاء هذه الجمعية من الكتاب هم الذين طوروا الموسوعة التي اشتغلوا عليها من صيف العام 1751 حتى نهاية العام 1765، تحت إشراف محررين اثنين هما دينيس ديديرو و جان لو روند داليمبير. لكن الكتاب في العصور القديمة، وبينهم كثرة من الشعراء، كان الواحد فيهم يكتب في كل ما يعن له، من تربية النحل إلى أدوية البشر والحيوانات إلى أحداث التاريخ ووقائعه إلى الرياضيات والفلك وعلوم اللغة إلخ. في كل شئ.

ونعود فنؤكد أننا لانقصد أن الحداثة بدأت في الشرق متزامنة مع الغرب، فنحن نذهب مع الدكتور فرحات ومع غيره إلى أن الشرق المسلم انطوى على ذاته بعد نجاحه في رد كيد الصليبيين والمغول، لكن الظلام لا يخلو من بقع ضوء، وأكثر المراحل تخلفا لاتخلو من بذور تقدم تبحث عن من يمكن أن يعتني بها. ويهمنا، بين ألمع مؤرخي تلك الحقبة،

أبو العباس المقريزي وأصله من حارة المقارزة في بعلبك، وكان ينسب نفسه للفاطميين، ومن هنا صار يلقب بالعبيدي الحسيني. وإذا كان الانتساب إلى الفاطميين يعطي إيحاء بالعراقة فقد كان المقريزي سنيا على المذهب الحنفي، حتى سن العشرين، لكنه تحول إلى المذهب الشافعي، مذهب أهل السلطة والنفوذ، بعد ذلك.

وكما يقول الدكتور فرحات محقق كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة» فقد تزوج المقريزي بامرأة لا نعرف عنها شيئا ورزق منها بابنة ماتت في طاعون العام 808 هجرية فوضع عن الطاعون كتابه هذا. ومن بين ما نقله فرحات عن من امتدحوا كتاب المقريزي وهم جرجي زيدان ومحمد عبد الله عنان وشاكر مصطفى، يهمنا ماقاله محمد عبد الله عنان من أن : أثر ابن خلدون يبدو واضحا في رسالة كتبها المقريزي بعنوان « إغاثة الأمة بكشف الغمة». نحن نؤصل ما لمسناه من عقلانية عند ابن تغري بردي بإرجاعها إلى المقريزي، ونمضي مع عقلانية المقريزي إلى الأستاذ الأكبر ابن خلدون.

ارتبط الطاعون، الذي اختطف من المقريزي ابنته، بالمجاعة وارتبط الاثنان –الطاعون والمجاعة – على مر العصور بعاملين اثنين أهمهما وأكبرهما مسؤولية عن معظم الكوارث اضطراب معدلات فيضان النيل، والعامل الثاني هو الفتن والاضطرابات التي تنشأ عن صدامات بين النخب العسكرية الحاكمة. ويرجع الدكتور فرحات أهمية هذا الكتاب إلى أنه دراسة تحليلية ناقدة يغلب عليها الطابع الاجتماعي والاقتصادي، وتعد استمرارا لما دأب عليه المقريزي من نقد للأوضاع السياسية ولطريقة حكام البلاد في إدارة شؤونها. وهنا يضع فرحات أيدينا على اثنين من ملامح العقل الحداثي العقلاني الذي يبحث للظواهر الاجتماعية عن أسبابها المادية التي يمكن حصرها وعلاجها؛ والأهم من ذلك أن الكتاب مكتوب بروح فردانية تجسد أسلوبا تميز به المقريزي – تلميذ ابن تيمية – عن غيره؛ ونكرر القول بأن هذه الفردانية هي من أهم سمات الحداثة. ولإثبات تفوق هذا الكتاب يقارن الدكتور فرحات بينه وبين غيره من مؤلفات عصره التي قال إنها تموج " بأخبار الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء، وتؤود بحوادث العزل والولاية، وتنتعش بالتراجم والوفيات والحروب والتجاريد، حتى تكاد شخصية المؤلف لا توجد أو لاتُرى" وبالمقابل، فإن مؤلفات صغيرة الحجم مثل هذا الكتاب"تلقي كثيرا من الضوء على شئ من هوية مؤلفيها".

ويركز فرحات على استقلالية المقريزي وتأبيه على تملق الحكام ومداهنتهم. وإذا كان تلميذه ابن تغري بردي قد ألمح إلى جشع السلطان برسباي الذي احتكر السكر زراعة وصناعة في وقت اشتدت حاجة الناس إليه، وبغض النظر عن صحة ما اعتقده الناس في جدوى السُّكَّر كعلاج للطاعون، فقد كان المقريزي واضحا وحاسما في إدانة جشع السلطان المحتكر. وفي السنة التالية على طاعون العام 833 أي في العام 834، ينتقد المقريزي الخلل الذي حل بأجهزة الدولة، فكثرت المضار كنتيجة لتضارب السياسات الحكومية وعدم الثبات على سياسات بعينها، ماجعل العامة يستخفون بأولي الأمر.

ويعود المقريزي بقارئه لأزمات سبقت، وبلغت من الشدة أن الناس صاروا يأكلون الكلاب والقطط،

فيقول: قلت الكلاب، فبيع الكلب ليؤكل بخمسة دنانير. ثم يقول: أكل الناس بعضهم بعضا. وتحرز الناس، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها، ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرَّحوا لحمه وأكلوه"، ويتبع ههذا بقول أبشع منه، مما ينطبق عليه قول إيريك سلبين عن حكاية ماري أنطوانيت والجوعى الذين نصحت بأن يأكلوا الكعك ما داموا لايجدون خبزا.

وكما تختلط عند المقريزي " الحكايا" المعبرة تعبيرا مجازيا عن الواقع، بالوقائع التي تقوم على المشاهدة والتيقن، تختلط عنده أيضا الرؤى الميتافيزيقية التي ترى في النكبات والأوبئة عقابا سماويا للبشر على أخطائهم بالرؤى العقلانية التي ترجع كل كارثة إلى اضطراب في إيرادات ماء النيل واضطرابات في الشؤون السياسية والإدارية، مع تركيز على إبراز لأخطاء الحكام وخطاياهم.

ابن حجر العسقلاني وزين الدين ابن الوردي

ونتوقف، عند أحد أعلام ذلك القرن وهو ابن حجر. هو محدث وعالم مسلم شافعي المذهب ولد في عسقلان وتوفي في الفسطاط بمصر. وانتقل من الولع بالأدب إلى الاشتغال بعلم الحديث. وعني ابن خحر بالتدريس ولم ينصرف عنه حتى بعد اشتغاله بالقضاء والإفتاء. ويعد كتابه" بذل الماعون في فضل الطاعون" من أشهر ما كتب في القرن التاسع الهجري، عن الطاعون. ويقال إنه وضع الكتاب بعد أن ماتت ابنتاه "غالية" و"فاطمة" بالطاعون في العام 819 من الهجرة.

ويوضح عنوان الكتاب موقف الكاتب من الطاعون ومن كل بلاء، فهو اختبار يتيح للمسلم، إن واجهه على النحو الذي حدده الشرع، أن يفوز برضا الله. ويمكن تلخيص موقف ابن حجر العسقلاني من الوباء ومن كل مصيبة تحل بمسلم، بالرجوع إلى الحديث النبوي:

عن صهيب رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»عجبا أمر المؤمن، إن أمره له كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، وكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، وكان خيرا له». رواه مسلم.

ولا نوافق جوزيف بيرن فيما قاله في موسوعة الموت الأسـود The Encyclopedia of Black Death-2012 عن ابن حجر. هو محق في أن طابع كتاب ابن حجر عن الطاعون هو توليفي بأكثر مما هو ابتداعي. لكن بيرن لايدرك عمق الرؤية الاجتماعية التي عبرت عن نفسها تعبيرا أصوليا خالصا، وسنبين في ما يلي أن معالجة ابن حجر لكارثة الطاعون هي أعقد مما ظنه بيرن. وما استشهاد ابن حجر بابن الوردي إلا علامة على اتساع أفق يكتسبه، على الأقل، بوضع مقامة ابن الوردي في صلب كتابه. ويشير بيرن إلى أن ابن حجر، كأحد أتباع المذهب الشافعي، يرفض ما ذهب إليه الحنابلة، ومنهم شمس الدين المنجي، صاحب كتاب"تسلية أهل المصائب"، المتوفي في العام 785 للهجرة، من المساواة بين الطاعون والموت. فالشافعية يرون الطاعون مرضا كغيره من الأمراض، يمكن أن يبرأ منه المرء، وليس قدرا نستسلم له بل وربما فرحنا به كطريق للشهادة، كما يمكن أن يُفْهَمَ من بعضِ التفاسير الحرفية للأحاديث النبوية.

يقول المنبجي في تقديمه لكتابه المذكور:

ولما كانت المصائب على اختلاف أنواعها من موت وغيره من مصائب الزمان، خطب مؤلم موجع، وأمر مهول مزعج، وردت الأحاديث والآثار، لمن أصيب من الملمات المحتسب الصابر عليها ببشارة الجنات. قال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس. وما أحسن ماقال الشاعر:

المرء رهن مصائب لا تنقضي/ حتى يوسَّد جسمُه في رمسه/ فمؤجل يلقى الردى في غيره/ ومعجل يلقى الردى في نفسه

فأحببت أن أجمع كتابا مسليا لقلوب المحزونين ومفرجا لكرب الملذوعين وسميته "كنتب تسلية أهل المصائب" وكان سبب تأليف هذا الكتاب أنه وقع طاعون في سنة خمس وسبعين ةسبعمئة في رجب واشتد في آخر شوال والقعدة والحجة، وخف في المحرم من سنة ست، ومات فيه الألوف من الناس، وخلت بيوت كثيرة، ومات فيه من الصالحين والعباد خلق كثير وسميته" طاعون الأخيار"، لكثرة من مات فيه من أخيار الناس، ولكن كان أكثره في الأطفال، حتى كان جماعة من أصحابنا ممن له عدة من الأولاد فلم يبق له ولا ولد، وكنت قد جمعت كتابا في الطاعون وأحكامه في سنة خمس وستين وسبعمئة، وهو كتاب حسن ما نظر فيه حسن إلا واستحسنه، وقل ما خرج عنه من الأحاديث والآثار والتواريخ ذلك لم أذكر فيه ما أعد الله للمصابين فيه فأفردت هذا الكتاب، تسلية للمصابين بمصائب الدنيا، وما رأيت وما سمعت أن أحدا لم يصب فيها بمصيبة. وهذا يذكرنا بما قاله الهندي سيدارتا غوتاما (قبل ألفين وخمسمئة عام، فيما يقال) وهو الذي صار اسمه بوذا، حينما جاءته امرأة أيأسها من الحياة أن ابنها مات. فقال لها: سيذهب عنك اليأس حالا. إذهبي فآتيني بإناء من أسرة في هذه القرية لم يمت لها عزيز لديها. وأسرعت المرأة تدق أبواب البيوت، بابا بعد باب، وتسأل أهل كل بيت إن كانوا ممن لم يمت لهم عزيز لديهم. ولما مرت بكل بيوت القرية، واكتشفت الحقيقة، عادت للبوذا وقد تراجع اليأس وإن بقي الحزن مخففا بما تحقق لها من اتساع في في إدراك بديهيات الحياة. لكن المنبجي لا يكافي بما اكتفى به حكيم من دين آخر هو سيدارتا غوتاما، بل ساق إليهم مايدل على أن الصبر والاحتساب لهما عند الله أحسن الجزاء.

إذن، فقد كان الحنابلة من معاصري ابن حجر على حق حين قالوا إن الشيخ أساء فهم ما كتبه المنبجي، كما ذكر بيرن، ونقول نحن إن الخطأ الرئيسي الذي وقع فيه ابن حجر هو الخطأ الرئيسي الذي يُتَّهم به الأصوليون عامة والحنابلة خاصة، ويتمثل ذلك الخطأ، خطأ ابن حجر، في أنه قرأ ما كتبه المنبجي قراءة سطحية وفسره تفسيرا حرفيا: الرجل يقول –بلغته ونعبر عنه نحن بلغتنا – إن المأساة ركن أساسي في الدراما الإنسانية"وما رأيت وما سمعت أن أحدا لم يصب فيها بمصيبة"

نعود لكتاب ابن حجر فنقول: صحيح أن كتابه الذي يقدم السند الفقهي لمواقفه ورؤاه، بالرجوع إلى الأحاديث النبوية وإلى ماروي عن الرسول وصحابته، يعد، في المقام الأول، ثبتا دينيا عالي القيمة، لكن حسه الأدبي القديم، الذي سبق اشتغاله بالقضاء وبالإفتاء،

يجد انعكاسا له –يبقى في إطار توجهه الفقهي الغالب – في وقوفه، في فصل بعنوان" في بعض ما قيل في وصف الطاعون" عند ما نقله إليه شيخه ابن الصائغ عن زين الدين عمر ابن الوردي، صاحب مقامة"النبا عن الوبا"، وفيها:

«الله لي عدة، في كل شدة، حسبي الله وحده، أليس الله بكاف عبده؟ اللهم صل على سيدنا محمد ونجنا بجاهه من طغيان الطاعون وسلم. طاعون روع وأمات، وابتدأ خبره من الظلمات، ياله من زائر، من سنة خمس عشرة دائر، ما صين عنه الصين، ولا منع منه حصن حصين. سلَّ هنديا في الهند، وأَسْنَدَ عن السند. وقبض بكفه وشبك، على بلاد أزبك.

وكم قصم من ظهر، فيما وراء النهر. ثم ارتفع ونجم، وهجم على العجم. وأوسع الخُطا، إلى أرض الخَطا. وقَرَمَ القِرَم، ورما الروم بجمر مضطرم. وجر الجرائر، إلى قبرص والجزائر. ثم قهر خلقا بالقاهرة، وتنبهت عينه بمصر" فإذا هم بالساهرة"[من سورة النازعات].

وسكن حركة الاسكندرية، فعمل شغل الفقراء الحريرية. وأخذ من دار الطراز طراز الدار، وصنع بصناعها ما جرت به الأقدار:

اسكندرية ذا الوبا/ سبعٌ يمد إليك ضبعه/ صبرا لقسمته التي / تركت من السبعين سبعة

ثم تيمم الصعيد الطيب، وأبـرق على برقة منه صيِّب. ثم غزا غزة، وهز عسقلان هزة. وعك إلى عكا، واستشهد بالقدس وزكى. فلحق من الهاربين للأقصى بقلب كالصخرة. ولولا فتح باب الرحمة، لقامت القياكة في كَرَّة.

ثم طوى المراحل، ونزل بالساحل. فصاد صيدا وبَغَتَ بيروت كيدا. ثم سدد الرشْق، إلى مدينة دمشْق. فتربع وتمدد، وفتك في كل يوم بألف وأزيد. وأقلَّ الكثرة، وقتل خلقا ببثْرَة. فالله تعالى يجري دمشق على سنَّتِها، ويطفئ لفح ناره عن نفحات جنتها:

أصلح الله دمشقا/ وحماها عن مسبة/ نفْسُها خَسَّت إلى أن/ تُقْتَلَ الناسُ بحبَّة

ثم أمز المزة، وبرز إلى برزة[يقصد أن الطاعون مص دمـاء أهل المزة، وهي وبـرزة من ضواحي دمشق]. ورُكِّب تركيب مزج بعلبك، وأنشد في قارة" قِفا نبْكْ"[قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ]. وغسل الغسوله، وبلغ من كسوف شمسين سولة [الغسولة وشمسين موضعان، وسولة تعني سؤله، وهو حذف الهمزة لدواعي السجع]. وطرح على الجبة [جباتا] بُرشه، وأزبد على الزبداني نعشه.

ورمى حمص بخلل، وصرفها مع علمه أن فيها ثلاث علل[إشارة إلى علل تجعل اسمها ممنوعا من الصرف، وإلى ما زعمه ياقوت الحموي من فساد هوائها وفساد تربتها وفساد عقول أهلها، وهو زعم جدير بالسخرية]. ثم طلق الكنة في حماه فبردت أطراف عاصيها[نهر العاصي] من حماة:

يا أيها الطاعون إن حماة من/ خير البلاد ومن أعز حصونها/ لاكنت حين شممتها فسممتها/ ولثمت فاها آخذا بقرونها

ثم دخل معرة النعمان، فقال لها: أنت عني في أمان. حماة تكفي في تعذيبك، فلاحاجة لي بك:

رأى المعرة عينا زانها حور/ لكن حاجبها بالجور

مقرون/ ماذا الذي يصنع الطاعون في بلد/ في كل يوم له بالظلم طاعون

ثم سرى إلى سرمين والفوعة، وشغب على السنة والشيعة. وسن للسنة أسنته مشرعا، وشيع في بلاد الشيعة مصرعا. ثم أنطى [أعطى، كما تنطق في الشام إلى اليوم] أنطاكية بعض نصيب، ورحل عنها حياء من نسيان ذكرى حبيب.

ثم قال لشيرز [قلعة في سوريا] ولحارم: لاتخافا مني، فأنتما من قبل ومن بعد في غنى عني. فالأمكنة الردية تصح في الأزمنة الوبية. وأخذ من أهل الباب [قرب حلب] أهلَ الألباب.

ثم طلب حلب، لكنه ما غلب. فهو ولله الحمد أخف وطأة، ولم أقل "كزرع أخرج شطأه"[من سورة الفتح، والمقصود بالشطأ، ورق الشجرة غير القابل للسقوط وهو في الحديث الشريف مثل المسلم]:

إن الوبا / قد غُلِبا / وقد بدا / في حلبا/ قالوا له/ على الورى/ كاف ورا/ قلت وبا

هذا شئ مما نقله ابن حجر عن مقامة ابن الوردي. وبعد أن تطوف المقامة بكثرة من بلاد المسلمين تقول ما يمكننا اعتباره تلخيصا لفلسفة ابن حجر، وتشرح عنوان كتابه هذا؛ إذ تقول عن الطاعون:

ومن فوائده تقصير الآمـال، وتحين الأعمال. واليقظة من الغفلة، والتزود للرحلة"

فهذا يوصِّي بأولادِهِ/ وهذا يودع إخوانه/ وهذا يهيئأشغاله/ وهذا يجهز أكفانه/ وهذا يصالح أعداءه/ وهذا يلاطف جيرانه/ وهذا يوسع إنفاقه/ وهذا يحالل من خانه/ وهذا يُحَبِّس أملاكه[يحولها إلى أوقاف]/ وهذا يحرر غلمانه/ وهذا يغير أخلاقه/ وهذا يُعَيِّر ميزانه[أي يضبطه مقلعا عن الغش]/ فإن كان هذا الوبا قد سبا/ وقد كان يرسل طوفتنه/ فلاعاصم تاليوم من أمره/ سوى رحمة الله سبحانه.

وقد تكون أبلغ صورة في ما اقتطفناه من المقامة هي تلك التي يصور فيها الطاعون بصورة الوحش الذي يفترس حماة الجميلة، ما يذكرنا بالصورة الشائعة عالميا، والمأخوذة عن واحدة من حكايا الغرائب المكتوبة للأطفال وهي «الجميلة والوحشLa Belle et la Bête" التي نشرتها الفرنسية غابرييل سوزان باربو فيلنيرف في العام 1720 بعنوان "الأميركي الشاب وحكايا البحارةLa jeune Américaine et les contes marins – la Belle et la Bête ".

لكن الصورة التي ترسمها الأبيات التي تبدأ به" فهذا يوصِّ بأولاده" بما فيها من حيوية فائقة ومن تجاور وتشابك الحياة والموت والأمل واليأس، قد تكون أجمل تعبير عن قوة الحياة المستضيئة بأمل ينبثق من إيمان عميق بالقضاء والقدر.

البداية والنهاية لابن كثير

وتحيل المقامة قارئها على أعمال لمؤرخين عرب سبقوا عصرها، وقد يكون أهمهم، وأكثرهم شيوعا بين الناس ليوم الناس هذا كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير الدمشقي(1300–1373)، الذي يلخص كتابه بقوله:

«فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات: من خلق العرش والكرسي والسموات، والارضين

وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النبيين، ومجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه. فنذكر سيرته كما ينبغي فتشفي الصدور والغليل، وتزيح الداء عن العليل. ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا، ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة. ثم البعث والنشور وأهوال القيامة، ثم صفة ذلك وما في ذلك اليوم، وما يقع فيه من الامور الهائلة. ثم صفة النار، ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان، وغير ذلك وما يتعلق به، وما ورد في ذلك من الكتاب والسنة والآثار والاخبار المنقولة المقبولة عند العلماء وورثة الانبياء، الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام. ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب، مما فيه بسط لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه. وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صح نقله أو حسن وما كان فيه ضعف نبينه. وبالله المستعان وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم العلي العظيم."

وأهم ما تجده في هذه المقدمة، ماهو متواتر في الكتابات العربية المسلمة، حتى القرن الثامن عشر، من هيمنة الإيمان العميق بوحدة الوجود، وهي موضوع لمجادلات لا نهاية لها، وبخاصة بين المتصوفة وغيرهم. وقد اعددت الآراء في شرح وتأصيل مفهوم وحدة الوجود، ولكن إذا أخذنا بالرأي القائل بأن وحدة الوجود تعني ارتباط كل ما هو كائن ومن هو كائن بمشيئة الخالق فسوف نفهم السبب في أن كل مؤرخ مسلم، وهذا تعميم يبقى مبررا حتى القرن الثامن عشر، يبدأ تأريخه لبلد من البلدان بقصة الكون منذ قضى الله أن يكون. وبعد ذلك يسرد المؤرخ قصة الكون هذه وفق تسلسل أوضحه ابن كثير في ما اقتطفناه من كتابه " البداية والنهاية"، وهو تسلسل يمضي به إلى قصة الحضارة الإنسانية، وفق هذا التصور، من"أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه. فنذكر سيرته كما ينبغي فتشفي الصدور والغليل، وتزيح الداء عن العليل». وببلوغ عصر الإسلام وظهور الجماعة المسلمة يكون التاريخ قد بلغ نهايته وصارت القيامة هي الحدث الوشيك، علما بأن القرب والبعد الزمنيين لا يخضعان هنا لمقاييس بشرية (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ).

ابن خلدون: فكر وثاب في زمن متراخٍ

وقد يكون كل ما ذكرناه عن ابن تغري بردي والمقريزي (بل وعن ابن حجر وابن كثير البعيدين عن أن يكونا من تلاميذ ابن خلدون، وإن قرب بعض الباحثين بين ابن حجر وابن خلدون) تمهيدا للكلام على ابن خلدون، وبخاصة عن كتابه«المقدمة» وهي تأريخ شامل، اجتماعي – اقتصادي لكل ما نشأ وباد من الممالك حتى القرن الرابع عشر الميلادي. وقد كرس أبرز كتاب القرن العشرين من العرب، وفي مقدمهم طه حسين ومحمد عبد الله عنان، مكانة ابن خلدون كأحد رواد علم الاجتماع. وعلى الرغم

من ذلك، وكما قال ساطع الحصري(أبو خلدون) في كتابه"دراسات عن مقدمة ابن خلدون –1943»، بقيت الكتابات في لغات أجنبية أكثر عددا من تلك المكتوبة في لغة ابن خلدون، ومن تلك المكتوبة في غير العربية ما كتبه بالألمانية كامل عياد، بعنوان» نظرية ابن خلدون في التاريخ والاجتماع1930–» وما كتبه بالفرنسية صبحي المحمصاني بعنوان» آراء بن خلدون الاقتصادية1932–». وقد كثرت الكتابات، بعد ساطع الحصري وإلى اليوم عن هذا الرائد العربي لعلم الاجتماع.

فماذا قال عن الطواعين والأوبئة؟ زحف «الموت الأسود» أو الطاعون الكبير من أواسط آسيا إلى أوروبا والشرق الأوسط، قرب انتصاف القرن الرابع عشر، فبلغ تونس في العام 1348 حين كان ابن خلدونه في السابعة عشرة من عمره. وكان بين ضحايا الطاعون والداه وعدد من أساتذته. وكان لذلك ولما تسبب به الطاعون من فوضى ودمار اجتماعيين واقتصاديين أثره البالغ على ابن خلدون. ويتجاوز ابن خلدون مصابه الشخصي ليصف ما حل بالحضارة التي ينتمي إليها بفعل الطاعون الذي ضربها عند انتصاف القرن التاسع الهجري، فيقول:

وأما بهذا العهد وهو آخر المئة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة [...] إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المئة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هِرَمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وفَلَّ من حَدِّها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي وإضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدارعمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة، والله وارثُ الأرضَ ومن عليها، وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث.

وتجد في هذا الذي قاله ابن خلدون عن الطاعون في بلاده، في بلاد المغرب، بعض أهم مكونات فكره الاجتماعي، الذي هو أولا وأخيرا فكر علمي يخضع للعقيدة الدينية ولا يتمرد عليها، وهو ما كانت ترفضه الحداثة، منذ القرن الثامن عشر، وصارت تقترب منه توجهات ما بعد الحداثة، من نهايات القرن العشرين إلى اليوم، في ما نرى أنه سعيها إلى التوفيق بين العلم والدين، على نحو لا علاقة له بحرفية المحاولات الأصولية البروتستانتية –أولا– والمسلمة المتتبعة لخطى الأصولية البروتستانتية –ثانيا – بهذا الصدد. وتثبت أحداث عصرنا بعد نظر وزير ثقافة ديغول وهو أندريه مالرو حين قال (إن صح أنه القائل) إن «القرن الواحد والعشرين سيكون قرن الدين، أو لن يكون أبدا». ويفهم فيرجيل نيموانو، في كتابه «ما بعد الحداثة والهويات الثقافية Postmodernism and Cultural Identities: Conflicts and Coexistence

By Virgil Nemoianu " هذه العبارة، كما نفهمها نحن، على اعتبار أنها، سواء صدرت بالفعل عن مالرو أم نسبت إليه بغير دليل، تعني أننا مطالبون في هذا

لوحة تصور آثار انتشار الطاعون في أوروبا

القرن بأن نستعيد التوازن بين التقدم التقني وبين القيم الروحية. لكننا نحب أن نضيف إلى ماقاله نيموانو أنه من الوارد أن يكون مالرو، أو أي من صدرت عنه هذه العبارة التي يرجح أنها قيلت في الثلث الأخير من القرن العشرين، كان بوسعه آنذاك أن يدرك أن العالم صائر إلى هيمنة القطب الأميركي الواحد، خاصة وأن ترنح الامبراطورية السوفيتية وقرب انتهاء مهزلة الثنائية القطبية لم يكن ليخفى على من يحتلون مراكز رفيعة في المجتمع الصناعي المتقدم، وإذا كان قائل هذه العبارة هو بالفعل مالرو، فمعرفته بأوضاع القوى العالمية الشيوعية هي معرفة مباشرة نتيجة لعلاقته الوثيقة بالقيادة الصينية. وما دامت أميركا هي المهيمنة، فالرجوع للتدين ضروري، لأن كل شئ في أميركا يرتبط بالدين، كما قال آدم أولتر في كتابه "مالا يقاوم" الذي ترجمته مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

داخل إطار راسخ من إيمانه كمسلم، بالقضاء والقدر، يربط ابن خلدون ما يحل بالدول من كوارث يسببها الطاعون، بالشروط الاجتماعية الاقتصادية والثقافية، وأخيرا السياسية، التي تحكم هذه الدول، فيقول" وجاء للدول على حين هِرَمها وبلوغ الغاية من مداها». فهِرَم الدول وانتفاء الغاية من وجودها بضعفها عن التكيف مع مقتضيات العصر، هو ما يجعلها فريسة سهلة للطواعين والأوبئة التي يساعد على ظهورها تفشي الفساد والفقر، على التوالي.

وبالنهاية يكون حجم الكارثة التي يتسبب بها الطاعون مشروطا بشروط قابلة للقياس، كقوله " وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدارعمرانه». وهكذا فالكارثة لا تقع على نحو آلي، فهناك مجتمعات مؤهلة للاستجابة لدواعي السقوط، ربما أكثر من غيرها، ولهذا يقول»وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة"، أي ولم يقاوم.

وبعد الانهيار الكامل والشامل الذي قد تتسبب به جائحة ما، تولد الحياة من جديد. نعم، يضع ابن خلدون يده على حقيقة مؤكدة حين يقول" وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث". لكنه لم يحسن تطبيق القاعدة التي عبر عنها في وضوح سبق به البشرية لقرون تاليات؛ فأثر الطاعون اختلف في شرقي المتوسط وجنوبيه، في جناحي عالمنا العربي وفي الأقطار المسلمة في أسيا غير العربية، عنه في شماليه، في أوروبا التي كانت تستعد لقيامة تواصلت ربما حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وإن كان من الممكن اعتبار الهيمنة الأميركية الراهنة امتدادا، له تمايزه عن الأصل، للنهضة الأوروبية بقرونها الخمسة من الزمان.

لم يحسن ابن خلدون تطبيق القاعدة المهمة التي خلص إليها، لأنه اعتبر ما شهده من تحولات تسبب بها الطاعون بداية "خلق جديد" وهذه حدود معرفة ابن القرن الخامس عشر، وقد تجاوزناها نحن بخبرة ستة قرون. لكنه يعود فيقفز للحداثة حين يضع منهجه الاستقرائي في إطار ديني يتناغم مع ما بعد الحداثة كما نعيشها اليوم: والله وارثُ الأرضَ ومن عليها.

ديكاميرون: الليالي الفلورنسية

أخر شهادة نتوقف أماها هي شهادة أديب القرن الرابع عشر الإيطالي جيوفاني بوكاشيو المتمثلة بمجموعة الحكايا التي نحب أن نسميها «الليالي الفلورنسية» وإن كانت معروفة، عالميا، باسمها الذي وضعه لها مؤلفها وهو «ديكاميرون» ويعني «عشر ليال» مقابل ألف ليلة وليلة ملأتها شهرزاد بحكاياها التي ألهمت الشرق والغرب. وتعد هذه المجموعة من أولى نصوص عصر النهضة، بما تحتويه من نقد اجتماعي ساهم في جعل مواجهة الطاعون بداية عصر غير التاريخ الأوروبي والإنساني.

ومن الواضح في هذا الكتاب أن بوكاشيو متأثر بأسطورة الملك آرثر وزوجته الساحرة غينيفر التي يركز عليها بوكاشيو وعلى الكيفية التي ساعد بها بطل إحدى قصصه الخيالية هذه المرأة على اللحاق بحبيبها لانسلوت، مضحيا في سبيل نصرة امرأة أضناها الحب، بفرصة حصوله على التاج. وتعتبر كثرة من المعلقين أن بوكاشيو كان بذلك من أوائل الدعاة لتحرير المرأة ومساواتها بالرجل.

في الأسبوعين اللذين قضى الهاربون من وجه الطاعون عشرا من لياليهما في قص الحكايا كانوا ينتخبون في كل ليلة من بينهم ملكا وملكة، يكون عليهما تحديد موضوع الحكايا لتلك الليلة. ويستثنى من ذلك ديونيو الظريف الذي يحق له وحده أن يقرر لنفسه موضوع حكاياه، على هواه ومن دون ضابط أورابـط. وديونيو الذي يذكرك اسمه باسم الإله اليوناني، إله النبيذ والخصوبة والنشوة الدينية والمسرح ديونيسوس، هو المعبر عن وجهات نظر بوكاشيو.

ويركز عـدد من الحكايا على فساد الكهان والراهبات المنخرطين في تحصيل الأموال مقابل عمليات تقوم على النصب على الفلاحين السذج. وتنقل بعض القصص عن شاهد يهودي يذهب إلى روما أنه لاحظ كيف أنه كلما أمعن في متابعة تصرفات الكهنة كلما زاد يقينه بأنهم جشعون للمال ومستعدون حتى لبيع الدم البشري، مسيحيا كان أوغير ذلك، بمثل

ما كانوا يبيعون للسذج مقتنيات يزعمون لهم أنها من بقايا القديسين وهي كلها من صنعهم هم. كما تجد في الحكايا إشارات للمخاطر التي تحيط بالتجار الذين يجوبون البحار وإلى التوترات والمحن بين النبلاء والقادة، من جهة، والطبقة التجارية الصاعدة من جهة أخرى، وإلى ما ينشأ عن ذلك من صدامات تهدد أمن المجتمع.

في الحكايا العشرالتي تسرد في اليوم الأول، تتركز ست حكايا على انتقادات لسلوكيات شخصية، وتصور الأربع الأخرى مثالب الكنيسة الكاثوليكية. وفي اليوم التالي تختار إحدى السيدات أن تدور الحكايا حول النهايات المفاجئة والسعيدة للمغامرات المحفوفة بالصعاب، ما يجسد روح المغامرة عند الطبقات البورجوازية الصاعدة، في حين تدور حكايا اليوم الثالث حول من يحصلون على مكاسب عظيمة بعد الإقدام على تضحيات مؤلمة ومن يمنون بخسارة ما ثم تعوضهم الأحداث عن ما خسروه.

وقبل أن يسرد بوكاشيو حكايا اليوم الرابع يدافع عن استخدامه العامية، وهذه من ملامح الحداثة التي تحرر بها الأدب الإيطالي من أسر اللاتينية، كما يدافع عن وجود نساء في صحبة رجال بعيدا عن رقابة المجتمع، في فيللا خارج المدينة. وحكايا هذا اليوم تدور حول العشق والعشاق الذين تنتهي غرامياتهم بكوارث. وفي اليوم الخامس تدور الحكايا حول عشاق يخرجون من أزمات عنيفة مروا بها إلى نهايات سعيدة. ثم نأتي حكايا اليوم السادس عن استخدام الإنسان فطنته وظرفه للإفلات من مواقف محرجة. وفي اليوم السابع يقرر ديونيو أن يكون موضوع الحكايا العشر هو الزوجات اللاتي يخدعن أزواجهن.

ولنتذكر أن ديونيو هو بوكاشيو، الذي يعده المعلقون نصير المرأة بهجومه على مبدأ قدسية العلاقة الزوجية وسخريته منها. وفي اليوم التاسع تختار إحدى النساء أن يكون موضوع الحكايا هو ما تفعله النساء، لا الزوجات فحسب، للتغرير بالرجال، وليس بالأزواج فقط. وتكون حكايا اليوم التاسع من دون موضوع محدد، فيحكي كل واحد أو واحدةعن ما شاء من الموضوعات. وفي حكايا اليوم العاشر، اليوم الأخير، تبرز قيمة الكرم أوالقدرة على العطاء كموضوع يلتزم به الحكاؤون.

بشارة بما هو آت

من هذا العرض العام يتبين كيف أن ديكاميرون كانت تعكس العقل الأوربي على مشارف عصر النهضة، وكيف كانت تعبيرا مبكرا، برأي معلقين وشراح من زماننا، عن قضايا النسوية، كما سبق وألمحنا، وكيف عكست الحكايا الحلم بالعدل عند بوكاشيو وكثرة من معاصريه. ولهذا كله يمكننا القول إن ديكاميرون هي واحدة من الاستجابات للكارثة بالتمهيد لميلاد جديد. وقد كتبت جوان آكسيللا في «ذا نيويوركر»، في الرابع من نوفمبر من العام 2013، تحت العوان «رجل النهضة» إن بوكاشيو»وضع كتابه بين 1348 و1352 عندما كانت قيم العصور الوسطى(البسالة، والإيمان، والتسامي) تستسلم أمام قيم عصر النهضة(المتعة، والتجارة، والواقعية). لقد قضى الطاعون على القرون الوسطى بحلوها ومرها، وفتح الباب لعصر جديد، هو عصر النهضة، بحلوه ومره. وعبر بوكاشيو عن لحظة وداع الماضي والترحيب بالحاضر بروايته تلك، فكانت روايته بذلك بشارة بما هو آت.

الفصل الأول

الإرادة الإنسانية وبناء الحضارة

- أحزان مدينة النور
- وحدة المصير الإنساني
- الخطر الداهم للعدو التافه
- نداء لتنبيه العالم من غفلته
- عبروا الحاجز؟

في العام 1939 ، وعندما كان العالم يستعد لمواجهة حاسمة ضد النازية والفاشية، أعلن المؤرخ البريطاني آرنولد توينبي أن التحدي الذي يواجه الحضارة في طورها الراهن يتمثل في ضرورة "تخليق نظام عالمي سياسي يكون إطارا لنظام عالمي اقتصادي". ولم تمض خمس سنوات على ما قاله آرنولد توينبي، خمس من أعنف وأعجف ما شهد العالم في كل عصوره، إلا وكان العالم – بقيادة واشنطن ولندن وباريس – يضع أساس النظام الذي دعا إليه توينبي، ولكن بالمقلوب: يضع الإطار الاقتصادي لنظام عالمي أصبح بعد قرابة خمسة عقود- بعد سحق الخصم النازي – أساسا لنظام عالمي سياسي، بتأسيس نظام بريتون وودز الذي وصفه مايرون فرانكمان بأنه" الفيدرالية الديمقراطية العالمية" وهو عنوان كتابه حول هذا الموضوع. وقبل أن نوصل الحديث عن النظام العالمي ننبه القارئ إلى أن الثلاثية(واشنطن ولندن وباريس) أقصت برلين، حتى قبل ظهور النازية بعقود، إضافة إلى أن اللعبة الكبرى وجوهرها إقصاء موسكو قائمة قبل ذلك وباقية حتى بعد احتواء ألمانيا في النظام العالمي. وهذا الإقصاء هو سر المشكلات الرهيبة في نظام عالمي لا تخفى – رغم ذلك كله – حسناته. وما يهمنا في النظام العالمي السياسي وفي إطاره الاقتصادي الأوسع والأرسخ هو أن التواصل والارتباط بين بني البشر، على اختلاف مللهم ونحلهم ومصالحهم، أصبحا أكثر وضوحا وقوة في هذا النظام مما كانا عليه في أي زمن مضى، بقوة المؤسات الأممية التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية، وفي مقدمها الأمم المتحدة بجمعيتها العامة ومجلس الأمن المنبثق عنها. وإذا كانت الأممية المؤسسية من أهم ملامح العصر الأميركي، فإن التعايش بين مختلف الأعراق والملل تعلمته الامبراطورية البريطانية من الامبراطورية العثمانية قبل أن تنقله إلى وريثها الأميركي. وسوف يجد القارئ لهذه الموسوعة في موضع لاحق من هذا الفصل إشارة إلى تأثر انكلترا، في فترات مبكرة من تاريخها، بالتسامح بين الملل والنحل المختلفة في الامبراطورية العثمانية.

وقد سبقت قيام الأمم المتحدة بقرون عدة تجارب وخبرات مهدت لمأسسة الأممية في القرن العشرين، قد يكون من أهمها "سلام أوتريشت" أو – "أوتريخت"– الذي قام على معاهدات السلام التي وقعت في مدينة أوتريشت الهولندية في الفترة 1713–1715 وهي المعاهدات التي حلت مشكلة وراثة عرش اسبانيا وحالت دون اتحاد فرنسا وأسبانيا ودون قيام كتلة كاثوليكية تتألف من أقوى أمتين في أوروبا. وقد أسست هذه الاتفاقات لمبدأ توازن القوى المعزز لفرص السلام في أوروبا.

ويلي ذلك في الأهمية سلام ويستفاليا الذي تم التوصل إليه في العام 1648 بعد حرب السنوات الثلاثين la guerre de Trente Ans ليصبح أساس العلاقات الدولية في العالم المعاصر بتأسيسه مبدأ سيادة الدولة الوطنية،كبيرة كانت أم صغيرة، وهو المبدأ الذي صار يعرف، من تلك اللحظة، باسم مبدأ السيادة الويستفالية Souveraineté westphalienne . ثم جاءت لحظة بريتون وودز في العام 1944 التي تجسدت قوتها في مؤسستي البنك الدولي وصندوق النقد الدولي؛ وتبخرت بريتون وودز وبقيت المؤسستان. والأهم أن بريتون وودز كانت محطة مهمة على طريق ترابط لم تنفصم عراه بين مختلف شعوب العالم. صحيح أنها لم تحقق للإنسانية الثنائية التي زعمت القوى الكبرى أنها ستحققها، والمؤلفة من ارتباط لاتنفصم عراه بين مكونيها الرئيسيين «السلام والعدالة» اللذين يبرزهما مايرون فرانكمان، في كتابه «الفيدرالية الديمقراطية العالمية :السلام والعدالة»، لكنها حققت التواصل الذي يمكننا، نحن سكانَ هذا الكوكب، أن نجعله اليوم أساسا لنضال مشترك يضع الإنسانية كلها

ضد كائن ميكروسكوبي، بالغ الضآلة، وإن كان مصدر خطر هائل.

أحزان مدينة النور

نبدأ هذه الموسوعة، في أول يونيو من العام 2020، بعد أن بدأ معدل الوفيات بسبب وباء الكورونا نزوله عن المستوى المرتفع الذي بلغه، في مايو من العام 2020. ولكن في الثاني من يونيو، نطالع مع قراء الفرنسية في مختلف أنحاء العالم، هذه الكلمات المثيرة للأسى التي كتبتها المحررة البارزة في صحيفة «لوموند» فرانسواز فريسو: «لم تعد باريس ترقص، لم تعد تغني، لم تعد تلهو». كان ذلك بعد أسابيع متتالية من ملاعبة وباء كورونا في مختلف أقطار العالم، بإجراءات متتالية ومتناقضة من فرض الحظر ثم تخفيفه ثم إعادة فرضه. وكان المعنى وراء كلمات فريسو واضحا: أيا كانت الإجراءات، وأيا كانت الإشارات إلى احتمال تراجع أعداد الضحايا، فالخوف متواصل ونور البهجة يخبو في مدينة النور.

وعلى الرغم من أن الخوف بقي متواصلا حتى النصف الثاني من يونيو، فلم يكن خافيا على متابع «اللوموند» وغيرها من الصحف الأوروبية والأميركية أن هَمًّا جديدا، اجتماعياً ثم إقتصادياً وسياسياً يشارك الهم الوبائي موقعه في مركز دائرة الوعي العام. يتجسد هذا الهم المستجد في الكلمات التي نشرتها لوفيغارو (السادس من يونيو):"احتجاجا على عنف الشرطة: ثلاثة وعشرون ألفا وثلاثمئة متظاهر في فرنسا، بينهم خمسة وخمسون ألفا في باريس. تقول عنهم لوفيغارو:"على الرغم من الاحترازات والقيود التي فرضتها الاعتبارات الصحية، فقد تدفق المتظاهرون في شوارع باريس وبوردو وليون وليل ومارسيليا للتعبير عن احترامهم لجورج فلويد الذي انتهت حياته على أيدي الشرطة الأميركية، وللاحتجاج على ما تتصف به

تمثال يرتدي قناعا على طول ميدان تروكاديرو بالقرب من برج إيفل في باريس ، 4 مايو 2020

القوى الحافظة للنظام في فرنسا من عنصرية ومن تعال على المحاسبة».

لم يختلف الأمر في لندن. في السابع من يونيو كانت بي بي سي تقول للعالم: "جورج فلويد: الاحتجاجات المناهضة للعنصرية تُخَلِّف 27 من الجرحى بين قوات الشرطة"موضحة أن هذا ما أعلنته شرطة العاصمة يوم السبت السادس من يونيو. ومضيفة أن هناك تخطيطا لمزيد من التظاهرات في مختلف أنحاء الولايات المتحدة، وأن التظاهرات- وهذا أمر بالغ الأهمية – كانت سلمية يوم السبت، لكن شابتها الاضطرابات التي وقعت قبالة داوننغ ستريت.

وهنا يستدعي المرء، على الفور، ما جاء في «واشنطن بوست» يوم الخامس من يونيو : «قبل أن يقسم ترامب على أنه سينهي "الخروج على القانون" الضباط الاتحاديون يواجهون المحتجين قبالة البيت الأبيض». ولم يكن هذا سوى تمهيد لعنوان «واشنطن بوست» الأشد قسوة، في السابع من يونيو: «ليلة من الدمار في واشنطن العاصمة بعد أن اصطدمت الشرطة بالمتظاهرين قبالة البيت الأبيض».

امتزج الخوف من الوباء بالاعتراض على عنف الشرطة الأميركية، الذي أودى بحياة أميركي أسود وتسبب بتصعيد غضب المعترضين على العنف، في مختلف العواصم الأوروبية والأميركية ثم امتد حتى إلى بكين ونيودلهي، حيث تمارس الشرطة كل ما يمكن تخيله من أساليب العنف لقمع المعترضين على الممارسات السلطوية.

هذه التطورات تفرض علينا أن نجيب على سؤالين: الأول هو، لماذا نركز على باريس ولندن وواشنطن؟ ألا يمكن أن يعتبر الإنسان، اليوم، أن عاصمة أوروبا قد تكون بروكسيل، حيث المركز البيروقراطي للاتحاد الأوربي، أو برلين حيث مركز القوة الاقتصادية الأوربية؟ أليست بكين ونيودلهي اليوم مركزاً للحركة نحو المستقبل، بمثل ما أن واشنطن مركزاً للسيطرة (أو لمحاولة السيطرة) على الحاضر؟ فلماذا نركز على باريس ولندن وواشنطن؟ هذا هو السؤال الأول. والثاني هو، هل خروج الناس في هذه المدن الثلاث هو خروج عن السياق وانتقال من الصراع ضد الوباء الفيروسي إلى وباء آخر، وباء اجتماعي هو العنصرية؟

الشقيقات الثلاث

نجيب على السؤال الأول بالقول إن هذه العواصم قادت العالم، منذ انتهى القرن الثامن عشر، نحو ما يملكه العالم اليوم من مؤسسات معنية بحل الخلافات بين الدول وبتعميق التعاون في سبيل تحقيق الغايات – التي لم تزل بعيدة – لحضارتنا الإنسانية، من سلام وتقدم ورفاه، عبر مسيرة انتقلت فيها لراية من كل واحدة من المدن الثلاث للأخرى حتى صار بوسعنا، في حدود سردية النظام العالمي الراهن، أن نطلق عليهن اسم"الشقيقات الثلاث".

قد تكون بداية المسيرة هي الثورة الصناعية في بريطانيا في القرن السابع عشر بما وضعته من أساس مادي لعالمنا المعاصر؛ لكن من المؤكد أن الثورة الفرنسية وضعت للعالم الحديث الأسس الأخلاقية، والسياسية، والقانونية، التي عبر عنها الثالوث الثوري المقدس"الحرية والإخاء والمساواة". صحيح أن آباء الحداثة (المادية الملموسة والتي يمكن حسابها بالورقة والقلم) في انكلترا، في الفترة التي امتدت من العام 1644 إلى العام 1688 (الثورة المجيدة The Glorious Revolution) فتحوا الباب أمام تحولات عميقة في طبيعة الحضارة الإنسانية، لكن هذه التحولات ارتبطت بميل عارم للعودة إلى أزمنة سلفت، ربما تخيل من تخيل أنها كانت أجمل وأنقى وأكثر عدلا. ولم يكن هذا سوى استمرار لتصورات ظهرت، بحسب تيدا سكوكبول وماير

كستنبوم (The French Revolution and the Birth of ModernityEdited byFerenc Fehér–1990)، قبل القرن السادس عشر بفترة طويلة، وكانت تربط مفهوم الثورة بدورات فلكية. لكن التوجه المستقبلي للثورة الفرنسية هو الذي انتصر وصار مهيمنا حتى في بريطانيا التي لم تتتعاف تماما، برغم ذلك، من ميولها الماضوية إلى اليوم، والأهم أن هذا التوجه المستقبلي هو السائد في البلد الذي انتقلت إليه قيادة العالم، بعد بريطانيا ونعني به الولايات المتحدة.

قادت بريطانيا القوى الأوربية لمحاصرة نابليون بونابرت وإنهاء الأجواء الثورية بإلحاق الهزيمة بالجيوش الفرنسية في «واترلو» ثم بدورها البارز في مؤتمر فيينا، في العام 1815. وعلى رغم المعارضة البريطانية للثورة والثوار فقد اقتسمت مع بقية دول أوروبا موروث الثورة وعالجته وتركت عليه بصمتها، فصارت لندن سيدة مدن العالم، من ذلك التاريخ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وإن كان هناك من يرى أنها، بعد الحرب العالمية الأولى، ومنذ مؤتمر فرساي الذي نظم عالم ما بعد الحرب، كان رئيس وزرائها لويد جورج الصورة المهيمنة، ظاهريا، على مؤتمر فرساي، وكان شبح القوة الأميركية وراءه(ووراء القوة البريطانية الظاهرة) القوة الحقيقية الباطنة، التي ظهرت للعلن بعد سحق النازية الألمانية وحلفائها في الحرب العالمية الثانية. المهم أن الثورة بمعنى التجدد الدائم، صارت، منذ العام 1789، قيمة عليا تحكم الحركة باتجاه المستقبل، وأصبح كل نظام اجتماعي أو فكري يوزن بمقدار استيعابه للنزعة المستقبلية وتجسيده لقوانينها وديناميا تها.

وفي كتاب" باريس : عاصمة الحداثة Paris, Capital of Modernity –2003 « يقول ديفيد هارفي إن الانطلاق باتجاه المستقبل، والانعتاق من أسر الأوضاع والعلاقات والمؤسسات والقيم الموروثة، بهدف خلق عالم جديد، لا يعني تدمير الموروث بل يعني تجديده وتعديله على

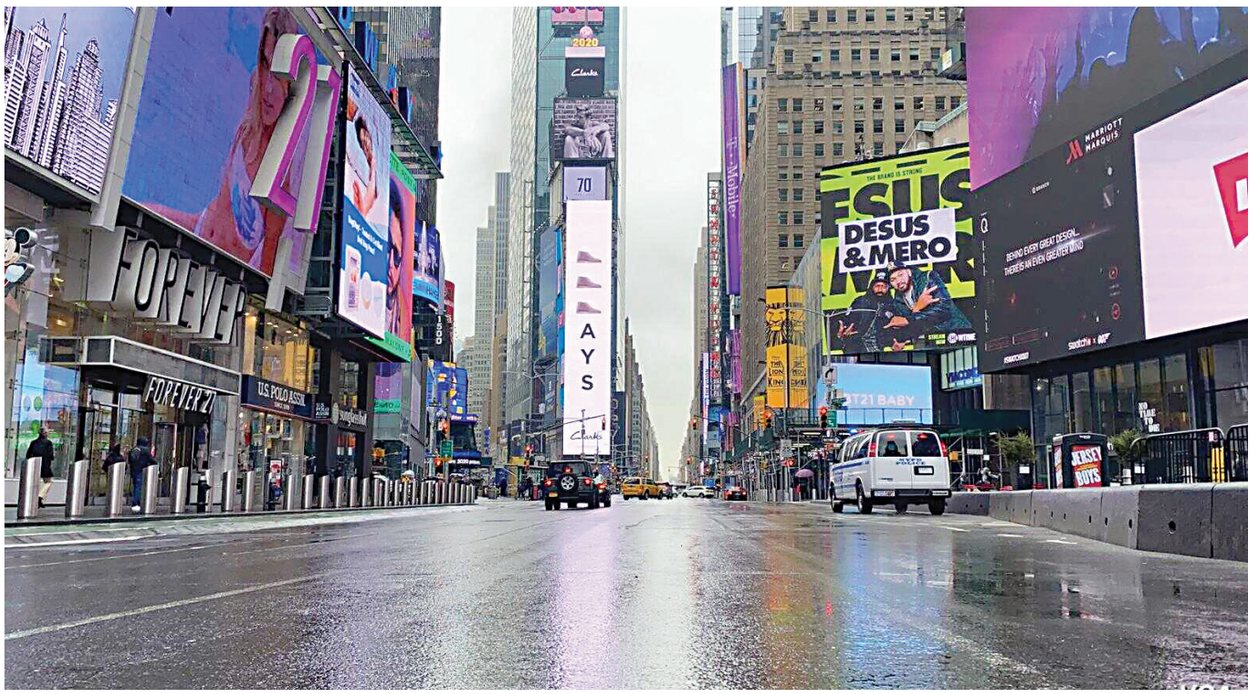

ساحة تايمز سكوير فارغة في مدينة نيويورك أثناء الحظر

غرفة عناية مركزة لعلاج مرضى كوفيد – 19 في الصين (رويترز)

نحو يلائم احتياجات الحاضر والأوضاع المستهدفة في المستقبل ، ولهذا فهو يفضل مصطلح" التحديث" على مصطلح "الحداثة". وهو لا يؤسس تصوراته لدور باريس في التأسيس للحداثة (أو للتحديث، كما يريدنا هو أن نقول) على موروث الثورة الفرنسية في العام 1789، فقط، بل وعلى موروث "ربيع الأمم" أو ثورات العام 1848، لأسباب من بينها أن الثورة انطلقت من فرنسا في فبراير من ذلك العام، وترددت أصداؤها في خمسين بلدا، وإن كانت أهم التطورات التي تسببت بها كانت تلك التي وقعت في فرنسا وهولندا وامبراطورية الهابسبورغ وكذلك في دول الاتحاد الألماني التي تكونت منها، بعد ذلك، الامبراطورية الألمانية التي تمحور التاريخ في الغرب، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على محاصرة طموحاتها وتحييدها، بدليل أن هزيمتها في الحربين العالميتين الأولى والثانية هي التي يقوم عليها النظام الدولي الراهن.

وتتجسد هذه الحقيقة في ما قاله بعد الحرب العالمية الثانية الأمين العام الأول لحلف الناتو لورد هاستينغز ليونيل إيسماي، حين حدد أهداف الحلف بأنها: أن يبقى الاتحاد السوفييتي بعيدا، وأن تبقى الولايات المتحدة معنا، وأن يبقى الألمان بأسفل. وعندما نتحدث عن التحالف الأطلسي(الناتو) فنحن نتحدث عن القوة الأنكلو– أميركية، عن النتيجة التي ترتبت على عجز فرنسا عن مواجهة العدوان الألماني في الحربين العالميتين الأولى والثانية، عن تدخل قادة بريطانيا والولايات المتحدة لاستخلاص عاصمة الحرية، باريس، من قبضة النازية، عن صعود الأميركيين، وهم البريطانيون الجدد، إلى موقع قيادة العالم.

لم تكن المدينة الثالثة، واشنطن، تريد أن تقفز فوق المحيط لتغرق مع بقية القوى الغربية في أوحال الصراع على العالم. الميول الانعزالية التي يلام عليها اليوم الرئيس دونالد ترمب قديمة ومتأصلة في أقسام لايستهان بها من الثقافة الأميركية.بقيت واشنطن ميالة للعزلة، حتى بعد أن انتهى الزمن الجميل La Belle Epoque ، الذي

امتد من العام 1870حتى حتى العام 1914، وهو الزمن الذي كان السلام البريطاني Pax Britannica مهيمنا فيه على العالم ، قبل أن تنهيه الحرب العظمى أو الحرب العالمية الأولى(يوليو 1914 – نوفمبر 1918). وبعد أن أصبح واضحاً أن الخطر الألماني يهدد باجتياح حلفاء واشنطن، تقدم الرئيس وودرو ويلسون من الكونغرس بطلب السماح بانخراط الولايات المتحدة في الحرب إلى جانب حلفائها، بهدف جعل العالم "مكانا آمنا للديمقراطية". خسرت القوات الأميركية مئات الألوف من جنودها وضباطها وخسرت أوروبا الملايين من المقاتلين والمدنيين، ومات الملايين من كثير من شعوب الأرض، حتى صار عدد ضحايا تلك الحرب يقدر إجماليهم بعشرين مليون قتيل.

وفي العام 1918 أصدر ويلسون نقاطه الأربعة عشر الشهيرة التي كانت بمثابة خطة وضعت الأسس لإنهاء الحرب، كما وضعت الأسس لعالم يقوم على التعاون بعد انتهاء الحرب. ومن أهم ما نصت عليه خطة ويلسون حرية البحار والتجارة الحرة وإنهاء السيطرة الأجنبية على البلدان الواقعة تحت الاحتلال، مع إعطاء حق تقرير المصير للأمم غير التركية الخاضعة للامبراطورية العثمانية. وكان ذلك كله تمهيدا لظهور عصبة الأمم. وهذه بدورها كانت تمهيدا لقيام الأمم المتحدة، وإذا كانت الولايات المتحدة التي تقوم فلسفتها السياسية، بالأساس، على تعددية مراكز القوة وتوزيعها بين المناطق والمنظمات والأفراد داخل البلاد، قررت أن تكون نيويورك، لا واشنطن هي مقر مجلس إدارة عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، فهذا لا يمنعنا من النظر إلى واشنطن، باعتبارها مركز الاتحاد الأميركي وعاصمته السياسية، المحطة الثالثة على مسار انتقال عالمنا إلى نظام أممي تمكن من البقاء بوجه أعاصير سياسية وعسكرية، منذ أُعْلِن ميثاقُه في السادس والعشرين من يونيو من العام 1945، ثم بدأ تفعيل الميثاق وتشغيل أجهزة المنظمة في الرابع والعشرين من أكتوبر من العام ذاته.

لكل هذه الأسباب نركز على العواصم الثلاث، لتوضيح دورها في تأسيس نظام عالمي يسمح بتجاوز المصالح إلى القيم، وبتجاوز الوطنية إلى الأممية، ولو بقدر لايرقى لطموحات الإنسانوية humanism «مشتقة من الإنسان والأنسنة» التي تكتسب كل يوم أنصارا جددا وتمتد إلى بقاع جديدة في عالمنا. فما هي الإنسانوية التي لا يمكن من دونها الحديث عن أي تعاون أو تكافل أو تعاضد بين البشر؟

بعيدا عن الالتزام الحرفي بفلسفة الإنسانويين في صورتهم الراهنة، فالإنسانوية ، منذ ظهورها في عصر النهضة، في أواخر القرون الوسطى، هي فلسفة عقلانية تسترشد بالعلم، وتستلهم الفن، وتتحرك بقوة التعاطف والتعاضد بين بني البشر. وبتأكيدها على الكرامة لكل فرد من أفراد النوع البشري، فهي تحبذ تعظيم الحرية الفردية وتوسعة الفرص المتاحة للبشر، مع ربط الاستفادة بهذه الفرص بضرورة تحسين الأوضاع الاجتماعية والكوكبية، باعتبار هذه المسؤولية إلزاما لكل فرد، وإلزاما لكل نظام اجتماعي- سياسي. وهي تدعو للديمقراطية التشاركية، وتدافع عن حفوف الإنسان وعن العدالة الاجتماعية. ومع التحفظ على تحرر الإنسانوية المعاصرة من كافة أشكال الميتافيزيقا، فمن الممكن أن تستفيد حضارتنا الراهنة، وهي تواجه جائحة مخيفة يرى الكثيرون أنها نشأت عن انفصال الإنسان عن الطبيعة، من الممكن أن تستفيد حضارتنا من نظرة الإنسانوية إلى الكائنات البشرية كجزء من الطبيعة، واعتبارها الخبرة الإنسانية مصدرا لكل قيمة خلقية أو دينية أواجتماعية أو سياسية، وإن تجاهلت تأثير الطبيعة والعلاقات الأسرية والاجتماعية على

الفرد، وضرورة أن ينصاع الفرد للضرورات الطبيعية والمجتمعية.

هذا تلخيص لأدوار لعبتها العواصم الثلاث في تاريخ العالم، مع تركيزعلى تنامي مبادئ التعاون والتضامن والتعاضد في مواجهة أخطار الحروب والمجاعات والأوبئة. وفي التلخيص الإجابة على السؤال الأول: لماذا نركز على باريس ولندن وواشنطن؟ .

من وباء إلى وباء؟

أما السؤال الثاني: هل خروج الناس في هذه المدن الثلاث هو خروج عن السياق وانتقال من الصراع ضد الوباء الفيروسي إلى وباء آخر، وباء اجتماعي هو العنصرية؟ فقد أجابت عليه المعلقة البريطانية العربية الأصل منال لطفي في تعليقها على تظاهرات لندن، على شاشة بي بي سي العربية يونيو 2020، قائلة إن تظاهرات الجماهير الغاضبة التي رفعت لافتات كانت أبرزها لافتة تقول "حياة السود لها قيمتها Black Lives Matter"، التي انتقلت من الولايات المتحدة إلى بريطانيا وفرنسا، هي احتجاج، ليس فقط على ما فعلته الشرطة الأميركية بالأميركيين من أصول إفريقية، بل وعلى العنصرية في بريطانيا، وهي عنصرية وثيقة الصلة بوباء الكورونا الذي قالت هي إن نسبة ضحاياه من البريطانيين السود والشرق أوسطيين والكاريبيين إلى إجمالي الضحايا يفوق نسبتهم إلى مجمل السكان بفارق كبير. وأضافت قائلة إن الوباء أكثر قدرة على افتراس بنات وابناء هذه الجاليات بسب انتشار أمراض بعينها بينهم، بمعدلات تفوق انتشار هذه الأمراض بين البيض؛ وتلك هي أمراض السِّمنة وارتفاع ضغط الدم وداء السكري، إضافة إلى اضطرار المنتمين لهذه الجاليات إلى السكنى في المساكن التي تؤمنها الإدارات المحلية للفقراء council houses وهي مساكن يغلب أن تكون غير صحية، ويتكدس فيها أفراد هذه الجاليات على نحو يساعد على انتشار الأمراض المعدية؛ ولهذا السبب فقد اعتبرت منال لطفي أن هذه الأمراض – وبينها "مرض" الاضطرار للإقامة في مسكن غير صحي– هي "أمراض سياسية". وما قالته منال لطفي ينسجم مع ما جاء في تقرير كتبته جيل لوليس مراسلة وكالة أسوشيتد برس في لندن، بتاريخ الثاني من يونية، العام 2020 بأن الأقليات في بريطانيا كانت أعداد الوفيات بين أفرادها أعلى من أعداد الموتى من مواطنيهم البيض، بحسب دراسة أجرتها السلطات الصحية في البلاد، ونشرت يوم الثامن والعشرين من مايو. لكن الدراسة لم تجب على السؤال الكبير: لماذا؟

وبحسب الدراسة الصادرة عن هيئة الصحة العامة في انكلترا The Public Health England فالمنتمون إلى الإثنية البنغلاديشية كان عدد الوفيات بينهم ضعف عدد الوفيات بين البريطانيين البيض.

وأضافت لوليس: قال التقرير أيضا إنه وفقا لدراسة عن تأثيرات الجنس والعمر والفاقة ومنطقة الإقامة، فإن الناس من أصول صينية وهندية وباكستانية، وغيرهم من المنتمين لأصول آسيوية وكاريبية وإفريقية سوداء، ارتفعت معدلات التعرض لخطر الموت بينهم بمايتراوح بين 10 و50 بالمئة، مقارنة بالبريطانيين البيض.

ونقلت لوليس عن وزير الصحة البريطاني مات هانكوك إنه بوسعنا القول إن"انتماء المرء إلى إثنية سوداء أو أي إثنية من الأقليات هو عامل مخاطرة رئيسي". كما نقلت قوله أمام مجلس العموم: "الناس أغضبهم الافتقار إلى العدل، وهذا مفهوم، وقد كشف الوباء عن تفاوتات هائلة في الرعاية الصحية في بلادنا".

انهيار الحضارة

وقد يكون إقتران جائحة كورونا، وبخاصة في ضوء ما يقال عن احتمال عودتها بشراسة قد تكرر ما سبق أن فعلته بكوكبنا الانفلونزا الاسبانية أو تفوقه، باضطرابات اجتماعية وسياسية واقتصادية، مبررا للتساؤل: هل حضارتنا الإنسانية الراهنة مهددة بالانهيار؟ أطلال الحضارات القديمة، على تفاوت حظوظها من العظمة هي خير شاهد على أن الانهيار هو ما آلت إليه كل حضارة سبقت. وإن تباينت التفصيلات التاريخية المتصلة بالأسباب المباشرة للانهيار وبالطبيعة الخاصة للأحداث والشخصيات التي لعبت الأدوار المؤثرة، في مرحلة/ مراحل الصعود ثم في مرحلة/ مراحل الانهيار، فبوسعنا أن نجد في كل حالات الانهيار قواسم مشتركة يمكن أن نؤسس عليها الدروس المستفادة من تجارب الأولين.

يضع مؤرخ وجغرافي وأنثروبولوجي أميركي هو جارید دیاموند، في كتابه "الانهيار2005 – Collapse" سببين مهمين لانهيار الحضارة، وهما غياب التنوع والتعددية في المجال الاجتماعي- السياسي-الاقتصادي، والتراجع الحاد في حجم السكان. يبدو هذان العاملان من ديناميات السقوط التي تفعل فعلها، عبر العصور، بأن تقلل قدرة الجماعة البشرية على مواجهة خطر طارئ كالطاعون أو المجاعة أو غير ذلك. لكن الحضارة الراهنة، على رغم ما تبقى فيها من عنصرية قديمة، تعرف من التعددية العرقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ما لم تعرفه حضارة سبقت. ولكن يتعين أن نشير إلى ما قاله كثيرون من مؤرخي الحضارات عن التعايش بين الأعراق والديانات المختلفة في ظل الامبراطورية العثمانية وعن تأثر الثقافة الانكليزية بموروث التعايش العثماني. ومن ذلك ما جاء في البحث الذي تقدم به في العام 2009 الأستاذ في جامعة أكسفورد جيرالد ماكلين، عندما كان يعمل في جامعة إكستر، للمنتدى السنوي للثقافات والحضارات والأفكار في جامعة بيلكنت التركية بعنوان" تحولات الثقافة الانكليزية في بواكيرها عبر احتكاكها بالعالم العثماني" وفي هذا البحث يبين ماكلين "كيف تأثرت الثقافة الانكليزية في بواكيرها باحتكاكاتها بالامبراطورية العثمانية" رابطا ذلك بما عرفه الانكليز في تلك الامبراطورية من " البن والمقاهي والأحصنة والحمامات والأزهـار والأشجار وأفكار التسامح الديني". ونضيف نحن أن انكلترا وفرنسا وألمانيا نقلت الكثير من "أفكار التسامح الديني" كما عرفها العثمانيون ومن سبقهم من المسلمين إلى بقية بلدان الغرب حيث هي اليوم جزء أساسي من الرؤية الغربية للعالم. ولا يعني هذا أن الإيمان بالتنوع والتعددية في الفضاء العام صارا أمرا مفروغا منه في حضارتنا المعاصرة. ما يعنيه هذا هو أن العمل من أجل مزيد من التنوع ومزيد من التعددية قائم على قدم وساق، في مختلف أنحاء العالم، وكلما لمس الرأي العام، في أي بلد من بلدان العالم، تقريبا، غيابا للتنوع والتعددية أو تراجعا فيهما أو خروجا عليهما، بدأت الاحتجاجات في الحدود التي تقررها ظروف اللحظة والموقع، في كل بلد من بلدان العالم، على وجه التقريب. وهذا يدفعنا لاستبعاد غياب التنوع والتعددية كسبب محتمل لتأزم أو- لاقدر الله – انهيار حضارتنا الراهنة.

فماذا عن تراجع حجم السكان؟ لا يمكن أن يكون هذا، في المدى المنظور سببا لمشكلة ما. وعلى العكس، فبعض أهم مشاكل العالم اليوم مرجعها –برأي كثيرين – إلى تزايد معدلات نمو السكان، بالمطلق، وتزايدها بمعدلات تفوق قدرة بلدان بعينها على التوافق مع الزيادة. وقد تكون المشكلتان السكانيتان الأعقد اليوم هما: تراجع معدلات زيادة السكان، مع زيادة متوسط العمر في بلدان متقدمة تعاني اليوم من ارتفاع نسبة كبار

السن إلى إجمالي عدد السكان؛ وتسارع وتيرة الزيادة السكانية في بلدان لا تتناسب قدراتها مع متطلبات هذه الزيادة.

وحدة المصير الإنساني

وفي مواجهة الجائحة الراهنة يبدو الخوف على مستقبل حضارتنا، أمرا مبررا. فهل يكون انهيار حضارة ما إيذانا باختفائها إلى الأبد؟ يقول دياموند، إن بعض الحضارات، مثل مصر والصين، تيسر لها أن تنبعث مجددا وتستأنف مسيرتها الحضارية، عبر العصور. لكن حضارات أخرى مثل حضارة الرابا نوي Rapa Nui على جزيرة القيامة Easter Island ، في الباسيفيك واجهت مصيرا مختلفا. انقرضت هذه الحضارة، ولم يتبق منها سوى تماثيل تثير الحيرة بأكثر مما تثير الإعجاب. ويمكن أن نقول الأمر ذاته عن حضارة المايا القديمة. وتستحق ظروف الانهيار التي أحاطت بانهيار المايا أن نقف أمامها مطولا، لأن انهيار تلك الحضارة ارتبط بتحولات المناخ، وهو مايبدو خطرا كونيا ماثلا اليوم؛ لكننا نكتفي، في هذا الموضع، بأن نشير إليها كواحدة من الحضارات التي ذهبت بغير عودة.

وكافة الانهيارات القديمة كانت انهيارات محلية أو إقليمية، لم يكن العالم يعرف أو حتى يفكر باحتمالات انهيار عالمي يجتاح الكوكب من أقصاه لأقصاه. كانت تسقط مجتمعات أو حضارات إقليمية، هنا وهناك، وتواصل البقية الباقية من مجتمات العالم وحضاراته مسيرتها، من دون أن تتأثر بما جرى لغيرها. لكن العالم صار، بمعنى ما، كتلة واحدة، عندما اكتسب انتقال الأشخاص والبضائع والأفكاروالمعارف والأخبار، من بلد لبلد ومن إقليم للآخر، الطابع السريع الذي ساهمت فيه الحضارة الأميركية، منذ القرن الثامن عشر، مساهمات عم خيرها العالم كله إلى يوم الناس هذا. فاهتمام "الأميركي الأول" بنجامين فرانكلين بالبريد جعل له نظاما حوله إلى أحد أهم مكونات البنية التحتية للحضارة، ثم بدأ عصر التلغراف عندما أبرق صمويل مورس إلى شريكه التجاري برقية أُخِذ نصها من التوراة"بم قضت مشيئة الرب؟"فبدأ التاريخ الرسمي للتلغراف.

سبقت ذلك محاولات عدة، لكن هذا هو النص التأسيسي المعتمد للاتصالات البرقية، منذ القرن التاسع عشر وتتابعت بعد ذلك ثورات الاتصال والنقل التي خلقت مراكز عالمية جديدة للثروة والقوة ووضعت في هذه المراكز أسس النظام الدولي الراهن بعد أن انتقل مركز الثقل السياسي والعسكري والتجاري من عواصم القرن الثامن عشر الكبيرة الثلاث، باريس وبطرسبورغ واسطنبول، إلى عواصم غربية في مقدمها العاصمة البريطانية لندن. ومنذ ذلك العهد ونحن نعيش في عالم تعرف فيه الدول الوطنية حدود قوتها وقوة حلفائها وخصومها، وتتبادل مع الكل العداوة حينا والمهادنة حينا، مع حرص دائم على بقاء شبه نظام اقتصرت رقعته على أوروبا ثم راحت تتسع لتشمل العالم كله. وفي هذا الإطار الذي صار نظاما بمعنى ملموس بعد الحرب العالمية الثانية، تخرج الشرائح المستنيرة والمحبة للسلام في عواصم كبرى لتنتقد حكوماتها حين تعتدي هذه الحكومات على بلد يقع على هوامش النظام الدولي. وفي هذا الإطار أيضا تنشط منظمات حكومية وأهلية لتنفيذ برامج إغاثة في أقطار تفصلها عنها البحار والمحيطات، وإن لم تتوقف مؤامرات وتحضيرات في العواصم التي تنطلق منها جهود الإغاثة لشن الحروب ومواصلة السلب والنهب.

ومن أهم خصائص هذه المرحلة من تاريخ العالم، أن ما يحدث في قرية في الصين أو في مالي أو في جمهورية من جمهوريات أميركا اللاتينية قد يجد صداه في معظم دول العالم، كبيرها وصغيرها. وقد كان هذا الصدى،

ولايـزال، منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم، استجابة مركبة ومتعددة العناصر، يتداخل ويتفاعل فيها حرص النخب المهيمنة في عواصم القرار على مصالحها المادية والسياسية، وحرص القوى المحافظ المساندة دوما لسياسات القوة والسيطرة والنهب، من ناحية، وحرص التيار الذي يقدم مصالح الغالبية في بلاده واعتبارات السلام العالمي على مصالح النخبة والميال دوما للتهدئة والمهادنة والحلول الوسط، من ناحية أخـرى، كما تتداخل وتتفاعل فيه طروحات مسؤولة قد تجمع عناصر من اليمين إلى عناصر من اليسار، وطروحات عنصرية واستعلائية جامحة، من جهة، وأخرى مثالية أوحتى حالمة، من جهة أخرى.

صحيح أنه لازال تجار الحروب يعتاشون على الحرائق العالمية والإقليمية، على الحروب التي يتهمهم الكثيرون بأنهم يشعلونها عامدين، على بيع الأسلحة والمعدات الحربية؛ ولازال الثراء المتزايد في جانب من جوانب كل مجتمع على حدة، وفي جانب من جوانب الكوكب ككل، ممثلا بنخبة كونية تجاوز ثراؤها حدود المعقول، يحول بقية الجنس البشري إلى أُجَراء لا يعرفون الطمأنينة، ويقع كثيرون منهم في براثن المجاعات. صحيح أن مفهوم"وحدة المصير الإنساني" لم يصبح بعد دينا يؤمن به كل البشر، لكن من المؤكد أن التضامن بين الجماعات والأفراد قيمة يتزايد الاستمساك بها، وتكسب كل يوم أرضا جديدة، في كافة أنحاء العالم وبين كل أجناس الأرض، وإن بدرجات متفاوتة. ليس فقط لأن الوعي الكوني بالقيم الإنسانية يتزايد ويَعْمُق، ولكن أيضا لأن مصائر الناس، بفعل العولمة، صارت مترابطة، فصار مفهوما أن ما تصفه ميانمار بأنه شأن داخلي، ترتبت عليه تحولات إقليمية تجاوزت الحدود الوطنية لميانمار، إلى أقطار آسيا الجنوبية وآسيا الجنوبية الغربية. وصار مفهوما أن ماتسعى إليه الحكومة الراهنة في إسرائيل من ضم لأراضي الفلسطينيين يجابه باعتراضات تتجاوز إسرائيل إلى أربعة أركان المعمورة. ولهذا يبدو مفهوما أن يقول الرئيس الأميركي دونالد ترمب ومعاونوه إن تكتم الصينيين، إن صح أنهم تكتموا، على ظهور فيروس كورونا في ووهان الصينية.

ومع ما يتهدد جهاز المناعة عند الإنسان اليوم من أخطار قد يكون سببها متصلا بتدهور صحة الكوكب، كما يقول المدافعون عن البيئة، أو أسباب أخرى مثل انتشار العيش في بيئة مصطنعة وغير صحية(مكيفات، مبردات، سخانات، إضاءة على مدار الأربع والعشرين ساعة، إلخ)، أو الإفراط في تعاطي المضادات الحيوية، كما يقول آخرون؛ ومع تزايد معدلات التقارب بين البشر والتواصل والانتقال من بقعة لأخرى على ظهر الكوكب، يمكن أن تصبح للمفهوم المعروف باسم"أثر الفراشة butterfly effect" دلالة جديدة؛ فهذا المفهوم الذي يربط أصغر حدث في العالم"، مثل رفرفات جناح فراشة، مثلا، بأضخم حدث فيه، كحرب كونية أو كساد عالمي، يمكن أن نعطيه دلالة جديدة، ولو بقدر من المبالغة التي هي من مكوناته الأصلية، بصوغ غير مسبوق لعبارة عربية لها صياغات عديدة منها: إن عطس أحدهم في اسطنبول قال له أهل صنعاء "يرحمك الله"، لتصير العبارة: إن عطس أحدهم في «أوتاوا» الكندية وضع الناس، في كل مدن العالم وقراه، أكفهم فوق أنوفهم خوفا من العدوى.

هذا المفهوم هو صياغة تتعمد المبالغة لتظهر حقيقة تغيب عن كثيرين منا وهي وحدة الوجود؛ لس فقط وحدة الوجود الإنساني أو حتى وحدة الموجودات الحية من بشر وحيوان وطير وحشرات وأميبا وبكتيريات وفيروسات، بل وحدة الموجودات الحية والميتة، وحدة الكون كله، من أصغر ذرة لأكبر مجرة.

تاريخ التضامن الإنساني

صحيح أن القرن التاسع عشر قفز بالاتصالات

والنقل والمواصلات قفزة هائلة، لكن الحضارة الإنسانية تميزت ، طوال الخمسمائة عام الأخيرة من تاريخها، بالقوة المتزايدة للاتصالات بين الشعوب والجماعات، وبالقوة المتزايدة للقدرة على التواصل بين أي فرد من أفراد الجماعة البشرية وبين أي فرد آخر، أيا كان موقعه الجغرافي أو انتماؤه. وقد صحب هذا التعزيزَ للتواصل بين البشر تعزيزٌ تَدَرَّجَ وتنامَى، منذ اندلاع الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، للإحساس بوحدة المصير الإنساني، ولهذا فعندما تقيد دولة ما، في عالمنا المعاصر، قدرة مواطنيها على التواصل مع العالم الخارجي يصبح هذا التقييد مسبة تموه عليها الدولة التي تورطت بها وتنكرها، إن استطاعت، وتبحث لها عن المبررات في مواجهة المجتمع الدولي إن انكشف الأمر. التواصل بين البشر، أفرادا وجماعات، هو الأصل في زماننا هذا؛ وهو حقيقة يتزايد رسوخها منذ دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر. وإذا كان اختراع التلغراف في أربعينات القرن التاسع عشر قد قفز بمعدلات تزايد التقارب بين مختلف أنحاء العالم قفزة لم تكن متصورة، فقد انتهت الجهود التي بدأتها وكالة المشروعات البحثية المتقدمة ARPA التابعة لوزارة الدفاع الأميركية في ستينات القرن العشرين إلى الثورة التي حققها تطبيق حزمة بروتوكولات الانترنت Internet protocol suite منذ انتصاف التسعينات من القرن الماضي. ومن تلك اللحظة والبشرية تمضي قدما على طريق التحول إلى قرية كونية، حقا وصدقا.

المواجهة الراهنة

ولهذا السبب فالمواجهة العالمية لخطر كوفيد – 19 اليوم تتميز عن كل مواجهة سبقت لأخطار الجوائح والطواعين في مختلف بلاد العالم. وإذا قارنا أوضاع الاتصالات في عالمنا اليوم بما كانت عليه في العام 1918 عندما دهمت الانفلونزا الإسبانية، الجماعة البشرية فسوف نجد اختلافات واضحة تحددها لورا سبيني مؤلفة كتاب «الغريب الشاحب: الانفلونزا الاسبانية في 1918 وكيف غيرت العالم The Spanish flu of 1918 and how it changed the world–2017 ». وفي العنوان إحالة على رواية كاثرين آن بورتر التي عرضنا لها ضمن «شهادات». تقول لورا سبيني:

لم يكن العالم قد عرف الطيران التجاري، ولهذا فقد كانت أسرع وسائط النقل هي السفن والقطارات. كان هنري فورد قد اخترع السيارة"فورد موديل تي"؛ لكن تلك كانت أمرا يخص الأثرياء وحدهم، وكذلك كانت الهواتف. معدلات الأمية كانت أعلى مما هي عليه الآن، وكان لهذا الأمر تأثيره لأن الأخبار لم تكن تنتقل إلا عبر الصحف. وفي مجتمعات انتشرت فيها الأمية كان انتقال الأخبار بطيئا وغالبا ما كان يجري تحريفها.

هذا المستوى من التواصل جعل من الصعب، ليس فقط انتقال الأخبار، بل وتبادل المعارف العلمية عموما والطبية بشكل خاص، كما صَعَّب تبادل الخبرات، ونقل التجهيزات الطبية والأدوية واللقاحات. وعندما كان مستوى التواصل متدنيا على النحو الذي أشارت إليه لورا سبيني، فقد كان من يشتغلون على الوباء منحصرين في نطاق أضيق نسبيا تتألف من خبراء مثل علماء الأوبئة epi-demiologists وعلماء الفيروسات virologists والأطباء، أما اليوم فهناك فيالق من علماء الاقتصاد والاجتماع والطب النفسي والتاريخ الطبي يتابعون ما يجري اليوم، في مواجهة كورونا، ويقارنون بين الجائحة الحالية وبين ما جرى للإنسانية من قبل، وبخاصة في الفترة 1918–1920وهي فترة الانفلونزا الإسبانية.

ويضع المؤلف بول باري في كتابه "الانفلونزا الكبرى: The Great Influenza – 2005" أيدينا على أهم مجالين من مجالات التطور ساعدا البشرية اليوم على مواجهة مشكلتها الراهنة بقدرات تفوق ما كان متاحا لها في مواجهة الانفلونزا الاسبانية، وهذان المجالان هما" التعليم الطبي" و"التعاون الدولي في المجالات الطبية". وقد استفادت الولايات المتحدة من ثورة في التعليم الطبي بدأت في ستينات القرن التاسع عشر عندما حذر رئيس جامعة هارفارد تشارلز إليوت من تخلف التعليم الطبي في البلاد، مقارنة إلى مثله في أوروبا. لكن التحول الثوري بدأ بالفعل بافتتاح مدرسة الطب في جامعة جونز هوبكينز في العام 1893. ومما يتعين الوقوف أمامه أن شروط قبول الطلاب في تلك المدرسة تضمنت القدرة العالية على الحديث والقراءة والكتابة بكل من اللغتين الفرنسية والألمانية(إضافة إلى الانكليزية، بالطبع)، ما يعني أن هذه كانت – بعد أن تكرر افتتاح المدارس الطبية في مختلف الجامعات الأميركية ووفق الاستراتيجية المعرفية ذاتها – بداية لتجميع المعارف الطبية العصرية في أكاديميا واحدة أو في مجتمع أكاديمي أورو–أميركي واحد له دور مركزي في تحصيل ونشر االمعارف على مستوى العالم.

وهذا ينقلنا إلى النقطة الثانية وهي نقطة" التعاون الدولي في المجالات الطبية". وقد ارتبط التعاون بالتنافس. كلٌّ من أوروبا والولايات المتحدة، بل كلُّ بلدٍ من بلدان أوروبا (وبخاصة بريطانيا وفرنسا والمانيا) كان يريد أن يسبق للاكتشافات لا ليحتفظ بها لنفسه ولكن ليكون له شرف السبق ثم لتكون له اليد العليا عندما ينقل اكتشافاته للآخرين. وهكذا لمعت أسماء باحثين وأساتذة في العلوم الطبية، مثل إيميل رو من معهد باستور في فرنسا، وريتشارد بفايفر في ألمانيا. وفي الولايات المتحدة لمعت أسماء كان بينها أول عميد لمدرسة الطب في جامعة جونز هوبكينز وليم ويلتش، وجنرال الخدمات الطبية في الجيش الأميركي وليم غورغاس، ورئيس معهد روكفلر روفوس كول.

وقد نتج عن التعاون الدولي أن تلاحمت الجهود الأوروبية والأميركية في مجالات البحث الطبي وتطوير مرافق وأساليب الرعاية الصحية واستفادت البشرية، بكل أعراقها(وإن بدرجات متفاوتة) من ثمرات هذا التلاحم الذي صار ركيزة تساهم في تطويرها وإثرائها كافة أمم الأرض، كل بقدر استطاعته. ولم يكن التعاون في مجالات البحث العلمي مسارا مستقلا عن بقية مسارات التاريخ الإنساني، طوال القرن الذي بدأ في العام 1918، وهو ما يمكن تسميته" القرن الأميركي" الذي يتوقع له الكثيرون، داخل الولايات المتحدة وخارجها، أن يكون الأول والأخير.

هذا القرن هو الأجدر بالاسم الذي أطلقه المؤرخ البريطاني إيريك هوبزبوم على القرن العشرين، عندما أسمى ذلك القرن" القرن العشرون القصير: عصر التطرفات"، فقد حفل بالمذابح والحروب والثورات كما حفل بالاكتشافات العلمية والتقنية؛ وشهد محاولات جادة لتأسيس عالم متوازن ومستقر كما شهد تحركات جسدت الحماقة واللاعقلانية. ولكن يبقى أن هذا القرن هو الذي شهد تأسيس أول مجلس إدارة للعالم هو مجلس الأمن، وأول جمعية عمومية للنوع البشري هي الجمعية العامة للأمم المتحدة، وذلك ضمن منظومة تتفرع عنها وتتوازى معها هيئات ومنظمات ومجالس تعالج مختلف الشؤون الإنسانية على مستوى متجاوز للوطنية-suprana tional؛ وتبرز بينها بالطبع منظمة الصحة العالمية، الأكثر ارتباطا بموضوع بحثنا هذا، وهو التعاون الدولي على مواجهة مختلف الأزمات، وبخاصة تلك الواسعة النطاق والعابرة للحدود.

الاستجابات المتماثلة للخطر

ويتجلى التواصل والتفاعل اليوم، في استجابات متماثلة لوباء الكورونا، عبر قارات العالم الست، كما تتجلى في استجابات متماثلة لحادث مقتل الأميركي الأسود جورج فلويد عبر المحيط، في عواصم أوروبية مختلفة. والاستجابات في الحالتين تسعى لتعديلات في إطار القيم المعترف بها،ليس فقط في الداخل الأميركي ولكن أيضا في العالم الذي تقوده الولايات المتحدة منذ قرن من الزمان. وإذا كانت الحشود الغاضبة قد نجحت في أن تجبر البيت الأبيض على مضاعفة الإجراءات الحمائية للرئيس الخامس والأربعين (الرئيس الراهن) للولايات المتحدة وأسرته ومعاونيه، فالمحصلة النهائية لتيار الغضب ستتقرر، على الأرجح، وفق آليات الانتخاب في نوفمبر من العام 2020 والتي فاز فيها المرشح الديمقراطي جو بايدن وفيما يخص النظام الدولي والتحولات التي قد تطال الدور الأميركي كقائد له، فهذه أيضا لن تتحدد في الشارع. ويمكن أن تجد مؤشرا لما يمكن أن تمضي إليه الأمور في تصريحات متكررة، ومن مصادر متعددة، حول «انسحاب محتمل للولايات المتحدة من دورها كقائد للعالم»، وهي تصريحات تكررت يومي السادس والعشرين من يونيو(الغارديان البريطانية) والثامن والعشرين منه(موقع الشبكة الصينية الكونية للتلفزة CGTN).

ومن دون تجاهل لتغيرات محتملة، يبقى من أخطر ما يقوله هارت ونيغري عن حرص الامبراطورية الأميركية على تجاوز الصراعات بين الدول الوطنية – ومن أوثقها ارتباطا بأحوال عالم يقف اليوم ضد عدو لايرى بالعين المجردة – هو أن العدو الذي حشدت هذه الامبراطورية شعوب العالم ودوله لمحاربته لم يعد، منذ سقوط الاتحاد السوفييتي، عدوا قوميا أو أيديولوجيا، بل هو عدو متدني الشأن ككيان قابل للتعيين، يظهر، على سبيل المثال، في جماعة بدائية الملبس تستخدم لغة من القرون الوسطى وتحمل أسلحة خفيفة من تلك التي تستخدم في حروب العصابات وتجهر بخطاب تخلق، قبل قـرون، تحت ضغط التهديد المغولي للحضارة الإنسانية، في حالة تنظيم "القاعدة" أو تنظيم ما يدعى" الدولة الإسلامية في العراق والشام"؛ أو في فرد يرتدي الملابس الحديثة ويتصرف كممثل للامبراطورية الرومانية المقدسة، التي صار تحللها أمرا واقعا لا رجوع عنه منذ العام 1806، مثل النرويجي أندريس بريفيك (وقد غير اسمه إلى فيتولف هانسن، ربما للتأكيد على البعد الألماني العتيق) الذي قتل 77 شخصا في العام 2011، أوفي شخص عنصري مثل ذلك الذي هاجم المسسلمين في كرايست تشيرش في نيوزيلندا في العام 2019. مثل هذه الجماعات وهؤلاء الأفراد لا تحتاج مقاومتُهم الجيوشَ والأساطيل، بل تحتاج قوة الشرطة وربما يقظة المواطنين. هذا خطر ينشأ عن تناقضات ونقائص الحياة اليومية.

الخطر الداهم للعدو التافه

الصفة الثانية التي تميز «العدو» في زمننا هي أنه، على تفاهة شأنه، مصدر خطر داهم على الحياة المشتركة للناس في كل مكان، من آلاسكا في الشمال إلى مدينة الكاب في إفريقيا الجنوبية. وإذا كان الإرهاب هو الصورة الأولى لهذا الخطر، فقد كان ولايزال ضعيفا في صوره الجزئية الملموسة : قد يكون سائق شاحنة في برلين أو حامل سكين على جسر لندن، وكل واحد من هذين تردیه رصاصة ويمكن لشرطي أو اثنين التعامل معه، ويبقى أن خطره قد لايتجاوز دائرة ضيقة، في هذه العاصمة أو تلك. لكن خطره الكلي، النابع من قدرته على الانتشار، عبر الانتقال من فرد لفرد ومن مجموعة صغيرة لأخرى،

نقل مريض مصاب بأعراض فايروس كورونا

وإن كان بوسعه أن يمتد لمجمل الحضارة الإنسانية، كما قالت الأدبيات المعبرة عن ثقافة الامبراطورية الأميركية المعولمة عن الإرهاب، ليس كخطر فيروس لا يملك أحد رؤيته ورصد حركته مثل فيروس كوفيد – 19. الحد من خطر الإرهاب هو واجب تنهض به الأجهزة الحكومية وليس واجبا يشمل كل فرد على وجه الأرض كما هو الحال مع فيروس كورونا الذي يصل إليك عبر أنفاس أحب الناس إليك. فيروس كوفيد– 19 هو ذروة الضآلة وذروة الخطر، في آن معا.

كنا مدعوين، منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 للوقوف صفا واحدا بوجه فيروس الإرهاب الأصولي، وتنوعت استجاباتنا. وها نحن اليوم، ها نحن سكانَ هذا الكوكب، نستجيب لنداء التصدي لفيروس الكورونا ونستجيب لهذا النداء كما لم نستجب من قبل لنداء عابر للمحيطات والقارات، فنقف معا في مواجهة عدو واحد بالغ الضآلة لكنه يهدد بنية الحضارة المعاصرة، ربما بمثل ما هددتها الانفلونزا الإسبانية في العام 1918، ونحن نتبع في مواجهتنا لهذا العدو أساليب دفاعية موحدة تفرض على كل فرد من سكان هذا العالم سلوكيات موحدة: التباعد الاجتماعي، ارتداء الكمامات، تجنب الازدحام، الغسيل المتكرر لليدين. لسنا بحاجة للخنادق المظلمة والموحلة التي عرفناها في الحربين العالميتين الأولى والثانية، ولا للمخابئ أسفل البنايات، ولا لصافرات الإنذار. والخطر لا يأتي من وراء الحدود، بل يأتي من شقيق أو صديق أو جار يعطس أو يسعل أمامك. وهذا يضعنا، نحن سكان الكوكب، في موقف تضامني غير مسبوق: نقف معا ضد عدو غامض ذي خطر غير محدود.

والمفترض، بناء على كل ماجرى منذ انضمت الولايات المتحدة إلى الحلفاء في العام 1917، أن يعتمد نجاح النظام العالمي الراهن في مواجهة جائحة

كوفيد19-، إلى حد بعيد، على قدرة الدولة القائدة على تنظيم جهود الأسرة الدولية، جهود الدول الأعضاء في النظام الدولي الراهن، وجهود المنظمات الدولية ذات الصلة، وبينها منظمة الصحة العالمية، في هذه المواجهة. والحاصل أن قدرة الولايات المتحدة على تنظيم الجهود المحلية (الأميركية) والدولية لمكافحة كوفيد – 19 هي اليوم محل شك.

اللجنة الثلاثية

في مبتدأ الحديث عن اللجنة الثلاثية Trilateral Commission ، نعرف القارئ بهذه اللجنة وفقا لتعريفِها نفسَها، كما تجده على الموقع الخاص بها: هي منتدى غير حكومي معني بالشؤون السياسية يرتب للقاءات بين القادة بصفاتهم الشخصية، من عوالم البيزنس والحكم والأكاديميا(ميدان العمل الجامعي) والإعلام، وكذلك من المجتمع المدني. وقد عقدت اللجنة آخر اجتماعاتها المتصلة بشؤون أميركا الشمالية في مكسيكو سيتي بالمكسيك، في نوفمبر من العام 2019. وعقدت اجتماعها السنوي العام، في باريس في يونيو من العام ذاته.

ومن الأسماء الوثيقة الاتصال بديفيد روكفلر، مؤسس اللجنة الثلاثية، وباللجنة، نتوقف أمام صمويل هنتنغتون، أستاذ العلوم السياسية ومنسق التخطيط الأمني لمجلس الأمن القومي في عهد الرئيس الأميركي التاسع والثلاثين جيمي كارتر، الذي كان له تأثير بالغ على توجهات اللجنة الثلاثية، لنفند أطروحته التي ظهرت بعد أن ترك الخدمة في البيت الأبيض وبعد أن تصور العالم أنه ارتاح من خطر مواجهة نووية بين العملاقين الرأسمالي والشيوعي التي مدت ظلها الثقيل على الآفاق من نهاية الحرب العالمية الثانية عند انتصاف الأربعينات وحتى مطالع التسعينات من القرن العشرين. ومحور أطروحة هنتنغتون هو الصدام المحتوم بين الغرب وبقية الحضارات، وهو يحدد الغرب والحضارات الأخرى تحديدا مذهبيا، فالمسيحيون البيض الأرثوذكس قوة لاعلاقة لها – بالنسبة إليه وفي حدود فهمه – بالغرب الذي يتحدث عنه، والذي قد يبدو لأول وهلة غربا أبيض مسيحيا بروتستانتيا وكاثوليكيا. لكنه يخرج المسيحيين الكاثوليك في أميركا الوسطى والجنوبية من زمرة الغرب المسيحي (الأقل بياضا لأنهم خالطوا السكان الأصليين في أقاليمهم وصاهروهم)، كما سبق وأخرج المسيحيين الأرثوذكس (الأشد بياضا وإن خالطوا أعراق آسيا الشرقية والوسطى وصاهروهم). وكما فهمنا من مطالعة نص هنتنغتون في صورتيه المختصرة والمفصلة ومن كل ما قيل عنه فهو يخص المسلمين والإسلام بقدر كبير من العداء.

ونحن نرى أن من أهمِّ مصادرِ الخطرِ الذي يتهدد النظامَ الدوليَّ الراهنَ، بقيادة الولايات المتحدة، وتراجع قدرة هذا النظام بكل مكوناته، وليس فقط تراجع قدرة المركز الرئيسي في واشنطن، على حشد الإنسانية وراءه في مواجهة فعالة ضد الخطر، تَرَسُّخُ الاعتقاد في الشرق والغرب في صحة الثنائية العجيبة التي أسس عليها هنتنغتون أطروحته المشار إليها. صحيح أن طروحات هذا الباحث وطروحات المؤرخ الأميركي البريطاني الأصل برنارد لويس وغيرهما من تلاميذ روكفلر لم تعد تلقى اهتماما علنيا كبيرا اليوم، لكن خطابي هنتنغتون ولويس ليسا سوى قناعين من أقنعة متتالية، تتخفى وراءها الكراهية العميقة للآخر، النابعة من جهل بذلك الآخر ومن خوف منه. سقط قناعا هنتنغتون ولويس وجاء بعدهما قناع جون اسبوزيتو الذي شحن – عبر طروحاته النظرية وعبر تعاطف تلميذته، المستشارة الرئاسية داليا مجاهد – إدارة باراك أوباما بشحنات تدميرية تستطيع أن ترى آثارها واضحة اليوم في مأساة ليبيا وفي كل مكان أشعل

فيه دعاة الفوضى (الخلاقة؟!) حرائق مخيفة في العالم العربي شرقي المتوسط وجنوبيه. ومناقشة هذه الثنائية المزعومة ضرورية اليوم لسببين:

أولا، لأن العالم، إن كان له أن ينتصر على جائحة كوفيد - 19 ، يحتاج الاحتشاد وليس التشرذم الذي تتسبب به هذه الثنائية، منذ ظهرت في مصر في سبعينات القرن التاسع عشر. وثانيا، لأن جائحة كوفيد 19-، ووفق ديناميات لم تتضح بعد، فجرت في المدن الأميركية الكبرى، منذ مقتل مواطن أميركي أسود بيد شرطي أبيض، قضية العلاقات المتجاوزة للإثنيات، عبر تظاهرات وأعمال احتجاج نددت بالعنصرية وانتقلت من المدن الأميركية إلى مختلف المدن الأوربية الكبرى. صحيح أن الأوبئة والطواعين تفجر، عبر العصور، مختلف القضايا الاجتماعية والثقافية والسيا سية، لكننا نخشى أن يتصادم التركيز على القضايا المتصلة بالتمييز العنصري مع التركيز على الهموم الاقتصادية فيتفكك الاحتشاد الدولي في مواجهة الوباء.

والحقيقة أن ثنائية" الغرب والآخرين» هي أقدم من هنتنغتون بكثير. وقد أثبتت الأحداث أن تبنيها والعمل في ضوء تعاليم من يروجون لها هما من أقوى ديناميات السلوك المدمر الذي غرقت فيه الولايات المتحدة منذ العام 2011. ويعلم الكثيرون أن الصحافي الإيراني الذي طاردته إيران بعد أن قاست منه كثيرا، وهو الذي اشتهر بالاسم الذي أطلقه على نفسه في مصر، جمال الدين الأفغاني(عرف في بلدان أخرى بأسماء أخرى)، هذا الرجل هو من ينسب إليه الترويج لأول ثنائية من هذا النوع وهي ثنائية "الإسلام والغرب" باعتبارهما عالمين لا يلتقيان إلا في ميادين الصدام، وأن بقاء وازدهار أحدهما مشروط بتراجع الآخر أو فنائه. ونحن نقول، إن الغرب حقيقة جغرافية ثابتة، والإسلام دين يفعل فعله في البشر عبر قارات العالم الست. لا يمكن أن ترى لندن أو نيويورك غدا، في جنوب إفريقيا أو في قلب آسيا، لكنك ترى الإسلام وهو يحقق حضورا متزايد الوضوح في الغرب عبر ملايين المسلمين من أجيال متتابعة، تعتز غالبيتها الساحقة بوجودها في أوروبا والأميركتين واستراليا، وتعمل ليل نهار على تمتين صلتها بالأقطار والثقافات التي تعيش فيها وعلى تعميق انتمائها وانتماء ذريتها لهذه الثقافات. والمقابلة مستحيلة بين ثابت ومتحرك، لأن كلا منهما قابل بطبيعته للتفاعل والتناغم مع الآخر، إن توفرت الشروط لذلك. وأهم من هذا، أن ثنائية الغرب المسيحي والشرق المسلم لم تكسب شهرتها العالمية بكتابات وأنشطة المدعو جمال الدين الأفغاني الذي جاء إلى المشرق العثماني من الهند البريطانية على متن سفينة حكومية بريطانية. نعم الترويج لهذه الثنائية بدأ من الهند البريطانية التي جاء منها الأفغاني على متن سفينة حكومية بريطانية أنزلته في ميناء السويس المصري، ثم اكتسبت الثنائية التي سبق هو غيره للترويج لها، قوة وذيوعا بالغين بفضل كتابات شاعر الكولونيالية البريطانية روديارد كيبلينغ (الذي كان يدعو نفسه يوسُف، وليس حتى جوزيف)؛ وتجد ذلك في قصيدته الذائعة الصيت"موال الشرق والغرب The Ballad of East and West".

ومن العجيب حقا أن تجد أن أنشط الدعاة للمواجهة بين الغرب وبقية حضارات العالم هو رجل مثل هنتنغتون الوثيق الصلة بديفيد روكفلر، مؤسس اللجنة الثلاثية الذائعة الصيت. ومصدر الدهشة من أمر كهذا هو أن اللجنة تجسد التلاحم بين الشرق والغرب، بين أوروبا وأميركا الشمالية وآسيا، وتضم في عضويتها أهم صناع السياسات وقيادات المال والأعمال والمثقفين في القارات الثلاث.

وفي سبعينات القرن الماضي، حين كان المكون الثالث لهذه اللجنة اليابان وليس آسيا بكاملها، أعلنت اللجنة أن

"النظام الدولي بحاجة إلى إدارة مشتركة بمعنى الكلمة"، بحسب ما جاء في مقال للدكتور نعوم تشومسكي، بعنوان "إدارة كارتر: الأسطورة والواقع"(The Carter Admin-istration: Myth and Reality Noam Chomsky,1981). وقد جاء هذا الإعلان من جانب اللجنة في لحظة تعطيه أهمية بالغة، لأنه جاء مواكبا لوصول فريق سياسي وفني من أعضاء اللجنة إلى قمم السلطة في الولايات المتحدة، باحتلالهم لأهم المناصب في إدارة الرئيس جيمي كارتر: نائب الرئيس وولتر مونديل، ووزير الخارجية سايروس فانس(الذي هو بالحقيقة كاتب الدولة، أو المسؤول التنفيذي غير المنتخب الأول في الجهاز الحكومي)، ووزير الدفاع هارولد براون، ووزير الخزانة وارن مايكل بلومنتال، ومنسق التخطيط الأمني صمويل هنتنغتون، إضافة إلى عدد كبير من المسؤولين المهمين في مواقع تنفيذية مختلفة.

وقد كان هنري كيسنجر، النجم الساطع في اللجنة الثلاثية وفي إدارتي الرئيسين ريتشارد نيكسون وجيرالد فـورد، صاحب البيان الأكثر وضوحا بخصوص الاستراتيجية التي دعت إليها اللجنة الثلاثية (عالم تقوده واشنطن) حين قال إن وجود قوى أوروبية وآسيوية في القيادة المشتركة للجنة الثلاثية لم يكن ليحول دون أن تتبوأ الولايات المتحدة المركز القيادي الذي يسمح لها بتقرير السياسات الواجب اتباعها، فالقوى الأخرى هي مجرد قوى إقليمية. ورسم كيسنجر الإطار الاستراتيجي للقيادة الأميركية للجنة الثلاثية، وبالتالي للعالم، بقوله إن الولايات المتحدة يتعين عليها أن تبقى "معنية بالإطار الشامل للنظام [العالمي] بأكثر مما هي معنية بإدارة كل مشروع إقليمي".

فما الذي جرى للقيادة الأميركية للعالم؟ نحن لا نتحدث هنا عما يعتبره الكثيرون تقاعسا وترددا من إدارة الرئيس دونالد ترامب في مواجهة جائحة الكورونا. نحن نتحدث الآن عن أخطاء تراكمت آثارها عبر السنين، وفي ظل رئاسات أميركية مختلفة، قد يكون من أخطرها خروج القيادات الأميركية المتتالية على هذا الذي يمكن أن نسميه "مبدأ كيسنجر" الذي يقضي بأن تركز واشنطن على الإطار الشامل للنظام بأكثر مما تركز على إدارة كل مشروع إقليمي. وإذا كانت بداية هذا الخروج، بالنسبة لنا في الشرق الأوسط، هي قصف الطائرات الأميركية أهدافا ليبية، في إبريل من العام 1986، بحجة الرد على تفجير دبرته عناصر إرهابية في برلين، واعتبره الرئيس الأميركي رونالد ريغان حلقة في سلسلة من الأعمال التي استهدفت ما دعاه هو "عهد الإرهاب" الليبي، فقد كانت هذه البداية تمهيدا لنشاط عسكري وسياسي في إفريقيا (الصومال منذ العام 1992، والسودان 1998)، وصارت التورطات أوسع وأعمق بعد أحداث سبتمبر 2001؛ وهاهي الولايات المتحدة اليوم طرف من أطراف الصراع في العراق وسوريا وفي ليبيا، وربما كانت تستعد لانخراط أشد كثافة في إفريقيا تقوده الأفريكوم.

إضافة لذلك، فقد حذَّر صموئيل هنتنغتون في تقريره الشهير "The crisis of Democracy" ما دعاه الإفراط في الديمقراطية، معتبراً ذلك السبب في معظم مشكلات الحكم.

أما الميديا فقد أحكمت النخبة المهيمنة في الولايات المتحدة سيطرتها عليها، ربما ليس بالدرجة التي أرادها هنتنغتون، لكن السيطرة بقيت حتى نهاية عهد باراك أوباما. ونحن نتحدث هنا عن النخبة المالية والثقافية والسياسية، وليس عن هذه الإدارة أو تلك. فالليبرالية تسمح بقدر من التفاوت بين التوجهات العامة للنخبة وبين كل أو بعض عناصر الإدارة، في هذا العهد أو ذاك. ومثال جون كنيدي كحاكم مستنير ورونالد ريغان كنقيض لكنيدي يوضحان المقصود

بالتفاوتات بين التوجهات العامة والراسخة للنخبة وبين توجهات عديد من الإدارات. وبقيت الخلافات بين الميديا والقيادة السياسية والعسكرية للولايات المتحدة ضمن إطار مستقر وآمن حتى وصول دونالد ترامب للبيت الأبيض، فتمردت الميديا على السلطة السياسية وعلى القوى المجتمعية التي دخلت إلى البيت الأبيض بخريج أكاديمية نيويورك العسكرية (يشكك البعض في مؤهلاته الدراسية بزعم أنه دفع لمن حضر الاختبارات بدلا منه منتحلا شخصيته)، تاجر العقارات دونالد ترمب الذي تحولت مساراته المهنية عقب كل تحول(وإفلاس) حل به، وخاضت الميديا، بمعظم أجهزتها مواجهة مفتوحة، على نحو غير مسبوق، مع الإدارة .

تحذيرات وتنبيهات

وبتاريخ الثالث والعشرين من إبريل من العام 2020 تجد على موقع المنتدى الاقتصادي الدولي دق ناقوس التنبيه والخطر للعمل المتصل بكوفيد- 19" تقريرا بعنوان" نحن بأمس الحاجة إلى تعاون رئيسي في الأمن الصحي العالمي فيما يتصل بكوفيد – 19".

ويمضي التقرير إلى التأكيد على ثلاث نقاط:

- أن الجائحة تدفع بالعالم إلى مرحلة خطيرة قابلة للانفجار، على نحو خطير.
- أن افتقاد التعاون الدولي في مواجهة الجائحة يزيد الموقف تأزما.
- أن أمام زعماء العالم خطة للعمل من شأنها تجنيب العالم هذه المخاطر الأمنية.

وبخصوص النقطة الأولى، كمدخل لمرحلة من عدم الاستقرار، يقول التقرير إن العلماء يتزايد لديهم اليقين بأن جائحة كوفيد19- باقية معنا، وربما لعدة سنوات، وأن الانهيار الاقتصادي الذي سيترتب عليها قد يفوق ما جرى إبان الكساد الكبير الذي اجتاح العالم في ثلاثينات القرن الماضي. ومع تفكك سلاسل الإمدادsupply chains، وتصاعد أسعار المواد الغذائية سيصبح الخطر واضحا لكل ذي عينين. ولن يقف الأمر عند حدود تفاقم البطالة وشح الإمدادات الغذائية، بل قد يرتبط هذا كله باضطرابات سياسية وعنف متصاعد. تتراجع بعض أشكال العنف الجنائي، لكن التوترات تحتدم في مختلف أنحاء العالم، وليس فقط في مناطق القتال. اندلعت مسيرات الاحتجاج في مختلف انحاء العالم من البرازيل إلى الهند إلى كوسوفو إلى مالاوي إلى جنوب إفريقيا. كما يتصاعد القمع من جانب الشرطة، من كينيا إلى الفيلبين. ولا تقتصر مظاهر الهشاشة على البلدان الأشد فقرا، ولا حتى على الأحياء والتجمعات الهامشية في المدن الأكثر ثراء. لقد رأينا السترات الصفراء في باريس، وشاهدنا الاحتجاجات في مختلف المدن الأميركية ممن رفضوا إجراءات الإغلاق الشامل.

ويضيف التقرير أن غياب التعاون الدولي في مواجهة الجائحة ليس من مصلحة أحد. وقد دعا الأمين العام للأمم المتحدة إلى وقف للنار في كافة أنحاء العالم، وإلى خفض العنف الجنسي والمنزلي واقترح خطة لمعالجة النتائج الوخيمة التي تترتب على الأزمة. لكن القوى العظمى تباطأت في الاستجابة. ولم ينعقد مجلس الأمن لمناقشة أزمة كوفيد 19- إلا بعد مئة يوم من اندلاعها؛ وعندما اجتمع لم يتقدم للعالم بأي اقتراح ذي مغزى لتجاوز هذا الموقف الصعب. وبعد هذا كله إنتقد التقرير مواقف مجموعة العشرين ومجموعة الدول الصناعية السبع.

وأفرزت الجائحة نقاط تبدو استراتيجيات جوهرية لمواجهة جائحة الكورونا، ومحاورها كالتالي:

- التوجه نحو نزع الطابع العسكري وشبه العسكري للتوترات والنزاعات التي يشهدها العالم منذ خمسينات القرن العشرين، بدءا من توترات الهند الصينية، وحتى التوترات والمواجهات التي انفجرت في مختلف أنحاء منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، منذ العام 2011. وقد عاد الموقع للتأكيد على تفاقم أخطار كوفيد- 19 في مناطق الصراعات، في تقرير مهم في الشهر التالي.

- التركيز على عولمية الجائحة وما ترتب عليها، ما يعني أن بروز القوة الأوروبية التي يمثلها المنتدى، لتحتل جزءا من فضاء القيادة الذي انفردت به الولايات المتحدة طويلا، قد لا يعني نكوصا عن العولمة وقد لا يعني تراجعا للشعور بوحدة المصير الإنساني.

- الاهتمام بقضايا البيئة، وهو ما عاد الموقع إلى التأكيد عليه في تقرير لاحق، في الشهر ذاته، بعنوان "كوفيد- 19 يكشف لنا عن الصلة بين صحة البشر وصحة الكوكب". وصياغة العنوان تشف عن رؤية للكوكب ككيان عضوي حي.

- الاهتمام بقضايا الأقليات العرقية والطبقية والجنسية.

- إبراز خطر الممارسات القمعية الحكومية في مختلف الأقطار، في إطار التوجه نحو إشراك مؤسسات المجتمع المدني في إدارة الشؤون العامة في مختلف بلدان العالم

- مراجعة أليات العمل الدولي باتجاه البحث عن آليات أكثر فعالية.

ويقترح التقرير على صناع القرار في العالم خطة عمل من خمس خطوات:

أولا، لابد من إشارة واضحة وسريعة إلى المؤسسات الكونية والقوى الكبرى(لاحظ التراتبية) بأن الأمن والسلامة لهما الأولوية. ويتعين أن يفعل مجلس الأمن كل مابوسعه لوقف التصاعد في التوترات بين الولايات المتحدة والصين. ويقع على عاتق الأعضاء غير الدائمين في مجلس الأمن عبء العمل على تجاوز الخلافات العميقة بين الأعضاء الخمسة الدائمين. كما يتعين على مجموعة العشرين، ومجموعة الدول الصناعية السبع، وحلف الناتو، جنبا إلى جنب مع الإتحاد الإفريقي، والاتحاد الأوروبـي ومجموعة بريكس وغيرها من الهيئات الإقليمية أن تساهم هي الأخرى في تخفيف التوترات وتطوير استراتيجيات تضمن السلام والأمن على الأرض. كما يتعين أن يحتشد أعضاء مجلس الأمن، الدائمون وغير الدائمين، لمساندة نداء الأمين العام بوقف النار في مختلف أنحاء العالم.

ثانيا، يجب أن ترتقي مستويات التضامن والتنسيق الدوليين إلى ما كانت عليه إبان الحرب العالمية الثانية. الأزمة تبرز ضرورة إعادة التوزيع وضرورة مساندة من هم الأكثر عرضة للضرر، وبخاصة العاطلين، وغير المشتغلين بدوام كامل، والفقراء. وهذه الجماعات هي التي تنهض، في الغالب، بمهام الخدمات الصحية الضرورية، وتؤمن الإمدادات الغذائية، وتعمل على تشغيل المرافق العامة. ومن الضروري أن ينشأ صندوق للحماية الاجتماعية في البلدان الأكثر فقرا مع التركيز على معالجة التفاوتات. ولا يتعلق الأمر بالفاقة، فحسب. فمليارات العاطلين والمعوزين لن يبقوا ساكنين، تاركين النخب التي تجاهلت إشارات الإنذار تواصل حياتها من دون تغيير.

ثالثا، يحتاج النظام الدولي نظاما كونيا لرصد الاختلالات الأمنية والمخالفات والتنبيه إلى مظاهر التململ قبل أن تدخل مرحلة العنف. ولطالما دار الحديث عن منصة مشتركة لتحليل مخاطر الصراع conflict risks، ولم يسفر الأمر عن أي شئ. وقد اتفقت الأمم المتحدة والبنك الدولي، من حيث المبدأ، على تنفيذ تحليل مشترك لمخاطر الصراع، وجدير بهما اليوم أن يستفيدا من خبرات خارجية ليسهل لهما الوصول إلى خرائط واقعية، واستشعار عن بعد، وبيانات رقمية، لاغنى لهما عنها لاستكمال أدوات التقويم الشامل. وعندئذ يمكن للرصد تغذية غيره من أنظمة الإنذار المبكر، وبخاصة ما يتعلق منها بنقص الأغذية وبالمجاعات المحتملة، لتصبح المنظمتان أكثر حساسية لمحركات التأزم، مثل تفاقم البطالة، وتزايد انعدام الثقة بالحكومات، والاضطرابات في السجون، وما إلى ذلك.

رابعا، لابد من تزايد مساهمات رؤساء المدن والقرى، وغيرهم من القيادات على المستوى المحلي في مختلف البلدان. فالإدارات المحلية هي، في آن معا، خط المواجهة وخط الدفاع الأخير، في عملية منع العنف،وبوسع رؤساء المدن والقرى أن يضعوا أيديهم على ما يقرر أفضل ما يمكن عمله لمنع العنف. لقد احتملت الأحياء في بعض المدن عبئا يفوق طاقتها مما يحف به العالم من عنف، في الوقت الذي تعرضت فيه للتهميش، وحُرِمَت من الفرص ومن الخدمات العامة المناسبة. واليوم تتفاقم معاناة هذه الأحياء بسبب كوفيد – 19. لابد من عمل مخطط له لزيادة عدد عمليات الفحص والمعالجة في المناطق الأشد معاناة من الوباء، ولتوصيل المعونات وتعزيز شبكات الضمان الاجتماعي، ولتنفذ برامج منع العنف المستندة إلى براهين. وللقادة المحليين، والمشتغلين بمنع الجريمة، ولهيئات الخدمة الاجتماعية، وائتلافات الأعمال المحلية دور أساسي في هذه المهمة الملحة.

خامسا، لابد من التزام عالمي شامل ببرامج منع العنف ضد النساء والأطفال والتصدي له. وقد طالب الأمين العام للأمم المتحدة بعمل عاجل لوقف العنف ضد النساء والأطفال إبان الجائحة. وتقف منظمة الصحة العالمية، واليونيسيف، وهيئةالأمم المتحدة، والبنك الدولي وهيئات أخرى صفا واحدا وراء مجموعة مشتركة من الاستراتيجيات وتعمل مع الحكومات على تنفيذها. وتعد مبادرة «بقعة الضوء Spotlight Initiative"لاقتلاع العنف ضد النساء، و"الشراكة الدولية لإنهاء العنف ضد الأطفالGlobal Partnership to End Violence against Children" طريقا ممهدا للمسارعة بالعمل.

ومن أهم ملامح الاستراتيجية التي تكشف عنها هذه الخطة التركيز على البعد المحلي، تحت الوطني subnationaal، على حساب السلطات المركزية؛ وربط هذا المستوى تحت الوطني بآليات وهيئات متجاوزة للوطنية، أو فوق وطنية supranational. كما أن معالجة احتياجات المرأة معالجة محدودة، تقتصر على مقاومة العنف بشكل عام والعنف المنزلي بشكل خاص، علما بأن الشرائح الواسعة من النساء الفقيرات وغير المتعلمات أو نصف المتعلمات يحتجن مساعدات مالية وتدريبية وتثقيفية، لن يكون من شأنها، فقط، زيادة كفاءة هذه الشرائح الواسعة في مكافحتها للمرض وللشروط التي تتسبب به والتي تزيد الإصابات حدة، بل ومن شأنها أيضا أن تعزز أوضاع النساء وتقويهن على نحو يحميهن من العنف ويزيد قدرتهن على مواجهته.

ويضاف إلى ذلك أن الاستراتيجيات المشار إليها لرصد العنف قد تؤسس لنظام عالمي أمني يتجاوز

أخذت المجموعة «بيلدربيرغ» اسمها من الفندق الذي اجتمعت فيه لأول مرة عام 1954

السلطات والأجهزة الأمنية المحلية وإن كان لايملك خبرتها العميقة بالواقع الذي تشتغل عليه منذ قر ون، والأجدى هو إصلاح هذه السلطات وأجهزتها، والعمل معها وليس العمل من فوق رأسها. وقد أكسبت أزمة كوفيد- 19 السلطات المحلية في معظم بلدان العالم مهارات جديدة وطورت أساليب عملها وقربت، إلى حد ما، بينها وبين جماهيرها، وإن كان التعميم في هذه الأمور أمرا محفوفا بمخاطر الوقوع في الخطأ، فمن المؤكد أن الدولة الوطنية وآلياتها هي اليوم خط الدفاع الأول والأخير ضد الجائحة؛ وعبر أجهزة هذه الدولة وبالتعاون معها يمكن للجهود الدولية أن تؤتي أكلها.

بيلدربيرغ

ستجد كلاما كثيرا في مؤلفات ومواقع على الشبكة العنكبوتية عن هذه المجموعة المحوطة بالسرية. وبحسب الموقع SWI التابع لهيئة الإذاعة والتلفزة السويسرية فهذه المجموعة هي"ناد للمناقشة" بدأ اجتماعاته في العام 1954 في فندق بيلدربيرغ في مدينة أوستر بيك الهولندية، ويحضر الاجتماعات قادة أوربيون وأميركيون أرادوا- قي أول عهد هذا "النادي" الذي تأسس في زمن الحرب الباردة - أن تكون هذه الاجتماعات أساسا لمناهضة قوية للأيديولوجية الشيوعية.

ويدعى لهذه الاجتماعات من تقرر لجنة تسيير النادي دعوتهم، وتتغير قائمة من يحضرون الاجتماعات من عام لعام. وكان مقررا أن تعقد المجموعة اجتماعها في يونيو من عام 2020، كعادتها، إلا أن لجنة تسيير المجموعة التزمت بالقيود المفروضة على السفر بسبب جائحة كوفيد - 19 وألغي اجتماع هذا العام، وكان مقررا له، حسب تكهنات رائجة ولاسبيل للتأكد من صحتها، أن يناقش الموضوعات التالية:

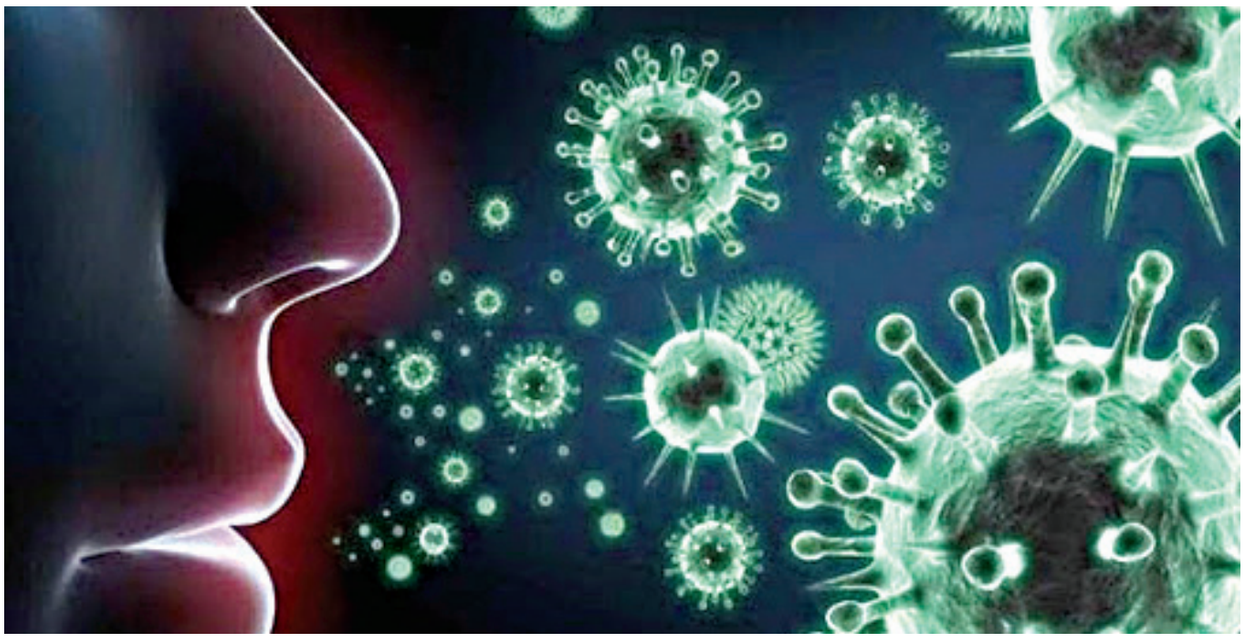

اعراض الفيروس وحاسة الشم

جائحة كوفيد - 19

1 – الاقتصاد بعد الإغلاق الشامل بسبب الجائحة

2 – التطورات التقنية وبينها لقاح كوفيد– 19

3 – كيف يمكن التحكم بالسردية

4 – الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة للعام 2020

5 – الرقابة على الانترنت بعد تزايد التسريبات(وليس الشائعات أو المعلومات المغلوطة)

6 – استعادة الثقة بالميديا التي يسيطر عليها رجال الأعمال والمنظمات التجارية

ولعل القاريء يلاحظ أن ثلاثة، على الأقل، من بنود الأجندة التي ترجحها التكهنات اتصلت بكيفية توجيه الرأي العام؛ وتلك هي البنود 3و5و6؛ وليس بمستبعد أن تمضي مناقشة البنود الباقية إلى نقاش حول القضية ذاتها. ويرتبط البندان الثالث والسادس، تحديدا، بما أظهرته استطلاعات الرأي العام من أن أكثر من نصف الأميركيين لا يثقون بما يطرحه عليهم الإعلام بخصوص كوفيد– 19.

وقد انعقد المؤتمر السنوي السابع والستون للمجموعة، في العام الماضي في مونترو السويسرية في الفترة من 30 مايو حتى 2 يونيو، وكان ذلك أول انعقاد له في القسم الناطق بالفرنسية في سويسرا، وإن كانت المجموعة قد عقدت، منذ الخمسينات، خمس مؤتمرات لها في مناطق أخرى في سويسرا. وحضر ذلك الاجتماع العام وزيرالخارجية الأميركي مايك بومبيو، والمشارك الدائم في اجتماعات المجموعة، منذ سنوات طويلة، وزير الخارجية الأميركي الأسبق هنري كيسنجر، ووزراء من فرنسا وألمانيا وهولندا، والمستشار الرئاسي الأميركي جاريد كوشنر. وباستثناء مجموعة من تركيا وبولندا وبلغاريا وإستونيا، فبقية الحاضرين هم من أميركا الشمالية وأوروبا الغربية.

فهل ناقش المجتمعون جائحة كوفيد – 19؟ حددت «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» الموضوعات التي طرحت للنقاش على أجندة المجموعة بأنها:"مستقبل أوروبا، وبريكسيت، والعلاقات مع الصين وروسيا، وتحولات المناخ، والذكاء الاصطناعي، والأخطار الرقمية، ومستقبل الرأسمالية. فأين جائحة كورونا؟

الإغاثة: شخصيات وهيئات

في العام 1854 وصلت إلى تركيا سيدة انكليزية تقود فريقا نسائيا مؤلفا من 38 ممرضة من بلادها، لإسعاف الجرحى والمصابين في الحرب بين الامبراطوريتين العثمانية والروسية، وقد كانت بريطانيا تساند العثمانيين في تلك الحرب، لأسباب تتصل بتوازنات دولية كان يمكن أن تختل –من وجهة نظر بريطانيا – لو تُرك العثمانيون فريسة سهلة للروس. ولكن الطابع الإنساني لمهمة هذه السيدة ورفيقاتها غلب على كل اعتبار إنساني، وأسس لأنشطة إنسانية متجاوزة للحدود، كما اسس لصورة جديدة للمرأة.

تلك كانت فلورنس ناتينغيل التي وجدت في تركيا مستشفيات في حالة رديئة لأقصى حد ومئات من الجنود الجرحى الذي يعانون من قلة الرعاية الطبية ومن سوء التغذية. ساءها تكدس الجرحى في غرف قذرة من دون أغطية تقيهم برد الشتاء. ولاحظت أن ما ضاعف آلام الجرحى هو انهم جاؤوا من الميدان مصابين بالديسنتاريا dysentry التي قتلت منهم أعدادا فاقت أعداد من ماتوا متأثرين بجراحهم.

وعلى رغم المهارة التي تحلت بها الممرضات الانكليزيات فلن يكن الأطباء العسكريون راغبين في أن يكون لهن دور في إسعاف الجرحى، لكن اشتداد المعارك وزيادة أعداد الجرحى فرضت على الأطباء قبول المساعدة منهن. وقد أوضحت فلورنس نايتينغيل للسلطات أن الإهمال والقذارة يقتلان الجرحى بأشد ما تفعل الجراح التي أصيبوا بها في المعارك، وألحت في طلب الضمادات النظيفة، والأسرة والأغطية الملائمة، والغرف الكافية المتجددة الهواء.

وقد ناضلت، في جزء آخر من العالم، بعد ذلك بعدة سنوات كلارا بارتون، التي عملت على إسعاف الجرحى في الحرب الأهلية الأميركية، وكان للسيدتين ولأعداد هائلة من السيدات اللاتي استلهمن كفاح ناتينغيل وبارتون، فضل إنقاذ حياة الآلاف من الجنود في مختلف ميادين القتال، وفضل تغيير نظرة السلطات العسكرية في مختلف الأقطار لجرحى المعارك، لا باعتبارهم ضمن الخسائر ولكن باعتبارهم أرواح تستحق العمل من أجل إنقاذها.

وعلى الرغم من ذلك، بقي العسكريون في مختلف أنحاء العالم غير مرتاحين لوجود النساء في صفوف الجيوش وداخل المستشفيات العسكرية، حتى نشوب الحرب العالمية الأولى في العام 1914. لكن تباينت مواقف العسكريين من الممرضات، من بلد لبلد. ظل العسكريون الفرنسيون أقرب إلى عقلية القرون السابقة، فيما يتصل بالموقف من الممرضات، في حين حضت السلطات البريطانية على شغل كل موقع عمل ممكن، بما في ذلك المواقع المتاحة داخل منظومة الخدمات الطبية، حتى يتفرغ الرجال للقتال.

قد تكون ذكرى فلورنس نياتينغيل أوضح في ذاكرة العالم من أي ناشط أو ناشطة في مجال المساعدة الطبية منذ انتصف القرن التاسع عشر إلى اليوم، لكن أخطر مساهمة في هذا المجال كانت تلك التي قدمها السويسري هنري دونانت الذي كانت لديه الرؤية التي انتهت إلى تخليق لجنة الصليب الأحمر الدولية، ومن مؤشرات التقارب بين البشر في زمننا هذا أنك قلما

تجد ذكراً للصليب الأحمر هذه الأيام إلا من خلال الكلام على "الحركة الدولية لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر". وقد عاش هنري دونانت ومات مكافحا من أجل التضامن الإنساني، وانتهى إلى الإفلاس ومات معدما، لكنه حصل على جائزة نوبل اعترافا بفضله على الإنسانية.

راقب دونانت في العام 1859 تطورات القتال في معركة سولفيرينو التي كان يخوضها الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث ضد النمسويين، لا لأنه كان معنيا بالشؤون الحربية ولكن لأنه أراد أن يحصل من الامبراطور على الوثائق اللازمة لمشروع كان يريد إنشاءه في الجزائر التابعة آنذاك، وحتى العام 1962 لفرنسا. أسفر القتال عن عشرات الألوف من القتلى والجرحى. لم يجد الجرحى من يعتني بهم على النحو المفترض، ولم يجد القتلى من يواريهم التراب. تولى دونانت تنظيم المدنيين في المناطق القريبة من ساحات القتال للعناية بالجرحى ولدفن الموتى، وشارك بنفسه في هذه الأعمال، كما ساهم في تأمين الاحتياجات اللازمة لمداواة الجرحى ولإطعام الجنود الجوعى، سواء كانوا فرنسيين أو إيطاليين(كانت سردينيا طرفا في المعركة إلى جانب فرنسا) أو نمسويين، وفقا لشعار أطلقته القرويات في الأقاليم الريفية المحيطة بميادين القتال: Tutti Fratelli ويعني الكل إخوة.

وبعد عودته إلى جنيف، سجل دونانت تجربته في كتاب اختار له العنوان "تذكار من سولفيرينو Un Souvenir de Solferino" الذي أوضح فيه الحاجة لعمل تطوعي لتخفيف آلام البشر. ووزع دونان معظم نسخ الطبعة المحدودةنسبيا للكتاب (أقل من ألفي نسخة) على كبار السياسيين والمثقفين والشخصيات العامة في فرنسا وسويسرا وبقية بلدان أوروبا. وكان أهم هؤلاء السويسري جوستاف موينيير الذي عقد اجتماعا لأعضاء جمعية جنيف للرفاه العام la Société d'utilité publique genevoise في 17 فبراير من العام 1863 لمناقشة ما جاء في الكتاب، واعتُبر ذلك الحدث الاجتماعَ التأسيسيَّ للصليب الأحمر. وإذا كان مفهوما أن يعترض على قيام الصليب الأحمر جنرال لا يريد للمجتمع الأهلي دورا في الشؤون الوثيقة الصلة بأخطر ما تفعله الحكومات مثل الجنرال جاك لوي راندون الذي اعتبر أن دونانت عبر في كتابه عن عداء لفرنسا، فمن المدهش أن رائدة المواساة فلورنس نايتينغيل اعترضت هي الأخرى على فكرة تأسيس الصليب الأحمر، لأنها رأت فيه منظمة تعطي نفسها دورا يحق للحكومات وحدها أن تنهض به.

دور اللجنة الدولية للصليب الأحمر

تدير هذه الهيئة الأهلية الدولية برامج لحماية الأرواح في عشرات الدول، بينها الولايات المتحدة. وهي تتعاون مع الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، وتساند السلطات التي تتولى إدارة أماكن الاحتجاز ومخيمات النازحين وتقدم النصح بشأن التعامل مع جثث من ماتوا بسبب مرض كوفيد- 19. وأهم مايلفت النظر في كل ما يصدر عن الصليب الأحمر الدولي، من بداية الجائحة، حرص هذه الهيئة على البعد الإنساني والاجتماعي، بالتأكيد على أن الجائحة لا تهدد الدول الغنية وحدها، ولا تهدد أثرياء كل قطر، بعيدا عن فقرائه، فهي جائحة تهدد النوع البشري في عمومه. وبالوقت ذاته، نبهت اللجنة إلى ضرورة الاهتمام بسبل كسب الرزق حتى لا تتفاقم حاجة المعوزين، من أفراد وجماعات إلى مساعدات غذائية يؤدي التفاقم إلى صعوبة تأمينها. وتجلى الحس الإنساني لدى اللجنة الدولية للصليب الأحمر، والبعد التاريخي المُعَمِّق لهذا الحس الإنساني، بالتأكيد على أنه» ليس من المقبول وصم المصابين

بمرض كوفيد- 19». ومعروف أن الأوبئة، على مر التاريخ، صحبتها موجات كراهية للمرضى ولمن ينتشر الاعتقاد بأنهم مسؤولون، عن قصد وعن غير قصد، عن نشر العدوى.

وتعدد اللجنة الدولية للصليب الأحمر أهم ما تفعله الآن بخصوص مواجهة كوفيد - 19، على النحو التالي:

- مواصلة تأمين الخدمات الأساسية للرعاية الصحية للاجئين والنازحين.
- نقل كل ما يتحصل من معلومات حول كوفيد19- إلى اللاجئين عبر المنصات الخاصة باللجنة على الانترنت،وهي معلوات قابلة للنقل على الهواتف النقالة.
- عقد جلسات لبث المعلومات والإرشاد إلى أفضل الممارسات الصحية، وأعراض انتقال العدوى، ومتى يتعين الاتصال بالمسؤولين عن الخدمات الطبية ومتى تجب ممارسة العزل الذاتي.
- بيان تقانات غسل اليدين على النحو الصحيح وغيرها من تقانات الحماية.
- تدريب العالمين الصحيين على استخدام أدوات الحماية الشخصية من العدوى.
- توصيل الأغذية والأدوية إلى اللاجئين، مع مراعاة تدابير حماية مشددة.
- إنشاء مركز اتصال صحي للاجئين يتولى تشغيله أطباء وممرضات.
- إنشاء المزيد من مرافق غسل الأيدي في مناطق تجميع المهاجرين
- إمداد العالمين الصحيين بأقنعة الجراحين وبغير ذلك من التجهيزات الحمائية اللازمة.
- طبع المواد المعلوماتية، وترجمتها إلى مختلف اللغات ثم توزيعها، بعد أن تقرها منظمة الصحة العالمية والسلطات الصحية الوطنية، على مختلف جماعات السكان في الولايات المتحدة وفي مختلف أنحاء العالم.
- تعزيز قدرات الرعاية الصحية لدى منظمات المعونة المحلية، وفقا لخطتنا الخاصة ب "مخاطر كوفيد19- والاستجابة لها" وعبر قوة العمل التابعة لنا.
- إشـراك منظمات العون التي قد لاتتوفر لديها الإمكانات الصحية اللازمة في خطتنا الخاصة ب" مخاطر كوفيد- 19 والاستجابة لها"
- توزيع عدة الصحة والوقاية على الأسر الأكثر عرضة للخطر

الفيدرالية الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر

سبق ميلادَ الفيدراليةِ الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر بأكثرَ من ستة عقود، ميلادُ رابطةِ جمعيات الصليب الأحمر. بادر إلى إنشاء الرابطة رئيسُ الصليبِ الأحمر الأميركي هنري دافيسون(1867-1922). فمن هو ذلك الرجل؟ يعد دافيسون من أبرز العاملين، في زمانه، في القطاع المصرفي، وعمل مع السناتور نيلسون آلدريتش من أجل تأسيس نظام جديد لمركزية البنوك، ودخل كثير من مواد الخطة التي وضعها دافيسون وآلدريتش ضمن الأسس التي قام عليها الاحتياطي الفيدرالي، كما هو واضح في قانون تأسيسه الصادر في العام 1913.

وقد لمع نجم دافيسون إبان الأزمة المالية في العام 1907 عندما عمل مع المصرفي الكبير جون بيربونت مورجان الأب(مؤسس جي بي مورغان وشركاه) للسيطرة على الفوضى والفزع اللذين تسببت بهما الأزمة. وكشفت الأزمة عن قدرات دافيسون فدعاه

مقر الفيدرالية الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر

مورغان للانضمام إلى مؤسسته، وانضم دافيسون إليها بالفعل، كشريك. وبعد انتهاء الأزمة اختاره آلدريتش مستشارا للجنة الوطنية للنقد، وظهر البعد الأممي في فكر دافيسون عندما طاف بآلدريتش على رجال المال والبنوك في أوروبا قبل أن يضعا الخطة التي مهدت لقيام الاحتياطي الفيدرالي. وفي العام 1917 عينه الرئيس وودرو ويلسون رئيسا للمجلس الحربي للصليب الأحمر الأميركي. وبعد الحرب اقترح دافيسون إنشاء رابطة تضم الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر في مختلف البلدان، ونشأت تلك الرابطة في العام 1919 وكان أول المنضمين إليها جمعيات الصليب الأحمر الأميركية والبريطانية والفرنسية والإيطالية واليابانية. وتزايد عدد المنضمين للرابطة بمرور الوقت، وبذلت جهودا محمودة في وقت الحرب كما في وقت السلم، بمساعدة المتضررين من الفيضانات والجفاف والكوارث الطبيعية الأخرى المسببة للعوز والمجاعات والموت. وفي العام 1983 صار اسمها «رابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر» ليتحول بعد ذلك إلى «فيدرالية جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر».

وبعد يومين من إعلان منظمة الصحة العالمية، رسميا، في الحادي عشر من مارس من العام 2020أن العالم يجتاحه وباء كوفيد- 19 (ذلك الوباء الذي كان نطاقه قد اتسع بالفعل في فبراير)أعلنت الفيدرالية أنها تنسق مع كافة الجمعيات الوطنية للمساعدة بالرصد وبتقديم الاستشارات وبافتراح التجهيزات الشخصية اللازمة للحماية وبرسم سيناريوات المخاطر المتوقعة وتحليلها وتأمين المساندة الفنية والإرشاد للجمعيات الوطنية المنخرطة في أنشطة العزل والفحص والرعاية المنزلية السابقة على الإيداع في المستشفيات.

أطباء بلاحدود

إن حركة الصليب الأحمر العالمية، وإن كانت سويسرية المنشأ، وسويسرية فرنسية بالتحديد، فقد

أطباء بلا حدود

اكتسبت، من بواكير القرن الأميركي في العام 1919، مكونا أميركيا (أنغلو ساكسونيا) قويا. ومستدير الآن إلى منظمة للمساعدة الصحية تكاد شهرتها تقترب من شهرة الصليب الأحمر وهي منظمة «أطباء بلاحدود».

في صيف العام 1968 قررت جماعة من شباب الأطباء أن تنذر نفسها وخبراتها الطبية لمساعدة ضحايا الحروب والكوارث الكبرى، وأطلقت على نفسها الاسم الذي اكتسب بعد ذلك شهرة عالمية وهو أطباء بلاحدود (Méde-cins Sans Frontières MSF) المعبر عن أممية تتجاوز بعض الاعتبارات التي تفرضها الدولة الوطنية كوحدة تأسيسية للنظام الدولي. كان ذلك في أعقاب الثورة الطلابية التي شهدتها عواصم عديدة، في مختلف القارات، وبعد أن نقلت التلفزة (بالأبيض والأسود، طبعا) مشاهد مرعبة لأطفال يموتون جوعا في أنحاء مختلفة من العالم.

كان إقليم بيافرا في جنوب نيجيريا قد أعلن انفصاله وتسبب ذلك بحرب أهلية فيها كل ما في الحروب الأهلية من بشاعات. وطلب الصليب الأحمر الفرنسي متطوعين. وكان كل من ماكس ريكامييه وباسكال غريليتي- بوسفييل يعملان مع الصليب الأحمر في جنيف كطبيبين متطوعين، فطلبت منهما اللجنة الدولية للصليب الأحمر مساعدتها في العثور على أطباء للعمل معها.

ويقول ريكامييه "يتوهم الناس أن الصليب الأحمر منظمة طبية، والحقيقة أنهم لم يكونوا يعرفون أطباء غيري أنا وباسكال، ولهذا طلبوا منا المساعدة في البحث عن أطباء. وأول من تطوع كان برنارد كوشنر، الذي كان يصغرني بسنوات عديدة. لم يكن قد انتهى من تحضير رسالة الدكتوراه، لكنه تطوع للسفر إلى نيجيريا".

وهكذا تألف فريق من أربعة أطباء وممرضتين سافروا، كمتطوعين، إلى بيافرا. وكانت تجربة صادمة

لأطباء قليلي الخبرة يواجهون بشاعة حرب أهلية يرقد ضحاياها في مستشفيات سيئة التجهيز ومستهدفة من قوات السلطات المركزية. وقد انحاز كوشنر وزملاؤه لبيافرا ضد السلطة المركزية وضد الصليب الأحمر، ونددوا بما اعتبروه أعمال عنف من تلك السلطات ضد مواطنيها في بيافرا، وصار المتطوعون الستة وأنصارهم الذين تزايد عددهم يشار إليهم باسم" البيافراويون". وقد بدأ هؤلاء بالتخطيط لمنظمة تقدم المعونة الطبية لمن يحتاجها بغض النظر عن أي انتماء سياسي أو ديني أو عرقي.

وفي العام 1971 أسس برنارد كوشنر في فرنسا منظمة "أطباء بلاحدود"التي تقدم خدمات الطوارئ الطبية لضحايا الحروب والمجاعات والجائحات والكوارث الطبيعية وتلك التي تتسبب بها أعمال البشر، ممن تنقصهم الرعاية الطبية بسبب الفقر أو العزلة الجغرافية أو غير ذلك.

وقد تحولت المنظمة إلى شبكة عالمية للإغاثة الطبية لها فروع في ثمانية عشر بلدا من بلدان العالم. وقد شارك كوشنر بعد ذلك (بعد أن انفصل عن أطباء بلاحدود) في تأسيس أطباء العالم، مع 14 طبيبا آخرين، ثم انخرط في الشؤون السياسية وتولى مناصب وزارية عديدة.

وكما لاحظنا بالنسبة للصليب الأحمر والهلال الأحمر، فالبعد الاجتماعي والطبقي ماثل في أذهان من يتصدون لمكافحة كوفيد 19-في منظمة دولية أخرى معنية بالرعاية الطبية التطوعية وهي "أطباء بلا حدود Médecins Sans Frontières ". فالمنظمة لا تكف عن تنبيه الرأي العام إلى أن الأكثر عرضة للإصابة بالفيروس هم من تلك الشرائح الأقل قدرة على مواجهة الطوارئ الصحية وبينهم المشردون والمقيمون في مخيمات اللاجئين في اليونان وبنغلادش أو السكان الذين تضرروا من الصراعات المسلحة في سوريا أو اليمن. فهؤلاء الناس يعيشون في بيئة غير صحية ومزدحمة ويصعب عليهم الوصول للخدمات الصحية، بل ويصعب عليهم الوصول للماء بغرض الشرب، ناهيك عن الاغتسال الواجب للوقاية من العدوى. أما عن البقاء بالبيت والعزل الذاتي عند اللزوم، فلا تسمح ظروف هؤلاء الناس، تقول المنظمة، بشئ من هذا القبيل.

ومع التحذيرمن أن انتشار العدوى بين هذه الشرائح من السكان تنطوي على أخطار الانتشار الأوسع والأسرع للوباء، فقد دعت منظمة أطباء بلاحدود إلى العمل، فورا، على إنشاء مرافق الفحص والاختبار في المناطق الأشد عرضة لانتشار العدوى مثل مخيمات اللاجئين في كوكسز بازار في بنغلادش وفي الجزر اليونانية، على سبيل المثال؛ وفي الأحياء الفقيرة المكتظة بساكنيها مثل كيبيرا وخايالیتشا في كينيا. وتطالب المنظمة الحكومات "بتأمين كل ما هو مطلوب من عقاقير واختبارات ولقاحات ضد كوفيد- 19 لكل من يحتاجونها، بأسعار يقدر عليها الجميع، وبالمجان لشرائح بعينها.

ومع حرص المنظمة على المساهمة في الجهود الرامية إلى محاصرة انتشار الوباء فهي حريصة أيضا على حماية المشتغلين بالرعاية الطبية، بمختلف الوسائل. ومع تأكيد المنظمة على أنها مستمرة في عملها إلا أن تأمين المعدات والتجهيزات والأدوات اللازمة الكمامات والقفازات والكيماويات اللازمة لتشخيص حالات الإصابة بالعدوى يمثل بالنسبة لها تحديا مثيرا للقلق. وبالوقت ذاته، فالمنظمة يقلقها احتمال أن يعاني المصابون بأمراض أخرى غير كوفيد- 19 من نقص في إمدادات الأدوية التي يحتاجونها، مثل المضادات الحيوية ومضادات الملاريا وغيرها.

إضافة لكل ذلك، تجد المنظمة مشقة بسبب القيودِ

التي فرضتها على السفر من بلد للآخر إجراءاتُ الوقاية من كوفيد – 19، لكن المنظمة تؤكد أنها تسعى للعثور على حل لهذه المسألة، حتى لا تتوقف المشروعات التي تحتاج تخصصات بعينها، وأهمها الجراحة. ولكن يخفف من أثرهذه المشكلة أن معظم العاملين في المنظمة هم من الكوادر المحلية، ولا تمثل الخبرات الدولية أكثر من ثمانية بالمئة من إجمالي العاملين.

مجلس إدارة العالم

ننتقل الآن من المؤسسات غير الرسمية لصنع القرار الدولي، في كل المجالات ومن بينها مجالات الصحة العامة، إلى أهم مؤسسة رسمية في عالمنا المعاصر وهي الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي التابع لها والذي قرر له ميثاق الأمم المتحدة صلاحيات التحقيق في كافة الحالات التي يعتبرها المجلس مصدر خطر على السلام الدولي، والتوصية بالتدابير اللاوم اتخاذها للتوصل لحلول سلمية للنزاعات، ودعوة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة لقطع العلاقات الاقتصادية، كليا أو جزئيا، والاتصالات البرية والبحرية والجوية والبريدية، أو لقطع العلاقات الدبلوماسية مع أي دولة تنتهي تحقيقات المجلس إلى أن العامل الأساسي والمشترك على هذا النحو هو في مصلحة السلام العالمي. ويحق للمجلس فرض قراراته بالقوة العسكرية أو بأي وسيلة أخرى يقررها القانون الدولي.

ووفقا لهذه الصلاحيات، فهذا المجلس الذي يضم في عضويته الدائمة الولايات المتحدة والصين وروسيا وبريطانيا وفرنسا، يمكن القول إنه – منذ العام 1945وحتى الآن – هو مجلس إدارة العالم.

وقد نقلت وكالة الأنباء الفرنسية، في الثاني والعشرين من إبريل من العام 2020 عن مجلس الأمن أنه بدأ العمل على مسودة قرار وضعتها تونس وفرنسا تحث على"زيادة التنسيق" بخصوص الجهود التي تبذلها الدول الأعضاء في الأمم المتحدة لمكافحة جائحة كوفيد– 19. وكررت مسودة القرار ما سبق أن دعا إليه الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش من ضرورة وقف النار في مختلف أنحاء العالم. لكن مسودة القرار استثنت من وقف النار العمليات العسكرية التي تقوم بها قوات نظامية ضد تنظيمات مثل ما يدعى "الدولة الإسلامية في العراق والشام" و"القاعدة" و"النصرة" وكافة التنظيمات الـواردة أسماؤها في قائمة مجلس الأمن للتنظيمات الإرهابية. ودعت مسودة القرار"كافة الأطراف المنخرطة في الصراعات المسلحة إلى الالتزام الفوري بوقف للأعمال العدائية، لما لايقل عن ثلاثين يوما متتالية".

لم يتم التوافق على صيغة قرار يتصل بكوفيد– 19 وعن تعزيز ما دعا إليه الأمين العام للأمم المتحدة من وقف شامل لإطلاق النار في مختلف أنحاء العالم. ولكن محاولات المجلس التوصل لقرار،عطلتها خلافات أميركية– صينية، منشؤها أن الصين طلبت أن يتضمن القرار إشارة إلى دور منظمة الصحة العالمية في مكافحة الجائحة ورفض الولاياتِ المتحدةِ ذلك الطلبَ. وتلوم الولايات المتحدة المنظمة على ما تعتبره تقاعسا منها عن أداء واجبها في مكافحة الجائحة، وتتهمها بأنها "خاضعة تماما للصين". وبناء على هذه الاتهامات أوقفت الولايات المتحدة، في شهر إبريل مساهماتها المالية في أنشطة المنظمة وهددت بإلغاء عضويتها فيها، وفي السابع من يوليو أعلن متحدث بلسان الأمم المتحدة أن الولايات المتحدة أبلغت الأمين العام للأمم المتحدة في السادس من يوليو بخروجها من عضوية منظمة الصحة العالمية، وأوضح الناطق أن الأمم المتحدة تنظر مع المنظمة في مدى استيفاء الولايات المتحدة لشروط الانسحاب من المنظمة . وطيقا لنص أضافته الولايات

المتحدة لدستور المنظمة عندما انضمت إليها في العام 1948فمن الضروري تقديم مذكرة بالانسحاب قبل أن يتم الانسحاب بعام كامل، كما يشترط أن تسدد الدولة العضو ماهو مستحق عليها للمنظمة. وبلغت مستحقات المنظمة لدى الولايات المتحدة، نهاية يونيو من العام 2020، تسعة عشر مليون دولار من رسوم العضوية التي لم يجر سدادها.

ويندرج الموقف الأميركي من المنظمة ضمن خلافات بين العملاقين الأميركي والصيني أعاقت التضامن الدولي وأخرت صدور قرار عن مجلس الأمن، لكن شيئا لم يحل دون ظهور بوادر روح عالمية جديدة تعلي من شأن التضامن بين البشر، داخل منظمة الأمم المتحدة وخارجها، في مواجهة عدوهم المشترك.

الصندوق الائتماني للتضامن في مكافحة (كوفيد - 19)

وأهم ما تتوجب الإشارة إليه هنا هو «صندوق الاستجابة للتضامن في مكافحة فيروس كورونا». وقد أعلنت الأمم المتحدة إطلاق هذه المبادرة في الثالث عشر من مارس 2020، بعد يومين من إعلان الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش أن «فيروس كورونا يمثل تهديدا مشتركا نواجهه جميعا» وأن «وصف الفيروس بأنه جائحة يمثل دعوة إلى العمل لكل الناس في كل مكان». واعتبر غوتيريش أيضا أن هذا الإعلان هو دعوة إلى المسؤولية والتضامن، مشددا على أهمية أن لانترك الخوف ينتشر أو يفت من عضد من يكافحون في سبيل القضاء على الفيروس.

وحددت الأمم المتحدة الهدف من إنشاء الصندوق بأنه» تمكين الأفراد والمنظمات من المساهمة في الجهود التي تقوم بها المنظمة في سبيل تنسيق الجهود العالمية، ودعم البلدان لكبح جماح هذا الوباء والاستجابة له». وجاء ذلك إبان المؤتمر الصحفي الذي عقده المدير العام لمنظمة الصحة العالمية الدكتور تيدروس أدهانوم غيبريسوس، في مقر المنظمة في جنيف والذي قال فيه»الآن يمكن للجميع المساهمة. سيتم استخدام الأموال لتنسيق الاستجابة وشراء الأقنعة والقفازات والأثواب والنظارات الواقية لعمال الصحة، لشراء الاختبارات التشخيصية، وتحسين المراقبة، والاستثمار في البحث والتطوير».

وقال الدكتور تيدروس إن المنظمة تعتمد بشكل أساسي على الحكومات لدعم جهود الاستجابة للفيروس، معربا عن تقديره لجميع البلدان التي دعمت خطة التأهب والاستجابة الاستراتيجية للمنظمة، بما في ذلك اليابان التي ساهمت بـ 155 مليون دولار في المرحلة الأولى من الانتشار، كما أعرب عن شكره لشركتي غوغل وفيسبوك والأشخاص الذين ساهموا في هذه الجهود، قائلا إن «كل دولار يتم التبرع به ينقذ الأرواح».

وإضافة إلى المبادرة العملية المتمثلة بإنشاء صندوق الاستجابة، أطلقت الأمم المتحدة في الحادي والثلاثين من مارس لعام 2020 خطة كوفيد – 19 التي تتعامل مع التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية للجائحة والتي قالت إنها قد تساعد على "هزيمة الفيروس وبناء عالم أفضل". وأوضح الأمين العام وهو يتحدث عن الخطة لوسائل الإعلام أن الفيروس يستهدف "أرواح الناس ومعيشتهم"، وأن الضرر الطويل المدى للجائحة على اقتصاد العالم هو أثر بالغ الشدة.

وأضاف"تستدعي هذه الأزمة الإنسانية أن تتبع الاقتصادات الرئيسة في العالم سياسات متناغمة وحاسمة واستيعابية وابتكارية، كما تتطب أكبر قدر ممكن من

أثناء عمليات التعقيم في كوريا الجنوبية (أنباء الصين)

المساندة التمويلية والفنية لمن هم الأشد فقرا من البلدان والشعوب. وبعد الإشارة إلى أن الجائحة سيرتفع مستوى خطرها بمقدار تدني أقل النظم الصحية في العالم كفاءة، وبعد الدعوة إلى التركيز على من هم أكثر عرضة للإصابة، نبه الأمين العام إلى الحقائق التالية:

- ما يحتاجه العالم هو استجابة واسعة النطاق ومنسقة وشاملة ومتعددة الأطراف تبلغ ما لايقل عن عشرة بالمئة من إجمالي الناتج المحلي العالمي.
- يمكن للبلدان المتقدمة أن تعنى بشؤونها بنفسها، ويفعل بعضها ما يتوجب فعله، أما البلدان النامية فلابد من مساعدتها بتكريس موارد هائلة لزيادة قدرة صندوق النقد الدولي ومؤسسات التمويل الدولية الأخرى على مد يد العون لها، عبر إصدار حقوق السحب الخاص حتى تتيسر الموارد للبلدان التي تحتاجها.
- ويمكن للمبادلات المنسقة بين البنوك المركزية أن تؤمن السيولة للاقتصادات الناشئة.
- ويتعين أن تكون الأولوية لتخفيف أعباء الديون، ومن ذلك الخفض الفوري لمدفوعات الفوائد في العام 2020.

نداء لتنبيه العالم من غفلته

وفي أول يوليو من عام 2020 وجه الأمين العام أنطونيو غوتيريش كلمة بعنوان»نداء للتنبيه العالم من غفلته-Glob al Wake-Up Call"، قال فيها" من كوفيد- 19 إلى اختلالات المناخ، ومن الظلم العرقي إلى التفاوتات المتزايدة، نعيش في عالم مضطرب". لكنه استدرك قائلا إن عالمنا يملك رؤية ثابتة، يجسدها ميثاق الأمم المتحدة الذي تحل هذا العام ذكراه الخامسة والسبعون. ويذكر أن الميثاق جرى التوقيع عليه في السادس والعشرين من يونيو من العام 1945. وقال إن الرؤية التي يجسدها الميثاق تقوم على ثقة بمستقبل أفضل، وعلى قيم المساواة والاحترام المتبادل والتعاون الدولي، مشيرا إلى أن ذلك كله ساعد الإنسانية على تجنب حرب عالمية ثالثة، كان

يمكن أن تعود على كوكبنا بأسوأ العواقب. ثم لخص الأمين العام إستراتيجيته واستراتيجية الأمم المتحدة بقوله: إن التحدي المشترك، الذي نواجهه نحن شعوب هذا العالم، هو توجيه وتوظيف تلك الروح الجمعية لمواجهة تحديات اللحظة.

العالم على خط المواجهة

وخـارج نطاق الأمـم المتحدة سارعت الأمم والتجمعات الإقليمية لمواجهة الجائحة، وتباينت الاستجابات من حيث السرعة الكفاءة، لكن الخلافات داخـل بعض الـدول وبين بعض الـدول وبعضها الآخرألقت بظلال كثيفة على تلك الاستجابات جعلت من الصعب التوصل لتقييم موضوعي لها. ولكننا سنقدم الصورة العامة بأكبر قدر ممكن من الموضوعية.

في جنوب آسيا، في الخامس عشر من مارس من العام 2020، اقترح رئيس وزراء الهند ناريندرا مودي، إبان مؤتمر افتراضي لرؤساء الدول والحكومات الأعضاء في اتحاد جنوب آسيا للتعاون الإقليمي SAARC ، إنشاء صندوق لطوارئ فيروس كورونا، كاستجابة للجائحة الكونية وبهدف " معالجة المخاطر المرتبطة بالجائحة في جنوب آسيا" وقوبل المقترح الهندي بتأييد من بقية الدول والحكومات المشاركة في المؤتمر الافتراضي.

وأعلنت الهند عن تبرع ابتدائي مقداره عشرة ملايين دولار لمساندة المبادرة، وبين أن تبرعات الدول الأعضاء طوعية. وبحلول العاشر من إبريل كانت التبرعات قد بلغت واحدا وعشرين مليونا وثمانمئة ألف دولارمن سبع دول أعضاء في الاتحاد.

وفي الولايات المتحدة، اعتمد الرئيس دوالد ترامب في السابع والعشرين من مارس من العام 2020 قانون المساعدة والإغاثة والتأمين الاقتصادي إزاء فيروس كورونا . ونص القانون على تخصيص ستة مليارات وثلاثمئة مليون دولار كتمويل إضافي لمبادرة الإدارة الأميركية بخصوص الأطفال والعائلات. وتشمل المبادرة برامج ومخصصات بينها:

- برنامج مساعدة يتصل بالطاقة المنزلية، أي بأغراض التدفئة والطهو والإنـارة، للعائلات المنخفضة المدخول، ومخصص له 900 مليون دولار.
- منحة إجمالية لرعاية وتنمية قدرات الأطفال في مختلف الولايات وتبلغ ثلاثة مليارات ونصف المليار دولار.
- منحة إجمالية لمختلف الولايات لأغراض الخدمات المجتمعية، وقيمتها مليار دولار.
- منحة قدرها 750 مليون دولار لبرامج "خطوة للأمام Head Start programs" لسد احتياجات الأطفال والآباء والأمهات، في الأسر الأشد فقرا، المتعلقة بفيروس كورونا.
- تخصيص 25 مليون دولار كمعونة إضافية لتأمين المأوى للشباب المشردين والهاربين من أسرهم.
- زيادة المبالغ المخصصة لتأمين مأوى للهاربين من العنف الأسري، بماقيمته 45 مليون دولار.

وفي الاتحاد الأوربي، وبعد جمع تبرعات بلغت عشرة مليارات يورو في الفترة من نهاية إبريل لنهاية مايو من العام 2020، انطلقت في الثامن والعشرين من مايو حملة» الهدف الكوني: لنتحد من أجل مستقبلنا Global Goal: Unite for our Future" برعاية رئيسة الاتحاد أورسولا فون دير ليين، وبمساندة من

بلومبيرغ للأنشطة الخيرية، ومؤسسة بيل ويلندا غيتس، وصندوق ويلكوم. وقد حددت رئيسة الاتحاد الأوربي أهداف الحملة بأنها"حشد المجتمع الدولي من أجل تركيب اللقاح المطلوب لمواجهة فيروس كورونا وإنتاجه وتوزيعه في كافة أنحاء الأرض، وجعله متاحا بأسعار مقبولة. وهو لقاح يمكن أن يكون خيرا مشتركا لنا جميعا".

وفي الثامن والعشرين من يونيو أعلنت رئاسة الاتحاد الأوربي وبنك الاستثمار الأوربي، في قمة افتراضية نظمها الاتحاد، التبرع بأربعة مليارات وتسعمئة مليون يورو لحملة :الهدف الكوني"، بالتعاون مع غلوبال سيتيزن (Global Citizen المواطن العالمي، وهي منظمة تعمل لإنهاء الفقر المدقع في العالم بحلول العام 2030ولها مكاتب في نيويورك ولندن وتورنتو وسيدني وجوهانسبيرغ) وانضم إليها زعماء سياسيون وقياديون في قطاعات الأعمال وخبراء ونشطاء في مجالات التنية والعدالة الاجتماعية ومكافحة الفقر وفنانون، بينهم المغنية الكولومبية شاكيرا إيزابيل مبارك ريبول وفرقة الروك البريطانية كولدبلاي والمغنية والشاعرة والممثلة الأميركية مايلي سايروس.

وفي بداية حفل موسيقي صاحب القمة جَسَّد الممثلُ والمنتج ورجل الأعمال والمصارع الأميركي- الكندي الأسود دواين جونسون(الشهير باسم الصخرة) تعقيدات الموقف الراهن الذي تختلط فيه هموم كورونا بهموم العنصرية وغيرها من هموم العالم المعاصر، حين قال"فيما نحن نبذل أقصى ما باستطاعتنا لمواجهة الصعاب غير المسبوقة التي نشأت عن هذا الفيروس الجديد[كوفيد- 19] رحنا نتابع انتشار مرض آخر ابتلينا به ولم يتوقف عن الانتشار منذ عقود، بل منذ قرون، وهو مرض القمع واللامساواة"

وأضاف" الحالة المأسوية التي تخص جورج فلويد كانت نقطة تحول غيرت كثيرا من الأمور. ثماني دقائق وست وأربعون ثانية عمقت الإحساس بالمنهجية المرعبة للعنصرية وللظلم الاجتماعي كواقع ندرك أنه ماثل في حاضرنا". وعمق الإحساس بالمأساة أن مايلي سايروس أعقبت كلمة جونسون بأدائها لأغنية فرقة البيتلز البريطانية، التي تعد من كلاسيكيات الفرقة وهي «النجدة»:

- النجدة، أحتاج من يساعدني
- النجدة، ليس من أيٍّ كان
- النجدة، تعلمون أني أحتاج من يساعدني.

وكانت أصداء الأغنية ترن في الاستاد الخالي الذي أقيم فيه الحفل.

في المناطق الفلسطينية وإسرائيل دفع الشعور بالخطر بالكثيرين، على الجانبين، إلى تجاوز نسبي للحواجز النفسية الفاصلة بين الشعبين. ففي الثاني من إبريل من العام 2020، وفي سابقة تاريخية، شق ثلاثمئة متظاهر إسرائيلي شوارع تل أبيب مطالبين بحق العودة للفلسطينيين ومعلنين التضامن مع «مسيرة العودة الكبرى» المناهضة للحصار المفروض على غزة. وقالت شبكة «موندوايسMondoweiss" ،المعنية بالأخبار والتعليقات المتصلة بفلسطين وإسرائيل والولايات المتحدة، إن هذه التظاهرة في تل أبيب جاءت كاستجابة لطلب من اللجنة المنظمة ل "مسيرة العودة الكبرى" في غزة، فتجمع متظاهرون من مختلف أنحاء إسرائيل أمام قاعدة هاكيريا العسكرية وأمام وزارة الدفاع في تل أبيب، ليعربوا عن تضامنهم مع المطالبيت بالعودة في قطاع غزة.

هذا التفاعل السياسي الذي تجاوز خط المواجهة بين إسرائيل وقطاع غزة مرتبط بتفاعلات أخرى وثيقة

الصلة بوقوف الفلسطينيين والإسرائيلين، معا، على الخط الفاصل بين الحياة والموت في إطار جائحة كوفيد- 19. فقد أكدت تقارير من عديد من المصادر الموثوقة أن إرادة الحياة لدى الفلسطينيين والإسرائيليين شقت للشعبين مسارات جديدة للتفاهم والتقارب. وقبل التعرض لهذه التقارير المتصلة بالتضامن في قلب عاصفة كورونا، لابد من الإشارة إلى ما كتبه الناشط اليهودي الكندي مارك آشان الذي شغل مناصب من بينها رئاسته لمشروع روزانا وقبل ذلك رئاسته لحركة الشباب اليهودي الإصلاحية، تحت عنوان" أطباء فلسطينيون في مستشفيات إسرائيلية وبناء جسور للسلام". نشر هذا المقال على موقع Refor-mJudaism.org في العاشر من يناير من العام 2019، قبل انفجار تسونامي كورونا بحوالي العام. ومشروع روزانا الذي يرأسة آشان أخذ اسمه من الطفلة الفلسطينية روزانا صلوحي التي سقطت من نافذة في الطابق التاسع، في العام 2012، في قرية على مشارف رام الله. وقررت والدة روزانا أخذ ابنتها لمستشفى يهودي في القدس لأنها كانت واثقة أن خبرة ذلك المستشفى في علاج الأطفال أجدى لابنتها من أي شئ آخر. وهنا ولدت فكرة هذا المشروع للتعاون الطبي بين اليهود والفلسطينيين، داخل وخارج إسرائيل.

وينطوي المقال على تناقض خطير يجسده قول آشان إنه كيهودي إصلاحي يريد لإسرائيل أن تكون "دولة دينية وتعددية"، ليس فقط لأن الطابع الديني يقضي على احتمالات التعددية، نظريا، ولكن لأن النضال الوطني الفلسطيني واليسار الإسرائيلي يريان في الممارسات الفعلية التي تمارسها الدولة الدينية ملامح فصل عنصري تستحيل فيها التعددية. وعلى الرغم من ذلك فإن آشان، في مقاله هذا، يسبق أزمة كوفيد- 19 المستجد إلى إبراز الدور الحيوي الذي يلعبه الأطباء (والصيادلة) الفلسطينيون في حماية أرواح البشر على اختلاف أعراقهم ودياناتهم في فلسطين – إسرائيل.

وبعد أن انفجرت الجائحة بوجوه الجميع، نشرت"تايمز أوف إسرائيل « Times of Israel في الحادي عشر من إبريل من العام 2020 تقريرا بعنوان" وسط جائحة كورونا طواقم طبية من غزة تتلقى تدريبا من فرق إسرائيلية". وقال التقرير إن عشرين عنصرا من المشتغلين بالرعاية الطبية في القطاع حضروا ورشة عمل، استمرت عدة ساعات، في معبر إيريتز، وتولى التدريب فيها أطباء وخبراء من مركز سيبا الطبي في رامات جان. وسمحت السلطات الإسرائيلية لجماعة من المتدربين الفلسطينيين بمغادرة غزة لتلقي التدريب في مركز بارزيلاي في عسقلان، وإن الاتصالات استمرت بعد ذلك بين الأطباء على جانبي الحدود.

وعلى رغم ما أشار إليه التقرير من أن سلطات غزة اعتقلت شبانا فلسطينيين ناشطين في الدعوة للسلام بتهمة"تطبيع العلاقات مع سلطات الاحتلال" لأنهم تواصلوا عبر تقانة زوم عبر الانترنت، في مناقشة استمرت ساعتين حول وباء كورونا وأمور أخرى ذات اهتمام مشترك، فقد أوضح أن السلطات الصحية في غزة تبنت توصية إسرائيلية بمد فترة العزل للمصابين من مواطني القطاع بفيروس كوفيد- 19 المستجد من أسبوعين لثلاثة أسابيع، نظرا لتدني مستوى التجهيزات الطبية في القطاع، ما يجعل احتمالات تفشي العدوى أشد خطرا.

ولاشك أن التوصية الإسرائيلية مبعثها ثقة إسرائيل في أن تحول غزة إلى بؤرة للوباء يضع إسرائيل بمن فيها من عرب ويهود داخل دائرة الخطر، ولاشك في أن قبول سلطات غزة بالتوصية الإسرائيلية مبعثه الحرص على الحياة عبر الاستفادة من الخبرة الطبية أيا كان مصدرها؛

وهذا ينتقل بالجانبين، نسبيا، إلى نقطة أعلى على منحنى التفاهم والتقارب.

لكن بوسعك أن تجد أوضح تعبير عن التحولات التي أحدثتها جائحة كورونا في الثقافة السياسية في فلسطين – إسرائيل في الصورة التي بثتها وكالة الأبناء الفرنسية في السادس والعشرين من مارس من العام 2020 لعناصر من مقاتلي لواء القدس التابع لجماعة الجهاد وهم يجوبون شوارع رفح في جنوب غزة محملين، لا بالسلاح، ولكن بأدوات رش الشوارع لتطهيرها من الفيروس.

وفي الثاني من مايو أوضح تقرير بثته العربية على موقعها الناطق بالانكليزية Al Arabiya English أن المبادلات الطبية بين غزة والإسرائيليين بدأت بمبادرة من جماعة تسمي نفسها"أطباء إسرائيليون مناصرون لحقوق الإنسان"، وأن المبادلات شملت عشرة أطباء من غزة وعشرة من أريحا، وأنها جرت بتنسيق أشرف عليه المستشار في وزارة الصحة الفلسطينية فتحي أبو وردة الذي قال إن المسألة اتصلت ب "الحاجة لوقف انتشار كوفيد– 19"، وإن كان المستشار عبر عن دهشته من أن سلطات غزة تجاوزت المتفق عليه وبعثت بأربعة أطباء آخرين ومعهم ممرضات وفنيو مختبرات، إضافة للعشرة الذين سبق إرسالهم لمعبر إيريتز من غزة، للتدريب في إسرائيل، خاصة وأن الأطباء الأربعة كان بينهم مدير التعاون الدولي في وزارة الصحة في غزة. ونقل تقرير العربية عن موقع المونيتور أن مصدرا حكوميا في غزة رفض نشر اسمه قال إن الاتفاقات الدولية تفرض على إسرائيل سد الاحتياجات الطبية والإنسانية في غزة.

وفي الخامس من مايو من العام 2020 نقل موقع آسيا نيوز AsiaNews.it عن ممثل القدس في منظمة فتح أستاذ علم الاجتماع والسكرتير التنفيذي لمجلس الكنائس في الشرق الأوسط الدكتور برنارد سابيلا قوله "لامجال للتمييز في هذه الطارئة". وأضاف سابيلا" كما في بلدان أخرى، من مصر للعراق حيث يعمل المسلمون والمسيحيون معا، فحتى في هذه المنطقة التي تشهد أكثر النزاعات احتداما، تُبْذَلُ الجهودُ، للتعاضد في مواجهة العدو المشترك: كوفيد– 19".

وينقل الدكتور سابيلا عن ابـن أخ له يعمل اختصاصي أورام في واحد من أكبر مستشفيات القدس كيف يعمل الأطباء الفلسطينيون والإسرائيليون في مواجهة جائحة كورونا من دون تمييز، ووفق التزام بالاحتياجات الإنسانية لايقف عند حدود العرب والإسرائيليين الذي يحملون جنسية واحدة، بل يمتد أيضا ليشمل الآتين من وراء الخط الأخضر. ووفقا لما أوضحه سابيلا، تعمل الـوزارات الإسرائيلية والفلسطينية معا(قبل التواترات التي خلقها إعلان حكومة إسرائيل عن احتمال قيامها بضم أراض من الضفة الغربية) من أجل إنقاذ حياة الناس. ووجد سابيلا في ذلك" علامة تنعش الأمل في أن يتعلم السياسيون من الأطباء".وبرأي سابيلا، فقد تكون الجائحة فرصة"لإعادة التفكير بحياتنا".

ويقدم لنا كل من الزميل المساعد السابق في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنـى محمد الدجاني الداودي، وهو أستاذ سابق للعلوم السياسية في جامعة القدس وديفيد بولوك الزميل في المعهد ذاته ومدير مشروع"فكرةFikra" فيه إطارا عاما لأثر الجائحة على احتمالات التعاون/ عدم التعاون بين الفلسطينيين والإسرائيليين على مقاومة الجائحة.

ففي تقرير بعنوان" شقّ مسار للسلام في زمن فيروس

كورونا» (الثاني من إبريل من العام 2020) قال الداودي إنه «في المراحل الأولى من الأزمة، أنشأت إسرائيل و"السلطة الفلسطينية" غرفة عمليات افتراضية مشتركة لتنسيق استجابتهما للفيروس. وتم تعزيز إطار التنسيق المدني» الذي يضم المنسق الإسرائيلي للأنشطة الحكومية في المناطق الفلسطينية و وزارة الشؤون المدنية" الفلسطينية، مع ممثلين عن "وزارة الصحة" من كلي الجانبين ومن مؤسسات فلسطينية وإسرائيلية أخرى. ووصف مبعوث الأمم المتحدة نيكولاي ملادينوف التعاون الذي أعقب ذلك بأنه ممتاز، ويدعمه الشعب الفلسطيني على نطاق واسع.

وأضاف الداودي أن إسرائيل نقلت في الأسابيع الأخيرة عدة آلاف من تجهيزات الاختبارات وعشرات الآلاف من الكمامات وغير ذلك من أجهزة الوقاية إلى "السلطة الفلسطينية"، موضحا أن معظم هذه الإمدادات جاء من "منظمة الصحة العالمية" وبعضها من الحكومة الإسرائيلية؛ وأن «المنسق الإسرائيلي للأنشطة الحكومية في المناطق الفلسطينية» نظم دورات تدريبية مشتركة للكوادر الصحية الإسرائيلية والفلسطينية، تضمنت نشر المعلومات ذات الصلة للجمهور الفلسطيني حول كيفية التعامل مع الفيروس.

لكن الداودي نبه إلى أن التعاون الفعال والمتعدد المجالات، الذي كان سائدا آنذاك بين الجانبين – قبل توترات نشأت عن إعلان الحكومة الإسرائيلية عن توجه لضم مناطق في الضفة الغربية – لم يترجم إلى رسالة عامة أو دبلوماسية إيجابية. إذ صدرت عن جهات رسمية فلسطينية، إشارات إلى حوادث منفصلة، تفيد بأن جنوداً إسرائيليين نشروا الفيروس عمداً في الضفة الغربية، وأن إسرائيل تعرقل جهود "السلطة الفلسطينية" لمحاربة الوباء؛ وتم دمج هذه الادعاءات وغيرها في حملة دبلوماسية دولية. ورفضت إسرائيل بشدة جميع المزاعم واتهمت الفلسطينيين بالتحريض، وحذرت من أن ممارسة المزيد من الاستفزازات قد تجبرها على إعادة النظر في مستوى تعاونها.

ثم يرصد الداودي إشارة باتجاه تفاهم محتمل حين يقول إنّ مؤسسة الدفاع الإسرائيلية سجّلت انخفاضاً ملحوظاً في عدد الهجمات ضدّ الإسرائيليين في الضفة الغربية خلال فترة الوباء، واستمر التنسيق الأمني الثنائي دون انقطاع. ومع ذلك، بإمكان أزمة اقتصادية متصاعدة أن تعكس هذا الاتجاه. كما حذر من «أن يؤدي العدد المتزايد للفلسطينيين المصابين في القدس الشرقية (أكثر من 140 إصابة وحالتي وفاة، وقت نشر التقرير) إلى تحويلها مركزا رئيسيا لانتقال العدوى إلى كلي الجانبين. وقد حذر رئيس بلدية القدس موشيه ليون وزارة الصحة الإسرائيلية، في السابع من إبريل، من أن الانهيار المحتمل للمستشفيات الفلسطينية يمكن أن يؤدي إلى تأثير جماعي على النظام الصحي في المدينة بأكملها، مما يزيد من سوء وضعها كمركز رئيسي لانتشار الوباء في إسرائيل.

ويخلص الداودي إلى أن الجائحة، برغم كل شئ، أسفرت عن تعاون وثيق على الأرض، يتعين توسيعه وتشجيعه وتسليط الضوء عليه من خلال الدبلوماسية الدولية والرسائل العلنية.

وفي تقرير بعنوان»غالبية الفلسطينيين يريدون العمل مع إسرائيل ضد فيروس كورونا، على رغم أن قرابة النصف يظنون أن انتشاره متعَمَّد» ظهر في الخامس والعشرين من مارس من العام 2020 كان ديفيد بولوك قد أبرز قراءته لنتائج استطلاع للرأي، خَلُص منها إلى تفشي نظرية المؤامرة بخصوص الفيروس بين الفلسطينيين، وإن بقي المتحسمون للتعاون مع إسرائيل في مواجهة

الجائحة يمثلون ثلثي سكان الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية، في زيادة واضحة عن معدل المؤيدين للتعاون في فبراير من العام ذاته. واستطلاع الرأي الذي اعتمده بولوك أجراه «المركز الفلسطيني لاستطلاع الرأي»، الكائن في بيت ساحور بالضفة الغربية، ويرتبط ديفيد بولوك، كما أوضح في تقريره، بعلاقات قائمة منذ ثلاثين عاما بذلك المركز.

عبروا الحاجز؟

اقتحم الصينيون المشهد الإيطالي الذي كان يترنح تحت ضغط الجائحة. حطت طائرة صينية في مطار روما الدولي، قادمة من شنغهاي في الثاني عشر من مارس، وعلى متنها خبراء أثبتوا كفاءتهم في مواجهة الفيروس في ووهان الصينية. وبحسب مصادر صينية، فقد جاءت المبادرة الصينية ردا لجميل سبقت إليه إيطاليا بمساعدة الصين، قبل ذلك بعدة أسابيع، وقبل أن تسقط هي نفسها –إيطاليا– تحت ضغوط الجائحة.

جاء الأطباء الصينيون معهم بأطنان من المعدات الطبية لتزويد مستشفيات لومبارديا بها، بعد أن استنزف كوفيد– 19 مخزوناتها على مدى أسبوعين. وفي اليوم التالي لوصول المساعدات، عقد وزير خارجية إيطاليا مؤتمرا صحفيا شكر فيه الصين على مبادرتها الكريمة.

وتتابع وصول الطائرات من الصين محملة بأطنان من الإمدادات الطبية التي تحتاجها إيطاليا. لم تأت المساعدات من الحكومة الصينية، فقط، بل ومن مجتمع الأعمال الصيني ممثلا بأحد أهم رموز التكنولوجيا في العالم وهو عملاق الأعمال الصيني جاك ما. لكن أهم صفة لجاك ما هي أنه من أكبر دعاة حرية التجارة، ومن المفترض أن يكون هذا كافيا لتذكير من لايريد أن يتذكر أن الصين التي بادرت لرد الجميل إلى إيطاليا ليست صين الأمس الأحمر.

وعلى الرغم من ذلـك، فلم تخل تقارير أكثر المعلقين تعقلا من إشارات ممرورة إلى «العلم الماوي الأحمر» الذي» يشاهد الآن منتصبا في كبرياء في عديد من مستشفيات لومبارديا، بجوار الراية الثلاثية الألوان، وكذلك على سيارات فيالق الحماية المدنية التي تقل أطباء جاؤوا من بكين»

العلم الثلاثي الألـوان تبنته إيطاليا وكثرة من جمهوريات العالم، بينها جمهوريات عربية، تقليدا لعلم الثورة الفرنسية وتعبيرا عن الإيمان بالثورة وبثالوثها الشهير «الحرية، الإخـاء، المساواة». ويريد تقرير ماركت ووتش Market Watch المعني بالشؤون المالية والتجارية العالمية (25 مارس 2020) أن ينبهنا إلى ما يراه تناقضا بين علم الصين حتى وهي من أهم قوى السوق الرأسمالية العالمية وبين علم إيطاليا. وأهم تعليق على هذا الموقف، في واحد من أكثر التقارير عقلانية عن المساعدات الصينية لإيطاليا هو ما قاله أول رئيس وزراء للصين الشيوعية عن الثورة الفرنسية" لم يمض عليها سوى مئتي عام" أي أن مبادئها (الإخاء مثلا) لم تترسخ بعد،حتى في البلدان التي ترفع علما مستلهما من علمها وشعاراتها.

ولم يكتف المشككون في نوايا الصين بالإشارة إلى ماضيها الشيوعي، الذي لا يزال له حضوره القوي، كما أن للملكية العتيقة والعريقة حضورها القوي في بريطانيا الديمقراطية الليبرالية العظمى. فمضوا إلى إبراز حاجة الصين إلى تحسين صورتها بعد أن خرج

الفيروس منها لبقية أنحاء العالم حاملا العبارة" صنع في الصين".

هناك عبارة انكليزية لا يمكن لأحد أن يماري في صحتها"لا وجود لشئ إسمه غداء مجاني".

هذا صحيح. كل إنسان يحقق ربحا ما بكل عمل يعمله، ربحا ماديا أو معنويا، يستوي في ذلك الأطباء الصينيون والحكومة التي أرسلتهم والأطباء الإيطاليون الذين يتقاضون أجرا وهم يعالجون بني وطنهم. وليست المشكلة مشكلة الصين وحدها، بل هي مشكلة النظام العالمي الذي يتحول، والذي قد تكسبه المبادرات الصينية والروسية والكوبية، والمبادرات الإماراتية، وغيرها، مزيدا من العمق والرسوخ لمكونه الإنساني القائم على التواصل والتعاطف والتعاضد. وأيا كانت وجهات نظر المتشككين بنوايا الصينيين فقد قوبلت مبارداتهم بترحيب من أعلى مستوى في الحكومة الإيطالية، ممثلا برئيس الوزراء جوزيبي كونتي،حتى الناس العاديين الذين فرضت عليهم إجراءات مكافحة انتشار الوباء البقاء في بيوتهم، فخرجوا للشرفات ليصفقوا تحية لموكب المساعدات الصينية المار بهم.

الجيش الروسي في أوروبا الغربية

وسارت روسيا فلاديمير بوتين على الطريق الذي سبقت إليه الصين، معلنة أنها تقدم المساعدة لإيطاليا من دون ربطها بشروط ومن دون توقع شئ مقابل. وهبطت في مطار براتيكا دي ماري العسكري القريب من روما 14 طائرة إليوشن عسكرية تحمل الأطباء والمواد اللازمة لمكافحة الوباء. وكان بين من حملتهم الطائرات مئة من خبراء الفيروسات وغيرهم من المتخصصين في طب الأمراض المعدية، إضافة إلى وحدات مدربة على التنظيف المُعَمَّق للمواصلات العامة ولغيرها من الفضاءات المفتوحة.

مشهد الروس في إيطاليا ذكر من كانوا شبابا في الستينات، بفيلمين وبأغنية: الفيلم الأول هو» من روسيا مع حبي1963–From Russia With Love" والأغنية هي أغنيته الشهيرة التي تحمل الاسم ذاته، وكان هذا ثاني أفلام جيمس بوند المعادية للسوفييت، وربما للعرق والثقافة الروسيتين. وعندما انبعثت أنغامها من المركبات الروسية المحملة بالأطباء وبأطنان المساعدات الطبية، فقد كانت لها دلالة مزدوجة، سخرية من دعايات الحرب الباردة، وإعلاناً لحقيقة أنها انتهت واننا نعيش اليوم عالما جديدا يمكن أن يحل فيه الحب، القائم على مصالح متبادلة قبول متبادل، محل الشكوك والبغضاء التي يفترض أن زمانها ولى. أما الفيلم الثاني فهو "الروس قادمون 1966–The Russians Are Coming" وهو فيلم لم يبق منه سوى اسمه الذي بقي يستخدم –حتى نهاية الحرب الباردة – كلما لاح شبح الشيوعية السوفييتية في الأفق، او كلما تخيل أحد ذلك.

وقوبلت المبادرة الروسية منذ جلاء القوات الروسية عن ألمانيا بحملة تشكيك أقوى من تلك التي قوبلت بها المبادرة الصينية، فمن لحظة نزول الأطباء العسكريين والخبراء وأطقم التنظيف إلى المطار العسكري الإيطالي، والانتقادات تتناول استقبال نظرائهم الإيطاليين لهم بالتحية العسكرية، كما تتناول المصافحات باليد وعدم الحرص على التباعد الاجتماعي وعدم التزام القادمين الروس بلبس الكمامات.

وظهرت في المشهد قوة ثالثة من قوى لعبت دورا مذكورا في تاريخ الحرب الباردة وهي كوبا، التي دفعها

الحصار الأميركي الخانق المطول إلى تطوير صناعة الأجهزة والخدمات والخبرات الطبية وإلى تطوير وتعزيز آليات ومرافق الرعاية الصحية للجماهير، فصارت على مستوى عال من الكفاءة.

وقد رافق المشجعون والمصفقون من الكوبيين ومن السياح الأجانب تحرك فريق المساعدة الطبية الكوبية وهو في طريقه من داخل مدينة هافانا إلى مطارها الدولي، تحوطه الأعلام الكوبية والإيطالية. وصل الكوبيون يوم الأحد الثاني والعشرين مارس، وفي ما كانت المنابر التي سبق لها التشكيك في النوايا الصينية والروسية تمطر الكوبيين بتعليقات مشابهة، ذكرت قناة الجزيرة الناطقة بالانكليزية العالم، على لسان مراسل لها في هافانا بأن "الأطباء الكوبيين يهرعون لنجدة الإيطاليين كما سبق وتقدم أطباء كوبيون إلى الخطوط الأمامية في الحرب على الكوليرا في هاييتي وضد إيبولا في غرب إفريقيا، قبل عشرة أعوام. وقبل أن يصل الكوبيون بيوم واحد كانت كورونا قد أودت بحياة قرابة ثمانمئة من الإيطاليين".

وفوجئ المتشككون من "المساعدات الشيوعية" الآتية من بلدان أدارت ظهرها للشيوعية قبل عقود، بأن الإيطاليين يرحبون بالمساعدات الصينية والروسية والكوبية. وهنا قد يكون هناك من يتساءل: هل لأن الإيطاليين مدفوعون بقوة الاحتياج، أم لأن إيطاليا كانت، حتى نهاية السبعينات، البلد الذي تنتمي أغلبية ساحقة من مواطنيه لأيديولوجيات شيوعية واشتراكية؟

لكننا نفضل أن نتجاهل أمورا طواها التاريخ لنتساءل حول مسألة أخرى أكثر إلحاحا: هل عبر الصينيون والروس والكوبيون الحاجز الذي يحول دون التعاضد والتعاطف اللازمين لمواجهة إنسانية، على مستوى العالم كله، لعدونا الجديد؟ لاشك أن مبادرات هذه الدول الثلاث، وغيرها تعد خطوة في هذا الاتجاه، خاصة وأن المساعدات الطبية والوقائية الصينية ظهرت في الولايات المتحدة نفسها، متجاوزة حاجز العرق والدين.

فحتى قبل أن يدرك الأميركيون، حكومة وشعبا، خطورة "كوفيد- 19" بدأت الجاليات الصينية في مختلف أنحاء الولايات المتحدة، في يناير من العام 2020، تنظيم أعمال مكافحة الوباء، إذ أفزعهم ما كان يجري في وطنهم الأصلي، في «ووهان» الصينية التي كانت تكافح الوباء. فراحوا يجمعون التبرعات ويؤمنون الكمامات وغيرها من أدوات الحماية التي لم تكن قد ظهرت الحاجة إليها في الولايات المتحدة. وبحلول شهر مارس كانت الصين قد انتصرت على الوباء (أو على الموجة الأولى منه، فمن يدري ماذا سيحدث غدا؟)، وبدأت مأساة الوباء تضرب المدن الأميركية، فتحولت جهود أفراد الجاليات الصينية إلى مواطنيهم الأميركيين لمساعدتهم على مواجهة مأساتهم. وعلى الرغم من ذلك، فقد تعالت الصيحات العنصرية التي طالت ليس فقط الحكومة الصينية المتهمة بأنها أصل البلاء بتكتمها على الوباء، بل والمواطنين الأميركيين من أصول صينية. لكن ذلك لم يمنع الجاليات الصينية من مواصلة أداء واجبها تجاه الولايات المتحدة، مع حرص واضح على أن لا يشارك في جهود هذه الجاليات ممثلون دبلوماسيون أو غير دبلوماسيين للحكومة الصينية، حتى لا تكون هناك فرصة لتعزيز نظريات المؤامرة.

الفصل الثاني

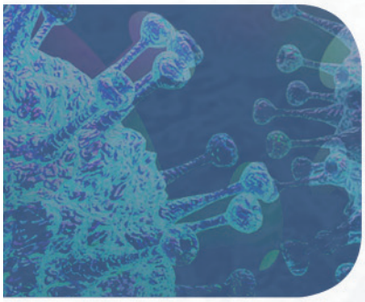

كورونا...
من أين جاء وكيف انتشر...
بين الطب وأشياء أخرى

- ما هو «كوفيد – 19» طويل الأمد؟
- نظريات حول فاشية كورونا؟
- الخفافيش أم مختبر ووهان... هو السبب؟
- لماذا النساء والأطفال أقل عرضة؟
- نجوم ومشاهير حول العالم
- كيف تعزز جهازك المناعي؟
- مستقبل الفيروسات
- سلالات فيروس كورونا الجديدة

ما هو فيروس كورونا المستجد؟

فزع العالم فجأة من حظر فيروس كورونا حيث بدا يزداد بوتيرة متصاعدة، فحالات الإصابة المؤكدة بالمرض في ارتفاع ملحوظ والوفيات كذلك، والاستنفار العالمي لمواجهة الانتشار على أشدّه، بينما رقعة عدوى المرض تتسع بشكل سريع، إلى حد أن منظمة الصحة العالمية أعلنت أن فيروس كورونا هو جائحة عالمية بمعنى إنه أشدّ من الوباء العالمي .

ظهر نوع جديد من فيروس كورونا في الصين، وقد حظي بعدة مسميات مثل: فيروس كورونا الجديد، أو فيروس كورونا المستجد، أو كوفيد 19، أو فيروس كورونا المُتحوّر الجديد، أو فيروس كورونا nCov19 وبالانجليزية: 2019-nCoV acute respiratory disease)؛ حيث سُجلت التقارير الأولية لبدء انتشاره في منتصف شهر ديسمبر من عام 2019، واستمرت الحالات المسجلة بالإصابة به في ارتفاع متسارع.

لكن بداية ظهور فيروس كورونا تم التبليغ عن أول إصابة بالفيروس عام 1937م، وكانت الإصابات في الطيور مما أدى إلى نفوق المئات منها، ثمّ بدأت الأعراض تظهر على أنواع أخرى من الحيوانات مثل المواشي والأبقار، أما فيما يتعلق بأول حالة من حالات الإصابة البشرية، فسجلت أول إصابة عام 2012 على يد طبيب مصري مقيم في المملكة السعودية، وهو الطبيب محمد علي زكريا، ووصلت عدد الحالات التي تم تسجيلها حتى نهاية عام 2015 إلى 1250 حالة تماثلت 685 حالة منها للشفاء، وتوفت 535 حالة، وبقيت 30 حالة تحت العلاج. ظهر نوع آخر من الكورونا عُرف بفيروس ووهان أو فيروس الكورونا المستجد 19 -CoV وكان ذلك في الصين نهاية عام 2019. وقد وصل مجموع الإصابات المؤكدة بالفيروس الجديد منذ بدء تفشيه وإلى تاريخ 28 يناير من العام 2021 إلى أكثر من 100 مليون وتحديداً مئة مليون وعشرين ألف وسبعمائة وثمانية وتسعين أصابة حول العالم وتسبب بوفاة 2,206,472 مليوني شخص لقوا حتفهم، وهذه الأرقام بتزايد في أكثر من 210 دولة ومناطق، ومن المهم أن نذكر أيضاً أنّ نسبة الشفاء من الفيروس الجديد وفقاً للإحصائيات الحالية تقدّر بحوالي 92 %، وفي المقابل تصل نسبة الوفاة إلى ما يقارب 8 %، وأظهرت الاحصاءات ان نحو 1,3 في المائة من سكان العالم مصابون بالفيروس وتشكل أشد البلدان تضرراً من الجائحة وهي الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل وروسيا وبريطانيا أكثر من نصف الاصابات المسجلة لكنها تمثل 28 في المائة من سكان العالم، وقد أعلنت السلطات الصينية أنّ حالات الإصابة الأولى بالفيروس الجديد تعود في نشأتها إلى مدينة ووهان الصينية، وقد انتشر منذ ذلك الوقت بشكل واسع، على الرغم من اتخاذ الصين إجراءات تحسبية حازمة لمواجهة انتشار الفيروس الجديد بإغلاق مدينة ووهان، وبعض المدن المحيطة بها بمنع السفر منها أو إليها عبر جميع وسائل النقل.

وفي الحقيقة تضم عائلة فيروسات كورونا سبعة أنواع من الفيروسات المختلفة التي يمكن أن تصيب الإنسان؛ أربعة منها -وهي الأكثر شيوعاً- تسبب عدوى الزكام أو نزلات البرد، إضافة إلى النوعين الخطيرين المسببين لعدوى خطيرة في الجهاز التنفسي والرئتين والمعروفين بمتلازمة الشرق الأوسط التنفسية (بالإنجليزية: Middle East respiratory syndrome)

واختصاراً (MERS)، والسارس أو ما يُعرف بالمتلازمة التنفسية الحادّة الوخيمة (بالإنجليزية: Severe acute respiratory syndrome)، ويُعدّ فيروس كورونا ووهان النوع الجديد والـذي تمت إضافته مؤخراً لقائمة فيروسات كورونا التي يمكن أن تصيب الإنسان.

تُعدّ فيروسات كورونا حيوانية المنشأ؛ بمعنى أنّها قادرة على الانتقال من الحيوان إلى الإنسان؛ حيث تُعدّ العدوى بفيروسات كورونا شائعة لدى أنواع محددة من الحيوانات وتحديدًا الثدييات والطيور.

ولكن في بعض الحالات النادرة قد تتطوّر هذه الفيروسات وتصبح قـادرة على نقل العدوى من الحيوان إلى الإنسان، كما يمكن أن تمتلك القدرة بعد ذلك على نقل العدوى من إنسان مصاب إلى إنسان آخر.

فمثلًا وفقًا للدلائل العلمية فيروس كورونا المسبب لمتلازمة الشرق الأوسط التنفسية انتقل من الجمال إلى الإنسان، بينما فيروس كورونا المسبب للسارس انتقل من قطط الزباد إلى الإنسان، وامتلكت هذه الفيروسات القدرة على نقل العدوى من إنسان مصاب إلى إنسان آخر أيضاً، فتسبب فيروس كورونا المسبب لمتلازمة الشرق الأوسط بعدد كبير من الإصابات ومئات الوفيات في أول تفشٍ له عام 2012 ومن ثم في عام 2015، بينما تسبب فيروس كورونا المسبب لعدوى السارس بوفاة 774 شخص في عام 2003، وقد تم اتخاذ إجراءات عالمية لاحتواء هذه الفيروسات فمنذ عام 2015 لم يتم تسجيل أي إصابات جديدة بالسارس.

وبالنظر إلى المعلومات المتاحة عن فيروس كورونا الجديد أشارت التقارير إلى أنّ حالات الإصابة الأولى به تعود في أصلها إلى أشخاص من سوق لبيع الأسماك والحيوانات في مدينة ووهان الصينية، ولم يتم تحديد الحيوان الذي بدأ من خلاله انتقال العدوى إلى الإنسان بشكل مؤكد حتى الآن، وتشير أدلة وتقارير منظمة الصحة العالمية ومراكز مكافحة الأمراض واتقائها إلى أنّ فيروس كورونا الجديد يمتلك أيضًا القدرة على نقل العدوى من إنسان مصاب إلى إنسان آخر مما يفسر معدل انتشاره المتسارع.

نظريات حول فاشية كورونا(1) :

هل الوباء عقوبة ربانية؟

هل الوباء عقوبة ربانية ، سؤال بديهي لا بد ان يكون محل تأمل ازاء الفواجع والمآسي التي خيمَّت على العالم اجمع ، ولما لا يكون الوباء عقوبة ربانية لمن عصوا ربهم، او احد معجزاته او رسائلة التي تؤكد قدرته جلا في علاه !؟

لما لا وقد دعانا رب العالمين الى التأمل والتدبر والتفكير واعمال العقل ، وبالقطع هذا التفسير لا يمكن تجاهلة كما لا يمكن إنكار حجم الكارثة التي حلَّت بالعالم والبشرية ما يستوجب التأمل فيها اعمالا لدعوة الخالق الواضحة والداعية الي التأمل والتفكير .

لما لا ومنذ ان خلق الله الأرض واستوى على السموات السبع والبشرية في صراع مع اوبئة لا حصر لها منها ما تحول الى جائحة ومنها ما هو غامض ومنها ما جاء محدودا الأثر اومقتصرا على قارة او منطقة بعينها .

نظرية العقاب السماوي يمكن ان تسقطها على

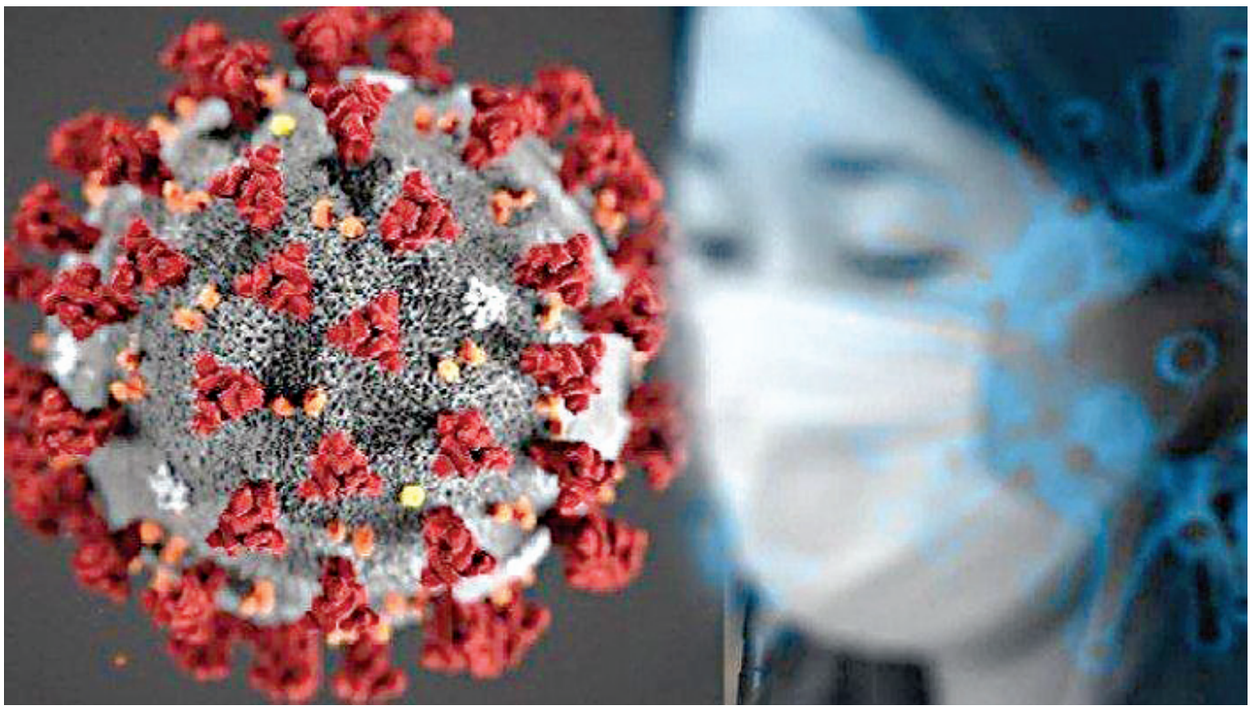

فيروس كورونا

ارض الواقع فتكون اقرب للمنطق والعقل اذا ما اخذنا افعال اقوام تمادوا واستمروا في غيهم غير مُبَالِين بغضب الرب –سبحانه وتعالى– و مثلما حلَّ بالأقوام السابقة لظهور الإسلام فحل بهم الأن بعد ظهور الاسلام وشيوع نور القرآن ؛ فمثلما تعرضت أرض مصر في عهد نبي الله موسى –عليه السلام–، وفرعون لمثل هذا الوباء الذي سلَّطه الله على طائفة من بني إسرائيل؛ ففتك فيهم وفي مواشيهم فتكًا ذريعًا؛ قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "الطّاعُونُ آيَةُ الرِّجْزِ، ابْتَلى اللَّهُ –عزَّ وجلَّ– به ناسًا مِن عِبادِهِ، فإذا سَمِعْتُمْ به، فلا تَدْخُلُوا عليه، وإذا وقَعَ بأَرْضٍ وأَنْتُمْ بها، فلا تَفِرُّوا منه".(صحيح مسلم).

وقد يكون ابتلاءً من الله لعباده المؤمنين؛ فعن عائشة زوج النبي –صلى الله عليه وسلم– أنها سألت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الطاعون، فأخبرها أنه " كانَ عَذابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ على مَن يَشاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ؛ فليسَ مِن عَبْدٍ يَقَعُ الطّاعُونُ، فَيَمْكُثُ في بَلَدِهِ صابِرًا، يَعْلَمُ أنَّه لَنْ يُصِيبَهُ إلّا ما كَتَبَ اللَّهُ له، إلّا كانَ له مِثْلُ أجْرِ الشَّهِيدِ" .

وقد أشار نبينا الكريم –صلى الله عليه وسلم– في أحاديثه الشريفة إلى الطاعون، وكيفية التصرف إذا وقع في أرض، فقال: "إذا سَمِعْتُمْ بالطّاعُونِ بأَرْضٍ فلا تَدْخُلُوها، وإذا وقَعَ بأَرْضٍ وأَنْتُمْ بها فلا تَخْرُجُوا مِنْها" (صحيح البخاري).

فالمصائب والبلايا العامة كالجفاف والغرق والأوبئة والزلازل التي تصيب البشرية تكون محنة وابتلاء لبعضهم، و لبعضهم عقوبة ونتائج ناشئة عن سلوك البشر وأخطائهم وانحرافاتهم {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ

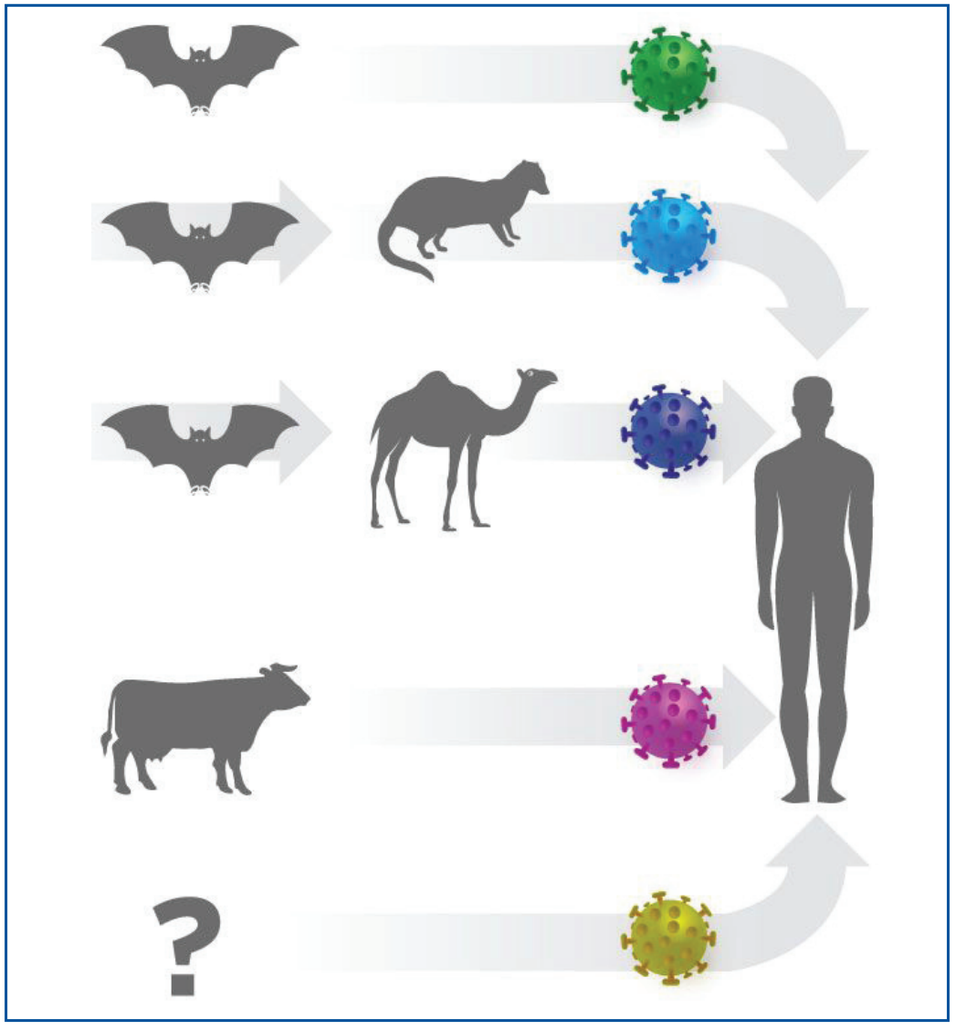

فيروسات حيوانية المصدر المصدر تيموثي شيهان، جامعة نورث كارولينا

مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}(الأية 30) من سورة الشورى. فهي رسائل عتاب وتذكير من الله تعالى للناس ليراجعوا أحوالهم ويصححوا سلوكهم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (الأية41) من سورة الروم.

وهذا ما يسميه القرآن بالنذير والنذر كما قال تعالى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} (الأية 37)من سورة فاطر. والنذير اسم عام يشمل أنواعا من الظواهر منها المرض ومنها كبر السن ومنها الشيب، فجاءتهم النذر في الدنيا لكن لم يتذكروا ولم يعتبروا. وقد يكون تقديرها ابتلاء وامتحانا أحيانا وليست عقوبة على ذنوب سبقت لأنها عامة يشترك فيها المؤمن والكافر والصدّيق والزنديق ويصيب البهائم والأطفال ومن لا ذنوب لهم، والنظر والاستقراء يدل على أنها تصيب المؤمنين والصالحين كما تصيب غيرهم – خاصة عند ظهور الفساد واستعلانه – كما

قالت زينب بنت جحش للنبي صلى الله عليه وسلم : (أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثر الخبث) متفق عليه.

ولكنها مع ذلك هي رحمة بالمؤمنين من جهة الثواب على الصبر والرضا، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الطاعون: (رجز أرسل على بني إسرائيل ورحمة بالمؤمنين). وقال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} (الأية 216) سورة البقرة.

ومن هذا المنطلق قد تكون رحمة من رب العالمين يكفر الله بها من خطايا المؤمنين فلا يعذبهم بها مرة أخرى في الآخرة، وهذا بمثابة قيام الأب الشفيق بعملية جراحية لولده المريض، ولا يتنافى مع رحمة الوالد وشفقته.

فهكذا هم المؤمنون العقلاء يستفيدون من الأزمات، ويتدبرون الأحـداث ليدركوا من خلالها أخطاءهم ويراجعوا ربهم قبل أن يحلّ بهم ما هو أشد من ذلك.

وأما أهل الإلحاد والغفلة فإنهم لا يعتبرون من هذه الأزمـات بل يشككون الناس ويجادلون في كونها نذرا من الله تعالى كما قال تعالى: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} (الأية 101)سورة يونس. وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ} (الأية 36)سورة القمر. أي جادلوا وشككوا في الوعيد.

وميزان التفريق هو أن يرجع الإنسان إلى حاله وسلوكه فإن كان قائما على منهج الله تعالى عاملاً بتعاليمه فأصابه شيء فهو ابتلاء ورحمة وتكفير للخطايا. وإن كان شارداً عن الله، مخالفا لمنهج الله فأصابه شيء فهو عقوبة عاجلة من الله، ونذير من الرحمن ليراجع الإنسان نفسه ويتوب إلى ربه ويصحح سلوكه.

والواجب على الإنسان في مثل هذه الحالات مع الأخذ بالأسباب أن يستكين لله ويتضرع إليه ويعترف بتقصيره ولا تأخذه العزة والكبر والطغيان بالإثم كما قال تعالى : (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بَأْسُنَا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون) (الأية 21) (سورة الأنعام) .

في هذا المضمار كان للعالم الفلكي المصري الدكتور زغلول النجار صوتاً منادياً بالتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالقول:

يبدو أن العالم الذي نسي الله كان يحتاج إلى فيروس خفي ليعيدهم إلى ذكره ونوره .. يحصد كورونا الأرواح ويرعب البشرية متجاوزاً الحدود، يرفض التعقيم، ويعزل المصابين به بشكل يدعونا للتحسر فعلا على حال الدنيا.

من أهوال يوم القيامة أن يفرّ المرء من أخيه، وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه لكلّ امرىء يومئذ شأنٌ يغنيه.

هي علامات مرتبطة بتكوير الشمس وانشقاق القمر (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ) (القارعة، 5).

اليوم يلعب كورونا "دور القيامة الصغرى"، شوارع خالية، مساجد بلا صفوف وكعبة بلا طواف، وحدائق تخلو من ابتسامات الأطفال،.. ناس جاثمين في بيوتهم يخشون حتى التنفس، ترهبهم العطسة وتبعثرهم كحة عابرة.

كورونا اليوم يفرق بين الزوج وزوجه والأخ وأخته ويفر المرء من المصاب دون اعتبار لصلة قرابة أو

صداقة، مات البعض بالفيروس ولم يصلى عليهم، ودفنوا بطريقة نقل البضائع دون أن يمسهم ماء، بثيابهم مرضوا وبذات الثياب دفنوا.

تخيلوا في نعيم الدنيا ومفاتنها يحصل هذا الخوف والقرار، يحصل هذا وإمكانية إيجاد اللقاح متوفرة، المطهرات من الكلوركس للديتول متوفرة، الصوابين بأنواعها موجودة، فما بالنا بالفرار يوم الغاشية حين لا يتواجد إلا كتاب إما أن تلقفه باليمين أو الشمال..؟

كورونا حوّل إيطاليا إلى مقاطعة هندية فقد باتوا يحرقون ضحايا الفيروس، وفي كوريا الشمالية تهديد بأعدام المصابين، ودول أخرى تدفن موتاها بطريقة شهداء البحر.

صورة مصغرة ليوم عظيم، الفرق أن يوم البعث تزدحم الأرض وتتقارب الصفوف، يقف الجميع صفاً لرب يجيء والملك صفاً أيضاً.

كورونا أفرغ الأرض من سكانها، «هي فرصة يجب استثمارها من هذا البلاء للعودة إلى الله بقلوب سليمة، هي فرصة للطمانينة بذكر الله وكتابه الكريم، هي دعوة مجانية من كورونا رغم رعبها لكافة الناس، بأن يطهروا قلوبهم قبل أيديهم، وأن ينظفوا منازلهم بالتسبيح والاستغفار قبل التهافت على المطهرات».

وجهات نظر مختلفة (2) :

كورونا فيروس حيواني !!

فيروسات كورونا هي فصيلة فيروسات واسعة الانتشار يُعرف أنها تسبب أمراضاً تتراوح من نزلات البرد الشائعة إلى الأمراض الأشد حدةً، مثل متلازمة الشرق الأوسط التنفسية (MERS) ومتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم (السارس). وفيروس كورونا المستجد (nCoV) هو سلالة جديدة من الفيروس لم يسبق اكتشافها لدى البشر.

وفيروسات كورونا حيوانية المنشأ، أي أنها تنتقل بين الحيوانات والبشر. وقد خلصت التحريات المفصلة إلى أن فيروس كورونا المسبب لمرض سارس (SARS-CoV) قد انتقل من قطط الزباد إلى البشر وأن فيروس كورونا المسبب لمتلازمة الشرق الأوسط التنفسية (MERS-CoV) قد انتقل من الإبل إلى البشر. وهناك عدة أنواع معروفة من فيروسات كورونا تسري بين الحيوانات دون أن تصيب عدواها البشر حتى الآن.

وتشمل علامات العدوى الشائعة: الأعراض التنفسية والحمى والسعال وضيق النفس وصعوبات التنفس. وفي الحالات الأشد وطأة قد تسبب العدوى الالتهاب الرئوي والمتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة والفشل الكلوي وحتى الوفاة.

وتشمل التوصيات النموذجية لمنع انتشار العدوى غسل اليدين بانتظام وتغطية الفم والأنف عند العطس والسعال، وطهو اللحوم والبيض بشكل كامل. ويتعين كذلك تجنب مخالطة أي شخص تظهر عليه أعراض الأمراض التنفسية كالسعال والعطس.

ومع انتشار جائحة كورونا ذكرت منظمة الصحة العالمية عند بداية ظهور الفيروس أن «كورونا المستجد» هو فيروس حيواني المصدر ينتقل للإنسان عند المخالطة اللصيقة للحيوانات المصابة بالفيروس كما ينتقل عند التعامل مع فضلات هذه الحيوانات، ورغم أن المصدر

الحيواني هو المصدر الرئيسي الأكثر ترجيحًا لهذا الفيروس، لا تزال تُجْرَى المزيد من الاستقصاءات لتحديد المصدر الدقيق للفيروس وطريقة سريانه، وتنصّ إرشادات منظمة الصحة العالمية للبلدان والأفراد على احتمالية انتشار المرض بسبب مخالطة الحيوانات أو ملامسة الأغذية الملوثة، أو انتقاله من شخص لآخر.

ووفقًا لأحدث المعلومات، أنه يوجد على الأقل شكل من أشكال انتقال المرض بين البشر، ولكن لا يتضح إلى أيّ مدى. وتُعزز هذه المعلومات حالات العدوى بين العاملين في مجال الرعاية الصحية وبين أفراد الأسرة الواحدة .

كما تتسق هـذه المعلومات مع التجارب مع الأمراض التنفسية الأخرى. وتشير المعلومات الحالية إلى أن الفيروس قد يسبّب أعراضًا خفيفة وتشبه الأنفلونزا، كما قد يسبّب مرضًا وخيمًا. وبينما قد يظهر بمثابة مرض خفيف في البداية، قد يتطور إلى مرض أكثر وخامة، ويبدو أن الأشخاص الذين يعانون من حالات مرضية مزمنة قائمة أو المسنين أكثر عُرضة واستعدادًا للإصابة به .

وفي تقرير آخر وصفت منظمة الصحة العالمية فيروسات كورونا بأنها فصيلة كبيرة من الفيروسات التي تسبب اعتلالات تتنوع بين الزكام وأمراض أكثر خطورة، مثل متلازمة الشرق الأوسط التنفسية (MERS-CoV)، ومتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم (سارس) (SARS-CoV) ويُمثِّل فيروس كورونا المستجد (nCoV) سلالة جديدة لم يسبق تحديدها لدى البشر من قبل.

وتعد فيروسات كورونا حَيَوانِيّة المَصْدَر، ويعني ذلك أنها تنتقل بين الحيوانات والبشر. وتوصَّلت الاستقصاءات المستفيضة إلى أنَّ فيروس كورونا المسبِّب لمتلازمة الالتهاب الرئوي الحادّ الوخيم (سارس) قد انتقل من سَنَانير الزبَّاد إلى البشر، بينما انتقل فيروس كورونا المسبب لمتلازمة الشرق الأوسط التنفسية من الجِمَال الوحيدة السنام إلى البشر.

وينتشر العديد من فيروسات كورونا المعروفة بين الحيوانات، ولم تُصِبْ البشر بعدُ. وتشمل الأعراض الشائعة للعدوى أعراضًا تنفسية والحمى والسُّعَال وضيق النفس، وصعوبات في التنفس. وفي الحالات الأكثر حدةً، قد تسبّب العدوى الالتهاب الرئوي، ومتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم، والفَشَل الكُلَويّ، وحتى الوفاة.

(3) الخفاش أم مختبر ووهان السبب؟

مع بدء ظهور الفيروس، تحدثت تقارير غربية وصينية أن حيوان آكل النمل الحرشفي ربما يكون الرابط الذي سمح لفيروس كورونا بالانتقال من الخفافيش إلى البشر.

ويُعتقد أن الفيروس الجديد الذي ظهر في سوق للحيوانات الحية في مدينة ووهان بوسط الصين، أواخر عام 2019، قد نشأ في الخفافيش، لكن الباحثين أشاروا إلى احتمال وجود «مضيف وسيط» في انتقال العدوى إلى البشر.

باحثون من جامعة "وي جي" في بكين، قاموا بدراسة نشرت نتائجها في مجلة "علم الفيروسات الطبية" قارنت المادة الوراثية من خمس عينات لفيروس كورونا المستجد بـ217 فيروساً مشابهاً أخذوه من عدد كبير من أنواع حيوانية مختلفة.

مختبر مدينة ووهان الصينية

التحليلات الوراثية أظهرت أن الثعابين هي أكثر الأنواع الحاملة لمثل هذا الفيروس المستجد.

ويدعم باحثو جامعة "وي جي" الفرضية القائلة إن فيروس كورونا المستجد قد نشأ من حيوان يباع في سوق بمدينة ووهان، التي شهدت أول انتشار لهذا الوباء؛ خاصة أن هذه الثعابين من بين الحيوانات التي كانت معروضة للبيع في ذلك السوق.

لكن الغموض الذي يحيط بفيروس كورونا من حيث المصدر وطرق الانتشار، وكذلك نقص المعلومات عن كيفية تطوره في مراحله الأولى وتأخر المراكز البحثية المتخصصة عن اكتشاف لقاح مضاد له، يوحي بوجود أسرار وخفايا وراء قصة انتشاره، لذلك لا يمكن التسليم المطلق والنفي التامّ لنظرية المؤامرة التي ما زالت تفتقر للأدلة العلمية المعززة لها والمؤكدة على صحتها حول الادعاء بوجود تدخّل بشري أو دولة معينة في نشر فيروس كورونا.

ويبقى تسويق النظريات المتضادة والاتهامات المتبادلة خيارا متاحا لتجنب تحمل مسؤولية كارثة بهذا الحجم ، ومن ايسر الطرق لعدم تحمل مسؤولية «فيروس» اربك العالم اجمع بأنه يحتمل ان يكون وراءه خطأ بشري في أحد مختبرات تطوير الفيروسات تسبب بتسرب فيروس كورونا وانتشاره وفقدان القدرة على السيطرة عليه .

فيما تذهب نظرية اخرى الى إن الفيروس هو نتاج تطور طبيعي حصل في سلالة العائلة التي ينتمي إليها، وفي كلتا الحالتين فالمجتمع الإنساني ما زال يفتقر إلى المعلومات اللازمة لإثبات إحدى هاتين الفرضيتين، فالمسألة معقدة وتحتاج الكثير من الوقت والجهد والبحث العلمي لكشف الحقائق المتعلقة بفيروس كورونا.

لكن أمام فرضية التسليم بأن فيروس كورونا حيواني المنشأ والمصدر فتسقط أمام ذلك نظرية التخليق والتصنيع الجيني للفيروس معمليا، الفرضية التي يذهب اليها البعض هو انه قد يكون تم التقاطه بشكل متعمد وإحداث اصابة بشرية متعمدة منه بما يسهم في تشكيل حاضنة بشرية للفيروس تطلق له العنان للإنتشار.

وفي احدث تقرير صدر عن مختبر أميركي «لورانس ليفرمور الوطني» حول أصول مرض «كوفيد – 19» خلص إلى القول أن الفرضية التي تدعي أن فيروس كورونا يتسرب من مختبر صيني في مدينة «ووهان» الصينية، معقولة وتستحق المزيد من التحقيق لكن الصين وصفت الاتهام بأنه يشبه «أسلحة الدمار الشامل العراقية» في عهد صدام حسين وهي محض افتراء.

بقي مختبر «ووهان» تحت الاضواء لما تسببه من آثار مخيفة على المستوى العالمي.

ففي الوقت الذي تنفي فيه الصين مسؤوليتها عن انتشار الفيروس وخروجه من أراضيها خلص أحد المختبرات الأميركية إلى أن تسرب الفيروس بات فرضية منطقية «فالعالم الأميركي سيتيفن سالزبرغ اعتبر أن الصدفة التي جمعت بين معهد «ووهان» وسوق الطيور مسألة جدلية ومن الصعب تجاهلها.

بقي مختبر «ووهان» ودور الصين الملتبس مدار تجاذبات سياسية، فقد أصدرت مجموعة وكالات استخبارية أميركية في الاسبوع الأخير من شهر أغسطس 2021 تقريراً بناءاً على طلب من الرئيس جو بايدن قالت فيه أن الفيروس لم يطوَّر ليكون سلاحاً بيولوجياً ويرجح أن تكون الإصابات قد وقعت إما نتيجة لحادث في أحد المختبرات في ووهان أو نتيجة ملامسة أو إقتراب من حيوان حامل للفيروس.

منشأ الفيروس والفرضيات الأربع

لم يطل الزمن بإعطاء فرص إضافية لعرض الفرضيات حول منشأ الفيروس، فقد حسمت منظمة الصحة العالمية «الجدل الطبي» بعد أن أرسلت فريق متخصص إلى الصين مطلع العام 2021 بادر إلى الكشف عن نتائج التحقيق الذي أجروه في مدينة «ووهان».

إستبعد خبراء المنظمة الدولية فرضية تسرب الفيروس من المختبر وان العمل على تحديد المنشأ يشير إلى مخزونات طبيعية للفيروس في الخفافيش لكن في غير المحتمل أن تكون في ووهان.

خبير الفيروسات الدولي، بيتر بن إمبرك، رجَّح في التقييم الأولى لفريق التحقيق «17 خبير صيني و17 خبير دولي» التابع لمنظمة الصحة العالمية والذي أمضى أربعة أسابيع في الصين ان يكون فيروس كورونا المسبب لمرض كوفيد – 19 قد إنتقل من الحيوانات إلى البشر.

وضع فريق منظمة الصحة العالمية هدفين أمامه قبل الاضطلاع بهذه المهمة.

جئنا إلى هنا ولدينا هدفان، الأول محاولة الحصول على فهم أفضل بشأن ما وقع في بداية الأحداث في كانون الأول/ ديسمبر 2019.. والهدف الثاني، فهم طريقة حدوث ذلك. كيف ظهر الفيروس وقفز وانتقل للمجتمعات البشرية؟.

وفيما يتعلق بفهم ما حدث في الأيام الأولى للتفشي في كانون الأول/ ديسمبر 2019، قال د. بن إمبارك: «هل غيّرنا الصورة بشكل كبير التي كانت لدينا من قبل؟ لا

أعتقد ذلك. هل تحسّن فهمنا هل أضفنا تفاصيل لتلك القصة؟ بلا شك».

ووضع د. بيتر بن أمبارك أربع فرضيات قال إن الفريق ركز عليها أثناء بحثه عن مصدر فيروس كورونا.

الفرضية الأولى هي انتقال الفيروس مباشرة من الحيوانات للبشر.

والفرضية الثانية هي وصول الفيروس للبشر عن طريق وسيط، أي انتقال الفيروس لحيوان قريب من البشر حيث تمكن الفيروس من التطور والتكيّف والتداول، ومن ثمّ انتقل للبشر.

وأوضح د. بيتر أنه في هذه المرحلة، من غير الممكن تحديد نوع الحيوان الذي نقل الفيروس، وتشير الدراسات إلى أنه حاليا وفي 2019 لا يبدو أن هناك أي انتشار للفيروس بين أي نوع من الحيوانات في البلاد.

أما الفرضية الثالثة فهي عبر الطعام، لاسيّما الأطعمة المجمّدة لأن الفيروس يمكن أن يستمر في درجات حرارة منخفضة.

والفرضية الرابعة تتعلق بتسرّب الفيروس من مختبر حيث استبعد الفريق «بشدة» تلك الفرضية موضحاً «قمنا بتقييم هذه الفرضية بنفس الطريقة التي قيّمنا بها الفرضيات الأخرى، ونظرنا للأمور التي تنفي هذه الفرضية.. لكن نظرنا إلى حقيقة أنه لم يتم بحث أو تحديد أو معرفة هذا الفيروس من قبل، ولا توجد أي نشرة حوله أو تقرير بشأنه أو أي فيروس مرتبط به تم العمل عليه في أي معمل في العالم».

الدراسة المشتركة ظهرت في شهر أبريل 2021 إستبعدت فرضية تفشي الفيروس من مختبر، مرجحة إنتقاله من الخفافيش إلى البشر عن طريق حيوان آخر، وهو السيناريو الأكثر رجوحاً وأن مسألة تفشيه من مختبر «غير مرجحة للغاية».

(4) هل كورونا حرب بيولوجية ؟

عمليات الإبـادة الجماعية ليست مستبعدة في السلوكيات الاستعمارية والكيدية بين الدول المتناحرة، بل إن هناك بعض الفلاسفة الغربيين برروا لهذا السلوك العدواني مسبقا وحذروا من أن زيادة أعداد سكان العالم بشكل كبير قد يقضي على فرص ما أسموه السعادة البشرية، واقترحوا نظرية غير أخلاقية بالمرة واسموها "قارب النجاة" تقترح التضحية بالحمولة الزائدة من القارب لكي ننقذه من الغرق ، وأنصار هذه النظرية الفجة يشجعون أعمال الإبادة الجماعية عبر هذه الوسائل غير الأخلاقية .

وتاريخيا ، كان سلاح الحرب البيولوجية من أقوى وأبشع الأسلحة في الحروب، منذ أن كانت الجيوش تستخدم جثث الموتى في نشر الأمـراض بصفوف الجيوش المواجهة، ومنذ أول حرب بيولوجية في القرن الجديد، عندما تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية لهجمات الجمرة الخبيثة.

وعموما فإن سلوك مسلك الحرب البيولوجية ليس ببعيد في السياسات الخارجية للدول العظمى.

ومع انتشار وباء كورونا في نحو 170 دولة حول العالم، طبيعي ان تكثر التساؤلات والتكهنات حول مدى تدخل اليد البشرية بصناعته، في ظل الحديث عن وجـود حرب بيولوجية قامت بها الولايات المتحدة استكمالا لحربها على الصين.

الحرب البيولوجية

لكن ازاء العجز العالمي تجاه الفيروس تؤكد نظريات بعض الدول العظمى أن ظهور كورونا ليس مجرد صدفة، وأنه تم تخليقه معملياً، وأنها تأتي في إطار حروب الجيل السادس المدارة عبر أسلحة ذكية في أوقات السلم، وأن فيروس كورونا ليس ببعيد عن هذا الجيل من الحروب البيولوجية، والذي كشفت براءات الاختراع الأمريكية تسجيله في عام 2018 كبراءة اختراع ، ناهيك عن تدخل شركات الأدوية لكسب مليارات الدولارات، عبر ابتكار هذه الفيروسات.

وفي مقابل ذلك ثمة نظريات تقول ان المؤامرة نظرية غير منطقية في أزمة فيروس كورونا، خاصة ان غالبية الدول العظمى بالعالم تضررت بدرجات متفاوتة من الفيروس.

وربما يدعم هذا الرأي ما ذكرته منظمة الصحة العالمية وسط هذه التكهنات والاتهامات المتبادلة، أن "الفيروسات لا تعرف حدوداً ومن المهم حقاً أن نكون حذرين في اللغة التي نستخدمها».

(5) الاتهامات بين الدول العظمى؟

ككرة الثلج اتسعت رقعة انتشار الوباء العالمي كورونا، وارتفعت مُقَابِلَهُ رقعة الاتهامات وتعالت الأصوات المنددة بتصنيع الفيروس بين الدول العظمى و انحصرت الحرب الباردة في هذا الملف بين أمريكا

والصين وإسرائيل، إذ اتهم ضابط الاستخبارات العسكرية الإسرائيلي السابق داني شوهام الذي درس الحرب البيولوجية الصينية، الصين بأنها أنتجت الفيروس كورونا فى مختبر بمدينة ووهان الصينية، ضمن برنامج سري للأسلحة البيولوجية.

وتوالت الاتهامات من كل حدب وصوب فوجه رئيس الحزب الليبرالي الروسي فلاديمير جيرينوفسكي المعروف بآرائه المتطرفة اتهامه نحو الولايات المتحدة الامريكية وان أمريكا وراء الفيروس ، كما اتهم بطل فيلم "Outbreak" الحكومة الأمريكية بالمسؤولية عن إنتاجه.

ولم يستبعد الروسي إيغور نيكولين المسؤول السابق قي البعثة الأممية للأسلحة البيولوجية أن يكون الفيروس جاء نتيجة حرب بيولوجية واختار صانعوه مدينة ووهان التي تقع في قلب الصين ذات الكثافة السكانية لينطلق منها.

ويدعم أصحاب هذا التوجه حجتهم بما تردد عن أن فيروس إنفلونزا الطيور الذي ضرب العالم في عام2010 كان نتاجا لأبحاث بيولوجية أمريكية في مختبرات لها بإندونيسيا.

فيما تناولت الولايات المتحدة الأمريكية النظريات بشكل مختلف وفق قناعات راسخة بأن فيروس كورونا ربما نشأ في مختبر مرتبط ببرنامج الحرب البيولوجية في الصين. مستندة في هذه المزاعم إلى شهادة ضابط مخابرات عسكري إسرائيلي سابق يدعى داني شوهام، وهو من أطلق هذا الادعاء.

واعتبر مستشار الأمن القومي الأمريكي روبرت أوبراين أن محاولة الصين إخفاء الحقائق عن المجتمع الدولي عند اكتشافها الفيروس في ووهـان، في ديسمبر2019، هو ما تسبب في هذه الجائحة، إذ إنها حرمت الدول الأخرى من الاستعداد الجيد له.

وذهب أوبراين إلى تقارير أكدت أن الصين أرغمت الأطباء الذين اكتشفوا حقيقة المرض على الصمت، وأنها فرضت عليهم عزلة حتى لا يتحدثوا في الملف الشائك .

واعتبر في ذروة الأزمة ان استخدم الرئيس الأمريكي دونالد ترامب مصطلح "الفيروس الصيني" للإشارة إلى كورونا المستجد، في أكثر من كلمة وتغريدة له عبر وسائل التواصل الاجتماعي ليس من فراغا، ما أثار ردود فعل غاضبة في الصين، ورغم ذلك جدد تأكيده إنه يستخدم هذا المصطلح للتعبير عن حقيقة أن الفيروس بدأ انتشاره في الصين .

فيما إستبعدت نظريات مضادة فرضية أن تستخدم الحكومة الصينية مثل هذا المرفق لإنتاج أو حتى البحث والتطوير في مجال الأسلحة البيولوجية، كونه له علاقات قوية مع مختبر جالفستون الوطني لجامعة تكساس، ولأنه تم تطويره بمساعدة المهندسين الفرنسيين.

وانطلقت اصوات داعمة للصين حول عامل الأمان لمختبراتها البيولوجية تؤكد أن مختبر ووهان الوطني للسلامة البيولوجية يتمتع بمستوى عالٍ من الأمن التشغيلي، ومصرح له بالعمل على مسببات الأمراض الخطيرة، وأولئك الذين يدخلون إلى مختبر بهذا المستوى الاستراتيجي ، يستخدمون معدات خاصة وبدلات واقية، ويتم ترشيح وتنظيف النفايات والهواء بعناية قبل مغادرة المنشأة .

وعلى النقيض، تعالت اصوات صينية وروسية واكدت أن فيروس كورونا سلاح بيولوجي أمريكي موجه ضدهما وأن الولايات المتحدة الأمريكية هي المصدر الأساسي لفيروس "كورونا الجديد».

واردفـت الصين تأكيد على نظريتها بأن جنوداً أمريكيين شاركوا في دورة الألعاب العسكرية العالمية التي جرت في مدينة ووهان، وتنافس فيها 10 آلاف عسكري من مختلف أنحاء العالم في أكتوبر2019، هم الذين نقلوا الفيروس إلى هذه المدينة .

وجزمت الصين بأن الفيروس وجّه ضربة للاقتصاد الصيني، الأمر الذي أضعف موقف بكين في المفاوضات التجارية بين الصين والولايات المتحدة ، واستندت في ذلك إلى أن الولايات المتحدة لديها معامل بيولوجية في دول مثل جورجيا، أوكرانيا، كازاخستان، أذربيجان، أوزبكستان، وأنها على صلة بوكالة الدفاع المعنية بخفض التهديدات

أما السياسي الروسي وزعيم الحزب الديمقراطي الروسي فلاديمير جيرينوفوكي فخلص الى إن فيروس كورونا هو تجربة من البنتاجون وشركات الأدوية لخلق أوبئة محلية يمكن أن تدمر مجموعة مختارة من السكان، دون أن تمتد إلى بلدان أخرى.

وأكد الأمر نفسه، السياسي الروسي إيغور نيكولين بقوله إن ووهان تم اختيارها لنشر كورونا حيث يوجد بالمدينة الصينية معهد ووهـان لعلم الفيروسات، مما يعطي غطاء للبنتاجون والاستخبارات المركزية الأمريكية بخصوص وجود تجارب بيولوجية صينية انحرفت عن مسارها.

وذهب الى ابعد من ذلك بأن المعامل البيولوجية الأمريكية الممولة من البنتاجون في منطقة أوراسيا كانت تجمع عينات جينية من الشعبين الروسي والصيني،

ممرضة ترتدي بدلة واقية تطعم مريضا مصابا بفيروس «كورونا» داخل جناح معزول في أحد مستشفيات ووهان (رويترز)

لخلق فيروس "مخصص عرقياً" يصيب أنواعاً معينة من البشر، وهو ما لا يتوافق مع ما حدث؛ حيث أصاب العديد من الدول وليس شعوباً بعينها.

ودخلت إيران على الخط بسبب خلافاتها الاقليمية والعالمية خصوصا مع الولايات المتحدة الأمريكية واججت هي الأخرى نظرية المؤامرة ووجدت أرضا خصبة لها بقوة في إيران .

ما هو كوفيد- 19 "طويل الأمد"

ولماذا لا يتعافى بعض المصابين سريعا؟

بالنسبة لمعظم البشر، لا يتعدى مرض كوفيد- 19 (الذي يسببه فيروس كورونا المستجد) كونه مرضا خفيفا قصير الأمد. ولكن بعض المصابين به يشعرون بأعراض، كالتعب والإرهاق والآلام وضيق التنفس، لأشهر عديدة بعد إصابتهم. وبعض الأثار الجلدية التي قيل انها قد تستمر حتى 150 يوما ، فألأثار الجانبية تحتلف من شخص الى اخر ومن منطقة الى اخرى .

ومن شأن هذه الحالة، التي يطلق عليها اسم "كوفيد طويل الأمد"، أن يكون لها تأثير موهن على حياة المبتلين بها، ومن الشائع الآن سماع قصص تروي معاناة المصابين بإرهاق شديد حتى بعد المشي لمسافات قصيرة جدا.

منشأ كوفيد-19: أسئلة لا أجوبة لها

ما لا نعرفه عن بداية انتشار الجائحة التي أودت بحياة أكثر من 2.6 مليون شخص حول العالم

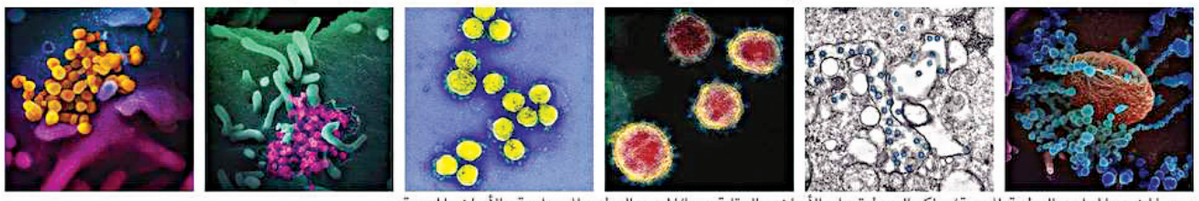

صور المختبر: المعاهد الوطنية للصحة/مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها/المعهد الوطني للحساسية والأمراض المعدية

إلى أي مدى كان الفيروس منتشرا في ووهان الصينية قبل اكتشاف أول إصابة في ديسمبر 2019؟	إلى أي مدى تم اكتشاف إصابات خارج الصين قبل ديسمبر 2019؟	ما الدور الحقيقي لسوق «هونان» في ووهان؟ منشأ للفيروس أو مؤجج له	ما هي **الأنواع الوسيطة** التي نقلت الفيروس إلى البشر؟	هل لعبت اللحوم المجمدة دورا في الإصابة بالعدوى المبكرة؟	هل تم دحض نظرية تسرب المختبر العرضي نهائيا؟
كان الفيروس منتشرا على الأرجح، إلا أن الباحثين الصينيين لم يتمكنوا من اكتشاف الأجسام المضادة في عينات من بنك الدم المأخوذة قبل ذلك التاريخ	وجد باحثون أوروبيون أجساما مضادة في عينات بنوك الدم منذ نوفمبر 2019	عُثر على مادة فيروسية في مجاري المياه والصرف الصحي لا على جيفة حيوان	تُعرف الخفافيش كأجسام مضيفة عموما، ويعتقد الباحثون أن الفيروس مرّ عبر حيوان آخر قبل أن يصيب البشر	كان فريق منظمة الصحة العالمية قد خلص إلى أن الفيروس انتقل على الأرجح من الحيوانات الحية إلى البشر، من دون دحض علاقة اللحوم المجمدة	قال خبراء منظمة الصحة العالمية إن نظرية الإصابة العرضية من معهد ووهان لعلم الفيروسات هو أمر مستبعد للغاية. ومع ذلك، لم تُنشر الأدلة لاستبعاد ذلك تماما

المصادر: *Nature.com* - من أين أتى فيروس كوفيد؟ 5 ألغاز/
publichealthmatters.blog.gov.uk - جون واتسون، الكشف عن منشأ كوفيد-19

AFP

وقد كان التركيز منصبا على إنقاذ أرواح المصابين أثناء تفشي وباء فيروس كورونا، ولكن ثمة إدراكا متناميا بأن المصابين بالفيروس ربما يواجهون عواقب وخيمة وطويلة الأمد.

ولكن حتى الأسئلة الأساسية المتعلقة بهذا الموضوع، مثل السبب الكامن خلف إصابة البعض بكوفيد طويل الأمد واحتمال تماثل جميع المصابين بالمرض للشفاء، ما زالت محاطة بكثير من الغموض.

بالرغم من حجم الدراسات والأبحاث العلمية لا يوجد أي تعريف طبي دقيق لهذه الظاهرة، أو أي قائمة محددة للأعراض التي يعاني منها المصابون بها، حيث يمكن أن يواجه شخصان مصابان بكوفيد طويل الأمد تجارب مختلفة كليا.

ولكن العامل المشترك الأكثر شيوعا هو الشعور المستمر بإرهاق شديد.

ومن الأعراض الأخرى التي قد يعاني منها المصابون: ضيق التنفس وسعال مستمر وآلام في المفاصل والعضلات ومشاكل في السمع والبصر والصداع وفقدان حاستي الشم والتذوق، علاوة على أضرار في القلب والرئتين والكليتين والأمعاء.

وقد يعاني المصابون من مشاكل نفسية من بينها الاكتئاب والقلق وصعوبات في التفكير.

ومن الممكن أن تجتمع هذه الأعراض لتدمر حياة الذين يعانون منها، فعلى سبيل المثال تقول جيد غراي كريستي المصابة بهذا الداء "لم أخبر من قبل شعورا بالإرهاق كالذي أشعر به اليوم».

ولا يعد "كوفيد طويل الأمد" مجرد فترة نقاهة يمر بها المريض بعد مكوثه في ردهة العناية المركزة لفترة ما. فحتى الذين يصابون بشكل خفيف من المرض قد يظلون يواجهون مشاكل خطيرة وطويلة الأمد.

ويقول الأستاذ ديفيد ستراين، من جامعة أكستر جنوبي إنجلترا ويتابع في عيادة متلازمة الإرهاق المزمن التي يديرها مرضى يشتكون من هذه الظاهرة: «ما من شك لدينا بوجود ظاهرة كوفيد طويل الأمد».

كم من المصابين يعانون من هذه الظاهرة؟

تتبعت دراسة أجريت في أكبر مستشفيات العاصمة الإيطالية روما، ونشرت نتائجها في دورية الجمعية الطبية الأمريكية، حالات 143 مصابا بعد إخراجهم.

وبينت الدراسة أن 87 في المئة من هؤلاء كانوا لا يزالون يعانون من عرض واحد على الأقل بعد نحو شهرين من خروجهم من المستشفى، بينما اشتكى نصفهم من الإرهاق.

ولكن هذه الدراسات تركز على الأقلية التي ينتهي بها الأمر إلى الحاجة إلى العلاج في المستشفى.

وتم التوصل، من خلال تحليل النتائج الواردة في تطبيق تتبع أعراض كوفيد (Covid Tracker App) الذي يستخدمه نحو 4 ملايين شخص في بريطانيا، إلى أن 12 في المئة من المصابين بكوفيد 19 ما زالوا يعانون من أعراض بعد مضي 30 يوما.

وتشير الأرقام التي تم الحصول عليها من خلال التطبيق – والتي لم تنشر بعد – إلى أن مصابا واحدا من كل 50 يعانون من اعراض بعد مضي 90 يوما.

هل من الضروري أن تكون الإصابة شديدة ليصاب المريض بكوفيد طويل الأمد؟

لا يبدو الأمر كذلك فنصف عدد المشاركين في دراسة أجريت في العاصمة الإيرلندية دبلن قالوا إنهم ما زالوا يشعرون بالإرهاق بعد مضي 10 أسابيع على إصابتهم بفيروس كورونا، وقال ثلثهم إنهم لا يقوون على العودة إلى مزاولة أعمالهم من شدة الإرهاق الذي يشعرون به.

ولم يتمكن الأطباء من الاستدلال على وجود أي علاقة بين شدة الإصابة بالفيروس والإرهـاق الذي يستمر المصابون بالشعور به.

ولكن من الضروري الانتباه إلى أن الإرهاق ليس أحد أعراض كوفيد طويل الأمد.

ويعتقد الأستاذ في جامعة ليستر كريس برايتلينغ، الذي يرأس مشروعا لتتبع تماثل المصابين بكوفيد19-، أن الذين يصابون بذات الرئة جراء إصابتهم بفيروس كورونا أكثر عرضة للاصابة بكوفيد طويل الأمد بسبب الأضرار التي تلحق برئتيهم.

كيف يتسبب الفيروس بالإصابة بكوفيد طويل الأمد؟

هناك العديد من الأفكار والطروحات، ولكن لا توجد أي إجابات محددة وقاطعة على هذا السؤال.

فقد يعود الأمر إلى بقاء الفيروس في جيوب صغيرة رغم اختفائه من معظم أجزاء الجسم.

بالمقابل يذهب الأستاذ في جامعة كينغز كوليج في لندن تيم سبيكتور الى أنه "إذا كان المريض يشتكي من إسهال طويل الأمد، فستجد الفيروس في أمعائه، وإذا كان يشتكي من فقدان حاسة الشم، فالفيروس ما زال موجودا في أعصابه، فمن الممكن أن يكون بقاء الفيروس هو أساس المشكلة».

وبإمكان فيروس كورونا إصابة طيف واسع من الخلايا في الجسم، مما ينتج عنه رد مناعي قوي يسبب بدوره أضرارا تصيب الجسم بأسره.

ويعتقد بعض الخبراء أن جهاز المناعة لا يعود إلى حالته الطبيعية بعد الإصابة بكوفيد، وأن هذا هو سبب الاعتلال الذي يشعر به كثير من المصابين بعد تماثلهم للشفاء.

كما قد تؤدي الإصابة بالفيروس إلى تغييرات في عمل الأجهزة الجسمية المختلفة، وهذا يظهر بوضوح في الرئتين إذا أصيبتا بتليفات. وقد شوهدت بالفعل مشاكل طويلة الأمد عند المصابين بمرضي سارس وميرس اللذين تسببهما فيروسات من نوع كورونا أيضا.

ولكن كوفيد قد يسبب أيضا تغييرات في عملية التمثيل الغذائي، إذ حصلت حالات يواجه البعض فيها صعوبات كبيرة في السيطرة على مستويات السكر في دمهم بعد أن أصيبوا بداء السكري جراء إصابتهم بكوفيد، كما تسببت الإصابة بسارس بتغييرات في طريقة تمثيل الجسم للدهون استمرت لـ 12 سنة على الأقل.

كما يسبب كوفيد 19 تغييرات غريبة في الدم، بما فيها تغييرات في التخثر وأضرار في الأوعية الدموية.

وقال الأستاذ ستراين لبي بي سي "النظرية التي أعمل عليها تتلخص في احتمال إصابة الأوعية الدموية

الصغيرة التي توصل الأوكسجين والأغذية إلى أنسجة الجسم المختلفة بالهرم والشيخوخة قبل وقتها". ولكنه يحذر من أنه ما لم نتوصل إلى المسبب الحقيقي لكوفيد طويل الأمد، سيكون من الصعوبة بمكان التوصل إلى علاج ناجع له.

هل النساء والأطفال أقلّ عرضة للإصابة بكوفيد- 19؟!

يبدو أن النساء أقل عرضة للوفاة من الرجال بسبب فيروس كورونا، الأمر ذاته بالنسبة للأطفال مقارنة مع الفئات العمرية الأخرى، فمعظم المصابين بالفيروس يعانون من أعراض خفيفة تشبه أعراض الانفلونزا المعتادة، لكن الوضع يصبح أكثر وضوحا في حالات الإصابة التي تسبب خطرا على الحياة، فما الذي يحدث؟

جميع المعلومات الناتجة عن دراسات واسعة النطاق أجرتها المراكز الصينية لمكافحة الوباء.

من بينها دراسة شملت 44 ألف شخص، بلغت نسبة الوفيات من الرجال 2.8 في المئة بينما بلغت النسبة 1.7 في المئة لدى النساء.

أما عن الأطفال والمراهقين فلم تزد النسبة عن 0.2 في المئة مقابل 15 في المئة لدى كبار السن ممن تخطوا الثمانين عاما.

لماذا النساء والأطفال أقلّ عرضة للإصابة؟

هناك تفسيران للنتائج ، إما أن تكون هذه الفئات أُقلّ عرضة للإصابة في المقام الأول، وإمّا أن تكون أجسامهم قادرة على التعامل مع الفيروس.

ويرى علماء من جامعة إكسيتر بمقاطعة ديفون بإنكلترا وتعتبر من أفضل الجامعات البريطانية وأكثرها صعوداً في التطور والنمو إنه «عادة مع تفشي فيروس جديد، يصاب الجميع والسبب عدم وجود مناعة ضدّ هذا الفيروس، إذ لم يسبق لأحد التعرض له».

على الرغم أنه في المراحل الأولى من تفشي المرض، قد يكون احتمال إصابة الأطفال ضئيلاً. بسبب إن حماية الأهل لأطفالهم أحد أسباب تراجع نسبة العدوى بين الأطفال».

لكن ما الذي ينقذ حياة النساء؟ لم يكن الأمر مفاجئا للعلماء في وجود فرق في معدّل الوفيات بين الرجال والنساء، فالأمر معتاد في أنواع كثيرة من العدوى التي تصيب البشر بما فيها الإنفلونزا.

وجزء من الإجابة على السؤال، هو أنّه عادة ما تكون صحة الرجال أسوأ من صحة النساء، بسبب نمط الحياة غير الصحي ومثال على ذلك التدخين.

قد تكون هذه مشكلة خاصّة في الصين حيث تشير الإحصائيات إلى أن نسبة المدخنين من الرجال تبلغ 53 في المئة مقابل ثلاثة في المئة فقط لدى النساء.

لكن الفرق واضح أيضا بين الرجال والنساء في طريقة تعامل أجهزة المناعة لدى الجنسين مع العدوى.

ويقول البروفسور بول هانتر من جامعة إيست أنغليا البريطانية إن هناك اختلافاً جوهرياً في استجابة المناعة لدى النساء. فهنّ «أكثر عرضة للإصابة بأمراض المناعة الذاتية التي يهاجم فيها الجسم نفسه. وهناك أدلّة على إنتاج النساء لأجسام مضّادة بشكل أفضل مع لقاحات الإنفلونزا».

هل هناك خطر على المرأة الحامل؟

الإجابة الرسمية هي لا، رغم شكوك يثيرها العلماء. كون الحمل يؤثر على الجسد كثيراً ويضعف جهاز المناعه. هذا ما يمنع الجسم من رفض الجنين في الرحم، لكنّه يجعل النساء أكثر عرضة للإصابة بعدوى. وتزيد نسبة خطر وفاة النساء الحوامل من الانفلونزا مقارنة بالنساء غير الحوامل».

وتتباين آراء العلماء بين عدم وجود "علامة واضحة" على أن النساء الحوامل هنّ أكثر عرضة لإصابة خطيرة بفيروس كورونا، وفي المقابل يقول البروفيسور هانتر إنه ليس واثقاً جداً لأن الاستنتاج يستند إلى بيانات تسع نساء حوامل: "لذلك لا أعتقد أنك تستطيع أن تقول إن كل شيئ على ما يرام". ويضيف "إن كان الأمر يتعلّق بزوجتي، سأنصحها بأخذ الاحتياطات وغسل اليدين وأخذ الحذر وما إلى ذلك».

هل يصاب الأطفال بفيروس كورونا وما الأعراض؟

نعم، يصاب الأطفال أيضا بالفيروس وهناك حالات لأطفال مصابين أصغرهم عمره لا يتعدى أياما.

بيد أنه لا توجد معلومات كبيرة عن أعراض المرض على الأطفال غير الأعراض المعروفة وتتمثل في الحمى والرشح والسعال.

فمن المعتاد أن يكون الأطفال أقل من 5 سنوات أكثر عرضة للإصابة بمضاعفات شديدة جراء الإصابة بالمرض.

وقد يتعرض بعض الأطفال لمضاعفات نتيجة لمشاكل صحية أخرى تتزامن مع الإصابة بكورونا مثل ضعف الجهاز المناعي وأمراض أخرى ولكن المعروف أن أعراض المرض لدى صغار السن متوسطة.

هل يستطيع الجهاز المناعي للأطفال احتواء الفيروس؟

هناك اختلافات مهمّة بين أجهزة المناعة لدى الأطفال والبالغين.

في مرحلة الطفولة تكون أجهزة المناعة غير ناضجة وتبالغ في ردّة الفعل. وهذا هو السبب في شيوع الحمى لدى الأطفال صغار السن.

ويعدّ فرط النشاط في جهاز المناعة أمراً سيئاً بسبب الأضرار التي يمكن أن يسببها لباقي أعضاء الجسد. وهذا هو أحد الأسباب الذي يجعل من فيروس كورونا مميتاً.

فمن الأفضل التعرّض لبعض الأمراض في مرحلة الطفولة، مثل الجدري، نظراً لتباين الطريقة التي يتعامل بها الجسم مع المرض في مراحل العمر المختلفة.

ما هو الأثر على حياة الاطفال

وجدت الفنانة التشكيلية وأساذة علم الاتصال البصرية في جامعة الكويت الدكتورة جواهر خالد البدر، خلال سنوات البحث والخبرة وطيلة سنتي الجائحة (2020 - 2021) ان الفيروس أدى إلى التحكم بحركة العالم بأسره، وكانت له آثار السلبية من النواحي الاقتصادية الاجتماعية والصحية والامنية، فالاطفال كانوا من أكثر الفئات التي تضررت بسبب تلك الأزمة العالمية، بعد أن تحددت تحركاتهم وأنشطتهم وتسببت في ظهور اضطرابات نفسية لديهم وغيرت من حياتهم اليومية وتم حجر الكبير والصغير، المعافى والمريض،

الرجل والمرأة، الطفل والطفلة، ولكن الأطفال كانوا الأكثر تضررا جراء هذا الحجر، فكل الأنشطة التي كان يتجه إليها الطفل قد تم إغلاقها، كما أن الوالدين وحدهما لا يستطيعان التخفيف من شعور الطفل بالوحدة، خاصة أن بعضهم يعمل من المنزل نتيجة كورونا، فلا يملك الكثير من الوقت لطفله.

في دول الخليج تنفرد الكويت بوجود أكبر عدد من الموظفين الذين يعملون في القطاع الحكومي. وقد نتج عن ذلك طبقة وسطى تفتقر للإلهام، مع فرص ضئيلة لتجربة ما هو جديد والشعور بالمرح، حيث يقوم القطاع الحكومي على أسس وتوقعات جامدة، أما بالنسبة للقلة الذين يشعرون بالإلهام والذين تمكنوا من إنشاء عمل تجاري جانبي لهم، فقد أصبح السوق مشبعا بالأعمال المتعلقة بالأزياء ومطاعم الوجبات الغذائية، حيث باتوا من الأعمال المتوقعة والتي تفتقر للإبداع.

تحول المجتمع لبيع المنتجات، وجعل ذلك دول الخليج بحاجة ماسة لإنتاج ثقافة أصيلة على عكس توجهها نحو «إعادة الإنتاج» عن طريق إلقاء نظرة على الماضي، وما عليه الآن، إنها عملية تحول.

لقد شعرتْ بصفتها عضو هيئة تدريس بكلية العمارة بجامعة الكويت أن كل شيء كان في متناول أيدينا، وكان التعلّم عن بُعد في دائرة الضوء وبحاجة إلى أدوات وأساليب جديدة للتعليم والدراسة، حتى انها مازالت تذكر أحد أعضاء التدريس وهو يقول: «كان عليَّ تذكير نفسي بعدم وضع العطر قبل حضور اجتماعاتنا». قام الأساتذة بشراء كاميرات علوية، وابتكار أدوات تسهّل عملية التعليم والتدريس عبر الإنترنت، وإنشاء خلفيات تلهم وتسلّي طلبتهم.

ما هي نسبة الإصابات الشديدة والوخيمة من كل الإصابات؟

تؤدي الإصابة بفيروس كورونا المستجد إلى عدة أعـراض تتراوح بشدتها بين حالة وأخـرى، فبعض الحالات تكون طفيفة، والأخرى وخيمة. لحسن الحظ فإنَّ معظم حالات العدوى المسجلة لم تكن وخيمةً، فبحسب التقرير الذي قدّمه المركز الصينيّ لمكافحة الأمراض والوقاية منها، والذي ضمّ عيِّنة تبلغ 44,500 إصابة مؤكدة، فإن شدة الأعراض تراوحت بين:

- حالات طفيفة في 81 % من الحالات
- حالات شديدة في 14 % من الحالات.
- حالات حرجة في 5 % من الحالات.مما يعني وبحسب منظمة الصحة العالمية أنّ 1 من كل 5 مصابين سوف يحتاج إلى دخول المستشفى لغايات الرعاية الصحيّة، وليس لغايات العزل فقط. من المهمّ أن تعرف أن هناك حالات لم تظهر عليها أي أعراض على الإطـلاق، لكنّ نسبتها لا تزال غير معروفة بعد، لذلك سيكون التباعد الاجتماعي إحدى القواعد التي يتوجب على الناس الالتزام بها.

معدلات الوفيات؟

أصاب فيروس كورونا المستجد «SARS - COV-2» العالم بالذعر، وانعكس ذلك باتخاذ اجراءات عديدة للوقاية منه والابطاء من إنتشاره، إذ من خصائصه سرعة الانتشار وزيادة الوفيات، ولهذا سارعت منظمة الصحة العالمية على تشخيص أعراض الفيروس والمتمثلة بإرتفاع درجة الحرارة والسعال (الجاف في أغلب الاحيان، والذي قد يؤدي إلى آلام وأوجاع عضلية).

ووفق منظمة الصحة العالمية، كانت معدلات الوفاة في الصين تتراوح بين 5,8 % في «ووهان» وبين 0,7 % في بقية الصين.

وكانت معظم حالات الوفاة تحصل بين المرضى متقدّمي العمر، أو من كان لديهم أمـراض أخرى (كأمراض القلب والشرايين، والسكري، وأمراض الرئة المزمنة، والضغط، والسرطان).

وتختلف نسبة الحالات الشديدة ومعدلات الوفاة باختلاف الموقع الجغرافيّ والتوزيع السكّانيّ حول العالم، ففي إيطاليا على سبيل المثال أُدخل ما نسبته 12 % من جميع الحالات – 16 % من الحالات التي أدخلت إلى المستشفى إحتاجت إلى وحدات عناية مشدّدة، ووصلت معدّلات الوفاة حتى منتصف مارس 2020 إلى 5.8 %، أما في كوريا الجنوبية فلا تتعدى معدلات الوفاة (0.9 %) ولعل أحد أهم أسباب ذلك هو أن متوسط أعمار المصابين في إيطاليا كان 64 سنة، أما في كوريا فكان في الأربعينات.

ما هي الأمراض والمضاعفات التي يتسبّب بها الفيروس؟

- أكثر عدوات كورونا المستجدّ المتطورة تكون على هيئة التهابات الرئة، ويشكو المرضى من ارتفاع في الحرارة، وضيق التنفس، ومن الممكن أن يكون لدى المرضى أعراض طفيفة في البداية، وتتطوّر على مدار أسبوع (5–8 أيام) ثم تتطور وتبدأ المعاناة من أعراض التهاب الرئة.
- متلازمة ضيق التنفس الـحـادة (ARDS) من المضاعفات الأخرى الوخيمة للمرض، وهي أن تمتلئ أكياس الرئة المرنة بسوائل، مما قد يستدعي الحاجة لأن يوضع المريض على أجهزة تنفس اصطناعيّ، في دراسة أجريت على 201 مريض أُدخِلَ للمستشفى في ووهان، 41 % عانوا من هذه المتلازمة، وكانت أعمارهم فوق ال65 عامًا، أو يعانون من السكريّ أو من ارتفاع ضغط الدم.
- من المضاعفات الأخرى التي تحدثت عنها الدراسة عدم انتظام ضربات القلب (17 %)، أو النوبات القلبية الحادّة (7 %)، أو الصدمة (9 %) وهي حالة تهدّد الحياة تؤدي إلى نقص في تروية أعضاء الجسم كافة.
- بالإضافة إلى احتمال حدوث تسمّم الدم وقد تؤدي الصدمة إلى فشل عدّة أعضاء منها الكلى.

ولكن ما يحدث في إيطاليا يُظهر وجهًا آخر لهذه المضاعفات وهو إرهـاق النظام الصحيّ، فيحتاج العديد من المرضى إلى أجهزة تنفس في نفس اللحظة بشكل يفوق قدرة النظام الصحي الإيطالي –وهو من الأنظمة العريقة حول العالم–، بحيث اضطر الأطباء إلى الاختيار بين المرضى الذين سيوضعون على أجهزة التنفس، فيموت أشخاص كان من الممكن المحافظة على حياتهم، وبالتالي يرتفع معدّل الوفيات بشكل غير مسبوق، لذا فإن الالتزام بالإجراءات الوقائية التي تناشد بها الحكومات واجب وطني يحتَّم على الجميع عدم مغادرة المنازل إلا لضرورة قصوى.

كم تستغرق مدة المرض؟

بحسب ما أعلنته منظمة الصحة العالمية، فإن التعافي من عدوى كورونا يحتاج إلى أسبوعين في الحالات

الطفيفة، ومن ثلاثة إلى ستة أسابيع في الحالات الشديدة.

تبدأ الأعراض بارتفاع في درجة حرارة الجسم ثم السعال، وهي أعراض تصيب أغلبنا في فصل الشتاء. لكن يمكن للفيروس أن يتسبب بردّ فعل مبالغ فيه لدى جهاز المناعة. أحد الأعراض الأكثر خطورة ضيق نفس حادّ ناجم عن التهاب الرئتين.

ويأتي الالتهاب كعلامة على ضرورة محاربة العدوى وإصلاح ما أفسدته. هذا ببساطة سبب التهابات الجروح، لكن داخل الجسم يصبح الوضع أكثر تعقيدا.

ويعتبر علماء الأوبئة أن الالتهاب عمل متوازن جداً، فحدوث خطأ قد يؤدي إلى الموت: «يُحدث الفيروس التهابات في أعضاء الجسم تباعا، ولا يمكن لتلك الأعضاء أن تقوم بدورها الطبيعي».

فعدم قدرة الرئة على الحصول على ما يكفي من الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون من الدم. يمكنه أن يمنع الكلى من تنظيف الدم وأن يتلف بطانة الأمعاء.

كما أن الفيروس يؤسس لكثير من الإلتهابات التي نخضع لها ويصيب الفشل عدة أعضاء.

وإذا لم يتمكن الجهاز المناعي من التغلب على الفيروس ، سينتشر في النهاية في كل ركن من أركان الجسم، حيث يمكن أن يسبب المزيد من الضرر.

لماذا تزيد نسبة الوفيات لدى كبار السنّ؟

هناك سببان: ضعف جهاز المناعة، وجسم غير قادر على التعامل مع المرض.

فمن المعلوم أن جهاز المناعة يضعف عادة مع التقدم في السنّ. كون "الأجسام المضادة التي تنتجها في سنّ السبعين أقل جودة من تلك التي ينتجها جسم شاب في العشرينيات».

فالأعضاء التي استهلكت بمرور العمر تترك الجسم عرضة لمواجهة المرض.

فإن كنت تبلغ من العمر 95 عاماً، وكليتك تعمل بنسبة 60 بالمئة من قوتها، ثمّ تحدث الإصابة بمرض آخر من الطبيعي أن تتوقف الكلية عن العمل بالشكل المطلوب للبقاء حيا».

أكثر المزاعم إنتشاراً

قمنا برصد أكثر المزاعم انتشارا ، وبحثنا عن رأي العلم فيها.

1 - الثوم

انتشرت رسائل كثيرة توصي بتناول الثوم لمنع الإصابة بفيروس كورونا.

وتقول منظمة الصحة العالمية إنه على الرغم من أنّ الثوم "طعام صحي وقد يساعد في مواجهة الميكروبات"، لا يوجد دليل على أنّ تناول الثوم قد يحمي من الإصابة بفيروس كورونا المستجد.

وفي الكثير من الحالات – طالما أن العلاجات البديلة لا تمنعك من اتباع نصيحة طبية مبنية على أدلة مثبتة – فهذه العلاجات قد لا تضر في حدّ ذاتها.

ومن المعروف اجمالا أنّ تناول الفاكهة والخضروات وشرب المياه، جميعها أمور تساعدنا في البقاء بصحة جيدة. لكن، لا يوجد أي دليل على فائدة أي نوع من هذه الأطعمة في مكافحة فيروس كورونا.

2 - الحل "المعجزة»؟

ثمة مزاعم بأن ثاني أكسيد الكلور وهو عامل تبييض يستخدم في مواد التنظيف وتبييض الأقمشة والبقع، يساعد على «التخلص» من فيروس كورونا لكن إدارة الغذاء والدواء الأمريكية حذرت من مخاطر شرب ثاني أكسيد الكلور على الصحة. كما أصدرت السلطات الصحية في بلدان أخرى تنبيهات حول هذا الموضوع.

وتقول إدارة الغذاء والدواء الأمريكية إنّها "ليست على علم بأي بحث يثبت أن هذه المنتجات آمنة أو فعالة لعلاج أي مرض". ونبّهت من أنّ شرب "منتجات ثاني أكسيد الكلور يمكن أن يسبب الغثيان والقيء والإسهال وأعراض الجفاف الشديد».

3 - معقم اليدين المصنوع منزلياً :

في إيطاليا التي تعد أحد النقاط الساخنة للفيروس، أدت المخاوف من تفشي المرض إلى اختفاء معقمات اليدين من المتاجر.

وبعد انتشار تقارير عن نقص كميات معقم اليدين في المتاجر، انتشرت وصفات لصنع المعقم في المنزل على وسائل التواصل الاجتماعي.

إلا أنّ الوصفات بـدت أكثر ملاءمة لتنظيف الأسطح، إذ يقول العلماء إنها لا تصلح للاستخدام على الجلد.

وتحتوي معقمات اليدين على مكونات تجعلها مناسبة للبشرة، بالإضافة إلى نسبة 60 إلى 70 في المئة من الكحول.

وتقول الأستاذة الجامعية، سالي بلومفيلد، من كلية لندن للصحة والطب الجلدي، إنها لا تعتقد أنه بإمكان أحد صنع منتج فعال لتعقيم اليدين في المنزل؛ فحتى مشروب الفودكا الكحولي الذي قرر البعض استخدامه، يحتوي فقط على 40 % من الكحول.

4 - فضة صالحة للشرب»

يشجع البعض على استخدام ما يعرف بـ"الفضة الغروية"، وهي جزيئات صغيرة من الفضة في سائل، لمواجهة فيروس كورونا.

لكن هناك توصيات واضحة من السلطات الصحية الأمريكية بعدم وجود دليل على أنّ هذه الطريقة فعالة مع أي حالة صحية.

والأهم من ذلك، أنه يمكن أن يسبب آثاراً جانبية خطيرة، بما في ذلك تلف الكلى ونوبات الصرع ومشاكل في الأوعية الدموية.

5 - شرب المياه كل 15 دقيقة :

ذهبت توصيات بأن شرب المياه كل 15 دقيقة لطرد أي فيروس قد يدخل الفم .

لكن علميا لا يوجد أي دليل، على الإطلاق، يؤكد أنّ شرب المياه يطرد الفيروسات من الجسم.

6 - الحرارة وتجنب الآيس كريم :

هناك الكثير من النصائح التي تشير إلى أنّ الحرارة المرتفعة تقتل الفيروس – ولهذا يوجد توصيات بشرب الماء الساخن والاستحمام بمياه ساخنة أو باستخدام مجفف الشعر. كما تضمنت النصائح بوجوب تجنب أكل الآيس كريم. والأطعمة الباردة الأخرى بدعوى أنها تساعد في انتشار المرض. وهذا بالطبع، غير صحيح بتاتا ولا سند علمي له، لكن الثابت إنّ محاولة تسخين

جسم الإنسان أو تعريضه لأشعة الشمس غير فعالة أبدا في معالجة او مكافحة فيروس كورونا .

كما أنّ شرب السوائل الساخنة لن يغيّر درجة حرارة الجسم الفعلية، التي تظلّ مستقرة ما لم يكن الإنسان مريضا اويعاني من ارتفاع في درجة الحرارة.

7 - الهواتف - الحيوانات -الأوراق النقدية:

مع تجاوز عدد المصابين بفيروس كورونا في العالم لأرقام مليونية تجاوزت 38.3 مليون نسمة بنهاية 2020، ما أثار حالة عامة من الذعر. والهلع ومقابلها برزت مئات الأسئلة التي حيرت واربكت أذهان البشر في ظل ازمة غير مسبوقة وكم هائل من المعلومات التي يحمل بعضها تناقضا أو تضاربا في التشخيص لا سيما فيما يخص بعض الحاجيات الضرورية والأساسية التي لا غنى عنها في الإستخدام اليومي ومن بينها :

8 - هل يتعين علينا تطهير هواتفنا؟ :

يُعتقد أن فيروس كورونا ينتقل بين البشر عبر السعال والعطس. لكن الخبراء يعتقدون أنه يمكن أن يعيش على الأسطح، ربما لعدة أيام .

لذا من المهم أن نقوم بتنظيف هواتفنا، سواء المحمولة منها أو المنزلية، ولكن صانعي الهواتف الرئيسيين يحذرون من استخدام الكحول أو مطهرات الأيدي لتنظيفها؛ إذ قد يؤدي ذلك إلى تلف الطبقة الواقية لشاشة الهاتف، مما قد يسهل التصاق الجراثيم بالهاتف.

وينصح الخبراء بتطهير الهواتف باستخدام الماء والصابون العادي وتجفيفها بمنشفة ورقية، ولكن ينبغي التأكد، أولاً، من أن جهاز الهاتف من النوع المقاوم للماء.

9 - هل إصابة شخص بالفيروس، ينقل العدوى لحيوانه الأليف؟ :

وفقاً لمنظمة الصحة العالمية، لا يوجد أي دليل على إمكانية انتقال العدوى من البشر إلى الحيوانات الأليفة.

وعلى الرغم من أن فيروسات كورونا، بمختلف سلالاتها، تصيب الحيوانات والبشر، على حدٍ سواء، إلا أن انتقال العدوى عبر الأنواع المختلفة أمر غير شائع.

ولكن ابحاث نبهت الى أنه على الرغم من أن العدوى لا يمكن أن تنتقل عبر سعال الحيوانات الأليفة، إلا أنه من المحتمل أن الإصابة بالفيروس عبر لمس فراء حيوانٍ، لمسه أو سعل على فرائه شخصٌ مصاب بالفيروس.

وفي جميع الأحوال، يبقى غسل اليدين بالماء والصابون، بانتظام، النصيحة الذهبية للوقاية من الفيروس.

10 - حبس التنفس لمدة 10 ثوانٍ :

وقد تردّد كثيراً أنّ حبس التنفس لمدّة 10 ثوانٍ من دون السعال قد يكون دليل على عدم إصابة الشخص بفيروس كورونا Covid-19s. ولكن، هذه المعلومة ليست صحيحة؛ إذ أكّدت لورين راوخ، طبيبة الطوارئ المجتمعية في مستشفى أنتيلوب فالي في لوس أنجلوس إلى أنه لا علاقة بين المدة التي تستطيعين فيها حبس أنفاسك والإصابة بكورونا.

11 - لا ينتقل عبر الهواء :

كان الإعتقاد السائد في البداية أن الفيروس لا ينتقل

بالهواء، إلا أنه صدر أخيراً تحذيرات طبية تفيد بأنّ الفيروس ينتقل في الهواء إذ إعتبر أن الفيروس ينتقل عبر الرذاذ عبر السعال أو العطس لمسافة تتراوح ما بين المتر ونصف ومترين وتصل إلى الثمانية أمتار وقد يبقى في الهواء ثلاث ساعات. لذا ينصح بوضع الكمامة الطبية كل الوقت إذا إضطررت للخروج من المنزل.

12 - هل ينتقل من خلال لدغات البعوض؟

حتى الآن لم تكن هناك معلومات أو أدلة تشير إلى أن الفيروس التاجي الجديد يمكن أن ينتقل عن طريق البعوض. الفيروس التاجي الجديد هو فيروس تنفسي ينتشر بشكل أساسي من خلال القطرات المتولدة عندما يسعل الشخص المصاب أو يعطس، أو من خلال قطرات اللعاب أو الإفرازات من الأنف.

13 - كورونا لا يستثني أحداً:

يمكن أن تنتقل العدوى لأي شخص بغض النظر عن العمر.

معظم المصابين بالمرض تكون أعراضه متوسطة بدون مضاعفات.

يعاني 14 % فقط من المصابين من أعراض شديدة الحدة تحتاج إلى العناية بالمستشفى.

يحتاج 5 % من المصابين في النهاية إلى الحجز بالعناية المركزة.

كبار السن وأصحاب المناعة الضعيفة أكثر عرضة لحدوث مضاعفات شديدة للمرض، ولكن ليس معنى ذلك أن الشباب لا يصابون بالمرض، أو لا يصابون بمضاعفات على الاطلاق.

وجدت الاحصائيات في الولايات المتحدة الأمريكية أن 29 % من المصابين بفيروس كورونا أعمارهم من 20-44 عام.

بالرغم أن من هم أقل من 60 عام أقل عرضة لحدوث مضاعفات وجد أن منهم عدد لا بأس به في الرعاية الحرجة أو على أجهزة التنفس.

وعلى العكس من السائد والمعتقد فثمة اسباب علمية تشخص أسباب تعرض الشباب لمضاعفات خطيرة تؤكد أن العمر ليس العامل الوحيد في التعرض لمضاعفات المرض؛ أن معظم الشباب يعانون من ضغط نفسي كبير مع عدم الاهتمام بالنوم، و الطعام الصحي، والظروف الصحية المختلفة التي تزيد المناعة مثل ممارسة الرياضة.

لكن في خضم المفاهيم والشائعات الطبية والمعلومات المغلوطة ثمة حقيقة مشتركة بين كل تلك المغلوطات وهي ان ما يوازي كورونا في الخطر او يزيد هو انتشار شائعات عن كورونا في تكريس المعتقدات والأفعال الخاطئة ، وتذهب بتعميق اعتقاد الشباب أنهم أقل عرضة للإصابة بالمرض في زيادة إصابتهم بالمرض؛ نتيجة لممارستهم نشاطات يومية طبيعية وعدم الاحتياط بغسل الأيدي وعدم الاختلاط.

لذا يجب على الجميع الانتباه والحذر والالتزام بالتعليمات والاحتياطات المعلنة حتى لا يتسبب في عدوى للآخرين، حتى إن كان هو أقل عرضه للاصابة أو لن يعاني من مضاعفات عليه أن يفكر بغيره، ومراعاة ألا يتسبب في الضرر للآخرين وانتشار الوباء وتحكيم العقل الذي وهبنا اياه الخالق جل في علاه .

14 - هل وضع زيت السمسم على البشرة يمنع دخول فيروس كورونا إلى الجسم؟

- لا يقضي زيت السمسم على فيروس كورونا المستجد. هناك بعض المطهرات الكيميائية التي تقتل فيروس كورونا المستجد- 2019 على الأسطح. وتشمل مطهرات تحتوي على مُبَيّضات/ كلور، وغيرها من المذيبات، والإيْثَانُول بتركيز 75 %، وحمض البيرُوكْسِي آسِتِيك، والكلُورُوفُورْم.

إلا أن تأثيرها على الفيروس ضعيف أو منعدم إذا وُضِعَت على البشرة أو أسفل الأنف مباشرة. بل من الخطر وضع هذه المواد الكيميائية على البشرة.

15 - هل شبكات الجيل الخامس تنشر عدوى كوفيد19؟

ليس بمقدور الفيروسات التنقل عبر الموجات اللاسلكية أو شبكات الهاتف المحمول (5G) ويتفشى مرض كوفيد- 19 في العديد من البلدان التي ليست لديها شبكات الجيل الخامس أصلاً.

فمرض كوفيد- 19 ينتشر عن طريق القطيرات التي يفرزها الجهاز التنفسي عندما يسعل الشخص المصاب بالعدوى أو يعطس أو يتكلم. وتنتقل العدوى إلى الأشخاص إذا لمسوا سطحاً ملوثاً ثم لمسوا بعد ذلك عينيهم أو فمهم أو أنفهم .

كورونا تخترق اسوار الرؤساء والوزراء وتصيب المشاهير

أثبت الفيروس التاجي كوفيد - 19 أنه قادر على الوصول ليس فقط إلى الملايين في مختلف انحاء المعمورة، غنيها وفقيرها ، بل اخترق الأسوار ووصل إلى اصحاب أعلى المناصب في العالم ، الذين تتوفر لديهم في الغالب إجراءات وبروتوكولات للوقاية والحماية، ناهيك عن المتابعة الصحية اليومية والاكتشافات المتطورة وهم رؤساء وملوك ورؤساء الحكومات والمشاهير بما في ذلك اكبر الدول واكثرها تقدما وتطورا .

وطالت عـدوى الفيروس التاجي الملايين في جميع أرجاء العالم، ولم يسلم منها احد حيث لا يفرق الفيروس بين غني او فقير او رئيس ومرؤس لا يميزبين القادة والزعماء او الرعايا والمواطنين لا يعرف كبير او صغير.

فمنذ تفشيه في ديسمبر 2019 ، قضى الوباء على أكثر من مليوني وفاة لتاريخ 2021/1/16 فيما تقترب الإصابات من 100 مليون حول العالم في مطلع 2021.

- ومن بين أهم القادة الذين تمكن الفيروس التاجي من التسلل إليهم:

1 – أصيب ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز بالفريوس التاجي، ما اثار القلق في البلاد على صحة والدته الملكة اليزابيث البالغة من العمر 92 عاما.

2 – أصيب بالعدوى أيضا أمير موناكو ، البير الثاني وفق تأكيد رسمي من القصر في موناكو أن الأمير اصيب بفيروس كورونا المستجد .

3 – اصيب ايضا في موناكو سيرج تيل وزير الدولة الذي يعادل في رتبته رئيس الوزراء، بالفيروس التاجي كوفيد- 19 .

4 – وتوفيت في مدريد الأميرة ماريا تريزا، عن عمر ناهز 86 عاما بسبب إصابتها بالفيروس التاجي، وأصبحت بذلك أول ضحية تسقط من عائلة مالكة بكورونا.

5 – وبالمثل أعلنت رئيسة بوليفيا: جانين آنييز، في سبتمبر 2020، أن الفحوصات الطبية اكدت إصابتها بعدوى الفيروس التاجي.

6 – اصابة الرئيس الكسندر لوكاشينكو رئيس بيلا روسيا في يوليو 2020 حيث اصيب بالفيروس وشفي منه دون ان تظهر عليه اعراض المرض .

7 – اصابة الرئيس البولندي «أندريه دودا»، بفيروس كورونا المستجد على ما أعلن، سكرتير الدولة لشؤون الرئاسة البولندية بواجي سبيتشالسكيفي وقت تشهد فيه البلاد انتشارا واسعا للوباء.

8 – اصيب رئيس دولة جنوب السودان، سلفاكير مياردیت، وعقيلته بكورونا في مايو 2020، بعد أن خالطا مسؤولين آخرين مصابين بالعدوى.

9 – إصيب وزير الصحة الألماني ينس سبان بفيروس كورونا المستجد وهو على راس الـوزارة التي ترشد الملايين وتوجه لاستخدام التعليمات واتباع البروتوكولات المعمول بها .

10 – اصابة وزيرة خارجية بلجيكا: أصيبت وزيرة خارجية بلجيكا، صوفي ويلميس، بفيروس كورونا المستجد، المسبب لوباء كوفيد– 14، ونقلت إلى العناية المركزة.

11 – كما اصيب رئيس الوزراء الإيطالي الأسبق سيلفيو برلسكوني 83 عاما ومعه اثنان من اولاده.

12 – اصيب ايضا رئيس وزراء جورجيا جيورجي جاخاريا بفيروس كورونا.

13 – ايضا اصيبت زوجة رئيس الوزراء الكندي صوفي جريجوار ترودو وذلك بعد عودتها من رحلة خارجية في بريطانيا في مارس 2020 ، وعزل رئيس الوزراء الكندي جاستين ترودو نفسه لمنع العدوى .

14 – اصيب المتحدث باسم الرئاسة التركية إبراهيم قالين كما اصيب وزير الداخلية التركي سليمان صويلو وكذلك زوجته وابنته ..

15 – اصيب رئيس وفد الإتحاد الأوربي في مفاوضات خروج بريطانيا من التكتل " بريكست " ميشيل بارنييه بكوفيد – 19 .

- **دخلوا في حجر الزامي :**

– الرئيس الجزائري عبدالمجيد تبوُّن دخل الحجر الصحي بعد اصابة اعضاء في الحكومة الا انه مع مضاعفات على حالته الصحية تم نقله الى المانيا لاستكمال الفحوصات والحصول على العناية الطبية اللازمة .

– دخل وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف الحجر.. بعد مخالطة مصاب بفيروس كورونا.

– ودخلت المستشارة الألأمانية انجيلا ميركل الحجر الصحي الذاتي الخاص بها لمدة اسبوعين.

- **نجوم ومشاهير حول العالم:**

1 – اصيب الساحر البرازيلي لاعب كرة القدم الشهير ونج نادي برشلونة السابق رونالدينيو.

2 – اصيب رئيس الاتحاد الدولي لكرة القدم (الفيفا) جياني إنفانتينو بفيروس كورونا.

3 – اصيب رئيس الاتحاد الإفريقي لكرة القدم، أحمد أحمد، بفيروس كورونا المستجد «كوفيد– 19».

4 – اصيب 11 لاعبا من فريق اياكس امستر دام الهولندي، بفيروس كورونا المستجد.

5 – اصيب 16 لاعب من فريق الرجاء المغربي بفيروس كورونا.

6 – اصابة نجم نادي بايرن ميونخ الألماني المدافع نيوكلاس سولي.

7 – كورونا وصل ايضا فريق ريال مدريد الإسباني عبر إصابة مدافعه إيدير ميليتاو بفيروس.

8 – أصيبت عائلة النجم فرانشيسكو توتى، أسطورة نادى روما والمنتخب الإيطالى السابق بفيروس كورونا، بعد وفاة والده إنزو متأثرا، كما أصيبت أيضا والدة النجم الإيطالى بالفيروس.

9 – عائلة الفنان اللبناني عاصي الحلاني اصيبت بفيروس كورونا.

الممثل الأمريكي توم هانكس وزوجته

الممثل الأمريكي توم هانكس وزوجته ريتا ويلسون أول من أعلنا عن إصابتهما بفيروس كورونا في هوليوود (12 مارس). كان الزوجان في أستراليا عندما شعرا بأعراض المرض وأكدت التحاليل إصابتهما بالفيروس.

الممثل البريطاني روبرت باتينسون

أصيب الممثل البريطاني روبرت باتينسون بفيروس كورونا (3 سبتمبر 2020) .

أصيب نجم أفلام الحركة دواين جونسون الملقب بالصخرة «ذا روك» بفيروس كورونا هو وزوجته وطفلاهما.

النجم العالمي أنطونيو بانديراس

كما أصيب في عيد ميلاده الستين، الممثل الإسباني الشهير أنطونيو بانديراس بفيروس كورونا.

الممثل الهندي الشهير أميتاباباتشان

أصيب الممثل الهندي الشهير أميتاباباتشان ونجله الممثل أبهيشيك بكورونا.

المغنية الأميركية بينك

أثبتت الفحوص، إصابة المغنية الأميركية بينك (40 عاماً) تعافت من كوفيد- 19. وتبرعت بمليار دولار لجهود التخفيف عن المتضررين من الجائحة.

مغني الأوبرا الإيطالي الشهير آندريابوتشيلي

أصيب مغني الأوبرا الإيطالي الشهير آندريابوتشيلي (61 عاماً) بكوفيد- 19.

مغني الأوبرا الإسباني بلاثيدو دومينجو

أيضاً مغني الأوبرا الإسباني بلاثيدو دومينجو (79 عاماً) أصيب بالمرض ودخل في عزل ذاتي هو وأسرته.

فاليري جسكار ديستان

توفي الرئيس الفرنسي الأسبق، فاليري جيسكار

ديستان، 2 ديسمبر 2020، عن 94 عاماً في منزله في وسط فرنسا، جراء تداعيات إصابته بفيروس كورونا، وفق ما أكدته عائلته في بيان.

وجيسكار ديستان الذي أُدخل المستشفى مرّات عدة خلال الأشهر الأخيرة من ذات العام بسبب مشاكل في القلب كان أصغر رئيس في تاريخ الجمهورية الخامسة، حيث قاد فرنسا من عام 1974 حتى 1981.

الصادق المهدي

توفي زعيم حزب الأمة السوداني ورئيس الوزراء الأسبق، الصادق المهدي (26 نوفمبر 2020) عن 84 عاماً في دولة الإمارات العربية المتحدة بتداعيات كورونا.

وكان المهدي آخر رئيس وزراء منتخب ديمقراطياً وأطيح به عام 1989 في الانقلاب العسكري الذي أتى بالرئيس السوداني عمر البشير الى السلطة.

أسطورة الكرة العراقية أحمد راضي

توفي في الـ28 من يونيو 2020 أسطورة الكرة العراقية أحمد راضي متأثرًا بإصابته بفيروس كورونا.

أسطورة الغناء الشعبي الأمريكي جون براين

توفي جون براين في 8 أبريل 2020 عن عمر ناهز 73 بعد معاناته من مضاعفات إصابته بفيروس كورونا.

كان براين، الفائز بجائزة غرامي، أحد أبرز نجوم الغناء الشعبي وكتاب الأغاني إبان حقبة السبعينيات من القرن الماضي. وعُرف بصوته القوي وروحه المرحة. وتميز براين بكلماته المؤثرة والغاضبة والكوميدية.

نواب ورجال أعمال مصريين

حصد الفيروس عدداً كبيراً من ضحاياه في مصر، فقد ضرب البرلمان وصعَّد هجماته على مجلس الشعب والذي فقده خمسة من نوابه خلال أقل من ثلاثة أشهر وكان آخر ضحاياه هو رئيس لجنة الدفاع والأمن القومي اللواء كمال عامر في مارس 2021.

كما فقد البرلمان خلال شهر فبراير 2021 اللواء سعد الجمال عضو مجلس النواب والرئيس الشرفي لائتلاف «دعم مصر»، وفي وقت سابق فقد الدكتور جمال حجاج الفائز بعضوية المجلس عن دائرة بنها بمحافظة القليوبية، والنائب فوزي اسماعيل يوسف فتى الفائز عن دائرة أجا بمحافظة الدقهلية، واللواء حسن عيد الفائز عن حزب مستقبل وطن بمحافظة السويس.

ويعاني مجلس النواب أيضا عددا من الاصابات بفيروس كورونا، كان آخرها اصابة البرلمانية والكاتبة المصرية فريدة الشوباشي، التي ترأست الجلسة الافتتاحية للمجلس، والبرلمانية سُلاف حسين درويش وكيلة لجنة القوى العاملة بالمجلس.

وكان رئيس مجلس النواب حنفي جبالي انتقد في وقت سابق عدم التزام عدد من الأعضاء بالاجراءات الاحترازية لمواجهة فيروس كورونا خلال جلسة عرض خلالها وزير السياحة والآثار المصري خالد العناني موقف الوزارة من تنفيذ برنامج الحكومة والتف خلالها النواب حول الوزير.

وفي السادس من أبريل 2020 توفي رجل الأعمال المصري منصور الجمال متأثرًا بإصابته بفيروس كورونا.

يذكر أن الجمال بدأ حياته العملية في السلك الدبلوماسي قبل أن يتجه إلى عالم الاقتصاد حيث أنشأ شركة لدراسات الجدوى بالعاصمة البلجيكية بروكسل، كما يعد من أوائل أوائل المسؤولين المصريين الذين وضعوا قواعد الحوار العربى الأوروبي.

محمود جبريل رئيس وزراء ليبيا الأسبق

توفي الدكتور محمود جبريل رئيس الوزراء الليبي الأسبق بأحد مستشفيات العاصمة المصرية القاهرة بعد إصابته بفيروس كورونا.

أسطورة موسيقى الكانتري جو ديفي

توفي الأمريكي «جو ديفي» أسطورة موسيقى الكانتري «الريف» عن عمر ناهز 61 عامًا بسبب مضاعفات اصابته بفيروس كورونا.

الأميرة الإسبانية ماريا تيريزا

توفيت الأميرة الإسبانية ماريا تيريزا بفيروس كورونا عن عمر 86 عاما، لتصبح بذلك أول عضو في عائلة ملكية في العالم يموت بالفيروس الجديد.

وتنتمي الأميرة الراحلة لعائلة بوربون بارما الملكية في إسبانيا، وولدت بالعاصمة الفرنسية باريس في 28 يوليو 1933 لوالدين هما الأمير خافيير ومادلين دي بوربون.

العازف مانو ديبانجو

توفى الفنان العالمي والعازف الشهير مانو ديبانجو بعد إصابته بفيروس كورونا، عن عمر ناهز 86 عاماً، وهو أول فنان عالمي يتوفى بسبب كورونا.

رئيس ريال مدريد الأسبق لورينزو سانز

توفي رئيس نادي ريال مدريد الأسبق «لورينزو سانز» في 21 من مارس 2020 بعد إصابته بفيروس كورونا.

المخرج الصيني تشانج كاي

توفي المخرج الصيني تشانج كاي، برفقة 3 من أفراد أسرته، إثر إصابتهم بفيروس كورونا، بعد أن قاموا بغلق الأبواب على أنفسهم في منزلهم بمدينة ووهان الصينية في 20 فبراير 2020.

الممثلة لي فييرو

توفيت في 6 أبريل 2020 الممثلة لي فييرو عن عمر ناهز 91 عامًا بسبب مضاعفات إصابتها بفيروس كورونا.

الممثلة هيلاري هيث

في 30 مـارس 2020 توفيت الممثلة والمنتجة البريطانية هيلاري هيث بسبب مضاعفات فيروس كورونا عن عمر ناهز 74 عامًا.

نجم الروك الأمريكي آلان ميريل

توفي في 29 مارس 2020 المغني الأمريكي آلان ميريل عن عمر ناهز 69 عامًا بسبب مضاعفات فيروس كورونا.

الممثل آلان جارفيلد

توفي الممثل الأمريكي آلان جارفيلد في أبريل عن عمر ناهز 80 عامًا بعد معاناته من مضاعفات إصابته بفيروس كورونا

الممثل جاي بندكت

توفي الممثل الأمريكي جاي بندكت في 4 أبريل وقبل أسبوع واحد من عيد ميلاده الـ 69 متأثرًا بإصابته بفيروس كورونا.

مغني الجاز إيليس مارساليس

كما توفي موسيقي الجاز وعازف البيانو الأمريكي الشهير إيليس مارساليس في أبريل عن عمر ناهز 85 عامًا بعد إصابته بفيروس كورونا.

الممثلة الإيطالية لوسيا بوسي

توفيت الممثلة الإيطالية لوسيا بوسي في 23 مارس عن عمر ناهز 89 عامًا متأثرة بإصابتها بفيروس كورونا.

صائب عريقات

توفي السياسي الفلسطيني البارز صائب عريقات في 10 نوفمبر 2020، بعد إصابته بفيروس كورونا، عن عمر ناهز 65 عاما.

إصابة زوجة رئيس وزراء كندا

في 13 مارس 2020، صدر بيان حكومي بإصابة زوجة رئيس الوزراء بفيروس كورونا، بعد ظهور النتائج الإيجابية.

وجاء في البيان أن «صوفي ترودو ستبقى في عزلة في الوقت الراهن»، في حالة جيدة وتتخذ جميع الاحتياطات وفق التوصيات، في حين أن "ترودو بصحة جيدة ولا يعاني من أي أعراض. لكنّه سيبقى في عزلة مدة 14 يوماً».

فقد ظهرت على زوجة ترودو بعد عودتها من لندن، أعراض خفيفة شبيهة بأعراض الانفلونزا، مع ارتفاع طفيف للحرارة.

وقالت «رغم أني أشعر بحالة من عدم الارتياح بسبب الكورونا، إلا أنني سأقف قريباً على قدميّ من جديد».

وأضافت «سنتمكن من تجاوز هذا الوضع سوياً، الرجاء نشر الحقائق وأخذ موضوع صحتكم على محمل الجد».

إصابة إبن الرئيس

أعلنت زوجة الرئيس الأمريكي ميلانيا ترامب، 15 أكتوبر 2020، أن ابنها بارون البالغ من العمر 14 عاما أصيب بفيروس كورونا لكن لم تظهر عليه أعراض، وذلك بعد إصابة والديه بالفيروس.

وفي بيان بعنوان «تجربتي مع كوفيد ـ 19»، كتبت حول تشخيص إصابتها بالفيروس: بالطبع، فكرت على الفور بابننا، «لقد شعرنا بارتياح كبير عندما أتت نتيجة اختباره سلبية، لكن مخاوفي تجسدت عندما خضع للاختبار مرة أخرى وأتت النتيجة إيجابية».

الضحايا من نجوم العرب

ومثلما حصد الوباء أرواح البشر دون تفرقة بين جنس وآخر، كان يطارد النجوم والممثلين العرب، ففي عامي 2020 و 2021 من عمر الجائحة فقدت الساحة الفنية اسماء كانت لامعة في دنيا التمثيل والفن، ففي مصر سجلت وفيات كورونا قائمة منها:

دلال عبدالعزيز ورجـاء الجداوي وسمير غانم وهادي الجيار ويوسف شعبان ومحمد ريحان، وفايق عزب وفهمي الخوالي.

سمير غانم وزوجته دلال عبدالعزيز

يوسف شعبان

رجاء الجداوي

ألياس الرحباني

أما في الخليج العربي فكان هناك مجموعة أخرى، منهم الفنان الكويتي مشاري البلام، ونادية العراقية والملحن السعودي طلال بالخير وفي لبنان الموسيقار ألياس الرحباني والممثلين جان خضير وميشال ثابت.

قادة سخروا من كورونا فأصابهم

سخر عدد من قادة الدول حول العالم من فيروس «كورونا»، فأصابهم الفيروس واجتاح بلدانهم، وكان آخر هؤلاء هو الرئيس الأميركي دونالد ترامب الذي انضم الى قائمة متزايدة من القادة الذين قللوا من خطورة الفيروس أو أساءوا التعامل معه، وأصبحوا رموزا لسياسات غير فاعلة تجاه الوباء.

وباتت الدول التي يقودها هؤلاء القادة هي أكثر الدول التي انتشر فيها الوباء وسجلت أعلى أرقام الإصابات والوفيات في العالم، لأن رسائل الصحة العامة فيها تكون مشوشة وملتبسة على الجمهور.

ولعلَّ ما جرى لكل من ترامب والرئيس البرازيلي جايير بولسونارو ورئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون باعتبارهم رموزا للقادة الذين قللوا من أهمية الفيروس وأصيبوا به.

وكان محل استغراب إن الولايات المتحدة فشلت في احتواء انتشار الفيروس وتصدرت العالم في كل من عدد الإصابات والوفيات، وكان رئيسها يقلل من شأن الوباء في وقت مبكر، وضلل الجمهور عن عمد، وكما اعترف للصحفي بوب وودوارد فإنه عمل ضد المبادئ التوجيهية لحكومته، وشجع الولايات على إعادة فتح أبوابها قبل الأوان، وكان لا يأبه بارتداء الأقنعة، واستضاف تجمعات كبيرة في الأسابيع الأخيرة تنتهك القيود في الولايات.

ووصف علماء اجتماع تفكير ترامب بأنه "تفكير سحري" عندما يعلن أن بلاده ستتغلب على الفيروس، وأنه سيختفي دون تدخل وقيود، وأن كثرة الحالات المتزايدة كانت نتيجة لكثرة الاختبارات.

ففي البرازيل قلل بولسونارو من شأن الوباء، وأصيب به في يوليو، وسجلت بلاده ثاني أكبر عدد من الحالات والوفيات بعد الولايات المتحدة.

وأنكر بولسونارو بقوة – ربما أكثر من أي زعيم آخر– خطر الفيروس، ووصفه بأنه "إنفلونزا خفيفة»، وقال مقولته الشهيرة: «سنموت جميعنا يوما ما»، وعارض قرارات حكام الولايات بفرض إجراءات الإغلاق، وحضر احتجاجات مناهضة للإغلاق، والتقى بمؤيديه دون ارتداء قناع، ودفع لإعادة فتح الشركات على الرغم من تفشي المرض المتزايد، وفقد وزيري صحة – أحدهما تم فصله والآخر استقال – خلال حالة الطوارئ الصحية العامة.

وأيد بولسونارو استخدام هيدروكسي كلوروكين وكلوروكين، وهما الدواءان المضادان للملاريا المثيران للجدل، وذلك على الرغم من قلة الأدلة العلمية الجيدة على فعاليتهما في علاج كوفيد– 19، وعزا تعافيه إلى هذين الدواءين.

وقضى بولسونارو الأسابيع الثلاثة في عزلة، مع ظهور أعراض طفيفة على ما يبدو، وساعدت حالته – التي تبدو خفيفة – في تغذية خطابه الذي يستخف بالفيروس ويقول إنه مجرد شيء تم التلاعب به من قبل وسائل الإعلام، وعزز صورته بين المؤيدين أنه كان رجلا قويا تمكن بسهولة من هزيمة الفيروس الذي كان يخاف منه الجميع.

أما رئيس وزراء بريطانيا بوريس جونسون – وبعد إظهاره عدم القلق من الوباء واتخاذه سياسات متساهلة – فقد عاد متغيرا بعد إصابته وغيّر لهجته، لكن الإخفاقات الكبيرة لحكومته في البداية جعلت من الصعب التغلب على هذه المشاكل.

وتصدرت بريطانيا مشهد أعلى عدد من الوفيات في جميع أنحاء أوروبا.

10% من سكان العالم أصيبوا بالوباء

رجحت منظمة الصحة العالمية أن ما يقرب من 100 مليون من سكان العالم أصيبوا بفيروس كورونا وفق كبير خبراء الطوارئ في منظمة الصحة مايك رايان في مخاطبته المجلس التنفيذي للمنظمة، إن "أفضل تقديراتنا الحالية تقول إن حوالي 10 % من سكان العالم ربما أصيبوا بالفيروس".

وأضاف رايان: "يختلف الأمر من بلد لآخر، ومن المناطق الحضرية إلى الريفية، كما يختلف وفقا للجماعات، لكن ما يعنيه (ذلك) هو أن الغالبية العظمى من العالم لا يزالون يواجهون مخاطر".

ووفق أحدث الإحصائيات التي ينشرها موقع "ورلد ميتر" المتخصص في متابعة تطورات الوباء حول العالم، فقد أصيب حتى 2021/1/16 أكثر من 100 مليون توفي منهم 2,006,076 مليون شخص.

ووفق أحدث الأرقام التي ينشرها الموقع نفسه، فإن عدد سكان العالم تجاوز في ذلك التاريخ 7 مليارات و816 مليونا.

الأسبرين يقلل من خطورة أعراض «كورونا»

توصلت دراسة أمريكية جديدة إلى أن تناول الأسبرين يمكن أن يقلل من خطر إصابة مرضى فيروس كورونا في المستشفيات بالتعب الشديد أو الوفاة. ووجد الباحثون أن تناول حبة يومية منخفضة الجرعة يمكن أن يقلل من احتمالية الدخول إلى وحدة العناية المركزة أو الوضع على جهاز التنفس الصناعي بنسبة تزيد عن 40 في المائة. بالإضافة إلى ذلك، قلل الأسبرين من خطر الوفاة من العدوى بمقدار النصف تقريبًا، وفقا لما أفادت به صحيفة «ديلي ميل» البريطانية (26 أكتوبر 2020). ويقول الفريق الطبي من كلية الطب بجامعة ميريلاند يو إم إس أو إم، إن النتائج توفر «تفاؤلًا حذرًا» بشأن فعالية هذا الدواء السهل الذي يمكن الوصول إليه للمساعدة في منع المضاعفات الشديدة.

ويقول المشرف على الدراسة الدكتور جوناثان تشاو، الأستاذ المساعد في علم التخدير في جامعة يو إم إس أو إم: «هذه نتيجة مهمة تحتاج إلى تأكيد من خلال تجربة سريرية عشوائية».

واضاف «إذا تم تأكيد النتائج التي توصلنا إليها، فستجعل الأسبرين أول دواء متاح على نطاق واسع بدون وصفة طبية لتقليل الوفيات بين مرضى كوفيد19».

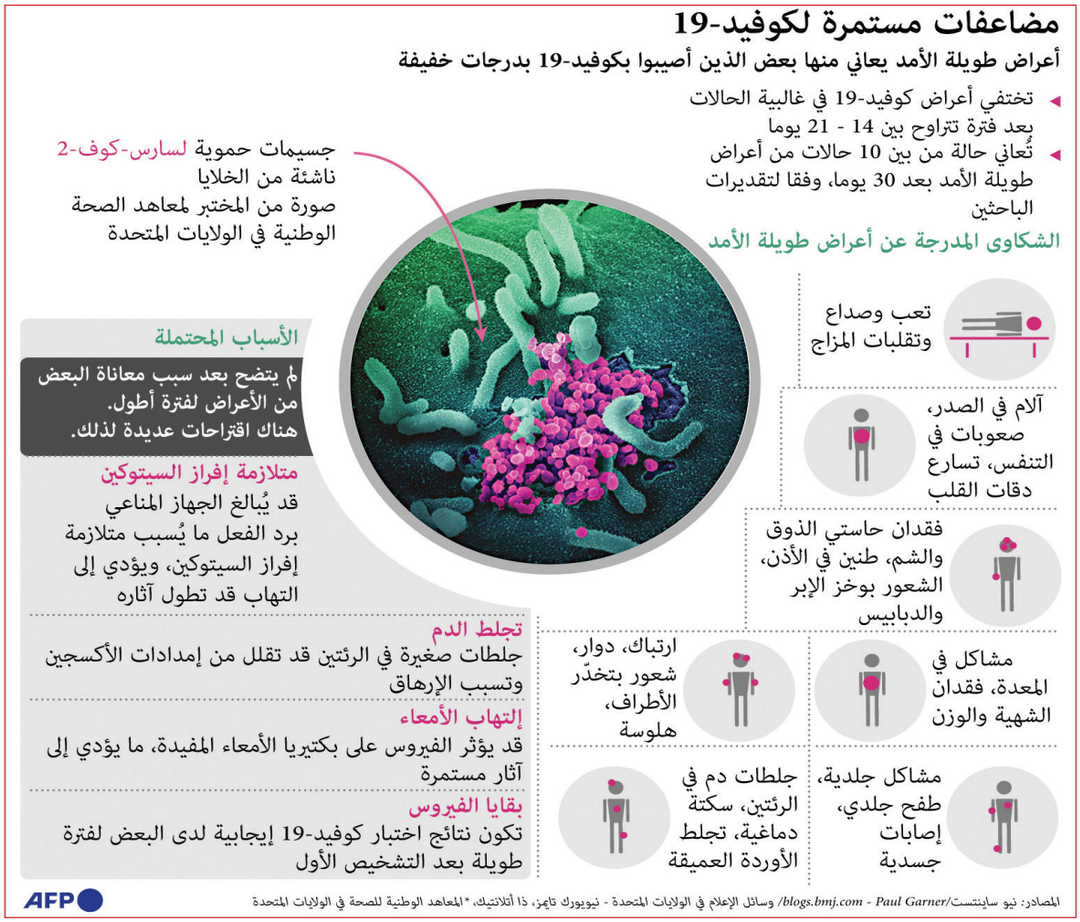

وتابع الفريق الطبي في الدراسة في السجلات الطبية لـ412 مريضًا من مرضى كوفيد19 الذين تم علاجهم في المركز الطبي بجامعة ميريلاند في بالتيمور وثلاثة مستشفيات أخرى على طول الساحل الشرقي في البلاد.

ووجدت الدراسة أن حوالي ربع المرضى يتناولون جرعة يومية منخفضة من الأسبرين قبل أو بعد دخولهم مباشرة لإدارة أمراض القلب والأوعية الدموية.

وتعتمد تلك النتيجة وفقا لعوامل أخرى مثل العمر والجنس والعرق ومؤشر كتلة الجسم والظروف الأساسية مثل ارتفاع ضغط الدم والسكري.

وكشفت الدراسة أن أولئك الذين استخدموا الأسبرين يوميًا قلل من خطر دخول وحدة العناية المركزة بنسبة 43 في المائة وقلل من خطر التعرض لجهاز التنفس الصناعي بنسبة 44 في المائة.

كما أظهرت النتائج أن الأهم من ذلك أن الأسبرين قلل من خطر الوفاة في المستشفى بنسبة 47 في المائة مقارنة بمن لم يتناولوا الأسبرين.

يزيد فيروس كورونا من خطر الإصابة بجلطات دموية خطيرة – ومميتة في كثير من الأحيان – يمكن أن

تتكون في القلب والرئتين والأوعية الدموية. ومع ذلك، فإن استخدام الأسبرين يتداخل مع كيفية تجلط الدم، وهو ما يعتقد الفريق أنه سبب فوائد الأدوية العديدة لأولئك المصابين بكوفيد 19.

وقال المؤلف المشارك الدكتور مايكل مازيفي، الأستاذ المشارك في علم التخدير: «نعتقد أن تأثيرات ترقق الدم للأسبرين توفر فوائد لمرضى كوفيد19 من خلال منع تكون الجلطة الدقيقة».

ويضيف الفريق أنه رغم أن الأسبرين لا يقصد استخدامه كوسيلة وقائية ضد فيروس كورونا، إلا أنه يمكن أن يساعد المرضى الأكثر عرضة لخطر المضاعفات.

أعراض «كورونا» تبقى شهوراً!

أفادت جامعة أوكسفورد البريطانية (19 أكتوبر 2020) بأن النتائج الأولية لدراسة أجريت عن التأثير طويل الأمد لـ «كوفيد – 19» خلصت إلى أن عددا كبيرا من المرضى الذين خرجوا من المستشفيات لا يزالون يعانون من أعراض ضيق التنفس والتعب والقلق والاكتئاب بعد شهرين إلى ثلاثة أشهر من الإصابة بالفيروس.

وأضافت الجامعة في بيان أن العلماء اكتشفوا أيضا تأثيرات تصيب أعضاء متعددة في الجسم، ويعتقدون أن الالتهاب المستمر ربما يصاحب المتعافين من «كوفيد – 19».

فيتامين (د) يخفض المضاعفات

تبين أن فيتامين "د" (D) في مقدوره أن يخفض خطر الإصابة بـ"كورونا" ويكبح التأثير الذي يتركه المرض في جسد المريض، بحسب ما وجد بحث صدر في الولايات المتحدة.

ويحث العلماء الناس على تناول المكملات الغذائية من هذا الفيتامين بغية تقليص مخاطر التعرض لمضاعفات صحية خطيرة بعد الإصابة بفيروس "كورونا".

وزعمت دراستان اثنتان (ترجم نتائجها موقع عربي بوست في 27 سبتمبر)، أن المرضى الذين يحملون في دمهم مستويات كافية من فيتامين "د" أقل عرضة لمكابدة مضاعفات مميتة بسبب "كورونا"، ويدعي الباحثون أن التمتع بكميات كافية من فيتامين "د" يتصل بانخفاض مهم في مستوى المؤشرات الالتهابية الناتجة عن "كورونا" من جهة، وارتفاع مستويات الخلايا المناعية المضادة الموجودة في الدم، من جهة أخرى.

وأخذت الدراسة، التي قادها الدكتور مايكل هوليك من كلية الطب في "جامعة بوسطن" الأميركية، عينات دم من 235 مريضاً أدخلوا إلى المستشفيات بسبب إصابتهم بـ"كورونا"، وقاست مستويات فيتامين "د" فيها.

خضع هؤلاء المرضى للمتابعة بغية مراقبة شدة العدوى، وفقدان الوعي، وصعوبة التنفس، أو إذا ما دخلوا مرحلة الاحتضار.

في النتيجة وجدت الدراسة، التي نُشرت في مجلة "بلوس وان" PLOS ONE العلمية المتخصصة، أن المرضى الذين تخطوا الأربعين من العمر، ولديهم مستويات كافية من فيتامين "د" في الدم كانوا أقل عرضة للوفاة نتيجة الفيروس بنسبة تخطت 51 في المئة.

وخلُصت إلى أن المرضى الذين تناولوا جرعة يومية من فيتامين "د" كانوا أقل عرضة لمواجهة مضاعفات.

نشاط الفيروس على العملات وشاشات الهواتف

شددت العديد من الحكومات خلال المراحل الأولى من انتشار الفيروس التاجي كوفيد – 19 على وجوب تعقيم الأوراق النقدية التي تتلقاها البنوك قبل طرحها للتداول، من أجل الحد من انتشار المرض. وعلى الرغم من أن الدفع عن طريق البطاقات البنكية قد يجنبنا مخاطر التعامل مع الأوراق النقدية، التي يتم تداولها على نطاق واسع، إلا أن هذه البطاقات يمكن أن تكون مرتعاً للجراثيم والفيروسات.

لذابرزت بقوة ، نصائح بغسل اليدين جيداً بعد لمس العملات المعدنية والأوراق النقدية والبطاقات البنكية من باب التحوط .

من جانب آخر، أكد باحثون أن فيروس كورونا يمكنه البقاء في حال نشطة لمدة 28 يوما فوق بعض الأسطح مثل العملات الورقية وشاشات الهواتف المحمولة والمعادن غير المسامية «ستاينلس».

وأكدت دراسة أجراها فريق من الباحثين في المعهد الوطني للعلوم في استراليا (10 أكتوبر 2020) أن الفيروس يمكنه البقاء لفترات أطول مما كان متخيلا فوق بعض الأسطح ويتم انتقال العدوى بالفيروس في الغالب بسبب السعال أو العطس والحديث.

لكن بعض الخبراء يؤكدون أن هناك إمكانية لانتقال العدوى عبر جزيئات الفيروس المنتشرة في الهواء أو المستقرة فوق بعض الأسطح المعدنية أو البلاستيكية أو الورقية.

وكانت دراسات سابقة رجحت أن يبقى الفيروس نشطا فوق أوراق العملات المالية يومين وفوق الأسطح الزجاجية والبلاستيكية والمعدنية ستة أيام. لكن الدراسة الأخيرة وجدت أن الفيروس نشط بشكل كبير على هذه الأسطح لمدة وصلت إلى 28 يوما خاصة الأسطح ناعمة الملمس مثل الزجاج المستخدم لصنع شاشات الهواتف المحمولة وكذلك العبوات البلاستيكية ناعمة الملمس والعملات الورقية.

وأشار الباحثون إلى أن هذه النتائج تم التوصل إليها بعد فترة من البحث المكثف لنشاط الفيروس في درجة حرارة 20 مئوية وهي تقريبا درجة حرارة الغرفة المعتادة.

تأثيرات على أعضاء الجسم

اكتشف الباحثون أن الفيروس ربما يؤثر على الجسم بطرق عديدة، من فقدان حاسة التذوق والشم إلى تلف الأعضاء، والآن سجل الأطباء أدلةً جديدةً على أن كوفيد بإمكانه التأثير على حاسة السمع أيضاً.

خبراء في جامعة كوليدج لندن في دورية BMJ CASE REPORTS كتبوا عن حالة محيرة لرجل يبلغ من العمر 45 عاماً مصاب بالربو دخل إلى العناية المركزة بعد إصابته بكورونا، ووُضع على جهاز التنفس الصناعي، وتناول دواء الريمديسفير المضاد للفيروسات والستيرويدات الوريدية.

وبعد أسبوع من مغادرته وحدة العناية المركزة أصيب بطنين في الأذن ثم فقد قدرته على السمع في أذنه اليسرى، فيما قال الفريق إنه لا يتوقع أن الأدوية

التي تناولها هي ما تسببت في خسارته حاسة السمع، وهو لا يواجه أي مشكلات في القنوات السمعية أو طبلة الأذن.

ولم تُسفر التحريات الإضافية عن أي علامة على وجود مشكلات في المناعة الذاتية، ولم يُصب بالإنفلونزا أو فيروس نقص المناعة البشرية، وهما مرضان ارتبطا في السابق بفقدان السمع. وفضلاً عن ذلك، لم يواجه الرجل أي مشكلات في السمع من قبل.

فيما كشفت الفحوصات اللاحقة أن الرجل مصاب بفقدان سمع حسي عصبي في أذنه اليسرى، وهي حالة تكون فيها الأذن الداخلية أو العصب المسؤول عن الصوت ملتهباً أو تالفاً. غير أنها عُولجت بالستيرويدات ونجحت جزئياً.

وتلك هي الحالة الأولى من نوعها المسجلة في المملكة المتحدة، رغم ظهور عدد محدود من التقارير التي تسجل حالات مماثلة في دول أخرى.

تقول الدكتورة ستيفانيا كومبا، المؤلفة المشاركة في الدراسة، إنه لم يُعرف بعد كيف يمكن أن يتسبب كوفيد في فقدان السمع، ولكن توجد تفسيرات محتملة.

تلوث الهواء وعلاقته بالوفيات؟

أفاد فريق من الباحثين بأن 15 في المائة من الوفيات ذات الصلة بمرض «كوفيد – 19» في العالم، ربما تعود إلى التعرض لتلوث الهواء لفترات طويلة. ونُشرت الدراسة في مجلة كارديوفاسكولاريسيرش (أكتوبر 2020)، وتستند التقديرات إلى تحليل بيانات التلوث والجائحة من قبل معهد ماكس بلانك للكيمياء، وكلية الصحة العامة بجامعة هارفارد، ومركز أبحاث المناخ والغلاف الجوي التابع لمعهد قبرص. وأوضحت أن من المحتمل أن يؤدي التعرض لتلوث الهواء إلى تفاقم «الأمراض المشتركة التي يمكن أن تؤدي إلى نتائج صحية مميتة جراء الإصابة بالفيروس».

وقال المؤلف المشارك في الدراسة توماس مونتسيل، من جامعة يوهانس غوتنبرغ في ماينتس بألمانيا: «إذا كنت تعاني بالفعل من أمراض القلب، فإن تلوث الهواء وعدوى فيروس كورونا سوف يسببان مشاكل يمكن أن تؤدي إلى النوبات القلبية وفشل القلب والسكتة الدماغية». ويقدر الباحثون أن أكثر من ربع الوفيات ذات الصلة بفيروس كورونا في آسيا يمكن أن تكون مرتبطة بتلوث الهواء، مقارنة بـ19 في المائة في أوروبا و17 في المائة في أميركا الشمالية.

ثلث الأشخاص يعتقدون أن كورونا صنع في الصين

توصلت دراسة إلى أن ما يصل إلى ثلث الناس حول العالم يعتقدون أن فيروس كورونا تم تصميمه في مختبر في ووهان بالصين – حيث نشأ الوباء، بحسب ما نشرته صحيفة ديلي ميل البريطانية (14 أكتوبر 2020).

ووجد الباحثون أن حوالي 23 % من الناس في المملكة المتحدة والولايات المتحدة يؤمنون بنظرية المؤامرة غير المثبتة بل ووصفوها بأنها معلومات «موثوقة». وفي إيرلندا ، قفز الرقم إلى 26 %، بينما قال 33 % في المكسيك إنهم يؤمنون بالنظرية كما فعل 37 % في إسبانيا. وعلى الرغم من ذلك، يقول

العديد من العلماء في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك الدكتور أنتوني فوسي، أكبر خبير في الأمراض المعدية في أميركا، إنه لا يوجد دليل يشير إلى أن الفيروس تم تصنيعه في المختبر أو هرب منه عن طريق الخطأ – وهي نظرية نشرها الرئيس دونالد ترامب نفسه. ويتم تجاهل هذا المفهوم على نطاق واسع باعتباره معلومات مضللة.

يقول فريق من جامعة كامبريدج في المملكة المتحدة، إن النتائج التي توصلوا إليها تشير إلى أن الأشخاص أكثر ميلًا للاعتقاد بأن المعلومات المضللة مرتبطة بانخفاض احتمالية تلقي اللقاحات، مما قد يحد من سرعة كبح الوباء. وبالنسبة للدراسة المنشورة في مجلة Royal Society Open Science ، نظر الفريق في استطلاعات وطنية كبيرة من أيرلندا والمكسيك وإسبانيا والولايات المتحدة والمملكة المتحدة. وفي الاستطلاعات ، طُلب من المشاركين تقييم مصداقية عدة عبارات، بما في ذلك ست نظريات مؤامرة حول الفيروس.

وكانت النظرية التي اعتبرت الأكثر صحة في كل دولة هي الادعاء بأن الفيروس الذي يسبب COVID-19 تم إنشاؤه في مختبر في ووهان.

وصنف ما بين 22 و 37 % هذا التأكيد على أنه "موثوق" في جميع الدول الخمس. وكتب الدكتور كريستيان أندرسن، الأستاذ في قسم علم المناعة والأحياء الدقيقة في معهد سكريبس للأبحاث في لا جولا بكاليفورنيا، في بحث: «هناك الكثير من البيانات والكثير من الأدلة، بالإضافة إلى الأمثلة السابقة على ذلك قادمة من الطبيعة».

لا تلوموا الخفافيش!

أطلق خبراء في «دراسة الخفافيش»، حملة تحمل عنوان "لا تلوموا الخفافيش"، الهدف منها نشر الوعي بين الناس وتبديد المخاوف والأساطير المحيطة بهذه الكائنات، والتي تهدد جهود المحافظة عليها.

ويقول القائمون على الحملة إن الخفافيش من أقل الحيوانات فهما وتقييما في العالم.

وتلام الخفافيش، وهي أهداف للكراهية والاضطهاد والتعصب الثقافي عبر العصور، على كثير من الشرور التي تصيب البشر. وقد تعززت هذه المخاوف والأساطير بعد تفشي وباء كوفيد- 19 مؤخرا.

ويسعى الدكتور ماثيو بورغاريل إلى الحصول على موافقة شيوخ قرية في زيمبابوي على زيارة كهوفهم المقدسة وتقديم الهدايا فيها لإرضاء الأرواح التي تسكنها.

ويطلق سكان هذه المنطقة في زيمبابوي على الخفافيش لقب "التنينات الطائرة" أو "الجرذان الطائرة" أو، ببساطة، «الأشرار».

فالحقائق المحيطة بالخفافيش هنا، كما في شتى أرجاء العالم، غير مفهومة إلى حد بعيد. أما بالنسبة للباحث في بيئة الحيوانات البرية بورغاريل، فالخفافيش كائنات جميلة ومدهشة في آن.

ويقول العالم الفرنسي، «إنها كائنات مذهلة...إن الناس يخشون المجهول دائما».

ويعمل الدكتور بورغاريل متعقبا للفيروسات لدى معهد الأبحاث الفرنسي كيراد. وبالتعاون مع زملاء

له في جامعة زيمبابوي، يقصد بورغاريل كهوف الخفافيش من أجل جمع عينات ونماذج من براز هذه الثديات الطائرة.

وبعد عودتهم إلى مختبرهم، يعكف العلماء على استخلاص المواد الجينية من النماذج التي جمعوها ويقومون بفحص التسلسل الجيني للفيروسات التي تصيب الخفافيش. وقد اكتشفوا بالفعل أنواع متعددة من فيروسات كورونا في هذه العينات، من ضمنها فيروس ينتمي إلى نفس عائلة فيروسي سارس وكوفيد- 19.

وتعد البحوث هذه جزءا من جهد عالمي يهدف إلى التحري عن أنواع الفيروسات التي تحملها الخفافيش وتركيباتها الجينية، والتوصل إلى الآليات التي تضمن الرد السريع على انتشار الأمراض بين البشر.

الخفافيش تهدد حياة البشر!

ريكاردو روشا من جامعة بورتو في البرتغال، يقول بهذا الصدد، «لا يمكن نفي الحقيقة القائلة إن الخفافيش، شأنها شأن الكثير من الحيوانات الأخرى، تمثل تهديدا حقيقيا للبشر كونها مضيفة لأمراض قد تكون خطيرة».

ولكنه يشير إلى أنه عندما نأخذ في اعتبارنا التنوع الكبير لفصائل الخفافيش (حوالي 400 فصيلة أو أكثر) نستنتج أن عدد الفيروسات القادرة على الانتقال إلى البشر التي تحملها ليس أكثر من الفيروسات التي تحملها الفصائل الحيوانية الأخرى كالطيور والحيوانات المنزلية الأليفة والجرذان.

ويقدّر العلماء أن 3 من كل 4 من الأمراض المعدية المستجدة التي تصيب البشر تأتي من الحيوانات. وصدرت تحذيرات في هذا السياق في عام 2002، عندما ظهر مرض غريب - أطلق عليه سارس - في الصين وتسبب في وفاة نحو 800 إنسان حول العالم.

وفي عام 2017، تعرّف الباحثون على مستعمرة من خفافيش "حدوة الحصان" تعيش في كهوف نائية في إقليم يونان الصيني وفيها قطع جينية لفيروس سارس البشري. وحذروا في حينه من إمكانية ظهور مرض مشابه في المستقبل، وقد ثبت أن ما حذروا منه كان صوابا.

ولكن بدل أن نلقي باللوم على فصيلة دون سواها، علينا إعادة النظر في علاقتنا بالعالم الطبيعي المحيط بنا، كما يقول الدكتور روشا، الذي يشير إلى أن الخفافيش تلعب دورا حيويا ومهما في المحافظة على عافية النظام البيئي وصحة الإنسان.

فالخفافيش تكبح الحشرات التي تقتات على المحاصيل وتتلفها، وتعتمد النباتات التي تنمو في المناطق الاستوائية على هذه الحيوانات من أجل إتمام عمليات التلقيح. وتشمل هذه النباتات محاصيل الكاكاو والفانيلا وفاكهة الدوريان. وتقوم الخفافيش بنشر بذور أشجار الغابات المطيرة وتسهم بذلك في محاربة ظاهرة تغيّر المناخ.

شيطنة الخفافيش

يقول الدكتور ديفيد روبرتسون، من جامع كلاسكو في اسكتلندا، إنها ستكون «نتيجة مروعة» لو تمت شيطنة الخفافيش، لأن سبب انتشار الأمراض من الحيوانات إلى البشر ينتج بشكل أكبر عن غزو الإنسان للمناطق التي تعيش فيها هذه الحيوانات وليس العكس.

المسنون أكبر المصابين بالفايروس

ويقول إنه من المرجح أن تكون سلالات فيروس كورونا المسبب لكوفيد- 19 موجودة في الخفافيش منذ عدة عقود، وكان لها القدرة على إصابة فصائل حيوانية أخرى في ذلك الحين.

ووفق تقارير متفرقة تتحدث عن حملات تستهدف الخفافيش نتيجة لتفشي كوفيد- 19، بما فيها عمليات لقتل هذه الحيوانات وذلك في بيرو والهند وأستراليا والصين وإندونيسيا.

ويحذر العلماء من أن تصرفات فردية خاطئة قد تكون لها عواقب خطيرة للفصائل المهددة من الخفافيش، وقد تؤدي حتى إلى زيادة إمكانية انتشار الأمراض منها إلى البشر.

القلق على الخفافيش

يقول دوغلاس ماكفارلين، من جامعة كمبريدج، «إحدى مصادر القلق الحقيقية تتلخص في أن العديد من فصائل الخفافيش مهددة بالانقراض، ولذا فإن حالات قليلة ومتفرقة للتعامل معها بعنف قد تؤدي إلى وقوع أضرار لا يمكن معالجتها وأن يكون لها تأثيرات كارثية للأنظمة البيئية التي يعتمد عليها البشر».

ومن المعروف أن الخفافيش ما لبثت تتعايش مع البشر لقرون طويلة في علاقة عادت بالخير للطرفين. ففي بلدة كويمبرا الجامعية في البرتغال، تحتل الخفافيش مكتبة تعود إلى القرن الـ 18 لأكثر من 300 سنة، اقتاتت خلالها على الحشرات التي كانت ستلتهم كتبها ومخطوطاتها. وإذا زرت تلك المكتبة عند الغسق، قد ترى الخفافيش وهي تطير من شبابيكها وتحلق فوق طرقات البلدة الضيقة المعبدة بالحجارة.

يقول ريكاردو روشا إن علينا أن نتذكر أن الخفافيش تشكل جزءا أساسيا من الشبكات الطبيعية المعقدة التي تحافظ على عافية وصحة الأنظمة البيئية، ويضيف "إذا كان ينبغي علينا أن نفهم رسالة واحدة من هذه اللحظة البائسة من التاريخ، فهي أن الإساءة إلى الطبيعة وإصابتها بالأمراض تصيبنا نحن بالأمراض في نهاية المطاف».

2.5 مليون سنة.. خطفتها الجائحة من حياة الأمريكيين

توصلت دراسة بجامعة هارفارد إلى أن جائحة فيروس كورونا قد كلفت أكثر من 2.5 مليون سنة من عدد السنوات التي كان من الممكن أن يعيشها الأمريكيون الذين ماتوا بسبب الفيروس إذا وصلوا إلى متوسط العمر المتوقع من الحياة البشرية المحتملة في الولايات المتحدة.

ووفقا لتقارير علمية تظهر الحسابات أن الجائحة تكلف 2.5 مليون سنة من الحياة المحتملة المفقودة بمتوسط 13.25 سنة للفرد، حيث فقد الرجال حوالي 1.4 مليون سنة من الحياة المحتملة وفقدت النساء حوالي 1.1 مليون سنة، وكان ما يقرب من 1.2 مليون سنة من الحياة المحتملة المفقودة بين الأشخاص الذين تقل أعمارهم عن 65 عامًا على الرغم من أنهم يمثلون خمس وفيات فيروس كورونا فقط.

وتظهر النتائج التي توصل إليها أنه منذ بداية عام 2020، أودت الأزمة بحياة 2.5 مليون سنة محتملة، وهذا يشمل كل شخص من كبار السن الذين عاشوا 20 أو 30 سنة أخرى إلى البالغين في منتصف العمر الذين لم يصلوا إلى سن الشيخوخة.

حيث توفي أكثر من 357,258 ألف أميركي لتاريخ 6 يناير 2021 وأكثر من 1.815 مليون شخص حول العالم.

تم نشر نتائج الدراسة على medRxiv.org العلمي وحصل الباحثين على البيانات من مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها (CDC) حول الوفيات لكل فئة عمرية من COVID-19 حتى أول أكتوبر 2020.

كما وجد تقرير صادر عن مركز السيطرة على الأمراض (CDC) أن وباء كورونا أدى إلى زيادة بنسبة 25% في الوفيات الزائدة بين الأمريكيين الذين تتراوح أعمارهم بين 25 و 44 عامًا أكثر من الفئات العمرية الأخرى.

معدلات الوفيات والإصابات

يشير بحث جديد من جامعة ستانفورد الأمريكية، إلى أن معدل الوفيات والإصابة بفيروس كورونا قد يكون أقل بكثير مما كان متوقعًا في السابق.

وتشير التقديرات التي أعدها عالم الأوبئة المثير للجدل الدكتور جون إيانيديس ونشرتها منظمة الصحة

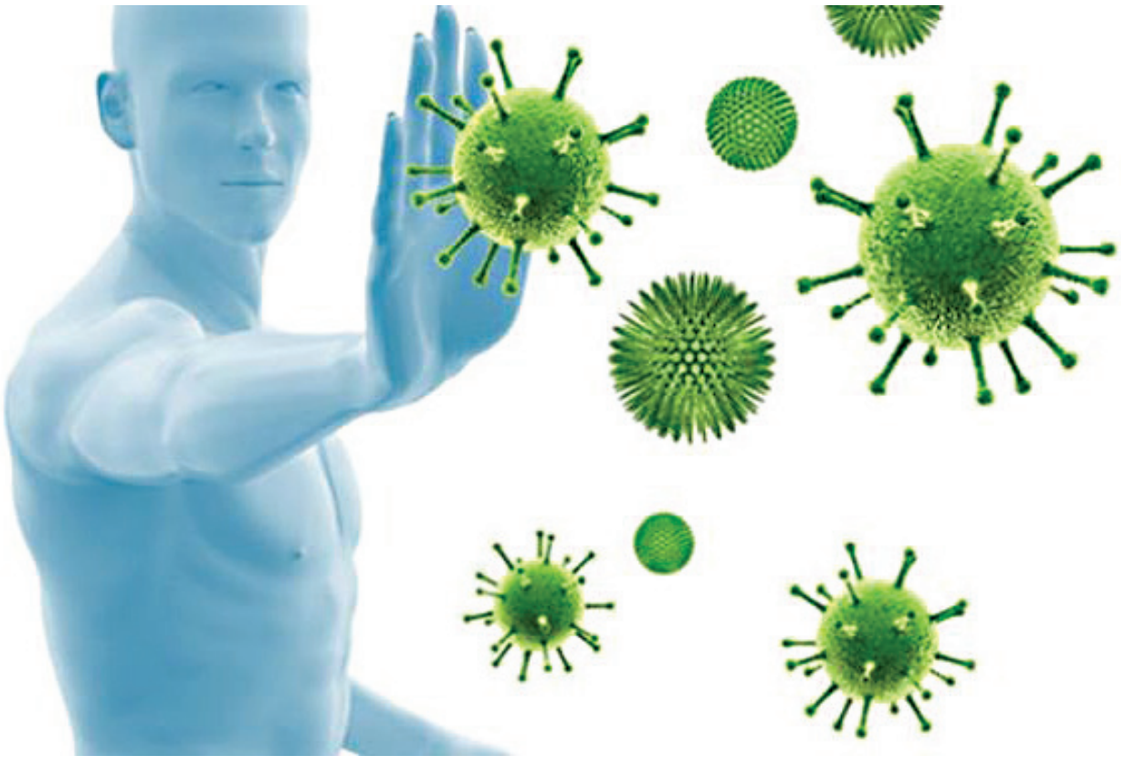

المناعة هي مقدرة الجسم على مقاومة البكتيريا والفيروسات الضارة

العالمية وفقا لتقرير صحيفة الصن (18 أكتوبر) إلى أن شخصًا واحدًا فقط من بين كل 2000 شخص يتمتع بصحة جيدة تحت السبعينيات قد يتعرض للموت بسبب كورونا.

وأخذ يوانيدس البيانات من كل منطقة، وقسّم عدد وفيات كورونا على عدد الأشخاص المقدر إصابتهم، وقال إنه من هذا المنطلق كان قادرًا على تحديد متوسط معدل وفيات العدوى بنسبة 0.27 %، عندما تمت إزالة الأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن 70 عامًا من البيانات، انخفض هذا الرقم إلى 0.05 % فقط.

ومع ذلك ، أشار في استنتاجه إلى أن معدل الإصابة «يختلف اختلافًا كبيرًا» عبر المناطق، وأضاف: «قد يعكس ذلك الاختلافات في التركيبة العمرية للسكان ومزيج الحالات من المصابين والمتوفين وعوامل أخرى.

ولم يتفق الخبراء بعد على مدى خطورة الفيروس، ولكن تقول منظمة الصحة العالمية إن 0.6 % من المصابين به قد يموتون، بينما وضعت المجموعة العلمية الحكومية لحالات الطوارئ (SAGE) معدل الاصابة عند 0.5 %.

المناعة والمناعة المكتسبة

يعد جهاز المناعة، لدينا نحن البشر، ولدى شركائنا على كوكب الأرض من حيوانات ونباتات وطيور وحشرات وميكروبات، أوضح دليل على أن المبدأ

اليوناني القديم الذي كان يكرر الإشارة إليه مصطفى صفوان بين عرب باريس في سبعينات القرن الماضي، وهو «الإنسان ذئب الإنسان» ينبع من صميم وجود الكائن الحي، وليس فقط الكائن البشري. كل منا مجهز بقدرات طبيعية على تحسس الخطر المنبعث من حضور الآخر، ومن التماس معه، وعلى صد هذا الخطر والتغلب عليه. وعندما نقول كل منا فنحن نشير إلى جماعتنا المؤلفة من كل كائن حي على ظهر الأرض وفي مجالها الحيوي، يستوي في ذلك صرصور وعقاب وميكروب ونبات، وإنسان يمشي بين كل هذا مخاتلا، بما لديه من جهاز مناعي يفوق بتعقيده وقوته كل جهاز مناعي لدى كل كائن حي سواه.

وتنخرط في هذه العملية الدفاعية التي لا تهدأ ليلا أو نهارا، في يقظة أو منام، منظومة يتألف منها الجهاز المناعي وتشمل العمليات الحيوية التي تقوم بها أعضاء وخلايا وجسيمات داخل أجسام الكائن الحي بغرض حمايتها من الأمراض والسموم والخلايا السرطانية والجسيمات الغريبة.

هذه المنظومة الحيوية تقوم بالتعرف على مسببات للمرض، مثل الميكروبات أو فيروسات وتحييدها أو إبادتها. يميز جهاز المناعة السليم بين خلايا الجسم السليمة و أنسجته الحيوية وبين كائنات غريبة عنه تسبب المرض.

وبوسع الجهاز المناعي عند أهم علماء العصر أو عند جامع قمامة، في نيويورك أو في مدينة الكاب، وبالقدر نفسه عند خفاش أو شجرة صبار أو ميكروب، بوسعه التعرف على أعداد لا تحصى من مسببات المرض.

كل الكائنات الحية تقضي أعمارها مدافعة عن بقائها، باستخدام آليات مناعة طبيعية متوارثة، تطورت في الفقريات ونشأ فيها ما يعرف بالمناعة المكتسبة التي يجري توظيفها في التطعيمات.

العناية بجهاز المناعة

وعن المناعة تقول لنا مجلة لانسيت Lancet الطبية البريطانية، في عدد الثاني من يوينيو من العام 2001، إن "جهاز المناعة هو شبكة تفاعلية من الأعضاء الليمفاوية lymphoid organs والخلايا والعوامل الخلطية humoral factors والسيتوكينات cytokines. وتتضح أهمية الجهاز المناعي عندما يخنل أداؤه فيتدنى النشاط وتنشأ عن ذلك أشكال من العدوى الشديدة وأورام نقص المناعة وزيادة نشاط أمراض الحساسية والمناعة الذاتية.

وكل البشر معرضون، على الدوام، لعضويات organisms يجري استنشاقها أوبلعها أو تسكن جلودنا وأغشيتنا المخاطية. ويمكن لهذه العضويات أن تتغلغل وتتسبب بالمرض كنتيجة لعاملين معا: لقدرتها على إحداث المرض pathogenecity أي لتوفر عوامل إحداث الضرر virulence fctors لديها؛ ولتكاملية آليات الدفاع في الجسم.

هذا ما تقوله لانسيت. ولكننا نريد توضيح ثلاثة مصطلحات وردت في ما نقلناه عن لانسيت:

... الأعضاء الليمفاوية

في كتاب «أساسيات الدراسة الميكروسوكبية للأنسجة» يقول أنطوني ميشر إن الأعضاء الليمفاوية الأولية هي نخاع العظم والغدة الصعترية، تتكون في الأولى الخليا الليمفاوية B وفي الثانية الخلايا

الليمفاوية T . أما الأعضاء الليمفوية الثانوية فتشمل العقد الليمفاوية والأنسجة الليمفاوية المرتبطة بالغشاء المخاطي(MALT) والطحال.

فما هو اللمف الذي تنسب إليه هذه الأعضاء؟ هو سائل شفاف يميل للصفرة. واسمه مأخوذ من الكلمة اللاتينية lympha وتعني الماء (وهو بالتالي ماء الحياة الذي تتحدث عنه الحكايا الشعبية). ويشبه تركيبه تركيب الدم، إلا من حيث خلو اللمف من خلايا الدم الحمراء، إذ أن فيه فقط خلايا دم بيضاء، ما يعني أنه يتركب من بلازما وصفائح دموية وخلايا بيضاء إضافة إلى بعض البروتينات وبعض مكونات الجهاز المناعي الأخرى وهو يساهم في نقل الأحماض الدهنية من المَعِيِّ الدقيق للقلب.

... العوامل الخلطية

هي عوامل ينقلها نظام الدورة الدموية الذي يتألف من الأوعية الدموية التي تحمل الدم إلى القلب ومن القلب، وهي تشمل العوامل الخلطية المناعية في الجهاز المناعي وهرمونات في جهاز الغدد الصماء.

... السيتوكينات

وهي شريحة واسعة من البروتينات الصغيرة التي تلعب دورا مهما في إصدار إشارات الخلايا التي لها أثرها في التعديل المناعي الوثيق الصلة بالمناعة الطبيعية والمكتسبة ، إذ أنها تتدخل في كثير من الأمراض المعدية والالتهابي وضد الإنتان أو تعفن الدم أو خمج الدم-sep sis. لكن مهمتها لا تنحصر في الجهاز المناعي فقط، فدورها في التواصل بين الخلايا خلال التطور الجنيني كبير أيضاً.

وعلى الرغم من كل هذا الذي تقوله المصادر المعتمدة بخصوص المناعة، فإن "المناعة ضد فيروس كورونا لاتزال سرا يحاول العلماء فك طلاسمه" بحسب هذا العنوان لتقرير آندرو جوزيف، في الحادي عشر من يونيو، على موقع ستات STAT الذي سبق لنا المرور به.

كيف تعزز جهازك المناعي؟

تبدأ مطبوعات هارفارد الصحية HARVARD HEALTH PUBLISHING ردها على هذا السؤال، في تقرير كان آخر تحديث له بتاريخ 6 إبريل من العام 2020، بالعموميات التي سمعت بها، عزيزي القارئ، على الأرجح مئات المرات. خط الدفاع الأول هو أن تعيش حياة صحية. ولابد لك من أن توفر الحماية لكل جزء من جسمك، بما في ذلك جهازك المناعي، من هجمات قد يكون مصدرها طعامك أو أسلوب حياتك أو البيئة المحيطة بك، وأن تتبع استراتيجات للحياة الصحية، تراعي فيها:

- الامتناع عن التدخين
- الإكثار من الخضار والفاكهة في طعامك
- الانتظام في التدريبات الرياضية
- الاحتفاظ بوزن صحي
- الاعتدال(وأفضل منه الامتناع) عن الكحوليات
- النوم لعدد كاف من الساعات
- اتخاذ التدابير الواقية من العدوى، مثل الإكثار من غسل اليدين وطهو الطعام جيدا
- تقليل التوتر

ثم يقول التقرير إننا جميعا نريد تحسين أداء جهاز

المناعة لدينا، وإن كان ذلك أمرا صعبا. وسبب الصعوبة هو أننا نريد تعزيز نظام مركب من وحدات عديدة، وليس وحدة أو كيانا واحدا. ولكي يعمل هذا الجهاز المركب فهو يحتاج التوازن والتناغم. ولأن كثيرا من تعقيدات هذا الجهاز ومن الاستجابات المترابطة بين مكوناته لم تزل غير واضحة لدى الباحثين، فكل ما نقوله عن وسائل تعزيز جهاز المناعة غير معزز بمعلومات يقينة، بقدر ما هو نتاج ملاحظات عملية تربط الممارسات بنتائجها الملحوظة، ولا تؤسس لها ببراهين تتصل بتعقيدات جهاز المناعة والاستجابات المترابطة لمكوناته. ولهذا فقد تنتشر بين الناس خرافات كثيرة تتصل بالمناعة، بسبب التعجل في القفز إلى الخلاصات أو بسبب قوة التفكير الرغائبي، الذي يتجاوز الموضوعية بقوة الرغبة في الوصول لخلاصة ما.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك في ظروف جائحة كورونا ما يقال عن أن من يصاب بها مرة يكتسب مناعة تحول دون تكرار الإصابة. لكن تقرير هارفارد، والصادر في إبريل من العام 2020، يقول إنه لم يثبت حتى الآن أن الإصابة بكوفيد- 19 تترك بعد التعافي منه أجساما مضادة تحمي من إصابة ثانية.

إذ إنه ليس من المستبعد(لم يكن من المستبعد حتى ابريل 2020) أن تسفرإصابة أولى بفيروس كورونا عن مناعة لبعض الوقت. ولكن لم يتضح للعلماء نوع الخليط potpourri من الأجسام المضادة والخلايا وغير ذلك من المؤشرات في دم المصاب هي التي ستصدر عنها إشارة الحماية. ويعد تقرير" التبادليات المؤسسة للحماية" والقائمة بين مكونات الخليط المشار إليه، أمرا حيويا لكي يعرف الأفراد إن كان الخطر باقيا، كما أنه حيوي بالنسبة لقدرة الباحثين على تقرير مدى نجاعة اللقاحات المرتقبة، وكم من الزمن تبقى فاعليتها، وكيف يمكن التعجيل بتطويرها.

ومعرفة هذه التبادليات ليست هي عينها معرفة آليات الحماية التي يشبهها التقرير برقصة مخطط لها جيدا، تؤديها بروتينات وخلايا مختلفة، وتنشأ عنه قدرة دفاعية لدى الجسم يرد بها الأجسام المسببة للمرض قبل أن تتمكن من أن تجد لنفسها مكانا داخل الجسم. وهذا مشروع تتباين مكوناته بتباين مسببات الإصابة.

تغيَّر جهاز المناعة

يعتقد العلماء أن أداء جهاز المناعة يتراجع تدريجياً مع التقدم في السن. ومثلما تتضح الاختلافات بين صورنا القديمة والجديدة، يسهل أن نرصد التغيرات الحاصلة على مستوى الوجه والبشرة ولون الشعر. تحصل هذه العملية مع مرور الوقت، وهي تنطبق أيضاً على جهاز المناعة.

يقول البروفيسور إينسو كانغ، خبير حساسية واختصاصي في علم المناعة يـدرس الشيخوخة البشرية منذ 20 سنة: «تتغير الخلايا المناعية مع التقدم في السن، لا سيما CD8+ T (نوع من خلايا الدم البيضاء)، فيتراجع عددها مع أنها ضرورية للتعرّف على كائنات دقيقة جديدة مثل فيروس «كوفيد- 19». تحصل هذه العملية مع جميع الناس بدرجة معينة، لكن بإيقاع مختلف».

لايزال الاختلاف في وتيرة التراجع بين الناس من أكبر الألغاز العلمية. جهاز المناعة معقد، لكن يدرك معظمنا أسس عمله: يرصد الجسم كائناً دخيلاً (فيروسات، جراثيم، طفيليات، عناصر خارجية) وينتج خلايا الدم

البيضاء لمحاربة المشكلة. تتعلق المعادلة الأساسية بعدد الخلايا التي ينتجها الجسم في عمر 73 عاماً مثلاً، مقارنةً بما كان ينتجه في عمر الخامسة والأربعين. هذا السؤال هو جزء محوري من أزمة كورونا اليوم: كيف يُعقَل أن ينجو رجل عمره 104 سنوات فيما يموت أشخاص في نصف عمره أو أقل؟

لن يستمر الوباء إلى الأبد لحسن الحظ، لكن يمكننا أن نستفيد منه لفهم طريقة تغيّر جهاز المناعة البشري مع التقدم في السن واستكشاف كيفية إبطاء تراجعه وتحسين مخزوننا المناعي الاحتياطي تحسباً لأي مرض مستقبلي.

عوامل مؤثرة على المناعة

يدرك الجميع أهمية الأكل السليم وتجنب البدانة التي تصبح قاتلة حين ترتبط بالالتهابات المزمنة. لكن تكشف الأبحاث أيضاً آثاراً غذائية محددة على مستوى أداء المناعة لدى كبار السن. تذكر إحدى الدراسات المنشورة في مجلة «المغذيات» في عام 2018 أن المغذيات الأساسية، مثل الفيتامينات A وC وE وD وB، بالإضافة إلى حمض الفوليك والحديد والسيلينيوم والزنك، تكون ضرورية للحفاظ على «الكفاءة المناعية»، ويؤدي أي نقص في هذه العناصر إلى تراجع إنتاج الخلايا التائية والعجز عن معالجة الالتهابات. لا بد من إقامة التوازن المناسب.

الهدوء: تكشف الأبحاث أن الضغط النفسي الخارج عن السيطرة قد يُسرّع تراجع الأداء المناعي. تستلزم هذه الحالة العصبية استجابة مناعية مزمنة تجاه مسببات الضغط النفسي، ما يؤدي إلى تفاقم الالتهابات. تصبح الرعاية الذاتية أساسية في هذه الحالة، ما يعني ضرورة أن تقوم بنشاطات مضادة للضغط النفسي (تأمّل، استرخاء ذهني، تمارين جسدية)، ولا تتردد في طلب المساعدة لحل المواقف العصبية العالقة (عمل، مشاكل مادية، الاعتناء بالآخرين). لا يتكلم الناس بما يكفي عن أثر الضغط النفسي على المناعة، لأنه ليس واضحاً وملموساً بقدر عوامل أخرى مثل ساعات الرياضة أو عدد عُلَب السجائر المستهلكة يومياً.

اللقاحات: يؤثر العمر على فاعلية اللقاحات وقوة المناعة. تكون اللقاحات مُصمّمة في الأصل لتعزيز إنتاج المستضدات (لقاح الإنفلونزا مثلاً مصنوع من خلايا الإنفلونزا)، لكن لا يتجاوب الاحتياطي المناعي بالقوة التي كان عليها في عمر الشباب بعد التقدم في السن. لكن لا يعني ذلك الامتناع عن تلقي اللقاحات. يوضح كانغ: «قد تضعف فاعليتها مع التقدم في السن، لكن تتراجع حدّة المرض بفضلها في حال التقاط العدوى. يجب أن يتلقى الناس أي لقاحات يصفها الأطباء لهم بناءً على عمرهم ومشاكلهم الصحية الكامنة».

الأدوية: قد تثبط أنواع معينة من الأدوية جهاز المناعة. في بعض الحالات، تؤدي الستيرويدات القشرية المستنشقة أو تلك التي تُؤخذ عبر الفم (إنها خيارات شائعة الاستعمال لمعالجة التهاب المفاصل والحساسية والربو ومرض التهاب الأمعاء) إلى زيادة خطر الإصابة بالتهابات فطرية. ينطبق الأمر نفسه على مثبطات عامل نخر الورم التي تعالج أمراض المناعة الذاتية مثل التهاب المفاصل الروماتويدي وداء الصدفية.

يضيف كانغ: «حتى المضادات الحيوية قد تقضي على الجراثيم المعوية وتُسبّب أشكالاً معينة من الالتهابات». إذا كنت تأخذ أي أدوية بشكلٍ متواصل، تكلم مع طبيبك حول آثارها الجانبية المحتملة على جهاز المناعة وكيفية معالجة الوضع.

هل تغني مناعة الإصابة عن اللقاح؟

إتسعت مروحة التساؤل عن مستوى المناعة التي يوفرها اللقاح وعما إذا كان أعلى أو أدنى من المستوى الذي توفره الإصابة السابقة بالفيروس.

بالإطباء المختصين أفادوا بأن الحصول على اللقاح ضروري لأولئك الذين أصيبوا بالعدوى وتعافوا منها لأن اللقاح يضمن ثقة أكبر باكتساب المناعة من جهة ويعزز المناعة المكتسبة من إصابة سابقة.

فاللقاح يوفر حماية أكبر ضد سلالات متحورة من الفيروس، وكما أوضح بحث أجري في «أوكسفورد» فإن الذين تلقوا جرعتين من لقاح فايزر أظهروا استجابة أقوى للأجسام المضادة ضد سلالتي «كنت» البريطانية و«جنوب أفريقيا»، مما يوحي باحتمال أن يكون اللقاح فعالا ضد مثل هذه السلالات، في حين أن المناعة المكتسبة من إصابة سابقة قد توفر وقاية فقط ضد السلالة التي أصيب بها المريض.

ولدى خبراء الأوبئة إعتقاد أن الأمر يتوقف على مستوى مناعة المصاب، فإذا كان المستوى منخفضا يمكن للشخص أن يصاب بعدوى ثانية بالفيروس ذاته، لأن العدوى الطبيعية لا تضمن للشخص نفس القدر من المناعة التي قد يضمنها اللقاح.

إصابات عديدة بدون ظهور أعراض

وتعكس أرقام المصابين في البلدين الخليجيين العديد من حالات الإصابة غير المصحوبة بأعراض ظاهرة للفيروس، فقد وجدت دراسة جديدة في قطر أن ما يقرب من 60 % بالمئة من الاختبارات الإيجابية، لم تظهر على المصابين أي أعراض على الإطلاق، بينما قدرت السلطات في دول أخرى نسبة أعداد المصابين دون أعراض بحوالي 68 % بالمئة.

ويقول ليث أبو رداد، باحث الأمراض في قسم طب وايل كورنيل: "لهذا السبب فشلنا في السيطرة على الصعيد العالمي على العدوى لأن الاستجابة تتركز ببساطة على محاولة العثور على الحالات وعزلها... إذا كان معظم الأشخاص الذين يصابون بالعدوى ينشرون العدوى بالفعل دون أن يعرفوا ذلك».

عرضنا لوجهات نظر عربية وعالميةحول الجائحة، كما رصدها الإعلام الدولي والإقليمي، ولكن الملف الوثائقي للجائحة لايكتمل إلا بالتطرق إلى نقطتين : التوترات التي نشبت بين الولايات المتحدة والصين؛ ومستقبل البشرية في ضوء تصاعد خطر الفيروسات.

التوترات الناتجة عن كورونا بين الصين وأميركا

يصعب التكهن بمآلات الخلاف بين الولايات المتحدة والصين، بعد تبادل اغلاق القنصليات لكن في الرابع والعشرين من يوليو نشرت الدبلوماسي "THE DIPLOMAT" وهي مجلة اليكترونية تصدرها ذا ديبلومات ميديا إنك، من مقرها (1701 بنسلفانيا آفنو) على مسيرة دقيقتين، مشيا على الأقدام، من

البيت الأبيض(1600 بنسلفانيا آفنو)، عبر شراكة مع مؤسسات اقتصادية وإعلامية متعددة الجنسيات، نشرت تقريرا بعنوان، "من الرابح في صراع القوة بين الولايات المتحدة والصين؟".

وبحسب موجز لمجلة الدبلوماسي، فقد بدأ الصراع بين البلدين كحرب تجارية في يوليو من العام 2018 ثم مرت العلاقات بين البلدين بنقطة تحول، مع التصديق على المرحلة الأولى من الصفقة التجارية في يناير من العام 2020 ، ولكن بعد أن تسببت التوترات بضغوط على الاقتصاد العالمي استمرت لثمانية عشر شهرا، بما فرضه البلدان من تعريفات إضافية على الواردات.

وقد اتهمت الولايات المتحدة الصين بارتكاب ممارسات تجارية غير نزيهة، شملت سرقة حقوق الملكية الفكرية، ونقل التكنولوجيا غصبا، وتعويق وصول الشركات الأميركية لأسواق الصين، وإرباك آليات السوق عبر دعم حكومي للشركات الصينية. وبالوقت ذاته، فالصين ترى أن الولايات المتحدة تحاول الحد من معدلات صعودها كقوة اقتصادية كونية.

وقبل أن نعرض لما جاء في تقرير الدبلوماسي نشير إلى إن الحرب التجارية بين البلدين تحولت حربا باردة، بمعنى ينطوي على قدر ضئيل من الشبه بالحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، من نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى ظهور ميخائيل غورباتشيف. فاقتصاد البلدين، حتى الآن، متشابك على نحو لم يكن له مايشبهه، ولو من بعيد جدا، بين اقتصادي الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي المنقرض. ويمكن أن نعزو ذلك ليس فقط لمبادرة مثل زيارة الرئيس ريتشارد نيكسون ووزير خارجيته هنري كيسنجر للصين في العام 1972، وما ترتب عليها من اندفاع رأس المال الأميركي باتجاه الصين، أو حتى للعلاقة القديمة بين البلدين والتي يرصد الباحث دين تشينغ من جامعة بيتسبيرغ الأميركية بداياتها في العام 1874 عندما أبحرت أول سفينة في التاريخ ترفع العلم الأميركي وهي سفينة إمبريس أوف تشاينا (امبراطورة الصينEmpress of China) التجارية متوجهة إلى ميناء كانتون الذي يعرف اليوم باسم غواندونغ.

وفي هذه الحرب التجارية تمضي الصين إلى حيث تريد لأنها تركت أزمة كورونا وراءها، في حين تحمل الولايات المتحدة عبء الأزمة حيثما تحركت. وتسعى واشنطن إلى تحميل بكين جانبا من مشكلتها مع كوفيد19- بزعمها أن الصين لم تعلن نبأ ظهور الفيروس لديها وأنها استخدمت منظمة الصحة العالمية للتغطية على أداءها السيئ في مواجهته.

وتذكرنا مجلة الدبلوماسي بأن العلاقات بين الولايات المتحدة والصين أقدم، بكثير، من قيام الصين الشعبية بقيادة ماوتسي تونغ. وهذا القول يؤكده تقرير نشره الباحث الأميركي الصيني الأصل دين بيتسبيرغ بعنوان"التاريخ المعقد لعلاقات الولايات المتحدة مع الصين"(11 أكتوبر من العام 2012) جاء فيه إن العلاقات بين البلدين بدأت في العام 1784 ، بعد أقل من عقدين على استقلال الولايات المتحدة عن التاج البريطاني، عندما أقلعت إلى ميناء كانتون(هو اليوم ميناء غواندونغ) السفينة التجارية"امبراطورة الصين" رافعة، لأول مرة في

مستقبل الفيروسات

التاريخ الأميركي علم الولايات المتحدة. وقبل ذلك كانت السفن التجارية الأميركية، حتى بعد الاستقلال، ترفع العلم البريطاني اتقاء لشر القراصنة في المتوسط وفي الباسيفيك، كما يقول لنا كتاب"هلال وراء الغيوم" الذي ألفه روبرت جي أليسون وترجمه للعربية أسامة الغزولي.

وبانتهاء الحرب الباردة نشطت الولايات المتحدة لدمج الصين في النظام العالمي التجاري المتعدد الأطراف. لكن تحركات ومواقف أميركية سياسية وإعلامية بخصوص تايوان، وبخصوص حقوق الإنسان في الصين واتفاقية الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية التي انسحبت منها واشنطن، وموقف واشنطن من "الثورات الملونة» (أو ثورات جورج سوروس وشبكة مؤسسات المجتمع المفتوح التابعة له بتعبيرنا نحن وليس بتعبير المجلة)في البلقان، كل هذا سبب توترات بين الصين والولايات المتحدة. وننبه القارئ إلى أن مبادرة التقارب في السبعينات كانت أميركية والمبادرات التي بذرت بذور التباعد-بين بكين وواشنطن- كانت ولاتزال أميركية. ولانرى أن هذا بمستغرب، فالولايات المتحدة لم تزل رئيس مجلس إدارة العالم، حتى وإن كان الأعضاء الأربعة آآخـرون في مجلس الأمن يشاركونها حق الاعتراض(الفيتو).

ومع انشغال الولايات المتحدة، بعد الحادي عشر من

سبتمبر من العام 2001 بما تسميه "الحرب على الإرهاب" وهي حرب تخوضها مع حليفاتها ضد تنظيمات غامضة تعتمد الترويع المادي والمعنوي، راحت بكين تعزز مواضع أقدامها كقوة تجارية في مختلف أنحاء العالم. وجاءت الأزمة المالية في العام 2008 لتدفع بالولايات المتحدة وبنفوذها إلى تراجع نسبي ولتمضي قدما بتعزيز المكانة الدولية للصين، وبخاصة بعد قيام ما تدعوه المجلة" التحالف الصيني – الروسي الجديد"، وهو ما استفز واشنطن ، خاصة وأنه تزامن مع تقارب بين الصين وكل من إيران وفنزويلا غير الميالتين للسياسات الأميركية، ومع تزعم الصين لحركة منظمات "جنوب العالمthe Global South". ودخلت العلاقات مرحلة التوتر في عهد الرئيس باراك أوباما حين طلب الرئيس الصيني شي جين بينغ من واشنطن التعامل مع الصين على أساس الندية، بصوغ "نمط جديد من العلاقات بين القوى الرئيسية". ومع وصول ترامب للبيت الابيض قوبل تصاعد النفوذ الصيني بهجمات لفظية طالت كافة المجالات، في وقت بدأ حلفاء واشنطن وشركاؤها يتململون من تبعات الارتباط بها.

ثم جاءت الجائحة لتزيد من خطورة التوترات بين القوتين الأعظم وتؤكد المجلة أن الأزمة وطريقة فهم الجانبين الأميركي والصيني لها ستقرران مآلات هذه التوترات.

مستقبل الفيروسات

ما مستقبل الفيروسات، وهل يبقى العالم رهينة لأخطارها؟ في العام 2017 نشرموقع الأبحاث العلمية ساينس دايركت ScienceDirect تقريرا بعنوان" الفيروسات الطالعة". في ذلك الوقت كان الشائع، عالميا، بالنسبة للفيروسات هو احتمال أن تستخدمها الجماعات الإرهابية كسلاح لها. وهذا يشبه ما ظل يتردد في الغرب، لوقت طويل، بخصوص احتمال حصول الجماعات الإرهابية المسلحة على أسلحة نووية أو أسلحة نووية تكتيكية. وكلا الأمرين يندرج –حتى الآن – تحت بند التهريج السياسي، لأن حركة الأسلحة والمعدات من مصادر إنتاجها وإلى المنظمات الإرهابية يصعب الاعتقاد بأنها خارج نطاق السيطرة الدولية المباشرة أو غير المباشرة. ويكفي أن تنظر لماركات وأعداد العربات التي لا يتنقل الإرهابيون في سوريا وليبيا إلا بها لتدرك مغزى ما نقول.

لكن ما قيل عن احتمال استخدام الفيروسات كسلاح للإرهاب هو أن تعمد إطـلاق مسببات المرض pathogens قد تكون له تاثيرات طبية ضعيفة ومحدودة. وقد حاولت حكومات عديدة تكريس إستخدام الفيروسات كسلاح، وخصت لذلك موارد هائلة، ثم تبينت لها ضآلة جدوى هذا الأمر.

ولم تقر المراكز الأميركية للسيطرة على الأمراض سوى بخطورة صنفين من الفيروسات، باعتبارهما سلاحا محتملا للإرهابيين: الجدري ومسببات الحمى النزفية الفيروسية، مثل الفيروسات الخيطية filovirus-es والفيروسات الرملية Arenaviruses. وبخصوص الفيروسات الطالعة ومن فيروسات النيباه (Nipah virus) وفيروسات هانتا hantaviruses، فقد أدرجت هي أيضا ضمن الأخطار المستقبلية.

وأهم ما يمكننا قوله اليوم هو أن فيروس كوفيد– 19 ليس من الفيروسات البكتيرية القابلة للاستخدام في الصراعات المسلحة التي تخوضها القوى الحكومية والمنظمات الإرهابية والإجرامية.

تلك النتيجة تؤكدها النقاط التالية:

- أن تزايد معدلات الاتصال بين البشر والحيوانات، الـذي يعود في المقام الأول إلى اتساع نطاق المساحات المأهولة، تسبب بظهور فيروسات جديدة من بينها فيروس نقص المناعة المكتسبة وفيروس إيبولا وفيروس كورونا المرتبط بالمتلازمة التنفسية الحادة الشديدة النوع 1 (SARS-CoV)، المتلازمة التنفسية الشرق أوسطيةMERS-CoV.
- بالإضافة إلى فيروسات حديثة النشأة، فإن تنويعات على فيروسات موجودة بالفعل تسبب جائحات خطيرة. وفيروس الانفلونزا هو أوضح الأمثلة على ذلك.
- وتمثل الجائحات الجديدة التي تتسبب بها فيروسات قديمة خطرا لايستهان به على الصحة العامة. وأوضح مثال على ذلك تفشي الحصبة في النصف الغربي من الكرة الأرضية.

وفي الحادي والعشرين من نوفمبر من العام 2018 نشر موقع Immunology&Microbology الذي يستقي معلوماته من شبكات التكنولوجيا تقريرا بعنوان"التنبؤ بمخاطر على البشرية تتسبب بها الفيروسات في المستقبل" جاء فيه أن الباحثين طوروا نموذجا لتقرير أي الفيروسات التي يمكن أن تنتقل من الحيوان للإنسان قد تكون قابلة للانتقال من إنسان للآخر، وبالتالي قد تكون مصدر مرض قد يصيب الإنسان.

وجاء أيضا أن بعض الفيروسات التي لم يُعْرَف عنها، حتى الآن، أنها قادرة على الانتقال من الحيوان للإنسان قد تتطور لديها هذه الإمكانية، ما يحتم زيادة الاهتمام بدراستها. غير إن ما يستجد من مسببات المرض هي، في معظم الأحوال، مُمْرِضات كانت تتناقلها الحيوانات في ما سبق. ويرى الخبراء بالبيئة الطبيعية وعلاقتها بصحة البشر أن الأمر يتعلق بالتفاعل بين الطفيليات والمُمْرِضات مع الكائن الذي تعيش عليه أو مع الشروط البيئية التي تتحكم بهذا التفاعل وتقرر مآلاته.

وفي الحادي والعشرين من يناير من العام 2020قالت فاينانشيال تايمز اللندنية إن منظمة الصحة العالمية تلقت في مطلع العام 2020 أول إشارة إلى واحد من الفيروسات الطالعة في العقد الحالي. جاء ذلك في تقرير بعنوان" العلماء يتسابقون لحماية الإنسانية من أخطار جوائح المستقبل" لكن الخطر الذي يهدد الإنسانية هي أن الفيروسات المستجدة خطر محقق لكن العلماء يتوقعون أن يكون خطر الانفلونزا الذي نعرفه من زمن بعيد قد يكون هو الأشد فتكا.

وجاءت الإشـارة، كما يعرف العالم كله اليوم، من الصين التي قالت إن الناس في ووهان يعانون إلتهاباً رئوياً مجهول السبب، وأن بعضهم يقاسي صعوبات بالغة في التنفس. وسرعان ما خلص علماء المايكروبولوجي إلى أن المُمْرِضات المعروقة منبتة الصلة بما يحدث. ولم ينقض أسبوع إلا واستقر الرأي عند أطباء الصين على أن السبب هو فيروس جديد ينتمي للعائلة ذاتها التي جاء منها فيروس سارس والفيروس المسبب لمتلازمة الشرق الأوسط التنفسية ميرس، وأن منشأ العدوى كان، على الأرجح، في أحد أسواق الأطعمة البحرية.

أخطار المستقبل وجوائح 2050

الأكثر أهمية في مستقبل البشرية أمام ما يوحي تاريخ الأمراض الطالعة والتحولات الديموغرافية (السكانية)

فيروسات كورونا

المحتمل حدوثها مستقبلا أننا سنكون معرضين لكثير من الجوائح الوبائية بحلول العام 2050. وفي ضوء هذه الحقيقة، يتعين أن ندرك أن تطوير التكنولوجيا الطبية سوف تزودنا بسلاح أقوى للاستجابة للمخاطر ولحماية الناس من الأشكال المستجدة للعدوى. والفيروسات هي بمثابة كوابيس بالنسبة لخبراء الصحة العامة لأنها تظهر على نحو سريع – وتبدو آتية من اللامكان – وتنتشر بأسرع من غيرها من مسببات المرض.

وعلى العموم، فالفيروسات يصعب تشخيصها والوقاية منها وعلاجها بدرجة تفوق الصعوبات المرتبطة بالبكتيريا. وتقدر المنظمة العالمية لصحة الحيوانات أن 60 بالمئة من مسببات المرض للإنسان تأتي من الحيوانات. والفيروسات المخيفة بأكثر من كل ما عداها في السنوات الأخيرة انتقلت من الحيوانات للبشر.

هذه الفيروسات الحيوانية المنشأ zoonotic virus-es تشمل فيروس نقص المناعة المكتسبة (ومصدره القرود) والسارس (ومصدره قط الزباد civet cat الصغير الحجم المنتشر في الغابات الاستوائية في آسيا وإفريقيا) وميرس(ومصدره الإبل)وفيروس الحمى النوفية ماربورغ وفيروس إيبولا (ومصدرهما هو الخفافيش).

في حين أن تزايد أعـداد البشر وتنامي قدرتهم على التنقل وتكدسهم في المدن واقتحامهم مواطن الحيوانات البرية يزيد من مخاطر انتشار الفيروسات مستقبلا. وتقدر الدراسات الطبية عدد الفيروسات الحيوانية اليوم بسبعمائة ألف فيروس معظمها لا نعرف عنه شيئا يذكر. وهذا ينبهنا لضرورة الحذر والترقب وزيادة الجاهزية لمواجهة الطوارئ.

وقد اقترحت مجموعة من علماء الفيروسات البدء

بتنفيذ ما يدعى المشروع الكوني للمراكمات الفيروسية The Global Virome Project الذي يحتاج لموازنة تتراوح بين التريليونين ومئتي مليار دولار وبين الثلاثة تريليونات. والهدف منه هو قراءة جينات هذا العدد الهائل من الفيروسات. وحين تنفجر جائحة ما يصبح العلماء، بما تؤمنه لهم دراسة جينات الفيروسات من معرفة، قادرين على معرفة مصدرها الحيواني. وإضافة للمبلغ الهائل الذي يحتاجه المشروع المقترح، فتنفيذه يحتاج عشر سنوات. ولا تعد التكلفة المالية الهائلة شيئا يذكر إن قورنت، يقول التقرير، بالتاثير المرجح للجوائح الفيروسية المنتظرة. وبالإضافة لخطر الفيروسات الجديدة يتوقع العلماء أن تتسبب فيروسات الانفلونزا، قبل حلول العام 2050 بجائحة قد يموت بسببها عدد من الناس يفوق عدد من قتلتهم الانفلونزا في 1918–1919، علما بأن تلك كانت أسوأ جائحة عرفتها البشرية في عصرها الحديث. وحتى في السنوات التي لا تظهر فيها الجوائح، فالانفلونزا الموسمية تقتل نصف مليون إنسان.

وخطورة الانفلونزا ترتبط بسرعة تحولاتها، خاصة حين تختلط بأنواع من الفيروسات الموجودة عند الطيور وبخاصة الدواجن وعند الثدييات وبخاصة الخنازير. وقبل فترة قصيرة مضت انتقلت انفلونزا الطيور إلى الخنازير ومنها إلى الكلاب حيث تطورت داخل أجسام الكلاب أنواع جديدة من الانفلونزا الكلبية التي تمر الآن بمراحل تحول. ويحذر الخبراء من أن الكلاب تحتوي أجسامها على المخزون الاحتياطي لجائحة انفلونزا كبرى.

لكن الإنسانية أقدر على مواجهة الفيروسات الفائقة العدوانية super–virulent بشكل يتفوق عن ما كانت عليه قبل مئة عام. ويرجع ذلك، في المقام الأول، إلى التطور الهائل في القدرة على التشخيص وعلى إحراء اختبارات قادرة على الكشف عن وجود أي نوع مستجد من الفيروسات وعلى تتبع انتشاره في دقة وسرعة تفوقان كل ماسبق. وسرعة الاستجابة تتوقف على سرعة التشخيص. وعلى رغم امتلاكنا للقاحات تحمي من الانفلونزا، فلازالت هذه اللقاحات بحاجة للتطوير. فهذه اللقاحات يعاد تركيبها كل عام، وفق معادلات جديدة، وتبقى فعاليتها، على الرغم من ذلك، محدودة.

الانفلونزا الشاملة

يعدّ أكبر تحد علمي يواجه البشرية والساعون إلى تحقيق جاهزية شاملة ضد الجوائح المستقبلية يتمثل بالحاجة إلى «لقاح الانفلونزا الشامل» القادر على تأمين الحماية من مجموعة واسعة من السلالات الفيروسية. وقد دخل عدد من الفيروسات الشاملة المرشحة – المصممة على نحو يمكنها من التعرف على البروتينات الخفية والأكثر ثباتا، أو الأقل عرضة للتحول داخل الفيروس– مرحلة التجريب الاكلينيكي. وقد لاتكون صفة الشمولية كاملة الانطباق على أي من هذه اللقاحات المرشحة، لكن نجاح أي منها قد يساعد، بشكل فعال، في تقليص مخاطر جائحة انفلونزا شديدة، تقول منظمة الصحة العالمية إنها «برأي كثرة من الخبراء، الحدث الصحي الأكثر قدرة على التدمير، على المستوى الكوني».

لكن المثير أنه قبل أربعة وعشرون عاماً صدر تقرير بعنوان"الأمراض المعدية والاستعداد لها"، وقد

أصدره مكتب العلوم والابتكارات البريطاني في لندن في العام 2006. وقد نظر العلماء الذين وضعوا هذا التقرير في الحالة المتوقعة للأمراض المعدية التي تتهدد البشر والحيوانات والنباتات، في الفترة الممتدة من وقت صدور التقرير إلى ما بعد وقتنا هذا بأحد عشر عاما، إلى العام 2031. وركزت أبحاث العلماء بشكل خاص، على المملكة المتحدة وعلى إفريقيا تحت الصحراء، كنموذجين متقابلين للعالمين المتقدم والنامي.

وأول ما أشارت إليه نتائجهم كان المُمْرِضات المستجدة، مشيرا إلى خطرها الدائم، في الفترة المشار إليها، على البشر والحيوان والنبات، موضحا أن هذا سيواكب استمرار المعاناة من أمراض معدية قديمة. وقال التقرير إن اكتساب هذه المُمْرِضات لقدرة مقاومة عالية يهدد قدرتنا على العلاج وعلى الحؤول دون تفشي الأوبئة. وأوضح التقرير أن معظم الأمراض المعدية التي ظهرت في ربع القرن السابق على ظهور التقرير هي أمراض حيوانية المنشأ. ولايبدو -قال التقرير- أن الأمراض المنقولة عن الحيوانات في سبيلها إلى التلاشي بل هي مرشحة لأن يتصاعد خطرها.

فيروس كورونا سيد الخداع

تسبب فيروس بسيط في توقف الحياة التي نعرفها ، كأعجوبة مثيرة ومذهلة للعالم الذي سبق له ان واجه تهديدات فيروسية من قبل، بما في ذلك الأوبئة، لكن العالم لم يتوقف مع كل عدوى جديدة أو موسم إنفلونزا. بهذه الحدة والكآبة والأثار الإقتصادية والإجتماعية السلبية المدمرة لمعيشة الملايين حول العالم مثلما حدث مع "كورونا" .

إذن ما الذي يجعل هذا الفيروس مختلفا مخادعا يتقمص اكثر من وجه وجينا مؤثرا يختلف باختلاف المنطقة ؟! وما هي الطبيعة الفريدة المراوغة في تركيبته البيولوجية التي تجعله يشكل تهديدا فريدا لأجسامنا وحياتنا ؟

مخادع شرس ومدمر:

ففي المراحل المبكرة من الإصابة يكون الفيروس قادرا على خداع الجسم ، إذ يمكن أن ينتشر فيروس كورونا في الرئتين والممرات الهوائية، ومع ذلك يعتقد جهاز المناعة لدينا أن كل شيء على ما يرام.

ويقول البروفيسور بول لينر من جامعة كامبريدج ، ان هذا الفيروس مذهل، فهو يسمح بأن يكون لديك مصنع فيروسي في أنفك ومع ذلك تشعر بأنك على خير ما يرام»

فخلايا الجسم البشري عندما يغزو الفيروس عضوا معينا فيها تبدأ بإطلاق مواد كيميائية تسمى الإنترفيرون، ويعد ذلك إشارة تحذير لبقية الجسم وجهاز المناعة.

ويقول البروفيسور لينر إن فيروس كورونا لديه "قدرة مذهلة" على إيقاف هذا التحذير الكيميائي، ويضيف قائلا: "إنه يفعل ذلك بشكل جيد لدرجة أنك لا تعرف حتى أنك مريض".

ويقول إنه عندما تنظر إلى الخلايا المصابة في المختبر لا يمكنك معرفة أنها مصابة، ومع ذلك تظهر الاختبارات أنها "مشبعة بالفيروس" وهذه مجرد واحدة من "بطاقات الجوكر" التي يمكن للفيروس أن يلعب بها.

يضرب ويهرب

من المذهل حقا أن تبدأ كمية الفيروس في أجسامنا

فحص كورونا

في الوصول إلى الذروة في اليوم السابق لبدء المرض. لكن الأمر يستغرق أسبوعا على الأقل قبل أن يتطور كوفيد إلى النقطة التي يحتاج فيها الناس إلى العلاج في المستشفى.

ويصف علماء فيروسات هذا بأنه تكتيك رائع حقا في التطور لذلك فإن الفيروس مثل سائق خطير يفر من مكان الحادثة بعد ارتكابها ، لقد انتقل الفيروس إلى الضحية التالية قبل فترة طويلة من تعافينا أو موتنا. وبعبارات صارخة "الفيروس لا يهتم" بالمصير الذي تلقاه، لذلك اجمع العلماء على حقيقة مؤلمة هي ان "هذا فيروس يضرب ويهرب".

وتأكيدا على نظرية المؤامرة والمناورة وتعدد الأوجه والأقنعة التي يرتديها كوفيد 19 ، توصل العلماء الى ان هناك 4 أنواع من فيروسات كورونا تصيب البشر وتسبب أعراض نزلات البرد. وتقول البروفيسور تريسي هاسيل من جامعة مانشستر: "هذا نوع جديدمن اوبئة العصر الحديث، لا نعتقد أن هناك الكثير من الحصانة المسبقة ضده".

لذلك فإن حداثة سارس-كوف2-، الاسم الرسمي لكوفيد 19، يمكن أن تمثل "صدمة كبيرة لجهاز المناعة البشري".

وهذا النقص في الحصانة المسبقة يمكن مقارنته عندما أخذ الأوروبيون معهم الجدري إلى العالم الجديد، مع ما أحدثه ذلك من عواقب مميتة.

ويعد بناء دفاع مناعي من نقطة الصفر مشكلة حقيقية لكبار السن لأن جهاز المناعة لديهم اصبح بطيء .

ويتضمن تعلم محاربة عدوى جديدة الكثير من التجربة والخطأ من جهاز المناعة.

ولكن مع التقدم في السن ننتج مجموعة أقل تنوعا من الخلايا التائية، وهي مكون أساسي في الجهاز المناعي، لذلك يصعب العثور على تلك التي يمكنها الدفاع ضد فيروس كورونا.

يقتل خلايا الرئة:

يبدأ كوفيد 19 كمرض رئوي مع أنه يحدث أشياء غريبة وغير عادية ويمكن أن يؤثر على الجسم كله وفق تأكيدات علمية قادها البروفيسور ماورو غياكا، من مستشفى كينجز كوليدج في العاصمة البريطانية لندن، إن العديد من مظاهر مرض كوفيد "فريدة" بالنسبة للمرض، بل في الواقع إنه "يختلف عن أي مرض فيروسي شائع آخر".

فالفيروس الماكر كوفيد 19 يفعل أكثر من مجرد قتل خلايا الرئة فهو يفسدها أيضا، فقد شوهدت الخلايا تندمج معا في خلايا ضخمة ومعطلة تسمى سينثيا، ويبدو أنها تبقى.

ويقول البروفيسور غياكا إنه يمكن أن يكون لديك "تجديد كامل" للرئتين بعد الأنفلونزا الحادة، لكن "ذلك لا يحدث" مع كوفيد.

ومع كورونا يحدث تجلط الدم أيضا بشكل غريب، مع قصص الأطباء غير القادرين على إدخال أنبوب في المريض لأن الدم المتجلط يمنع ذلك على الفور.

فالمواد الكيميائية المتجلطة في الدم "أعلى بنسبة 200 في المئة و 300 في المئة و 400 في المئة" عن المعتاد لدى بعض مرضى كوفيد.

مما اذهل الكثير من الأطباء حول العالم نتيجة انه وطوال مسيرتهم المهنية الطويلة للغاية لم يكن هناك مرضى بمثل هذا الدم اللزج .

ويمكن أن تكون هذه التأثيرات على الجسم كله بسبب المدخل المسامي الذي يتجول فيه الفيروس ليصيب خلايا البشر ، و يسمى مستقبل إيه سي إي 2، ويوجد في جميع أنحاء الجسم بما في ذلك الأوعية الدموية والكبد والكليتين وكذلك الرئتين.

ويمكن للفيروس أن يسبب التهابا سريعا في بعض المرضى مما يجعل جهاز المناعة يعمل بشكل مفرط، مع عواقب وخيمة على بقية الجسم.

البدانة خطر قاتل مع كوفيد 19

من مخاطر سيد ألأوبئة " كوفيد 19 " انه يكون اكثر شراسة وأسوأ تأثيرا إذا كان الشخص يعاني من السمنة، لأن البدانة تزيد من احتمالات الحاجة إلى العناية المركزة أو التعرض للوفاة عند الإصابة بالفيروس.

ويبدي العلماء تعجبا امام الأثار السلبية السيئة للفيروس المتحد مع السمنة فوفقا للبروفيسور السير ستيفن أورايلي، من جامعة كامبريدج ارتباطه القوي بالسمنة شيء لم نشهده مع الإصابات الفيروسية الأخرى، فمع إصابات الرئة الأخرى غالبا ما يكون البدناء في حال أفضل وليس أسوأ".

الأثار المعقدة للبدناء مع هذا الوباء تحديدا يؤكد ان الأمر خاصا جدا بكوفيد، ومن المحتمل أن يحدث في الإنفلونزا الوبائية، ولكن ليس الأنفلونزا العادية .

وتتسبب الدهون المتراكمة في جميع أنحاء الجسم بتأثيرات سلبية معقدة في أعضاء مثل الكبد، في اضطراب التمثيل الغذائي الذي يبدو أنه يتحد بشكل سيء مع فيروس كورونا.

لذلك دائما من المرجح أن يكون لدى مرضى السمنة مستويات أعلى من الالتهابات في الجسم ومن البروتينات والتي يمكن أن تؤدي إلى التجلط.

كيف يعمل جهاز المناعة لدى الشخص المسن؟

عندما تكون مصابا بمسبب مرض، تبدأ الطبقة الأولى من الجهاز المناعي، وهي الاستجابة المناعية الفطرية، في مهاجمة مسبب المرض في موقع الإصابة، وبالنسبة لأمراض الجهاز التنفسي، يمكن أن يكون ذلك الموقع هو الرئتين أو القصبة الهوائية أو الأنف، وتهاجم خلايا الدم البيضاء، أو الخلايا البلعمية «الأكولة»، مسبب المرض، وتبتلعه قبل تدميره والقضاء عليه.

وبينما تقوم الخلايا البلعمية بتفكيك مسبب المرض داخلها، تحيل أجزاء وقطعا منه إلى نوع آخر من الخلايا المناعية المعروفة باسم الخلايا «تي T".

وتعد هذه الخلايا بمثابة "ذاكرة" للجهاز المناعي، فهي لا يمكن أن ترى مسبب المرض من تلقاء نفسها وتحتاج إلى خلايا بلعمية معينة تدعى خلايا التقديم المولدة للمضادات، لتبين لها مسبب المرض، وهذه العملية تقوم بتنشيط الطبقة التالية، نظام المناعة التكيفية.

وتوجد عدة أنواع من الخلايا "تي"، مثل خلايا "تي" القاتلة، أو السامة للخلايا، التي تهاجم خلايا أجسامنا من أجل القضاء على تلك الخلايا المصابة بالفعل من قبل مسبب المرض، والحد من انتشاره. وتقدم خلايا "تي" المساعدة دعما للخلايا "بي B"، وهي جزء آخر من الجهاز المناعي التكيفي.

ويمكن للخلايا "بي B" رؤية مسبب المرض من تلقاء نفسها، لكنها تحتاج، من أجل أداء وظيفتها على الوجه الأمثل، إلى خلايا "تي" المساعدة، وتنتج خلايا "بي" أجساما مضادة، ولكن لإنتاج الأجسام المضادة الأكثر فعالية، فإنها تحتاج إلى هذا التفاعل المعقد مع خلايا "تي".

ويهدف التطعيم إلى تحفيز أجهزة المناعة لدينا لإنتاج أجسام مضادة فعّالة قبل أن نتعرض لمسبب المرض.

وكانت أخبار كثيرة قد تحدثت عن اختبارات الأجسام المضادة كوسيلة للتحقق من إصابة الأشخاص بفيروس كورونا، وعلى الرغم من ذلك ليست جميع الأجسام المضادة فعّالة، وليس كل من أصيب بالسارس-كوف2-، الفيروس الذي يسبب كوفيد19-، لديه أجسام مضادة، فبعض الأجسام المضادة لها عمر محدود.

وتتمثل القضية بالنسبة لعلماء اللقاحات في أن التوازن الدقيق بين جميع هذه الخلايا عند كبار السن يصبح معطلا، فماذا يحدث إذن في جهاز المناعة لدى الشخص المسن؟

حسب رؤية علمية للباحثة بيرغيت واينبرغر، من جامعة إنسبروك، التي تدرس المناعة ولقاحات كبار السن: كل أنواع الخلايا هذه ضعيفة في وظيفتها أصلا، إنها تنتج مجموعة مختلفة من السيتوكينات

(البروتينات التي تساعد في التواصل بين الخلايا المناعية)، فالقضية الهامة التي يجب على المرء أن يضعها في اعتباره هي أنه لا يوجد نوع واحد من الخلايا يعمل من تلقاء نفسه".

ففي حالة ضعف الخلايا البلعمية في تقديم مولد أجسام مضادة في سن الشيخوخة، فقد يؤدي هذا إلى تراجع تنشيط خلية "تي"، ومساعدة أقل للخلايا "بي" واستجابة أقل لذلك على الإنسان أن يضع في اعتباره كيف تعمل جميع تلك الأجزاء المختلفة من الجهاز المناعي معا بانسجام".

فالثابت علميا انه يوجد لدى جهازنا المناعي التكيفي عدد محدود من الخلايا "بي" والخلايا "تي"، ونفقد بعضها بمرور الوقت، ويمكن لذلك أن يخلق مشاكل في وقت لاحق من الحياة.

فعندما نواجه مسببات أمراض جديدة، تصبح قدرتنا على الاستجابة محدودة أكثر بكثير".

وقد لا تؤثر الحساسية المناعية على جميع الأشخاص بشكل متساو، فكما هو الحال بالنسبة لأجزاء الجسم الأخرى، بعض الناس يشيخون بوتيرة أبطأ من غيرهم، إما من خلال العناية بأنفسهم أو كونهم محظوظين بما فيه الكفاية في أن لديهم بنية وراثية سليمة، لكن ليس كل ما تقدم يعد أخبارا سيئة. فبعض أجزاء جهاز المناعة لدينا تتحسن مع التقدم في السن أيضا.

ومن عجائب الجهاز المناعي البشري ان هناك بعض الخلايا في جهاز المناعة تصبح أكثر نشاطا مع تقدم الإنسان في العمر. إذا كنا قد تعرضنا لمجموعة واسعة من مسببات الأمراض، يكون لدينا ذاكرة مناعية ضدها، لذا نحن لسنا كبشر بحاجة إلى ترسانة من الخلايا للرد على مولدات مضادات جديدة".

بيد أن مرض سارس-كوف2- هو فيروس واحد لم نتعرض له قط، لذلك ليس لدينا تلك الذاكرة.

هذا هو التوازن الذي يحققه جهاز المناعة لدينا: فكبار السن لديهم ذاكرة مناعية أفضل للأشياء التي تعرضوا لها بالفعل، ولكن لديهم ذخيرة أكثر محدودية للاستجابة للأمراض الجديدة.

ولكن مع اتصال البشر بالمزيد من مسببات الأمراض التي تتكيف لتعيش وتنمو في النوع الآخر الذي تنتقل إليه (ما يسمى الأمراض الحيوانية المنشأ) في كثير من الأحيان، فإن قدرتنا على التعامل مع مرض جديد قد تكون أكثر أهمية.

15 جين «مخفي» في فيروس كورونا

من أخطر ما تم التوصل إليه هو إكتشاف الباحثين من المتحف الأميركي للتاريخ الطبيعي جيناً «مخفياً» في فيروس كورونا المستجد، المسبب لمرض «كوفيد – 19» .

والمعروف هو احتواء الفيروس على نحو 15 جيناً فقط في المجموع ؛ لذلك فإن معرفة المزيد عن هذا الجين والجينات المتداخلة الأخرى، أو «الجينات داخل الجينات»، يمكن أن يكون له تأثير كبير على كيفية مكافحة الفيروس.

وقد تكون الجينات المتداخلة إحدى الترسانات التي تطورت من خلالها فيروسات كورونا لتتضاعف بكفاءة، أو تحبط مناعة المضيف، ومعرفة أن الجينات

المتداخلة موجودة وكيف تعمل قد يكشف عن طرق جديدة للسيطرة على فيروس كورونا، على سبيل المثال من خلال الأدوية المضادة للفيروسات.

وحددت فرق البحث العلمية الجين المتداخل (ORF3d) ووجدوا أن لديه القدرة على ترميز بروتين أطول من المتوقع، كما اكتشفوا وجوده أيضاً في فيروس كورونا البنغول الذي تم اكتشافه سابقاً، وأظهروا أنه يثير استجابة قوية للأجسام المضادة في مرضى «كوفيد – 19»؛ مما يدل على أن بروتين هذا الجين الجديد يتم تصنيعه أثناء العدوى البشرية.

وترجع قيمة الاكتشافات المستمرة والمتوالية لجينات فيروس كورونا إلى ان طبيعة الجينات في مثل هذه الفيروسات، تبدو مثل لغة مكتوبة من حيث إنها تتكون من سلاسل من الحروف التي تنقل المعلومات، لكن في حين أن وحدات اللغة (الكلمات) منفصلة وغير متداخلة، فيمكن أن تكون الجينات متداخلة ومتعددة الوظائف، مع نقل المعلومات بشكل مشفر اعتماداً على المكان الذي تبدأ فيه القراءة .

ومن المثير في تعقب جينات الفيروس علميا انه يصعب تحديد الجينات المتداخلة، ومعظم برامج الكمبيوتر العلمية ليست مصممة للعثور عليها، ومع ذلك فهي شائعة في الفيروسات، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن فيروسات الحمض النووي الريبي لديها معدل طفرات مرتفع؛ لذلك تميل إلى إبقاء عدد جيناتها منخفضاً لمنع عدد كبير من الطفرات .

ونتيجة لذلك؛ طورت الفيروسات نوعاً من نظام ضغط البيانات، حيث يمكن لحرف واحد في جينومه أن يساهم في اثنين أو حتى ثلاثة جينات مختلفة، ويعرضنا فقدان المعرفة عن الجينات المتداخلة إلى خطر إغفال جوانب مهمة من البيولوجيا الفيروسية .

تعدد الجينات واختلافها يفسر تفاوت الإصابات وحدتها بين مختلف المناطق حول العالم فيكشف بحثٌ علمي أن الأشخاص الذين يمتلكون طفرةً جينيةً تزيد من احتمالات إصابتهم بالخرف، لديهم أيضاً فرصٌ أعلى للمعاناة من حالاتٍ متقدمةٍ من فيروس كورونا المُستجد، ويُضاف هذا البحث إلى عدد من البحوث والدراسات الأخرى التي تهدف إلى فهم الطبيعة الغامضة للفيروس، وكيف تختلف قوته من جسد لآخر.

كما اظهرت دراسة بيانات 500 ألف شخص أن للجينات دوراً في كون بعض الناس عرضةً لفيروس كورونا أكثر من غيرهم، ويُمكنها أن تساعد في تفسير التأثر الشديد بالفيروس لدى المصابين بالخرف، حيث كان الخرف من بين أكثر الأمراض المصاحبة شيوعاً بين أولئك الذين ماتوا بسبب كورونا في إنجلترا وويلز.

ديفيد ميلزر، أستاذ علم الأوبئة والصحة العامة في جامعة إكستر توصل الى ان إن الأمر «لا يتعلق بالسن فقط: هذا مثالٌ على تنوع جيني معينٍ يُسبب قابليةً للإصابة عند البعض

وتوصل الباحثون علميا ان الفيروس التاجي يحتوي على جينٍ يُسمى ApoE، يعمل على تصنيع البروتينات التي تحمل الدهون في الجسم، ويُمكن أن يوجد في عدة صورٍ، إحداها تُسمى «e4» ومعروفةٌ بتأثيرها على مستويات الكوليسترول والعمليات المرتبطة بالالتهابات، بالإضافة إلى زيادة خطر الإصابة بأمراض القلب والخرف.

تنوع الجينات وتحور الفيروس ودرجات الفتك والشراسة فكت شيفرة غموض اختلاف أعراض كورونا من دولة الى أخرى؟ فحوالي 80% من حالات الإصابة بفيروس كورونا المستجد تمر بسلام وبأعراض طفيفة إلى متوسطة، وهناك حالات إصابة لم يشعر أصحابها بأي شيء على الإطلاق.

لكن النسبة المتبقية من الحالات تعاني من أعراض خطيرة يمكنها أن تنتهي بفشل الأعضاء كالقلب أو الرئتين أو الكليتين، ثم الى الوفاة، والفيروس قد يهاجم أيضاً الأطراف والدماغ والأنف والحلق والأمعاء.

أما الحالات الأكثر شيوعاً هي الالتهاب الرئوي الحاد، بينما في إسبانيا سجلت نسبة كبيرة من أعراض تلف في الجهاز العصبي، ويحتاج المرضى عادة إلى 4 أسابيع على الأقل للتعافي، أما الأمراض والأعراض الطويلة المدى أو المستديمة الناجمة عن المرض فلا يزال الأطباء متحفظين عن ذكر تفاصيله، لأن الدراسات السريرية حول ذلك لا يمكن الانتهاء منها بعد بسبب المدة القصيرة نسبياً من تاريخ نشأة الفيروس.

12 محطة في مسار الوباء

كشفت دراسة علمية حديثة، أن فيروس كورونا المستجد، الذي ظهر للمرة الأولى في مدينة ووهان الصينية العام الماضي، تحوّر «بشكل خطير» ليتحول إلى الشكل الذي يضرب أوروبا والولايات المتحدة بقوة حالياً.

وأوردت الدراسة التي أعدت بالتعاون بين جامعة نورث كارولينا الأميركية ومعهد العلوم الطبية في جامعة طوكيو، أن الفيروس الذي اجتاح أوروبا والولايات المتحدة الآن «أكثر عدوى بكثير» من سلالة ووهان التي يسميها العلماء السلالة الأصلية .

ووفقا للدراسة، فإن الفيروس المتطور ينتشر 10 مرات أسرع من ذلك الذي عرفته مدينة «ووهان».

وحسب نتائج الدراسة فإن «البروتين الموجود على سطح الفيروس الذي يمنحه القدرة على التشبث بخلايا الضحايا تغيّر كثيراً ، ما عزز إمكانات الكائن المجهري في إصابة عدد أكبر من البشر، ووسع دائرة انتشاره بشكل ملحوظ.

والبروتين المقصود هو الذي يظهر على شكل نتوءات في الصور المجهرية لفيروس كورونا، ويمنحه شكله التاجي المميز.

إلا أن الباحثين لم يتمكنوا حتى الآن من فهم تأثير الطفرة على خصائص الفيروس.

وأوردت الدراسة أن النسخة المعدلة من الفيروس تنتشر منذ مارس الماضي، ورصدت للمرة الأولى في اليابان، علما أن الطفرات تعد من السمات المميزة للفيروسات بشكل عام وهذه الطفرة رفعت قدرة الفيروس على الانتشار بشكل كبير .

هذه الطفرة والتحور المذهل للفيروس قد تفسر سبب خروج انتشار الفيروس عن السيطرة» في الولايات المتحدة وأوروبا، بعكس الصين التي تعافت منه بشكل شبه تام ونجحت في السيطرة عليه رغم التعداد السكاني الهائل .

وفي سويسرا، أكد تقرير لمركز «credit suisse»، أن الطريقة، التي اعتمدت لإنتاج لقاح «سبوتنيك في» الروسي، تزيد من فعاليته وتضمن قدرته على تجاوز

المشكلات المرتبطة بالمناعة.

بيد أن الاختلاف الرئيسي الذي يميز «سبوتنيك في» عن نظائره، هو الاعتماد على ناقلتين مختلفتين للفيروس الغدي للجرعة الأولى (rAd5) والثانية (rAd26) من اللقاح، ما يسمح بالتغلب على المشاكل المحتملة التي قد تكون في الجهاز المناعي.

ورافق عملية التحور والمناورات الجينية 12 محطة مفصلية أساسية في مسار وباء كوفيد- 19 عالمياً، منذ ظهوره كمرض كان مجهولاً في الصين أواخر عام 2019، إلى بارقة الأمل الأولى التي جاءت مع تطوير لقاحات فعالة بعد ذلك بنحو العام:

- 31 ديسمبر 2019، اليوم الذي أبلغت فيه منظمة الصحة العالمية عن إصابات مقلقة بالتهاب رئوي "أسبابه مجهولة" في مدينة ووهان الصينية. وتعود أول إصابة تحدثت عنها منظمة الصحة العالمية في رسائلها اللاحقة إلى 8 ديسمبر 2019.

- 7 يناير 2020، عرف السبب: إنه فيروس من عائلة فيروسات كورونا. وبعد أربعة أيام من ذلك، أعلنت الصين عن أول وفاة رسمية في المرض الذي سوف يسمّى لاحقاً كوفيد- 19.

- في 23 يناير، قطعت ووهان عن العالم في محاولة لاحتواء الوباء. وبدأت الدول بترحيل سكانها من الصين.

- في 15فبراير سجلت أولى وفاة رسمية بالمرض خارج الصين ، وهي لسائح الصيني كان في مستشفى في فرنسا.

- في 6 مارس، تخطى عدد الإصابات في العالم المئة ألف حالة. وفرضت إيطاليا، أول بلد أوروبي ظهر فيه الوباء، عزلاً على شمال البلاد، امتد لاحقاً إلى كل أراضيها.

- في 11 مـارس، صنفت منظمة الصحة العالمية كوفيد- 19 وباء. تراجعت البورصات إثر ذلك وبدأت الحكومات والمصارف المركزية بالإعلان عن أولى التدابير الهائلة لدعم الاقتصاد.

- في 16 مارس، دعت ألمانيا سكانها إلى "البقاء في البيوت"، فيما حضت المملكة المتحدة سكانها على تفادي أي "تواصل اجتماعي". بدأت فرنسا الإغلاق في 17 مارس، فيما أغلق الاتحاد الأوروبي حدوده الخارجية.

- في 24 مارس، أرجئت ألعاب طوكيو الأولمبية التي كانت مقررة في يوليو 2020 إلى العام المقبل. حذرت منظمة الصحة العالمية غداة ذلك من وباء يشكّل "تهديداً على الإنسانية جمعاء".

- في 2 ابريل، اتخذت تدابير إغلاق في كل أنحاء العالم. كان 3,9 مليار شخص، أي نصف عدد سكان الأرض، مدعوون للبقاء في بيوتهم أو مرغمين على ذلك، بحسب تعداد لفرانس برس. وتخطى عدد الإصابات المليون.

- في 29 ابريل، سرحت شركة تصنيع الطيارات الأميركية بوينغ 16 ألف موظف. قطاعات أخرى عديدة أعلنت عن تسريح عدد كبير من موظفيها، من النقل الجوي، إلى قطاع تصنيع السيارات والسياحة وتجارة التجزئة.

- في 5 يونيو، توصّلت دراسة بريطانية مع ذلك إلى أن عقار هيدروكسي كلوروكين الذي روج له البروفيسور الفرنسي ديدييه راوول ودعمه الرئيس الأميركي دونالد ترامب، صنف أخيراً بأنه غير فعال بحسب دراسة دولية نشرت في 22 مايو.إلا أن الدراسة سحبت بعدما أظهرت هفوات.

- في 7 يونيو، تخطى عدد وفيات الوباء 400 ألف وبدأ المرض التفشي سريعاً في أميركا اللاتينية. أصبحت البرازيل ثاني أكثر دولة تسجل عدد وفيات بعد الولايات المتحدة، فيما كان رئيسها جايير بولسونارو يواصل التقليل من أهمية المرض معتبراً أنه مجرد "نزلة برد". وأصيب هو بنفسه بفيروس كورونا المستجد، كما نظيره الأميركي ورئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون.

- في 28 سبتمبر تخطى عدد الوفيات المليون في العالم.

- في الأول من أكتوبر في أوروبا، عاود عدد الإصابات الارتفاع . فرضت دول أوروبية عديدة من جديدة إغلاقاً وحظر تجول. فيما تواجه الولايات المتحدة حيث اتخذت مكافحة الوباء طابعاً سياسياً في خضم حملة الانتخابات الرئاسية، أيضاً تسارعاً جديداً لتفشي الوباء.

- في 9 نوفمبر، أعلنت شركة فايزر الأميركية العملاقة المتحالفة مع مختبر بيونتيك الألماني عن نتائج إيجابية للقاحها في وقت تخطى فيه عدد الإصابات الرسمية في العالم 50 مليوناً. في إعلان مماثل خرج لاحقاً عن شركة «موديرنا» الأميركية للتكنولوجيا الحيوية. بينما أمل الولايات المتحدة بدء حملة تلقيح السكان أواخر العام، وأوروبا مطلع عام 2021.

الصُلْعان.. أكثر عُرضة للإصابة بـ«كورونا»

أظهرت نتائج دراسة بحثية علمية حديثة أن الشخص الأصلع لديه عوامل بيولوجية تجعله أكثر عرضة لالتقاط تلك العدوى الفيروسية والإصابة بمرض «كوفيد – 19» مقارنة بنظيره غير الأصلع.

الدراسة أجراها باحثون في كلية الطب التابعة للجامعة الوطنية الأسترالية «ANU» تحت إشراف خبير الأمراض المُعدية البروفيسور سانجايا سيناناياكي، والذي قال إن «كلمة السر تكمن ببساطة في هورمون التِستوستيرون الذكوري الذي يسهم في ارتفاع مستوى إفراز الجسم له في الإصابة بالصَّلَع»، موضحاً أن «التِستوستيرون يؤدي إلى إنتاج هورمون ذكورة ثانوي آخر هو دايهَيدروتِستوستيرون (اختصاراً: DHT) ويُعرف باسم آخر هو إندروجين».

وأضاف: «ما يعزز هذه النتيجة التي خلصنا إليها، أن دراسات أخرى سابقة أجريت في إسبانيا أظهرت أن مرض (كوفيد – 19) أكثر انتشاراً بين الرجال الصلعان، علاوة على أن أعراض المرض لديهم تكون أشد وطأة مقارنة بنظرائهم غير الصلعان.

كما أظهرت نتائج دراسة أخرى أجريت في إيطاليا أن المرضى الذين يتعاطون عقاقير كابحة لإفراز هورمون التِستوستيرون هم أقل عرضة للإصابة بمرض (كوفيد – 19)، وهذا يعزز فرضية أن مستوى احتمال الإصابة بفيروس كورونا يتحرك صعوداً

وفقاً للعلماء..الكمامات الأكثر فاعلية ضد كورونا

وهبوطاً مع مستوى ذلك الهورمون ومنتجاته الثانوية في الجسم».

وعن التفسير العلمي لذلك الارتباط، قال البروفيسور سيناناياكي: «الواقع أن هناك أساساً بيولوجياً يتمثل ببساطة في أن الشخص الأصلع تكون لديه مستويات مرتفعة من هورمون دايهَيدروتِستوستيرون الذي اتضح لنا أنه يُسهم في تسهيل مهمة اختراق وغزو فيروس كورونا المستجد لخلايا الشخص المصاب بمرض (كوفيد – 19)».

أدوية المفاصل تنقذ حياة مرضى

استخدم أطباء في فرنسا ودول أخرى في العالم دواء شائعا يوصف عادة لعلاج التهاب المفاصل الروماتويدي، إلا أنه أثبت فعاليته ضد كوفيد – 19، ولكن الأطباء يقولون إنهم لا يزالون في حاجة للكثير من الاختبارات والتجارب للتأكد من مدى نجاعته لعلاج مرضى فايروس كورونا.

وذكرت صحيفة "ديلي ميل" البريطانية (23 نوفمبر) أنه تمّ اكتشاف فعالية دواء التهاب المفاصل في خفض الوفيات بين مرضى كوفيد – 19 الذين يدخلون المستشفى بنسبة ملحوظة تصل إلى مقدار الثلثين.

واختبرت شركة «بينيفولينت أي.آي» ومقرها لندن، الآلاف من الأدوية الموجودة التي يحتمل أن تساعد في علاج مرضى كوفيد – 19.

وتوقع برنامج للذكاء الصناعي للشركة أن عقار "باريسيتينيب" قادر على منع الفايروس من إصابة خلايا الرئة.

وتعمل حاليا مجموعة من الخبراء والباحثين من «معهد كارولينسكا» السويدي على التحقق من مدى صحة هذا التوقع وإن كان عقار "باريسيتينيب" قادرا بالفعل على المساعدة في علاج الحالات الصعبة لمرضى كورونا.

ويقول الباحثون إنّ "حبوب 'باريسيتينيب' التي يتم تسويقها تحت الاسم التجاري 'أوليومينت' وتؤخذ بشكل يومي لعلاج التهاب المفاصل، تقلل الوفيات بنسبة 71 في المئة لدى المصابين بكوفيد – 19 الذين يعانون من عوارض متوسطة أو شديدة".

أمّا الأهم من ذلك بحسب الصحيفة، فهو أنّ هذا العقار "فعال في استخدامه لعلاج كبار السن من كوفيد – 19، مما يرفع الآمال في إنقاذ أرواح الفئات الأكثر ضعفاً".

كمامات بريطانية تقضي على كورونا

أصبحت كمامات الوجه من الضروريات للسيطرة على انتشار مرض كوفيد – 19، ومع تزايد أهمية استخدام الكمامات في المستقبل المنظور، طوّر عالم من جامعة نوتنغهام ترنت في المملكة المتحدة، قناعا جديدا للوجه قادرا على قتل عدة أنواع من الفايروسات بما في ذلك فايروس الأنفلونزا وكوفيد – 19، وسيكون هذا القناع متاحا في الأسواق اعتبارا من شهر ديسمبر 2020، بحسب صحف بريطانية.

وبينما تتميز معظم كمامات الوجه التقليدية بتصميم ثلاثي الطبقات، فإن القناع الذي صممه الدكتور «جاريث كيف» يتميز بخمس طبقات، واحدة منها مضادة للفايروسات ومصنوعة من مركبات النحاس النانوي.

ويحتوي النحاس على أيونات تنبعث بمجرد ملامسة الفايروس للقناع، مما يتسبب في موته وتوقفه عن التكاثر بشكل نهائي.

وقال "كيف": لقد ثبت أن القناع الذي طورناه يعطل الفايروسات عند ملامستها له، فيما تقوم الطبقة المضادة للفايروسات والمصنوعة من النحاس النانوي بالقضاء نهائيا عليها".

وأضاف "الأقنعة الجراحية التقليدية يمكن أن تمنع فقط الفايروس من دخول القناع أو الخروج منه، لكن لا تحتوي على آلية نشطة لقتله بمجرد احتجازه، أما قناعنا الجديد فهو يتميز بتقنية الحاجز المدمجة مع تقنية النانو وهذا ما يمنحه القدرة على القضاء على الفايروس بمجرد احتجازه هناك".

وتابع "كيف" موضحا "لقد أضفنا طبقة الحاجز إلى جانبي القناع، وهذه الخاصية تجعله لا يحمي من يرتديه فحسب، بل يوفر أيضا الحماية للأشخاص من حوله عبر قتل الفايروس عندما يلامسه، وهذا يعني أيضا أنه بالإمكان التخلص من القناع المستخدم بأمان ولن يكون مصدرا محتملا لنشر العدوى بالفايروس".

وتبين من خلال الاختبارات التي أجريت على القناع الجديد أنه قادر على قتل نحو 90 في المئة من الفايروسات مثل كورونا والأنفلونزا على مدار سبع ساعات، أما كفاءته في القضاء على الفايروسات فتصل إلى نحو 99.98 في المئة.

ومن المتوقع أن يدخل مثل هذا النوع من الأقنعة حيز الإنتاج خلال ديسمبر، وستكون متاحة في مؤسسات الرعاية الصحية ووسائل النقل ومنافذ بيع الأغذية والمطاعم.

وعلى الرغم من أن الباحثين لم يحددوا صراحة تكلفة هذا النوع من الأقنعة المضادة للفايروسات، إلا أنهم يقولون إن أسعارها لن تختلف كثيرا عن أسعار الأقنعة التقليدية المتوفرة حاليا.

وعبر الدكتور كيف عن تفاؤله بالقناع الجديد قائلا "من المثير أن نرى تقنيتنا تتقدم إلى الأمام وتحدث تأثيرا حقيقيا في مكافحة انتشار كوفيد – 19".

الصين تبرئ نفسها: «كورونا» هندي!!

وجه باحثون صينيون أصابع الاتهام إلى الهند، كمنشأ أصلي لفيروس كورونا، وهو ما وصفته صحيفة «ديلي ميل» البريطانية، بأنه محاولة من الأكاديميين لإلقاء اللوم بشأن الوباء خارج حدودهم.

وبحسب الصحيفة البريطانية (28 نوفمبر 2020)، فإن فريقاً من الأكاديمية الصينية للعلوم، قال إن الفيروس نشأ على الأرجح في الهند في صيف 2019، حيث انتقل من الحيوانات إلى البشر عبر المياه الملوثة، قبل أن ينتقل دون أن يلاحظه أحد إلى مدينة ووهان، التي تم اكتشافه فيها للمرة الأولى.

وفي ورقتهم البحثية، استخدم الفريق الصيني تحليل علم الوراثة، من خلال دراسة حول كيفية تحور الفيروس، لمحاولة تتبع أصوله، حيث أن الفيروسات تتطور، مثلها مثل جميع الخلايا، أثناء تكاثرها، ما يعني حدوث تغييرات طفيفة في حمضها النووي في كل مرة تقوم فيها بتكرار نفسها. وقال العلماء إنه ينبغي – بالتالي – أن يكون من الممكن تعقب أصل الفيروس، من خلال العثور على عينة بها أقل طفرات، حيث يرون أن استخدام هذه الطريقة يستبعد الفيروس الموجود في ووهان باعتباره الفيروس الأصلي، وبدلاً من ذلك يشير إلى ثمان دول أخرى، وهي بنغلاديش والولايات المتحدة واليونان وأستراليا والهند وإيطاليا والتشيك، وروسيا أو صربيا. منشأ الفيروس وأضاف الباحثون أنه نظراً لأن الهند وبنغلاديش سجلتا عينات ذات طفرات منخفضة وجيران جغرافيين، فإنه من المحتمل أن يكون أول انتقال قد حدث هناك.

ومن خلال تقدير مقدار الوقت الذي يستغرقه الفيروس للتحور مرة واحـدة، ومقارنته بالعينات المأخوذة هناك، يفترضون أيضًا أن الفيروس ظهر لأول مرة هناك في يوليو أو أغسطس 2019.

وأوضح العلماء، أنه خلال الفترة من مايو إلى يونيو 2019، اندلعت ثاني أطول موجة حرارة مسجلة في شمال وسط الهند وباكستان، مما تسبب في أزمة مياه خطيرة، أدت إلى جعل الحيوانات البرية مثل القرود، تنخرط في معركة مميتة على المياه فيما بينها، وكان من المؤكد أنها ستزيد من فرصة التفاعلات بين الإنسان والحيوان البري.

ويجادل الباحثون كذلك بأن نظام الرعاية الصحية الضعيف في الهند، سمح للفيروس بالانتشار دون أن يتم اكتشافه لعدة أشهر. وتبحث منظمة الصحة العالمية حاليًا عن مصدر فيروس كورونا في الصين، بينما تشير مجموعة الأدلة العلمية إلى أن المرض نشأ هناك.

منظمة الصحة ترسم خريطة 4 «فيروسات» جديدة

أعلنت منظمة الصحة العالمية، أن النسخة المتحورة

من فيروس كورونا المستجد التي ظهرت لأول مرة في بريطانيا، رصدت حتى تاريخ 20 من يناير 2021 في 60 دولة على الأقل.

وأفادت المنظمة إن النسخة المتحورة الثانية التي ظهرت للمرة الأولى في جنوب إفريقيا ويعتقد أنها أكثر عدوى من النسخة البريطانية، رصدت هي الأخرى في 23 دولة ومنطقة، بزيادة 3 عن العدد الذي سجل في 12 يناير.

والسلالة الأفريقية من أشرس السلالات المتحورة فتكاً نظراً لما تحتويه من خصائص مقاومة للأجسام المضادة التي تفرزها أجسام المصابين ولديها خاصية تتمثل بزيادة أعداد بروتين الأشواك على السطح.

وأنها تراقب انتشار نوعين آخرين ظهرا في البرازيل، وهما «بي1» الذي رصد في ولاية أمازوناس واكتشف أيضا في اليابان لدى 4 أشخاص قادمين من البرازيل، ومتحول آخر.

والنسخة المتحورة التي سجلت في بريطانيا في منتصف ديسمبر 2020 قادرة على العدوى بنسبة أكبر بـ50 إلى 70 بالمئة من الفيروس المستجد الأصلي.

ويوجد الفيروس الذي ظهر في بريطانيا، في المناطق الجغرافية الست لمنظمة الصحة العالمية، أما الفيروس المتحور في جنوب إفريقيا فيوجد في 4 مناطق فقط، لم تحددها المنظمة.

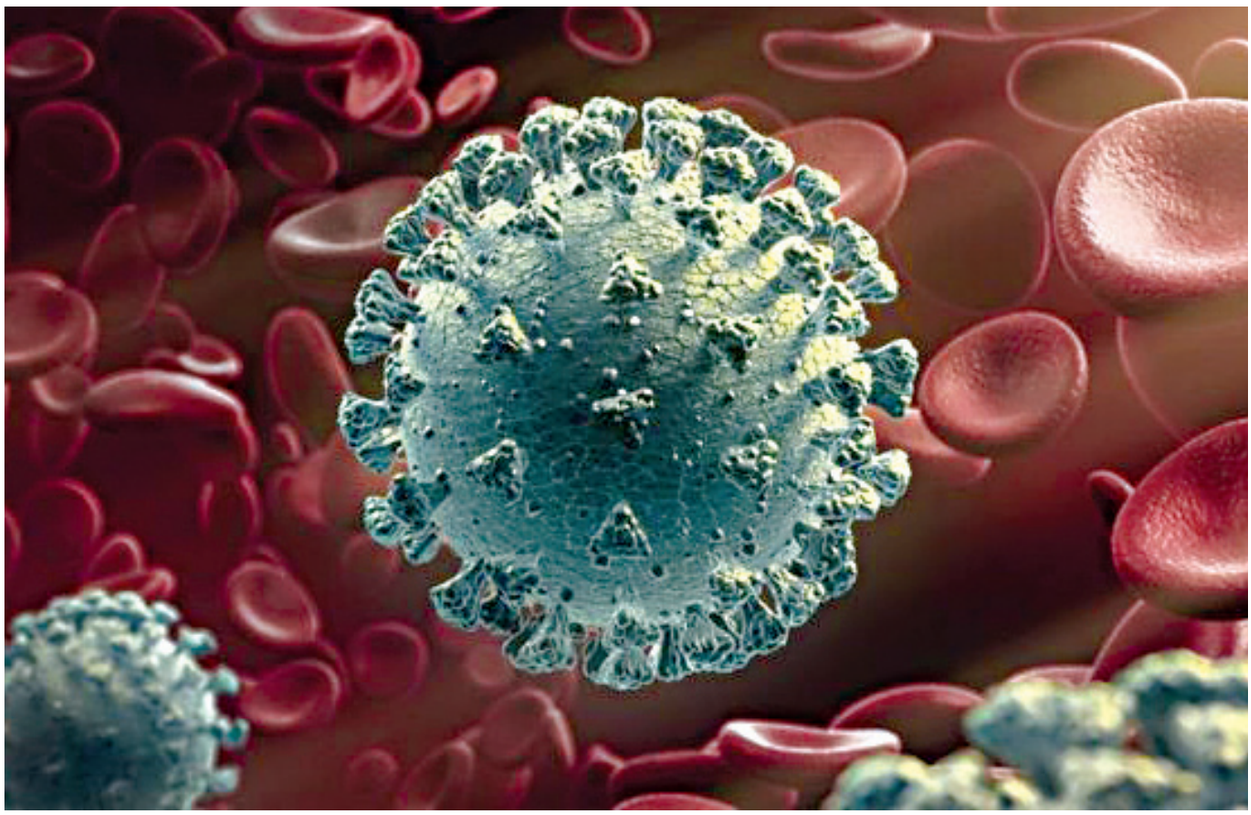

سلالات جديدة من الفيروس

والنسختان المتحورتان من الفيروس أسرع انتشارا لكنهما ليستا أكثر خطورة، إلا أنهما تسببان زيادة في الضغط على النظم الصحية التي تبدو في بعض البلدان مثل بريطانيا والولايات المتحدة على وشك الانفجار.

في موازاة ذلك انشغل العالم بالحديث عن السلالة الجديدة من فيروس أنفلونزا الطيور والذي بدأ ينتشر في أوروبا في الشهر الأول من العام 2021.

هذه الفيروسات تنتقل بشكل طبيعي بين الطيور المائية البرية في جميع أنحاء العالم.

ويمكن أن تصاب الطيور المائية البرية بفيروس أنفلونزا الطيور في أمعائها وجهازها التنفسي، ولكنها لا تمرض في العادة. ومع ذلك، قد تصاب الطيور الداجنة أو المنزلية (الدجاج والديك الرومي وما إلى ذلك) بفيروس أنفلونزا الطيور من خلال الاتصال المباشر مع الطيور المائية المصابة أو غيرها من الطيور الداجنة المصابة، أو من خلال ملامسة الأسطح الملوثة بالفيروسات.

كما أن فيروسات انفلونزا الطيور معدية جداً بين الطيور ويمكن لبعض هذه الفيروسات أن تسبب مرض أو وفاة بعض أنواع الطيور الداجنة، بما في ذلك الدجاج والبط والديك الرومي. وما تم التأكيد عليه وبحسب ما قالته الدكتورة رنا الحجة، مديرة إدارة البرامج بالمكتب الاقليمي للمنظمة شرق المتوسط، أنه لم يتم تسجيل أي حالات اصابة بشرية بهذا الفيروس باعتبار أن فيروسات كورونا عائلة فيروسية مختلفة عن العائلة الفيروسية المسببة للانفلونزا، ولا يمكن أن يحدث اندماج بينهما. ولم يسبق رصد حالات اندماج بين فيروسات من عائلات فيروسية مختلفة.

سلالات فيروس كورونا الجديدة: كيف نشأت؟

أدى الانتشار السريع لسلالة فيروس كورونا الجديدة إلى رفع مستوى القيود المفروضة على الاختلاط بين ملايين البشر في وقت كانوا يستعدون فيه للاحتفال بأعياد الكريسماس (31 ديسمبر 2020).

ودفع الوضع الجديد عددا من الدول إلى حظر السفر من وإلى بريطانيا التي فرضت سلطاتُها المستوى الرابع من تدابير مكافحة فيروس كورونا.

لكن، كيف تطور أمر السلالة الجديدة للفيروس في غضون أشهر من مرحلة عدم الوجود إلى أنْ أصبحت الشكل الأكثر شيوعا للإصابات في إنجلترا؟

في تقرير أعدَّه مراسل الشؤون العلمية والطبية في محطة البي بي سي جيمس غالغر (2021/1/1) نقل عن مسؤولين بإدارة الصحة في بريطانيا أن هذه السلالة الجديدة أكثر قدرة على الانتشار من السلالة الأولى، ورغم أن الأمور لاتزال في بداياتها، إلا أن الغموض يكتنفها وتثير قائمة طويلة من الأسئلة.

ومن الثابت أن الفيروسات تتحوّر طوال الوقت، ومن الأهمية الحيوية أن نرصد سلوك الفيروس إذْ يتغير.

كيف تحدث الطفرات ولماذا؟

اجتمعت لهذه السلالة الجديدة عوامل جعلتها موضعا لإثارة القلق. أول هذه العوامل، سرعة الانتشار والاستحواذ على مكان النُسخ السابقة عليها من الفيروس، ما يعطي انطباعا بأن لها السيطرة على السلالة الأصلية.

العامل الثاني هو قـدرة هذه السلالة الجديدة على تطوير طفرات جينية تغيّر جانبا مهما من سلوك الفيروس، والثالث هو قدرة هذه الطفرات الجينية على تمكين الفيروس من إصابة الخلايا بشكل أكبر من ذي قبل ما يعني زيادة معدل قابلية العدوى.

بفضل هذه العوامل بات الانتشار أمرًا سهلا أمام فيروس كورونا في نسخته الجديدة.

على أننا لا نمتلك يقينًا مطلقا. وقد تمسي سلالات جديدة من الفيروس أكثر انتشارا إذا تهيأت لها الأجواء في مكان وزمان ومناسب كما حدث في لندن والتي لم تتجاوز حتى وقت قريب تطبيق المستوى الثاني من تدابير مكافحة الوباء لكنها انتقلت في أيام قليلة إلى المستوى الرابع.

ويحتاج الأمر إلى مزيد من التجارب المعملية، لكن لا يتعين على متخذي القرار انتظار نتائج تلك التجارب

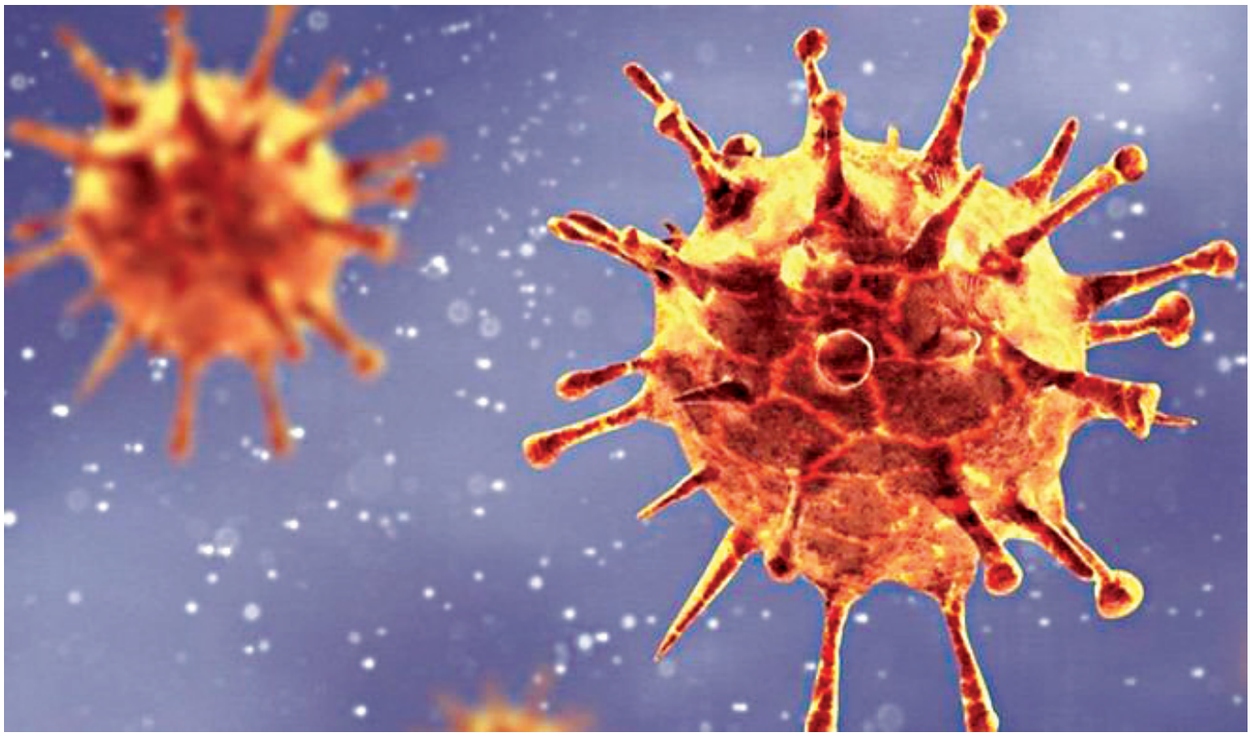

لكي يضعوا تدابير احترازية للحد من انتشار السلالة الجديدة، بحسب ما صرح نيك لومان، الخبير في مؤسسة كوفيد 19 جينومكس بالمملكة المتحدة.

ما مدى سرعة انتشار سلالة فيروس كورونا الجديدة؟

تم اكتشاف هذه السلالة لأول مرة في سبتمبر عام 2020، وبحلول نوفمبر كانت لدى رُبع عدد المصابين في لندن، قبل أن تصل هذه النسبة إلى الثلثين منتصف ديسمبر.

ولا يصعب الوقوف على مدى سيطرة السلالة الجديدة على نتائج المسحات في بعض المراكز الطبية في العاصمة البريطانية.

ويحاول الرياضيون مقارنة الأرقام في مضمار قدرة الفيروسات المختلفة على الانتشار، في محاولة منهم لاحتساب درجة تفوّق هذه السلالة الجديدة من فيروس كورونا على غيرها من السلالات.

لكن الأمر الصعب هو الفصل بين أنماط سلوك البشر، ودرجة تفشي الفيروس.

ويشير الرقم الذي ذكره رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون إلى أن السلالة الجديدة قد تكون أكثر قدرة على التفشي بنسة تصل إلى 70 في المئة.

وقال جونسون إن ذلك قد يزيد معه معدل قدرة الشخص المصاب على نقل العدوى لآخرين بنسبة 0.4.

ويُستدل على مدى تفشي الوباء عبر الوقوف على معدل قدرة المصاب على نقل العدوى للآخرين.

وظهرت نسبة الـ 70 في المئة في محاضرة ألقاها إريك فولز، باحث في جامعة إمبريال كوليدج في لندن.

وأوضح فولز في محاضرته أنه "من المبكر جدا الفصل في الأمر ... لكن مما رأينا حتى الآن، تتفشى السلالة الجديدة من كورونا بسرعة بالغة، بأسرع مما كانت عليه النسخة السابقة من الفيروس نفسه. لكن من الأهمية بمكان أن نظل نرصد سلوك هذه النسخة الجديدة".

ولا يوجد رقم ثابت يعيّن درجة قدرة السلالة الجديدة من فيروس كورونا على الإصابة. ويشير باحثون إلى أرقام تتخطى الـ 70 في المئة وأخرى تقلّ عنها.

كيف ومتى انتشرت السلالة الجديدة من فيروس كورونا؟

يُعتقَد أن سلالة فيروس كورونا الجديدة تخلّقت في رئة مصاب في المملكة المتحدة أو في بلد آخر ذي قدرة أقل على رصْد الطفرات الجينية التي يطورها الفيروس.

ويمكن رصد هذه السلالة الجديدة في عموم متفرقة من المملكة المتحدة، ما عدا أيرلندا الشمالية. لكنها موجودة بكثافة في لندن، وشرقيّ، وجنوب شرقي إنجلترا.

وتُظهر البيانات الواردة من حول العالم أن حالات الإصابة المسجلة بالسلالة الجدية من الفيروس في كل من الدنمارك، وأستراليا، وهولندا، هي لأشخاص قادمين من المملكة المتحدة.

وظهرت سلالةٌ أخرى شبيهة من الفيروس في جنوب أفريقيا. وهي تشترك في بعض صفاتها الجينية مع السلالة التي ظهرت في بريطانيا، لكنهما مختلفتين فيما يبدو.

هل عرف العالم مشهدا مشابها من قبل؟

الإجابة: نعم؛ إن الفيروس الذي اكتُشف أول مرة في مدينة ووهان الصينية، ليس هو ذات الفيروس المستشري الآن في أنحاء المعمورة.

وفي فبراير من العام 2019 طرأت طفرات جينية D614G على فيروس كورونا الأول في أوروبا ومنها تمددت النسخة الجديدة في العالم.

في غضون ذلك، ظهرت نسخة أخرى تُدعى A222V في أوروبا أيضا، ونُسبت تحديدا إلى المصطافين الإسبان.

ماذا نعرف عن الطفرات الجينية الجديدة لفيروس كورونا؟

رصدت دراسة مبدئية عدد 17 تحوّرًا مهمًا لـفيروس كورونا حتى الآن.

ورُصـدت تغيرات في البروتين الشوكي أو مستقبلات الفيروس التي يستخدمها كسلاح أساسي في الارتباط بمستقبلات الخلايا البشرية قبل أن يخترقها ليجندها لإنتاج حمضه النووي. أحد هذه التغيرات في البروتين الشوكي يُدعى N501Y، وآخر يُدعى H69/V70.

ويستميت الفيروس في البحث عن وسيلة تُيسّر عليه مهمة اختراق خلايا الجسم البشري.

ويُضعف هذا التغير الأخير H69/V70 من قدرة الأجسام المضادة التي تكونت لدى الناجين من إصابة بفيروس كورونا؛ بحيث تضعف جبهتها في مقاومة أي هجوم جديد يشنه الفيروس على الجسم، بحسب رافيندرا غوبتا، الباحث في جامعة كامبريدج.

من أين أتت سلالة فيروس كورونا الجديدة؟

يشهد الفيروس طفرات جينية بوتيرة متسارعة بشكل غير طبيعي. وأكثر التفسيرات احتمالا يقول إن السلالة الجديدة تخلّقت في رئة مريض يعاني ضعفًا في جهاز المناعة تركَه عاجزًا أمام فيروس كورونا الذي وجد بدوره في رئة هذا المريض مستعمرة مواتية للتحوّر.

هل بات فيروس كورونا أكثر فتكًا في نسخته الجديدة؟

لا دليل على ذلك، رغم ما يحتاجه الأمر من رصد ومتابعة.

على أن قدرة السلالة الجديدة على التفشّي بوتيرة أسرع من سابقاتها، تبرِّر القلق نظرًا لما تضعه من ضغوط أكثر على المستشفيات.

هل تُجدي اللقاحات مع السلالة الجديدة من فيروس كورونا؟

نعم، وبكثير من التأكيد. أو على الأقل لمطلع العام 2021.

وتوفّر اللقاحات الثلاثة الرائدة حائط صدّ منيع ضد السلالات الموجودة من فيروس كورونا.

وتساعد اللقاحات جهاز المناعة في مهاجمة أجزاء عديدة مختلفة من الفيروس، وحتى لو طرأت طفرات جينية على أجزاء من الفيروس، تظل اللقاحات تقوم بعملها المساعِد لجهاز المناعة.

"لكن لو تركنا الفيروس يطوّر المزيد من الطفرات الجينية، عندئذ ينبغي لنا القلق" بحسب غوبتا، باحث جامعة كامبريدج.

ويحذر الباحث: "اتخذ الفيروس خطوتين حتى الآن على طريق تفادي هجمات اللقاح عبر تطوير طفرات جينية".

وقد تمثل هذه الحقيقة أكثر بواعث القلق. تماما، كما تمثل هذه السلالة الجديدة آخرَ تعبيرٍ من الفيروس عن قدراته على التكيف وإصابة المزيد والمزيد من البشر.

يقول دافيد روبرتسون، الباحث في جامعة غلاسكو: "استمرار قدرة الفيروس على تطوير طفرات جينية تساعده في تفادي هجمات اللقاحات، أمرٌ متوقَّع".

ويضعنا هذا السيناريو في موضع شبيه بموضعنا من الفيروس المسبب للأنفلونزا، مما يعني الحاجة إلى تطويرٍ منتظم للقاحات.

ما الذي يعنيه تحوَّر فيروس «كوفيد - 19»؟

مكمن القلق الأكبر في الوقت الحالي هو وجود نوعين أو ثلاثة تنويعات من (سارس-كوف- 2) التي أحدثت طفرات تغيّر تركيبة البروتينات الشوكية للفيروس؛ حيث يمكن لحدوث طفرات إضافية في مثل هذه الأماكن أن تُحدث تغييرًا أكثر أهمية من حيث القابلية للانتقال أو مدى الخُبث والضرر.

فالكاتبة المتخصصة بالشؤون العلمية في مجلة «التايم الأميركية» أليس بارك: نقلت عن «رالف باريك» صاحب دراسة «ما الذي تعنيه اللقاحات» أنه مع دخول العام الثاني من العيش مع فيروس كورونا المستجد (سارس-كوف- 2)، يحتفل الفيروس بغزوه سكانَ العالم بعرض المزيد من الأشكال المتحوّرة التي تساعده على الانتشار بسهولة أكبر من شخص لآخر.

الشكل المتحوّر الأول، الذي تم اكتشافه أول الأمر في المملكة المتحدة في (ديسمبر 2020)، قرع مُسبقاً أجراس الإنذار حول ما إذا كان فيروس "كوفيد - 19" يفلت من الحماية التي قد توفرها اللقاحات التي يتم طرحها. كما تم العثور على هذا المتغيِّر من الفيروس في الولايات المتحدة أيضاً. وقد شدد المسؤولون البريطانيون مُسبقاً عمليات الإغلاق في إنجلترا وإسكتلندا وويلز. وخلال العطلات، حظرت أكثر من 40 دولة دخول المسافرين من المنطقة التي ينتشر فيها المتغير الجديد، في محاولة لمنع السلالة الجديدة من الانتشار إلى أجزاء أخرى من العالم. ويشعر مسؤولو منظمة الصحة العالمية بالقلق أيضًا من سلالة مختلفة تم اكتشافها في جنوب إفريقيا، والتي يمكن أن تصبح أكثر مقاومة للحماية من اللقاح. ويتضمن هذا المتغير من الفيروس بعض الطفرات التي حدثت في المناطق الرئيسية التي تستهدفها الأجسام المضادة التي ينتجُها اللقاح.

لم يتضح بعد كيف تؤثر السلالات الجديدة بالضبط على الأشخاص المصابين -مثل ما إذا كانت تظهر عليهم أعراض أكثر حدة- وما إذا كان يمكن أن تؤدي إلى المزيد من حالات دخول المستشفى والوفيات. لكن العلماء يكثفون جهودهم لتحديد التسلسل الوراثي في مزيد من العينات المأخوذة من المرضى المصابين لمعرفة مدى انتشارها.

لا تشكل حقيقة أن (سارس-كوف2-) يتحول إلى سلالات ربما أكثر خطورة مفاجأة بعد كل شيء. فالفيروسات تتحوّر. ويجب أن تفعل من أجل تعويض حذفٍ حاسم قد يحدث في تركيبتها. وعلى عكس مسببات الأمراض الأخرى، مثل البكتيريا والفطريات والطفيليات، لا تمتلك الفيروسات أيًا من الآليات اللازمة لعمل نسخ أكثر من نفسها، لذلك لا يمكنها أن تتكاثر بمفردها. وهي تعتمد بشكل كامل على اختطاف

الأدوات الإنجابية للخلايا التي تصيبها من أجل توليد ذريتها.

يعني كون الفيروسات مثل هؤلاء المستغلّين أنها يمكن أن تكون انتقائية بشأن مضيفيها، ويجب أن تتعامل مع أي معدات خلوية يمكنها العثور عليها. ويؤدي هذا عمومًا إلى سلسلة من الأخطاء عندما تتسلل الفيروسات لكي تنسخ شيفرتها الوراثية؛ ونتيجة لذلك، تمتلك الفيروسات الجينومات الأكثر عرضة للخطأ من بين الميكروبات. وعادة ما يكون الجزء الأكبر من هذه الأخطاء لا معنى له –مجرد بدايات زائفة وطرق مسدودة– وليس لها تأثير على البشر. ولكن مع حدوث المزيد من الأخطاء، تزداد إلى حد كبير احتمالات أن يجعل أحدُها الفيروس أفضل في الانتقال من شخص إلى آخر، أو في ضخ المزيد من النسخ منه.

لحسن الحظ، تولِّد فيروسات كورونا المستجد على وجه الخصوص هذه الأخطاء الجينية بشكل أبطأ من أبناء عمومتها، مثل فيروسات الانفلونزا وفيروس نقص المناعة البشرية المكتسبة (الإيدز)، وقد وجد العلماء الذين درسوا تسلسل الآلاف من عينات (سارس–كوف2–) من مرضى "كوفيد – 19" أن الفيروس يرتكب نحو خطأين في الشهر. ومع ذلك، أدى ذلك حتى الآن إلى حدوث حوالي 12.000 طفرة معروفة في (سارس–كوف2-)، وفقًا لـGISAID، وهي قاعدة بيانات جينية عامة للفيروس. وينتهي الأمر ببعض هذه الطفرات، بالصدفة المحضة، إلى خلق تهديد أكبر للصحة العامة.

بعد بضعة أشهر فقط من اكتشاف فيروس (سارس–كوف– 2) في الصين في (يناير) من العام 2020، على سبيل المثال، حل متحوِّر جديد، يسمى D614G، محل

السلالة الأصلية. وأصبحت هذه النسخة الجديدة هي السائدة التي ضربت الكثير من أوروبا وأميركا الشمالية وأميركا الجنوبية. وما يزال خبراء الفيروسات غير متأكدين من مدى أهمية متحوّر D614G، الذي سُمي على اسم مكان حدوث الطفرة في الجينوم الفيروسي، عندما يتعلق الأمر بمرض يصيب الإنسان. ولكن حتى الآن، تُظهر عينات الدم المأخوذة من الأشخاص المصابين بهذه السلالة أن الجهاز المناعي ما يزال بإمكانه تحييد الفيروس. وهذا يعني أن اللقاحات الحالية التي يتم طرحها في جميع أنحاء العالم يمكن أن تحمي أيضًا من هذه السلالة، حيث تم تصميم اللقاحات لتوليد استجابات مناعية مماثلة في الجسم. ويقول رالف باريك، أستاذ علم الأوبئة وعلم الأحياء الدقيقة والمناعة في جامعة تشابل هيل في كارولينا الشمالية، الذي درس فيروسات كورونا لعقود عدة: "إذا كان الجمهور قلقًا بشأن ما إذا كانت المناعة التي يوفرها اللقاح قادرة على تغطية هذا المتغير، فستكون الإجابة نعم".

لكن ما يسمى المتغير N501Y (بعض مسؤولي الصحة يسمونه أيضًا B.1.1.7.)، الذي تم اكتشافه مؤخرًا في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، قد يكونُ قصة مختلفة. بناءً على الدراسات المعملية والحيوانية، يعتقد الباحثون أن هذه السلالة يمكن أن تنتشر بسهولة أكبر بين الناس. ويقول باريك إن هذا ليس مفاجئًا، لأنه حتى هذه اللحظة، لم يتعرض معظم سكان العالم لـ(سارس-كوف- 2). وهذا يعني أن السلالات الأفضل في التنقل من شخص إلى آخر، في الوقت الحالي، ستتمتع بميزة في نشر الشفرة الجينية. لكنّ ذلك قد يتغير مع حصول المزيد من الناس على اللقاحات والحماية من الفيروس.

في أسوأ السيناريوهات، قد تدفع هذه التغييرات الفيروس إلى مقاومة الخلايا المناعية الناتجة عن اللقاحات المتاحة حاليًا. وتشكل التنويعات المتحوِّرة الحالية محاولات الفيروس الأولى لتعظيم احتوائه للبشر كآلات نسخ فيروسي. لكنها يمكن أن تكون أيضًا بمثابة العمود الفقري الذي يبني عليه (سارس-كوف- 2) عملية استحواذ أكثر استدامة واستقرارًا. ومثل سجين يخطط للهروب من سجن، فإن الفيروس ينتظر وقته بصبر ويقضي على الدفاعات التي بناها نظام المناعة البشري. وعلى سبيل المثال، قد يتحور الفيروس بطريقة تغير تركيبة البروتينات الشوكية -وهي جزء من الفيروس الذي تحاول الأجسام المضادة في الجهاز المناعي الالتصاق به من أجل تحييد الفيروس. وقد لا تكون هذه الطفرة الوحيدة كافية لحماية الفيروس من تلك الأجسام المضادة. لكن طفرتين أو ثلاث ربما تكفي.

مكمن القلق الأكبر في الوقت الحالي، كما يقول رالف باريك، هو وجود نوعين أو ثلاثة تنويعات من (سارس-كوف- 2) التي لديها طفرات في مثل هذه الأماكن، "حيث يمكن لطفرات إضافية أن تُحدث تغييرًا أكثر أهمية من حيث القابلية للانتقال أو مدى الخُبث والضرر".

أفضل طريقة لرصد هذا التطور هي تعقُّب تسلسل الفيروس في أكبر عدد ممكن من المصابين، كلما أمكن ذلك وبأكبر قدر ممكن. فقط من خلال تتبع كيفية تغيُّر (سارس-كوف- 2)، يمكن للعلماء أن يأملوا في البقاء متقدمين على الطفرات الأكثر خطورة والأكثر فتكًا. في تشرين الثاني (نوفمبر)، أطلقت "المراكز الأميركية لمكافحة الأمراض" (CDC) برنامجًا لتعقب التسلسل، والذي سيطلب من كل ولاية إرسال 10 عينات كل

أسبوعين من الأشخاص المصابين، من أجل تتبع أي تغييرات في جينوم (سارس-كوف- 2) بطريقة أكثر تساوقاً. لكن هذا يبقى برنامجاً تطوعياً. ويقول باريك: "ما يزال هذا ليس جهدًا على المستوى الوطني، إنه تطوعي، ولا يوجد تمويل مخصص له. هيا، نحن في القرن الحادي والعشرين -دعونا ندخل القرن الحادي والعشرين".

ويقول باريك: "إذا رصدنا تسلسل حالة واحدة من بين 200 حالة، فإننا نفقد بذلك الكثير من المعلومات. وإذا كنا نتعقب تسلسل حوالي 20 في المائة من الحالات، فإننا قد نبدأ في رؤية شيء ما وسنكون في لعبة العثور على متحوِّرات جديدة. ربما نستطيع القيام بعمل أفضل هنا في الولايات المتحدة".

كما تعمل دول أخرى أيضًا على مثل هذا الجهد. ولطالما كانت المملكة المتحدة رائدة في التسلسل الجيني، ومن المرجح أننا استطعنا بفضل جهود علمائها تحديد المتغير الجديد بسرعة نسبيًا بعد ظهوره. وعلى الصعيد العالمي، يقوم العلماء أيضًا بإرسال التسلسلات الجينية لـ(سارس-كوف- 2) ونشرها في قاعدة البيانات العامة لمبادرة GISAID.

يقول الدكتور أنتوني فاوشي، مدير المعهد الوطني للحساسية والأمـراض المعدية، وكبير المستشارين الطبيين للرئيس المنتخب جو بايدن، إن فرقه تقوم بتسجيل تسلسل المتغيرات الجديدة ودراستها من أجل تحقيق فهم أفضل لأي تأثيرات يمكن أن تكون لها على المرض، ومعرفة كم تكون قريبة من التسبب في مرض أكثر خطورة، والأهم من ذلك، مع تلقي المزيد من الأشخاص للتطعيم، ما إذا كان بإمكان التنويعات الجديدة الإفلات من حماية اللقاحات التي نعرف أنها تعمل اليوم.

الخبر السار هو أنه إذا أصبحت السلالات المتحولة من الفيروس مقاومة للقاحات الحالية، فإن تقنية مرسال الحمض النووي الريبوزي، mRNA، الكامنة وراء لقاحات "فايزر-بيونتيك" و"مودرينا" يجب أن تمكِّن هذه الشركات من تطوير جرعات جديدة من اللقاح من دون الحاجة إلى نفس التطوير والاختبار المطولَين اللذين يتطلبهما إنتاج النسخ الأصلية. ويقول الدكتورفاوشي: "تتميز منصة مرسال الحمض النووي الريبوزي بمرونة كبيرة في الالتفاف". وإذا كانت هناك حاجة إلى لقاح جديد، فسوف تتعامل معه إدارة الغذاء والدواء على أنه تغيير في سلالة هدف الفيروس، على غرار الطريقة التي يتم بها تعديل لقاحات الانفلونزا كل عام. ويقول الدكتور فاوشي: "يمكنك عمل ذلك بسرعة كبيرة"، بعد أن ظهر في الاختبارات التي أجريت على بضع عشرات من الأشخاص أن اللقاح الجديد أنتج كميات مُرضية من الأجسام المضادة والحماية ضد الفيروس المتحوِّر.

مفاجأة... السلالة البريطانية الجديدة

في دراسة قارنت معدلات الوفاة بين المصابين بالسلالة الجديدة في بريطانيا، والمعروفة باسم (بي.1.1.7)، وبين من أصيبوا بسلالات أخرى، قال العلماء إن الوفيات «أعلى بكثير» في السلالة الجديدة وبما يزيد 30 %.

وكانت سلالة (بي.1.1.7) رُصدت للمرة الأولى في بريطانيا في سبتمبر/ أيلول 2020، واكتُشفت منذ ذلك الحين في أكثر من 100 دولة.

ولدى هذه السلالة 23 تحورا في شفرتها الجينية،

وهو عدد كبير نسبيا، وسهل بعض هذه التحورات من انتشارها. ويقول العلماء إنها أكثر قدرة على العدوى بنسبة تتراوح بين 40 % إلى 70 % من السلالات السائدة الأخرى.

وأظهرت الدراسة التي نُشرت في المجلة الطبية البريطانية، أن الإصابة بالسلالة الجديدة أدت إلى 227 وفاة في عينة تشمل 54906 من مرضى كوفيد- 19 مقارنة مع 141 بين نفس العدد من المصابين بسلالات أخرى.

قال روبرت تشالين، الباحث في جامعة إكستر، والرئيس المشارك لفريق البحث، «إضافة إلى قدرتها على الانتشار سريعا، هذا يجعل بي.7.1.1 تهديدا يجب أخذه على محمل الجد»، أفاد خبراء مستقلون بأن نتائج الدراسة تضيف إلى دلائل أولية سابقة تربط الإصابة بسلالة بي.7.1.1 بزيادة خطر الوفاة جراء كوفيد- 19.

معايير أخلاقية جديدة لقهر الفيروس

مثلما غيَّرت الحروب والازمات الكبرى الكثير من المفاهيم جاءت «ثورة كوفيد - 19» لتعيد النظر بتقاليد وعادات سقطت مع أول إصابة خرجت من الصين.

كبيرة القضاة في كندا بيفرلي ماكلاشلين والعضوة في اللجنة العالمية المعنية بسياسة ما بعد الوباء حللت الأزمة بمطالعة ظهرت في مجموعة «بروجيكت سنديكيت» تقول فيها:

في ديسمبر 1862 وفي خضم الحرب الأهلية الأميركية التي تنافست فيها معايير العبودية مع معايير الحرية، اقترح الرئيس الأميركي، أبراهام لنكولن، خطته للتحرر أمام الكونغرس، وأعلن قائلاً إن «معتقدات الماضي الهادئ لا تتلاءم مع الحاضر العاصف؛ فالزمن الحاضر مليء بالمصاعب، ولابد أن نرتقي إلى مستوى التغلب عليها، وبما أن قضايانا جديدة، فيجب أن نفكر ونتصرف حيالها بأسلوب جديد». وفي عالم ما بعد أزمة كوفيد 19، هذه هي مهمتنا أيضا.

كان لينكولن محقاً والمأساة هي أنه نجح جزئياً في إقناع زملائه الأميركيين بقبول المعيار الجديد الذي اقترحه، وهو تحقيق المساواة للجميع، فقد فكر بعض القادة السياسيين وتصرفوا بطريقة جديدة، لكن الكثير منهم سعوا إلى إحياء الماضي، فبدلاً من الاستجابة لنداء لينكولن الذي دعا فيه إلى التفكير والعمل بأسلوب جديد، أنشأت الولايات الجنوبية نظاما جديدا من الفصل والتمييز.

وبعد مرور ثلاثة أرباع القرن من الزمان، سيغير صراع ملحمي آخر المعايير التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت، فاندلعت الحرب العالمية الثانية في عالم صناعي متأخر تصفه المعايير الحالية بالمحلي والبطيء، صحيح أن المركبات ذات المحركات قد حلت محل العربات التي كانت تجرها الخيول، وكانت الطائرات التجارية الأولى تقل عددا قليلا من الأشخاص ذوي الامتيازات إلى أماكن بعيدة، ولكن بقيت الكثير من الأمور كما كانت منذ عقود، إذ كان الرجال يسيطرون على الأعمال، والصناعة، والحكومة، والشؤون المالية، وكان دور فئة واسعة من النساء يختزل في القيام بالشؤون المنزلية، وكانت مناطق شاسعة من العالم ترزح تحت نير الاستعمار.

لقد غيرت الحرب العالمية الثانية كل شيء، فبعد انتهائها، أصبحت السيارات أسرع، وأصبحت الطائرات أكثر أناقة وخفة، واضطلعت المرأة بدور متنام في المجتمع والاقتصاد والحكم، إلا أن العصر النووي كان

يلوح في الأفق، مصحوبا بالتهديد الجديد المتمثل في الدمار الشامل.

وبعد 75 عاما أخرى، بدأ العالم يواجه مرة أخرى تحديا جذريا للمعايير التي أصبح يعتبرها أمرا مفروغا منه، فاتضح أن الوباء ليس مجرد كارثة، بل مصدر وحي أيضا، وكشف أن مؤسسات ما بعد الحرب متعبة وتحتاج إلى إعادة تنشيط، وكشف عن تكاليف نقاط الضعف النظامية التي مكنت الشعبويين والمتطرفين من الوصول إلى السلطة في العديد من الأماكن.

وإذا كان مصدر الخوف بعد الحرب العالمية الثانية هو الإبادة النووية، فما يثير الخوف الآن هو تفشي مرض عالمي، وإن كوفيد – 19 هو ظاهرة عالمية من بدايته إلى نهايته، لقد اعتدنا على رؤية الأمراض نفسها في أجزاء مختلفة من العالم، لكننا لم نواجه أبدا حالة تتطلب من كل دولة اتخاذ الاحتياطات نفسها، لذلك يجب أن يكون علاج كوفيد– 19 عالميا.

وفي غضون أيام من إطلاق الصين للتركيب الجيني لفيروس كورونا الجديد في 10 يناير 2020، كان العلماء في جميع أنحاء العالم يعملون على تطوير اللقاحات، واعتمدوا في ذلك على العلوم العالمية، حيث أدت أبحاث تقنية النانو الدولية إلى شكل جديد من اللقاح، وأثبت هذا مرة أخرى ملاحظة لويس باستور القائلة إن «العلم لا يعرف بلدا معيناً، لأن المعرفة تخص الإنسانية، وهي الشعلة التي تضيء العالم».

ولكننا نواجه الآن عقبة في الطريق، فرغم أننا طورنا لقاحات على المستوى الدولي لمحاربة عدوى عالمية فإننا نعود إلى المعايير القومية القديمة في مرحلة التسليم، إذ تتخذ البلدان والتكتلات موقف «نحن أولاً» الذي لا معنى له أخلاقيا ولا عمليا.

ومن الناحية الأخلاقية، نحن نعلم أن وضع البلدان النامية الفقيرة في آخر لائحة البلدان المتلقية للقاح أمر خطأ، كما نعلم أن هذا الأسلوب لن ينجح، ففي الماضي ربما كان سكان بلد ما قادرين على حماية أنفسهم من الأمراض خلف حدود معززة، لكن هذا لن ينجح في عالم شديد الترابط.

ونظرًا لأنه لن يكون أيٌّ منا في مأمن من كوفيد 19 حتى يكون الجميع كذلك، فإن الطريقة الوحيدة لهزيمته هي من خلال مهاجمته عالميًا، وما دام أن هناك دولا أو بؤرا من البشر ينتقل فيها الفيروس، فستكون هناك حالات جديدة، بل حتى متغيرات جديدة مخيفة أكثر، وقد يكون بعضها أكثر فتكا بأن تكون محصنة ضد اللقاحات التي هي أملنا الوحيد في قهر الفيروس.

لإنهاء الوباء وتجاوز حاضرنا العاصف، يجب أن نصغي لنداء لنكولن، ونطور معايير جديدة تحل محل معتقداتنا البالية القائمة على الانعزالية.

كيف ستبدو كورونا بعد سنوات من الآن؟

يتوقع الكثيرون أن "كوفيد– 19" قد يرافقنا لفترة طويلة، وحتى لو حدث ذلك، فإن الأخبار الجيدة تقول إنه قد ينتهي به الأمر إلى مجرد مرض خفيف، ونادرا ما قد يؤدي إلى الموت.

وتتجذر النظرية في أنماط علم الأوبئة التي كانت تتبعها في السابق أربعة فيروسات كورونا أخرى. وكلها كانت متداولة لفترة طويلة جدا في الواقع، إنها متوطنة، ما يعني أن معظم الناس يصابون ويطورون مناعة أثناء الطفولة تحمي من الأمراض الخطيرة (على الرغم من عدم تكرار العدوى) مثل البالغين.

وقاد هذا المسار فريقا من الباحثين إلى تصميم

نموذج لما قد يحدث في النهاية مستقبلا إذا تعرض معظم الأشخاص بالمثل لفيروس كورونا الجديد أثناء الطفولة.

وقالت مؤلفة الدراسة جيني لافين، باحثة ما بعد الدكتوراه في قسم البيولوجيا في جامعة إيموري في أتلانتا: "في الغالبية العظمى من الحالات، لا تسبب فيروسات كورونا البشرية المتوطنة سوى نزلة برد، بمعنى عدوى في الجهاز التنفسي العلوي".

وأضافت أنه يعتقد أن نحو 15 % من نزلات البرد الشائعة لدى البالغين يمكن أن تعزا إلى فيروس التهاب الكبد الوبائي.

وأشارت لافين إلى "أنها تؤدي في بعض الأحيان إلى التهابات الجهاز التنفسي السفلي، خاصة عند الأطفال الصغار وكبار السن". وفقط في حالات نادرة، بين الفئات الضعيفة بشكل خاص، تؤدي إلى أمراض أكثر خطورة.

وقالت: "يبدو من المرجح أن ينتهي الأمر بكوفيد-19 بهذه الطريقة". وأن متى سيحدث ذلك بالضبط هو مجرد تخمين، حيث تتراوح التوقعات عموما من سنة إلى 10 سنوات. وهناك دائما احتمال ألا يحدث ذلك على الإطلاق".

واستشهدت لافين بعدد من العوامل التي يمكن أن تؤثر على التطورات المستقبلية. وأحد هذه العوامل هو مدى سرعة انتشار الفيروس في المستقبل القريب. والعامل الآخر هو مدى سرعة تلقيح الناس في الأشهر المقبلة. ويبقى أيضا أن نرى عدد الإصابات و/ أو اللقاحات التي ستكون مطلوبة في نهاية المطاف لتحفيز مناعة قوية ودائمة.

وهناك مشكلة أخرى وهي إلى أي مدى يمكن للعدوى الطبيعية و/ أو اللقاحات أن تمنع انتقال الفيروس تماما، مقابل المدة التي يكون فيها أي منهما قادرا على منع المرض الخطير الذي يمكن أن يتطور بعد الإصابة.

إن الفكرة القائلة بأن الفيروس التاجي الجديد سيصبح بالفعل وبائيا ومعتدلا تستند إلى الافتراض الأساسي بأن المرض يستمر في الظهور بشكل معتدل نسبيا، أو حتى من دون أعراض، بين معظم الأطفال والمراهقين المصابين.

وحذرت لافين مع ذلك: "إذا أصبحت العدوى لدى الأطفال أكثر حدة مما هي عليه الآن، فإن ذلك سيكون علامة سيئة. ليس لدينا سبب للشك في أن هذا سيحدث، لكن السيناريو على المدى الطويل سيكون أكثر قتامة إذا حدث ذلك".

ويمكن للفيروس أن يتحور بطريقة تقوض تطوير مناعة واسعة النطاق. وقالت لافين: "طالما أن التطور الفيروسي يحدث ببطء بدرجة كافية بحيث يتعرض الناس لمتغيرات جديدة بينما لا يزال لديهم بعض المناعة التي تمنع المرض من التطعيم و/ أو التعرض للمتغيرات السابقة، فإننا نتوقع أن يظل المرض معتدلا".

خبراء يحذرون من "لسان كوفيد" ويدعون إلى تصنيفه كعارض جديد لعدوى فيروس كورونا.

لكنها أشارت إلى أن هناك شيئا واحدا واضحا: "يمكننا التأثير على طريق التوطن". وإحدى الطرق هي الحفاظ على معدلات انتقال منخفضة قدر الإمكان حتى ينتشر التطعيم على نطاق واسع، "لتقليل الوفيات والحيلولة دون الإرباك الهائل لأنظمة المستشفيات".

وأوضحت لافين أن هناك طريقة أخرى وهي التطعيم، "خاصة إذا كنت معرضا لخطر أكبر للإصابة

بمرض خطير. في حين أنه من المحتمل أن يصاب الجميع بهذا الفيروس في مرحلة ما حتى بعد التطعيم، فمن المرجح جدا أن يقلل اللقاح من الأعراض" .

وهذه النقطة الأخيرة رددها الدكتور ساندرو سينتي، أستاذ الطب الباطني والأمـراض المعدية في طب ميتشيغان في جامعة ميتشيغان، في آن أربور، نقلا عن موقع روسيا اليوم.

وقال "هذه دراسة نموذجية، وهذا منطقي. لكن الجدول الزمني يمتد من خمس إلى عشر سنوات. بمرور الوقت، يمكن أن يحدث التغيير في مظهر المرض من دون أي من عمليات توزيع اللقاح التي ننشرها الآن. ولكن، في غضون ذلك، يمكن أن يموت الملايين من الناس".

وشدد سينتي: "لذلك يجب ألا يعتقد الناس أنهم ليسوا بحاجة إلى الحصول على اللقاح. اللقاحات في الوقت الحالي مهمة للغاية. إنه لأمل قليل أن نقول إن هذا لن يدوم إلى الأبد، وهذه ليست استراتيجية يمكن اعتمادها. اللقاحات هي الاستراتيجية الفعلية".

2021 بداية الانفراج

مطلع العام 2021 بدأ العالم يتنافس قليلاً ليعود إلى ممارسة حياته الطبيعية مع البدء بإنتاج وتوزيع وأخذ اللقاحات المعتمدة من قبل هيئات صحية متخصصة.

هذا الإنجاز الطبي والذي إنتظرته البشرية بعد معاناة، وأكلاف مادية عالية دفع بالعلماء والأطباء إلى وضع فاصل زمني للعبور من هذا الوباء والتخلص من آثاره، وهل سيكون عام 2021 هو إنتهاء الوباء

في موازارة تحقيق المناعة الجماعية للمجتمعات وبالتالي التخلص من القيود المفروضة على حركة الناس.

مجموعة الخبراء رسمت توقعاتها بدءاً من الربع الثاني من عام 2021 إنطلاقاً من الوصول إلى «المناعة المجتمعية»، إذا حققت اللقاحات فاعليتها المنشودة وسارت حملاتها بسلاسة، أو في حال اكتشاف مستوى مرتفع من المناعة المتقاطعة لدى السكان، لكن الوباء قد لا ينتهي قبل عام 2022 أو في مرحلة لاحقة إذا واجهت اللقاحات مشاكل على مستوى الفاعلية والسلامة الشخصية، أو إذا تباطأت عمليات التوزيع وحملات التلقيح.

وفي أسوأ الحالات، قد تتابع الولايات المتحدة محاربة «كورونا» حتى عام 2023، أو أكثر، إذا اجتمعت عوامل عدة ضدها، مثل عدم فاعلية اللقاحات وتراجع مدة المناعة الطبيعية.

من المتوقع أن تكون مسارات المناعة الجماعية في الدول الأخرى ذات الدخل المرتفع مشابهة للوضع الأميركي، وقد يختلف التوقيت وفقاً لمستويات المناعة المتقاطعة ونطاق الحماية التي تضمنها لقاحات أخرى، غير أنه حتى لو حققت عدة مناطق المناعة الجماعية المنشودة فمن المتوقع أن يتضمن العالم بؤراً دائمة لـ«كوفيد 19»، لاسيما في المناطق الغارقة بالحروب أو المجتمعات التي تتراجع فيها حملات التلقيح، إذ يصبح «كوفيد 19» في هذه الأماكن، مشابهاً لمرض الحصبة حتى بلوغ المناعة الجماعية، ما يعني أنه لا يطرح تهديداً يومياً على معظم الناس، لكن مخاطره تبقى قائمة، وإذا تلاشت المناعة بسبب عدم تلقي اللقاح فقد تتوسع نقاط ترسّخ الفيروس.

لا يعني تحقيق المناعة الجماعية إنهاء جميع المقاربات الصحية المعمول بها، فقد تبرز الحاجة إلى تكرار اللقاح بانتظام للحفاظ على تلك المناعة، ومتابعة مراقبة مسار تطور «كوفيد 19»، لكن هذه المناعة في المقابل تعني إمكانية رفع التدابير المفروضة راهناً في عدد كبير من الدول.

سيكون إيقاع تخفيف التدابير الصحية التي تفرضها الحكومات عاملاً أساسياً في هذا المجال، إذ يترافق جزء من تلك التدابير (مثل الإقفال التام وفرض ضوابط معينة على بعض الصناعات) مع تداعيات اجتماعية واقتصادية بارزة، لكن التدابير الأخرى، مثل إجراء الفحوصات وتعقب الإصابات، لن تكون مسيئة، مع أنها عالية الكلفة.

يمكن بلوغ المرحلة النهائية من الوباء في وقت أبكر من المرحلة الأولى، إذ تشير التقديرات إلى احتمال تحقيق هذا الهدف خلال الربع الأول أو الثاني من 2021 في الولايات المتحدة والاقتصادات المتقدمة الأخرى، ويتعلق العامل الأساسي في هذا المجال بتراجع حالات الوفاة.

لقد اعتادت المجتمعات تعقب أعداد الإصابات بـ «كورونا»، لأن الناس يموتون بسبب العدوى، ولأن الناجين قد يواجهون عواقب صحية طويلة الأمد بعد التقاط الفيروس، وما من معطيات علمية مؤكدة حتى الآن حول هذه الفئة الثانية من الناس، لكن هناك مخاوف من احتمال أن يواجه بعض المتعافين تداعيات أخرى على المدى الطويل.

تحذير من وباء «نيباه» Nipah وعودة «إيبولا»

وفي ظل تعايش البشرية مع فيروس كورونا كانت الأنظار متجهة في الشهر الثاني من العام 2021 نحو وباء

معدٍ آخر جرى التحذير منه والآثار الناتجة عنه، ففي تقرير إستحوذ على وسائل الإعلام (الغارديان البريطانية) يزعم أن فيروس «نيباه» Nipah مرض معد، يمكن أن يسبب مشاكل تنفسية حادة، فضلا عن التهاب وتورم الدماغ، ومصدره هو خفافيش الفاكهة حيث ارتبط تفشي المرض في بنغلاديش والهند بشرب عصير نخيل التمر.

ويعد «نيباه» واحدا من 10 أمراض معدية تم تحديدها من قبل منظمة الصحة العالمية على أنها أكبر خطر على الصحة العامة.

تم العثور عليه عام 1999 خلال تفشي المرض في ماليزيا وإصابة الأجهزة العصبية والتنفسية لدى 265 شخصا مات منهم 115، وتعتبر خفافيش الفواكه من نوع خفافيش الثعلب الناقل الطبيعي لفيروس «نيباهً».

ويعاني المصابون بعدوى فيروس نيباه من حمى وسعال وصداع وآلام بطن وغثيان وقيء ومشاكل في البلع وعدم وضوح الرؤية.

ويدخل حوالي 60 % من المرضى المصابين بالفيروس في حالة غيبوبة يصبحون فيها بأمس الحاجة إلى مساعدة في التنفس، ويعاني المرضى الذين تطور لديهم المرض من ارتفاع حاد لضغط الدم وارتفاع معدل خفقان القلب وارتفاع حرارة الجسم.

والعالم منشغل «كوفيد – 19» عاد وباء «إيبولا» من جديد وظهر في فبراير 2021 بدولة غينيا الافريقية، بعد إنتشاره في غرب أفريقيا بين الأعوام 2013 و 2016 واختفاءه حيث تسبب بوفاة أكثر من 11 ألف إنسان في كل من سيراليون، وليبيريا وغينيا.

سجل الدردشة مرفق بهذا البريد كملف يحمل اسم «دردشة في واتساب مع حمزة عليان».

اكتشاف بؤرة جديدة لفيروس «نيباه» في الهند

دراسة جديدة أجريت في الهند كشفت تفشي فيروس «نيباه»، الذي يعد من أخطر الفيروسات على مستوى العالم، لدى نوعين من الخفافيش في ولاية ماهاراشترا الهندية.

وأكد مقال نشرته «مجلة الأمراض المعدية والصحة العامة» الهندية أن خبراء من المجلس الهندي للبحوث الطبية (ICMR) اكتشفوا منذ مارس 2020 الحمض النووي الريبوزي الخاص بالفيروس والأجسام المضادة له في بعض العينات التي تم أخذها من 80 خفاشا من نوعي Rousettus leschenaultii وPipistrellus Pipistrellus في كهف بمنطقة مهابليشور.

ويعد ذلك أول حالة لرصد إصابة خفافيش من نوع Rousettus leschenaultii بفيروس «نيباه» في آخر شهر يونيو 2021، ما يثير المخاوف بشأن قدرة العدوى الخطيرة على التفشي داخل الهند وخارجها.

منظمة الصحة العالمية أدرجت فيروس «نيباه» بين الفيروسات الـ10 الأكثر خطورة على مستوى العالم، وليس هناك حتى الآن أي دواء له، وتصل نسبة الوفيات بين المصابين به إلى ما بين 40 و75 %.

وانتقل الفيروس إلى البشر عبر ريق الحيوانات المصابة به الذي تتركه على الفواكه.

وتم تسجيل أول إصابة بفيروس «نيباه» في الهند عام 2001، وشهدت البلاد منذ ذلك الحين أربع جولات من تفشي العدوى، وقعت الاثنتان الأخيرتان منها في ولاية كيرلا.

الدكتور براجتا ياداف من المعهد الوطني الهندي لعلم الفيروسات قال: إن أيا من أنواع الخفافيش في ولاية ماهاراشترا لم يظهر في وقت سابق أي تعرض لفيروس نيباه، كما أنه من المعروف أن نيباه يعتبر خطرا، حيث لا يوجد دواء أو لقاحات ونسبة الوفيات بين المصابين به عالية، في حين أن معدل إماتة الحالات (CFR) بين المرضى المصابين بـفيروس كورونا يتراوح بين 1-2 %، فإن معدل الوفيات في حالة الإصابة بـ Nipah يتراوح بين 65-100 % وفيروس «نيباه» يدرج في قائمة المراقبة لقائمة منظمة الصحة العالمية لأفضل 10 مسببات الأمراض في بنغلاديش وماليزيا والهند وسنغافورة هي البلدان التي حدث فيها تفشي المرض، وتم تحديده لأول مرة في ماليزيا عامي 1998-1999 أثناء انتشار يشبه التهاب الدماغ بين الخنازير ومربي الخنازير، وشوهد معدل إماتة الحالات عند 40 % في ذلك الوقت، في الهند، كان هناك أربع فاشيات من نيباه مع معدل CFR من 65-100 %.

مساهمات بيل وميليندا غيتس

يسود ارتباك واسع حول اختبار تشخيص «كوفيد-19» ولا بدّ من تحديد الفحوصات الفاعلة وغير المجدية وفي هذا التقرير الذي تصدر موقع مؤسسة بيل وميليندا غيتس، نعرض أهم ما جاء فيه.

تستدعي ثلاث حالات مختلفة إجراء ذلك الاختبار، أبرزها ظهور أعراض حادة. في هذه الحالة، يكون الفرد مريضاً بما يكفي كي يذهب إلى عيادة الطبيب أو المستشفى، ويحتاج الطبيب إلى تقييم وضعه لتحديد طريقة معالجته. في المراحل الأولى، واجه قطاع الرعاية الصحية في الولايات المتحدة صعوبة في إجراء اختبارات كافية لتلك الحالات، لكن عولجت هذه المشكلة لاحقاً.

في حالات أخرى، قد تتعرّض للفيروس، لكن تكون أعراضك خفيفة أو لا تظهر لديك أي أعراض. في هذه

الملياردير الأمريكي ومؤسس شركة مايكروسوفت بيل غيتس

الحالة، يجب أن تتأكد من التقاط العدوى كي تعزل نفسك عن محيطك وتحمي الآخرين. حتى لو لم تظهر أي أعراض أو تأخرت في الظهور، قد تنقل فيروس كوفيد- 19 إلى المحيطين بك. لذا يجب أن تعرف نتيجة فحصك في أسرع وقت.

لكن أخيراً، تبرز الحاجة إلى إجراء الاختبار أيضاً لمراقبة مسار المرض. لا يعني ذلك أن يخضع الناس للمراقبة، بل تسمح هذه العملية لخبراء الصحة العامة بتقدير عدد الحالات في منطقة معيّنة ومعدل تسجيل الإصابات الجديدة. بفضل هذه المعلومات، يستطيع المسؤولون الحكوميون أن يتخذوا قرارات مدروسة حول أفضل الطرق لمنع الفيروس من الانتشار.

شارك آلاف الناس في منطقة سياتل الأمريكية وبتمويل من مؤسسة بيل وميليندا غيتس (بعضهم مصاب بأعراض

كوفيد-19: النسخة المتحورة الهندية

B.1.617

مصنفة على أنها
«مثيرة للقلق»

تاريخ الاكتشاف:
أكتوبر 2020

بلد الاكتشاف:
الهند
ولاية ماهاراشترا (غرب)

الطفرات الرئيسية
في بروتين الشوكة الخارجية «سبايك»

E484Q
قريبة من تلك التي لوحظت على المتحورتين الجنوب إفريقية والبرازيلية (E484K)

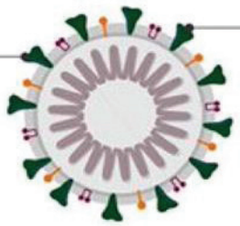

L452R
عثر عليها على متحورة رُصدت في كاليفورنيا

المخاوف الرئيسية

- اكتُشفت إصابات بالمتغير الهندي في أكثر من 12 دولة حول العالم من بينها بريطانيا والولايات المتحدة وسنغافورة وألمانيا وسويسرا
- هناك حاجة إلى مزيد من الأدلة لتحديد ما إذا كان B.1.617 خطيرا بشكل خاص. لا تأكيد حتى الآن ما إذا كان أكثر قابلية للانتقال أو أن الأجسام المضادة أقلّ فعالية ضده

واضحة والبعض الآخر بلا أعراض) في استطلاع قصير عبر الإنترنت وأجروا اختبارات ذاتية عبر أخذ عيّنة من طرف أنوفهم وإرسال النتائج لتحليلها. وتستمر التحضيرات لإطلاق جهود مماثلة في سان فرانسيسكو أيضاً.

يسمح ابتكار عملي بتسهيل هذه العملية، إذ يستطيع الناس أن يجمعوا عيّناتهم الخاصة من الأنف بعود قطني. حيث تكون الاختبارات الحاصلة عبر البلعوم الأنفي مزعجة جداً، وقد تدفع الفرد إلى السعال أو العطس.

إنه عامل سيئ إذا كان الشخص يحمل فيروساً تنفسياً مثل "كوفيد- 19" لأنه يزيد المخاطر المطروحة على العاملين في القطاع الصحي. لحُسن الحظ، من المتوقع أن يتوقف استخدام الاختبارات التي تقضي بإدخال عود إلى أعلى الأنف قريباً.

وتساعد المشاريع الحاصلة في سياتل وسان فرانسيسكو الباحثين على رصد طريقة انتشار الفيروس. سيكون نظام توزيع حُزَم الاختبارات ومعالجتها مفيداً في المستقبل لرصد أي مسببات أمراض جديدة.

لكن برزت مشاكل الاختبارات في إفريقيا جنوب الصحراء تحديداً. تعجز معظم الدول في هذه المنطقة عن تحمّل كلفة أدق الاختبارات، وتفتقر إلى البنى التحتية اللازمة لإجراء دراسات مراقبة، ولهذا السبب لا يتلقى صانعو السياسة هناك معلومات مستحدثة.

ومع التجارب المستمرة نجح الابتكار الجديد في حل هذا النوع من المشاكل تحديداً. تعمل شركات عدة على اختراع اختبارات سريعة يمكن إنتاج عشرات ملايين النسخ منها، بما في ذلك الشركة البريطانية "لوميرا دي إكس" التي ابتكرت جهازاً بحجم هاتف خليوي سميك، وفيه قارئ بطاقة على أحد أطرافه. يأخذ عامل في القطاع الصحي عيّنة من المريض ويضعها داخل الآلة ويتلقى النتائج خلال 15 دقيقة. وبعد حذف أي معلومات شخصية قد تُعرّف عن المريض، يُحمّل الجهاز النتائج على خادم مركزي. ثم يستعمل المحللون تلك البيانات لمتابعة المرض في الوقت الحقيقي، مما يمنح صانعي السياسة معلومات مستحدثة حول المناطق التي تحتاج إلى تكثيف جهود الوقاية والعلاج.

في الوقت نفسه، تعمل شركات أخرى على تخفيض كلفة الاختبارات الدقيقة المستعملة راهناً وتسريع مفعولها، وتحاول زيادة تصنيع اختبارات أقل دقة وكلفة (من عشرات الآلاف يومياً إلى ملايين الجرعات). لقد أصبح إيقاع الابتكارات في هذا المجال باهراً بمعنى الكلمة، ومن المتوقع أن يفيد الجميع.

السلالة الهندية «كوفيد - 19»

سجلت الهند نحو 350 ألف حالة يومياً بحلول نهاية شهر أبريل 2021 مع حالات وفاة يومية تتخطى حاجز الـ 2500 وفاة، بعد أن كانت عشرة آلاف يومياً بنهاية فبراير.

إنطلقت الموجة الثانية في ولاية «ماهاراشترا» غرب البلاد فقد سجلت أكثر من مليون حالة على مدى اسبوعين.

وقد وصلت المنظومة الصحية إلى حالة الانهيار الشامل في آخر شهر أبريل 2021، وتحولت الحدائق العامة إلى عيادات مفتوحة والجنازات الجماعية أصبحت ملمحاً للبلاد وصورها تنتشر حول العالم.

والمأساة الكبرى كانت بسبب نقص الاوكسجين وفي الضغط على أنظمة التوزيع بين الولايات الهندية، حيث يحتاج نقل الاوكسجين إلى سيارات وادوات حفظ.

عانت الهند أيضاً في نقص اللقاحات بعدما قدمَّت أكثر من 100 مليون جرعة بحلول منتصف أبريل 2021.

الحكومة الهندية اعلنت ان 15 - 20 % من الإصابات تعود إلى سلالة متحورة من الفيروس تحتوي على طفرتين غير عاديتين هما «E484Q» و «L425R» وقد سمي المتغير الجديد للفيروس «B.1.617» وبسبب الطفرتين سمي أيضاً «بالطفرة المزدوجة».

كانت النقطة التي أثارت العلماء والخبراء هي هل اللقاحات المتاحة قادرة على التعامل مع هذه التحورات والسلالات الجديدة؟.

الحالة الهندية توضح ان الفيروس لم يختف أو ينتهي، بل يخرج فجأة وقد يظهر في أي وقت بسبب التجمعات البشرية.

السلالة الهندية تعرف بـ «B.1.617» ظهرت لأول مرة في اكتوبر 2020 من بين 361 عينة بولاية ماهاراشترا في غرب الهند وانتشرت حتى أواخر أبريل عام 2021 في 21 دولة حول العالم وفقاً لبيانات المبادرة الدولية لمشاركة معلومات الانفلونزا، وتشبه السلالة التي ظهرت في جنوب أفريقيا والبرازيل، وقد شهدت حالة من الذعر مع تفشي الموجة الثانية بعد ما سجلت أكثر

من 314 ألف حالة إصابة بالفيروس خلال يوم واحد في أواخر أبريل 2021 وسجلت كذلك أكبر عدد من الوفيات والذي تخطى 2014 وفاة يومياً وتخطى بذلك البرازيل لتحتل المرتبة الثانية بين الدول التي سجلت أكبر عدد من الإصابات.

لا زالت الهند تحصي ضحاياها من «كوفيد – 19» والأرقام في إزدياد ومن الصعب التكهن بالمسارات التي ستنتهي إليها فقد سجلت ارقاماً قياسية في الاسبوع الأول من شهر مايو 2021 حيث بلغ اجمالي الاصابات أكثر من 20 مليون إصابة وبعدد مِنْ الوفيات وصل إلى 250 ألف حالة وفاة.

عملية مثيرة تلك التي اعلنت عنها حكومة ولاية «أوتار براديش» والتي يسكنها 240 مليون نسمة، يوم السابع عشر من مايو 2021، انه تم العثور على جثث ضحايا فيروس كورونا ملقاة في بعض الأنهار خاصة «نهر الغانج»، ربما كانت ناجمة عن الفقر والخوف من المرض في القرى.

وأعلنت حكومة الولاية انها ستدفع 5 آلاف روبية (68 دولاراً) للأسر الفقيرة لحرق جثث الموتى أو دفنها.

وقد ارتفعت حصيلة الوفيات التاريخية إلى 270 ألف وفاة وهي في تزايد مستمر.

وفي تطور لافت أعلنت السلطات الصحية عن وفاة 90 حالة في العشرين من مايو 2021 بسبب «الفطر الأسود» والمعروف باسم داء الفطريات بولاية «ماهاراشترا» ونقل 800 مريض الى المستشفيات.

خبراء الصحة أفادوا أن «داء الغشاء المخاطي» يصيب بعض مرضى فيروس كورونا الذين ضعفت أجهزتهم

المناعية أو يعانون حالات كامنة وقد يقود الى فقدان البصر.

ينتج المرض من العفن الموجود في البيئات الرطبة مهاجماً الجهاز التنفسي، وهناك ولايات هندية أخرى أعلنت أن «الفطر الأسود» وباء.

السلالة الهندية خطر على المطعمين

خلصت دراسة أجراها أطباء في الهند، إلى أن معظم حالات الإصابة بفيروس كورونا في البلاد للمطعمين بشكل كامل أو جزئي من العدوى تسبب فيها هذا النوع B.1.617، والذي يتضمن ثلاث سلالات.

ورصد الأطباء في الهند 63 حالة من «العدوى المخترقة» وهي تسمية تطلق على حالات الإصابة بنفس المرض الذي كان يفترض للقاح أن يحصن ضده.

وقالت النسخة الأولية من مقال أعده أطباء All India للعلوم الطبية في نيودلهي ومعهد علم الجينوم: «شمل تحليلنا 63 حالة إصابة مخترقة... تلقى 36 مريضا جرعتين من اللقاح، بينما تلقى 27 آخرون جرعة واحدة. وتلقى عشرة مرضى لقاح «كوفيشيلد» فيما أخذ 53 شخصا لقاح «كوفاكسين».

وأعمار المرضي، وهم 41 رجلا و 22 امرأة، تراوحت ما بين 21 و91 عاما مع متوسط أعمارهم 37 عاما، ولم يكن أحدهم يعاني من أي أمراض مصاحبة يمكن أن تكون عاملا مهيئا للإصابة بالعدوى المخترقة».

وأثناء الدراسة تم العثور على سلالة من نوع B.1.617 لدى معظم الحالات.

تم تحديد السلالة لأول مرة في ولاية ماهاراشترا الهندية، وتعرف أيضا باسم سلالة الطفرة المزدوجة.

وفي العام 2021 انتقل المتحور الهندي إلى العديد من دول العالم ومن بينها البحرين والكويت، حيث أعلنت وزارة الصحة الكويتية اكتشاف حالات تعود الجينات فيها إلى سلالة «دلتا» وهذا الفيروس المزدوج يجمع بين طفرتين مختلفتين على مستوى البروتين السطحي هما: E484Q و L452R، ما يجعلها تفلت بسهولة من قبضة الجهاز المناعي.

ويحتوي متغير «دلتا» على طفرات متعددة على السلالات الأخرى، والميزة الواضحة الأكثر أهمية هي أن الطفرات قد تجعل السلالة أكثر قابلية للانتقال، ووفقاً للدراسة التي أجرتها وكالة الصحة العامة في إنكلترا فإن لقاح «فايزر» باستطاعته توفير فعالية بنسبة 88 % أما فعالية لقاح «استرازينيكا/ إكسفورد» يوفر 60 % ضد المتحور الهندي.

وعلى مدى الشهور الستة الأولى لعام 2021 باتت سلالة المتحور الهندي «دلتا» من فيروس كورونا متواجدة في 74 دولة في كل قارات العالم وأصبحت السلالة المعروفة علمياً باسم «B.1.617» والتي اكتشفت للمرة الأولى في الهند، مثيرة للقلق بسبب نموها السريع.

الدراسات العلمية أكدت أن لقاحات «فايزر» و«إسترازينيكا» و «موديرنا» فعالة إلى حد كبير ضد هذا المتحور.

عادت الهند لتتصدر «المشهد الفيروسي» من جديد، بعد أن سجلت «ولاية ماهاراشترا» أواخر شهر يونيو 2021 نحو عشرين إصابة بسلالة جديدة من كورونا اطلق عليها اسم «دلتا بلس» «DELTA PLUS» وتم تعريفها بإسم «B.167.2.1» وهذا ما استدعى السلطات الصحية الى انشاء مناطق إحتواء لمنع انتشار الطفرة الجديدة وقد وصفت المغيَّر الجديد «دلتا الهندي» بأنه أشبه بفيروس كوفيد يتعاطى المنشطات، فهو أكثر شراسة، علماً ان منظمة الصحة العالمية أعلنت أن هذه السلالة إنتشرت في أكثر من 80 بلداً حول العالم حتى صيف 2021.

«لامبادا» متحور جديد

بالتزامن مع سلالة «دلتا» المتحورة ظهر في الشهر السابع من العام 2021 سلالة أخرى، تعرف بإسم «لامبادا» حيث تتواجد في 29 دولة عبر العالم بحسب رصد منظمة الصحة العالمية.

ظهر الفيروس للمرة الأولى في دولة بيرو، غرب أميركا الجنوبية بعد أن حصد أكبر عدد من الوفيات من هذه السلالة، حيث مات 596 شخصا مقابل كل مئة ألف من السكان، وهذا ما يقرب من ضعف الدولة التالية الأكثر تضررا من متحور «لمبادا»، وهي المجر، التي سجلت 307 حالة وفاة لكل مئة ألف شخص، بحسب موقع «ساينس أليرت».

وإضافة إلى أن بيرو، الأكثر تضررا من متحور «لامبادا»، فإنها كانت أول دولة تم الإبلاغ فيها عن ظهور أول إصابة بالسلالة الجديدة، حيث كان ذلك في أغسطس 2020. وفي تقرير لموقع «الحرة» ذكر أنه بحلول أبريل 2021، كان 97 بالمئة من الحالات المصابة بهذا المتحور في بيرو وحدها، لكنه أصبح ينتشر بسرعة في الكثير من دول العالم.

يشير «ساينس أليرت» إلى أن هناك العديد من الأسباب التي أدت إلى سوء أداء بيرو في مواجهة الوباء، بداية من نظام رعاية صحية ضعيف التمويل وغير مجهّز مع عدد قليل جدًا من أسرة العناية المركزة؛ إلى توفير بطيء للقاحات، فضلا عن قدرة اختبار محدودة، مع اكتظاظ المساكن والسكان.

وفي 14 يونيو 2021، أعلنت منظمة الصحة العالمية، أن «متحور لامبادا يجب أن يوليه العالم اهتماما» (variant of interest).

وسجلت المملكة المتحدة ثماني حالات مؤكدة من

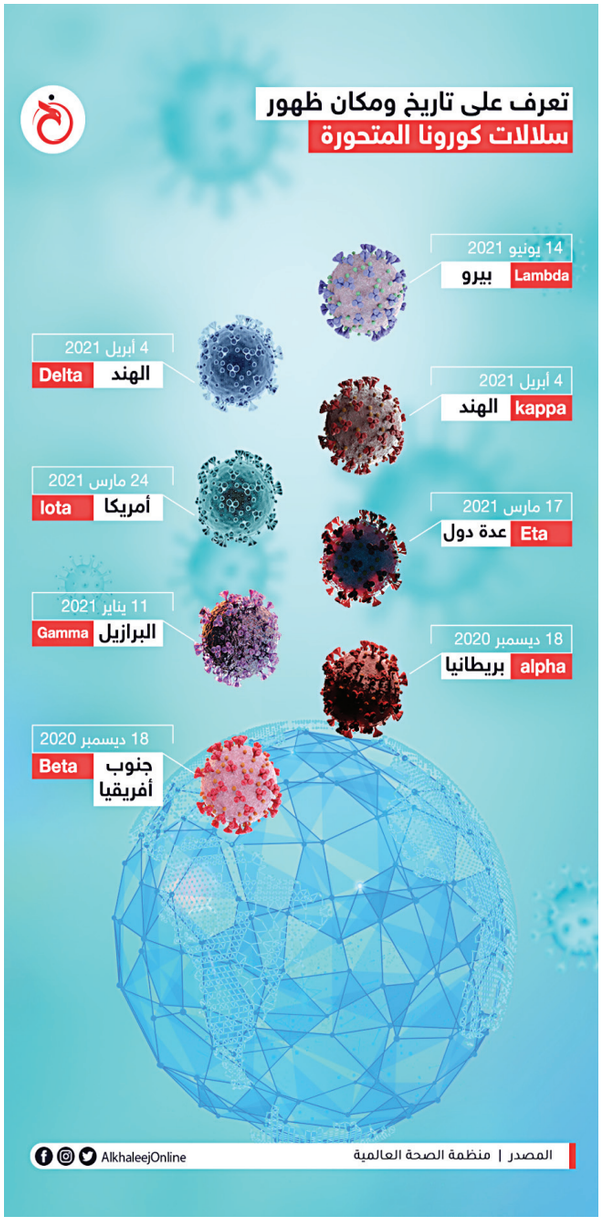

«لامبادا»، تم ربط معظمها بالسفر إلى الخارج.

يؤكد «ساينس أليرت» أن المتحور «لامبادا» يجب أن يثير الاهتمام بالفعل، لأنه من النوع الذي يحتوي على جزيئات سريعة الانتشار وتسبب أعراضا قوية، فضلا عن قدرته على التهرب من المناعة من العدوى أو مكافحته للقاحات السابقة.

يتحدث العديد من العلماء عن «توليفة غير عادية» من الطفرات في لامبادا، والتي قد تجعله أكثر قابلية للانتقال.

لدى المتحور الجديد سبع جزيئات في البروتين الشائك، وهي عبارة عن نتوءات على الغلاف الخارجي للفيروس تساعده على الالتصاق بالخلايا وغزوها. تسهل هذه الجزيئات على متحور لامبادا الارتباط بها وتجعل من الصعب على الأجسام المضادة الالتصاق بالفيروس وتحييده.

لا توجد دراسات منشورة حول متغير لامبادا، لكن نسخة أولية من بحث أجرته كلية غروسمان للطب بجامعة نيويورك حول تأثير لقاحي فايزر وموديرنا ضد متغير لامبادا كشفت أن الأجسام المضادة الناجمة عن اللقاحين ضد السلالة الجديدة أصبحت أقل بمقدار ضعفين إلى ثلاثة أضعاف مقارنة بما ينتجه اللقاحان أمام الفيروس الأصلي.

كما قام باحثون من جامعة تشيلي بالتحقيق في تأثير لقاح سينوفاك ضد متغير لامبادا، ووجدوا أيضا انخفاضا بمقدار ثلاثة أضعاف في تحييد الأجسام المضادة مقارنة بالمتحور الأصلي.

لكن وفقا «لتقييم المخاطر» الأخير للصحة العامة في إنكلترا حول متحور «لامبادا»، لا يوجد دليل على بلد تفوق فيه المتحور على «دلتا».

السلالات البرازيلية المتحورة والجديدة

السلالة البرازيلية الجديدة «B.I» تنتمي إلى السلالة الجينية «B.I.I.248» طرأت عليها 12 طفرة، من بينها «N501y» و «E484K» في البروتين «سبايك» وهو الجزء الذي يستخدمه الفيروس للارتباط بخلايا الجسم واختراقها. والطفرة «E484K» تعد الأكثر إثارة للقلق مقارنة بنظيراتها بحسب علماء الاحياء.

نشأ المتحور الجديد في منطقة «الامازون» وفق الدراسات العلمية وانتشر في مدينة «ماناوس» الشمالية.

سرعة العدوى بهذا الفيروس يفوق معدل سرعة العدوى بفيروس «كوفيد – 19» الأصلي بثلاث مرات وقد خرج عن نطاق السيطرة في عموم البرازيل خلال شهري مارس وأبريل 2021 وسجلت 665 ألف وفاة في شهر مارس 2021 لتصبح بذلك الثانية بعد الولايات المتحدة الأميركية في عدد الوفيات.

تشير المعطيات الأولية ان لقاح «كورونافاك» الصيني الأكثر استخداماً في البرازيل وكذلك لقاح «إسترازينيكا» وهما لقاحان فعالان إلى حد كبير ضد المتحور البرازيلي.

ثم ظهر متحوراً آخر وجديد وهو «B.2» في «ريو دي جانيرو» و «B.4» في ولاية «مناس جيرايسي». وباتت البرازيل أشبه بمختبر في الهواء الطلق.

ما نعرفه عن السلالات الجديدة لكوفيد - 19

يدرس العلماء على وجه السرعة المزيد من السلالات الجديدة من فيروس كورونا القابلة للانتقال مثل تلك التي تم تحديدها في المملكة المتحدة وجنوب أفريقيا والبرازيل، لفهم مستوى التهديد الذي تشكله وهناك عدة آلاف من السلالات المختلفة والمنتشرة للفيروس فالسلالة البريطانية أو سلالة كينت انتشرت في أكثر من 50 دولة، أما سلالة جنوب أفريقيا فقد تم العثور عليها في 20 دولة ومن غير المستجد أن تكون السلالات الجديدة قد تطورت حيث أن كل الفيروسات تتحور لأنها تضع نسخاً من نفسها لتنتشر وتنمو ووفق آراء العلماء المختصين يمكن أن تكون سلالات المملكة المتحدة وجنوب أفريقيا والبرازيل أكثر عدوى أو يسهل إلتقاطها.

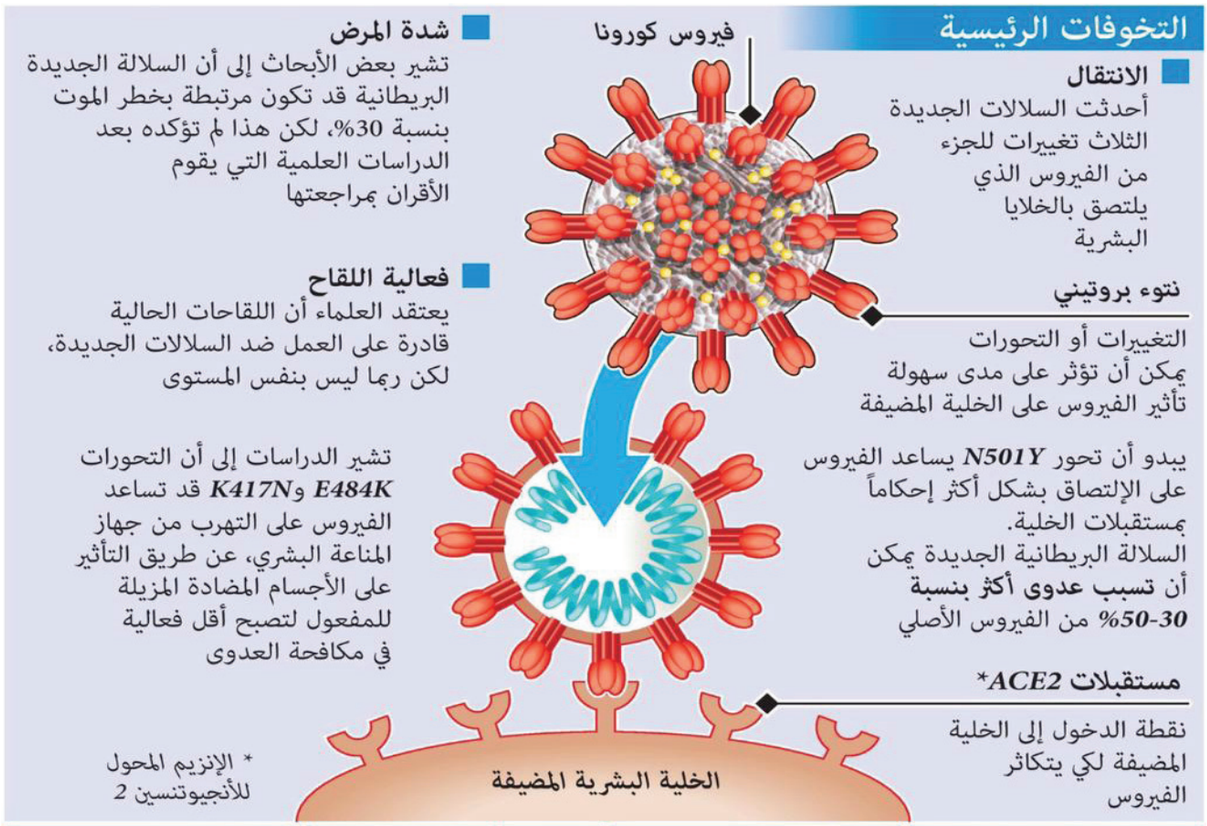

السلالات الجديدة	بريطانيا	جنوب أفريقيا	البرازيل
معروفة باسم	B117	B1351	P1
تاريخ ومكان اكتشافها في أول الأمر	أيلول (سبتمبر) 2020، جنوب شرق إنكلترا	تشرين الأول (أكتوبر) 2020، مقاطعة كيب الشرقية بجنوب أفريقيا *	2 كانون الثاني (يناير) 2021، بين المسافرين القادمين إلى اليابان من البرازيل
تاريخ التبليغ عنها*	14 كانون الأول (ديسمبر)	18 كانون الأول	10 كانون الثاني (يناير)
التحورات الرئيسية	N501Y	E484K ،N501Y K417N	E484K ،N501Y K417T

المصدر: BBC, World Health Organisation * لمنظمة الصحة العالمية GRAPHIC NEWS جرافيك نيوز

* السلالة الأفريقية من أشرس السلالات المتحورة فتكاً نظراً لما تحتويه من خصائص مقاومة للأجسام المضادة التي تفرزها اجسام المصابين ولديها خاصية تتمثل بزيادة اعداد بروتين الأشواك على السطح.

■ بعد تلك التحولات حدثت طفرات جديدة وهو أمر شائع الحدوث أطلق عليها مسمى المدينة أو الدولة التي ظهر فيها ومنها: سلالة كاليفورنيا «L4256» والسلالة الفنلندية وتحمل اسم «796H-Finj» وكشفت مختبرات متخصصة ان هذا الفيروس قد لا يظهر في فحص الـ«PCR» والسلالة النيجيرية – «B1525»

تسمية السلالات الجديدة

إستخدمت منظمة الصحة العالمية نظاماً جديداً لتسمية السلالات المتحورة والذي يتفادى اسماء الدول للمساعدة في إزالة «الوصم» عنها.

يعتمد النظام على استخدام الاحرف الابجدية الأغريقية يبدأ بحرف «ألفا» وينتهي بحرف «أوميغا»، فقد أصبح اسم المتحور البريطاني «ألفا» (أ) بدلاً عن B.1.17، والجنوب أفريقي «بيتا» (ب) بدلاً عن B.1.351، والبرازيلي «غاما» (ج) بدلاً عن B.1.1.28.1، والهندي «دلتا» (د) بدلاً عن B.1.617.2.

كما منح النظام الجديد اسم الحرف اليوناني (إيبسيلون) على متحورين اثنين ظهراً في الولايات المتحدة، واسم حرف (إيتا) على متحور آخر ظهر في نيجيريا والمملكة المتحدة.

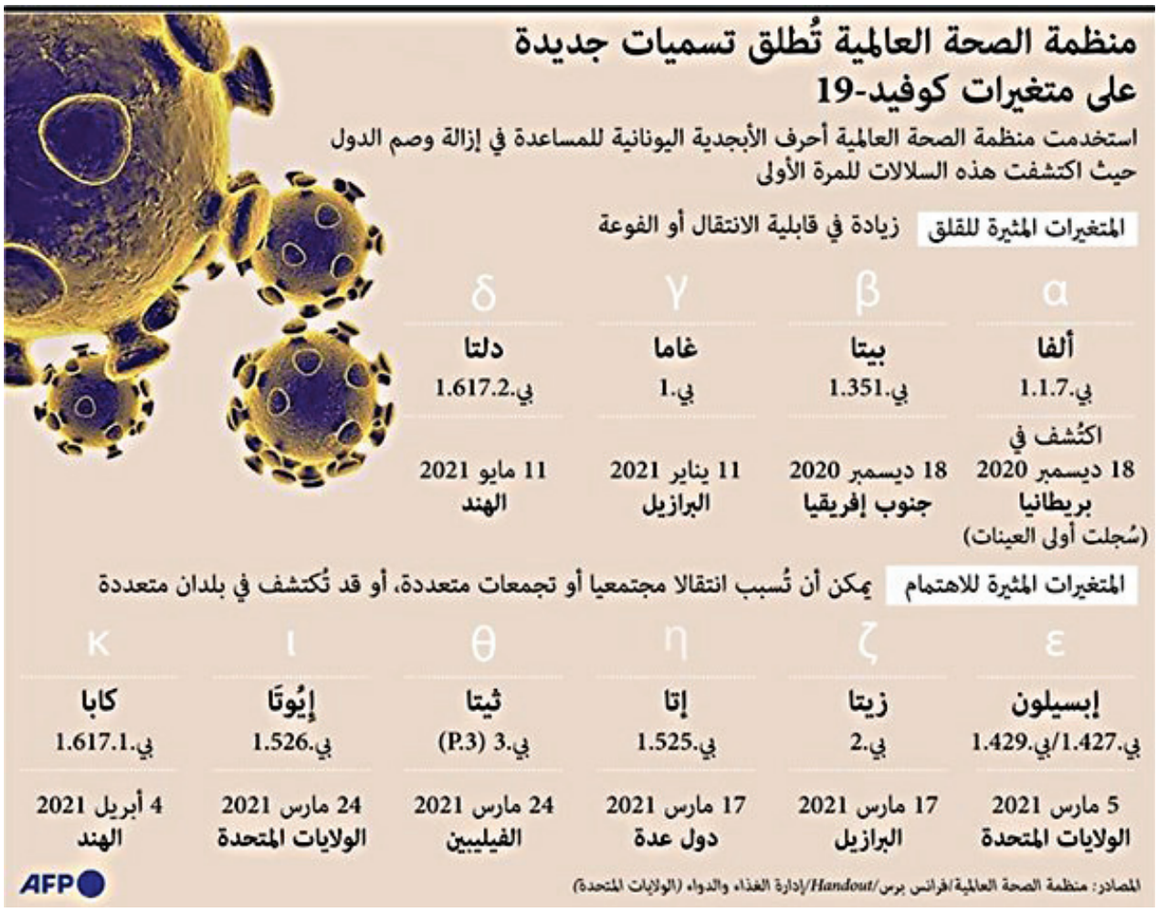

السلالة الفيتنامية

إنضمت السلالة الفيتنامية إلى السلالات الأربع وهي «الهندية، والبريطانية، والجنوب أفريقية، والبرازيلية» في أحدث التحورات التي شهدها العالم، أول شهر يونيو 2021، فقد اكتشفت فيتنام نسخة جديدة متحورة تنتقل سريعاً وهي نسخة هجينة ومزيج بين السلالة الهندية البريطانية.

ماذا نعرف عن سلالة كورونا الجديدة

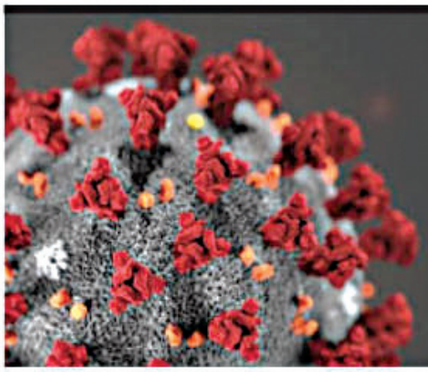

تتزايد المخاوف بشأن سلالة من فيروس كورونا شديدة العدوى ظهرت في المملكة المتحدة. السلالة الجديدة، التي يُطلق عليها اسم B.1.1.7، موجودة حالياً في أماكن أخرى من العالم

لماذا تثير السلالة الجديدة المخاوف

B.1.1.7 تحمل عدداً هائلاً من التحولات - تحولات في الشفرة الوراثية الفيروسية - وتستبدل بسرعة الأنواع الأخرى من الفيروس في أجزاء من إنكلترا

سرعة الانتقال

السلالة المتحولة قابلة للانتقال بسرعة أكثر 70% من سلالات الفيروسات الأخرى في بريطانيا

المؤشر R - الذي يشير إلى ما إذا كان انتشار الوباء يزيد أو يتقلص - قد يكون ارتفع بمقدار 0.4 مما يجعل السيطرة على المرض أكثر صعوبة

الانتشار الجغرافي

في جميع أنحاء المملكة المتحدة. توجد حالات أيضاً في دول أخرى منها أستراليا والدنمارك وهولندا. سلالات متحولة مماثلة ظهرت في جنوب أفريقيا

الأعراض: هي نفسها إلى حد كبير. حرارة جسم مرتفعة وسعال جاف مستمر وفقدان حاستي الشم والتذوق أو تغيرهما

لا يُعتقد أن B.1.1.7 أكثر فتكاً من كورونا المستجد، لكن سرعة انتقاله وانتشاره قد يسبب مشاكل وعقبات للمستشفيات. من المرجح أن اللقاح سيكون فعالاً أيضاً ضد السلالة المتحولة الجديدة

تحولات الفيروس: الفيروسات عادة ما تتغير بسبب التحولات التي تتعرض لها، مما يؤدي إلى ظهور فيروسات جديدة.

تحليلات أولية لـ B.1.1.7 تحدد تحولين اثنين - يثيران القلق - في النتوءات على سطح الفيروس

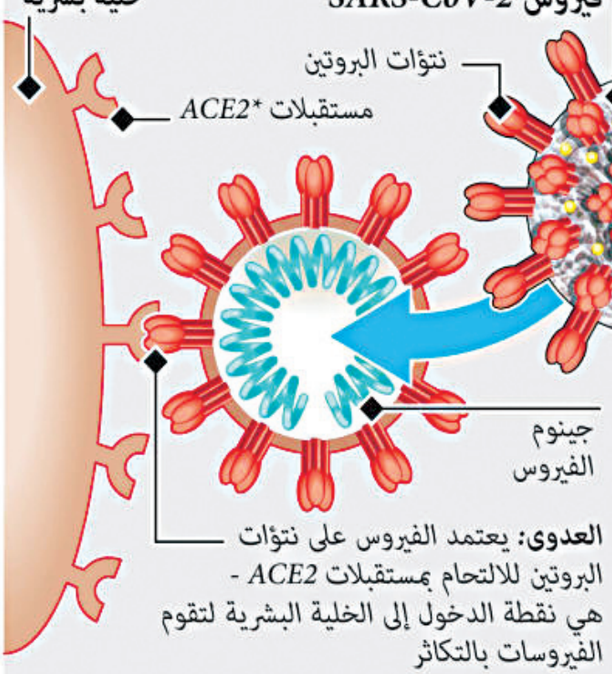

العدوى: يعتمد الفيروس على نتوءات البروتين للالتحام بمستقبلات *ACE2* - هي نقطة الدخول إلى الخلية البشرية لتقوم الفيروسات بالتكاثر

تحولات N501Y: ظهر سابقاً أنها تزيد من إحكام التحام البروتين بمستقبلات ACE2

شطب H69/V70: يجعل الأجسام المضادة لفيروس كورونا عند الناجين من الإصابات أقل فعالية في مهاجمة الفيروس

المصدر: BBC, FT, Science * الإنزيم المحول للأنجيوتنسين 2 الصور: CDC جرافيك نيوز GRAPHIC NEWS

حدود السلالات المتحورة؟

حقق تحور «ألفا» من الفيروس، الذي اكتشف أول مرة في «كنت» في المملكة المتحدة، قفزة في قدرته على الانتشار، والآن هناك «دلتا» الذي اكتشف أول مرة في الهند، وهو ذو قدرة أعلى من ألفا على الانتشار، وهذا حصل بعد اكتشاف «كوفيد – 19» لأول مرة في ووهان نهاية عام 2019.

هذا يعني أننا أمام عملية لا تنتهي لاستعراض السلالات المتحورة المحسنة التي يصبح السيطرة عليها أكثر صعوبة؟ وأنه لا توجد سقوف لدرجة الخطورة التي يصل إليها الفيروس؟

عن هذا التساءل أجاب «جيمس غالفرا» مراسل الشؤون الطبية في هيئة الاذاعة البريطانية بالقول ان الفيروس حقق قفزة من إصابة الخفافيش، وهي نوع مختلف تماما عن البشر، إلى إصابة البشر.

تقول البروفيسورة ويندي باركلاي، وهي خبيرة في علم الفيروسات من إمبريال كوليج لندن «حين تصيب الفيروسات البشر أول مرة نادرا ما تكون في حال مثالية. تستقر أولا ثم تبدأ بتطوير نفسها» هناك أمثلة على فيروسات، من الإنفلونزا إلى إيبولا، تحقق الطفرة ثم تتسارع عملية تطورها.

أوضح الطرق لمقارنة القوة البيولوجية لانتشار الفيروسات هي فحص قيمة الرقم R، وهو يعكس معدل عدد الأشخاص الذين ينقل إليهم العدوى شخص مصاب واحد، في حال لم يكن أي منهم يتمتع بمناعة ولم يتخذوا إجراءات الحيطة والحذر.

كان ذلك الرقم في حدود 2.5 حين بدأ الوباء في ووهان، وهو قد يصل 8 في حال سلالة دلتا، وفقا لخبراء تتبعوا أنماط انتقال العدوى في جامعة إمبريال كوليج.

وقال إيريس كاتزوراكيس، الذي يدرس تطور الفيروسات في جامعة أكسفورد إن هذا الفيروس قد فاجأ الخبراء ، حيث أنتج تحورين، الفا ودلتا في خلال 18 شهرا، وكل واحد منهما ذو قدرة تزيد 50 في المئة على العدوى عن الذي سبقه.

لكنه يرى أن الفيروس قد يطور قدرته على العدوى عدة مرات في السنوات القادمة.

وكانت بعض أنواع الفيروسات الأخرى تتمتع بقيمة أعلى ل R ، ففيروس الحصبة مثلا يستطيع التسبب في انفجارات لمعدلات العدوى.

وترى البروفيسورة باركلاي أن أمام الفيروس مجالا لتطوير نفسه أكثر . الرقم في حال الحصبة، مثلا، يتراوح بين 14 و 30، كما تقول باركلاي وتضيف أننا لا نعرف كيف ستسير الأمور.

هناك العديد من الحيل التي قد يلجأ إليها الفيروس من أجل زيادة قدرته على الانتشار، منها:

تحسين قدرته على اختراق الخلايا البشرية والنجاة لفترة أطول في الهواء وزيادة كمية الفيروسات التي تخرج مع السعال والعطس وتغيير توقيت انتقاله من شخص مصاب إلى آخر غير مصاب.

وقد لجأ تحور ألفا إلى حيلة أصبح معها أكثر قدرة على التسلل ومغافلة أجهزة الإنذار في الخلايا عند الضحية.

هذا لا يعني أننا مع وصولنا إلى حرف أوميغا في الحروف الهجائية اليونانية سنكون وصلنا إلى وحش لا يمكن إيقافه.

«في النهاية هناك سقف لإمكانيات التحور، وليس هناك فيروس قادر على التحور لعدد غير محدود من المرات»، كما يقول د كاتزوراكيس.

كذلك هناك مبدأ التعويض، حين يصبح الفيروس جيدا في خاصية معينة يصبح أسوأ في خاصية أخرى. سيعمل التطعيم على محاصرة الفيروس في مسار تطور مختلف.

يقول د. كاتزوراكيس إن هناك احتمالا أن التغيرات التي تحدث في الفيروس في محاولاته لمقاومة اللقاحات قد تنهكه وتضعف قدرته على الانتقال بشكل مطلق.

ويرى أن فصيل «بيتا» الذي يملك تحورا يساعده على تجنب نظام المناعة لم ينطلق بعد، وهذا أحد الأمثلة. لكن فصيل دلتا يملك تحورات تساعده على الانتشار وخداع نظام المناعة بشكل جزئي.

ومن الصعب التكهن بالاستراتيجية الأفضل لمواجهة فيروس كورونا، فمختلف الفيروسات تستخدم تقنيات مختلفة للاستمرار في العدوى. فيروس الحصبة مثلا ينتقل بشكل انفجار، لكنه يكسب المريض مناعة مدى الحياة، لذلك عليه أن يجد مريضا غير محصن.

أما فيروس الإنفلونزا الموسمية فلديه قيمة R منخفضة، تتجاوز 1 بقليل، لكنه دائم التحور وفي كل الأحوال من الصعب التنبؤ بمسار الفيروس بعد سنة من الآن.

السلالات المثيرة للإهتمام

صنَّفت منظمة الصحة العالمية 7 متحورات، «مثيرة للإهتمام» يحوز اثنان منهما، «إبسيلون» و«لامدا»، على اهتمام أكبر بعد نشر دراسات جديدة ترجح أنهما «مثيران للقلق».

فوفقا لدراسة جديدة نشرتها «American Association for the Advancement of Science»، أظهر متحور «إبسيلون»، الذي اكتشف في كاليفورنيا الأمريكية، قدرة في التغلب على الأجسام المضادة التي تنتجها لقاحات الحمض النووي الريبي المرسال (مثل فايزر وموديرنا)، كما مقاومة الأجسام المضادة التي تنتجها إصابة سابقة من فيروس كورونا.

أما المتحور «لامدا»، فقد بدأ بإقلاق المسؤولين في أمريكا اللاتينية ويحير العلماء بسبب مجموعة طفرات «غير عادية». وهذا المتحور ظهر في البيرو وسجل في 27 دولة.

لكن منظمة الصحة لم تغير تصنيفها بشأن هذين المتحورين لتاريخ الخامس من يوليو 2021، إذ لا يزالان ضمن خانة «المثيرة للاهتمام» ولم ترفع لخانة «المثيرة للقلق».

هل توفر اللقاحات الحماية من السلالات الجديدة؟

تتحَّور جميع الفيروسات بشكل طبيعي بمرور الوقت ولا يُعد سارس كوف 2 استثناءً، فمنذ أن تم التعرف على الفيروس لأول مرة في أوائل عام 2020، ظهرت آلاف الطفرات عليه.

تسمى الفيروسات المتحورة بالسلالات، ولمعظم التغييرات تأثير ضئيل أو معدوم على خصائص الفيروس، وفقا لمنظمة الصحة العالمية والكثير منها يختفي بمرور الوقت، ويراقب الخبراء في جميع أنحاء العالم الطريقة التي تطور بها فيروس سارس كوف 2 (فيروس كورونا) حتى تتمكن الحكومات من الاستجابة للتغيرات المهمة في الفيروس.

أربع سلالات

يهتم الخبراء بأربعة سلالات مختلفة من فيروس سارس كوف 2 وهي ألفا (تم العثور عليها لأول مرة في بريطانيا)، وبيتا (جنوب إفريقيا)، وغاما (البرازيل) ودلتا (الهند).

وتم تصنيفها جميعا على أنها سلالات مثيرة للقلق من قبل منظمة الصحة العالمية لأنها تشكل خطرا متزايدا على الصحة العامة من خلال جعل الفيروس أكثر قدرة على العدوى، أو التسبب في مرض أشد، أو تمكين الفيروس من مقاومة اللقاحات في نسبة أكبر من الحالات.

وقررت منظمة الصحة العالمية تسمية تلك السلالات بالأحرف الأبجدية اليونانية لتجنب ربطها بالبلدان التي تم التعرف عليها فيها لأول مرة.

سلالة دلتا؟

معدل العدوى بهذه السلالة أعلى بحوالي 60 في المئة من معدل عدوى بسلالة ألفا، والتي لديها بالفعل معدل عدوى أعلى بنسبة 50 في المئة مقارنة بالسلالة الأصلية لفيروس كورونا.

وتسببت سلالة دلتا في موجة ثانية قاتلة من الإصابات في الهند في أبريل/ نيسان ومايو/ آيار 2021، وأصبحت أيضا السلالة المهيمنة في بريطانيا.

وتم رصد هذه السلالة في أكثر من 90 دولة حول العالم، مع تأكد تفشيها في الولايات المتحدة والصين وإفريقيا والدول الاسكندنافية ومنطقة المحيط الهادئ.

وتُظهر بيانات بريطانيا أن الأشخاص المصابين بسلالة

دلتا ولم يتلقوا اللقاح أكثر عرضة للدخول إلى المستشفى بمرتين من أولئك الذين أصيبوا بسلالة ألفا.

أظهرت الدراسات أيضا أن سلالة دلتا مرتبطة بأعراض مختلفة مقارنة بالسلالات السابقة لفيروس كورونا.

وأعراض كوفيد- 19 الكلاسيكية المقرة من قبل خدمة الصحة الوطنية في بريطانيا هي السعال المستمر والحمى وفقدان حاسة الشم أو التذوق.

ويقول البروفيسور تيم سبيكتور، الذي يدرس أعراض كوفيد، إنه على الرغم من أن الحمى لا تزال شائعة جدا في سلالة دلتا، إلا أن فقدان حاسة الشم لم يعد من بين أبرز عشرة أعراض لها.

ويعد الصداع والتهاب الحلق وسيلان الأنف من أكثر الأعراض المرتبطة بالعدوى بهذه السلالة في بريطانيا.

سلالتي دلتا بلس ولامدا؟

أدرجت الهند في 23 يونيو 2021 تحور «دلتا بلس»، وهو من أشكال سلالة دلتا الحالية، من بين السلالات المثيرة للقلق.

وقد تم وصفها لأول مرة من قبل هيئة الصحة العامة في انجلترا بأنها مماثلة لدلتا ولكن مع طفرة إضافية (كي 417 إن) في «سبايك» البروتين الذي يمكن الفيروس من ربط نفسه بالخلايا المصابة.

وتم العثور على دلتا بلس في 9 دول أخرى هي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والبرتغال وسويسرا واليابان وبولندا ونيبال وروسيا والصين.

وتقول وزارة الصحة الهندية إن سلالة دلتا بلس تنتشر بسهولة أكبر، وترتبط بسهولة أكبر بخلايا الرئة، ويحتمل أن تكون مقاومة لنوع من العلاج يسمى العلاج بالأجسام المضادة أحادية المنشأ.

تقول منظمة الصحة العالمية إن سلالة لامدا مسؤولة عن زيادة كبيرة في انتقال العدوى في بيرو وتشيلي والأرجنتين والإكوادور، فقد أضافت سلالة لامدا إلى قائمة السلالات ذات الأهمية.

تحوّرات فيروس كورونا:
ما هي، وكيف تحصل

1 تزداد فرص حصول تحوّرات جديدة كلما إزداد عدد الإصابات

تزداد فرص تحوّر الفيروسات بزيادة انتشارها. وشوهدت آلاف التغييرات الطفيفة في فيروس كورونا إلى الآن، لم يكن لمعظمها إلا تأثيرات بسيطة

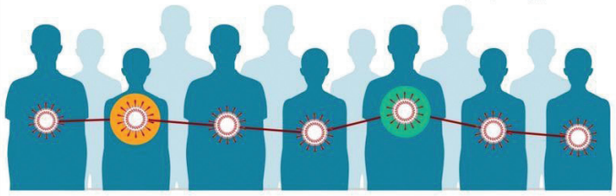

2 قد تؤدي بعض التحوّرات إلى ظهور أنواع جديدة

بين الوهلة والأخرى، تتغير الفيروسات وتتحوّر بطرق تمكنها من البقاء والتكاثر. وبإمكان الفيروسات التي تتحوّر بنجاح أن تصبح النماذج المهيمنة

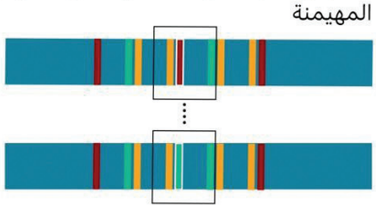

تحصل تغيّرات أو تحوّرات طفيفة في الفيروس مع انتشاره

3 تنتشر ثلاثة تحوّرات رئيسية بسهولة أكثر من غيرها

تنتشر العديد من فيروسات كورونا المحوّرة في أرجاء العالم. ويشعر الخبراء بالقلق حول 3 من هذه التحورات تحديدا التي تظهر فيها تغيرات في بروتين الفيروس الشوكي الذي يمكنه من اختراق الخلايا البشرية

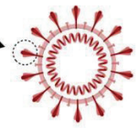

هناك اختلافات طفيفة في الشفرة الجينية لكل من هذه التحوّرات

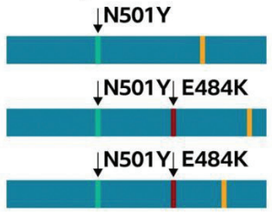

شوهد في بريطانيا وجنوب إفريقيا والبرازيل قد يساعد في سرعة انتشار الفيروس

تحوّر E484K الذي شوهد في جنوب إفريقيا والبرازيل وبعض التحورات في بريطانيا قد تؤثر على الرد المناعي

ستستمر تحوّرات جديدة بالظهور، ولكن يمكن تعديل اللقاحات لمواجهتها

BBC المصدر: مراكز السيطرة على الأوبئة والوقاية منها، بحوث بي بي سي

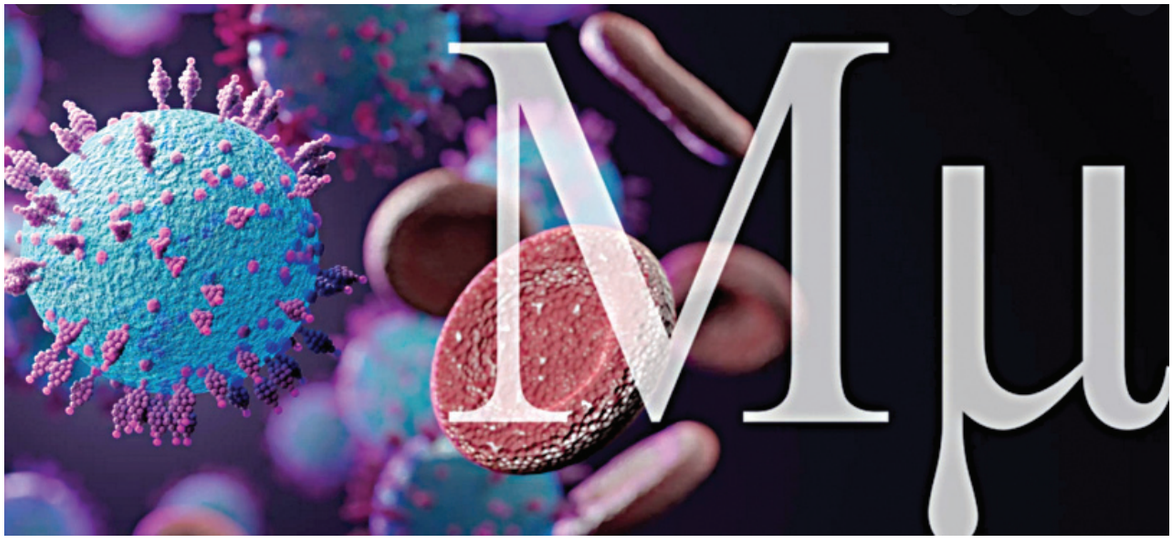

وقد ارتبطت هذه السلالة بحالات كوفيد في العديد من البلدان لا سيما في أمريكا الجنوبية ومنطقة الأنديز (بيرو وتشيلي والأرجنتين والإكوادور).

وتم العثور على هذه السلالة في 29 دولة، وفقا للمبادرة العالمية لمشاركة بيانات أنفلونزا الطيور التي تتبادل أيضا البيانات حول فيروس كورونا.

«مو» سلالة جديدة ظهرت في كولومبيا

نسخة متحورة جديدة أطلت برأسها في الأول من سبتمبر عام 2021 من فيروس كورونا اطلق عليها اسم «مو» تم رصدها للمرة الأولى في كولومبيا وبشهر يناير 2021.

منظمة الصحة العالمية أوضحت أن النسخة المتحورة «B1.621.1» بحسب تسميتها العلمية تم تصنيفها كمتحور يجب مراقبته، فلديه طفرات يمكن أن تنطوي على خطر «هروب مناعي» مقاوم إلى اللقاحات، الأمر الذي يجعل من الضروري إجراء المزيد من الدراسات عليه.

وبالرغم من ان الانتشار العالمي للمتحور «مو» بين الحالات المتسللة قد انخفض ويقل عن 0,1% إلا أن انتشاره في كولومبيا (39%) والاكوادور (13%).

ووفق خبراء اللقاحات ومنظمة الصحة العالمية فالسلالة الجديدة تنتمي إلى مجموعة (B1) والتي تضم «الفا» و«بيتا» و «دلتا».

اللقاحات والحماية من السلالات؟

تشير الدراسات إلى أن لقاحات كوفيد المتاحة مازالت فعالة ضد السلالات الجديدة، لكن فعاليتها تقل ضد السلالات الأحدث مقارنة بالسلالة الأصلية لفيروس كورونا، خاصة بعد جرعة واحدة فقط من اللقاح.

ففي دراسة أجرتها هيئة الصحة العامة في إنجلترا، قدمت جرعة واحدة من لقاح فايزر أو أسترازينيكا 33 في المئة فقط من الحماية ضد سلالة دلتا، مقارنة بـ 50 في المئة ضد سلالة ألفا. ومع ذلك، ارتفعت هذه المعدلات بعد الجرعة الثانية إلى 88 في المئة للقاح فايزر، و 60 في المئة للقاح أسترازينيكا.

وأكدت دراسة منفصلة أجرتها جامعة أكسفورد أن لقاحي فايزر وأسترازينيكا كانا فعالين ضد سلالتي دلتا وكابا اللتين تم رصدهما في الهند.

مكافحة السلالات الجديدة؟

استجابة للانتشار السريع لسلالة دلتا في بريطانيا، عملت الحكومات في إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا الشمالية على تقليص الفجوة الزمنية بين الجرعتين الأولى والثانية من اللقاح للمجموعات الأكبر سنا. فقد أصبح بإمكان من تجاوز من العمر 40 عاما حجز المواعيد بعد 8 أسابيع، وهي فجوة زمنية أقصر من الأسابيع الـ 12 السابقة.

صور لفيروس كورونا المستجد

رسوم توضيحية ملوّنة اصطناعيا لفيروس كوفيد-19 لإظهار كل جوانبه

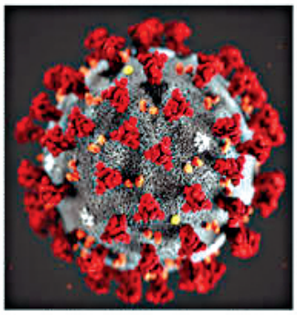

مورفولوجيا هيكلية دقيقة، عملت عليها ليزابيث مينزيس (مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها)

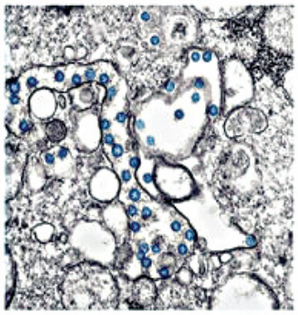

صورة مجهر إلكتروني نافذ، الفيروس ملّون بالأزرق (مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها)

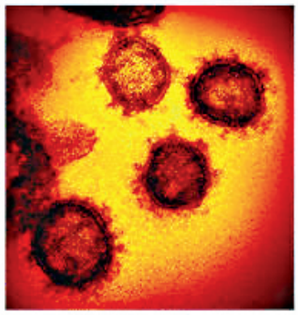

رسم مجهر إلكتروني نافذ (المعاهد الوطنية لشؤون الصحة)

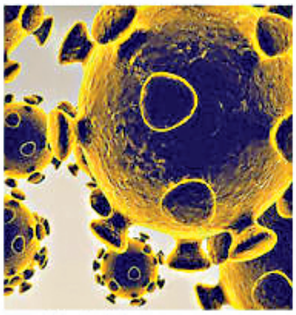

رسم توضيحي لإدارة الغذاء والدواء الأميركية

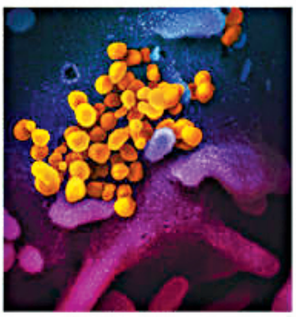

صورة مجهر إلكتروني ماسح (المعاهد الوطنية لشؤون الصحة) الفيروس باللون الأصفر

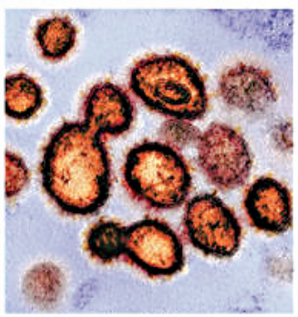

صورة مجهر إلكتروني نافذ، (المعاهد الوطنية لشؤون الصحة)

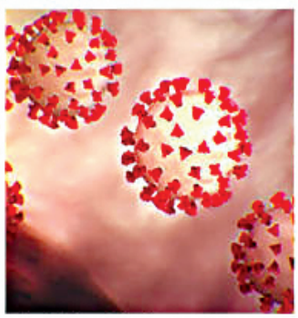

رسم توضيحي لمراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها

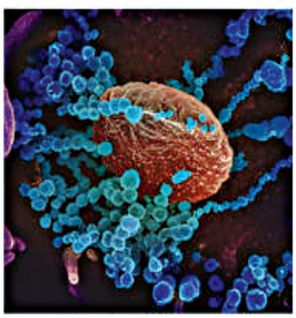

صورة مجهر إلكتروني ماسح (المعاهد الوطنية لشؤون الصحة) الفيروس باللون الأزرق

صورة لجزيئات الفيروس باللون الأرجواني (المعاهد الوطنية لشؤون الصحة)

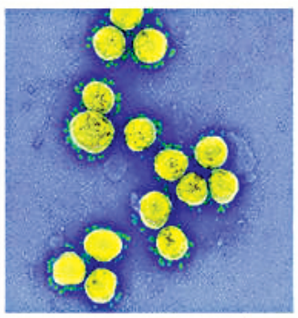

صورة مجهر إلكتروني (المعهد الوطني للحساسية والأمراض المعدية)

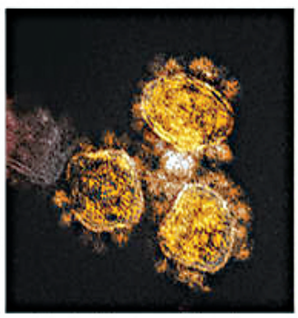

جسيمات الفيروس الخارجة من الخلية في المختبر (المعاهد الوطنية لشؤون الصحة)

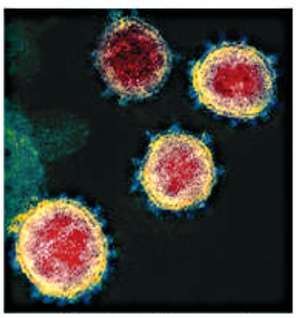

صورة مجهر إلكتروني نافذ (المعاهد الوطنية لشؤون الصحة)

المصادر: مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها، المعاهد الوطنية لشؤون الصحة، إدارة الغذاء والدواء الأميركية، المعهد الوطني للحساسية والأمراض المعدية

AFP

الفرق بين السلالات المتحورة والهجينة من فيروس كورونا

السلالة المتحورة (VARIANTS)

نسخة من الفيروس تضم مجموعة من الطفرات (أي التغيرات في مادته الوراثية)

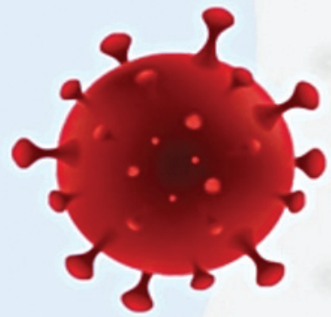

تم تحديد أكثر من 4 آلاف متحورة عالميا حاليا تعتبر 3 نسخ متحورة مثيرة للقلق، وفقا لمنظمة الصحة العالمية: نسخة اكتشفت في إنجلترا، ونسخة في جنوب أفريقيا، ونسخة في اليابان (اكتُشفت هذه النسخة لدى مسافرين قادمين من البرازيل، ولذلك سُميت بالمتحوّرة البرازيلية).

السلالة الهجينة (RECOMBINANT)

نتاج امتزاج فيروسين يتفرعان من فيروس أصلي

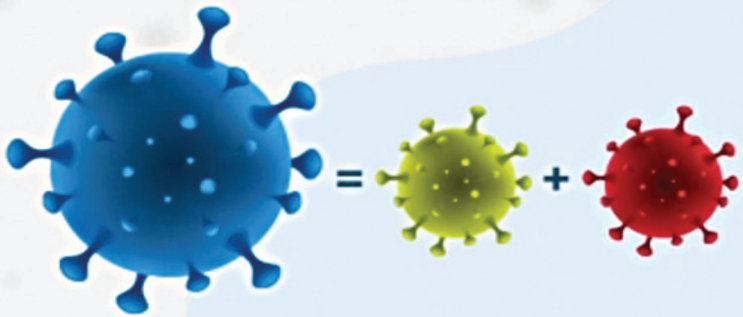

لحدوث تلك العملية، يجب أن يصيب فيروسان نفس الخلية لدى مريض واحد، وفي لحظة دقيقة جدا، يحدث نسخ متماثل، وينتج عنه تغيير في المادة الوراثية، فيقوم الإنزيم المسؤول عن ولادة نسخة جديدة، بإفراز فيروس ثان هجين

الوفيات والإصابات الجديدة المسجلة في 17 يوليو 2021

مجموع الوفيات	من بينها الجديدة	مجموع الإصابات	من بينها الجديدة
4 086 242	7 253	189 911 113	463 309

البلدان الأكثر تضررا

	الوفيات	من بينها الجديدة (آخر حصيلة)	الإصابات
الولايات المتحدة	608 898	94	34 069 082
البرازيل	541 266	868	19 342 448
الهند	413 609	518	31 106 065
المكسيك	236 240	225	2 654 699
البيرو	195 047	112	2 092 125
روسيا	148 419	764	5 958 133
بريطانيا	128 683	41	5 386 340
إيطاليا	127 864	13	4 284 332
كولومبيا	115 831	498	4 621 260
فرنسا	111 496	16	5 855 198
الأرجنتين	101 434	276	4 749 380
ألمانيا	91 362	3	3 744 681

المصدر: تعداد لفرانس برس وفقا للأرقام الصادرة عن السلطات الصحية — الحصيلة العالمية حتى 18 يوليو، 2021 — AFP

أكثر الجوائح فتكاً

تجاوز ضحايا «كوفيد – 19» الـ 4,966,794 ملايين حالة وفاة في العالم لغاية 25 أكتوبر 2021، ليصبح واحداً من أكثر الجوائح فتكاً بالبشر منذ مطلع القرن العشرين حتى اليوم.

وبحسب تعداد «جامعة جونز هوبكنز» الأميركية تسبب وباء «كوفيد – 19» بحصد أكثر من 4,966,794 ملايين شخص حول العالم، كما تجاوز عدد الإصابات الـ 244,572,682 مليوناً، أي أكثر من الوفيات التي تسبب بها معظم الأوبئة الفيروسية في القرنين العشرين والحادي والعشرين باستثناء وباء «الانفلونزا الأسبانية» الذي أودى بحياة 50 مليون شخص، أما «الايدز» نقص المناعة المكتسبة والذي لا يوجد لقاح ضده حتى الآن وبعد 50 عاماً من ظهوره فقد أدى إلى وفاة 33 مليون شخص، وطبقاً للاحصاءات المنشورة على المستوى العالمي، فقد بلغ عدد حالات الوفاة لغاية الثاني من اكتوبر 2021 نحو خمسة ملايين شخص، وفي الولايات المتحدة الأميركية وحدها سجلت أكثر من 700 ألف حالة وفاة وفقاً لإحصاء قامت به جامعة جونز هوبكنز.

حصاد العام الأول لـ «فيروس كورونا»

الإصابات لعام 2020 بلغ 81,475,053 مليون

حالات الوفاة 1,798.050 بنسبة 2.2 %

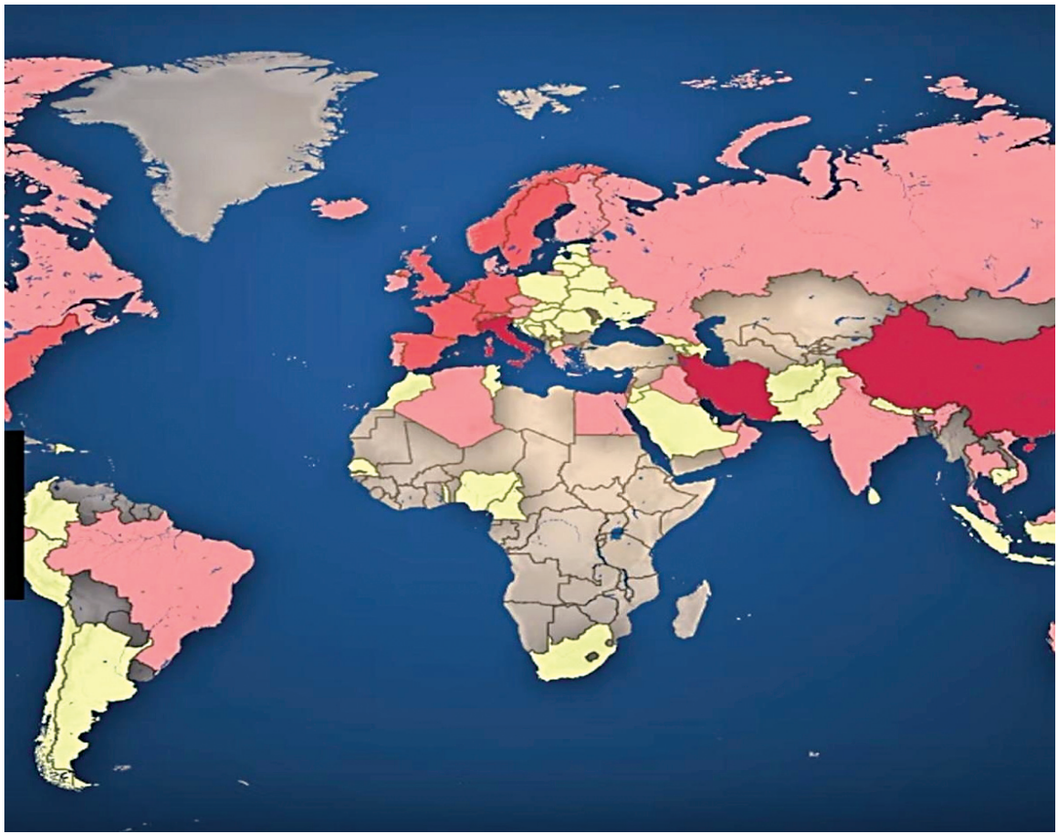

بعد مرور العام الأول من عمر الجائحة كورونا كشفت ارقام منظمة الصحة العالمية أن العدد الإجمالي للإصابات بلغ 81,475,053 مليون نهاية عام 2020 أما إجمالي حالات الوفاة فهو 1,798,050 مليون شخص وسجلت الاصابات في الأميركيتين وبلغ 35,393,389 تليها على التوالي كل من: أوروبا 26,225,728، جنوب شرق آسيا 11,961,922، منطقة الشرق الأوسط 4,910,107، إفريقيا 1.895.467 وأخيرا دول غرب المحيط الهادئ 1,087.695.

أما الدول التي سجلت أعلى معدل إصابات فأولها الولايات المتحدة الأمريكية بإجمالي بلغ 19,346,790، الهند 10,266,674، البرازيل 7,563,551، روسيا 3,159,297، فرنسا 2,556,708 المملكة المتحدة 243,892 ، إيطاليا 2,083,689، إسبانيا 1,893,502، ألمانيا 1,719,737، كولومبيا 1,614,822، الأرجنتين 1,602,163 وأخيرا المكسيك 1,401,529.

الفصل الثالث

رحلة كفاح الكويت ضد كورونا

- عام المواجهة والتحدي
- دور تاريخي للبنك المركزي وقطاع المصارف
- خطة التحفيز الاقتصادي
- أرقام كويتية في ظلال الجائحة
- حلم اللقاح وبدء التطعيم
- اللقاح للجميع
- قرارات الحظر
- عودة الى الحياة الطبيعية

منذ أن هبت الجائحة على العالم آواخر ديسمبر من 2019 واجتاحت الحدود سارعت منطقة الخليج عموماً ودولة الكويت خصوصاً إلى اتخاذ أقصى التدابير الاحترازية للحفاظ على الارواح وكانت توجيهات صاحب السمو أمير دولة الكويت السابق المغفور له الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح في سدة القيادة، واضحة وهي الحفاظ على ارواح المواطنين والمقيمين، وبخبرة لافتة وإستثنائية شكلت الكويت ورش العمل واضعة خارطة طريق لمواجهة هذا الوباء بمشاركة كافة أجهزة الدولة بتناغم ملحوظ، ولاقت الكويت، ودول منطقة الخليج عموماً، استحساناً عالمياً بسبب سياساتها النموذجية لمواجهة فيروس كورونا وسياسات وزارة الصحة العامة، بالقدر نفسه الذي لاقته دول متقدمة مثل كوريا الجنوبية ونيوزيلندا، هذا النجاح تضمن بعض الآلام بسبب الآثار الاقتصادية السلبية لـ «كورونا» وهبوط اسعار النفط، وتعطيل الحياة والأنشطة الاقتصادية القائمة على الخدمات بشكل كبير في منطقة الخليج، ما أدى تسريح عمال وإلغاء وظائف بإعداد كبيرة.

وأدت تداعيات «كورونا» وهبوط أسعار النفط، الى الضغط على الميزانية العامة للدولة مع بروز مخاوف قوية من انها ستحتاج وقتاً طويلاً لتعويض بعض الخسائر المالية، في وقت صوت فيه مجلس الأمة (البرلمان) الكويتي في 9 سبتمبر 2020 على ميزانية السنة المالية 2020/2021 بعجز تاريخي غير مسبوق قدره 14 مليار دينار (53 مليار دولار).

لمحة تاريخية

تُعَدُّ دولة الكويت دولة عربية تقع في الشرق الأوسط من جنوب غرب القارة الآسيوية وهي إحدى دول مجلس التعاون الخليجي، وتحديداً في الجزء الشمالي الغربي من الخليج العربي، يحدها هذا الخليج من الشرق، كما تحدها من الشمال والغرب جمهورية العراق، ومن الجنوب المملكة العربية السعودية، وتبلغ مساحتها الإجمالية 17.818 كيلو متر مربع، في حين يبلغ عدد سكانها الإجمالي طبقا لأحدث احصاء في العام 2020 حوالي 4.667 مليون نسمة، يمثل الكويتيون 30 % منهم فقط، وتعتبر اللغة العربية هي اللغة الرسمية في البلاد حسب الدستور، والإسلام هو دين غالبية السكان كما يكفل الدستور حرية الأديان الأخرى، ويشكل المسلمون 85 % من مجموع السكان، والـ15 % الباقية من غير المسلمين أغلبهم من جاليات مختلفة أكثرهم هندوس ومسيحيين متصدري الجنسيات.

وتصنَّف الكويت بأنها واحدة من أكبر عشر دول مصدرة للنفط؛ إذ تمتلك حوالي 10 % من إجمالي احتياطي النفط المُؤكَّد في العالم، ويعود تسمية الكويت إلى تصغير لفظ "كوت" الذي يعني الحصن أو القلعة، وقد شيد بالقرب من الساحل في القرن السابع عشر الميلادي. وتأسست مدينة الكويت في 1613م وتولى الحكم فيها أسرة آل الصباح وهم فرع من قبائل العتوب، وكان غالبية سكان الكويت منذ تأسيسها يمتهنون الغوص لصيد اللؤلؤ والتجارة البحرية بين الهند وشبه الجزيرة العربية، الأمر الذي ساعد على تحويل الكويت إلى مركز تجاري في شمال الخليج العربي وجعلها ميناء رئيسيا لكل من شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين. وظلت مهنة صيد اللؤلؤ العصب الأساسي للاقتصاد حتى عام 1964 حينما بدأت الحقبة النفطية وتصدير اول شحنة نفط.

وتاريخيا، فقد بدأت الحقبة النفطية في العام 1936 عند اكتشاف أول بئر نفط في منطقة بحرة شمالا، إلا أن النفط المكتشف لم يكن بكميات تجارية حتى اكتشف حقل برقان الذي توقف العمل به عام 1942 بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية؛ ومع انتهاء الحرب عادت أعمال الحفر بالحقل لتصدر أول شحنة نفط في 30 يونيو 1946.

افتتاح المستشفى الأميري ويبدو الشيخ احمد الجابر والشيخ عبدالله السالم والشيخ سلمان بن حمد آل خليفة

وتعد الكويت من أهم مصدري النفط في العالم، وتملك خامس أكبر احتياطي، ويمثل النفط والمنتجات النفطية ما يقرب من 87 % من عائدات التصدير و80 % من الإيرادات الحكومية. وتعتبر البلاد من بين الدول ذات الدخل المرتفع بناتج يبلغ (167.9 مليار دولار) وفق تصنيف البنك الدولي، الأمر الذي جعل البلاد واحدة من أغنى الدول في العالم ويتمتع مواطنوها بحياة رفاه رغدة وقدرة شرائية عالية.

والكويت هي إمارة وراثية يحكمها أمير من ذرية الشيخ مبارك الصباح الكبير، وتتبع نظاما برلمانياً يحكمه الدستور، ذلك ان نظام الحكم بحسب المادة السادسة من الدستور نظام ديمقراطي، بينما نصت المادة 50 منه على ان النظام يقوم على أساس فصل السلطات مع تعاونها، وهي كل

المستشفى الأميري القديم

من السلطة التنفيذية ويتولاها الأمير ومجلس الوزراء، والسلطة التشريعية ممثلة في مجلس الأمة، والسلطة القضائية وتتولاها المحاكم باسم سمو الأمير.

مستشفى الصباح

قسم الامراض الباطنية في مستشفى الصباح

الرعاية الصحية

اجتمعت في دول الخليج، بصفة عامة، والكويت خصوصا، عوامل عديدة مكّنتها من التصدي بنجاح لجائحة كورونا وساهمت في زيادة المعرفة بهذا الفيروس والمرض الذي يسببه، أولها الشفافية التي تعاملت بها مع هذه الجائحة، بسبب حقيقة أنها غير مسؤولة عن هذا الوباء الذي غزاها من الخارج ولأنها لم تقصّر في مواجهته، وبالتالي ليس لديها أي سبب لإخفاء حجم انتشاره ، كما أن مستوى الخدمات الطبية جيد ويضاهي أكثر الدول تطورا، وسمحت هذه الشفافية بمتابعة سير الوباء مع ما يحدثه من مضاعفات ووفيات بشكل يومي يوما بيوم، مما أنتج قاعدة بيانات ومعلومات إحصائية واسعة متاحة أمام الجميع ولها درجة كبيرة من المصداقية.

ويتمتع نظام الرعاية الصحية في الكويت بتاريخ من الإنجازات، منحت الدولة القدرة اللازمة للتعاطي مع الوباء بقدر من الاهتمام والاحترافية، استناداً على أكثر من 85 عاما من بدء العمل بالنظام.

وكان اول الغيث ما قدمه القطاع الأهلي عام 1913 حيث تم انشاء أول مستوصف في البلاد، بينما أنشئت أول صيدلية أهلية في 1927 بحسب تقارير وزارتي الصحة والتخطيط وفي حقبة الخمسينيات من القرن الماضي انتشرت مستوصفات الارساليات الصحية. ومع تدفق العائدات النفطية الى خزينة الدولة اعتبارا من أواخر الاربعينات بدأت الدولة بالتدخل لتطوير هذه الخدمات بمختلف فروعها ومجالاتها في ظل اطار مؤسسي ممثل بالدائرة الصحية ومجموعة من التشريعات الصحية، وفي ظل شركة نفط الكويت التي كان لها الفضل في انشاء مستشفى الاحمدي فضلا عن العديد من المستوصفات الصحية.

وتمثلت الانجازات الصحية حتى عام 1960 بالتقدم المتواصل في الانشاءات والمستشفيات والوحدات الصحية وتأمين الموارد البشرية الفنية والمتخصصة في فروع الطب والتمريض والخدمات الطبية المساعدة. كما اهتمت الكويت بابتعاث المؤهلات العلمية من المواطنين الكويتيين للحصول على درجات علمية في فروع

الطب والصيدلة خارج البلاد اضافة الى نشر الخدمات الصحية خارج مدينة الكويت في القرى والواحات والتوسع في توفير مراكز الاسعاف والسيارات المتنقلة وانشاء المستوصفات الخارجية وتطوير الخدمات العلاجية والتشخيصية والفندقية بالمستشفيات والمصحات.

وفى عام 1961 شهدت خدمات الرعاية الصحية ازدهـارا متواصلا في اطار سياسات بناء دولة الرفاه حيث تضمن دستور دولة الكويت الصادر عام 1962 في مادته ال11 ان الدولة (تكفل المعونة للمواطنين في حالة الشيخوخة او المرض او العجز عن العمل) كما توفر لهم خدمات التأمين الاجتماعي والمعونة الاجتماعية والرعاية الصحية، كما نصت المادة 15 على ان (تعنى الدولة بالصحة العامة وبوسائل الوقاية والعلاج من الامراض والاوبئة). وفي العام ذاته تحولت دائرة الصحة التي استحدثت في عام 1936 الى وزارة الصحة العامة حيث افتتح مستشفى الولادة القديم في نفس العام ثم مستشفى الصباح في عام 1962 وبعد ذلك تم البدء بنظام التسجيل الصحي والتوسع في عدد المستوصفات والمجمعات الصحية.

وفي حقبة الثمانينات افتتح أمير البلاد الراحل الشيخ جابر الاحمد الصباح خمسة مستشفيات عامة جديدة هي مستشفى مبارك الكبير والفروانية والعدان والجهراء ومستشفى ابن سينا للجراحة التخصصية.

وافتتح ايضا المستشفى الاميري الجديد في عام 1984 ثم تم انشاء مركزالطب الاسلامي ومركز أمراض الوراثة ومركز الكويت لمكافحة السرطان ومستشفى الرازي ومركز الكويت لأمراض الحساسية ثم مركز حامد العيسى لزراعة الاعضاء .

وبعد ذلك شرعت وزارة الصحة بتطبيق نظام المناطق الصحية لتقديم الخدمة على ثلاثة مستويات للرعاية.

إصطدمت مسيرة التطوير والتنمية بعقبة الغزو العراقي عام 1990 على دولة الكويت حيث تأثرت كافة الخدمات الصحية نتيجة لسرقة ونهب وتدمير العديد من المنشآت والتجهيزات ونزوح معظم العاملين الى خارج البلاد.

وبعد التحرير تمت اعادة اعمار وتجهيز معظم المنشآت الصحية وعادت للعمل معظم البرامج الاخرى اضافة الى توفير الدواء مع مخزون استراتيجي كما تمت اعادة افتتاح معظم الخدمات الصحية المغلقة واستكمال بعض المشاريع الاستراتيجية.

وفى منتصف عام 1996 وصل عدد المراكز الصحية 70 مركزا و17 مستشفى حكوميا بطاقة 4039 سريرا و3340 طبيبا و449 صيدليا وبلغت الهيئة التمريضية 7718 عضوا في حين بلغ نصيب الفرد من الانفاق على الصحة 150 دينارا وارتفعت توقعات متوسط الأعمار الى اكثر من 5ر74 عاما.

وبلغت المؤشرات التي حققتها جهود الرعاية الصحية وفي كثير منها ذلك المستوى الذي يتمتع به المواطنون في الدول الصناعية المتقدمة وذلك من خلال توفير مختلف الخدمات الصحية سواء في الجانب العلاجي او الوقائي منها بالمجان او بأجور رمزية في بعضها لكافة السكان سواء كانوا مواطنين او مقيمين بأعلى درجات الرعاية والعناية.

وحقق النظام الصحي مراكز متقدمة على مستوى العالم، وفقا لتقرير أصدره البنك الدولي ومنظمة الصحة العالمية عن التغطية الصحية الشاملة (2017).

وتضمن التقرير سلم التقييم الذي تم استخدامه بمقياس التغطية الصحية الشاملة والذي يتدرج تصاعديا من صفر إلى 100، لتقييم أداء النظم الصحية، من حيث

تصميم مستشفى جابر

مدى تحقيق التغطية الصحية الشاملة بعناصرها المختلفة، باعتبارها الغاية الثامنة من الهدف الثالث المتعلق بالصحة ضمن الأهداف العالمية الـ17 للتنمية المستدامة حتى عام 2030، والذي ينص على ضمان تمتع الجميع بأنماط عيش صحية وبالرفاهية.

ووفقاً لمؤشر أمن الصحة العالميGHS، فقد احتلت الكويت (أكتوبر 2019) المركز الثالث عربيا والـ59 عالميا في المؤشر الذي يعد أول تقييم شامل لقدرات الأمن الصحي العالمي، وهو مشروع مشترك مع مبادرة التهديد النووي ومركز جونز هوبكنز للأمن الصحي.

ووفقًا لمنظمة الصحة العالمية فإن متوسط العمر المتوقع للشعب الكويتي في عام 2011 بلغ 80 عامًا (الرجال 77 عامًا والنساء 82 عامًا)، محتلًا المركز السابع العشرين على مستوى العالم.

طفرة صحية في عهد الشيخ صباح الأحمد

فُجعت الكويت في يوم 29 سبتمبر 2020، وخلال ذروة أزمة جائحة كورونا، بوفاة أميرها الشيخ صباح الأحمد في إحدى مشافي الولايات المتحدة الأميركية، وفي هذا الإطار فإن من اللازم استذكار ما شهدته الرعاية الصحية من اهتمام من قبل الأمير الراحل، حيث يعتبر الكويتيون أن عهده كان يمثل طفرة في هذا القطاع، الى جانب إنجازات عديدة في مجالات أخرى.

وشهد عهد الشيخ صباح الأحمد، رحمه الله، تطورات في مجالات عدة، بينها المجال الصحي، الذي كان فيه تحسن لمستوى الخدمات الصحية والرعاية المناسبة للمرضى، خصوصاً مع ارتفاع عدد سكان البلاد، حيث كانت المنظومة الصحية على موعد مع تدشين وافتتاح عدد من المرافق والمستشفيات الحيوية الضخمة على مستوى الشرق الأوسط.

مستشفى الصباح قسم الامراض الباطنية

فعلاوة على افتتاح عدد كبير من المراكز الصحية في أكثر من منطقة، خصوصاً في المدن الحديثة التي جرى بناؤها مؤخراً، فقد شهد عام 2015 تدشين مشروع توسعة مستشفى الرازي الجديد (برج الرازي)، والذي يتكون من 13 طابقاً وسرداب، وبواقع 10 أجنحة، ويشمل إجمالي أسرَّة يبلغ عددها 240 سريراً، إضافة إلى تدشين مستشفى الأحمدي التابع لشركة نفط الكويت في أبريل عام 2017، والبالغة مساحته 380.000 متر مربع، وبسعة سريرية تبلغ 300 سرير قابلة للزيادة بواقع 100 سرير، وبكلفة 94 مليون دينار، بحيث يحتوي المستشفى على أجنحة للمرضى إضافة إلى أكثر عملية توسعة في مستشفيات الفروانية والتي تخدم كُتلة سكانية ضخمة وصيدليات عامة وتخصصية توفر كافة أنواع العلاج، كما يقوم المستشفى بتوفير سبل التعليم وتطوير قدرات الكوادر الطبية.

وفي الجهراء، افتتح الأمير الراحل المدينة الطبية في مستشفى الجهراء الجديد في يوليو 2018، وشكلت لبنة إضافية نوعية تعزز منظومة الرعاية الصحية. وتمتد المدينة الطبية على مساحة 235000 متر مربع بمساحة بناء إجمالية 724000 متر مربع، كما تتضمن مرافق تعليمية وقاعات للمحاضرات والمؤتمرات وأحدث المعدات الطبية التي جرى استيرادها من أميركا وكندا وأوروبا، و5000 موقف سيارة ومهبط هليكوبتر وملاجئ للطوارئ والخدمات المساندة لجميع ما ذكر.

وقد جرى أيضاً افتتاح مشروع مستشفى جابر في نوفمبر 2018، والذي يعتبر صرحاً طبياً عالمياً بحجمه وتنوع اختصاصاته وتجهيزاته، حيث يتكون من 5 أبراج رئيسية، تم بناؤها على مساحة 220 ألف متر، وبمساحة إجمالية للبناء تبلغ نحو 725 ألف متر، ويعد أكبر مستشفى في الشرق الأوسط، وسادس أكبر مستشفى في العالم، وأقيم على مساحة إجمالية تبلغ 720 ألف متر مربع، وذلك بخلاف عدد من المرافق الصحية الأخرى.

2020 ... عام المواجهة والتحدي

قرع فيروس «كورونا» أجراس الخطر في نهاية ديسمبر 2019 وارتفعت مؤشرات الخطر بدءاً من يناير 2020، وأربك الحياة في أرجاء المعمورة، وألقى بظلال قاتمة على حياة الناس وأنشطتهم كافة.

عاشت الكويت تُجارب صعبة خلال الجائحة، مليئة بالتحديات والانجازات الرامية الى مكافحة الوباء والحد من مخاطره، وتسهيل تسيير دواليب الحياة وسط اجراءات صحية صارمة، توقفت خلالها العديد من الانشطة ولزم الناس بيوتهم إجبارياً، وفقَـــدَ بعضهم أحباء خطفهم الفيروس، أو أصابهم هم أو أقاربهم بسهم الألم أو الهلع.

وعلى مدى عام كامل، اجتهدت السلطات في التصدي لتداعيات الأزمة، التي حملت تحدياتها أوجها عديدة، صحية واقتصادية وإسكانية وبدى شعاع النور في آخر النفق بحلول شهر ديسمبر 2020 حيث انطلقت حملةتطعيم واسعة في البلاد بلقاح «فايزر- بايونتيك» الذي وصلت الدفعة الأولى منه في 23 ديسمبر، وتلقى رئيس الوزراء الشيخ صباح الخالد الصباح الجرعة الأولى من اللقاح إيذانا ببدء الحملة، مطلقاً بهذه المبادرة إرشادات التحفيز للجميع بروح المسؤولية التي كان على رأس قائمتها كبار السن والصفوف الأولى من العاملين في وزارات الصحة والداخلية والجيش ومن ثم باقي الفئات الأخرى.

واتخذت السلطات الكويتية اجراءات احترازية عديدة فور الإعلان عن الفيروس الغامض في عدد من الدول، فاستعدت لإعادة مواطنيها من الخارج، وأغلقت منافذها البحرية والجوية وشدَّدت رقابتها الصحية.

وعقدت وزارة الصحة، منذ بداية الأزمة أكثر من 100 مؤتمر صحافي مخصص لمتابعة التطورات وإعلان أرقام الإصابات وتطورات الوضع الوبائي، أو لتوعية المواطنين بالإرشادات والاحترازات الواجب اتباعها، مما أدى إلى انخفاض أعداد الوفيات والإصابات اعتبارا من منتصف شهر نوفمبر.

وظهرت أولى الاصابات في الكويت بين 3 قادمين من مدينة مشهد الإيرانية (فبراير 2020) من بين 700 شخص تم إجلاؤهم من تلك المدينة، بينما تم تسجيل أول حالة وفاة في 4 أبريل 2020 لمقيم من الجنسية الهندية كان يتلقى العلاج لأيام في العناية المركزة، فيما سجلت أول حالة وفاة لطبيب في 8 مايو 2020، بعد إصابته بالفيروس، وهو من الجنسية المصرية.

وكان من أبرز التداعيات للوباء، أن خيَّم على الحياة السياسية أيضاً فقد تم تعطيل 4 جلسات برلمانية (في مارس ومايو ويوليو وسبتمبر) وعليه تم تمديد دور الانعقاد في مجلس الأمة الكويتي الى أواخر اكتوبر 2020، حيث أثرت الأزمة في تأخير إقرار العديد من التشريعات.

واحتلت الكويت، على مدى أشهر من العام 2020، المرتبة الثالثة خليجياً والسابعة عالمياًفي نسبة الإصابات بالفيروس، قياساً لعدد السكان، وفق مؤشر «وورلد ميتر» الذي يرصد على مدار الساعة الإحصاءات المتعلقة بالفيروس على مستوى العالم.

آثار اقتصادية للأزمة

ومن الآثار الملحوظة للوباء وتداعياته، ما ألقاه من ظلال سلبية ثقيلة على مجريات التداول ببورصة الكويت على مدار العام 2020، مخلفا وراءه خسائر سوقية تقدر بـ 3.5 مليارات دينار بنسبة 10 % تقريبا، إذ انهت البورصة تعاملات العام وقيمتها السوقية عند 32.2 مليار دينار انخفاضا من 35.7 مليار دينار عند بداية العام، متأثرة بعدة عوامل سلبية في مقدمها تداعيات الجائحة التي سلبتها

بورصة الكويت أثناء كورونا

نحو 10 مليارات دولار خلال العام، لاسيما في ذروة تفشي الوباء في النصف الأول من العام 2020.

وتجلت انعكاسات «كورونا» على مجمل اداء البورصة مع بدء ظهور حالات الإصابة بالكويت من خلال انهيار السوق الأول الذي تعرض للتوقف مرتين في مارس 2020 جراء الخسائر التي تجاوزت 10 %.

ومن الأحداث البارزة أيضا، صدور قرار في سبتمبر 2020، بإلغاء موسم المخيمات الربيعية، وجرت مراجعته وتأكيده في 15 ديسمبر، وشملت القرارات أيضاً، إلغاء إقامة المقار الانتخابية للمرشحين لانتخابات مجلس الأمة في 5 ديسمبر.

وإمتد تأثير الجائحة على مجمل القطاعات الاقتصادية الكويتية، لاسيما في القطاع الخاص وسوق العمل، حيث انخفضت أعداد زوار متاجر التجزئة والمجمعات التجارية وأماكن الترفيه بنسبة 75 %، وبدى 80 % من الشركات غير قادرة على تغطية مصروفاتها الثابتة لأكثر من 6 أشهر، و26 % من الشركات شارفت على وشك الانهيار وشهدت إيراداتها انخفاضاً بنسبة 80 % خلال ذروة الأزمة.

وبتأثير من إغلاق الأسواق وتوقف الأعمال على مدى أشهر في البلاد، نمت وازدهرت التعاملات الالكترونية وزاد انفاق المواطنين عبر الـشراء من خلال المواقع الالكترونية في 2020 بنحو مليار دينار، وفق الأرقام الصادرة عن شركة «كي نت» بلغت قيمة العمليات 20 ملياراً في 2020 مقابل 19.2 ملياراً في 2019 بارتفاع قدره 800 مليوناً.

فيما شهدت قيمة العمليات نمواً قدره 4 في المئة، سجلت عمليات الدفع نمواً قدره 5 في المئة، بالغة 375 مليون عملية دفع الكتروني.

ومع الحرص على اتباع الارشادات الصادرة من بنك الكويت المركزي من قبل الأفراد والشركات، بلغت العمليات المنفذة عن طريق نقاط البيع حوالي 8.4 مليارات دينار تمت من خلال 219 مليون عملية، في حين سجلت عمليات اجهزة السحب من اجهزة الصرف الآلي 6 مليارات دينار في 2020، تمت من خلال 60 مليون عملية.

هبوط أسعار النفط

لم تكن أزمة انتشار فيروس كورونا السبب الأوحد الذي ألقى بظلاله السلبية على الاقتصادي الكويتي، فمنذ بداية العام 2020 كانت الصدمات تتوالى على كل اقتصاديات العالم ولم تكن الكويت استثناءاً، وهبطت أسعار النفط إلى مستوى 16.6 دولار خلال ذروة الأزمة بمطلع أبريل 2020.

وفي 4 مـارس، أعلن مجلس الـوزراء الكويتي عن إجازة رسمية في أنحاء البلاد لمدة أسبوعين، مع تعليق الرحلات التجارية اعتباراً من 11 مارس حتى إشعار آخر. وبناء على ذلك حذر خبراء من دخول الاقتصاد نفق المجهول، وقالوا إنه يشهد إحدى أسوأ أزماته خلال الـ 30 عاماً الماضية، وتحديداً منذ حرب الخليج الثانية. وفي رصدهم للتأثيرات السلبية لهذه الأحداث السابق ذكرها على الاقتصاد، ذكر الخبراء ان جميع القطاعات الاقتصادية متضررة بشكل كبير، بل إنّ هناك قطاعات مهددة بجمود قد تمتد آثاره لأعوام مقبلة.

ومع ضغط تراجعات اسعار النفط عالمياً ونظراً لاعتماد الاقتصاد الكويتي عليه كمصدر أساسي للدخل حذّرت وثيقة صادرة عن إدارة الاقتصاد الكلي، التابعة لوزارة المالية، من إحتمال تعرّض اقتصاد الدولة للانكماش خلال النصف الأول من العام 2020 بنسبة 0.6 %، و0.3 % بنهاية العام، مقارنة مع توقعات سابقة بنمو 2.2 %.

وتضمنت الوثيقة الصادرة في 12 مـارس، إلى أن خطر الانكماش يأتي في ظل تراجع جميع معدلات النمو الاقتصادي في العالم والدول الخليجية، بسبب الهلع من انتشار فيروس كورونا.

ولفتت إلى أن هذه العوامل انعكست بشكل سلبي على القطاعات الاستهلاكية والاقتصادية بكافة أنواعها، حيث شهد قطاع السياحة والضيافة والطيران خسائر تخطت ربع المليار دولار، بالإضافة إلى توقف شبه كامل لحركة المطاعم والمقاهي، وتباطؤ حركة الشراء، مع تخوّف المقيمين والمواطنين من النزول إلى الأماكن العامة.

وتوقعت أن يقفز العجز المالي في الميزانية المقبلة 2020–2021 بنحو 7 مليارات دولار إلى 37 مليار دولار، مقارنة مع 30 ملياراً، وفق توقعات سابقة، وذلك في حال استمرت أسعار النفط في التدني مع استمرار حرب الأسعار والركود الاقتصادي بسبب كورونا.

وأضافت أن هذه الأحداث تأتي بالتزامن مع تخفيض أسعار الفائدة عالمياً بمقدار 0.5 % وفي الكويت بمقدار 0.25 %، ما يعني زيادة في حجم القروض وتراجعا في حجم الودائع في القطاع المصرفي، وهو ما يعني حدوث ارتفاع في نسب التضخم في البلاد، مع زيـادة حجم الأموال السائلة مع المستهلكين.

تراجع حاد للإيرادات

يعتبر القطاع النفطي الأكبر والأكثر تأثيراً في الاقتصاد الكويتي، حيث تعتمد البلاد على الإيرادات النفطية في ميزانيتها بنسبة 95 %. ويساهم النفط في أكثر من 90 % من الناتج المحلي الإجمالي. ويؤدي هذا الاعتماد بالنتيجة الى تحكم أسعار النفط في عجز أو فائض الميزانية.

ففي زمن ارتفاع الأسعار تمكنت من تحقيق فوائض زادت احتياطيات البلاد البالغة نحو 100 مليار دولار، والتي تم استنزافها في زمن انخفاض النفط حتى وصلت الى 25 مليار دولار حالياً. وانعكست ملابسات تراجع أسعار النفط عالميا، على الميزانية العامة، وتمددت آثار ذلك، وبقوة، على العجز المالي التقديري في ميزانية 2020/ 2021، حيث صوت مجلس الأمة على الميزانية التقديرية للدولة للسنة المشار اليها، بعجز تاريخي يبلغ 14 مليار دينار، حيث تبلغ الواردات المتوقعة 7 مليار دينار والمصروفات تناهز الـ21 مليارا، بحساب 55 دولارا لبرميل النفط في ميزانية الدولة، الأمر الذي عدّه كثيرون بأنه "كارثة".

أزمة السياحة والسفر

لم يكن القطاع النفطي هو المتضرر الوحيد من أزمة فيروس كورونا، بل تضرر قطاع الطيران والسياحة والفنادق بشكل كبير، ويمكن أن يكون هو القطاع الأكثر تأثراً في هذه الأزمة.

وفي 28 أغسطس، رسم تقرير لمركز الكويت الدولي للدراسات الاقتصادية «صورة قاتمة» لقطاع السفر والسياحة الكويتي، وقال إن الأزمة تسببت في إغلاق وإفلاس نحو 60 % من مكاتب السياحة والسفر في البلاد، جراء توقف أعمال غالبيتها نتيجة خسائر كبيرة تكبدتها منذ بداية تفشي الفيروس وتوقف حركة الطيران.

وأوضح المركز أن قرار السلطات بشأن منع استقبال مواطني 31 دولة من بينها مصر والهند والفلبين، الذين يمثلون أكبر الجاليات الأجنبية في الكويت، فاقم الخسائر بصورة كبيرة.

وحسب الأرقام، فإن هناك نحو 112 شركة اضطرت للإغلاق، فضلا عن أكثر من 100 شركة أخرى أصبحت على شفا الإفلاس.

وتضررت بشكل حاد أعمال ما يقارب 360 شركة ومكتب للسياحة والسفر في مختلف المناطق، ويعمل بها نحو 15 ألف موظف، فيما تم تسريح نحو 9 آلاف موظف في أعقاب تفشي كورونا، كما تم تخفيض رواتب غالبية العاملين الذين لا يزالون على رأس عملهم بنسب مختلفة.

تحت ضغوط تراجع الإيـرادات وتوقف الأعمال انطلقت المرحلة الأولى من الرحلات التجارية في مطار الكويت مطلع أغسطس بنسبة تشغيل 30 %، بإجمالي 10 آلاف راكب يوميا حتى فبراير 2021، ثم تنطلق المرحلة الثانية وصولا إلى مرحلة التعافي في أغسطس 2021 التي ستشهد عودة الطيران بنسبة 100 %.

وفي وقت سابق، حذر اتحاد مكاتب السفر والسياحة من إفلاس وشيك لأكثر من 430 مكتب سياحة وسفر في البلاد، بسبب ما وصفه بتشدد السلطات في تطبيق قرارات متعلقة بالاحترازات من فيروس «كورونا»، وأبرزها منع مواطني 31 دولة من دخول البلاد، وتشديد إجراءات الحجر الصحي للقادمين من الدول الأخرى.

واتخذت الكويت قرار منع دخول مواطني 31 دولة، من بينها مصر والعراق ولبنان ودول أوروبية، إليها، إلا بشرط قضائهم 14 يوما في دولة أخرى، وذلك وسط توجه عام بتقليل دخول الوافدين إلى البلاد، والاستغناء عن خدماتهم، ورفعت السلطات في قرار لاحق عدد الدول المحظور دخول مواطنيها الى 35 دولة.

خسائر الضيافة والمطاعم

الوضع في سوق المطاعم والفنادق والضيافة لم يكن أفضل من سابقيه، فهذا القطاع بالتحديد مرتبط بشكل أساسي بالمستهلكين الذين يتخوفون من انتشار الفيروس ويتجنبون أي تجمعات في أماكن مغلقة، ما ألحق الأضرار بالمطاعم والفنادق بشكل كبير.

شوارع الكويت خالية أثناء جائحة كورونا

وكشف تقرير صادر عن اتحاد مكاتب السياحة والسفر (9 مارس) عن أن قطاع الضيافة خسر نحو 250 مليون دولار منذ صدور قرار إغلاق المقاهي والمطاعم تقريبا من ذلك التاريخ.

وأشار التقرير، إلى تراجع حركة السياحة الداخلية والقادمين من الخارج خلال فبراير بنسبة وصلت إلى 85 في المائة، فيما انخفض إشغال الفنادق والمنتجعات السياحية بجميع أنواعها (غرف وشقق فندقية) بنسبة 90 في المائة، حيث يتجنب المواطنون والمقيمون التواجد بهذه المرافق السياحية خوفاً من الإصابة بالفيروس. ولفت إلى أن نسبة الإقبال على المطاعم هوت إلى 5 في المائة، بينما كانت تصل إلى أكثر من 95 في المائة سابقاً، مضيفا أن قرار بلدية الكويت منع تداول الشيشة (النرجيلة) في المقاهي، أدى إلى عزوف الكثيرون عن الذهاب إلى المقاهي وتهاوي إيراداتها بنسبة 85 في المائة.

واعتبر الخبير الاقتصادي طارق المشعان، أن قطاع المطاعم يواجه خطر الإفلاس أو الإغلاق نتيجة تهاوي حركة المبيعات خلال فبراير، الذي يفترض أن يكون من أعلى أشهر العام مبيعا في ظل احتفالات الكويت بالعيد الوطني وعيد التحرير.

دور تاريخي للبنك المركزي وقطاع المصارف

قامت البنوك الكويتية بدور تاريخي وطني بالتنسيق والتعاون مع البنك المركزي، تمثل هذا الدور في تأجيل استقطاعات أقساط القروض وكافة الرسوم لمدة 6 أشهر، بل وطلب البنك المركزي عدم تسييل أي رهونات للمقترضين من كبار العملاء الذين انخفضت الرهونات المقابلة للديون ما عمل على حماية سوق المال، ونتيجة لذلك أظهرت بيانات صادرة عن البورصة (7 يوليو)،أن إجمالي خسائر 9 بنوك بلغ أكثر من 1.5 مليار دولار، خلال الفترة التي أعقبت الإجراءات الاحترازية لمواجهة تفشي كورونا.

وتحمّل قطاع المصارف الكويتي جانبا كبيرا من الخسائر المتلاحقة الناجمة عن تداعيات الأزمة ووقف الأعمال والأنشطة الاقتصادية والغلق الإجباري للشركات، والتسهيلات غير المسبوقة التي قدمتها البنوك المحلية ضمن الخطة التحفيزية للاقتصاد الكويتي. ويضاف لأعباء البنوك قرار تأجيل تحصيل أقساط القروض الاستهلاكية للمواطنين لمدة 6 أشهر التي بلغت ملياراً و300 مليون دولار.

وكان بنك الكويت المركزي قد وجّه البنوك لاحتساب تأجيل أقساط القروض المؤجلة، وفق المعيار الدولي للتقارير رقم 9، بخصمها على الأرباح المحتجزة في بنود حقوق الملكية، على أن تجري إعادة بناء المبالغ المستخدمة من الأرباح المحتجزة، فيما يمكن توزيعها على 4 سنوات.

وفي وقت سابق، قال اتحاد مصارف الكويت، إن المصارف الكويتية لن توزع أرباحاً نقدية على مساهميها لعام 2020 لتعزيز قدرات القطاع المصرفي للقيام بدور الوساطة المالية وضمان انسياب السيولة واستمرار دوران عجلة العمل والإنتاج في مختلف القطاعات الاقتصادية لحين تجاوز الظروف الحرجة بسبب جائحة كورونا.

لقد تخطى قطاع البنوك السنة الأولى من أزمة «كورونا» بعد أن أظهرت البيانات المالية للمصارف للسنة المالية المنتهية في ديسمبر 2020 متانة مؤشرات السلامة المالية.

فقد واجه البنك المركزي تداعيات الجائحة على البنوك بمنظومة متكاملة من الاجراءات تتجاوز 30 إجراءاً واستمر في نهجه الاستباقي بتعزيز أوضاع وحدات الجهاز المصرفي والمالي ضمن منظومة رقابية موجهة إلى ترسيخ الاستقرار المالي، من خلال تطبيق أدوات الرقابة الجزئية، إضافة إلى أدوات التحوط الكلي والتي تستهدف الحد من المخاطر النظامية والمحافظة على الاستقرار المالي.

كان للبنك المركزي السبق في تطبيق سياسات نقدية تيسيرية مدعومة بسياسات رقابية موجهة لتوسيع المساحة الاقراضية أمام البنوك وتعزيز قدراتها التمويلية للتصدي لتداعيات الجائحة وانعاكساتها على على الوضع الاقتصادي والمعرفي.

لقد استخدمت البنوك الكويتية المخصصات على مدار العقد الماضي لشطب الديون الرديئة والمحافظة على ميزانيات رشيقة وبلغت مخصصات البنوك 852 مليون دينار مقابل القروض في عام 2020 أما صافي التسهيلات الائتمانية فبلغت 51,8 مليار دينار.

سياسات استثنائية «للمركزي» خلال الجائحة

واجهت الكويت عاماً استثنائياً بالغ الصعوبة بسبب جائحة كورونا، ففي العام 2020 والتي احدثت صدمة اقتصادية وصفت بأنها الاكثر حدة في آخر مئة عام، ادت إلى اتخاذ تدابير احترازية صارمة وصلت الى مرحلة الاغلاق الكلي للكثير من الأنشطة الاقتصادية أثناء الموجه الاولى والثانية في المتحورات الفيروسية.

وفي هذا السياق وكما أوضح محافظ البنك المركزي الكويتي د. محمد الهاشل فقد شهدت السياسات النقدية والرقابية تحركاً سريعاً وحاسماً منذ بداية انتشار الوباء، فقد تم توظيف جهوده وامكانياته لمجابهة الآثار السلبية الناجمة عن الجائحة مستخدماً الادوات المتاحة لديه ودون التخلي عن أهدافه الاساسية الرامية إلى ترسيخ الاستقرار النقدي والمالي.

وفي ظل ما فرضته الجائحة من تداعيات تتطلب دعم القطاعات الاقتصادية ومساعدتها في احتواء هذه الصدمة، وتوفير الأجواء الداعمة للثقة في الاقتصاد

الوطني وتحفيز قدرته على التعافي من آثار الأزمة، فقد تبنى بنك الكويت المركزي سياسات نقدية تيسيرية استثنائية، حيث قام خلال مارس 2020 بتحرك استباقي سريع بتخفيض في سعر الخصم لمستويات هي الأدنى تاريخيا، لتصل إلى 1.5 في المئة، ثم تبع ذلك إجراء تخفيض في سعر الريبو وأسعار التدخل في السوق النقدي، لينعكس ذلك في انخفاض مؤشرات أسعار الفائدة المحلية خلال عام 2020 مقارنة بالعام الذي سبقه.

في موازاة ذلك، وعلى صعيد الإشراف والرقابة المصرفية، وتعزيزا لحزمة الإجـراءات النقدية التي طبقها بنك الكويت المركزي، بهدف دعم القطاعات الاقتصادية الحيوية، والمشاريع ذات القيمة المضافة للاقتصاد المحلي، والمتضررين من أفراد ومشاريع صغيرة ومتوسطة وشركات بهدف مساعدتها على تخطي ظروف الجائحة، قام البنك المركزي بتعديل تعليماته الرقابية وأدوات سياسة التحوط الكلي، بتخفيف متطلبات النسب الرقابية على صعيد معايير السيولة، ومعايير كافة رأس المال، ومعايير الإقراض لمساعدة البنوك على أداء دورها الحيوي في الاقتصاد وتحفيزها على تقديم مزيد من القروض والتمويل للقطاعات الاقتصادية والعملاء المتضررين من الأزمة ومساعدة القطاع المصرفي على مواجهة الصدمات خلال عام 2020.

ويتمتع القطاع المصرفي بمرونة عالية ومستوى جيد من الرسملة والسيولة بفضل حزمة السياسات النقدية والرقابية الحصيفة من البنك المركزي.

إعادة برمجة المشاريع

كشف تقرير لإدارة الاقتصاد الكلي التابعة لوزارة المالية في 14 سبتمبر 2020، عن تقليص الإنفاق على المشروعات التنموية بنحو 2.3 مليار دولار.

وأكد التقرير أن ميزانية المشروعات التنموية التي تم رصدها لعام 2020/ 2021، والتي تقدر بـ 7.8 مليارات دولار تم تقليصها إلى 5.5 مليارات دولار فقط، حيث تم إلغاء أكثر من 340 مشروعا تنمويا وتأجيل البدء في 120 مشروعا بسبب جائحة كورونا وتفاقم عجز المـوازنـة. وكان مجلس الـوزراء قد وجّه عددا من الـوزراء بضرورة تقليص ميزانيات الهيئات والوزارات بنسب تتراوح بين 20 و30 %، وترشيد الإنفاق ومراجعة المشروعات المدرجة على الميزانية الحالية لتقليص الإنفاق عليها.

وأعلنت مؤسسة البترول الكويتية إنه تم تقليص قيمة المشروعات المدرجة على ميزانية العام الجاري بنحو 20 %، من دون المساس بالمشروعات الاستراتيجية الكبرى، مثل مشروع الغاز المسال ومشروع الوقود البيئي ومصفاة الزور.

أبرز المشاريع المؤجلة

محطة لتوليد الكهرباء

أعلن مجلس الـوزراء الكويتي(13 يوليو 2020) وقف مشروع إنشاء محطة الدبدبة لتوليد الكهرباء من الطاقة الشمسية، التي كان إنتاجها سيوفر 15 في المئة من احتياجات القطاع النفطي من الطاقة الكهربائية، بسبب المستجدات التي فرضتها جائحة كورونا.

وكان من المفترض أن يبدأ تشغيل المشروع، الذي تنفذه شركة البترول الوطنية الكويتية، في فبراير2021 لكن طرحه تأخر كثيرا بسبب الإجراءات البيروقراطية.

تأجيل مشاريع نفطية

قالت شركة نفط الكويت(13 يوليو 2020)، إنها راجعت خططها استجابة لتوجيهات من مجلس الوزراء،

مما أسفر عن تخفيض ميزانيتها الرأسمالية للسنوات الخمس المقبلة بنسبة 25 بالمائة وتأجيل عدد من المشاريع النفطية.

وذكرت الشركة في بيان صحافي إنها اتخذت خطوات أخرى لترشيد الموازنة التشغيلية للعام المالي 2020\2021 بخفضها قرابة 18 بالمائة، "بما يسهم في تأمين الاستقرار للمالية العامة للدولة".

وفي يونيو، كلف مجلس الوزراء وزارة المالية التنسيق مع شتى الجهات الحكومية لتخفيض ميزانياتها للسنة المالية 2020/ 2021 بحد أدنى 20 بالمائة.

كورونا والحياة السياسية

على مدى 3 أشهر ما بين (مارس ـ يونيو) توقفت عجلة مجلس الأمة عن الدوران تقريبا، بسبب جائحة كورونا وبدواعي الالتزام بالاشتراطات الصحية التي تستوجب تعطيل الكثير من مظاهر الحياة ومن بينها التباعد الاجتماعي وتعطيل عقد الجلسات.

وإذا كان مجلس الوزراء الكويتي يتمتع بمرونة سمحت له بعقد اجتماعاته بشكل دوري ومنتظم عن طريق الفيديو، فإن اللائحة التنفيذية لمجلس الأمة لا تتيح المجال لعقد الاجتماعات بتلك الصورة، وتفرض عقدها بشكل مباشر، الأمر الذي كان يتعذر العمل به في خضم الجائحة.

لكن مجلس الأمة استعاض عن ذلك بعقد سلسلة اجتماعات في مكتب رئيس المجلس لا تلزم جميع النواب بحضورها، ويتم خلالها دعوة عدد من الوزراء لمناقشة قضية محددة والاتفاق على تسهيل إجراءاتها، الأمر الذي لاقى اعتراضا واسعا من عدد من النواب الذين أصروا على ضرورة أن يعود المجلس الى الاجتماع العادي في جلساته تحت قبة قاعة عبدالله السالم.

ومن بين تلك الاجتماعات غير الملزمة، اجتماع عقدته اللجنة المالية البرلمانية في 10 يونيو 2020 بحضور رئيس المجلس مرزوق الغانم ورئيس مجلس الوزراء الشيخ صباح الخالد وعدد من النواب والوزراء ورئيس البنك المركزي ومجموعة من قيادات القطاع الخاص، الى جانب ممثلين لأصحاب المشاريع الصغيرة والمتوسطة لمناقشة أبرز تحديات الفيروس عليهم، والتشريعات الواجب توافرها لتجاوز الأزمة.

وفي اللقاء شدد وزير التجارة والصناعة خالد الروضان، على ضرورة العمل على سن حزمة من التشريعات تخص الجائحة وتعالج التداعيات الناتجة عنها، من بينها قانون التسوية الوقائية لحماية المشاريع الصغيرة والمتوسطة.

أمر آخر أضاءت وزيرة الشؤون الاجتماعية والعمل وزيرة الدولة للشؤون الاقتصادية مريم العقيل الضوء على قانون معالجة تداعيات آثار كورونا، وقرار مجلس الوزراء بزيادة دعم العمالة وقالت إنهما يهدفان إلى حماية المسجلين على البابين الثالث والخامس بقانون التأمينات الاجتماعية.

ورأت الوزيرة أن هذا القانون سيكون مؤقتاً إلى حين العمل بروية على تعديل قانون العمل في القطاع الخاص والذي يتحدث عن العمالة ولا يوفر الحماية القانونية لأصحاب العمل.

وزادت بأن العاملين الكويتيين في القطاع الخاص يصل عددهم الى 72 ألف مواطن مقابل مليون و660 عاملاً غير كويتي، وأنه مراعاة لحقوق أصحاب العمل مع الأخذ بعين الاعتبار الخسائر المالية التي تعرضوا لها، فقد قدم هذا القانون الذي أعطى لطرفي العقد حرية الاتفاق على تخفيض الراتب بحد أقصى 50 في المئة.

تصويت النواب وهم يرتدون الكمامات

وأضافت أنه حماية للعاملين الكويتيين فقد صدر قرار مجلس الوزراء بمضاعفة دعم العمالة الوطنية في القطاع الخاص، تدفع لرب العمل شريطة الحفاظ على الكويتيين الموجودين لديه.

أما المدير العام للمؤسسة العامة للتأمينات الاجتماعية، مشعل العثمان، فأكد خلال اللقاء، ان المؤسسة اقترحت إضافة تعديل على مشروع قانون مقدم من الهيئة العامة للقوى العاملة يسمح باستمرار صرف تعويض التأمين ضد البطالة الوارد بالقانون رقم (101) لسنة 2013، بعد انتهاء مدة الأشهر الستة، والذي قامت اللجنة بتأييده.

وأضاف أن تأجيل اشتراكات التأمينات لمدة ستة أشهر استفاد منه أكثر من 16 ألف مؤمن عليه مسجل على الباب الخامس، كما أن تأجيل حصة اصحاب الاعمال في القطاعين الأهلي والنفطي غير المملوك للدولة من الاشتراكات الشهرية استفادت منها 8 آلاف شركة يعمل بها 60 ألف كويتي.

7 قوانين في جلسة واحدة

عاد مجلس الأمة الى عقد جلساته العادية، في 17 يونيو 2020، وسط ارتباك شديد نجم عن الاشتباه في إصابة نائب حضر الجلسة وخالط زملاءه، بفيروس كورونا.

واستأنف المجلس إدارة عجلة التشريع بعد توقفها نحو 3 أشهر، وتمخضت الجلسة عن إقرار 7 قوانين دفعة واحدة، خلال ساعتين ونصف الساعة.

وفي ظل موافقة حكومية، أقر المجلس، بمداولة ثانية، قوانين «الاستبدال، والقرض الحسن، ومخاصمة القضاء، والتوثيق، والتماس إعادة النظر في أحكام التمييز»، كما أقر بمداولتين «الإعلان الإلكتروني» و«تأجيل أقساط صندوقي المتعثرين والأسرة»، وأحالها جميعاً إلى الحكومة.

وأعتبر رئيس مجلس الأمة مرزوق الغانم الجلسة «إنجازا تاريخيا، بإقرارها سبعة قوانين في غاية الأهمية، وذلك بفضل التنسيق والتعاون النيابي- الحكومي»، مبيناً أن «العبرة

عمليات إجلاء الكويتيين العالقين في الخارج

ليست بعدد الجلسات، بل بالنتائج التي تخرج بها».

وبعدما كان مقرراً عقد الجلسات المقبلة بشكل اعتيادي كل أسبوعين، علق المجلس موعدها، بعد إعلان اشتباه إصابة أحد النواب بالفيروس بنسبة كبيرة، حيث تم تفويض مكتب المجلس تحديد موعد الجلسة المقبلة، بالتنسيق مع رئيس مجلس الوزراء.

غير أن المجلس تراجع عن عقد جلسة كانت مقررة في 14 يوليو، تحت وطأة الإعلان عن إصابات بين النواب والعاملين، وأعلن وقتها رئيس المجلس أنه تلقى كتابا من وزير الصحة الشيخ باسل الصباح يفيد بإصابة عدد من النواب والموظفين في الأمانة العامة لمجلس الأمة بالفيروس، مما يتعذر معه عقد الجلسة.

وشهد المجلس تقديم 8 استجوابات في ظرف 3 أشهر فقط الى رئيس الحكومة الشيخ صباح الخالد ووزراء الداخلية (تم استجوابه مرتين) والتربية (استجوب 3 مرات) والمالية (استجوب مرتين).

طلب طرح الثقة بوزير التربية

وفي ظل تزايد الإصابات بفيروس كورونا ودخول البلاد في أزمة اقتصادية ملحوظة، تقدم 10 نواب في مجلس الأمة (مطلع سبتمبر 2020) بطلب حجب الثقة عن وزير التربية والتعليم العالي سعود الحربي، وذلك بعد استجوابين تقدم بهما 3 نواب آخرون للوزير، اتهموه بالتردد في اتخاذ القرارات الحاسمة في الوقت المناسب أثناء فترة تفشي الفيروس، وحملوه مسؤولية ما وصفوها بـ»الأضرار» التي لحقت بالعملية التعليمية والطلبة.

واعتبروا أن تأخر إعلان الوزير عن إنهاء العالم الدراسي، حتى منتصف يوليو، والتأخر في بدء التعليم عن بعد إلى أغسطس، قد سبب "ضررا كبيرا" للطلبة.

لكن الوزير الحربي، الذي كان قد تم استجوابه قبل شهرين من ذلك التاريخ، نجح في اجتياز طلب طرح الثقة الذي تم التصويت برفضه في 10 سبتمبر.

خلل في التركيبة السكانية

ومنذ الإعلان عن ظهور إصابات بفيروس كورونا في 24 فبراير 2020، سادت حالة من التدافع نحو إعادة هيكلة التركيبة السكانية بفعل تداعيات كورونا في البلاد، وهي الحالة التي نشأ عنها تراكم أعداد كبيرة من العالقين الأجانب وبخاصة العمالة العربية والآسيوية ممن فقدوا وظائفهم وتقطعت بهم سبل العيش.

هذه الحالة كشفت مشكلة "تجار الإقامات" وهم أصحاب الشركات الذين استقدموا عمالاً على إقامات وهمية، ودون غطاء قانوني يؤمن لهم وظيفتهم أو مصدر رزق واضح.

وفي 19 أغسطس، قررت الحكومة حظر إصدار أذونات عمل لمن بلغوا سن الـ 60 عاما فما فوق في القطاعين العام والخاص، في خطوة إضافية لتقليص أعداد الوافدين التي تواجه ضغوطاً مالية بسبب تراجع عائدات النفط والأضرار الاقتصادية الناجمة عن تفشي فيروس كورونا. ونص القرار الصادر عن الهيئة العامة للقوى العاملة، على تنفيذ الحظر اعتباراً من الأول من يناير2021، وستتبعه قرارات أخرى تصدر لاحقا تشمل تشديد الإجراءات ضد مخالفي قانون الإقامة، وعدم استقدام عمالة جديدة من الخارج.

ووفق احصائيات رسمية استندت اليها الصحف اليومية، هناك أكثر من 150 ألف وافد يعملون في القطاع الخاص تجاوزت أعمارهم الـ 60 عاماً.

ونقلت الصحف عن مسؤول في هيئة القوى العاملة أن نحو 280 ألف وافد سقطت إقاماتهم لوجودهم خارج البلاد وعدم تمكنهم من العودة نتيجة حظر استقبال مواطني 31 دولة بسبب تفشي الفيروس فيها، وأن أعداد الوافدين الذين قد تنتهي إقاماتهم وهم في الخارج مرشحة للزيادة.

وكانت السلطات قد اتخذت اعتبارا من مارس 2020، عددا من التدابير والإجراءات القانونية للتخفيف من آثار تداعيات الجائحة، من بينها إعفاء مخالفي الإقامات من دفع الغرامات شرط مغادرة البلاد.

ويستهدف القرار أيضا، تخفيف الأعباء عن الكادر الصحي في البلاد، في ضوء خطة للدولة لإجلاء 50 ألفا من الكويتيين العالقين في الخارج وتسهيل اعادتهم للبلاد، وهو الأمر الذي بدأ 19 أبريل واستمر 19 يوما وتم بنجاح، في ما وصف بـ«أكبر عملية إجلاء» تشهدها الكويت.

وشدد القرار على أنّ من لم يغادر خلال المهلة الممنوحة من المخالفين، ستوقع عليه العقوبات المقررة، ولن يتم الترخيص له بالإقامة ويبعد عن البلاد.

في ذروة تفشي فيروس كورونا وانتشار تداعياته السلبية على مختلف القطاعات في الكويت، انهالت إقتراحات أعضاء مجلس الأمة الكويتي وصبّ معظمها في هدف واحد هو إصلاح خلل التركيبة السكانية التي تميل كفتها الى الوافدين لا الى المواطنين.

تقدم النائب الدكتور بدر الملا وعدد من النواب (28 مايو) باقتراح بقانون بخصوص التركيبة السكانية، تضمن وضع نسب لكل جالية، أبرزها ألا يتجاوز عدد أفراد الجالية الهندية 15 في المئة من عدد الكويتيين (ما يقتضي ترحيل 844 ألف هندي)، والجالية المصرية 10 في المئة (أي ترحيل نصف مليون مصري).

وجاء في الاقتراح أن يكون حساب أوزان الجنسيات

الحجر الصحي على منطقة المهبولة

وفق النسبة والتناسب مع عدد المواطنين الكويتيين ويحدد الجدول نسبة كل جنسية بالنسبة إلى عدد المواطنين، وتعد كل نسبة منها حدا أقصى لهذه الجنسية.

كما تضمن أنه لا يجوز استقدام أي عامل إلى الكويت في حال تجاوز وزن الجنسية النسبة المسموح فيها، ويظل حظر الاستقدام ساريا لحين انخفاض نسبة الجنسية الأجنبية عن الوزن المنصوص عليه. وتلتزم الإدارة المركزية للإحصاء بتزويد الجهات الحكومية بالنسب المتحققة لكل جنسية كل ثلاثة أشهر.

وحظر الاقتراح على الجهات الحكومية الموافقة على القيام بتحويل العمالة المنزلية إلى عمالة وفق القطاع الأهلي أو النفطي، أو تحويل سمات الزيارة إلى إقامة للعمل، وتحويل سمات الزيارة إلى الالتحاق بعائل، أو تجديد إقامة العامل المستقدم وفق العقود الحكومية بعد انتهاء المشروع الحكومي.

وفرض الاقتراح عقوبات، بأن يعاقب بالحبس الذي لا يتجاوز 10 سنوات وبالغرامة التي لا تزيد على 100 ألف دينار، أو بإحدى هاتين العقوبتين كل موظف عام أمر أو وافق على استقدام عامل على الرغم من تجاوز الجنسية التي ينتمي إليها العامل النسبة المنصوص عليها.

كما أقر بأنه من دون الإخلال بأي عقوبة أشد في أي قانون آخر، يعاقب بالحبس الذي لا يتجاوز خمس سنوات وبالغرامة التي لا تزيد على 50 ألف دينار أو بإحدى هاتين العقوبتين، كل موظف عام أمر أو وافق على تحويل شخص إلى إقامة للعمل أو قام بتجديدها على نحو مخالف لما ورد في أحكام القانون المقترح. وفضلا عن العقوبات المقررة للجرائم المذكورة في المواد 5، 6 يحكم على الجاني بالعزل من الوظيفة العامة.

وفي العاشر من أغسطس عام 2020، قدم رئيس مجلس الأمة مرزوق الغانم وعدد من النواب، اقتراحا بقانون بشأن التركيبة السكانية وتنظيم استقدام العمالة من الخارج يتألف من 25 مادة ويركز على معالجة الاختلالات في التركيبة وتفادي وجود شبهات دستورية وقانونية.

حظر التجمعات أثناء انتخابات مجلس الأمة

واعتبر الاقتراح أن معالجة اختلالات التركيبة السكانية قضية وطنية، وألزمت المادة الخامسة مجلس الوزراء بإصدار قرار خلال 6 أشهر من العمل بالقانون يحدد فيه الحد الاقصى للعمالة الوافدة بما يحافظ على الوزن النسبي لهذه العمالة بالنسبة لعدد المواطنين.

وقال الغانم للصحافة: «في عام 2001 نسبة الكويتيين 38 % ونسبة غير الكويتيين 72 % وخفضناها إلى 62 % ووصلت الآن إلى 70 %».

وضمن خطة قصيرة محصورة تحت سقف عام واحد، تستهدف الاستغناء عن 250 ألفاً من الوافدين، في حين تستهدف في خطتها الطويلة خلال خمس سنوات مُعالجة الخلل في التركيبة السكانية بالاستغناء عن مليونين و250 ألف وافد، وهو ما يرفع نسبة الكويتيين إلى 50 %.

وتسعى الكويت إلى توطين الوظائف؛ في هدف حكومي لتوفير فرص عمل للمواطنين، خاصة في ظل ترشيد النفقات الحكومية على أثر تراجع أسعار النفط، الذي يعتبر مصدر الواردات الرئيسي للبلاد.

خفض رواتب.. بأثر رجعي

أجرى مجلس الوزراء تعديلا على القانون المقترح لتخفيض رواتب الوافدين في القطاع الخاص، حيث سيتم تطبيقه بأثر رجعي منذ قرار وقف الأنشطة الاقتصادية بتاريخ 12 مارس 2020.

وتأتي هذه الخطوة حتى تتمكن الشركات من التفاوض مع موظفيها على الرواتب المتأخرة واستئناف أعمالها من دون مشكلات قانونية.

ويهدف القانون إلى حماية أصحاب الأعمال والعمالة الوافدة في نفس الوقت، وسيتم تطبيقه في فترات الأزمات فقط، وقدمت مئات الشركات شكاوى لمجلس الوزراء بشأن الخسائر الفادحة التي تكبدتها بسبب الغلق الإجباري وتداعيات جائحة كورونا، وترغب هذه الشركات في تجنب الملاحقات القضائية من جانب الوافدين الذين تم تخفيض رواتبهم بنسب تصل إلى 50 % أو ممن تم منحهم إجازات بدون راتب بالمخالفة مع قانون العمل الأهلي.

وكشف تقرير للمركز الدولي للاستشارات الاقتصادية

أن إجمالي خسائر القطاع الخاص خلال الفترة من 12 مارس حتى 31 يونيوبلغ نحو 12.5 مليار دولار، وذلك بسبب إغلاق الأنشطة التجارية وتراجع معدلات الاستهلاك حيث انخفض عدد زوار المتاجر والأسواق والمجمعات التجارية بنسبة 70 % فضلاً عن فقدان مئات الآلاف من الوافدين مصادر دخلهم بسبب إنهاء خدماتهم. وقدمت الحكومة اقتراحا بتعديل قانون العمل الأهلي لمناقشته في مجلس الأمة، يتضمن تخفيض رواتب العمالة الوافدة بنسبة تصل إلى 50 % من خلال التفاوض بين أصحاب الأعـمال والموظفين الوافدين، فيما ستقوم الحكومة بزيادة دعم العمالة المقدمة للمواطنين.

وبحسب بيانات رسمية، يبلغ عدد الكويتيين الذين يعملون في شركات القطاع الخاص نحو 75 ألف مواطن، فيما يبلغ إجمالي عدد العاملين في القطاع الخاص مليون و716 ألفاً و642، في حين يقدر عدد العاملين في المنازل في مهن (خادمة وسائق) نحو 744 ألفاً و208.

لا ولائم ولا خيام

فرض فيروس كورونا شروطه على انتخابات مجلس الأمة (5 ديسمبر)، والتي لطالما ارتبطت بجانبٍ ترويجي تتخلله اللقاءات الحاشدة والولائم والخيام المكيفة الممتدة، بعد ان حظرت السلطات الصحية في البلاد التجمعات خوفا من تفشي الوباء.

وهذه هي المرة الأولى التي تشهد فيها حملات انتخابية باهتة يختفي فيها ذلك الزخم الدعائي التي لطالما ارتبطت بالولائم واطباق الطعام المتنوعة والحلوى بشكل أسبوعي ولمدد قد تصل الى شهرين.

وكانت كل وليمة من هذه الولائم تجمع المئات من الأشخاص، وسط حرص من المرشحين على إظهار كرمهم واهتمامهم بقواعدهم الانتخابية.

ويقول رئيس اتحاد المطاعم فهد الأربش إن "الوليمة الواحدة كانت تكلف ما بين ثلاثة إلى سبعة آلاف دينار كويتي (تسعة آلاف دولار حتى 22 ألف دولار)، وكان عدد الحضور يصل إلى نحو ألفي شخص في مناطق يقيم فيها أفراد أكبر قبائل البلاد".

ويرى الأربش أن المطاعم وشركات الضيافة التي تقوم بنصب الخيام وتوفر خدمة القهوة العربية والتمور، الخاسر الأكبر في هذه الدورة الانتخابية.

وخلت شوارع الكويت من مظاهر الانتخابات العادية سوى بعض اللافتات الانتخابية في عدد منها، حيث لم تسمح السلطات بفتح مقرات في الدوائر الانتخابية الخمس أو تنظيم أي مهرجانات خطابية خشية تفشي الفايروس، بينما لجأ المرشحون والمرشحات إلى الاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي خلال حملاتهم الانتخابية، وإلى وسائل الإعلام مثل الصحف الورقية والإلكترونية والقنوات التلفزيونية المحلية لعرض إعلاناتهم.

استراتيجيات لكبح التداعيات

لم تنتظر الكويت طويلاً حتى تتفاقم الأزمـة بل سارعت اعتبارا من شهر مارس 2020، طبقت الكويت، استراتيجيات عديدةللحد من انتشار فيروس كورونا وكبح تداعياته الصحية والاقتصادية والأمنية، لاسيما أنها دولة يعيش فيها ملايين الأجانب بمن فيهم ذوو الدخل المنخفض الذين يعيشون غالبا تحت وطأة ظروف قاسية ومنازل مزدحمة مما يعرضهم لخطر الإصابة ونشر العدوى بشكل كثيف.

وفي 22 مارس، حذر سمو أمير الكويت الراحل الشيخ صباح الأحمد من أن وباء كورونا بات أزمة عالمية ولا تلوح في الأفق نهاية لها، داعيا للاستعداد لكافة الاحتمالات، بينما فرضت السلطات حظر تجول جزئيا للحد من العدوى.

وفي كلمة بثها التلفزيون الكويتي شحذ فيها الهمم، قال الأمير إن الكويت تواجه أزمة صحية عالمية عابرة للقارات، وإنه لا تلوح في الأفق نهاية لها، مما يستوجب الاستعداد لكافة الاحتمالات، وأضاف في الكلمة الموجهة للمواطنين والمقيمين أن صورا مؤلمة ومحزنة خرجت من دول عظمى بسبب التهاون واللامبالاة، معتبرا أن العالم يخوض "معركة فاصلة ضد عدو شرس".

وعليه فإن الجميع مطالبون بالالتزام الجاد بتعليمات السلطات الصحية، وأهمها تجنب التجمعات وأسباب العدوى، وعدم الالتفات إلى الإشاعات الضارة التي تؤدي إلى إضعاف جهود الدولة، كما دعا السلطات المعنية باتخاذ التدابير المطلوبة لضمان التطبيق الكامل للإجراءات الصحية.

وأوضح الأمير أن دولة الكويت تتمتع بوفرة من المخزون الغذائي والتمويني، مستدركا بأن هذا "لا يبرر الإسراف والتبذير بل يستوجب الترشيد والتوفير".

كما أكد الأمير أن إنقاذ الأرواح أولوية قصوى تتعدى كل الاهتمامات ولا تلغيها، مما يستوجب المبادرة إلى دراسة الآثار السلبية الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية التي ترتبت على الإجراءات الاستثنائية، بهدف التخفيف منها.

وأنطلاقاً من التوجيهات الأميرية، خطت الحكومة خطوات عديدة للحد من تفاقم الأزمة المالية على المواطنين والمقيمين، وتخفيف الأعباء على هؤلاء عبر إجراءات استهدفت جوانب صرف عديدة تستنفد ميزانيتهم في ظل ركود الأعمال بسبب الحظر المفروض على الأعمال.

ففي 24 مارس 2020 قررت البنوك الكويتية تأجيل سداد أقساط القروض والبطاقات الائتمانية لمدة 6 أشهر لكل العملاء من المواطنين، وكذلك تأجيل أقساط القروض والتسهيلات الائتمانية لعملائها من أصحاب الشركات الصغيرة والمتوسطة لمدة 6 أشهر، مع إلغاء الفوائد والأرباح المترتبة عن هذا التأجيل وأية رسوم أخرى.

وأعقبت البنوك ذلك القرار بآخر، في 28 مارس، قررت بموجبه تأجيل أقساطها للمقيمين الوافدين من العملاء كافة، مع إلغاء الفوائد والأرباح المترتبة عن هذا التأجيل وأي رسوم أخرى.

دعم المشروعات الصغيرة

وقبيل خطوة البنوك المحلية بنحو عشرة أيام، وتحديدا في 18 مارس، قررت 23 شركة عقارية كبرى، إعفاء مستأجري المحلات التجارية من الإيجارات لمدة شهرين، في محاولة لتخفيف الأضرارالناجمة عن انتشار «كورونا» الذي دفع السلطات إلى اتخاذ إجراءات وقائية عديدة كإغلاق المطاعم والمقاهي والمحلات التجارية ومراكز التسوق المختلفة.

ووفقاً لبيانات اتحاد العقاريين الكويتي، فإن عدد المحلات التي تملكها هذه الشركات يبلغ نحو 5800 محل مؤجرة لأنشطة مختلفة بين المطاعم والمقاهي والنوادي الصحية، ويبلغ متوسط القيمة الإيجارية لهذه المحلات نحو 1500 دينار شهريا (الدولار 3 دولار) لتبلغ إجمالي قيمة الإيجارات التي استغنت الشركات العقارية عنها نحو 8.6 ملايين دينار شهريا.

وبحسب بيانات التراخيص التجارية الصادرة عن وزارة التجارة، يبلغ عدد المقاهي نحو 8 آلاف مقهى، بينما يبلغ عدد المطاعم نحو 15 ألف مطعم، ويصل عدد النوادي الصحية والرياضية إلى حوالي 7 آلاف.

وأتت تلك الخطوة من الشركات العقارية، في ظل الضغوط التي تعاني منها أغلب القطاعات التجارية، وسط مخاوف من إفلاس بعض أصحاب المشاريع الصغيرة

والمتوسطة، الذين بلغ عددهم نحو 1740 مشروعاً، وفقاً لبيانات الصندوق الوطني للمشاريع الصغيرة.

حزمة اقتصادية

في 31 مارس 2020، اعتمدت الحكومة حزمة من الإصلاحات الاقتصادية، لمواجهة الأزمة التي تمر بها البلاد بسبب جائحة كورونا، كان في طليعتها التوصية بمساعدة أصحاب المشاريع الصعيرة والمتوسطة عن طريق تأجيل الأقساط الممولة من صندوق المشروعات ومحفظة التمويل الزراعي.

كما تضمنت التوصيات تقديم قروض بشروط ميسرة وطويلة الأجل للمشاريع، فضلا عن الالتزام بحماية مداخيل المواطنين، ودعم رواتب المسجلين على الباب الخامس في مؤسسة التأمينات.

وبينت الحكومة على لسان الناطق الرسمي باسمها طارق المزرم في تصريح نقلته وكالة الأنباء "كونا"، انها ترتكز في تطبيق الحزمة الاقتصادية إلى جملة تصورات تستهدف"الحرص على المال العام، وترشيد استخدامه، وضمان استمرار عجلة النشاط الاقتصادي، وليس تعويض الشركات أو الأفراد".

وجاءت قرارات مجلس الوزراء على نحو يضمن عدم تضرر المواطنين العاملين في القطاعات المتضررة من تداعيات الأزمة، الى جانب المحافظة على الدعم اللازم للمحافظة على استقرار مستويات وأسعار السلع الغذائية والطبية في الأسواق المحلية، ووضع آليات لتأمين الحد الأدنى من الدخل لمواجهة تكاليف المعيشة للعمالة المتضررة والمرتبطة بعقود.، وغيرها من الضمانات.

خطة التحفيز

التصورات الحكومية سالفة الذكر، هبطت إلى أرض الواقع في أول أبريل، عبر تشكيل «اللجنة العليا للتحفيز الاقتصادي» برئاسة رئيس البنك المركزي د.محمدالهاشل، وأعلنت اللجنة عن توفير 5 مليارات دينار لمعالجة آثار الأزمة اقتصاديا وماليا للقطاعات المتضررة، غير أن اللجنة واجهت عقبات شتى أدت الى استقالة الهاشل عن رئاستها بعد 96 يوما فقط من تشكيلها. وصدرت أولى توصيات "لجنة التحفيز" في 15 مايو وأقرها مجلس الوزراء، ويتعلق الأمر بإطلاق برنامج للقروض الميسرة، بتمويل يبلغ 80 في المئة من الصندوق الوطني للتنمية والمشاريع الصغيرة والمتوسطة، و20 في المئة من البنوك المحلية.

وكشفت وسائل إعلام كويتية أن خطة التحفيز الاقتصادي، التي أعلن عنها الهاشل، لاقت ترحيبا واسعا بين الأوساط الاقتصادية والشعبية، وخصوصا أصحاب المشروعات الصغيرة والمتوسطة المتعثرة التي سيبلغ نصيبها من التسهيلات المقررة نحو 1.5 مليار دولار.

وقال الهاشل ان دعم كلفة التمويل الميسر للمشروعات الصغيرة والمتوسطة لمدة تصل إلى 4 سنوات، بحيث يبلغ مبلغ التمويل 250 ألف دينار كحد أقصى للعميل الواحد، على أن تكون أوجه الاستخدام في المصاريف الدورية والتعاقدية مثل الرواتب والإيجارات، والشروط تتلخص في أجل السداد المحددة في فترة أقصاها 4 سنوات شاملة سنة السماح، وأن تكون الفائدة بواقع سعر الخصم مضافا إليه 1 % (2.5 % سنويا حاليا).

وأوضح أن دعم الشركات العادية دعم كلفة التمويل الميسر للشركات لمدة تصل الى 3 سنوات وهي شريحة الشركات التي لا ينطبق عليها تعريف المشروعات الصغيرة والمتوسطة وأوجه الاستخدام في المصارف مثل الرواتب والإيجارات وأجل السداد فترة أقصاها 3 سنوات شاملة سنة سماحا ومعايير الاستحقاق وهي الشركات المتضررة

من تداعيات أزمة كورونا ولا يستفيد من هذا التمويل العميل غير المنتظم في السداد والهدف هو المحافظة على العمالة الوطنية والوصول إلى النسب المقررة.

إجراءات أخرى

لم تنفك الحكومة في اجتراح الإجراءات الاقتصادية الرامية الى حفظ حقوق أصحاب الأعمال وحمايتهم في ظل تداعيات الجائحة، وعلى هذا الأساس أحالت إلى اللجنة الصحية البرلمانية مشروع قانون جديد لمعالجة آثار «كورونا» على سوق العمل، يسري العمل به خلال فترة الإجراءات الاحترازية، التي تتخذها الدولة وينتهي العمل بأحكامه بانتهاء التدابير المتخذة لمواجهة الفيروس.

ووافقت اللجنة الصحية على القانون في 12 يوليو، والذي تنص مادته الأولى على: تجيز للوزير المختص بالعمل الموافقة لأصحاب العمل بسبب الإجراءات والتدابير الاحترازية التي تتخذها الدولة للوقاية من جائحة كورونا وترتب على ذلك توقف النشاط كليا أو جزئيا، ومنح العمالة إجازة خاصة بأجر مخفض لا يقل عن الحد الأدنى للأجور، وذلك خلال المدة التي يقرها مجلس الوزراء كفترة توقف للنشاط.

كما تجيز لأصحاب العمل الاتفاق مع العمالة لديهم على تخفيض الأجر طوال فترة توقف النشاط بحد أقصى 50 في المئة، على أن يتم مراعاة ساعات العمل الفعلية مقابل الأجر المدفوع، ودون المساس بالحد الأدنى للأجور، وعلى أن تحتسب كل مستحقات العمالة على أساس الأجر المستحق لهم قبل تخفيضه وتكون ضمن مدة الخدمة، ويصرف الدعم المقرر من خلال برنامج الدعم وكذلك بدل البطالة للمخاطبين بأحكامهما وذلك لضمان الحماية للعمالة الوطنية.

ونصت المادة الثانية على أن تسري أحكام المادة الأولى من هذا القانون خلال فترة الإجراءات الاحترازية التي تتخذها الدولة للوقاية من جائحة فيروس كورونا المستجد ولا يعمل بأي حكم يخالف أحكام هذا القانون، وينتهي العمل بأحكام هذا القانون بانتهاء التدابير الاحترازية التي تتخذها الدولة.

ونصت المادة الثالثة على ألا تحسب المدة التي يقررها مجلس الوزراء كفترة توقف للنشاط – تطبيقاً لأحكام المادة الأولى ضمن المواعيد الإجرائية للدعاوى التي يرفعها العمال استناداً إلى أحكام هذا القانون.

وأوضحت الحكومة في مشروعها أن القانون يستهدف إعادة التوازن في علاقات العمل في القطاع الأهلي في ظل الظروف الحالية، ومراعاة طبيعة الظرف الاستثنائي الحالي ليكون سريانه مؤقتا بطبيعة هذا الظرف، ولسد بعض النقص التشريعي في القوانين ذات الصلة بمعالجة آثار هذه الجائحة.

لكن مجلس الأمة رفض في جلسته بتاريخ 5 أغسطس 2020، مشروع القانون المذكور بأغلبية 34 نائبا وموافقة 13 وامتناع عضو واحد عن التصويت من اجمالي الحضور البالغ عددهم 48 عضوا.

تعديل قانون الايجار

في 6 أغسطس 2020، أقر مجلس الأمّة الكويتي تعديلا تشريعيا يحمي المستأجر من إخلاء المسكن والمقر الذي يستأجره في فترات الأزمات العامة التي يقرّر فيها مجلس الوزراء تعطيل أو وقف العمل في جميع مرافق الدولة، كما هي الحال في أزمة «كورونا".

ويُنظر إلى التعديل الجديد لقانون الإيجار باعتباره جزءا من حماية الدورة الاقتصادية والحفاظ على مناصب العمل وموارد الرزق بالنظر إلى وجود عدد كبير من المؤسسات والشركات التي تـزاول أنشطتها في مقارّ مستأجرة، وبانسحاب القانون على المحال السكنية يصبح للتعديل

أيضا دور في حماية الاستقرار الاجتماعي والتماسك الأسري خلال فترة الجائحة.

وقالت وكالة الأنباء الكويتية الرسمية "كونا" إن البرلمان وافق على القانون بأغلبية 51 نائبا مقابل رفض ثلاثة نواب. ونص التعديل الجديد على أنه "لا يجوز الحكم بإخلاء العين (العقار) المؤجر إذا تخلّف المستأجر عن سداد الأجرة خلال الفترة التي يقرر مجلس الوزراء تعطيل أو وقف العمل خلالها في جميع المرافق العامة للدولة حماية للأمن أو السلم العام أو الصحة العامة التي تقتضيها المصلحة العليا للبلاد".

وتضمن تعديل قانون الإيجار أيضا قيام المحكمة بتحديد طريقة سداد المستأجر للإيجار المتأخر ومدة التقسيط وقيمة كل قسط وفقا للحالة المالية للمستأجر وظروف الدعوى.

خفض ميزانية 2020 . 2021

وفي ظل تواصل التداعيات السلبية على الكويت جراء فيروس كورونا، اضطرت الحكومة إلى خفض ميزانية العام المالي الحالي 2020–2021، الذي بدأ في أبريل، بنسبة 20% على الأقل بهدف مواجهة الآثار الاقتصادية السلبية للفيروس. وذكر مجلس الوزراء، في بيان بتاريخ 4 يونيو 2020 بثته وكالة الأنباء الرسمية (كونا) أنه سيتم أيضا إعادة النظر في الدعم الموجه للمواطنين وعدم زيادة رؤوس أموال الهيئات والمؤسسات والصناديق الحكومية لمدة خمس سنوات.

وأقرت في يناير عام 2020 ميزانية العام المالي الذي بدأ بشهر أبريل وينتهي في مارس 2021 بمصروفات إجمالية 22.5 مليار دينار (73 مليار دولار) وبدون زيادة عن ميزانية العام الذي سبقه.

وقدرت الكويت إيرادات أقل من العام الماضي ب6.5 % تحت ضغط من توقعها لتراجع الإيرادات النفطية 6.9 %، حيث قدرت سعر برميل النفط عند 55 دولار للبرميل. وبينما كانت أسعار النفط تدور حول 40 دولار للبرميل فإنها لازالت أقل من تقديرات الحكومة الكويتية عند 55 دولار للبرميل في ميزانية العام المالي المذكور للدولة وإن كان هذا السعر تحقق مع بداية عام 2021 أن الإيرادات النفطية تمثل 87.3 % من إيراداتهاالإجماليةبحسب ميزانية 2020–2021.

وقال محافظ البنك المركزي، تعليقا على الإعلان الحكومي بخفض الميزانية، في فيديو نشر على الصفحة الرسمية لـوزارة الإعـلام على موقع "تويتر»، إن الإجـراءات التي اتخذتها الكويت لمواجهة انتشار الفيروس من حظر تجول وصل لحد الإغـلاق الكلي ووقف للأنشطة في الدولة إضافة للآثار السلبية لتراجع أسعار النفط شكّلا ضغطًا على اقتصاد الكويت، ودعا الى إعادة فتح الاقتصاد مع اتخاذ الإجراءات الاحترازية. وقال إن عدد الزوار في المحلات انخفض بنسبة 75 % في الثلاثة أشهر الماضية كما أن 45 % من الشركات علقت أعمالها، 44 % من أصحاب العقارات خفض الإيجارات، فيما يشعر 64 % من الأشخاص بالخوف والقلق. وأوضح أيضا أن إيرادات الشركات أيضا ستنخفض بنسبة 42 % ما قد يدفعها لتسريح العاملين كما أنها قد لا تستطيع سداد الأموال المستحقة عليها للبنوك وهو يدفع الدولة لاتخاذ الإجـراءات لدعم الأوضاع الاقتصادية وإعادة تشغيل الاقتصاد.

مراحل عودة الحياة

منذ بداية أزمـة كورونا، بـاشرت الحكومة بإتخاذ إجراءات عديدة للحد من تفشي الفيروس ووقف تداعياته

على مختلف الأصعدة الصحية والاقتصادية والأمنية وغيرها، وفرضت نوعين من الحظر (جزئي/ وكلي) على مراحل مختلفة ومحددة، كما عزلت عددا من المناطق السكنية التي يقطن في معظمها أجانب.

وبنهاية شهر مايو 2020، بدأت إجراءات العودة التدريجية الى الحياة الطبيعية في البلاد، بعدما كانت السلطات قد حددت مراحل لها، اشتملت على 5 مراحل، تتضمّن كلّ منها كافّة إجراءات التخفيف الخاصّة بالمرحلة التي تسبقها، وتم اعتماد مرور ثلاثة أسابيع لكل مرحلة اعتبارا من المرحلة التي تسبقها، إلّا أنّ هذه المدّة قد تزيد إذا كانت المستويات الوبائيّة لا تسمح بالانتقال إلى المرحلة التالية، كما يمكن الرّجوع إلى المرحلة السابقة في حالة عدم التزام المواطنين وتراجع الحالة الوبائيّة إلى الوراء.

- وحتى بداية يناير من عام 2021، ظلت البلاد رهن المرحلة الرابعة، بعد إرجاء الدخول للمرحلة الخامسة بسبب ارتفاع أعداد الإصابات والتغيرات التي طرأت من الدخول في الموجة الثانية.

المراحل الخمس، بالتفصيل:

- المرحلة الأولى: تتضمّن هذه المرحلة عودة المساجد ودور العبادة والشركات المـزودة للاتصالات والإنترنت والتجزئة الغذائية بالإضافة إلى خدمات التوصيل للمنازل والمطاعم والمقاهي مع الالتزام بشروط الصحّة العامّة.

- المرحلة الثانية: تشتمل هذه المرحلة على السماح بعمل 30 % من كوادر المؤسّسات الحكوميّة والخاصّة التي تعمل في مجالات الإنشاءات والبناء والمجمعات التجاريةبالإضافة إلى المجالات الماليّة والمصرفيّة، كما تسمح هذه المرحلة بفتح المنتزهات العامّة ومحلّات البيع بالتجزئة والمطاعم والمقاهي لتسليم الطلبات فقط.

- المرحلة الثالثة: يتمّ إلغاء الحظر الجزئي في هذه المرحلة بشكل عامّ مع بقاء الحجر لبعض المناطق حسب الوضع الوبائي، كما تتيح هذه المرحلة عمل 50 % من كوادر المؤسّسات الخاصّة والحكوميّة بالإضافة إلى السماح بزيارة دور الرعاية الاجتماعية والفنادق والمنتجعات والشقق الفندقية وسيّارات الأجرة العامّة براكب واحد.

- المرحلة الرابعة: تتيح المرحلة الرّابعة زيادة عدد الكوادر العاملة في المؤسّسات إلى أكثر من 50 % بالإضافة إلى السماح بزيارة المطاعم والمقاهي وتشغيل وسائل النّقل العام.

- المرحلة الخامسة: يسمح بإقامة كافّة الأنشطة الاجتماعيّة وزيارة الأنديّة الرّياضيّة وإقامة مختلف الفعاليّات من معارض ومؤتمرات عند الانتقال إلى هذه المرحلة.

خسائر غير مسبوقة

بالرغم من رفع حظر التجول في الكويت في 30 أغسطس 2020، إلا أن القطاعات الاقتصادية ظلت ترزح تحت وطأة المعاناة، لاسيما الخاصة بأصحاب المشاريع الصغيرة والمتوسطة.

وكشف تقرير أصدره المركز العربي للاستشارات الاقتصادية (5 سبتمبر) ان قطاع الأعمال في الكويت تكبد خسائر غير مسبوقة، دفعت نحو 370 من المحال في المجمعات التجارية الشهيرة إلى الإغلاق.

وأوضح التقرير أن شهر يونيو شهد إغلاق 150 متجراً في المجمعات التجارية، كما شهد يوليو إغلاق نحو 90

من المحال، إلى جانب إغلاق نحو 130 من المحال والعلامات التجارية الشهيرة في شهر أغسطس بسبب ضعف الإقبال.

وقررت السلطات رفع حظر التجول الجزئي بداية من 30 أغسطس، بعد أكثر من 5 أشهر من فرض الحظر الذي شهد في بعض فتراته إغلاق الأنشطة التجارية والمجمعات تجنبا لزيادة أعداد الإصابات بكورونا في البلاد.

"جرد الحساب" الحكومي

عقب رفع الحظر الجزئي في 30 أغسطس، تمكنت البلاد من التقاط جـزءاً لا بأس به من أنفاسها، مما أتـاح الفرصة لرئيس مجلس الــوزراء الشيخ صباح الخالد للدفاع عن عمل حكومته خلال أزمة الجائحة. تم ذلك خلال صعود الخالد منصة الاستجواب المقدم اليه من النائبين عبد الكريم الكندري والحميدي السبيعي في 22 سبتمبر 2020، وقال الخالد إن حكومته التي أدى اليمين لقيادتها في 19 نوفمبر 2019 واجهت مصاعب جمة في زمن قصير، على رأسها الأزمة التي نشبت بين الولايات المتحدة وإيران عقب اغتيال رئيس الحرس الثوري قاسم سليماني وأوشكت أن تتسبب في اندلاع مواجهة في الإقليم، إضافة الى بزوغ أزمة "كورونا" وما استتبعها من هلع في الأيام الأولى من انتشار الفيروس على مستوى العالم.

واستعرض الخالد عمل وزرائه خلال أزمة "كورونا"، وقال إن حكومته تعتبر الأقصر عمرا في تاريخ الكويت (10 أشهر فقط)، ورغم الأزمة الصحية الجارفة، إلا أن الحكومة لم تتأخر عن الإنجازات التنموية.

أبرز التحديات التي واجهتها الحكومة، في تقدير الخالد، تمثلت في توفير العلاج والأسرّة وأجهزة التنفس للمواطنين والمقيمين، في بلد يبلغ عدد سكانه 4.8 ملايين نسمة، بينهم 1.4 مليون مواطن و3.4 ملايين وافد، وأشار إلى أن هذا العدد للوافدين يشكّل تحديا كبيرا محفوفا بالخطر مخافة من أن يؤدي إلى انفلات أمني، فضلا عن تحديات أخرى كالمخزون الغذائي والمنافذ.

وأعترف رئيس الوزراء بارتكاب أخطاء خلال التعامل مع الأزمة، لكنه أثنى على عمل وزارات الدولة خصوصا وزارة الصحة ووزارة التجارة ووزارة الداخلية، وقال صحيح أننا تجاوزنا الصين؛ البلد التي انتشر منه الوباء الى كل الدنيا، في أعداد المصابين (أكثر من 100 ألف إصابة في الكويت حتى تاريخه) إلا أن أعداد الوفيات لدينا متدنية (584 وفاة حتى تاريخه) قياسا بدول العالم.

وأشار الخالد الى لجوء حكومته، في سعيها لتقليل الخسائر، الى فرض الحظر مدة 160 يوما، وبوشرت تلك الإجراءات اعتبارا من 13 مارس 2020 بمنع إقامة صلاة الجمعة في 50 % من المساجد، ثم تم بعدها اتخاذ إجراءات أخرى من بينها عزل عدد من المناطق وتعطيل المدارس وإغلاق المساجد وتشييد المستشفيات الميدانية وعزل مبانٍ موبوءة، وتدرجت الحكومة بعد ذلك في إعادة الحياة بشكلها الطبيعي عبر 5 مراحل من الفتح الجزئي للأعمال على مدار الأشهر اللاحقة، وبقيت المرحلة الخامسة المتعلقة بالعودة الكلية للحياة الطبيعية معلقة حتى الآن (كان ذلك في 23 سبتمبر).

وقال الخالد: في بداية الأزمة كانت قدرتنا تتمثل في 168 سريرا فقط، بينما بلغت القدرة الآن 3211 سريرا، كما ارتفعت وحدات العناية المركزة من 235 إلى 925 وحدة، وأجهزة التنفس من 1293 إلى 3206 جهازا حاليا، وكان لدينا مصنع كمامات واحد ينتج 25 ألفا في اليوم والآن لدينا 9 مصانع تنتج 5 ملايين، والمعقمات زادت من 8 مصانع إلى 14 مصنعا.

وبين الخالد أنه بالرغم من فداحة الجائحة وما خلفته من ركود اقتصادي في عدد كبير من دول العالم، إلا أن النمو الاقتصادي في الكويت زاد 7 في المئة بينما نمت ودائع القطاع الخاص 42 في المئة فيما نما الائتمان 45 في المئة، وأشار الى ان الجهود في الجانب التقني خلال الجائحة رفعت ترتيب البلاد 7 في المئة بحسب تقارير الأمم المتحدة.

وبالنسبة للإنفاق الحكومي خلال الأزمة، فقد أنفقت 500 مليون دينار، وجرى توحيد جهات الشراء عبر التعاقدات التي صُرف عليها 379 مليون دينار وجنّبنا البلاد أزمة غذائية في ظل قيود النقل والسفر التي رفعت أسعار الشحن وسببت شحا في السلع.

وضمن إطار الحرص الحكومي على ضمان إستقرار الوضع الاقتصادي والحد من مخاطر الآثار الناجمة عن الجائحة فقد وافق مجلس الوزراء في السادس عشر من مارس 2021 على توصية لجنة الشؤون الاقتصادية في شأن الآلية المناسبة لمعالجة التداعيات الاقتصادية الناتجة عن جائحة «كورونا».

وقرر المجلس الموافقة على مشروع قانون بدعم وضمان تمويل البنوك المحلية للعملاء المتضررين من تداعيات أزمة فيروس كورونا، ورفعه لسمو نائب الأمير.

كما قرر تكليف وزير التجارة والصناعة بالتنسيق مع الجهات المعنية: وزارة المالية، الهيئة العامة للاستثمار، بنك الكويت المركزي، الصندوق الوطني لرعاية وتنمية المشروعات الصغيرة والمتوسطة، الجمعية الاقتصادية الكويتية، والجهات التي تراها مناسبة، لاستكمال الجهود الحكومية المبذولة في دعم أصحاب المشاريع الصغيرة والمتوسطة.

الكويت ومنظمة الصحة العالمية

لطالما كانت دولة الكويت عضواً مؤثرا واستراتيجياً وشريكاً فعالاً لمنظمة الصحة العالمية في اقليم شرق المتوسط، ساهمت في الاستجابة العالمية والاقليمية لـ Covid -19 وعززتها باستراتيجية شاملة مكنتها من مواجهة الوباء وعلى شتى المستويات.

وفي ظل هذه الشراكة قام وزير الصحة بإفتتاح المقر الجديد لمنظمة الصحة العالمية في دولة الكويت يوم 15 يونيو 2021، وفي هذا الصدد قال ممثل الأمين العام للأمم المتحدة والمنسق المقيم في الكويت طارق الشيخ.

«يسعدنا أن نعلن عن الافتتاح الرسمي لمكتب منظمة الصحة العالمية في دولة الكويت ، وهو معلم رئيسي في شراكتنا طويلة الأمد لتحقيق إنجازات صحية وطنية مستمرة ومستدامة (التي تتفوق خلال هذه الأوقات الصعبة) ولتكملة الوكالات الشقيقة في منظومة الأمم المتحدة الإنمائية لشراكات فعالة مع أصحاب المصلحة الكويتيين. كما كانت الكويت في طليعة الجهود المبذولة لتأمين الدعم المنقذ للحياة للملايين في ظل الأزمات الإنسانية والطوارئ. بصفتها شريكًا وداعما لأنشطة منظمة الصحة العالمية ، فقد أيدت المبادئ التوجيهية لميثاق الأمم المتحدة لعدم ترك أحد خلف الركب من خلال تمكين توفير التدخلات المنقذة للحياة للمجتمعات المتضررة في سوريا والعراق واليمن من بين بلدان أخرى. وبذلك ، دعمت الكويت وكالات الأمم المتحدة وصناديقها وبرامجها لحماية الحق فى الحصول على الرعاية الوقائية والعلاجية الأساسية لملايين الأشخاص الذين فى اشد الاحتياج لتلك الرعاية. لقد لعبت المساهمة الكبيرة المقدمة إلى صندوق الطوارئ التابع لمنظمة الصحة العالمية (CFE) دورًا لا لبس فيه في

التوسع السريع في تقديم الرعاية الصحية أثناء حالات الطوارئ مثل جائحة كوفيد COVID-19».

يعكس افتتاح مكتب المنظمة في دولة الكويت الأهمية الحاسمة للاتصال الوثيق مع الـدول والحكومات في عمل منظمة الصحة العالمية. تمثل المكاتب القطرية حلقة وصل بين المنظمة والحكومات. يغطي المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية لإقليم شرق المتوسط من 22 بلداً وإقليماً ، معظمها لها مكاتب خاصة بها في هذه البلدان: افتتاح المكتب يرفع عدد مكاتب المنظمة في الإقليم إلى 19. كما تلعب المكاتب دوراً هاماً و رئيسيا داخل المنظمة في ضمان التعاون الفني المناسب منها تقديم المشورة بشأن السياسات والدعم الفني؛ الإعلام والعلاقات العامة والبرامج التوعوية ؛ والتنظيم والإدارة.

هذا الحدث تبعه زيارة هي الأولى من نوعها لمدير الصحة العالمية تيدروس غيبريسوس يوم 28 يوليو 2021 مؤكداً أن المنظمة ملتزمة بدعم الكويت لتخطي عقبة وباء كورونا، مضيفاً إن «الكويت من أكثر الدول مساهمة ودعما للمنظمة، ومن أولى الدول استجابة لها في مواجهة الفيروس» وأن «الدعم الذي تقدمه للمنظمة مكنها عبر سنوات عديدة من توفير أدوية مهمة لملايين من الناس في سوريا واليمن ولبنان والعراق دول أخرى»، مشيداً بانخفاض عدد إصابات كورونا بالكويت، معربا عن أسفه للخسائر البشرية التي خلفها الوباء.

أرقام كويتية في ظلال الجائحة

مساهمات تجاه المجتمع الدولي

لم يوقف وباء كورونا الكويت عن تقديم يد العون الى غيرها من الدول المحتاجة، وهو الدور الذي اشتهرت به وتم بموجبه تسمية أميرها قائدا للعمل الإنساني من قبل الأمم المتحدة في 2014 وتسمية الكويت نفسها مركزا للعمل الإنساني.

وفي هذا الصدد أعرب رئيس مجلس الوزراء الشيخ صباح الخالد عن التزام بلاده بدعم تصنيع لقاح فيروس كورونا واتاحته لعدد من الدول الأكثر احتياجا، محذرا من التداعيات الخطيرة للجائحة التي ضاعفت ثقل التحديات الملقاة على عاتق كثير من الدول التي تعاني الأزمات.

وقال الخالد في كلمته التي ألقاها افتراضيا أمام الدورة الخامسة والسبعين للجمعية العامة للأمم المتحدة – نيويورك (25 سبتمبر) إن وباء كورونا كشف للعالم أجمع أهمية تعزيز النظم الاقتصادية والصحية والاجتماعية والبيئية المعمول بها، كما أنه ينبغي التركيز على مراحل التعافي من الآثار المدمرة لـ كورونا لبناء عالم أكثر مساواة.

وقال: "في إطار تحمل دولة الكويت لمسؤولياتها في دعم جهود المجتمع الدولي بمحاربة هذا الوباء فقد ساهمت بمبلغ ما يقارب 290 مليون دولار مؤكدة على التزامها بالتعاون لدعم كل ما يصب في صالح الجهود الدولية للإسراع في عملية تصنيع اللقاح وإتاحته بشكل عادل للدول الأكثر احتياجا إضافة لإعلانها الاستعداد لاستضافة الحالات الحرجة لموظفي الأمم المتحدة المصابين بفيروس كورونا والعاملين في الميدان في وسط وغرب آسيا لتلقي العلاج في مستشفيات دولة الكويت».

وأمام التحديات التي واجهت منظمة الصحة العالمية كانت الكويت واحدة من أكبر الجهات المانحة على مستوى العالم في دعم «صندوق الاستجابة للتضامن من أجل مكافحة كورونا» التابع للمنظمة الدولية وكانت مساهماتها كالتالي:

1 - من ضمن أوائل الدول التي دعمت مبادرة تسريع أدوات مكافحة الفيروس التابعة للمنظمة.

2 - بدعم الكويت تمكّنت المنظمة من تطوير الإستراتيجية الأساسية والميزانية المخصصة لمبادرة تسريع أدوات مكافحة «كورونا».

3 - التوسع في توزيع اللقاحات والتشخيصات والعلاجات الفعالة.

4 – تعزيز مجالات البحث والتطوير الأساسية مثل اللقاحات وإجراء الاختبارات.

5 – إيجاد العلاجات الفعالة وتطوير السياسات وتقديم الإرشاد والتوجيه الفني للدول الأعضاء.

6 – تطوير أدوات تسريع توزيع اللقاحات الجديدة بما في ذلك عمليات مجموعة الخبراء الاستشارية الاستراتيجية المعنية بالتمنيع بشأن استخدام اللقاحات.

7 – تطوير آلية محدّدة لتخصيص اللقاحات عبر (مرفق كوفاكس) الذي يُعنى بالتوزيع العادل للقاحات الآمنة والفعالة.

8 – المبالغ التي قدمتها الكويت ساهمت في دعم أنظمة الرعاية الصحية في الدول المتلقية.

9 – دعم جهود المنظمة في الاستجابة بشكل استباقي للاحتياجات الصحية والإنسانية في الدول التي تواجه أزمات وحالات طوارئ وصراعات طويلة الأمد.

10 – إسهامات الكويت ساعدت في الوصول إلى الفئات الأكثر حاجة لخدمات الرعاية الصحية والإمدادات وتشغيل المرافق الصحية المتضرّرة.

ركائز المنظومة الصحية

وضعت الكويت نفسها منذ يناير عام 2020 في دائرة التحوط واتخذت في سبيل ذلك سلسلة إجراءات من شأنها تثبيت المنظومة الصحية وتعزيز قدراتها على مواجهة الجائحة واستطاعت بذلك تأمين المستلزمات الطبية وتوفير الكوادر والطواقم والفنيين الذي واجهوا هذا الوباء بتضحيات شتى، ومن أبرز الخطوط التي ساهمت بتحصين المجتمع والسكان كانت على الشكل التالي وكما يعرضها مدير مستشفى مبارك الكبير ونقلتها صحيفة «الراي»:

- إنشاء مستشفى ميداني بمشرف مجهز بجميع الأجهزة الطبية بطاقة استيعابية 1200 سرير.
- تخصيص مستشفى جابر بكامل طاقته لحالات «كوفيد»، سواء عناية مركزة أو أجنحة، وأيضاً مستشفى الجهراء الجديد، وتخصيص عدد من الأجنحة والعنايات في مختلف المستشفيات العامة في المناطق الصحية، ومنها مبارك الكبير.
- توفير جميع المستلزمات التي من شأنها تطبيق الإجراءات الاحترازية من كمامات وقفازات ووسائل الوقاية الشخصية PPE.
- توفير مختلف اللقاحات المصرح بها من هيئة الغذاء والدواء الأميركية ومنظمة الصحة العالمية.
- تخصيص مركز متكامل على أحدث النظم العالمية للتطعيم بمشرف، والبدء في حملات التشجيع على التطعيم.
- زيادة مراكز التطعيم في المناطق الصحية المختلفة لتشمل أكبر عدد من المواطنين والمقيمين للوصول إلى المناعة المجتمعية في أسرع وقت ممكن.
- تشغيل مركز جسر جابر للتطعيم داخل السيارة بطاقة تصل إلى 5000 حالة في اليوم.
- إقرار الكويت، كثاني دولة في الشرق الأوسط،

مها البرجس الأمين العام في جمعية الهلال الأحمر الكويتي تتابع الأنشطة

استخدام العلاج بالأجسام المضادة أحادثة النسيلة (دواء سوتروفيماب) لعلاج الحالات المتوسطة من «كوفيد 19»، حيث أظهرت النتائج فعاليته بنسبة 85 في المئة بخفض حالات دخول المستشفى أو الوفاة، ويتمز هذا الدواء بتوجيهه بشكل خاص ضد البتروتين الشائلك بـ SARS-COV - 2 ومنع ارتباط الفيروس ودخوله إلى الخلايا البشرية.

100 مليون دولار.. مساعدات للمحتاجين

واصلت دولة الكويت العطاء وقال وزير الخارجية الكويتي الشيخ أحمد الناصر خلال مشاركته في اجتماع المجموعة الوزارية المصغرة للتحالف الدولي ضد ما يسمى تنظيم داعش، والذي عقد في 4 يونيو 2020 عبر تقنية الاتصال المرئي، أن الكويت قدمت 100 مليون دولار، مساعدات إقليمية ودولية، لمواجهة فيروس "كورونا" والتقليل من آثاره.

وأضاف ان هذا الاجتماع الهام، يأتي في مرحلة حيوية على ضوء استمرار انتشار جائحة "كورونا"، والتي أثرت بشكل كبير على العالم، مشيرا إلى أن لبلاده دور نشط جدا في دعم الجهود الدولية لمواجهة انتشار الفيروس؛ حيث قدمت المساعدة بشكل مستمر للشعوب المحتاجة، سواء على مستوى الإقليم أو على مستوى العالم.

دعم مبادرة «كوفاكس»

تعهدت دولة الكويت بدعم تحالف «Gavi» ومبادرة «Covax» بمبلغ 40 مليون دولار ليرتفع اجمالي مساهماتها في الجهود الدولية للتصدي لجائحة «كوفيد – 19» إلى 287,4 مليون دولار.

وفي الاسبوع الأول من شهر يونيو 2021 أعلن ممثل صاحب السمو أمير البلاد الشيخ أحمد الناصر الصباح وزير الخارجية ووزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء تعهد

رئيس الهلال الأحمر الدكتور هلال الساير متوسطاً عدداً من المتطوعين خلال إحدى فعاليات التصدي لـ «كورونا»

التعاونيات الاستهلاكية أثناء الحظر

متطوعو (الهلال الاحمر الكويتي) خلال تنظيم عملية توزيع الوجبات الغذائية

الكويت دعم هذا التحالف أثناء ترؤسه الوفد المشارك في أعمال القمة العالمية الافتراضية للقاحات والتي استضافتها اليابان وتهدف إلى تعزيز التعاون المشترك والتضامن الدولي لدعم المبادرة العالمية «Covax» المعنية بتنظيم عملية توفير اللقاحات.

180 فريق ميداني من المتطوعين

وفق احصائية رسمية لوزارة الشؤون، بلغ اجمالي أعداد الفرق التطوعية المسجلة لديها بلغ 180 فريقاً تضمن ما يزيد على 1200 متطوع من متخلف الأعمار، تقوم الوزارة بتوزيع بياناتهم الى الادارة العامة للدفاع المدني المسؤولة عن توزيعهم وفق حاجة مرافق الدولة، لتقديم المساعدة ونقل خبراتها، سواء في الجمعيات الخيرية أو التعاونية أو المحاجر الطبية وأماكن إجراء الفحص، إضافة إلى قطاع الرعاية الاجتماعية، من خلال الأطباء والممرضين المشاركين في الفرق ذات الطابع الطبي.

وتم أيضا توزيع متطوعين على الجمعيات التعاونية المنتشرة بمختلف مناطق الكويت، وقال وكيل وزارة الشؤون عبدالعزيز شعيب إن "متطوعي التعاونيات، يعدون بالمئات، وقد ضربوا أروع الأمثلة في حب الكويت

طابور من الوافدين المغادرين في مطار الكويت الدولي (فرانس برس)

وتحقيق مبدأ الخدمة الاجتماعية الحقة، حيث تراهم موزعين في جميع الأماكن بالجمعية، بداية من المداخل لتنظيم دخول المستهلكين وقياس درجة حراراتهم، مرورا بالسوق وصولا إلى تعبئة الأغراض والسلع المشتراة بالتعاون مع موظفي الجمعيات".

68 «تعاونية».. حصن للأمن الغذائي

أظهرت الجمعيات التعاونية في الكويت قدرة فائقة في التعاطي مع أزمة فيروس كورونا وتداعياتها، ومثلت التعاونيات حصونا للأمن الغذائي في مواجهة اختراق الفيروس منذ بدء تفشيه.

لكن هذا القطاع الحيوي واجه تحديات، إذ أصيب عدد كبير من العاملين فيه بالفيروس، بلغ تعدادهم حتى 25 يونيو 2020 نحو 3500 عاملا مصابا في جميع الجمعيات التعاونية، وفق ما أكده المشرف الصحي في إدارة الطب الوقائي بوزارة الصحة، صلاح العلي، في تصريح للصحف.

وساهمت الجمعيات التعاونية، البالغ عددها 68 جمعية، في تأمين الاحتياجات الأساسية للمواطنين والمقيمين، محققة نجاحاً كبيراً في ضبط الأسعار والحفاظ على سلاسل التوريد، رغم المخاطر العالمية.

وقال رئيس اتحاد الجمعيات التعاونية فهد الكشتي، ان التعاونيات وفّرت مخزوناً استراتيجياً يكفي لمدة 12 شهراً، بعد أن كان يكفي 6 أشهر.

ولدى الكويت تجربة كبيرة في مجال العمل التعاوني، إذ بدأت المحاولات الأولى للتعاون الاستهلاكي بمدرسة المباركية عام 1941، ويؤكد الكشتي أن تجربة العمل التعاوني الكويتية تكاد تكون الأفضل على مستوى المنطقة، بدليل توجّه بعض الدول الخليجية لتطبيقها، لكن موظفيها تعرّضوا لضغط شديد هم والطواقم الطبية منذ بدأت أزمة كورونا، إذ عمل القطاعان بلا توقف لتوفير احتياجات المواطنين والمقيمين، وسط مخاوف بين العاملين من إصابتهم بالفيروس.

مغادرة المصريين العالقين في الكويت

59 % من المبيعات عصفت بها الأزمة

بيّنت دراسة حول تأثير جائحة كورونا على 159 شركة ومشروعاً صغيراً ومتوسطاً، انخفاض قيمة مبيعاتها خلال الأزمة بمتوسط شهري بنسبة 59%، وانخفاض قيمة هامش الربح بنسبة 66%، أما الانخفاض في صافي الربح التشغيليفكان 303%، ما نتج عنه تراجع في معدل السيولة بنسبة 26%.

وأوضحت الدراسة التي أعدت من قبل 4 شركات استشارية بالتعاون مع برنامج «كفو» التابع للديوان الاميري، انخفاض متوسط عدد العمالة بنسبة 13.1% مع انخفاض متوسط قيمة الرواتب والأجور خلال الأزمة بنسبة 46%، موضحة أن أهم الملاحظات تتمثل في تأخر 58% من المشاركين في سداد الإيجارات الشهرية خلال الأزمة، مع حصول 37% منهم على خصم من الايجارات الشهرية من قبل ملاك العقارات، و 18% حصلوا على تنازل عن بعض الإيجارات الشهرية خلال الأزمة، بينما كانت نسبة الإخلاء من وحدات الإيجار الخاصة بالمشاركين 5.7%.

وأضافت أن قطاعات الرياضة والأندية الصحية والمطاعم والمشروبات أكثر المتأثرين من الأزمة.

وتطرقت الدراسة التي اعدت من قبل شركة بالانس للاستشارات المالية، وشركة هولستكديفلوبمنت للاستشارات المالية والاقتصادية، وشركة كيبرز للخدمات الاستشارية، وشركة حسبة لحلول الأعمال، بالتعاون مع برنامج كفو التابع للديوان الاميري،الى تحليل أوضاع العاملين لدى الشركات الصغيرة والمتوسطة، موضحة انخفاض متوسط عدد العمالة بنسبة 13.1% مع انخفاض متوسط قيمة الرواتب والأجور خلال الأزمة بنسبة 46%، أما فيما يخص أوضاع الشركات الصغيرة والمتوسطة مع الايجارات، فقد كانت أهم الملاحظات تأخر 58% من المشاركين في سداد الإيجارات الشهرية خلال الأزمة مع حصول 37% من المشاركين على خصم من قبل ملاك العقارات على الايجار الشهري و 18%

من المشاركين حصلوا على تنازل عن بعض الإيجارات الشهرية خلال الأزمة، بينما كانت نسبة الإخلاء من وحدات الايجار الخاصة بالمشاركين 5.7%.

واستغرق اعداد هذه الدراسة منذ بدايتها كفكرة إلى أن تم إنجازها مئة وثمانين يوماً تضمنت فترة تجميع وتحليل بيانات 159 شركة ومشروعا، كعينة تم الاعتماد عليها للوصول الى نتائج الدراسة، وقُسِّمت العينة إلى ثماني قطاعات وأنشطة مختلفة، على النحو الآتي:

- قطاع المطاعم والمشروبات وبلغت نسبته من اجمالي العينة 28%.
- قطاع مبيعات التجزئة ونسبته 22%.
- والقطاع الخدمي ونسبته 16%.
- وقطاع الرياضة والأندية الصحية ونسبته 14%.
- وقطاع التكنولوجيا ويمثل 8% من العينة
- والتجارة الالكترونية ونسبتها من العينة 8%.
- والعيادات الطبية ونسبتها 3%.
- والقطاع الصناعي ونسبته 1%.

فاتورة باهظة على الكويت

تكبدت الكويت فاتورة اقتصادية قدرها نحو 9 مليار دينار 29 مليار دولار، في 8 أشهر بسبب تداعيات جائحة كورونا على الإيرادات النفطية وشركات القطاع الخاص والمشاريع الصغيرة والمتوسطة، وذلك في الفترة الممتدة من أبريل الى نوفمبر 2020

واستنادا الى تقارير صحافية محلية، فإن مقدار الايرادات النفطية الضائعة على الاقتصاد الكويتي بسبب الفيروس بلغت نحو16 مليار دولار، جراء التزام الكويت بقرارات منظمة الأقطار المصدرة للبترول «أوبك» وحلفاءها، الأمر الذي جعل الدولة تخفض انتاجها النفطي من 2.7 ملايين برميل يومياً إلى 2.5 مليون في تقديرات ميزانية 2020/ 2021.

واشارت التقارير الى الضرر الذي طال مختلف القطاعات لاسيما القطاع الخاص الذي تضرر بشكل كبير للغاية بسبب تداعيات الأزمة،وعلى رأسها قطاعات الفندقة والضيافة والسياحة والسفر والصالونات والمعاهد الصحية والمطاعم، ناهيك عن قطاعات الشحن وغيرها من القطاعات التي تضررت بشكل كبير بسبب الحظر الجزئي.

وذكـرت أن التقديرات تشير إلى 13 مليار دولار تقريباً خسائر القطاع الخاص خلال 8 أشهر المنتهية من العام المالي الحالي 2020/ 2021، وأن نزيف خسائر هذا القطاع دفع الشركات إلى إنهـاء خدمات آلاف الموظفين وإغلاق العديد من الشركات والمشروعات الصغيرة والمتوسطة، بسبب تراجع الإيـرادات وغياب القدرة على مواجهة التراجعات الحـادة للسيولة. كما دفع تراجع الإيرادات النفطية إلى مستويات 40 دولاراً لبرميل النفط، التقارير الدولية المتخصصة إلى تقدير عجز الميزانية بحدود تصل إلى 14 مليار دينار، بعد تعديلات الحكومة على ميزانية 2020/ 2021 مستويات سعر الأساس لبرميل النفط في الميزانية عند 30 دولاراً للبرميل، الأمر الذي دفع لتوسيع فجوة العجز في الميزانية إلى مستويات بحدود 40 % من الناتج المحلي الإجمالي.

11 شهراً من الأزمة

انتهز رئيس الوزراء الكويتي السيخ صباح الخالد، فرصة عقد المؤتمر الوزاري الرابع في 2 ديسمبر، والذي يأتي استكمالا لملتقيات سابقة درجت الحكومة على عقدها منذ 2017، لاستعراض إنجازات حكومته خلال 11 شهرا من عمرها، والتي كانت جائحة «كورونا» وتداعياتها عنوانها الأبرز.

وقال الخالد ان الجائحة وتداعياتها سيطرت على عمل

الحكومة طوال مدة عملها، وان الحكومة واجهت الأزمة عبر 24 لجنة وفريق عمل أصدروا 300 توصية و400 قرار و800 بند وإجراء، مضيفا ان الكويت من أوائل الدول التي طلبت لقاح «كورونا» وسيوزع على المواطنين والمقيمين مجاناً.

وبين الخالد أن منظومة إدارة الأزمة الصحية تضمنت خمسة بنود أحدها الأمن الاجتماعي، مشيراً إلى أكبر عملية عودة وإجلاء للمواطنين من الخارج شارك بها 13 جهة و12 ألف موظف ومتطوع تضمنت 185 رحلة لـ58 جهة قطعت مليون كيلومتر بمعدل 1750 ساعة في ظل ظروف الجائحة.

وأكد حرص الكويت على عدم التخلي عن دورها الإنساني ومواصلة جهودها الدولية خلال الجائحة باعتبارها «مركزاً للعمل الإنساني» وأميرها الراحل «قائداً للعمل الإنساني» عبر تقديم المساعدة للمحتاج أينما كان وعدم التردد عن تلبية احتياجات الدول الجارة ودول المنطقة ودول العالم وتقديم العون لها.

ولفت إلى مشاركة 154 ألف موظف وموظفة وتسجيل 9000 إصابة و42 حالة وفاة بين الصفوف الأمامية و10000 متطوع ومتطوعة عرضوا حياتهم للخطر.

تسلسل الوفيات والإصابات في الكويت

فبراير ومارس: 289 حالة إصابة

بدأ الظهور الفعلي لفيروس كورونا في الكويت، في شهر فبراير 2020، وتم تسجيل 45 حالة إصابة فيه، منذ يوم 24 منه، وكان أعلى معدل يومي 26 و27 منه بـ17 حالة، فيما خلا آخر أيامه من تسجيل أي حالة إصابة.

أما في مارس، فوصل عدد الحالات المسجلة إلى 244 حالة، وتفاوتت أعداد الإصابات في أيامه، حيث شهدت ثلاثة أيام منه عدم تسجيل أي حالة وهي أيام 3 و4 و6، فيما ارتفع العدد إلى أعلى معدلاته في الشهر مع آخر أيامه بتسجيل 23 حالة.

ولم يسجل خلال الشهرين أي حالة وفاة، بينما بلغ عدد الحالات في العناية المركزة 13 حالة بنهاية شهر مارس.

أبريل: شهر الوفيات

ضرب فيروس كورونا بقوة في شهر أبريل، والإصابات تتضاعف 14 مرة بنسبة 1400 % لتبلغ 4024 حالة، قياسا بعدد الإصابات في فبراير ومارس، وشهد شهر ابريل تسجيل 26 حالة وفاة بين المصابين، وارتفع عدد الحالات في العناية المركزة الى 36.

مايو.. أعلى إصابات بنسبة 572 %

كان شهر مايو من أكثر الشهور ضراوة فيما يتعلق بفيروس كورونا، حيث سجلت الكويت أعلى معدل للإصابات منذ نشأة المرض، بوصول اجماليها حتى نهايته إلى 27043 إصابة، وبلغت في الشهر نفسه فقط 23010، بينها 1073 إصابات في يوم واحد (19 مايو)، بينما وصلت حصيلة الوفيات حتى نهاية الشهر إلى 212، وبلغ عدد من يتلقون الرعاية الطبية في العناية المركزة 90 حالة، وتضاعفت نسبة زيادة الإصابات خلال مايو إلى 572 % مقارنة بأبريل.

يونيو: 311 إصابة.. يوميا

أقفلت جردة حساب «كورونا» في الكويت بنهاية شهر يونيو على 46195 إصابة، وارتفع عدد الوفيات الإجمالي الى 354، وعدد من يتلقون العناية المركزة الى 139.

على مستوى الكويتيين، قفزت أرقام الإصابات خلال يونيو ليقفل الشهر على إجمالي 14679 حالة إصابة بين المواطنين، منها 9342 سجلت خلال يونيو فقط، وبمتوسط 311 حالة يومياً، وتشكل حالات الكويتيين المسجلة فقط خلال يونيو 20 في المئة من إجمالي الحالات المسجلة منذ ظهور المرض في الكويت، حيث شكل يونيو منفرداً على مستوى الكويتيين 63 في المئة من إجمالي إصاباتهم مقابل

37 في المئة سجلت خلال 4 أشهر (فبراير ومارس وأبريل ومايو).

وفي يونيو كانت قد انطلقت المرحلة الثانية من عودة الحياة التدريجية للحياة الطبيعية.

يوليو: عودة تدريجية للحياة

شهد شهر يوليو انطلاق المرحلة الثالثة على طريق العودة التدريجية للحياة الطبيعية في ظل وصول إجمالي إصابات «كورونا» إلى 66957 إصابة، وتسجيل 447 حالة وفاة وتلقي 134 حالة للعلاج في العناية المركزة، وإجراء 505088 مسحة.

وفي يوليو أيضاً، تفوقت حالات الشفاء على حالات الإصابة. كما شهد عودة الموظفين إلى أعمالهم بنسبة 50 بالمئة وعودة صلاة العيد وتكريس العمل الإلكتروني في الجهات الحكومية، وعودة تشغيل مطار الكويت بالرحلات التجارية، وتقديم استجوابين في مجلس الأمة (البرلمان) أحدهما لوزير المالية براك الشيتان والآخر لنائب رئيس الوزراء وزير الداخلية وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء أنس الصالح من النائبين رياض العدساني وشعيب المويزري.

أغسطس: «التفوق» على الصين!

في أغسطس تجاوزت الكويت معدلات الإصابة بـ كورونا المسجلة في الصين، التي تعد مصدر الوباء في العالم.

وبتسجيل 473 إصابة في الكويت في 31 أغسطس، ارتفع إجمالي الحالات المصابة إلى 85109بينها 91 حالة تتلقى العلاج في العناية المركزة، وصعد عدد المتوفين بسبب الفيروس إلى 531 حالة وفاة، مقابل 85048 إصابة في الصين و4634 حالة وفاة حتىذلك التاريخ.

كما تجاوزت الكويت الكثير من الدول الأخرى من حيث حالات «كورونا»، منها بلجيكا والسويد وغواتيمالا وبيلاروسيا وهولندا والإمارات وبولندا واليابان والمغرب والبحرين والبرتغال وسنغافورة ونيجيريا وفنزويلا وغانا واثيوبيا واستراليا ولبنان.

سبتمبر: كسر حاجز الـ100 ألف اصابة

تخطت الكويت، في شهر سبتمبر، حاجز الـ 100 ألف إصابة بفيروس كورونا، وذلك بعد تسجيل 719 إصابة جديدة في 22 سبتمبر، وارتفع وقتها إجمالي عدد الحالات المسجلة في البلاد إلى 100683 حالة في حين تم تسجيل 3 حالات وفاة ليصبح مجموع حالات الوفاة المسجلة آنذاك 588 حالة، بينما بلغ عدد الحالات التي تتلقى العلاج بالعناية المركزة .

وفي 30 سبتمبر 2020، أعلنت وزارة الصحة تسجيل614 إصابة جديدةليرتفع بذلك إجمالي عدد الحالات المسجلة في البلاد إلى 105182 حالة في حين تم تسجيل3 حالات وفاة إثر إصابتها بالمرض ليصبح مجموع حالات الوفاة المسجلة حتى ذلك اليوم610 حالات، وارتفع عدد الحالات التي في العناية المركزة الى 133 .

أكتوبر: 114 % نسبة ارتفاع الوفيات

شهد شهر أكتوبر ارتفاعا في عدد الإصابات، وارتفاعا حادا في مجموع الوفيات، حيث بلغ عدد الإصابات 20744 بزيادة 671 على إحصاء سبتمبر، تمثل ما نسبته 3%، في حين بلغ مجموع الوفيات 169 مقارنة بـ79 حالة وفاة في سبتمبر، بزيادة تقارب الـ 114%، وفقا لبيانات رسمية.

ويشكل مجموع وفيات أكتوبر ما نسبته 22% من جملة الوفيات بسبب الفيروس منذ بداية الأزمة، والتي وصلت إلى 779 حالة، كما تأتي وفيات أكتوبر في المرتبة الثانية بعد شهر مايو الذي سُجلت فيه 184 حالة وفاة. وخلال أكتوبر حدث ارتفاع ملحوظ في متوسط عدد الحالات اليومية الحرجة في وحدات العناية المركزة، حيث وصل

إلى 129 حالة، بزيادة 30% عن سبتمبر. ووصل مجموع الإصابات في الكويت منذ بداية انتشار وباء كورونا وحتى نهاية أكتوبر إلى 125926 إصابة، فتكون نسبة الإصابات إلى عدد السكان في البلاد 2.6%، وتكون نسبة الوفيات إلى اجمالي الإصابات 0.62%.

وتحتل الكويت المرتبة الثانية والأربعين على مستوى دول العالم من حيث عدد الإصابات، وتأتي في المرتبة الثانية عشرة عالمياً والثالثة خليجياً لمعدل الإصابات لكل مليون من السكان، وفي المركز الرابع والخمسين عالميا والثالث خليجيا لمعدل الوفيات لكل مليون من السكان، وجاءت في المرتبة الثانية والخمسين عالميا والخامسة خليجيا لمعدل المسحات لكل مليون من السكان.

وارتفع متوسط عدد المسحات اليومية في اكتوبر بشكل ملحوظ إلى 5462 مقابل 4386 لسبتمبر، وانخفض متوسط النسبة المئوية للمسحات اليومية الموجبة في أكتوبر إلى 14% مقابل 15% لسبتمبر.

أكتوبر مرة أخرى: أرقام غزيرة

بعد الصعود الملحوظ في أعداد الوفيات الناتجة عن الإصابة بمرض كورونا، وارتفاع أعداد الإصابات ومعها أعداد الحالات التي تتلقى العلاج بغرف العناية المركزة منذ دخول شهر أكتوبر، أصدرت السلطات الصحية تلميحات بأنها قد تعود الى فرض الحظر (الجزئي أو الكلي) في البلاد، في محاولة للسيطرة على تفشي الفيروس وتقليل تداعياته الصحية، وتخفيف الضغط على الكادر الطبي.

غير أن تلك التلميحات الصحية، قوبلت بتحذيرات من جهات اقتصادية وإعلامية عديدة، من أن العودة للحظر يعتبر "انتحارا اقتصاديا" للقطاعات المختلفة في الدولة، وتترتب عليه خسائر كبيرة.

ووفقاً لدراسة صادرة عن شركة أكسبر للاستشارات، فإن تكلفة أزمة «كورونا» على الكويت تُقدَّر بنحو 12.6 مليار دينار خلال 6 أشهر (نحو 47 مليار دولار)، في حين تصل الفاتورة الشهرية إلى نحو 650 مليون دينار (1.9 مليار دولار تقريبا) نتيجة انخفاض الناتج المحلي الإجمالي.

ومن جانبها، أشارت شركة بن سري للعلاقات العامة في تقريرها مع بداية الأزمة إلى أن 56% من الشركات المحلية غير قادرة على الاستمرار في تغطية التكاليف الثابتة لشهرين إضافيين جراء تعطيل الأعمال وفرض الحظر الجزئي.

مليار دولار قيمة تعاقدات 6 أشهر لمكافحة التداعيات

ذكر ديوان المحاسبة، انه وافق على تعاقدات لـ 221 موضوعاً مرتبطاً بشكل مباشر لمكافحة تداعيات فيروس كورونا، قيمتها 326 مليون دينار (تعادل مليار دولار)، لفترة 6 أشهر تمتد من أبريل إلى نهاية سبتمبر 2020.

وأوضح ديوان المحاسبة، أن اجمالي الموضوعات التي تمت الموافقة عليها بلغت 698 موضوعاً بقيمة 1.122 مليار دينار.

وأشـار الى أن الرقابة المسبقة حققت خلال الفترة المذكورة وفورات مباشرة للخزينة العامة بـ 50 مليون دينار،وأن هذه «الوفورات تجاوزت قيمتها مصروفات ديوان المحاسبة عن السنة المالية 2019/ 2020.

وأضاف التقرير أن الديوان أصدر رأيه بعدم الموافقة على 66 موضوعا خلال الفترة المشار اليها بقيمة تقدر بنحو 163 مليون دينار لعدة أسباب منها عدم مطابقة عروض الشركات المزمع التعاقد معها لمتطلبات الجهة الواردة بوثائق الطرح. وأشار الى رد أوراق 393 موضوعا، تمثل 31 % من اجمالي الموضوعات المعروضة خلال الفترة وذلك لعدم التزام

جانب من إجراءات فحوص الوافدين في «أرض المعارض»

الجهات بتعميم ديوان المحاسبة المعني باستيفاء كل أوراق الموضوعات المعروضة قبل عرضها عليه.

ولفت الى أن عدم التزام الجهات بتطبيق القوانين والتعاميم الصادرة يؤثر على أسس الحوكمة الصحيحة، ما ينعكس سلباً على تطور أداء القطاع الحكومي واتخاذ القرارات الرشيدة التي من شأنها مراعاة متطلبات المستفيدين من خدمات القطاع. وقال ان هذه الموضوعات تتضمن تعاقدات يمتد تنفيذ بعضها لخمس سنوات مالية لافتا الى أنه تعامل مع 1258 موضوعا بابداء الرأي فيها خلال الفترة المذكورة.

المتعافون تجاوزوا الـ100 ألف

أعلنت وزارة الصحة، في 6 أكتوبر، أن إجمالي عدد المتعافين من المرض في الكويت من مرض كورونا بلغ 100179، وعدد الحالات المصابة المسجلة في البلاد 108268 حالة في حين بلغ مجموع حالات الوفاة المسجلة حتى ذلك التاريخ 632 حالة.

وقال الناطق الرسمي باسم الوزارة الدكتور عبدالله السند لوكالة الأنباء الكويتية إن عدد من يتلقى الرعاية الطبية في أقسام العناية المركزة بلغ 139 حالة ليصبح بذلك المجموع الكلي لجميع الحالات التي ثبتت إصابتها بمرض كورونا وما زالت تتلقى الرعاية الطبية اللازمة 7457 حالة. وأشار إلى أن مجموع عدد المسحات التي تم القيام بها حتى ذلك التاريخ بلغت 764608 فحصا.

100 حالة وفاة.. في 30 يوماً

بينما تسابق وزارة الصحة والجهات الأخرى المعنية الزمن لمحاصرة وباء «كورونا»، ويترقب سكان الكويت على أحر من الجمر وصول اللقاح، قرعت الأرقام الأخيرة أجراس الخطر، حيث شهدت البلاد تسجيل 100 حالة وفاة خلال 30 يوماً فقط (من 9 سبتمبر حتى 9 أكتوبر)، فضلاً عن استمرار ارتفاع نسبة شغل غرف العناية المركزة. وعللت وزارة الصحة ارتفاع الوفيات لأسباب متفاوتة؛ بينها تركّز نسبة كبيرة من الإصابات في فئات كبار السن وأصحاب الأمراض المزمنة بالفيروس، وعدم تقيّد عدد غير قليل بالاشتراطات الصحية التي عمّمتها الوزارة منذ انتشاره، فضلا عن إقامة المناسبات الاجتماعية والاحتفالات والمخالطة، وعدم ارتداء الكمامات، أو حتى التزام التباعد الاجتماعي والجسدي في الأماكن العامة.

ميدانياً، سجلت وزارة الصحة في 8 أكتوبر 6 وفيات جديدة بـ«كورونا»؛ ليصل الإجمالي الى 655 وفاة، وأصبحت الكويت في المرتبة الثالثة خليجياً في معدل الوفيات، بعد السعودية بـ4996 وفاة، وسلطنة عمان بـ1009 وفيات، ورابعاً الإمارات بـ433، وخامساً البحرين بـ271، وأخيراً قطر بـ219 وفاة.

وبتسجيل 492 إصابة جديدة بمرض «كورونا» في اليوم نفسه، ارتفع إجمالي عدد الحالات المسجلة في البلاد إلى 110568 حالة.

وأعلنت وزارة الصحة أن مجموع عدد حالات الشفاء من كورونا بلغ في يوم 10 أكتوبر 102722 حالة، فيما بلغ مجموع الفحوص (المسحات) 779538 فحصاً.

100 % زيادة دخول المصابين مستشفى جابر خلال شهر

أظهرت احصائية صحية (15 أكتوبر)، زيادة قدرها 100 % في أعداد دخول المصابين بفيروس كورونا الى مستشفى جابر الأحمد خلال أكتوبر مقارنة بالفترة ذاتها من شهر سبتمبر، من نحو 30 مصاباً يومياً قبل منتصف سبتمبر، إلى ما بين 50 و70 مصاباً حالياً.

وبينت الاحصائية أن العناية المركزة في مستشفى جابر باتت تستقبل بعض الحالات المصابة بفيروس «كورونا» من شريحة الشباب، ممن تتراوح أعمارهم بين 30 و40 عاماً، مما يعني ان هناك تغيرات في مسار الإصابات بالفيروس، بسبب إهمال التباعد الوقائي، واستمرار المخالطة بلا اهتمام بالضوابط والإجراءات الاحترازية.

نوفمبر: انكسار إيجابي ملحوظ

سجلت أعداد الإصابات والوفيات والحالات الحرجة في العناية المركزة بسبب كورونا، انكسارا إيجابيا بعد نهاية تسعة أشهر من الأزمة، وتم رصد 16709 إصابات مؤكدة في نوفمبر، بانخفاض 4035 إصابة عن أكتوبر، وبنسبة انخفاض 19 في المئة، وبمتوسط 557 إصابة يومية، منخفضاً عن متوسط الإصابات اليومية في أكتوبر الذي كان 669. كما انخفض مجموع الوفيات في نوفمبر إلى 101 حالة عن وفيات أكتوبر التي كانت 167، بنسبة انخفاض 60 في المئة، وكان متوسط عدد الحالات اليومية في وحدات العناية المركزة في نوفمبر 100 حالة مقابل 129 حالة في أكتوبر، بانخفاض 29 في المئة.

ديسمبر: انحسار الوباء قبل وصول اللقاح

التقطت الكويت أنفاسها مع بروز مؤشرات تدل على انحسار وباء كورونا، حتى قبل وصول اللقاح المرتقب، وسجلت البلاد جملة من الأرقام الدالة على ان الوباء بات يلفظ أنفاسه أخيرا، بفعل التزام السكان الاشتراطات الوقائية وتطبيق التباعد الاجتماعي في العمل أو في بقية مناشط الحياة، الأمر الذي أثمر تراجعاً ملحوظاً في الإصابات.

وتواصل التراجع في أعداد الإصابات والوفيات في الكويت خلال ديسمبر، وأعلنت وزارة الصحة، في17 ديسمبر، عن تسجيل 221 إصابة جديدة بالفيروس في 24 ساعة وهي الأدنى منذ مايو بما نسبته 37 %، ليرتفع إجمالي الحالات المسجلة في البلاد إلى 147,192، في حين لم يتم تسجيل حالات وفاة جديدة.

وفي ختام عام 2020 (31 ديسمبر)، سجلت الكويت 286 اصابة بفيروس كورونا، في مؤشر يدل على انخفاض مؤشر الاصابات والسيطرة على تفشي الوباء، وبلغ العدد الاجمالي للحالات المصابة منذ بدء الأزمة نحو 151.584 ألف اصابة، فيما سجلت الوفيات 934 وفاة بينها حالة واحدة في 31 ديسمبر، فيما يتلقى الرعاية الطبية في أقسام العناية المركزة 47 حالة.

معدلات الأشهر الثلاث عام 2021

وبالرغم من دعوات الالتزام بالاشتراطات الصحية وفرض اجراءات العزل والفحص للقادمين الى البلاد، سجل شهر يناير عام 2021 حوالي 114,388 إصابة و23 حالة وفاة ليعاود المؤشر الشهري الى قرع جرس الإنذار من جديد، في الوقت الذي أخذت عمليات التطعيم باللقاحات الجديدة حيزاً لا بأسس به.

إرتفعت معدلات الاصابة في شهر مـارس 2021 وشهدت البلاد موجة عالية من انتشار الوباء حيث سجلت وزارة الصحة 40072 إصابة و228 حالة وفاء ودخول 84 مريضاً العناية المركزة، وكان شهر فبراير سجَّل 25009 إصابة وأدى لوفاة 124 حالة مع دخول 102 حالة العناية المركزة.

إغلاقات الموجة الثانية

حالة من الاستنفار سادت الكويت منذ أول أيام شهر فبراير 2021، فرضت خلالها قيودا جديدة في ظل الارتفاع الكبير والملحوظ في الاصابة بـ«كورونا» في البلاد، في ما بات يعرف بـ«الموجة الثانية لكورونا»، مع تسجيل اصابات بالفيروس المتحور لمواطنتين عائدتين من بريطانيا.

وسجلت في 3 فبراير، 756 إصابة جديدة بالفيروس مما رفع إجمالي الإصابات إلى 167410، بينما كانت البلاد قد شهدت تراجعا في عدد حالات الإصابة اليومية إلى ما دون 300 أواخر العام 2020 وصلت إلى أكثر من ألف حالة في مايو.

وكان المتحدث الرسمي باسم وزارة الصحة الكويتية، قد أعلن في 2 فبراير تسجيل 811 اصابة بالفيروس، وحالة وفاة واحدة جديدة.

وللحد من تفشي الفيروس في موجته الثانية، اتخذت الدولة قرارات وقائية جديدة، وقرر مجلس الوزراء الكويتي إغلاق كل الأنشطة التجارية اعتبارا من الثامنة مساء إلى الخامسة فجرا من اليوم التالي، باستثناء الصيدليات ومنافذ تسوق الأغذية والمستلزمات الصحية والتموينية، وذلك بدءاً من 6 فبراير.

كما قرر مجلس الوزراء إغلاق صالات استقبال المطاعم من الثامنة مساء إلى الخامسة من صباح اليوم التالي، على أن يكتفى بالطلبات الخارجية والتوصيل.

كما أعلنت الحكومة إيقاف العمل في الأندية الصحية ومحلات العناية الشخصية والصالونات ومحلات الحلاقة والمنتجعات الصحية.

وتم إيقاف كل الأنشطة المتعلقة بالاحتفالات وتأجير القاعات والخيام وغيرها من المناسبات التي تستوجب التجمعات الكبيرة.

ودعا مجلس الوزراء الاتحادات الرياضية لوقف النشاط الرياضي والمباريات الودية حتى إشعار آخر.

كما منع غير الكويتيين من دخول البلاد لمدة أسبوعين، ابتداء من يوم 7 فبراير، ثم ابتداء من 21 فبراير، ولمدة شهر كامل، سيتوجب على جميع القادمين الخضوع للحجر المؤسسي على نفقة المسافر لمدة أسبوع، تستكمل بحجر منزلي.

التجارة الإلكترونية في الكويت خلال الجائحة

سرعت جائحة كورونا المستجد (كوفيد- 19) من نمو التجارة الإلكترونية في الكويت محققة أرقاما قياسية غير مسبوقة تحديدا خلال فترة الحظر الكلي الذي فرض احترازيا للحد من انتشار الفيروس. وبلغة الأرقام بلغ النمو في عدد العمليات التجارية الإلكترونية 122 في المئة

في يوليو عام 2020 على أساس سنوي تمت عبر 11 مليون عملية مقارنة بخمسة ملايين عملية في يوليو 2019.

ووصفت شركة الخدمات المصرفية المشتركة (كي. نت) ما حدث أثناء الجائحة في مجال التجارة الالكترونية بأن «تغيرا هائلا شهدته التجارة الإلكترونية في الأشهر الستة الأولى من بدء انتشار الوباء».

وأوضحت في دراسة أعدتها أن ما حدث خلال النصف الأول من عام 2020 يعادل التغير الذي سيحدثه نصف قرن في سلوكيات الأفراد والمؤسسات في الأوضاع الطبيعية.

وذكرت أنه على الرغم من توقف النشاط الاقتصادي في الفترة من مارس 2020 حتى الافتتاح الجزئي مطلع يونيو من نفس العام فإن نمو إجمالي قيمة العمليات الإلكترونية قفز في يوليو 2020 ليصل الى 616 مليون دينار «نحو ملياري دولار» بنسبة نمو بلغت 169 في المئة مقارنة مع الشهر ذاته من عام 2019. وعن القطاعات الاقتصادية التي شهدت نموا كبيرا في التجارة الإلكترونية نتيجة جائحة «كورونا» أفادت بأن قطاع البقالة والمواد الاستهلاكية كان الأكثر نموا في الفترة من يناير الى أغسطس 2020 بزيادة بلغت 6.6 أضعاف تلاها قطاع الرعاية الصحية بحوالي 3.6 أضعاف. وذكرت أن عمليات التحويلات المالية احتلت المرتبة الثالثة بزيادة 2.7 ضعف في حين جاء القطاع المالي والتأمين والعقار في المرتبة الرابعة بـ 2.3 ضعف ثم قطاع التجزئة بـ 1.9 ضعف في حين شهد قطاع وحيد انخفاضا قدره 0.7 ضعف وهو قطاع السياحة والنقل.

عدد المسافرين تراجع 80 %

دفعت سلالة كورونا الجديدة السلطات في الكويت إلى تقليص عدد المسافرين للبلاد، بنسبة تصل إلى 80%، على أن لا يتعدى إجمالي القادمين إلى الكويت، وفق المعايير الجديدة، 1000 راكب فقط يوميا بدلا من 5 آلاف.

وستدخل الإجراءات الجديدة حيز التنفيذ اعتبارا من 24 يناير وحتى 6 فبراير 2021، تجنبا لانتشار السلالة الجديدة.

وزيادة في تعميق الاشتراطات الصحية، دعت مواطنيها إلى تجنب السفر في الوقت الحالي، لتفادي احتمالات الإصابة بفيروس كورونا وتحوراته.

وقالت وزارة الخارجية، إنها «تدعو المواطنين الراغبين في السفر في الوقت الراهن إلى تجنب السفر، نظرا للأوضاع الاستثنائية التي تشهدها دول العالم من جراء جائحة كورونا، والإجراءات المشددة التي تتخذها في سبيل مواجهة التداعيات الخطيرة لتحور الفيروس وسرعة انتشاره.

السلالة الجديدة المتحورة

كشفت وزارة الصحة بتاريخ 20 يناير 2021 وجود حالتين مصابتين بالسلالة الجديدة من الفيروس والتي ظهرت في بريطانيا تحت مسمى «B1.1.7 ZOI.507 Y.V» أو «12 2020 - 01/VUI»، ونسبة انتشاره تصل الى 55 % مقارنة بالنوع الأصلي، تم عزلها واعطاؤهما الأدوية الموصي بها وجرى تطبيق الاجراءات الوقائية والاحترازية، وعملت وزارة الصحة على رفع أقصى درجات التأهب لمنع انتشار السلالة الجديدة.

و«SARS-CoV-2» هذا هو الاسم المختصر لفيروس كورونا، للمتلازمة التنسيقية الحادة، وهو الفيروس المسبب للوباء الحالي «Covid-19».

وفي تطور جديد أعلنت وزارة الصحة في شهر يونيو 2021 اكتشاف حالات جديدة مصدرها المتحور الهندي والذي تم رصده في أكثر من 62 دولة حول العالم، والذي يتميز بسرعة الانتشار، وذلك بعد ظهور نتائج التخطيط الجيني.

حلم اللقاح وبدء التطعيم

«فايزر».. أول لقاح يدخل الكويت

في ظاهرة إيجابية تعكس الجهود الحكومية منذ إندلاع الأزمة، بدأت أعداد اصابات ووفيات سكان الكويت بسبب «كورونا» في التراجع، قبيل بدء دخول لقاح «فايزر» الذي تعاقدت عليه الحكومة مع شركته المصنعة على بدء توزيعه في النصف الثاني من شهر ديسمبر، بينما تراقب وزارة الصحة الكويتية عن كثب التطورات المتسارعة لنحو 9 لقاحات دخلت سباق المراحل الأخيرة تمهيداً لاعتمادها والترخيص لها بعد الاختبارات السريرية.

وأعلن الناطق الرسمي باسم وزارة الصحة الكويتية د.عبدالله السند (21 نوفمبر) أن نسبة الإصابة بالفيروس في البلاد قياساً بعدد المسحات انخفضت إلى 7.7%، مقارنة بـ 17% في 20 سبتمبر، و 11.1% في أكتوبر، وبات الوضع الوبائي للفيروس تحت السيطرة، حيث تكافح الفرق الصحية الوباء على أكثر من صعيد، وعن طريق زيادة أعداد المسحات العشوائية، والمواقع المستهدفة في الترصد، فضلاً عن التشديد على ضرورة التزام الاشتراطات الصحية. ولفتوا إلى أن نسبة الشفاء من الفيروس في البلاد بلغت 94.1% قياساً بعدد الإصابات المسجلة منذ انتشاره.

تعاقد لاستيراد ملايين الجرعات

وكانت وزارة الصحة قد انجزت تعاقدات مبكرة لضمان حصتها من لقاح «كورونا»، منذ الأيام الأولى التي أعلنت فيها شركات عالمية انهماكها في تطوير لقاح ينهي تفشي الفيروس.

ومنذ مطلع نوفمبر 2020، كشفت الوزارة عن عقدها اتفاقات مع عدد من الشركات، في ظل سباق محموم بين الدول للحصول على اللقاحات فور اعتمادها.

ومن بين الاتفاقات التي ابرمتها "الصحة" الكويتية، اتفاقا مع «غافي» لتوريد 1.7 مليون جرعة وهي كمية تكفي نحو 800 ألف شخص، بقيمة تعاقدية تبلغ 18 مليون دولار في المرحلة الأولى، ويقدر سعر الجرعة الواحدة بـ 10.55 دولار تقريبا.

كما تعاقدت مع شركة الأدوية الأميركية العملاقة «فايزر» التي تعمل مع شركة التكنولوجيا الحيوية الألمانية «بيونتيك» لتقديم لقاحهما المحتمل المسمى BNT162.

وكشفت أنه بالنسبة لهذا اللقاح «سيصل سعر الجرعة منه إلى 30 دولاراً، علماً أن كل شخص يحتاج إلى جرعتين».

وأوضحت أن «التعاقد في شأن لقاح (فايزر) سيكون على كمية إجمالية تبلغ مليون جرعة (150 ألفاً في 2020، و850 ألفاً في 2021)»، علماً أن أهمية هذا اللقاح تكمن بأنه الوحيد الذي يمكن أن يعطى لأشخاص حتى عمر الـ85 عاماً.

وإضافة إلى «فايزر»، هناك لقاح «أكسفورد» الذي يحقق نتائج متقدمة أيضاً، وهو يُعطى للأشخاص من عمر بين 12 و18 عاماً إلى عمر 70 عاماً، في حين أن الأطفال والحوامل ليس لهم لقاح حتى الآن بشكل عام.

وفي وقت لاحق من شهر ديسمبر، تعاقدت الكويت لاستيراد 3 ملايين جرعة، سعر الواحدة منها 9 دولارات.

10 آلاف لقاح يومياً

وأعدت وزارة الصحة برنامجا خاصا لتنفيذ عملية تطعيم المواطنين والمقيمين في البلاد، فيما أعلن وزير الصحة الدكتور باسل الصباح إن حملة التطعيم المحلية ستبدأ، فور توافر اللقاح، على مراحل ووفق أولويات، وصولاً إلى تطعيم أغلب المواطنين والمقيمين خلال سنة، متوقعاً وصول القدرة على التطعيم داخل البلاد إلى 10 آلاف شخص يومياً.

وكان الوزير باسل الصباح قد ترأس وفد الوزارة لتسلم العيادة المتنقلة من جمعية الهلال الأحمر بدعم من بنك الكويت الوطني في 11 ديسمبر 2020، مشيرا الى ان التطعيم سيتم في صالة مجهزة بأرض المعارض، ويجري العمل لإعداد موقعين آخرين في الجهراء والأحمدي بما يُمكِّن من إتمام العملية بكل سلاسة.

وأضاف أن الشخص الذي يتم تطعيمه سيحصل على شهادة تصله عبر هاتفه، بنوعية الطعومات وتاريخها ورقم جواز سفره، فقد يحتاج هذه الشهادة للسفر مستقبلاً، ما يعني ان رافضي تلقي اللقاح قد يواجهون مشكلة في التنقل عبر العالم.

ودشنت الوزارة (link) عبر موقعها الإلكتروني، لتسجيل طلبات المواطنين والمقيمين الراغبين في تلقي اللقاحات فور اعتمادها.

وأوضحت الوزارة أن هناك 5 فئات ستستثنى من تلقي اللقاح، هي: الحوامل، من دون 18 سنة، المصابون بأمراض معدية، من تلقوا تطعيمات آخر 30 يوماً، ومن يعانون الحساسية من بعض المأكولات والأدوية.

وحتى تاريخ ديسمبر 2020، بلغ إجمالي الحالات المصابة المسجلة في البلاد 145 ألفا و495 حالة إلى جانب تسجيل 5 وفيات نتيجة مضاعفات «كورونا»، ليرتفع مجموع حالات الوفاة المسجلة وقتها إلى 910 حالة.

وأكدت الوزارة ارتفاع إجمالي حالات الشفاء من المرض إلى 141 ألف و259 حالة، وأن عدد من يتلقى الرعاية الطبية في أقسام العناية المركزة بلغ 72 حالة ليصبح بذلك المجموع الكلي لجميع الحالات التي ثبتت إصابتها وما زالت تتلقى الرعاية الطبية اللازمة 3326 حالة.

وذكرت الوزارة أن مجموع الفحوصات منذ بداية الجائحة وحتى ديسمبر 2020 بلغ مليون و165 ألف 434 فحصا مخبريا.

ترحيب «فايزر» و«بايونتيك»

ورحبت شركتا «فايزر» و«بايونتيك» بتعاقداتهما مع الحكومة الكويتية لتوريد لقاحهما، في ظل إعلان وزارة الصحة ان اللقاح سيصل اليها نهاية 2020، وسيكون خاضعاً لموافقة الجهات التنظيمية المحلية، الأمر الذي حدث فعليا.

وأعرب الوكيل المساعد لشؤون الأدوية والتجهيزات الطبية في الوزارة عبدالله البدر (24 نوفمبر 2020)، عن سعادته بالتوصل إلى اتفاق بين الكويت و«ماينز – ألمانيا» الذي أعلنته كل من «فايزر» و«بايونتيك»، وإبرام اتفاقية مع وزارة الصحة لتوريد اللقاح.

وقال البدر إنه بناء على طلب الوزارة، سيتم تسليم اللقاح مع نهاية العام 2020 وخلال العام 2021 بعد إتمام الاختبارات السريرية والحصول على الموافقات اللازمة من الجهات التنظيمية المحلية، مشيراً إلى أنه لم يتم الإفصاح عن التفاصيل المالية الخاصة بهذه الاتفاقية.

من جانبها، قالت رئيسة أعمال «فايزر» في منطقة الخليج ليندسي ديتشي «يشرفنا جداً أن نتعاون مع الحكومة الكويتية من أجل حشد كل مواردنا العلمية والتصنيعية، لتحقيق هدفنا المشترك بتوفير لقاح كوفيد

– 19 المحتمل للشعب الكويتي»، فيما تقدّم الرئيس التنفيذي للأعمال والشؤون التجارية لدى «بايونتيك» شون ماريت بالشكر للحكومة الكويتية على دعمها وثقتها في قدرتهم «على تطوير لقاح نعتقد أنه قادر على مجابهة هذا التهديد الوبائي العالمي».

تلقّي اللقاح بالحجز المسبق

وخصصت وزارة الصحة مراكز وقائية في عدد من المناطق الصحية، لضمان تلقي الفئات المستهدفة للقاح «فايزر» المضاد لـ«كورونا» أو غيره من اللقاحات لاحقاً. واعلنت الوزارة عن تخصيص وسيلة اتصال عبر نظام الحاسب الآلي، تتيح للشرائح المحددة لتلقّي اللقاح في مراحله الأولى، تحديد المواعيد التي تناسبها، قبل التوجّه إلى المركز الصحي القريب من سكن المتلقّي للخدمة خلال وقت قصير، وذلك عن طريق إدخال الرقم المدني وإظهار عنوان السكن بالبطاقة المدنية، وأنه سيُراعى اتباع الاشتراطات الصحية في أي مركز صحي سيُحدد لتلقي اللقاح، لمنع حدوث أي تكدّس بين صفوف المراجعين، ولضمان عدم انتقال عدوى الفيروس.

ولطمأنة الكويتيين بأن اللقاح آمن تماماً، نقلت الصحف المحلية ان وزير الصحة الشيخ باسل الصباح سيكون من أوائل الذين سيتلقون لقاح كورونا عند وصوله إلى البلاد، مشيرة الى ان خطوة الوزير بمنزلة رسالة إلى المواطنين بشأن مأمونية أخذ اللقاح وتأثيره الإيجابي في صحة الفرد والمجتمع، وضرورة تلقيه من قبل الفئات والشرائح المحددة.

ولاحقا، عند بدء تلقي التطعيم باللقاح في شهر ديسمبر 2020، كان رئيس الـوزراء الكويتي الشيخ صباح الخالد أول من تلقى التطعيم في "رسالة طمأنة" لعموم الكويتيين والمقيمين بأن اللقاح آمن تلاه وزير الصحة وقياديين ومواطنين آخرين.

اللقاح للجميع

ووضعت وزارة الصحة خطة لتوسيع نطاق تلقيها لأكثر من شريحة في المرحلة الأولى من وصول اللقاح، وبناء على الكمية التي ستصل للبلاد، من دون الإشارة الى فرض رسوم على المقيمين في البلاد من غير المواطنين.

وذكرت الوزارة أن الشرائح المستهدفة والمواطنين لهم الاولوية في تلقي التطعيمات كورونا قبل المقيمين، وان كبار السن واصحاب عوامل الاختطار وذوي الاحتياجات الخاصة والطواقم الطبية والهيئات التمريضية في المرافق الصحية والعاملين في الصفوف

أولوية التطعيم لكبار السن

الاولى، سيتم منحهم اللقاحات في مراحلها الاولى، قبل التدرج على الفئات الاخرى.

ثلج حفظ اللقاح متوافر في الكويت

وعلى الرغم من أهمية انتاج اللقاح بعد طول انتظار تكبد خلاله العالم الكثير من الأرواح والاصابات والضوائق الاقتصادية، الا ان عوائق كثيرة قد تحول دون وصوله الى الناس بشكل ميسر، وأهمها مسائل النقل والتخزين.

وبرزت أهمية «الثلج الجاف» حول العالم، لارتباطه بتوفير البيئة المطلوبة لحفظ اللقاح وتخزينه، قبل استخدامه على المصابين. وفي الكويت، أكد الأستاذ بقسم الكيمياء في كلية العلوم بجامعة الكويت د.سعد مخصيد ان تصنيع الثلج الجاف في البلاد يتم بشكل وفير وتستطيع الشركات المصنعة في البلاد توفير الكميات المطلوبة لحفظ اللقاح، لاسيما ان تكلفة تصنيع هذا النوع من الثلج بسيطة.

والثلج الجاف، هو ثاني أكسيد الكربون الصلب عند درجة 78.5 تحت الصفر، لذا فإن التعرض له من قبل غير المدربين ينذر بمخاطر تشمل الإصابات الجلدية الناجمة عن ملامسته، والتعرض لخطر الاختناق بفعل استنشاقه وتلف أجهزة الجسم الداخلية إن تم ابتلاعه. ويؤكد أن «هناك شركات في الكويت تصنّعه، ولديها متخصصون يستطيعون الإشراف على استخدامه، كما يمكنها توفير الكميات المطلوبة لحفظ اللقاح»، لا سيما أن «الجهاز الخاص بتصنيعه بسيط ورخيص، ويمكن لوزارة الصحة أن تشتريه».

ويأتي الثلج الجاف على 3 هيئات: مسحوق وحبوب وقطع، ويبلغ سعر الكيلوغرام الواحد منه 1.5 دينار، كما أن أوزان عبواته تتراوح بين الكيلوغرام الواحد والـ20 كيلوغراماً.

وقالت شركة «موديرنا» ان لقاحها الذي يوفر حماية بنسبة 94.5%، يمكن تخزينه لـ30 يوماً عند درجة حرارة تتراوح بين 2 و8 مئوية، ويمكن الاحتفاظ به لمدة

6 أشهر عند 20 درجة مئوية تحت الصفر، مقابل لقاح «فايزر/ بيونتيك»، الذي يمكن الاحتفاظ به لـ6 أشهر في درجة ما بين 70 و80 تحت الصفر، أو لـ5 أيام عند ما بين 2 و8 درجات مئوية.

مأمونية اللقاح

وفي بدايات ديسمبر 2020، وفي ظل تراجع ملحوظ لحالات الإصابة بفيروس كورونا في البلاد، اصدرت وزارة الصحة ترخيص استخدام الطوارئ للقاح، بناء على قرار اللجنة الفنية المشتركة بين إدارة تسجيل ومراقبة الأدوية الطبية والنباتية وإدارة الصحة العامة لتقييم وتسجيل اللقاحات والطعوم.

وقال الوكيل المساعد لشؤون الرقابة الدوائية والغذائية بالوزارة د.عبدالله البدر ان الترخيص جاء بعد مراجعة مستفيضة من قبل اللجنة الفنية لجميع البيانات والتقارير العلمية، ولمعلومات السلامة والفعالية والجودة، ومراجعة نتائج الدراسات السريرية المعنية بفعالية اللقاح وسلامته، إضافة إلى التحقق من تقارير الجودة وتقييم الدراسات للمنتج، والتأكد من تطبيق أسس التصنيع الجيد في المصانع المنتجة للقاح حسب المعايير العالمية لضمان الجودة في جميع مراحل التصنيع.

ولطمأنة الناس على مأمونية اللقاح، أكد عضو لجنة لقاح «كوفيد – 19»، البرفيسورد.خالد السعيد أن لقاح «كورونا» آمن جدّاً، ولا خوف مطلقاً من أخذه، داعياً إلى عدم الالتفات إلى الإشاعات في هذا الصدد، بحسب ما نقلت عنه صحف محلية.

وقال السعيد إن الأعراض الجانبية الناتجة عن أخذ اللقاح خفيفة، تتراوح بين الصداع والحرارة، والألم في موضع الحقنة، نافياً ما يتردد بأن اللقاح يسبّب العقم، مشدداً على أن العلماء والأطباء حريصون على صحة البشرية في كل مكان. وعما كانت الكويت قادرة على تخزين اللقاح بشكل آمن في درجة حرارة 70 تحت الصفر، أكد السعيد الجاهزية الكاملة للبلاد لتخزينه، بحيث وفرت وزارة الصحة ثلاجات بالمواصفات المطلوبة.

أما عن الأعراض الجانبية التي سجلت على اللقاح فقال السعيد ان جميعها خفيفة، تتراوح بين صداع وحرارة، وآلام في موضع الحقنة، ولن تؤثر فيمن لديهم أمراض مزمنة.

انطلاق حملة التطعيم... وعودة الأمل

وفي 23 ديسمبر 2020، انطلقت في الكويت حملة التطعيم ضد فيروس كورونا بلقاح فايزر وبيونتيك، حيث تركز على تطعيم الطواقم الطبية وكبار السن، وتوقعت وزارة الصحة الكويتية تلقيح 10 آلاف شخص في اليوم.

وقال رئيس الوزراء الشيخ صباح الخالد إن "اللقاح آمن ومعتمد من الجهات الدولية»، وأضاف أن الحملة سوف تستمر شهور مطالبا الجميع بالاستمرار بالالتزام بالاشتراطات الصحية.

في موازاة ذلك، أغلقت الكويت حدودها البرية والبحرية ومجالها الجـوي أمـام الطيران التجاري (اعتبارا من 24 ديسمبر وحتى مطلع العام الجديد) كإجراء احترازي بعد تفشي سلالة الفيروس المتحور في بريطانيا.

وقالت الحكومة الكويتية إن كل رحلات الشحن والمسارات التجارية ستظل عاملة. وأمرت السلطات الصحية كل من قدموا من الاتحاد الأوروبي أو المملكة المتحدة في ذلك التاريخ بإجراء اختبار "بي سي آر" الخاص بفيروس كورونا، على الفور.

وفي إطار الحملة الوطنية للتعطيم، أعلن وزير الصحة في الرابع عشر من يناير عام 2021، أن عدد من تلقى الجرعة الأولى في لقاح «كوفيد – 19» تعدى الـ 20 ألف شخص وقال على هامش إطلاق المرحلة الثانية من التطعيم، وبعد تدشين القاعة «6» في أرض المعارض والبدء بتناول الجرعة الثانية والتي افتتحها رئيس مجلس الوزراء أنه ستكون هناك شهادة للتطعيم تبين حصول الفرد على الجرعتين نظراً لوجود «باركود» للتحقق من فاعلية وصحة الشهادة.

وأكد وزير الصحة، أن لقاح «فايزر» يحتاج إلى تخزين تحت درجات حرارة منخفضة جداً ويأتي في «أمبول» تكفي لخمس أشخاص وعندما يخرج الأمبول من الفريزر يحتاج لنحو نصف ساعة لإذابة الثلج ومن ثم اعطائه للشخص المراد تلقيحه، وتظل ساعات قليلة، وإن لم تستخدم يتم التخلص منها، لافتاً إلى أن العملية إن لم تكون منتظمة فسنفقد الكثير من اللقاحات، كما حدث مع بعض الدول المتقدمة.

وأشار إلى أن النظام الإلكتروني الذي تم العمل عليه منذ ستة أشهر هو لتفادي الهدر في اللقاحات وتفادي الأخطاء التي قد تحدث في عمليات التطعيم، لافتاً إلى أن الوزارة كانت حريصة على عمليات تدريب الطواقم الطبية حول كيفية التعامل مع مختلف اللقاحات.

وقد أوصت الكويت بتأمين 5 ملايين و 700 ألف جرعة من اللقاحات وهو ما يغطي إجمالي العدد المتوقع من الذين سيتلقون اللقاح وهو 3 ملايين و 700 ألف نسمة بعد إستبعاد الفئة العمرية الأقل من 16 عاماً ولتسريع عمليات التلقيح افتتحت وزارة الصحة عشرة مراكز جديدة في الشهر الثالث لعام 2021 إضافة إلى 16 مركزاً معتمداً لتقديم هذه الخدمة ووفق تقديرات الخبراء الصحيين ستحقق الكويت رقماً جديداً في الأسبوع الأخير من شهر مارس 2021 وهو تطعيم ما يقرب من نصف مليون إنسان وهذا ما يعكس ثقة الناس بالتطعيم والاقبال عليه وهو ما رفع سقف التوقعات عند الجهاز الطبي، وبأن يرتفع عدد متلقي اللقاح إلى مليون شخص مع نهاية صيف 2021 وقد يتضاعف إلى مليونين حتى شهر سبتمبر 2021 وعندها ستتوفر إمكانية عودة الطلبة إلى مدارسهم وفي جميع المراحل وبذلك تكون الكويت قطعت شوطاً كبيراً في رحلة العودة إلى الحياة الطبيعية.

فيما أكدت مديرة إدارة العلاقات العامة والإعلام بوزارة الصحة أن عملية التطعيم تسير بشكل جيد بحيث يتم تطعيم 1200 شخص يومياً.

ويوم 14 يناير كان يوماً مميزاً في تاريخ أخذ اللقاح

المعتمد في الكويت، وذلك بالتوازي مع أخذه من قبل 32 مليون شخص حولى العالم.

تبع ذلك اعلان وزارة الصحة وصول 200 ألف جرعة من لقاح أوكسفورد في شهر فبراير 2021 والذي يتم تصنيعه في مصنع سيروم للأمصال في الهند بترخيص من شركة أسترازينيكا العالمية وهذا اللقاح يتطلب تخزينة درجة حرارة تتراوح بين 2 و 8 درجات مئوية وقد حصل اللقاح على اعتماد من هئية الدواء الأوروبية EMA والوكالة البريطانية لتنظيم الأدوية.

عدد من تلقوا اللقاحات في الكويت قارب المليون ونصف المليون شخص، أي بنسبة 33,7 % من إجمالي عدد السكان مطلع شهر مايو 2021 ووفق البيانات المعلنة فقد وصل عدد الذين تلقوا اللقاح أكثر من مليونين و500 ألف شخص لغاية شهر يونيو 2021.

هذا وقد منحت وزارة الصحة في التاسع من يونيو 2021 ترخيص استخدام الطوارىء للقاح «جونسون أند جونسون» المضاد لفيروس كورونا لينضم إلى اللقاحات وهي: «فايزر» و«موديرنا» و«إسترازينيكا»، بناءاً على قرار اللجنة الفنية.

واللقاح يؤخذ بجرعة واحدة ويمكن تخزينه لمدة ثلاثة أشهر في درجة حرارة لاتزيد عن الخمسة عشرة درجة فهرنهايت وفعاليته عالية، حيث أظهر فعالية ضد النسخة المتحورة في جنوب أفريقيا.

قرارات الحظر لمحاصرة انتشار الوباء

محاصرة الوباء والحد من إنتشاره كان الهم الأبرز لدى القائمين على إتخاذ القرار في الدولة، وكان فرض الحظر الجزئي أو الكلي إحدى الخيارات المتاحة والتي لجأت إليها السلطات المعنية، أسوة بالعديد من الدول، ففي عام 2020 أقدمت على فرض الحظر وبمستويات مختلفة بدأت بتاريخ 22 مارس 2020 بحظر جزئي من الخامسة مساءاً وحتى الساعة الرابعة صباحاً، أي لمدة أحد عشر ساعة.

التقارير الإعلامية أعدت قائمة لقرارات الحظر – جريدة الراي – وجاءت على الشكل التالي:

6 أبريل 2020 زيادة فترة حظر التجوّل الجزئي لمدة ساعتين، لتصبح من الخامسة مساء حتى السادسة صباحاً (13 ساعة).

23 أبريل 2020 مع مطلع شهر رمضان المبارك حينذاك، قرّرت الحكومة زيادة فترة الحظر الجزئي لتبدأ من الساعة الرابعة مساء حتى الثامنة صباحاً (16 ساعة).

10 مايو 2020 فرض حظر تجوّل شامل استمر حتى 30 مايو.

31 مايو 2020 العودة إلى الحظر الجزئي ليصبح بين الساعة السادسة مساء والسادسة صباحاً (12 ساعة).

21 يونيو 2020 تعديل مواعيد حظر التجوّل الجزئي، لتكون من السابعة مساء وحتى الخامسة صباحاً (10 ساعات).

30 يونيو 2020 تقليص مواعيد حظر التجول الجزئي ساعة واحدة، لتصبح من الثامنة مساء وحتى الخامسة صباحاً (9 ساعات).

28 يوليو 2020 تعديل مواعيد الحظر الجزئي لتصبح من الساعة 9 مساءً حتى الساعة 3 فجراً (6 ساعات).

30 أغسطس 2020 إلغاء حظر التجول الجزئي.

وفي العام 2021 اتخذ مجلس الوزراء قراراً بحظر التجول الجزئي، بعدما سجّل عدد الإصابات 1716 إصابة و 8 وفيات خلال 24 ساعة في اليوم الخامس من شهر مارس 2021 بحيث يبدأ يومياً اعتباراً من يوم السابع من مارس 2021 حتى 8 أبريل 2021 ومن الساعة الخامسة مساءاً وحتى الخامسة صباحاً وبواقع 12 ساعة لمدة شهر كامل.

إستمر قرار تطبيق حظر التجول الجزئي مع تقليصه ساعة أخرى، ليصبح عشر ساعات يبدأ من السابعة

مساءاً حتى الخامسة فجراً على أن يدخل القرار حيذ التنفيذ اعتباراً من 8 أبريل 2021 ولغاية 22 أبريل والذي يصادف دخول شهر رمضان المبارك.

عاودت الحكومة تمديد قرار حظر التجول الجزئي ابتداءاً من الخميس 22 أبريل ولغاية نهاية شهر رمضان الموافق 12 مايو 2021، بحيث يبدأ الحظر من الساعة السابعة مساءاً وحتى الخامسة صباحاً، وسمحت الحكومة بتقديم خدمات التوصيل في المطاعم والمقاهي والمتاجر خلال ساعات الحظر طوال شهر رمضان.

رفع الحظر

ووفق استقرار معدلات الإصابات وعدد الأسرة في أجنحة العناية المركزة، جاء قرار مجلس الوزراء في العاشر من مايو 2021 ليعلن انتهاء الحظر بنهاية شهر رمضان الموافق الثالث عشر من مايو ومنح مزايا لمن تلقى اللقاح واتخذ جملة من القرارات وهي:

1 - إنهاء حظر التجول الجزئي اعتباراً من أول أيام العيد الساعة 1 صباحاً.

2 - إغلاق الأنشطة التجارية كافة، من الساعة الثامنة مساء وحتى الساعة الخامسة فجر اليوم التالي، مع عدد من الاستثناءات.

3 - فتح دور السينما والمسارح للمحصنين فقط.

4 - تسلم الطلبات من المطاعم والمقاهي من دون البقاء بالداخل.

5 - تحديد نسبة عدد العاملين في مقار العمل العام والخاص بما لا يتجاوز 60 في المئة.

6 - إيقاف رحلات الطيران التجارية المباشرة باستثناء طائرات الشحن، مع كل من نبيال وباكستان وبنغلاديش وسريلانكا، حتى إشعار آخر.

7 - منع دخول البلاد للقادمين من الدول المذكورة مباشرة أو «ترانزيت»، ما لم يقيموا خارج تلك الدول مدة 14 يوماً على الأقل.

اللقاح والسفر

واكب مجلس الوزراء المستجدات المتعلقة بتداعيات فيروس كورونا «كوفيد - 19» واتخذ حزمة من الاجراءات بهدف تسهيل حرية التنقل للمواطنين والمقيمين وضبط الدخول والخروج ولاسيما في ضوء التطعيمات التي حققتها وزارة الصحة وتجاوزت الـ 3 ملايين جرعة لغاية 18 يونيو 2021 وهي التالية:

1) السماح لغير الكويتيين بالدخول إلى البلاد شريطة حصولهم على جرعتين من اللقاح المضاد لفيروس كورونا والمعتمد لدى الكويت والمنتج من شركات فايزر - استرازينيكا - موديرنا، أو جرعة واحدة من اللقاح المنتج من شركة جونسون أند جونسون، وذلك اعتباراً من 1 أغسطس، شريطة إجراء فحصي PCR، الأول قبل الوصول بـ 72 ساعة يفيد بالخلو من الإصابة بفيروس كورونا والآخر خلال فترة الحجر المنزلي الممتدة لسبعة أيام بعد الوصول، ويمكن إنهاء الحجر قبل ذلك في حال ظهور نتيجة فحص PCR تؤكد الخلو من الإصابة بالفيروس أثناء فترة الحجر.

2) عدم السماح بالسفر إلى خارج البلاد للمواطنين ما لم يكونوا قد تلقوا جرعتين من اللقاح المضاد لفيروس كورونا المعتمد لدى دولة الكويت، باستثناء فئات محددة وذلك اعتباراً من 1 أغسطس 2021.

3) السماح للحاصلين على اللقاح المضاد لفيروس كورونا والفئات المعفاة من تلقي اللقاح بالدخول إلى الأماكن التالية:

أ) صالات المطاعم والمقاهي.

ب) الأندية الصحية.

ج) الصالونات.

د) المجمعات التجارية الكبرى التي تزيد مساحتها على 6000 م2، وذلك اعتباراً من 27 الجاري.

4) إمكانية استخدام أحد التطبيقين «هويتي» أو «مناعة» (Immune)، وذلك لإثبات التحصين لمتلقي اللقاح المضاد لفيروس كورونا والمتعافين من الإصابة بالفيروس وفق شروط وزارة الصحة.

قرار السماح بالسفر والاعفاء من الحجر

أوكلت الحكومة الكويتية مهمة اتخاذ التوصيات والقرارات إلى لجنة وزارية لطواريء الكورونا وهي بدورها ترفع اقتراحاتها إلى مجلس الوزراء ففي جلسة التاسع عشر من مايو 2021 قرر ما يلي:

1 - اقتصار رحلات الطيران التجارية المباشرة على الرحلات المغادرة فقط للدول التالية الهند، النيبال، باكستان، بنغلاديش، سريلانكا، ويشترط عدم استبدال أطقم الطائرات في تلك الدول، على أن تستمر رحلات الشحن، حتى إشعار آخر.

2 - دون الإخلال بقرار مجلس الوزراء رقم (79) الصادر بتاريخ 2021/2/3، يسمح بالجلوس في صالات المطاعم والمقاهي مع الالتزام بتطبيق الاشتراطات الصحية، وذلك اعتباراً من يوم الأحد المقبل.

3 - تكليف مركز التواصل الحكومي بنشر قائمة الدول عالية الخطورة بتفشي فيروس كورونا بشكل اسبوعي، بالتنسيق مع وزارة الصحة.

4 - ينهي الحجر المقرر على المسافرين القادمين إلى البلاد، شريطة إجراءات فحص (PCR) خلال ثلاثة أيام من تاريخ الوصول يفيد بالخلو من الإصابة بفيروس كورونا وذلك للمحصنين الحاصلين على اللقاح المعتمد لدى الكويت والمتعافين من الإصابة بالفيروس ومضى على شفائهم مدة لا تتجاوز 90 يوماً.

5 - استثنى المجلس المواطنين الحاصلين على شهادة معتمدة من وزارة الصحة تفيد بتعذر حصولهم على اللقاح نتيجة لأسباب صحية، والمواطنات الحوامل شريطة حصولهن على شهادة إثبات الحمل معتمدة من وزارة الصحة.

عودة إلى الحياة الطبيعية

وفي خطوة على نهاية طريق العودة إلى الحياة الطبيعية عاد موظفو الحكومة إلى جهات عملهم بنسبة دوام 100 في المئة يوم الأحد 2021/8/15، ليعود الازدحام في الشوارع مع ذورة دخول الموظفين وظهرا مع خروجهم من الدوام الرسمي.

وشهد اليوم الأول لتطبيق قرار مجلس الوزراء بشأن الدوام الكامل بـ «البصمة» التزاماً كبيراً من قبل الموظفين بالحضور.

كما التزم الموظفون والمراجعون بالاشتراطات الصحية من تباعد اجتماعي وعدم تزاحم والالتزام بالكمام والتعقيم، في مؤشر قوي على درجة الوعي الصحي.

وفي مؤشر جديد على عودة الحياة الطبيعية فقد إستقبلت صالات الالعاب الترفيهية والالكترونية والحضانات يوم الأول من سبتمبر 2021 الاطفال تطبيقاً لقرار عودة الأنشطة الترفيهية، وبعد نحو سنة وأربعة أشهر من الاغلاق.

وفي مطلع شهر سبتمبر عام 2021 حققت الكويت نجاحات واقعية وبلغت أوضاعاً صحية مستقرة كما أوضحها رئيس مجلس الوزراء الشيخ صباح الخالد الصباح في مؤتمر صحفي جمع فيه قيادات الدولة فقد قطعنا شوطاً كبيراً في التطعيم ووصلنا إلى نسبة عالية إذا استكملناها فسننتقل مع نهاية سبتمبر 2021 إلى وضع آمن جميعاً نود العودة إلى الحياة الطبيعية بعد سنة وسبعة أشهر مضت على الجائحة شهدت قيوداً واشتراطات وتضحية وصبر ومعاناة وسننتقل الى المرحلة الأمنة قريباً جداً.

واصل الوضع الوبائي ميدانياً وسريرياً تحسناً ملحوظا خلال شهري اغسطس وسبتمبر 2021 وتزامنا مع تسجيل أدنى معدل للإصابة يوم 10 سبتمبر 2021 بإجمالي 41 إصابة وارتفاع معدلات الشفاء، إنخفض عدد حالات الدخول الى المستشفيات بنسبة 90% أقدم القائمين في وزارة الصحة على غلق 12 جناح من العناية الفائقة وهي مؤشرات إيجابية عجَّلت بعودة الحياة الطبيعية.

مع دخول شهر أكتوبر 2021 كانت الكويت تقترب جداً من استئناف الحياة الطبيعية بعدما حققت وزارة الصحة نجاحاً ملحوظاً في سبيل السيطرة على الجائحة، فقد أثمرت حملة التطعيم نتائج مرضية في حماية الصحة العامة والعودة الأمنة للحياة الطبيعية، بعد أن بلغت نسبة الذين تلقوا اللقاحات من المواطنين والمقيمين 79% وهؤلاء اصحاب الجرعة الواحدة، وبنسبة 71% لمن تلقى جرعتين حسب الفئات العمرية من 12 سنة إلى ما فوق 60 سنة.

ورأى وزير الصحة الدكتور باسل الصباح، أن الكويت من الدول القليلة والمحظوظة التي عادت فيها الحياة إلى طبيعتها والحياة كما هي في اوائل شهر اكتوبر 2021 تسير بشكل ممتاز وكذلك عمليات التطعيم، فلا مكان في البلاد لا يمكن الذهاب إليه، وكل شيء متوافر.

وبما أن الكويت جزءاً من العالم المفتوح على بعضه البعض، سيبقى التخلص من الوباء رهن بتخلص العالم منه.

وبشأن الجرعة الثالثة التنشيطية، فستستمر الكويت بها حتى نهاية حملة التطعيم في العام 2022.

الوصول للمناعة المجتمعية

الوصول إلى المناعة المجتمعية لم يكن بالأمر السهل، فقد حققت وزارة الصحة في منتصف شهر اغسطس لعام 2021 نسبة 68% من الشريحة المستهدفة بالتطعيم وبلغ عدد من تلقوا جرعة واحدة أو جرعتين نحو 2,668,085 ملونين شخص.

وهذا يعني أنه كلما إزداد عدد المطعميَّن وأعداد الذي اكتسبوا مناعة من خلال اصابتهم وشفاءهم من الكورونا... اقتربنا من «مناعة المجتمع».. وهذا يقودنا إلى وقفة علمية مع المشرف البريطاني على «لقاح إسترازينيكا – أوكسفورد» والذي إعتبر ان «المناعة المجتمعية خرافة أو أسطورة غير قابلة للتحقيق على أرض الواقع وان كانت هذه النظرية صادقة الا أن منظمة الصحة العالمية والسياسات الصحية المتبعة في معظم دول العالم تسعى إلى تحقيق الهدف الاساسي في مكافحة فيروس «كوفيد – 19» ومحاصرته بالتطعيم بالدرجة الأولى.

منتصف العام 2021 اتجهت الكويت وبخطى ثابتة، ضمن دول قليلة وصلت إلى مرحلة «المناعة المجتمعية» بتطعيمات معتمدة بعد أن تجاوزت مليونين ونصف مليون تطعيم وتلقى نحو 90% من المواطنين الكويتيين للتطعيم المضاد وهي نسبة عالية جداً، علماً بأن عدد المراكز التي تقدم خدمات التطعيم أصبحت 100 مركزاً بعد ما كانت 41 مركزاً بحلول شهر أغسطس 2021 وهو بخلاف مركز الكويت للتطعيم في أرض المعارض بمنطقة مشرف في سبيل الوصول إلى أكبر شريحة من المسجلين بمختلف المناطق والمحافظات لبلوغ «المناعة المجتمعية».

200 ألف جرعة من «أسترازينيكا»

وتسلّمت الكويت، مطلع فبراير، شحنة من 200 ألف جرعة من لقاحات «إسترازينيكا» الذي تطوره مختبرات «استرازينيكا» و«جامعة أكسفورد» البريطانية، وأكدت وزارة الصحة وصول دفعات جديدة من اللقاح بشكل متتابع مما يمكّن من رفع معدلات حملة التطعيم.

وبوصول الشحنة لقاح الجديدة يكون إجمالي عدد الجرعات التي وصلت إلى الكويت حتى ذلك التاريخ 550 ألف جرعة، منها 200 ألف من لقاح «أكسفورد» و350 ألفا من لقاح «فايزر بيونتيك»، حيث وصل البلاد من الشركة الأميركية 3 دفعات بواقع 150 ألف

جرعة في الدفعة الأولى و200 ألف جرعة على دفعتين، وجميع الدفعات تكفي لتطعيم 275 ألف شخص.

وقال المتحدث الرسمي باسم وزارة الصحة الدكتور عبدالله السند إن 2.7 مليون مواطن ومقيم تنطبق عليهم شروط التطعيم باللقاح، متوقعا أن يتم تطعيمهم خلال عام.

واعلن السند عن تدشين حملة تطعيم «كورونا» في مراكز المعاقين التابعة للهيئة العامة لشؤون ذوي الإعاقة، ومركز رعاية المسنين التابع لوزارة الشؤون.

وأشار إلى انطلاق حملة التطعيم، 3 فبراير 2021، حرصاً على حماية الفئات الأكثر عرضة للإصابة، والفئات الأكثر عرضة للمضاعفات في حال الإصابة بالفيروس، ارتكازاً على ما هو وارد بخطة حملة التطعيم المعدة من قبل الوزارة.

فريق بحثي لتقييم أدوية مضادة

أعلنت وزارة الصحة الكويتية (17 أكتوبر) مشاركة دولة الكويت في تجربة (تضامن) العالمية عبر فريق بحثي كويتي من وزارة الصحة وجامعة الكويت ضمن إحدى أكبر الدراسات العالمية لتقييم فاعلية الأدوية المضادة لفيروس كورونا.

وذكرت الوزارة ان الفريق البحثي الكويتي المشارك في هذه التجربة العالمية منذ انطلاقها ضم كلا من الدكتور المنذر الحساوي والدكتورة موضي الرومي والدكتور سلمان الصباح والدكتورة كيلي شراب والدكتور عبدالله البدر.

وأضافت أن النتائج الأولية لتجربة (تضامن) السريرية التي تتولى تنسيقها منظمة الصحة العالمية خلصت إلى أن التدبير العلاجي لـ"كورونا" بأدوية (ريمديسيفير) و(هيدروكسيكلوروكين) و(لوبينافير – ريتونافير) و(انترفيرون) على مدى 28 يوما له تأثير ضئيل أو معدوم سواء على مدة بقاء المرضى داخل المستشفى أو على معدل وفيات مرضى كورونا.

وأوضحت أن الدراسة أجريت في 30 دولة حول العالم بهدف معرفة تأثير هذه العلاجات على المعدل الإجمالي للوفيات والحاجة إلى أجهزة التنفس الاصطناعي ومدة البقاء في المستشفى بين المرضى الذين يتلقون الرعاية داخل المستشفيات.

وذكرت أنه يجري استعراض نتائج التجربة السريرية لنشرها في مجلة طبية لافتة إلى أنها قد نشرت كطبعة أولية حاليا على موقع الأرشيف الطبي للطبعات الأولية (medRxiv).

وكانت منظمة الصحة العالمية أعلنت أنه في غضون ستة أشهر فقط تمخضت أكبر تجربة سريرية مضبوطة بالشواهد لعلاجات "كورونا" عن أدلة قاطعة بشأن فعالية الأدوية التي أعيد تخصيصها لعلاج المرض.

كما أشارت المنظمة إلى أن التقدم المتحقق في إطار تجربة (تضامن) السريرية للعلاجات يبرز أن إجراء تجارب سريريةدولية واسعة النطاق أمر ممكن حتى أثناء الجوائح ويتيح إمكانات واعدة لتقديم أجوبة سريعة وموثوقة على الأسئلة الحرجة المتعلقة بالعلاجات في مجال الصحة العامة.

وذكرت أن المنصة العالمية لتجربة التضامن تظل على أهبة الاستعداد لتقييم خيارات العلاج الجديدة الواعدة سريعا من خلال شبكتها الواسعة التي تضم 500 مستشفى مشارك في التجارب السريرية ويجري حاليا النظر في تقييم أدوية جديدة تشمل مضادات الفيروسات والمعدلات المناعية والأضداد الأحادية النسيلة لفيروس.

جهود توعوية وبحثية كويتية

أعلن معهد الكويت للأبحاث العلمية (26 يوليو 2020) عن توصله إلى نتائج مهمة تخص طريقة انتقال العدوى بفيروس كورونا حيث أجرى المعهد بحثاً علميا مبنيا على دراسة ميدانية وتحليل عينات تم أخذها في مستشفى جابر الأحمد، وأكدت نتائج البحث الذي يقوم به فريق من الباحثين بالمعهد برئاسة د. علي الحمود

إمكانية انتقال العدوى عن طريق الهواء متى ما توفرت بعض الظروف.

وذكر رئيس المشروع الدكتور علي الحمود أن النتائج التي توصل إليها الباحثون من شأنها أن تزيد من فهم طريقة انتقال العدوى ومن ثم تطوير التوصيات والسياسات الوقائية للتصدي للجائحة بأسلوب علمي.

وأضاف الحمود بأن جمع وتحليل العينات تم بالتعاون مع فريق من جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأميركية وباستخدام أحدث التقنيات.

وكشف معهد الكويت للأبحاث العلمية عن مراحل أخرى لهذا البحث يتم خلالها جمع العينات من عدد من المحاجر والمستشفيات التي تعالج بها حالات كورونا وتحليلها بالتعاون مع الجامعات العالمية ووضع التوصيات المناسبة المبنية على التوصيف العلمي لطرق انتقال العدوى وذلك في إطار اتفاقيات التعاون التي تجمع المعهد بهذه الجامعات المرموقة، مؤكداً في نفس الوقت اهتمام المعهد بتعزيز الشراكة مع وزارة الصحة لوضع الحلول العلمية للتحديات التي تواجه قطاع الصحة العامة في البلاد.

وأثنت إدارة المعهد على التعاون والدعم المهم من لجنة البحوث في وزارة الصحة ومن مستشفى جابر الأحمد والتسهيلات المقدمة لإجراء هذا البحث مما يعكس اهتمام وزارة الصحة بالاستفادة من كافة الخبرات العلمية في تطوير السياسات والإجراءات الوقائية لمواجهة جائحة فيروس كورونا، وأشادت إدارة المعهد كذلك بتعاون كل من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي وجامعة هارفارد الأميركية والهيئة العامة للبيئة.

إنجاز طبي جديد

وفي إنجاز آخر سجلت وزارة الصحة دراسة علمية وبحثية جديدة عام 2021 حول تأثر حاسة الشم لدى مصابي الفيروس.

الدراسة العلمية نشرت في المجلة الطبية لجمعية الأعصاب الأميركية على يد فريق من مستشفى ابن سينا للجراحات التخصصية ومكون من استشاري أشعة المخ والأعصاب د. خالد جاد وطبيب المخ والأعصاب د. اسماعيل ابراهيم والذي أوضح ان نحو 50 % من مرضى كوفيد – 19 يشكون من اعتلال وفقدان حاسة الشم أثناء الإصابة بالفيروس و 90 % من المرضى تعود لهم حاسة الشم عقب التشافي، الدراسة بحثت في أسباب حدوث هذه الشكوى لدى المرضى، وحاولت تفسير أسباب استمرار الروائح الكريهة لدى المرضى المتعافين من مرض «كوفيد 19» باستخدام الرنين المغناطيسي الوظيفي، حيث تم التوصل إلى أن ذلك يعود إلى وجود خلل في الفص الأمامي من الدماغ والمراكز العلوية المسؤولة عن معالجة الروائح، وليس في الأنف.

من خلال استخدام تقنية الرنين المغناطيسي الوظيفي وجد أن المشكلة في الفص الأمامي من الدماغ المسؤول عن ترجمة الروائح وإعطاء كل رائحة اسم ووصفة يترجمها في شكل رائحة كريهة.

توفير اللقاحات والمساهمات

لقد حققت دولة الكويت إحدى أعلى النسب العالمية المسجلة في توفير اللقاحات وذلك بنسبة وصلت إلى 72 في المئة للمواطنين والمقيمين على حد السواء وكذلك القدرة على الحفاظ على منظومتها الصحية من التداعي، وتواصل تدعيم الجهود الدولية لمكافحة وباء (كوفيد – 19) حيث بلغ إجمالي مساهماتها حوالي ثلاثمائة وسبعة وعشرين مليونا وأربعمائة ألف دولار 327,400 مليون دولار كان أخرها تقديم مبلغ أربعين مليون دولار (40 مليون دولار) لتحالف (جافي) ومبادرة منشأة (كوفاكس) وذلك سعيا منها لتعزيز الأمن الصحي العالمي وتحصينه وتلك وثيقة حكومية ألقاها رئيس مجلس الوزراء من على منبر الأمم المتحدة في شهر سبتمبر 2021.

عودة الحياة الطبيعية إلى الكويت

خسائر الاقتصاد الكويتي

توقعات البنك الدولي في تقريره السنوي (2020 - 2021) عن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تشير إلى أن التكلفة التقديرية التراكمية للجائحة من حيث خسائر الناتج المحلي الإجمالي ستصل بحلول نهاية عام 2021 لنحو 200 مليار دولار، متوقعاً أن يتكبد الاقتصاد الكويتي خسائر بقيمة 17 مليار دولار بسبب جائحة كورونا فيما قدر نمو الناتج المحلي في العام 2022 بنحو 5,3%.

وأوضح أن تلك التكاليف حسبت من خلال مقارنة الناتج المحلي الإجمالي للمنطقة في حال لم يجتاحها الوباء، موضحاً أن التكلفة بالنسبة لدول الخليج تقدر بـ 120 مليار دولار وهو ما يتوافق مع خسارة في النمو الاقتصادي بنسبة 7,3% مقارنة بتوقعات المجموعة لعام 2019.

الكويت عادت «حرة» من كورونا

بعد ما يقارب العامين خطت الكويت نحو العودة الكاملة إلى الحياة الطبيعية فقد رفعت اللجنة الوزارية العليا للطوارئ الخاصة بـ «كورونا» يوم 18 اكتوبر 2021 إلى مجلس الوزراء مجموعة توصيات وافق عليها وعلى خلفية استمرار تحسن المؤشرات الوبائية وارتفاع نسبة التطعيم، تقضي السماح بإقامة المؤتمرات وحفلات الزفاف والمناسبات الاجتماعية، على أن يقتصر حضورها على متلقي التطعيم مع الالتزام بلبس الكمامات والسماح بنزعها في الأماكن المفتوحة ابتداءاً في الأول من نوفمبر 2021 شرط الالتزام بالتباعد في الاماكن المغلقة وعودة الصلاة في المساجد برص الصفوف، كذلك تمت الموافقة على منح سمات الدخول بجميع أنواعها للمحصنين بلقاح معتمد في الكويت، وعودة المطار الدولي إلى التشغيل بكامل طاقته الاستيعابية، وفتحه لكل الرحلات دون استثناء.

كل ما تحتاج معرفته عن لقاح كورونا

لم تتوقف جهود وزارة الصحة بتوجيه رسائل توعوية عن اللقاحات، فقد اصدرت دليلاً شاملاً يجيب عن كل الأسئلة التي يحتاج إلى معرفتها المواطن والمقيم، جاء فيه:

ما أهمية لقاح كورونا كوفيد-19؟

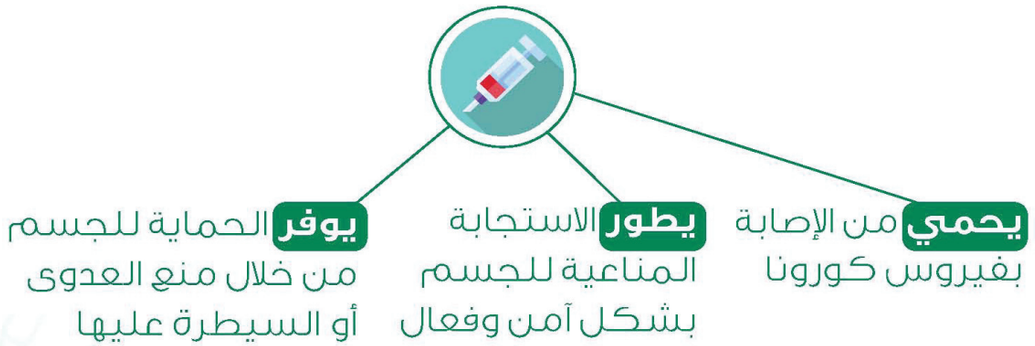

سيسمح بـ:

كيف تعمل اللقاحات؟

تقلل اللقاحات من مخاطر الإصابة بالمرض من خلال مساعدة دفاع الجسم الطبيعي للحماية

عند أخذ اللقاح يستجيب الجهاز المناعي عبر:

التعرف على الفيروس
فور دخوله للجسم

إنتاج الأجسام المضادة
بروتينات ينتجها الجهاز المناعي بشكل طبيعي لمحاربة المرض

تذكّر المرض
وكيفية مكافحته

ماذا يحدث للجسم عند أخذ جرعة واحدة من اللقاح أو أكثر؟

ينتج استجابة مناعية دون التسبب في المرض. فبدلاً من علاج المرض بعد حدوثه سيكون اللقاح درعاً وقائياً من الإصابة

مراحل تطوير
اللقاحات

مراحل
قبل السريرية

تنفَّذ هذه المراحل دون اختبار على الإنسان وتشمل:

1 الفحص والتقييم

تحديد **المستضد** الذي ينبغي استخدامه لتوليد الاستجابة المناعية.

2 تكوين اللقاح التجريبي

اختبار اللقاح على الحيوانات لتقييم مأمونيته وقدرته على الوقاية من المرض.

المراحل
السريرية

تنفّذ هذه المراحل على الإنسان وتتم بعد أن يولّد اللقاح التجريبي المنشود وتشمل:

1 التجربة

يُعطى اللقاح **لمجموعات صغيرة من المتطوعين** البالغين والمتمتعين بصحة جيدة لاختبار سلامته.

2 الاختبار

يُعطى اللقاح للأشخاص الذين لديهم **خصائص مماثلة** لتلك المستهدفين من اللقاح الجديد

3 المقارنة

يُعطى اللقاح في هذه المرحلة **لآلاف المتطوعين** واختبار فعاليته وأمانه

4 الترخيص والمتابعة

بعد أن تتوفر جميع النتائج والحصول على **الموافقة التنظيمية** وموافقة **سياسات الصحة العامة**، تجرى عمليات رصد باستمرار للتأكد من أنه لا يزال مأموناً.

ما المكوّنات الأساسيّة في اللقاحات؟

المستضد:
مادة تستخدم لتحفيز الجهاز المناعي في الإنسان و تمكّنه من التعرف على الفيروس/البكتيريا المستهدفة باللقاح.

المواد المثبّتة:
لمنع حدوث تفاعلات كيميائية داخل اللقاح والتصاق مكوّنات اللقاح بالقارورة.

المواد المتبقية:
كميات قليلة جداً من مختلف المستحضرات المستخدمة أثناء تصنيع اللقاحات أو إنتاجها.

المواد الحافظة:
لمنع تلوث اللقاح بعد فتح القارورة.

المواد الفاعلة:
لحفظ الامتزاج الجيد لجميع مكوّنات اللقاح.

المواد المخففة:
سائل يُستخدم لتخفيف لقاح كي يبلغ مستوى التركيز الصحيح قُبيل استخدامه.

المواد المساعدة:
توضع في بعض اللقاحات لتحسّن من الاستجابة المناعية للقاح.

الفصل الرابع

الجائحة تعيد صياغة الحياة

- مستقبل الطاقة والاقتصاد في العالم
- مجاهل كورونا الغامضة
- التجارة الإلكترونية بعد كورونا
- الروبوتات قادمة للسيطرة
- دروس من الجائحة
- الوجه الآخر لـ «كورونا»
- كورونا وتداعياتها على النساء

فيما ترك المتشككون أنفسهم يغوصون في مستنقعات نظرية المؤامرة، مضى التاريخ باتجاه الغاية التي يمضي إليها مع كل أزمة كبرى، وبالتحديد مع كل جائحة، مضى باتجاه إعادة صوغ الحياة؛ والعلاقات الاجتماعية- الاقتصادية التي دأب الماركسيون على تسميتها بالبنى التحتية substructures. لكن ما الذي يعطي الجائحات هذا التميز كنقاط تحول في تاريخ العالم؟ لأنها تهدد بقاء النوع الإنساني، والحفاظ على بقاء النوع فهي الممر التي يحرص عليها الوعي واللاوعي على المستويين الفردي والجماعي. لهذا السبب، فنهوض المجتمعات البشرية على المستويين القطري والدولي، هو الذي يغير التاريخ. وعلى هذا الأساس فقراءة تاريخ الأوبئة توجه صفعة جديدة للعقل الماركسي الذي زعم أن القوة المحركة للتاريخ هي تحولات أدوات وعلاقات الإنتاج، في حين أن التاريخ يقول لنا إن القوة المحركة للتاريخ هي تحولات أساليب وأدوات الرعاية الصحية.

وليست هذه هي الصفعة الوحيدة التي يتلقاها كارل ماركس هنا. فهناك صفعتان أخريان، أكثر شدة. أولى هاتين الصفعتين طالت حرص كارل ماركس على الزعم أن التاريخ لايكرر نفسه. وهو بهذا الحرص يقدم صياغة ذات مظهر علمي مصطنع لمفاهم توراتية، كما فعل عندما تحدث عن صعود متصل باتجاه عدالة كاملة وشاملة وباقية مع سيادة النظام الشيوعي في نهاية التاريخ، كصياغة ذات مظهر علمي مصطنع لما يترتب على المجئ الثاني للمسيح. وقد فعل كارل ماركس الأمر ذاته عندما اعتبر أن الإنسانية تتقدم نحو فهم أفضل لطبيعتها، على منحنى صاعد، مع مرور الزمن، وهذه صياغة جديدة أخرى للمفهوم التوراتي القديم الذي يرى أن الذات الإلهية تتكشف عبر أمور متتالية. والمهم أن ما يحدث اليوم، عندما تطرح أزمة كورونا صيغا أرقى للحياة، نجد أن التاريخ يكرر نفسه، كما فعل عندما صعد بقوة أوروبا الحداثية في مواجهة الطاعون الأسود، بعد القرن الرابع عشر، وبالمثل، سبق أن يعد التاريخ بقوة العرب الخارجين من قلب الجزيرة لإنقاذ الحضارة التي ترنحت تحت ضربات طاعون عمواس.

والثانية هي الصفعة التي يتلقاها الفكر الماركسي، عندما يدرك العالم أن التقدم يتحقق بالتضامن لا بالصراع. وبالحقيقة، فهذا الانتقال من الصراع بين ثنائيات لا تقبل بحلول وسط، إلى تعايش بين الأضداد بدأ بحرب أكتوبر العربية ضد إسرائيل وبصعود قوة المال العربي على المستويين القطري والدولي ثم بمبادرة أنور السادات للسلام بين مصر وإسرائيل، وأخيرا بسقوط حائط برلين وطي صفحة الحرب الباردة. كل هذه التطورات عززت الميل للتضامن وتجاوز التناقضات باتجاه التعاون على حل المعضلات الإقليمية والدولية، وهذا الميل يبلغ اليوم ذروة غير مسبوقة في مواجهةجائحة كورونا. وقد انفتحت العيون على هذه الحقائق لا بقوة الإقناع ولكن تحت وطأة الشعور بتأزم خطير.

مستقبل الطاقة والاقتصاد في العالم

«تسببت جائحة كوفيد- 19 بأخطر أزمة عالمية منذ الثلاثينات»، هذا ما ظل يعلنه موقع الوكالة الدولية للطاقة، طوال أسابيع الصيف. وقد امتدت تأثيرات الأزمة للنظم الصحية والاقتصاد والمجتمعات حول العالم. وفي مواجهة هذا الموقف غير المسبوق تركز الحكومات كامل جهودها على أمرين اثنين: احتواء الجائحة وإنعاش الاقتصاد.

ومع الإقرار بأن تأثيرات الجائحة على نظم الطاقة وعلى مسارات وديناميات التحول إلى الطاقة النظيفة لم

ترقب لمستقبل الطاقة والاقتصاد في العالم

تزل في طور التشكل، فقد وضعت في مقدمة العوامل المؤثرة على أحوال الطاقة في العالم مظاهر التراجع التالية:

- التراجع غير المسبوق في الطلب على وسائل النقل.
- تراجع الطلب على الكهرباء بسبب إجراءات الإغلاق رغم توقعات سابقة أن يكون العام 2020 عام انطلاقة السيارات الكهربية
- تراجع الاستثمارات في قطاع الطاقة

حقائق تبرزها جائحة كورونا:

- أن أمن الطاقة يبقى حجر الزاوية في الاقتصاد العالمي، وبخاصة في فترات الاضطراب(ومنها الفترة الراهنة).
- أن أمن الكهرباء ورسوخ نظم الطاقة هي أكثر حيوية من أي وقت مضى، بالنسبة للمجتمعات الحديثة.
- أن الانتقال إلى الطاقة النظيفة يتعين أن يكون محور خطط الانتعاش الاقتصادي واستراتيجيات التحفيز. وسوف تكون الابتكارات في مجال الطاقة النظيفة من أهم ديناميات الانتقال إليها.

وربطت مجلة «عالم الطاقة Energy World" في التاسع عشر من مايو من العام 2020 تراجع أسعار النفط وانخفاض معدلات إنتاجه بحرب الأسعار بين روسيا ومجموعة «أوبك»، مبينة أن أزمة كوفيد- 19 فاقمت الأثر الذي ترتب على تلك الحرب. وقد توقع تقرير وكالة الطاقة الدولية الذي صدر في إبريل من العام 2020 أن ينخفض الطلب العالمي على النفط في مجمل العام 2020 بمامقداره تسعة ملاين وثلاثمئة ألف برميل يوميا، عن مستويات الطلب في العام 2019، وكان الطلب قد نزل في مايو ،بحسب بعض التقديرات إلى مستوى غير مسبوق منذ العام 1995، كما زادت وتيرة تدهور أسعار الغاز.

ويمكن للمرء أن يلاحظ توجها مماثلا في قطاع الكهرباء الذي تراجع الطلب عليه وانخفضت أسعاره، أيضا. وطال التراجع أسعار المواد الاستهلاكية بسبب القيود المفروضة على الحركة خارج البيت، في بلدان العالم الصناعي. وقد انخفضت أسعار السلع الاستهلاكية، في مايو، بمعدل 25 % في إيطاليا و20 % في فرنسا و12 % في المملكة المتحدة. وضاعف من مخاوف قطاع الطاقة انخفاض الطلب على شركات الكهرباء والغاز وشركات الاتصالات الهاتفية وتراجع التدفقات النقدية لديها.

وتحت ضغط الجائحة أوقفت شركات كثيرة حول العالم الإنفاق الرأسمالي أو قلصته، كلما أتيح لها ذلك، بسبب التراجع على الطلب تحت ضغط كوفيد – 19 الذي أحدث أثرا سلبيا لافتا على الاستثمارات في مشروعات الطاقة الجديدة والمتجددة. والصين التي تلقت صدمة الوباء قبل غيرها هي المنتج الرئيسي في العالم لكثير من تقنيات الطاقة النظيفة، مثل ألواح الطاقة الشمسية وتوربينات وبطاريات توليد طاقة الرياح. وبعد أن عطل كوفيد– 19 وصول طلبيات من هذه التقانات من الصين أصبحت شركات الطاقة المتجددة غير قادرة على الوفاء بعمليات التجهيز والتركيب التي سبق لها الالتزام بها.

وهكذا فإن التحديات هائلة أمام صناع السياسات ومشغلي أنظمة البث ومديري أنظمة التوزيع لضمان أمن قطاع الطاقة. وقد بادرت بلدان كثيرة إلى مواجهة هذه التحديات، وبخاصة في ما يتعلق بقطاع الطاقة الجديدة والمتجددة. وقد كان من المسلم به أن الانتقال من النفط والغاز إلى الطاقة الجديدة والمتجددة أمر محتوم، ولكن متى؟ كان المتوقع أن يبلغ الطلب على النفط والغاز الذروة بين 2030و2035 من القرن الحالي، ثم يبدأ تراجع الطلب بمعدلات ثابتة، بحسب ما قالته مجلة الطاقة "بي في ماغازينP.V. Magazine"في إبريل من عام 2020. وكانت وكالة الطاقة الدولية تتوقع في العام 2018 أن يبلغ الطلب ذروته في أربعينات هذا القرن ثم عادت وقالت إنها تتوقع ذروة الطلب في الثلاثينات منه.

وبقيت تلك التوقعات سائدة حتى بعد تفشي وباء كورونا بسبب تباطؤ التحولات الصناعية واستمرار الاعتماد على مركبات الاحتراق الداخلي، وتوقع العودة إلى تشغيل السيارات و الطائرات. لكن شذ عن هذه القاعدة كينغزميل بوند خبير استراتيجيات الطاقة في المجموعة البحثية اللندنية كاربون تراكر-Carbon Track er المعنية بتحولات المناخ والوثيقة الصلة بمؤسسات التمويل الدولية. وقد دأب بوند، منذ سنوات، على الترويج لفكرة مؤداها أن الانتقال من الوقود الأحفوري للطاقة الجديدة والمتجدده سيبدأ في العام 2021.

فالأسواق تتحول بقوة تراكم المتغيرات – سادة السوق يركزون على مسببات النمو، في بواكير ظهور هذه المسببات. ويسمي بوند ذلك " قاعدة ال3 % "، قائلا، في تقرير له بعنوان" خرافات التحولMyths of Transition" إن السلعة أو الخدمة الجديدة التي تمثل تحديا للأوضاع القائمة في السوق تصبح الأقدر على مواصلة النمو بمجرد أن تبلغ حصتها 3 % من السوق. ومثال ذلك أن الأحصنة في الولايات المتحدة، فقد وصلت أعدادها للذروة حين صارت أعداد السيارات 3 % من أعداد المركبات التي تجرها أحصنة؛ وبلغ الطلب على الآلات التي تعمل بطاقة البخار في بريطانيا ذروته حين صارت الكهرباء تمثل 2 % من طاقة الإنارة.

وعلى المستوى العالمي، فقد بلغت حصة السيارات الكهربية 2,2% في العام 2018 وتؤكد مصادر عديدة أنها بلغت 5,2 % في العام 2020.

ويقول روبرت رابيير، في الحادي عشر من إبريل من العام 2020، في مجلة «أويل برايس» «Oil Price» ، إن العالم لازال بحاجة إلى النفط في ظروف الجائحة التي يقر بأنها تسببت بانهيار الطلب عليه، وبالتالي بانهيار أسعاره. لكن مايحدث اليوم سيؤدي ليس إلى نهاية عصر النفط بل إلى ظهور صناعة نفط أصغر حجما ولا يقدر على البقاء في ساحتها إلا العمالقة. لقد تراجع الطلب على النفط بسبب الأزمة المالية في 2008–2009 ثم عاد بقوة في العام 2010، ولكن ليس مؤكدا، أن هذا سيتكرر حدوثه هذه المرة بنفس الصيغة.

عموما النفط يعني النقل، قبل أي شئ آخر، يعني السيارة الخاصة وسيارة التاكسي ومركبات النقل الجماعي وشاحنات النقل البري والطائرات ما يعني وفق دراسة بحثية أجرتها جامعة الإمارات وكشفت عن أربع حقائق مهمة ستغيرِّ مستقبل النقل، بعد الجائحة وهي:

1. تقليل الضغط على أنظمة النقل جراء تبني الدراسة والعمل عن بُعد، وإعادة تصميم المقصورات للمحافظة على التباعد الجسدي، وتغيرات قطاع السياحة وتأثيره على السفر، وزيادة الاعتماد على خطوط الإنتاج المحلية، خاصة في القطاعات التي تمس الأمن الغذائي. وتحتم هذه المستجدات إعادة تخطيط استراتيجية النقل، وإعادة تصميم وتخطيط مشاريع النقل، حتى تتماشى مع التغييرات اللوجستية التي ستنشأ عن زيادة الاعتماد على النقل البري، على حساب وسائل النقل الجوية والبحرية، و التوسع في مد شبكات القطارات لاستيعاب هذه المطالب الجديدة.

2. التغييرات في أوضاع العمل والدراسة، حيث سنرى المزيد من الأشخاص الذين يعملون ويدرسون من المنزل، مما يقلل من الضغوط على أنظمة النقل.

3. التغيرات في قطاع السياحة، وفقا لما أعلنه المجلس العالمي للسفر والسياحة في إبريل 2020، وأبلغ به وزراء السياحة في مجموعة العشرين من أنه من المتوقع إلغاء 100 مليون وظيفة ذات صلة بقطاع السفر والسياحة. ورقم الوظائف المهددة قابل للارتفاع، لأن تقديرات المجلس لها في مارس كانت أقل من تقديراته في إبريل بمقدار الربع.

4. التغيير في سلاسل التوريد، إذ يتوقع الخبراء تغيرات هائلة في التجارة الدولية بعد الجائحة، حيث من المتوقع أن تعود سياسات تقليل الواردات، وزيادة الاعتماد على المخزونات المحلية وخطوط الإنتاج، خاصة في القطاعات التي تمس الأمن الغذائي.

لكن تلك تجاهلت أمورا مهمة تتصل بالتحولات المتوقعة في أساليب ووسائل النقل بعد الجائحة، ومنها:

- تأثير ظاهرة العمل عن بعد في تقليل الاعتماد على العمالة الوافدة، وتكليف العاملين الأجانب في أي بلد يستورد العمالة، بالعمل من بلدانهم الأصلية لقاء أجور أقل، ما يقلل حركة العمالة بين المناطق السكنية ومحال العمل، كما سيقلل حركة النقل في تلك البلدان، في العموم.

- تراجع مبيعات السيارات الخاصة وتزايد الإقبال على الدراجات الهوائية في الصين والولايات المتحدة وأوروبـــا؛ بل إن مبيعات السيارات انخفضت في مصر في العام الحالي بحوالى 22 بالمئة مقارنة بالعام 2019.

بناء على ماسبق، يبدو مُحَتَّما أن تُحدِث جائحةُ كوفيد- 19 المستجد في عالمنا تحولاتٍ من بينها الطلب على النفط. وهكذا فربما نكون اقتربنا كثيرا من لحظة التحول. هل نقترب من نهاية مسيرة امتدت لأكثر من مئة وسبعين عاما من تاريخ أخطر محركات الحضارة ونقصد بذلك الطاقة؟ إذا كانت قصة الحضارة الإنسانية تبدأ باستخدام الإنسان البدائي للنار، فقصة الفصل الراهن من الحضارة، طوال سبعة عشر عقدا مضت، حتى الآن، من حضارتنا المعاصرة هي قصة النفط.

ونحن نقول سبعة عشر عقدا لأن كتاب» الجائزة» الذي حاز مؤلفه دانييل يرغن على جائزة بوليتزر للمؤلفات غير الروائية هو بنظر الكثيرين «إنجيل» المعنيين بتاريخ النفط، وهذا الكتاب يؤرخ ميلاد النفط بأعمال التنقيب عنه في العام 1850 حيث كان الهدف الأول من التنقيب عن النفط هو البحث عن بديل لزيت الحوت الذي كان يستخدم لإشعال المصابيح وكان بالغ الكلفة. وهكذا وجد الناس في الكيروسين (وهو سائل هيدروكربوني قابل للاشتعال) وقودا رخيصا، فزاد الطلب عليه، وتبعت ذلك زيادة الإنتاج، فانهيار الأسعار ثم تدخل الحكومات للسيطرة على الأسعار وتشجيع الكارتلات(اتحادات المنتجين والموزعين التي تنشأ للتحكم بالأسعار).

لكن اختراع سيارة الركوب هو الذي جعل النفط دعامة رئيسية لاقتصاد هذا العالم، والطريف أنها قامت على الغازولين (البنزين) الذي هو من مخلفات إنتاج الكيروسين. وتسببت السيارات الخاصة والباصات والطائرات بارتفاع هائل في الطلب على النفط الذي صار مصدرا لثروات خرافية. وبدأت التوترات تتصاعد بين الحكومات وبين الكارتلات التي كانت هي من شجع على قيامها.

وقد يكون أخطر أثر للنفط على العالم الحديث هو أنه حدد نتيجة الحرب العالمية الأولى، إذ كسبت الحرب الدول التي كانت مركباتها وسفنها الحربية والتجارية تعمل بالنفط. وهكذا تأكدت الأهمية الاستراتيجية للنفط، وتسابقت الدول للسيطرة على موارده ومنابع إنتاجه. ومن هنا جاء اسم كتاب ييرغن الذي ذكر أن وزير البحرية البريطاني، الذي أصبح بعد ذلك بسنوات طويلة رئيسا للوزراء، هو من أصر في العام 1912 على تحويل السفن العسكرية البريطانية من الفحم إلى الغاز، رغم كل الصعاب ، لما يترتب على ذلك من ميزات استراتيجية لاحقا. قال تشرشل: عن هذا التحول أنَّ بناء عدد كبير من السفن المسيَّرةِ بالنفط يعني أن تفوقنا سيرتكز على النفط. لكن النفط لم يكن موجودا بكميات مناسبة في الجزر البريطانية، ولكي نجد ما نحتاجه منه كان يتعين نقله عبر البحار من بلدان بعيدة. وبالمقابل، فقد كان لدينا أفضل الفحم اللازم لتوليد البخار في العالم، أمننا في مناجمنا وتحت ترابنا. وكان الانتقال بالبحرية، نهائيا، إلى استخدام النفط يعني خوض بحر من الصراعات. لكن إن أمكن التغلب على المصاعب، فسوف يتاح لنا الصعود بكامل قوتنا وكفاءتنا البحرية إلى مستوى أعلى لاشك فيه، فتكون لدينا سفن أفضل وطواقم أفضل واقتصاد أغنى وأشكال أشد كثافة من القوة الحربية. وبإيجاز، فقد كانت السيادة هي الجائزة المرتقبة.

وكما حسم النفط نتيجة الحرب العالمية الأولى فهو أيضا حدَّد هوية مَنْ الفائز ومن الخاسر في الحرب الثانية؛ كان الفائز هو من امتلك أفضل الموارد النفطية اللازمة لتسييرسفنه ودباباته وطائراته وشاحناته. ويمكن القول إن دول المحور خاضت الحرب بهدف السيطرة على موارد النفط وخسرت الحرب لأن الحلفاء كانوا المسيطرين على تلك الموارد.

وقد أكدت دروس الحرب الثانية للحلفاء ما سبق أن قاله تشرشل إبان الحرب الأولى فعملوا على ادخار موارد النفط لديهم لمواجهة احتياجات حرب عالمية ثالثة، والتركيز على استهلاك نفط بديل هو نفط الشرق الأوسط. ولتحقيق هذا الهدف واصلت بريطانيا والولايات المتحدة سعيهما للتحكم بالشرق الأوسط وتقرير أولوياته، فتصاعد الغضب الشعبي في المنطقة ضد الاثنتين. وشجعت الحكومة الأميركية على قيام الكارتيلات للسيطرة على أسعار النفط لكن أجنحة من النخب الحاكمة استفزتها سيطرة الكارتيلات على الأسعار.

ثم بدأت مرحلة تأميم النفط واستخدم العرب النفط كسلاح في حربهم ضد القوى الغربية المساندة لإسرائيل في العام 1973 . ومن تلك اللحظة لم تعد الحكومات هي التي تقرر أسعار النفط، وراحت تتصاعد حتى قامت منظمة أوبك وسيطرت على الأسعار. وبدأت الولايات المتحدة تتشكك في جدوى الاعتماد على نفط الشرق الأوسط، لكنها لم تكن تملك بديلا يغنيها عنه. وهنا برزت التناقضات بين ضرورات الأمن القومي والاعتبارات المتصلة بالأسواق، وضرورة الموازنة بين الاثنين. وصارت هذه التناقضات أشد حدة بعد قيام جمهورية إيران الإسلامية ثم نشوب الحرب العراقية – الإيرانية لمدة ثمان سنوات وأخيرا الحدث الذي لم يعد الشرق الأوسط بعده إلى الاستقرار وهو الغزو العراقي للكويت في العام 1990.

من تلك اللحظة، منذ كشف الغزو العراقي للكويت عن هشاشة أوضاع المنطقة، وصناع القرار الدولي منشغلون بشئ واحد يلخصه كتاب آخر لدانييل يرغن هو «المسعى: الطاقة والأمن وإعـادة صوغ العالم الحديث». وعندما ظهر ذلك الكتاب في العام 2011 قال محرر نيويورك تايمز دوايت غارنر إن منطق الكتاب يبدو وثيق الصلة بكل ما شهده العالم من أحداث مثيرة للقلق في السنوات الأخيرة، وصولا إلى كارثة فوكوشيما في اليابان وأحداث الربيع العربي في تونس ومصر وغيرهما من الأقطار العربية. وبوسع المرء أن يقول إن الصلة قائمة بين الكتاب وبين ما يشهده العالم اليوم، في ظل جائحة كوفيد- 19، خاصة وأن مؤلف الكتاب هو من مروجي الأفكار المتصلة بالخطر الناشئ عن تحولات البيئة في العالم وضرورة البحث عن مصادر أكثر نظافة للطاقة، وهي أفكار برزت أهميتها – بدرجة ملحوظة – بعد ما قيل عن تراجع معدلات التلوث مع فرض القيود على الحركة، في مختلف أنحاء العالم بسبب الجائحة.

ويرفض يرغن تأسيس القول بانتهاء حقبة النفط على تراجع احتياطياته، فالتقدم التقني يزيد من قدرة البشر على اكتشاف احتياطيات جديدة للطاقة الأحفورية. لكنه يؤسس ضرورة تجاوز الحضارة الحديثة لحقبة النفط على أسباب أخرى. من هذه الأسباب تخوفه من أن يؤدي تنامي قوة إيران، وهي الدول النفطية المهمة في الشرق الأوسط، إلى احتمال مواجهة نووية بينها وبين الولايات المتحدة(ولو بالخطأ)، كما يخشى من

وقوع هجمات اليكترونية على شبكات الطاقة يمكن أن تكون»بيرل هاربور اليكترونية»، لكن كثيرا من أسباب دعوته لتجاوز حقبة النفط هو تلوث البيئة بسبب الوقود الأحفوري، وهو يذكر القارئ بما قاله تشرشل في مجلس العموم في العام 1913، عندما حذر من تكريس إحلال النفط محل الفحم على نوعية واحدة أيا كانت، على سياق واحد أيا كان البلد الذي سيتم الاعتماد عليه، منتهيا إلى القول بأن»السلامة والأمن يعتمدان على التنوع وحده». ولهذا فهو يهتم بطاقة الرياح والطاقة الشمسية والهيدروليكية ومختلف أنواع الوقود الحيويbiofuels. والرسالة المركزية في كتابه الضخم هذا هي أن النفط، في المستقبل المنظور، لن يعود المصدر الرئيسي للطاقة بل سيكون مصدرا من عدة مصادر يتزايد الاعتماد عليها تدريجيا، على حساب النفط.

تأثيرات الجائحة على التمويل وحركة رؤوس الأموال؟

في تقرير على موقع «التمويل الدوليWORLD FINANCE"الـــذي يوصف بأنه"صوت أسـواق المال"أنه إذا كانت الحقيقة هي الأولى بين ضحايا الحروب، فبوسعنا القول إن حركة رأس المال هي الأولى بين ضحايا جائحة مثل كوفيد- 19 المستجد. هذا ما أثبتته القرارات التي قادت إلى وقف صندوق التقاعد الأميركي، وهو خامس أكبر صندوق من نوعه في العالم، الاستثمار في الأسهم والسندات الصينية. وينقل الموقع عن أستاذ التمويل الدولي في مدرسة كولومبيا للدراسات التجارية تشارلز كلوميريس أن "حجب الصين المعلومات المتصلة بظهور وباء كورونا، عمدا، تسبب بمشاعر عدائية حكومية ضد ذلك البلد". لكن تقرير "التمويل الدولي" يعتبر طلب الأمر الصادر عن الرئيس الأمريكي ترامب مجرد إشارة ضمن إشارات متتالية إلى تحول طرأ على الأسواق المالية ينقلها من التكامل الذي بدأ في سبعينات القرن العشرين إلى التشظي، الذي تسببت به الاضطرابات السياسية، وتفاقمه الجائحة الآن.

الرأسمالية العابرة

بلغت عولمة التمويل ذروتها في العام 2007 عندما سجلت التدفقات الرأسمالية العابرة للحدود الرقم المذهل 7,12 تريليون دولار. ثم جاءت الأزمة التمويلية أواخر العام 2008، وهي التي تسمى الأزمة المالية الكبرى(GFC)وتبعتها أزمة منطقة اليورو فكبحت جماح التدفقات الرأسمالية. وفي عقد من الزمن نزل حجم التدفقات الأسمالية إلى 9,7 تريليون دولار، بسبب التراجع الحاد في القروض العابرة للحدود.

ما سبق يطرح تساؤلا هو هل قتلت العولمة العدوى المالية؟" دحضت مؤسسة آموندي المالية الفرنسية فكرة أن العولمة التمويلية تمضي في مسار خطي، مؤكدة أن تاريخ العولمة يتألف من دورات. لكن يمكن القول إن العدوى المالية هي انتقال سلبيات السوق المالية من بلد لبلد آخر، كما يحدث عندما يبدأ الانهيار في واحدة من البورصات العالمية الكبرى ويتكرر في عدد كبير من بورصات العالم الأخرى.

كما إنه في أعقاب تآكل الحدود التمويلية الفاصلة بين مختلف البلدان في الفترة من أواخر القرن التاسع عشر وبين الحرب العالمية الأولى ظهر قدر من التكامل المعتدل الذي ظل قائما حتى سبعينات القرن الماضي، عندما انطلقت العولمة الشرسة لتقتلع كل ما يمكن أن يعطل حركة رأس المال. وترى ماري بريير رئيسة مركز

أبحاث الاستثمار في آموندي وإحدى الباحثين الذين وضعوا الورقة أن العالم يمر بفترة تفكيك العولمة منذ الأزمة المالية الكبرى، وكل ما تفعله جائحة كوفيد- 19 هي أنها تنشط مفاعيل التفكيك وتمنحها سرعة أكبر. ولا يعني اختفاء تاما للتكامل بين الأسواق المالية بل الأرجح أن ننتقل لفترة من التكامل المعتدل، كبديل عن شراسة العولمة.

ويمضي العالم باتجاه التشظي بتأثير تحولات جيوبوليتيكية مثل الحرب التجارية بين الولايات المتحدة والصين، ومثل خروج بريطانيا من عضوية الاتحاد الأوروبي، والاضطرابات في هونغ كونغ، وتزايد الميول للعزلة داخل الاتحاد الأوروبي. وكل هذه التطورات أوقفت مد الليبرالية التجارية قبل ظهور الجائحة، وجددت الحدود الفاصلة بين الأسواق المالية.

وبحسب تقرير صدر في العشرين من يناير من العام 2020 عن مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (UNC-TAD) أظهر تراجع الاستثمار الأجنبي المباشر، تراجعا طفيفا، لينزل من تريليون وواحد وأربعين مليار دولار في العام 2018 إلى تريليون وتسعة وثلاثين تريليون دولار في العام 2019. وعلى رغم أن الانخفاض طفيف إلا أنه نزل بالاستثمار الأجنبي المباشر إلى أدنى مستوى له منذ العام 2010. وزادت الجائحة من فداحة الأضرار التي أصابت التجارة الدولية وأربكت سلاسل الإمدادات الدولية المعروفة باسم "سلاسل الإنتاج في وقت محددJIT" والتي تقوم على استراتيجية عمل طورتها تويوتا اليابانية في ستينات وسبعينات القرن الماضي لتسريع الاستجابة لطلبات الموردين والعملاء. وأكثر المتضررين من هذه التحولات هي الأسواق الناشئة.

ونقلت "التمويل الدولي WORLD FINANCE" عن الاقتصادي في معهد التمويل الدولي IIF بواشنطن جوناثان فورتن أن جائحة كوفيد- 19 نشأ عنها توقف مفاجئ في التدفقات الرأسمالية للأسواق الناشئة، ومع احتمال التعافي من هذا التوقف قبل نهاية العام 2020 فليس من المتوقع أن يستعيد التدفق قوته التي كان عليها في العام 2019.

تحدثنا عن الاقتصاد بالتركيز على الطاقة، وتحديدا على النفط الذي هو مصدر الثروة لدول المنطقة النفطية التي تمثل مركز الثقل في الشرق الأوسط، والمصدر القوي لقدراته المالية، منذ نهاية الحرب العربية- الإسرائيلية في العام 1973؛ وعالجنا الأمور المتصلة باقتصاد العولمة ليس فقط لأن العولمة هي إطار العلاقات الدولية منذ تلك الحرب العربية الإسرائيلية، ولكن أيضا لأن التكامل بين مختلف الدول والشعوب أمر لاغنى عنه لمواجهة كوفيد- 19.

الجائحة تهز الاقتصاد العربي

وإمتداداً لآثار الجائحة على الرأسمالية العابرة ظهر تقرير صادر عن جامعة الدول العربية، بتسبب جائحة كورونا بآثار اقتصادية عنيفة وطويلة الأجل على الاقتصاد العربي، إذ بلغ إجمالي الخسائر حتى الآن نحو تريليون ومئتي مليون دولار، مع توقعات بفقدان نحو 7,1 مليون عامل وظائفهم. وفي هذا المجال دعت جامعة الدول العربية إلى إنشاء صندوق للأزمات يمكن أن يدفع إلى تخفيف وطأة الظرف القاهر.

وتفصيليا يمكن تفنيد الخسائر على النحو التالي: فواقد قوامها 420 مليار دولار من رؤوس أموال الأسواق، وخسائر بقيمة 63 مليار دولار من الدخل

(الناتج المحلي الإجمالي) لدى الدول الأعضاء، وديون إضافية تبلغ 220 مليار دولار. وقد تراجعت الصادرات بقيمة 28 مليار دولار، مع خسارة 550 مليون دولار يوميا من إيرادات النفط ، وخسارة أكثر من ملياري دولار من إيرادات التعريفات الجمركية، ولأن الوقود الأحفوري هو أهم ركيزة اقتصادية للمنطقة العربية، وجب التركيز على الدول العربية في غرب أسيا حيث دول مجلس التعاون الخليجي والعراق، وقد لعبت هذه الدول أدوارا حاسمة على الصُّعُد الاقتصادية والسياسية والثقافية في المنطقة منذ سبعينات القرن العشرين(على الأقل) ثم صار لدول مجلس التعاون دور عسكري فاعل في مختلف ميادين الصدام في المنطقة منذ العام 2011، لهذه الأسباب يتعين أن نجيب على السؤالين التاليين:

- ما مصير دول النفط وكيف نرى استجابتها للأزمة المزدوجة: أزمة النفط وأزمة كورونا؟
- ماهي البدائل والحلول المتاحة لهذه الدول وإلى أين تمضي بها التطورات؟

يلخص تقرير الأمم المتحدة للعام 2020 «حالة الاقتصاد العالمي وآفـاق المستقبل- غرب آسيا World Economic Situation and Prospects-West Asia"حيث معظم دول النفط العربية، باستثناء ليبيا والجزائر، الوضع الراهن للاقتصاد في بلدان غرب أسيا في:

- تراجع الطلب على صادرات الطاقة وغيرها من الصادرات
- تباطؤ النمو يضغط على الطلب المحلي
- آفاق النمو الاقتصادي تبقى وثيقة الارتباط بضبابية الأوضاع السياسية.

ففي العام 2019 شهدت بلدان غرب آسيا تراجعا حـادا في معدلات النمو الاقتصادي بسبب تباطؤ الطلب المحلي وضعف الطلب الخارجي، مع ناتج محلي إجمالي تشير التقديرات إلى أنه نزل إلى واحد بالمئة بعد أن كان 2 و 3 بالمئة في العام 2018. وتسبب التباطؤ في قطاع العقارات إلى تراجع كل من الاستهلاك والاستثمار. وقد واجهت الدول المستوردة للطاقة تقشفا ماليا وقيودا على ميزان المدفوعات.

وتشير التقديرات إلى أن مساهمة قطاع الطاقة في نمو الناتج المحلي الإجمالي كانت طفيفة. ومع نزول أسعار النفط عن آخر ذروة بلغتها، وكانت في أكتوبر من العام 2018، فإن مستوى إنتاج النفط الخام لم يكد يتغير منذ ذلك التاريخ بسبب سقف الإمدادات الذي حدده التنسيق عبر منظمة أوبك. كما واجهت الصادرات غير النفطية هي الأخرى تراجعا في الطلب من أوروبا ومن جنوب وشرق آسيا. وفوق ذلك، فالصراع المتواصل والوضع الأمني غير المستقر في سوريا واليمن حال دون تعافي التجارة بين الأقاليم المختلفة. وبالنسبة لعموم الإقليم، فمن المتوقع أن يرتفع المتوسط العام للناتج المحلي الإجمالي إلى 8,2 بالمئة في العام 2021. في حين يبقى استمرار ضعف الطلب الخارجي مصدر ضغط على اقتصادات المنطقة، فإن تعافي نمو الائتمان واستقرار قطاع العقارات والإصلاح الاقتصادي المطرد هي عوامل من شأنها تعزيز نمو الطلب المحلي.

لكن المخاطر الرئيسية المتوقعة هي التراجع الكبير في أسعار النفط وتفاقم المخاطر الجيوسياسية. وقد عانت اقتصادات دول مجلس التعاون الخليجي، كمجموعة، من تباطؤ شديد في النمو في العام 2019. ومع مد العمل باتفاق الأوبك بخصوص سقف إنتاج النفط، في شهر يوليو، لإن التحولات التي طرأت على مستويات إنتاج

النفط الخام، مقارنة بالعام السابق، كانت لا تكاد تذكر- حتى في الدول غير المتمتعة بعضوية أوبك (البحرين وعمان وقطر). وزاد هذا التباطؤ في عام الجائحة أي عام 2020.

وقد أصاب التباطؤ أيضا صادرات المنطقة من الغاز الطبيعي، ونزل الفائض العالمي الكبير في الإمدادت بمستوى أسعاره، وخسر مصدرو الغاز في المنطقة (عمان وقطر والإمـارات العربية المتحدة) حصصا سوقية أصبحت من نصيب المصدرين الناشئين للغاز الطبيعي. ولاتكاد مساهمة قطاع الطاقة في النمو الاقتصادي لبلدان مجلس التعاون الخليجي في العام 2020 تمثل شيئا يذكر، وقد تباطأ نمو الطلب المحلي أيضا، لأسباب جاء في مقدمها تراجع قيم العقارات. وقد ضغط التباطؤ في قطاع العقارات على الاستثمار الخاص وعلى استهلاك السلع المعمرة. وبالتالي، فإن معدلات نمو المال، بالمعنى الواسع broad money «أي كافة أشكال الثروة النقدية في شكل ودائع في البنوك أو في غيرها وفي شكل أوراق مالية أو عملات نقدية» بقيت أدنى من ما كانت عليه في العام 2014. كما ضعفت التدفقات الرأسمالية الآتية من جنوب آسيا، والتي كانت عماد النمو في القطاع غير النفطي حتى سنوات قليلة مضت.

وبالرغم من كل ذلـك، فمن المتوقع أن تشهد اقتصادات دول مجلس التعاون الخليجي تعافيا متواضعا في 2021 مع استقرار القطاع العقاري. ومن المتوقع أن تشهد المملكة العربية السعودية ودولة الإمـارات العربية المتحدة نموا في المال بالمعنى الواسع مع تسارع محدود في توسع الطلب المحلي. ومن المتوقع أيضا أن تـؤدي الجهود الحكومية الإصلاحية المتواصلة، التي تستهدف تيسير التنويع الاقتصادي، إلى الإسراع بالتعافي.

وأمامنا تقريران يعالجان مسألة التعافي في بلدان مجلس التعاون الخليجي: أحدهما متشائم، وهو الذ ي نشرته، في السادس من فبراير من العام 2020، في مجلة فوربس الكاتبة دومينيك دادلي المتخصصة بالشؤون السياسية والاقتصادية الدولية؛ والآخر متفاءل، وهو التقرير الصادر في الثاني عشر من الشهر ذاته (بعد التقرير المتشائم بستة أيام) عن إنفستكورب Invest-corp، التي تُعَرَّفُ بأنها "المدير الكوني لمنتوجات الاستثمار البديل للزبائن، من أفراد ومؤسسات".

نبدأ بالتقرير المتشائم، والذي تقول فيه دادلي، اعتمادا على تقرير صدر عن صندوق النقد الدولي، إن دول الشرق الأوسط، النفطية وغير النفطية(وكل من الفريقين، برأينا نحن وليس برأي دادلي، معتمد على الآخر) قد ينفد ما لديها من المال قبل أن ينفد ما لديها من النفط. فالطلب على النفط في العالم سوف يبلغ ذروته التي يليها التراجع في العام 2040 (لاحظ تباين التوقعات) وإن كان من المحتمل أن يحدث التراجع في تاريخ أقرب إلينا إن أقدمت دول العالم وهيئاته المعنية على تنفيذ إجراءات مشتركة ومنسقة من شأنها وقف التحولات المناخية وزيادة كفاءة الطاقة.

وهذا – برأي الكاتبة – يعني أن الوقت يكاد يدهم دول الخليج المصدرة للنفط لإعادة صوغ توازنات اقتصاداتها. ويرى صندوق النقد الدولي أن ثروات المملكة العربية السعودية والكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة وغيرها قد تنفد، بحلول العام 2034 ما لم تقم هذه الدول بإصلاحات أكثر شمولية وعمقا من تلك التي وقع الإعلان عنها.

وتتلخص النقاط الرئيسية في هذا التقرير الذي عرض له موقع سي إن بي سيCNBC في ما يلي:

- تتجاوز حركة بلدان مجلس التعاون الخليجي الوقود الأحفوري في مجالات مثل الترفيه والضيافة والخدمات الصناعية.
- الطريق واضح أمام حركة نمو بعيد عن صناعة النفط في بلدان مجلس التعاون الخليجي
- لايتعين النظر إلى أسعار النفط، بعد الآن، باعتبارها محرك النمو الاقتصادي في المملكة العربية السعودية، بحسب مدير الاستثمارات في أموال كابيتال بارتنرز فادي عربيد.

ضرورة أن «تفكر بلدان تلك المنطقة بشكل مختلف» وأن لا تسمح لنفسها بالوقوع في حبائل الماضي.

التعاون كمبرر للتفاؤل

عملية طرح وجهتي نظر، إحداهما متشائمة والأخرى متفائلة للمستقبل الاقتصادي لا يعني أننا نقف موقفا مترددا بين تشاؤم وتفاؤل. نحن ندعو للتفاؤل الذي لا مبرر معقولا له إلا بالتعاون بين دول كل إقليم على حدة وبين بلدان العالم، على اختلاف أقاليمها. ولنا في الاتحاد الأوروبي أسوة حسنة.

في مقال بعنوان»هل مرت أوروبا بلحظتها الهاملتونية؟ ليس بالضبط» كتبت الواشنطن بوست في الثاني والعشرين من يوليو 2020، في زاوية «رؤية للعالم» تعليقا على الاجتماع الماراثوني الذي ضم زعماء الاتحاد الأوروبي وشهد مناقشات استمرت أربعة أيام، من السابع عشر للحادي والعشرين من يوليو من العام 2020 للاتفاق على مواجهة التداعيات الاقتصادية لجائحة كورونا.

وقبل أن نعرض للمقال نشرح المقصود بمصطلح «اللحظة الهاملتونية». يشير المصطلح لأليكساندر هاملتون والحل الوسط الذي مكنه، عندما كان وزيرا للخزانة، في العام 1790، من اتخاذ تدابير مالية مضت بالولايات المتحدة قدما بعد خمس سنوات من كارثة الحرب الأهلية.

بالطبع يميل الرأي ناحية الاعتقاد بأنها قد تكون نقطة تحول في تاريخ الاتحاد الأوروبي، وقد تحسب بالتالي ضمن إيجابيات تولدت في ظرف بالغ السلبية يتمثل بجائحة كورونا. وأن ما انتهت إليه مفاوضات قادة أوروبا لم تكن نجاحا بقدر ما أنه شئ يشبه النجاح. اتفقوا على موازنة تبلغ تريليونين ومئة مليار دولار للكتلة القارية. والزعماء إتفقوا على مبالغ باليورو لكن الواشنطن بوست تترجمها إلى دولارات لأنها تخاطب القارئ الأميركي، قبل غيره. وتشمل هذه الموازنة ما يزيد على 850 مليارا تخصص للمنح والقروض للتسريع بتعافي الاقتصادات التي أضر بها فيروس كورونا، وبخاصة في بلدان جنوب أوروبا المثقلة، أصلا، بالديون. وقد اعتبر المحللون والسياسيون أن تأثير الجائحة على الاقتصاد الأوروبي هو أصعب تحد واجهته القارة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ونترك مقال واشنطن بوست، لبرهة، لننقل عن فايننشال تايمز، توضيحها لطبيعة موازنة الطوارئ هذه بقولها: أوروبا تقترض مئات المليارات من اليورو وتوزعها باعتبارها مساندة لموازنات دولها الأعضاء. ولا نناقش ما ذهبت إليه فايننشال تايمز، وهي من هي في عالم التمويل.

سيجمع الاتحاد الأوروبي هذه الأموال عبر سندات يضمنها هو، لأول مرة. وقد تعالت الأصوات منادية بضرورة التضامن بين الدول الأوروبية القادرة وتلك الأقل قدرة على تحمل مشاق الأزمة الراهنة، خاصة وأن كثرة من اقتصادات الاتحاد تقف على شفا ركود عميق. وبعد أن يقارن المقال ما قرره الاتحاد بما فعله أليكساندر هاملتون قبل قرون يمكن القول إن أوروبا قد لاتحقق نجاحا مماثلا لما حققه هاملتون ثم يشير إلى أن نجاحه مرده إلى تقاسم الولايات أعباء الديون، في حين أن الاتحاد الأوروبي لم يتفق على أمر كهذا. ويضاف إلى ذلك ما نبهت إليه الإيكونومست البريطانية من أنه ليس واضحا، حتى الآن، كيف سيرد الاتحاد المبالغ المقترضة.

وإذا كانت رئيسة المفوضية الأوروبية أورسولا فون ديرليين، قد علقت على ما اتفق عليه زعماء القارة، بقولها» أمام أوروبا الآن فرصة كبيرة لتخرج من الأزمة الراهنة وهي أكثر قوة، وإذا كان رئيس المجلس الأوروبي تشارلز مايكل قد أعلن أن ما تم التوصل إليه يعني أن»أوروبا متحدة، أوروبا حاضرة»، فمقال واشنطن بوست ينبهنا إلى أن أوروبا لم تزل بعيدة عن أن تكون الولايات المتحدة الأوروبية، مشيرا إلى انقسامات كشفت عنها المناقشات الماراثونية، وإلى أن الاتفاق الذي انتهت إليه المناقشات يبقى رهنا بموافقة البرلمانات في مختلف دول الاتحاد عليه.

لكن واشنطن بوست تعترف بأن الاتفاق الذي توصل إليه قادة الاتحاد كان الرافعة التي ساعدت على بلوغه هي التفاهمات الألمانية – الفرنسية. ونرى نحن أن التوافق الألماني- الفرنسي هو مربط الفرس، لأنه يؤكد أن النواة التي قام عليها تحالف الفحم والصلب، والتي نمت بعد ذلك لتصبح اتحادا جعل أوروبا أقدر على مواجهة نفوذ "اتحاد الناطقين بالانكليزية" يمكن أن يمضي بأوروبا نحو ظروف أفضل.

الوظائف في زمن الجائحة.. والاحتياجات

حين ننتقل من المستوى الدولي للمستوى الفردي نجد أمامنا ما تذكره الجمعية الأميركية لإدارة الموارد البشرية SHRM من أن من فقدوا وظائفهم في الشهور الستة الأولى من جائحة كوفيد- 19 تفوق أعدادُهُم أعداد من فقدوا وظائفهم بسبب الأزمة الاقتصادية الكبرى في الفترة 2007-2009 وأمام حدة الأزمة وعمقها وتشعبها لا أحد يعلم عدد من سيفقدون وظائفهم بسبب الأزمة الصحية الراهنة. خصوصاً مع توقعات الغارديان البريطانية، عن منظمة العمل الدولية في إيريل 2020، أن الجائحة ستتسبب بفقدان 195 مليون وظيفة، على مستوى العالم.

ففي تقرير عالمي خرج إلى النور في شهر مارس 2021 تناول تأثير جائحة كورونا على وضع العمالة الهندية في دول مجلس التعاون الخليجي، وعلى الأخص الهنود الذين ينحدرون من ولاية كيرالا الساحلية التي تشتهر بنشر مواطنيها في دول الخليج للعمل في مختلف الوظائف والمهن. أشار إلى عودة أعداد كبيرة منهم إلى ديارهم بعد أن جاءت تداعيات الجائحة خلافا لما كانوا يحلمون به من جمع الثروة في الخارج وتحسين الأوضاع المادية لأسرهم.

وبعد ان كان هؤلاء يعيشون ميسوري الحال قبل انتشار كورونا وتداعياتها، حيث كان الكثير منهم يعودون إلى بلادهم حاملين الذهب والكماليات الأنيقة والأموال لشراء المنازل، ها هم يعودون وقد اعتراهم

الخجل وخلت جيوبهم من المال. البروفيسور ايرودايا جايان المتخصص في دراسة أنماط الهجرة في ولاية كيرالا الواقعة في أقصى جنوب الهند يقول إنه قبل فيروس كورونا، كان العمال الهنود يعودون لبلادهم كأبطال، لكن الآن ليس لديهم أي شيء، وان هذه هي المرة الأولى التي يعودون فيها خالي الوفاض وينتهي بهم الأمر إلى اقتراض وبيع الأصول. وتعتبر كيرالا اكبر الولايات التي ترسل بأكبر عدد من العمال إلى دول الخليج البالغ عددهم 6 ملايين تساهم كيرالا بنحو 2.5 مليون عامل منهم، وبالمقابل فقد استحوذت الولاية على حوالي 19 % من تحويلات الهنود في الخارج التي بلغت قيمتها 78.6 مليار دولار في 2018، وهذه النسبة هي الأعلى على صعيد الدولة التي تعد أكبر متلق للتحويلات في العالم.

وتظهر البيانات الرسمية أن أكثر من 1.1 مليون عامل هندي عادوا لبلادهم خلال الأشهر الـ 10 عام 2020، فقد 70 % منهم وظائفهم كعمال منازل وبنائين ونوادل وطهاة، وقد أدى ذلك إلى قلب حياة العمال وأسرهم رأسا على عقب، ودمر الأعمال التي تعتمد على الهجرة بين الهند والخليج.

ويتوقع الرئيس التنفيذي لشركة تروبلو للتشغيل في واشنطن بيتر باهاريل أن " يتنامى الطلب على من يؤدون وظائف تتصل بالصحة وأن تواصل الشركات تطوير بيئة العمل لديها لتتوافق مع ممارسات صحية أكثر صرامة وأن تكون خيارات التشغيل أكثر مرونة". وتتصل خيارات التشغيل بمكان ممارسة العامل لعمله ومواعيد تلك الممارسة وطبيعة الاتصالات بين مختلف أعضاء فريق العمل. ونجد تحت عنوان" الأموال على المستوى الشخصيpersonal finance " على موقع سي إن بي سي، تقريرا نوضح أهم النقاط الرئيسة فيه، فيما يلي:

- أجبرت الجائحة المطاعم والمحال التجارية والمسارح وغيرها من المشروعات التجارية في مختلف بلدان العالم على الإغـلاق أو تقليص النشاط، وفي الولايات المتحدة أقدم عدد من الأشخاص بلغ ربع قوة العمل على تسجيل أسمائهم في قوائم العاطلين، للاستفادة من إعانات البطالة وغيرها من المنافع التي تؤمنها الدولة لمن لاعمل لهم(في السكن والعلاج والتعليم وخلافه).

وظائف وأعمال في الواجهة

لكن الأزمة الصحية، بالوقت ذاته، خلقت وظائف جديدة. ومن بين الوظائف الموجودة هناك ثماني وظائف ستلقى مزيدا من الرواج وسيرتفع الطلب عليها أهمها:

الفحص والاختبار

تتزايد اليوم أعداد المشتغلين بالمسح الحراري temperature scanning للأشخاص الداخلين إلى مناطٌق أو أبنية معينة والمكلفين بتنظيم تعقيم أيدي الداخلين وبتوزيع الكمامات على من جاؤوا بغير كمامات والتأكد من استخدامها على الوجه الصحيح والمشتغلين باختبارات الكشف عن الإصابة بالمرض. وهذه الزيادة مرشحة للاستمرار والتصاعد. وبمرور الوقت سوف تتعقد شروط ممارسة هذه الأعمال التي يمارس بعضها الآن، في كثير من بلدان العالم الثالث، أشخاص غير مدربين على الخدمات الطبية من قوة الأمن ومن العاملين بالنظافة في كثير من المؤسسات، بعد تحويلهم عن وظائفهم القديمة إلى وظائف قياس حرارة الداخلين إلى هذه المنشأة أو تلك. ولكن سيتعين في المستقبل المنظور أن يتلقى من يمارسون أي نشاط له علاقة بالصحة بحد أدنى من التدريب التأهيلي.

الفحص والاختبار

وكلما زاد معدل إعادة تشغيل المنشآت كلما زاد الطلب على هؤلاء.

ويقول موقع أخبار الرعاية الصحة المنزلية الأميركي Home Health Care News إن السنوات المقبلة ستشهد تزايدا هائلا في أعداد العاملين في هذا القطاع في الولايات المتحدة يبلغ 7,4 من المليون تضاف لقوة العمل الراهنة، حتى العام 2028. وما سيحدث في الولايات المتحدة سيكون له نظراؤه في بلدان العالم المختلفة، وبحسب ظروف كل بلد.

متابع اتصالات

هناك الآن وظيفة متابع اتصالات contact tracer ويصل أجر العامل بهذه الوظيفة في الولايات المتحدة اليوم إلى خمسة وعشرين دولارا للساعة الواحدة. ومهمة هذا الموظف هو الاتصال هاتفيا بالشخص الذي يحتمل أن يكون أصيب بالفيروس للترتيب لإجراء اختبارات له.

توظف مدن وبلدات حول العالم اليوم من يساعدون رجال الشرطة على متابعة التزام الناس بقواعد التباعد الاجتماعي وغيرها من السلوكيات التي تستهدف الحد من تفشي العدوى بقيوس كورونا وإلزام المخلفين لهذه القواعد بتطبيقها؛ ويبلغ أجر هذه الوظيفة ثلاثين دولارا للساعة الواحدة.

لا مناص من أن تستخدم المشروعات التجارية والمدارس الحواجز والفواصل الشفافة plexiglass shields المصنوعة من بلاستيك آكريليك لحماية العاملين والعملاء والتلاميذ. وهذا يرفع معدلات الطلب على الناس القادرين على تصنيع وتركيب هذه التجهيزات.

صناعة الكمامات

وفقا لتقديرات، فقد نظل لسنوات نستخدم الكمامات خارج منازلنا، وداخل المنازل في وجود من يفرض حضورهم إجراءات وقاية. وهذا يعني أن إنتاج الكمامات باق معنا لسنوات. ويمكن أن يجد العاملون أن شركاتهم تستقبلهم بكمامات عليها الشعار التجاري للشركة. وقد نجدها معروضة للبيع عند الدخول لحضور حدث رياضي أو حفل.

مع تزايد الاعتماد على الصفوف الدراسية الافتراضية ومع لجوء الأطباء للفحص عبر الشاشات تتزايد الحاجة لفنيين مختصين بتنظيم وإدارة التواصل عبر الفيديو.

وبالإضافة لكل ماسبق فإن البنى التحتية للمشروعات التجارية والطبية والتعليمية وغيرها ستتغير، وإذا كان التعليم عن بعد سيغير بنية المنشأة التعليمية من رياض الأطفال للجامعات فمن المحتمل أن ينتقل االتركيز في القطاع الصحي من العيادات الخاصة إلى المنشآت العلاجية العامة وقد يفقد الطب جانبا، يصعب تقدير حجمه بعد، من مكونه الاستثماري.

وفي حين توقعت مصادر عديدة أن يكون العاملون في مجالات تصميم الغرافيك graphic design والدعاية والإعـلان واللوجسيتيات logistics في مقدمة من سيتزايد الطلب عليهم بسبب التحولات التي يفرضها وباء كوفيد- 19، فإن الروبوتات وأجهزة الكمبيوتر تهدد الآن وظائف السكان الضعفاء في مختلف أقطار العالم. وستكون هناك شركات ستصل للأسف إلى استنتاج أنها يمكن أن تعمل مع عدد أقل من القوى العاملة. هذا ما سيسرع ظاهرة الروبوتات في العالم، لأنها لا تعاني من أمراض مثل كورونا".

وعملياً نلاحظ منذ سنوات بروز ظاهرة استخدام الروبوتات لمساعدة الأطباء داخل المستشفيات على الاتصال بالمرضى عن بعد بالفيديو ومراقبة صحتهم ودرجـة حرارتهم وحالة تنفسهم، وتقديم العلاج للمرضى المصابين، وأصبحت أكثر فأكثر بمثابة بديل آمن، يغني عن الممرضين والمساعدين الطبيين، للحد من تفشي فيروس كورونا المستجد.

ولأن الرغبة في تجنب العدوى صارت محركا للإبداع ومنشطا لأمور مثل حلول الروبوت محل الإنسان، فسوف تختفي وظائف لم يكن يتوقع أحد أن تختفي، ومنها تلك التي حددها المؤلف والمدير المالي جون بوغليانو، في حوار أجرته معه بي بي سي الإسبانية، عقب ظهور كتابه" الروبوتات قادمة: دليل نجاة الإنسان لتحقيق الأرباح في عصر الأتمتة". وقال بوغليانو»أي عمل روتيني يسير وفق خطوات متوقعة سيُنجز عن طريق لوغاريتمات رياضية، خلال خمسة أو عشرة أعوام... على الأقل في الدول المتقدمة".

مهن مهددة بالانقراض

صحيح أننا ستبقى دائما بحاجة لأطباء، وبخاصة مع تزايجد نسبة كبار السن بين السكان. لكن بعض التخصصات الطبية المتصلة بتشخيص الأمراض اليكترونيا سوف تختفي.

لكن بالمقابل ستتزايد الحاجة للأطباء ومساعديهم (الذين لن يتيسر إحلال الروبوتات محلهم لأسباب مالية أو فنية)في أقسام الطوارئ، كما أن الجراحين يتعزز دورهم.

يعتقد وعلى نطاق واسع أن عدد المحامين الذين ينحصر دورهم في العمل الروتيني وترتيب المستندات سيتضاءل كثيرا في المستقبل المنظور، أما المهام

القانونية التي تتطلب خبرة وتخصصا أقل فسوف تنهض بها برمجيات كمبيوترية خاصة.

من المرجح أن تتولى الحواسيب تصميم الأبنية البسيطة ليبقى في مجال الهندسة المعمارية أصحاب الرؤى الإبداعية والمهارات الفنية الخاصة.

كما يتوقع أن يحتفظ العاملون في مجالات الضرائب المعقدة بوظائفهم مقابل أن المحاسبين الذين يشتغلون بحسابات الضرائب البسيطة سوف يتراجع الطلب عليهم.

ولنا أن نتأمل وصول الروبوت الى عالم الطيران حيث بدأت الطائرات بدون طيار تحل محل الطيارين بالفعل في المهمات الخطرة، وسيستمر هذا الأمر مع زيادة اعتماد الحروب على الأنظمة والتقنيات الإلكترونية.

وكانت الصحيفة القاهرية اليوم السابع قد نشرت تقريراً توقعت فيه اختفاء الصحافيين لتحل الروبوتات محلهم، لكن المحقق ذا الرؤية الاجتماعية والمعبر عن مواقف فكرية وقيمية يصعب- وربما يستحيل -أن يختفي. ولكن الروبوت يمكنه أداء الوظائف الصحفية الروتينية المرتبطة بعرض حقائق وربما بتحليلها وفقا لمعطيات يتم تحديدها سلفا. وذكرت الصحيفة الوظائف التالية متوقعة زوالها.

وبعد تفوق الصين في استخدام جهاز روبوت لقراءة نشرات الأخبار وتلتها القناة الحكومية الروسية تتجه الأنظار الى أن بعض الروبوتات قد يقضي على الصحفي التقليدي وكذلك وظيفة المذيع، لكن المحاور والمعلق بما يملكه كل منهما من ميزات فردية يصعب أن يستبدل أداؤهما بأداء آلي مفتقد للحيوية.

ومن المتوقع إستمرار انخفاض عدد من أصحاب المهنة التى لطالما كانت حلم كثير من الناس أن يكونوا منهم، فمع التنافس بين شركات الطيران ومع محاولات تقديم الأسعار الأفضل، من المتوقع انخفاض أعداد المضيفين والمضيفات فى الأعـوام القادمة نظراً لاستخدام الروبوتات على الطائرات لتشرح للركاب قواعد الأمن والسلامة ولتقدم لهم الخدمات.

مع ظهور المكتبات الإلكترونية، ونشر مكتبات الجامعات نسخا من كتبها على المواقع الخاصة بها، أصبح من السهل التنقل عبر الكتب والمراجع من دون حاجة للرجوع إلى أمين المكتبة لما تؤمنه مواقع البحث من سهولة وسرعة، لذا من المتوقع أن يقل أمناء المكتبات نظراً إلى أن الإبقاء عليهم سيصبح مكلفا للغاية.

من المتوقع أنه فى غضون أعوام ستقل أعداد الطهاة ذوي الكفاءات المتدنية ليستبدلوا بإنسان آلى يستطيع أن يقوم بالطهى، وبالفعل تعتبر فرنسا من الدول التى سبقت إلى ذلك، حيث وفرت إحدى الشركات روبوتات خاصة لطهى البيتزا و تقطيعها.

وباتت تحل الآلات، بوتيرة متسارعة حالياً محل المزارع، وتؤدي مهامه بسرعة ودقة وتقدم ضمانات أقوى للجودة والسلامة.

إختفاء وظائف بسبب الوباء

تراجعت بقوة أهمية الشركات بالنسبة للحجز على رحلة جوية أو في فندق أو منتجع مع إنتشار تطبيقات الحجز والسفر والتي باتت تغني الناس عن كل ذلك، وبضغطة زر واحدة يصبح بإمكانك الحصول على أفضل الأماكن والأسعار فى العديد من الفنادق

وشركات الطيران، حول العالم وذلك عبر الحواسيب والتطورات التقنية المختلفة، ولاشك في أن ظهور وباء كوفيد- 19 قد يعجل بوضع هذه الوظائف على لائحة ضحايا كورونا. ومن هذه الأعمال:

- وظيفة مُدخِل البيانات data entry
- مدير حسابات
- سكرتير إداري
- عامل التجميع في المصنع
- موظف خدمة عملاء
- مدقق مالي
- مدير مخزن
- مدير عمليات
- موظف مكتب بريد
- صراف البنك

إذن بالامكان الاستعانة بالآلة والتي ستقرر أكثر من أي عنصر آخر، الوظائف التي سوف تختفي تحت ضغط الوباء وما يفرضه من ضرورات التباعد الاجتماعي، ستقرر هذه الإمكانية أكثر من غيرها أي الوظائف تبقى وأيها تختفي. وهذا يعني أن التكنولوجيا لها دورها في تقرير وتوجيه استجاباتنا لفيروس كورونا. وهذا ينطبق على تحدي الجائحة التي ننهض اليوم لمواجهتها، بمثل ما انطبق على كل تحد نهذنا لمواجهته، من فجر الحضارة، مقررين بذلك مسارات تلك الحضارة. فالتطور التكنولوجي المتمثل بإشعال نار بضرب حجر بحجر طلبا للدفء أو من أجل طهو الطعام كان خطوة جبارة، على طريق التقدم، كان مقدمة لتأسيس بقعة يجري فيها إشعال النار للتدفئة أو للطهو واجتماع الفرد الإنساني مع من صاروا من تلك اللحظة شركاءه وشريكاته في طلب الدفء وانتظار الطعام؛ وكذلك كان استخدام الإنسان لعصا من أجل إسقاط ثمرة من فوق غصن شجرة ومن أجل رد عدوان من إنسان أو حيوان، بداية ظهور الإنسان العامل، لأن العصا هي أقدم أداة للعمل، فهو لا يتوكأ عليها فقط بل ويهش بها على ما لديه من حيوانات وله فيها مآرب أخرى، من بينها رد العدوان، ما يجعل العصا مقدمة ظهور العامل المزود بأداة وظهور المحارب المسلح. ولا يقل خطرا عن الاثنين، عن النار والعصا، اختراع العجلة. لكن التكنولوجيا اليوم – كما في مختلف العصور التي سبقت- تفعل فعلها في إطار الحالة الديمغرافية (السكانية)المتصلة بأعداد البشر وفئات الأعمار ودرجات التعليم والتأهيل، ونوع الحاجيات التي تتجه العمالة لإشباعها. وهذا ينقلنا لضرورات وإملاءات الحالة الاقتصادية التي ترتسم ملامحها في ضوء ندرة الموارد والمواد الأولية. ولا يقل عن ذلك كله أهمية الإطار الاجتماعي – الثقافي الذي يحبذ أفعالا وينهى عن غيرها

وتحت وطأة جائحة كورونا فلننتظر حتى نرى كم من البشر يبقون على قيد الحياة، وفي أي بقعة من بقاع العالم، وضمن أي ثقافة أو ديانة أو أيديولوجية، قبل أن نقرر من يفعل ماذا.

مجاهل كورونا الغامضة

أولا : التكافل والتضامن العالمي بعد كورونا...!

ألقت جائحة كورونا بظلال كثيفة على العولمة، وبدى أن كل دولة تنكفئ على نفسها وتسعى لتحقيق مبدأ الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن الآخرين، ذلك المبدأ الذي كان سائدا في زمن الاستقلال الوطني في الستينات من القرن الماضي وهذا المبدأ يطرح تساؤلاً

مهماً هو هل يمكن لدول العالم أن ينفرط عقدها ويقف كل منها وحيدا في مواجهة عدو، إن تحقق له النصر في أي بلد من بلدان العالم، مهما كان قصيا وصغير الحجم جغرافيا وسكانيا، فسوف يحول موقعه في ذلك البلد إلى نقطة حصينة يعاود منها زحفه على بقية بلدان العالم؟ هذه التساؤلات يجيب عنها تقرير بعنوان»فيروس كورونا والأمن الدولي: مخاطر وفرص» كتبه الخبير بشؤون التعاون الدولي آليستير هاريس، في أول مايو من العام 2020، ونشره المعهد الملكي للخدمات المتحدة RUSI (والخدمات هنا تعني الأسلحة الرئيسية الثلاثة: البرية والبحرية والجوية)، وقال فيه هاريس إن بوادر التعاطف الخلاقة في مجال التضامن الدولي في مواجهة فيروس كورونا هي بوادر تدعو للتفاؤل. و من أهم تلك البوادر جمع التبرعات، وإعادة صوغ المنظومات الصناعية على نحو يسمح لها بإنتاج تجهيزات الحماية الشخصية، والمساندة الواسعة النطاق للعاملين على خط المواجهة من الأطباء والممرضين وكوادر الرعاية الصحية الآخرين.

لكن الصورة – يقول هاريس – تبدو مختلفة في جنوب العالم حيث لا تظهر المبادرات الخلاقة والفاعلة في مجال التضامن الإنساني بالقوة والوضوح المميزين لها في شمال العالم. والمناطق الأكثر إثارة للقلق هي في البلدان الهشة والواقعة في قلب الصراعات المسلحة. ضمن هذا السياق تتوقع اللجنة الدولية للإنقاذ أن يموت بسبب كورونا في هذه البلدان قرابة الثلاثة ملايين ومئتي ألف بعد أن أضاف كوفيد- 19 خطرا قاتلا جديدا إلى الخطر القاتل للصراعات المسلحة والمشكلات السياسية والاقتصادية المعقدة. ويضرب هاريس مثلا على ذلك بما يجري في لبنان، كصورة واضحة لقدرة الجائحة على مفاقمة أخطار قديمة ومزمنة.

ويقول إننا إذا كنا لا نجد في الدوافع الإنسانية قوة محركة باتجاه العمل المشترك، لمساعدة بلدان مثل لبنان الذي تردت قيمة العملة فيه على نحو غير مسبوق وسقط أكثر من نصف سكانه تحت خط الفقر، فلنفعل ذلك بدافع من حرصنا على مصالحنا الخاصة. ولتوضيح ما يعنيه استشهد هاريس بما قاله الأمين العام للأمم المتحدة في إبريل 2020:" في عالم مترابط لا يمكن أن يكون أحدنا آمنا حتى يتحقق الأمن للباقين. كوفيد- 19 لايحترم الحدود الدولية. كوفيد- 19 في أي مكان هو خطرعلى الناس في كل مكان".

وبات بذلك أمام المجتمع الدولي بهيئاته الراهنة قائمة من المشكلات التي يتعين التعاون على إيجاد حلول لها. وتضم هذه القائمة: الأمن الدولي والوطني، من نواح تتجاوز الصحة العامة، مع زيادة المصاعب التي تواجه الدول وزيادة التنافس على الموارد والانهيارات الاقتصادية والهجرة غير النظامية والبطالة ومشكلات الحوكمة، ناهيك عن المخاطر التي تتهدد الديمقراطية، وحرية التعبير وحرية الوصول للمعلومات وغير ذلك من الأمور التي تنشأ عن إضفاء الطابع الأمني للاستجابات المختلفة للجائحة في كثير من دول العالم.

ويعتبر هاريس فشل المجتمع الدولي في التوصل إلى موقف جماعي من الأزمات المحتدمة في سوريا واليمن (ونضيف إلى ذلك العجز عن لجم الجموح الاستيطاني الإسرائيلي في الضفة الغربية والحصار المتواصل لقطاع غزة، وتصاعد التوترات في ليبيا) مؤشرا إلى موقف دولي أكثر سلبية بعد أن فرضت كورونا على كل دولة أن تنكفئ على أوضاعها الداخلية، تحت شعار"شعبنا أولا".

ويزيد من صعوبة التنسيق الدولي بخصوص كورونا القيود المفروضة على السفر وإجـراءات الإغلاق التي قد تبقى لعدة شهور مقبلة. وهذه الأوضاع تحد من القدرة على التشاور والتفاعل وتبادل الخبرات والإمداد بالأجهزة والمعدات وتنظيم برامج التدريب وتنمية القدرات والرصد. وبالوقت ذاته، فإن التراجع الاقتصادي والضغوط المحلية تعني أن من المحتمل أن تخضع مخصصات الأمن والتنمية الخارجيين لمزيد من الضغوط بهدف توجيه الموارد للوفاء بأولويات الوضع الداخلي.

ثانيا: الحضارة والحداثة والتقدم ...!

اهتز العالم عندما رأى عددا من دول أوروبا الغربية التي يمكن القول إنها صانعة العالم الحديث تترنح وتكاد تفقد توازنها تحت ضربات الجائحة. وشاع بين الناس القول بأن أوروبا هي مركز الجائحة. أهم الدول التي زلزلتها الجائحة هي دول الديمقراطية الليبرالية إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا وبريطانيا والسويد. وبالمقابل، تجد قدرة أعلى على مواجهة الجائحة في دول وسط وشرق أوروبا، حيث الديمقراطية الليبرالية لم تستقر منذ عودتها مطلع التسعينات؛ فبعد خروج هذه الدول من القفص الحديدي للاشتراكية السوفييتية، تصاعدت واشتبكت معه شوفينية تكاد تقف على حافة الفاشية، ولابد أن نتذكر أن الفاشية هي الاشتراكية الوطنية أو ما يمكن أن نسميه، بحكم الممارسات الفاشية الثابتة تاريخيا، الاشتراكية الشوفينية (le so-cialisme chauvin). فهل لعبت بقايا الزمن السوفييتي دورا في حماية هذه الدول من الآلام المضنية التي قاستها الديمقراطيات الليبرالية بسبب الجائحة ؟ وهل الحصانة النسبية ضد الوباء ترتبط بالشوفينية أم ببقايا آثار الدولتية l› étatisme الوثيقة الصلة بالقدرة العالية على الحشد والتعبئة la mobilisation في مواجهة الطوارئ المختلفة؟ ويشجع على النظر في هذا الاحتمال بقدر كبير من الجدية أن الصين هي في مقدم الدول التي واجهت، ولا تزال تواجه، خطر ظهور الجائحة ثم خطر موجتها الثانية المحتملة بالتجييش la régimentation وليس فقط بالحشد والتعبئة.

ومن حقنا أن نتساءل: هل بقيت صرامة الدول الأقدر على حشد مواطنيها وتحريك بيروقراطيتها لمواجهة الأزمة، سواء في شرق أوروبا أو في جنوب وشرق آسيا على تنوع نظمها السياسية، داخل الحدود التي لاغني عنها لتحقيق الانتصار على الجائحة أم نتجاوزها إلى حدود ما بعد النقد والتحليل المباح، وها هو دوريان مالوفيتس في صحيفة لا كروا (La Croix)، في الثاني من مارس من العام 2020، تندد بما اعتبره إجراءات قمعية طالت حتى الصحافيين الأجانب ومسلمي الإيغور وامتدت إلى هونغ كونغ الصينية.

النظم الليبرالية وغير الليبرالية في المواجهة

قارن الباحث برزيتشيتزين كرزيستوف من جامعة آدم ميكيفيتس البولندية ، في ورقة بحثية بعنوان"فيروس كورونا في البلدان الليبرالية وغير الليبرالية وأثر الجائحة على مستقبل العولمة" بين قدرة النظامين الديمقراطي الليبرالي والديمقراطي غير الليبرالي على مواجهة ظروف الجائحة.

وإن استعرضنا أداء الدولة في مواجهة وباء كوفيد19-، في الولايات المتحدة، وهي زعيمة الديمقراطية الليبرالية، أو في الصين، وهي زعيمة الديمقراطية غير

الليبرالية، أو في بلدان أقل غنى وتقدما –بكثير – من الاثنتين، ومنها بلد ذلك الرئيس الذي أقر بأن الوزراء هم سكرتيروه، فإن خطر الجائحة يطيح اليوم بكثير من الإدعاءات التي تزعم احتكارَ الغربِ الحضارةَ والحداثةَ والتقدم.

وقد تحدث كثيرون عن وهم الرأي العام، وهو ما يُفترض أنه المحصلة النهائية لحريات التفكير والتعبير، ولنزاهة وجدوى التعليم العام ومبادرات التثقيف الفردية والمؤسسية، والأداة الرسمية للتغيير، في البلدان الديمقراطية الليبرالية. لكن أهم من تحدثوا عن ذلك ربما كانا رجلين اثنين. أحدالرجلين هو فيلسوف أثينا القديم إفلاطون المتوفى قرب انتصاف القرن الرابع قبل الميلاد، في كتابه"جمهورية إفلاطون"؛ والثاني هو والتر ليبمان في كتابه"الرأي العامPublic Opinion" الذي نشر في العام 1921. ويُصَدِّر ليبمان كتابه بما نقله عن إفلاطون الذي يصف الناس المقيدين بالأغلال والممنوعين من النظر في أي اتجاه إلا في اتجاه حائط كهف يقفون في مدخله؛ وعلى حائط الكهف ظلال هؤلاء الناس وظلال كل من يتحرك وما يتحرك وراءهم. وقد رسمت الظلالَ نارٌ هائلة وراءهم. ولأن الناس لايرون غير الظلال فهم يظنون أنها الحقيقة.

ويرى ليبمان أن الرأي العام في القرن العشرين في الولايات المتحدة وفي الديمقراطيات الغربية، كما في النظم التي يشار إليها بمصطلح "الاستبداد الشرقي"، oriental despotism غارق في أوهامه، عبر القرون. ولكي تعرف مدى التضليل المسيطر على الديمقراطيات الغربية التي تزعم أنها تضع السلطات المدنية المنتخبة فوق السلطات العسكرية، فما عليك إلا أن تحصي عدد الرؤساء الأميركيين ذوي الخلفية العسكرية.

واليوم تضعف قدرة الولايات المتحدة على مواجهة فيروس كورونا لأسباب منها الخلافات بين الرئيس دونالد ترامب وبين من يعارضون توجهه لسحب القوات الأميركية من ميادين القتال بمثل ما أن هذه القدرة تضعف بسبب إدارته للمعركة ضد كورونا. لم تنجل المعركة بين ترامب وخصومه بعد، ولم نبتعد عنها بمسافة كافية لتكوين صورة واسعة وواضحة. لكن من المؤكد أن الصراعات المحتدمة داخل الولايات المتحدة وخارجها تضعف قدرة إدارتها على المواجهة. وبالتالي ترفع رصيد البلاد من الإصابات وترفع عدد من يموتون بسبب الجائحة. وفي خضم هذه الصراعات يهدد الرئيس معارضيه بقوة الجيش والحرس الوطني وتعفي المؤسسة العسكرية، عبر رموزها الحاليين والمتقاعدين، نفسها من أي مسؤولية يبدو أنها قد تترتب على تهديدات الرئيس.

ومن جهته يتحدث الرئيس عن خطر يطال مقام الرئاسة من الدولة العميقة وهو مصطلح ظهر في نهايات العصر العثماني عندما تبين أن أنصار الموروث العثماني شكلوا ما يشبه حكومة موازية لمقاومة التحديث الذي اعتبروه انصياعا لإرادة الغرب. فهل يمثل دونالد ترامب، على رغم أدائه الذي تشوبه عيوب لاتخفى على أحد، رؤية تمضي بالولايات المتحدة وبالعالم إلى آفاق جديدة، مضيئة كانت أو مظلمة؟ وهل يعد خصومه أعداء للتغيير بمثل ما كانت الدولة العميقة (derin devlet بالتركية) في أواخر الزمن العثماني تعبر عن أعداء التغيير؟ لا نعلم سوى أن هذه الخلافات العميقة في أقوى بلد في العالم أضرت كثيرا بقدرة النظام الدولي على مجابهة الخطر.

الصراع العالمي على الغذاء

ولا أدل على كفاءة – أو تراجع كفاءة – القوى الكبرى في قيادة المعركة ضد كوفيد- 19 من الإحصائيات التي تبين عدد من يقتلهم فيروس كورونا من كل مليون من السكان في تلك البلدان. ووفق ما بثه موقع يورو نيوز في الرابع عشر من يوليو من العام 2020، تجد أن الرقم بلغ 418 في الولايات المتحدة مقابل 3 في الصين و14 في إندونيسيا و15 في بنغلاديش. وسوف تلاحظ، على وجه العموم، ارتفاعا مذهلا في نسبة من تقتلهم الجائحة بين كل مليون من السكان في البلدان الغربية عموما : 844 في بلجيكا؛ 660 في المملكة المتحدة؛ 608 في إسبانيا؛ 578 في إيطاليا؛ 541 في السويد؛ 460 في فرنسا. ولاعلاقة لذلك بوقوع أوروبا في منطقة مناخية أبرد من بلدان مثل إندونيسيا وبنغلاديش وبلدان الشرق الأوسط. فمن يموتون من كل مليون في روسيا يبلغ عددهم 80 شخصا، وفي بولندا 42؛ وفي أوكرانيا 32؛ وفي اليابان8؛ وفي كوريا الجنوبية6. وفي كل هذه البلدان التي يتدنى فيها رقم من تقتلهم الجائحة، من كل مليون من السكان، تتمتع الدولة بقدرة عالية على الحشد وتقابل جماهيرها ذلك بقدر كبير من التعاون الطوعي.

ثالثا: الصراع العالمي على الغذاء

في الثاني عشر من مايو 2020 ألمح برنامج الأغذية العالمي التابع للأمم المتحدة أن قرابة سبعة وأربعين مليونا وستمئة ألف شخص فى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا سيعانون من الجوع بسبب فيروس كورونا المستجد، وأن أوضاع الأمن الغذائى فى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في ظل التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية ستتدهور، كما أن قلة المدخرات أو انعدامها وغياب إعانات للبطالة مع تقليص الإعانات الغذائية، هي عوامل تتضافر لجعل المشتغلين بوظائف غير مسجلة (العمالة غير الرسمية) غير قادرين هم وأسرهم على تحمل الإغلاق المستمر.

ونبَّه إلى أنه من الضروري الحفاظ على المساعدات الغذائية لأكثر من 23 مليون شخص في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في وقت يهدد الوباء بدفع المزيد من الأشخاص إلى الجوع.

ولفت التقرير إلى أن حوالي 23 مليون شخص يتلقون مساعدات غذائية تمثل الحد الأدنى لضمان البقاء وأكثر من ثلثيهم في اليمن وسوريا. ويتوقع أن الشرق الاوسط يستضيف مالا يقل عن 20 % من إجمالي من يعانون من انعدام الأمن الغذائي الحاد أو الاسوأ (المرحلة الثالثة من التصنيف العالمي).

وحذر برنامج الغذاء العالمي من أنه، وبعد سنوات من الصراع وعدم الاستقرار السياسى والمتاعب الاقتصادية في المنطقة، فإن العديد من البلدان في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أصبحت غير مجهزة للتعامل مع الوباء وتأثيره، كما أن معظم دول المنطقة هي مستورد للغذاء، حيث تنفق حوالي 110 مليارات من الدولارات على واردات الغذاء، ما يجعلها أقل قدرة على احتمال التضييق على التجارة وإغلاق الحدود.

كما أن ما يقارب أربعة ملايين من الأطفال في 11 دولة (مليون طفل في سوريا وحدها) لم يعودوا يتلقون الوجبات المدرسية لبرنامج الغذاء العالمي، وذلك بعد إغلاق المدارس في جميع أنحاء المنطقة جراء كورونا، منوها بأنها تقوم بتطبيق أليات بديلة في تسع دول من أصل 11 دولة وهو ما يشمل توفير حصص غذائية منزلية بدلا من الوجبات وتوصيل الطعام للمنزل وتوفير النقد أو القسائم .

وفي السادس والعشرين من الشهر ذاته، نقلت مجلة تايم الأميركية عن كبير الخبراء في برنامج الأغذية العالمي عارف حسين أن العالم يشهد أزمة غذائية غير مسبوقة، بسبب جائحة كورونا، التي أفقدت أعدادا كبيرة من السكان في مختلف قارات العالم وظائفهم وأربكت سلاسل الإمداد بالطعام. وحذرحسين من أن 265 مليون إنسان في هذا العالم مهددون بالجوع بسبب الجائحة، في العام 2020.

هذا الوضع لا يعني إن العالم لايعاني نقصا في إنتاج الغذاء، لكن إمدادات الغذاء تتراجع لأن المزارعين غير قادرين على أن يزرعوا في الموعد المناسب أو لأنهم لايتلقون المخصبات اللازمة وغيرها من المدخلات الضرورية بسبب التضييق على حركة النقل، محليا ودوليا، في مختلف قارات العالم. وأضاف» لهذا السبب يتعين ان نعالج شؤون الزراعة والأغذية بمثل ما نعالج به شؤون الرعاية الصحية» وأوضح أن المزارعين في بلاد مثل الهند أو الفلبين لازالوا يأنون تحت ثقل ضربات نزلت بهم بسبب قرارات الإغلاق.

غير أن البلدان التي منعت تصدير سلع غذائية رئيسية، في مراحل مختلفة من الجائحة، تتحمل مسؤولية هذا الوضع نتيجة الاسراف في فرض القيود والحواجز على التجارة في وقت أحوج ما تكون فيه الدول للتعاون والتنسيق فيما يتصل بالغذاء. وأضاف» لابد لنا من أن نعمل على أن لا تقيم الدول حواجز مصطنعة، مثل حظر التصدير، أو تقليص إعانات الاستيراد، وبخاصة في الظرف الراهن، الذي يشهد انخفاضا حادا في القوة الشرائية، لأن ذلك قد يؤدي لارتفاعات مصطنعة في الأسعار، ويخلق التسابق المحموم على الشراء» بهدف تخزين الأغذية الزائدة عن الحاجة لوقت الحاجة، في حين قد يكون هناك من يحتاج الغذاء الآن ولايقدر على شرائه لأن التكالب على التخزين أخلى الأسواق، أو لأن

ذلك التكالب جعل السلعة الغذائية فوق القدرة الشرائية لدى الكثيرين.

ومع إشتداد ذروة الجائحة في الثاني من يونيو عام 2020 طورت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية من برنامج الأغذية العالمي بخصوص الدول التي تعرقل حركة السلع الغذائية عبر الحدود، فأكدت على أنه «في ما لاتزال تأثيرات الجائحة تتكشف لنا، فما شهدناه حتى الآن يوضح لنا أهمية وجود بيئة تجارية عالمية مفتوحة ويمكن التنبؤ بتحولاتها لضمان وصول الغذاء لمن يحتاجونه. أخطر ما يتعرض له الأمن الغذائي من تهديدات ليس نقص الأغذية بل مدى قدرة المستهلكين على الوصول للغذاء: وشبكات السلامة ضرورية لتجنب زيادة عدد الجوعى وتجنب تفاقم انعدام الأمن الغذائي».

وكما بين بيتر والنستين في مقاله الكلاسيكي المنشور في العام 1974، فإن قرار حظر النفط العربي في العام 1973 لمساندة المحاربين العرب في مواجهة إسرائيل التي تحظى- دائما- بمساندة أطلسية لا مثيل لها، نبه العالم إلى أمرين اثنين: أن القوة المدمرة للأسلحة القتالية جعلت من الضروري التفكير بإجراءات سياسية واقتصادية لها قوة السلاح، وأن دول العالم الثالث التي لا تملك القدرة على اكتساب ما تريده من مستويات قوة التسلح، تفكر في الأسلحة السياسية والاقتصادية.

ولهذا، يقول والنستين، فكرت الولايات المتحدة، في العام 1974، في استخدام المنتجات الزراعية كسلاح تضغط به على من تشاء، وقال وزيرزراعتها إيرل باتز إن بلاده فعلت ذلك ، مقتدية بما فعلته دول النفط العربية. لكن بيتر والنستين يتجاهلان أن الولايات المتحدة عاقبت مصر(عندما كان اسمها الجمهورية العربية المتحدة)، مثلا، في العام 1964 بقطع إمدادات القمح عنها.

وإذا كان عارف حسين يخص بالذكر دولة بعينها هي روسيا، ملمحا إلى أنها تستخدم سلاح الصادرات الغذائية لأسباب تخصها في زمن الجائحة، فإن أقدر بلاد العالم على استخدام سلاح الغذاء ضد الآخرين هي أربع دول من الأعضاء الخمسة في المجموعة التي يشار لها باسم» تحالف الناطقين بالانكليزية» و الدول الأربع هي الولايات المتحدة وكندا واستراليا ونيوزيلندا، وإذا كانت الدولة الخامسة في هذه المجموعة، وهي بريطانيا، ليست مذكورة بين الدول الأقدر على استخدام الصادرات الزراعية كسلاح سياسي، فهي أكبر مستثمر في الولايات المتحدة، كما أن ملكتها إليزابيت الثانية هي ملكة كندا واستراليا ونيوزيلندا، وما ينطبق على نيوزيلندا ينطبق على البلدان الثلاثة الأخرى مع تغييرات تخص كل بلد، ولكن في إطار الملكية الدستورية البريطانية. وبالتالي يصعب على أحد أن يتصور أن استخدام أي دولة من هذه الدول للغذاء كسلاح سياسي يحدث بعيدا عن بريطانيا أو من غير تشاور معها.

التجارة الإلكترونية بعد كورونا

عندما دهمتنا جائحة كورونا وجدتنا جاهزين لاستقبالها بآليات التواصل عن بعد التي اشتغلت عليها الإنسانية منذ اختراع التلغراف ثم الهاتف الذي اكتسب قدرات غير مسبوقة بفضل الأقمار الصناعية وبفضل تطوير الحواسيب ثم ظهور الهواتف النقالة والانترنت. بفضل هذا كله صار بإمكاننا، منذ فترة كافية للتعود على أي ممارسة، أن نطلب كل ما نحتاجه ليأتينا حتى عتبات بيوتنا. وبوسعك أن تراقب اليوم أي مدير للوجستيات

في شركة كبرى لترى بنفسك كيف يتابع حركة البضائع من منطقة ما في الصين إلى الكويت أو إلى بوسطن أو سيدني، بالسهولة ذاتها، وإن بقدر أكبر من التدقيق والتفصيل، التي تطلب بها شطيرة أو كوب آيس كريم، من محل في مدينتك، أو تطلب فستانا لزوجتك أو كتابا لك أو لغيرك من أفراد الأسرة: من دبي، من باريس، من أنقرة ، أو من برلين.

وبرغم ذلك، فلا تزال التجارة الإلكترونية بالنسبة لكثير من الناس شيئاً جديدًا، ولكن في عصر المعلومات، يعد توجيه أنشطة الأعمال من خلال الإنترنت، وبالخصوص أعمال الشركات الصغيرة والمتوسطة التي ترغب في التنافس مع الشركات الكبرى، جزءًا لا يتجزأ من هيكل الانشطة التجارية لكل مؤسسة. ووفقا لمنظمة تكنولوجيا المعلومات، أعطت ثورة التجارة الإلكترونية الأمل للشركات الصغيرة لتكون قادرة على التجارة الى جانب الشركات الكبيرة. وهكذا صار من الضروري أن تصبح الشركات الصغيرة أعضاء في نظام التجارة الإلكترونية، وإلا فسوف تفقد قدرتها على البقاء في ساحة منافسة الاعمال. ويعد تبادل المعلومات اليكترونيا من أقدم وأهم الأدوات لتكامل الأنشطة التجارية.

ومن المثير للاهتمام أنه بسبب طبيعة التقييس المتناسق Standardization Coordination ، فإن تبادل المعلومات اليكترونيا يعد من أكثر تطبيقات التجارة الإلكترونية فائدةً وتقدماً اليوم. التبادل الإلكتروني للمعلومات EDI هو تبادل المعلومات التجارية في نمط قياسي بين أجهزة الكمبيوتر. في التبادل الإلكتروني للمعلومات، يتم تنظيم المعلومات حسب نمط محدد من قبل أطراف التبادل، ما يسمح لأجهزة الكمبيوتر بالتبادل دون الحاجة إلى أي تدخل بشري و إعادة إدخال المعلومات من قبل الطرفين غير ممكن. وتتحدد دواعي اللجوء للتبادل الاليكتروني للمعلومات على النحو التالي

- تقليل التبادل الورقي
- تقليل إعادة إدخال المعلومات
- السرعة والبساطة

ويبدو من الضروري أن نتوقف لنوضح أهمية التقييس المتناسق في عالم اليوم. ونجد ما يمكن اعتباره توضيحا كافيا لهذه المسألة على الموقع الحكومي الأميركي STANDARDS.GOV الذي يؤكد أن التقييس له أثره الملموس في تنشيط التجارة وتحفيز النمو الاقتصادي بقوة هذه المقاييس عندما يتم تنسيقها والالتزام بما ينتهي إليه التنسيق، وتطبيقه على نحو يتوافق مع السياسات والسياقات والإجراءات التي تقررها الحكومة في كل قطر من الأقطار. وبذلك تتحقق الأهداف التالية:

- تحسين وتوضيح التزام كل شركة بالسياسات الحكومية.
- البدء في نشاط تجاري وفق مقاييس جديدة أو تعزيز نشاط قائم بهذه المقاييس.
- إنشاء مشروع جديد وفق المقاييس الجديدة أو استخدام هذه المقاييس لتعزيز نشاط قائم.
- تعزيز برامج تقييم الالتزام.

وعموما، فالتسويق عبر الإنترنت هو جزء من التجارة الإلكترونية التي تشمل إدارة المعلومات والعلاقات العامة وخدمة العملاء وقسم المبيعات. وبشكل عام

أصبحت التجارة الإلكترونية والتسويق عبر الإنترنت شائعة منذ أن أصبح الإنترنت متاح على نطاق واسع لعامة الناس. في الوقت الحالي، يقوم أكثر من ثلث المستهلكين المنزليين في الولايات المتحدة وأجزاء كثيرة من أوروبا الذين يصلون إلى شبكة الإنترنت بإجراء عمليات الشراء الخاصة بهم عبر الإنترنت. هذه الطريقة فعالة أيضًا للشركات التي ترغب في توسيع أنشطتها من بعيد لتشمل ما يسمى بالتجارة الإنترنتية.

وتتصف عمليات التواصل والتفاعل التجارية أهمية قصوى في مجال التمويل، حيث تتمتع منصات التجارة الالكترونية بأهمية مركزية. وهذه المنصات هي برامج Software للحواسيب يمكن استخدامها لطلب منتوجات مالية، سواء تم ذلك مباشرة أو عبر وسيط مالي، قد يكون سمسارا أو بنكا تجاريا أو غير ذلك. وتشمل المنتوجات الأسهم والسندات والعملات والسلع والمشتقات المالية وغير ذلك. وتسمح تلك المنصات بتنفيذ عمليات الاتجار الاليكتروني من أي موقع كان، وهي تختلف عن ما تعرفه غرف التداول حيث يجري التعامل بالصياح وباستخدام الهواتف. وقد يشير مصطلح منصة التجارة الالكترونية للإشارة إلى Software الخاص بالمبادلات التجارية، فحسب. ويمكن استخدام هذه المنصات عبر الهاتف النقال وهي أيضا متاحة لويندوز windows وآي أو إس iOS وأندرويد Android.

وترتبط كل هذه الأمور بتوجه عام للابتعاد عن الإنسانوية HUMANISM كما نعرفها ونعيشها منذ ظهور النوع الإنساني، والاقتراب من الميكنة ومن أمور أخرى عرض لها فرانسيس فوكوياما في كتابه "المستقبل ما بعد الإنساني". بتعبير آخر، فقد تنشأ عن الجائحة الراهنة دفعة قوية باتجاه اللاإنسانوية، وهي نظرية ترى أن مفهومات "الإنسان" و"الإنساني"، و"الإنسانية" و "الإنسانوية" هي مفاهيم غير ذات قيمة، تاريخيا وأيديولوجيا وميتافيزيقيا!

شكل جديد من التنظيم الاجتماعي

وفي السابع من مايو من العام 2020 كتب رئيس قسم علم الاجتماع بجامعة اسكودار التركية البروفيسور ابلفيز سليمانلي مطالبا بالتحرر من المقاربات الإنسانوية كمحور لرؤيتنا للعالم ولتفاعلنا معه، وبخاصة فيما يتصل بالعلاقة بين الإنسان والطبيعة. ويتصل بهذا الرأي الذي يدلي به سليمانلي ما يقال عن أن سيادة الإنسان على الطبيعة تجاوزت ضرورات الحفاظ على توازنها،ولدرجة صارت تهدد بقاء النوع البشري. ويدعو القائلون بهذا الرأي إلى تجاوز فكرة مركزية الوجود الإنساني والنظر للبشر كبعض مكونات الطبيعة. وجهود حماية الغابات الاستوائية من عمليات الإزالة بهدف توسيع رقعة الأرض القابلة للزراعة، والحفاظ على الحيوانات البرية المهددة بالانقراض بسبب الصيد الجائر، والكائنات البرية المهددة بسبب الصيد الجائر، هي عمليات وثيقة الصلة بإنزال الإنسان، ولو قليلا عن القمة العالية التي ارتفعت به إلى حيث لا يوجد هواء كاف للتنفس. وبلغ الأمر ببعض العلماء أن نبهونا إلى أن الإنسان ليس، فقط، في حاجة للحيوانات والنباتات، كجيران وليس كمادة للاستهلاك، بل وفي حاجة للفيروسات.

وقد نشر المنتدى الاقتصادي الدولي، في نوفمبر من العام 2015 تقريرا بعنوان"هل الفيروسات ضرورة حيوية لوجودنا؟"، جاء فيه أن" 21 نوعا من الفيروسات(لم يكن بينها فيروس كورونا المستجد، فهل يتعين أن نزيد

الرقم؟)تتسبب بالهلاك للجسم البشري لا تمثل إلا أقلية ضئيلة بين مئة مليون نوع من الفيروسات الموجودة على الأرض. ومعظم الفيروسات ضرورية بشكل حيوي لوجودنا ذاته. ولايبدو أن أحدا ينحاز لهؤلاء الأخيار الذين يحافظون على تنوع النظم الطبيعية وعلى توازنها".

وبقدر ما يعلو صوت الداعين لالتحام النوع البشري بالطبيعة تقوى التوجهات ونظم العمل وطرائق العيش الانعزالية، بما فيها أساليب العمل وأساليب تمضية أوقات الفراغ. لكن سليمانلي يرى –وهو محق – أن العزلة التي فرضتها الجائحة على الإنسان غير مسبوقة، على الأقل من حيث درجة شدتها. وبسبب هذه العزلة فسوف تكون حياتنا أقل اتصالا بمبادراتنا. وبالتوازي مع هذه التحولات المحتملة، سوف يعاد ترتيب العلاقات الاجتماعية في كل مناحي الحياة. وحتى إن كانت هذه العزلة المفرطة أمرا موقوتا فسوف يبقى له أثره المحسوس على الحياة الاجتماعية في مختلف أنحاء الكوكب، بعد أن تعمق شعور كل فرد بأن كل فرد آخر قد يكون مصدر خطر قاتل، وإن كان أقرب الأقارب.

أننا في الطريق إلى شكل جديد من التنظيم المجتمعي. التباعد الإجباري يشكل وعيا فرديا جديدا وإرادة فردية جديدة، قد تترتب عليها، بمرور الوقت، صياغات جديدة للعزلة و/ أو للتضامن.

وقد لايكون من السهل على المجتمعات الشرقية التي تعطي أهمية – تفوق ما هو ملموس في مجتمعات أخرى – للعلاقات الاجتماعية القائمة على التقارب الفعلي بل وعلى التلامس الجسدي الاجتماعي. لكن من المرجح أن تصل كل المجتمعات، ومن بينها مجتمعات المشرق إلى حلول وسط بين ضرورات التباعد والمدونات الاجتماعية والدينية للتقارب بل وللاندماج. وهكذا فقد تنتقل عمليات التواصل الاجتماعي من المنازل والمقاهي والمنتديات المغلقة إلى الحدائق العامة والخاصة. وربما يختفي من هذه التجمعات ما كان يعرف باسم زميل العمل، فنحن مقبلون على زمن قد يتألف فيه فريق أداء كل مهمة من رجال ونساء يؤدي كل منهم دوره في تلك المهمة من موقع يبتعد آلاف الأميال عن مواقع شركائه فيها. فهل يبقى ما يعرف باسم الجار؟ هل تبقى قرابات الدم؟ لا أحد يعرف.

ولانعرف أيضا إن كان صحيحا أن تجربتنا مع التباعد الاجتماعي وما نشأ عنه من عزلة إجبارية ستجعلنا أكثر وعيا ببشاعة العزلة وأشد توقا للتفاعل الاجتماعي كما يقول بروفيسور سليمانلي في بحثه.

لقد عرضت «دويتش فيله» الألمانية، في الأسابيع الأولى من زمن الكورونا، برنامجا لاعلاقة له بالجائحة يتناول ظاهرة الهيكيكيموري hikikomori » وهي الميل للإنسحاب من المجتمع وتفضيل البقاء داخل مسكن منعزل. ويعرف المعالج النفساني الياباني تاماكي سايتو هذه المشكلة بأنها «حالة عقلية تحولت إلى مشكلة في أواخر العشرينات من القرن العشرين، وتتجسد في رغبة البقاء بالمنزل من دون انخراط في الحياة الاجتماعية لمدة قد تصل إلى ستة أشهر أو أكثر، وإن لم ترتبط بمشكلات نفسية أخرى، كمسبب للرغبة في العزلة».

وبمجرد مشاهدة ما عرضته «دويتش فيله» عن الهيكيكيموري يستعيد المرء ما تداولته وسائل الإعلام العالمية في سبعينات القرن العشرين عن جنود من الجيش الامبراطوري الياباني، بقوا مختبئين لعدة عقود داخل الأحراش، في عدد من البلدان التي اجتاحتها الجيوش اليابانية قبل أن تنسحب منها مهزومة تحت ضغوط

جيوش الحلفاء. وقد بقي الجنود حيث هم بعد استسلام اليابان وانتهاء الحرب لأنهم لم يتلقوا أوامر من قادتهم بمغادرة مواقعهم، واكتشف السكان وجودهم حين كان الجنود يتسللون إلى حيث يجدون طعاما يكفيهم قبل العودة مسرعين لمخابئهم. وكان الاعتقاد السائد في السبعينات أن تلك الظاهرة مرتبطة بثقافة الالتزام والانضباط الصارمة وتقديس الحاكم(وخصوصا امبراطور اليابان) عند شعوب شرق أسيا. لكن الحديث عن الهيكيكيموري يضيف بعدا جديدا لتلك الظاهرة: فهل الميل للعزلة أو القدرة الهائلة على احتمال عبئها النفسي الثقيل له علاقة بالتاوية والكونفوشيوسية، السائدتين في الصين واليابان؟ تقول جولي باوكر من جانعة نيويورك في بحث بعنوان"الانسحاب المبالغ فيه من المجتمع-يوليو 2019" إن ظاهرة الهيكيكيموري فردية نفسانية- اجتماعية ولا علاقة لها بالثقافة اليابانية.

ويبدو هذا الكلام مقنعا، لأن العالم عرف الرهبنة والانعزال عن المجتمع، كطقس تطهري في ديانات كثيرة. واليوم تبدو الانعزالية، تحت ضغوط الجائحة، وبقوة تقانات التواصل عن بعد، ومع تنامي ثقافة الفردانية، مصيرا قد تنحدر إليه البشرية أو شرائح واسعة منها في كل مجتمع من المجتمعات.

مُجتمعات «ما بعد كورونا» كمُجتمعاتٍ غاضِبة

كيف يُمكن أن أكتب سرديّةً تَصِفُ مُجتمعات ما بعد كورونا؟ إنّ هذا السؤال، كما هو جليّ، يطلب تفسيراً وتفكيكاً للوضْع البشريّ الذي يعيشه الإنسانُ المُعاصِر بوصفه كائناً «انتقاليّاً» أي كائناً يتميّز بفعل المرور «من.. إلى»، من الوضع الطبيعيّ إلى وضعٍ مُختلفٍ ومُغاير، من الأنظمة الدكتاتوريّة التسلّطيّة إلى الأنظمة الديمقراطيّة، من وضعيّة السِّلم إلى وضعيّة الثورة ومن حالة الصحّة إلى حالة الأوبئة والفيروسات.

السؤال المطروح هنا، هو كيف يُمكن أن أصوغ سرديّةً عن نفسي بوصفي كائناً انتقاليّاً، بوصفي كائناً مُتغيّراً لا يَحمل هويّةً ثابتة وتحكمه مجموعةٌ من الأوضاع المُتبدِّلة؟ هل يُمكن القول، مثلاً، إنّي كائنٌ ناجٍ من حرب الأوبئة؟ أو هل يُمكن وصفي بأنّي كائنٌ مُترقِّب للمرض والعِلاج في الوقت نفسه؟ هل أنا مثلاً حاملٌ لفيروسٍ وأنا قادِر على التعافي منه أو أنّي مريضٌ في انتظار الموت؟

هذه الأسئلة كلّها لم تكُن تؤرِق تفكير الإنسان التقليديّ، إلّا منذ دخوله مُنعرَجاً جديداً يُسمّيه المفكّر التونسي فتحي المسكيني «عصر الأوبئة». فقد دخلت الإنسانيّة مُنقلباً جديداً منذ سنة 1892 بعد ظهور مفهوم الفيروسات. وهي مرحلة يصفها المسكيني بمرحلة «الانقلاب في السياسات الوبائيّة الكبرى للحداثة»؛ إذ جرى الانتقال من عصر الأمراض التقليديّة إلى عصرِ الأمراض اللّامرئيّة، حيث فَرضت هذه الأوبئة نِظاماً جديداً على العالَم يُمكن ترجمته من خلال مُصطلحاتٍ من قبيل «العزْل»، «الحجْر الصحّي الإجباري»، «الإغلاق»، «حذْر التجوُّل»، «تطويق البؤر»، «فتْح/ إغلاق الحدود»... وهي كلّها مُصطلحات قد تحيلنا إلى مفهوم «الوحدة» بمعنى العُزلة، وهذا ما يجعلنا نَستحضر موقفَيْن الأوّل لجان بول سارتر عندما أَعلنَ أنّ «الجحيم هم الآخرون»، باعتبار أنّ الآخر أَصبح تهديداً لكينونتي بوصفه حاملاً للفيروس، ما يُدخل الإنسان المُعاصِر في وضعيّة «الخوف» و«الترقُّب»: الخوف من الغَير الذي أَصبح تهديداً لكياني، وترقُّب الإصابة بالمرض.

أمّا الموقف الثاني، فهو لفيكتور هيغو في مقولته «الجحيم كلّه يكمن في كلمة العزلة»، حيث يَفرض الوباء نَوعاً من الحجْر الإجباري. وعلى حدّ تعبير فتحي المسكيني، فإنّ مدينة «وهان» الصينيّة التي يزيد عمرها عن 3500 سنة، والتي هي من أكثر المُدن استقبالاً للطلبة، تحوَّلت إلى «جحيم ميتافيزيقي» وباتت شبه مُقفِرة.

ثنائيّة الخروج والبقاء

هذه الثنائيّةُ بين الخروج إلى العالَم و«البقاء في البيت»، بوصفه المُستَقرَّ ومَكان إقامتنا الدائم، أَدخلت الإنسانَ المُعاصِرَ في نَوعٍ من السرديّة التي تحكمها ثنائيّة «القلق» و«الغضب»، ولاسيّما أنّه كائن «يعاني» أو يرزَح تحت وطأة الضغط. ولمّا كان الضغط يولِّد الانفجار، بحسب قوانين الفيزياء، فإنّ تطبيق القانون الفيزيائي على المُجتمع يكشف لنا أنّ كلّ الثورات، ومنها مثلاً «ثورات الربيع العربي»، كانت نتيجة الضغط، وأنّ جائحة كورونا تَفرض نَوعاً من الضغط على الإنسان المُعاصِر: أوّلاً الضغط النفسي، حيث دَخلت مُجتمعاتٌ في حالةٍ من الاكتئاب الحادّ نتيجة خضوع الإنسان لأزمةٍ نفسيّة عميقة ناشئة عن الوضْع غير «الطبيعي أو غير العادي» الذي يحياه، ثانياً الضغْط المُتعلّق بالسوق، حيث أَدخل تراجُع التجارة والمُبادلات التجاريّة العالَم كلّه في ضيقٍ اقتصادي.

ما الذي نعنيه بالغضب؟

بناءً على ما تقدَّم، ترانا نسأل: ما الذي نعنيه بالغضب؟ وهل ثمّة آثار تاريخيّة لتحوُّل الإنسان إلى كائن غاضب؟ الغضب، بوصفه ردّ الفعل العنيف على فعلٍ ما، هو شعور مواكِب للإنسان. وتصوِّر لنا السرديّة التاريخيّة للإغريق، من خلال أشعار هيرودوت وهوميروس، مقدار الغضب الذي ارتبط بمجموعة من الآلهة المُجسِّدة للشرّ، مثل «موروس» إله الموت القاسي والدّمار، و«زيوس» كبير الآلهة والبشر، إله البرق والرعد والسماء وحاكِم قوى الطبيعة التي تُثير الخشية والخوف في المُواطن الإغريقي.

وتذكِّر أسطورة خلْق البشر بغضب «زيوس» الشديد من بروميثيوس بسبب هيامه بحبّ البشر إلى الحدّ الذي دَفعه إلى سرقة النار من جبل الأولمب من أجلهم، الأمر الذي أدّى إلى سخط «زيوس» وغضبه على البشر وأمره بشواء لَحمهم.

أمّا مُحاورة أفلاطون الفيدروس، التي تَدرس مسألة النَّفس البشريّة، فتُحيل على الصراع القائم بين النَّفس الغاضبة وتلك العاقلة، والمتمثِّلة بعربة ذات جوادَين أحدهما أبيض وثانيهما أسود، يحاول كلٌّ منهما الذهاب في الاتّجاه المُغايِر للآخر كتعبيرٍ رمزيّ عن صراع العاطفة مع العقل. فكلّما رزحَ الإنسانُ تحت وطأة المُعاناة، ازداد غَضباً ونقمة، لأنّ الغضب هو ردّة فعل عميقة تجاه مُحاولات استلاب إرادة الإنسان وحريّته. ألَم يغضب النبي موسى من شعبه في حادثة العجل الذهبي؟ «كَانَ عِنْدَمَا اقتَرَبَ إِلَى المحلَّةِ أَنَّهُ أَبْصَرَ الْعِجلَ وَالرَّقْصَ، فَحَمِيَ غَضَبُ مُوسَى وَطَرَحَ اللَّوحَينِ مِنْ يَدَيْهِ وَكَسَّرَهُمَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ (سفر الخروج 32 : 19)». ثمّ، أوَ لم تبدأ قصّة الخلْق من خطيئةٍ، ومن غضب الإله من «آدم» وطرده من جنّته؟

هذا كلّه يجعلنا نتساءل عن منشأ الغضب وطبيعته لدى الإنسان، فهل هو قائمٌ بالفطرة كما قال فرويد في كِتابه «قلق في الحضارة»، حيث رأى أنّ الإنسانَ ليس ذاك الكائن الطيِّب السَّمح الذي يُقال إنّه يُدافع عن نفسه

حينما يُهاجَم فحسب، وإنّما هو على خلاف ذلك، كائن تندرج العدوانيّة لديه بالضرورة وبقدرٍ لا يُستهان به، ضمن مُعطياته الغريزيّة؟ وهل الإنسان كائن خيِّر، لكنّ المُجتمع هو الذي أفسده مثلما ذهب إلى ذلك جان جاك روسّو؟

لعلّ الأمر الخطير يكمن في هذه الطاقة الغريزيّة المكبوتة التي نُحاول قمْعها في كلّ مرّة، بغية تحمُّل الأعباء والأثقال الكثيرة التي تواجهنا. وهو ما أثبتَتْهُ تجربة الحربَين العالَميّتَين وما يُثبته في وقتنا الرّاهن التدهورُ الذي أفضت إليه الثورات العربيّة وآثاره السلبيّة على الفرد العربي. فالعالَم على قاب قوسَين أو أدنى من «الانهيار»، حيث يشعر الفرد باستمرار بأنّه مُهدَّد وأنّه في خَطَر، بعدما بات الأمر غير متعلِّق بالحروب التقليديّة، بل بما يُمكن تسميته بـ«حروب التلقيح»، وحيث بات الذي يمتلك اللّقاح اليوم يمتلك سلطةَ إدارة العالَم. وكأنّنا بذلك نُخرِج مقولة «الشرّ» من سياقها الميتافيزيقي لوضْعها في سياقها الميكروسكوبي، بما أنّ الشرّ الذي يُرعب البشريّة اليوم، هو ذلك الكائن المُتناهي في الصغر الذي لا يُمكن أن تُدركه العَين المجرَّدة.

أيّ إنسان تصنعه الكورونا؟

يَصِفُ الفيلسوفُ الفرنسيّ المُعاصر ميشال أونفراي المُنتمي إلى فلاسفة «ما بعد الحداثة» الوضعَ المُترتِّب عن جائحة كورونا بعبارات من قبيل: «الانهيار»، «الانحدار»، «الانحطاط»، مُعتبراً أنّ الحضارة الغربيّة الآن، هي في حالة «هَرَم»، وأنّ ذلك هو من مَظاهر أفول الغرب. فهذا الوضع الذي يُنذر بالنهاية، لا ينطبق على الإنسان في العالَم الغربي فحسب، بل على الإنسان بصفة عامّة، وذلك عائد بحسب أونفراي إلى طريقة تعامُل «السلطة القائمة» وأجهزة الدولة مع الجائحة. من ذلك مثلاً عجْز هذه السلطات عن توفير الأقنعة أو المُعقّمات وإيجاد التلقيح و«ترْك المرضى يلفظون أنفاسهم الأخيرة أمام المُستشفيات»، وما يشير إليه كلّ ذلك من إعلانٍ عن موت الإنسانيّة.

وكلام أونفراي عن حضارةٍ تحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة يُحيل إلى مَوقف الفيلسوف الألماني شوبنهاور، أب الفلسفة التشاؤميّة، حينما قال ذات مرّة إنّنا كالحُملان التي تلهو في حقلٍ تحت أنظار الجزّار الذي ينتقي منها واحداً يليه آخر كفريسةٍ له. فنحن البشر، شأن هذه الحُملان، غير واعين بهَول المصير الذي ينتظرنا أمام حاضرٍ يتحكَّمُ فيه المرض والفقر والتشوُّه وفقدان البصر أو البصيرة. أصبح الإنسانُ كائناً في انتظار «الموت»، كائناً يفكِّر في الآخرة بدل التفكير في المُستقبل، كائناً يترقّب خائفاً وعدوانيّاً. غدا كائناً يستبدل بُعدَه الوجودي بالبُعد الاقتصادي. فها هُم تجّار الحروب يحتكرون بَيع الأدوية والأقنعة واللّقاحات مع تغليب جانب المنفعة على الجانب الإنساني، كإعلانٍ عن موت إنسانيّة الإنسان.

ثمّة مَن يذهب إلى القول إنّ مَهمّة الفلسفة تتمثّل في تأويل الأحداث والوقائع، وثمّة مَن اعتبرَ أنّ وظيفتها تتمثَّل هي إعادة إحياء الأمل وإخراج الإنسان من حالة يأسه وبؤسه بعكس شوبنهاور الذي اعتبر الأملَ نوعاً من الوهْم: «الأمل هو اختلاط الرغبة في الحصول على شيء ما مقابل احتماليّة حدوثه». ألَم يَقُل ألبير كامو أيضاً عن الأمل إنّه «فعل التضليل النموذجي»؟

في مطلق الأحوال نقول إنّ وظيفة الفلسفة اليوم تكمن في فضْح رداءة الواقع لكونها ضَرباً من التحقيق في الطبيعة الإنسانيّة، وذلك حتّى لا ينسى الإنسان

أنّه إنسان أوّلاً وآخـراً. فهي بهذا المعنى ضربٌ من إعادة البحث عن المعنى الأصلي لهذا الإنسان الأخير المُحتضِر، والذي يَرزح تحت وطأة الألم.

الروبوتات قادمة للسيطرة

العزلة التي تعمل الجائحة اليوم على تحويلها إلى أسلوب حياة عادية، يعززها العمل عن بعد، وإزدهار التجارة الاليكترونية، والمؤتمرات الافتراضية، والتواصل بين أقرب الأقربين عبر الشاشات باستخدام التطبيقات التي تتكاثر تكاثر الفطر بعد المطر. فهل يبلغ الأمر بنا أن يستغني احدنا عن الآخر برفاق من الإنسان الآلي؟

الروبوتات موجودة اليوم في عنابر المستشفيات وفي غيرها من المواقع، لأداء مهام لا يحب الناس القيام بهالأنها مملة أو قذرة أو خطيرة. لكن الروبوتات تجري برمجتها أيضا لأداء مهام أعقد من أن يؤديها البشر، وقد يرتقي هذا بحضارتنا لمستويات غير مسبوقة. أما عندما يبلغ الأمر أن يستغني الإنسان بالآلة عن رفيق / رفيقة من البشر فهذا نزول إلى قاع الوحدة الكئيبة.

والأرجـح هو أن يكون اقتحام الروبوت للحياة المنزلية، عموما، سواء في شكل خادم آلي أو ملاعب للأطفال يحل محل الدمى والعرائس أو الحيوانات الأليفة، سيأتي في مقام أدنى وفي نطاق أضيق من نطاقات أخرى ذات مردود اقتصادي وبيئي أهم. ويحدد أكشات جويل في تقرير لمجلة إنجينيرينغ Engineering البريطانية، نشر في مارس من العام 2019 عدة فضاءات في حياتنا اليومية يتوقع أن يحتل الروبوت مكانا فيها، في المستقبل المنظور:

- **القيادة الذاتية**

ولا يعني ذلك أن الروبوت سوف يقود السيارة بل يعني أن السيارة سوف يتم صنعها باعتبارها روبوتات مزودة بالذكاء الاصطناعي. والسيارة الذاتية القيادة متاحةحاليا في كثرة من المدن الأوروبية والأميركية. والقطارات والباصات وقطارات الترام مؤتمتة. وقد بدأت بعض الشركات تقديم سيارات القيادة الذاتية. وليس ببعيد ذلك اليوم الذي تختفي فيه وظيفة الإنسان السائق، وقد يؤدي ذلك لتراجع كبير في حوادث المرور.

- **الأمن والدفاع والمراقبة**

ترى مجلة انجيرينغ أن قيام الروبوت بمهام رجل الأمن والدفاع والمراقبة هو أمر عادي. فهو يرصد حالة منطقة معينة، ويبلغ المالك بأي متغيرات غير مرغوبة. وهذا النوع من الروبوتات مستخدم بالفعل لدى الجيوش، ويمكن استخدامه في الحياة اليومية للبشر العاديين، لمتابعة ما يحدث في منازلهم عند غيابهم عنها، وبوسع ملاك الروبوت أن يحركوه في كل اتجاه لازم لاستكمال مهام حماية المنزل.

- **الروبوت الطاهي**

بات مطلوب بشدة للعاملين والعاملات لإعفائهم من مهمة إعداد وجبة شهية وصحية من دون استعجال يدفعه إليه العمل لساعات طويلة في مكتب يمثل الذهاب إليه والعودة منه مشقة تضاف لمشقات نهار بالعمل المضني. وهناك روبوتات كثيرة قابلة للبرمجة للطهو وفق ما يختاره أو تختاره من يقتنيها. وفي الوقت الراهن توجد روبوتات تلتقط كامير اتها ما يفعله الطاهي وتكرر أداءه.

• الروبوت الطبي

بدأت غوغل وجونسون آند جونسون قبل فترة قصيرة مضت مشروعا مشتركا لإنتاج جهاز الروبوت الطبي. وكانت الروبوتات حتى وقت قريب تستخدم في العيادات كمساعدين طبيين، لكنها اليوم بسبيلها إلى أن تصبح جزءا لايتجزأ من العمل الطبي، وقد يأتي اليوم الذي تحل فيه الروبوتات محل الجراحين.

ويعمل المهندسون حاليا على إنتاج المايكرو روبوت micro robot وهو الروبوت المصغر المصمم لتنفيذ المهام البالغة الدقة و أيضا على إنتاج النانو روبوت nanorobot، وهو الروبوت متناهي الصغر الذي سيخدم الطبيب، مثلا، عندما يكون مريضه مصابا بالحمى، فيُدْخِلُ النانو روبوت في مجرى الدم ليحدد سبب الحمى ثم يتحرك داخل الجسم لاستكشاف حالة الأجهزة المكونة له ويحدد العلاج اللازم للمنطقة المعتلة والجرعات اللازمة له، تحديدا يساعد على تجنب كثير من الأعراض الجانبية.

• التربية

يشار اليوم إلى الروبوتات باعتبارها «تكنولوجيا عمومية الأغراض a General –Purpose Technology" ما يعني أنها تنطوي على قدرة إحداث تغيير شامل في البنى المجتمعية والاقتصادية. ولهذا فمن الطبيعي أن يناقَشَ دورُ الروبوتات التربوي.

ويقول موقع الجامعة الأميركية بيرديو(في ولاية انديانا) إن الروبوت يفيد في دمج التلاميذ في العملية التعليمية حين يتعذر عليهم حضور الدروس في الصف لأسباب مرضية عبر نظام مؤتمر الفيديو الداخلي الموجود في الروبوت، وبهذا تأتي المدرسة للتلميذ إن لم يستطع التلميذ أن يأتي للمدرسة. ونقول نحن إن هذا يعد تجاوزا للقاعدة التي أسس لها للمثل الروسي الشهير»إن لم يأت الجبل لخالد فإن خالداً يذهب للجبل»، وهو المثل الذي يشير لضرورة الخضوع لضرورات الواقع. فهنا يتجاوز الإنسان الواقع بنقل المدرسة إلى طفل لم يستطع(أو لم يرد) أن ينتقل هو إليها.

وهذا ينقلنا لما قاله آكشات جويل في تقريره الذي نشرته انجينيرينغ البريطانية من أن الأطفال المصابين بالتوحد يجدون في حضور الدروس في الصف صعوبة يعفيهم منها الروبوت. ولن تقف المسألة عند إراحة هؤلاء الأطفال من عناء تفاعل هم غير مؤهلين له بل يمضي الأمر لأبعد من ذلك لإكسابهم عادات اجتماعية تؤمن لهم تفاعلا أفضل مع من حولهم.

• صديق المستقبل

ليس مستغرباً علنية الدعوة إلى الاستعاضة بالروبوت عن صداقات يعجز البعض عن أن يضيء بها حياته. فالذكاء الاصطناعي يعطي الروبوتات القدرة على التصرف كأصدقاء، فهي ترصدك لتعرف ما تحبه وما لاتحبه، ولتفعل الأشياء التي توافق ميولك.

وعلى سبيل المثال، فقد أقيمت جنازة عسكرية لبومر وهو روبوت مكلف بالكشف عن القنابل والتصرف لإنهاء خطرها، وأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة تحية له، لأنه تميز، " بشخصيته الخاصة ولأنه أنقذ حياة كثير من أصدقائه في مواقف مختلفة". وفي كثير من البلدان الغربية يحدث أن يختار بعض الناس الروبوت كشريك حياة.

- **أداء مهام في المنزل**

رغم إن الروبوتات التي يمكن أن تقوم بمهام منزلية لم تظهر بعد لكن من المتوقع أن تظهر في المستقبل المنظور روبوتات تعنى بالحيوانات الأليفة في غياب أصحابها؛ وترصد صاحب البيت لتعرف متى يذهب للحمام ومتى يتناول وجباته الغذائية وغير ذلك وتجهز له ما تتطلبه هذه الأمور في الموعد المناسب. ويمكن أن تساعد الروبوتات في الغسيل،وتنظيف المطبخ والمراحيض. كما يمكن للروبوتات الآن الرد على الهاتف. لكن المشكلة الآن هي أن كلفة الروبوت أعلى من أن تجعلها جزءا من حياة الناس العاديين، على هذا النحو، لكن هذا النمط سيأتي حتماً.

- **إعفاء البشر من المهام الخطيرة**

وهذا يعني تكليف الروبوتات بوظائف مثل لحام المعادن؛ وللتفتيش على أنابيب النفط(وهو ما تفعله شركات النفط حاليا بما لديها من روبوتات)؛ ولبث القنابل وإزالتها، ولتنظيف المفاعلات النووية من المخلفات المشعة؛ وتستخدم الروبوتات في أعمال الإطفاء؛ وفي تنظيف المجارير.

- **محاربة الجريمة**

لا ينكر أحد أن التكنولوجيا الحديثة ساهمت كثيرا في الحفاظ على السلم الاجتماعي خصوصاً بعد أن يتم التوسع في توظيف واستخدام الروبوتات في محاربة الجريمة. ومن الأمثلة على ذلك:

تصنع نايتسكوب Knightscope في سيليكون فالي روبوتات تقوم بدوريات حراسة لمراكز التسوق والمجمعات السكنية. وتوجد روبوتات للكشف عن من يحملون أسلحة هي روبوتات K1؛ وبوسع روبوتات K7 أن تقوم بدوريات في الأراضي الوعرة والرملية والمستنقعات والمناطق المغطاة بالقاذورات؛ وتعد الطائرات بدون طيار روبوتات يشغلها بشر.

هذا الحضور المتزايد للآلة في حياتنا، يختلف عن تزايد اعتماد الإنسان على الآلة على مر العصور. التاريخ يتحول بقوة التحولات التكنولوجية على مر العصور. يتجادل الكثيرون حول التطورات التقنية التي كانت وراء الثورة الفرنسية. يذكر البعض النظام المتري ويقول آخرون إنه تطور المدفعية والأسلحة النارية، ويشير أعداء الثورة إلى المقصلة. لكن المؤكد، كما ذكر إيريك سيلبين في كتاب" الثورة والتمرد والمقاومة" أن الثورة الصناعية في انكلترا في القرن السابع عشر، بكل ما ترتب عليها من تطورات تقنية واجتماعية وسياسية، هي أم الثورة الفرنسية. وبالتالي فيمكننا القول إن تقنية استخدام الماء والبخار لتوليد الطاقة هي التي صنعت العالم الحديث، لأنها صنعت الثورة الصناعية الانكليزية ومن ثم الفرنسية.

فلماذا الثورة الفرنسية؟ لأن فرنسيس فوكوياما يحيلنا، في كتابه"مستقبلنا ما بعد الإنساني" على ما قاله فريدريك نيتشة من أن التاريخ انتهى في العام 1806 الذي شهد تثبيت الامبراطور نابليون لمبادئ الثورة بانتصاره في معركة يينا، وهي المبادئ التي بقيت بعد ذهاب نابليون بل وحتى بعد قيام النظامين النازي ثم الشيوعي اللذين هددا هذه المبادئ ثم ذهبا وبقيت مبادئها الديمقراطية ديانة تسود معظم أرجاء العالم اليوم، ولازالت تواصل انتشارها في ما بقي من أرجائه.

لكن ما يحدث في الولايات المتحدة، وما تدفع

جائحة كورونا باتجاهه من تعزيز لسلطات الدولة الوطنية، وبخاصة في ما يتصل بالرقابة والرصد والتتبع لوقف انتشا رالعدوى، كل هذا يثير الشكوك بخصوص نهاية التاريخ الذي ألقى بعصا الترحال على بوابة الحكم البرلماني.

لكن فوكوياما يعود فيقول إن التاريخ لايمكن أن ينتهي إلا إذا انتهى التفكير العلمي. ونقول نحن، ما دام الابتكار التكنولوجي متواصلا فالتاريخ يمضي بلا نهاية؛ إلى أي مدى؟ والمشكلة هي أن تواصل تطور التكنولوجيا يضع الإنسان على حافة الصراع مع الآلة، وخاصة عندما نتحدث عن الإنسان والإنسان الآلي(الروبوت). فعن أي إنسان نتحدث عن الإنسان الطبيعي أم عن السايبورغ، أم عن علاقة الكيان الإنساني بما هو خارج الجسد على وجه العموم؟

الجسد ما بعد الإنساني

في كتاب «الأجساد الثقافية»الذي يضم مساهمات لعديد من الباحثين، وترجمه أسامة الغزولي(2004)، نجد فكرة أساسية تعالجها كل المساهمات، وهي أن الجسد، في أي لحظة من لحظات العمر، ليس مجرد نبت طبيعي بل هو نتاج تفاعل بين النبت الطبيعي(أو شبه الطبيعي، بالنسبة لأطفال الأنابيب، على الأقل) وبين الظروف المحيطة بالإنسان منذ أمسك بعصا، أو منذ نشأت علاقة خاصة بين قدم الراقص البدائي والأرض التي يدب فوقها، قبل آلاف السنين.

ويتحدث الكتاب عن جسد الإنسان المعاصر وعلاقته بما حوله، مشيرا إلى أن «إدغام الجسد في اللاجسد هو مشروع لإعادة اكتشاف القيم الأساسية في عالم مميكن» ليصل إلى «الجسد ما بعد الإنساني» قائلا إن «لاختلاط الجسد باللاجسد اسمه العصري المألوف – السايبورغ»، فهل أنت إنسان عادي، سواء كنت بين من جاؤوا لعالمنا عبر التلقيح الصناعي أو ضمن أطفال الأنابيب أم غير ذلك – أم أنك سايبورغ؟

السايبورغ هو كل إنسان دخل في جسده مكون صناعي بغرض استعادة ما فقده من مكونات جسمه أو ما تدهو أداؤه من هذه المكونات(كضرس أوركبة أو ذراع أو عدسة عين من العينين أو منظم لضربات القلب). والسايبورغ ليس سوى مرحلة من تداخل العضوي مع غير العضوي، وهناك أشكال أخرى من التداخل يهمنا منها هنا التداخل الذي يحدث في مجال الروبوتات الحيوية biorobotics ، وهو علم يجمع بين الهندسة الحيوية الطبية والسبرنيطيقا وصناعة الروبوتات بهدف صوغ تكنولوجيات جديدة تحقق التكامل بين النظم البيولوجية والميكانيكية وصولا إلى كفاءة أعلى للاتصالات ولتغيير البيانات الجينية وتخليق آلات تحاكي النظم البيولوجية.

وحين نتحدث عن الجسد ما بعد الإنساني فنحن نقصد الإشارة إلى أمرين اثنين: أن الكيان البشري لم ينفصل أبدا عن محيطه المادي ولم يكف عن التفاعل معه عبر العصور. والأمر الثاني هو أن هذا التفاعل يغير، على الدوام، من طبيعة الكيان البشري. وقد بلغ هذا التغيير مرحلة فارقة حين بدأ «إدغام الجسد في اللاجسد» يتخذ صورة غير مسبوقة بدخول أجزاء مثل العدسة الصناعية أو منظم نبضات القلب أو السيليكون المستخدم للتجميل في مواضع من الجسد أعمق وأخطر من ضرس تالف أو ركبة معطوبة.

فهل ينهي هذا الذي قلناه الوحشة بين الإنسان والروبوت؟ يضع إسبن أوسترغارد، في مدونة معنية

بهذا الموضوع وهي «الروبوتات العالمية-UNIVER SAL ROBOTS"، إطارا عمليا للعلاقة بين الإنسان والروبوت، في تقرير نشرته في مارس 2016 محاولا الإجابة على التساؤل: هل يحل الروبوت محل العامل البشري؟ ويرى أوسترغارد أن السؤال خاطئ لأنه يضع الإنسان في مواجهة الآلة ولايضعها بجواره أو يضعه بجوارها. وهو يعتبر أن السؤال ليس جديدا، لأنه بدأ مع بدايات الثورة الصناعية الرابعة. فما هي الثورة الصناعية الرابعة؟

الإجابة الدقيقة وفق موقع المنتدى الاقتصادي العالمي، يحدد الثورة الأولى بأنها تلك التي انطلقت من انكلترا باستخدام طاقة الفحم والبخار لميكنة الإنتاج. أما الثورة الصناعية الثانية فاستخدمت الطاقة الكهربية لأغراض الإنتاج الكبير. واستخدمت الثالثة الاليكترونيات وتكنولوجيا المعلومات لأتمتة الإنتاج. والآن تبني الرابعة على الثالثة، والرابعة هي الثورة الرقمية التي تدور رحاها منذ انتصاف القرن العشرين. وتتميز هذه الثورة بمزج بين التكنولوجيات، عى نحو يموه على الخط الفاصل بين المادي والرقمي والبيولوجي.

لهذا يتوقع أن يبلغ عدد وحدات الروبوت المبيعة عالميا، بنهاية العام 2018 أربعمائة ألفاً؛ وما جرى على أرض الواقع تجاوز هذا الرقم باثنين وعشرين ألف وحدة، أي بحوالي خمسة بالمئة، ما يشير إلى قابلية الاعتماد على الروبوت وأنه سيثور على الواقع وسيدخل كل نواحي الحياة مما تجعل الكاتب متمكناً من موضوعه.

ولتبيان العلاقة بين العمالة البشرية وعمالة الروبوت، وبخاصة في البلدان الأكثر استخداما للروبوتات في العام 2016، يذكر أن كوريا الجنوبية تستخدم 478 روبوتا مقابل كل عشرة آلاف عامل، وفي ألمانيا ينزل رقم الروبوتات إلى 292. لكن تقريرا للبنك الدولي في فبراير من العام 2020 رفع عدد الروبوتات في كوريا الجنوبية، أكثر بلدان العالم استخداما لها، إلى 631 روبوتا مقابل كل عشرة آلاف عامل، ورفعه موقع التجارة والاستثمار في ألمانيا إلى 309 مقابل كل عشرة آلاف في ألمانيا. وهذا يعني أن طبيعة سوق العمل يشهد تحولات لصالح الآلة على حساب اليد العاملة البشرية. وقد وصف تقرير البنك الدولي هذه التحولات بأنها disruptive وهي صفة تعني القطيعة مع نظام سبق وقد تنطوي على اضطراب.

وهذا يعيدنا لماقاله أنطون تشيخوف، الذي عرضنا له من قبل، عن حلم الإنسان بوقت فراغ أطول يمكن تخصيصه للثقافة الراقية وللتواصل مع الذات ومع الأهل ومع الطبيعة، وهو الحلم الذي قد يحققه تناقص ساعات العمل والعمل عن بعد. لكن الإنسانية عندما ظنت أنها كانت تقترب من هذا الحلم بتقليل الجهد المبذول في العمل، عبر الميكنة ثم الأتمتة ثم الذكاء الاصطناعي، انتبهت –فقط – إلى تأثير قوة واحدة محركة لهذه التحولات وهي قوة قانون الحد الأدنى من الجهد La loi du moindre effort ولم تنتبه للقوة الأخرى وهي قوة رأس المال الساعي دوما لتعظيم الربح عبر تقليص الكلفة. صحيح أن قانون الحد الأدنى من الجهد/ الطاقة يعظم الربح بتقليل الجهد لكنه يتداخل مع الراحة والهناءة في حين لايعنى رأس المال إلا بالربح، ولو على حساب الأوضاع الاجتماعية والمالية والصحية والنفسية.

الحكومات والروبوت

هناك واقع يفرض على البشرية كما هو حال جائحة كورونا وهذا هو حال التكنولوجيا الذكية وما تحمله

العناية بجهاز المناعة

في طياتها وهذا ما حذرتنا منه بوليتيكو الأميركية من أن التكنولوجيا تمضي بنا إلى تحولات قد تكون أعنف وأكثر إثـارة للاضطراب من كل ما عرفته الحضارة الإنسانية على مدى تاريخها الطويل (المثقل، أصلا، بالاضطرابات والآلام). صحبت الاضطرابات الثورة الصناعية الأولى بما أحدثته من انتقال مركز التجمع البشري من القرية للمدينة، ومن الزراعة للصناعة، وتعدلت المؤسات والقوانين بغرض السيطرة على آثار هذه التحولات، وما صحبها من شغب واحتجاج وتظاهر وإضراب واعتصام وتهديد.

وظهرت الأيديولوجيات الشيوعية والنازية الفاشية وقامت الحروب ولجأت الحكومات لإجـراءات استهدفت السيطرة على هذه الاضطرابات من معسكرات اعتقال لمزارع جماعية وإلغاءات للملكية الخاصة في بلدان مثل الصين وروسيا، ولم يبدأ الاستقرار إلا بعد فترة طويلة تلت الحرب العالمية الثانية، ونَعِم بها الغني والفقير، في العالم الصناعي. ولم يشهد نصف القرن الأخير، بحسب بوليتيكو، تحولات ثورية بمعنى الكلمة: العربات صارت أسرع والتلفزيونات مسطحة بدرجة أكبر لكن الحواسيب والانترنت لم تحدث من التحولات ما يجعل أميركيا من ستينات القرن العشرين يشعر بغرابتها. لكن الذكاء الاصطناعي يوشك أن يمضي بنا لتحولات ثورية بالمعنى الذي عشناه قبل مئة وخمسين سنة. سوف تمتلئ شوارع مدننا وقرانا بسيارات من دون سائق، وسوف تحل الروبوتات التي ينطق كل واحد منها بأكثر من لغة محل موظفي خدمة

العملاء، وسوف تتولى الخوارزميات، التي تستوعب كل ما يصدر عنا من بيانات لاحصر لها، تنظيم كافة أمورنا، من وضعنا الصحي وتطوراته اليومية لمحتويات البراد(الثلاجة المنزلية).

وتستشهد بوليتيكو بما قالته منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية من أن 10% من الوظائف في البلدان المتقدمة اقتصاديا مهددة بالاختفاء بسبب الأتمتة. لكن خبراء من أكسفورد يتوقعون أن يرتفع معدل الوظائف المهددة بالاختفاءإلى 50%. وأيا كان المعدل الأقرب للتحقق فعشرات الملايين من الأسر مهددة بالفقر والتشرد. وينبه أحد عمالقة سيليكون فالي وهو إيلون ماسك إلى ضرورة تقرير حد أدنى من الدخل لكل مواطن، فيما يطالب عملاق آخر هو بيل غيتس بفرض ضرائب على الروبوتات لتمويل برامج لرعاية من فقدوا وظائفهم.

لكن هذه التحولات لها جوانب إيجابية لأن أتمتة مهام معينة في المجال الطبي سوف تخفض كلفة العلاج ويرتقي بمستواها الفني ويجعلها متاحة لأعداد هائلة من البشر، وإن كان ذلك سوف يكلف المجتمعات فقدان ملايين من مواطنيها لوظائفهم.

ولعل هذا ما يفسر توجه الرئيس الأميركي دونالد ترامب للتركيز على استعادة الوظائف التي ضاعت، بأكثر من التركيز على خفض ساعات العمل. ولم يكن ترامب يمزح حين قال»سأكون أكبر رئيس خالق لفرص العمل بين كل من خلقهم الله من الرؤساء». وسوف تحتاج حكومات العالم، على تباين درجات التقدم في بلدانها، إلى التوسع في عمليات إعادة التوزيع، وإلى زيادة المعونات المباشرة لأعداد من المواطنين تتزايد مع تقدم الأتمتة وتراجع حجم قوة العمل.

لكن الأزمات آتية لا محالة: كيف سيقضي الناس أوقاتهم وأية أهداف سيسعون وراءهـا بعد تضاؤل واختفاء فرص العمل؟ ومن سيتحمل عبء مساعدة من لايعمل، وكيف ستكون العلاقة بين المستفيد العاطل وبين المفيد الناشط؟

ولكن من الممكن أن تزدهر وتنتشر حركات اجتماعية عقلانية وقادرة على دفع الحكومات، في الولايات المتحدة وغيرها من الديمقراطيات، لتنفيذ الإصلاحات اللازمة. ومثل ذلك حدث في الثورة الصناعية الأولى عندما أجبر الإصلاحيون الحكومات على الحد من عمالة الأطفال وعلى تنظيم توزيع الإعانات للفقراء وترقية الخدمات الصحية وزيادة الكفاءات المؤهلة للعمل والحد من تفشي الإفراط في الكحوليات وتوسيع حق الانتخاب والاهتمام بحقوق الإنسان. وفي العصر الحالي قد يكون المطلوب هو تأمين حد أدنى للدخل، يسمح لمن لاعمل لديهم بالانخراط في أنشطة اجتماعية تطوعية تفيد المجتمع. ولايقل عن ذلك أهمية ضرورة التحول، نسبيا، عن الثقافة الفردانية السائدة إلى ثقافة مجتمعية تضامنية.

ولكن قد يحدث أمـر آخـر؛ إن فشلت النظم الديمقراطية القائمة في الغرب في تحويل مسار المجتمع باتجاه ثقافة التضامن بمؤسساتها وممارساتها، فقد تزيحها وتحل محلها نظم سلطوية مستبدة، تعيد ما عرفه الغرب الصناعي في مطالع الثورة الصناعية عندما سعت الدول إلى سحق النقابات والاتحادات العمالية ثم عندما ظهرت الفاشية والشيوعية. وقد تدفع الاضطرابات المتوقعة، بسبب اختفاء الوظائف وتزايد أعداد العاطلين إلى مساندة شعبية لحكم صارم و حاسم بأمل أن يتغلب على عناصر الفوضى التي ستنشأ بسبب

مساعدة الثورة الرقمية أصحاب العمل على الاستغناء عن عشرات الملايين من العاملين. وقد لا يتغلب ذلك الحكم على عناصر الفوضى لكنه قد يكون أقدر على السيطرة عليها واحتواء خطرها. وتاريخ التكنولوجيا حافل بشواهد على أن تقدم التكنولوجيا يؤمن، في كل عصر، وسائل قمع وترويع غير مسبوقة.

وإن فشلت الديمقراطيات ثم فشلت الفاشيات، فلن يكون هناك مهرب من ظهور الدولة الفاشلة حتى في الغرب الصناعي. وهنا تظهر النزعات الانفصالية، وبخاصة في الأقاليم التي تكثر فيها موارد الثروة التي تعيش عليها الأمة بمختلف أقاليمها، وعندئذ يصبح خطر الحرب الأهلية ماثلا. وهذه تجربة قبيحة سبق وأن عاشتها الولايات المتحدة وقد تتكرر مستقبلا في ولاية مثل كاليفورنيا.

وقد تفضي اضطرابات كهذه، وبخاصة إن تسببت بحرب أهلية، إلى ثورة. وإن توصل ملايين الشباب الذين سيطردهم الروبوت وتطورات تكنولوجية أخرى من سوق العمل إلى صوغ أيديولوجية ثورية جديدة يحصد ممثلوها أصواتا كافية في الانتخابات، وإن صادف هؤلاء الثوريون الشباب من العسكريين من يؤمن بهم ويتبنى أيديولوجيتهم، فالثورة لن تكون بعيدة.

كما أنه مع تزايد استخدام الروبوتات قد يساهم فيه الحرص على التباعد الاجتماعي لتجنب العدوى؛ وتفاقم التناقضات الاجتماعية بسبب الوظائف التي ستختفي نتيجة هذا الحذر ما قد يهز النظام الاجتماعي؛ وأهمية الحشد والتجييش لضمان التزام الناس بقواعد توقي العدوى التي حتماً تعلي من أسهم السلطويين ودعاة الاستبداد؛ والخوف من الغرباء الحاملين لكل شر، في كل زمان، وشر هذا الزمان هو فيروس كوفيد19- الذي فيما يمهد لشوفينية تقترب بالمجتمعات من الفاشية؛ والتصاعد المحتمل للخطاب الشعبوي في عواصم متباعدة ومتباينة من حيث التجربة التاريخية مثل واشنطن ووارسو: كل هذا قد يمضي بنا نحو عالم أكثر استبدادا.

حرب البقاء... الروبوت أم الإنسان

الرؤية المتشائمة للتأثير المحتمل لتصاعد معدلات الأتمتة وللدور المتنامي للروبوت، حتى في الحياة الخاصة، هي رؤية لابد من أخذها بعين الاعتبار. لكن في المقابل هناك رؤى أكثر تفاؤلا، أكثر ثقة بقدرة الإنسان على السيطرة على الآلة، وأكثر إيماناً بالتنبيه لارتباط ذلك باقتراب انتصار كوني للمجتمع الشمولي. يطرح هذه الرؤية ديفيد نيميث في الفصل الرابع من كتابه «الإنسان ينتصر على الآلة». ويصل نيميث إلى خلاصة مؤداها أن سلوكيات الإنسان المتحضر، منذ بدأت الحضارة، وحتى اليوم تبرر وصفه بأنه أحمق أو قرد عار، ستبلغ حماقاته تلك نهايتها بحلول العام 2100، عندما تنشأ يوتوبيا(دولة السعادة المنشودة) بسيطرة تامة من الإنسان على الآلة وعلى الطبيعة، معا، عبر سيطرة شمولية من الدولة على الإنسان وعلى سلوكياته، وبخاصة ما يتصل منها بالاستهلاك الذي يخل بالتوازن الطبيعي والذي تسبب بتحولات في المناخ وضعت مستقبل النوع البشري على المحك. وعندها تتحقق السعادة. متى؟ عندما ينتصر الإنسان على الآلة بتحويل المجتمع، في كل دولة من الدول، إلى آلة كبيرة تديرها النخبة الحاكمة.

ونرى أن ما يقوله نيميث يعيد للذاكرة صور المواطنين السعداء الضاحكين، في الخمسينات والستينات، في بلدان المنظومة السوفييتية التي حولت كل مجتمع تحت

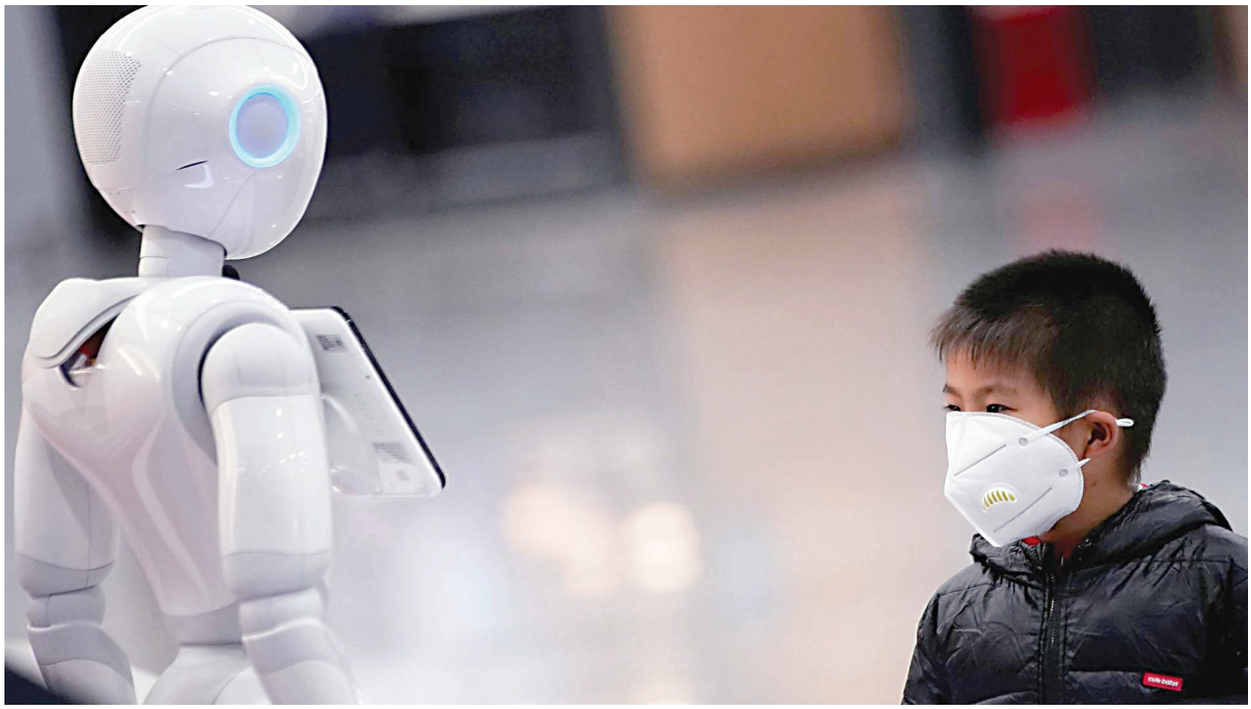

مستقبل الروبوت

سيطرتها إلى آلة يديرها قادة الحزب والبيروقراطية الحكومية. لكن الخمسينات والستينات، والفترة الممتدة حتى حرب أكتوبر العربية – الإسرائيلية الشهيرة وارتفاع أسعار النفط، كانت سعيدة حتى في البلدان الديمقراطية الليبرالية، وهي السنوات التي أسماها المؤرخ البريطاني السكندري المولد إيريك هوبزبوم «السنوات الذهبية» في تاريخ الرأسمالية العالمية، وذلك في كتابه الشهير «عصر التطرفات». وعندما انتهت أسباب الرفاه الذي تحقق آنذاك (وبالأحرى عندما تسببت سلوكيات الرفاه في التحولات التي فاقمت الأزمات المجتمعية والبيئية والاقتصادية، تداعت الامبراطورية السوفيتية، وانتقل تركيز النخبة المثقفة في العالم من الصراعات الطبقية، بمكوناتها الاجتماعية – الاقتصادية إلى جدل سياسي حول علاقة الإنسان بالطبيعة». ولا أدل على هذا التحول، في الثمانينات من القرن الماضي، من ظهور زعيم الحركة الطلابية اليساري في فرنسا دانييل كوهين بنديت، في البرلمان الأوروبي ممثلا لألمانيا، كقيادي في حركة الخضر، وكذلك ظهور آل غور كنائب للرئيس الأميركي بيل كلينتون.

لكن تحذيرات المدافعين عن البيئة لم توقف البشرية، في عصرها الاستهلاكي الراهن، عن الاقتراب من العالم المعتم، الذي قد يحول الأرض إلى كوكب غير صالح للسكنى. هذا العالم المعتم ربما كان فيروس كوفيد- 19، ذلك الكائن البالغ الضعف، يفتح أبوابه الآن ويدخل بنا إلى مجاهله.

وأسوأ ما قيل لنا، ثم تكرر قوله، منذ بداية هذه الجائحة أمران:

- أن المضادات الحيوية لا تفيد في منع الإصابة بكوفيد- 19 أو في معالجة من أصيبوا به. المضادات

الحيوية تعمل ضد البكتيريا فقط، ولاتعمل ضد الفيروسات، وبالتالي فهي، فيما يتصل بفيروس كوفيد- 19، غير صالحة للوقاية أو للعلاج. ولكن من يدخل المستشفيات للعلاج من هذا الفيروس قد يتلقى علاجا بمضادات حيوية لمقاومة العدوى البكتيرية المصاحبة. صحيح أن هذا القول ينطبق على الانفلونزا بمثل ما ينطبق على كورونا، لكن الكلام القديم تصبح له أصداء مرعبة في أجواء الظلمة العميقة.

- لا وجود لعلاجات يمكنها تحقيق الوقاية من العدوى بفيروس كوفيد- 19 أو العلاج منه. لكن من يصابون بعدوى هذا الفيروس يتعين أن يتلقوا الرعاية الملائمة لتخفيف الأعراض والتخلص منها، ومن تكون حالتهم المرضية شديدة يجب أن يتلقوا عناية مكثفة. ويجري التحقق حاليا من جدوى علاجات معينة، وسوف تُخْتَبَر هذه العلاجات، ضمن جهود تبذل في مختلف أنحاء العالم.

إنقلاب الحياة

بالرغم من آثار جائحة كورونا وقسوة أضرارها، لكن من أحد فوائدها أنها ستجبر الكثير من الدول والحكومات على التعاون والتضامن فالعلاقات الدولية بعد كوفيد – 19 كما يقول جوشوا بوسبي، أحد كتاب الموقع E-INTERNATIONAL RELATIONS المعني بالشؤون الدولية، في تقرير نشره بتاريخ 26 إبريل من العام 2020 إن ظهور فيروس كورونا المستجد في العام 2019 يمكن أن يكون الحدث الأبعد أثرا على مجريات الحياة في مطلع القرن الواحد والعشرين، بما سيحدثه من انقلاب شامل في الحياة العصرية وفي العولمة وفي العلاقات بين بلدان العالم. جائحة الكورونا طالت ملايين الأشخاص وأودت بحياة الملايين أيضاً ولازال العدد يتزايد. وهو ما سيكون تأثيرها على النظام الدولي برمته.

يستشهد بوسبي بما جاء في كتاب"الإنسان والدولة والحرب" لكينيث وولتز(1959) من أن العالم تسوده فوضى منشؤها غياب حكومة عالمية،ولهذا فقد تضطر الدول أن تعتمد على نفسها في مواجهة أخطار مثل خطر فيروس كورونا. لكن دعاة الليبرالية الجديدة أوضحوا لنا – حتى قبل أن تنفجر بوجوهنا هذه الجائحة – أن بعض الأخطار تخلق طلبا عالميا على التعاون لاستحالة مواجهتها بمعزل عن الآخرين. الاعتماد المتبادل الذي ينشأ عن السفر والتجارة، عن حركة البضائع والبشر يجعل الجميع معرضين لفيروس كورونا ويجعل الاحتياج للتعاون أكثر إلحاحا. فقدرة العالم المعاصر – المترابط على نحو تكاد تستحيل الرجعة عنه – على مقاومة الجائحة تتقرر في ضوء قدرة أضعف دوله على المقاومة، لأن طرق الاتصال مفتوحة، ولابد أن تبقى كذلك، بين الأقدر على المقاومة والأقل قدرة عليها في هذا العالم. إضافة إلى ذلك فدول العالم لا تستطيع أي منها مواجهة الجائحة بالاعتماد على إنتاجها المحلي وحده. وسلاسل الإمداد الدولية المتكاملة تعني أن هذه الدول تعتمد على الواردات من الإمدادات الطبية، والكمامات و الأقنعة ومواد الصيدلة والآلات.

ومن محاسن الصدف أن التعاون في مجالات الصحة العامة هو الظاهرة الأكثر تناقضا مع حالة الفوضى التي تعم العالم، ومرد ذلك إلى المكاسب الهائلة في المجالين الصحي والاقتصادي التي تتحقق بهذا التعاون. وقد وجدت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي نفسيهما يتعاونان، بل ويسعى كل منهما لإثبات أنه الأكثر استعدادا للتعاون، عندما واجه العالم

جائحة الجدري في زمن الحرب الباردة. وينقل موقع المنتدى الاقتصادي العالمي –قبل جائحة كورونا بعامين – ما قاله مساعد كبير المسؤولين الطبيين في الولايات المتحدة جيمس وات للباحث في مركز الأمراض المعدية هندرسن، بحسب ما جاء في مسلسل "المهمة المستحيلة Missiom Impossible" المتلفز، من أن" مهمتك هي اقتلاع عدو قتل من البشر أكثر من ما قتلت حربان عالميتان. سوف تكون لديك موازنة هزيلة، وسيعمل معك فريق صغير، وإن فشلت، فسوف يدعي الوزير أن لاعلم له بما كنت تفعل". ويضيف موقع المنتدى العالمي إن هذه الكلمات ليست دقيقة، لكنها تعطي صورة صحيحة عن الموقف ضد العدو الرهيب في ذلك الوقت، وهو مرض الجدري في العام 1966. وفي تلك الظروف ساعد التعاون بين الأميركيين والسوفييت على الانتصار على العدو.

والحالة الأقرب إلى زماننا هي تلك التي حققت فيها الإنسانية نجاحا ملحوظا حين قادت الولايات المتحدة حملة دولية لمكافحة مرض نقص المناعة المكتسب/ إيدز بدأت إبان رئاسة جورج دبليو بوش. وقد بقيت الولايات المتحدة بقرابة العشرين عاما الممول الرئيسي لجهود مكافحة ذلك المرض المعدي، عبر برامج للتعاون الثنائي، وعبر الخطة الرئاسية للطوارئ، وكذلك عبر مساهمات الولايات المتحدة في الصندوق الدولي المتعدد الأطراف لمكافحة الإيدز، والتدرن الرئوي، والملاريا.

لكن تراجع القدرة الأميركية على الهيمنة دفعت بكثير من دارسي العلاقات الدولية إلى أثر ذلك على التعاون الدولي. فمع تعدد أقطاب النشاط الاقتصادي العالمي يصبح المهيمن السابق أقل استعدادا وأقل قدرة على تأمين المساندة المطلوبة. وقد لا يكون القطب الذي يصعد ليحتل موقعها(على الأقل في المرحلة الانتقالية التي تسبق الاعتراف به قطبا أول) مستعدا لتحمل تبعات دورها. ويزداد الأمر تعقيدا بسبب ارتباط التراجع النسبي في أهمية الدور الأميركي بصدامات ومواجهات داخلية تعاني منها الولايات المتحدة.

وقد ذكرت نيويورك تايمز، في إبريل 2020، إن أزمة كوفيد – 19 هي أول أزمة دولية لا يتطلع العالم فيها إلى الولايات المتحدة متوقعا منها دورا قياديا في مواجهة الجائحة". ويستبعد بوسبي أن يكون تردد الولايات المتحدة راجعا إلى عيب بنيوي، لأنها لاتزال الأغنى بين دول العالم، ولأنها أكثر من غيرها تأثرا بإيجابيات أو سلبيات قد تنشأ عن التعاون في مواجهة الأزمة أو عن التقاعس إزاءها. وما يقوله بوسبي ليس دقيقا، فالعيب بنيوي يتصل بأمور بينها سلطات واسعة لرئيس الجمهورية أوضحنا أنها موروثة عن النظام السياسي الملكي في بريطانيا في صوره الأقدم، التي تجاوزها الزمن، والتي غطت على عيوبها المسافة الهائلة، التي لم يعد لها وجود، بين ثروة الولايات المتحدة وثروة قوى عالمية منافسة تمثلها اليوم كيانات مثل الصين والهند والاتحاد الأوروبي.

لكن الأمل اليوم معقود على ما يدعوه بوسبي "السخاء التنافسي" بين الولايات المتحدة والصين، وهو ما يدعوه يانزونغ هوانغ في مجلس العلاقات الخارجية "دبلوماسية الكمامات" مشيرا إلى جهود الصين لمساعدة كثير من دول العالم على مواجهة الجائحة. وما يهتم به بوسبي وهوانغ هو التأكد من الطرف الذي سيستفيد من الأزمة في إثبات جدارته بزعامة العالم، ما يدفع بوسبي(ربما لتعزية من يتخوفون من تحولات

التاريخ) إلى القول بأن بعض ما تقدمه الصين من معدات طبية غير صالح وقد يرتد عليها ذلك بتأثير معاكس. وقد ظهرت أنانية الدول في مواجهة أزمة فاجأت عالما ليس مستعدا لها، في محاولة الرئيس دونالد ترامب إقناع العلماء بأن يخصوا الولايات المتحدة ومواطنيها، قبل غيرهم بأي لقاح يتوصلون إليه.

خطر الكثافة السكانية

الكثافة السكانية حول العالم برزت كأحد أهم الدروس، وعن مخاطر الكثافة السكانية في ظل جائحة كوفيد- 19» كتب أستاذ الفلسفة، بمدرسة البيئة الكونية المستدامة، بجامعة ولاية كولورادو بالولايات المتحدة، فيليب كافارو يقول إن بعض المختصين بالبيئة أعربوا، في السنوات الأخيرة، عن اعتقادهم بأن تزايد كثافة السكان هو الأمر الذي لاغنى عنه لتخليق مجتمعات مستدامة. ورد كافارو على ذلك الطرح بالقول إن جائحة كورونا أثبتت خطأه. فتزايد الكثافة لا يصح أن يكون بديلا عن الحد من أعداد السكان أو من الضغوط على الموارد الطبيعية، لأنه في هذه الحالة يتسبب بتدهور بيئي. وكما يحدث دائما: يدفع الفقراء والكائنات غير البشرية ثمن هذا الخطأ.

وما يقوله كافارو، حتى هذه النقطة، يتعلق بالكثافة السكانية وليس بأعداد السكان. فهو يدعو لتقليل الكثافة وليس للحد من أعداد البشر.

ثم يمضي كفارو بالتأكيد على حتمية أن الجائحة قد تعلم سكان الكوكب عدة دروس مفيدة تتصل بالبيئة. أول هذه الدروس هي أن تحويل الكائنات البرية إلى سلع تجارية، وبيعها في الأسواق الرطبة wet markets ، وهي أسواق لحوم الحيوانات والطيور والأسماك، هو أمر غير صحي، وتترتب عليه كوارث وبائية. والدرس الثاني هو ضرورة احترام الحدود بين الدول، لحماية الصحة العامة واستقرار حياة المواطنين. والدرس الثالث يتعلق بالجانب الضار في العولمة، فبعد الانكفاء على الذات، بسبب العولمة تراجع النشاط الاقتصادي، لكن الأسماك ظهرت في قنوات فينيسيا وصار بوسع الناي في نيودلهي، مرة أخرى، أن يروا قمم الهيمالايا، وتراجع الضباب المشبع بالدخان smog في لوس أنجلوس.

لكن الدرس الأهم هو أن الكثافة ليست حالة مناسبة للبيئة، ومع ظهور فيروس كوفيد- 19 لم تعد الكثافة مجرد أمر مزعج بل صارت أمرا قاتلا. ولم تكن مصادفة أن أول ظهور للفيروس كان في ووهان الصينية، وهي مدينة عملاقة زاد عدد سكانها من مليونين ونصف المليون في العام 1980 إلى 11 مليونا اليوم. ولأن الزحام يجعل من الصعب الالتزام بالتباعد الاجتماعي اللازم لتجنب الرذاذ عن السعال والعطس والكحة، وهو ناقل المرض، فقد عزل الأثرياء في مدن كثيفة السكان مثل نيويورك وباريس أنفسهم بالارتحال إلى منازلهم الريفية المنعزلة. فماذا يفعل الفقراء، المقيمون، عادة في أكثر الأحياء ازدحاما؟

ولايذكر كافارو تقليل أعداد السكان ضمن الدروس المستفادة من الجائحة. لكنه يصبح أكثر اقترابا من هذه الفكرة في الخلاصة التي توصل إليها بأن الكثافة المرتفعة ليست حلا لمعضلة البيئة المستدامة. فالكثافة المرتفعة تأتي معها بمزيد من الأضرار وبمزيد من المشكلات، بأكثر مما تأتي به من الحلول. والحل هو أن نستعيض عن ذلك بالحد من أعدادنا وبالحد من استهلاكنا، حتى يتيسر لنا أن نتشارك مع الأنواع غير البشرية ومع بعضنا

البعض، وعلى نحو سخي، في سكنى الأرض وفي استغلال مواردها. فلنتخل عن الكثافة. ولنتعلم من هذه الجائحة المروعة لنبدأ بإحداث التحولات التي لابد منها لمستقبل أفضل.

هذا الطرح الذي قد يبدو أنه يحبذ تقليل أعداد السكانdepopulation، بقدر من الموارية، يكتسب أهميته من ظهوره على موقع جامعة أميركية لها مكانتها وبقلم أستاذ بارز من أساتذتها.

هل حقاً «كورونا» مؤامرة كونية؟

من يتحدثون عن جائحة كوفيد- 19 باعتبارها ثمرة مؤامرة كونية لتقليل السكان على ظهر الأرض، وتقليل عدد سكان قارة إفريقيا قبل غيرهم، تلميحات يركز معظمهم على بيل غيتس الذي تبرع بمبالغ هائلة لمكافحة الجائحة. وتردد في عدد من التقارير أن بيل غيتس صار مستهدفا، وبأكثر من جورج سوروس، من قبل المروجين لما يدعى نظرية المؤامرة وهي تسمية يقصد بها كل تفسير للأحداث والظواهر بناء على تكهنات لايقوم عليها دليل، وبأسلوب هجومي متشكك، يغلب الاحتمالات المبطنة على الشواهد الظاهرة، ليبحث داخل كل فعل عن نقيضه الخفي(المزعوم) وتحت كل تصرف عن غاية معاكسة للغاية المعلنة له. وقد كان جورج سورس هدفا لمثل هذه الهجمات والتشكيكات منذ أزمة النقد التي ضربت النمور الآسيوية في العام 1997. ويبدو أن بيل غيتس هو الذي حل محله.

بلغ الأمر أن اعتبر رجل الدين المسيحي المتشدد والمثير للجدل أدم فارنون أن بيل غيتس هو المسيح الدجال، قائلا» يخبرنا الإنجيل أن الدجال the An-tichrist آت، وهو رجل يزعم أنه هو الرب! وسوف يحاول أن يوحد العالم بحكومة واحدة، ونظام مالي عالمي واحد، وسوف يؤسس ديانة عالمية واحدة". ويعارض هذا الكاهن الذي يعيش ويعمل في فلوريدا الأميركية حركة إنتاج اللقاحات التي يعد غيتس أبرز رموزها. ويتهمه بأنه المسيح الدجال ويزعم أن اللقاحات المرتقبة محشوة بكيماويات ضارة وبأجزاء من أجنة جرى إجهاضها، وأن الغرض من استخدامها هو تحقيق خطة ينسبها – من دون دليل – إلى بيل غيتس قائلا إنها تستهدف تقليل عدد سكان الكوكب. وهذا ليس سوى استمرار لحملة يتعرض لها غيتس منذ عشر سنوات، ولا يقوم على ادعاءاتها دليل.

لكن العالم يتحدث منذ فترة طويلة عن"مذكرة الأمن القومي البحثية حول تأثيرات النمو السكاني في العالم على أمن الولايات المتحدة وعلى مصالحها وراء البحار". وقد انتهى مجلس الأمن القومي الأميركي من هذه الدراسة في ديسمبر من العام 1975 تحت إشراف هنري كيسنجر. و تبنى الرئيس جيرالد فورد الخلاصات التي انتهت إليها الدراسة واعتبرت تلك الخلاصات،من ذلك الحين، جزءا من السياسة الرسمية الأميركية. وظلت هذه الدراسة وثيقة سرية حتى رفعت عنها السرية وصارت متاحة للباحثين في مطالع التسعينات.

وضعت المذكرة التزايد السكاني في البلدان الأقل تقدما LDCs ضمن الشواغل الأمنية لدى صانع القرار الأميركي بدعوى أنها يمكن أن تتسبب باضطرابات سياسية داخل تلك البلدان قد تنشأ عنها مشكلات تعترض تطورها الاقتصادي. ومن هذه الزاوية اكتسبت التدابير المتصلة بتنظيم السكان وبالترويج لاستخدام موانع الحمل أهمية أمنية قصوى، في علاقة الولايات المتحدة بثلاثة عشربلدا، بهدف السيطرة على النمو

السريع في أعداد سكانها، على اعتبار أن معدلات النمو السكاني السريع تمثل خطرا على تلك البلدان وعلى المصالح الوطنية الأميركية التي لاغنى عنها عن استيراد الموارد الطبيعية منها، بقدر ما تمثل خطرا سياسيا على استقرار تلك البلدان التي لاغنى للولايات المتحدة عن تمتين العلاقات معها.

وأوصت المذكرة بأن تسعى الولايات المتحدة إلى "التأثير على قادة تلك البلدان" وبالسعي إلى تأمين مساندة عالمية لجهود ضبط نمو السكان" عبر الميديا وغيرها من وسائط الترويج للأفكار، مثل المناهج المدرسية أو برامج التحفيز التي تشتغل عليها الأمم المتحدة ووكالة الاستعلامات الأميركية والوكالة الأميركية للتنمية الدولية. وحددت المذكرة الدول المستهدفة بتلك المساعي بأنها: الهند وبنغلاديش وباكستان وإندونيسيا وتايلند والفلبين وتركيا ونيجيريا ومصر وإثيوبيا والمكسيك وكولومبيا والبرازيل، متوقعة أن تمثل أعداد السكان نسبة هائلة من سكان الكوكب. وطرحت المذكرة أيضا إمكانية النظر في أن تقرر الولايات المتحدة سياسية تفضيلية تخص البلدان الأكثر استجابة لسياسات ضبط النمو السكاني بحصة أكبر من المساعدات الغذائية.

وقبل طرح قراءتنا لهذه المذكرة نورد النص التالي، الـوارد على الصفحة رقم 56من الوثيقة التي لازال مكتوبا أسفل كل صفحة من صفحاتها المنشورة على الانترنت كلمة" سري":

يبدو مفهوما، على نحو جيد، أن تأثيرات العوامل السكانية على الموضوعات التي سبق النظر فيها – التنمية، الاحتياجات الغذائية، الموارد، البيئة – لها تأثير سلبي على رفاه وتقدم البلدان التي نهتم بها كأصدقاء وبالتالي فإن لها تأثيرا سلبيا غير مباشر على المصالح الأميركية الأوسع، بالقدر ذاته.

هنا نجد أسس الهيمنة الأميركية الحريصة على إدارة شؤون بلدان العالم وفق مصالحها. لكن عبارة "المصالح الأميركية الأوسع" تكتسب أهمية خاصة عندما نجد في فقرة تالية إشارة إلى"أنشطة خارجية ضارة". وهذه إشارة للتحركات السوفييتية التي كانت أهم شواغل صانع القرار إبان الحرب الباردة. وبالتالي، فمنطق هذه المذكرة هو منطق الحرب الباردة التي انتهت قبل ثلاثة عقود. لكن ما يدعى "نظرية المؤامرة" لا يلقي بالا للتحولات التاريخية ويعالج الأمم والحضارات باعتبارها معطيات ثابتة. وهذا غير صحيح.

وبعيدا عن هذا التحليل النظري، فيمكننا ببساطة، أن ننظر إلى أعداد السكان في ثلاثة بلدان هي تركيا ومصر وإيران، وهي بلدان تتنوع علاقاتها بالولايات المتحدة بين قوية وأقل قوة وضعيفة، وإلى مستوى النمو الاقتصادي فيها. فماذا نجد؟ يتضح أنها كلها تضخمت سكانيا وزاد إجمالي الناتج المحلي فيها. ففي العام 1975 كان عدد سكان تركيا يزيد قليلا على 39 مليونا ونصف المليون، وتجده في العام 2019 يزيد قليلا على اثنين وثمانين مليونا؛ وكان عدد سكان مصر في العام 1975 الذي صدرت فيه المذكرة يزيد قليلا على 38 مليونا ونصف المليون نسمة، وهو اليوم يزيد على المئة مليون. وكان عدد سكان إيران في العام 1975 أكثر من 37 مليونا واقترب في العام 2019 من 83 مليونا. وإن نظرنا إلى مستويات النمو الاقتصادي في البلدان الثلاث فسوف نجد أنه في العام 1975 كان إجمالي الناتج المحلي التركي 44 مليارا 63 مليونا من الدولارات،

وارتفع في العام 2019 إلى 755 مليارا؛ وارتفع إجمالي الناتج المحلي المصري من 11مليارا و63 مليونا في العام 1975إلى 251 مليارا في العام 2019. وبلغ إجمال الناتج المحلي في إيران 51 مليارا و78 مليونافي العام 1975وارتفع إلى 463 مليارافي العام 2019.

فما الذي يعنيه هذا يعني أنه حتى في زمن هيمنة واشنطن الذي يتوقع الكثيرون اليوم له أن ينتهي، لم تكن السياسات السكانية الأميركية، ولا السياسات الأميركية إجمالا، العامل الحاسم الوحيد أو الأقوى في تقرير مصائر الأمم، وأن نظريات المؤامرة لاتصلح لفهم التحولات التاريخية.

هذا بالنسبة للسياسة الدولية، فماذا عن الوضع الداخلي في كل دولة وطنية على حدة؟ في الثامن إبريل من العام 2020 ناقش أستاذ العلاقات الدولية بجامعة لندن الدكتور فواز جرجس والمترجم أسامة الغزولي، في برنامج "عالم الكتب" على إذاعة بي بي سي العربية تداعيات وباء كورونا على النظام العالمي الذي بزغ مع نهاية الحرب الباردة، في ضوء ما جاء في كتاب الباحث الدانماركي يورغ سورنسن، الصادر عن سلسلة عالم المعرفة بعنوان» إعادة النظر في النظام الدولي الجديد». وفي ذلك البرنامج حذر الدكتور جرجس من تراجع العولمة لصالح مزيد من تنامي قوة كل دولة وطنية على حدة ولصالح التباعد بين مختلف دول العالم.

وفيما يخص الأوضـاع الداخلية توقع الدكتور جرجس تراجع الديمقراطية وتصاعد الشمولية في كافة بلدان العالم، وإن بدرجات أخرى نطالع تقريرا يعالج احتمالات تصاعد الشمولية على موقع سيفتيد sifted الذي يلقى الدعم من فاينانشيال تايمز والمعني بالجيل الجديد من أصحاب المشروعات التجارية، وعلاقة الموقع بالفاينانشيال تايمز وبالمشروعات التجارية الناشئة هما دليلان على منطلقاته الليبرالية. كتبت التقرير الصحافية ماري ماواد، مشيرة إلى أن أفق أوروبا تتجمع فيه الآن، وبسبب كوفيد- 19 الغيوم الداكنة التي صنعت أجواء رواية"1984" التي نشرها جورج أورويل في العام 1949وصارت العمل الأدبي الأكثر اتصالا بالدولة الشمولية التي توقع لها أن تكون النمط السائد في العام 1984. وعندما نشر أورويل روايته هذه كان الشائع بين مثقفي العالم أنه يقصد بها الدولة الشمولية السوفييتية.

وكان من يعملون مع الخبراء السوفييت المدنيين والعسكريين يلاحظون أنه عند مناقشة بعض الأمور مع سوفييتي ذي موقع متدن يجدونه، أحيانا، يتلفت حوله ليتيقن من أن رؤساءه أو المكلفين بالرقابة من السوفييت لا يسمعونه، قبل أن يدلي برأيه في مسألة ما. وعندها كان بعض المصريين يعلق على تخوفات ذلك السوفييتي البسيط بعبارة: الأخ الكبير يراقبك، وهي العبارة المفتاح في رواية أورويل.

ويروي موظف بسيط سافر للعمل في ليبيا، في السبعينات، كيف أنه أرسل خطابا إلى أهله في بلده الأصلي، بعد تسلمه وظيفته في ليبيا، يبلغهم فيها بسعادته بالوظيفة وبالعلاقات بينه وبين زملائه وجيرانه من ليبيين ووافدين. وأضاف الموظف البسيط: عندما تكتبون إلي ردكم، تحدثوا في كل شئ ما عدا السياسة. لا أريد أي إشارة إلى أمر من أمور السياسة. وأودع الرجل خطابه صندوق بريد. لكن الخطاب لم يغادر ليبيا.

تلقفت الاستخبارات الليبية الخطاب واستدعت الوافد العربي البسيط لتسأله : ماهي أمور السياسة التي تحرص على التكتم عليها؟ وكان السؤال بداية جلسات

تعذيب انتهت بطرده من ليبيا. وحين روى تلك الحكاية لبعض المثقفين من أهل وطنه، كان تعليقهم: الأخ الكبير يراقبك. عبارة أورويل كانت، برأيهم، تبدو أكثر انطباقا على الأخ العقيد.

مستقبل الأجيال

ترى ماري مـاواد أنه حري بالعالم أن يدعو كوفيد- 19 باسم آخر هو «كوفيد- 1984». حيث أن الشمولية تتصاعد انطلاقا من الاهتمام المتصاعد بتتبع الدولة لتحركات كل فرد من رعاياها لمعرفة من اختلط بهم ومَن مِن هؤلاء نقل إليه عدوى ومن منهم ينقل عنه العدوى ولمن. وهكذا فالدولة في الغرب تتخلى عن احترام الخصوصية، وهو من لوازم المحافظة على سلامة وكرامة المواطن. وما تفعله الدولة في الغرب يصبح تصرفا معياريا ينتقل لبقية بلدان العالم.

وتعطي الابتكارات التكنولوجية قوة دفع لتوجه الحكومات نحو اختراق كل الحواجز لرصد وتتبع مسارات تفشي الفيروس. وقد أشرنا فيما سبق للعامل المكلف بمتابعة الاتصالات contact tracer في الولايات المتحدة وقلنا إن مهمة هذا الموظف هو الاتصال هاتفيا بالشخص الذي يحتمل أن يكون أصيب بالفيروس للترتيب لإجراء اختبارات له. وليست هذه الوظيفة إلا بداية لاقتحام الدولة خصوصيات المواطن وتتبعها لتحركاته واتصالاته ومقابلاته وحالته الصحية. وتقول مارواد إن هيئة الخدمات الصحية الوطنية في بريطانيا تستعين بشركة أميركية لتكنولوجيا الاتصالات اشتهرت بعلاقتها الوثيقة بوكالات الاستخبارات الحكومية الأميركية.

وبالمقابل، تقول ماواد، تجمع بعض كبار الخبراء في تكنولوجيا الاتصالات، في مختلف بلدان أوروبا، وقـرروا العمل من أجل وقف تحويل الحرب ضد كورونا إلى حرب على الخصوصية. ورفعت الجماعة شعارا يقول «نعم لتتبع الاقترابات، لا للتنازل عن الخصوصية». والاقترابات هنا تعني اقتراب شخص سليم من آخر مصاب، أو العكس. وهذا يعني أن حركة كل منا ستكون تحت الرصد ولكن الاختلاف هو حول حدود الرصد.

وقد تتسع حدود الرصد لتصبح ظاهرة كونية تتبادل أجهزة الرصد في مختلف البلدان المعلومات بشأنها. وعلى موقع مكتب الخدمات القنصلية التابع للخارجية الأميركية تنبيه بعنوان«تنبيه بخصوص كوفيد- 19 في السادس عشر من يوليو من العام 2020». يقول التنبيه «نعمل من أجلك على نحو يضمن السلامة. ولمنع انتشار فيروس كوفيد- 19 ولحماية موظفينا وعملائنا أجرينا خفضا ملموسا في الاشتغال على جوازات السفر في مارس من العام 2020. وقد أوقفنا، مؤقتا، إصدار جـوازات السفر المستعجلة وقصرناها على حالات طوارئ حياة أو موت. وبعد أن تتطور الأمور وتعود الخارجية لسابق نشاطها سوف نستأنف العمل على مراحل. نطلب منكم التحلي بالصبر، فنحن نراعي متطلبات السلامة في تعاملنا مع طلباتكم».

وقبل ذلك كانت مجلة الاتحاد الطبي الأميركي JAMA قد ذكرت في السادس من مايو أن"بعض بلدان أوروبا تنظر في إجراء اختبارات لتقرير وجود أجسام مضادة في الدم serologic tests تكون أساسا لإصدار وثائق(جوازات سفر) يتقرر وفقا لها تحديد معين لوقت العمل وللحريات الاجتماعية المسموح لحامل الوثيقة

بممارستها، وما إذا كان من حقه التواجد وسط تجمعات أو العودة للقيام بأعمال غير ضرورية. وتدرس حكومة الولايات المتحدة مقترحات مماثلة".

وبوسعنا التساؤل أمام قيود الجائحة إلى أي حد سيقع التحكم بحركة الفرد داخل وخارج وطنه؟ هل يقف الأمر عن حدود فحص يجرى مرة أم يتكرر الفحص وبأي معدل؟ نحن نحتاج، حتى قبل جائحة كوفيد19-، شهادات خلو من أمراض معينة عند السفر خارج بلادنا لزيارة بلدان معينة، فإلى أي مدى ستتسع دائرة توثيق المناعة؟ وهل ترتبط بالحركة عبر الحدود، فقط، أم تصل لحق دخول مطعم أو مقهى على ناصية الشارع؟ وهل تنشأ عن هذا التوجه آليات رصد ومراقبة، لكل الناس وفي كل الأوقات؟

تكتسب المخاوف من تعزيز آلات الرصد والمتابعة والتوجيه مصداقية أكبر مع تصاعد أدوار المؤسسات العسكرية في مكافحة الوباء. ففي الحادي عشر من يوليو من العام 2010 كان معهد والتر ريد العسكري للأبحاث ينتقل بلقاح مرشح، يشتغل عليه الباحثون في المعهد، إلى المرحلة الثانية من التجريب. وقال الموقع إن المعهد كان بصدد البحث عن متطوعين ليجرب اللقاح عليهم. وكما ستقرأ في ما بعد فقد تحدثت بوليتيكو أيضا عن تعاون وزارتي الصحة والدفاع في الولايات المتحدة في جهود البحث عن اللقاح.

وقالت بوليتيكو الأميركية إن فرقا من القوات المسلحة ومن الحرس الوطني تتمركز الآن في الطابق السابع في مبنى المركز الرئيسي لوزارة الخدمات الصحية والإنسانية في الولايات المتحدة، كجزء من برنامج العمل الحكومي لإنتاج 300 مليون لقاح قبل يناير من العام 2021.

وأكدت المجلة الطبية البريطانية BMJ، في الثاني والعشرين من مايو من العام 2020 أن الحكومات في مختلف أنحاء العالم تطلب المساعدة من عسكرييها لمواجهة انتشار فيروس كوفيد- 19. وقد جاءت بعض التدخلات التي قام بها العسكريون واسعة النطاق: ففي بداية مارس، ذكرت وكالة الأنباء الصينية شينخوا أن عشرة آلاف جندي كانوا"ناشطين على خط الجبهة" وأن 63 مستشفى عسكريا أعدت 3000 سرير لمعالجة المصابين بالعدوى.

وأضافت المجلة أن وزارة الدفاع البريطانية ليست استثناء من ظاهرة الانتقال إلى مهام هي من وظائف المجتمع المدني، في الظروف العادية. وهكذا انخرط الجنود البريطانيون في أنشطة مثل بناء مستشفيات جديدة ونقل إمدادات هائلة من أجهزة التنفس وتخفيف ضغط العمل عن موظفي الهيئة الوطنية للخدمات الصحية.

ومن الواضح أن لاستخدام الجنود فوائد لاتخفى على أحد، فهم قوة منضبطة ومدربة على المجهود الشاق وجاهزة للبدء في العمل بمجرد تلقي طلب المساعدة. لكن ما قد لايدركه الكثرون هو مهارة المخططين العسكريين في أمور ليس أقلها أهمية تحويل مساحات واسعة مغلقة- مثل مراكز المؤتمرات ومن بينها مركز إكسيل في لندن – إلى مستشفيات مؤقتة. لدى الهيئة الوطنية للخدمات الصحية المخططون الخاصون بها، لكنها وجدت من مصلحتها الاستفادة من المخططين العسكريين.

ويقول ريتشارد جونز، وهو استشاري أمراض القلب في مستشفى الملكة أليكساندرا في برورتسموث أن فائدة إشراك المخططين العسكريين في إعداد ترتيبات مواجهة الجائحة بالقول إن المخططين الطبيين اعتادوا

الترتيب لمواجهة الظروف التي تنشأ عن تحولات تدريجية ويمكن التمهل في مواجهتها، ومن ذلك مثلا مشكلات تزايد نسبة كبار السن بين السكان. أما المخططون العسكريون فمدربون على مواجهة الطوارئ الشديدة الوطأة وإنجاز الترتيبات اللازمة لتلك المواجهة في أقصر وقت ممكن.

ويقول المركز البحثي التابع للبرلمان الأوروبي European Parliament Think Tank إنه إن كانت القوات المسلحة في أي بلد من بلدان العالم قد تجد من الصعب عليها أن تنأى بنفسها عن دورها التقليدي، وهو حماية بلادها بقوة السلاح، فإن جائحة كورونا تغير اليوم نظرة المجتمع للأدوار التي يمكن أن تلعبها الجيوش.

وقد تجسد هذا التوجه في المساهمات الحيوية التي قدمها العسكريون في مساعدة السلطات العسكرية على مواجهة الجائحة واحتواء تفشي الفيروس. استبدلت الجيوش بسلاحها حقائب أغذية وأدوات تعقيم، وكان أفرادها بين أول من ذهبوا للتصدي للوباء. وسواء كان الهدف هو توزيع الطعام أو بناء المستشفيات والملاجئ التي تؤوي المشردين، فقد كانت الجيوش الأوروبية في طليعة من تم تجنيدهم لأداء هذه المهام. ولأنهم مدربون على رد الفعل السريع والمنضبط في مواجهة المواقف الأشد تعقيدا، فقد أظهر العسكريون أداء جديرا بالإعجاب وهم ينفذون مهام إعادة إخلاء المواطنين وإعادة توطينهم ونقل معدات الحماية والتجهيزات الطبية.

جائحة كورونا تتيح للأخ الكبير أن تتسع سلطاته الرقابية وأن تدخل جيوشه، وهي أقوى أجهزة الضبط، إلى فضاءات لم يسبق لها اقتحامها. ومع تراجع الديمقراطية الليبرالية في مختلف أنحاء العالم، ومع تصاعد الحضور الاقتصادي والسياسي لقوى غير ليبرالية، حتى في الـدول الليبرالية، قد تصبح هذه التحولات أقرب مما نتصور.

ولكن في ظروف الوباء الراهن ما يوحي بأننا قد نكون مقبلين على إنهاء العسكرة التي تتصاعد في العالم منذ العام 1939 ، أو على تحويل – قد يكون بداية لأمور غير مسبوقة – في جانب من المهام التي تتصدى لها الجيوش. في العام 1939 بدأت الحرب العالمية الثانية، وقبل أن تنتهي أسست الولايات المتحدة(وجنرال اليكتريك، فيما يقال)مبدأ الحرب الدائمة، الذي يقضي بافتعال الحروب (أو افتعال التوترات) لمواصلة إنتاج السلاح وجني الأرباح من بيعها. ولم يفد بشئ تحذير الرئيس دوايت ايزنهاور وهو يغادر منصبه في العام 1961 حين قال في خطاب الوداع:

"يجب أن نحذر، في هيئات الحكومة، من أن يكتسب المركب العسكري – الصناعي، نفوذا غير مبرر، سواء سعى لذلك أو تحقق له ذلك بغير سعي منه. فنتائج العود الكارثي لسلطة في غير محلها هي احتمال قائم وباق».

ولنتذكر ثلاثة أمور يمكن أن نقرأ في ضوئها كل ماسبق ذكره عن دور جديد للجيوش، في مختلف المجالات، لنكتشف في هذا الدور الجديد شيئا جديرا بالاهتمام. لنتذكر دعوة الأمين العام للأمم المتحدة لوقف النار في مختلف ميادين الصراع في العالم. ولنتذكر حرص دونالد ترامب – على الرغم من اندفاعه تحت ضغط أزمات طارئة نحو تظاهرات عسكرية، ضد إيران مرة وضد الصين مرة أخرى– على تقليص الدور

العسكري للجيوش الأميركية حول العالم. ولنتذكر أن روسيا عندما أرسلت مساعدات طبية لإيطاليا – الدولة العضو في التحالف الأطلسي، كان للمساعدة طابع عسكري واضح وكان من قاموا بالخدمات الطبية فيها جنودا وضباطا من سلاح الخدمات الطبية الروسي، وهو تكريس لدور غير حربي لواحد من أهم جيوش العالم.

بهذا المعنى فالجيوش ربما كانت تتحول، جزئيا أو تدريجيا، من الحرب ضد بشر إلى الحرب ضد عدو غير بشري نجتمع على عداوته كلنا، نحن سكانَ هذا الكوكب.

وهذا بالضبط هو ما ذهب إليه يورغ سورنسن في كتابه" إعادة النظر في النظام العالمي الجديد" الذي سبقت الإشارة إليه. ومن ذلك قوله:

«... التحرك الأقوى، منذ انتهت الحرب الباردة هو باتجاه الصداقة بأكثر مما هو باتجاه العداوة. وهذا يساند وجهة النظر الليبرالية التي تقول إن القدرة العسكرية تتراجع أهميتها كمصدر للقوة، في حين تتزايد أهمية القوة الاقتصادية وغيرها من أشكال القوة غير الملموسة، وبينها القوة الناعمة. ولايعني ذلك أنه يتحتم علينا أن نعتنق وجهة النظر المتطرفة التي تقول ب «نهاية القوة»، حيث يبلغ انتشار القوة بين كثرة من اللاعبين المختلفي المستويات درجة يصبح معها أي حديث عن بنية القوة حديثا بلامعنى. لكن ما تعنيه تحولات عالمنا، بالفعل، هو أن تنوع أشكال القوة، من سياسية واقتصادية وتقنية وثقافية وأيديولوجية يصبح ذا صلة بالتقييم الشامل لمن يملك القوة. وباختصار، فنحن بحاجة إلى رؤية للقوة تكون أشمل من الرؤية التقليدية التي تقوم على ‹القدرة على كسب الحرب›.

ماذا علمتنا الجائحة!

لاشك أن هذا التخلي النسبي والتدريجي عن عقيدة القوة، إن أثبتت الأيام أن له وجودا محسوسا ومؤثرا، قد يندرج ضمن ما يمكن أن نتعلمه من الجائحة، لكن يصعب أن نعرض الآن، وعلى نحو نهائي، الدروس التي استخلصتها البشرية من جائحة لا يعلم أحد بعد إلى أي مدى ستمضي بنا أهوالها، وإن كان من المؤكد أن الشهور التي انقضت بين ظهور الجائحة في ووهان الصينية، نهاية العام 2019، وحتى النصف الثاني من العام 2020 علمت الإنسانية دروسا قد يكون أهمها درس التضامن بوجه الجائحة ودرس الاهتمام الفائق بالبيئة الطبيعية الحاضنة للنوع البشري. الحرص على البقاء أساسي في كل كائن حي.

ليس أعلى مستوياته هو الحرص على بقاء النوع البشري، بل هو اليوم، وبعد تصاعد الوعي الإيكولوجي، الحرص على بقاء النوع البشري وعلى البيئة الطبيعية الحاضنة للوجود الإنساني بمن فيها وما فيها. أشرنا من قبل إلى ما قاله آرنولد توينبي عن إرادة التحدي كمحرك لصعود الحضارات واليوم تتضح أهمية هذه الإرادة ليس فقط بدرجة من القوة غير مسبوقة، منذ جائحة الانفلونزا الإسبانية في 1918–1920، ولكن أيضا بدرجة من اتساع النطاق الذي تعمل عليه، ليشمل كل بقعة من بقاع العالم.

التوظيف السياسي للوباء

في مواجهة هذا التهديد للحضارة ولوجود النوع البشري ذاته رأينا قوى داخل الولايات المتحدة تحول الأزمة إلى فرصة لتبادل الاتهامات بهدف تعزيز الموقف الانتخابي لهذا الطرف أو ذاك.

وبالمثل يمكنك أن تلمس في الإعلام البريطاني وهو يعلق على الاتفاق الذي توصل إليه زعماء أوروبا لتنظيم التعاون على مواجهة الجائحة مايشبه الإحساس بتحييد بريطانيا عن أوروبا، كما تجد في الإعلام الأميركي ما يذكرك بميل الأميركيين إلى اعتبار تجربتهم في الوحدة السياسية أمرا يتعين أن تتطلع إليه بقية البشر.

وعلى مستوى الصراعات داخل الولايات المتحدة، هناك اتجاه قد يبقى لما بعد الرئيس دونالد ترامب، وقد يجد تعبيرا أفضل عنه في رئاسات تالية. ومن الأمثلة على توظيف المأساة الإنسانية المتمثلة بجائحة كورونا رأي في الواشنطن بوست كتبه مجلس التحرير بتاريخ الثاني والعشرين من سبتمبر من العام 2020 يقول» تذكر مئتي ألف أميركي قتلهم كوفيد- 19 ثم ادْلِ بصوتِك».

وقبل ذلك رأي آخر نشرته «بوليتيكو» حمل العنوان «رهان ترامب على اللقاح يمكن أن يكون له ثمنه».

يرى العلماء الذين يشتغلون على اللقاح حريصون على التطورات بعيدة المدى التي قد تترتب عليه؛ ما يعني أن اللقاح لن يكون،حال التوصل إليه، مجرد حل لمشكلة طبية بل سيكون معطى اجتماعيا- سياسيا قد تكون له نتائجه التي يتعين أخذها بعين الاعتبار.

وقد خصصت الحكومة الفيدرالية عشرة مليارات دولار لمشروعها المعروف باسم «العملية الفائقة السرعة» الذي تشرف عليه وزارتا الصحة والدفاع، للتعجيل بتطوير لقاح ضد كوفيد- 19.

في الأول من مايو العام 2020 ذهبت مجلة «الاصداء» Les Echos الفرنسية الى القول في الولايات المتحدة اكتسبت المسيرة باتجاه لقاح ضد فيروس كورونا، بالفعل، طابعا سياسيا" وأضافت" ليزيكو" قولها إن واشنطن تحشد المؤسسات التجارية والوكالات الحكومية بأمل التوصل، في الفترة الممتدة من الآن وقبل حلول يناير، إلى لقاح فعال وإنتاجه على نطاق صناعي واسع، لكن تجميد العضوية في منظمة الصحة العالمية سيضع الولايات المتحدة في عزلة عن المجتمع البحثي الطبي العالمي عادت في يناير عام 2021 بقرار من الرئيس جو بايدن وهو ما يضعف جهودها في البحث عن لقاح. وقالت الصحيفة" دونالد ترامب يعالج الأزمة من زاوية رغبته في إعادة انتخابه للبيت الأبيض".

وعلى مستوى الاتحاد الأوروبي أثبتت إجراءات الغلق أن التحول إلى مجتمع تديره بيروقراطية الدولة بقرارات فوقية يمكن أن يكون أقرب مما يتصوره أي إنسان، واشتد الخوف على الديمقراطية الليبرالية. ورد موقع المجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية على ذلك، في يونية من العام 2020 بتقرير كانت أهم النقاط فيه كالتالي:

- مع انتشار وباء كورونا تنامت التكهنات بأن الأزمة ستمنح الدول مزيداً من المساندة الشعبية، مع تزايد الثقة بالخبراء وتزيد الجدل بين المؤيدين للوحدة الأوروبية والمناهضين لها.

(وما يقوله الموقع بخصوص الخبراء هو إشارة لتنامي سلطة التكنوقراط الذين هم عماد الحكم في البلدان غير الديمقراطية).

- لكن أبحاثا جديدة أثبتت أن هذه كلها مجرد أوهام. وبدلا من ذلك، فقد أحدثت الأزمة أثرا ثوريا في فهم مواطني أوروبا للنظام العولمي، فاحتدم الجدل بين دعاة الوطنية ودعاة العولمة.

(وهنا يتضح أن الاتحاد الأوروبي معني بمستقبل

سياساته العولمية، بأكثر مما هو معني بمستقبل نضال الإنسانية ضد فيروس كورونا، أو ربما كان يربط قدرة الإنسانية على كسب المعركة ضد الفيروس بالتضامن الدولي المتجاوز للحدود الوطنية، على أن تكون قيادة هذه النضال في بروكسيل، التي تتعاون مع واشنطن ولاتخضع لمشيئتها وتتعاون مع الصين ولا تستسلم لهواجس الخوف من الآخر المختلف ثقافيا وعرقيا).

- هناك مجموعة الاعتماد على الذات، التي تريد أن يعود عالمنا لما كان عليه في القرن التاسع عشر حين كانت كل أمة تركز اهتماماتها على نفسها؛ وهكذا راح دعاة الحرب الباردة الجديدة يرهفون السمع لأصداء تأتي من القرن العشرين، ويتطلعون إلى دونالد ترامب ليحميهم مما يتصورونه الخطر الصيني؛ وهناك أنصار الاستراتيجيات المرتكزة إلى السيادة الوطنية في القرن الواحد والعشرين الذين يتوقعون أن يشهد هذا القرن عالما يتألف من كتل وأقاليم.

(وهذا الطرح معروض بالتفصيل في كتاب يورغ سورنسن، الذي يرى كتلا تقوم في كل إقليم من أقاليم العالم، باستثناء الشرق الأوسط الذي لم تظهر بعد قوة محورية يمكن أن تكون هي أساس نظامه الإقليمي)

- وهذا الفريق الأخير هو الأكبر حجما، وهو فريق يضم من يمثلون شكلا جديدا للنزعة الأوروباوية، وهم أولئك الذين يؤمنون بأن أوروبا ستبقى بحاجة لتعزيز سيادتها باتباع سياسة خارجية مشتركة وسيطرة على حدودها الخارجية وإعادة محلية العمليات الإنتاجية.

- تمثل اللحظة الراهنة فرصة جديدة للتعاون الأوروبي، لكن على زعماء أوروبا أن يعالجوا هذه الفرصة بأسلوب يتسم بالحذر لتجنب العودة إلى تكثيف المركزية الأوروبية.

- وما تمضي باتجاهه أوروبا اليوم ليس لحظة هاميلتونية تقترب بها من الفيدرالية، بل هي بالأحرى لحظة ميلواردية Milwardian moment تقوى فيها هويات الدول الوطنية التي تبحث عن الحماية في ظروف مخفوفة بالخطر.

(سبق أن شرحنا المقصود باللحظة الهاميلتونية التي عززت وشائج الفيدرالية في الولايات المتحدة بتوزيع الأعباء على مختلف الولايات بدلا من أن تنوء بها العاصمة فيتفكك الاتحاد؛ أما اللحظة الميلواردية فالمقصود بها اللحظة التي يمكن للدولة الوطنية أن تحقق فيها الصفات التي حددها المؤرخ البريطاني آلان ميلواد لكل دولة تريد أن تبقى وتزدهر وهي أن مصدر قوتها ينبع من حقيقة أن لوجودها معنى وتميزا وبروزا.

الهم السياسي العربي

رصد الإعلام الدولي ردود الفعل الأميركية والأوروبية تجاه فيروس كورونا. لاسيما تأكيد غلبة الهم السياسي على ما عداه من الهموم، وإن كان الثمن هو بقاء النوع البشري ذاته.

وتحت العنوان «فيروس كورونا» : أجواء «حرب باردة» بين أمريكا والصين بسبب الوباء»، في التاسع من مايو من العام 2020، نقل موقع بي بي سي عن صحف عربية تعليقها على الاتهامات المتبادلة بين أمريكا والصين، فيما يخص وباء كورونا.

ومهد الموقع لذلك بأن نقل عن وزير الخارجية الأميركي مايك بومبيو أنه يملك "أدلة"، تؤكد أن

فيروس كورونا المستجد جاء من مختبر في مدينة ووهان الصينيّة، أما الرئيس الأمريكي دونالد ترامب فاتهم الصين بتضليل العالم، بعد أن "أخفت" معلومات عن انتشار الفيروس.وفي المقابل، اعتبرت الصين إتهامات بومبيو «غير عقلانية».

الفيروس رفع وتيرة الحرب الباردة

واصلت الولايات المتحدة الضغط على الصين عبر زيادة جرعة الاتهامات واستمرت "فصول التصعيد تتواصل، في الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين، خاصةً من الطرف الأمريكي... الحملة الأمريكية التي تستهدف الصين اخذت مسارات متباينة، فتارة يتهمونها بتصنيع الفيروس ونشره في العالم، وتارةً أخرى يهددون بفرض عقوبات اقتصاديّة عليها، وجرجرتها أمـام المحاكم للحصول على تعويضات بمئات المليارات من الدولارات».

لكن الرأي العام العالمي يتساءل: إذا كان بومبيو وترامب يقولان إن هُناك وكالات استخبارية أميركية تتابع أدلة مهمة تشير إلى أن الفيروس جاء من مختبر ووهان الصينية، وإن هذه المعلومات مُوثّقة، فلماذا لا يعرضها على معاهد ومراكز بحوث وعلماء مختصين لفحصها ؟"

وعليه ما لم تعلن أمريكا ادلتها الدامغة أمام العالم تكون خسِرت حرب العلاقات العامة لمصلحة الصين، التي أدارتها بذكاء شديد، وبطرق عملية من خلال تقديم مساعدات طبية وإدارية، تشمل الخبرات والمعدات لأكثر من 90 دولة».

ومع عدم تقديم أمريكا لما بحوزتها من معلومات ستعطي انطباعاً بل تأكيداً عكسياً بأنها تحاول أن تهرب، من أزمتها الخاصة بتفاقم أزمة تفشي فيروس كورونا بين مواطنيها، من خلال توجيه الاتهامات إلى الصين، بأنها هي سبب انتشار المرض، من أجل أن تخفف الإدارة الأميركية من الضغوط التى عليها، والانتقادات التي يتم توجيهها لها بشأن التقاعس في مواجهة أزمة الوباء، بجانب التمهيد لطلب تعويضات من الصين تصل إلى مليارات الدولارات».

بالمقابل الصين لم تستسلم بل ردت على الولايات المتحدة، بأن واشنطن هي سبب انتشار الفيروس في الصين، لأنها أرسلت جنودها إلى مدينة ووهان وكانوا يحملون الفيروس"، ليتصدر المشهد حقيقة واحدة هي أن "تلك الاتهامات المتبادلة بين أميركا والصين لا تخدم قضية التعاون في البحث عن لقاح ضد كوفيد-19".

وعالمياً ثمة انطباع متفق عليه عموماً أن الحكم في الصين ليس ملائكياً، في ما يخص حقوق الإنسان والحريات العامة، وتمكين الصحافة من مقدار الحد الأدنى من الشفافية، في نشر المعلومات السياسية والاقتصادية والصناعية، وبالتالي لا خلاف حول مسؤولية السلطات الصينية، عن التكتم على فيروس كورونا المستجد عند اكتشافه، بدليل وفاة الطبيب الذي كان أول المحذرين من الفيروس وأخطاره. كذلك تتحمل بكين مسؤولية إضافية، في تأخير إخطار منظمة الصحة العالمية حول طرق انتقال الفيروس».

ما بين الاتهامات الامريكية والنفي الصيني تتحمل منظمة الصحة العالمية مسؤولية المشاركة، في جعل هذا الوباء الصيني جائحة اكتسحت العالم كله. وقد تُسألُ يوما عن مسؤوليتها، عن أرواح الذين راحوا ضحية كوفيد - 19 خارج الصين. كما يُسأل النظام

الشمولي الصيني عن مسؤوليته عن انتشار الفيروس، رغم تهديداته الاقتصادية للبلدان التي تطالب بإجراء تحقيق حول التضليل الذي مارسه والأكاذيب التي نشرها منذ بداية الأزمة».

في هذا الإطـار وتحت وقع المسؤولية الدولية المناطة بمنظمة الصحة العالمية أوفدت في شهر فبراير 2021 فريقاً علمياً إلى مدينة «ووهان» للتحقق في منشأ الفيروس وتوصل إلى إنه لا يوجد «دليل كافٍ» على أن هذا الفيروس المستجد كان متفشياً في «ووهان» قبل ديسمبر 2019.

في حين أوضح رئيس الفريق الصيني في اللجنة المشتركة لايوجد أي مؤشر على تفشي «SARS COV-2» وسط الناس، وليست ثمة أدلة كافية لتبيَّن ما اذا كان الفيروس قد انتشر فعلاً قبل هذا التاريخ.

رئيس بعثة منظمة الصحة العالمية، بيتر بن مبارك حسم الأمر بالقول «من المستبعد جـداً» أن يكون الفيروس قد تسّرب من مختبري مدينة «ووهـان»، ويعتقد الخبراء أنه من المحتمل أن يكون الفيروس قد نشأ في الحيوانات قبل ان ينتقل الى البشر، لكنهم غير متأكدين في كيفية حدوث ذلك وان كان العمل يجري على تحديد أصول الفيروس والذي يشير الى «خزان طبيعي» له في الخفافيش، وبالتالي يبقى مسار الحيوان عملاً قيد التطور والمرجح انه قد انتقل الى البشر من أنواع وسيطة.

وفي ظل الوعي العالمي تبقى المناوشات الصينية الامريكية معركة رأي بين بروباغندا صينية، تحاول تسويق نظامها كأفضل نموذج حوكمة في القضاء على الوباء، أي وهم تحرر اقتصادي جزئي بدون إصلاحات سياسية، وبروباغندا أميركية تحاول شيطنة النظام الصيني، كصانع لهذا الفيروس عن سابق تصور وتصميم. في حين يرى العالم كيف يسعى من يشيطن "العملاق النائم" دخول إلى أسواقه التجارية».

احتلت المملكة المتحدة المرتبة الثانية من حيث الأسوأ بين دول العالم المتقدمة من حيث رد الفعل السريع على جائحة كورونا، وذلك وفقا لتصنيف منظمة التعاون والتنمية.

أشارت المنظمة – في دراسة لها وقامت بها وحدة الخبراء الاقتصاديين التابعة لمنظمة التعاون والتنمية موزعة وفقا لنوعية وفائدة رد فعل كل دولة على فيروس كورونا – إلى أن تصنيف رد فعل الحكومة الأميركية على الجائحة جاء بتقدير "جيد" أما الحكومة البريطانية فحصلت على تقدير "سيء"، وتم وضعها مع كل من إسبانيا وإيطاليا من حيث سوء الإستعداد، فيما احتلت بلجيكا الترتيب الأسوأ.

الصراع الصيني - الهندي

عبر التاريخ تشغل الدول الازمات لتحقيق مكاسب سياسية اقتصادية وبسط نفوذ وغيرها، «فالهند» وجدت فرصة سانحة لها خلال جائحة كورونا لتلعب دوراً مهماً منافساً للصين ومع هذا السعي برز تساؤلاً هل تصبح الهند (مصنع العالم) بدلا من الصين؟ أنه رأيا يمكن إدراجه ضمن الحرب الباردة في الغرب، أو الحرب الباردة الأنكلو – أميركية ضد الصين وروسيا في فصلها الراهن المتصل بجائحة كورونا والمكمل لفصول سبقت، ربما عبر القرون. ولابد من الإشارة إلى العلاقة الوثيقة والتاريخية والبناءة والمعقدة (التي يختلط فيها الخير بالشر) بين بريطانيا والهند، أكبر

اقتصاد بين دول الكومنولث البريطاني الذي ترأسه اليزابيث الثانية؛ كما يجب التذكير بأمرين اثنين : بموقف بريطانيا ومن ورائها الغرب كله من اضطرابات هونغ كونغ في العام 2020 ومن قضايا حقوق الإنسان في الصين؛ وبالاتفاق بين أكسفورد البريطانية وبين الهند على تصنيع مليار عبوة لقاح بعد أن تنتهي أكسفورد من تحضيره وإجازته.

واجهت الصين رد فعل عالميا غير مسبوق نتيجة انتشار مرض كوفيد – 19 وإصابة الملايين به في شتى أرجاء المعمورة، مما قد يزعزع موقعها بوصفها «مصنع العالم".

وتتحيّن جارة الصين، الهند، الفرصة وتعمل حثيثا لملء الموقع الذي يأمل الهنود أن تخليه الصين عاجلا وليس آجلا.

هذا الطموح كشفه للعلن وزير المواصلات الهندي نيتين غادكاري قال صراحة إن موقف الصين الدولي الضعيف قد يساعد بلده في جذب الاستثمارات الخارجية. وتقوم ولاية أوتار براديش الشمالية – التي يساوي عدد سكانها عدد سكان البرازيل – بالفعل بتشكيل فريق عمل اقتصادي لجذب الشركات الراغبة في التخلي عن الصين.

كما تجهز الهند مساحة من الأرض تبلغ مساحتها ضعف مساحة لوكسمبورغ (لوكسمبورغ من أصغر الدول الأوروبية، إذ لا تتجاوز مساحتها 2586 كيلومترا مربعا) لعرضها على الشركات الراغبة في نقل نشاطاتها الصناعية إلى خارج الصين، وبدأت بالتواصل مع ألف من الشركات الأميركية متعددة الجنسية.

وكشف ذلك أيضاً ديباك بغلا، المدير التنفيذي لمؤسسة «إنفست إنديا Invest India"، الهيئة الحكومية المعنية بالترويج للاستثمار في الهند، عن "هذه الاتصالات القائمة على قدم وساق منذ أمد بعيد، وسط صراع أزمة كوفيد - 19 المتوقع من تبعاتها خروج العديد من هذه الشركات من الصين».

عقاب أم مؤامرة

نشرتِ الأذرع الإعلامية للحزب الإسلامي التركستاني، (Islam Awazi)، مقطع فيديو بعنوان منظور المجاهدين فيما يتعلق بتفشي كورونا في الصين. في الفيديو، وصف متحدثٌ باسمِ الحزب تفشيَ الفيروس بأنه عقابٌ آخر أرسله الله "للطغاة" الذين يضطهدون المؤمنين، في إشارةٍ إلى قمع الحكومة الصينية للأويغور المسلمين في شينجيانغ. كما أشار الفيديو إلى أن الفيروس نشأ في سوق (ووهان) حيث يتم بيع حيوانات يحرَّم القرآن أكلها.

أصدرت حركة طالبان "إمارة أفغانستان الإسلامية"، ثلاثَ بياناتٍ رسمية بشأن تفشي كوفيد19-. وعلى غرارِ الحركات الإسلامية، التي تتخذ من غزة مقرًّا لها، حثَّت حركةُ طالبان الحكومةَ الأفغانية على حمايةِ أسرى طالبان داخل سجونها. والأهم من ذلك أنها دَعَت "المنظمات الصحية والإنسانية إلى تنفيذِ التزامها بإرسالِ المعدات والأدوية والمساعدات اللازمة إلى المناطق الخاضعة لسيطرتنا"، ووَعَدت بتوفير الأمن لعمال الإغاثة هؤلاء.

تزعمُ الجماعاتُ المسلحة، التي يسيطر عليها الحرس الثوري الإيراني في العراق، وسوريا، والبحرين، أن فيروس كورونا هو مؤامرة دبَّرتها الولايات المتحدة. من جانبها، شاركت الميليشيات الأفغانية والباكستانية

التي يسيطر عليها الحرس الثوري في سوريا -لواء فاطميون ولواء زينبيون- توجيهاتها بشأن كيفية منع العدوى.

نفق «كورونا» الاسود

في حين كانت الجائحة في بدايات توحشها ولم يكن عدد ضحاياها قد تجاوز المئة ألف في كافة بلدان العالم، في خمسة أشهر، برزت قناعة هي أن فيروس «كورونا المستجد» كما يقول الخبراء لا تكمن خطورته في كونه مرضاً قاتلاً لكل مصاب به، بل لسرعة تفشيّه ولكون المستهدفين به هم من المسنيّن أو من لديهم علل تضعف مناعتهم.. وعلى رغم ذلك كله، فإن هذا الضيف الثقيل سبب كارثة عالمية؛ موجة من الاكتئاب السياسي والاقتصادي، والنفسي طبعاً على مستوى العالم. في خضمّ التسابق العالمي للخروج من نفق «كورونا» الأسود، نجد ومضات مضيئة مبشّرة في هذا الليل البهيم. من ذلك؛ هذا الخبر الذي انتشر عالمياً، وهو تعافي كورنيليا راس السيدة العجوز الهولندية (107 أعوام) من فيروس «كورونا» لتصبح أكبر ناجية في العالم من جائحة فيروس «كورونا المستجد» على الأرجح. وقالت ممرضتها لإحدى الصحف: «لم نتوقع أن تنجو من ذلك. إنها لا تتناول أي أدوية وتمشي جيداً وتركع على ركبتيها كل مساء لتشكر الرب. ستظل فيما يبدو قادرة على الاستمرار في القيام بذلك».

وحسب التفاصيل فإنه قبل كورنيليا راس، كان أكبر ناج من «كورونا» في العالم أميركياً يبلغ من العمر 104 أعوام. هذه ومضة مفرحة تشير إلى أنه حتى الطاعنون في السن ليس ضروريا أن يكون رحيلهم عنّا حتمياً بسبب «كوفيد - 19» وهذا أمر حسن، لكن الأحسن هو تسارع الجهود لإقرار العلاج المتجادل عليه، علاج الملاريا، ليكون نافعاً تجاه هذه الجائحة.

المهم هو أن الدمار الهائل الذي تسبب فيه العزل العالمي، وتوقف الحياة وعجلة الاقتصاد بكل الأرض، لهما عواقب مخيفة، لذلك نجد هذا التنادي الدولي لسرعة إيجاد المخرج، الذي يضمن مجابهة «كورونا» وعدم انهيار المستشفيات في العالم بسبب تقاطر الجموع عليها، وفي الوقت نفسه يجعل دورة الحياة قائمة، ولو بحدّها الأدنى. لم يوجد المخرج بعد، لكنه حتماً سيوجد قريباً.

في كل الأحوال، قدرة البشر على التكيّف مع «البلاء» لا حدود لها. تذكرت في هذا الصدد ما ذكره المؤرخ والطبيب والفيلسوف المسلم، عبد اللطيف البغدادي، عن المجاعات والأوبئة الرهيبة التي أصابت مصر، وسجل شهادات عينية مذهلة عن البلاء الذي أصاب الناس بسبب فيضان النيل ثم المجاعة التي جعلت أكل الحيوانات النافقة، سلوكاً متكرراً بسبب انعدام الطعام.

يقول البغدادي في كتابه الشهير (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر)، عن حوادث سنة 598 هجرية: «ودخلت هذه السنة والأحوال التي شرحناها في السنة الخالية على ذلك النظام أو في تزايد... وقلَّ خطف الأطعمة من الأسواق وذلك لفناء الصعاليك وقلّتهم مِن المدينة، وأَلِفَ الناس البلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي».

نحن اليوم في عالم غير عالم البغدادي في تلك الأزمنة، لكن رغم ذلك فإن إِلف البلاء بأي درجة منه، هو السلاح البشري العميق القديم الجديد. ومع ذلك فنحن محكومون بالأمل.

دروس من الجائحة

درس لم نتعلمه ... « عدم المساواة » !!

ستختلف الحياة كليا ، وستتغير كل المفاهيم وستبقى اثار هذه الجائحة قائمة وماثلة ومثار حديث وابحاث لعقود طويلة ، فالمدرسة بعد هذه الجائحة لن تكون كما كانت لا سيما، أولياء الأمور، والمعلمون، ووسائل الإعلام، والحكومة، وغيرهم منظورهم وتصوراتهم إلى حد كبير بشأن أدوارهم في العملية التعليمية. وسيكون هذا التحول في أنماط التفكير حاسم الأهمية لمستقبل نظام التعليم.

ولدى أولياء الأمور الآن فهم أفضل للحاجة إلى العمل المشترك مع المدارس لتعزيز تعليم أبنائهم. وهم يدركون الآن أن بمقدورهم أن يكونوا رقمًا مهمًا في معادلة العملية التعليمية لأطفالهم بل هم بالفعل كذلك. وهناك العديد من الآباء وأولياء الأمور الذين يكافحون الآن لمساندة أطفالهم وتوفير عملية التعلم في المنزل، وسيكون لديهم فهم أفضل لمدى صعوبة وظيفة عمل المعلم وما ينطوي عليه من تحديات. ويقدر الآباء وأولياء الأمور المعلمين وما يقومون به أيما تقدير. ويدرك الآباء الآن بوضوح أن التعليم تجربة اجتماعية، ويأتي التعلم، وتنمية الأفكار والإبـداع من التفاعل الاجتماعي مع المعلمين والأقران. وإذا اعتقد أحدهم في أي وقت مضى أنه بالإمكان أن يحل الذكاء الصناعي محل المعلم، فمن الواضح الآن أن الأمر ليس على هذا النحو.

لقد أصبح لدى المعلمين الآن فهم أفضل لأهمية التكنولوجيات الرقمية، كما تمثل المهارات الرقمية عنصرًا أساسيًا في مجموعة الأدوات التي يعملون بها. ومن دون هذه المهارات والأدوات، سيكون من الصعب تقديم التعليم العلاجي لتعليم كل طالب على حدة في المستوى الذي يحتاج إليه من التعليم، كما سيكون من الصعب تلبية الاحتياجات المختلفة للطلاب المختلفين. وتدرك وزارات التعليم الآن أنه من دون التكنولوجيا سيكون من الصعب للغاية توفير فرص التطوير المهني التي يحتاج إليها المعلمون على نطاق واسع.

وتتفهم وسائل الإعلام الآن على نحو أفضل الدور المهم للغاية الذي لا يزال يقوم به التلفزيون والمذياع في حياة الناس وفي العملية التعليمية. كما إنها تتحمل مسؤولية كبيرة في تكوين الشخصية، وبناء المهارات الاجتماعية والوجدانية، وتقديم المعرفة، وبالتالي تقوم بدور حاسم للغاية في العملية التعليمية للأطفال والشباب في أي بلد.

لكن الـدرس الأساسي الـذي يجب أن تتعلمه الحكومات والمجتمعات من هذه الجائحة هو إدراكنا على نحو أفضل للفجوات الواسعة للغاية في العدل والإنصاف والمساواة.

لقد أصبحت هذه الفجوات أكثر وضوحا، كما أضحت ضرورة معالجتها أكثر وضوحًا وجلاءً ، وعلى المجتمعات العمل على صعيد العديد من الجبهات لتصحيح هذه الفجوات.

وظهرت إحدى هذه الفجوات في مناقشات حول السياسات. فقبل هذه الجائحة، لم تكن المدرسة بعد العنصر الذي يحقق المساواة والذي يسمح للجميع بالحصول على فرصة في الحياة. وفيما بين البلدان

وداخلها، كانت جودة التعلم تعتمد اعتماداً كبيرًا على الخلفية الاجتماعية والاقتصادية. وتم إحراز بعض التقدم لكنه لم يكن كافياً. والبلدان الناجحة كانت تلك التي تضمن عدم التفرقة والتمييز بين الطلاب مع ضمان تحقيق الجودة في الوقت نفسه. وفي هذه البلدان، لا شأن لجودة التعليم الذي تتلقاه في المدرسة بدخل الأسرة أو الثروة أو العرق أو نوع الجنس أو محل الميلاد.

ومع هذه الجائحة، أصبح من الواضح وجود اختلافات كبيرة في جودة التعليم والمدارس في العديد من البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل (وحتى في العديد من البلدان المرتفعة الدخل)، وارتبط ذلك ارتباطًا وثيقًا بالدخل والثروة والمتغيرات الأخرى، وأدى هذا إلى ترك المدارس في المناطق الأكثر فقرًا، على وجه التحديد، غير مستعدة بتاتًا للتكيف مع الوضع الجديد. وكان هناك عدد قليل من المدارس قادرة على توفير الحصص الدراسية عبر الإنترنت، وكان معلموها، بكثير من الجهد، قادرين على استخدام الإنترنت، وتوفير المواد الدراسية لاستخدامها في المنزل، ومواصلة التفاعل مع الطلاب، ومتابعة التحصيل العلمي، وإجراء التقييم اللازم. لكن هناك عدد كبير من المدارس لم تقم بذلك. ونفذت 30 دولة استراتيجيات التعلم عن بعد باستخدام العديد من المنصات الإلكترونية، وشبكة الإنترنت وشبكات الإذاعة التلفزيون والشبكات الاجتماعية للوصول إلى أكبر عدد ممكن من الأطفال، لكن كان هناك تباين في فاعلية هذه الاستراتيجيات التي كانت تستهدف التخفيف من أثر الأزمة.

ويتمثل الجانب الثاني في فجوة العدل والإنصاف والمساواة في الفجوة الرقمية: الفروق في القدرة على الوصول إلى الأجهزة، وإمكانيات الاتصال، والبرمجيات المناسبة، فضلاً عن العجز الهائل في المعلمين الملمين بالمهارات الرقمية. وكنا نعلم أن هناك فجوة رقمية ... لكن الصدمة أصبحت الآن مباشرة، وأدى عدم معالجة هذه الفجوة إلى منع التكنولوجيا من أن تكون العنصر الحاسم في تحقيق المساواة وهي قادرة على ذلك.

وللفجوة الرقمية العديد من الجوانب. ويتمثل أحد هذه الجوانب في أن توفير خدمة الإنترنت في المنازل أو في المدرسة لا يزال محدودًا للغاية. بل إن هذه الخدمة محدودة للغاية على نحو لا يمكن تصوره. وفي البلدان المنخفضة الدخل، لا تتوفر خدمة الإنترنت في المنازل إلى لما يبلغ 10% فقط من الأطفال، ولا تزيد النسبة على 20% في المدارس. وفي كثير من الحالات، تكون الشبكة ضعيفة ومكلفة للغاية. وفي أمريكا اللاتينية، لا تتوفر أجهزة في المنازل إلا لما يبلغ 50% فقط من الطلاب. وحتى في البلدان المرتفعة الدخل، لا تتوفر الأجهزة للعديد من الأطفال، أو قد يشترك العديد من أفراد الأسرة في جهاز واحد. لكن الفجوة لا تتوقف عند الاتصال بالشبكة أو توفير الأجهزة. لكن مما يؤسف له في بعض الأحيان أن الاستثمارات في توفير الأجهزة لا يكون لها أي أثر حتى وإن كانت مفيدة إذا لم يتوفر نظام قادر على دمج الأدوات الرقمية بسلاسة مع المناهج الدراسية.

وتتضح الفجوة الرقمية أيضًا في نقص مهارات العديد من المعلمين. وسيتجه الناس الآن إلى الحلول الرقمية أكثر من ذي قبل، وستضطر بعض المدارس أو بعض الأنظمة إلى استخدام التكنولوجيا على نحو

مفاجئ، وقد نجح بعضها ولا يزال البعض الآخر يحاول. وتتوافر تطبيقات غوغل كلاسروم أو «زووم» أو «تيمز» لعدد من المدارس أكثر من ذي قبل. وسيدرك المزيد من المعلمين والطلاب إمكاناتهم ، وقد تكون هذه التحولات دائمة. لكن العديد من المعلمين لم يكونوا مستعدين أو هم بالأحرى غير مستعدين، وبناء عليه من الضروري بذل جهود مضنية وبصفة عاجلة لتمكين هؤلاء المعلمين من مواكبة وتيرة التكنولوجيا المتسارعة.

ويتطلب سد الفجوة الرقمية تغييرًا جوهريًا. والأمر لا يتعلق بالأجهزة والبرمجيات. ولن تحل التكنولوجيا محل المعلم أبدًا ، ولكنها يمكن أن تزيد من فاعلية المعلم. وهناك أشياء لا يمكن للتكنولوجيا القيام بها، فمدة تركيز بعض الأطفال قصيرة، وهناك أطفال بحاجة إلى تحفيز وتشجيع، وما إلى ذلك، وبالتالي ينبغي إحداث توازن صحيح بين التكنولوجيا والعامل البشري عند الاستثمار في تعزيز المهارات الرقمية للمعلمين.

وهناك مصدر ثالث لعدم المساواة كشفته هذه الجائحة أن التعليم لا يحدث فقط في المدرسة ، ولكن في المنزل. وقد تجلى ذلك فجأة خلال هذه الجائحة. فليس لدى جميع الأطفال منزل مستقر مع أبوين متعلمين أو لديهما حافز لتعليم أبنائهما. وليس لدى جميع الأطفال شبكة انترنت أو كمبيوتر أو جهاز للاستخدام الخاص في المنزل. وليس لدى جميع الأطفال كتب في المنزل أو مكان لعمل الواجبات والدراسة. وهنا يجب تحقيق تكافؤ الفرص.

وقبل بضعة أشهر، كنا نناقش بالفعل كيف يعيش العالم أزمة تعلم. وأضحى خط الأساس حافلًا بالتحديات وازداد عدم الإنصاف والمساواة بصورة درامية. وبالتالي، ينبغي لاستراتيجيات التعلم في الأشهر المقبلة، مع توجه أنظمة التعليم نحو الوضع الطبيعي الجديد، ألا تمنح الأطفال الآن تجربة تعليمية أكثر إنصافًا وعدلًا فحسب، ولكن أيضًا فرصة تعليمية أكثر شمولًا تجعل الطالب أكثر قدرة على مجابهة الصعاب. وفي المدرسة، سيكون مزيج التعلم المباشر والتعلم عن بُعد حقيقة جديدة في واقع الحياة. ومع استمرار العملية التعليمية في المنزل، يلزم بذل جهد لتوفير الإنترنت والأجهزة للأطفال الفقراء. ويجب أن يكون لدى الأطفال كتب ومواد للقراءة في المنزل. وينبغي دعم الآباء وأولياء الأمور دعمًا كبيرًا ليكونوا رقمًا مهمًا في معادلة تعليم أطفالهم.

لكن يجب إدراك أن العملية التعليمية تتحقق من خلال تعزيز دور المعلم باستخدام التكنولوجيا؛ وتضافر الجهود بين المعلمين وأولياء الأمور والمجتمع؛ وضمان حصول كل طفل على المساندة التي يحتاجها. ولن يكون هذا سهلاً، بل سيتطلب قدرًا كبيرًا من التكيف من جانب جميع الأطراف الفاعلة في هذه العملية، فالأشياء الجيدة ليست سهلة المنال.

كورونا تضع العالم امام الاختبار الأعظم للتضامن

بعض الأقدار التي تتخلل الأزمان المتعاقبة تدفع البشرية للتأمل في رسائل الأيات الربانية والكونية وإعادة التمعن فيها، فما يتداعى له العالم حاليا من ضرورة التضامن والتكاتف للتحصن سويا من العدو الشرس «كورونا» لخصته الأية السماوية الكريمة لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون، وهي تعكس في

معانيها قيمة التضامن والتعاون ومساعدة ألأخرين بالغالي والنفيس.

وقف العالم اجمع مستنفرا امام أصعب اختبار منذ ان خلق الله ادم وبسط الأرض للبشرية فلا مناص ، لا مفر امام هذا التحدي من التعاون والتضامن والتكاتف في مواجهة الجائحة الهالكة للإنسان والثروات ، فلن ينجوا احد بمفرده مهما شاء او تحصن ، ما يعني ان الأنانية او الاستئثار بأسباب المعالجة لدولة ما وترك الآخرين لمصائرهم لن يكون منجاة بل العالم في مركب واحد الأن يواجه نفس الخطر من جائحة تهدد الجميع بالزوال ، فإذا اختفت من قارة متقدمة تملك منابع اللقاح وبقيت الجائحة في قارة اخرى تتسم بالفقر فإنها ستبقى مصدر قلق يهدد للجميع .

الهلع في أي بقعة في الأرض سيبقى مصدر قلق للجميع فما في الشرق يصيب الغرب وما في الشمال يصيب الجنوب ، ما قد لا يعني العالم من امراض وفقر في افريقيا مثلا لم يعد امرا خاصا بها في ظل «كورونا « لأنه ببساطة يمكن يصيب كل العالم ، فمجرد اعلان رسمي عن سلالة جديدة في أي بقعة من انحاء العالم ، يعلن الجميع حالة الإستنفار والتحوط وهذا سبب كافي ومبرر للتضامن والتعاون والتأزر والتكاتف فمواجهة الجائحة بالتعاون والتضامن الجماعي على مستوى العالم هو طريق واحد لا بديل له .

«بروجيكت سنديكيت» وهي منظمة دولية رائدة معنية بالتحليلات الهادفة رأت أن جائحة كورونا وما تحمله من تحديات ضمنية تمثل فرصة سانحة امام العالم لإعادة بناء الإجماع على نظام دولي قائم على التعددية وسيادة القانون من خلال التعاون الفعال والتضامن والتنسيق والعمل المشترك بين الجميع من كل انحاء المعمورة كشركاء في إطار الأمم ألمتحدة والمنظمات الإقليمية، والمنتديات الدولية، مثل مجموعة الدول السبع ومجموعة العشرين، والتحالفات المخصصة للتصدي للتحديات العالمية التي نواجهها الآن وفي المستقبل.

فللمرة الأولى تشكل جائحة صحية أول حالة طوارئ بهذا الحجم والعمق والتهديد للعالم اجمع وامام الإتهامات المتبادلة بين القوى العظمى لا تزال الجائحة مجهولة المصدر ويتنصل منها الجميع ولا يريد أي طرف الإعتراف بمسؤوليته عن انتشار هذا الفيروس المتحور والمدمر ما يعكس عمق اثارها وعظم مسؤوليتها .

وتُـعَـد أزمة مرض فيروس (كوفيد 19) الاختبار الأعظم للتضامن العالمي منذ أجيال ، وقد رسمت طريقا واحدا ذَكَّـرت العالم بحقيقة واضحة في مواجهة الجائحة هي ان قوة السلامة الصحية على قدر قوة أضعف نظام صحي في العالم . وعلى هذا المقياس فإن وجود كوفيد 19 في أي مكان في العالم يشكل تهديدا للناس والاقتصادات في كل مكان .

لذا تستدعي الجائحة استجابة دولية قوية منسقة وقادرة على توسيع القدرة على الوصول إلى الاختبارات والعلاجات واللقاحات بسرعة مع الاعتراف بالتحصين الشامل بوصفه منفعة عامة عالمية يجب أن تكون متاحة وبأسعار معقولة للجميع فالسلامة في هذه الأزمة تحديدا لا تتجزأ .

قاعدة التضامن العالمي يجب ان تتخطى كونها مصطلح عابر مستجد لوقت مؤقت فرضته ظروف الأزمة بل يتوجب ان يتبلور في ميثاق مستدام بشكل عاجل يحظى بكامل الدعم السياسي والمالي وتكون

النواة الحقيقية لانبثاق هذا التضامن الحقيقي المنصة العالمية الفريدة «مُـعَـجِّـل الوصول» التي أطلقتها منظمة الصحة العالمية وشركاء مجموعة العشرين في أبريل من العام 2020 وفق اليات تعزز التدفق الحر للبيانات بين الشركاء والترخيص الطوعي للملكية الفكرية.

على ان يخضع هذا التعاون على الأمد الأبعد إلى تقييم مستقل وشامل لمدى استجابة العالم ، بهدف استخلاص جميع الدروس المستفادة من هذه الجائحة، والاستعداد بشكل أفضل لما قد يهب على العالم من جوائح باستعداد اوسع وخبرات تضامنية اشمل لإستيعاب أي تحديات مستقبلية بأقل كلفة مالية وبإدارة بارعة للوقت وبضمانة استدامة الاقتصاد ليعمل بمرونة .

قاعدة التضامن العالمي يجب ان تكون شمولية لتغطي كافة التحديات على الكرة ألأرضية لتطال حالة الطوارئ على الجانب البيئي بوضع يعزيز جهود التصدي لتغير المناخ وجعل اقتصادات العالم أكثر استدامة.

لقد تسببت الجائحة كورونا في إحداث أسوأ أزمة اقتصادية في العالم، منذ الحرب العالمية الثانية وهي درس مفصلي في تاريخ البشرية حيث يشكل تعافي الاقتصاد العالمي ليعود قوياً ومستقراً أولوية أساسية وهاجس يسيطر على الجميع ، فالواقع أن الأزمة الحالية تهدد بإهدار التقدم الذي أحرزه العالم على مدار عقدين من الزمن في مكافحة الفقر وعدم المساواة التي تهدد أشكال التفاوت بين الناس ديمقراطيات العالم من خلال تقويض التماسك الاجتماعي.

وما لا شك فيه أن العولمة والتعاون الدولي ساعدا مليارات من البشر على الإفلات من براثن الفقر؛ لكن ما يقرب من نصف سكان العالم ما زالوا يناضلون لتلبية الاحتياجات الأساسية بالرغم من هذا التعاون ما يؤكد اننا فعليا في حاجة لمضاعفته .

ويبرهن على حاجة العالم لمزيد من التضامن والتعاون ان داخـل العديد من البلدان، أصبحت الفجوة بين الأغنياء والفقراء متسعة إلى حد لم يعد من الممكن أن يستمر على هذا المنوال وبنفس مستويات السلامة والاطمئنان ، ولا تزال المرأة تفتقر إلى الفرصة المتكافئة، ويحتاج كثير من الناس إلى الاطمئنان إلى فوائد العولمة.

بينما يهب العالم لإنقاذ الاقتصاد وتمكينه من التغلب على أسوأ ركود منذ عام 1945، تظل أولولويات الأساسية متمثلة في ضمان التجارة الحرة القائمة على القواعد كمحرك مهم للنمو الشامل المستدام. لذا، يتعين علينا أن نعمل على تعزيز منظمة التجارة العالمية وتحقيق الاستفادة الكاملة من إمكانات التجارة الدولية من أجل التعافي الاقتصادي .

في ذات الوقت يتعين علينا أن نضع حماية البيئة والصحة وكذا المعايير الاجتماعية في صميم نماذجنا الاقتصادية، في حين نعمل على ضمان الظروف الضرورية لدعم الإبداع .

تسلسل الرسائل التي نتجت عن ازمـة جائحة كورونا منذ اواخر عام 2019 حتى وصول العالم الى لقاح للفيروس بداية عام 2021 كرست مفهوما واحدا بأنه يتعين علينا أن نضمن وصول التعافي العالمي إلى الجميع. وهذا يعني تعظيم الدعم للبلدان النامية، وخاصة في إفريقيا، من خلال البناء والتأسيس على

الشراكات القائمة مثل ميثاق مجموعة العشرين مع إفريقيا وجهودها المشتركة مع نادي باريس في إطار مبادرة تعليق سداد أقساط الديون، وتجاوزها إلى شراكات أخرى جديدة.

ومن الأهمية بمكان مراعاة زيادة الدعم المقدم لهذه البلدان لتخفيف أعباء الديون التي تتحملها وضمان التمويل المستدام لاقتصادياتها، باستخدام النطاق الكامل للأدوات المالية الدولية مثل أصول صندوق النقد الدولي ألاحتياطية وحقوق السحب الخاصة.

وما بين ترسيخ مفاهيم التضامن العالمي واعادة بناء نسيج جديد للتعاون الإقتصادي يجب معالجة اهم ركن تسببت الأزمة الصحية العالمية في تعطيله مؤقتا لأنه عماد العالم مستقبلا وهو التعليم فملايين الأطفال والطلاب فقدوا مقاعدهم التعليمية وتراجعت مستويات التعليم وعلينا أن نفي بوعودنا بتوفير التعليم للجميع وأن نحرص على تزويد الجيل التالي بفهم واضح للمهارات الأساسية والعلوم ، فضلا عن فهم الثقافات المختلفة ، والتسامح وقبول التعددية ، واحترام حرية الوعي والضمير، إن الأطفال والشباب هم مستقبل العالم وتعليمهم ضرورة أساسية.

فمن ابرز الخلاصات الواضحة للأزمة الراهنة ان التصدي لهذه التحديات ، لا تشكل التعددية مجرد أسلوب دبلوماسي آخر، بل إنها تساعد في صياغة وتشكيل نظام عالمي، وهي طريقة محددة للغاية لتنظيم العلاقات الدولية على أساس التعاون ، وسيادة القانون، والعمل الجماعي ، والمبادئ المشتركة. وبدلاً من تأليب الحضارات والقيم بعضها ضد بعض، يتعين علينا أن نعمل على بناء تعددية أكثر شمولا، وأن نحترم اختلافاتنا بقدر ما نحترم قيمنا المشتركة المنصوص عليها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

ولهذا يتعين علينا أن نعكف على البناء على المبادرات القائمة وإشراك أصحاب المصلحة لتنظيم وصياغة العلاقات من جديد بشكل فعال من أجل خلق بيئة آمنة وحرة ومفتوحة ، بحيث يصبح تدفق البيانات وفق اطر جديرة بالثقة مضمونة لتعود الفوائد بشكل خاص على الفئات الأكثر حرمانا .

فهل يودع العالم بعد دروس كورونا ما سبق من اتجاهات متباينة أدت إلى رخاء متزايد على مستوى ألعالم بينما ظلت أشكال التفاوت قائمة أو في ازدياد. كما توسعت الديمقراطيات ، ولكن في ذات الوقت عادت النزعة القومية وسياسات الحماية إلى الظهور.

فعلى مدار العقود ألأخيرة تسببت أزمتان كبيرتان في تعطيل وإرباك مجتمعاتنا وإضعاف أُطُـر السياسات المشتركة ، مما ألقى بظلال من الشك على قدرتنا على التغلب على الصدمات ومعالجة أسبابها الجذرية وتأمين مستقبل أفضل لأجيال المستقبل لكن ذَكَّـرتنا هاتان الأزمتان بمدى الاتكالية المتبادلة بيننا.

الأن تتطلب جائحة كورونا التي اتفق الجميع على انها هي أشد الأزمات خطورة اتخاذ القرارات الأكثر طموحاً لتشكيل المستقبل بتضامن غير مسبوق وتعاون غير محدود او مشروط .

لقد دخل العالم في أسوأ أزماته الاقتصادية خلال المائة عام الماضية لكن الوباء كشف مشاكل عالمية كما أوضح ذلك، منتدى دافوس العالمي المنعقد في فبراير 2021، مثل عدم المساواة بين البشر والبلدان، وعدم

إستقرار أزمات المناخ والتنوع البيولوجي وفقاً لوصف الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريس.

لدى العالم في سنة 2021 فرصة فريدة لاستخدام التعافي من الوباء للإنتقال من حالة الهشاشة الى المتانة، فدخول الحرب ضد الطبيعة بحسب رؤية الأمين العام للأمم المتحدة، يؤدي إلى أن الطبيعة توجه لنا ضربة الرد، فما أحوج العالم اليوم الى الحوار والتعاون.

الدروس المستفادة وإغتنام الفرصة

لعل رئيسة وزراء النرويج سابقاً، غرو هارلم برونتلاند، ومن واقع خبرتها كمديرة عامة لمنظمة الصحة العالمية وكعضو في منظمة الحكماء، وفي مطالعة لها عبر النشر المشترك «Project Syndicat» مع «الجريدة» في الأول من فبراير عام 2021 كانت على تماس مباشر في تقديم رؤية لقدرة العالم على الارتقاء بمستوى التحديات تضيء مسارات التعلم من الجائحة.

ففي يناير 2021، شارك اثنان من زملاءها في منظمة الحكماء، ماري روبنسون وبان كي مون في الكشف عن «ساعة القيامة» (المؤشر السنوي للمخاطر الكارثية العالمية الذي تنشره نشرة علماء الذرة)، ففي عام 2020، اقتربت عقارب الساعة من «منتصف الليل» أكثر من أي وقت مضى- على بُـعـد 100 ثانية فقط- وستظل هناك في عام 2021.

ليس من المطمئن على الإطلاق القول أننا اقتربنا إلى هذا الحد من «منتصف الليل» هذا العام، فقد أظهرت جائحة مرض فيروس كورونا (كوفيد19) على نحو صارخ ومميت إلى أي حد أصبح أسلوب حياتنا هشا متداعيا، لقد أحرزنا تقدما ملحوظا في مجال اللقاحات، كما أن الإدارة الأميركية الجديدة تجلب الأمل في تجدد التعاون المتعدد الأطراف، ولكن ليس هناك من شك في أن المستقبل سيكون عامرا بالمخاطر التي تهدد وجود البشرية: الجائحات الجديدة، وأزمة المناخ، والصراع النووي، وغير ذلك من المخاطر التي لا يجوز لنا أن نتجاهلها.

ستكون القيادة السياسية في مرحلة ما بعد الجائحة اختبارا حاسما لقدرة العالم على الارتقاء إلى مستوى هذه التحديات، لقد تبين أن كثيرين من القادة ضعفاء يفتقرون إلى الكفاءة، فقد حصدت الجائحة أرواح نحو مليوني إنسان، وأحدثت دمارا اقتصاديا في مختلف أنحاء العالم، ورغم أن طرح اللقاحات على نطاق واسع يجلب بصيصا من أمل لبعض الناس، فسيظل أغلب سكان العالم مفتقرين إلى الحماية لبعض الوقت.

من المؤكد أن القرار الذي اتخذه الرئيس الأميركي جو بايدن بالعودة إلى التعامل مع منظمة الصحة العالمية كان إشارة محمودة لالتزام أميركا المتجدد بالتعددية، وكذا كان توقيعه على خطة COVAX لتوزيع اللقاحات بشكل عادل، لكن تيدروس أدهانوم غيبريسوس، مدير عام منظمة الصحة العالمية، حَـذَّرَ من «فشل أخلاقي كارثي» ما لم نبذل المزيد من الجهد لضمان إنتاج وتوزيع لقاحات كوفيد19 وفقا لمبادئ التغطية الصحية الشاملة.

كما يوضح تقرير جديد صادر عن منظمة الحكماء، فإن التغلب على جائحة كوفيد19 بشكل كامل لحالات الطوارئ الصحية في المستقبل يتطلب إعادة صياغة سياسة الصحة العامة العالمية حول ثلاث ركائز: الاستعداد للجائحات المنتظرة في المستقبل؛ وضمان التغطية الصحية الشاملة على المستويين الوطني

الخسائر التراكمية لأزمة كورونا

والعالمي؛ وتعزيز المجتمعات الأوفر صحة من خلال السياسات الشاملة والتنمية الاجتماعية.

لا تشتمل هذه الأجندة على أي جزء ثوري أو شديد التعقيد إلى الحد الذي يحول دون التمكن من تحقيقه بسرعة وعلى نطاق واسع. الواقع أن بعض البلدان التي كان أداؤها طيبا أثناء الجائحة- بما في ذلك تايلند وفيتنام، حيث لم يتجاوز عدد الوفيات بسبب كوفيد19 بين البلدين 100 حالة- تنفذ مثل هذه الاستراتيجيات بالفعل، ويكمن التحدي، كما هي الحال دوما، في دعم الأقوال بالأفعال، وضمان تمويل جهودنا وتصميمها على النحو اللائق دون التغافل عن احتياجات الفقراء والمهمشين.

لا شيء أكثر أهمية الآن من سياسة التطعيم. كان التطوير السريع لعدة لقاحات وليس لقاحا واحدا في أقل من عام واحد إنجازا مذهلا وانتصارا للإبداع البشري، والابتكار، والتعاون. وإنها لجريمة لا تغتفر ألا يجري توزيع هذه اللقاحات الثمينة بالعدل والإنصاف في مختلف أنحاء العالم، ففي ظل جائحة عالمية، لا يجوز أن نأمل في تحقيق التعافي الكامل أو إصلاح النسيج الاجتماعي دون تطبيق مبادى التضامن.

يتمثل واحد من أهم الدروس المستفادة من أزمة كوفيد19 في أن السعي إلى تحقيق المصالح القصيرة الأمد والنزعة القومية تسببا في إضعاف سياسة الصحة العالمية، والآن بات من الواضح أن التحركات الوطنية

نحو التغطية الصحية الشاملة يجب أن تسير جنبا إلى جنب مع الجهود المتعددة الأطـراف لتعزيز أنظمة الصحة العامة على مستوى العالم.

لتجهيز هذه الأنظمة للتعامل مع الجائحات في المستقبل، ينبغي لجميع أصحاب المصلحة أن يتعاملوا مع قضية التأهب والاستجابة لأي جائحة باعتبارها «منفعة عامة عالمية» تستلزم نهجا متعدد الأطراف، حيث تعمل الدول والمؤسسات العالمية على تجميع الموارد والقدرات والخبرات، ولا يقل عن هذا أهمية دعم (واحترام) العمل الجاري الذي تقوم به منظمة الصحة العالمية وغيرها من الهيئات المكلفة خصيصا بالتأهب للجائحات، بما في ذلك المجلس العالمي لمراقبة التأهب والهيئة المستقلة للتأهب والاستجابة للجائحة.

من المنظور الاقتصادي، يوفر الاستثمار في التأهب لتعزيز الأمن الصحي قيمة ممتازة مقابل المال، وفي حالة المجلس العالمي لمراقبة التأهب، من الممكن أن يـؤدي الإنفاق العالمي السنوي بنحو خمسة دولارات للفرد إلى تجنب تكرار كارثة كوفيد19، التي كلفت الاقتصاد العالمي بالفعل أكثر من 11 تريليون دولار، والعائد مرتفع على نحو مماثل عندما يتعلق الأمر بإصلاحات التغطية الصحية الشاملة، التي ثبت أنها تحقق للبلدان فوائد صحية واقتصادية ومجتمعية سريعة على مختلف مستويات الدخل.

30 مليار دولار سنويا.. مقابل كبح تفشي الأوبئة مستقبلا

بالرغم من ان العالم لم يخرج من براثن جائحة كورونا بالكامل او يقف في منطقة يمكن معها القول لها وداعا كورونا حتى بعد اطلاق اوسع عملية تلقيح حول العالم بعد اعتماد نحو ثلاثة لقاحات الا انه امام حالة الهلع والهواجس المسيطرة على الجميع من هول الصدمة دفعت مبكرا ببحث اساليب التحوط والحماية مستقبلا من هكذا اوبئة كشفت دراسة أميركية، نشرت في المجلة الأكاديمية للعلوم ، أن حماية العالم من تفشي مرض سببه الحيوانات بعد جائحة فيروس كورونا سيكلف سنويا ما بين 22.2 – 30.7 مليار دولار ، وهي أقل بكثير من الخسائر التي تكبدها العالم نتيجة تفشي كورونا والتي بلغت 8.1 تريليون دولار، وتلك تقديرات راجت أواسط العام 2020.

وذهب أندرو دوبسون، أستاذ علم البيئة وعلم الأحياء التطوري في جامعة برينستون والمؤلف الرئيسي للدراسة أن الأوبئة الجديدة تظهر كل أربع أو خمس سنوات. وأضاف أن هذا الجهد يجب أن يكون مكثفاً، وأن يستثمر في مراكز الأبحاث والفيروسات لتسريع تطورات اللقاحات، فضلاً عن تقليص إزالة الغابات وتقييد ومراقبة الثروة الحيوانية وتجارة الحياة البرية لمنع انتشار المرض من مصدره.

وقد يبدو تسريع أبحاث اللقاحات أمرًا بديهيًا في ضوء الجهود البحثية العالمية التي حظيت بتغطية إعلامية كبيرة في تطوير لقاح لفيروس كورونا الجديد، بالإضافة إلى أن المراقبة الوثيقة لتجارة الحيوانات البرية والبيئة مهمة بشكل خاص لوقف الأمراض الحيوانية المنشأ.

ويتعرض البشر غالبًا للأمراض عندما يبدأون بالتعدي على البيئات الطبيعية، وهذا يزيد بشكل كبير من خطر انتشار المرض المحتمل، كما أن تغير المناخ يمكن أن يؤثر أيضا على توقيت وطريقة ظهور المرض .

ونبهت فاجعة كورونا العالم الى مواطن ومصادر خطرة قد تكون منشأ خصب مستقبلي لمثل هذه الأوبئة مثل تجارة الحياة البرية التي تحمل مخاطر عالية للغاية في انتشار الأمراض الحيوانية المنشأ، ويتجلى هذا بشكل خاص في فيروس كورونا، الذي يُعتقد أنه بدأ في سوق للحيوانات الرطبة في مدينة ووهان في الصين.

فعلى الصعيد العالمي، تعد التجارة غير القانونية في الحياة البرية صناعة مربحة للغاية، وفقًا للبنك الدولي، وبلغت قيمتها عام 2016 حوالي 23 مليار دولار.

وهذا أمر مثير بشكل خاص مقارنة بالميزانيات الضئيلة نسبياً للمنظمات المسؤولة عن مراقبة ومكافحة الاتجار غير المشروع في الأحياء البرية، ويدعو العلماء إلى منح هذه الوكالات ميزانيات سنوية تبلغ 500 مليون دولار، وكذلك إلى تمويل أكبر للوكالات لمراقبة صناعة الثروة الحيوانية.

كوفيد - 19 واستخلاص العبر

تعد التجربة مصدر رئيسى للتعلم، وجائحة كوفيد-19 تجربة جديدة علينا جميعا، وبينما نناقش القرارات الرسمية التى تم اتخاذها خلال جائحة فيروس كورونا المستجد على مستوى جمهورية مصر العربية كمثال، نحتاج إلى استخدام الخبرة الناتجة فى هذه العملية كمصدر للتعلم، فى الحاضر والمستقبل.

فثمة نقاط جوهرية ظهرت خلال الجائحة بقوة يجب الوقوف عندها والتعلم منها جيدا واستخلاص الدروس والفوائد :

1 - يجب إعطاء الرعاية الصحية الأولية وأهمية أساسية فى النظام الصحى عن طريق دعم مستوى الرعاية الأساسية وطب الأسرة، وهو ما يوفره نظام التأمين الصحى الشامل. على سبيل المثال، فى ولاية كيرالا فى الهند، يعتبر النجاح فى احتواء كوفيد-19 فى المقام الأول بسبب العمل على مستوى الرعاية الصحية الأولية. يتم تنفيذ جميع أنشطة الصحة العامة اللازمة لمكافحة الأوبئة ــ بما فى ذلك الاختبارات والكشف المبكر عن الحالات والتدابير الوقائية المختلفة من قبل موظفين على مستوى الرعاية الصحية الأولية.

2 - توفير أقصى حماية ممكنة للفرق الصحية بتطبيق علمى صارم لإجراءات مكافحة العدوى، وتوفير مستلزماتها كاملة وتحديد ساعات عمل مقننة، فالعاملون فى القطاع الصحى هم الخط الأمامى للاستجابة لتفشى كوفيد ــ19، وحمايتهم ضرورة لحماية ورعاية الجميع. وما تزال الأخبار اليومية تتحدث عن وفيات في العاملين في القطاع الصحي، فضلا عن عدم نشر قواعد البيانات التى قد تساعد الباحثين والخبراء فى مجال الصحة فى فهم أسباب الإصابة والوفاة والبحث عن حلول لها لتلافيها.

3 - تطبيق منظومة الترصد الوبائى بدقة ومتابعة بؤر الانتشار وتوفير آليات التشخيص لا مركزيا. إن برامج الترصد والتنبؤ والاستجابة تسعى إلى تحقيق وقاية مسبقة ومكافحة فعالتين للأمراض عن طريق وضع قواعد ومعايير وإرشادات وأدوات للصحة العامة. والحقيقة، فإن جائحة كوفيد-19 كشفت لنا بوضوح عن الحاجة لتطوير قطاع الطب الوقائى ومنظومة الترصد الوبائى، فالجائحة كشفت أن نظام قطاع الطب الوقائى والترصد الوبائى ليسا بالقوة والكفاءة المتوقعة، لقد تم بذل مجهود كبير لا ينكره

أحد، ولكن هذا القطاع يحتاج لتحديث وتطوير كبير، بحيث يكون قائم على التكنولوجيا الحديثة. ووجود ترصد وبائى قوى مرتبط بوجود محليات قوية وفعالة، لذلك، هناك احتياج قوى لإصلاحات تقوى وتعزز اللامركزية، والاهتمام بالوحدات المحلية. ومن المفيد النظر فى تجارب بعض الدول الآسيوية التى لديها نظم ترصد وتقصى متطورة على سبيل المثال كوريا الجنوبية.

4 - أهمية تدعيم صناعة الدواء الوطنية والبحث العلمى الدوائى، ودعم شركات القطاع العام، بما فيها تصنيع المواد الخام، والتجهيزات والمستلزمات الطبية. وفى أحد بيانات مجلس الوزراء، أشار بوضوح إلى ضرورة الإسراع بعملية تطوير الصناعات الدوائية فى مصر. ومن المهم فتح نقاش مجتمعى واسع فى هذا الشأن، والاستماع لآراء الخبراء والمصنعين ونقابات الأطباء والصيادلة وجميع المعنيين بتطوير الصناعة الدوائية.

5 - تكامل المنظومة بكل أطرافها ومستوياتها فى الاستجابة وتنسيق مركزى محكم وتنفيذ لا مركزى. فنظام الإدارة والحكم المحلى فى مصر هو نظام يعكس مركزية شديدة فى يد السلطة التنفيذية المركزية مع ضعف شديد فى المحليات.

6 – المشاركة المجتمعية فى إدارة الأزمة ورفع الوعى الصحى وإبـراز قصص النجاح الصحية وتفعيل أدوات المساءلة والرقابة.

7 - أهمية الشفافية، والكشف عن المعلومات للناس، فالجميع ينتظر البيان اليومى الخاص بأرقام الإصابات والوفيات الخاص بكوفيد ــ19. فالإجراءات الوقائية حتى يتم تنفيذها بشكل جيد تعتمد على المواطن، وحتى يلتزم المواطنون فهم يحتاجون إلى قدر من المعلومات. ولكن، مازالت الحاجة قائمة لمستوى من الشفافية أكثر مما هو موجود حاليا.

8 - القطاع الخاص فى الأزمة كان جزء من المشكلة، على مدى عقود، تركت الدولة القطاع الخاص يعمل بدون تنظيم وقيود، حتى صار فى وضع تحقق فيه المستشفيات الخاصة والمعامل وغيرها من المراكز الصحية الخاصة أرباح خيالية. وخلال الوباء، أصبح من الواضح أنه لا يمكن ترك المجال للقطاع الخاص كما فى السابق لأن الجائحة أثبتت عدم قدرتهم على الوفاء بالتزامات الصحة العامة الهامة. وكمثال، معركة القطاع الخاص مع وزارة الصحة حول تسعير الخدمات المقدمة خلال الجائحة تثبت عدم فائدة القطاع الخاص للقيام بدور فعال فى الجائحة وفى حالات الطوارئ الصحية بشكل عام، وهذا أحد الدروس المهمة التى يجب تعلمَّها، ودور هذا القطاع فى النظام الصحى يحتاج لمراجعة وتنظيم قوى، حتى يعود لحجمه الطبيعى، وهو ما يوفره قانون التأمين الصحى الشامل الجديد لتنظيم وضبط هذا القطاع.

وفى الخلاصة يمكن االوصول الى ان أحد أهم الدروس المستفادة من الجائحة هو التمسك بتطبيق قانون التأمين الصحى الشامل الجديد، والعمل بشكل جاد على استكمال تطبيقه فى مراحله الثلاث، فهى مهمة ليست سهلة وتحتاج لكثير من العمل والمتابعة والمراقبة، حتى تتحقق التغطية الصحية الشاملة لجميع المواطنين بدون تمييز، بالإضافة إلى أن القانون الجديد يعالج الكثير من نقاط الضعف فى النظام الصحى، التى

كانت موجودة من قبل الجائحة، وأظهرتها الجائحة بوضوح للجميع.

الوجه الآخر لـ «كورونا»!!

فرص عمل واستثمارات بتريليونات الدولارات!

بالرغم من ان فيروس كورونا، تمخض عنه كارثة اقتصادية عالمية غير مسبوقة لم يشهد العالم مثيلا لها من قبل، سواء في اتساع نطاق انتشارها أو حجم الأضرار التي خلفها، ناهيك عن الإغلاقات واضطراب أعمال سلاسل التوريد والاستغناء عن ملايين العاملين على مستوى العالم، إلا انه خلق فرصا غير متوقعة للعمل والاستثمار في 54 مجالا مختلفا، ويتوقع أن تتراوح القيمة الإجمالية لهذه الفرص بين 1.38 و1.94 تريليون دولار خلال الفترة بين عامي 2020 و2024.

فأحد اهم الفرص على الإطلاق هو سوق منتجات الحد من انتشار فيروس كورونا الذي سيتنامى بين «2020-2024»، حيث الانتعاش الاقتصادي سيعتمد على مدى جودة استخدام مؤسسات الرعاية الصحية والمجتمعية والحكومات للمنتجات والمستحضرات الطبية في مساعيها للتخفيف والحد من انتشار الوباء والتصدي للطفرات الجديدة حتى يتعافى الاقتصاد، كما ان منتجات وخدمات هذا السوق الجديد ستكافح الوباء وتقلل من تأثير الانكماش الكارثي الذي تعرض له الاقتصاد العالمي.

وفيما تبدأ الدول إعادة فتح الأبواب لتحريك اقتصاداتها، تتصدر الواجهة فرص في قطاعات الأعمال التي تبلغ قيمتها مليارات الدولارات والتي قد تساعد قطاعات صناعية متعددة تكافح من أجل الحفاظ على استمرارية الأعمال والنمو.

ولا يقتصر هذا السوق الذي تولد حديثا على صناعة الرعاية الصحية كصناعة الأدوية والمستحضرات الطبية.

ونتيجة الوباء، يتم إيجاد العديد من فرص الأعمال في سلسلة واسعة من الصناعات الأخرى التي تتراوح بين أنظمة تتبع الاتصالات والذكاء الاصطناعي ومن البيانات الضخمة والتعلم المتعمق إلى إنتاج الأقمشة غير المنسوجة.

ومبدئيا تبدو هناك حاجة ماسة للمزيد من تصنيع مختلف الأدوات والحاجيات سواء الطبية والصحية والأغذية وتقدر مبدئيا بنحو 55 منتجا وخدمة من بينها لقاحات لتوفير حماية طبية للعين بالإضافة للأدوية العلاجية وتعقيم معدات الوقاية الشخصية كالأنظمة والمواد المستهلكة، فضلا عن منتجات أخرى كالصناعات الدوائية ومعقمات اليدين والأسطح، وأجهزة برمجيات فحص PCR والمراقبة ومعدات حماية شخصية ومسحات الأنف والفم واختبار PCR ذاتي التجميع وأنظمة وخدمات المراقبة الجغرافية واختبار الأمصال وقياس الحرارة والصحة الإلكترونية وإجراءات الأشعة السينية وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الأخرى.

وتشمل معدات وإجراءات الأشعة المقطعية وقياسا بالموجات فوق الصوتية وأجهزة التهوية الميكانيكية الغازية والعباءات الطبية ومعدات الوقاية الشخصية في المستشفيات ذات القدرات العالية، ووحدات العناية المركزة القفازات الطبية وأقنعة الوجه الطبية وواقيات

الوجه الطبية، بالإضافة لمعدات غسل الكلى وطرق العناية المركزة الأخرى.

وتشمل بناء مصانع لإنتاج العباءات الطبية والقفازات وأقنعة الوجه، وأخرى لتصنيع أنظمة PCR ومصانع إنتاج مسحات الأنف والفم وتصنيع دروع الوجه ومصانع لإنتاج الزجاج الطبي.

وتشمل المستشفيات، إستعداداً للموجة الثانية من الفيروس والمختبرات الطبية والعيادات وخدمات الطوارئ الطبية والرعاية المنزلية ودور التمريض ومؤسسات الأبحاث.

وتشمل الولايات المتحدة وكندا والمملكة المتحدة الأسواق الوطنية ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبقية أوروبا الهند والصين وكوريا الجنوبية واليابان وبقية دول منطقة آسيا والباسيفيك.

وهناك 5 أسـواق إقليمية تشمل كلا من أميركا الشمالية، وأميركا اللاتينية، وأوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا، ومنطقة آسيا الباسيفيك.

الجائحة تهدي 100 دولة فقيرة 160 مليار دولار

بين ركام وحطام جائحة كورونا طاقات نور وبصيص امل تولد لكثير من الدول خصوصا الفقيرة ، فالعديد من المؤسسات الدولية حشدت امكاناتها المالية لمجابهة الجائحة وكان من ابرز ذلك مجموعة البنك الدولي التي رصدت 160 مليار لمائة دولة فقيرة .

انطلاقة البنك الدولي مدعومة بمعطيات صعبة على ارض الواقع للكثير من دول العالم ، فقد نبهت دراسة تحليلية صادرة عن مجموعة البنك الدولي "– IDA IBRD " أن جائحة فيروس كورونا تهدد المكاسب التي تحققت بشق الأنفس في مجالي الصحة والتعليم على مدى العقد الماضي، خاصة في أشد بلدان العالم فقرا. فالاستثمارات في رأس المال البشري ، المعارف والمهارات والصحة التي تتراكم لدى البشر على مدى حياتهم – هي الأساس لإطلاق العنان لإمكانات أي طفل وزيادة النمو الاقتصادي في كل بلد.

فيتضمن مؤشر رأس المال البشري 2020 الذي وضعته مجموعة البنك الدولي بيانات عن الصحة والتعليم في 174 بلداً تغطي 98 % من سكان العالم، وذلك حتى شهر مارس 2020، مما يتيح خط أساس لما قبل تفشي الجائحة بشأن صحة الأطفال وتعليمهم.

ويظهر التحليل أن معظم البلدان قد حققت تقدما مطردا في بناء رأس المال البشري للأطفال قبل تفشي الجائحة، مع تحقيق أكبر القفزات في البلدان المنخفضة الدخل. على الرغم من هذا التقدم، وحتى قبل انتشار تأثيرات الجائحة، يمكن أن يتوقع الطفل المولود في بلد ما ألا يحقق سوى 56 % من إمكانات رأس ماله البشري، وذلك بالمقارنة بمعيار التعليم الكامل والصحة الوافرة.

معطيات التقرير واهمية معطياته حفزت رئيس مجموعة البنك الدولي ديفيد مالباس للتأكيد على «إن هذه الجائحة تعرض للخطر ما تحقق من تقدم خلال عشر سنوات في بناء رأس المال البشري، بما في ذلك التحسينات في مستوى الصحة، ومعدلات البقاء على قيد الحياة، والالتحاق بالمدارس، وانخفاض التقزم. والتأثير الاقتصادي لهذه الجائحة عميق بشكل خاص بالنسبة للنساء والأسر الأكثر حرماناً، مما يترك العديد منهم عُرضة لانعدام الأمن الغذائي والفقر... إن حماية

البشر والاستثمار فيهم أمر حيوي في الوقت الذي تعمل فيه مختلف البلدان على إرساء الأساس للتعافي المستدام الشامل والنمو المستقبلي".

وقد تسببت الجائحة في عدم انتظام معظم الأطفال، أكثر من مليار طفل في الدراسة بمدارسهم، وقد يخسرون في المتوسط نصف عام من التعليم، بعد تعديله ليعكس مقدار التعلم، وهو ما سيتحول إلى خسائر نقدية ضخمة. كما تظهر البيانات حدوث تعطل ملموس في الخدمات الصحية الأساسية للنساء والأطفال، مع فوات الفرصة على عديد من الأطفال للحصول على التطعيمات الحيوية.

ويقدم مؤشر رأس المال البشري 2020 أيضا نظرة لتطور نتائج رأس المال البشري على مدى عقد من الزمن من عام 2010 حتى عام 2020، حيث اتضح تحقيق تحسينات في جميع مناطق العالم، أينما توفرت البيانات، وفي جميع مستويات الدخل. ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى التحسينات في مستوى الصحة، وهو ما تجسد في تحسّن معدلات بقاء الأطفال والكبار على قيد الحياة وانخفاض التقزم، فضلا عن زيادة الالتحاق بالمدارس. لكن هذا التقدم معرض الآن للخطر بسبب الجائحة العالمية.

ومن النتائج اللافته أن نتائج رأس المال البشري بالنسبة للفتيات أعلى في المتوسط منها بالنسبة للبنين. غير أن هذا لم يتحول إلى فرص مماثلة لاستغلال رأس المال البشري في سوق العمل: تقل معدلات تشغيل النساء في المتوسط بمقدار 20 نقطة مئوية عن معدلات تشغيل الرجال، مع وجود فجوة أوسع في العديد من البلدان والمناطق. وعلاوة على ذلك، فإن الجائحة تزيد من مخاطر العنف القائم على نوع الجنس، وزواج الأطفال، وحمل المراهقات، وكلها عوامل تزيد من تقليص فرص التعلم والتمكين للنساء والفتيات.

واليوم تتعرض للخطر مكاسب رأس المال البشري التي تحققت بمشقة في العديد من البلدان. بيد أنه بوسع بلدان العالم أن تفعل ما هو أكثر من مجرد العمل لاستعادة ما خسرته من تقدم. فمن أجل حماية وتوسيع نطاق المكاسب السابقة في رأس المال البشري، تحتاج هذه البلدان إلى التوسع في جودة الخدمات الصحية ونطاق تغطيتها في المجتمعات المهمشة، وتعزيز نواتج التعلم إلى جانب الالتحاق بالمدارس، ودعم الأسر المحرومة من خلال تدابير الحماية الاجتماعية التي تتكيف مع حجم أزمة جائحة كورونا.

وتعمل مجموعة البنك الدولي بشكل وثيق مع الحكومات المعنية لوضع حلول طويلة الأجل لحماية الناس والاستثمار فيهم أثناء انتشار الجائحة وبعدها ففي إثيوبيا ومنغوليا وهايتي، يدعم البنك اقتناء معدات طبية حيوية.

وفي بنغلاديش وبوركينا فاسو ونيبال، يدعم البنك الدولي وضع بروتوكولات السلامة والنظافة المدرسية، بينما يتعاون مع فرق مياه الشرب والصرف الصحي والصحة العامة لتوفير اللوازم الأساسية للصحة العامة .

وفي الأردن وتركيا، يقوم البنك الدولي، بدعم وضع المحتوى التلفزيوني والرقمي للتعليم المختلط للعام الدراسي الجديد، فضلا عن تقديم المشورة النفسية الاجتماعية والدورات العلاجية.

وفي منطقة الساحل، يدعم البنك مشروع التمكين الاقتصادي للمرأة والاستفادة من العائد الديموغرافي الذي يهدف إلى تهيئة بيئة مواتية لتمكين النساء والفتيات

من خلال برامج لإبقاء الفتيات في المدارس، وتوسيع الفرص الاقتصادية والحصول على خدمات الصحة الإنجابية الجيدة. .

كما يساعد البنك الهند على التوسع فـورا في التحويلات النقدية والمزايا الغذائية، باستخدام مجموعة من المنصات والبرامج الوطنية القائمة لتوفير الحماية الاجتماعية للعاملين الأساسيين المشاركين في جهود الإغاثة من جائحة كورونا؛ وتُفيد الفئات الضعيفة، ولا سيما بين المهاجرين والعمال غير النظاميين، الذين يواجهون مخاطر الاقصاء العالية.

إن التدابير الطموحة التي تعتمد على الأدلة في مجال الصحة والتعليم والحماية الاجتماعية يمكن أن تستعيد المكاسب المفقودة وتمهد الطريق أمام أطفال اليوم للتفوق فيما تحقق من إنجازات في رأس المال البشري وجودة الحياة للأجيال التي سبقتهم. إن تحقيق الإمكانيات الخلاقة المتجسدة في كل طفل لم هو أهم الآن من أي وقت سبق.

ومن واقع المسؤولية الخلاقة تنفذ مجموعة البنك الدولي، وهي واحدة من أكبر المصادر العالمية للتمويل والمعارف للبلدان النامية، سلسلة تدابير سريعة وواسعة النطاق لمساعدة هذه البلدان على تدعيم تصديها لهذه الجائحة.

وتدعم مجموعة البنك تدخلات الرعاية الصحية، وتعمل على ضمان تدفق المستلزمات والأجهزة الحيوية، ومساعدة مؤسسات القطاع الخاص على مواصلة عملها والحفاظ على موظفيها. ولهذه رصدت ما يصل إلى 160 مليار دولار من الموارد المالية على مدى 15 شهرا لمساعدة أكثر من 100 بلدٍ على حماية الفئات الفقيرة والمحرومة، ومساندة الشركات، وتعزيز الانتعاش الاقتصادي. ويشمل ذلك 50 مليار دولار من الموارد الجديدة من المؤسسة الدولية للتنمية في شكل منح أو قروض ميسَّرة للغاية.

28 تريليون دولار.. فاتورة إجمالية

في حين حذَّر صندوق النقد الدولي من الخسائر التراكمية لأزمة «كورونا» على الاقتصاد العالمي، توقع أن تتجاوز الفاتورة النهائية للأزمة 28 تريليون دولار من الناتج الإجمالي خلال السنوات الخمس المقبلة.

وبحسب أرقام البنك الدولي، أدى الوباء إلى وصول 124 مليون شخص إلى حالة من الفقر المدقع في سنة 2020، وهي أول سنة تسجّل هذه الزيادة الهائلة منذ عقدَين. ووفق تقديرات خبراء الاقتصاد، سيكلّف تفشي كورونا طوال سنتين العالم 10.3 تريليونات دولار، ويعتبر البنك الدولي الانكماش الحاصل مساوياً لضعف الركود العظيم. في نهاية المطاف، لذلك ستكون حملات التلقيح العالمية الطريقة الوحيدة لكبح هذا الانهيار.

الصندوق نبَّه إلى أن الإجـراءات السريعة التي اتخذتها البنوك المركزية خففت من تأثير الضرر الذي لحق بالنشاط الاقتصادي بسبب الإغلاق، محذراً من الوقف المبكر لإجراءات الدعم.

المستشارة الاقتصادية للصندوق غيتا غوبيناث رجحت إن فيروس «كورونا» سيترك ندوباً عميقة ودائمة ناجمة عن فقدان الوظائف وضعف الاستثمار وحرمان الأطفال من التعليم، متوقعة أن ترتفع الخسائر التراكمية للجائحة من 11 تريليون دولار خلال عام 2020/ 2021

إلى 28 تريليون دولار خلال 2025/ 2020 ما يمثل انتكاسة شديدة للتحسن في متوسط مستويات المعيشة في مختلف الدول.

وعليه فإن الحكومات معنية بأن تستمر في دعم الأجور، والتأمين ضد البطالة، لمنع حالات الإفلاس للشركات على نطاق واسع وضمان عودة العمال إلى الوظائف، مع مساعدة الشركات الضعيفة القادرة على البقاء من خلال تأجيل المستحقات الضريبية، وخدمة الديون.

وفي توقعاته للاقتصاد العالمي، ذهب الصندوق إلى إن الأداء الأقوى أكثر من المتوقع في الربعين الثاني والثالث، يعني أنه يعتقد أن الناتج العالمي سينخفض بنسبة 4.4% في عام 2020 مقارنة مع توقعات الانخفاض التي بلغت 5.2% خلال الصيف من ذات العام لكن المنظمة التي تتخذ من واشنطن مقراً لها قالت إن ارتفاع معدلات الإصابة في بعض اقتصادات الأسواق الناشئة أجبرها على تقليص تقديراتها للانتعاش في عام 2021 من 5.4% إلى 5.2%، كما أن الفجوة تتسع بين الدول الغنية والفقيرة.

وفنَّدت غوبيناث التوقعات بأن تنمو الخسارة التراكمية في الإنتاج مقارنة بالمسار المتوقع لما قبل الجائحة من 11 تريليون دولار خلال 2020 ــ 2021 إلى 28 تريليون دولار خلال 2020 ــ 2025 وهذا يمثل انتكاسة شديدة للتحسن في متوسط مستويات المعيشة في مختلف الدول».

لكن ما خفف نسبياً من وطأة الأزمة هي الإجراءات السريعة التي اتخذتها البنوك المركزية حول العالم إذ خففت من تأثير الضرر الذي لحق بالنشاط الاقتصادي بسبب الإغلاق، وحذر صندوق النقد الدولي من الوقف المبكر لإجراءات الدعم. كارثة مالية واعتبرت غوبيناث «ان اجراءات الدعم المالي على مستوى عالمي، والتي زادت على 12 تريليون دولار والتخفيضات الواسعة في أسعار الفائدة، وضخ السيولة وشراء الأصول من قبل البنوك المركزية، ساعد في إنقاذ الأرواح وسبل العيش ومنع وقوع كارثة مالية».

لكن الحكومات مطالبة بأن تستمر في تقديم الدعم من خلال التحويلات النقدية الموجهة بشكل جيد، ودعم الأجور، والتأمين ضد البطالة. ولمنع حالات الإفلاس على نطاق واسع وضمان عودة العمال إلى وظائف منتجة، يجب أن تستمر الشركات الضعيفة والقادرة على البقاء في تلقي الدعم، حيثما أمكن ذلك، من خلال التأجيلات الضريبية، ووقف خدمة الديون.

واستنادا الى تقرير آفاق الاقتصاد العالمي على أساس كل دولة، تذهب التوقعات إلى انكماش الاقتصاد البريطاني بنسبة 9.8% في 2020، أي ثاني أسوأ وضع بعد فرنسا بين مجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى ومع اكتشاف سلالة بريطانية جديدة متحورة أطلق عليها اسم السلالة البريطانية، كانت خطوات الدولة متسارعة بإتجاه اغلاق الاسـواق وتوقف الاعمال إضطرت الحكومة الى أن تقترض يومياً مليار جنيه استرليني كدين داخلي واستعانت بـ 3,4 مليار جنيه من أموالها الداخلية متوقعة أن يبلغ اجمالي الدين الداخلي حتى شهر مارس 2021 حوالي 2,13 تريليون جنيه استرليني وهذا يحدث لأول مرة منذ الستينيات. ومن المتوقع أن تكون الولايات المتحدة هي الأقل تأثراً من بين الاقتصادات المتقدمة الرئيسية، حيث يتوقع صندوق النقد الدولي انكماشاً في الإنتاج بنسبة 4.3%.

أما إيطاليا، فمقدر لها أن تعاني من انخفاض بنسبة 10.6%، وستكون أسوأ من المملكة المتحدة أيضاً في 2020.

كما من المتوقع أن تكون كندا وحدها من دول مجموعة السبع، التي تحقق نموا أكبر في 2021 مما كان متوقعًا في يونيو 2020.

صندوق النقد الدولي عاود خفض تقديراته للنمو في المملكة المتحدة بمقدار 0.4 نقطة إلى 5.9% العام 2021.

لكن «لا تزال العمالة أقل بكثير من مستويات ما قبل الوباء، وأصبح سوق العمل أكثر استقطابًا مع تضرر العمال ذوي الدخل المنخفض والشباب والنساء بشكل أكبر، كما أن الفقراء يزدادون فقرا مع ما يقرب من 90 مليون شخص من المتوقع أن يقعوا في حرمان شديد هذا العام، ومن المرجح أن يستغرق الخروج من هذه الكارثة وقتاً طويلاً».

44 مليار دولار عوائد الصندوق السيادي النرويجي

بالرغم من قسوة الأزمة سجل صندوق الثروة السيادي النرويجي، الذي تتجاوز قيمته تريليون دولار، عائدًا بقيمة 412 مليار كرونة (44 مليار دولار) في الربع الثالث من العام 2020، بدعم من ارتفاع مكوناته الاساسية من الأسهم العالمية، وختم العام الأكثر حدة بعوائد بلغت نحو 120 مليار دولار تقريباً.

وبلغ عائد أكبر صندوق ثروة سيادي في العالم 4.3 في المئة خلال الأشهر الثلاثة المنتهية في سبتمبر، مع ارتفاع العائد من الأسهم 5.7 في المئة، والسندات 1.1 في المئة، والعقارات 0.9 في المئة.

وبحلول نهاية سبتمبر بلغت قيمة الصندوق مستوى 1.16 تريليون دولار، إذ بلغت حيازته من استثمارات الأسهم 70.7 في المئة، ومن العقارات 2.7 في المئة والسندات 26.6 في المئة.

وصرح المدير التنفيذي للصندوق نيكولاي تانجين بأن الأسواق المالية لا تزال متأثرة بحالة عدم اليقين المرتبطة بفيروس «كورونا»، ومع ذلك أكد أن أداء أسواق الأسهم كان جيداً بدعم من الأداء القوي في قطاع التكنولوجيا في الولايات المتحدة.

كورونا دعوة للإستيقاظ والنهوض :

مستقبل الاقتصاد والأعمال مصير غامض

وتغيرات اجبارية

لم تكن مقولة ان جائحة كورنا ستغير وجه الحياه برمتها على الكرة الأرضية من باب المبالغة ، فأثر الجائحة سيستمر والتغير سيجرف اجباريا اصحاب الأراء المتحجرة او المعاكسة والمناهضة للتغيير فلن يكون ما قبلها كما بعدها .

التغير سيبدأ من سلوكيات البشر وطريقة الحياة وهو ما سينعكس على اليات الأسواق والأقتصاد عموما فالمعادلة لها طرفين مستثمر او بائع ومستهلك ومتلقي للخدمات .

طريقة الحياة ستجبر الجميع على مواكبة التغيير فنظام الرعاية الصحية يحتاج إلى خطة مرنة تشمل القوى العاملة والإمدادات وبات على المؤسسات الصحية ألا تتراجع عن تبني التقنيات الرقمية بعد الجائحة

على مشغلي الاتصالات التفكير في الدور المستقبلي

الذي يريدون لعبه في المجتمع وداخل أنظمتهم البيئية كون التكنولوجيا هي العمود الفقري للعديد من القطاعات لذا يجب النظر في كيفية استخدامها بما يسهم في دعم الأعمال وعلى الشركات الاستهلاكية أن تضاعف طموحها 4 مرات فيما يتعلق بسرعة التحول الرقمي .

ومن باب تأكيد تلك النظرة والرؤية حول مستقبل سوق الأعمال في عصر ما بعد جائحة "كورونا" وما بعدها، قد حسمه كبار مسؤولي مؤسسة "ماكينزي» إلى عدد من المحاور والقطاعات التي يتوقع لها ان تشهد نمواً أو تحدياً لما بعد 2020.

وأبدى الخبراء في "ماكينزي الأمريكية احد اهم بيوت الإستشارات في العالم واستشراف الرؤى المستقبلية « بشأن "تأثير أزمة COVID-19 في تغيير نمط صناعات كاملة في غضون السنوات المقبلة في اهم القطاعات الحيوية مثل الاتصالات، والأعمال والتكنولوجيات والصحة، والمنتجات الاستهلاكية.

ويقول كيفن سنيدر: "انه أصبح واضحًا جدًا أنه في كل قطاع سنتطرق إليه سنجد موجات من ألاضطراب ، بمعنى أننا بعد الجائحة قد انتقلنا من الحرب الشاملة إلى البحث عن مجرم خطير ينبثق في العديد من الأماكن ألمختلفة والتي تتطلب منا اتخاذ إجراءات مختلفة حسب مكان ظهورها. إن كوفيد 19- مجرم سيستمر في إصابتنا لبعض الوقت في المستقبل".

ولتشعب تداعيات ازمة كورونا على الاقتصاد العالمي تطرق كبار شركاء "ماكينزي» ليز هيلتون سيجل، وساجال كوهلي الى الكيفية التي تعمل بها أزمة COVID-19 على تغيير الصناعات الاستهلاكية والتجزئة.

ثمة اتفاق وتقاطع في الأراء على صعوبة وعمق الأزمة وضرورات التغيير التي تفرض نفسها على أولويات الشركات ألاستهلاكية حيث جاءت الرؤية موحدة ومشتركة بين ماكينزي وشركاؤها فإفادة سيجل نبهت الى أن المشكلة الأكثر شيوعًا التي أرى الشركات الاستهلاكية تقع فيها هي فقط التمسك بالماضي – وعليه فإن الأشياء التي كانت صحيحة في الماضي القريب لن تكون صحيحة بعد عامين إلى 3 أعوام من الآن.

أزمة COVID-19 تحتاج الى إعادة النظر حول الرؤية، وتوقع كيفية تأثيرها على مجريات الأعمال، ومن ثم الاستعداد لتلك الاتجاهات وبناء القدرات التي من شأنك أن تتكئ عليها".

كما انه من اهم الأولويات التي يجب على الشركات الاستهلاكية ان تقوم بها هو مضاعفة طموحها أربع مرات فيما يتعلق بسرعة تحولهم الرقمي سواء كان اعتماداً على التحليلات أو ما إذا كان ذلك لتحسين الإنتاجية والتجربة التسويقية عبر القنوات الرقمية .

أما ساجال كوهلي فقال انه لا عودة للوراء فالتجديد والتغيير حتمي ووضع اسس مرنة لأساليب متسقة ترتكز على رؤية كيف تنظم نفسك وكيف تفكر في اتخاذ القرار، خصوصا فيما يتعلق بالسرعة والمرونة .

هذا هو في الواقع وقت التحول الكبير وليس التغيير والتبديل على الهوامش. يجب تحدي كل افتراض، تحدي سلسلة القيمة الخاصة بك، وتحدي هيكل الأصول ، ومعرفة ما إذا كان يمكنك إعادة اختراع المنظمة أو الشركة".

الصمود وسط الأزمة

كيف غيرت أزمة COVID-19 قطاع الاتصالات ، فيليب ناترمان اعتبر التأثير الأكبر لأزمة COVID-19 يتركز على الاتصالات حتى الآن ، فبعد أن واجهت مصاعب بعد طفرة تكنولوجيا الهواتف الذكية أصبحت فجأة أكثر أهمية من أي وقت مضى، قياساً إلى عدد الأشخاص الذين احتاجوا إلى العمل من المنزل ويحاولون تسجيل الدخول إلى النظام»، لقضاء كافة متطلبات الحياة المعيشية سواء عبر التسوق أو العملية عبر إنجاز الأعمال.

وتطرق فيليب ناترمان الى تجربة شركة الاتصالات الايطالية Telecom Italia على انها مثال على المرونة الكبيرة في هذه ألأزمة حيث يعمل 3500 وكيل مركز اتصال من المنزل. على مدار 72 ساعة، كانت المجموعة الكاملة المكونة من 7000 وكيل يعملون من المنزل.

الرعاية الصحية الرقمية :

فيما رأت كارولينا سوير سيدور، ان الصحة العامة تعد واحدة من اهم وابرز الأمثلة الرئيسية لأهمية تأثير الاتصالات ومشغلي الشبكات في مواجهة التحدي ودعم عملية الانتقال، حيث ساهمت الاتصالات في إنشاء خرائط حرارية بشأن انتشار العدوى. كما دخل المشغلون في شراكة مع مؤسسات صحية لإنشاء عيادات افتراضية. المبادرات والتدابير التي كانت تستغرق شهورًا – على سبيل المثال، توقيع الشراكة – يستغرق الآن يومين فقط أو، كحد أقصى، أسبوعين .

وبالتطرق الى القطاع الصحي، وكيفية ممارسة أنظمة وخدمات الرعاية ألصحية وهل عمل COVID-19 على تغيير صناعة الرعاية ألصحية اتفق خبراء "ماكينزي» إلى حد كبير، وفق خلاصة توصل اليها شبهام سنغال "في مجال الرعاية الصحية، ومع دخول أزمة COVID-19، كان هناك وعد باستخدام تكنولوجيا الصحة ألافتراضية والصحة ألرقمية والرعاية الصحية عن بعد. كنا نتحدث عن ذلك فترة من الوقت. ما فعلته أزمة COVID-19 هو تسريع ذلك واتفق نتيجته مع دراسة بيني داش "خلال الأشهر ألماضية والتي اثبتت أن 70 إلى 80 في المئة من استشارات الرعاية الأولية إما تذهب عبر الإنترنت أو عن طريق ألهاتف

فبعد الجائحة رأى العالم اجمع حجم التغيير المثير للانتباه فقد برزت ممارسة الطب عن بعد فكم رأينا أيضًا أطباء لم يكونوا ليقوموا بذلك، تاريخيًا، إلا انهم باتوا على استعداد للانخراط في تلك الأوضاع الافتراضية الآن، حتى بعد COVID-19، يريدون التمسك بهذا النهج. لذلك رأينا حركة كبيرة في هذا الاتجاه".

لذا لا تتراجع عن تبني التقنيات الرقمية فمن يعتقد انه ستأتي مرحلة الغاء الاستشارات عن بُعد والعودة إلى ما كانت عليه الأمور". سيكون ذلك مثل الفرصة الضائعة او الحلم ، وبالطبع المطلوب وهو خدمات أكثر كفاءة للتعامل مع الأعمال المتراكمة. لذا استمر في التمسك بالتقنيات الرقمية والعمل عن بعد"، وطور من المهارات والامكانات الداعمة لهذا الاتجاه.

ما الذي يخبئه المستقبل :

بعد ان اربكت جائحة كورونا التعليم نواة نهضة الأمم وتقدم الشعوب لم يعد التفكير منصبا على كيفية العودة من جديد بل كيف نعزز التعليم عن بُعد بشكل فعال، وكيف يمكننا تمكين الطلاب في

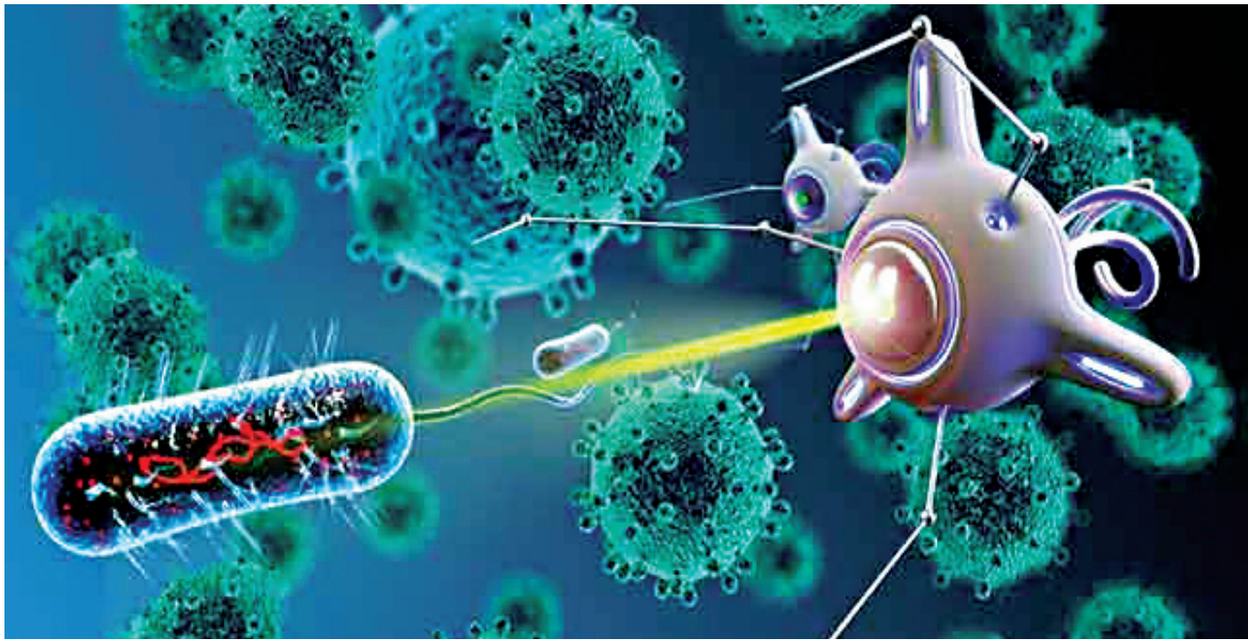

تكنولوجيا النانو

المناطق النائية جدًا من الحصول على نفس مستوى الوصول إلى التعليم العالي مثل الناس في المناطق الحضرية ؟ انها بلا شك هي فرص توسع محتملة لشركات الاتصالات .

فالترفيه بالكامل سينحصر عبر الإنترنت لفترات طويلة كخيار امن كما التعليم عبر الإنترنت سيتحول بالكامل وان عاد لسابق عهده سيتكون عودة مؤقتة . ولكن أيضا الأشياء التي لم نتخيل من قبل: وجود زيارات افتراضية للمتاحف، تذوق افتراضي – بشكل أساسي، تحقيق الذي لم يكن ممكناً من قبل.

فالمستقبل يرتكز على مشغلو الاتصالات ويحتم عليهم التفكير في خوارزميات المستقبل والدور المستقبلي الذي يريدون لعبه في المجتمع وداخل مجتمعاتهم، وأيضاً في داخل أنظمتهم البيئية .

القوى العاملة مصير مجهول:

ما بين الجائحة وانيابها الحادة وتسيير الأعمال عبر التقنيات الرقمية فإن مصير القوى العاملة يعد مجهولا وتحتاج الى مواكبة وموائمة لهذا التحول حيث يجمع الخبراء على ضرورة تطوير القوى العاملة لتواكب لغة العصر والتدريب على تلبية الاحتياجات تقنيا ورقميا ، وهنا يقول شوبهام سنغال لقد كانت الجائحة بمثابة دعوة للاستيقاظ حيث لم يكن لدينا في نظام الرعاية الصحية الخطة المرنة التي نحتاج إليها – سواء كانت القوى العاملة، أو الإمدادات، أو عدد أسرة كافية، أو بها أجهزة تهوية كافية .

لقد باتت تعمل الشركات حاليًا بشكل مختلف، وهذا يتطلب نموذج مبيعات وخدمة عملاء جديد لدعم رقمنة الصناعات المتعددة. يتضمن ذلك تحولًا أسرع

إلى الحلول السحابية التي يصاحبها زيادة الطلب على خدمات الذكاء الاصطناعي .

وأدرك العالم بشكل متزايد القيمة القوية ليس فقط للاتصال ذي النطاق العريض ولكن لاتصال نطاق عريض قابل للتطبيق وقوي ومرن، وإن الجميع على استعداد للدفع نحو استخدام الألياف الضوئية أكثر مما كانت عليه من قبل وبات هناك فرصة للترقية من الاتصال القديم البسيط والانتقال إلى الجيل الخامس 5G – ويحتمل أن يكون المستهلكون مستعدين لدفع علاوة 5G كوثيقة تأمين تقريبًا .

لكن بالنظر إلى ما مرت به معظم الشركات، فإن هناك تزايدا في إدراكها لأهمية الاتصال المرن مع الموظفين عبر نطاق واسع جغرافياً .

بناء القدرات بسرعة الأزمة :

عندما تضرب حالة طارئة كهذه، كيف يمكننا تحويل أسرة المستشفيات الى أسرة العناية المركزة إذا لزم الأمر، كيف يمكننا تحويل المناطق الأخرى – مثل ألفنادق وما إلى ذلك – إلى مواقع رعاية عندما تكون المستشفيات ممتلئة ، انها تحديات باتت تحتاج الى ادخالها في خطط الشركات والقطاع الخاص وحتى الحكومات .

فإذا سألت أي شخص يعمل في مجال الرعاية الصحية في أوروبا أو في الولايات المتحدة هل يمكن أن تبني مستشفى جديدًا في غضون أسبوعين مثلما تخطط ووهان للقيام بذلك؟، كان الناس يضحكون. وتخيل ذلك ؟ لكن عمليا فعلت العديد من الأماكن هذا المستحيل من وجهة نظر البعض ، لذا فإن هذه القدرة على تكثيف السعة لمواجهة زيادة الطلب ممكنة، وهو مهم حقًا للمستقبل".

غالبًا ما كنا نفكر في التكنولوجيا على أنها تمكين، مثل المكتب الخلفي، كشيء نستخدمه لدعم أعمالنا في هذا القرن – وبالتأكيد، بعد COVID–19 ستكون التكنولوجيا في المقدمة إلى حد كبير. ستكون المنافسة ميزة لكيفية عمل جميع الشركات والأنظمة البيئية".

فالأشياء التي كانت صعبة أو كان من الممكن أن يستغرق 10 أو 15 عامًا لكسر الحواجز بسبب ديناميكيات الصناعة – تم تغييرها ومحوها. لذلك كلاعبين تقنيين يجب ان نفكر في ألمستقبل فالأمر ليس فقط "كيف يمكنني استعادة نشاطي التجاري والنمو سريعًا عقب أزمة COVID–19 ، إن الأمر بات يتعلق بنفس القدر بكيفية الاستفادة من القوة النسبية والتغيرات في الأسواق التي نظرت إليها التكنولوجيا تاريخيًا ولكنها كافحت بالفعل حتى حقق نجاحات كبيرة.

وعندما ننظر إلى قطاع التكنولوجيا، فإننا ننظر إلى كل شيء، فهي تعد العمود الفقري للعديد من القطاعات. ويجب النظر في كيفية استخدام التكنولوجيا بما يسهم في دعم الأعمال.

ويبقى السؤال هو، هل يمكنك القيام بذلك بشكل أسرع؟ كان الاتجاه السائد حول النطاق الفائق والسحابة موجوداً منذ فترة. لكن الآن أعتقد أن هناك فرصة لمقدمي التكنولوجيا للعمل مع الشركات ليقولوا "كيف نصل إلى هناك؟ بدلا من 10 سنوات، كيف ندير هذا الانتقال خلال 24 أو 36 شهرًا؟ .

بالتأكيد التفكير في كيفية عمل التكنولوجيا أمر جيد في حد ذاته، ولكن أيضًا يجب ان نغير طريقة تفكيرنا

بشأن أمور مثل خصوصية البيانات وحماية المعلومات".

فمن الأشياء التي ألهمت الجميع بشأن قطاع التكنولوجيا انه ذكي وسريع وهذه الجائحة ليست مجرد فرصة للتكنولوجيا للتعافي بشكل أسرع من غيرها من الصناعات انها فرصة توسع للتكنولوجيا من حيث النمو والاستفادة من قدرتها في دفع الكفاءات إلى القطاعات التي لم تشعر حقًا بهذا الاضطراب".

أولويات قادة التكنولوجيا :

في خضم اهمية قطاع التكنولوجيا كمحور ارتكاز اساسي للتعايش مع الجائحة كورونا فإن حجم الاعتماد سيفتح عليها ابوابا وفرصا ربما تكون ضرورية مثل عمليات الدمج والاستحواذ فمن كان يفكر في السابق انها تحتل مكانة بعيدة في جدول اهتماماته خصوصا من رواد ألأعمال فطبقا للواقع الجديد سيكون هذا خطأ .

ان صناعة التكنولوجيا اساس صناعة مدفوعة بالموهبة في بيئة العمل عن بعد، والجميع لديه الفرصة للتفكير على نطاق أوسع حول من أين تأتي المواهب و كيف يمكنك العثور على مواهب جديدة دون الحاجة إلى إعادة التوطين؟

عالم ما بعد كورونا

لقد "ضرب فيروس كورونا العالم من دون سابق إنذار وبلا هوادة، فقد بدأت موجته الكاسحة حينما انتشر بشكل سريع مع بداية العام 2020 ليتحول بسرعة إلى جائحة شلت العالم كله دون استثناء في أقل من ثلاثة شهور. إن من شأن ذلك إحداث تغير شامل في خريطة العالم السياسية والاقتصادية على حد سواء، مما قد ينلقنا إلى نظام عالمي جديد كليا كما حدث بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية منذ أكثر من نصف قرن مضى. ولكي نلقي نظرة تحليلية قد تحتمل الإصابة أو الخطا حسب المعطيات، سنتناول عدة مؤثرات قد تكون المسؤولة عن التحول إلى عالم ما بعد كورونا أو النظام العالمي الجديد."

سيشهد العالم تنافسا صناعيا و تجاريا بمظلة سياسية حادة فيما بين الولايات المتحدة وبعض حلفاءها وليس الكل، وقد تنهار العولمة أو ينتقل العالم إلى فرعين اثنين هما: تجمع ما يسمى بالنظام العالمي الجديد بقيادة الولايات المتحدة، مقابل تحالف الشرق الفيدرالي (هذا السيناريو مقتبس من رواية خيالية تتنبأ بوضع عالمي شبيه بذلك) أما بقية دول العالم فسيتعيَّن عليها الانضمام إما لهذا أو لذاك.

سيكون التنافس فيما بين القطبين العالميين الجديدين، يتمحور حول الاستثمار في التكنولوجيا والمجالات التالية:

- الروبوتات
- الذكاء الصناعي
- تكنولوجيا النانو
- التعديل الجيني وتحسين البشر
- الطابعات ثلاثية الأبعاد

الروبوتات

حينما إجتاحتنا حمى فيروس الكورونا وانتشرت بين البشر بشكل مريع، تسببت في توقف شبه تام في

العالم أجمع دون استثناء. حيث توقفت المصانع بسبب مرض بعض العمال وخشية البقية من التعرض للعدوى، ولم تعد الشركات تنتج بشكل طبيعي، وباتت أروقة المؤسسات الحكومية والخاصة خاوية كبيوت الأشباح، وبالكاد بتنا نلمح طائرة تحلق في الأجواء، وكل هذا بسبب اضطرار البشر على تفادي العدوى عن طريق منع الاختلاط والتواصل المباشر، فتوقف العمل لأن من يديره هم البشر أنفسهم. لكن ماذا لم أن أغلب العاملين في المصانع والمستشفيات والمرافق العامة من الإنسالات (إنسان آلي / روبوت)؟ هل ستتوقف عجلة الانتاج والحركة؟ ربما بشكل محدود جدا قد لا يكاد يذكر، والسبب؛ أن الروبوت أو الإنسان الآلي ليس كائنا حيا، أي لا يتنفس ولا يأكل ويشرب ولا حتى ينام، فهو قادر على ممارسة المهام الموكلة إليه والأعمال المنوطة به على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع ما دام مصدر الطاقة لديه متوفر من شحن بطاريات أو شحن مباشر بالكهرباء وبالتالي فإن الولايات المتحدة و الصين وكثير من الدول قد باتت تنظر بشكل أكثر جدية مما سبق في إحلال الروبوتات محل الكثير من البشر في العديد من المصانع والمرافئ والمطارات وغيرها من الأماكن الحيوية، وبالتالي سيتضاعف الاستثمار أضعاف مضاعفة لكن هذا سيؤدي إلى أزمة عالمية كبرى تتعلق بتسريح كبير للعمالة البشرية وبالتالي بطالة كبرى قد تؤدي إلى إضطرابات خطيرة نتيجة ذلك.

الذكاء الصناعي هل يقود الآلة للتفكير؟

لا يمكن للآلة (الروبوت) أن تفكروبالتالي لا يمكنها مضاهاة الإنسان في العديد من الوظائف الحيوية مثل التعرف والتوجيه. والسبب في ذلك أن الروبوت وحتى جهاز الكمبيوتر (الحاسوب) ولو أنه يفوق الإنسان قدرة في سرعة إنجاز العمليات الحسابية، لكنه يعتمد في ذلك على برمجة مسبقة من قبل الإنسان كي يقوم بالمهام المطلوبة منه، لأنه ببساطة لا يمكنه القيام بها من تلقاء نفسه. وكي نتغلب على هذا القصور في الروبوت، لا بد من إدخال عنصر ما يسمى بالذكاء الصناعي، والذي ببساطة يجعل الآلة تفكر وتدرك وتعي ما حولها تماما كما يفعل البشر.

يتميز الذكاء الصناعي بأنه عبارة عن نظام كمبيوتري (حاسوبي) متطور جدا، يتميز بأنه مثابر إلى ما لا نهاية، فقد يفشل مليارات المرات ولكنه بعكس البشر لا يشعر بالإحباط، بل يندفع في محاولته رقم مليار لحل معضلة معينة بنفس الحماس الذي بدأ به في المرة الأولى، أما البشر فليس لهم طاقة بذلك.

مثال على ذلك: يمكن للذكاء الصناعي مراقبة سلوك البشر بشكل دائم وعلى مدار الساعة مما قد ينقذهم في أحيان عدة من ارتكاب أخطاء قد تهدد حياتهم؛ فبمجرد أن يلتقط ذلك الذكاء الصناعي المتطور لسلوكي غير سوي من قبل البشر، فإنه لن يتردد في إصدار التحذيرات للمختصين، بل وإذا ما سمح له التحكم بالروبوتات المحيطة بالبشر، سيقوم من تلقاء نفسه بعمل الإجراء الوقائي للحيلولة من تسببهم في إيذاء أنفسهم أو التسبب لغيرهم بالأذى بسرعة كبيرة ليست بمقدور البشر، لأن الكمبيوترات (الحواسيب) الفائقة أو الخارقة (SUPER COMPUTER) يمكنها أن تقوم بمليارات العمليات الحسابية في الثانية الواحدة وهو أمر عصي على العنصر البشري القيام به

تخيلوا لو أن منظمة الصحة العالمية لديها مثل هذا الذكاء الصناعي في مرافقها، لكانت قد تصرفت بناء

على معطياته لتفادي انتشار فيروس الكورونا وتحوله لجائحة عالمية.

دروب الذكاء الاصطناعي

كي نعرف أكثر عن الذكاء الصناعي لابد لنا أن نعلم أنه ينقسم إلى مسلكين اثنين: الأول – يتعلق بالاساسيات. أما الثاني – فيتعلق بالشبكة العصبية.

يطلق العلماء على المسلك الأول مصطلح "النظام الرمزي" أو "نظام الخبرة". ويتلخص في تعليم الكمبيوتر كيفية التفكير عن طريق فك رموز سلسلة من القوانين.

أما المسلك الثاني، فيعتمد على "الشبكة العصبية" وهو يختلف عن المسلك الأول تماما، حيث لا يتم تعليم الكمبيوتر (الحاسوب) خلاله بل يتم بناء محاكي للعقل البشري بالضبط صناعيا، وهو ما يعد مسلكا يتجه مباشرة إلى المصدر، فلا يحد العلماء العقل الإلكتروني بقوانين محددة بل يعطونه الكثير من المعلومات المتعددة المصادر ويدعونه يتعلم بذاته. ويطلق على هذا المسلك مصطلح "التعلم العميق/ Deep Learning". وهو يمكن الآلة من تحليل البيانات ذاتيا وبعمق أكثر وتكوين تصور أقرب إلى الإدراك للمسائل المعقدة، وفي نهاية المطاف قد يتفوق بأشواط على إدراك البشر لها.

تشخيص الأمراض والعلل

في وقتنا الحالي، بات الذكاء الصناعي قادرا على تشخيص الأمراض المستعصية أفضل بل وأكثر دقة من الأطباء البشريين. فقد ابتكرت شركة IBM العملاقة ما يعرف بـ "دكتور واتسون" وهو أحد ملامح الذكاء الصناعي المتخصص في المجال الطبي، حيث يقوم هذا الكيان الغير بشري منذ العام 2011 بتقديم التشخيصات المرضية لمرضى السرطان في مركز Memorial Sloan Kettering Cancer Center بالولايات المتحدة وتحديدا في نيويورك بدقة عالية، كما يقوم بالتوصيات المتاحة للعلاج بعد مراجعة ملف الحالة المرضية للشخص الخاضع للفحص الطبي.

موجات التحول والتغيير

ستكون هناك أربع موجات للتحول إلى الذكاء الصناعي بحيث تحدث على فترات متفاوتة وهي كالتالي:

- الإنترنت
- إدارة الأعمال
- الإدراك الحسي
- التلقائية

فيما يخص الموجتين الأولتين، وهي موجتي (الإنترنت وموجة إدارة الأعمال من خلال الذكاء الصناعي)، فإن هاتان الموجتان هما قيد التنفيذ والاستخدام في الوقت الحالي. أما ما يخص موجة الإدراك الحسي، فإنها قيد التطوير ولو أن بوادرها قد باتت جلية من خلال تطبيق أنظمة التعرف على ملامح الوجه (البايومترية) والبصمة الصوتية. في حين أن الموجة الأخيرة وهي التلقائية، أو الذاتية، فإنها أيضا في طور النمو وللتعرف عليها سنجدها في المركبات ذاتية الحركة كالدرونات (الطائرات الغير مأهولة) وروبوتات خاصة تعمل بالمصانع و المعامل والمخازن كالتي تتواجد في شركة أمازون – Amazon لبيع الكتب

والمستلزمات المتنوعة، ويتوقع مستقبلا أن يتوسع نشاطها لتهيمن على قطاع الصحافة والطب وحتى التمثيل.

تكنولوجيا النانو

تعتبر تقنية الجزيئات متناهية الصغر أو تقنية الصغائر بما تعرف بتكنولوجيا «النانو» العلم الذي يهتم بدراسة معالجة المادة على المقياس الذري والجزيئي. وتهتم تكنولوجيا النانو بابتكار وسائل جديدة تقاس أبعادها بمصطلح «النانومتر» أي جزء من الألف من الميكرومتر بما يوازي جزء من المليون من الميليمتر.

يمكن لتكنولوجيا النانو حقنها بالوريد كي تقوم بأعمال تتعلق بالصحة والوقاية من الأمراض وحتى العلاج بأجساد البشر، وقد تحدث تقرير في أحد أعداد مجلة «New Scientist" عن تطوير عناكب آلية بتكنولجيا النانو أطلق عليها "DNA Robots" ستتولى معالجة العديد من العلل و الأمراض داخل الجسم، مثل منع حدوث التجلط و التحكم بإفرازات البنكرياس لمرضى السكر وصـولا إلى محاربة الفيروسات والخلايا السرطانية. وتتفوق دول كالولايات المتحدة وروسيا والصين في هذا المجال، ومع جائحة كورونا الحالية قد يتضاعف حجم التمويل لهذه التكنولوجيا الواعدة.

التعديل الجيني وتحسين البشر

كما هو الحال في اختراع شيفرة حاسوبية من أجل تحسين حياة البشر، يجد مجموعة من العلماء المتخصصين بالعلوم الأحيائية (البيولوجيا) إمكانية تحسين قدرات البشر بل وحتى خلق جيل جديد محسن منهم عبر إعادة صياغة الشيفرة الوراثية، ويتوقع أن تتخذ الأبحاث الجينية وضعا شرعيا بعد جائحة كورونا الأخيرة من أجل تفادي إصابة جموع غفيرة من البشر بمثل هذه الأمراض وذلك عبر التلاعب الجيني كجعل مقاومتنا للأمراض اكبر من دون الخضوع لعملية تلقيح تقليدية كما هو الحال لأجيالنا والتي قبلنا بحيث تتم العملية من خلال تحسين الجين الوراثي البشري وهم أجنة في بطون أمهاتهم. ولعل تطبيق ما يعرف اختصارا بـ» كريسبر / CRISPR " أي "التكرارات العنقودية المتناظرة القصيرة ذات التباعد المنتظم، أحدث ما تم ابتكاره في عالم الأبحاث المتعلقة بالخلق. وهو أنزيم يستخدم تسلسلات كدليل للتعرف على تسلسل جيني معين (DNA) للفيروسات وغيرها، ومن ثم تشكيل آلية دفاع جزيئية ضد تلك الفيروسات المهاجمة للخلية، وبالتالي تعتبر تكنولوجيا "كريسبر" وسيلة مناعية تكيفية تستخدم ضد عناصر جينية أو وراثية دخيلة، بل وتمكن الباحثون في ها المجال من إجراء إضافات إلى هذا النظام (كريسبر) تمكنه من إظهار صفات وراثية مرغوبة في الخلية مثل منع تعرض الشخص لأمراض كالزهايمر أو السرطان أو القضاء على مرض الملاريا من خلال تعديل التركيب الجيني للبعوض وكذلك استخدامه في علاج أمراض الدم الأنيميا وغيرها، وقام علماء ببريطانيا بالتدخل حتى بعملية التخصيب وهو ما يعد تدخلا في تغيير الخلق.

أما الإنجاز الذي أحرز في هذا المنوال فهو يعود لما قام به عالم صيني يدعى "كوي" في عام 2013 حينما قام بتعديل الشيفرة الوراثية الخاصة بتوأم في رحم أمهم لتصبحا مقاومتين لفيروس " HIV" المسبب لمرض نقص المناعة المكتسبة "الإيدز" وذلك عن طريق تعطيل الجين المتسبب لذلك، وهو ما أحدث ضجة كبرى في الأوساط العلمية.

في نهاية الأمـر، سيساهم إعـادة صياغة الشيفرة الوراثية في خلق جيل جديد من البشر يطلق عليهم، البشر المحسنون، وإذا ما اقترنت هذه التكنولوجيا مع النانو والذكاء الصناعي، فإن المجتمعات المستقبلية ستشكل شبكة عصبية متكاملة ومدمجة، قد تتواصل فيما بينها عبر وصلات بيانات – Datalinks أشبه بالتخاطر الفكري (Telepathy) وهو ما يطمح إليه في الوقت الحالي الملياردير الأمريكي إيلون ماسك عبر زرع شريحة تواصل في الدماغ تكون بديلا عن الهواتف الذكية، مما قد ينتج عن كل ذلك تطور جيل بشري عبارة عن هجين بيلوجي/ تكنولوجي من الكائنات الحية.

الطابعات ثلاثية الأبعاد

باتت الطابعات الضوئية (Photo copy machines) المدمجة (طابعة/ ناسخة/ ماسحة – scanner) متوفرة في أغلب المنازل، وبأسعار متدنية جدا ناهيك عن طابعات الليزر الاقتصادية في التشغيل. لكن منذ عقد من الزمن ظهر نوع متقدم من الطابعات أطلق عليه "الطابعات ثلاثية الأبعاد" أو (3D printers) تدرج ضمن بند تقنيات التصنيع. حيث تتولى هذه الطابعات تصنيع قطع مختلفة حسب الحاجة عن طريق تقسيم التصاميم ثلاثية الأبعاد إلى طبقات صغيرة جدا باستخدام برامج حاسوبية عبر طباعتها كقطعة محددة أيا كانت (مطرقة/ مزهرية/ معول الخ..). وتختلف عملية التشكيل والإنتاج في الطابعات ثلاثية الأبعاد عن نظامي القولبة والنحت اللذين يبددان أكثر من 90 % من المادة المستخدمة في التصنيع. كما أن الطابعة ثلاثية الأبعاد تتفوق في السرعة والتوفير وسهلة الاستعمال من التكنولجيات الأخرى.

يتوقع الخبراء أنه بعد تجربة ما تعرض له العديد من المتاجر وحتى الأفراد من نقص في المعدات اللازمة والمواد، أن تنتشر الطابعات ثلاثية الأبعاد كما أنتشرت قبلها الطابعات الضوئية التقليدية حيث سيقوم البشر باستخدامها لتأمين إنتاج العديد من المعدات اللازمة في حياتهم اليومية من خلالها وهم في منازلهم، دون الحاجة إلى الوقوف في طوابير طويلة أو انتظار طلباتهم لها مدة زمنية قد تصل أو لا تصل، وخصوصا انتاج المعدات الطبية كالكمامات و غيرها من الضروريات.

قطبي التنافس

لقد سيطرت الـولايـات المتحدة على معظم التكنولوجيا التي تم ذكرها، وتبوءت مركز الصدارة حتى العام 2019 قبيل ظهور فيروس كورونا المستجد كوفيد– 19. كانت الصين المنافس الأبرز لها تخطو بمحاذاتها في مجال صناعة الإنترنت و الذكاء الصناعي والحواسيب. ولكن بعد ذلك العام بالذات وبفضل اكتفاءها ذاتيا عن نسخ المنتجات أو الاستعانة حتى بما لدى وادي السيليكون بالولايات المتحدة وهو موطن تلك التكنولوجيا و منبعها، خلقت الصين بعدا موازيا وعالما مستقلا بذاته في هذا المجال، وباتت عنصرا فاعلا في العالم وتشير التوقعات إلى أنها ستتفوق اقصاديا على الولايات المتحدة بسبب ذلك في عام 2028 مستفيدة من جائحة الكورونا، وهو ما يقود إلى عالم مختلف عما كنا نألفه في السابق.

إنجازات 2021 وأسباب التفاؤل

كان عام 2020 كارثياً بمعنى الكلمة. توفي أكثر من مليوني شخصاً بسبب تفشي فيروس كوفيد – 19، وسُجّلت أكثر من 100 مليون إصابة، وبلغت قيمة الأضرار الاقتصادية عشرات تريليونات الدولارات. كذلك، خسر ملايين الناس وظائفهم، وخسر مليار طفل

دوامهم الاعتيادي في المدرسة. في الولايات المتحدة، شهدت هذه السنة أيضاً جرائم قتل مريعة كتلك التي استهدفت جورج فلويد وبريونا تايلور، واندلعت حرائق مدمّرة في الغابات، وحصلت انتخابات رئاسية غير مسبوقة في التاريخ الحديث. لكن رغم هذه السلبيات كلها، يبشر عام 2021 ببعض الأنباء الإيجابية.

لن تنتهي جميع المشاكل مع الأسف، إذ تشير النماذج المحوسبة إلى احتمال تفاقم الوباء خلال الأشهر المقبلة من العام 2021. حيث يجب أن نكتشف معلومات إضافية أيضاً عن السلالة الجديدة من الفيروس، إذ يبدو أنها قابلة للانتشار بوتيرة أسرع من دون أن تكون أكثر خطورة.

مع ذلـك، ثمة سببان للتفاؤل؛ أولاً، قد يسهم استعمال الكمامات والتباعد الاجتماعي والتدابير الصارمة الأخرى في إبطاء انتشار الفيروس وإنقاذ حياة الناس، تزامناً مع الاستعداد لتوزيع اللقاحات. ثانياً، من المتوقع أن يبدأ استعمال اللقاحات والعلاجات وهذا ما تم فعلياً وعلى نطاق واسع، مما يعني أن أثرها العالمي بات وشيكاً.

في ربيع عام 2020، حين بدأ نطاق الوباء يتّضح للجميع، كتب بيل غيتس ما يلي: «الوضع أشبه باندلاع حرب عالمية، لكننا نحارب جميعاً على الجبهة نفسها هذه المرة»، مضيفاً أنا مسرور لأنني كنتُ على حق في تفاؤلي حين توقعتُ أن يتكاتف العالم أجمع لمحاربة فيروس كوفيد – 19. ما كنا لنحرز هذا التقدم كله لو لم يكن التعاون بين الحكومات والشركات والعلماء حول العالم مكثفاً لهذه الدرجة.

أيضاً مبعث التفاؤل بالأعوام التالية للجائحة هو التعاون العالمي، ولا يقتصر التفاؤل على جهود التحكم بالوباء. بل أن العالم لديه فرصة قيّمة لاتخاذ خطوات ملموسة في واحد من أكبر التحديات المعاصرة: التغير المناخي.

الوباء سيغير وجه العالم

الخبير البريطاني جيريمي فارار

جيريمي فارار (59 عاماً) هو مدير "ويلكوم ترست"، ثاني أكبر مؤسسة في العالم لدعم الأبحاث الطبية. كان هذا العالِم رئيس وحدة الأبحاث العيادية في مستشفى الأمراض المدارية بمدينة "هو تشي مينه" في فيتنام طوال 18 سنة، وهو مستشار في منظمة الصحة العالمية. أجرت صحيفة دير شبيغل الألمانية معه هذا الحوار الشائق ونشرته جريدة «الجريدة» الكويتية يناير 2021 للوقوف على جهود مكافحة أخطر وباء في العالم، وأسباب تفشيه السريع وطرق محاربته وكيفية التخلص منه نقتطف منه بعض الاجزاء والذي جاء على شكل سؤال وجواب:

• هل سنعود إلى حياتنا الطبيعية في الفترة المقبلة أم أن حياتنا تغيرت إلى الأبد ومن دون رجعة إلى الماضي الجميل؟

– من المستبعد أن نتمكن من استرجاع وضع طبيعي بالكامل خلال الفترة الراهنة أو القليلة المقبلة فكانت

أحداث عام 2020 عبارة عن تجربة صادمة جداً للناس. كانت سنة حزينة فعلاً ومأساوية. خسر الكثيرون أقاربهم وأصدقاءهم وأحبابهم وزملاءهم وعجز الأولاد عن الذهاب إلى المدارس والراشدون إلى العمل وأرغم معظم الناس على البقاء في منازلهم بدلاً من التمتع بالطبيعة ومجالات الترفيه المختلفة.

اليوم، حين نشاهد صور أشخاص محتشدين جنباً إلى جنب في وسائل النقل العامة أو المباريات الرياضية أو المسارح أو صالات السينما، نشعر بالهلع والخوف. لا مفر من أن نشعر بأنه زمن مختلف عما نعيشه اليوم. سنحتاج إلى بعض الوقت لاسترجاع الثقة ولإعادة الامور الى مجاريها ولاعادة التقارب بين الناس مثلما كان الامر سائداً في الماضي، حتماً الأمر سيحتاج وقت أطول.

• هل سننجح في القضاء على «كورونا» أم أنها مهمة مستحيلة؟

مع الجهود العالمية والتضامن المستمر سينجح العالم في الانتصار على وباء كورونا في نهاية الأمر. لا بدّ من ذلك لكن شرط أن نجيد التعامل مع الوضع. نعرف أصلاً كيفية الاحتماء من الفيروس عبر تدابير التباعد الاجتماعي. وقد تتلقى جماعات سكانية واسعة حول العالم اللقاح المضاد لفيروس "كوفيد19-" خلال النصف الأول من السنة الجديدة. بفضل هذه التدابير مُجتمعةً، نأمل في أن يشهد الخريف أو الشتاء المقبل بداية حقبة ما بعد كورونا. لكننا بدأنا الآن مرحلة جديدة وخطيرة من الوباء وعلينا أن نكمل في اتخاذ الاحتياطات اللازمة وعدم الاهمال أو الادعاء بأنّ الأمور كافة عادت إلى طبيعتها السابقة.

• رعب وترقب بعد طفرة بريطانيا

بلا شك مثلت الطفرات الجديدة صدمة طبعاً فهي مخيفة جداً. هذه الطفرات مُعدية أكثر من سابقاتها، وقد أصبحت المتغيرات الفيروسية طاغية في هذين البلدَين خلال أسابيع قليلة. لذلك نشعر بأنّ الأمر خطير جداً. سبق ورُصِدت الطفرة البريطانية في دول أخرى، بما في ذلك ألمانيا. لا مفر برأيي من انتشار هذه المتغيرات الجديدة وتفشّيها في أنحاء العالم قريباً للأسف وقد يحصل الأمر بسرعة قياسية كما حصل أساساً حتى الآن في البلدين المذكورين.

نتيجةً لذلك، ستزيد صعوبة السيطرة على الوباء وقد يتفاقم الوضع إذا شهد الفيروس تغيرات إضافية ولا نستطيع أن نستبعد هذا السيناريو خصوصاً أن نسبة احتمال حدوثه مرتفعة جداً. نحن اليوم في سباق دراماتيكي ضد فيروس متبدّل يخضع لضغوط مناعية هائلة. وليس ذلك بأمرٍ بسيط أبداً بل هو مخيف فعلاً.

• صراع بين البشر والوباء من ينتصر؟

– أولاً، يجب أن نتخذ تدابير عاجلة وصارمة لإبطاء انتشار المتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة 2 ومتغيراتها الجديدة. وعلينا أن نقوم بذلك بشكلٍ سريع ومن دون تباطؤ. ثانياً، يُفترض أن نعطي اللقاح إلى أعداد كبيرة من سكان العالم في أسرع وقت ممكن خلال النصف الأول من عام 2021. يجب أن نحقق هذا الهدف قبل الصيف المقبل. هذا مهم وضروري جداً. لن تكون العملية سريعة بما يكفي إذا انتظرنا حتى الخريف. بل ستظهر حينها موجة جديدة في شتاء عام 2021. يجب أن نعطي اللقاح لملايين الناس أسبوعياً إذاً. إنه تحدٍّ هائل وليس بأمرٍ سهل على الإطلاق كما قلت سابقاً! كأننا في سباق

مميت مع الزمن فإما أن نربح فنبقى وإما أن نفشل فنندثر بأبشع الطرق المأسوية.

• أفريقيا مفاجأة فيروس كورونا؟

– تراجع الإصابات في إفريقيا كان من أكثر العوامل المثيرة للانتباه خصوصاً وأنها جاءت بنسب متدنية بأكثر مما توقّع الجميع! كنت أتوقع أن يطرح فيروس كورونا الجديد مشكلة هائلة في هذه القارة بالذات لكن لم يحصل ذلك، حتى الآن على الأقل.

• هل تواصل أفريقيا الصمود؟

طبيعة تعامل أفريقيا مع الأوبئة منذ عقود، والشعب هناك أصغر سناً من سكان أوروبا وأقل ترابطاً في ما بينه كان له مفعول السحر في نجاة القارة من افتراس كورونا لها، وتستفيد القارة أيضاً من المناخ الأكثر دفئاً هناك. لكني أخشى أن تنتشر المتغيرة الجديدة من جنوب إفريقيا قريباً وتصل إلى القارة الإفريقية كلها وتُغيّر الوضع القائم. هذا الاحتمال يقلقني كثيراً.

• لماذا عجزت أوروبا عن التكيّف مع الوباء؟

– المتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة 2 فيروس يصعب التحكم به. ليس القضاء عليه عملية سهلة أبداً. لقد وصل هذا الفيروس الآن إلى جميع القارات حول العالم، بما في ذلك القارة القطبية الجنوبية، وسبق أن أصيب به مئات ملايين الناس على الأرجح. كان انتشار الفيروس سريعاً نسبياً. تشمل أوروبا من جهتها جماعات سكانية مُسنّة ومعرّضة لأمراض خطيرة. هذه القارة مكتظة بالسكان أيضاً وثمة فرق كبير بين الأغنياء والفقراء، ويؤثر هذا العامل على مسار انتشار الفيروس. أخيراً، لا تتمتع أوروبا بخبرة واسعة في مجال التعامل مع الأوبئة الخطيرة، على عكس دول آسيوية مثل فيتنام لذلك تواجه أوروبا صعوبة في مواجهة الفيروس والتغلب عليه للاسف.

• هل تكون الأنظمة الدكتاتورية أكثر براعة في محاربة الأوبئة؟

قد تكون حالة أو حالتين لكن ليس بالأمر المطلق ولننظر إلى النرويج وفنلندا وغانا ونيوزيلندا وأستراليا. هذه الدول كلها ديمقراطية ونجحت في السيطرة على الفيروس أيضاً. لا يتعلق الأمر إذاً بالدكتاتورية. يتعلق أهم عامل بالاستثمار في قطاع الصحة العامة على المدى الطويل وبقدرة الحكومات على مصارحة مواطنيها بالحقائق. يرتبط الوضع فعلياً بحجم الثقة بين المواطنين والسياسيين وبتطبيق استراتيجية مناسبة لضمان التواصل بينهم.

• كيف سيغيّر هذا الوباء وجه العالم؟

تعد جائحة كورونا أول تَحَدٍّ حقيقي في القرن الواحد والعشرين على مستوى العالم. حيث تفكك الترابط والتقارب واصبح التباعد سمة الحياة وبشكل أصبح يستحيل أن نعود إلى وضعنا الطبيعي السابق بعد هذه المرحلة. بات الجميع مجبراً أمام هذا الوباء على التشكيك بأسلوب حياتنا. سيجعلنا هذا الوباء ندرك مدى هشاشتنا، لا تجاه الأوبئة فحسب، إذ يكفي أن نفكّر بعواقب الجراثيم متعددة المقاومة أو التغير المناخي. علينا أن نغير سلوكنا فنهتم بالطبيعة والبيئة المحيطة بنا ونهتم بالعلوم وبالاستثمار بها بشكل كبير لأنها خلاصنا وطريقنا للتخلص من كل الأوبئة التي تتربص بنا وقد تؤدي الى هلاك البشرية.

انتعاش العمالة بعد وباء «كوفيد 19»

على الرغم من أن أكثر من لقاح واحد قد يكون مُتاحاً

قريباً، فإن فيروس "كوفيد – 19" سيستمر في إلحاق الضرر بالاقتصاد العالمي خلال العام المقبل، وهذا يعني عاماً عصيباً بالنسبة لعُمال العالم.

الخبر السار هو أن الوباء سلط الضوء على الدور الحاسم الذي يؤديه العُمال الأساسيون في قطاعات مثل الرعاية الصحية والخدمات اللوجستية، وخصوصاً أولئك الذين يعملون في وظائف غير مُستقرة ومُنخفضة الأجر كما ترى استاذة الاقتصاد في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية تيريزا جيلان دوتشي في نيويورك.

في عام 2020، أدرك الكثيرون في العالم المتقدم أن صحتهم وثروتهم تعتمد جزئياً على بقاء المدارس العامة مفتوحة حتى يتمكن الآباء من ممارسة عملهم.

وأدرك الناس أيضاً حجم المعاناة التي تعيشها الاقتصادات إثر غياب الإجازات المرضية المدفوعة الأجر، وضعف النقابات، وغياب معايير السلامة في أماكن العمل فيما يتعلق بالأمراض المُعدية، وتآكل سبل حماية الدخل الأساسية عندما يكون العمل المدفوع الأجر غير مُتاح.

والخبر السيئ هو أن إدراك هذه المشاكل لا يساعد في حلها، ونظراً إلى أن ملايين الأشخاص يبحثون بنشاط عن عمل في عام 2021، سيجد الكثيرون أن أصحاب العمل لديهم اليد العليا بشكل متزايد، لاسيما في الولايات المتحدة. باختصار، قد يواجه العُمال الأميركيون تحديات أكبر ما لم تفعل إدارة الرئيس المنتخب جو بايدن شيئاً حيال ذلك.

وهذا يعكس الزيادة في العمالة الفائضة (كان عدد العاملين الأميركيين في أكتوبر 2020 أقل بعشرة ملايين مُقارنة بشهر فبراير)، وغياب سياسات فعالة لتعزيز العمالة الكاملة، وعدم كفاية التأمين ضد البطالة، والمعاشات التقاعدية، وتغطية الرعاية الصحية.

علاوة على ذلك، يعمل الركود الناجم عن الوباء على تعزيز عمليات الاحتكار -أغلبها في الولايات المتحدة، بل في بلدان أخرى أيضاً- وتسريع الانخفاض طويل الأجل في حصة العمالة من إجمالي الدخل القومي.

في العقود الأخيرة، تم توجيه مكاسب الإنتاجية الأميركية بشكل متزايد إلى رأس المال بدلاً من العمالة. وفي الفترة بين عامي 1979 و2018، نما صافي الإنتاجية بنسبة 69.6 في المئة، في حين ارتفعت أجور العمال العاديين بنسبة 11.6 في المئة فقط، أو السدس كحد أقصى.

يمكن رؤية الفصل بين الأجور والإنتاجية عبر منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية. في بولندا، على سبيل المثال، نمت الإنتاجية بنسبة 2 في المئة، مقارنة بمعدل الأجور السنوي في الفترة ما بين عامي 1995 و2013. وبلغ هذا الفارق 1.3 في المئة في الولايات المتحدة، و0.7 في المئة في كندا، و0.5 في المئة في اليابان، و0.2 في المئة في ألمانيا خلال نفس الفترة، كما بلغ المتوسط المُرجح في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية 0.7 في المئة.

يُجادل ستيفن شتراوس من جامعة برينستون بأن وباء "كوفيد 19" يُبشر ببداية عصر التركيز الصناعي المتزايد، وستُخلف العوائد المرتفعة للتجارة الإلكترونية والتشغيل الآلي والتكنولوجيا عدداً أقل من المنافسين في أسواق مختلفة، حيث تحل سلسلة متاجر الشركات محل العديد من الشركات الصغيرة المحلية، وسيؤدي هذا الاتجاه إلى الحد من قدرة العمالة على الضغط

من أجل تحسين التعويضات وظروف العمل. وقد يكون النجاح الأخير الذي حققته شركات خدمات نقل الركاب مثل "أوبر" و"ليفت" في تأمين مرور "الاقتراح 22" في كاليفورنيا -الذي يسمح للشركات المؤقتة بمواصلة معاملة سائقيها باعتبارهم متعاقدين مستقلين بدلاً من أُجراء- مجرد بداية إطلاق حملات مُتجددة لمكافحة العمالة.

الأمن الاقتصادي للعمال

عندما تنخفض حصة العمالة من الناتج المحلي الإجمالي، سيعرف إجمالي الطلب والاستثمار والإنتاجية والنمو الاقتصادي تراجعاً ملحوظاً. لذلك، ينبغي على صناع السياسة في الولايات المتحدة العمل بشكل عاجل على عكس هذا الاتجاه المستمر منذ عقود. بداية، يتعين على الكونغرس المُصادقة على تقديم المزيد من الحوافز المالية للعُمال، واستعادة إعانات البطالة الفدرالية التكميلية، وتوفير المزيد من الموارد للمدارس العامة.

لا يزال أمام إدارة بايدن مجال للمناورة حتى لو ظل مجلس الشيوخ تحت سيطرة الجمهوريين بعد انتخابات الإعادة في ولاية جورجيا في يناير 2021. كما ينبغي لها أن تستعيد سلطة النقابات العمالية من خلال تدابير السلطة التنفيذية التي تسهل المفاوضة الجماعية وتعزز عملية إنفاذ القوانين التي تدعم حقوق العمال، ومن شأن ذلك أن يُساعد في تعزيز حصة العمالة من الدخل القومي عن طريق زيادة تعويضات العمال ذوي الدخل المنخفض والمتوسط.

ويتعين على الإدارة الجديدة أيضاً تنفيذ تدابير حماية أجور العمل الإضافي، ومنع أصحاب العمل من فرض شروط غير تنافسية على من يُصنفونهم كمتعاقدين مُستقلين. ويجب أن تكون مُطالبة جميع أصحاب العمل بتقديم إجازات مرضية مدفوعة الأجر من بين أهداف الإدارة الجديدة، في حين تشكل الفجوات الحالية الضخمة في توفير الرعاية الصحية تهديداً للصحة العامة، نظراً إلى أن المخاطر التي تُهدد الموارد المالية للأُسر العاملة تثنيهم عن تطبيق تدابير الحجر الصحي أو السعي إلى الحصول على العلاجات الطبية اللازمة، وهذا هو السبب الرئيسي وراء احتفاظ المراكز الأميركية لمكافحة الأمراض والوقاية منها ببيانات عن الإجازات المرضية مدفوعة الأجر، بدلاً من وزارة القوى العاملة.

في الواقع، يمكن للكونغرس تعزيز قدرة العُمال على المساومة من خلال زيادة العقوبات المفروضة على أرباب العمل، الذين يسيئون تصنيف العُمال وينتهكون قانون الشغل. وعلى نحو مماثل، يمكن للحكومة الفدرالية وقف المتعاقدين، الذين يقومون بانتهاك قوانين العمل والتوظيف بشكل مُستمر، أو الاستعانة بمصادر خارجية لأداء بعض الوظائف، أو زيادة الأرباح، أو الانخراط في عمليات إعادة شراء الأسهم.

ومع اعتماد العديد من الولايات حداً أدنى للأجور يبلغ 15 دولاراً في الساعة -وآخرها ولاية فلوريدا، التي فاز بها الرئيس الأميركي دونالد ترامب في عامي 2016 و2020 قد يتم إقناع عدد قليل من أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين بزيادة الحد الأدنى الفدرالي للأجور إلى هذا المستوى.

علاوة على ذلك، من شأن التغييرات المُستمرة في برامج التأمين الاجتماعي الأميركية تعزيز الأمن الاقتصادي للعُمال. وستساعد المعاشات التقاعدية المُرتفعة على تجنب مخاطر قيام عشرات الملايين

من العمال الأكبر سناً، الذين يُعانون أوضاعاً مالية صعبة، بإغراق سوق العمل أثناء صرف حساباتهم التقاعدية.

وسيؤدي تجنب هذا السيناريو بدوره إلى تقليل الضغط النزولي على أجور العُمال الأصغر سناً وظـروف عملهم. وبالمثل، يجب توسيع أهلية الحصول على إعانات البطالة على نحو متزايد (وذلك لتشمل العُمال في الوظائف المؤقتة) وزيادة مستويات الإعانات.

يجب أن يعتمد أرباب العمل طرقاً أسهل لصرف الموظفين بدلاً من تسريحهم أثناء فترات الركود الحاد، أو لتقديم ترتيبات تقاسم العمل، كما يجادل أريندراجيت دوبي الخبير الاقتصادي من جامعة ماساتشوستس.

وأخيراً، إذا كانت العمالة الكاملة هي الأولوية القصوى للسياسة، فإن الحكومة ستصبح المشغل الوحيد. على سبيل المثال، يمكن أن يصبح السقاة المُسرحون من بين متتبعي المُصابين بالأمراض أو مساعدين للمعلمين.

حتمية العدالة

كان من الممكن أن يقوم الاقتصاديون بأداء أفضل في حالة الركود الناتج عن الوباء، لكن نماذجهم المُعقدة أثبتت مرة أخرى أنها سهلة جداً.

لقد سعوا إلى إعطاء الأولوية لهدفين -الصحة والثروة- من خلال تحديد كيفية توليد أكبر قدر من النشاط الاقتصادي، مع أقل قدر ممكن من الأمراض. في الواقع، كان من اللازم أن يتضمنوا هدفاً ثالثاً هو العدالة.

لو أخذ صناع السياسات في معظم البلدان الغنية مسألة العدالة بعين الاعتبار، لبقيت جميع المدارس والشركات مفتوحة، باستثناء الشركات الأقل قيمة والأكثر عرضة للفيروسات.

كان ينبغي أن تكون إجـراءات ارتـداء الأقنعة، والغرامات المفروضة على التجمعات الكبيرة، ومعدات الحماية الشخصية المناسبة، وإيجاد الوظائف للعاطلين عن العمل كمساعدين للصحة العامة والمدارس، من التدابير الرئيسية للصحة العامة. وبدلاً من ذلك، أدى إغلاق المدارس إلى تفاقم عدم المساواة الاجتماعية، وسيتم تخلف العديد من الأطفال الذين يفتقرون إلى إمكانية الوصول إلى التعليم الخاص (أو التعليم المنزلي) والإنترنت وإشراف البالغين.

تُخاطر الولايات المتحدة والاقتصادات الأخرى بالعمل دون مستوى التوظيف الكامل في عام 2021، نظراً إلى انخفاض الإنفاق من الأسر والشركات والحكومات، لذلك يتعين على صناع السياسات استخدام جميع الروافع المالية لتعزيز الطلب الكلي، وتعزيز العمالة الكاملة، ومعالجة اختلال توازن القوى الحالي في سوق العمل. وتُعد أربعة عقود من السياسات الضريبية المؤيدة للشركات، واللوائح المالية المتساهلة، والتحيز ضد النقابات، دليلاً على أن أرباب العمل لم يضطروا إلى التنافس بقوة لتوظيف العُمال.

إن تآكل المعاشات التقاعدية، والنمو المنخفض أو السلبي في التوظيف في القطاع العام، وقلة الاستثمار في التعليم، كلها عوامل ساعدت على إضعاف وضع العمال الذين قد يخاطرون بتغيير وظائفهم أو الضغط من أجل تحسين التعويضات والأجور.

لكن اليوم على الأقل تحظى العمالة ومصالحها

بالاهتمام الذي تستحقه. وعلى النقيض من الركود الذي أعقب الأزمة المالية العالمية لعام 2008، أثار الانكماش الاقتصادي الناجم عن انتشار فيروس كورونا المستجد دعماً عاماً قوياً للعُمال.

ربما، أخيراً، ستُترجم هذه المشاعر إلى تدابير فعالة تُفيد العمالة، وتحد من رفاهية الشركات. ولضمان الانتعاش المُستدام من الأزمة الحالية، وتخفيف التداعيات الاقتصادية المترتبة على الأزمة التالية، يتعين على صناع السياسات في كل مكان وضع العُمال في المقام الأول.

كورونا وتداعياتها على النساء

بقدر ما تعكس جائحة كورونا عدم المُساواة القائمة في المُجتمعات العربيّة، واختلالات نُظمها السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، فإنّها في الوقت عينه تُسهم في تعميق أوجه عدم المُساواة بين الجنسَين، وفي زيادة حدّتها فالدكتورة رفيف صيداوي، الاستاذة الجامعية اللبنانية تناولت الموضوع من زاوية المُختبر الواقعيّ والموضوعيّ الذي تعتمل فيه هذه الروابط كلّها وعلاقات التأثُّر والتأثير بين العامّ والخاصّ التي يحتلّ العنفُ ضدّ المرأة في الأسرة، أحدَ أبرز مَظاهرها.

يُشكّل العنفُ ضدّ المرأة في المُجتمع، وفي الأسرة ظاهرةً عالَميّة تلقي بتأثيراتها على النساء في البلدان الغنيّة والبلدان الفقيرة، أو المتقدّمة والنامية، بقدر ما تلقي بتأثيراتها أيضاً على النساء من الطبقات الاجتماعيّة المُختلفة، لكون أسباب هذه الظاهرة كامنة في البنية البطريركيّة الذكوريّة التي تسود العالَم بأسره، وتولِّد التمييز والعنف ضدّ النساء. فهذه السلطة الأبويّة الذكوريّة التي أنتجت تصوّراتٍ نمطيّة تجاه دَور كِلا الجنسَين، تقوم، فضلاً عن ذلك، بتكريس هذه التصوُّرات عبر شرْعَنَة العنف ضدّ المرأة في المجال الخاصّ،

وفي دائرة العائلة على وجه الخصوص، وذلك كآليّة من آليّات إعادة تكريس هذه التصوّرات النمطيّة، إذ إنّه فضلاً عن علاقات القوى والسيطرة الأبويّة/ البطريركيّة الطبقيّة المُنتجة لأشكالٍ لا حصر لها من التمييز السياسي والاقتصادي والاجتماعي ضدّ المرأة، فإنّ العنف المُمارَس ضدّها يرتبط بمسألة الكيان الجنسي للأنثى، ومن هنا اتّخاذه في كثير من الحالات مَظهراً جنسيّاً، كتشويه الأعضاء الجنسيّة للأنثى، والاغتصاب، وما شابه. علماً أنّ الاضطّهاد القائم على أساس الجنس غير واضح بقدر وضوح الاضطّهادات الأخرى، الطبقيّة أو العرقيّة أو الإتنيّة أو غيرها من الاضطّهادات التي تقع على الجنسَيْن.

لكنْ، على الرّغم من عالَميّة ظاهرة العنف ضدّ المرأة، إلّا أنّها تكتسي دلالاتٍ تحيل على خصوصيّة النسق الثقافي الذي تندرج فيه، وعلى بعض مظاهر العنف أو أشكاله التي تُطاول النساء في مُجتمعاتٍ دون غيرها. ففي عدد لا يستهان به من دولنا العربيّة، تُواجِه النساء تمييزاً فاقعاً في تطبيق النصوص القانونيّة بحقهنّ، وهنّ، عدا كونهنّ غير مُتساويات مع الرجال أمام القانون، غالباً ما يُواجهنَ قوانين الظلّ التي تسنّها الأعراف والتقاليد لضبْط قواعد التصرُّف والسلوك المكرِّسَة لموقع المرأة الدونيّ.

من هنا، يُمكن تلمُّس، مثلاً، أسباب ارتفاع حالات العنف المُمارَس ضدّ النساء في العائلة في المُجتمعات العربيّة خلال الإغلاق بسبب فيروس كورونا، على الرّغم من عالَميّة هذه الظاهرة التي حذَّرت هيئة الأُمم المُتّحدة للمرأة من تفاقُمها واصفةً إيّاها بـ «الجائحة الظلّ»، وعلى الرّغم أيضاً من أنّ قضيّة النهوض بالمرأة، وتمكينها، كانت قد غدت واحدة من أهمّ القضايا المُعاصرة، ومحوراً أساسيّاً من مَحاور اهتمام الحكومات والهيئات الأهليّة ومُنظّمات المُجتمع المدني في غالبيّة دول العالَم، ومنها بلداننا العربيّة. فقد أشارت «مجموعة الحماية العالَميّة» في شهر آب/ أغسطس من العام 2020، إلى «أنّ العنف القائم على نَوع الجنس كان يحدث بمعدّل أعلى، بنحو 90 في المائة، عمّا كان عليه الحال قبل الجائحة، ولاسيّما في بلدانٍ مثل أفغانستان وسوريا والعراق». وهذا ما يؤكّده أيضاً تقرير «كوفيد19 – والعنف ضدّ المرأة في إقليم شرق المتوسّط» (منظّمة الصحّة العالَميّة، 2020) في إشارته إلى أنّ إقليم شرق المُتوسّط يأتي في المرتبة الثانية على مستوى العالَم، من حيث انتشار العنف ضدّ المرأة (37 %). وإلى إنّ هناك زيادةً في حالات العنف خلال الجائحة بنسبة تتراوح ما بين 50 % إلى 60 % بناءً على مُكالمات الاستغاثة التي تُجريها النساء عبر الخطوط الساخنة لمنظّمات المرأة.

وعلى الرّغم من الصعوبات الكامنة في رصد حالات العنف ضدّ المرأة في الأسرة في ظلّ الحجْر المنزلي الذي فرضته جائحة كورونا، وتعذُّر الأمر في أغلب الأحيان، ارتفعت في لبنان أسوة بباقي الدول، وتيرة هذا النَّوع من العنف، بحسب الجمعيّات والمنظّمات المختصّة بمُناهضة العنف ضدّ المرأة. كما أكّدت قوى الأمن الداخلي في لبنان، بالاستناد إلى الخطّ الساخن المُخصَّص لتلقّي شكاوى العنف الأسري، ارتفاع نسبة هذا النَّوع من العنف خلال الحجْر المنزلي، بنسبة 100% في شهر آذار/ مارس 2020 مُقارنةً بعدد التبليغات في آذار/ مارس 2019 (إيناس شرّي، «التبليغ عن حالات العنف الأسري في لبنان يرتفع بنسبة 100% https://legal-agenda.com).

أمّا في مصر، فقد أَظهرَ «استطلاع رأي المصريّات حول فيروس كورونا المُستجدّ في الفترة من 4 إلى 24 نيسان/ إبريل 2020»، الذي أَطلقه المجلس القومي للمرأة، وأجراه المركز المصري لبحوث الرأي العامّ «بصيرة»، بالتعاون مع هيئة الأُمم المُتّحدة للمرأة، وشَمَلَ 1518 من الإناث فوق سنّ 18 عاماً، أنّ الجائحة أَسهمَت في إحداث تغييرٍ في نمط الحياة الذي كان سائداً ما قبل الجائحة، وأنّ 11 % من الزوجات تعرَّضن للعنف من الزوج (ضرباً أو إهانةً لفظيّة)، وأنّ المشكلات الأسريّة زادت بنسبة 33 %، مقابل 19 % لنسبة زيادة العنف بين أفراد الأسرة.

تُسجِّل الدُول العربيّة بحسب تقرير «Une avancée décisive vers l›égalité entre hommes et femmes OIT,2015» أعلى نسبة لجهة النساء اللّواتي يُقدّمن رعاية غير مدفوعة الأجر للآخرين وبـدوام كامل (59,9%)، تليها آسيا والباسيفيكي (27,0%)، ثمّ الأميركيّتان (16,5%)، فإفريقيا (15,7%)، وأخيراً أوروبا وآسيا الوسطى (11,3%). وأعمال الرعاية غير المدفوعة الأجر هذه تقوم بها النساء، بوصفهنّ نساء، ما يدفعهنّ إلى تحمُّل مسؤوليّة القيام بمعظم أعمال الرعاية اليوميّة للأطفال، أو لكبار السنّ في الأسرة أو للأشخاص المُحتاجين إلى رعاية في الأسرة، ناهيك بالأعباء المنزليّة. ففي المنطقة العربيّة، تمضي النساء 5 ساعات و48 دقيقة يوميّاً في القيام بهذه الأعمال مقارنةً بساعةٍ واحدة و10 دقائق يمضيها الرجال في القيام بهذه الأعمال (التقرير العربي حول الفقر المُتعدّد الأبعاد).

وأظهرت دراسة حول أربعة بلدان عربيّة (مصر، الأردن، تونس وفلسطين) أنّ النساء المتزوّجات فيها، واللّواتي يعملن خارج المنزل، يتحمّلن العبء الأكبر من العمل، بسبب الرعاية غير المدفوعة الأجر للآخرين، والأعمال المنزليّة، وهو ما أُطلق عليه ظاهرة «العمل لفترتَين»، بحيث تتحمّل النساء المتزوّجات العاملات إجمالي عبء العمل الأكبر، إذ يعملن بنسبة 9 % و 22 % و 41 % و 50 % أكثر من الذكور في تونس ومصر وفلسطين والأردن على التوالي (اقتصاد الرعاية في الدول العربيّة نحو الاعتراف بأعمال الرعاية غير مدفوعة الأجر ..، الأُمم المتّحدة، 2020). وقد ازدادت لا بل تضاعفت هذه الأعباء في ظلّ الحجْر الذي فرضته الجائحة، وما رافقه من تحوّل كبير إلى العمل عن بُعد في مجالات مُختلفة، ناهيك بتحوُّل الأبناء، من تلامذة وطلّاب جامعيّين، إلى التعلُّم عن بُعد من داخل المنازل.

أطقم الضيافة الجوية في زمن الكورونا

في جانب مهم استأثر باهتمام المحللين، رسم الخبير الاستراتيجي الكويتي علي الهاشم معالم التغييرات التي ستحدث في عالم الطيران الجوي المدني بالقول «لم يحدث أن عانى قطاع النقل الجوي من أوقات عصيبة مثل التي يتعرض لها الآن نتيجة لانتشار جائحة فيروس «كورونا كوفيد- 19» خصوصا وأنه قد أصاب حسب موقع www.worldmeters. info لمتابعة انتشار الفيروس، أكثر من 77 مليون شخص في العالم حتى كتابة هذه السطور، وتسبب في وفاة أكثر من مليون وسبعمائة منهم، مما يعني أن هذا القطاع سيتكبد خسائر تقدر حتى هذه الساعة بـ 157 مليار دولار أمريكي حسب توقعات الخبراء في إتحاد الناقلاتالجوية العالمي IATA (نقلا عن كلا من: FORTUNE و BLOOMBERG)، الأمر الذي سيؤدي إلى إفلاس العديد من شركات الطيران في

العالم وتسريح أعداد هائلة من العاملين فيها بشكل مقلق. وللأسف من بين أولئك العاملين فئة لا يمكن تعويضها بسهولة ألا وهي طاقم الطيارين والضيافة وسنركز في موضوعنا التالي على طاقم الضيافة كونه محور الحديث."

توفر شركان الطيران ما يقدر بثلاثين مليون وظيفة وتدعم نشاطا اقتصاديا يقدر بنحو 3 تريليون دولار ومن ضمن تلك الشريحة ذلك الطاقم الذي يتألف معظمه من عنصر النساء، ويتميزون بلباسهم المرتب والأنيقِ وترتسم على وجوههم ابتسامة مشرقة، هي مصطنعة اكثر منها طبيعية لكنها ضرورية في العمل، وقد يعتقد البعض أن مهمة ذلك الطاقم فقط هو ارضاء الركاب في الجو، والحرص على تمضيتهم رحلة جوية مريحة قدر الإمكانِ إلا أنها تأتي في حقيقة الأمر كشئ ثانوي وليس أساسيا لأن المهمة الأساسية لهم هي الحرص على سلامة الركاب ونجاتهم عند حدوث أمر طارئ.

يخضع طاقم الضيافة ومن أجل إتقانهم لمهمة سلامة الركاب عند الطوارئ، لكورس مكثف قد يستغرق من 6 إلى 12 أسبوعا يتعلمون فيها كيفية تهدءة الركاب الذين يغلبهم القلق أو الخوف من الطيران، إلى جانب مساعدة وتوليد إمرأة غلبها مخاض الولادة في الجو، وصولا إلى إجراء الإسعافات الأولية. كما يتم تدريبهم أيضا للتعامل مع حالات إصابة أحد الركاب بأزمة قلبية أو إغماءة نتيجة لانخفاض السكر بالدم والأهم كيفية تمييز إصابات الأمراض المعدية لدى أحد الركاب كالكوليرا أو أي مرض معد آخر ومن ثم إخطار قائد الرحلة (الكابتن) بذلك تمهيدا لتواصله مع سلطات المطار الصحية والحجر الصحي به من المساهمة في إحتواء المرض من الانتشار. إنها مهنة مهمة جدا جدا في مجال الطيرانِ لا تقل اهمية عن مهام مهنة الطيارينِ.

بداية الاقلاع

بعد ان دخل مجال النقل الجوي بداياته في الحضارة البشرية وكان ذلك في نهاية العشرينات من القرن الماضي، ازداد الناس المرتحلون جوا، وعلى الرغم من اقتصار السفر على فئة النخبة منهم والأثرياء الا ان ذلك تطلب تجاوبا من قبل صناع النقل الجوي لتلبية احتياجاتهم من اجل رواج مثل هذا النوع من وسائل النقل العصرية ومن هنا ولدت فكرة المضيفة الجوية Air hostess، هذا وتعد الولايات المتحدة الاميركية اول من ادخل المضيفات الجويات في الطائرات، فقد بدأت الفكرة بواسطة الممرضة الشابة (آلين تشيرتش)، التي شعرت برغبة الطيران في سن مبكرة، فكانت تمضي الساعات الطوال في مراقبة مدرج مدينة سان فرانسيسكو تشاهد حركة الطائرات ما بين اقلاع وهبوط، وسرعان ما تدربت لتصبح هي نفسها ربانة طائرة (طيار)، ولكنها وفي ذلك الوقت (العشرينات) اصطدمت بعنف بمسألة التمييز الجنسي التي كانت دارجة آنذاك في منع العنصر النسائي من قيادة الطائرات، ولكنها اعربت عن اصرار جدير بشغفها بالطيران، فخالجتها افكار اخرى لغزو الجو حينما ادركت بأنها لن يتم توظيفها كقائد طائرة أسوة بالرجال، وهنا ولدت فكرة المضيفة الجوية.

ملائكة الرحمة

كي تنفذ فكرتها، اتجهت آلين تشيرتش لمقابلة رجل يدعى (ستيف ستيمبسون) وكان يشغل منصب مدير تنفيذي لشركة بوينغ اير ترانسبورت، وهي شركة للنقل الجوي متفرعة من شركة بوينغ آنذاك لصناعة الطائراتِ وقد قامت بطرح فكرتها المتمثلة باتاحة الفرصة للمرضات

كي يصبحن كمضيفات جويات حيث انهن فعالات حسب تصورها بذلك المجال دون غيرهنِ أدرك ستيمبسون فورا العبقرية في فكرة آلين فبادر إلى استغلالها على الفور، وحيث أن الطيران كان خطرا وغير مريح في ايامه الاولى كوسيلة نقل، مما يضطر شركات الطيران آنذاك الى الهاء الركاب الاثرياء بتقديم بعض المشروبات الكحولية لتخديرهم وتبديد مخاوفهمِ لذلك علم ستيمبسون ان توظيف الممرضات كمضيفات جويات ما هو إلا عامل الثقة لتعزيز نفوس الركاب في مدى سلامة الملاحة الجوية، والدفع بهم الى الاقبال بصورة مكثفة على السفر جواِ ومن هنا تولت آلين توظيف واختيار طاقمها من الممرضات كي يعملن كمضيفات جويات، ومن هنا تولى العنصر النسائي مهمة مساندة طاقم القيادة (الطيارين) في جعل الرحلة أكثر راحة و أمانا الأمر الذي جذب إليها شريحة كبيرة من الرجال للإنخراط بها وأصبح طاقم الضيافة مؤلفا من الجنسين.

كان عمل المضيفات الجويات الاوائل عسيرا في البداية، واحتوى تقديم الوجبات على متن الطائرة خطورة شديدة لكن هذا لم يثنهن عن مزاولة المهنة الجديدة واصبحت آلين تشيرتش اول مضيفة جوية في العالم، حيث بدأت عملها في شركة يونايتد إير لاينز الاميركية عام 1930، وكان عدد الركاب في رحلتها الاولى 11 راكبا. وبعد فترة وجيزة اصبحت 300 ممرضة يعملن كمضيفات جوياتِ بل ولم يقتصر عملهن على الضيافة في الجو، بل تعدى ذلك احيانا المساعدة حتى في تزويد الطائرات بالوقود عند نقص العمال في ذلك ببعض المهابط، ولكنهن اجمالا اهتممن بالركاب القلقين برعاية حسنة.

دقيقة ونصف تفصل بين الحياة والموت

تعد اهم مهام طاقم الضيافة الجوية هي الحرص على إخلاء طائرة مشحونة بالركاب قد يصل عددهم في بعض الأحيان إلى 500 راكب (كطائرة إيرباص 380 العملاقة)

في حدود 90 ثانية فقط (دقيقة ونصف). وهذا يعد أمرا مهما جدا عند إعداد الطاقم من خلال تدريبهم على ذلك في الكورس الذي يدرسون به قبل أن يتم تخريجهم كأطقم ضيافة جوية معتمدين من سلطات الطيران المدني في البلد الذي تقع به شركة الطيران. ويتطلب أن يكون المضيف أو المضيفة الجوية قادرا على التحدث بثلاث لغات مختلفة ان تطلب الامـر، فعنصر تعدد اللغات مطلوب لدى اختيارهم وبالتالي يعتبرون أشبه بضباط بحرية محترفين.

الإلمام بالجانب الأمني

أبرزت احداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 دور طاقم الضيافة جيدا، ونشأ وعي عام لدى العديد من شركات الطيران بانهم عبارة عن خط الدفاع الاول عن قمرة القيادة في الطائرة، فإذا ما لاحظ أحد أفراد طاقم الضيافة وجود نشاط اجرامي او قرصنة جوية محتملة، فإنه يقوم باتخاذ تكتيك متعمد من قبل احدى شركات الطيران الاميركية في العمد الى وضع عربات الخدمات (الترولي) في ممر كابينة الركاب عند خروج احد طاقمي القيادة (الطيارين) في الطائرة الى الحمام مثلا او لاي غرض كان فيقوم بسد ذلك الطريق لاي شخص قد تسول له نفسه اقتحام قمرة القيادة، مع وجود مضيفة جوية امام تلك العربة واخرى تراقب في الجهة الاخرى، وهذا يعطي وقتا كافيا للطيار للرجوع الى قمرة القيادة واغلاق الباب المضاد للرصاص، وبالتالي عدم تكرار سيناريو خطف الطائرات وتحويلها الى قذيفة موجهة كما حدث في الحادي عشر من سبتمبر 2001.

... في خدمة الدفاع المدني

بات تسريح أطقم الضيافة من الخدمة بواسطة شركات الطيران أمرا مقلقا جدا ويحتاج إلى تدخل حكومي والسبب يرجع إلى ما تم توضيحه من معلومات حول طبيعة عمل هذا النوع من الأفراد ورقي تدريبهم الشاق والمعلومات التي يكتسبونها إلى جانب الخبرة مع مرور الزمن يجعل منهم أفضل خط ثاني لمعاونة الكادر الطبي و الدفاع المدني بالدولة. فإذا أخذنا بعين الاعتبار الكثير من أفراد أطقم الضيافة الجوية الملمين أو الذين عملوا قبل انخراطهم في مجال التمريض والإنقاذ والإخلاء نجد أن في ظل النقص الحاد في أعداد الأطقم الطبية والتمريضية بكل دولة في ظل الجائحة التي يمر بها العالم من تفشي فيروس الكورونا كوفيد- 19 فإن أطقم الضيافة الجوية ستكون خير من يساند تلك الأطقم الطبية في المستشفيات والمحاجر وفي تنظيم قوانين الالتزام وعدم التجمع في المولات (المجمعات التجارية) وغيرها من متاجر المواد الاستهلاكية (الجمعيات التعاونية) والسوبر مراكت كونهم يمتلكون مهارة التعامل مع الجماهير من العامة من الناس إلى جانب الاستفادة منهم ولو بمكافئات مالية بسيطة عوضا عن بقائهم من دون عمل وإضاعة فرصة الاستفادة من خبراتهم. فعلى كل دولة العمل على إدماجهم منضمن فرق الدفاع المدني قدر الإمكان للحؤولة من زيادة العبئ على مصادر الدولة في ظل الظروف الراهنة.

خسائر شركات الطيران والنقل الجوي

حركة الركاب العالمية وعبر السفر الجوي أصابها التراجع والهبوط خلال السنة الأولى من انتشار الجائحة، حيث كشفت منظمة الطيراني المدني الدولي إنخفاض السفر 6 % عام 2020 بعد أن أظهرت بيانات احصائية تفيد بسفر 1,8 مليار مسافر.

هذا المشهد انعكس على الأوضاع المالية لشركات الطيران ووصلت خسائرها إلى 370 مليار دولار مقابل

خسارة المطارات 115 مليار دولار وخسارة خدمات الملاحة الجوية 13 مليار دولار.

تقرير منظمة «الايكاو» يشير إلى أن الإنخفاض بحركة السفر بدأ في يناير عام 2020 وتوقفت فعلياً بحلول أبريل لينخفض العدد الإجمالي للركاب بنسبة 98 % عن مستويات 2019 لحركة المرور الدولية و 87 % للسفر الجوي المحلي.

توقعات الخبراء تؤكد حدوث تحسن عالمي بحلول منتصف عام 2021 وعودة الركاب للصعود مع التقدم الملحوظ في عمليات التلقيح وتحقيق نسب عالية من «مناعة القطيع» في العديد من البلدان.

جوازات السفر الخضراء «أزمة أخلاقية أولاً»

«جوازات السفر الخضراء» والتي بدأت بعض الدول بمنحها لمواطنيها قد تسبب المزيد من تقسيم العالم على أسس الثروة وإمتلاك اللقاحات ويخلق قضايا أخلاقية تثير القلق.

الاعتراض جاء على خلفية أن اللقاح لم يتوفر للجميع بعدالة، إما بسبب التكلفة المالية العالية أو ندرة المعروض منه، وذلك انطلاقاً من مبدأ اساسي لحقوق الإنسان والقائم على الإنصاف وعدم التمييز.

ومن وجهة نظر المعترضين أن «هناك أزمة أخلاقية ضخمة على الصعيد العالمي لأن الدول ذات الدخل المرتفع، مثل إسرائيل أو الولايات المتحدة أو دول الاتحاد الأوروبي، من المحتمل أن تحقق لديها مناعة القطيع بحلول نهاية هذا العام، ولكن في دول أخرى لن يتم تطعيم معظم الناس خلال سنوات كثيرة.

هذا التساؤل يلاحق المجتمع الدولي، حيث بدأت الدول الأكثر ثراء في اكتساب قوة ضد فيروس «كورونا» عبر امتلاك اللقاحات. وأوضحت أنه تم تشكيل مبادرة في أبريل 2020 من قبل منظمة الصحة العالمية، أطلق عليها «كوفاكس»، بهدف إيصال اللقاحات إلى الدول الفقيرة في الوقت نفسه تقريباً الذي تنظم فيه الدول الغنية حملات التطعيم، ولكن هذا الهدف لم يتحقق، حيث قال

المدير العام لمنظمة الصحة العالمية، تيدروس أدهانوم غيبريسوس، إن 80 في المائة من 210 ملايين جرعة تم إعطاؤها لـ 10 دول فقط.

وكانت غانا أول دولة من بين الـ 92 دولة المشاركة في المبادرة الأممية التي تحصل على اللقاحات المجانية، حيث تلقت 600 ألف جرعة من بين ملياري جرعة تهدف منظمة الصحة إلى توزيعها هذا العام.

أن الدول الغنية، مثل بريطانيا، بدأت الحديث عن أنها تدرس إمكانية إصدار «شهادة» يمكن استخدامها من قبل منظمي الفعاليات الكبرى، حيث تستعد لتخفيف قيود الإغلاق هذا العام.

الجديد في هذا المضمار، ما أعلنه الاتحاد الدولي للنقل الجوي (أياتا) بإطلاقه جواز سفر لقاح كورونا وهو عبارة عن تطبيق على الهواتف المحمولة (يونيو 2021) يثبت خلو المسافرين من الفيروس ويمكنهم من إنشاء جواز سفر الكتروني والحصول على شهادات الفحص أو التطعيم والتحقق من أنها كافية لمواصلة رحلتهم.

تأثير ابتكار اللقاح على السفر

منحت الإعلانات المتتابعة لشركات الدواء العالمية، المعنية بتطوير لقاح لفيروس كورونا، وانخراط دول عديدة في العالم في حملات تطعيم وطنية ضد الفيروس، تأثيراً ملحوظاً على قطاع السفر المحاصر بالقيود منذ بدء تفشي الجائحة.

وشهدت مواقع شركات الطيران والرحلات البحرية ارتفاعاً في عمليات البحث والحجوزات لعام 2021، بحسب موقع «سي إن إن بالعربية».

ونقلت "سي ان ان" عن اختصاصية السفر الدكتورة فيليسيتي نيكلسون، كبيرة الأطباء في عيادة «تريلفايندرزترافيل» في المملكة المتحدة، قولها «لا يعني مجرد أن يبدأ برنامج توزيع جرعات اللقاح أنه يمكنك الصعود على متن الطائرة التالية، سواء حصلت على اللقاح أم لا. أعتقد أنها مسألة وقت فقط قبل أن تعود الأمور نوعاً ما إلى طبيعتها، لكن الأمر سيستغرق وقتًا طويلاً».

وأوضحت نيكلسون أنه إذا تمكنت البلدان من نقل جرعات اللقاح وحفظها بشكلٍ صحيح، فقد يستغرق ذلك الانتظار إلى منتصف 2021، وستكون البلدان التي يعتمد اقتصادها على السياحة يائسة في استعادة السياح، ولكن معظم الخبراء لا يتوقعون انتعاش قطاع السفر حتى خريف 2021.

في المقابل، هناك محاذير من أن نصف رحلات العمل ستختفي، بعد زوال فيروس كورونا، ويتم الاستعاضة عنها باجتماعات العمل عبر الفيديو.

هذا على الأقل، ما يعتقده بيل غيتس، الذي كان قد توقّع (في 20 نوفمبر 2020) أن نصف رحلات العمل ستختفي بعد زوال كورونا، وفق ما ورد في موقع «سي نيوز».

وتعليقا على دعوة لحضور مؤتمر نظّمته صحيفة «نيويورك تايمز»، اعتقد مؤسس شركة «مايكروسوفت» أنّ «أكثر من 50 % من رحلات العمل، فضلًا عن أكثر من 30 % من أيّام الحضور في الشركات، ستختفي». تصريحات بيل غيتس لم تكن مفاجئة، فمنذ أكتوبر 2020 أعلنت شركة «مايكروسوفت»، أنها ستسمح بالعمل عن بعد، مدى الحياة، لبعض موظفيها.

كما أعلن الرئيس التنفيذي لـ"فيسبوك" مارك زوكربيرغ أيضًا أن جميع الوظائف الجديدة في الشركة،

سيتم طرحها عن طريق العمل عن بُعد، وتوقّعَ أن يعمل نصف الموظفين بدوام كامل عن بُعد بحلول عام 2030.

خسائر إنهيار السياحة العالمية 4 تريليونات دولار

أظهر تقرير صادر عن مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية «أونكتاد»، أن انهيار السياحة الدولية الناجم عن جائحة فيروس كورونا بلغت كلفته على الاقتصاد العالمي 4 تريليونات دولار في عامي 2020 و2021 وحدهما.

وقد خسرت السياحة والقطاعات المرتبطة بالصناعة في عام 2020 ما يقدر بحوالي 2.4 ترليون دولار بعد توقف السفر بسبب الجائحة، وتوقع خسارة في 2021 بين 1.7 ترليون دولار و2.4 ترليون دولار.

ويقول التقرير إن تعافي قطاع السياحة سيعتمد إلى حد كبير على توزيع لقاحات كورونا على مستوى العالم، وهذا ما يتحقق في البلدان التي ترتفع فيها معدلات اللقاحات تتعافى بشكل أسرع من البلدان ذات المعدلات المنخفضة.

وقالت الأمينة العامة «للأونكتاد»: «يحتاج العالم إلى جهود تطعيم عالمية من شأنها حماية العمال والتخفيف من الآثار الاجتماعية السلبية واتخاذ قرارات استراتيجية بشأن السياحة، مع مراعاة التغييرات الهيكلية المحتملة».

ولا تتوقع منظمة السياحة العالمية العودة إلى مستويات السياحة لعام 2019 حتى عام 2023 أو بعد، كما أضافت المنظمة التابعة للأمم المتحدة أن عدد السياح الوافدين قد ينخفض بنسبة 84 % في 2021.

ولا شك بأن الخسائر السياحية بسبب التوزيع غير المتكافئ للقاحات ستظهر بشكل أوضح في البلدان النامية في عام 2021. ويفصل التقرير 3 سيناريوهات محتملة مختلفة، مع تحديد أكثر المناطق تضررًا كأمريكا الوسطى وشرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا.

وقد تكبدت البلدان النامية بالفعل أكبر الخسائر في عام 2020، حيث انخفض عدد الوافدين ما بين 60% و80%، وفقًا للأونكتاد.

جواز سفر كورونا الأوروبي

وفي سبيل تنشيط حركة السياحة والتنقل على مستوى بلدان الاتحاد الأوروبي فقد أطلق الإتحاد في الأول من شهر يوليو 2021 «جواز سفر كورونا» بعد ان بدأت فعلياً 21 دولة من اعضاء الاتحاد الاوروبي بتسلم الشهادات والذي سيسمح بموجبه لسكان الاتحاد بإظهار ما إذا كان قد تم تطعيمهم أو ان نتائج فحوصهم الخاصة يكشف الاصابة بكورونا سلبية أو أنهم تعافوا منه حديثاً.

ويعتبر جواز سفر كورونا، بمثابة شريان حيوي للسياحة الاوروبية، وركيزة أساسية لخطة إستعادة حرية الحركة بشكل كامل.

حج «استثنائي» في ظل الجائحة

بذلت حكومة المملكة العربية السعودية جهوداً مضنية لتسيير إداء مناسك الحج والعمرة في ظل انتشار وباء الكورونا واتخذت جملة اجراءات احترازية للحفاظ على سلامة المعتمرين والحجاج.

ففي الاسبوع الأول من شهر مارس 2020 قررت تعليق العمرة مؤقتاً للمواطنين والمقيمن «خشية وصول الفيروس المستجد «كوفيد – 19» للمسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة.

وفي خطوة أخرى قررت وزارة الحج السعودية في شهر يونيو 2020 قصر الحج على من هم داخل أراضي المملكة فقط باعداد محدودة جداً.

وأنطلاقاً من حرصها على إقامة شعائر الحج بشكل آمن صحياً وبما يحقق متطلبات الوقاية والتباعد الاجتماعي اللازمة لضمان سلامة الإنسان وحمايته من مهددات هذه الجائحة وتحقيقاً لمقاصد الشريعة الإسلامية في حفظ النفس البشرية كان قرار إقامة حج عام 1441هـ باعداد محدودة جداً.

وقد اقتصر الحج هذا العام على من هم دون 65 عاماً ولا يعانون من أية أمراض مزمنة وخضع المشاركون في الحج للفحص قبل وصولهم إلى مكة المكرمة.

واصدرت السلطات المعنية سلسلة اجراءات من بينها منع لمس الكعبة والحجر الأسود وارتـداء الكمامات واستخدام السجادات الشخصية.

وتقرر توزيع الحجاج على الخيام بحيث لا يزيد عددهم على 10 حجاج لكل 50 متراً مربعاً من مساحة الخيام والحفاظ على مساحة متر ونصف المتر على الأقل بين كل حاج من جميع الجهات.

الارقام المتوقعة لحج عام 2020 كانت بحدود 10 آلاف حاج

وفي شهر اكتوبر 2020 عاودت إستئناف استقبال المعتمرين تدريجياً تعليقها وسيؤدي نحو 6 آلاف معتمر في اليوم وسيزداد العدد إلى 15 ألف معتمر ويسمح بدخول 40 ألف مصلي إلى الحرم المكي لاداء الصلاة.

مع دخول العام 2021 وتسارع عمليات التطعيم وأخذ اللقاح أعلنت وزارة الحج والعمرة السعودية ان مناسك الحج لهذا العام في مكة المكرمة ستقتصر على 60 ألف من سكان المملكة المطعمين ضد فيروس كورونا المستجد.

جاء هذا القرار في ظل ما يشهده العالم من استمرار انتشار الفيروس وظهور تحورات جديدة له، وحددت الفئات العمرية المسموح لها من 18 إلى 65 عاماً والحاصلين على اللقاح.

احتجاجات على الإغلاق

إجـراءات الإغلاق التي إتبعتها الكثير من الدول، جوبهت بإحتجاجات شعبية ومظاهرات خرجت الى الشوارع تتحدى الحظر المفروض على التجمعات العامة.

وفي مدينة برلين شهدت حركة منظمة قادتها مجموعة «المفكرون المنفتحون» يوم الأول من أغسطس 2020 ثم تكرت يوم 29 أغسطس من السنة نفسها.

أستاذ علم الاجتماع بكلية هيرتي لشؤون الحكم في برلين «هيلموت إشهاير» تناول هذه الظاهرة وقدمها بالصورة التالية

لقد تصرف معظم المشاركين في مسيرة 29 أغسطس والبالغ عددهم 38 ألفا، بصورة سلمية، ونُظمت تلك المسيرة بعد أن ألغت محكمة إداريـة في برلين حظر الشرطة على المظاهرة، ولكن مجموعة منشقة مكونة من 450-500 متظاهر، أغلبهم من أقصى اليمين، حاولت اقتحام الرايخستاغ، ولم يكن الهجوم عنيفا ومخططا له جيدا مثلما كان الهجوم الذي تعرض له مبنى الكابيتول الأميركي، والذي كان من المقرر أن يحدث في 6 يناير 2021، وأجج هذا الهجوم نظرية مؤامرة «كيو أنون» الأميركية، لكنها كانت المرة الأولى منذ الحقبة النازية التي يتعرض فيها «الرايخستاغ» للهجوم، وهذا لا يبشر بالخير في ألمانيا.

في 1 أغسطس 2021، تقدمت حركة «كويردانكر» بطلب الحصول على إذن لتنظيم مظاهرة يشارك فيها نحو 25000 شخص، وقوبل الطلب بالرفض، على أساس أن الحركة انتهكت مرارا وتكرارا الإجراءات المتعلقة بالوباء، فرفع المنظمون قضية في المحكمة لكنهم خسروها، ومع ذلك، حصل موكبهم على إذن بالتظاهر.

بيد أنه تبين أن الموكب كان خدعة، إذ بدأت مجموعات من المتعاطفين مع «كويردانكر» في السير في أنحاء مختلفة من المدينة بذريعة التجمع عند بوابة «براندنبورغ» وأمام مبنى «الرايخستاغ»، وأعقب ذلك مشهد سريالي، إذ استمتع المفكرون المنفتحون الـ7000 بلعبة القط والفأر مع عناصر الشرطة، دون وضع كمامات، وفي تجاهل لتدابير النظافة، ويبدو أن عناصر الشرطة قللت من احتمال التجمع غير القانوني، ونطاقه، واحتمالية تسببه في اندلاع أعمال عنف.

إن حركة «كويردانكر» تلعب بالكلمات؛ فهي تتكلم بتناقض من جهة، وتعبر عن التفكير الجانبي من جهة أخرى، وأطلقت الحركة في أبريل 2020 من قبل مهندس البرمجيات في شتوتغارت، مايكل بالويغ، بهدف الترويج لسبب واحد: نهاية عمليات الإغلاق كوفيد19.

ويقول بالويغ وأتباعه إن إجراءات الصحة العامة التي اتُخذت أثناء الوباء تنتهك الحقوق الدستورية للشعب الألماني، بما في ذلك الحق في حرية التجمع، وهذا صحيح، لكن موقف الحكومة- الذي يشير إلى مداولات واسعة في البرلمان والمحاكم- هو أن هذه الانتهاكات المؤقتة في محلها، نظرا لخطورة كوفيد19.

إن أتباع حركة «كويردانكر» غير مقتنعين، فهم يتهمون الحكومة باستخدام الوباء كذريعة لإنشاء دكتاتورية في البلد، وشعارهم المفضل، الذي هتفوا به في احتجاجات كثيرة، هو «سلام، حرية، لا دكتاتورية».

وبعد أحداث أغسطس 2020، أصبح جزء «السلام» من هذا الشعار موضع تساؤل على نحو متزايد، تماما كما هي الحال بالنسبة إلى تركيز حركة «كويردانكر»على الحقوق الدستورية خلال عمليات الإغلاق من جراء كوفيد19، ومع نمو الحركة، التي أصبح لها الآن فروع محلية في 59 مدينة ألمانية، وسعت نطاق حججها.

لكن الدراسة الأكثر شمولاً لحركة «كويردانكر» التي أجراها عالم الاجتماع «أوليغرنا شتوي» وفريقه في جامعة بازل، شملت الاحتجاجات المرتبطة بالوباء في ألمانيا، والنمسا، وسويسرا، وخلصت إلى أن الحركات كانت غير متجانسة، وضمت عدة مجموعات اجتماعية ومتباينة في أغلب الأحيان، والشيء الذي وحدها هو الشعور بالاغتراب عن المؤسسات السياسية، والأحزاب القائمة، ووسائل الإعلام الرئيسة.

وتشير الدراسة إلى أن هذا الاغتراب يجعل هذه الحركات عرضة لنظريات المؤامرة، وربما ليس من المستغرب أن تظهر مظاهرات «كويردانكر» بصورة متزايدة ميولا معاديا للسامية، على الرغم من أن الحركة ليست معادية للأجانب، ولا للإسلام بصورة خاصة.

الفصل الخامس

اللقاح الشامل والحق المتكافئ في الحماية

- لقاح «كورونا» يكتب حياة جديدة للبشرية
- ما هي مكونات اللقاح
- كيف تطور اللقاحات
- فاعلية اللقاحات الصينية
- ٧ معلومات مغلوطة عن اللقاحات
- قومية اللقاح أكبر العقبات
- انطلاق حملات التطعيم
- اللقاح والحق المتكافئ في الحماية
- كيانات برزت مع الجائحة
- الفروق بين اللقاحات

لقاح «كورونا» يكتب حياة جديدة للبشرية

اعتبارا من 5 ديسمبر 2020، دخل العالم في ما قد تصبح "أكبر عملية تلقيح في تاريخ البشرية"، بينما ما يزال فيروس كورونا يطوف حول العالم في شكل سلالات جديدة متحورة ظهرت في بريطانيا واليابان وجنوب افريقيا، في وقت تؤكد فيه مراجع صحية عالمية ان اللقاح المضاد لـ"كورونا" قادر على التعامل مع الفيروس في جميع أشكاله، بما في ذلك السلالات المتحورة منه.

لم يتأخر الباحثون والمختصون في المجال الصحي، عن بث شحنات من التفاؤل والأمل بين البشر، حول الجدوى من استعمال لقاحات كوفيد – 19، لدرجة أن الكثير من المتابعين للجهود العالمية في هذا المضمار رأوا في ذلك منعطفا مفصليا في تاريخ مكافحة الأوبئة.

وفي أحدث الموجات الإيجابية حول اللقاح، سعى الطبيب النمساوي هرفيج كولاريتش في كتاب حديث له صدر في ديسمبر 2020، "تطعيم كورونا ما له وما عليه" إلى دعم وتحفيز أكبر عدد من الناس، وخاصة المترددين منهم، يأخذون قرارهم الخاص بالتطعيم بأكبر قدر من الموضوعية بدلا من الاعتماد على الناحية العاطفية.

وقدَّم كولاريتش، الذي ساهم في تطوير لقاح مضاد لداء الكلب يعتمد على الحمض النووي الريبوزي، في شرح مفصّل عن اللقاح جوانب المزايا والعيوب التي يشملها، مشيرا إلى حقيقة حاسمة مفادها أن أن البشرية دون التطعيم "سنقف عراة كمجتمع في مواجهة جائحة كوفيد – 19".

وفي شرحه للحجج المتعلقة بالعيوب توصل إلى أن التطعيم "ليس علاجا للسعال"، وأنه من الممكن للذين يتم تطعيمهم في مرحلة مبكرة تعرضهم لأضرار لن تتضح إلا من خلال الشواهد المكتسبة لاحقا، حيث يتم تسجيل الأخطاء المتكررة في التطعيم.

وعن تطعيمات الحمض الريبوزي، ذكر كولاريتش، وهو عضو في المجلس الاستشاري النمساوي لكورونا، أنها تمتاز بعيب واحد إلى جانب مزاياها العديدة حيث تنتج الخلايا في إطار الاستجابة المناعية القوية للجسم العديد من الوسائط الكيميائية وبعض هذه الوسائط يتسبب في التهابات أو تكون لها تأثيرات على أجهزة أخرى.

ورغم أن اللقاحات أثبتت فعالياتها خلال التجارب السريرية، لكن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد لأن مدة المناعة ضد كورونا لا تزال غير واضحة حتى الآن، ومن الممكن أن تأخذ الجائحة في حال عدم وجود تطعيمات دورة مهلكة، الأمر الذي سيؤدي إلى تكرار وفاة الملايين من الأشخاص.

ويأتي دور الطبيب كولاريتش الدعم للقاح في وقت تسعى فيه كل دول العالم للحصول على لقاحات ضد فايروس كورونا الذي أصاب أكثر من 100 مليون إنسان وتسبب في وفاة أكثر من مليونين آخرين، بحسب بيانات حديثة نشرتها جامعة جونز هوبكنز.

ويمكننا التعرف ومن خلال كتاب كولاريتش على حقيقة أن البعض من المستحضرات تظهر في صورة "شاة ترتدي فراء الذئب" وكذلك السبب في أن بعض التطعيمات راحت ضحية لنجاحها وما هي الطريقة التي تؤثر بها الجوانب التجارية على تطوير المواد الفعالة.

وكتبت الصحافية النمساوية زيلفيا يلينيتسيك في مقدمة الكتاب تقول إن التطعيمات من البداية دائما ما

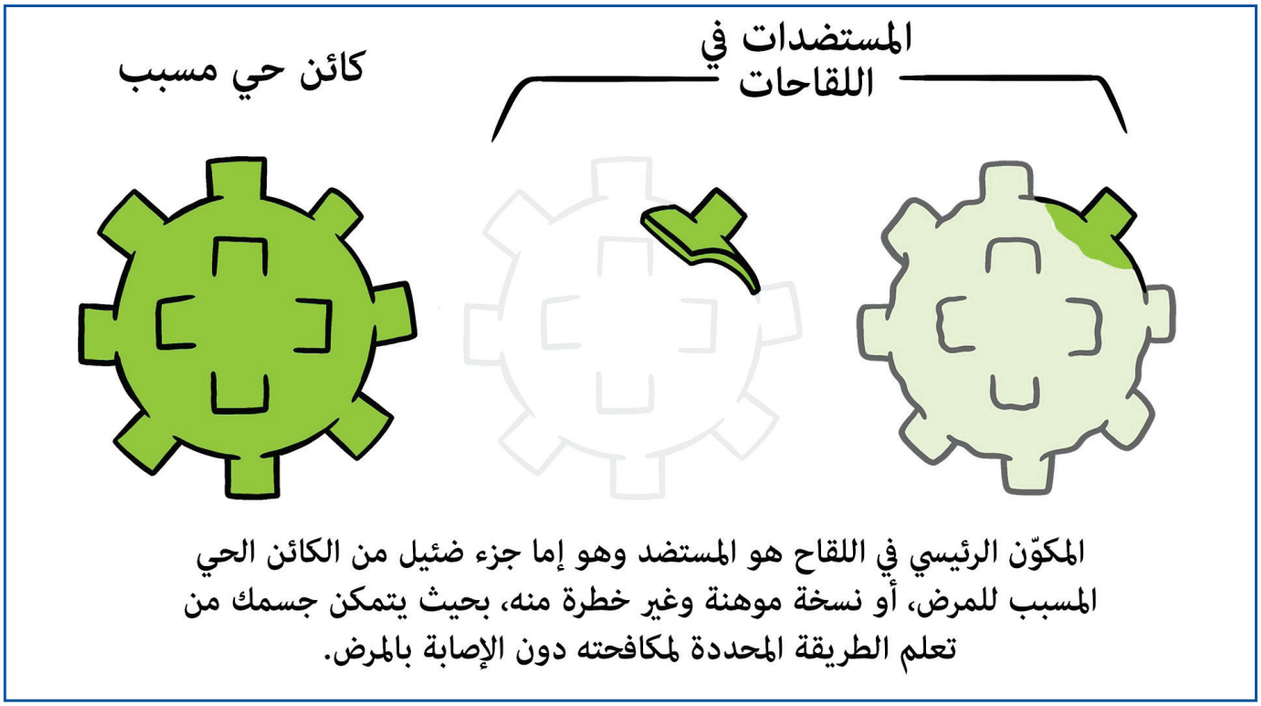

المكوّن الرئيسي في اللقاح هو المستضد وهو إما جزء ضئيل من الكائن الحي المسبب للمرض، أو نسخة موهنة وغير خطرة منه، بحيث يتمكن جسمك من تعلم الطريقة المحددة لمكافحته دون الإصابة بالمرض.

كانت مصحوبة بتخوفات، مشيرة إلى أنه عندما تم تطوير تطعيم الجدري قبل أكثر من 200 عام وتراجعت معه أعداد الإصابات، كانت هناك حالة من الرفض للتطعيم وتخوفات غير منطقية قد انتشرت بشكل واسع.

وكان الفيلسوف إيمانويل كانط يعتقد أن اللقاح ينقل سمات حيوانية إلى الإنسان، لكن بدءا من العام 1876 ظهرت دورية منتظمة لرافضي اللقاح، قبل تشكيل جمعية لأطباء ضد التطعيم في العام 1901.

والكثير من الحجج السابقة كانت على مثل هذا القدر من انعدام المنطق، ولذلك فإن من يرى في بعض التطعيمات السابقة مثل أولى جرعات التطعيم ضد داء الكلب التي كانت لها آثار جانبية خطيرة بالفعل، لكن الوضع اليوم لا يمكن مقارنته بهذا "العصر الحجري الطبي"، فالعالم تقدم بحثياً بشكل مذهل.

لكن لا يزال هناك شيء ما مشابه بين العصرين ألا وهما "الانفعالية واللاعقلانية اللتان تغلبان على نقاشات التطعيم، والخطب الحماسية للمؤيدين التي تصطدم بالمشككين لينتهي الأمر إلى حد عدم إمكانية تمييز الحقائق من الأخبار الكاذبة، والشك المبرر من نظريات المؤامرة».

ما هي مكوّنات اللقاحات؟

تحتوي اللقاحات المضادة للأوبئة على شدف صغيرة جداً من الكائن الحي المسبب للمرض أو على المخطط الأولي لتكوين شدف صغيرة جداً. وتحتوي أيضاً على مكوّنات أخرى للحفاظ على مأمونية اللقاحات ونجاعتها. وتُدرج هذه المكوّنات الأخيرة في معظم اللقاحات وتُستخدم منذ عقود في مليارات الجرعات اللقاحية لجوائح مشابهة إجتاحت البشرية وكما وصفتها

منظمة الصحة العالمية في تقرير خاص بها أعدته لهذا الغرض.

ولكل مكوّن من المكوّنات اللقاحية غرض محدد وهو يخضع للاختبار في عملية التصنيع. وتُختبر المكوّنات بأجمعها للتأكد من مأمونيتها.

المستضد

تحتوي كل اللقاحات على مكوّن نشط هو (المستضد) والذي يولّد استجابة مناعية أو على المخطط الأولي لتكوين المكوّن النشط. وقد يكون المستضد جزءاً صغيراً من الكائن الحي المسبب للمرض مثل البروتين أو السكر، أو قد يكون الكائن الحي بأكمله في شكله الموهّن أو المعطل.

المواد الحافظة

تحول المواد الحافظة دون تلوث اللقاح بعد فتح القارورة التي تحويه في حال استخدامه لتطعيم أكثر من شخص واحد. ولا يحتوي بعض اللقاحات على مواد حافظة نظراً إلى حفظ هذه اللقاحات في قوارير ذات جرعة واحدة والتخلص منها بعد إعطاء الجرعة الوحيدة. ومادة ثنائي فينوكسي إيثانول هي أكثر المواد الحافظة شيوعاً وقد استُخدمت لسنوات عديدة في عدد من اللقاحات وتُستعمل في طائفة من منتجات رعاية الطفل وتعتبر مادة مأمونة لاستخدامها في اللقاحات لأنها قليلة السمية بالنسبة للإنسان.

المواد المثبّتة والفاعلة بالسطح

تمنع المثبتات من حدوث تفاعلات كيميائية داخل اللقاح وتحول دون التصاق مكوّنات اللقاح بقارورة اللقاح.

ويمكن أن تكون المثبتات من السكريات (اللاكتوز والسكروز)، والأحماض الأمينية (الغليسين)، والهلام، والبروتينات (الألبومين البشري المأشوب المشتق من الخميرة).

أما المواد الفاعلة بالسطح فتحافظ على الامتزاج الجيد لجميع مكوّنات اللقاح. وتحول دون ترسّب العناصر الموجودة في الشكل السائل للقاح وتكتلها. وغالباً ما تُستخدم أيضاً في الأغذية مثل البوظة (الآيس كريم).

المواد المتبقية والمخُفَّفَة

البقايا هي كميات قليلة جداً من مختلف المستحضرات المستخدمة أثناء تصنيع اللقاحات أو إنتاجها ولا تشكل مكوّنات نشطة في اللقاح المكتمل إعداده. وتختلف هذه المستحضرات حسب عملية التصنيع المستخدمة وقد تشمل بروتينات البيض أو الخميرة أو المضادات الحيوية. والكميات المتبقية من هذه المستحضرات التي قد توجد في لقاح ما هي قليلة جداً لدرجة أنها تُقاس كأجزاء في المليون أو أجزاء في المليار.

والمادة المخففة هي سائل يُستخدم لتخفيف لقاح كي يبلغ مستوى التركيز الطبي الصحيح قُبيل استخدامه. والمادة المخففة الأكثر استخداماً هي الماء المعقم.

المواد المساعدة

يحتوي بعض اللقاحات أيضاً على مواد مساعدة. وتحسن المادة المساعدة الاستجابة المناعية للقاح، أحياناً من خلال الاحتفاظ باللقاح في موضع الحقن لفترة أطول قليلاً أو من خلال تحفيز الخلايا المناعية الموضعية.

وقد تكون المادة المساعدة كمية قليلة جداً من أملاح الألومنيوم (مثل فوسفات الألومنيوم أو هيدروكسيد الألومنيوم أو كبريتات البوتاسيوم والألومنيوم). وثبت أن الألومنيوم لا يسبب أي مشاكل صحية في الأمد

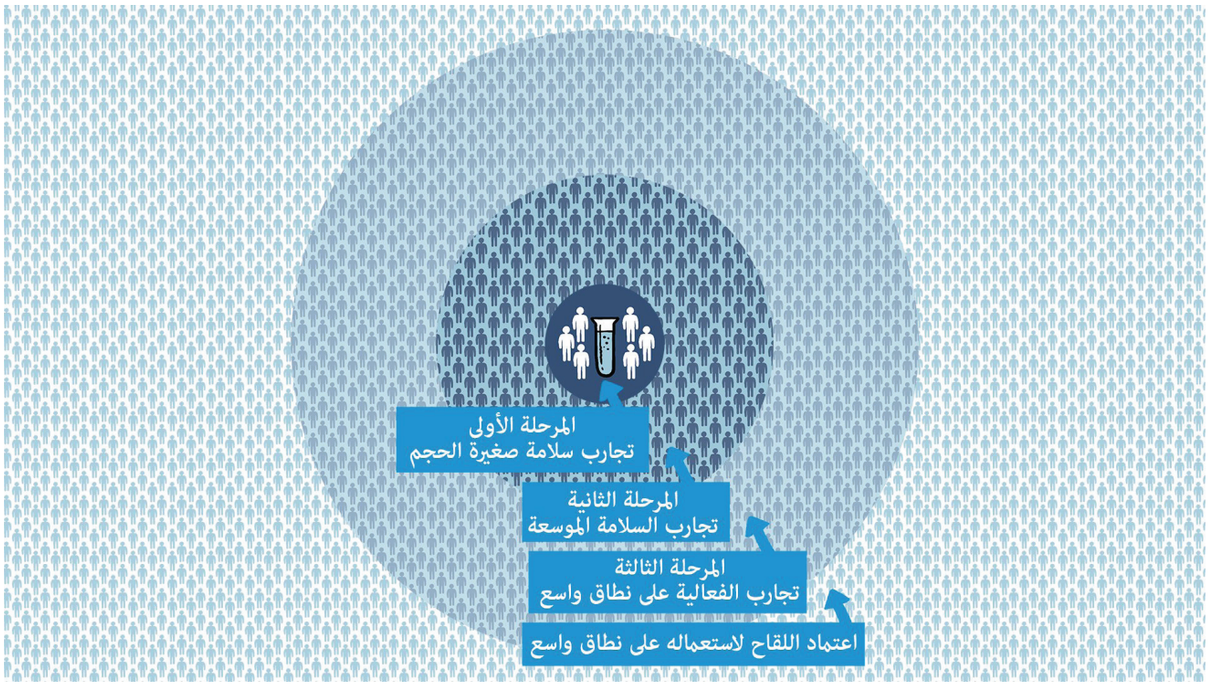

الطويل ويبتلع الإنسان الألومنيوم بانتظام عن طريق الأكل والشرب.

كيف تطوَّر اللقاحات؟

تستخدم اللقاحات منذ عقود طويلة ويطعَّم بها ملايين الأشخاص سنوياً بأمان. وعلى غرار جميع الأدوية، يجب أن يخضع كل لقاح لاختبارات مكثفة وصارمة لضمان مأمونيته قبل إمكانية بدء استخدامه في برنامج تطعيمي خاص ببلد ما.

يخضع كل لقاح قيد التطوير في المقام الأول لعمليات فحص وتقييم ترمي إلى تحديد المستضد الذي ينبغي استخدامه لتوليد الاستجابة المناعية. وتنفَّذ هذه المرحلة قبل السريرية دون اختبار على الإنسان. ويُختبر اللقاح التجريبي أولاً على الحيوانات لتقييم مأمونيته وقدرته على الوقاية من المرض.

وإذا ولّد اللقاح الاستجابة المناعية المنشودة، فإنه يُختبر بعد ذلك في إطار تجارب سريرية بشرية على ثلاث مراحل.

المرحلة 1

يُعطى اللقاح لعدد صغير من المتطوعين لتقييم مأمونيته وتأكيد توليده للاستجابة المناعية وتحديد الجرعة المناسبة. وعموماً، تُختبر اللقاحات في هذه المرحلة لدى متطوعين من الشباب البالغين والمتمتعين بصحة جيدة.

المرحلة 2

يُعطى اللقاح بعد ذلك لعدة مئات من المتطوعين لمواصلة تقييم مأمونيته وقدرته على توليد الاستجابة المناعية. ويتمتع المشاركون في هذه المرحلة من الاختبار بخصائص مماثلة (مثل السن والجنس) لخصائص الأشخاص الذين يستهدفهم اللقاح. وتُجرى عادة تجارب متعددة في هذه المرحلة لتقييم مختلف الفئات العمرية ومختلف تركيبات اللقاح. وتُدرج عادة

مجموعة من الأشخاص غير المطعمين باللقاح في هذه المرحلة كمجموعة للمقارنة من أجل تحديد ما إذا كانت التغييرات الطارئة في مجموعة الأشخاص المطعمين تعزى إلى اللقاح أو ما إذا حدثت بالصدفة.

المرحلة 3 والحاسمة

يُعطى اللقاح في هذه المرحلة لآلاف المتطوعين، ويُقارن بمجموعة مماثلة من الأشخاص الذين لم يطعَّموا باللقاح لكنهم تلقوا منتجاً مستخدماً كأساس للمقارنة، لتحديد مدى نجاعة اللقاح ضد المرض الذي يستهدف الوقاية منه ولدراسة مأمونيته لدى مجموعة أكبر بكثير من الأشخاص. وتُجرى التجارب في ظل المرحلة الثالثة في معظم الأحيان على نطاق عدة بلدان وعدة مواقع داخل بلد معين لضمان انطباق نتائج أداء اللقاح على عدة فئات سكانية مختلفة.

وأثناء التجارب التي تُجرى في المرحلتين الثانية والثالثة، تُخفى على المتطوعين والعلماء الذين يجرون الدراسة المعلومات عن أي المتطوعين تلقى اللقاح قيد الاختبار أو المنتج المستخدم كأساس للمقارنة. ويُسمى هذا التدبير "التعمية" وهو تدبير ضروري لضمان عدم تأثر المتطوعين والعلماء في تقييمهم للمأمونية أو النجاعة بمعرفة من تلقى أي منتج. وبعد انتهاء التجربة والحصول على جميع النتائج، تُكشف للمتطوعين والعلماء الذين أجروا التجربة المعلومات عن هوية من تلقى اللقاح ومن تلقى المنتج المستخدم كأساس للمقارنة.

وعندما تتوافر نتائج جميع هذه التجارب السريرية، يلزم اتخاذ سلسلة من الخطوات، بما في ذلك إجراء عمليات لاستعراض النجاعة والمأمونية من أجل الحصول على الموافقة التنظيمية وموافقة سياسات

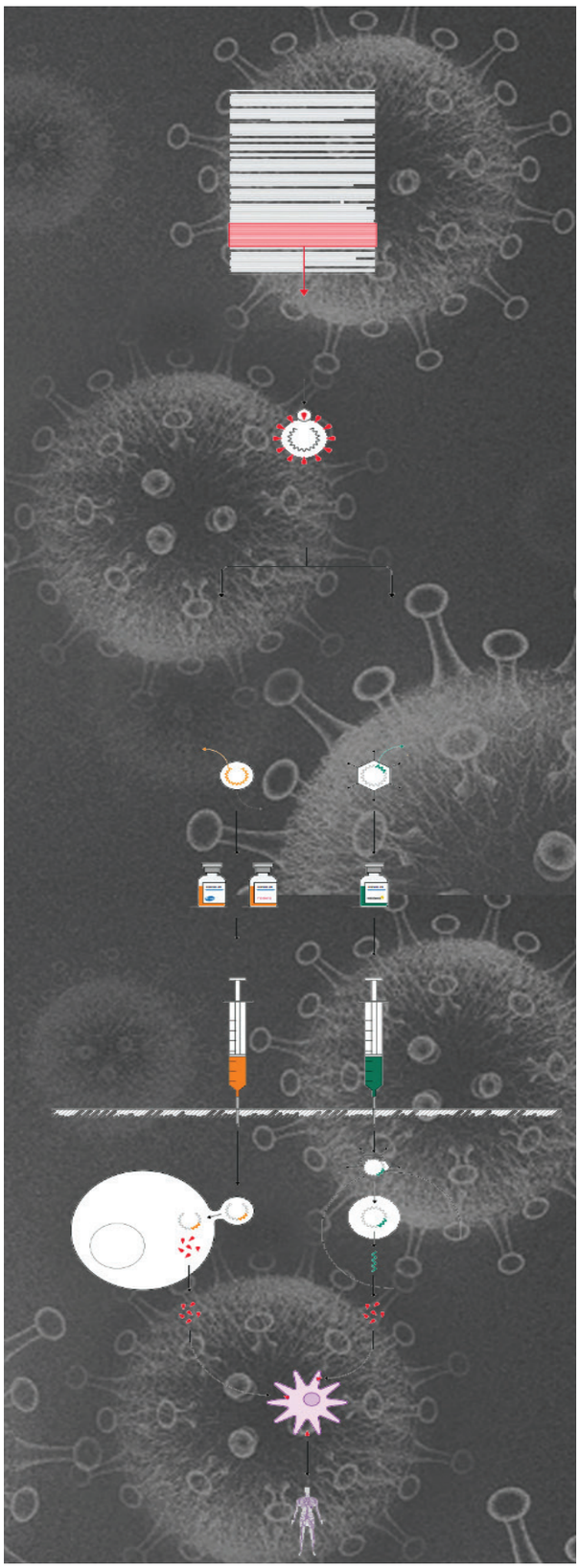

الصحة العامة. ويستعرض المسؤولون في كل بلد عن كثب بيانات الدراسة ويقررون التصريح أو عدم التصريح باستخدام اللقاح. ويجب أن تثبت مأمونية اللقاح ونجاعته لدى شريحة واسعة من السكان قبل الموافقة عليه وبدء استخدامه في إطار برنامج وطني. ويحدَّد مستوى عال للغاية لمعياري مأمونية اللقاحات ونجاعتها علماً بأن اللقاحات تُعطى لأشخاص متمتعين بخلاف ذلك بصحة جيدة وغير مصابين بالمرض المعني تحديداً.

وتُجرى عمليات رصد إضافية باستمرار بعد بدء استخدام اللقاح. وتوجد نظم لرصد مأمونية جميع اللقاحات ونجاعتها. ويمكّن ذلك العلماء من تتبع تأثير اللقاحات ومأمونيتها حتى عند استخدامها لدى عدد كبير من الأشخاص، على مدى فترة زمنية طويلة. وتُستخدم هذه البيانات لتعديل السياسات الخاصة باستخدام اللقاحات بهدف تحسين تأثيرها على وجه أمثل وتسمح أيضاً بتتبع اللقاح بأمان طوال فترة استخدامه.

وكانت لجنة خبراء الصحة في هيئة الغذاء والدواء الأميركية «FDA" قد أوصت في في 11 ديسمبر 2020، باعتماد اللقاح الخاص بشركتي Pfizer وBioNTech ، مما مهّد الى اطلاق حملات تطعيم كبيرة في مختلف دول العالم.

واعتبارا من 28 نوفمبر، بدأ اللقاح المذكور رحلته إلى دول العالم، حيث نقلت شركة «يونايتد إيرلاينز» الأميركية الجرعات الأولى منه على متن طائرة من بلجيكا، تمهيدا لتوزيعه عالمياً عقب اعتماده من الـ«FDA"، حسب ما نقلت مجلة فوربس.

خواص لقاح فايزر

ويُعد لقاح «فايزر- بيونتيك» نوعا جديدا من أحدث اللقاحات المحضرة من جزيئات الحمض النووي الريبوزي المرسال (mRNAs)، وهي أجزاء صغيرة من مادة وراثية توجِّه الخلايا - في هذه الحالة - إلى إنتاج أجزاء صغيرة من البروتين الشوكي لفيروس كورونا المستجد، وتكون أجزاء الحمض النووي الريبوزي المرسال محاطةً بجسيمات نانوية شحمية، وقد أظهر تحليل شركتي "فايزر" و"بيونتيك" لبياناتهما أنَّ اللقاح (الذي يُعطى على جرعتين، بفاصل زمني بينهما قدره ثلاثة أسابيع) فعال بنسبة 95 % في الوقاية من "كوفيد- 19"، وكانت فاعليته متشابهة عبر كل المجموعات العمرية، والجنسية، والعرقية، والإثنية، التي خضعت للدراسة، ويشمل ذلك أفرادًا مصابين باعتلالات صحية مزمنة أو طويلة الأجل، مثل أمراض القلب، أو أمراض الرئة، أو السمنة. وذكرت الشركتان أنَّ لقاحهما أظهر فاعليةً كبيرة، حتى بعد تناوُل جرعة واحدة بأسبوعين فقط، وكذلك أكد التحليل الذي أجرته إدارة الغذاء والدواء هذه النتائج. واستقبل الخبراء هذا الخبر بحماس شديد؛ إذ قالت مونيكا غاندي، الأستاذة في كلية الطب بجامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو: "إنها لحظة تاريخية؛ ففي الولايات المتحدة خاصةً، ما من طريقة أخرى للتخلص من هذه الجائحة سوى التطعيم الجماعي"، إنَّ فاعلية اللقاح البالغة 95 % "مذهلة بحق"، وتقول أيضًا: "وأنَّ العديد من العلماء مذهولون بعض الشيء خصوصاً وأن تقديرات الفاعلية كانت 70 % أو دون ذلك"، وأعطى نشر شركة "فايزر" تقريرًا كاملًا عن بياناتها تمثيلًا جيدًا للمشاركين من جميع الأعمار، والأجناس، والمجموعات العرقية والإثنية المتنوعة- كانت أمرًا مشجعًا.

تبين من بين أهم معطيات وإفرازات مرحلة حقن اللقاح هي أنه يسبب آثاراً جانبية خفيفة إلى معتدلة، وغالبا ما يكون مؤشرا على استجابة مناعية جيدة؛ فحسب إفادة بعض الأشخاص في المجموعة التي تناولت

اللقاح في التجربة إنهم أصيبوا باحمرار وألم وتورُّم في موضع الحَقن، إضافة إلى حمّى وصداع وتعب، لاسيما بعد الجرعة الثانية، وكانت الآثار الجانبية أوضح لدى المشاركين الأصغر سنًّا.

وبمسؤولية تواصل كل من شركتا "فايزر" و"بيونتيك" متابعة المشاركين في التجارب الإكلينيكية لرصد أي آثار جانبية خطيرة أو حالات وفاة لفترة عامين على الأقل، وستبلغان إدارة الغذاء والدواء بأي أثر عكسي ضار ناجم عن اللقاح.

واستمراراً لحالة المخاوف أثيرت علامات إستفهام بشأن نقل وحفظ لقاح فايزر لأنه يحتاج إلى البقاء في درجة حرارة تقارب 75 درجة مئوية تحت الصفر، وهي حرارة متدنية جدا يصعب ضمانها في بعض الظروف والدول ذات المناخ الحار ولهذا طورتا صناديق شحن حافظة للقاح لضمان نقل الجرعات بشكل "سليم وآمن"، وأن هذه الصناديق تم تصميمها، بشكل خاص، حتى تتحكم في درجة الحرارة وضمان سلامة شروط التخزين وهي تحتوي على الثلج الجاف وجهاز لقياس درجة الحرارة، إضافة إلى نظام تحديد المواقع العالمي (GPS)، لذا سيكون من الممكن في أي وقت تحديد مكان الصندوق ودرجة حرارته، مما يسمح بشحن قوارير اللقاح عبر أي وسيلة نقل، بما في ذلك الشاحنات والطائرات والقوارب.

وتبديداً لمخاوف البعض عاودت شركتي «فايزر» و«بيونتيك» الألمانية للتأكيد على أن لقاحها ضد «كوفيد 19» آمن وفعال بنسبة 100 % خاصة مع الأطفال بدءاً من سن 12 عاماً، ففي دراسة أجريت على متطوعين أميركيين تتراوح أعمارهم بين 12 و15 عاماً، لا يحملون الفيروس بين الذين تم تطعيمهم بالكامل مقارنة مع من تم اعطاؤهم جرعات وهمية، كان من آثارها الجانبية الألم والحمى بعد الجرعة الثانية.

وعلى الصعيد العالمي، هناك العديد من لقاحات "كورونا"، اجتاز بعضها مراحل التطوير والأخرى ما تزال تخضع للتجارب على نطاق واسع في الهند والولايات المتحدة والصين وروسيا.

وقامت الولايات المتحدة الأميركية بتوسيع برنامج التحصين في البلاد بعد تباطؤ كبير في معدلات التطعيم، وسمحت الجهات التنظيمية باستخدام لقاح «فايزر – بيونتك» للاطفال من عمر 12 عاماً و 15 عاماً. وقالت إدارة الاغذية والعقاقير الأميركية أنها كانت تعمل على تعديل ترخيص الاستخدام الطارئ ليشمل ملايين الاطفال الذي تتراوح أعمارهم بين 12 و 15 عاماً.

"موديرنا".. الأمل الطبي

ومع بزوغ يوم 16 نوفمبر 2020، بددت شركة موديرنا الأميركية للتكنولوجيا الحيوية، المخاوف من الأضرار الجانبية للقاح الجديد ضد كورونا، ورفعت من سقف التفاؤل لدى منتظريه، خاصة أنه يمكن أن يصمد في براد عادي على عكس اللقاح الأول، الذي يحتاج إلى درجة حرارة منخفضة جدا.

وفيما يتطلب لقاح فايزر 75 درجة مئوية تحت الصفر، فإن لقاح موديرنا يظل مستقرّا في براد عادي لمدة 30 يوما.

ويحقق فاعليته بنسبة 94.5 في المئة لتقليص خطر التقاط المرض، بحسب نتائج لاختبار سريري على أكثر من 30 ألف مشارك.

ويرتكز لقاح "موديرنا" على تكنولوجيا حديثة، تقوم على إدخال تعليمات وراثية إلى الخلايا البشرية، لتحفيزها

على إنتاج بروتين مطابق لبروتين فيروس كوفيد- 19، وإحداث استجابة مناعية ضدّ هذا البروتين.

ولقاح موديرنا، مبني على تكنولوجيا الحمض النووي الريبوزي المرسال mRNA، التي تُشبه تلك المُستخدمة في لقاح شركة BioNTech، ومن أبرز نتائجه أن حوالي 9 إلى 10 في المئة من الأشخاص الذين تلقوا اللقاح ظهرت عليهم أعراض جانبية بعد تلقي الجرعة الثانية، مثل التعب والشعور بألم في العضلات أو ظهور احمرار حول موضع الحقن.

ووسط شراسة الجائحة فإن لقاح موديرنا يمثل لحظة حاسمة في تطوير لقاحنا ضد كوفيد – 19. "التحليل المرحلي الإيجابي للمرحلة الثالثة من تجربة المؤشرات السريرية الأولى أن اللقاح قادر على منع الإصابة بمرض كوفيد – 19، بما في ذلك المرض الشديد".

أسترا زينيكا.. مزيج من تقنية تقليدية

لم تتأخر شركة الأدوية البريطانية أسترازينيكا، عن الانضمام إلى صف الشركات التي أعلنت عن نتائج اللقاح الخاص بها المضاد لفيروس كورونا، والذي تطوره بالاشتراك مع جامعة أكسفورد.

وقالت أسترازينيكا، في 22 نوفمبر 2020، إن لقاحها المضاد لكورونا فعال بنسبة 70 %، وهي نسبة أقل إقناعا من لقاحي فايزر/ بايونتك وموديرنا اللذين تقترب فعاليتهما من 95 %، وأقل من النسبة التي أعلنت عنها روسيا بالنسبة إلى لقاحها «سبوتنيك 5» التي قالت إنها تصل إلى 92 %.

وبالفعل أدرجت منظمة الصحة العالمية نسختين من لقاح «إسترازينيكا – أكسفورد» للاستخدام في حالات الطوارئ مطلع العام 2021 ما يسمح ببدء توزيعه على بعض أفقر دول العالم وهو ما يعطي الضوء الأخضر لهذين اللقاحين ليتم طرحهما عالمياً من خلال آلية «برنامج كوفاكس».

لكن ما يميز لقاح استرازينكا هو أنه يستخدم تقنية تقليدية أكثر من اللقاحين المنافسين، ما يجعله أقل كلفة وأكثر سهولة للتخزين إذ إنه لا يحتاج إلى الحفظ في درجة حرارة منخفضة، ويعتمد على فيروس خامل يعدَّل لينقل الى الجسم معلومات جينية.

والمؤشرات الأولية لنتائج اللقاح أظهرت أنه آمن، ويؤدي إلى استجابة مناعية مماثلة بين كل البالغين، سواء كبار السن أو الشباب.

لكنه يواجه شكوكاً بشأن فعاليته بالنسبة لمن تجاوزت أعمارهم 65 عاماً أو حتى 55 عاماً. والدراسات المتتالية أظهرت ان اللقاح يوفر حماية محدودة 20 % من الأشكال المعتدلة من مرض كوفيد – 19 الناجمة عن السلالة الجنوب أفريقية المتحورة.

ولقد أظهر أعراضاً جانبية وسط شريحة من الاطباء الذين تم تطعيمهم مما أدى إلى ارتفاع حدة التشكيك بفعاليته وهذا ما استدعى السلطات الصحية في بريطانيا استخدامه على الاشخاص الذين تقل أعمارهم عن 55 عاماً، ويرجع ذلك إلى أن الاختبارات على كبار السن كانت محدودة.

وتعتبر الشركة أن لقاحها "فعال بشكل كبير" للوقاية من المرض، خصوصا أنه لم يصب أي مشارك في التجارب بأية أنواع حادة من المرض ولم ينقل أحد إلى المستشفى".

ونقل عن مدير عام أسترازينيكا، باسكال سوريو، قوله

إن بفضل «سلسلة توريد بسيطة»، سيكون اللقاح «متاحا ومتوفرا في كافة أنحاء العالم»، فيما تقول المجموعة إنها تتقدم بسرعة في التصنيع المرتقب لثلاثة مليارات جرعة التي ستكون متوفرة على مدى العام 2021.

وبالرغم من تلك الخطوات فقد واجه هذا اللقاح تحديات بعد أن علَّقت عـدداً من الـدول الأوروبية إستخدامه لمشاكل تتعلق بحالات وفاة ناتجة عن تجلطات في الدماغ مارس 2021 في حين أن شركة «إسترازينيكا» البريطانية – السويدية طمأنت العالم لسلامة منتجها وقد أجرت مراجعة مفصلة على من تلقوا لقاحها ضد كورونا أسفرت عن عدم ظهور دلائل على زيادة خطر حدوث تجلط في الدم وأن المراجعة شملت أكثر من 17 مليوناً حصلوا على اللقاح في دول الإتحاد الأوروبي وبريطانيا.

ألمانيا من جانبها أعلنت تقييد استخدام هذا اللقاح بعد تسجيل 31 حالة اصابة بجلطة دموية نادرة في المخ أسفرت عن تسع وفيات في شهر مارس 2021، لكن الوكالة الأوروبية للأدوية وعبر الخبراء لم يجدوا أي عوامل خطر محددة بما في ذلك الأعمار، بعدما عكفوا على التحقق من احتمال وجود رابط بين لقاح إسترازينيكا وحالات تخثر في الدم.

صاحبت تناول لقاح أكسفورد «إسترازينيكا» وقوع 30 حالة وفاة بجلطات دموية من أصل 18 مليون شخص حصلوا على هذا اللقاح منذ 24 مارس 2021 ولغاية الأسبوع الأول من شهر أبريل 2021 حسبما أفادت هيئة تنظيم الأدوية ومنتجات الرعاية الصحية في بريطانيا.

تلك الحالات خلقت شكوكاً حول الصلة بين أخذ اللقاح وحالات التجلط في الدم التي لوحظت بعد أخذه مما دفع بعدد من البلدان الأوروبية إلى تعليق إستخدامه.

منظمة الصحة العالمية أفادت أنه أمر نادر الحدوث، أما هيئة تنظيم الأدوية في الاتحاد الأوروبي فقد خلصت إلى أن جلطات الدم غير العادية مع إنخفاض عدد الصفائح الدموية يجب أن تدرج على أنها أثار جانبية نادرة جداً للقاح، في حين أكدت بريطانيا أن فوائد اللقاح لازالت أكبر بكثير من المخاطر بالنسبة للغالبية من الناس، وهذا ما دفع بالحكومة البريطانية إلى التحذير بأنه ينبغي عدم اعطاء اللقاح لمن هم دون الثلاثين من العمر.

التفسير المعقول لحالات تجلط الدم النادرة يمكن أن يكون الاستجابة المناعية للجسم عند الإنسان.

من أبرز ميزات لقاح مختبرات «إسترازينيكا» وجامعة أكسفورد أن كلفته ضئيلة تقارب 2.50 يورو للجرعة الواحدة، وهو سهل التخزين إذ يتطلب حرارة تراوح بين درجتين وثماني درجات مئوية، وهي حرارة البرادات العادية، خلافاً للقاحي «موديرنا» و «فايزر – بايونتيك» اللذين لا يمكن تخزينهما على المدى الطويل إلا بدرجات حرارة متدنية جدا تصل إلى 20 درجة تحت الصفر للقاح الأول، و 70 درجة تحت الصفر للقاح الثاني.

اللقاحات الـ3

التخزين: سيكون الحصول على لقاحات كورونا في كل ركن من أركان العالم تحدياً لوجستياً غير مسبوق، وأحد العوامل الحاسمة هو درجة الحرارة المناسبة لتخزين كل لقاح.

فجامعة أكسفورد، ألمحت إلى إنه يمكن حفظ لقاحها في الثلاجة، بدرجات حرارة تتراوح بين 2 و8 درجات مئوية، بالتالي يمكن توزيعه باستخدام القنوات الموجودة للقاحات الأخرى.

في المقابل، يتطلب تخزين لقاح فايزر درجة حرارة شديدة البرودة تصل إلى نحو – 70 درجة مئوية، وهي مشكلة ستحاول الشركة حلها باستخدام حاويات ثلج جاف يمكنها الحفاظ على اللقاح بدرجة الحرارة المناسبة لمدة 15 يوماً.

أما تخزين لقاح موديرنا فهو يقع في مكانة ما بين الاثنين، فهو يظل صالحاً لمدة 6 أشهر على الأقل عند 20– درجة مئوية ويمكن الاحتفاظ به لمدة 30 يوماً في الثلاجة بدرجة حرارة تتراوح بين 2 و8 درجات مئوية.

الفعالية: أعلنت الشركات الثلاث أن لقاحها فعال بنسبة تتراوح بين 90 و 95 %، مع بعض المناطق الرمادية. ووفق تأكيد كل من أكسفورد وأسترازينيكا في 23 نوفمبر 2020 إن لقاحهما كان فعالاً بنسبة تصل إلى 90 %، بناءً على تجربة شملت 2700 متطوع تلقوا في البداية نصف جرعة فقط وحصلوا على حقنة ثانية بالجرعة الكاملة بعد شهر.

ومن المثير للاهتمام أن جرعتين كاملتين قللتا من فعالية اللقاح إلى 62 %، وفقاً لنتائج تجربة أكبر شملت 8900 مشارك. هذه الظاهرة قيد الفحص ويبقى أن نرى ما إذا كان معدل الفعالية الأولى 90 % تم الحفاظ عليه في النتائج النهائية للتجربة السريرية، التي شملت حوالي

24000 متطوع في المملكة المتحدة والبرازيل وجنوب إفريقيا.

وكانت شركتا فايزر وبايونتيك أول من أعلن عن فعالية لقاحهما، والتي بلغت 95 %، وهو رقم له صلاحية إحصائية كاملة بعد تجربة شملت حوالي 44000 مشارك، 170 منهم مصابون بالفيروس. ثمان فقط من هذه الحالات الإيجابية تلقت اللقاح الحقيقي مقابل العلاج الوهمي. كما أوضحت فايزر أن فعالية لقاحها بنسبة 95 % ظل ثابتاً مع جميع الفئات العمرية والأجناس.

من ناحيتها، أعلنت شركة موديرنا الأميركية للتكنولوجيا الحيوية أن اللقاح المضاد لكوفيد- 19 الذي طوّرته لا يزال فعّالاً ضدالنسختين المتحوّرتين البريطانية والجنوب إفريقية من الفيروس.

وأوضحت موديرنا يوم 26 - 1 - 2021 أنها تعمل على تطوير جرعة إضافية لزيادة الحماية من النسخ المتحوّرة.

وأعلن رئيس مجلس إدارة موديرنا ستيفان بانسيل «البيانات الجديدة مشجعة للغاية ما يعزز ثقتنا بأن يؤمن لقاح موديرنا ضد كوفيد- 19 حماية من هذه النسخ الجديدة المتحورة».

وأضاف «وللمزيد من الحيطة وللاستفادة من مرونة منصتنا الخاصة باللقاح نعمل على تطوير مادة تعزز فاعلية اللقاح ضد النسخة المتحورة من كوفيد- 19 التي ظهرت للمرة الأولى في جنوب إفريقيا».

ولدرس آثار اللقاح الموجود والمعرف باسم «ام ار ان آي- 1273» أخذت موديرنا عينات من الدم من ثمانية أشخاص تلقوا جرعتين من اللقاح وكذلك من قرود تم تلقيحها. وقالت موديرنا إن «الدراسة لم تظهر أثرا كبيرا على مستويات الأجسام المضادة ضد السلالة المتحورة بي 1.1.7 مقارنة مع النسخ المتحورة الأخرى» في خصوص النسخة البريطانية لكوفيد- 19.

علاج بالأجسام المضادة من إسترازينيكا

في تطور جديد أعلنت شركة «إسترازينيكا» عن تطويرها علاجاً بالأجسام المضادة، يقي من الإصابة بفيروس «كورونا» المستجد.

وفي تطور مهم ذكرت شركة الأدوية البريطانية «إسترازينيكا» أن علاجها الجديد «AZD7442» القائم على كوكتيل من الأجسام المضادة حقق الهدف الأساس في الوقاية من مرض «كوفيد19-» في دراسة بمرحلة متقدمة.

وقالت إن المزج بين نوعين من الأجسام المضادة، والذي اكتشفه في البداية المركز الطبي التابع لجامعة «فاندربلت» قلص بنسبة 77% خطر الإصابة بمرض «كوفيد- 19» مصحوبا بأعراض. وأضافت الشركة أن أكثر من 75% من المشاركين كانوا يعانون من أمراض مزمنة، بعضها مرتبط بضعف استجابة المناعة للقاحات.

دراسة جديدة أظهرت أن «لقاح «فايزر» أثبت فعاليته بنسبة 86% في الوقاية من العدوى، بين أولئك الذين تبلغ أعمارهم 60 عاما أو أكثر بعد تلقي جرعة ثالثة». واستندت البيانات إلى دراسة أجراها مركز «مكابي» الاسرائيلي للخدمات الصحية على الأشخاص الذين تلقوا جرعتهم الثالثة من لقاح فايزر.

وقالت د.عنات إيكا زوهار التي قادت الدراسة: «لقد أثبت اللقاح مجددا فاعليته، وهذه المرة ضد متغير دلتا»، معتبرة أن «الجرعة الثلاثية هي الحل للحد من تفشي مرض كوفيد - 19».

لقاح "سبوتنيك-في" الروسي

المختبر	المركز الوطني لمكافحة الأوبئة "غاماليا"
الفعالية	91.6% ضد كوفيد-19 المصحوب بعوارض*
النوع	**ناقلات فيروسية** يستخدم نوعين مختلفين من الفيروسات الغدية البشرية لكل جرعة
التأثيرات	يبدو فعالا للأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن 60 عاما البيانات الجزئية تظهر أنه يحمي بشكل جيد جدا من الأشكال المتوسطة إلى الشديدة من سلالات كوفيد-19
عدد الجرعات	**جرعتان**، بين الأولى والثانية 21 يوما
درجة حرارة التخزين	**8-2** درجة مئوية (درجة حرارة التبريد)
سعر الجرعة	**أقل من 10$** في السوق العالمية

*من بين اللقاحات الأكثر فاعلية، الى جانب لقاحي فايزر/بايونتيك (الولايات المتحدة-ألمانيا) ونسخة موديرنا الأميركية (فعاليتها 95%)

AFP

المصادر: مجلة "ذي لانسيت"، الصندوق السيادي الروسي

«سبوتنيك 5» يواجه «التشكيك»

كانت روسيا أول دولة تعلن عن توصلها إلى لقاح مضاد لكورونا في أغسطس 2020 أطلقت عليه اسم «سبوتنيك 5»، الأمر الذي قوبل بالتشكيك في الدول الغربية، لكن مجلة لانسيت الطبية أشارت في مقال خاص إلى أن اللقاح آمن.

في البداية، لم تعلن موسكو عن نتائج لقاحها ولا عدد الأشخاص الذين خضعوا لتجربته خلال فترة التجارب السريرية، أو المرحلة الثالثة من التجارب على اللقاح، لكنها أعلنت في 11 نوفمبر 2020، ولأول مرة عن نسبة نجاح لقاحها، بأنها تصل الى 92 % ثم عادت لتعلن في 24 نوفمبر ارتفاع النسبة الى 95 %، مشيرة إلى أن النسبة الأولى تحققت في اليوم الـ28 لإعطاء اللقاح، والثانية في اليوم الـ42.

وقد أعلنت روسيا أن هناك أكثر من خمسين دولة إستخدمت هذا اللقاح للتطعيم وأكثر من 60 دولة وافقت على «سبوتنيك – V».

وعلى غرار لقاح «أسترازينيكا» يستخدم اللقاح الروسي «Sputnik-V» مبدأ الناقل الفيروسي وهو يستعمل فيروسين مسؤولين عن نزلات البرد الشائعة.

جدل بشأن «كورونا فاك»

لم يكن اللقاح الروسي وحده محل جدل فقد أثار لقاح "كورونا فاك" الصيني جدلا في الاوساط العلمية، حتى بعد أن جاءت نتائجه، التي نُشرت في ورقة بحثية في دورية لانسيت للأمراض المعدية، انه قادر على إحداث استجابة سريعة للأجسام المضادة في غضون أربعة أسابيع من التطعيم عن طريق إعطاء جرعتين من اللقاح بينهما 14 يوما.

لكن برزت مخاوف بشأن لقاح كورونافاك الذي طورته شركة سينوفاك الصينية بعد أن أظهرت التجارب السريرية في البرازيل أن فعاليته لا تتجاوز الـ 50.4 % وهي نسبة أقل بكثير من النسبة التي تم الترويج لها سابقاً.

ووفق باحثون من معهد بوتانتان، الذي أجرى تجارب في مراحل متأخرة في البرازيل، قد أعلنوا أن نسبة فعالية اللقاح تبلغ 78 %، لكنهم عادوا وقالوا في 12 يناير 2021 إن المعطيات التي تم الاعتماد عليها للوصول إلى تلك النسبة لم تشمل بيانات مجموعة من الأشخاص الذين تلقوا اللقاح لكن أصيبوا بالمرض لاحقاً وكانت إصاباتهم "خفيفة للغاية" ولم تتطلب مساعدة طبية.

ومع أخذ هذه البيانات بعين الإعتبار، باتت نسبة فعاليته الآن 50.4 % كما يقول الباحثون.

وقالت منظمة الصحة العالمية (WHO) في وقت سابق، إن الحد الادنى المطلوب لفعالية أي لقاح ضد كورونا يجب ألا تقل عن 50 %، ونسبة فعالية لقاح كورونافاك أعلى بقليل من هذه العتبة.

وتتمثل إحدى المزايا الرئيسية للقاح كورونافاك إمكانية تخزينه في ثلاجة عادية في درجة حرارة ما بين 2 إلى 8 درجات مئوية مثل لقاح أسترازينيكا.

ويستخدم اللقاح في بلدان أخرى وتمت الموافقة على استخدامه في بداية الأمر لحالات الطوارئ في الفئات المعرضة للخطر في الصين في يوليو 2020، كما تستعد تركيا لإطلاق برنامج التطعيم باستخدامه، بينما تستخدمه فعليا إندونيسيا التي تلقى رئيسها جرعة منه.

وليس من الواضح كم تبلغ كلفة هذا اللقاح، لكن فريقاً من بي بي سي في مدينة يي وو الصينية، رأى أن ممرضين كانوا يلقحون الزبائن به مقابل 60 دولاراً للجرعة، فيما قالت شركة بيو فارما المملوكة للدولة في إندونيسيا إن الجرعة تكلف 13.60 دولاراً، ولايزال هذا السعر أعلى بكثير من لقاح أكسفورد الذي يكلف 4 دولارات للجرعة، لكنه أرخص من لقاح موديرنا الذي يكلف 33 دولاراً للجرعة.

لقاحات صينية على طريق المنافسة

تعمل شركة سينوفارم الصينية المملوكة للدولة على تطوير لقاحين ضد كوفيد 19، وهما «كورونافاك» و«سينوفاك»، هما لقاحان يعتمدان مبدأ الفيروس الخامل.

وأعلنت شركة سينوفارم في 30 ديسمبر 2020، أن المرحلة الثالثة من تجارب اللقاح أظهرت فعاليتها بنسبة 79 في المئة.

لكن دولة الإمارات التي وافقت على استخدام لقاح سينوفارم بعد أن توصلت الى أنه فعال بنسبة 86 في المئة، وفقاً للنتائج الحالية للمرحلة الثالثة من تجربتها.

ولكن قبل ظهور نتائج المرحلة الثالثة من التجارب، تم فعلياً تلقيح ما يقرب من مليون شخص به في الصين بموجب برنامج طوارئ.

شركتا «سينوفارم» و«سينوفاك» تصنعان ملايين الجرعات شهرياً

وهناك لقاحان آخران على الأقل قيد التطوير في الصين، أحدهما «كانسينو بيولوجيك»، الذي يقال إنه في المرحلة الثالثة من التجارب السريرية في بعض الدول من بينها السعودية.

ويتم تطوير الآخر من قبل شركة «آنهوي زيفي لونغ كوم»، الذي يعتمد على استخدم جزء معقم من الفيروس لتحفيز الاستجابة المناعية، وقد دخل مؤخراً المرحلة الثالثة من التجارب، وقد عملت الصين على المضي قدماً في إنتاج اللقاحات بعد أن أدركت أن المنافسة الحقيقية ساحتها المختبرات العلمية، وفي هذا الشأن قام مركز السيطرة على الأمراض بتطوير لقاح رابع في أواخر شهر مارس 2020 ويحصل على ترخيص للاستخدام الطارىء، وتم تطويره وحصوله على براءة الاختراع بالتعاون مع شركة أنهوي تشيفي جونغكوك للمستحضرات الصيدلانية وبذلك يكون أول لقاح بروتيني فرعي مضاد لـ «كوفيد – 19» معتمد ورابع بعد لقاحات «سينوفارم» و«سينوفاك» و«كانسينو بيولوجيكسن» المعهد المطور والمنتج لهذا اللقاح الجديد أكمل المرحلتين الأولى والثانية من التجارب السريرية في اكتوبر 2020 وهو في المرحلة الثالثة داخل الصين ودول أخرى في أواخر شهر مارس 2021 غير أنه لا يحتاج إلى مختبر سلامة بيولوجية عالي الجودة لتصنيعه، وهو أكثر فعالية في حين التكلفة أسهل في النقل والتخزين.

فاعلية اللقاحات الصينية

اللقاحات الصينية كانت محل إنتقاد من قبل الصحافة الأميركية فمجلة «فورين أفيرز» العالمية تناولت الوجه المخفي من الصورة فصانعوا اللقاح الصيني يخفون معلوماتهم المختبرية والعيادية عن العالم، فقد نشروا تفاصيل مرتبطة بالمرحلتين الأولى والثانية من تجاربهم في مجلات مرموقة مثل «جاما» و«ذا لانسيت»، وبيانات ما قبل التجارب العيادية في مجلة «ساينس»، لكنهم لم ينشروا البيانات المتعلقة بالمرحلة الثالثة والمحورية التي تشمل مجموعات كبيرة من المشاركين. وفي المقابل نشرت شركات «فايزر- بيونتيك» و«مودرنا» و«أسترازينيكا» ومعهد «غاماليا» الروسي بيانات عن المرحلة الثالثة من التجارب في مجلات مرموقة.

كانت شركة «سينوفاك» الصينية الأسوأ في هذا المجال، حيث اكتفت بالكشف عن أجزاء صغيرة من البيانات المشتقة من تجاربها الخارجية المتنوعة للتأكيد على فاعلية لقاحها «كورونا فاك»، واستناداً إلى هذه التقارير، ادّعت وسائل الإعلام الموالية للحكومة الصينية أن «كورونا فاك» يستطيع أن يمنع الحالات الحادة من «كوفيد19» بنسبة 100 %، لكن تقارير لاحقة تذكر أن نسبة الفاعلية بلغت 91 % في تركيا، و78 % في البرازيل، و65 % في إندونيسيا، وذكر شركاء «سينوفاك» البرازيليون أن نسبة الفاعلية اقتصرت على 50.4 % بصعوبة تفوق هذه النسبة عتبة الحد الأدنى التي حددتها منظمة الصحة العالمية (50 %) كي توصي باللقاحات. ولغاية شهر مارس 2021، لم ينشر شركاء «سينوفاك» البرازيليون كامل البيانات «بطلبٍ من الشركة»، كذلك تحتفظ «سينوفارم»، الشركة الصينية الرائدة الأخرى في مجال تصنيع اللقاحات، بكامل نتائجها، ولم تنشر أي معطيات عن المرحلة الثالثة من تجاربها.

رغم هذا الغموض كله، تصطف الدول لطلب اللقاحات الصينية، فقد بدأت شركتا «سينوفارم» و«سينوفاك» تُسلّمان ملايين الجرعات شهرياً إلى الحكومات حول العالم، وجعلت تشيلي اللقاحات الصينية جزءاً محورياً من استراتيجية التلقيح الوطنية، فطلبت أكثر من عشرة ملايين جرعة من «سينوفاك»، وفي إندونيسيا، تلقى الرئيس أول حقنة من لقاح «كورونافاك»، لكن المنظمين في تلك الدول لا يحتاجون إلى تلقي أرقام غير متماسكة عن نسبة فاعلية اللقاح، بل يجب أن يعرفوا استجابات الأجسام المضادة للقاحات الصينية، ومدى اختلاف تلك الاستجابات بين الجماعات الديمغرافية، ومسار تغيّرها مع مرور الوقت، وردود الأفعال المعاكسة لدى الجماعات التي تلقّت اللقاح، وإلا لن يتمكنوا من اتخاذ قرارات صحية مدروسة حول رفض اللقاحات الصينية أو المصادقة عليها للجماعات الأكثر ضعفاً مثل المصابين بفيروس نقص المناعة البشرية وكبار السن.

تعتمد الدول الفقيرة على اللقاحات الصينية أكثر من أي وقت مضى، فلا يملك المسؤولون والمنظمون في أنحاء إفريقيا وأميركا اللاتينية وجنوب شرق آسيا خيارات أخرى، لأن أي لقاح متوسط تقتصر نسبته على 50 % قد ينقذ حياة الناس ويخفف الضغط عن المستشفيات ويبقى أفضل من عدم تلقي أي لقاح.

من الطبيعي ألا تعطي جميع اللقاحات الفاعلية نفسها، لكنّ العالم بحاجة إلى اللقاحات الصينية في مطلق الأحوال، وإذا كانت اللقاحات التي طوّرتها «سينوفارم»

و«سينوفاك» وشركات صينية أخرى آمنة وفاعلة نسبياً، فذلك يعني أنها تستطيع إنقاذ حياة الناس في أفقر دول العالم وتخفيض احتمال ظهور متغيرات جديدة وخطيرة في الدول النامية، وسيكون نجاحها كفيلاً بتحسين الصحة العامة وصورة الصين عموماً، لكنّ فشلها سيؤدي إلى إطالة مدة الوباء وتدهور سمعة الصين في هذا الملف كله، ولهذه الأسباب وسواها، يجب أن يتصرف صانعو اللقاحات الصينية بكل شفافية وينشروا بياناتهم، حتى لو لم تكن مثالية.

عززت منظمة الصحة العالمية ترسانة اللقاحات المعتمدة لمواجهة الوباء بموافقة طارئة للقاح «سينوفارم» الصيني، فقد أعلنت المنظمة على لسان مديرها العام ان لجنة خبراء اللقاحات التابعة لها أوصت بالترخيص الطارئ لـ«سينوفارم» ليكون أول لقاح صيني يتلقى الضوء الأخضر في المنظمة للاشخاص الذين تبلغ أعمارهم 18 عاماً وما فوق.

يمثل هذا الترخيص تطوراً لهماً بالنظر إلى سهولة تخزينه ورخص ثمنه مقارنة باللقاحات الغربية، كما تمثل قدرة الصيني عاملاً مهماً في الانتاجية ودعم استراتيجيات التطعيم حول العالم، خصوصاً للدول التي تعاني صعوبات في الحصول عليها.

يستخدم اللقاح الصيني ولتاريخ العاشر من مايو 2021 في 42 دولة، ويأتي في المرتبة الرابعة بعد استرازينيكا (166) دولة وفايزر (94) دولة وموديرنا (46) دولة.

وفي الأول من شهر يونيو 2021 أجازت منظمة الصحة العالمية الاستخدام الطارئ للقاح «سينوفاك» الصيني.

وأوصت لجنة خبراء اللقاحات في المنظمة التابعة للأمم المتحدة باستخدام هذا اللقاح، الذي يعطي على جرعتين تفصل بينهما فترة تتراوح بين أسبوعين وأربعة أسابيع لجميع من تجاوزوا 18 عاماً.

لقاح جونسون آند جونسون

وفي إطار الرصد بشأن اللقاحات الجديدة أعلنت شركة «جونسون آند جونسون» (The Johnson & Johnson) الأميركية تطوير لقاح من جرعة واحدة ضد كوفيد- 19، وهو ما تناوله موقع الجزيرة نت وعرضه بالشكل التالي:

كيف يعمل؟

يعتمد اللقاح على فيروس مصدره في الغدَّة معدل (modified adenovirus) -وهو فيروس شائع يسبب أعراضا شبيهة بالزكام- تم تصميمه لنقل أجزاء من المادة الوراثية من بروتين «السنبلة» (spike) الموجود في فيروس «سارس-كوف2-» (SARS-CoV-2)، وهو الاسم العلمي لفيروس كورونا المستجد، وذلك وفقا لتقرير في نيوزويك (Newsweek).

ما هي درجة الحرارة اللازمة لحفظه؟

يمكن أن يظل اللقاح مستقرا لمدة عامين عند درجة 20- مئوية، و3 أشهر على الأقل عند 2-8 درجات مئوية، مثل ثلاجة المنزل، وفقا للشركة.

وهذه نقطة إيجابية، لأن إمكانية تخزين لقاح «جونسون آند جونسون» في درجات حرارة الثلاجات العادية تسهل عملية توزيعه.

كم سيكلف؟

أعلنت شركة جونسون آند جونسون أنها ستوفر اللقاح على أساس «غير ربحي» طوال مدة الوباء، بتكلفة تبلغ حوالي 10 دولارات للجرعة.

لقاح جونسون أند جونسون

المختبر	**جونسون أند جونسون** (الولايات المتحدة)
الفعالية*	**85.4%** الإصابات الشديدة **66.1%** الإصابات المتوسطة *فعال أيضا ضدّ أحدث المتغيرات
النوع	**ناقل فيروسي** يعتمد على فيروس غدي ناتج عن نزلة برد، مُعدل وراثيا بحيث لا يتكاثر، لينقل إلى الجسم معلومات جينية لمحاربة فيروس كورونا
أعراض جانبية	حصول رد فعل في مكان الحقنة، بالإضافة إلى الآثار الجانبية المعروفة كالغثيان وآلام العضلات والحمى والصداع
عدد الجرعات	**جرعة واحدة**
درجة حرارة التخزين	**2-8 درجات مئوية** (درجة حرارة الثلاجة)

*تحليل إدارة الغذاء والدواء الأميركية لبيانات التجارب السريرية على 321 39 شخصا تزيد أعمارهم عن 18 عاما في جميع المناطق

تم ترخيصه في الولايات المتحدة في 27 فبراير للاستخدام الطارئ، وهو قيد التقييم حاليا من قبل وكالة الأدوية الأوروبية

AFP

المصدران: جونسون أند جونسون، إدارة الغذاء والدواء الأميركية

ما فعاليته؟

قالت الشركة إنه تبين أن اللقاح فعال بعد 28 يوما من التطعيم، وفعال بنسبة 85 % في الوقاية من الحالات الحادة من كوفيد- 19 في كل المناطق التي تمت دراستها.

وأشـارت إلى أن لقاحها فعال بنسبة 72 % في الولايات المتحدة في منع الإصابة بمرض كوفيد- 19، لكن الفعالية تقل إلى 66 % عالميا حسبما لوحظ في تجربة كبيرة أجريت عبر 3 قارات وضد سلالات متعددة.

وفي التجربة التي أجريت على 44 ألف متطوع كان مستوى الحماية من كوفيد- 19 المعتدل والحاد 66 % في أميركا اللاتينية، و57 % فقط في جنوب أفريقيا، حيث تنتشر سلالة أشد إثارة للقلق من فيروس كورونا المستجد.

وهذه النتائج تقل عن مستوى الحماية العالي الذي سجله لقاحان مصرح باستخدامهما حاليا من «فايزر

وبيونتك» (Pfizer–BioNTech)، وشركة «مودرنا» (Moderna)، وأثبتت التجارب الكبيرة أن نسبة نجاحهما في منع المرض المصحوب بالأعراض تصل إلى نحو 95 % بعد جرعتين.

ومع ذلك، فإن تلك التجارب أجريت في الولايات المتحدة أساسا وقبل الانتشار الواسع للسلالات الجديدة التي تتركز عليها الأضواء.

وكان الهدف الرئيسي من الدراسة على لقاح «جونسون آند جونسون» يتعلق بمنع الإصابات المعتدلة والحادة، وثبت أن اللقاح فعال بنسبة 85 % في وقف المرض الحاد ومنع دخول المستشفيات في مناطق مختلفة جغرافيا وضد أعداد من السلالات في غضون 28 يوما من التطعيم.

وقال بول ستوفيلز كبير المسؤولين العلميين في «جونسون آند جونسون» إن مستوى الوقاية «قد يحمي مئات الملايين من الناس من التبعات الحادة والقاتلة لكوفيد– 19».

مواعيد التسليم

تعهدت الشركة بتسليم 100 مليون جرعة للولايات المتحدة قبل نهاية يونيو/ حزيران 2021، ونحو 200 مليون جرعة للاتحاد الأوروبي قبل نهاية العام (تسلم أولى الشحنات في أبريل/ نيسان المقبل)، وقرابة 200 مليون جرعة إلى دول نامية (يبدأ تسليم الجرعات بعد يونيو/ حزيران 2021).

لقاح «جونسون آند جونسون» جرعة واحدة

في الربع الأول من العام 2021 اعطت الولايات المتحدة الأميركية الضوء الأخضر لاستخدام لقاح «جونسون آند جونسون» ليصبح بذلك ضمن منظومة اللقاحات المضادة لفيروس كورونا في إطار التصدي لـ «كوفيد – 19».

فقد أظهرت تجربة سريرية عالمية أنه كان فعالاً بنسبة 66 % في الوقاية من متغيرات الفيروس المختلفة وفعالاً بنسبة 85 % في الحماية من الحالات الشديدة.

حصل لقاح «Johnson & Johnson» الذي طورته شركة جونسون آند جونسون الأميركية والمكوّن من جرعة واحدة على الموافقة الرسمية من إدارة الغذاء والدواء الأميركية.

وفي سياق متصل، قالت إدارة الغذاء والـدواء الأميركية، في إشارة إلى اللقاح الذي يحمل اسم شركة «جانسين» التابعة لشركة جونسون آند جونسون إن هناك «دليلا واضحا» على أنه قد يكون فعالا في الوقاية من كوفيد – 19، مؤكدة أنه سيتم توزيعه في الولايات المتحدة خلال شهر مارس 2021 لاستخدامه بين الأفراد الذين تبلغ أعمارهم 18 عاماً فأكثر.

وقالت إنه سيتم تسليم 20 مليون جرعة في الولايات المتدة بحلول نهاية مارس/ آذار، وتخطط الشركة لتقديم 100 مليون جرعة خلال النصف الأول من عام 2021.

ويمكن تخزين الجرعات في ثلاجة عادية، على عكس الظروف الشديدة البرودة التي يتطلبها اللقاحان الآخران من (Pfizer - BioNTech) وفايزر – بيونتك (Moderna) إنتاج مودرنا وكلاهما نظامان من جرعتين وعلى الصعيد الأوروبي اعلنت وكالة الأدوية الأوروبية انها أوصت بمنح تصريح تسويق مشروط للقاح وأفادت ان البيانات المتعلقة به والتي ستعطى للبالغين فوق 18 عاماً قوية وتفي بمعايير الفعالية والسلامة والجودة وسيمكن هذا اللقاح دول الاتحاد الأوروبـي في تطعيم 200 مليون

شخص وسينضم إلى ثلاثة لقاحات أخرى معتمدة من الاتحاد وهي «فايزر» و«استرازنيكيا» و «موديرنا».

لقاح «نوفافاكس»

لقاح جديد إنضم إلى قائمة اللقاحات المعتمدة، والذي انتجته شركة «نوفافاكس» الأميركية، المضاد لفيروس كورونا بنسبة 90 في المائة.

الشركة أعلنت من مقرها في «ميريلاند» اعتزامها تقديم طلب للحصول على موافقة الهيئات المعنية بحلول الربع الأخير من عام 2021، وسيكون باستطاعتها توفير 100 مليون جرعة شهرياً في هذه الفترة و 150 مليون جرعة شهرياً بنهاية العام.

اللقاح يعرف بإسم «إن في إكس – كوف 2373» ويخزن بدرجة حرارة منخفضة ما بين 2 و 8 درجات مئوية.

«عبدالله»... لقاح كوبي جديد

نجحت كوبا بالدخول على خط إنتاج اللقاحات واعلنت مجموعة «بيوكوبا فارما» الدوائية أن اللقاح التجريبي والذي اطلقت عليه اسم «عبدالله» وطوره أحد مختبراتها لمكافحة فيروس «كورونا»، أظهر أنه فعال بنسبة أكثر من 92 في المئة، وكان معهد «فينلاوي للقاحات» أعلن أن لقاح «سوبيراناح» الذي يطوره فعال بنسبة 62 في المئة بعد تناول الجرعة الثانية في ثلاث جرعات.

وبهذا اللقاح أصبحت كوبا أول دولة في أميركا اللاتينية تطور لقاحات مضادة لـ «كوفيد – 19» على الرغم من الصعوبات التي تواجهها من جراء العقوبات الأميركية المفروضة عليها منذ 60 سنة تقريباً.

اسم اللقاح مشتق من «مسرحية عبدالله» التي ألفها الشاعر الكوبي «خوسيه مارتي» وبطلها شاب من مصر يدعى «عبدالله».

وقف مؤقت بدافع الحذر

بعد تسجيل ست حالات من الوفيات في الولايات المتحدة الأميركية منتصف شهر أبريل 2021 لنوع نادر من الجلطات الدموية من بين 618 مليون شخص تلقوا اللقاح، قررَّ مسؤولو الصحة الفيديراليون وهم مركز السيطرة على الأمـراض والوقاية منها وإدارة الغذاء والدواء، وقف استخدام لقاح «جونسون أند جونسون» مؤقتاً وتقومان بمراجعة البيانات المتعلقة بتلك الحالات والتي أصبن بها نساء تتراوح أعمارهن بين 18 و 48 عاماً وحدثت الاعراض بعد 6 إلى 13 يوماً من التطعيم.

الوكالتان المختصان بشؤون الصحة العامة أوصتا بوقف استخدام اللقاح مؤقتاً بدافع الحذر الشديد، علماً أن هذا اللقاح يشكل أقل من 5 % من الجرعات المعطاة في الولايات المتحدة الأميركية.

وفي وقت لاحق اعتبرت وكالة الأدوية الأوروبية ان التجلط الدموي يجب أن يدرج كأثر جانبي «نادر جداً» للقاح جونسون أند جونسون الذي تبقى منافعه أكبر من مخاطره.

وأوضحت انها وجدت رابطاً محتملاً بين حالات نادرة جداً لتجلط دموي غير اعتيادي عند وجود صفائح دم متدنية وخلصت إلى ضرورة التحذير من احتمال الإصابة بتجلط دموي غير اعتيادي مع صفائح دم متدنية يجب ان يضاف إلى المعلومات حول المنتج، وهو في النهاية أثر جانبي نادر جداً.

اللقاح عن طريق الفم

أحدث اللقاحات التي ظهرت عام 2021 والذي يجري

تطويره والمسمى «Oravax» من قبل شركة Oramed الاسرائيلية الأميركية وشركة Premas للتكنولوجيا الحيوية ومقرها الهند.

تعاونت الشركتان لانشاء Medical Oravax والتي تأمل في الجمع بين تقنية التوصيل عن طريق الفم من Oramed وخبرة لقاح Premas لإنشاء طريقة جديدة للتلقيح ضد «كوفيد – 19».

ووجدت دراسة تجريبية أجريت على الحيوانات أن اللقاح الفموي ساعد في إنتاج أجسام مضادة تخلق مناعة ضد الفيروس، وجرى تحقيق النتائج الواعدة من خلال إعطاء كبسولة واحدة من Oravax، ما يحتمل أن يفصل الدواء عن بعض اللقاحات الأخرى التي تتطلب جرعتين.

أن إعطاء اللقاح Premas Biotech سيكون «مثل تناول حبة فيتامين».

العقار الذي يؤخذ عن طريق الفم من شأنه أن يقضي على المشاكل اللوجستية التي نشأت عن حملات التطعيم الجماعية في جميع أنحاء العالم، وأنه يمكن للأفراد حتى أخذ العقار من منازلهم.

ويمكن نقل الدواء في درجة حرارة الثلاجة وحتى تخزينه في درجة حرارة الغرفة، ما يخفف من بعض المشكلات في بعض اللقاحات التقليدية، والتي يجب أن تظل شديدة البرودة قبل الاستخدام لذلك فإن إعطاء اللقاح عن طريق الفم يمكن أن يؤدي إلى آثار جانبية أقل.

وإن الكبسولات ستصبح مفيدة بشكل خاص إذا تمت التوصية في نهاية المطاف بلقاحات «كوفيد– 19» سنويا مثل لقاح الإنفلونزا القياسي.

وتقوم Oravax بإجراء تجارب بشرية في العديد من البلدان، بما في ذلك الولايات المتحدة وإسرائيل والمكسيك وأوروبا.

دواء جديد

حقق علماء استراليين وأميركيين نتائج واعدة في التوصل إلى علاج بنسبة 99 % يمكن استخدامه للمرضى الذين يعانون من أعراض شديدة الخطورة. وهذا الدواء الجديد سيكون عبارة عن حقنة يستطيع علاج كل فيروسات عائلة كورونا مثل «سايس» و «ميرس» لأنه يستهدف الجين المسؤول عن الفيروس مباشرة وسيكون العلاج متاحاً للإستخدام عام 2023.

7 معلومات مغلوطة عن اللقاحات

لم تكن العقبات العلمية هي الوحيدة التي اعترضت طريق إنتاج لقاحات مضادة لوباء كورونا، فبعد تطويرها وطرحها في حملات تطعيم بعدد كبير من دول العالم، ظهرت مشكلة «الشكوك» وإرهاب الناس فكريا عبر بعض الأراء من هنا وهناك.

بالرغم من حالة الترقب واللهفة التي يبديها البشر في كل انحاء المعمورة فيما يخص اللقاحات كونها تمثل ضوءا في آخر النفق.

إن موجة التشكيك باللقاحات لا يمكن وصفها سوى بأنها من ادوات الحرب التجارية خصوصا وان ارقام منظمة الصحة العالمية في منتصف مارس 2021، ان نحو 300,002,228 حصلوا على اللقاح ما يعكس ان القاعدة العامة والأغلبية المطلقة من الجهات التي حصلت على اللقاح لم تبدي اي ملاحظات تربو لدرجة التشكيك غير ان اجماع خبراء الصحة متسقا مع رأي المنظمة بأنه لا أساس علمي يذكر لمخاطر اللقاح .

وعلى سبيل المثال أظهرت استطلاعات رأي أن ما بين 50 و70 بالمئة فقط من الأميركيين حسموا أمرهم وقرروا تلقي اللقاح .

ووسط الجدل الدائر برزت "7 معلومات مغلوطة" بلا أسس بشأن اللقاحات المضادة لفيروس كورونا :

1– المعلومة المغلوطة: اللقاحات أنتجت على عجل لذلك ستظل غير آمنة

رأي العلماء : بالفعل كان إنتاج اللقاحات بسرعة غير مسبوقة، لكن هذا لا يعني أن العلماء تجاوزوا الخطوات العلمية اللازمة واتباع اقصى درجات الأمان والقيام بالتجارب اللازمة .

خبيرة الأمراض المعدية ليندا يانسي ترى إن ما جرى ليس استعجالا، مشيرة إلى أن "مصنعي اللقاحات والحكومات قد أزالوا العديد من الإجراءات البيروقراطية التي كانت عادة ما تبطئ عملية تطوير وإنتاج اللقاح" .

غير ان حقيقة واحد ثابتة ومؤكدة لا تقبل اي شكوك هي أن اللقاحات مرت بالخطوات اللازمة، عبر التجارب السريرية 3 مرات، ونشر النتائج ثم بدء الإنتاج، والسلطات في الولايات المتحدة تراقب سلامة اللقاح بعد توزيعه سعيا وراء المزيد من الاطمئنان.

2 – المعلومة المغلوطة : اللقاح سيؤدي إلى إصابتك بالوباء: لا تحتوي لقاحات "فايزر بيونتك" و"موديرنا" على الفيروس المعطل، كما أن اللقاحات الأخرى التي تعتمد أسلوب الفيروس المعطل أثبتت قدرتها في مواجهة الفيروس، ولم يثبت أنها أدت إلى الإصابة به.

رأي العلماء : منبع هذا الاعتقاد الخاطئ هو أن الناس قد يشعرون بالتوعك بعد تلقي التطعيم، لذلك يظنون أنهم مصابون بالفيروس، وهو أمر شائع مع الذين تلقوا لقاحات ضد أمراض أخرى مثل الإنفلونزا.

فمن الطبيعي الشعور ببعض الأعـراض بعد تلقي اللقاح مثل الألم في الذراع، وذلك بسبب الاستجابة المناعية للجسم.

3– المعلومة المغلوطة: اللقاح يغير الـ"دي إن إيه" الخاص بالإنسان .

رأي العلماء : تستخدم بعض اللقاحات الحمض النووي الريبوزي المرسال Messenger RNA (اختصارا mRNA)، وهي تقنية تدفع خلايا الجسم إلى إنتاج أجسام "البروتين الشائك" الموجود على سطح الفيروس، بما يؤدي إلى استجابة مناعية تحمي من العدوى.

لكن هذه التقنية لا تتفاعل مع الحمض النووي لمتلقي اللقاح.

وترى كبيرة مسؤولي علم الأوبئة في مستشفى جامعة فلوريدا نيكول إيوفين، أن "هذا الأمر من بين الأشياء التي تسمع يوميا، غير أن هناك عددا من الأسباب التي تمنع ذلك، فالحمض النووي محمي بغشاء يمنع أي شيء من الدخول له بسهولة" .

فاللقاح يذهب إلى الجزء الخارجي من خلايا الجسم الذي يسمى السيتوبلازم، ولا يدخل إلى النواة (حيث توجد المادة الوراثية) .

4– المعلومة المغلوطة : اللقاح يسبب العقم

رأي العلماء : توصي الكلية الأميركية لأطباء التوليد وأمراض النساء بأن تحصل الحوامل أو المرضعات أو اللواتي يفكرن في الحمل على لقاح كورونا، رغم عدم إجراء تجارب على وجه التحديد على هذه الفئة.

ويؤكد الخبراء أنه لا يوجد دليل على الإطلاق على أن التطعيم يسبب العقم، وترى يانسي أن الأمر "محض كذبة، غالبا ما ينشرها النشطاء المناهضون للتطعيم باللقاحات المختلفة".

وفي الواقع، قد يكون التطعيم ضد الوباء مهما للأمهات وأطفالهن، لكن المشكلة كانت في أن التجارب السريرية استبعدت الحوامل منها.

5 – المعلومة المغلوطة : تعافيت من الوباء فلا حاجة للقاح .

رأي العلماء : تقول مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها في الولايات المتحدة، إن أي شخص أصيب بفيروس كورونا وتعافى منه يفضل أن يتلقى اللقاح، لكن بعد ثلاثة أشهر.

فالإصابة بالعدوى مجددا خلال 90 يوما بعد التعافي أمر مستبعد للغاية، لكن هذا لا يعني عدم الحاجة لتلقي اللقاح، إلا أنه يفضل التريث بضعة أشهر قبل اتخاذ هذه الخطوة.

ويرجع ذلك إلى أنه لا يزال هناك الكثير من الأسئلة حول المدة التي تستغرقها المناعة الطبيعية التي يكتسبها الجسم بعد الإصابة بالمرض، وكذلك مدى قوتها.

6– المعلومة المغلوطة : التطعيم يعني أن الإصابة مستحيلة .

رأي العلماء : يستغرق اللقاح وقتا حتى يصبح فعالا، فغالبية اللقاحات التي تمت إجازتها حتى الآن تؤخذ على جرعتين متباعدتين تصل المسافة بينهما إلى 21 يوما، وحتى بعد ذلك هناك حاجة لـ28 يوما حتى يكون الجسم إكتسب المناعة، وهذا يعني ضرورة أخذ جميع الاحتياطات خلال فترة اللقاح.

7 – المعلومة المغلوطة : ردود الفعل الشديدة تجاه اللقاح.

رأي العلماء : سمة بعض ردود افعال تحسسية لتلقي بعض اللقاحات، لكن هذه الأعراض نادرة ولم تتجاوز 21 حالة من بين 1.8 مليون جرعة تم توزيعها من لقاح "فايزر بيونتك" في الولايات المتحدة.

وفي هذه المرحلة ، يكون حدوث رد فعل تحسسي شديد تجاه هذا اللقاح أقل بنسبة 1 في المليون.

المعلومات المضلّلة

راجت معلومات مغلوطة في وسائل التواصل الاجتماعي تسببت بموجة من «الكراهية الرقمية» فقد توصل تقرير أميركي بريطاني مشترك أعده «مركز مكافحة الكراهية الرقمية» إلى ان الغالبية من المعلومات المضللة عن فيروس كورونا ونظريات المؤامرة المناهضة للقاحات ضد الوباء مصدرها 12 شخصاً، بينهم أطباء ورياضيين ومدونين ومتعصبين دينياً.

هذه الشخصيات تنشط عبر الانترنت استطاعت جمع عدد من المتابعين عبر منصات التواصل الاجتماعي يتجاوز الـ 59 مليون شخص حتى نهاية شهر يوليو 2021.

التأثير الأكبر للمجموعة كان على الفيسبوك حيث توصل المركز في دراسته الى ان افرادها مسؤولون عن 73% من المحتوى المضاد للقاحات.

مشاكل وعقبات لوجستية

إذا كان العالم قد واجه صعوبات جمة اعترضت سبيل مراكز البحوث الطبية في مختلف العواصم، خلال السعي

لتطوير لقاح ينهي تفشي الجائحة، فإن مشاكل وعقبات أخرى، معظمها لوجستي، برزت أمام المصنّعين حول العالم وهددت بتبديد بارقة الأمل التي لاحت أمام البشرية لإنهاء أزمة «كورونا» وتداعياتها الصحية والاقتصادية والاجتماعية المخيفة، من بينها النقص المحتمل في تصنيع الأمبولات المخصصة لتعبئة المصل، ناهيك عن عمليات نقله وتخزينه، وعوائق أخرى كالتردد في أخذ اللقاح واللقاحات المزيفة، وأيضا المخاوف من احتكار الدول الغنية للقاح وعدم قدرة الدول الفقيرة على الظفر به وتطعيم شعوبها:

1 . عوائق نقص "الأمبولات"

استنادا الى تقرير سويسري قدَّر أن العالم سيحتاج إلى إنتاج 10 مليارات أمبولة زجاجية هذا العام، لتعبئة اللقاحات، إضافة إلى 25 مليار منتج سنوياً لتغليف اللقاحات والأدوية المرتبطة بالوباء (القبس 14 يناير 2021).

وبالرغم أن الأمبولة الواحدة لا تكلف سوى 12 سنتاً، لكنها تمثل تحدياً كبيراً في ظل الاحتياج العالمي البالغ 10 مليارات أمبولة، اضافة إلى 25 مليار علبة سنوياً لتغليف اللقاحات، ناهيك عن الحقن الضرورية لتنفيذ عملية التطعيم.

ومع إنطلاق أكبر حملة تطعيم في تاريخ البشرية، ستواجه صناعة الأمبولات تحدياً كبيراً جداً، إذ يخشى المختصون مواجهة عجز في إنتاجها، يمكن أن يكبح أو يؤثر في معركة مكافحة كورونا الذي أصاب حتى الآن نحو 100 مليون شخص حتى يناير 2021 وأودى بحياة أكثر من مليوني شخص حول العالم.

ووسط تسابق المختبرات حول العالم لتطوير لقاحات ضد كورونا، من المنتظر أن يرتفع الطلب على الأمبولات الزجاجية بشكل كبير جـداً، من أجل تغليف ونقل الجرعات اللازمة لحملات التطعيم التي تجري حول العالم.

وسلطت دراسة حديثة أجرتها «هارفارد ميديكال سكول» الضوء على الصعوبات التي تواجه سلسلة إنتاج اللقاحات، فشركة شوت الألمانية الرائدة عالمياً في إنتاج الأمبولات وفرت خلال مرحلة التجارب السريرية عام 2020 ملياري أمبولة زجاجية. وتعمل الشركة على إستثمار مليار دولار لرفع طاقة إنتاجها.

وحققت المجموعة التي توظف 1600 متعاون في 34 دولة مبيعات بقيمة 2.2 مليار يورو خلال السنة 2018–2019 كما افتتحت مصنعا في سويسرا يعد الأكبر في العالم من أجل إنتاج الأمبولات والحقن والقناني الزجاجية والبلاستيكية للصناعة الصيدلانية.

والأمبولة التي تستخدم في تعبئة لقاح كورونا لا تحتاج فقط إلى الزجاج. فقبل 130 عاما تمكن الكيميائي الألماني فريدريش أوتو سكوت من إنتاج زجاج خاص يدعى البوروسوليكات الذي يتميز بمقاومة الحرارة القصوى من 80– درجة مئوية إلى 500 درجة مئوية، وهو يتلاءم جدا مع لقاح فايزر بيونتيك. وبحسب بلام فإن ثلاثة لقاحات من أصل أربعة على الصعيد العالمي تعتمد على شركة «سكوت».

وتقترح الدراسة بعض الحلول لتفادي مواجهة عجز في إنتاج الأمبولات، إذ تشير إلى أن الزجاج يصنع من الرمل وأن ما بين 40 إلى 50 مليون طن من مستخلصه يكفي سنويا لتغطية كل الاحتياجات وعلى الخصوص

صناعة الزجاج، لكننا نحتاج إلى رمل «السيليكا» من أجل إنتاج الأمبولات والكميات منه متوافرة.

غير أن اللجوء إلى إنتاج أمبولات تحتوي على عدة جرعات وتنظيم عمليات تطعيم جماعي يمكن أن يساعدنا في تجنب العجز في توفير الأمبولات.

أما الحل الآخر فهو الأمبولات الهجينة، ففي الولايات المتحدة شجعت الحكومة تطوير أمبولات مصنوعة من الزجاج والبلاستيك، وتقاوم درجات حرارة دنيا وقصوى، وبالفعل طرحت شركة SiO2 International الأميركية هذا النوع من الأمبولات في السوق. ولأول مرة لم تكن الشركات الصينية هي المسيطرة على هذا النوع من المنتجات، على الرغم من أن الصين أكدت بحسب صحيفة «غلوبال تايمز» أن الشركات الصينية قادرة على تلبية الاحتياجات المحلية وعزمها إهداء مليون جرعة من اللقاح إلى الدول الصديقة في كل من أفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية.

2. تحديات نقل اللقاح وتخزينه

وعن تحديات نقل اللقاح الى انحاء العالم الذي يستوجب مسؤولية ضخمة للحفاظ على درجات حرارة آمنة، دفع شركة «فايزر»، إلى تطوير خططاً وأدوات لوجستية مفصلة لدعم النقل الفعّال للقاح وتخزينه والمراقبة المستمرة لدرجة الحرارة، مشيرة إلى أن التوزيع سيكون مبنياً على نظام مرن سيشحن القوارير المجمدة مباشرة إلى نقاط التطعيم.

وعملياً طورت ابتكارات في التعبئة والتغليف والتخزين لتكون مناسبة للغرض في مجموعة من المواقع التي تعتقد أنه سيتم إجراء التطعيمات فيها، مضيفة: "هذه الحاويات سيتم التحكم في درجة حرارتها باستخدام الثلج الجاف (ثاني أكسيد الكربون الصلب) للحفاظ على ظروف التخزين الموصى بها 70- درجة مئوية تحت الصفر حتى 10 أيام».

كما ستستخدم مستشعرات حرارية تدعم نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) في كل شحنة مع آلية تحكم يتتبع موقع ودرجة حرارة كل شحنة لقاح عبر المسارات المحددة مسبقاً، مشيرة إلى أن هذه الأجهزة التي تدعم نظام تحديد المواقع العالمي ستسمح للشركة بمنع الانحرافات غير المرغوب فيها بشكل استباقي والتصرف قبل حدوثها.

وبمجرد وصول اللقاح في النقاط النهائية للاستخدام سيكون هناك ثلاثة خيارات، إما حفظها في أجهزة أو مبردات درجات الحرارة المنخفضة للغاية، والمتاحة تجارياً في الوقت الحالي، ويمكنها إطالة العمر الافتراضي لمدة تصل إلى ستة أشهر.

وكانت شركة "الامارات للشحن الجوي" قالت في 23 أكتوبر 2020، انها تواصل تكثيف استعداداتها للتعامل مع التعقيدات اللوجستية لتوزيع اللقاح، بإنشاء أول مركز شحن جوي في العالم مخصص للقاح في دبي. وتحتل الناقلة موقعاً ريادياً على مستوى العالم من خلال إعلانها عن إعادة فتح محطة «سكاي سنترال» في مطار آل مكتوم الدولي، لتكون بمثابة مركز مخصص لتخزين وتوزيع اللقاح عالمياً.

ويضم «سكاي سنترال» المقترح في «دبي ورلد سنترال» منطقة مخصصة لتخزين الأدوية يمكن التحكم في حرارتها، تزيد مساحتها على 4000 متر مربع. وتتيح هذه المنشأة، الحائزة اعتماد ممارسات التوزيع الجيد الأوروبي (GDP)، تخزين وتوزيع لقاحات «كوفيد- 19»

المنتظرة. وتقدّر الطاقة الاستيعابية لهذه المنشأة بنحو 10 ملايين قارورة لقاح دفعة واحدة، في نطاق بيئة تراوح حرارتها باستمرار بين درجتين وثماني درجات مئوية.

ووفقاً للمعلومات المتوفرة، ستذهب 100 مليون جرعة لقاح إلى الولايات المتحدة، و200 مليون جرعة إلى الاتحاد الأوروبي، و40 مليون إلى المملكة المتحدة.

كما طلبت بلدان في أمريكا الجنوبية ومنطقة آسيا والمحيط الهادئ الحصول على اللقاح مسبقاً، في وقت كانت شركة فايزر قد أعلنت أنها تخطط لتوفير 50 مليون جرعة لقاح في 2020، و1.3 مليار جرعة في 2021.

واضطلعت مراكز إنتاج اللقاح في كالامازو الأمريكية وبورس البلجيكية بالفعل بإنتاج مئات الآلاف من جرعات اللقاح. كما توجد "مزارع تجميد" أخرى في بليزنت بريري، بولاية ويسكونسن الأمريكية، وفي مدينة كارلسروه بألمانيا، في وضع الاستعداد لتوفير سعة تخزين إضافية عند الحاجة.

من هناك، ستُنقل جرعات اللقاح في صناديق تخزين، الواحد منها بحجم حقيبة السفر، معبأة في محيط من الثلج الجاف، وهي صناديق صمّمتها شركة "فايزر" خصيصاً لهذا الغرض، يمكن لكل صندوق من تلك الصناديق المعدَّة لإعادة الاستخدام أكثر من مرة أن يحمل ما بين 1000 إلى 5000 جرعة.

وفي إطار استعداد الشركات العاملة في مجال الخدمات اللوجستية، مثل شركة خدمة الطرود المتحدة "يو بي اس UPS" وشركة "فيديكس FedEx" وشركة "دي اتش ال DHL"، للتعامل مع مسألة التخزين شديد البرودة لتلك اللقاحات، قامت شركة "يو بي إس" ببناء مزرعتين لتخزين اللقاحات المجمدة، واحدة في هولندا والأخرى في الولايات المتحدة.

تستوعب المزرعتان ما مجموعه 600 مجمّد يمكن لكل منها استيعاب 48 ألف جرعة لقاح في درجات حرارة منخفضة، تصل إلى – 80 درجة مئوية. كذلك افتتحت شركة "دي إتش إل" منشآت تبريد جديدة في إنديانابوليس بالولايات المتحدة، وأضافت شركة "فيديكس" مزيداً من المجمدات والشاحنات المبردة إلى ترسانة النقل الخاصة بها.

في غضون ذلك، قالت وكالة بلومبيرغ الأميركية (31 أكتوبر 2020) أنه ستكون هناك حاجة إلى حوالي 15 ألف رحلة شحن، جوي وبري، على مدار عامين لتوصيل 10 مليارات جرعة لمختلف دول العالم، وفقًا لتقرير صادر عن DHL و McKinsey.

وقال ريتشارد سميث، نائب الرئيس التنفيذي في الأميركتين لشركة FedEx ، إن عملاق الشحن الجوي سيوفر أي سعة مطلوبة لتسريع الشحنات إلى الموزعين أو مراكز التطعيم.

وتجري الشركة محادثات يومية مع مطوري اللقاحات والوكالات الحكومية الأميركية مثل وزارة الدفاع المسؤولة عن الخدمات اللوجستية من أجل بدء التطبيق.

وتستعد شركات الشحن، FedEx و United Parcel و DHL وغيرها، لعملية نقل جوي وبري ضخمة، في جهد غير مسبوق لتوزيع لقاحات فيروس كورونا – بمجرد أن تصبح جاهزة.

يشار الى ان الاتحاد الدولي للنقل الجوي كان قد أعرب في الأول من ديسمبر 2020، عن مخاوفه من أن يشكل شحن لقاح كورونا عبر شتى أنحاء العالم «أكبر

تحد في مجال النقل على الإطلاق» فالعملية ستحتاج الاستعانة بما يتجاوز الـ 8000 طائرة من طراز بوينغ 747 العملاق، في وقت بدأ فيه الاتحاد العمل فعليا مع شركات طيران ومطارات وهيئات صحية دولية وشركات أدوية، لوضع خطة لإقامة جسر جوي عالمي بإعتبار أن "الإيصال الآمن للقاحات سيكون مهمة القرن بالنسبة لصناعة الشحن الجوي الدولية. لكن ذلك لن يحدث بدون تخطيط مسبق دقيق. والوقت المناسب للقيام بذلك هو الآن".

الاتحاد الدولي للنقل الجوي يعتبر إن توزيع لقاح في عموم أفريقيا سيكون "مستحيلاً" في الوقت الحاضر بالنظر إلى العجز في قدرات الشحن، وحجم المنطقة، والتعقيدات الخاصة بالمعابر الحدودية.

فالنقل يحتاج إلى دقة بالغة ويتطلب وجود منشآت مُبرّدة عبر شبكة من المواقع لتخزين اللقاح.

وإلى جانب ضمان التعامل مع اللقاحات ونقلها في درجات حرارة يتم التحكم بها، فإن المسألة الأخرى المهمة هي الأمن.

وبعد عام من المعاناة فإن "اللقاحات ستكون سلعاً ثمينة للغاية. وبالتالي، يجب أن تكون هناك ترتيبات لضمان بقاء تلك الشحنات آمنة من العبث والسرقة".

3. التردد في أخذ اللقاح

«التشكيك» في فعالية اللقاحات الخاصة بـ«كورونا» برز بقوة بُعيد توصل العلماء حول العالم الى أمصال توقف تفشي المرض، ومسارعة الدول الى أخذ حصصها من اللقاح والشروع في حملات وطنية لتطعيم السكان.

ويرى أغلب المتشككين في فعالية اللقاح، أياً كانت الشركة التي أنتجته، أنه لم يخضع الى الوقت الكافي من الاختبار والتطوير والتجريب، وأن اللقاحات التي عرفها العالم سابقا (كاللقاح ضد السل مثلا) وجدت براحا زمنيا كافيا امتد لسنوات، قبل اعتمادها والتأكد من كفاءتها، بينما تم التوصل الى لقاح كورنا في ظرف عام واحد أو أقل من عام منذ بدء انتشار الوباء.

كان السؤال الدائم والمترافق مع حملات التطعيم، هل أخذ اللقاح إلزامي؟ الجواب جاء عن طريق المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان في شهر أبريل 2021 والتي رأت في حكم يعتبر الأول من نوعه، أن التطعيم الإلزامي ضروري في مجتمع ديمقراطي وقالت في العاشر من أبريل لعام 2021 أن التعطيم الإلزامي للاطفال في التشيك ضد تسعة أمراض بينها الدفتيريا والتيتانوس لا يشكل انتهاكاً بشأن الحق في احترام الحياة الخاصة، وشددت على أن سياسة التطعيم تسعى الى تحقيق الأهداف المشروعة المتمثلة في حماية الصحة وحقوق الآخرين، من حيث أنها تحمي كلاً من الذين يتلقون اللقاحات المعنية والذين لا يمكن تطعيمهم لأسباب طبية.

وأظهرت استطلاعات عديدة حجم التردد تجاه التطعيم في عدة بلدان، حيث اعتاد الكثيرون أن يستغرق تطوير اللقاحات عقودا وليس شهورا فقط، حيث تتركز هواجس المترددين في أن اللقاح «مؤامرة» لتغيير الحمض النووي فيما أكد كثيرون في المقابل أنهم سيتلقون اللقاح.

وأظهرت إستطلاعات في بولندا، حيث يتعمق التردد، أن أقل من 40 في المئة من الناس يعتزمون تلقي التطعيم في الوقت الحالي. وفي أحد مستشفيات وارسو، حيث بدأ التطعيم هناك، لم يطلب اللقاح سوى نصف الطاقم الطبي.

وفي بلغاريا، أظهرت استطلاعات للرأي هناك أن 45

في المئة من الناس قالوا إنهم لن يحصلوا على جرعة اللقاح في حين قال 40 في المئة إنهم يعتزمون الانتظار لمعرفة ما إذا كانت ستظهر أي آثار جانبية سلبية.

لكن لا يبدو أن التردد واسع النطاق يأخذ بعين الاعتبار التطورات العلمية على مدى العقود الماضية.

ووفقا لدراسة أجريت عام 2013، تستغرق الطريقة التقليدية لإنتاج لقاح ما يزيد على عقد في المتوسط. واستغرق إنتاج أحد لقاحات الإنفلونزا الوبائية أكثر من ثماني سنوات بينما استغرق لقاح التهاب الكبد (بي) حوالي 18 عاما في طور الإعداد.

واستغرق تطوير لقاح شركة مودرنا 63 يوما بدءا من التسلسل الجيني حتى وصوله إلى أول جرعة للبشر.

ويعقِّب جيريمي فارار مدير وحدة الأبحاث السريرية بجامعة أكسفورد التي تدعمها مؤسسة ويلكام تراست الخيرية "سوف ننظر إلى التقدم الذي جرى إحرازه في عام 2020 ونقول "كانت تلك حقا مرحلة حقق فيها العلم قفزة كبيرة إلى الأمام".

في السويد يرغب أكثر من اثنين من كل ثلاثة أفراد في تلقي التطعيم. ومع ذلك، يرفض البعض اللقاح إنه تباين طبيعي نظراً لحدة الجائحة وسرعة إيجاد اللقاح.

هل يتأثر الـ DNA باللقاحات؟

شرح رئيس وحدة الحساسية والمناعة الاكلينيكية في مستشفى مبارك الكبير بدولة الكويت، الإستشاري د. أحمد الخباز الفرق بين آلية عمل تطعيم «فايزر» و«إكسفورد» داخل الجسم وطريقة تعرَّف جهاز المناعة على الفيروس.

فهذا الجهاز كي يتعرف عليه دون أن يصاب الانسان بالمرض.

بالنسبة لتطعيم اكسفورد Viral Vector Vaccine

تستخدم تقنية تقليدية بحيث يتم لصق الشوكة البروتينية من فيروس كورونا على فيروس حامل يسمى «ادينوفيروس» وهو فقط يصيب فصيلة «الشمبانزي» وليس له القدرة على التسبب بالمرض لدى البشر.

هذا الفيروس يعمل كناقل للشوكة إلى داخل خلايا جسم الإنسان، حيث يتعرف جهاز المناعة عليها ويكون المناعة ضدها، فإن حصلت العدوى الحقيقية تكون المناعة لديها التدريب الكافي للتخلص من الفيروس بسرعة من خلال إنتاج أجسام مضادة وتكوين ذاكرة مناعية.

في تطعيم فايزر "mRNA Vaccine" لا يتم إدخال الشوكة بذاتها إنما يتم إدخال شفرة الشوكة داخل الخلية، وهنا تقوم الخلية بنسخ الشفرة عن طريق mRNA وصنع بروتين الشوكة الخاص بفيروس كورونا، ومن بعد يتعرف جهاز المناعة عليه ويكوّن المضادات اللازمة للحماية من فيروس كورونا.

يعتقد الاستشاري الكويتي أن هناك لغطاً كبيراً لدى البعض بأن mRNA تؤثر على DNA، مؤكداً أنه لا تدخل النواة التي تحتوي على DNA إطلاقاً إنما هي بمنزلة الوصفة التي عن طريقها تصنع الخلية بروتين الشوكة حتى تنتج أجساماً مضادة لمكافحة الفيروس.

4. لقاحات مزيفة

من العقبات التي تواجه همّة البشرية لدحر وباء كورونا، اللقاحات المزيفة التي شرعت بعض الجهات

غير القانونية في الترويج لها ومحاولة بيعها لدول معينة. وأصدر الإنتربول، في الأول من ديسمبر 2020، تنبيهًا عالميًا لوكالات إنفاذ القانون في جميع أنحاء العالم، يحذرها من أن شبكات الجريمة المنظمة ستحاول بيع لقاحات مزيفة أو سرقة إمدادات حقيقية من اللقاحات المعتمدة.

وعلى المنوال ذاته وكالة تنسيق الشرطة العالمية، ومقرها فرنسا، إنها أصدرت إنذارًا برتقاليًا لقوات الشرطة في دولها الأعضاء البالغ عددها 194 دولة تحذرها من الاستعداد لاستهداف اللقاحات جسديًا وعبر الإنترنت، بحسب صحيفة الغارديان، وان الوباء تسبب بالفعل في «سلوك إجرامي انتهازي غير مسبوق» وحذر من موجة جديدة من النشاط الإجرامي، فيما يتعلق بالتزوير وبيع لقاحات مزيفة في الأسواق والسرقة والإعلان غير القانوني عن لقاحات فيروس كورونا.

إن العصابات الإجرامية من المرجح بشكل كبير أن تبدأ الإنتاج والتوزيع المتوازيين لمجموعات اختبار فيروس كورونا «غير المصرح به والمزيفة».

حذر الإنتربول الجمهور من توخي الحذر بشكل خاص عند الاتصال بالإنترنت للبحث عن المعدات الطبية أو الأدوية، إستناداً لنتيجة التحليل الذي أجرته وحدة الجرائم الإلكترونية التابعة له لنحو 3000 موقع صيدلاني على الإنترنت وأظهر في بيعها منتجات غير مشروعة، أن أكثر من 1700 تحتوي على برامج ضارة للتصيد أو البريد العشوائي.

نشطت السوق السوداء في عدد من البلدان وباتت اللقاحات سلعة رائجة وبحسب صحيفة «الغارديان» فإن الخبراء حددوا 15 سوقاً سوداء للقاحات الثلاث الرئيسية المتوافرة وهي أسترازينيكا وفايزر وموديرنا وهي معروضة للبيع فيما صار يعرف بـ «دارك نت» أو «النت المظلم» الذي يشكل جزءاً من الانترنيت ولكنه غير مرئي من قبل محركات البحث ويتطلب الدخول إليه برامج متخصصة وتبيع الجرعة الواحدة بما يتراوح بين 250 و 1200 دولار استرالي.

وعمليات البيع تجري عن طريق تطبيقات وسائل مشفرة والدفع يتم بواسطة «بيتكوين».

أما في الصين فقد ألقت الشرطة القبض على أكثر من 80 شخصاً يضعون لقاحات مزيفة، وكانت العصابة تعمل على تعبئة مياه مالحة في قوارير وتبيعها على أنها لقاحات لفيروس كورونا وضبطت معهم أكثر من ثلاثة آلاف لقاح مزيف.

5. «قومية اللقاح».. أكبر العقبات

ومن المشاكل العميقة التي تعترض سعي البشرية للقضاء على الجائحة، المخاوف الناتجة عن عدم قدرة منظمة الصحة العالمية تأمين وصول اللقاح لجميع الدول بشكل متساوٍ، في ظل السباق المحموم للدول الغنية لشرائه وعدم استطاعة بعض الدول الفقيرة على ذلك، بسبب الصعوبات المالية.

فمنظمة الصحة العالمية حددت 180 دولة انضمت إلى خطة عالمية تهدف إلى تطوير مشترك وتوزيع عادل لأي لقاح مضاد لفيروس كورونا، ولم تنضم الولايات المتحدة إلى المشروع الذي انطلق منتصف أغسطس 2020 باسم "كوفاكس" وهو تحالف دولي لتوزيع اللقاحات لكنها تراجعت عن ذلك مع تسلم الرئيس جو بايدن مهامه الرسمية في 6 يناير 2021.

ويأمل المشاركون في أن تتوافر 2 مليار جرعة من لقاح

مضاد لـ"كورونا" للتوزيع على مستوى العالم نهاية العام 2021.

ومن منطلق التضامن لمواجهة الجائحة شاركت أكثر من 60 دولة غنية في البرنامج الذي يهدف إلى "قومية اللقاح وتسهيل حصول الدول الفقيرة على أي لقاح محتمل".

وعلى خط المسؤولية التضامنية كشف البنك الدولي في 13 أكتوبر 2020، عن خطة مساعدة بقيمة 12 مليار دولار لضمان حصول الدول النامية على اللقاحات بسرعة.

وقالت المؤسسة المالية الدولية إنّ هذا المبلغ سيستخدم "لتمويل شراء وتوزيع لقاحات وفحوصات وعلاجات كورونا لمواطني" الدول النامية، وأنّ هذه الأموال يفترض أن تكفي لتطعيم "ما يصل إلى مليار شخص».

ونقل عن رئيس البنك الدولي ديفيد مالباس قوله إن "الحصول على لقاحات آمنة وفعّالة وعلى أنظمة توزيع معزّزة هو أمر ضـروري لتغيير مسار الجائحة ومساعدة البلدان التي تواجه آثاراً اقتصادية ومالية كارثية على المضي قدماً نحو انتعاش مرن». وعادت منظمة الصحة العالمية للتأكيد مجددا على ضرورة التوزيع العادل للقاحات، وأعلنت في 6 يناير 2021 أن الدول الأكثر فقراً ستبدأ بتلقّي أولى اللّقاحات ضدّ كوفيد- 19 بين نهاية يناير ومنتصف فبراير 2021.

وبدأت حملات تطعيم واسعة النطاق في عدد من البلدان الغنية، بينها الولايات المتحدة وكندا ودول الاتحاد الأوروبي والمملكة المتحدة.

وقالت مسؤولة اللقاحات في منظّمة الصحّة العالميّة كيت أوبرأين إن برنامج "كوفاكس" أبرم اتّفاقات لشراء ملياري لقاح، على أن تبدأ أولى الجرعات في الوصول خلال يناير ذاته.

وردّاً على سؤال بشأن الموعد المرتقب لبدء استفادة الدول الإفريقيّة المنخفضة الدّخل من هذه اللقاحات، قالت أوبرأين خلال مناظرة نظمتها المنظمة العالمية على الإنترنت، إن برنامج كوفاكس قادر على تأمين "أكثر من ملياري جرعة من اللقاحات».

ومنحت منظّمة الصحّة العالميّة في 31 ديسمبر 2020، أوّل موافقة طارئة لها منذ بداية الجائحة على لقاح فايزر/ بايونتيك، ممهدّةً بذلك الطريق أمام البلدان الراغبة في استخدام اللقاح بسرعة.

ووفقاً للمنظّمة، اختُبر على البشر حتى الآن 63 لقاحاً مرشّحاً، وصل 21 منها إلى المرحلة النهائيّة من التجارب الشاملة. إضافة إلى ذلك، تم تطوير 172 لقاحاً آخر في المختبرات، على أن تخضع لمزيد من الاختبارات.

وقالت أوبرأين "هناك بالفعل مخزون كبير من اللقاحات" المحتملة التي تدرسها منظّمة الصحّة العالمية بهدف الحصول على موافقة محتملة عليها في الأشهر المقبلة، مشيرة إلى أن 15 مُصنِّعاً قد اتّصلوا بالفعل بالمنظّمة من أجل عرض إنتاج كميات كبيرة من الجرعات.

... تؤذي الجميع ولا تحمي أحداً

يجادل رئيس منظمة الصحة العالمية بأن تخزين اللقاحات ليس مجرد أمر غير أخلاقي - إنه يدمر نفسه طبياً، وواقع الحال أن العالم في سباق مع الزمن، فتطوير وتجربة 19 لقاحاً في وقت قياسي شهادة رائعة على القدرات العلمية الحديثة، والرهان على ما إذا كانت

هذه اللقاحات ستدفع نهاية للوباء الرهيب، فهو إلى جانب ذلك إختبار للإرادة السياسية في العالم والإلتزام الأخلاقي.

كان التعاون الدولي بين العلماء أمرًا بالغ الأهمية لتطوير اللقاحات، ولكن ضعف التعاون بين الدول الآن يمثل عائقاً رئيسياً أمام تحقيق التلقيح في جميع أنحاء العالم على النطاق المطلوب للقضاء على الوباء. إن المساواة في اللقاحات ليست مجرد شعار ؛ يحمي الناس في كل مكان ، ويحمي اللقطات الموجودة من المتغيرات الجديدة المقاومة للقاحات ، ويعزز قدرة المجتمع الدولي على وقف COVID-19.

في الوقت الحالي ، اشترت البلدان الغنية التي تضم 16 في المائة فقط من سكان العالم 60 في المائة من إمدادات اللقاحات. تهدف العديد من هذه البلدان إلى تطعيم 70 بالمائة من السكان البالغين بحلول منتصف العام سعياً وراء مناعة القطيع.

لكن COVAX – الآلية المتعددة الأطراف التي أنشأتها منظمة الصحة العالمية مع التحالف من أجل ابتكارات التأهب للأوبئة و Gavi ، تحالف اللقاحات ، لضمان وصول اللقاحات إلى جميع الناس في كل مكان – تكافح لشراء جرعات كافية لتغطية 20 في المائة فقط من السكان من أقل البلدان ذات الدخل بحلول نهاية عام 2021.

يجب ألا يصبح تخصيص اللقاح لعبة محصلتها صفر كما يرى ذلك مدير منظمة الصحة العالمية، قومية اللقاح ليست مجرد أمر لا يمكن الدفاع عنه أخلاقيا. إنها هزيمة ذاتية من الناحية الوبائية وتؤدي إلى نتائج عكسية سريريًا. فوطنية اللقاح ليست فقط غير قابلة للدفاع عنها أخلاقياً. إنه يهزم نفسه من الناحية الوبائية ويؤدي إلى نتائج عكسية سريريًا. سوق- الآليات المدفوعة وحدها غير كافية لتحقيق هدف وقف الوباء عن طريق تحقيق مناعة القطيع باللقاحات. الإمدادات المحدودة والطلب الهائل يخلقان رابحين وخاسرين. غير مقبول أخلاقياً أو طبياً أثناء الجائحة.

إن السماح لغالبية سكان العالم بعدم تلقيحهم لن يؤدي فقط إلى استمرار المرض والوفيات التي لا داعي لها وآلام عمليات الإغلاق المستمرة ، بل سيؤدي أيضًا إلى ظهور طفرات فيروسية جديدة مع استمرار انتشار COVID-19 بين السكان غير المحميين. يمكن أن يؤدي الانتشار غير المراقب إلى ظهور المزيد من المتغيرات المعدية ، مما يؤدي إلى ارتفاع حاد في الحالات. إنها حلقة مفرغة. يعني الانتشار الأسرع إصابة المزيد من الناس وموت المزيد من الناس حيث أصبحت أنظمة الرعاية الصحية غارقة.

الأمر الأكثر إثارة للقلق هو أن الطفرات الجديدة يمكن أن تؤدي إلى مقاومة اللقاح. هناك بالفعل دليل على أن بعض اللقاحات أقل فعالية ضد المتغيرات التي تم تحديدها لأول مرة في البرازيل وجنوب إفريقيا. استندت اللقاحات إلى الإصدار 1.0 من الفيروس – لكن الفيروسات الجديدة ، مثل البرامج ، تتطور باستمرار. قد تصيب المتغيرات الجديدة الأشخاص الذين نجوا بالفعل من نسخة سابقة من الفيروس. من الممكن أيضًا أن يصبح الفيروس أكثر فتكًا. زيادة طفيفة في الفتك سيكون لها تأثير كارثي.

تنامي القومية المتعلقة باللقاحات تؤدي أيضًا إلى نتائج عكسية اجتماعياً واقتصادياً. ستستمر معاناة السكان والمجتمعات غير المحمية في كل مكان من الآثار الثانوية الهائلة للوباء.

استمرار الإغلاق يعني دمارا اقتصاديا ، مع سقوط المزيد من الناس في براثن الفقر وتقليص حياة المزيد. تظهر دراسة أجرتها غرفة التجارة الدولية أن التطعيم الكامل لسكان البلدان الغنية مع إهمال الفقراء يمكن أن يكلف البلدان الغنية ما يصل إلى 4.5 تريليون دولار من فقدان النشاط الاقتصادي.

يعاني الأطفال من أسوأ الأضرار الجانبية. يعني فقدان التعليم المزيد من الأطفال العرائس والأطفال العاملين ، والمزيد من الجوع ، وزيادة عدم المساواة بين الجنسين. تأثير فقدان التعليم دائم ، مما يؤدي إلى حياة أقصر وأقل إشباعًا.

في الوقت الحالي ، لا توجد جرعات لقاح كافية في أي بلد ، لكن النقص في البلدان الفقيرة شديد بشكل خاص. طالما أن زعماء العالم يحسبون من هم الأشخاص الذين يجب تحديد أولوياتهم وسبل عيشهم ، وطالما أن الجميع يتدافع لتأمين جرعات كافية ، فإننا جميعًا نخسر المعركة. يعمل منتجو اللقاح الرئيسيون على زيادة الإنتاج ، لكنهم لا يقتربون من تلبية الطلب.

يجب أن تتحد الحكومات والشركات للتغلب على هذه الندرة المصطنعة. هناك العديد من الخطوات التي يمكن اتخاذها لتكثيف إنتاج اللقاح وتوسيع توزيعه. وتشمل هذه المشاركة تكنولوجيا تصنيع اللقاحات والملكية الفكرية والمعرفة بشكل علني من خلال CO-VID-19 Technology Access Pool ، التنازل مؤقتا عن حواجز الملكية الفكرية ، وتوسيع نطاق التعاقد الطوعي بين الشركات المصنعة.

لا يمكن للمجتمع الدولي أن يسمح لمجموعة من الجهات الفاعلة بإملاء الشروط أو الإطار الزمني لإنهاء الوباء.

إن فيروس كورونا ليس فقط غير مبال بالأرباح والسياسة ؛ لا يزال يتطور. كلما سمحنا لمليارات من الناس بالبقاء دون تلقيح ، زادت احتمالية تطوير متغيرات جديدة مقاومة للقاح.

في الواقع ، من المرجح أن تؤدي النزعة القومية للقاحات إلى جانب النهج التقييدي لإنتاج اللقاح إلى إطالة أمد الوباء – وهو ما قد يرقى إلى سوء الممارسة الطبية على نطاق عالمي.

على الرغم من الاستثمار الهائل ، فإن الخيارات العلاجية محدودة ولا يوجد علاج موثوق. بما أن اللقاحات ضرورية لمنع الموت ، من الضروري الحفاظ على فعاليتها. حتى الآن ، أعطت جهود التطعيم الأولوية بحق أولئك المعرضين لخطر الموت الأكبر: كبار السن.

كما تتحرك الحكومات بشكل عاجل لحماية العاملين في مجال الرعاية الصحية ، خط الدفاع الأول ، الذين يخاطرون بحياتهم لإنقاذ الآخرين بشكل يومي. تقدر منظمة الصحة العالمية ما لا يقل عن 30 .

إذا كانت الأوبئة حروبًا جرثومية ، فاللقاحات هي أسلحتنا المفضلة للخلاص الجماعي. لكنها ليست الـدواء الشافي. يتطلب وقف هذا الوباء أيضًا تدابير فعالة مثل التهوية الداخلية المحسنة في أماكن العمل والمدارس ، فضلاً عن الأدوات التي تشارك الجميع في مكافحة الفيروس ، مثل الاختبارات المنزلية السريعة والأقنعة والمسافة الجسدية.

وفي موازاة مخاوف منظمة الصحة العالمية من فشل خططها الرامية الى التوزيع العادل للقاح ومنع استئثار الدول الغنية به وحرمان الفقيرة منه، دخلت مجموعة

العشرين على خط الاهتمام العالمي المتزايد، لدعم البحوث الخاصة بتطوير لقاح لفيروس كورونا ومساعدة الدول الفقيرة على تلقيه أسوة بالدول الغنية، حيث قالت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، 21 نوفمبر 2020، إن المجموعة تدرس توزيع 2 مليار جرعة لقاح على دول العالم، خاصة الفقيرة منها، وذلك خلال مشاركتها في فعالية على هامش أعمال قمة الدورة الـ15 لمجموعة العشرين على مستوى القادة، برئاسة السعودية، والتي عقدت اجتماعات هذه الدورة افتراضياً، جراء تداعيات تفشي الفيروس.

وقال الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون «علينا توحيد الجهود لمواجهة انتشار كورونا، وسنضمن وصول اللقاح لجميع الدول، خصوصاً الفقيرة منها»، مؤكدا أن منصة مجموعة العشرين خصصت أموالاً لشراء جرعات للقاح كورونا، مطالباً المجموعة بزيادة الاستثمار في أنظمة الصحة.

وضمن الفعالية ذاتها، قال العاهل السعودي الملك سلمان بن عبدالعزيز، إن بلاده قدمت نصف مليار دولار ضمن مبادرة لتسريع إيجاد لقاح وعلاج لمواجهة كورونا، مشيراً إلى أن هذه الجائحة «تعد اختباراً قوياً لأنظمتنا الصحية العالمية».

الرئيس الصيني شي جين بينج ذكر إن بلاده ملتزمة مساعدة ودعم الدول النامية، لتوفير لقاحات لمواجهة "كورونا" بتكلفة منخفضة.

فيما دعا المدير العام لمنظمة الصحة العالمية تيدروس أدهانوم جيبريسوس دول مجموعة العشرين إلى ضمان "التوزيع العادل" للقاحات كورونا في جميع أنحاء العالم.

وأضاف تيدروس في الكلمة التي نشرت نصها منظمة الصحة العالمية أن دول مجموعة العشرين التي تمثل ثلثي سكان العالم و80 % من الاقتصاد العالمي تتحمل مسؤولية خاصة في هذا الصدد.

وجاء بمسودة البيان الختامي لقمة مجموعة العشرين أن زعماء دول أكبر 20 اقتصاداً في العالم سيتعهدون بتمويل توزيع عادل للقاحات الوقاية من كورونا، فضلاً عن الأدوية والفحوص في أنحاء العالم حتى لا تحرم منها الدول الفقيرة. كما تعهدوا بمد تخفيف أعباء الديون عن هذه الدول.

الى ذلـك، قال الملياردير الأميركي بيل غيتس مؤسس مجموعة مايكروسوفت الأميركية العملاقة، إن مؤسسته (بيل آند ميليندا جيتس) تعمل على مجموعة من المشاريع، وتحاول مقارنة المعطيات المتوفرة حتى تقرر الأفضل منها، بخصوص المساعدة على تلقي الفقراء حول العالم لقاحات مجانية أو بأسعار زهيدة.

وقال غيتس إن الخطوات اللاحقة هي بناء مصانع عديدة في جميع أنحاء العالم حتى يتم تصنيع كميات كبيرة من اللقاح وتوفيرها للعاملين في القطاع الصحي والبلدان التي يتفشى فيها الوباء.

كما أن خطة إنتاج اللقاح عالميا تتكلف من 10 إلى 20 مليار دولار لأن الهدف هو إتاحة هذه اللقاحات للجميع، إذ لا يمكن حرمان أي إنسان من اللقاح وتركه عرضة لهذا المرض بسبب الفقر.

انطلاق حملات التطعيم في العالم العربي

يخوض العالم سباقا ضد الزمن من أجل تلقيح أكبر عدد ممكن من المواطنين ضد فايروس كورونا الذي أصاب عشرات الملايين من الأشخاص وأودى بحياة ما

مركز تطعيم في إمارة دبي

يزيد عن 2 مليوني حالة وفاة.

أعلنت عدة دول عربية (27 ديسمبر 2020)، الحصول على لقاحات مضادة لكورونا، فيما انطلقت حملات التطعيم في معظمها، ضمن سباق متسارع لتحصين مواطنيها من الفايروس.

وبحسب المعطيات، واللقاح الذي وقع الاختيار عليه لم يكن هو نفسه، فبينما فضل بعضها لقاحي "أسترازينيكا" البريطاني و"فايزر ـ بيوتنيك" الأميركي الألماني، اختارت أخرى لقاح "سينوفارم" الصيني.

فيما أعلنت أن حملات التطعيم ستتم على مراحل قد تتواصل على مدار العام 2021، وستكون الأولوية في المرحلة الأولى لكبار السن، والكادر الصحي، والمواطنين في الصفوف الأولى لمواجهة الفايروس.

وبحسب ما أعلنته الدكتورة رنا الحجة، مديرة إدارة البرامج بالمكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية، لشرق المتوسط فإن جميع بلدان إقليم شرق المتوسط البالغ عددها 22 دولة مشاركة في مرفق «كوفاكس» المعني بضمان التوزيع العادل والمنصف والسريع للقاحات فور إتاحتها للتداول، ونصف بلدان الإقليم المشاركة في مرفق «كوفاكس» تمول مشترياتها من اللقاح المضاد لكوفيد – 19 تمويلاً ذاتياً كاملاً باعتبارها من الدول ذات الدخل المرتفع، لكنها تستفيد من التسهيلات التي يتيحها مرفق «كوفاكس» ومن الدعم الفني الذي تقدمه منظمة الصحة العالمية والشركاء المعنيون، أما باقي بلدان الإقليم وهي البلدان ذات الدخل المنخفض أو التي تقع في الشريحة الدنيا من الدخل المتوسط، فتشارك فيما يسمى التأهيل المسبق للشراء. منها 7 بلدان مؤهلة للحصول على مساعدة التحالف العالمي من أجل اللقاحات والتمنيع،

و 4 بلدان غير مؤهلة للحصول على مساعدة التحالف العالمي للقاحات والتمنيع.

فور الإعلان عن نجاح تجارب العديد من اللقاحات، بدأت العديد من الدول العربية بالفعل حملات التطعيم ضد الفيروس، كان أبرزها السعودية والإمارات والبحرين، حيث أعلنت تطعيم مواطنيها بلقاح مضاد لفايروس كورونا، كما استطاعت دول أخرى تأمين الدفعة الأولى من جرعات اللقاح، وأعلنت فئة ثالثة من الدول العربية أنها ستحصل على الشحنة الأولى من اللقاح في الأشهر القليلة المقبلة من العام 2021.

وأطلقت إمارة أبوظبي حملة التطعيم بلقاح شركة "سينوفارم" الصينية في 14 ديسمبر 2020، فيما بدأت إمارة دبي، في 23 من الشهر نفسه، حملة تطعيم بلقاح "فايزر ـ بيوتنيك»، ووزعت الامارات لتاريخ 31 يناير 2021 أكثر من 3 ملايين جرعة لقاح.

وسجلت نتائج ما بعد الاستخدام الطارئ للقاح عن "درجة أمان ممتازة"، وحماية فعالة لعشرات الآلاف من العاملين فى الخطوط الأمامية فى الإمارات، ممن تلقوا اللقاح بموجب ترخيص الاستخدام فى حالات الطوارئ.

على الجانب الآخر اعلنت إمارة دبي بدء التطعيم بلقاح «سينوفارم» الصيني المضاد لمرض كوفيد – 19 وستشمل كافة المواطنين والمقيمين ممن هم فوق 60 سنة.

وكانت الإمارة بدأت المرحلة الأولى في ديسمبر 2019 باستخدام اللقاح الذي تنتجه شركة «فايزر وبيونتيك».

المبادرة الكبرى التي انطلقت من إمارة دبي كانت في الأول من شهر فبراير 2021 عندما أعلنت بتشكيل تحالف لوجستي يتكفل بالتوزيع العادل للقاح المضاد لكورونا.

وسيتكفل التحالف الذي شكلت قوامه شركة طيران الإمارات وشركة Dp World للوجستيات ومطارات دبي وشركة مصنعة للأدوية بتوزيع 2 مليار لقاح.

صعدت دولة الإمارات العربية المتحدة الى قمة الترتيب العالمي لمعدل التطعيم حيث قدمت 121 جرعة من لقاحات كورونا لكل 100 شخص وذلك آواخر شهر مايو 2021.

وأحتلت اسرائيل المركز الثاني (117 جرعة لكل 100 شخص) متبوعة بالبحرين (93) ثم أوروبا (92) ثم تشيلي (90) وبحسب التصنيفات العالمية فقد اسهمت دولة الامارات بتقديم 11,9 مليون جرعة من اللقاحات منذ اطلاق حملة التلقيح على مستوى البلاد في ديسمبر 2021، وأعلنت تقديم نحو 122 ألف جرعة من اللقاح خلال 24 ساعة، وكشف موقع «ذا ناشيونال نيوز» أن معدلات التطعيم في الدولة الخليجية تتجاوز 100 ألف جرعة يوميا. وتم توسيع حملة التطعيم، بعد أن اعتمدت وزارة الصحة ووقاية المجتمع الاستخدام الطارئ للقاح كوفيد – 19 «فايزر بيونتيك» للفئة العمرية من 12 إلى 15 عاما.

وشرعت السعودية في حملة تطعيم موسعة ضد فايروس كورونا بلقاح شركتى "فايزر وبيونتك"، لتكون أول دولة عربية تستخدم لقاح الشركتين، وكان وزير الصحة توفيق الربيعة من ضمن من تلقوا اللقاح بغرض طمأنة المواطنين والمقيمين على سلامة وفعالية اللقاح.

و تلقى ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان، الجرعة الأولى من لقاح كورونا، ضمن الخطة الوطنية للتطعيم التي تنفذها وزارة الصحة.

وقالت وزارة الصحة، إن أكثر من 300 ألف شخص

في المملكة سجلوا للحصول على لقاح كورونا حتى ذلك الوقت.

وبدأت البحرين أيضا، حملة التطعيم بلقاح سينوفارم، عقب موافقة الهيئة الوطنية لتنظيم المهن والخدمات الصحية فى المملكة على تسجيل لقاح "كوفيد- 19" الذى تنتجه الشركة الصينية، وكان أول من تلقى اللقاح ملك البحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة.

بينما بدأت الكويت حملة التطعيم بلقاح "فايزر ـ بايونتيك" في 24 ديسمبر 2020، وكانت الدولة تعاقدت على مليون جرعة من هذا اللقاح تكفي لتطعيم 500 ألف شخص، واستقبلت أول شحنة منه تضم 150 ألف جرعة في 23 ديسمبر، ثم توالى استقبال الشحنات الثانية والثالثة بانتظام اسبوعي بعد ذلك.

وفي منتصف يناير 2021 قالت وزارة الصحة الكويتية إن 20 ألفاً تلقوا الجرعة الأولى من اللقاح وأن ربع مليون شخص سجلوا في المنصة المخصصة لمواعيد التطعيم وفي الأول من شهر فبرأير عام 2021 اعلنت كذلك عن وصول 200 ألف جرعة من لقاح «أوكسفورد» والذي يتم تصنيعه في مصنع «سيروم للأمصال» في الهند بترخيص من شركة إسترازينيكا العالمية و 60 ألف جرعة من «فايزر – بيوتنيك» وكذلك ستتسلم مليوني جرعة من أسترازينيكا في شهر مارس 2021 وهي في طريقها للقيام بإجراءات اعتماد لقاح «جونسون آند جونسون».

وفى السياق، تلقت سلطنة عمان أول دفعة من لقاح "فايزر ـ بيوتنيك"، في 24 ديسمبر، وتضم 15.600 جرعة، فيما تستقبل 28 ألفا أخرى منه، بحلول يناير.

وأعلنت السلطنة، أواخر أكتوبر، التعاقد على مليون و800 ألف جرعة من لقاحات الشركات المعتمدة (دون الكشف عنها)، وتأمل تطعيم 60 بالمئة من السكان البالغ 5 ملايين نسمة.

وفى المغرب، أمر العاهل المغربي الملك محمد السادس، 8 ديسمبر، باعتماد مجانية التلقيح ضد وباء كورونا، لفائدة جميع المغاربة، مشيرا إلى استعداد المملكة لتلقى 65 مليون جرعة من اللقاحات المضادة لفيروس كـورونـا من شركتي سينوفارم الصينية وأسترازينيكا البريطانية، حيث تدشن المملكة برنامج تطعيم ضد كوفيد- 19، يهدف إلى تحصين 80 بالمئة من السكان البالغين في البلاد.

أما في الجزائر، فأعلن الرئيس عبدالمجيد تبون، أن بلاده ستبدأ التطعيم ضد فايروس كورونا في يناير ومن دون تحديد موعد بعينه، طالبا من حكومته اختيار "اللقاح الأنسب"، فيما أعلن السودان في 14 ديسمبر، الحصول على 8.4 ملايين جرعة لقاح مضاد لكورونا، دون تحديد نوعيته ولا موعد انطلاق عمليات التحصين. وأكدت السلطات أنها تسعى للحصول على جرعات كافية من لقاحات كورونا لتطعيم جميع السودانيين البالغ عددهم نحو 40 مليونا.

وتعاقد العراق على شراء 17.5 مليون جرعة من لقاحي "أسترازينيكا" و"فايزر ـ بيوتنيك"، وتكفي هذه الكمية من اللقاح حوالي 20 بالمئة من إجمالي عدد السكان البالغ نحو 37 مليونا، فيما أعلنت السلطات اللبنانية، حجز نحو مليوني جرعة من لقاح "فايزر ـ بيوتنيك"، ستصل إلى البلاد في الربع الأول من 2021، وتوزع مجانا على الأشخاص الأكثر عرضة للإصابة بالفايروس.

أما مصر فتعاقدت على 50 مليون جرعة من لقاحي "أسترازينيكا" (30 مليونا) و"سينوفارم" (20 مليونا).

وأعلنت السلطات بدء تلقي اللقاحات أو بدء حملة التطعيم في ديسمبر 2020.

وأعلن الأردن الاتفاق مع "فايزر ـ بيونتيك" للتزود بلقاحها وكذلك مع "كوفاكس"، وهي آلية وضعتها منظمة الصحة العالمية تهدف إلى تسهيل وصول الدول الفقيرة إلى لقاح مضاد للفايروس، لافتة إلى أن التطعيم سيكون مجانا لجميع المواطنين والمقيمين في المملكة، التي يتجاوز عدد سكانها عشرة ملايين.

أما في ليبيا فتعاقد المركز الوطني لمكافحة الأمراض في طرابلس، على شراء 2.8 مليون جرعة من لقاح كورونا، دون تحديد نوعه، بقيمة 9.4 ملايين دولار، فيما ستحصل تونس على مليوني جرعة من لقاح "فايزر ـ بايونتيك"، في أبريل 2021، مع إمكانية الحصول على لقاحات أخرى. وتطمح وزارة الصحة التونسية، إلى تلقيح 50 بالمئة من الشعب البالغ عددهم قرابة 11 مليونا.

أما موريتانيا فتسعى للحصول على 20 بالمئة من حاجتها للقاح كورونا مجانا من منظمة الصحة العالمية وفق آلية "كوفاكس"، في فبرأير أو مارس 2021.

وأعلنت فلسطين سعيها للحصول على لقاح كورونا، من أكثر من مصدر، واستبعدت وصولها قبل "عدة أشهر". وستحصل فلسطين على جرعات تكفي لتطعيم مليون شخص، من منظمة الصحة العالمية، بجانب اعتزامها شراء ما يكفي 50 بالمئة من السكان البالغ عددهم نحو 5 ملايين.

لقاح لكل اسرائيلي

مقابل ذلك نجحت اسرائيل بأن تتبوأ مركز الدولة الأولى في العالم بتأمين اللقاحات والاقتراب من الوصول إلى «المناعة المجتمعية».

قبل البدء بالتطعيم رسمت خطة تقضي بجمع بيانات على مدى خمسة أعوام لمشروعها الصحي الرقمي، على أن يتبرع مئة ألف شخص بإدخال سجلاتهم الطبية في قاعدة بيانات تستجلب لها مليارات الدولارات، وأعلنت الحكومة في حينه أنها ستستثمر 290 مليون دولار لتأمين بيانات عن صحة مواطنيها، ستكون صيداً ثميناً للشركات الخاصة والباحثين الذين يسعون للحصول عليها بأي طريقة! وهذه البيانات تمنح شركات صناعة الأدوية مؤشرات جداً مهمة عن مدى فعالية الأدوية بالتجربة العملية.

قامت بعدها بإبرام «إتفاقية التعاون في الأدلة الوبائية في العالم الحقيقي» تنص على أن تقوم إسرائيل بتزويد «فايزر» ببيانات تتصل مباشرة بتأثير اللقاح مقابل حصولها على الكمية المطلوبة.

خلاصة الاتفاق تنص على تقديم «ثروة البيانات الطبية» والأكثر تطوراً في العالم للشركة الأميركية. وبالفعل عرضت الدولة العبرية على «فايزر» معلوما ت طبية من مليوني شخص في غضون ستة أسابيع.

هذا الاتفاق جعل من هذا الكيان أول دولة في العالم تخرج من أزمة الوباء وهي اليوم في صدارة الدول الكبرى بمعدل التطعيم، أي أنها أكثر من أميركا نفسها والتي تعهد فيها الرئيس بايدن بأن يحقق الرقم 100 مليون في أول 100 يوم من تسلمه الحكم!

فقد سجل عدّاد التطعيم نسبة 80 في المائة نهاية شهر فبرأير 2021 أي أنه أوصل إسرائيل إلى مرحلة «مناعة القطيع» وباتت الدولة «محمية» إلى حد كبير من أعراض الفيروس والعدوى الشديدة.

أظهر اللقاح فعالية بنحو 99 في المائة بمنع الحاجة لدخول المستشفيات والوفاة والحالات الخطرة، وباتت

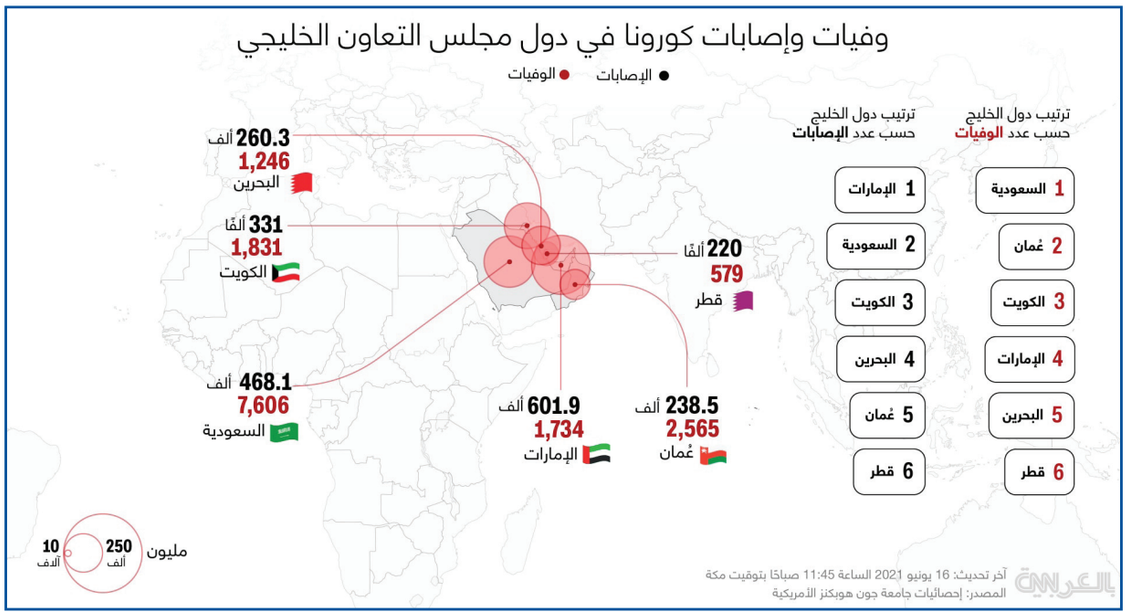

ترتيب دول الخليج العربي بحسب عدد وفيات وإصابات فيروس كورونا بتاريخ 16 يونيو 2021

جاءت الإمارات العربية المتحدة في المرتبة الأولى في ترتيب دول الخليج بحسب عدد الإصابات، إذ أنها تجاوزت 601 ألف إصابة، فيما حلت المملكة العربية السعودية المرتبة الثانية بأكثر من 468 ألف إصابة.

ومن ناحية عدد الوفيات، جاءت السعودية في المرتبة الأولى بـ7,606 حالة وفاة، وحلت سلطنة عُمان في المرتبة الثانية بـ2,565 حالة وفاة.

الدولة الأكبر في العالم من حيث نسبة الحاصلين على اللقاح من بين السكان البالغ 9 ملايين شخص.

هناك 5 ملايين حصلوا على الجرعة الأولى و 3 ملايين على الجرعة الثانية، أي أن النسبة وصلت إلى أكثر من نصف عدد السكان علماً أن اللقاح أعطي لمن بلغ الستين وما فوق في الوقت الذي يبلغ فيه 79 % من السكان فوق الخمسين عاماً!

أكثر من ذلك بات لديها لقاح لكل مواطن، ومنحت «جوازاً أخضر» لكل من تلقى العلاج وأصبح بمقدوره أن يمارس حياته الطبيعية كيفما يشاء!

إسرائيل في الشهر الثاني من عام 2021 تسجل وتقود أسرع حملة تطعيم في العالم، بعدما وفرت 6 ملايين جرعة من لقاح «موديرنا الأميركية» و10 ملايين جرعة من لقاح أكسفورد و8 ملايين جرعة من لقاح شركة «فايزر».

موقع «دويتشيه فيل» الألماني سلط الضوء على ما فعلته وقدرتها على تأمين كميات كبيرة من اللقاحات، له علاقة بالشروط التعاقدية التي تفاوضت عليها مع المصنعين، دفعت 23 يورو للجرعة مقابل 12 يورو دفعها الاتحاد الأوروبي أي أكثر مرتين وتحملت مسؤولية المنتج وزودت «فايزر» بمعلومات عن حملة التطعيم بشكل أسبوعي تتضمن أرقام العدوى والتطعيم والمعلومات الشاملة الرقمية للمريض وكانت بالتالي مصدر معلومات لا يقدر بثمن لشركات الأدوية...

بريطانيا أول دولة غربية تتحصّن

في 14 ديسمبر 2020 أصدرت إدارة الغذاء والدواء الأميركية قائمة تحتوي على 12 عارضا جانبيا قد يواجهها الأشخاص الذين يتلقون لقاح فايزر.

وكانت بريطانيا، أول دولة أوروبية توزع اللقاح (8 ديسمبر)، قد أبلغت عن ردود فعل تحسسية، بعد تطعيم عدد من الأشخاص باللقاح، وهو عارض لم يكن معروفا في السابق.

ودعت السلطات في الولايات المتحدة وبريطانيا الأشخاص الذين يعانون من حساسية شديدة إلى تجنب تلقي اللقاح.

ومن أجل مزيد من الطمأنينة نشرت إدارة الغذاء والدواء قائمة رسمية بالأعراض الجانبية، مشيرة إلى أن اللقاح يوفر حماية لفترة غير معلومة.

وأصبحت البريطانية مارغريت كينان البالغة تسعين عاماً، أول شخص في العالم يتلقى اللقاح الذي طوّره تحالف المختبرين الأميركي والألماني بعد قرابة أسبوع من إعطاء السلطات البريطانية ضوءها الأخضر لتوزيعه.

وأظهرت مشاهد بثتها قنوات التلفزة كينان في مستشفى في كوفنتري وسط انجلترا (8 ديسمبر 2020)، تتلقى الحقنة أثناء جلوسها على كرسي وتبادلها أطراف الحديث مع الممرضة.

وقالت كينان «هذا يعني أنه بات بإمكاني أخيراً أن أمضي وقتاً مع عائلتي وأصدقائي في العام الجديد، بعد أن كنت لوحدي لفترة طويلة هذا العام».

وأفادت صحف بريطانية بتلقي الملكة إليزابيث الثانية (94 عاماً) وزوجها الأمير فيليب (99 عاماً)، اللقاح علناً بهدف تشجيع أكبر عدد ممكن من الناس على تلقيه.

وطلبت المملكة المتحدة 40 مليون جرعة من لقاح فايزر، ما يسمح بإكساب مناعة لعشرين مليون شخص، كون أن كل فرد بحاجة لتلقي جرعتين بفرق ثلاثة أسابيع.

ومن كل اللقاحات التي يجري العمل عليها، طلبت الحكومة البريطانية 357 مليون جرعة من سبعة مصنّعين. وهي تعتمد بشكل رئيسي على لقاح أسترازينيكا وجامعة أوكسفورد، الذي لم يكن وقتها قد نال الترخيص بعد، لأن نقله أسهل، وسبق أن طلبت منه 100 مليون جرعة لتوسيع حملة التلقيح.

وعن الفترة اللازمة لتطعيم كافة مواطني بريطانيا باللقاح، قال السير جريمي فارار، مدير مجموعة "ويلكم ترست" للأبحاث، وعضو المجموعة الاستشارية العلمية لحالات الطوارئ، إن تطعيم مواطني بريطانيا باللقاح المعتمد سيستغرق عاما كاملا.

ونقلت شبكة "سكاي نيوز" البريطانية عن فارار قوله: "سيستغرق تلقيح مواطني المملكة المتحدة عاما كاملا على اعتبار تطعيم 1000 مركز يطعم كل منها 500 شخص يوميا، لمدة 5 أيام في الأسبوع، دون أي انقطاع في عمليات الإمداد والتسليم الخاصة باللقاح الذي يؤخذ على جرعتين".

هذا وقد لجأت المملكة المتحدة إلى لغة تحفيزية وترغيبية للتشجيع على تلقي اللقاح حيث استهدفت جموع المهاجرين غير الشرعيين فى بريطانيا بأن عرضت عليهم حصانة للتقدم والحصول على لقاح كورونا، فى خطوة غير مسبوقة تهدف إلى مساعدة بريطانيا فى الوصول إلى مناعة القطيع لتخفيف الإغلاق، والمغزى

مارغريت كينان أول شخص في العالم يتلقى اللقاح

من ذلك هو أن كل شخص يحتاج إلى حقنة اللقاح من أجل سلامة الجميع. والاحصاءات تشير إلى أن عدد الأجانب الذين ليس لديهم وضع قانوني، يصل إلى 1.3 مليون شخص.

تطعيم في الاتحاد الأوروبي

أما في دول الاتحاد الأوروبي، فقد انطلق التطعيم ضد «كورونا» في 27 ديسمبر 2020، بجميع دول الاتحاد الـ27.

وقالت رئيسة المفوضية الأوروبية أورسولا فون دير لايين في تغريدة على تويتر، ان التطعيم ضد كوفيد- 19 سيبدأ في الاتحاد الأوروبي في 27 و28 و29 ديسمبر، بعدما منحت الوكالة الأوروبية للأدوية ترخيصا للقاح فايزر بايونتيك في 21 ديسمبر.

وبخصوص روسيا، فقد كانت أولى الـدول التي شرعت في حملة تلقيح (5 ديسمبر) مستخدمة لقاح "سبوتنيك- في"، حيث بدأت بالعاملين الاجتماعيين والطواقم الطبية والمدرّسين.

أميركا: البداية بـ100 مليون جرعة

وفي الولايات المتحدة الاميركية، التي تتصدر دول العالم من حيث الاصابات وأعداد الوفيات، بدأ التطعيم هناك في 15 ديسمبر 2020، وتم تحديد الفئة العمرية من سن 13 لتلقي اللقاح، وأصدر الرئيس

إنقاذ الأرواح يتطلب الاسراع بأخذ اللقاح

الأميركي وقتها دونالد ترامب قبل إنتهاء ولايته مرسوما تنفيذيا يقضي بالأولوية للأميركيين في الحصول على اللقاح قبل تصديره للخارج، ليتم توفير جرعات كافية من لقاح كورونا يجري تصنيعها في الفترة ما بين مارس 2020 وحتى أبريل 2021، لتكون متاحة لكل أميركي يرغب في الحصول عليها، مشيرا الى ان من الممكن توفير ما يصل إلى 100 مليون جرعة من اللقاح المضاد لكورونا بنهاية 2021، ما يكفي لتغطية احتياج السكان المعرضين.

وتلقى نائب الرئيس الأميركي آنذاك مايك بنس التطعيم على الهواء مباشرة، من أجل تعزيز ثقة الأميركيين في اللقاح والتأكيد على سلامته وفعاليته، بحسب سي إن بي سي.

أما الرئيس المنتخب جو بايدن وزوجته جيل بايدن، فتلقيا الجرعة الأولى من اللقاح في 21 ديسمبر، وفقًا لما نقلته فرانس برس عن المتحدثة باسمه.

وقبل أيام من تنصيبه رئيسا للبلاد، واصل بايدن، طرح البرنامج الذي ينوي تنفيذه في البيت الأبيض، لتسريع تطعيم الأميركيين ضد كورونا، وقال في 6 يناير 2021 إنه يعتزم فتح «آلاف» مراكز التطعيم لتسريع حملة التلقيح ضدّ الوباء في الولايات المتحدة.

وطمأن الأميركان بأنه سيتم إستخدام كل موارد الحكومة الفيدرالية لإنشاء آلاف مراكز التطعيم المحلية، في الصالات الرياضية أو الملاعب. وتشمل خطة الرئيس المنتخب أيضا حشد 100 ألف فرد من

سلالة جنوب أفريقيا قد تقلّل من شدة فاعلية اللقاح

مقدّمي الرعاية الصحية من أجل إجراء اللقاحات.

وكشف بايدن عن خطة تحفيز اقتصادي عملاقة بقيمة 1.9 مليار دولار.

وتلقى حتى ذلك التاريخ، نحو 9.7 ملايين أميركي الجرعة الأولى من اللقاح، و1.3 مليونا تلقوا الجرعة الثانية. وهذا العدد أدنى بكثير مما وعدت به إدارة ترامب التي قالت إنها ستعطي اللقاح لعشرين مليون شخص قبل نهاية 2020.

أما بايدن تَعَّهد حقن 100 مليون جرعة لقاح خلال أول 100 يوم له في البيت الأبيض.

وتم في المجموع توزيع أكثر من 30.6 مليون جرعة على مختلف الولايات، وفقًا للمعلومات الصادرة من مراكز الوقاية من الأمراض ومكافحتها، وهي هيئة الصحة العامة الفدرالية الرئيسية في الولايات المتحدة، لكن تنظيم توزيع الجرعات يجري بشكل متفاوت.

كندا: خيبة أمل من بطء التطعيم

أما كندا، فقد أعرب رئيس وزرائها جاستن ترودو عن "إحباطه" جراء بطء وتيرة حملة التطعيم ضد كورونا التي بدأت في البلاد في الأسبوع الأخير من ديسمبر 2020.

وقال ترودو في مؤتمر صحافي: "أعتقد أن كل الكنديين، وأنا ضمنهم، مصابون بإحباط جراء هذا الوضع.. حان الوقت لتسريع حملة التطعيم".

وكانت كندا من الدول التي وافقت على ثاني لقاح لفيروس كورونا، هو لقاح موديرنا.

وقال ترودو (24 ديسمبر) إن 168 ألف جرعة من اللقاح وصلت ضمن طلبية تقدر بـ 40 مليون جرعة، تصل على دفعات خلال 2021».

وبذلك ينضم لقاح موديرنا إلى لقاح شركة فايزر، الذي تم شحنه بالفعل إلى كندا، ومن المقرر إعطاؤه إلى المواطنين الأكثر عرضة للخطر، والعاملين في القطاع الصحي، والمقيمين في دور رعاية المسنين.

تحصين أمريكا اللاتينية

في موازاة تشديد المدير العام لمنظمة الصحة العالمية تيدروس أدهانوم جيبريسوس، 15 يناير 2021، على أهمية بدء حملات التلقيح في دول العالم كلّها في غضون مئة يوم، دبّت الحركة في دول قارة امريكا اللاتينية للحاق بدول عديدة في العالم أجازت لقاحات "كورونا" وشرعت في تطعيم مواطنيها بها.

وقال جيبريسوس في مؤتمر صحافي في جنيف "أريد أن أرى حملات التلقيح ضد كورونا وقد بدأت في كل دولة في غضون الأيام المئة المقبلة حتى تتسنى حماية العاملين في مجال الرعاية الصحية والمعرضين لمخاطر أكبر في المقام الأول».

وتزامنا مع ذلك، أجازت الوكالة البرازيلية للمراقبة الصحية، 18 يناير 2021، استخدام لقاحين ضد كورونا بشكل طارئ، البريطاني "أسترازينيكا" والصيني "كورونافاك" وهما أول لقاحين ينالان موافقة في البرازيل.

وهذه الموافقة التي أعلنتها الهيئة الناظمة "انفيسا" تمهد الطريق أمام بدء حملة التلقيح بالبرازيل التي ستستخدم في بادئ الأمر لقاح "كورونافاك" الذي تنتجه شركة "سينوفاك" الصينية بالتعاون مع المعهد البرازيلي بوتنتان، وهو اللقاح الوحيد المتوافر في البلاد.

وقال نائب الرئيس البرازيلي، هاميلتون موراو (16 يناير) إنه يتوقع تطعيم حوالي 150 مليون برازيلي بحلول نهاية 2021 فى جميع انحاء البلاد البالغ عدد سكانها 212 مليون نسمة، والتي تخطى عدد الوفيات بفيروس كورونا فيها عتبة الـ200 ألف شخص وسجلت حصيلة قياسية من الإصابات بلغت حتى ذلك التاريخ 6.6 مليون إصابة.

أما الأرجنتين، فأصبحت أول دولة في أمريكا اللاتينية ترخص استعمال اللقاح الروسي «سبوتنيك-في»، بوصول أول شحنة منه إلى الأرجنتين (14 يناير 2021) تحوي 25 مليون جرعة.

الأرجنتين منحها ترخيصا "عاجلا» للقاح «سبوتنيك ـ في» الروسي المثير للجدل، لتكون أول دولة تُقدِم على هذه الخطوة في أمريكا اللاتينية.

وذكر وزير الصحة جينيس غونزاليس غارسيا أن الترخيص منِح «بما يتوافق وتوصيات وكالة الدواء الأرجنتينية».

وذكر الرئيس الارجنتيني ألبرتو فرنانديز أن بدء خطة التطعيم في البلاد ستكون في 15 يناير 2021 للفئات المعرضة للخطر والعاملين الصحيين وقوات الأمن، متوقعا تلقيح حوالي 10 ملايين شخص بحلول مارس.

يذكر ان انتقادات كانت قد وُجّهت للقاح «سبوتنيك ـ في» في روسيا وخارجها نظرا لتسجيله قبل إجراء تجارب سريرية واسعة النطاق، ويزعم مطوروه أنه فعّال بنسبة تتجاوز 90 بالمئة، لكن منتقديه يعتبرون أنه مجرد أداة لتعزيز نفوذ روسيا الجيو- سياسي.

وجاء الترخيص بعيد منح الموافقة على إستعماله مع بدء الحكومة في التفاوض مع مختبر الشركة لشراء جرعات منه، غير أن السلطات الصحية الارجنتينية قالت إن الاتفاق لم يتم لأن الشركة الاميركية وضعت شروطا «غير مقبولة» لتوفير اللقاح.

وتسعى دول القارة الى المسارعة في تأمين اللقاحات لشعوبها، في وقت أعلن فيه نائب مدير منظمة الصحة للبلدان الأمريكية جارباس باربوسا، قـرار تقديم التطعيمات إلى 10 بلدان مجانًا، من بين 27 دولة في أمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية ستدفع مقابل اللقاحات، مشيرا الى ان التوزيع المجاني يأتي بناء على معايير البنك الدولي. والدول العشر التي ستتلقى اللقاح بدون مقابل هي: بوليفيا، دومينيكا، السلفادور، جرينادا، جيانا، هايتي، هندوراس، نيكواراجوا، سانت لوسيا، وسانت فنسنت وجزر جرينادين.

تطعيم الصغار أولًا.. إندونيسيا تغرّد خارج السرب!!

في حين سارعت دول عديدة حول العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا وفرنسا، لتلقيح كبار السن أولاً من مواطنيها، انطلاقاً من كونهم أكثر عرضة للإصابة بأعراض المرض الحادة والوفاة بسببه، غرّدت إندونيسيا خارج السرب، وهمّت بتطعيم الفئة العُمرية من 18 إلى 59 عاما أولاً بلقاح «سينوفاك» الصيني.

وإندونيسيا هي أكثر الدول في آسيا تضررًا من الوباء؛ بأكثر من 900 ألف إصابة وما لا يقل عن 25 ألف وفاة منذ بداية الجائحة.

وعزت الدولة الآسيوية ذلك إلى سببين؛ أولهما أنها لم تحصل على بيانات كافية بعد حول فاعلية اللقاح على كبار السن، نظراً لأن التجارب السريرية الجارية في الدولة تتضمن أشخاصًا من 18 إلى 59 عامًا.

والثاني أن مسؤولي الصحة في البلد الذي يأوي أكثر من 270 مليون نسمة، يرون أن أفضل طريقة لكبح المرض هي استهداف الفئات التي تنشره على نطاق واسع، وهي فئة الشباب المعنيّة أيضا بتقوية الاقتصاد.

ودفعت الجائحة في إندونيسيا، أكبر اقتصاد في جنوب شرق آسيا، إلى أول ركود لها منذ أكثر من عقدين في العام الفائت، حيث قدرت الحكومة انكماشًا بنسبة بلغت 2.2%.

ويمثل الأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن 60 عامًا، 40 % من وفيات كوفيد 19 في إندونيسيا، مقارنة بـ 36 % لأولئك الذين تتراوح أعمارهم بين 46 و59 عامًا.

وفي مطلع يناير 2021 أجازت اندونيسيا الاستخدام الطارئ للقاح الصيني، لتصبح أول دولة خارج الصين تُقِرّ اللقاح.

وجـاءت الموافقة بعد إعـلان مجلس العلماء الإندونيسي، أعلى هيئة إسلامية في البلاد، أن اللقاح «حلال»، وهي خطوة حاسمة في كسب الثقة في أكبر دولة إسلامية في العالم.

وخططت الحكومة الإندونسية لتطعيم نحو 1.5 مليون عامل صحي بـ«سينوفاك» بحلول فبراير خلال الربع الأول من 2021.

وتطمح أن يُمكّنها تطعيم الفئة الأكثر حركة وتنقل من الوصول إلى مناعة القطيع بسرعة.

ووفق وزير الصحة الإندونيسي، يجب تطعيم 67 % من الشعب لتحقيق هذا الهدف، ما يتطلب حوالي 427 مليون جرعة من اللقاح.

وتلقى الرئيس الإندونيسي جوكو ويدودو أول جرعة من اللقاح، في مراسم أقيمت في القصر الرئاسي ثم تلاه أعضاء حكومته. وقال جوكو بعدما تلقى الجرعة: «إنها لا تؤلم على الإطلاق».

ومع نهاية يناير 2021 تكون تلقت اندونيسيا 18 مليون جرعة من لقاح سينوفاك.

تطعيم الاطفال

وفي ظل التطورات التي حققتها أميركا في مجال التطعيم على مستوى الولايات فقد منحت إدارة الغذاء والأدوية الاميركية الترخيص القانوني (يونيو 2021) لاستخدام لقاح «كوفيد – 19» للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين 12 و 15 عاماً، بعدما أظهرت الأبحاث ان اللقاح فعال بنسبة مئة في المئة، وبالتالي اصبحت الولايات المتحدة الأميركية أول دولة تستخدم اللقاح والذي سيحمي الأطفال من الاصابة بالفيروس ويسمح لهم بممارسة حياتهم الطبيعية.

تحورات فيروس كورونا أدت لخلق سلالة أخرى تدعي سلالة جنوب أفريقيا سارعت بعدها شركتي «فايزر» و«بيونتيك» لإجراء دراسة معملية أفادت بأن ربما تقلل الحماية التي توفرها الأجسام المضادة المنتجة من لقاح الشركتين بمقدار الثلثين.

وذكرت الشركتان أنّ الدراسة توصلت إلى أنّ اللقاح لا يزال قادراً على تحييد الفيروس لكن لم تظهر أدلة حتى الآن من التجارب على البشر تؤكد أن السلالة تقلل الحماية التي يتيحها اللقاح.

ومع ذلك فقد ضخت الشركتان استثمارات وخاطبتا السلطات المعنية لتطوير نسخة محدثة من اللقاح أو إنتاج جرعة منشطة.

ومن أجل الدراسة، طور علماء من الشركتين والفرع الطبي في جامعة تكساس فيروسا بالهندسة الوراثية اشتمل على التغيرات التي تطرأ على الجزء الناشئ من السلالة المتحورة شديدة العدوى التي اكتشفت في جنوب أفريقيا.

وتلك الأجزاء الناتئة هي التي يغزو بها الفيروس الخلايا البشرية وهي أيضا الهدف الأساسي للعديد من لقاحات كوفيد– 19.

واختبر الباحثون الفيروس المعدل في دم مستخلص من أفراد تلقوا اللقاح واكتشفوا انخفاضاً بمقدار الثلثين في مستوى تحييد الأجسام المضادة بالمقارنة مع فاعلية اللقاح على أكثر أنواع الفيروس شيوعاً في التجارب الأميركية.

اللقاحات و«السلالات الجديدة»

أربع شركات على الأقل، من الشركات المصنّعة للقاح «كورونا»، توقعت أن تكون اللقاحات التي أنتجتها للوقاية من المرض فعالة ضد السلالة الجديدة سريعة الانتشار التي تم اكتشافها في بريطانيا.

وقال أوغور شاهين، الرئيس التنفيذي لشركة بيونتيك الألمانية إنه يتوقع أن يظل اللقاح فعالا.

وعبر شاهين عن ثقته في أن اللقاح الذي طورته شركته مع شركة فايزر الأميركية ضد فايروس كورونا سيكون فعالا أيضا ضد السلالة الجديدة للفايروس التي ظهرت في بريطانيا.

كذلك توافق كل من شركات مودرنا وكيورفاك الألمانية وأسترازينيكا البريطانية على أن اللقاحات التي طورتها ستنجح في مواجهة السلالة الجديدة للفايروس التي تسببت في فوضى ببريطانيا، الأمر الذي أدى إلى موجة من حظر السفر التي تعطل التجارة مع أوروبا وتهدد بتعميق عزلة بريطانيا عن القارة.

فوفق النتائج "من المرجح بشدة من الناحية العلمية أن استجابة جهاز المناعة بواسطة هذا اللقاح يمكن أن تتعامل أيضا مع هذه السلالة للفايروس".

المثير حقاً أن اللقاح يحتوي على ما يربو على 1270 حمضا أمينيا، تسعة منها فقط تغيرت (في الفايروس المتحور). ويعني ذلك أن 99 في المئة من البروتين يظل كما هو دون تغير.

والسلالة الجديدة قد تكون أكثر عدوى بنسبة تصل إلى 70 في المئة وقد تكون سببا أكبر للقلق على الأطفال «من حيث المبدأ، تتمثل ميزة تقنية اللقاح في أن بمقدور الدول المطورة للقاح أن تبدأ مباشرة في هندسة اللقاح على نحو يحاكي بشكل كامل هذا التحور الجديد».

هذه الدول عملياً ستكون قادرة على توفير لقاح جديد من الناحية الفنية خلال ستة أسابيع. وبالطبع، هذه ليست مسألة تقنية وحسب".

وأدى الانتشار السريع لسلالة فايروس كورونا الجديدة إلى رفع مستوى القيود المفروضة على الاختلاط بين الملايين من البشر أثناء فترة الاحتفالات بأعياد الكريسماس 2020.

منحت منظمة الصحة العالمية لقاح «موديرنا» المضاد «لكوفيد – 19» ترخيص الإستخدام الطارئ ليرتفع بذلك إلى خمسة وهي عدد اللقاحات التي حصلت على هذه الإجازة.

فريق الخبراء الاستشاري التابع للمنظمة أفاد أنه فعَّال بنسبة 94% وسيضاف هذا اللقاح إلى سلة اللقاحات التي يوفرها برنامج «كوفاكس» للدول الفقيرة، وسبق وان حصل على موافقات إدارة الغذاء والدواء الأميركية ووكالة الأدوية الأوروبية واللقاحات الأربع والحاصلة على ترخيص الاستخدام الطاريء من قبل منظمة الصحة العالمية هي «فايزر – بيوتينك – واسترازينيكا – (المصنعان في الهند وكوريا الجنوبية) وجونسون أند جونسون.

ووفقاً لمنظمة الصحة العالمية في بيان لها بتاريخ العشرين من مايو 2021 فإن اللقاحات المتاحة والمعتمدة فعَّالة ضد كل متحورات فيروس كورونا.

علاج للقمل.. لمكافحة «كورونا»

في موازاة السباق المحموم عالميا لإنتاج أول لقاح ضد فيروس كورونا، يواصل باحثون في دول عديدة اختبار علاجات محتملة قد تساهم في إنقاذ المرضى، وقد برز في الآونة الأخيرة عقاران يستخدمان لعلاج أمراض أخرى.

ففي أستراليا، أظهرت دراسة أجرتها جامعة موناش في ملبورن نتائج وصفت بالواعدة لعقار إيفرمكتين في مكافحة الفيروس داخل المختبر.

والإيفرمكتين (Ivermectin) هو عقار مضاد للطفيليات متاح في جميع أنحاء العالم، ويستخدم لعلاج القمل والجرب وحالات أخرى.

وقال الباحثون الأستراليون إن جرعة واحدة من هذا العقار كفيلة بإيقاف نمو فيروس كورونا داخل الخلايا خلال أقل من 48 ساعة، وفقا للدراسة التي نشرت مطلع أبريل في دورية أبحاث مضادات الفيروسات (Antiviral Research).

وقالت الدكتورة كايلي واغستاف التي قادت الدراسة في بيان إن "إيفرمكتين مستخدم على نطاق واسع جدا ويعتبر عقارا آمنا. علينا أن نحدد الآن إن كانت الجرعة (الآمنة) المسموح باستخدامها على البشر ستكون فعالة (في القضاء على الفيروس)، وهذه هي الخطوة التالية".

وحذرت السلطات الصحية الأسترالية المواطنين من التداوي بهذا العقار بأنفسهم، وأكدت أنه قد يكون قاتلا.

وحثت جيني ميكاكوس وزيرة الصحة في ولاية فيكتوريا التي عاصمتها ملبورن المواطنين على تجنب استخدام العقار بأنفسهم، مع إشادتها في الوقت نفسه بعمل الباحثين الأستراليين محذرة من أنه لا سبب يدعو أحدا لشراء علاج للقمل إلا إن كان سيستخدمه على شعر أطفاله.

وأضافت «أود التشديد على ذلك لأننا سمعنا عن أناس في الخارج سمعوا عن تطورات محتملة ثم قاموا بتعاطي عقاقير استخدمت بطريقة خاطئة كليا وماتوا بسبب ذلك».

منافسة تجارية بمئات الملايين

بينما تواكب البشرية، بحذر، تطورات اللقاحات ضد كورونا والشروع في تلقي التطعيم من أجل إنهاء كابوس الوباء، تزداد المنافسة احتداما بين كبرى شركات الأدوية التي باتت تسابق الزمن من أجل تحقيق الربح الوفير الذي سيترتب عن بيع الملايين من الشحنات لإنقاذ الإنسانية، حيث حققت أسهم هذه الشركات مبيعات ضخمة.

وتسبب إعلان شركة موديرنا عن تطوير لقاح مضاد لكورونا أقل كلفة وأكثر فاعلية من لقاح مماثل سبق ان اعلنت عن تطويره شركة فايزر، تسبب في تراجع أسهم الأخيرة (نوفمبر 2020)، الأمر الذي زاد من حجم المنافسة التي تمثلها صناعة مصل في عالم شركات الأدوية، حيث تسعى جميعها إلى الهيمنة على سوق الأدوية الذي يزداد زخمه مع اقتراب اللقاح.

وحقق مدراء عدد من المختبرات الأميركية العاملة على تطوير لقاحات ضد كورونا بأموال حكومية، أرباحا مالية في المدة الأخيرة عقب بيع أسهم، ما طرح أسئلة حول مدى ملاءمة هذه العمليات في ظرف يشهد هكذا أزمة صحية.

وفي اليوم الذي أعلن فيه عملاق صناعة الأدوية مجموعة فايزر أنّ اللقاح الذي تعمل مختبراتها عليه فعّال بنسبة 90 في المئة طبقا لنتائج أولية، باع مديرها العام البير بورلا أسهما بـ5.6 مليون دولار.

ولكن بعدما أعلنت مختبرات فايزر وبيونتيك عن تطوير فعالية لقاحها، أكدت موديرنا أن فعالية لقاحها تصل إلى 94.5 في المئة.

واستنادا إلى هذه القواعد نفسها، باع عدد من مسؤولي موديرنا أسهما في الأشهر الأخيرة من العام 2020 مقابل مبالغ تفوق 100 مليون دولار.

أما مدير نوفافاكس، فباع من جانبه أسهما بـ4.2 مليون دولار في 18 أغسطس 2020، بعد شهر تقريبا من إعلان تمويل حكومي لمشروعها بـ1.6 مليار دولار.

وقدّرت منظمة الدفاع عن دافعي الضرائب أنّه بين بداية النشاط الأميركي لتنسيق عمليات تطوير لقاح في 15 مايو و31 أغسطس كسب المسؤولون في خمس مجموعات لصناعة الأدوية أكثر من 145 مليون دولار من خلال بيع أسهم.

ووفقا لتقرير نشره موقع Quartz الأمريكي مطلع ديسمبر 2020 بعنوان: "كيف ستستفيد شركات الأدوية من صنع لقاحات كوفيد- 19"، فمن المتوقع أن تصل عائدات لقاح كورونا السنوية إلى 10 مليارات دولار على مدى سنتين على الأقل، فثمة تقديرات تشير إلى ان اللقاحات عكس معظم الأدوية، لا تعد من الصناعات التي تجلب أرباحا، لأن سوقها أصغر حجماً ولا يتنافس فيها سوى القليل، مشيرا الى انه «قبل كوفيد- 19 بلغت قيمة السوق العالمي لجميع اللقاحات نحو 24 مليار دولار سنوياً، وهذا ليس سوى جزء صغير جداً من سوق الأدوية الإجمالي، الذي تُقدَّر إيراداته السنوية بأكثر من تريليون دولار». ويبلغ حجم سوق لقاحات الإنفلونزا، على سبيل المثال، 4 مليارات دولار، حيث تبيع شركة سانوفي، أكبر مُنتجٍ لها، بما قيمته نحو مليار دولار سنوياً.

وفي هذا السباق الماراثوني رفعت شركة «فايزر» مبيعاتها بنحو 15 مليار دولار من لقاح «كورونا» متوقعة اجمالي ايرادات خلال عام 2021 بين 59,4 مليار دولار و61,4 مليار دولار وتستهدف «فايزر» تسليم ملياري جرعة لقاح خلال عام 2021.

خصائص لقاحات فيروس كورونا

بعد عناء وترقب وجهد جهيد حصد لقاحان (أحدهما من إنتاج شركة موديرنا والآخر من «فايزر» و«بيونتيك») مصادقة رسمية في الولايات المتحدة. وصادقت بريطانيا ودول أخرى على اللقاح الثاني أيضاً. وتصارع الزمن شركات أخرى لإعلان نتائج تجاربها العيادية قريباً وتستعمل اللقاحات التي رأت النور مقاربات مختلفة لمهاجمة الفيروس. تشمل الأنواع التي طوّرتها شركات "موديرنا" و"فايزر" و"بيونتيك" ما يسمّى بتقنية "مرسال الحمض النووي الريبوزي". فمن المدهش أن تسمح لنا التكنولوجيا المتطورة الآن بإحراز تقدّم غير مسبوق لمحاربة فيروس كوفيد- 19.

لكن ليست مصادفة أن تكون لقاحات الحمض النووي الريبوزي من أوائل الخيارات المتاحة. يمكن ابتكار هذا النوع من اللقاحات بوتيرة أسرع من الأنواع التقليدية، وهو يعطي مفعوله عبر استعمال مرسال الحمض النووي الريبوزي الذي يطلق تعليمات تحثّ الجسم على إنتاج بروتينات "سبايك". ثم يتدخّل جهاز المناعة ويهاجم كل ما يعترض طريقه، بما في ذلك فيروس كوفيد- 19.

وعملياً قد يكون تصنيع اللقاحات بناء على تقنية مرسال الحمض النووي الريبوزي سريعاً نسبياً، لأن إنتاج كميات كبيرة من تسلسل هذا الحمض الذي يشفّر بروتينات "سبايك" يبقى أسهل من زرع تلك البروتينات. وعلى عكس معظم اللقاحات التقليدية، لا تحتوي لقاحات الحمض النووي الريبوزي على أي فيروس، مما يعني أنها لن تُسبّب "كوفيد- 19".

لكن مع الأسف، تَقِلّ المصانع القادرة على تصنيع منتجات مرسال الحمض النووي الريبوزي. كذلك، تبرز الحاجة أحياناً إلى تخزين تلك المنتجات على حرارة 70 درجة مئوية تحت الصفر، مما يُصعّب عملية توزيعها في الدول النامية. هذه المشكلة هندسية بطبيعتها وليست علمية.

غير أنه لم يسبق أن تهافت هذا العدد من الشركات على إنتاج لقاحات ضد المرض نفسه، لأن تصنيع اللقاحات عملية محفوفة بالمخاطر. قد تمرّ سنوات طويلة قبل طرح المنتج في الأسواق، وقد يكلّف اللقاح مليارات الدولارات، ويترافق مع تحديات علمية كبرى، لا سيما إذا كانت العدوى جديدة مثل فيروس كورونا.

لكن ما الذي دفع هذه الشركات كلها إلى أخذ المجازفة في هذه المرحلة إذاً؟ بناءً على معلومات العلماء والمديرين التنفيذيين في تلك الشركات، يتعلق أحد الأسباب على الأرجح بضرورة استعمال خبراتهم للمشاركة في إنهاء الوباء المستجد. كان مفيداً أيضاً أن تبدي جهات أخرى استعدادها لتحمّل جزء من المخاطر المالية.

وفي بعض الحالات، جاءت هذه المساهمات من حكومات وطنية مثل الولايات المتحدة أو ألمانيا. وفي حالات أخرى قدّمت جماعات مختلفة مساهماتها، منها "التحالف من أجل ابتكارات التأهب للأوبئة"، الذي حصل على التمويل من "مؤسسة بيل وميليندا غيتس" وشركاء حكوميين وفاعلي خير آخرين.

اللقاح والحق المتكافئ في الحماية

في مارس من العام 2020 صحى العالم مبكراً بالحديث عن 17 لقاحا مرشحا للاستخدام تُجرَى عليها التجارب، ثم راحت أعدادها تتزايد، وانشغلت فرق الأطباء والخبراء في مختلف بلدان العالم بتطوير اللقاحات المرشحة candidate vaccines ، وهذا هو المصطلح المتداول عالميا للإشارة إلى لقاحات تحت التجريب. ويشرح لنا الموقع التابع لتحالف غافي المراحل الثلاث التي يمر بها اللقاح قبل اعتماده. فما هو غافيGavi، ولماذا نستشهد بما يصدرعنه؟ نشير هنا إلى نقطتين تتصلان به: أشرنا إليه لنوضح صدقية مصدر المعلومة؛ ولأن مجرد قيام هذا التحالف يعني أن البحث عن اللقاح هو هم إنساني مشترك، على رغم احتدام السباق بين الدول على التوصل للقاح وما يثار من حكايا تدور حول أمرين اثنين: احتمال أن تستأثر الدول الغنية باللقاح إن سبقت إليه، ومزاعم التجسس من دول لها أهميتها، وإن كانت واقعة خارج المركز الأطلسي للعالم، على ما يجري في بلدان المركز من أبحاث وتجارب تتصل باللقاح.

وقد ترتبط حكايا التجسس بالخوف من أن تستأثر دول معينة باللقاحات لتحقق مكاسب تجارية أو لتحقق ما أشار إليه مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية CSIS في سبتمبرمن العام 2019، قبل ظهور جائحة كورونا وقبل أن تنشأ الحاجة الكونية الملحة للتطعيمات، إلى ضرورة" تعزيز القيادة الأميركية في عصر جديد لحملات التطعيم على مستوى الكوكب". ولا يعني هذا أن الباحثين والخبراء في ذلك المعهد يسعون للتكتم على أسرار التقدم باتجاه لقاحات جديدة، بل هم حريصون على خلق مقاربات جديدة وشراكات دولية – تحت قيادة الولايات المتحدة – في مجالات الصحة للوصول باللقاحات إلى سكان البلدان التي تعاني من صعوبات مزمنة في توصيل الخدمات الصحية لمن يحتاجونها. ويلفت المركز النظر، في الموجز الخاص بيوم 27 سبتمبر من العام 2020 ، إلى أهمية الدور الذي يلعبه تحالف غافي ومنظمة الصحة العالمية باعتبارهما طليعة العاملين على تطوير استراتيجيات جديدة لزيادة الرقعة التي تغطيها حملات التطعيم في العالم.

عملياً وعلمياً فإن اللقاحات المرشحة تدخل مرحلة التجريب الاكلينيكي على عدد صغير من البشر، التي تبدأ بالمرحلة الأولى وهي تستهدف اختبار مأمونية اللقاح، وتقرر الجرعات وتحدد الأعراض الجانبية المحتملة. وتواصل المرحلة الثانية استكشاف المأمونية وتبدأ بالتحقق من الفاعلية بالتجريب على عدد أكبر من الناس، في مجموعات عديدة. وقليلة هي اللقاحات التي تواصل التقدم حتى المرحلة الثالثة، وهي مرحلة أوسع نطاقا، بكثير، وتشمل ألوفا أو عشرات الألوف من البشر، لإثبات فاعلية اللقاح وتثمين هذه الفاعلية، وللكشف عبر الاختبارات عن أية تأثيرات جانبية نادرة، لا تظهر إلا مع تضخم العدد.

وفي نهاية شهر يونيو من العام 2020 كان اللقاح الوحيد الذي بلغ المرحلة الثالثة في العالم، بحسب غافي، هو اللقاح البريطانيChAdOx1، وهو لقاح "VIRAL VECTOR" أي أنه ناقل فيروسي قادر على تعزيز عملية توليد المناعة وإحداث استجابة تقتلع الخلايا المصابة بالعدوى. وقال موقع PMC التابع للمكتبة الوطنية للطب وللمعاهد الوطنية للصحة في الولايات المتحدة إن الناقلات الفيروسية أدوات واعدة

سواء لجهة العلاج الجيني أو اللقاحات. وطورت هذا اللقاح جامعة أكسفورد، وكان، حتى نهاية يونيو، تحت التجريب على أكثر من عشرة آلاف شخص من مختلف أرجاء المملكة المتحدة، بينهم أطفال وشيوخ. وجرى تجريب هذا اللقاح أيضا في البرازيل، وفي جنوب إفريقيا، وكان بذلك أول لقاح دخل مرحلة التجريب في إفريقيا. وبمساندة من ائتلاف الجاهزية والابتكارات لمواجهة الأوبئة CEPI ، وهو شراكة كونية تأسست في العام 2017 للتعاون على إنتاج اللقاحات ووقف الأوبئة، كان مقررا أن تنتج شركة المستحضرات الدوائية الحيوية أسترا زينيكا 330 مليون جرعة من هذا اللقاح المرشح للوقاية من فيروس كورونا، في انتظار ثبوت فاعليته ومأمونيته. ولكن توقفت عملية الإنتاج بعد أن ظهرت أعراض جانبية غير حميدة على اثنين ممن تم التجريب عليهم، في سبتمبر من العام 2020. وعلى الرغم من ذلك فقد توقع عديد من الخبراء أن يبدأ في منتصف العام 2021 توزيع لقاح من اللقاحات الكثيرة التي يجري تجريبها، ولكن توزيعها قد لايبدأ إلا في منتصف العام.

لقاحات للجميع أم تمييز عنصري في توزيعها؟

توزيع اللقاحات كانت محل إنتقاد وشكوك بعدم العدالة في توزيعها بل هناك من وصفها بالتمييز العنصري كما فعل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق غوردون براون بتقديم رؤية جديدة من واقع مؤتمر قمة الدول الصناعية السبع الذي عقد في شهر يونيو عام 2021 والتقى فيه قادة العالم وجها لوجه منذ ما يقرب من العامين، وهو الاجتماع الأول من نوعه الذي شارك فيه جو بايدن بصفته رئيسا للولايات المتحدة، والأخير الذي تشارك فيه أنجيلا ميركل بصفتها مستشارة ألمانيا، وهذا الاجتماع كما يراه براون أول اختبار لما يعنيه حقا شعار «بريطانيا العالمية» الذي كثيرا ما يُـقـتَـبَـس عن رئيس وزراء المملكة المتحدة بوريس جونسون. عندما نفكر في اجتماعات قمة مجموعة السبع السابقة، لن يتذكر معظمنا إلا القليل فضلا عن فُـرَص التقاط الصور الأنيقة التصميم للقادة، ولكن في مناسبات نادرة، من الممكن أن تحقق مجموعة السبع اختراقات سياسية حقيقية، وهو ما حدث في عام 2009، عندما نجحت قمة مجموعة الثماني التي استضافتها إيطاليا، بالتشاور مع القادة الأفارقة، في فتح آفاق جديدة في مجال التنمية الدولية، وفي تقديمي لهذه الدورة، أتذكر أنني قصصت على زملائي القادة نبأ تلميذ من رواندا يدعي ديفيد وجد نفسه عالقا في وطيس حرب الإبادة الجماعية في تسعينيات القرن العشرين، وهي القصة التي يخلدها الآن متحف الإبادة الجماعية التذكاري في كيغالي.

في مثاليته وبراءته، تصور ديفيد أن المجتمع الدولي سينقذه هو وأمه، لكننا لم نفعل كما يسجل ذلك رئيس وزراء بريطانيا الأسبق، وتكررت قصة ديفيد على لسان الرئيس الأميركي باراك أوباما ورئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو بيرلسكوني، واتفقنا جميعا على أن المجتمع الدولي لم يفعل إلا أقل القليل لمساعدة الناس المعرضين لخطر مُـهلِـك، وأعلن بياننا الرسمي اعتزامنا بذل قدر أعظم كثيرا من الجهد.

مرة أخرى، يجب أن تكون قضايا الحياة والموت، وتكاليف التقاعس عن العمل، في صـدارة أجندة مجموعة السبع، وإن فشلنا حتى الآن في البناء على إنتاج لقاحات آمنة وفَـعَّـالة لمرض فيروس كورونا 2019 (كوفيد19) من خلال تطبيق خطة لتحصين كل

منظمة الصحة العالمية

سكان العالم أمر غير مقبول، لقد أودت جائحة كوفيد19 بحياة 3.8 ملايين إنسان حول العالم حتى يونيو 2021، وفي كل أسبوع، يموت 80 ألف شخص آخرين، وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن أعضاء مجموعة السبع هم الذين سيقررون من يتلقى التطعيم ويأمن شر المرض ومن يظل غير محصن وعُـرضة للخطر.

لقد عرضت الولايات المتحدة تقديم 500 مليون جرعة من لقاح فايزر–بيونتِك إلى البلدان النامية، وربما تقدم المزيد، ومن المتوقع أن تقدم المملكة المتحدة 100 مليون جرعة، وسيستجيب آخرون أيضا.

لكن الأرقـام المذكورة هنا أقل كثيرا من العدد المطلوب (11 مليار جرعة)، فنحن في احتياج إلى تدفق مستمر على مدار الأشهر القليلة المقبلة وما بعدها للوفاء بتعهد جونسون بتطعيم العالم بأسره بحلول نهاية عام 2022، ويتطلب تحقيق هذه الغاية توافر التمويل المضمون والشراء المجمع الذي يؤدي بدوره إلى إنشاء قدرة تصنيع جديدة وخط أنابيب آمن لإمداد اللقاحات في كل قارة، فنحن في احتياج إلى قرار لتمويل كل هذا الآن إذا كان لنا أن نتمكن من تجنب الانزلاق إلى الحلقة المفرغة المألوفة حيث يفشل العالم في تأمين التكاليف الضرورية ونعجز عن توفير الإمدادات التي نحتاج إليها من اللقاحات.

الواقع أن الـنُـذُر غير مشجعة على الإطلاق بالنسبة إلى أفقر بلدان العالم.

ذهبت الأغلبية العظمى من جرعات لقاح كوفيد19 التي أُنـتِـجَـت حتى الآن (2.5 مليار جرعة) إلى أكثر البلدان ثراء، وحصلت بلدان منطقة جنوب الصحراء الكبرى في إفريقيا على أقل من 2 %، ونتيجة لهذا حصل 2 % فقط من سكان المنطقة على جرعة اللقاح الأولى، وأصبح 0.2 % منهم فقط محصنين بشكل كامل، واعتبر كبير الأساقفة الأنجليكانيين في كيب تاون، ثابو ماكجوبا، هذا الوضع «تمييزا عنصريا في توزيع اللقاح»، واليوم، مع ارتفاع معدلات الإصابة بعدوى كوفيد19 في إفريقيا بنحو 25 % أسبوعيا، تواجه أفقر بلدان العالم مشكلتين ربما لا يتسنى حلهما إلا من

خلال مجموعة السبع: أولا، لن تتمكن هذه البلدان من احتواء انتشار المرض إذا اضطرت إلى الوقوف في طابور هذا الصيف والخريف في انتظار المتبقي من الجرعات الغربية، والتي لن يصل أغلبها حتى العام المقبل، وثانيا، لا يمكنها الوصول إلى مستويات التحصين الغربية أو حماية سكانها بالاستعانة بمعدات الاختبار والوقاية الفَـعَّـالة في غياب المزيد من الدعم المالي: تحتاج هذه البلدان إلى 16 مليار دولار إضافية هذا العام، وأكثر من 30 مليار دولار في عام 2022. يوضح اقتراح مقدم من قادة النرويج وجنوب إفريقيا كيف قد يتمكن العالم من جمع الأموال اللازمة، حيث تضع الصيغة التي يعرضها قادة البلدين في الحسبان دخل كل دولة وثروتها، والفوائد المتفاوتة التي قد تحصل عليها من إعادة فتح الاقتصاد العالمي، واعتمادا على قدرتها على المساهمة، ستتكفل مجموعة السبع، إلى جانب كوريا الجنوبية وأستراليا، بنحو 67 % من التكاليف (الولايات المتحدة 27 %، وأوروبا 22 %، والمملكة المتحدة 5 %، واليابان 6 %، في حين تساهم كل من كندا وكوريا الجنوبية وأستراليا بنحو 2 %). وتغطي دول أخرى في مجموعة العشرين، بما في ذلك الصين وروسيا والدول النفطية، بقية التكاليف.

لكن على حد تعبير مارتن لوثر كينغ الابن، «بعد فوات الأوان أمر وارد»، والآن، يحتاج العالم إلى قرار من مجموعة السبع، وإلا ستستمر خسارة الأرواح، ولا يملك العالم ترف التسامح مع التمييز العنصري في توزيع اللقاح.

2022 موعد تطعيم العالم

تشير التقديرات إلى أن متوسط الانتاج الشهري سيبلغ من جانب كل الشركات المنتجة للقاحات كوفيد19 والتي تلقت قائمة الاستخدامات الطارئة من قِـبَـل منظمة الصحة العالمية والسلطات التنظيمية الوطنية، والتي يتم تسليمها على نطاق واسع خلال الفترة من يوليو إلى ديسمبر 2021، نحو مليار جرعة، وإذا علمنا أن عدد سكان العالم 7.8 مليارات نسمة، منهم 5.8 مليارات نسمة في سن 15 عاما أو أكثر، وإذا عَـرَّفنا التحصين الشامل على أنه تغطية بنسبة 80 % من السكان البالغين (15 سنة فأكثر) في كل بلد، فلابد أن يستهدف العالم تحصين 4.6 مليارات فرد.

وحتى الثلاثين من مايو 2021، حصل نحو 850 مليون شخص على التحصين الكامل، ونحو 950 مليون شخص آخرين حصلوا على الجرعة الأولى من اللقاح، ولتحقيق تغطية تطعيم البالغين بنسبة 80 % على مستوى العالم، يستلزم الأمر توفير 6 مليارات جرعة بحسب دراسة جيفري ساكس (مدير مركز التنمية المستدامة في جامعة كولومبيا) وزميلته جوليانا بارتلز فمع تقديم نحو مليار جرعة من اللقاح كل شهر وما يقرب من 6 مليارات جرعة مطلوبة، يمكن تحقيق هدف التغطية الشاملة للقاح في غضون ستة أشهر تقريبا، أي بحلول أوائل عام 2022، لكن هذا لن يتأتى إلا إذا توافرت خطة عالمية تتضمن جدولا زمنيا لتخصيص الجرعات في مختلف البلدان، وخطة لوجستية لنقل اللقاحات، وخطة تنفيذ داخل كل بلد، وخطة تمويل.

لايزال العالم غير آمن إلى حد بعيد، والوفيات المؤكدة بكوفيد19 حتى العاشر من يوليو 2021، والتي بلغ عددها أربعة ملايين هي النتيجة المأساوية لفشل العالم في الاستجابة لجائحة كوفيد19 بوضوح، وتعاون، وتعاطف. ويظل تعهد مجموعة السبع في شهر يونيو 2021 بالتبرع بنحو 870 مليون جرعة، تكفي لتحصين نحو 435 مليون شخص بشكل كامل، بعيدا تماما عن تحقيق هدف الخطة العالمية.

عدم المساواة في الحصول على اللقاحات

فجوة عدم المساواة في اللقاحات آخذة في الاتساع يوما بعد يوم، إذ تستحوذ البلدان ذات الدخل المرتفع، التي تشكل 16 في المئة من سكان العالم، على أكثر من نصف طلبات اللقاحات المؤكدة، أو حوالي 4.6 مليارات جرعة، وهو ما يكفي لتطعيم سكانها عدة مرات في بعض الحالات؛ في حين توفر أفقر البلدان النامية، التي تشكل ساكنيها ضعف ما تشكله بلدان الدخل المرتفع من سكان العالم، نصف عدد الطلبات المؤكدة، وتغطي الإمدادات الحالية لإفريقيا جنوب الصحراء أقل من 1 في المئة من السكان، وفي الوقت الذي تقوم فيه البلدان الغنية بتحصين الفئات السكانية الأصغر والتي تتمتع بصحة أفضل، فإن العاملين في مجال الصحة في موزمبيق، ونيبال، وبوليفيا، يكافحون ضد الوباء دون حماية، وثمة أرواح عديدة تُهدر.

إن فجوة اللقاح تسلط الضوء على ظلم صارخ، ففي حين تسير دول مجموعة السبع على الطريق الصحيح لتحقيق تغطية بنسبة 70 في المئة بحلول نهاية عام 2021، فإن بعض أفقر البلدان لن تصل إلى هذا المستوى قبل عام 2024، استنادا إلى الاتجاهات الحالية، وهذا ما يجعلنا نتذكر الإستجابة الأولية المشؤومة لأزمة فيروس نقص المناعة البشرية (الإيدز)، عندما تُركت إفريقيا ومناطق نامية أخرى في الجزء الأخير من قائمة الانتظار للحصول على الأدوية المضادة للفيروسات القهقرية، التي كانت متاحة على نطاق واسع في البلدان الغنية، وتسبب التأخر في التسليم في وفاة 12 مليون شخص تقريباً.

ويمثل جعل فقراء العالم متخلفة في الركب في سباق التطعيم ضد كوفيد19 فشلا أخلاقيا كارثيا؛ وهو عمل يؤذي الذات بصورة مدمرة، إذ مع انتشار فيروس كورونا وتحوره بين السكان غير المطعمين ضده، سيشكل تهديدا للصحة العامة للناس في كل مكان، بما في ذلك في أغنى البلدان، وفضلا عن ذلك، يمكن أن يكلف اضطراب السوق الناجم عن انخفاض معدلات التحصين في البلدان النامية الاقتصاد العالمي 9.2 تريليونات دولار، وتشكل الاقتصادات المتقدمة نصف هذه الخسارة.

وباختصار، هناك حجة أخلاقية ووبائية واقتصادية كاسحة لاتخاذ إجـراءات جماعية عاجلة من أجل تحقيق العدالة في اللقاحات، وكلما عملنا بصورة حاسمة كمجتمع بشري واحد، أُنقذت المزيد من الأرواح، وتعافت الاقتصادات بوتيرة أسرع.

ويتجلى التحدي في ضمان توافر لقاحات كافية وبأسعار معقولة لجميع البلدان، ولن نواجه هذا التحدي من خلال التبرعات الطوعية وحدها، والصفقات الثنائية خارج مرفق (كوفاكس)، وقومية اللقاح المتفشية التي ميزت استجابة الدول الغنية حتى الآن.

إن هذه اللحظة هي لحظة اتخاذ إجراءات جريئة، ويجب على مجموعة الدول السبع أن تزيد بصورة عاجلة من دعمها بتسريع الوصول إلى أدوات كوفيد19، مع دعم الجهود لبناء الاعتماد على الذات فيما يتعلق باللقاحات في البلدان النامية.

نستخلص القول أن لا أحد في أمان حتى يكون الجميع كذلك، وعليه يتطلب الأمر من مجموعة الدول السبع إتخاذ الاجراءات اللازمة لتطعيم العالم، وهي الدعوة التي أطلقها مجموعة من الشخصيات القيادية

وتضم: مدير عام منظمة الصحة العالمية ورئيس وزراء بريطانيا الأسبق، غوردون براون، وماري روبنسون رئيسة إيرلندا السابقة وكيفن واتكينز منظمة «احمو الاطفال» البريطانية وغارسيا ماتشل إضافة إلى وزير مالية غانا.

في موقف استثنائي يتيح تسريع انتاج اللقاحات اعلنت الولايات المتحدة الأميركية رفع براءات إختراع اللقاحات المضادة لفيروس كورونا مما يعني التنازل عن حماية الملكية الفكرية للشركات المنتجة.

واعتبرت منظمة الصحة العالمية القرار بأنه «تاريخي» وسيحرم المختبرات الاميركية من عائدات مالية ضخمة تدرها اختراعاتها.

براءات الاختراع تمنح للشركات المبتكرة احتكاراً قصير الأجل بلا نتاج لتغطية تكاليف تطوير المشروعات ولتشجيع الاستثمار.

والتنازل عن الملكية الفكرية سيسمح بزيادة انتاج اللقاحات وتوفير جرعات أكثر وبأسعار معقولة للدول الفقيرة.

خطوة إدارة الرئيس الأميركي جو بايدن، والداعية إلى التنازل عن حقوق الملكية الفكرية، بما في ذلك براءات اختراع اللقاحات قوبلت بالرفض من قبل صناعة المستحضرات الصيدلانية وحكومات العديد من البلدان المنتجة للقاحات.

خبراء الصحة نادوا بضرورة التنازل عن الملكية الفكرية أو ما يعادلها من اجراءات باعتبارها ضرورة عملية ملحة قبل ان تكون واجباً اخلاقياً.

لقد بات العالم يواجه معضلة حقيقية تتعارض فيه احتياجات العالم الملحة مع المصالح الضيقة لعدد من شركات الأدوية الأميركية والأوروبية.

وتحاول الشركات تحويل معارضتها لمقترح التنازل عن الملكية الفكرية إلى قضية جيوسياسية، بحجة أنه يجب منع الصين وروسيا من اكتساب المعرفة اللازمة لإنتاج لقاحات mRNA، وهذه الحجة منافية للأخلاق، بل من المحتمل أن تكون قاتلة، وإذا أدت معارضة التنازل عن الملكية الفكرية إلى إبطاء إنتاج لقاحات فعالة في الصين وروسيا، فإنها ستعرض الأميركيين والأوروبيين والجميع للخطر بصورة مباشرة.

وحتى في أفضل الظروف، تنطوي الملكية الفكرية على موازنة التكاليف والفوائد، إذ تمنح براءات الاختراع حافزاً للابتكار، ولكن شريطة منح 20 عاماً من سلطة الاحتكار لصاحب البراءة، لذلك يجب الموازنة بين فوائد الابتكار وتكلفة القوة الاحتكارية التي تحد من العرض، وفي حالة وباء قاتل، يكون الخيار واضحاً: يجب أن نتنازل عن حقوق براءات الاختراع من أجل زيادة إمدادات السلع التي تنقذ حياة الناس وتقضي على الوباء. كما يرى الرئيس شبكة حلول التنمية المستدامة التابعة للأمم المتحدة، جيفري ساكس.

معظم الاحصاءات المتعلقة بالمرض تتفق على أن ضحايا الفيروس وصل إلى أكثر من 4 ملايين شخص لغاية 31 أغسطس 2021 من الوفيات وبحسب تقرير «ذا إيكونومست» البريطاني فقد كان الوباء أكثر صعوبة على الفقراء بالرغم من انتشاره وبلا رحمه في العالم الغني وارتفاع معدلات الوفيات في بعض البلدان

الغنية، لكن غالبية حالات الوفاة كانت لدى الفقراء ومتوسطي الدخل، كما حصل في رومانيا وإيران ومصر تقريباً مقارنة بالفارق لدى أميركا وكانت 7.1 %.

أما في الهند، حيث يموت حوالي 20 ألف شخص يومياً، بالرغم من أنها ليست من الدول النائية، في حين أن جائحة بيرو أسوأ 2.5 مرة من وباء الهند، والمرض يشق طريقه عبر نيبال وباكستان، وتنتشر المتغيرات المعدية بشكل أسرع، وبسبب استبداد النمو المتسارع، تطغى على أنظمة الرعاية الصحية وتملأ مستودعات الجثث حتى لو لم يكن الفيروس أكثر فتكاً.

في نهاية المطاف، فإن الطريقة لوقف هذا هو التطعيم، كمثال على التعاون وريادة العلوم ، تصنف لقاحات كوفيد 19 في فئة برنامج أبولو الفضائي. في غضون عام واحد فقط من اكتشاف الفيروس ، يمكن حماية الناس من المرض الشديد والموت ليستفيد مئات الملايين منهم.

ومع ذلك، فإن اللقاحات على المدى القصير سوف تغذي الفجوة بين الأغنياء والفقراء. وقريباً، سيكون الأشخاص الوحيدون الذين يموتون من فيروس كورونا في البلدان الغنية ضعفاء بشكل استثنائي أو سيئي الحظ بشكل استثنائي، وكذلك أولئك الذين رفضوا فرصة التطعيم، على النقيض من ذلك ، في البلدان الفقيرة، لن يكون أمام معظم الناس خيار. سيبقون بدون حماية عدة أشهر أو سنوات.

لا يمكن للعالم أن يرتاح بينما يموت الناس بسبب عدم الحصول على جرعة بليغة تكلف أقل من 4 دولارات لدورة من جرعتين. من الصعب التفكير في استخدام الموارد بشكل أفضل من التطعيم.

لقد أفرطت الدول الغنية في طلب اللقاحات ومن الخطأ وضع المراهقين أمام كبار السن والعاملين في مجال الرعاية الصحية في البلدان الفقيرة.

كان تأثير الجائحة على القارة الأفريقية أكثر استدامة وأعمق جذوراً، ففي غضون عام واحد أوقفت ربع قرن من النمو الاقتصادي المطرد وتسببت في زيادة الفقر والتفاوت بين الناس.

ووفق رؤية زعماء أوروبيين وأخرين أفريقيين فإن القارة السمراء لا تملك الأدوات اللازمة للتعافي في أزمة ضخمة بقدر ما كانت غير متوقعة، وتقديرات صندوق النقد الدولي تشير إلى أن البلدان الأفريقية ستحتاج إلى 285 مليار دولار أميركي كتمويل إضافي حتى عام 2025، فلا توجد خطة أو آلية للتعافي لتأمين هذه الموارد، ولهذا السبب يدعون إلى الحاجة لإطار عمل جدد وصفقة طموحة وجريئة للوصول إلى لقاحات كوفيد - 19.

تحالفات كونية ضد الوباء

الحديث عن طرح «أولى جرعات اللقاح» يمكن أن يثير لدى أي إنسان الشكوك المتصلة بما يقال عن تفضيل شعوب على شعوب، وربما عرقيات وثقافات على غيرها، فيما يتصل بتوزيعه عندما يكون جاهزاً للاستعمال. ولكن جامعة أكسفورد البريطانية أعلنت، مطالع يونيو 2020، أنها تنسق مع أسترا زينيكا لضمان توزيع واسع ومتكافئ للقاح أكسفورد ضد كوفيد- 19، بعد أن تم عقد اتفاقات مماثلة بين الجامعة وبين ائتلاف الجاهزية والابتكارات لمواجهة الأوبئة ومع تحالف غافي، ومع معهد الأمصال الهندي SII.

واتفقت أسترا زينيكا مع ائتلاف الجاهزية ومع غافي على تخصيص سبعمائة وخمسين مليون دولار لتصنيع وتأمين 300 مليون جرعة من اللقاح وتوزيعها بنهاية العام 2020. كما اتفقت الجامعة وشركاؤها المُصَنِّعون على اتفاق ترخيص يتيح لمعهد الأمصال الهندي تأمين مليار جرعة للبلدان ذات المدخول المتوسط والمنخفض، مع التزام بأن تكون 400 مليون جرعة منها جاهزة قبل نهاية العام 2020.وتمثل الاتفاقات بين حكومتي الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وبين منتجي اللقاح، وشبكات الإمداد والتوزيع للقاح عبر العالم أساسا موثوقا لإنتاج ملياري جرعة من اللقاح.

كما تعد الاتفاقيات بين المنتجين وبين كل من غافي وائتلاف الجاهزية أول التزام تسويقي متقدم عبر مبادرة جماعة العشرين لتسريع الوصول لأدوات كوفيد- 19(ACT)"، وهي ألية كونية تترأسها مؤسسة بيل وميلندا غيتس ومنظمة الصحة العالمية، وأعلن عنها رئيسها المؤقت الوزير السعودي السابق للمال ثم للاقتصاد، محمد الجدعان، في الرابع والعشرين من إبريل من العام 2020. وسوف تعمل الآلية على ضمان التوزيع المنصف لقاح بين مختلف البلدان. وسوف يشرف ائتلاف الجاهزية على التطوير والتصنيع فيما تشرف غافي على التوزيع عبر الآلية الكونية المذكورة.

كيانات برزت مع الجائحة

منظمة الصحة العالمية

ولدت المنظمة في السابع من إبريل في العام 1948، كواحدة من منظمات الأمم المتحدة. وجاء ميلادها تتويجا لمسيرة طويلة من العمل في مجال الصحة العالمية، قد تكون بدايتها هي انعقاد المؤتمر الدولي للصحة في باريس في 23 يوليو من العام 1851. وقد كان مؤتمر باريس استجابة تباطأت أكثر من اللازم لأول ظهور للكوليرا في أوربا في العام 1831، ولما تلا ذلك من تساؤلات وتكهنات عن أسباب ومصادر الوباء وعلاقته بالصحة العامة وبالأحوال الجوية والبيئية عموما. وخلال تلك الأعوام العشرين كان تطور وسائط النقل قد أعطى دفعة كبيرة للتجارة الدولية وقرب بين أمم العالم على نحو كبير. ولهذا فقد شهدت لندن في انعقاد أول مؤتمر تجاري دولي، تدفق عليه ستة ملايين شخص من مختلف أنحاء العالم ليشهدوا معا منتوجات صناعية وحرفية من مختلف بلدان العالم.

ولم يسفر تقدم تقنيات النقل عن تدفق غير مسبوق للبضائع والبشر فحسب، بل وساعد على اتساع نطاق الأوبئة، التي وجدت مرتعا لها في الأحياء والبلدات الفقيرة والمكتظة بالعمال والفقراء الذين أثقلت كواهلهم الثورة الصناعية والتوزيع الجائر لثمراتها. وفي ذلك العام الذي شهد انعقاد مؤتمر الصحة وانعقاد معرض لندن الذي احتفى بثمار الثورة الصناعية ظهر كتاب هنري ميهيو» عمال لندن وفقراؤها» الذي يعد من كلاسيكيات الفكر الاجتماعي. ويعد ذلك الكتاب استكمالا لصورة رسمها كتاب سبقوه بتسع سنوات هو «تقرير عام حول الحالة الصحية لجمهور العاملين في بريطانيا العظمى» لإدوين تشادويك. ومن تلك الفترة، ولأن الكتابين صورا التناقض الصارخ بين فقراء عاصمة العالم الصناعي آنذاك وأثريائها وخطر ذلك على إنسانية لم يعد بوسع شعوبها التباعد والانعزال، بعضها عن بعض، فقد منحا قضايا الصحة العامة بعدا دوليا ظل يتصاعد، على التوازي مع اتفاقيات ثنائية بين

مختلف دول العالم لتنسيق التواصل والتبادل والتفاعل، بمختلف صوره .

وأسفر ذلك التصاعد عن تأسيس منظمات معنية بالصحة العامة مثل المكتب الدولي للصحة العامة Office International d)Hygiène Publique الذي أنشئ في باريس في العام 1907، والمنظمة الصحية التابعة لعصبة الأمم، بعد الحرب العالمية الأولى، وهي المنظمة التي ضمت" نخبة الاختصاصيين في الدراسات الصحية والطبية الحيوية وطورت مهنة الصحة العامة في فترة ما بين الحربين"طبقا لما جاء في كتاب"المنظمات الصحية الدولية في الفترة 1918-1939" الصادر ضمن مطبوعات كيمبريدج بريس. ثم بلغت هذه المسيرة ذروتها بتأسيس منظمة الصحة العالمية كجزء من مجموعة التنمية المستدامة التابعة للأمم المتحدة، وهي كونسورتيوم يضم 36 من الصناديق والبرامج والوكالات المتخصصة والأقسام والمكاتب التي تعمل في المجال التنموي. وقد نشأت المجموعة بقرار من الأمين العام للأمم المتحدة لزيادة فعالية الأنشطة التنموية للأمم المتحدة على المستوى القطري.

وينص دستورُ المنظمة، المُقَرِّرُ لبنيتها الإدارية ولمبادئها،على أن هدفها لارئيسي هو"تحقيق أعلى مستويات ممكنة من الصحة لكافة الشعوب". والمقر الرئيسي للمنظمة موجود في جنيف السويسرية، ولها ست مكتب إقليمية شبه مستقلة ومئة وخمسون مكتبا ميدانيا في مختلف أنحاء العالم، ويجري الاحتفال بذكرى تأسيسها، في مختلف الأقطار، باعتباره اليوم العالمي للصحة. وقد ألت إلى المنظمة أصول وأرشيفات المكتب الدولي للصحة العامة والمنظمة الصحية التابعة لعصبة الأمم، وكان بينها التصنيف الدولي للأمراض.

وتشمل صلاحيات المنظمة الترويج لمفهومات وممارسات وآليات الحفاظ على الصحة العامة، ورصد حالتها وتعيين ما يتهددها من مخاطر، وتنسيق الاستجابات للطوارئ الصحية، وتحسين صحة البشر وتقديم المعونة التقنية للبلدان وتقرير المعايير والمؤشرات الصحية الدولية وجمع البيانات المتصلة بقضايا الصحة العالمية عبر المسح الصحي العالمي.

وأهم مطبوعات المنظمة هو"تقرير الصحة العالمية" الذي يحتوي على تثمينات الخبراء لموضوعات متصلة بالصحة العالمية وإحصاءات عن الوضع الصحي في كافة بلدان العالم.

وللمنظمة تاريخ من الإنجازات أهمها اقتلاع مرض الجدري، والاقتراب بالعالم من اقتلاع شلل الأطفال، وتطوير لقاح ضد إيبولا. وبين أولوياتها الراهنة محاربة الأمـراض المعدية، وبخاصة مرض نقص المناعة المكتسب(إيدز) وإيبولا والملاريا والسل، وكذلك الأمراض غير المعدية مثل أمراض القلب والسرطان، كما تهتم بالتغذية الصحية وأمن الغذاء، وبالصحة المهنية وغير ذلك.

وتمثل جمعية الصحة العالمية WHA المؤلفة من ممثلي 194 دولة أعلى سلطة لاتخاذ القرار في المنظمة. وللمنظمة مجلس تنفيذي تشكله الجمعية بالانتخاب وتقدم له المشورة ويضم 34 عضوا من الاختصاصيين. وتعتمد المنظمة، من حيث التمويل، على مساهمات الدول الأعضاء(المقررة والطوعية) ومساهمات من متبرعين أفـراد. وتتقرر مساهمات الدول الأعضاء

وفق معايير من بينها إجمالي الناتج المحلي لكل بلد عضو. وفي العام 2018–2019 بلغت مساهمة الولايات المتحدة 15 % بالمئة من ميزانية المنظمة ومساهمة الاتحاد الأوربي 11 % ولم تزد مساهمة الصين عن 2,. بالمئة.

مؤسسة بيل وميلندا غيتس

قلما تجد منظمة أهلية تحظى باهتمام إعلامي على النحو الذي تحظى به منظمة بيل وميليندا غيتس. وهذه المنظمة هي منظمة أهلية أميركية مسجلة في سياتل بولاية واشنطن منذ العام 2000 وقد تكون الأكبر من نوعها في العالم، لكن دورها الأبرز في تحالف «غافي» المكافح ضد كورونا يعطيها أهمية متزايدة.

وتقدر أصولها في العام 2020 بستة وأربعين مليارا وثمانمئة مليون دولار. وقد حددت المنظمة لنفسها أهدافا في مقدمها، على المستوى الدولي، تعزيز الرعاية الصحية وخفض معدلات الفقر المدقع، وعلى مستوى الولايات المتحدة، توسعة فرص التعليم وفرص الوصول لتكنولوجيا المعلومات. والأمناء الثلاثة المتحكمون في المنظمة هم ثاني وثالث ناشط في المجال الخيري في الولايات المتحدة، من حيث حجم استثماراته في ذلك المجال، بيل غيتس وزوجته ميلندا، ومعهما الناشط الأول وارن بافيت.

وأهم ما يميز هذه المنظمة هو أنها المثال الأبرز، في العالم، على النشاط الخيري التجاري venture philan-thropy. وهو نوع من الاستثمار الذي يطبق مفهومات وتقنات التمويل الرأسمالي للمشروعات والإدارة التجارية بتحقيق أهداف خيرية، ويدعى هذا النشاط الاستثمار المؤثر impact investment، وهو مصطلح سبق إلى استخدامه جون روكفلر الثالث لوصف المقاربات التي تعتمد سعة الخيال والإقدام على المخاطرة في إدارة منظمات خيرية.

والاستثمار التأثيري هو ذلك الذي يستثمر بهدف تحقيق تأثيرات اجتماعية و/أو بيئية نافعة للمجتمع وللحضارة الإنسانية، مع تحقيقها عائدات مالية، على نحو يكرس المسؤولية المجتمعية لرأس المال.

لكن الصحافية جوليا بيللوز، التي توجه إنتقادات متتالية لرجال الأعمال الناشطين في المجالات الخيرية، ومنهم المؤسس المشارك لفيس بوك شون باركر الذي أطلق في أواخر يونيو من العام 2020 مشروعا خيريا للأغراض الصحية خصص له ستمئة مليون دولار، تنتقد أمثال آل غيتس، وتعتبرهم مناهضين للنظام الاجتماعي – السياسي القائم. وتطالب بيللوز بتشريعات جديدة تؤطر لنشاطات المنظمات الخيرية باستراتيجيات الدولة والمجتمع. وهي ترى أن القيود التي فرضتها التشريعات، في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، على حرية رجال الأعمال في نقل أموالهم الخاضعة للضرائب لمجالات أقل خضوعا للضرائب وللرقابة الحكومية والمجتمعية، لم تعد كافية بعد التصاعد الهائل في حجم نشاط ونفوذ هذه المنظمات.

وإذا كان صعود مؤسسة بيل وميلندت غيتس يثير تخوفات بيللوز فهو يثير عندنا التساؤل التالي: كيف ينسجم التصاعد الملحوظ لدور هذه المؤسسة مع ما يبدو من تصاعد في دور الدولة الوطنية ومع ما تشير إليه مؤشرات كثيرة من انتشار محتمل لشمولية لاتتحقق إلا بالتضييق على نشاطات المنظمات الأهلية؟

ائتلاف الجاهزية والابتكارات لمواجهة الأوبئة

هذا الائتلاف عضو في منظمة التعاون الدولي في أبحاث الجاهزية للأمراض المعدية. وظهرت فكرة الائتلاف في العام 2015 ثم تشكل بعدها بعامين، في مؤتمر المنتدى الاقتصادي العالمي. البداية كانت ورقة بحثية في مجلة نيوإنجلند جورنال أوف ميديسن، دعا مؤلفوها، وهم الباحث البريطاني جيريمي فارار، والطبيب الأميركي، مكتشف اللقاح ضد روبيللا، ستانلي بلوتكين، وخبير الأمراض المعدية عادل محمود، المصري الأصل والأميركي الجنسية.

وشارك في تأسيس الائتلاف منظمة بيل وميلندا غيتس التي ساهمت في تمويله بمبلغ 640 مليون دولار، شركة ويلكوم للأدوية وكتلة من حكومات النرويج واليابان وألمانيا، انضمت إليها بريطانيا في العام 2018 ثم الاتحاد الأوربي في العام 2018. والمقر الرئيسي للائتلاف موجود في أوسلو، بالنرويج. وفي 18 يناير من العام 2018 اعتبرت مجلة نيتشر Nature البريطانية أن قيام هذا الائتلاف هو "جهد هائل يستهدف تخليق مخزون من اللقاحات ضد جوائح وبائية في المستقبل". واعتبرت المجلة هذا الائتلاف "لاعبا رئيسيا في السباق على تطوير لقاح" ضد فيروس كورونا في العام 2019.

ولافت للانتباه أن نيتشر وضعت على رأس قائمة الفيروسات التي يعمل الائتلاف على الاستعداد لها بلقاحات قادرة على الحماية منها فيروس نيباه Nipah الذي قد تكون من أعراض الإصابة به الحمى والسعال والصداع وضيق التنفس والارتباك. ومتلازمة الشرق الأوسط التنفسية MERS، وحمى لاس Laasa fever ،موضحة أن هذه الفيروسات قد تتسبب بجوائح تشبه ما تتسبب به فيروسات سارس وإيبولا وزيكا.

تحالف غافي

يعرَّف هذا التحالف نفسه، بأنه «منظمة دولية» برزت في العام 2000 لتحسين الوصول إلى اللقاحات الجديدة والقليلة الاستعمال للأطفال في بلدان العالم الأشد فقرا». وهذه المنظمة التي تتخذ من جنيف السويسرية مقرا لها تضم مؤسسات أهلية وحكومية اتحدت إرادتها على تأمين اللقاحات للأطفال، حيثما كانت مواطنهم. وهذه المنظمة التي تتبع مقاربة جديدة بالنسبة لمكافحة الأمراض في العالم سبقتها إرهاصات في نهاية القرن العشرين، حين توقفت عن التصاعدِ جهودُ البحث عن اللقاحات. وعلى رغم النجاحات التي حققها البرنامج الموسع للتطعيمات EPI كان هناك ثلاثمئة مليون من أطفال العالم يعيشون في بلدان لاتستطيع تأمين لقاحات كافية لهم. كانت جهود التطعيم يحل بها الركود وربما التراجع. صحيح أن لقاحات جديدة قادرة على إنقاذ الحياة كانت مطروحة للاستخدام، إضافة للتطعيمات الستة الخاصة بالبرنامج الموسع للتطعيمات، لكن كل ذلك بقي بعيدا عن تناول أطفال البلدان الفقيرة، الأشد حاجة لهذه التطعيمات، لأنها كانت تفوق القدرة المالية لأسرهم وبلدانهم.

وما كان مطلوبا هو تبني مقاربة مختلفة، تمام الاختلاف. وهكذا فإن تعهد مؤسسة بيل وميلندا غيتس، في يناير من العام 2000، بالتبرع بمبلغ 750 مليون دولار على خمس سنوات ساعد على تخليق التحالف الدولي للقاحات والتطعيمات(غافي). وهذا التحالف يمثل

شراكة فريدة بين مؤسسات حكومية وأهلية ظهرت بهدف الجمع بين أفضل ما يمكن أن تؤمنه الوكالات التابعة للأمم المتحدة وللحكومات ولصناعة اللقاحات والقطاع الخاص والمجتمع الأهلي، بهدف توسيع نطاق تطعيمات الأطفال في البلدان الفقيرة وتحسين القدرة على الوصول للقاحات الجديدة.

تحالف الشركات المصنِّعة

تخلف مصنعي اللقاح عن تعهداتهم بتسليم الكميات المطلوبة، دفع بـ13 شركة تصنع اللقاحات لقيام تحالف جديد يوفر إحتياجات المجتمعات العالمية.

هذا التحالف يتكون من 13 شركة منها «نوفارتس» و«ميرك» و«سانوفي» ومن المتوقع أن ينتج هذ التحالف ملياري جرعة من اللقاح.

مسؤولو «بيونتيك» أكدوا أن هذا التحالف يشكل تحديا جديدا لهم. لأن لقاح «فايزر- بيونتيك» يستخدم تقنيات جديدة متطورة تتطلب مكونات وخبرات نادرة.

وذكر خبراء أن الطريقة المعقدة لتصنيع لقاح «فايزر»، التي تعتمد على تقنية «الحمض النووي الريبوزي المرسال»، أو «mRNA»، هي السبب في تراجع الإنتاج. وقالت «بيونتيك» إنها واثقة من أن التحالف سيسمح لها ولشركة «فايزر» بتحقيق هدفهما المتمثل في إنتاج ملياري جرعة في عام 2021. وبموجب الاتفاقية الأصلية، تزود شركة «بيونتيك» ألمانيا والصين وتركيا باللقاح، بينما تغطي شركة «فايزر» بقية العالم. حتى الآن، باعت الشركتان 500 مليون جرعة للاتحاد الأوروبي، و300 مليون إلى الولايات المتحدة، و120 مليون إلى اليابان، و110 ملايين للصين وأقاليمها، و40 مليونًا إلى المملكة المتحدة، و20 مليونًا إلى كندا.

كما تم بيع ملايين الجرعات في عقود غير معلنة مع دول الشرق الأوسط ودول أخرى، بالإضافة إلى بيع 40 مليون جرعة إلى تحالف كوفاكس.

وقالت المتحدثة باسم شركة «فايزر»، التي يعود تاريخها إلى ما يقرب من قرنين من الزمن ويعمل بها حوالي 100 ألف شخص، إن الشركة تصنع حاليًا 50 % من العنصر النشط لجميع الجرعات، بينما ينتج النصف الآخر بواسطة شركة «بيونتيك».

لم تتمكن المبادرة الدولية لمشاركة جرعات لقاح فيروس كورونا (كوفاكس) من تسليم الكميات التي تعهدت بها لمختلف دول العالم لتاريخ نهاية شهر أبريل 2021 بحيث لم تقم بتسليم سوى 20 في المائة من الجرعات التي اتفق على تسليمها، وهذا النقص في الانتاج سببه اعلان الهند فرض قيود على تصدير اللقاح الذي تنتجه محلياً بسبب تفشي الموجة الثانية من الوباء على أراضيها.

وبحسب المعلومات المنشورة على موقع المبادرة (كوفاكس) فقد تمكنت من توزيع أكثر من 40 مليون جرعة على مستوى العالم وهو ما يمثل نحو 20 في المائة فقط من الجرعات التي كانت تخطط لتوزيعها قبل نهاية شهر مايو 2021.

... وآخر، يجمع بين الصناعة والتمويل والخدمات

في موازاة تحالف الشركات العملاقة والمصنعة، بادر قادة الولايات المتحدة الأمريكية واليابان واستراليا

والهند عقد قمة طارئة في نهاية شهر مارس 2021 للعمل على تسليم مليار جرعة من اللقاحات في المحيطين الهندي والهادئ وهو ما فسره المراقبون بالتصدي للمبادرات التي اقدمت عليها كندا في الصين وروسيا في مجال توزيع اللقاحات. هذا الاتفاق جمع بين قطاع الصناعة في الهند ومصادر التمويل والخدمات اللوجستية والمساعدة التقنية في أمريكا واليابان وأستراليا.

سيكون إنهاء الوباء وتلقيح العالم أجمع التزاماً ضخماً، وهو يتوقف في معظمه على منشأة «كوفاكس»، وتحالف التلقيح «غافي»، الجناح التنفيذي للمنشأة. تأسس «غافي» بتمويل من مؤسسة «بيل وميليندا غيتس» منذ عشرين سنة ويُعتبر هذا الإنجاز تتويجاً لمقاربة اجتماعية شاملة تهدف إلى حل مشاكل العالم. كان التحالف مُصمماً في الأساس لتأمين اللقاحات لجميع دول العالم من خلال جمع عاملَي السرعة والمرونة في القطاعات الخاصة والمدنية مع ضخامة القطاع العام. لكن تبقى هذه المهمة ضخمة وتحتاج إلى شبكة الدعم التي استعملتها الولايات المتحدة خلال الأزمات الإنسانية السابقة مثل جائحة الإيدز، ووباء الإيبولا في عام 2014، وأمواج التسونامي في المحيط الهندي.

معهد الأمصال الهندي

المعهد الهندي للأمصال Serum Institute of India هو أكبر شركة لإنتاج اللقاحات في العالم من حيث كمية الجرعات. وقد أسس الشركة سايروس بوناوالا في العام 1966، كفرع من فروع الشركة القابضة بوناوالا للاستثمارات والصناعات.

في الثامن يوليو من العام 2020 نقلت الغارديان البريطانية عن الرئيس التنفيذي لمعهد الأمصال الهندي آدار بوناوالا أن اللقاح ضد فيروس كورونا سيكون جاهزا بنهاية العام، بعد إقرار اللقاح من قبل المنظم العام Drug Controller General للأدوية في الهند. وتعليقا على كتاب تلقاه المعهد الهندي للأمصال من المدير العام لمجلس لبحوث الطبية ICMR في الهند بضرورة التعجيل بطرح اللقاح ضد فيروس كورونا، قال المعهد «لانريد أن نستعجل شيئا. نريد ضمان السلامة للبشر والفعالية للقاح».

ويعمل المعهد على تطوير لقاح ضد انفلونزا الخنازير، كما نجح في تخليق لقاح ضد السعار بالتعاون مع مدرسة الطب في جامعة ماساشوسيتس الأميركية. والدور الهائل الذي ينتظر معهد الأمصال الهندي، هو مؤشر آخر على تعاظم دور المؤسسات الخاصة في الانتقال بالعالم – ومعه– إلى عالم ما بعد جاحة كورونا. فكيف سيبدو ذلك العالم؟

«صداقة اللقاح»... ذراع الدبلوماسية الهندية

وفي ظل الصراع الدائر بين الدول الصناعية المتقدمة وبعدما دخلت تعبيرات «قومية اللقاح» و«سباقات اللقاح» قاموس الأدبيات الرائجة، سلكت الهند خطاً مغايراً واتبعت بهدوء «دبلوماسية اللقاح» كما ينظر إليها ويراها. وكيل الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة وعضو البرلمان في حزب المؤتمر الوطني الهندي، شاشي ثارور، وذلك في دراسة أعدها بهذا الخصوص.

ومن خلال حملتها التي اطلقت عليها «صداقة اللقاح» شحنت مئات الآلاف من اللقاحات الهندية الصنع «كوفيشيد» المصنعة بموجب ترخيص من «اكسفورد – أسترازينيكا» إلى نحو ستين دولة.

الواقع أن الهند قوة صيدلانية عالمية، حيث تقوم بتصنيع نحو 20 % من كل الأدوية غير المسجلة الملكية وتمثل ما يصل إلى 62 % من إنتاج اللقاحات على مستوى العالم، ولهذا كانت سريعة الاستجابة عندما اندلعت الجائحة. قبل تطوير لقاحات كوفيد19، زودت الهند نحو 100 دولة بعقاري الهيدروكسي كلوروكوين والباراسيتامول، وأرسلت المستحضرات الدوائية، ومجموعات الاختبار، وغير ذلك من المعدات إلى نحو 90 دولة. وفي وقت لاحق، حتى قبل الموافقة على لقاح أكسفورد-أسترا زينيكا، اتخذ أدار بوناوالا، رئيس معهد سيروم الهندي المملوك للقطاع الخاص والذي يبلغ من العمر 40 عاما، قرارا جريئا بتصنيع اللقاح، وهي مقامرة بمليار دولار، وعندما وصلت الموافقات، تمكن معهد سيروم الهندي من تصنيع ملايين الجرعات، مما جعلها متاحة للحكومة لاستخدامها محليا أو تصديرها.

جرى شحن اللقاحات الهندية إلى أغلب البلدان المجاورة، بما في ذلك أفغانستان، وبنغلاديش، وبوتان، وسريلانكا، وجزر المالديف، وميانمار، ونيبال، وأيضا إلى مناطق أبعد، إلى جزر سيشل، وكمبوديا، ومنغوليا، وباسيفيك آيلاند، ومنطقة الكاريبي، وبلدان إفريقية، كما ساعدت اللقاحات في إصلاح العلاقات المتوترة مع بنغلاديش وتوطيد العلاقات الودية مع جزر المالديف.

تستخدم الهند قدرة الدولة في هذا القطاع بمهارة للإعلان عن بديل لهيمنة الصين الاقتصادية والجيوسياسية، وفي حين كانت الصين متكتمة في إصدار البيانات حول لقاحاتها، مما أدى إلى مجادلات حول فعاليتها، فقد نظمت الهند رحلات لسفراء أجانب لزيارة مصانع الأدوية في بيون وحيدر أباد.

ولا يقل التباين مع سلوك البلدان الأكثر ثراء إثارة للدهشة، فوفقا لمعهد الصحة العالمية التابع لجامعة ديوك، عملت البلدان المتقدمة التي تضم 16 % من سكان العالم- بما في ذلك كندا، والولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وكل منها ضمنت إمدادات كافية لتطعيم سكانها عدة مرات- على تأمين 60 % من إمدادات اللقاح العالمية لأنفسها، وتشمل بلدان أخرى تستحوذ على كَم من الإمدادات يتجاوز احتياجاتها المحلية أستراليا، وتشيلي، والعديد من بلدان الاتحاد الأوروبي.

يُبدي العالم قدرا كبيرا من الاهتمام بالهند في حين تتقاسم الإمدادات المتاحة لديها من اللقاحات مع غيرها من بلدان العالم، بدلا من اختيار المسار القومي المتمثل في منع الصادرات، كما عرضت الهند 1.1 مليار جرعة من اللقاح على برنامج كوفاكس التابع لمنظمة الصحة العالمية لتوزيع لقاحات كوفيد19 على البلدان الأكثر فقرا، وكما قال مودي في تغريدته على تويتر، «نحن معا جميعا في الكفاح ضد الجائحة، والهند ملتزمة بتقاسم الموارد والخبرات والمعرفة من أجل المصلحة العامة».

الفروق بين اللقاحات

مع الاعلان عن تقنية جديدة لإستخراج لقاح فيروس كورونا وهي تقنية MRNA والتي اعتمدتها شركتي «فايزر» و «موديرنا» الأميركيتين، أعلنت شركة موديرنا المتخصصة في مجال التكنولوجيا الحيوية، أنها تعمل على إختبار لقاحات جديدة تعتمد على تقنية «mRNA » ضد الفيروسات الأخرى، بما في

ذلك فيروس الانفلونزا وفيروس نقص المناعة البشرية «الايدز» وفيروس «نيباه» وفي هذا الشأن نشر موقع «الجزيرة نت» دراسة حول الفروقات بين اللقاحات المتوفرة بتاريخ الأول من فبرأير 2021:

1 - اللقاح «سبوتنيك في» (Sputnik V)

اسم اللقاح «سبوتنيك في» (Sputnik V)، وطوّره معهد جماليا في موسكو. واللقاح الروسي قائم على نواقل من الفيروس الغدي (Adenoviral vectors)، وتعد الفيروسات الغدية البشرية من الأكثر سهولة وبساطة بالنسبة لعملية التعديل، ولذلك اتسع نطاق انتشارها كنواقل.

و«النواقل» (vectors) هي حوامل يمكنها إيصال المادة الجينية من فيروس آخر إلى الخلية. وتتم إزالة المادة الجينية للفيروس الغدي الذي يسبب العدوى، بينما يدخل جين يحمل كودا «شيفرة» لبروتين من فيروس آخر، وفي الحالة الراهنة من فيروس كورونا المستجد، واسمه العلمي «سارس كوف 2».

وهذا المكون المضاف الجديد يساعد الجهاز المناعي في الاستجابة وإنتاج الأجسام المضادة التي تحميه من العدوى.

2 - لقاح أسترازينيكا-أكسفورد

هذا اللقاح طوّره المختبر البريطاني أسترازينيكا وجامعة أكسفورد «أسترازينيكا - أكسفورد» (AstraZeneca–Oxford)، والتقنية التي يستخدمها هي «النواقل الفيروسية» (Viral vector)، وفيها يستخدم فيروس آخر أقل ضراوة، يجري تحويله ليضاف إلى جزء من فيروس كورونا، ويتم إدخال الفيروس المعدل إلى خلايا الأفراد، التي تقوم بدورها بإنتاج بروتين نموذجي لـ«سارس كوف -2، وهو ما من شأنه دفع أنظمتهم المناعية إلى التعرف عليه.

ويستخدم لقاح أكسفورد–أسترازينيكا فيروسا غدانيا (Adenoviruses) كناقل فيروسي، في تقنية تشبه اللقاح الروسي ويعمل وفق مبدأ ناقل فيروسي وهو فيروس الشمبانزي وقد تم تعديله وراثياً للحد من تكاثره، كلفة الجرعة الواحدة تقارب 2,5 يورو وهو سهل التخزين، إذ يتطلب درجة حرارة بين 2 و 8 درجات وقادر على مكافحة السلالات الجديدة.

3 - لقاح فايزر-بيونتك

طوّرته شركة «فايزر» (Pfizer) الأميركية وشريكتها «بيونتك» (BioNTech) الألمانية، ويعمل على تقنية «الحمض النووي الريبوزي المرسال» (messenger RNA) أو «إم آر إن إيه» (mRNA) وهو جزيء يخبر خلايانا بما يجب أن تصنعه.

يتم حقن هذا اللقاح في الجسم، ويقوم بإدخال هذا الجزيء الذي يتحكم في آلية لتصنيع مستضد معين لفيروس كورونا «سنبلة» (spike)، وهو طرف مميز للغاية موجود على سطحه ويسمح له بالالتصاق بالخلايا البشرية لاختراقها. وسيتم بعد ذلك اكتشاف هذه السنبلة من قِبَل الجهاز المناعي الذي سينتج الأجسام المضادة، وستبقى هذه الأجسام المضادة لفترة زمنية معينة.

4 - لقاح مودرنا

هذا اللقاح طوّرته شركة مودرنا (moderna) الأميركية، ويستخدم لقاح مودرنا تقنية «الحمض

النووي الريبوزي المرسال» نفسها التي يستخدمها لقاح فايزر–بيونتك ويتكون من كبسولة دهنية تحتوي على اجزاء من الحمض النووي.

5 - لقاح شركة نوفافاكس

اللقاح طوّرته شركة نوفافاكس (Novavax) الأميركية. ويعتمد على إدخال جين معدل في فيروس يسمى الفيروس البكتيري (baculovirus)، وسمحوا له بإصابة خلايا الحشرات، وبعد ذلك جُمّعت بروتينات السنبلة «سبايك» من هذه الخلايا في جزيئات نانوية (nanoparticles) والتي في حين أنها تبدو مثل فيروس كورونا، لكن لا يمكنها التكاثر أو التسبب في «كوفيد– 19».

ويتم حقن هذه الجسيمات النانوية في الجسم عن طريق اللقاح حيث تؤدي لتشكيل الجهاز المناعي استجابة للجسم المضاد. وإذا واجه الجسم فيروس كورونا في المستقبل فإن جهاز المناعة يكون قادرا على صده.

6 - لقاح شركة جونسون آند جونسون

اللقاح طوّرته شركة «جونسون آند جونسون» (The Johnson & Johnson) الأميركية، ويعتمد على فيروس غدي معدل (modified adenovirus) –وهو فيروس شائع يسبب أعراضا شبيهة بالزكام– تم تصميمه لنقل أجزاء من المادة الوراثية من بروتين «السنبلة» (spike) الموجود في فيروس كورونا.

7 - لقاح شركة سينوفارم

من تطوير شركة سينوفارم (Sinopharm) الصينية، ويعتمد على فيروس معطل «خامل»، وقامت شركة سينوفارم بتطويره بالتعاون مع معهد ووهان لعلم الفيروسات ومعهد المنتجات البيولوجية، وذلك وفقا لتقرير في دويتشه فيله.

حماية «فايزر» و «موديرنا»

وجدت دراسة اميركية أن لقاحي «فايزر» و «موديرنا» قد يوفران حماية من فيروس كورونا لسنوات أو حتى مدى الحياة وأظهرت أن معظم الأشخاص الذين تم تطعيمهم بلقاحات الحمض النووي الريبوزي المرسى (mRNA) قد لا يحتاجون إلى جرعات إضافية معززة طالما أن الفيروس والسلالات المتحورة منه لا تتطور كثيراً.

ووجد الطبيب وزملاءه في الدراسة أن الخلايا المناعية التي تتعرف على الفيروس بقيت في أجساد أشخاص تعافوا من كورونا لمدة ثمانية أشهر بعد الاصابة.

وأوضحت أنه من الصعب التنبؤ بمدة المناعة باستخدام لقاحات «mRNA»، لكن في ظل غياب سلالات تستطيع الهروب يصبح نظرياً بالإمكان استمرارها مدى الحياة.

في موازاة ذلك كشفت دراسة نشرتها جامعة أكسفورد أن مدة زمنية من أشهر عدة بين الجرعتين الأولى والثانية من لقاح «أسترازينيكا» ضد فيروس «كورونا» تُحسن المناعة التي يؤمنها، معتبرة أنه عامل «مطمئن» للبلدان التي تواجه مشاكل في الحصول على اللقاح.

وأظهرت أن الفترة الزمنية التي تصل إلى 45 أسبوعاً بين الجرعتين تحسن الاستجابة المناعية للفيروس، ولا تقلل من فعالية اللقاح، علماً أن معظم الأبحاث كانت تفيد حتى الآن عن فترة تمتد إلى 12 أسبوعاً.

فعالية لقاحات فيروس كورونا المستجد

خلصت دراسة أجرتها جامعة أكسفورد إلى أن لقاح أكسفورد-أسترازينيكا يمكن أن يخفض انتقال كوفيد-19 بمقدار الثلثين، وهذه هي المرة الأولى التي أثبتت فيها دراسة أن اللقاح يقلل من انتشار الفيروس

فعالية لقاحات كوفيد-19 - تقديرات (%)

اعتماداً على البيانات الموقتة من التجارب السريرية في المراحل المتأخرة* (تاريخ بيانات الدراسة)

فايزر- بيونتك الولايات المتحدة وألمانيا	18 تشرين الثاني (نوفمبر) 2020	95
موديرنا الولايات المتحدة	30 تشرين الثاني 2020	94.1
سبوتنيك V روسيا	2 شباط (فبراير) 2021	91.6
نوفافاكس الولايات المتحدة	28 كانون الثاني (يناير) 2021	89.3
أكسفورد-أسترازينيكا بريطانيا - السويد	2 شباط 2021	82.4
جونسون أند جونسون الولايات المتحدة وبلجيكا	29 كانون الثاني 2021	**66
سينوفاك الصين	12 كانون الثاني 2021	***50.4

* بعض التجارب ما زالت جارية والنتائج لم تخضع لمراجعة الأقران. قد تختلف فعالية اللقاح باختلاف المتغيرات الجديدة لكوفيد-19

** الفعالية الشاملة. اللقاح كان فعالاً بنسبة 72% في التجارب الأميركية.

*** بناءً على تجارب البرازيل

أكسفورد-أسترازينيكا

إضافة إلى إظهارها التأثير على انتقال الفيروس، أظهرت بيانات التجربة أن اللقاح قدم فعالية بنسبة 76 في المائة من 3 إلى 12 أسبوعاً بعد الحقن، من دون انخفاض في القدرة على الحماية

ارتفعت الفعالية إلى 82.4 في المائة بعد تلقي الجرعة الثانية بعد 12 أسبوعا

المصدر: BBC, New York Times, Statista

الصور: جتي GRAPHIC NEWS جرافيك نيوز

تاريخ اللقاحات

التطورات الرئيسية على مدى القرنين الماضيين

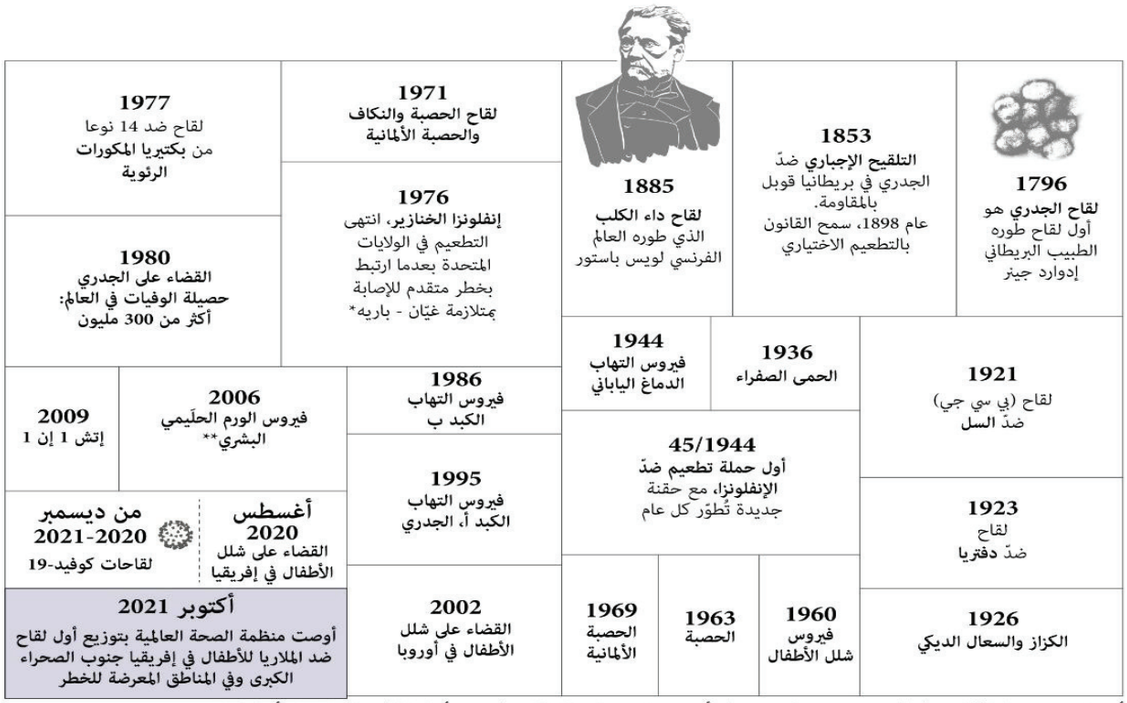

أدى فيروس نقص المناعة البشرية، الذي تم تحديده عام 1984 على أنه سبب الإيدز، إلى وفاة الملايين في جميع أنحاء العالم. حاليا، لا يتوفر أي لقاح له

المصادر: فرانس برس/منظمة الصحة العالمية/مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها/
historyofvaccines.org/برنامج الأمم المتحدة المشترك المعني بفيروس نقص المناعة البشرية، الإيدز

*اضطراب عصبي نادر **أكثر أنواع الأمراض المنقولة جنسيا شيوعا

AFP

الأمراض التي عصفت بالبشرية عبر التاريخ

في الوقت الذي لم يتوقف فيه بعد عداد فيروس كورونا عن حصد الأرواح في مختلف دول العالم، فإنه يُذكر بالعديد من الأوبئة التي كانت قد تركت أثراً مشابهاً عبر التاريخ، لما لها من قدرة على الفتك بحياة البشر قبل التغلب عليه بإشهار منتج دوائي أو لقاح وقائي، ومن هذه الأمراض والأوبئة:

1 الطاعون الأنطوني
انتشر في الإمبراطورية الرومانية بين عامي 165 و180م، قبل أن ينتشر بمختلف أنحاء العالم متسبباً في موت 5 ملايين شخص.

2 طاعون جاستينيان
ضرب العالم بين عامي 541 و542م، بدءاً من الإمبراطورية البيزنطية، وأودى حينها بحياة أكثر من 30 مليون إنسان.

3 الجدري الياباني
ظهر في عام 735م، في طوكيو، وانتقل بعدها إلى البلدان المجاورة وأدى خلال سنتين إلى مقتل حوالي مليون شخص.

4 الطاعون الدملي
يعرف بـ«الموت الأسود» أكثر الأوبئة فتكاً بالتاريخ، وانتشر بين عامي 1347 و1351م، وقضى على نحو 200 مليون شخص.

5 الجدري
استطاع أن يحصد أرواح 56 مليون شخص منذ أن ظهر في العام 1520م، كما تسبب بالعمى لملايين الضحايا.

6 الإنفلونزا الإسبانية
استطاعت الإنفلونزا الإسبانية أن تصيب ربع سكان العالم في العام 1918م، وتسببت بوفاة ما يقرب من 50 مليون شخص في عام واحد.

7 الإيدز
يعتبر الإيدز من أكثر الأمراض فتكاً على مر التاريخ أيضاً، ظهر في العام 1981م، وتسبب في موت 35 مليون شخص، وما زال منتشراً.

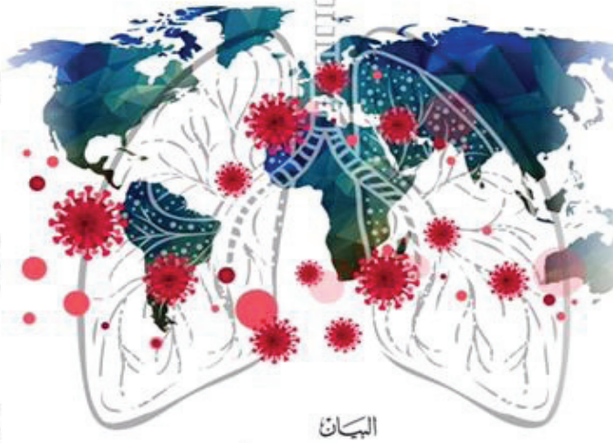

8 إنفلونزا روسيا
أدى انتشار وباء إنفلونزا روسيا، الذي ظهر بين عامي 1889 و1890م، إلى وفاة مليون شخص حول العالم.

9 الوباء الثالث
هو نوع متطور من الطاعون ظهر في العام 1855م، وانتشر في الصين، ثم في بقية أنحاء العالم، وحصد حياة 12 مليون شخص.

10 الكوليرا
أودت الكوليرا أو بما يسمى بالكوليرا الوبائية، بحياة مليون شخص حول العالم بين عامي 1817 و1923م.

البيان

إعداد: عبير يونس - غرافيك: محمد أبوعبيدة

كيف تعمل لقاحات mRNA

تحمل لقاحات الحمض النووي الريبي المرسال "Messenger RNA" تعليمات وراثية تمكّن الخلايا المستقبلة من إنتاج البروتينات التي تعمل على تنشيط جهاز المناعة

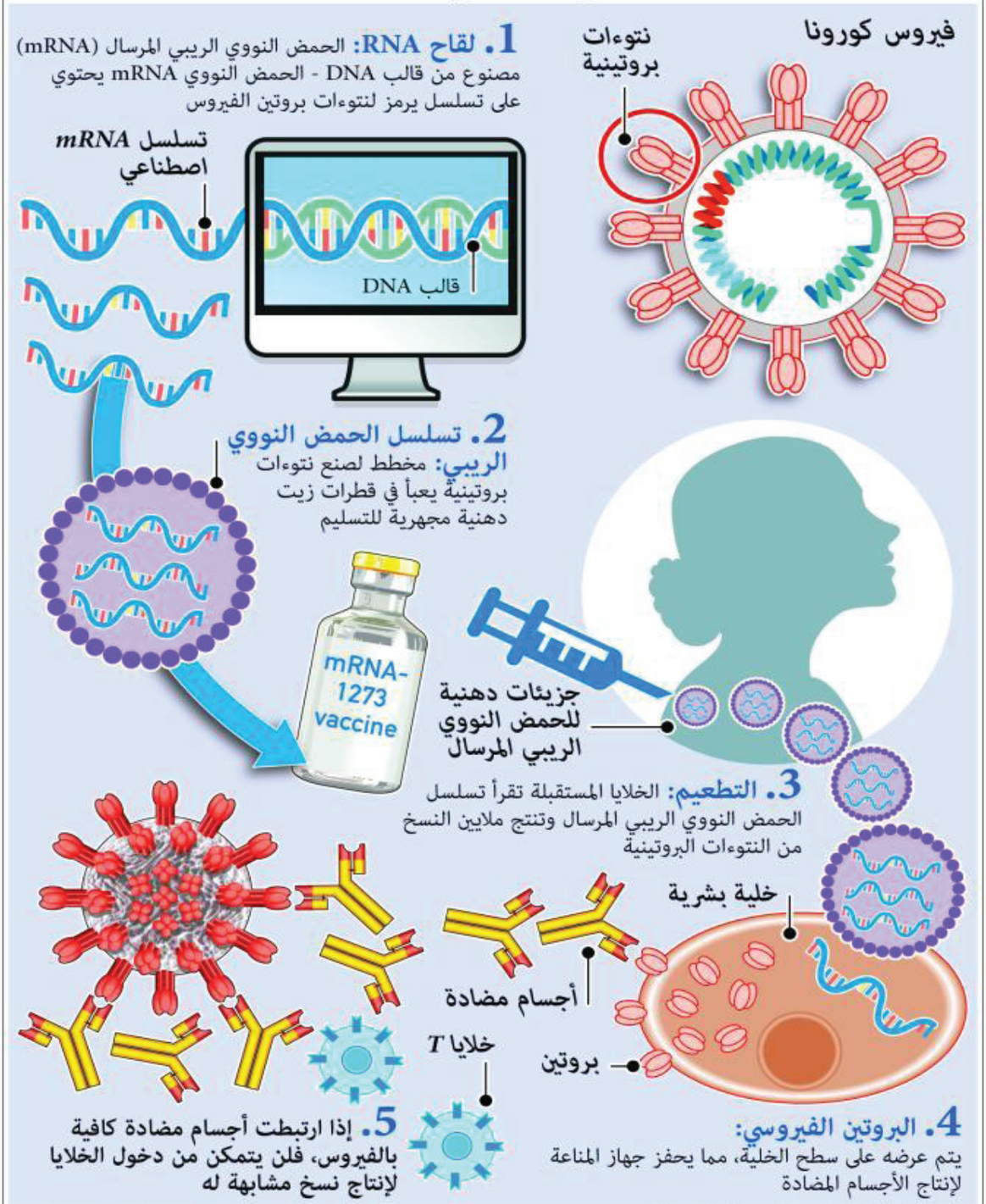

جرافيك نيوز GRAPHIC NEWS

المصدر: Pfizer, Moderna, Bloomberg, Reuters

الفصل السادس

الطواعين في المنطقة العربية

- الحضارات والطواعين
- نظرية الداء والدواء عند المسلمين
- تاريخ ابن حنين
- طبقات ابن جُلجُل
- البداية والنهاية لابن كثير
- كتاب الإفادة والاعتبار

الحضارات والطواعين

يرى آرنولد توينبي أن الحضارة تنشأ عبر واحدة من عمليات ثلاث، لخصها الأستاذ في جامعة لندن مهدي مظفري في كتاب» العولمة والحضارات» في فصل بعنوان «حضارة المسلمين بين المدينة وأثينا»، وجاء التلخيص على النحو االتالي:

- التحول التلقائي الذي يطرأ على مجتمع قبل الحضاري، أي لم يدخل بعد مرحلة التحضر
- تحفيز المجتمع قبل الحضاري للتحرك باتجاه التحضر بتأثير حضارة قائمة بالفعل
- تحلل حضارة واحدة أو أكثر، من الحضارات المنتمية لجيل أسبق وتشكل حضارة جديدة من عناصر تلك التي تحللت

ويعتبر مهدي مظفري أن الحضارة الإسلامية تنتمي للفئة الثانية: فئة الحضارات التي حفزتها حضارة قائمة للانتقال من الوضع قبل الحضاري (ما ندعوه المجتمع الجاهلي) باتجاه التحضر. لكن هذه الرؤية الميكانيكية للعلاقات بين الحضارة العربية قبل الإسلامية بحضارات يبرز بينها مظفري الحضارة اليونانية، تهمل دور الوحي القرآني، وهو أساس الحضارة العربية المسلمة، وهذا الوحي هو، من ناحية، مقدس لا يخضع لسياق تاريخي، وهو، من ناحية أخرى، قوة دافعة، أي ظاهرة تاريخية، مضت بالمسلمين لقطيعة

قفزت بسياق تاريخي تراكمي إلى تحول نوعي لاينكر، وبالتالي فهي ظاهرة تميزتاريخ الحضارة العربية عن ما سبقه.

وقد تضافرت عبقرية النص التأسيسي، مجسدا في القرآن والحديث، مع عبقرية اللحظة العربية التي عرفت كيف تستغل المجال الذي انفسح أمامها بتراجع الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية. وقد تكون المواجهة العربية لخطر الطاعون الذي بدأ في أربعينات القرن السادس الميلادي صورة من صور القدرة على مواجهة التحدي بما يزيد من قدرة الحضارة على الترقي والتمدد والتمكن، وفقا لما ذكره آرنولد توينبي بخصوص» التحدي والاستجابة» في دراسته العظيمة عن تاريخ العالم.

وقد استخدم توينبي ثنائية" التحدي والاستجابة" ليفسر الكيفية التي تنهض وتنهار بها الحضارات، وفقا لقدرتها على الاستجابة الصحيحة للتحدي. وبذلك فإن توينبي لم يستبعد التفسيرات التقليدية لقيام الحضارت وبزوغ نجمها ثم لتراجعها وغروب شمسها؛ لم يرفض ما كان –ولايزال – يقال عن أثر التحولات البيئية، وعن الصفات الموروثة في عرق من الأعراق وتلك التي يكتسبها بخبراته التاريخية المتلاحقة، وعن أثر الزعامة، وامتلاك مساحات معينة من الأرض أو موقع جغرافي مائز، ووفرة مورد أو موارد طبيعية. لم يرفض الربط بين هذه العوامل وبين صعود وهبوط الحضارات، لكنه وضع ما يتوفر عليه شعب من الشعوب من هذه العوامل في إطار ثنائية" التحدي والاستجابة" التي تقرر للنظام الاجتماعي حظه من النجاح أو الفشل.

وليس التحدي، مهما كان هائلا، سوى عامل طارئ ينطوي على إمكانية إعادة صوغ الحياة على نسق جديد: كزيادة هائلة في أعداد السكان، أو تدهور في الموارد التي يعيش عليها الناس، أو تحول في ظروف المناخ، أو وباء يضع قيودا على حركة شعب أو أكثر من شعوب العالم، فتستغل الفرصة شعوب أخرى ويتسع نطاق حركتها. أما الاستجابة فتُراوِح بين التقاعس وبين الإقـدام، بين التشبث بقديم لم يعد يصلح في الظروف الطارئة وجديد يبتكره أعلام العصر للمضي قدما بمجتمعاتهم وربما بالإنسانية كلها؛ وفي الحالة العربية فقد مضت الاستجابة العربية –التي سرعان ما تجاوزت العروبة لتصبح استجابة مسلمة متعددة النطاقات والأعراق واللغات، وإن بقي للغة القرآن موضعها البارز فيها – بالمجتمعات المسلمة وبالإنسانية كلها نحو آفاق واسعة، على نحو غير مسبوق.

وإذا كان مؤرخون غربيون كبار يربطون بين الجائحة الكونية الأولـى، سلسلة الطواعين التي ضربت العالم طوال مئتي عام بين القرنين السادس والثامن، وبين صعود القوة العربية، فحقيقة الأمر هي أن القرنين المشار إليهما شهدا قيام الامبراطورية البيزنطية وشهدا "بروزا جديدا" لبابوية روما وللرهبنة، ثم شهد انتصاف هذه الفترة بدايات الحضارة المسلمة والصعود المذهل للامبراطورية العربية، وفقا لما جاء في كتاب" الطاعون ونهاية القديم – الجائحة بين 541و750" الذي حرره المؤرخ الأميركي المتخصص في تواريخ القرون الوسطى ليستر نوكس ليتل. ومن الواضح، وفقا لهذا التسلسل، أن الجائحة كانت

الخلفية التي تحركت أمامها، واشتبكت مع تعقيداتها، قوى كونية كبرى تقرر مصيرها وفقا لقدرتها على الاستجابة الصحيحة.

سبقت الجائحة الكونية الأولى جوائح كونية لم يتفق المؤرخون على تشخيص أمراضها تشخيصا علميا يساعد على تصنيفها وإدراجها في سجلات الكفاح المتواصل من أجل بقاء وازدهار النوع الإنساني. من ذلك، مثلا، طاعون أثينا في العام 430 قبل الميلاد، وطاعون انتونين في زمن جالينوس، بين العامين 169 و194 الميلاديين، وهو طاعون اجتاح معظم مناطق الامبراطورية الرومانية. وفي هذين الطاعونين وغيرهما جرى تسجيل الجوائح، لاباعتبارها تجربة مباشرة عايشها من رصدوا أحداث تلك الأزمنة، بل باعتبارها أمورا سمعوا بوقوعها في حوض المتوسط. ومعظم ما كان يروى عن طواعين تلك الأزمنة كان يتصل بما جرى في مصر وليبيا، وبدرجة أقل في سوريا. وبدأ السرد العلمي المعتمد على وصف دقيق لأعراض المرض عندما ظهرت بوادر الطاعون في «الفرما» المصرية في العام 541، وفق الرواية التي يعتمدها المؤرخ الأميركي ليتل ومؤرخون كثيرون غيره، ومن «الفرما» انتقل إلى الاسكندرية، ومنها إلى القسطنطينية على مراكب القمح التي سكنتها الفئران المحملة ببراغيث تنقل الوباءإلى عاصمة الامبراطور جوستنيان الذي حمل ذلك الطاعون اسمه.

وفي موسوعة الموت الأسود يقول جوزيف بيرن إن النبي العربي وضع خطوطا استرشد بها المسلمون أيام الجائحة الكونية الأولى واسترشد بها العالم أيام الجائحة الكونية الثانية. فعلى الرغم من استمرار تأثر الأطباء اليونانين،بالنظريات الاكلينيكية الموروثة عن أبوقراط Hippocrates وجالينوس Galen ، فقد انتشر بين الشعوب المسيحية والمسلمة، منذ القرن السابع الميلادي الاعتقاد بأن الطواعين هي من عمل الرب، كما جاء في التوراة والإنجيل، وإضافة لذلك فقد تحولت التوجيهات النبوية إلى قواعد لاجدال في صدقيتها: فمن يموت من الكفار بسبب الطاعون هو مشرك يعاقبه الرب على الشرك بما سلطه عليه من وباء قاتل، أما المؤمن الذي يصرعه الطاعون فيموت شهيدا؛ ويحرم على من يسكنون منطقة موبوءة الخروج منها، ويحرم على الغرباء دخولها.

وقد ظهرت مقاربات عديدة إزاء المرض والتعافي في الثقافات المختلفة التي وحدبينها الإسلام. وكان بين هذه المقاربات ما يعود إلى تقاليد فلكلورية وممارسات سحرية سابقة على ظهور الإسلام. ومزج الناس بين هذه المقاربات والممارسات وبين الطب النبوي الذي يقوم على الحديث والسنة، واختلطت بذلك كله عناصر من تقاليد علمية فارسية ومن طب الأيورفيدا الهندي ومن الطب اليوناني المنسوب إلى أبوقراط وجالينوس ومن جاء بعدهما من أطباء العصور السابقة على الزمن الوسيط.

ويعود الموروث الطبي الشفاهي عند العرب وشعوب الشرق الأدنى و شمال إفريقيا، وهو موروث متصل بالمرض والتعافي، إلى مصادر متنوعة، تشمل التنجيم وطب الأعشاب والأساطير والشعوذة والخبرات اليومية. وقد تنوعت التفاسير والعلاجات والتوقعات – تفاسير الأعراض وربطها بمسببات ملموسة أو خفيَّة، والعلاجات المقترحة، والمتوقع من مادة معينة أو من ممارسة معينة، بخصوص تخفيف الأعراض أو الشفاء منها – تنوعا كبيرا بحكم التنوع

الإثني لشعوب المسلمة على امتداد الرقعة الفسيحة للعالم المسلم، لدرجة يصعب معها الحديث عن نظام متكامل ومتناسق للطب المسلم.

وامتاز المعالجون بإحدى الصفتين التاليتين، أو بالاثنتين معا: قوة الشخصية الكاريزمية، والانتساب إلى عائلة مارست الطب عبر الأجيال، مع استيعاب للتقاليد الموروثة، والقدرة (المفترضة أو المزعومة) على السيطرة على الجن (أو على الأرواح الشريرة) وعلى قراءة الطالع، والتمكن من تدوين التعاويذ التي ظن الناس (من المرضى والمعالجين، على السواء) أنها تضمن الحماية وتكفل لحاملها الشفاء، أو معرفة المواد النباتية أو المعدنية الأقدر على قهر المرض.

ولأن المعالجين بحثوا في الأحاديث النبوية عن ما يمكن أن تستند إليه ممارساتهم الطبية وعلاجاتهم المقترحة فقد بقي الطب العربي أقرب إلى أن يكون إرشادا أخلاقيا وسلوكيا منه إلى نص علمي تعتمد عليه الممارسات الطبية، وكان الممارسون، في الغالب، فقهاء وقضاة أكثر مما كانوا أطباء، وكثيرا ما كانت تثور بينهم الخلافات والصدامات.

وبزحف المسلمين شرقا، تمكنوا من اجتياح الامبراطورية الفارسية التي أنهكها النضال على جبهتين: نضال ضد البيزنطيين، ونضال ضد الطاعون. وآل إلى الامبراطورية العربية الصاعدة موروث علمي وطبي كونه الفرس بجهدهم الذاتي وبالاحتكاك الثقافي والعلمي مع الهنود واليونانيين الذين كانت لديهم الخبرات التجريبية والمعارف النظرية المتراكمة إضافة إلى المواد العلاجية المجربة والتي يشار إليها باسم materia medica .

وتصعد بنا الخطوط الإرشادية النبوية التي أشار إليها جوزيف بيرن إلى مستوى لم يدركه بيرن نفسه. صحيح أنه أشار إلى أثرها الذي امتد، زمنيا، إلى الجائحة الكونية الثانية، وهي جائحة استمرت من القرن الرابع عشر حتى الثامن عشر، واتسع مدى هذا الأثر فلم يعد قاصرا على المسلمين بل شمل مختلف شعوب الأرض، بعد أن أصبحت حضارة المسلمين حضارة عالمية بلغت ذروة قوتها في القرن السادس عشر. لكن الغرق في تفصيلات النظريات والموروثات الشعبية الطبية والممارسات المستندة إليها عند شعوب مسلمة في مختلف بقاع الأرض، ينسينا أمرا بالغ الأهمية أشار إليه هنري لورانس في كتاب " الحملة الفرنسية في مصر: بونابرت والإسلام"، وهو أمر يفسر العقلية العلمية – التجريبية التي تشف عنها الخطوط الإرشادية النبوية التي تحدث عنها بيرن. قال لورانس إن التنوير الذي عرفته أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر استند إلى ثلاثة أسس: الحكمة وهي مصرية، والمواطنة وهي يونانية، والعلم وهو عربي. هذا الأمر البالغ الأهمية – وهو النظرة العلمية المستندة إلى التجربة وإلى الملاحظة والاستنتاج – موجود في الخطوط الإرشادية النبوية التي ألمح إليها جوزيف بيرن.

وتجد أساس العلم عند العرب في خطاب قرآني يربط بين العلة والمعلول، وإن اعتبر المصدر النهائي للاثنين إرادة إلهية يمكن للبشر أن ينسجموا معها وأن يفهموا كثيرا من قوانينها الحاكمة للوجود المادي. ومع تأكيد القرآن على أن قكرة العقل البشري محدودة بحدود رسمتها المشيئة الإلهية فكل من خلق الله وما خلق الله مدعوون لتوسعة متواصلة لآفاق وجودهم:

كيف تعامل المسلمون مع الأوبئة

"يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تَنْفُذوا من أقطار السموات والأرض فانْفذوا؛ لاتَنْفُذون إلا بسلطان".

وقد واصل المسلمون الصعود حتى القرن السادس عشر الذي كانت السيادة على العالم فيه تقتسمها الامبراطوريات المسلمة الثلاث: العثمانية في البلقان والصفوية في بلاد فارس والمنغولية في الهند ، وهي امبراطوريات البارود، بحسب التسمية التي أطلقها على الامبراطوريات الثلاث المؤرخان الأميركيان مارشال هودغسون ووليم ماكنيل.

وطوال عصور الازدهار، استفاد الأطباء المسلمون، يقول بيرن، من المخطوطات البيزنطية والترجمات السوريانية، ومن أعمال أبوقراط وجالينوس وغيرهما، فاستوعبوا ما فيها وأضافوا إليه مما اختاروه أو مما وجدوه متوافقا مع الموروث البيزنطي من الموروثات العربية والفارسية والهندية. ويعتبر بيرن أن الطب العربي، في أفضل صوره، كان جالينوسية معدلة.

ويقول بيرن إن الأعمال الموسوعية الكبرى مثل كتاب" القانون " لابن سينا هي تغطية ممنهجة لمساحات واسعة من النظرية ومن التقانات الطبية استهدفت تعليم المبتدئين وتذكرة الممارسين في مجال الطب. وقد كان للمرجعية، في الطب المسلم كما في الطب الغربي، الموقعُ الذي يعلو على التجربة أو الخبرة. وهكذا فقد تعين على من يريد أن يؤهل نفسه لممارسة الطب أن يبدأ بقراءة الأعمال المهمة التي وضعها الثقات، أو بأن يتدرب على يدي طبيب

ممارس، أو بالالتحاق بواحد من البيمارستانات، حيث يكون تحت إشراف واحد من الخبراء.

وأول مدرسة للطب هي، على الأرجح، تلك التي عرفت باسم البيمارستان النوري، الذي أسسه الملك العادل نور الدين زنكي في قلب مدينة دمشق ، ويعد واحداً من ثلاثة بيمارستانات اشتهرت بها المدينة . وقد بني المستشفى، بالأساس، لصالح المساكين والفقراء، ثم تحول ليصبح واحـداً من أشهر المستشفيات ومدارس الطب والصيدلة في البلاد الإسلامية، وقد تعلم فيه كبار الأطباء من أمثال ابن سينا والزهراوي. وزار ابن جبير البيمارستان في القرن الثاني عشر فقال: الأطباء يبكرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم. وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج.

نظرية الداء والدواء عند المسلمين

وننقل هنا ماقاله أنطوني فاوتشي عن الطب العربي في القرن السابع الميلادي، مشيرين إلى أمرين اثنين:

- أننا نتحدث عن طب عربي وليس كما يقول فاوتشي عن طب إسلامي، لأننا تعلمنا من ما أخرجه مسلم عن أنس بخصوص تلقيح النخل أن الرسول قال لمن يلقحون النخل»أنتم أعلم بأمور دنياكم».
- أن الطب العربي ورث كثيرا عن العصور السابقة على ظهور الإسلام، ثم صبت معارفه ومكتشفاته في المجرى العام للتجربة الإنسانية وصار جزءا منها، بل وتجاوز معها قديمه الذي تجاوزته الأيام.

ولعل القارئ يعرف من هو أنطوني فاوتشي الذي عمل منذ العام 1984 مديرا للمعهد القومي الأميركي للحساسية والأمراض المعدية، ثم انضم، في يناير من العام 2020، لكبارمعاوني الرئيس دونالد ترامب من الخبراء في قوة العمل المسؤولة عن مكافحة فيروس كوفيد- 19 في الولايات المتحدة. وقد وصفت كل من مجلة نيويوركر وجريدة «نيويورك تايمز» فوتشي بأنه «أحد الشخصيات الطبية الأجدر بالثقة في الولايات المتحدة».

وفي موسوعته المعنونة "الأوبئة والجوائح والطواعين" يقول فاوتشي إن الطب في بلاد المسلمين تشكل بقوة موروثات طبية عديدة ومتنوعة. ومع اتصاله الوثيق بالطب الإغريقي – الروماني، من حيث النظرية والممارسة، فقد تأثر الطب في تلك الأصقاع أيضا بالمعتقدات والممارسات التي سادت وعرفها العرب قبل الإسلام؛ وبما يشار إليه باسم الطب النبوي؛ وبالمعتقدات والممارسات الهندية. وبدوره ترك طب المسلمين أثرا عميقا على الطب الأوروبي في بواكير تاريخه.

وعصر ازدهار المعارف الطبية عند العرب هو القرن التاسع الميلادي، عندما شجع أمراء بني العباس جهود الترجمة عن اليونانيين القدماء إلى السوريانية ومنها إلى العربية. وقام بالجهد الأكبر في هذا المجال علماء نسطوريون وأطباء في بلاط الحكام العباسيين. وأهم مترجمي تلك الفترة هو حنين بن اسحق. وبناء على تلك الترجمات ظهرت شروح وتعليقات وتطويرات وتنقيحات وإضافات، فصارت بغداد مركز العلوم الطبية في العالم.

نستأذن قليلا من فاوتشي لنطل على بغداد، كما يرسم صورتها جواهرلال نهرو في كتابه" لمحات من تاريخ العالم"، لنجده يتحدث عن ما فيها من القصور الضخمة ومكاتب الحكومة والمدارس والكليات وعن حدائقها العامة ومكاتب البريد فيها ومتاجرها الضخمة ومستشفياتها الكثيرة المزدحمة بالمرضى والأطباء.

وأكثر ماجعل بغداد جديرة بالاهتمام لدينا نحن أبناء وبنات هذا العصر، كما قال نهرو، هو ما نشأ فيها من طلب للعلم، والعلم أمر بالغ الأهمية بالنسبة للعالم الحديث. والعلم لا يكتفي بأن يصلي من أجل أن يحدث هذا الأمر أو ذاك، بل هو يسعى إلى الكشف عن المسببات التي تكفل حدوث ما يريد له المرء أن يحدث. فهو يجرب ويحاول، مرة تلو الأخرى. فينجح ويفشل، ولا يكف عن المحاولة. وخطوة تلو الأخرى تتراكم وتنمو المعرفة الإنسانية.

ويقول نهرو: في العالم القديم لا نجد العلم عند المصريين أو الصينيين أو الهنود. نجد أقل القليل منه عند اليونانيين القدماء ولم نجده عند الرومان. لكن العرب كانت لديهم روح البحث العلمي، ولهذا، فبوسعنا أن نعتبرهم آباء العلم الحديث. تعلموا الكثير من الهند، في أمور بعينها، مثل الطب والرياضيات. جاء كثير من علماء الهند ورياضييها إلى بغداد وذهب كثير منم طلاب العلم العرب إلى جامعة تاكشاشيلا في شمال الهند، وكانت جامعة متخصصة في الدراسات الطبية. وترجم العرب إلى لغتهم كثيرا من النصوص السنسكريتية المتخصصة في الطب وفي غيره من العلوم. تعلم العرب أشياء كثيرة من حضارات أخرى. أخذوا صناعة الورق، مثلا، عن الصينيين. لكنهم انطلقوا من ذلك الذي نقلوه إلى اكتشافاتهم الخاصة التي لازال لها أثرها القيم. صنعوا أول تلسكوب وصنعوا بوصلة البحار. وفي مجال الطب، انتشرت سمعة عظماء الأطباء والجراحين العرب في مختلف أنحاء أوروبا.

ويمد نهرو بصره عبر العالم المسلم القروسطي، فيتحدث عن مدن كانت مراكز حضارة مبهرة في تلك الحقبة، مثل قرطبة والقاهرة والبصرة والكوفة، مستدركا، بالقول"لكن كانت بغداد تشمخ فوق كل هذه المدن التي ذاع صيتها، فهي عاصمة المسلمين، وعين العراق، ومقر الامبراطورية، ومركز الجمال والثقافة والفنون"

نترك نهرو ونعود إلى فوتشي وهو يواصل الحديث عن بغداد كمركز للمعرفة الطبية في عالم القرن التاسع الميلادي، فيشير إلى مسار مواز للمعرفة الطبية المنطلقة إلى أوسع الآفاق، من اعمال ديسقوريدوس وجالينوس وغيرهما من اليونانيين والهنود. تمثل المسار الموازي بما يدعى الطب النبوي الذي زاحم الطب العلماني الوثني. واعتمد ذلك الطب على ما كتبه فقهاء الإسلام، الذين لم يبحثوا في القرآن والحديث عن ما يعارضون به الطب، فهم لم يعارضوا المنهج العلمي ولم ينفروا من الطب؛ لكنهم – يقول فوتشي، ونرى نحن أنه محق – أرادوا أن يضفوا على الطب مسحة مسلمة. وعلى رغم الانتشار الواسع للطب النبوي بين العامة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، يقول فوتشي، يصعب أن نحدد مدى التزام الأطباء المسلمين في تلك القرون به.

ولمزيد من الاقتراب من طب القرون الوسطى في العالم المسلم نصغي لأصوات أربعة من أهم من كتبوا عن الطب آنذاك، في مؤلفاتهم الرئيسية وهي :

- كتاب تاريخ الأطباء والفلاسفة لإسحق بن حنين، وهو أقدم نص في بابه في المشرق العربي
- وكتاب طبقات الأطباء لابن جُلْجُل، وهو أقدم نص في بابه في المغرب العربي الأندلسي
- وكتاب البداية والنهاية لابن كثير وما جاء فيه عن طاعون عمواس
- وكتاب رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، وما جاء فيه عن الجائحة الكونية الثانية.

تاريخ ابن حنين

نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة كتاب طبقات الأطباء لابن جلجل في العام 1955 وحققه أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية فؤاد سيد. وفي ذيل هذا الكتاب ألحق المحقق كتاب تاريخ الأطباء والفلاسفة لإسحق بن حنين. وأوضح المحقق أن ابن حنين استقى كتابه ذاك من تاريخ يحيى النحوي.

عثر المحقق على نسخة مخطوطة من كتاب ابن حنين تقع في ورقات مكتوبة بخط دقيق للغاية كانت ضمن مجموعة طبية كتبت في سنة 811هجرية بقلم طبيب يدعى سليمان بن الأسعد الذي أقر بأنه نقل ما نقل عن نسخة قديمة غير واضحة، معتمدا في ما نقله على التخمين، في حالات كثيرة، سائلا المولى أن يحميه من الزلل. ويوضح المحقق أن ابن النديم نقل في كتابه الشهير»الفهرست» عن ابن حنين الذي نقل بدوره، كما أشرنا، عن يحيى النحوي.

ويتضح من النص أن الكتاب وضعه ابن حنين بتكليف من وزير في الدولة العباسية هو أبو الحسين ولي الدولة، بعد خلاف بين اثنين من أقطاب العصر حول بدايات الطب وأقدم الأطباء. ويقسم ابن حنين مؤرخي الطب، حتى العصر الذي عاش فيه، إلى قسمين:

- قسم يرى الطب محدثا لأن الأجسام البشرية والحيوانية محدثة
- وآخر يراه قديما لقدم الأجسام.

وينقسم القسم الأول قسمين

- يرى أحدهما أن الطب خلق مع خلق الإنسان
- ويرى الآخر أنه جاء بعده.

وهذا القسم الأخير ينقسم بدوره قسمين:

- يضم القسم الأول من يؤمنون بأن الطب جاء إلهاما من الخالق، أي عرفه الإنسان بفطرته. ونضرب نحن مثالا على تلك المعرفة الغريزية بما قيل عن بعض أنواع الأورانغ أوتان وكيف تعالج التهاباتها الجلدية باستخدام أوراق نبات موجود في بيئتها الطبيعية، تمضغه حتى تخرج منه طبقة رغوية تدهن بها المناطق الملتهبة من جلودها، وفقا لما ذكره مورغان إريكسون ديفيز في تقرير له في الرابع من ديسمبر من العام 2017 على الموقع news.mong-abay.com. وقد سبق هذا التقرير بعدة سنوات تقرير تناقلته وكالات الأنباء عن هذه الكائنات

البدائية ذاتها في غابات إفريقيا وكيف أنها تعالج نفسها من الانفلونزا بمضغ نبات مر الطعم، يظهر على وجوهها الاستياء من مرارته وهي تمضغ أوراقه، لكنها تواصل المضغ بقصد الاستشفاء. وقال ذلك التقريرإن شركة أدوية ألمانية استولت على المنطقة التي ينمو فيها هذا النبات واحتكرت إنتاج العقاقير منه.

- اما القسم الثاني فيرى أن للطب أصلا تاريخيا، أي أنه ظهر ضمن رصد البشر للعلاقة بين أجسامهم وبين محيطها الطبيعي والمستحدث. ويرى البعض، وفقا لما ذكره ابن حنين، أن أسبق الناس إلى اكتشاف أسرار الطب هم"أهل مصر". وينسب إلى هرمس أنه"استخرج سائر الصنائع والفلسفة؛ والطب هو مما استخرجه". ونرجح نحن أن ابن حنين لايقصد هرمس اليوناني الذي هو الصورة الإغريقية لتحوت المصري، بل يقصد هرمس الهرامسة أو هرمس الثلاثي العظمة Hermes Trismegistus، الذي يرى البعض أنه النبي إدريس عليه السلام المذكور في القرآن الكريم، في سورة مريم"واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا". وفي"البداية والنهاية" يقول ابن كثير" وهذا ذكر إدريس ، عليه السلام ، بالثناء عليه ، بأنه كان صديقا نبيا ، وأن الله رفعه مكانا عليا . وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة" . ويذكر ابن حنين أن هناك من يرى أن الفرس هم من وضعوا أسس الطب كما عرفته البشرية على مر العصور فيما ينسب آخرون هذا الفضل إلى الهنود، وينسبه غيرهم إلى الصقالبة وهم السلافيون في وسط أوروبا وشرقها. والأهم أن ابن حنين يرى أن بداية اكتشاف الطب كانت مع تبين الأثر الشافي للمزمار والطبل، حينما كان المعالجون»يشفون بتلك التوقيعات آلام النفس، وشفاءآلام النفس مما يشفى به البدن».

وهذا أمر بالغ الأهمية لأنه يربط بين آلام النفس، والعلاقة بين النفسي والاجتماعي هي علاقة وثيقة. – وقد يكون مصدر آلام النفس اضطراب أوضاع المعيشة أو اضطراب الأوضاع العامة، على نحو يسبب الشقاء للفرد – وبين المرض. ويرتبط ذلك القول الذي صدر عن ابن حنين بأحدث ما توصلت إليه البشرية، كما سيتبين من طروحات تالية.

ويتجاوز ابن حنين كل هذه المجادلات النظرية ليبحث عن بداية الطب كعلم وفن وحرفة عند الفقيه (من شراح أرسطو) واللغوي والمؤرخ يحي النحوي أو يوحنا السكندري أو جون فيلوبونوس المتوفى في العام 570 ميلادية، والمشهور بلقب»محب التعب lover of toil أو diligent" وأفضل ترجمة لهذا اللقب برأينا هي" المجتهد". ويعتبر النحوي أن الطب بدأ مع اسقلبيوس الأول وبلغ ذروته مع جالينوس. ويحتل أبوقراط مكانة بارزة عند النحوي، ويلفتنا هنا ما نسبه إليه النحوي من أنه"قوَّى صناعة القياس والتجربة" ونحن نرى أن "صناعة القياس والتجربة" هي ركيزة العقل العربي المسلم في كل العصور، وتجد صورتها الأولى في العقل المصري القديم.

طبقات ابن جُلجُل

ثم نأتي إلى كتاب طبقات الأطباء والحكماء لأبي

داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل، الذي يتفرد كتابه عن الكتب التي ظهرت قبله في المشرق العربي باعتماده على أصول لاتينية في حين اعتمد المشارقة على أصول يونانية فارسية وهندية.

ويذكر ابن جلجل أنه لم يكن في الأندلس لغاية أميرها عبد الرحمن ابن الحكم (وهو من تدعوه المصادر العربية عبد الرحمن الأوسط وتدعوه المصادر الإفرنجية عبد الرحمن الثاني852-886) سوى أطباء مسيحيين، ثم ظهر بعد ذلك أطباء مسلمون تتابع ظهورهم حتى جاء الطبيب الوزير يحيى بن اسحاق الذي مارس الطب وألف فيه أيضا. ويحيى ابن اسحاق مسيحي تحول إلى الإسلام وهو من وضع كتاب الابريسم في خمسة مجلدات، وهو أخذ الاسم من كتاب أبوقراط أفوريسم أو الفصول واسمه اللاتيني هو Aphorismi. ويعترف ابن جلجل بفضل المشارقة وبأهمية ما ترجموه عن اليونانية، ما يعزز القول بأن الثقافة المسلمة في القرون الوسطى هي، بالأساس، حلقة بين اليونان القديمة وبين الحضارة الغربية الحديثة بما ترجمته عن اليونان القديمة ،وطورته ووضعته في إطار نظرة عقلانية للعالم تعتمد في تفاعلها مع الحياة والطبيعة، كما أوضحنا، على القياس والتجريب، بأكثر مما تعتمد على التفكير المجرد، وإن أحاطت كل ذلك بإطار خلقي ذي منبع إيماني يقر بالغيب، أوبمحدودية القدرة الإنسانية على النفاذ من أقطار الوجود إلا بما شاءت به الإرادة الإلهية.

ومن المصادر التي اعتمد عليها وذكرها ابن جلجل

- عهد أبوقراط
- النواميس لأفلاطون
- الأمراض العسرة لجالينوس
- قاطاجانيس لجالينوس (وننقل نحن عن الطبيب الأندلسي ابي القاسم الزهراوي Abulcasis الذي يقال له"أبو الجراحة الحديثة" أن قاطاجانيس هو بصلة الفأر المقوية للقلب والمعالجة لالتهابات الأغشية المخاطية)
- ينبغي للطبيب أن يكون فيلسوفا لجالينوس(وهذا الربط بين العلم التجريبي والطبيعي وبين الإنسانيات بالغ الأهمية)
- الأدوية الطبية لجالينوس

وأخيرا، نقول عن ابن جلجل أنه لا يعمد إلى الإسناد والعنعنات، بل ينسب ما يورده إلى مصدر موثوق من معاصريه سمع منه أو سمع مَنْ، مِنَّ نقل عنه مباشرة. ويستثنى من ذلك خبر واحد يشكك المحقق فؤاد سيد في نسبته لابن جلجل.

البداية والنهاية لابن كثير

يهمنا عند ابن كثير ما أورده في الجزء السابع من مصنفه الشهير» البداية والنهاية» عن طاعون عمواس الذي فشا في السنة السابعة عشرة أو السنة الثامنة عشرة للهجرة. ويذكر ابن كثير أنه مات في تلك الجائحة ما بين 25ألفا وثلاثين ألفا من البشر من مختلف الأعمار. ويصعب علينا أن نعتد بأي إحصاءات أو تقديرات منقولة عن مصادر ذلك العصر، لكننا نعتبر أن ما قاله ابن كثير هو – بالنسبة لنا، ولانجزم بشئ يتصل بتحديد دقيق لعدد ضحايا ذلك الطاعون – إشارة عامة إلى

ضخامة الكارثة. ومن أبرز من مات في هذا الوباء أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم من كبار الصحابة ويشار إلى ذلك الطاعون، عبر القرون، باسم قرية فلسطينية «يقال لها عمواس، وهي بين القدس والرملة، لأنها كانت أول ما نجم الداء بها، ثم انتشر في الشام منها فنسب إليها، فإنا لله وإنا إليه راجعون".

وفي ذلك الجزء من « البداية والنهاية» ينقل ابن كثير عن سيف بن عمر عن شيوخه أنهم قالوا: لما كان طاعون عمواس وقع مرتين لم ير مثلهما، وطال مكثه، وفني خلق كثير من الناس، حتى طمع العدو، وتخوفت قلوب المسلمين لذلك.

قلت: ولهذا قدم عمر بعد ذلك إلى الشام فقسم مواريث الذين ماتوا لما أشكل أمرها على الأمراء، وطابت قلوب الناس بقدومه، وانقمعت الأعداء من كل جانب لمجيئه إلى الشام ولله الحمد والمنة.

ويروي ابن كثير كيف أن عمر بن الخطاب وصل إلى الشام فتلقاه أمراء الأجناد، أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وخالد بن الوليد وأبلغوه بانتشار الوباء في الشام، فاستشار عمر المهاجرين والأنصار فاختلفوا في الأمر، فمنهم من قال: أنت جئت لأمر فلاترجع عنه. وقال غيرهم: لانرى أن تمضي بوجوه أصحاب رسول الله، أي بصفوة الصفوة، إلى حيث انتشر الوباء. ويقال إن عمر أمر الناس بالرجوع من الغد. فقال أبو عبيدة : افرارا من قدر الله؟ فرد عليه عمر قائلا: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت إذا هبطت واديا ذا عدوتين إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة، فإن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن أنت رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله. ثم قال: لوغيرك يقولها ياأبا عبيدة.

قال ابن اسحق في روايته وهي في صحيح البخاري: وكان عبد الرحمن بن عوف متغيبا في بعض شأنه، فلما جاء قال : إن عندي من ذلك علما، سمعت رسول الله يقول"إذا سمعتم به بأرض قوم فلاتقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارا منه.

وكما أوضحنا من قبل فما قاله عمر مبررا به قراره العقلاني، وما نقله عبد الرحمن بن عوف عن النبي العربي تأكيد على عقلانية راسخة حكمت المواجهة العربية لذلك الوباء.

ويقول ابن كثير: قال سيف بن عمر، بعد ذكره قدوم عمر بعد طاعون عمواس في آخر سنة سبع عشرة : فلما أراد القفول إلى المدينة في ذي الحجة منها، خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا إني قد وليت عليكم وقضيت الذي علي في الذي ولاني الله من أمركم إن شاء الله، فبسطنا بينكم فيأكم ومنازلكم ومغازيكم، وأبلغناكم ما لدينا، فجندنا لكم الجنود، وهيأنا لكم الفروج، وبوأنا لكم ووسعنا عليكم ما بلغ فيؤكم، وما قاتلتم عليه من شامكم، وسمينا لكم أطعماتكم، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم.

فمن علم منكم شيئا ينبغي العمل به فليعلمنا نعمل به إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

قال: وحضرت الصلاة، فقال الناس: لو أمرت بلالا فأذن. فأمره فأذن، فلم يبق أحد كان أدرك رسول الله وبلال يؤذن إلا بكى حتى بل لحيته، وعمر أشدهم بكاء، وبكى من لم يدركه لبكائهم ولذكره النبي.

عبد اللطيف البغدادي ورحلته إلى مصر

ثم يقول ابن كثير: قال سيف: وأصاب أهل البصرة تلك السنة طاعون أيضا، فمات بشر كثير وجم غفير، رحمهم الله ورضي عنهم أجمعين.

قالوا: وخرج الحارث بن هشام في سبعين من أهله إلى الشام، فلم يرجع منهم إلا أربعة.

فقال المهاجر بن خالد في ذلك:

من يسكن الشام يعرس به ❊ والشام إن لم يفننا كارب

أفنى بني ريطة فرسانهم ❊ عشرون لم يقصص لهم شارب

ومن بني أعمامهم مثلهم ❊ لمثل هذا يعجب العاجب

طعنا وطاعونا مناياهم ❊ ذلك ما خط لنا الكاتب

ولنتذكر أن الإمام عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير وضع مصنفه هذا قبل العام 774 الميلادي الذي توفي فيه، وأنه عالج في كتابه هذا ما بلغه من أخبار قديمة " من خلق العرش والكرسي والسماوات، والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجن والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام وقصص النبيين وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه».

ثم يقول:

ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا، ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة. ثم البعث والنشور وأهوال

القيامة، ثم صفة ذلك اليوم وما في ذلك اليوم وما يقع فيه من الأمور الهائلة.

فالكاتب طموح، يبدأ من ماقبل التاريخ، بل من ما فوق التاريخ ومايتجاوز التأريخ، ويمر بالماضي والحاضر، إلى ما بعد التاريخ، إلى ما بعد الزمان. وهو ينبه قارئه إلى أمر يراه بالغ الأهمية:

فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم.

وقد حققت له الأيام ما طلبه من تصديق الناس لأخباره وتعظيمهم لآثاره.

ونبحث عن عمواس عند الأديب والشاعر الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المشهور بياقوت الحموي، في الجزء الرابع من مصنفه معجم البلدان(ص 157)الذي اشتغل عليه بين العامين 1220 و1224الميلاديين لنجده ينقل عن الزمخشري أن عمواس تنطق بكسر العين وسكون الميم(عِمْواس) وهي كورة من فلسطين قريبة من بيت المقدس. ونقل عن البشاري إنها كانت القصبة – مركز العمران – في فلسطين في الزمن القديم، ثم تقدم الناس إلى السهل والساحل طلبا لمياه الآبار، لأن عمواس على حد الجبل. ويقدر المهلبي، في ما نقله الحموي، موقعها بستة أميال من الرملة، واصفا إياها بأنها كانت ضيعة جليلة.

ويقول الحموي: ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمربن الخطاب رضي الله عنه، ثم فشا في أرض الشام فمات فيه خلق كثير لا يحصى من الصحابة رضي الله عنهم ومن غيرهم في سنة 18 للهجرة.

ثم يقول: وفي هذه السنة كان عام الرمادة بالمدينة أيضا. وهذا يذكرنا بحقيقة ارتباط الطاعون بتأزم الأوضاع الاقتصادية، لأن الطاعون ضرب الأمصار فقل الوارد منها إلى مركز السلطة في المدينة، ولأن الطاعون عطل حركة التجارة وسد أبواب الرزق، كما يحدث في كل جائحة كبرى.

كتاب الإفادة والاعتبار

وننتقل من صدر الإسلام، من زمن عمر بن الخطاب، إلى نهاية القرن الثاني عشر مع كتاب»الإفادة والاعتبار الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» لعبد اللطيف البغدادي، وهو الكتاب الذي اشتهر باسم رحلة البغدادي في مصر. وعن البغدادي يقول خير الدين الزركلي في الأعلام:

عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، موفق الدين، ويعرف بابن اللباد، وبابن نقطة: من فلاسفة الإسلام، وأحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والبلدان والأدب. مولده ووفاته ببغداد.

أقام مدة بحلب، وزار مصر والقدس ودمشق وحران وبلاد الروم والحجاز وغيرها.

وحظي عند الملوك والأمراء. وكان دميم الخلقة قليل لحم الوجه، قويّ الحافظة. له من الآثار «الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار» و«قوانين البلاغة» و«الإنصاف بين ابن بري وابن الخشاب» في كلامهما على المقامات، و «الجامع الكبير» في المنطق الطبيعي والالهي، عشر مجلدات، و«بلغة الحكيم» و«الكلمة في الربوبية» و «الحكمة الكلامية» و «تهذيب كلام

أفلاطون» و «القياس» أربع مجلدات، و «السماع الطبيعي» و «غرب الحديث» و «المغني الجلي» في الحساب، و «التجريد» في اللغة، و «ملخص مقالات التاج » في الحلية النبويّة، و «شرح أحاديث ابن ماجة المتعلقة بالطب» واختصر كتبا كثيرة، منها الحيوان للجاحظ، وكتاب في النبات، وكتب رحلات وصف بها أسفاره والبلدان التي زارها.

وله رسائل صغيرة سماها «مقالات» منها «النفس» و«العلم الإلهي» و«الماء» و«العادات» و«حقيقة الدواء والغذاء» و«الحواس» و«النفس والصوت والكلام» و«المدينة الفاضلة» و«العلوم الضارة» و«تزييف ما يعتقده ابن سينا» و«إبطال الكيمياء» و«اللغات وكيفية تولدها» و«القدر».

وترجع أهمية نص البغدادي إلى ما ذكره محقق كتابه (الطبعة الثانية في سلسلة الألف كتاب الثانية المصرية، في العام 1998) الدكتورعبد الرحمن عبد الله الشيخ من أن البغدادي هو، بالأصل، طبيب. وقد ارتبط الطب حتى القرن الثالث عشر الميلادي، كما يقول المحقق، بعلم الاقرباذين أو الصيدلة. وهذا العام مرتبط بدوره بالنبات الذي كان يأتي منه معظم الدواء، ولهذا جاء الفصل الثاني من المقالة الأولى من الكتاب، وهو الفصل المختص بالنبات، حافلا بالتفصيلات والتحليلات.

وحدثنا فيه البغدادي عن «البذور والجذور والسوق [سيقان النباتات] والأوراق». وبين ما كان يستخدم من هذه النباتات للتداوي وما كان يستخدم منها للطعام، أو للزينة. واستعان البغدادي في حديثه عن النباتات والأدوية بمصادر منها:

- كتاب جالينوس في مفردات النباتات
- كتاب الأدوية المفردة لحنين بن اسحاق
- كتاب الفائدة لابن سيرامون
- كتاب النبات لابن جلجل
- كتاب الأدوية المفردة لخلف بن عباس الزهراوي
- كتاب المستغني للإسرائيلي

وما يلفت انتباه من يطالع هذه القائمة هي عولمة المعرفة وتجاوزها للفواصل الدينية والعرقية، على رغم ما سنبينه لاحقا من تحيزات عرقية عند البغدادي. وينوه المحقق بالتزام البغدادي بأصول العلم العربي المسلم عندما يربط بينه وبينه وبين علامة النبات والصيدلة ابن البيطار بقوله «وقد اعتمد ابن البيطار– كما اعتمد البغدادي من قبله – على المشاهدة والملاحظة والتجربة بالإضافة للنقل والسماع».

ولأن البغدادي طبيب وعالم وأديب فقد اكتسبت مشاهداته بمصر أيام الوباء أهمية باقية على مر العصور، وهو يبدأ سرد التفصيلات البشعة المتصلة بالوباء بسرد ما جرى في سنة خمسمئة وخمسة وتسعين من الهجرة، وهي من السنوات التي نشب فيها الخلاف على الملك بين ولدي السلطان صلاح الدين بن أيوب، وهما الأفضل والعزيز، بعد وفاة الأب السلطان. وعن هذه السنة يقول الدكتورأحمد الشامي في كتابه"صلاح الدين والصليبيون: تاريخ الدولة الأيوبية" إنه في أواخر شهر المحرم من سنة 595 من الهجرة توفي الملك العزيز بن صلاح الدين صاحب ديار مصر. وعلى رغم أن المؤرخين يربطون

موته بسقوطه عن فرسه وهو في رحلة صيد يطارد ذئبا، إلا أنهم يذكرون أيضا أنه مات محموما.

وقد كانت سنة الوباء هذه ذروة أزمة بدأت في العام 592 مع انخفاض منسوب مياه النيل، فنقصت الغلال وتكالب الناس على طلب الخبز ولم يجدوا منه إلا القليل. وقد فشت الأوبئة والأمراض فهلكت المواشي، وكثرت الأموات وبقيت جثثهم مطروحة على الطرقات لاتجد من يدفنها، وزاد عدد الوفيات في القاهرة عن مئتين في اليوم الواحد. ويفسر الشامي تدهور الأحوال بماحدث من نزاع في البيت الأيوبي بين العزيز عثمان وأخيه الأفضل علي، ومكائد ودسائس عمهما الملك العادل التي فاقمت الخلافات بينهما لمصلحته هو. وشغل ذلك كله الملك العزيز عثمان عن إصلاح الأمور الاقتصادية.

اقترنت المشكلات السياسية بأخرى اقتصادية فانفجر وباء عظيم في قلب مجاعة رهيبة، فأكل بعضُ الناسِ بعضاً. وقص علينا البغدادي من تفصيلاته ما تقشعر له الأبدان.

ويلفت النظر أيضا أن البغدادي يلصق بامرأة سوداء تهمة الوحشية وأكل لحم البشر. وعلى رغم نفور محقق كتاب البغدادي وهو الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ من مجرد التسليم بصحة هذه التفصيلات، في بداية تعليقه عليها، فسرعان ما يذهب إلى تبرير القول بصحتها بنسبتها لعناصر بشرية غريبة على البلاد وعلى ثقافتها العربية المسلمة. فيقول:

"وإذا علمنا أن هذه المجاعة المصحوبة بالأوبئة رغم فظاعتها (لدرجة أنها تركت قرى كاملة خالية من أي بشر) لم تكن هي الأولى من نوعها في التاريخ الإسلامي على الأقل كما أشرنا في موضع آخر من هذه الموسوعة، لاتضح لنا أن مصر كانت في وضع يسمح لها باستقبال هجرات من الجنوب، سواء على شكل تسلل إرادي سلمي أو على شكل استجلاب رقيق... وقد أحضر هؤلاء معهم تراث الثقافة البدائية بما في ذلك أكل لحوم البشر".

ويمضي المحقق لأبعد من ذلك ولأغرب منه، فيقول:

"ولكن هذا، على أية حال، سرعان ما تلاشى بفعل التأثيرات الحضارية والدينية المصرية العريقة. ومع هذا فقد ظل مخزونا في اللغة والتعبيرات، فالحديث عن بلاد نمنم ظل يتردد لفترة طويلة على لسان الأمهات والجدات، والتحذير من نساء سوداوات لهن ذيول ظل يتكرر في بعض البيئات"

ثم يركز على بلد عربي بعينه وعلى رجل دولة مصري من القرن العشرين بكلام لا نحب أن نخوض في تفصيلاته التي نستنكرها، والنص موجود لمن يريد الرجوع إليه. ويختم المحقق تعليقه على هذا الجزء من كتاب البغدادي بقوله:"وقد ظل إنكار وجود ظاهرة، أكل لحوم البشر، بين القبائل الإفريقية مسألة بدت ضرورية، خاصة في مرحلة التحرر الإفريقي، لكن الحقيقة أن هذه الظاهرة كانت قائمة لتشير إلى مرحلة مرت بها البشرية". وهو هنا، وفي مواضع أخرى، يبتعد بالتهمة البشعة، هَوْنَاً ما، عن جنس بعينه، ليعتبرها طورا بدائيا من أطوار الحضارة البشرية على تنوع أعراقها.

الفصل السابع

الموت الأسود:
طاعون القرن الرابع عشر وموروثه الباقي

- الحضارة المشرقية
- أطروحة المركزية الصينية
- تتابع الطواعين في الشرق العربي
- كورونا تضعف العولمة

الحضارة المشرقية

في نهاية الفصل السابق، والذي عرضنا فيه لتاريخ الأوبئة في المناطق العربية، أشرنا لميل الطبيب والعالم والرحالة العربي القروسطي عبد اللطيف البغدادي، في كتاب الإفـادة والاعتبار في الأمـور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر إلى أن ينحي باللائمة، ولو جزئيا، على ثقافات غير عربية وغير مسلمة، وعلى سلوكيات طبقات بعينها، وهو يرصد بشاعات وقعت بسبب اقتران الوباء بمشكلات اقتصادية وسياسية عقب رحيل السلطان صلاح الدين بن أيوب. وأشرنا إلى موقف محقق كتابه هذا، في نهايات القرن العشرين، من الانحيازات العرقية والطبقية للكاتب القروسطي.

وهذا الشكل من التحيز يمكن أن نشير إليه بلفظ "الآخريَّةothering" أو التركيز على اختلاف الآخرين لدرجة الميل إلى وضعهم في خانة الأشرار المقابلة لخانة الأخيار التي ننفرد نحن بسكناها أو بالتقوقع داخلها، وهي لاتعدو كونها صورة مثالية عن الذات وخوفا من مجرد الاختلاف. وقد عالَجَت هذه القضيةَ في سياق الجائحة الكونية الراهنة آن مونغوفن، وهي المديرة المساعدة لأخلاقيات الرعاية الصحية في مركز ماركولا للأخلاقيات التطبيقية(أي لدراسة الممارسات ذات الصلة بالقيم الخلقية)في جامعة سانتا كلارا بولاية كاليفورنيا الأميركية، في بحث نشره موقع المركز تحت العنوان" الآخرية: الشرير والطيب وفيروس كورونا"(23مايو من العام 2020).

وبدأت مونغوفن بحثها بالتساؤل:

«هل نحن نواجه فيروسا مستجدا، فيروسا عولميا، أو فيروسا أجنبيا صينيا؟ هل كوفيد- 19 هو سارس جديد، أم انفلونزا موسمية جديدة؟ هل نحن في حالة حرب، أم في حالة جديدة من حالات النضال؟ كيف يتشابه كوفيد- 19 مع تهديدات عامة أخرى مثل أحداث الحادي عشر من سبتمبر أو العواصف الهائلة من نوع تسونامي وما شابه، من تلك التي تميز عصر الاحترار الكوني أو يختلف عنها؟"

ثم تنتقل الباحثة لمستوى أوضح من التمهيد لما تريد طرحه، بقولها «اللغة مهمة. والتشبيهات مهمة. والبشر تصوغ الاستعاراتُ طبيعتَهم. وفي تضمين ينطوي على تناقض مميت جرى دمغ كوفيد19-بقدر يزيد أو يقل من الآخرية في الشبكات البلاغية الواسعة الانتشار والبالغة التأثير. (ونحن نستخدم الآخرية) هنا استخداما مجازيا يشير لكيفية تحديدنا لموقع شئ ما بالنسبة إلى شئ سواه.

وإذا كان عبد اللطيف البغدادي قد وقع في الآخرية عندما كان العرب والمسلمون على قمة العالم في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، فإن مونغوفن تشير إلى وقوع الغرب الأطلسي في أمر مشابه وهو المتربع على قمة العالم منذ قرون. وبوسعنا أن نقول إن الخطيئة ذاتها تتكرر على كر القرون في الغرب والشرق. وسوف نجد شكلا آخر من الآخرية في المعالجات التي عاصرت الجائحة الكونية الثانية التي ضربت العالم في القرن الرابع عشر عندما جاء التجار الجنويون محملين بالوباء من موانئ في منطقة القرم، وبعدها انتشر الطاعون في مختلف أنحاء أوروبا، ليحصد أرواح الملايين.

وينتقل بنا كتاب"الأوبئة والتاريخ: المرض والقوة والامبريالية» الذي وضعه شيلدون واتس وترجمه أحمد محمود عبد الجواد(2010) إلى ذلك المستوى من الآخرية، حين نقرأ في مقدمة المترجم عن "علاقة

الامبريالية بانتشار الأمراض الوبائية في مناطق جديدة لم تكن موجودة فيها من قبل، وكيف استخدمت الامبريالية مفهوم مقاومة تلك الأمراض الوبائية كأداة ضمن أدوات الامبريالية العديدة التي تمكنت بها من اختراق الغرب لدول إفريقيا وآسيا والأميركتين".

وعلى الرغم من ذلك يلاحظ مترجم كتاب الأوبئة والتاريخ أن المؤلف واتس، حتى وهو ينزع إلى كشف عنصرية الامبريالية وانحطاطها الأخلاقي لدرجة لاترعوي معها عن استخدام أي سلاح لإخضاع الشعوب غير البيضاء، يتورط هو نفسه في عنصرية منهجية تمنعه من الإقرار بفضل الشرق المسلم في مساعدة أوروبـا، بعد أن ورثت علوم هذا الشرق المسلم، على مقاومة الموت الأسود حين هاجمها وهي في طريق الصعود إلى أعلى مراتب القوة والثراء.

فبعد المرحلة التي أطللنا عليها مع عبد اللطيف البغدادي، بعد انتصاف القرن الثاني عشر الميلادي، عادت إلى أوروبـا أفواج طلابها الذين درسوا في المعاهد العلمية العربية، حاملين معهم ترجمات للأعمال العلمية العربية من المستوطنات العربية في طليطلة الاسبانية وساليرنو وباليرمو الصقليتين، كما عاد الحجاج المسيحيون والفرسان الصليبيون من المشرق ومعهم كل "المدهشات التي انجزتها تلك الحضارة الثمينة والفائقة والمرتكزة إلى عناصر التحضر".

وبين كل ما تدفق على الغرب من نفائس الشرق في تلك الفترة يركز المترجم في مقدمته على رسالة ابن الحطيب العلمية والمنطقية وعلى مؤلفات ابن الخطمية والرازي، موضحا أن "الطب العربي كان المبتكر الرئيسي للنظرية العامة للعدوى، ولعلم الأوبئة بمعناه الحديث" وأن الأطباء المشارقة من مسلمين ومسيحيين ويهود يعملون في إطار المجتمع المسلم آنذاك، هم الذين وضعوا مفهومات" مقاومة الأمراض الوبائية واختراع الحجر الصحي، وهي المفاهيم التي انتقلت إلى مدن الشمال الإيطالي" وهي المفاهيم التي ركزت على انتقال العدوى عبرالاختلاط مع استبعاد ما كان شائعا بين الأوربيين، آنذاك، عن أثر النجوم وغيرها في نشر العدوى.

ويقول عن جيل جديد من الأطباء الإيطاليين قي فجر عصر النهضة، وهو جيل استوعب المناهج التجريبية العربية، إنهم" شكلوا قوة الضغط الجديدة في الاستشارات الطبية للمجالس الصحية في مدن الشمال الإيطالي، واستعانت بهم هذه المجالس لتقرير الإجـراءات لمقاومة الطاعون، وهم الذين حظوا بمساندة من الكاردينال جاستيدالي الذي صب جام غضبه على الأطباء الجامعيين من أتباع طب جالينوس". ثم يشير إلى أن تلك المجالس الطبية لم تكتف بنقل الخبرة من المؤلفات العلمية ومن خبرات من تتلمذ من الأوروبيين على العرب فاستقدمت الأطباء والخبراء العرب واستعانت بهم لوضع إحراءات مقاومة الطاعون موقع التنفيذ.

لكن المؤلف شيلدون واتس لا يعطي الحضارة المشرقية حقها. يقول المترجم عن مؤلف الكتاب :

«وعندما ينسب المؤلف، وهو أستاذ للتاريخ، اختراع مقاومة الطاعون إلى المدن الإيطالية من دون أن يشير ولو بكلمة واحدة إلى رسالة ابن الخطيب أو إلى أقوال الرازي فهو يشكل علامة استفهام كبيرة، وعندما ينسب

مقاومة الطاعون في مدن الشمال الإيطالي إلى هجرة المدرسين من بيزنطة نتيجة لسقوط القسطنطينية، وإلى ظهور الإحيائية وظهور فكرة أيديولوجيا النظام، فهو ينكر وجود أي علاقة بين تطبيق إجـراءات مقاومة الطاعون وبين الطب العربي».

ومن دون الانتقاص من أهمية ما وجهه المترجم للنص الذي قام بترجمته من انتقادات، فنحن نجد في انتقاداته هذه أسس التفاوت بين الحضارة العر بية وهي في طريقها لنعاس أبدي وبين الحضارة الأوربية وهي تصعد إلى ذرى القوة المادية والروحية. والأسس التي حددها المترجم، وهو خبير بالنص الذي ترجمه عن أستاذ تاريخ له مكانته، هي :

- النقل الإبداعي
- الإحيائية
- أيديولوجيا النظم

وإضافة لهذه الأسس نجد في مقدمة المترجم وفي الكتاب نفسه الإطار العام للحضارة الغربية بنسختيها الأوروبية، التي كانت لها السيطرة المطلقة على العالم حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، والأطلسية أو الأميركو – أوروبية المهيمنة إلى اليوم، وهذا الإطار هو الآخرية : تقرير موضع كل حضارة من حضارات العالم –حتى نهاية الحرب العالمية الأولى – في ضوء قربها من القيم الأوروبية أو بعدها عنها. وهذا هو جوهر المركزية الأوروبية Eurocentrism. وبعد الحرب العالمية الأولى، بدأت المركزية الأوروبية بالتراجع لصالح المركزية الأميركية، واكتسبت الآخرية، الأوروبية المنشأ والتي فضحها إدوارد سعيد في كتابه الشهير «الاستشراق» طابعا أميركيا يفضحه اليوم منتقدو دونالد ترامب، داخل الولايات المتحدة وخارجها. فهل اختفت المركزية الأوروبية تماما؟ هل هي موجودة اليوم إلى جوار المركزية الأميركية، كشريك، كنقيض، كمنافس لها؟ هل هي ذاتها المركزية الأميركية ولكن مع تعميق للبعد الأنكلوساكسوني على حساب المكونات الأخرى للمركزية الأوربية، مثل اللاتينية، والإغريقية والسلافية؟ هذه أسئلة تمضي لأبعد من موضوعنا. لكن المؤكد أن بدايات وعي أوروبا بتميزها كانت مع بداية الجائحة الكونية الثانية التي جاءت من الشرق فقوت نزعة الأوروبيين لتمييز أنفسهم عن هذا الشرق الذي جاءت منه النفائس المادية والمعنوية وجاء منه أيضا الموت الأسود.

الموت الأسود

بلغ الموت الأسود أوروبا مع من بلغها من بحارة إيطاليين جاؤوا من القرم. وقيل إن أول ظهور له كان في اسطنبول حين جاءت به السفن من الاسكندرية. وترسخت لدى كثيرين في أوروبا قناعة مؤداها أن الموت الأسود يأتيهم، عبر العصور، من الصين أو من الهند، ولكن عبر الموانئ المصرية التي كانت من أهم مراكز الترانزيت منذ القدم.

وتقول موسوعة الموت الأسود إن القصة بدأت من بقعة ما بين الصين وشبه جزيرة القرم، أي أنها لا تجزم بأن الطاعون بدأ انتشاره من الصين. وشواهد القبور المنعزلة في إيسيك كول(بقرغيزستان) تؤكد أن الموت الأسود مر بظله الكئيب قادما من تلك الجهات في ثلاثينات القرن الرابع عشر.وتشير بعض الأبحاث القريبة العهد إلى أن الفرسان المنغوليين كانوا السبب في هرب القوارض التي أفزعتها خيولهم فانتقلت

مريض في المستشفى في قرطبة. لوحة زيتية من إرنست بورد

إلى مناطق التجار والغزاة، وحملتها قوافلهم إلى مختلف الأرجاء. وتتصل بذلك حكايا عن محاربين مصابين بالطاعون قذفوا بجثث موتاهم الذين صرعهم الطاعون على سكان مدينة كافا المحاصرة الواقعة على ساحل البحر الأسود، فانتشر الفزع بين الأوروبيين من المقيمين فيها فهربوا إلى أوروبا بالسفن التي جاء على متنها الطاعون. ويجد المؤرخون الأوربيون في الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في خانية (إمارة، أو دولة يقودها خان) العشيرة الذهبية ما يمكن اعتباره سببا من أسباب صعود العثمانيين.

ولا نجادل في هذا القول لكننا نحذر من احتمال أن يكون المؤرخون الأوروبيون قد بالغوا في أثر الجائحتين الأولى والثانية، لمجرد أن يقرنوا صعود القوى المسلمة عبر القرون بالكوارث الكبرى، وليس بدينامية الفريق المسلم الصاعد، سواء كان ذلك الفريق عربيا، كما جرى إبان حكم الأمراء القرشيين الأوائـل، عمر بن الخطاب ومن جاء بعده، أو من الترك العثمانيين الذين بقوا على قمة العالم حتى القرن العشرين. وما يشجعنا على هذا القول هو من يكتب اليوم في دوريات علمية مهمة وما يصدر عن معاهد علمية ذات مكانة رفيعة بما يفيد أن ما ورد في المصادر القديمة عن مدى انتشار طاعون جوستنيان وعن حجم الخسائر المادية والبشرية التي ترتبت عليه ربما كان مبالغا فيه، وإن بقي مؤكدا أنه كان جائحة كونية.

ويختلف الناس أيضا بخصوص الجائحة الكونية الثانية أو طاعون القرن الرابع عشر، ويتركز الخلاف

على تحديد أصل الجائحة جغرافيا: أين ظهر الطاعون لأول مرة؟ فهناك من يقول بأن مبتدأ الجائحة الكونية الثانية كان الصين وهناك من يقول سفوح الهيمالايا فيما يرى البعض أنها بدأت من قيرغيزستان ويرى البعض الآخر أنها بدأت في كردستان العراق. لكن لا توجد وثائق وسجلات تشير، أشارة واضحة وقاطعة، إلى أن بداية الجائحة جرى تسجيلها في الصين أو في غيرها من مناطق آسيا الوسطى. صحيح أن الأركيولوجيين لديهم ما يشير لذلك، لكن لاتوجد يقايا آدمية تشير إلى وفيات بأعداد كبيرة، ويبقى أن المؤرخين المسلمين العرب والمؤرخين المسيحيين يرجحون أن تكون الصين هي منشأ الجائحة الكونية الثانية.

وبناء على مـارواه هؤلاء المؤرخون، فالتجار والرحالة المسافرون على طريق الحرير جاؤوا معهم من الصين بالفئران وبراغيثها الناقلة للطاعون. ومن الفئران انتقلت العدوى لمختلف أنواع القوارض ومنها الأرانب والسناجب والشنشيلات وحيوان النيص والقندس والكابياء الخنزيرية، وغير ذلك. ونقلت هذه الحيوانات الطاعون للبشر. وقد ساعد توطيد سلطة التتار على مناطق واسعة بين آسيا وأوروبا طوال الفترة المعروفة باسم زمن السلام التتري Pax Tatarica في القرنين الثالث عشر والرابع عشر على تسهيل حركة الناس وما يحملونه معهم من بضائع وما ينتقل مع قوافلهم من الفئران والطواعين لمناطق واسعة من العالم.

لكن هذه الفرضية، فرضية أن الطاعون انتشر بقوة الحركة التجارية بين مناطق الصين الخاضعة لسلطة المغول وبين أوروبـا تعرض لانتقادات تأسست على القول بأن دخول التتار في الإسلام وتفكك الامبراطورية المغولية ضيقا نطاق الحركة التجارية التي بلغت العالم المسيحي، وهنا ظهرت فرضيات أخرى تنسب أصل الطاعون لكردستان العراق، وتزعم أنه انتقل من هناك شمالا إلى البحرين الأسود وقزوين، وبعد ذلك مضى الطاعون شرقا باتجاه الهند ومنشوريا. ثم جاء من يزعم أن الطاعون بدأ في حوضي الدون والفولغا، ثم انتقل جنوبا وغربا إلى القرم وإلى جنوب روسيا، ليقتحم منطقة العشيرة الذهبية، ما يسهل القبول بفرضية خروجه من كافا الأوكرانية إلى إيطاليا.

وبحسب السرديات الرائجة فإن بحارة إيطاليين جاؤوا بالطاعون من تلك المدينة الواقعة في القرم إلى القسطنطينية(تقول بعض المصادر إن الطاعون حملته إلى القسطنطينية سفن جاءت من الاسكندرية، الميناء المصري الأشهر) ومن كافا، عبر القسطنطينية، انتقل إلى ميسينا في صقلية حيث سجلت أول إصابة بالطاعون في تاريخ الجائحة الكونية الثانية.

وقد استمرت أوروبا تعاني من الطاعون من القرن الرابع عشرحتى القرن الثامن عشر (وعاد إليها في العام 1894 في ما يسمى الجائحة الكونية الثالثة)، فيما بقي الشرق العربي يتلوى تحت ضرباته القاسية حتى أربعينات القرن التاسع عشر. وفي البداية كات يشار إليه باسم "الوباء the pestilence" وكان ذلك الوباء يشار إليه باسم لاتيني هو atra mors وتعني الموت الرهيب أو الموت الأسودBlack Death، الذي صار بعد ذلك اسم تلك الجائحة في السرديات الأوروبية، وإن أشار إليه الإيطاليون باسم الموت الواسع النطاق mortalega grande. ونعتمد في التفصيلات التالية على ما جاء في"تاريخ الطاعون" لجون فريث.

ومع تزايد أعداد ضحايا الطاعون وسرعة فتكه بضحاياه والتخوف من أن تنتقل العدوى إلى من يقومون بمراسم الدفن بفعل أبخرة ظنوا أنها تتصاعد من جثة الميت بالطاعون، تراكمت الجثث لاتجد من يؤدي الطقوس الواجبة قبل دفنها وخشي الناس من أن يصحب موت أحدهم بالطاعون هلاك روحي ينشأ عن الدفن من دون طقوس كنسية. وهجر الكهنة الكنائس التي بقيت مفتوحة لاتجد من يجرؤ على الدخول إليها. وساد بين الناس فس أوروبا اعتقاد بأن الله سلط عليهم الطاعون لأنه غاضب عليهم. وكثر توسل الناس للقديسين، وانتشرت مواكب النادمين الذين يجلدون أنفسهم علنا بسياط فيها مسامير حادة، وقد راحوا يتنقلون بين القرى والمدن وهم يضرعون للسماء أن تغفر لهم خطاياهم. وعلى مشارف القرى والمدن وقف الناس يستقبلونهم بقرع الأجـراس وبترديد الترانيم الدينية، وصاروا يطلقون عليهم اسم "إخوان الصليب" أو "حملة الصليب".

قضى الطاعون على قـرى بكاملها. هجر الفلاحون الحقول. لم تعد الأرض تجد من يفلحها. توقفت، تقريبا، حركة التجارة. شح الطعام. اختفت السلع أو كادت. ومع ظهور النقص في اليد العاملة، فاستغل العمال الريفيون الظرف وصاروا يبالغون في الأجور المطلوبة من سحاب الأراضي. وهنا صار اسم العامل القروي veillein يعني الشرير-vil-lain، وبخاصة بعد أن أثار العمال القرويون حسد الناس حين كونوا ثروات وامتلكوا مزارع خاصة بهم. وانهار الحاجز الطبقي بين الفقراء والأغنياء وظهرت الطبقة الوسطى.

لم يعد الفلاحون قرويين أسرى عند سيد إقطاعي يدير الحياة في منطقته ويزود الملك بالمحاربين عند الحاجة. صار الفلاح حرا ويعمل بالتعاقد. وزاد نشاط التجار الذين أقاموا أسواقهم بين المناطق الخاضعة لسلطة هذا الإقطاعي والمناطق التابعة لسادة مجاورين. كان الطاعون يحصد أرواح الإقطاعيين والأجراء لكن النسبة العالية للأجراء أبقت عليهم قوة اجتماعية يعتد بها وصار الطلب عليهم أشد، خاصة وأن المدن التي أخلى الطاعون أقساما كبيرة منها من السكان صارت ملجأ لعمال زراعيين انتقلوا إليها بعد أن أضعفت الفوضى سلطات الإقطاعيين الذين كانوا يحكمون حركة الفلاحين.

واستعاضت المدن عن من فقدتهم بسبب الطاعون بقرويين جاءت بهم الهجرة من الريف وعلمتهم حياة المدينة ودخلت بهم إلى عوالم جديدة من الفكر والسلوك المتحضرين، حيثما ضعفت سلطة الإقطاعيين. وبقي الطابع الريفي الإقطاعي قويا في بعض المناطق التي تخلفت عن مسيرة التحضير التي منحها الوباء قوة استثنائية. وانتقل التركيز من الزراعات الكثيفة العمالة مثل زراعة الحبوب الغذائية إلى تربية الحيوانات، وانتشرت في الصناعة وفي الزراعة الأدوات الموفرة للعمالة. ولم يكن الطاعون في صالح الإقطاع. الإقطاع نظام يقيد الفلاحين وعمال الزراعة، يربطهم بالأرض باعتبارهم أقنانا.

لكن تحرير قطاعات واسعة من العمالة وتطوير أدوات الإنتاج الزراعي والصناعي حولا فترة التعافي، التي تلت الهجمات الأولى للوباء، إلى مرحلة رخاء سمحت للعائلات الكبرى، مثل عائلة ميديتشي في فلورنسا الإيطالية برعاية الفن والفنانين والمبدعين، من أمثال مايكل أنجلو وليوناردو دافينشي.

استقبل الأوربيون الطاعون بصحوة دينية اعتبرت الوباء عقابا سماويا على آثام البشر، وشاعت التقوى وحرص الناس على التردد على دور العبادة. وانتشر التعصب الذي كانت مواكب النادمين الذين يجلدون أنفسهم، علنا، بالسياط، واحدة من أوضح صوره. لكن الوباء قضى على كثرة من رجال الدين. تبين أن الأديرة هي بؤر لانتشار العدوى فهرب منها الرهبان طلبا للنجاة، وانتقل الطاعون لمن كانوا يؤدون طقوس الدفن من القسيسين لضحايا الطاعون. وضعفت الكنيسة، كمؤسسة، خاصة بعد أن سدت السلطات الكنسية نقص القسيسين والرهبان بمستجدين لم يحصلوا على تأهيل كاف، فتراجعت مستويات الأداء وكثر من يمارسون الوظائف الدينية طلبا للرزق، وانتشر الفساد في الكنيسة وساءت سمعتها. وهكذا اشتد التيار العلماني.

وكان من أهم النتائج التي ترتبت على ذلك أن فقدت الكنيسة حقها في احتكار التعليم، فظهر التعليم في مؤسسات مدنية، غير كنسية، وبخاصة في المدن. ولعب التعليم المستقل عن الكنسية دورا حاسما في انطلاق حركة النهضة، بما أكدت عليه من قيم وخبرات ذات منشأ ديني بأكثر من ماهو ديني. وانتقلت هذه التحولات من شمال إيطاليا لبقية أوروبا، وتضافر التعليم غير الكنسي مع تحرير العمالة وتراجع قوى الإقطاع لتبرز الفردية، كقيمة عليا قادت التطور التاريخي باتجاه الرأسمالية التجارية، ثم الرأسمالية الصناعية.

لقد أنزل الطاعون بالنظم الاجتماعية دورا غير مسبوق، فتحول أقنان الأرض إلى تجار، وأثرى التجار وانخرطوا في سلك النخبة الاجتماعية وزاحموا النبلاء والأرستقراطيين، في المراتب الاجتماعية والسياسية العليا. لم يعد قدر الإنسان يتقرر عند مولده، بل انفتحت الآفاق، مع انفتاح الأسواق، ليصعد من يستطيع أن يصعد، بالمال، وبالتعليم، وبالإبداع.

أطروحة المركزية الصينية

عرضنا لتاريخ الأوبئة وأثرها على الزراعة ثم التجارة والصناعة، حتى الآن، وفقا لرؤية المركزية الأوروبية التي أوضحنا أن صعود القوة الأميركية هو توسيع لها، وبخاصة مع النظر بعين الاعتبار إلى حقيقة القوة الهائلة لتحالف القوى الناطقة بالانكليزية، وهي بريطانيا والولايات المتحدة وكندا واستراليا ونيوزيلندا، وهو التحالف الوثيق الصلة بسنغافورة وبجنوب إفريقيا. لكن الكاتب الألماني آندريه غوندر فرانك ينبهنا إلى مركزية دور الصين في تاريخ حضارة العالم، وتبرز طروحاته الأساس النظري للمركزية الصينية. وقد كان انبثاق وباء كورونا من ووهان الصينية أشبه بهزة عمقت وعي العالم بأهمية الصين، سلبا وإيجابيا، كقوة من القوى المقررة لمستقبل الحضارة الإنسانية.

وبحسب فرانك ومن يذهبون مذهبه، فالاقتصاد الزراعي الصيني ظل القوة المهيمنة على أسواق العالم حتى النصف الأخير من القرن الثامن عشر. وفوق ذلك فالفضة المتدفقة من الصين ظلت، لفترة طويلة مهيمنة على أوضاع النقد في العالم. لكن منتقدي فرانك، وأهمهم وأول من اعتنى فرانك بالرد عليهم، هو الباحث الفرنسي المصري سمير أمين، الذي استضافه حزب التجمع المصري في آخر زيارة له إلى القاهرة في العام 2011، يرون أن الشبكات التجارية التي غطت سطح الكرة الأرضية حتى نهاية القرن الثامن عشر لم

يكن لها التأثير الذي تملكه الشبكات التجارية، منذ ظهور السفن البخارية واختراع التلغراف ثم الهاتف ثم المذياع ثم التلفزة ثم الانترنت، على الأوضاع الداخلية لكل مجتمع.

لكن المبادلات التجارية عبر طريق الحرير لم تنقل من الصين البضائع وأدوات الحضارة، فقط، بل ونقلت أيضا الطواعين والأوبئة التي خرجت من الصين. وهذا ما يعطيها أهمية مزدوجة: أهميتها كمصدر لألذ ما أكله العالم وهو الأرز، ولأطيب ما شربه العالم وهو الشاي، ولأفخم ما لبسه العالم وهو الحرير، ولأعظم ما قامت عليه المعرفة بعد انهيار ثقافة البرديات المصرية، وهو الورق، ولأخطر ما عرفه العالم، في العصر الذي تلى عصر الأسلحة المحمولة يدويا، وهو البارود؛ وأهميتها كمنشأ للطاعون في القرن السادس قبل الميلاد، وكمصدر لجوائح كونية تواترت عبر العصور، وآخرها، حتى الآن، ما انفجر بوجه النوع البشري في ووهان الصينية في ديسمبر من العام 2020 والمعروف باسم «كورونا».

وإذا كنا ننقل عن المصادر التي ذكرناها أن الصين تراجعت كقوة تجارية كونية بانتهاء القرن الثامن عشر، فإن الباحث الفرنسي في تاريخ الاقتصاد العالمي فيرنان بروديل، في كتابه» هيكلية الشؤون اليومية: الممكن والمستحيل :Les Structures du Quotidien Le Possible et L'Impossible " ينبهنا إلى أمرين:

- أن الثورة السكانية بدأت ببداية القرن الثامن عشر. كان عدد سكان العالم قبل ذلك ثابتا، على وجهي الإجمال و التقريب، وكانت المواليد تعوض الوفيات، حتى نهاية القرن الثامن عشر. لكن الثورة العلمية أطالت أعمار الناس بعد ذلك وراح عدد سكان الكوكب يتزايد ولايزال في تزايد مطرد
- أن الابتكارات الزراعية الصينية ساعدت العالم على مواجهة هذه الزيادة وعلى تجنب المجاعات. ومن أهمها بناء السدود على الأنهار، للحماية من الفيضانات ولادخار فائض المياه لزمن الجفاف، ومنها شبكات القنوات للري وللنقل النهري، وتنظيم زراعة محصولين من الأرز سنويا. واستفاد من هذه الإجراءات كثيرون لم يكن بينهم الروس بما لديهم من طقس تصعب السيطرة عليه والهنود بأنهارهم ذات الفيضانات الهائلة.

ولأن العالم لم يعرف البطاطا والذرة، إلا بعد سيطرة البيض على الأميركتين، ثم بعد التغلب على محاربة الكهنة المسيحيين في أوروبا عموما، وفي فرنسا خصوصا، لزراعة البطاطا المستوردة من مزارع الهنود الحمر الوثنيين والتي قالوا إنها «تفاحة الشيطان»، فقد حمت هذه الابتكارات من أخذوا بها من الطواعين التي كانت المجاعات تمهد لها. ويضرب بروديل مثلا على العلاقة بين المجاعات والطواعين بالإشارة إلى أن المجاعة التي ضربت أوروبا في العقد الممتد بين 1308 و1318 هي التي مهدت، بالجوع والإعياء والمرض، لانتشارطاعون القرن الرابع عشر.

تتابع الطواعين في الشرق العربي

بعد طاعون جوستينيان الـذي بدأ في القرن السادس الميلادي، وحتى ازدهار الحضارة العربية في القرنين الثامن ثم التاسع العباسي المبهر، بقيت الطواعين تظهر عبر فواصل زمنية قصيرة في العالم

المزارعون يشاركون في عملهم اليومي خلال عهد أسرة تشينغ ، خلقت زراعة الأرز والحرير وأوراق الشاي الكثير من الوظائف ، وكانت تجارة قوية

المسلم. ثم برئ الشرق العربي المسلم وأوروبا من الطواعين لأسباب غير معلومة، وظل الطاعون غائبا حتى القرن الرابع عشر، عندما افترس الموت الأسود المنطقتين. وبقي الطاعون بعد ذلك في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا حتى انتصاف القرن التاسع عشر. ولأن الأطباء عجزوا عن الكشف عن مسببات طاعون القرن الرابع عشر، فقد طال عهده. ظن الأطباء المسلمون أن مصدر الطاعون أبخرة سامة، واكتفى الفقهاء بالقول إنه عقاب الله للكافرين وسبيل فتحه أمام المؤمنين للاستشهاد. لكن علماء من أمثال الرازي ولسان الدين بن الخطيب ركزوا على مسألة العدوى، مخالفين التفاسير الشائعة للأحاديث النبوية التي تنهى الناس عن مغادرة المنطقة الموبوءة إن وجدوا فيها، أو عن دخول منطقة غير تلك التي يقيمون بها في زمن الوباء. هذه التعاليم النبوية التي تضاهي حظر السفر وحظر التجمعات في زماننا فهمها الكثيرون على أنها دعوة للاستسلام للموت لا دعوة للحد من إنتشار الوباء. وقد نفذ حكم الإعـدام خنقا في لسان الدين بن الخطيب بتهمة الزندقة.

أنهك الطاعون الشرق المسلم، فعاشت مصر 55 عاما في قلب عواصف الطواعين، من أصل 170 عاما بين ظهور الوباء في العام 1347 وغزو العثمانيين للسلطنة المصرية في 1516–1517. وقد يكون عدد موجات الطاعون الرئيسية في مصر في تلك الفترة عشرين، تفصل بين الواحدة والأخـرى منها مدة تراوحت بين 8 و9 سنوات. أما في سوريا وفلسطين فكانت قرابة 18 موجة فصلت بينها فترات بلغت تسع سنوات ونصف السنة، في المتوسط. وعاد التأثير المدمر لتلك الطواعين إلى كثرة ظهور الطاعون

الرئوي. وقد وقع الوباء الأشد فتكا، في المرحلة بين 1360 و1500، في العام 1429–1430في مصر، حيث أكبر تجمع سكاني في المنطقة. وسجلت وقائعه بالتفصيل جماعة من أهم مؤرخي العرب.

ووفقا لما ذكره ابن تغري بردي، فقد ظهر الطاعون في غزة ثم في القدس وصفد ودمشق قبل أن يظهر في القاهرة، والعجيب أنه جاء في الشتاء لا في الربيع، كعادته. ويقول ابن تغري بردي إن الناس صاموا ثلاثة أيام ثم خرجوا في زحف هائل إلى الخلاء يكبرون ويتضرعون إلى الله أن يرفع عنهم البلاء، ثم يضيف إن عدد حالات العدوى تضاعف على نحو هائل في ذلك اليوم بسبب الازدحام. ونضيف نحن إنه لو كان المجتمع المصري منظما آنذاك على النحو الدقيق من التنظيم الذي عرفته قرطبة من قبل، لقتلوا ابن تغري بردي كما قتلوا لسان الدين بن الخطيب، بزعم أنه هرطق.

وقد زار ابن بطوطة مصر في أول عهدها بالطاعون المسمى الجائحة الكونية الثانية أو الموت الأسود والتي استمرت من انتصاف القرن الرابع عشر لانتصاف الثامن عشر. وقال عن رحلته تلك» سافرت إلى المحلة الكبيرة ثم إلى نحرارية، ثم إلى أبيار، ثم إلى دمنهور، ثم إلى الإسكندرية . فوجدت الوباء قد خف بها، بعد أن بلغ عدد الموتى إلى ألف وثمانين في اليوم. ثم سافرت إلى القاهرة، وبلغني أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها إلى واحد وعشرين ألفًا في اليوم. ووجدت جميع من كان بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا، رحمهم الله تعالى».

ولاشك في أن الاضطرابات السياسية والعسكرية، الداخلية والخارجية جعلت الشرق العربي فريسة سهلة للطاعون الذي انفجر في القرن الرابع عشر. فآخر معركة مع الصليبيين كانت عندما استعاد السلطان خليل بن قلاوون عكا من الصليبيين في 17يونو من العام 1291 والخطر المغولي انحسر مع توقيع معاهدة الصلح معهم في 1322–1323. وكل هذه الاضطرابات وضعت البلاد تحت رحمة الجماعة الوظيفية المعروفة باسم المماليك، وهم المقاتلون الأفذاذ الذين دانت البلاد لهم بالولاء لأنهم الأقدر على مواجهة التهديدات الخارجية.

فكيف كانت الثقافة العربية في تلك الفترة. قلنا إن إقواما في الشرق المسلم(في العراق والشام والجزيرة العربية ومصر وشمال إفريقيا) وفي الأندلس المسلمة فهموا الإرشادات الوقائية النبوية على أنها دعوة للاستسلام، وراحوا يطفرون من يعول على الإرادة الإنسانية في تقرير قدر الإنسان. وفي كتابه "رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" يروي محمد بن عبد الله اللواتي الشهير بابن بطوطة، تحت عنوان «حكاية»، ما يبين لنا شيوع هذه الثقافة، ثقافة التواكل والتقاعس، في ظل حكام لاحدود لسلطانهم، بين عرب تلك الأيام.

وقبل أن ننقل الحكايةالتي رواها ابن بطوطة نشير إلى أنه نسب إلى الزيدية ما ليس فيهم، فهم لاينفون القدركما زعم هو، بل يؤمنون بما آمن به المعتزلة من أن الإنسان يصنع قدره بما وهبه الله من قدرة على التدبر والتصرف.

ومع أهمية الملاحظة التي سجلها الأستاذ مصطفى القصاص الذي أعد كتاب ابن بطوطة والتي نفى فيها

لوحة تعبيرية لإنتشار الوباء في الإسكندرية قديماً

رفض الزيدية لفكرة القدرية، وتأكيده على ربطهم مصير الإنسان بما يفعله ويقوله، بإذن الله، فنحن نرى في الحكاية تسليما من ابن بطوطة ومن خاطبهم من أهل عصره، وكثيرين من أهل العصور التالية في تلك الأمصار، بأن الإنسان لاحيلة له في شئ من أمره. والحكاية لاتبرز قوة القدر بقدر ما تبرز قوة غير مفهومة في إطار الثقافة المسلمة كما تجدها في القرآن والسنة، لواحد من عباد الله، هو الشيخ الذي قيَّد حركة مخالفيه في الرأي ثم أطلقهم، بما يشبه السحر. وتجد ما يعكس هذه العقيدة في مرويات تلك الفترة عن الشيخ الصالح السيد أحمد البدوي الذي ظل الاحتفال السنوي بمولده، في طنطا بوسط الدلتا المصرية، حتى العام 2019، مقصد عدد من الحجاج السنة لا يفوقه(في العالم السني، على الأقل) إلا عدد الحجاج لبيت الله الحرام.

وفي الاحتفال بذكرى هذا الولي الصالح تتردد عبارة عامية تقول" الله الله يابدوي وجاب اليسرى" والترجمة إلى الفصحى لهذه العامية هي" لله درك أيها البدوي محرر الأسرى". وهذه العبارة التي تتردد إلى اليوم، في القرن الواحد والعشرين، تلخص سر قوة سلطة المحاربين المستوردين من أواسط آسيا (المماليك) التي جثمت على صدور الشعوب في المشرق العربي بعد الانتصارات العظيمة على الصليبيين ثم على المغول.

في مطلع القرن السادس عشر، وفي العام الذي دخل فيه سليم العثماني القاهرة، بدأ أعظم مصلح ديني في التاريخ المسيحي وهو الألماني مارتن لوثر حركة الاحتجاج protest التي أنشأت أول ديانة احتجاجية في التاريخ وهي البروتستناتية، أو الاحتجاجية Protes-tantism . ولد مارتن لوثر لأب من عمال المناجم تمنى لوأن ابنه عمل بالمحاماة، لكن الابن اختار أن يكون كاهنا كاثوليكيا. وقد اختلف مارتن لوثر مع الكنيسة الكاثوليكية لكنه بقي راسخ الإيمان بالمسيحية.

وانتهت خلافاته مع الكنيسة بطرده من الملة، فأسس دعوته الدينية الإصلاحية في فيتنبيرغ الألمانية. ومنذ ظهر جمال الدين الأفغاني في مصر في سبعينات القرن التاسع عشر وهناك، في الشرق والغرب، من يظن أن التصورات الخاطئة من النوع الذي ورد في"الحكاية» عند ابن بطوطة، وبما راج في القرون التالية من خرافات هو دليل على الحاجة لإصلاح ديني يماثل الإصلاح الديني الذي أسسه مارتن لوثر. وهذا قول لا أساس له. مارتن لوثر وضع أسس إصلاح «لاهوتي» يتصل بأسس التدين. وأسس التدين عند المسلمين، كما جاءت في القرآن وفي الأحاديث النبوية المتوافقة معه، عقلانية منذ ظهرت في القرن السابع، لكن ما يحتاج التطعيم بالعقلانية والتقويم بآلياتها هو الإطار الاجتماعي السياسي لحياتهم ولممارساتهم وطرق تفكيرهم. وهكذا فما يقال عن إصلاح ديني في مصر والشرق بدأه جمال الدين الأفغاني ليس سوى ترديد متسرع لمقولات بروتستانتية، روج لها الليبراليون البريطانيون، ولا تربطها علاقة قوية باحتياجات الثقافة السنية الحضرية في الشرق العربي. ولم يكن غريبا أن يبدأ جمال الدين الأفغاني نشاطه (وهو نشاط إعلامي دعائي)في مصر بتوزيع كتاب لمؤلف بروتستانتي فرنسي هو فرانسوا غيزو. لكن القضايا التي احتاجت معالجة عبر القرن في الشرق الرازح تحت ثقل القمع والابتزاز العثماني كانت اجتماعية – سياسية، لادينية، ولهذا فلم يحدث الأفغاني الأثر الإصلاحي الذي قال إنه يسعى إليه.

وإذا كنا نشير إلى «مارتن لوثر» باعتباره إصلاحيا عظيما، فهو، بالوقت ذاته، من أهم دعاة الآخرية في الغرب. والرأي الشائع عن مارتن لوثر أنه كاره للإسلام، ولو كان ذلك صحيحا، لكان لوثر صاحب موقف ديني إزاء الشرق. وقد انتشر هذا الوهم – وهم أن موقفه من قوة سياسية عالمية في عصره هو موقف ديني – بسهولة لأن الرجل، بالأساسس رجل دين وإن كان إصلاحيا، لكننا نرى أنه، بالأساس كاره للترك، ولن نخوض هنا نقاشات معجمية حول دلالة لفظ Turk في اللغات الأوربية الحديثة(من القرن السادس عشر إلى اليوم) وما إذا كان اللفظ يعني التركي، بالعرق أو باللسان، أم يعني المسلم، على وجه العموم. لكن المؤكد هو أن لوثر كان صاحب موقف سياسي ضد " الآخر" غير المسيحي وغير الأبيض، وبخاصة وأن ذلك الآخر كانت جيوشه تجتاح أوروبا، وتحاصر واحدة من أعظم مدائن الحضارة المسيحية البيضاء وهي فيينا.

ظلت حركة الجيوش، حتى الحرب العالمية الثانية، من أكبر نواقل الوباء. وكذلك كانت حركة التجارة، من القرون القديمة. ثم أصبحت السياحة ناقلا مهما آخر. وقد اختار الغرب أن يركز على دور اسطنبول والقاهرة والاسكندرية كنقاط توزيع ونقل للوباء، وعلى الصين ووسط آسيا كمصادر للوباء. ولكن حركة المستعمرين

البيض الذين نقلوا الأوبئة لمناطق بالغة النقاء من العالم لم تحظ بالاهتمام ذاته.

وتجدد وعي الإنسان الغربي الأبيض – صانع الوعي الإنساني المعاصر أو صائغه، على الأقل – بخطورة ما يأتي من الشرق من أوبئة، مع انفجار الجائحة الكونية الثالثة، التي استمرت من ستينات القرن التاسع عشر إلى ستينات القرن العشرين، بدرجات متفاوتة الكثافة في مناطق مختلفة من العالم، وقد تسببت به بكثيريا عضوية الشكل هي اليرسينيا الطاعونية-Yer sinia pestis. وقد بدأت الجائحة في الصين وهونغ كونغ ومنشوريا. وإذا كان الطاعون الدملي هو الأكثر انتشارا في تلك الفترة، فقد ظهر أيضا الطاعون الرئوي Pneumonic plague، وبخاصة في منشوريا. وقد بقي الطاعون في الصين حتى القرن العشرين، وإن انكمشت رقعة انتشاره منذ العشرينات من ذلك القرن.

وبعد انتقال الطاعون إلى مختلف بلدان آسيا، عانى منه بلد مثل فييتنام الذي شهد أقسى موجات انتشار الوباء في أواخر ستينات القرن العشرين بتأثير المجهود الحربي الأميركي في فيتنام الجنوبية.

وعبر التتابع المخيف لموجات الجائحة الكونية الثالثة، من النصف الثاني للقرن التاسع عشر إلى النصف الثاني للقرن العشرين، تعمق الإحساس بثنائية كان السابق للتعبير عنها هو جمال الدين الأفغاني في القاهرة وهي ثنائية» الغرب والإسلام» واكتسبت هذه الثنائية شهرة واسعة عندما تبناها ووسع مدلولاتها، كما أشرنا من قبل، شاعر الامبراطورية البريطانية روديارد كيبلينغ في قصيدته الاستعمارية الشهيرة» موال الشرق والغرب»، والتي يتكرر فيها قوله» الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا إلا عندما تمثل السموات والأرض أمام عرش الديان».

وفي قصيدة أخرى لروديارد كيبلينغ هي" الطريق إلى مندلاي"اكتسبت هذه الثنائية معنى أوسع يغطي كل ثقافة غير غربية وغير مسيحية وغير بيضاء، على النحو العنصري الذي تجده عند صمويل هنتنغتون في أواخر القرن العشرين، في أطروحته" صدام الحضارات". ويؤيد هذا الرأي القول بأن أطروحة هنتنغتون هي صياغة جديدة (ولانقول حديثة أو حداثية) لطروحات استعمارية قديمة، ما أورده نعوم تشومسكي في كتابه" النظام العالمي القديم والجديد" (مكتبة نهضة مصر– 2015) حين اعتبر الدعاية السياسية الغربية التي تبرر الاعتداءات المتكررة من قبل شعوب الشمال بالغنى ضد شعوب الجنوب الأفقر والأضعف".

في «مندلاي» تصبح آسيا كلها جزءا من «شرق السويس» وتدخل تحت هذه التسمية حضارة جبارة هي الحضارة الصينية. وقد أحيا هذا التعبير الأديب البريطاني سومرست موم في مسرحيته "شرق السويس" التي تحولت بعد ذلك فيلما صامتا لم يعد له أثر، لكن ذكراه باقية. ثم جاء فرانك سيناترا ليحول قصيدة مندلاي إلى أغنية تُكْسِب مصطلح شرق السويس طابعا أميركيا ينسجم مع حقيقة أن الأميركيين هم، منذ العام 1775، البريطانيون الجدد، كما يقول لورانس جيمس في"شروق الامبراطورية البريطانية وغروبها".

ونحب أن ننقل سطورا من هذه القصيدة التي لا يملك من يرفض العنصرية إلا أن يرفضها، ولايملك

عاشق الغناء والمغرم بصوت فرانك سيناترا إلا أن يحبها:

- امض بي على سفينتك إلى شرق السويس
- حيث يستوي الأفضل والأسوأ
- وحيث لا وجود لوصايا عشر
- وحيث تثير القطةُ العطشَ
- حيث تلك الأجراس المجنونة تصلصل
- أنا أتوق للذهاب إلى هناك
- حيث معبد فويونغ البضاوي
- المطل شرقا على البحر

وفي السطور الواردة بأعلاه، تبدو مناطق شرق السويس، وهي آسيا الفسيحة العظيمة المعطاء، أرضا لا وجود فيها لوصايا عشر، توراتية كانت أو غير توراتية. الشاعر يعرف أن الوصايا العشر تنزلت على نبي الله موسى في سيناء المصرية، وهي آسيا وإفريقيا معا.

لكن تيار العداء الذي يركز على الشرق المسلم(وإن لم يستبعد الهند والصين، بل والمكسيك!) الذي بدأه اثنان من تلاميذ دافيد روكفلر وهما صمويل هنتنغتون وبرنارد لويس يبدو أنه يضمحل اليوم لصالح تيار كراهية موجهة للشرق الصيني وللمناطق المتصلة به في وسط آسيا. وبالمقابل يتحول العداء للصين، بحجة أنها مهد الأووبئة على مر التاريخ، إلى تيار يهدد سلام العالم وأمنه، وإن واجهته نداءات التعقل من داخل الولايات المتحدة وخارجها.

وكما يقول آندريه غوندر فرانك في مقدمته لكتاب "المجال الكوني لحركة الصين" وهو من تأليف خريج جامعة ميتشيغان الصيني جورج جينبين غو، فقد أدهشت النهضة الاقتصادية لشعوب آسيا العالم الغربي (بل والعالم كله) لأن نقطة انطلاق نهضتها في القرن العشرين كانت في مستوى أدنى بكثير مما كانت عايه قبل قرن كامل من النهوض. وهذا يحعلنا نحن ندفع بأن النهوض المذهل جاء بعد قرن من التدهور البالغ، وهو ما صور لشاعر مثل روديارد كيبلينغ أن التدهور والانحطاط هما قدر شعوب"شرق السويس".

ويقول فرانك إنه ما إن بدأت عجلة النماء بالدوران حتى تسارعت على نحو مذهل، فاق كل ما عرفه الغرب. وبعد تحرر الصين من الكولونيالية صار معدل النمو، لا في الصين وحدها بل وفي مجمل شرق أسيا ضعف مثيله في الغرب. وإذا كان فرانك يركز على أثر الصين وثورتها التحررية في هذه الانطلاقة، فنحن ننقل عن مصادر محيطة بالزعيم الماليزي مهاتير محمد أن الدور البناء في نهضة شرق آسيا له أثر لاينكر، على مجمل شعوب تلك المنطقة. ويقول لنا التاريخ إن نهضة إندونيسيا وفييتنام تحققت بعد صراع تحدتا فيه النفوذ الصيني، في حين حقق مهاتير محمد لبلاده نهضتها لا بتحدي العناصر الصينية في بلاده وتحدي ولائها للصين الأم، بل عبر احتواء هذه العناصر ووضعها في المكان المناسب لها كجزء لا يتجزأ من التجربة الماليزية. وفي تلك الحالات بدأت النهضة بالتعاون مع اليابان وبمعزل عن الصين: بتحدي الصين في الحالتين الإندونيسية والفييتنامية، وبترويضها في الحالة الماليزية. وبعد أن تأكد أن نهضة هذه الشعوب هي حركة تاريخية جبارة لارجعة عنها، تواصلت مع الصين، كما يتواصل الأقوياء مع

الأقوياء، وتصاعد الخوف الأميركي من النمر الصيني الذي اختطف لواء الزعامة من اليابان التي تبدو بنظامها البرلماني وباقتصادها الرأسمالي المنفتح أكثر ولاء للمركز الأميركي من الصين.

لا يعترف فرانك بدور اليابان المركزي في النهضة في شرق أسيا، بل يكتفي باعتبار السبق الياباني بدايةً لمتوالية آسيوية انطلقت بانطلاقة الأوزة اليابانية ثم بوثبة النمور الأربعة الأولى (أو التنينات الأربعة الصغيرة كما يقول الصينيون والكوريون) وهي هونغ كونغ وسنغافورة وكوريا الجنوبية وتايوان. ثم جاءت نهضة النمور الأربعة التالية وهي اندونيسيا وماليزيا وتايلند وفييتنام. وأخيرا، تفوق على الجميع التنين الناري الكبير وهو جمهورية الصين الشعبية، محققا معدل نمو سنوي بلغ عشرة بالمئة، كان كافيا لمضاعفة الدخل السنوي كل ستة أعوام، كما قال فرانك. ويلفت فرانك النظر إلى أمر يتعين أن تتفهمه الدول النامية وخاصة في شمال إفريقيا، وهو أن الاستثمارات التي ارتفعت بالاقتصاد الصيني إلى عنان السماء جاء معظمها من المهاجرين الصينيين، وبخاصة من عاش منهم وعمل في جنوب شرق أسيا. وضخامة التدفق من المواطنين المغتربين ونجاحها في رفع مستويات النمو مرتبطان بعاملين وهما "الولاء الشعبي الراسخ" و"حرص النخبة على المصالح العامة". ونضيف إلى ذلك خضوع أدوات وآليات السيطرة الحكومية لمحاسبة سياسية صارمة من قبل الحزب الحاكم. ولايفوتنا أن نذكر أن انطلاقة الصين بدأها القائد العسكري والسياسي دينغ هسياو بينغ الذي وضع السلطات التنفيذية تحت رقابة صارمة من جانب الحزب الحاكم بعد استبعاد العناصر الأيديولوجية المتطرفة وإعلاء البراغماتية على الأيديولوجية.

لكن طروحات تشومسكي، على أهميتها، هي مجرد نقطة انطلاق نحو صورة أكثر تركيبا. وهي كافية لفهم مواقف من يسعون لتكريس آليات العولمة لإدامة سيطرة الأبيض الغربي، ولزيادة الفقراء فقرا والأغنياء غنى. لكن وضع العالم اليوم ينطلق منها لمدى أبعد، مع تصاعد الوعي بضرورة تأسيس العولمة على تعاون دولي يحترم سيادة ومصالح واحتياجات كل دولة وطنية، كما سنبين لاحقا بعرض آراء طرحت في الجامعة الأميركية بالقاهرة، وهي آراء تحض على التمييز بين العولمة وبين التعاون الدولي. تعتمد العولمة على تنفيذ حكومات العالم لتوجهات واستراتيجيات يضعها "صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة الدول الصناعية السبع ومنظمة الغات وغيرها من المؤسسات التي تعمل لصالح الشركات العابرة للقوميات فضلا عن البنوك وشركات الاستثمار العالمية" التي يعتبرها تشومسكي» الحكومة التي تسير العالم فعليا – وذلك في زمن يمكن أن نسميه عصر الامبريالية الجديدة". أما التعاون الدولي، فهو، كما أوضحنا، تفاعل يتسم بأكبر قدر ممكن من الحرية.

كورونا تضعف العولمة

وإذا كانت العولمة تضعف اليوم بسبب الأوضاع التي فرضها فيروس كوفيد- 19 فالتعاون الدولي يشتد وينشط، وهذا التعاون يقوم على أساس اتفاقات تعاون بين أطراف ترى نفسها ماضية لهذا التعاون بقوة مصالحها المحلية وليس استجابة لما يرى فيه كتاب تشومسكي « استراتيجية للأغنياء موجهة بالأساس

الصين خط الدفاع الأول

لتدعيم المؤسسات والهيئات الاقتصادية التي تعمل خارج قوانين ومبادئ الأمم المتحدة تلك الهيئة التي تبقى – رغم كل ما تسببت به من مآس – الآلية الوحيدة المتعددة الأطراف التي يسمع من خلالها صوت البلدان النامية". وإذا كانت كورونا تضعف العولمة وتنشط التعاون بين أطراف زاد حرصها على استقلاليتها، فالعداء الأميركي المتزايد تجاه الصين يعزز حرصها على التعاون الدولي. لقد انفجر هذا العداء في وقت توقع الكثيرون له أن يختفي. ثم بعد تصاعده، في أعقاب ظهور كورونا، بدأت تظهر مؤشرات جديدة إلى احتمال اختفائه.

قبل أن تتحول كورونا إلى هوس دولي، تخلت الصين عن رفضها القديم شراء منتوجات زراعية أميركية رخيصة، وفي يناير 2020 وافقت على أن تبدا الشراء، وجاءت كورونا وقلبت الموازين وعاد العداء الأميركي للتصاعد.

وفي أجواء التازم الاقتصادي التي فاقمها الوباء، طرح الباحث علي أصلان، في تقرير نشرته وكالة الأناضول للأنباء(15 إبريل من العام 2020) هذا التساؤل:

هل ستتخلى الصين عن استراتيجية «الصعود التدريجي» وتصبح أكثر عدوانية؟ ولم تكن المصادر الصينية ترد على تساؤل أصلان، بل على تساؤلات ترددت أصداؤها في مختلف أنحاء العالم، حين قالت، في عديد من الوسائط الإعلامية، إن الرد

الصيني سيمضي إلى زيادة الاستثمار في ما يمكن أن نسميه الجوار القريب (إن جاز أن نستخدم هنا مصطلحات الاستراتيجية الروسية في عهد بوتين)ومع أسيا الوسطى، وفي السوق الداخلية الصينية.

وفي هذا الإطار سعت الصين إلى التأكيد على مفهوم لطالما نددت به الأدبيات الغربية، لارتباطه بالصعود النازي، لكن هذا التنديد تبقى له مبررات تتصل بحاجة كل قوة صاعدة إلى قدر من حرية الحركة في إقليمها، إن لم يكن في العالم. والمفهوم الذي نقصده هو المفهوم الذي كانت تشير إليه ألمانيا، قبل الحرب العالمية الثانية، بعبارة «المجال الحيوي»، ثم صارت روسيا بعد الشيوعية تشير إليه بتعبير «الجوار القريب».

ويصعب على المرء أن يتصور للصين الكونفوشيوسية فلسفة هجومية. وفي ضوء فهم الصين كقوة دفاع، مثل مصر والهند، عبر العصور، وبعكس الفرس والروم والعرب والغرب المعاصر، من العام 1492 وهو تاريخ السقوط النهائي للممالك العربية في الأندلس، نقرأ تقريرا مهما كتبه المحلل العسكري أليكساندر نيل، وهو مدير المستشارية الاستراتيجية في سنغافورة(إحدى النقاط القوية للامبراطورية البريطانية غير الرسمية)، والذي يحمل العنوان»بحر الصين الجنوبي: ماهي خطة الصين بخصوص ‹حائط الرمال العظيم› "

في هذا العنوان تجد جوهر قراءتنا لتاريخ الصين عبر العصور، هو تاريخ دفاعي يريد إحاطة العملاق الصيني بحائط قد تتغير طبيعته عبر العصور لكنه يبقى، وإن تجاوزته النشاطات التجارية الصينية، حائطا دفاعيا، محيطا بالوطن الصيني. فهل يتسع مفهوم الصينيين للوطن، وبشكل قد يستفز القوة الأميركية؟ هل يشجع الصين على التصرف وفق مفهومات جديدة تعطي الوطن الصيني بعدا يهدد الاستقرار الدولي ما هو ملحوظ من تصاعد في قوتها الاقتصادية ومن تراجع في القوة الاقتصادية الأميركية؟

قد يكون صحيحا أن الصين اليوم تنظر لمفهوم الوطن الصيني نظرة ألمح إليها أليكساندر نيل في تقريره المشار إليه بأعلاه حين قال "تنظر بكين إلى بحر الصين الجنوبي باعتباره جزءا حيويا من إقليمها البحري، لاتقتصر حيويته فقط على أنه امتداد لمنطقة تحصين رادعها النووي في جزيرة هاينان، بل هو أيضا بوابة طريق الحرير البحري، وجزءا من مبادرة الصين المعروفة باسم الحزام والطريق".

قد يكون هذا صحيحا لكنه لا يمكن أن يدفعنا لتجاهل أن التراجع الاقتصادي في الولايات المتحدة هو تراجع نسبي، وأن القوة العسكرية والسياسية والثقافية للولايات المتحدة لا تزال متفوقة على ما لدى الصين أو غير الصين من مظاهر القوة. وأيا كان الأمر فقد يعود الموقف الصيني الأقرب للتعقل ، ليس فقط إلى إدراك الصين لتنوع مصادر القوة الأميركية ولكن أيضا إلى واحد أو أكثر من العوامل التالية:

- تأثير الكونفوشيوسية التي هي، بالأساس، رفض للحرب وبحث دائم عن التناغم بين الذات وبين الآخرين. ولكن يتعين أن نتذكر تركيز الكونفوشيوسية على التراتبية، وعلى ضرورة الحفاظ على النظام العام. كما يجب أن نتذكر أيضا ما فعلته القوات المسلحة الصينية بالجيش

الثامن الأميركي، حين أبادت معظم جنوده، نهاية العام 1950 في معركة نهر تشونغ تشون في كوريا الشمالية، مقررة بذلك النتيجة النهائية للحرب الكورية

- أن تكون القيادة الصينية مؤمنة بالرؤية التي عبر عنها جيوفاني آريغي في كتابه» آدم سميث في بكين». في هذا الكتاب يرى آريغي العالم الرأسمالي مجتمعا واحدا يقوم على سوق كوكبية. وفي هذا المجتمع الواحد يمكننا أن نتصور أن التباعد صار مستحيلا وأن المسألة قد تكون مسألة وقت، قبل أن يجد مجتمع السوق الكوكبي نفسه خاضعا لسلطة بكين التي تؤمن بتبادل المنفعة، كما يخضع أي مجتمع لقيادته الرشيدة(أو التي يتصورلسبب ما أنها رشيدة) بعد خمسة قرون من الخضوع لسلطة انتقلت من باريس للندن في العام 1815 ومن لندن لواشنطن في العام 1945، وإن كان ظل الرئيس الأميركي ويلسون كان ماثلا بقوة وراء مقعد رئيس الوزراء لويد جورج وهو يدير مفاوضات ترتيب أوضاع العالم في فرساي في العام 1919.

- أن يكون للقوة الاقتصادية الصينية امتداد داخل المنظومة الاقتصادية الأميركية، بخلاف ما لدى الصين من دولارات ومن أوراق مالية أميركية؛ أن يكون في الولايات المتحدة من المتعاطفين مع مشروع التعاون مع الصين وروسيا وبقية القوى غير المسيحية وغير البيضاء من يمكنه أن يضع صيغة تفهم أميركي أفضل لمتغيرات التاريخ.

هذا الميل للتهدئة ينسجم مع بعض ما ورد في مناقشات دارت في كلية الشؤون العالمية والسياسة العامة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، بالتعاون مع مؤسسة تالبيرغ، في الثامن من مايو عام 2020 إبان نقاش يدعى«نقاش التحرير 86» حول القضايا التى سلطت عليها الضوء الأزمة الحالية من جائحة كورونا، وما هو شكل النظام العالمى الناتج عن هذه الأزمة فى المستقبل. ولأن المناقشات طرحت إطارا كونيا أوسع للظروف التي ترتبت على الجائحة الراهنة، أن نختم بها هذا الفصل.

في هذه المناقشة، طرحت تساؤلات مثل: هل ستستمر العولمة أم وصلت إلى نهايتها؟ ومن سيكون الفائز فى النظام العالمى، إن وجد فائزون؟ هل سيتعزز التعاون الدولى، أم سينتج عن الأزمة عودة للوراء للدول القومية ومفهوم السيادة وانتصار القومية الشعبوية؟

وكان بين المتحدثين «يان أليسون» ـوهو نائب سابق للأمين العام بالأمم المتحدة ووزير خارجية سابق بدولة السويد . قال أليسون "ستحدث بالطبع تغييرات فى النظام الدولى. فهذا الوباء من الممكن مقارنته بأحداث 11 سبتمبر التى أثرت على العديد من المجالات بشكل كبير. هذه الأزمة ستخلق مفترق طرق، طريق يركز على الداخل ليعطى الأولية لمصالح الدول القومية، والآخر يركز على تحقيق التعاون الدولى.. أظهرت الأزمة أيضا أهمية الاعتماد المتبادل، فهى لن تحل إلا بإشراك المنظمات الاقتصادية ومؤسسات المجتمع المدنى والقطاع الخاص.. إلخ التى سيكون لها دور فى صنع المستقبل. كذلك نتجت عن الأزمة مراجعات لبعض الآراء التى تبنيناها فى الماضى، مثل العولمة التى لم تحقق آمال الكثيرين، أو التعاون الأوروبى الذى لم يظهر عندما استنجدت إيطاليا بدول الاتحاد، وشكل اختبارا صعبا للأمم المتحدة خاصة

مع قرارات ترامب الانسحاب من بعض المنظمات التابعة لها. وأشار أليسون أيضا إلى الفجوة الأمنية التى نتجت عن هيمنة القوة العسكرية، وعن تجاهل القوى الدولية والحكومات الوطنية لحقيقة أن الأوبئة والتغيرات المناخية تقع فى صلب المشكلات الأمنية، كذلك رفضت الصين والولايات المتحدة معا مناقشة أزمة كوفيد ــ 19 فى مجلس الأمن.

ثم تساءل المتحدث الثانى آلان ستوغا ــ رئيس مؤسسة تالبيرغ ــ عن العالم الذى نريده بعد أن تأكدنا من أننا لا نريد العالم الذى لدينا الآن، فالجائحة كانت أول أكبر اختبار للعولمة وفشلنا فيه على جميع الأصعدة.. أما بالنسبة لموقف الولايات المتحدة وابتعادها عن لعب دور قيادى خلال الجائحة. وأشار ستوغا إلى أن الأميركيين يعتبرون أن الوباء مستورد، مبررين بذلك ميلا للابتعاد عن المشاركة الدولية بحجة الابتعاد عن الوباء.

نقطة أخرى أثارها ستوغا حين اعتبر أن النقاشات التى تدور الآن فى الولايات المتحدة على «إعادة الفتح»، وهى النقاشات حول إعادة فتح المطاعم وصالونات الحلاقة، لا تشمل فتح الحدود أو سلاسل التوريد أو الانخراط عالميا. وخلص إلى أن الجائحة ستعزز التوطين localization كبديل عن العولمة.

بالنسبة للعلاقة بين الصين والولايات المتحدة، قال ستوغا إن الصين لم تشارك فى وضع النظام العالمى الحالى، ولكنها ورثته بعدما حصلت على مقعد فى مجلس الأمن. وأوضح أن الصين لا تريد أن تصبح جزءا من هذا النظام الذى لا يعكس التغييرات التى حدثت. الصين لجأت إلى الأمم المتحدة داعية إلى إعادة التفكير فى النظام العالمى ووضع نظام جديد، إلا أن أوباما رفض من منطلق أننا جميعا جزء من هذا النظام ونعمل داخله. ولكن الفرصة موجودة الآن لإعادة بناء النظام العالمى. فنحن فى فترة تظهر فيها الفوضى جلية، والحاجة إلى التغيير واضحة، والتحدى هو امتلاك الذكاء لإحداث التغيير.

وتحدث غسان سلامة ــ مبعوث الأمم المتحدة السابق إلى ليبيا وأستاذ العلاقات الدولية ــ فقال إنه من الضروري التفرقة بين مفهومى العولمة والتعاون الدولى، لأن الخلط بينهما أضرا بالاثنين، فالعولمة هى عملية منظمة من جانب الدول، أو على الأقل الأكثرهم تأثيرا، طغت سلبياتها على إيجابياتها، أما التعاون الدولى فهو قبول طوعى، من جا نب كل دولة من الدول، بحل مشكلاتها عبر المعاهدات أو عبر المنظمات الدولية لتحقيق نتائج مربحة لها ولغيرها.

ونبهنا سلامة إلى ما يجري اليوم من خلط بين المفهومين، فمن يعادى العولمة يعادى التعاون الدولى. وقال : الأيام المقبلة ستجبرنا على المزيد من التعاون الدولى والاستماع إلى من يعانون من مساوئ العولمة. العولمة كانت تعنى تراجع الدولة من أجل مصلحة السوق، والمجتمع المدنى.. لكنها لم تعط النتائج المرجوة، ففى دول العالم الثالث فاقت سلبيات العولمة إيجابياتها، وإضعاف الدولة لم يكسب منه السوق أو المجتمع المدنى، بل الجماعات المسلحة. أما بالنسبة للأمم المتحدة، فقد أوضح سلامة أن ما يهددها الآن هو غيابها عن حل جميع المشكلات والأزمات الراهنة. وإن بقيت على عجزها عن حل المشكلات فلن تلجأ إليها الدول وستهمش مع الوقت.

الفصل الثامن

الانفلونزا الإسبانية
بداية القرن الأميركي

- الانفلونزا الإسبانية في المشرق العربي
- الوباء والتطرف
- تطور إجراءات الصحة العامة

التعامل مع الإنفلونزا الإسبانية والقضاء على تداعياتها

بالرغم من التاريخ والرصيد المليئ بالجوائح الصحية مثل الانفلونزا الإسبانية والتي اجتاحت العالم في سيناريو شبيه ومكتمل الاركان بما هو حال جائحة كورونا إلا أن انتصار كورونا على العالم يعكس حقيقة ان لا أحد استفاد من التاريخ ودروس الماضي في معالجة جوائح الحاضر والاستعداد لها.

فهل تكون جائحة كورونا درس مؤلم يجعلنا مستعدين وفي حالة إستشراق لأي جوائح جديدة، فما بين الانفلونزا الإسبانية والطاعون الأسود والجدري وكورونا يمكن القول ان النافذة مشرعة لجوائح أو تكاثر فيروسات جديدة.

ينبهنا الباحث ماكس روزر، وهو مدير برنامج مارتن للتنمية العالمية في أكسفورد، في تقرير بعنوان «الانفلونزا الإسبانية (1918–1920): الأثر الكوني لأطول جائحة انفلونزا في التاريخ» إلى حقيقتين تميزت بهما المئة وخمسون عاما الأخيرة: أن متوسط العمر المتوقع للإنسان في مختلف أنحاء العالم تضاعف من حوالي الأربعين لحوالي الثمانين عاما؛ وأن أحداثا صحية مفاجئة ومدمرة تدهمنا بين الحين والحين. ومن تلك الأحداث المفاجئة والمدمرة، يقول روزر، الانفلونزا الإسبانية.

وعلى رغم الاسم، فهذا الوباء، الذي عرفناه باسم «الجائحة المنسية»، لا تزال تحيط به ملابسات كثيرة

تضفي عليه قدرا من الغموض، ولن نكف عن الإشارة لذلك لأن غموض هذه الجائحة وثيق الصلة باستعدادنا للجوائح التالية لأسباب من أهمها اتصال عدد كبير منها، وفي مقدمته جائحة كوفيد- 19، اتصالا عضويا بالانفلونزا. ومن مظاهر الالتباس أن وباء الانفلونزا الأسبانية لم يقتصر على اسبانيا ولم يبدأ منها، بل بدأ من نيويورك، وفقا لبحث أجراه دونالد أولسون وآخرون في العام 2005، أثبت ظهور موجة واسعة من الوباء الفيروسي في تلك المدينة قبيل انبثاق الجائحة. لكنها اكتسبت ذلك الإسم لأن حياد اسبانيا في الحرب العالمية الأولى(1914-1918) أتاح لها نشر تقارير عنها في مختلف بلدان العالم، في حين أخفت البلدان المتحاربة حقيقة ما حل بسكانها من وفيات جماعية حفاظا على الروح المعنوية للجنود وللمدنيين، على السواء.

وهناك من الباحثين الذين أسبغوا عليها إسم بريطانيا وألمانيا، فقد جاءت التسمية العشوائية بعد أن قررت السلطات في كثير من الدول الأوروبية والولايات المتحدة فرض رقابة صارمة على نشر أخبار عن الجائحة في تلك البلدان. وكانت إسبانيا هي الاستثناء حيث راحت الصحافة تنشر الأخبار حتى باتت تعرف بالانفلونزا الإسبانية.

بينما كان العالم لا يزال في خضم كارثة الحرب العالمية الأولى كشفت صحيفة «ديلي ميل» عن عدد من أوجه التشابه بينها وبين الأجواء التي يشهدها العالم ولا يزال مع انتشار كوفيد- 19. وكما هو الحال في عامي 2020-2021 كانت هناك إرشادات صحية بالتباعد ووضع الكمام وغسل اليدين ولكن لم تكن هناك أي إجراءات إغلاق حكومية. وفي سبتمبر 1918، أصيب رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج بالانفلونزا خلال جولة له في مانشستر وجيء له بطبيب مشهور لفحصه. وكان رد فعل الطبيب: «أظن انه مصاب بالانفلونزا الإسبانية. لا تخبروا أحدا»، وكان ذلك تحسبا من توظيف ألمانيا للواقعة لصالحها في الحرب. وكان لويد جورج آنذاك في عمر 55 وهو السن ذاتها التي أصيب فيها رئيس الوزراء الحالي بوريس جونسون بكوفيد- 19 في أبريل 2020.

وإذا كان منطلق وحش الانفلونزا في 1918 هو نيويورك فبدايتها تتزامن مع بداية القرن الأميركي، ما يعطي طابعها الأميركي بعدين أحدهما جغرافي والثاني تاريخي. فالولايات المتحدة انضمت للحلفاء، في الحرب العالمية الأولى في ربيع العام 1917، وكانت القوة المهيمنة وراء النفوذ البريطاني الظاهر في مؤتمر الصلح في فرساي في العام 1919، وبقيت صاحبة النفوذ العسكري والاقتصادي والسياسي والثقافي المتصاعد، على العالم كله، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، برأي نعوم تشومسكي، الذي يعتبر أن فقدانها الصين لصالح الشيوعيين علامة تراجع أكدته خسارتها لحروبها في جنوب شرق آسيا. ولكن يتعين أن نتذكر أن حصة أميركا من ثروات العالم اليوم تقترب من الثلاثين بالمئة في حين أن سكانها يزيدون قليلا عن ثمانية بالمئة من إجمالي سكان العالم. لكن بروز قوى اقتصادية وعسكرية مثل الصين والهند والاتحاد الأوربي، في مواجهة الولايات المتحدة، حتى وإن لم يكن علامة تدهور أميركي، فهو علامة تراجع نفوذ، ما قد يعني أن العام 1919 كان بداية القرن الأميركي. وكوفيد- 19 على اختلافه مع الانفلونزا وما يتصل بها من الأمراض، فيه وجوه تشابه معلومة معها.

وبعد ظهور الانفلونزا الاسبانية في نصف الكرة

وباء الإنفلونزا الأسبانية

الشمالي تسارع انتشارها في مختلف أنحاء العالم، فتحول الوباء إلى جائحة. وعلى رغم أن عالمنا في تلك الفترة لم يكن مترابطا على النحو الذي نعرفه اليوم، فقد بلغت الانفلونزا «مناطق نائية ومعزولة مثل براري آلاسكت وساموا في وسط جزر الباسيفيك»بتعبير ماكس روزر. وقد بلغت الجائحة ذروة الشراسة في العام 1918 لكنها بقيت تفتك بالبشر حتى أواخر العام 1920.

وإذا كانت التقديرات تشير إلى أن الانفلونزا تقتل، في أيامنا هذه، قرابة 400 ألف إنسان سنويا، في المتوسط، فهذا يعني أنها تقتل واحدا من كل 18 ألفا وسبعمئة وخمسين شخصا، في العام. لكن معدل الوفيات بسبب الانفلونزا الاسبانية زاد عن هذا المعدل، زيادة هائلة.

ويضع روزر يده على بعض الاختلافات بين الانفلونزا وكوفيد- 19. من ذلك:

أننا يجب أن نتذكر أنهما ليسا المرض ذاته وأن الفيروسات المسببة للمرضين مختلفة.

تركز خطر الانفلونزا الاسبانية على الأطفال في حين كان معظم ضحايا كوفيد19- من كبار السن وإن امتد خطره البالغ على الشباب.

تكتمت معظم بلدان العالم على الحقائق المتصلة بدرجة انتشار الانفلونزا الاسبانية عندها وعلى عدد المصابين وعدد الموتى جراء الإصابة. أما اليوم فتبادل المعلومات والتواصل بين البشر بلغا مستوى غير مسبوق في تاريخ الإنسانية، ما يساعد على التعاون في مواجهة

الخطر. لم يكن يصل بين مختلف بقاع العالم آنذاك سوى البواخر والقطارات، أما اليوم فانتقال البشر والعلومات والفيروسات سريع بدرجة مذهلة.

ظهرت الانفلونزا الاسبانية قبل ظهور المضادات الحيوية، وقبل تطور نظم الرعاية الصحية. وربما كان السبب في معظم الوفيات إبان تلك الجائحة يعود، ليس إلى فيروس الانفلونزا ذاته ولكن إلى أشكال من العدوى البكتيرية الثانوية المسببة لأمراض مثل الالتهاب الرئوي.

لم يقتصر تخلف ذلك العصر على نظم الرعاية الصحية بل على أساليب العيش وعلى الأحوال العامة لسكان الكوكب. كانت نسبة الفقراء إلى مجمل السكان أكبر كثيرا مما هي اليوم، ومستوى التغذية أشد تدنيا، والمرافق المنزلية والعامة بالغة التخلف، في معظم بقاع العالم.

وفوق ذلك كله، فقد أضنت سكان الكوكب حرب عالمية طاحنة، التهمت قسما كبيرا من موارد الدول، فقيرها وغنيها.

الدرس الأهم الذي نستخلصه من الانفلونزا الاسبانية هو أن ظهور مسبب جديد للمرض، ظهور مُمْرِض، لم يسبق لنا التعامل معه قد يسبب وفيات بالملايين، حتى في البلدان الأكثر ثراء والأقدر على توفير الرعاية الطبية لمواطنيها. كما يتعين أن نتذكر أن الفقراء هم الفريسة السهلة لكل جائحة.

ولا يذكر ماكس روزر أن الاحتراب الشامل حال دون التعاون بين البشر في مواجهة الجائحة ولم يسمح بظهور الشعور بوحدة المصير الإنساني على النحو الذي نشعر بتصاعده في مواجهة الجائحة الراهنة.

وفي مناقشة بثها الراديو الوطني العام NPR في واشنطن في الرابع والعشرين من مارس 2020 حول أوجه الشبه والاختلاف بين الانفلونزا الاسبانية والجائحة الراهنة قال جون باري، أستاذ بمدرسة الطب في جامعة تولين الأميركية ومؤلف الكتاب المهم «الانفلونزا الاسبانية: قصة أخطر وباء في التاريخ»، إن القيادة السياسية أخفت الحقائق كاملة على المواطنين الأميركيين أيام الانفلونزا الاسبانية، متذرعة بظروف الحرب وبدواعي الأمن السياسي. كان القادة يقولون للجمهور أشياء من قبيل لا تخافوا، فهذه انفلونزا عادية ولكن باسم جديد. نحن نتخذ كل الاحتياطات اللازمة. وكرر القادة المحليون، في مختلف الولايات، بمدنها وقراها، القول ذاته. ولهذا السبب لم يلغوا عرضا جماهيريا كبيرا كان مخططا له في فيلادلفيا، مثلا، على رغم توسل الأطباء للسلطات بضرورة إلغاء العرض، فانفجرت الانفلونزا بوجه المدينة، على اختلاف أحيائها، خلال 48 ساعة. هذا العرض كانت السلطات الطبية تقدر مسبقا أنه سوف يشهده 300 ألف إنسان وتحذر من خطورة ذلك، وبرغم ذلك لم يصغ المسؤولون السياسيون بنصيحة المسؤولين الطبيين، واحتشد مئات الألوف، فكان حصاد الموت الهائل.

وفي مرحلة لاحقة أقرت السلطات تدابير تشبه ما ندعوه اليوم التباعد الاجتماعي، لكن بعد فوات الأوان، إذ كان الفيروس قد انتشر على نطاق واسع في المدينة، فأودى بحياة أكثر من 14 ألفا من سكانها. ولم يكن الدرس هو ضرورة تطبيق التباعد الاجتماعي فحسب، بل وتطبيقه في أقرب وقت ممكن، والانتظار قد يجعل الخسائر أكبر وأوسع نطاقا من أن يحتملها النظام الاجتماعي – الاقتصادي– السياسي.

التعقيم ضد الانفلونزا كان بدائيا مقارنة بإمكانات الوقت الحالي

وأيا كانت الرؤوية لدرجة الدقة ومدى المبالغة المعادية للسلطة، بخصوص الانفلونزا الاسبانية والإحالات على الحاضر، فيبقى أن الحذر واجب وفي أن اعتبارات السلامة العامة(على مستوى الكوكب وليس فقط على مستوى البلد الواحد) يتعين أن تبقى مقدمة على الاعتبارات الحزبية.

الانفلونزا الاسبانية في المشرق العربي؟

نجد هنا مصادفة غريبة أخرى، تضاف إلى ارتباط الانفلونزا الاسبانية ببداية ما يسميه إريتس مانيلا اللحظة الأميركية – بداية صعود القوة الأميركية – في العام 1919 وارتباط فيروس كورونا ببداية تراجعها(النسبي على الأقل) في العام 2019، ففي العام 1919 مات الأب البريطاني لخرائط الشرق الأوسط مارك سايكس، وهو في ذروة نشاطه عبر دوره في مؤتمر فرساي، حين دهمه المرض فانسحب لغرفة الفندق التي لم يخرج منها إلا إلى قبره. واليوم يعاني الشرق الأوسط، كما تعاني شعوب العالم الأخرى من فيروس كورونا، وبالوقت ذاته تتمزق خرائط الشرق الأوسط تحت حوافر الخيول التي تحرك الطواعين السياسية بإخراج فئران الفوضى المحملة بجراثيم التمرد من جحورها، كما أخرجت خيول التتار فئران الموت الأسود من جحورها في القرن الرابع عشر

لتفتك بقسم كبير من الجنس البشري.

وقد كانت سوريا العثمانية في خريف العام 1918، وهي اليوم الجمهورية العربية السورية(أو ما تبقى منها) وفلسطين(أو ما تبقى منها) وإسرائيل(التي لاتعرف لنفسها ولا يعرف لها العالم حدودا أو دستورا أو نظاما يمكن تحديده كجمهورية أو ملكية أو ثيوقراطية لم يتحدد شكلها السياسي بعد) ولبنان(الذي ندعو له بتجاوز محنه) والأردن، كانت تلك المنطقة هي الأكثر معاناة من الانفلونزا الاسبانية، بين مختلف مناطق الشرق الأوسط. وقد عالج أوضاع سوريا الكبرى إبان عامي الانفلونزا الاسبانية الباحث كجيل جوستين يلانغفيلت لينذ، وهو أحد أبرز الباحثين في الشؤون الإسرائيلية، في رسالته التي حصل بها على الماجستير من جامعة لندن، وهي تحمل العنوان»أثر جائحة الانفلونزا الاسبانية في العام 1918 على سوريا الكبرى».

ويبدأ الباحث رسالته بالتنويه بالتفاوت الكبير بين تقديرات ضحايا الجائحة، التي تراوحت بين 30 مليونا و100 مليون. وهي أرقام ليست مستغربة في وقت مجزرة كونية هائلة بلغ عدد ضحاياها عشرين مليون قتيل، بخلاف الجرحى والمشوهين، حين كان عدد سكان العالم أقل من ملياري نسمة. وليس بمستبعد أن تكون أرقام ضحايا الحرب قد اختلطت بأرقام ضحايا الجائحة. لكن الباحث يعتبر كارثة الجائحة أخطر من كارثة تلك الحرب ومن كارثة الحرب الكونية الثانية، التي هي امتداد لكارثة الحرب الأولى أو الفصل الثاني منها، وقد شهدت الحرب الثانية هجومين نوويين على مدينتين يابانيتين، وبلغ عدد ضحاياالحرب ستين مليون قتيل بخلاف الجرحى والمشوهين.

وإن لم تكن الانفلونزا الاسبانية أكبر كارثة – على العموم – في القرن العشرين كما يرى الباحث فهي، على الأقل ،أكبر كارثة صحية في ذلك القرن. وقد كانت حركة «أبطال» كارثة الحرب الأولى، هي الناقلة لفيروس الانفلونزا والمحددة لمسارات الكارثة الصحية التي ترتبت عليها. وينظر لينذ إلى العسكريين والمدنيين الذين وقعوا في دائرة النار في الحرب العالمية الأولى باعتبارهم مجرد كائنات بيولوجية عربية ويهودية امتزجت بكائنات بيولوجية أخرى هي الفيروسات في الموجة الثانية من جائحة الانفلونزا الاسبانية التي اجتاحت الشرق العربي بعد أن جاءت من مصر ثم وصلت إليه عبر سوريا وفلسطين.

بدأت الموجة الثانية من الانفلونزا الاسبانية من فرنسا التي وقع فيها، على الأرجح، تحول الفيروس استعدادا لهجمته الثانية بعد أربعة أشهر من ظهوره في الولايات المتحدة وانتشاره في مختلف أنحاء العالم. وقد بلغ الفيروس منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط في العام 1918، دخل البلاد من موانئها التي استقبلت السفن الأوربية الموبوءة. ومن مصر حملت السفن الحربية المبحرة من بور سعيد والاسكندرية الجنود والانفلونزا إلى الشام والعراق من جهة، وإلى الهند من جهة أخرى. ودخل الفيروس بلاد الشام، تحديدا، من يافا التي أنزلت فيها السفن الحربية البريطانية الجنود في أوائل سبتمبر استعدادا لشن الهجوم الثاني في التاسع عشر من الشهر . وتعتبر قوة الحملة المصرية Egyptian Expeditionary Force ، بجنودها المصريين وضباطها الذين كان معظمهم من الانكليز، والتي قادها الجنرال اللنبي، أكبر ناقل للعدوى بالانفلونزا التي دخلت مصر من البحر، قادمة من أوربا.

الإنفلونزا الأسبانية

وبعد أن اجتاحت الانفلونزا بلاد الشام، كتب رقيب بريطاني شارك في الزحف على دمشق، ضمن قوات الجنرال اللنبي"فيما وجدت القوات نفسها في راحة مؤقتة من نيران المدافع والقنابل، إبان الزحف، فوجئت بأن الجنود يحصد أرواحهم وباء الانفلونزا التي اكتملت سيطرتها على بلاد الشام في مطالع أكتوبر وكان تساقط الرجال كالذباب. وفي بعض الوحدات الاسترالية صار هناك ثلاثة أو أربعة أحصنة مقابل كل جندي. وقد تضافر تأثير الانفلونزا الاسبانية مع تأثير الملاريا، وخاصة في حالة الفيالق اليهودية المشتركة في الحرب، ليضاعف خسائر قوات الحلفاء، وقد فاقم الوباءان، بالمثل، خسائر الطرف المقابل (المؤلف من العثمانيين والألمان وشركائهما).

وقد بلغت الانفلونزا الاسبانية شبه جزيرة العرب في سبتمبر من العام 1918. وإذا كان الجنرال العثماني فخري باشا قد رفض الاستسلام حتى بعد إعلان وقف إطلاق النار وإقرار السلطنة العثمانية بهزيمتها أمام الحلفاء الذين مثلتهم بريطانيا في مراسم توقيع الهدنة في ميناء ميدروس على بحر إيجة، فقد اضطر الباشا لتسليم حامية المدينة المنورة ليس تحت ضغط القوة العسكرية المعادية ولكن بفعل الإنهاك الذي حل بقواته بسبب الوباء.

وعندما بلغ الوباء منطقة نجد استدعى أميرها الملك عبد العزيز بن سعود الطبيب الأميركي بول هاريسون من الكويت، فبلغ الرياض بعد رحلة شاقة استمرت خمسة أيام. ويقدم هاريسون في مذكراته وصفا مؤثرا لعبد العزيز بقوله، إن من يقابل هذا الرجل، يشعر بهيبته الملكية (يقصد :حتى قبل أن يصبح ملكا) وإن تمتع بما يدعوه هاريسون «ديمقراطية الروح الكاملة» التي تنبع

من مودته وكرمه كمضيف، حتى أن الطفل الصغير لا يخفل من محادثته(ونحن ننقل هنا عن تقرير نشره نجل هاريسون وهو تيموثي هاريسون في العدد الثالث من المجلد الثامن عشر لجوينت آركايفز – 2008). وعندما بلغ هاريسون الرياض وجد أن عشر سكانها(عشرة آلاف نسمة) قتلهم الوباء، ووجد الأمير الصغير ذي العشر سنوات تركي بن عبد العزيز مصابا بالانفلونزا. وقد قتلت الانفلونزا الأمير الصغير، بكر الملك المؤسس عبد العزيز آل سعود.

ويستشهد ليند بمقتطفات من مذكرات قنصل اسبانيا في القدس ليصف الحال التي بلغتها القدس عندما بلغها الوباء المزدوج، انفلونزا وملاريا، في منتصف سبتمبر من العام 1918 مصحوبا بالحر والرطوبة. وإذا كان مدير مكتب الاستخبارات البريطانية في القاهرة البريغادير كلايتون قد سجل في مذكراته أن الحالة كانت طيبة في منتصف اكتوبر، فمذكرات مسؤول ألماني من تلك الفترة تؤكد تفاقم الأوضاع في الشام بسبب تضافر أثر الوبائين (الانفلونزا والملاريا) مع أثر المجاعة التي بدأت من العام 1917. وفي حين تمكنت الجماعات السكانية المسيحية واليهودية من حماية أعضائها من أثر المجاعة، فقد مارس العثمانيون التمييز ضد السكان العرب بسبب تعاطفهم مع قوات الحلفاء.

وتقول دراسة أجراها كريستوفر روز من جامعة سانت إدواردز الأميركية أن الانفلونزا الاسبانية التي اجتاحت مصر في خريف العام 1918قتلت 11 شخصا من كل ألف من سكان البلاد، فقد بلغ عدد الضحايا 138 ألفا من البشر. وأن ما ساعد على هذا الحصاد المروع للأرواح كان تفشي المجاعة بسبب تخصيص السلطة المحلية الخاضعة للسلطة العسكرية البريطانية موارد البلاد للجيوش الغربية المحاربة،؛ وتفاقم الوضع بسبب انشغال المرافق الصحية بالجنود الغربيين عن سكان البلاد. ويخلص الباحث كريستوفر روز إلى أن سوء إدارة الأزمة التي خلقتها ضغوط الوباء والمجاعة والحرب هي التي ساعدت على انفجار الهبة الثورية في العام 1919.

والعجيب أن الوباء دخل مصر متزامنا مع توقيع اتفاق إنهاء الحرب في ميدروس، ما كان مفترضا أن تتحسن معه الأمور. وقد أقرت لجنة ملنر التي أوفدتها لندن لتقصي أسباب سخط المصريين على الإدارة الأنكلو – مصرية للبلاد بأن سوء تصرفات وعجزها عن احتواء آثار الوباء والمجاعة وضغوط الحرب، هذه الإدارة هو ما فجر الغضب الشعبي العارم في العام 1919.

الوباء والتطرف

ما سبق عالج أثر الوباء على الأوضاع السياسية في المشرق العربي وعلاقته بهبة ثورية كان لها أبلغ الأثر على مسارات التاريخ في أكبر دول المنطقة، وهي الحاضرة المصرية التي ربما كان من الممكن القول إن تلك الهبة وضعتها على طريق التحول إلى مملكة شبه مستقلة، فقد نشر موقع ميل أون لاين mailonline البريطاني بتاريخ الخامس من مايو العام 2020 تقريرا عن أثر الانفلونزا الاسبانية على صعود القوى النازية في ألمانيا. ويعتمد التقرير على ورقة بحثية لبنك الاحتياط الفيدرالي في نيويورك. وبحسب الورقة البحثية فقد صار الناخبون أكثر ميلا للتصويت للأحزاب المتطرفة، وخصوصا للحزب النازي، بسبب الوباء.

ويقول التقرير إن أكبر أسباب هذه التحولات

لصالح التطرف هو أن الوباء غَيَّرَ سُلَّم الأفضليات عند الجمهور وعمق نفورهم من الأجانب. ولا تستبعد ميل أونلاين أن تلي جائحة كوفيد- 19 الراهنة موجة كراهية للأجانب في مختلف بلدان الغرب، خاصة وأن الميول الشعبوية الجديدة ظهرت قبل الوباء، ومنذ بدأ صعود الحزب اليميني المدعو الجبهة الوطنية، من ناحية، والحزب اليساري المدعو فرنسا المتمردة من ناحية أخرى. والحزبان رافضان لعضوية فرنسا في الاتحاد الأوربي ورافضان للعولمة، كما تقول الأدبيات التي تعالج مسيرتهما السياسية. ولكن الواضح أن الحزبين ينطلقان من رفض الليبرالية الجديدة التي تزيد الغني غنى والفقير فقرا. وأيا كان تفسير الدوافع السياسية للحزبين فكلاهما شديد الحساسية تجاه الآخر، ويعد صورة أوربية بالغة التأثير للآخرية، كما تجدها اليوم في بلدان مثل المجر أو النمسا. وتجد في الولايات المتحدة أيضا، في الوقت الراهن، خلافات حول الليبرالية الجديدة تتضافر مع خلافات حول طبيعة العلاقات بين البيض وغير البيض من مواطني البلاد وتصب جائحة كوفيد- 19 الزيت على نيران هذه الخلافات.

وإذا كان الحديث يتردد بقوة، منذ منتصف العام الأول في عمر كورونا، حول موجة ثانية للوباء، وحول تأثيرات الموجة الثانية وما تستدعيه من تدابير، فقد يكون من المفيد العودة إلى تاريخ الانفلونزا الاسبانية وموجتها الثانية وأسبابها وما ترتب عليها.

يرى مارك غولوم، من سي بي سي العالمية CBC World أن «الموجة الثانية القاتلة لجائحة الانفلونزا الاسبانية للعام 1918 قد تكون مفيدة في معالجة إعادة الفتح اليوم» وهذا هو عنوان تقريره المنشور في الثالث عشر من مايو من العام 2020، والذي نبه فيه المسؤولين الحكوميين في بلاده وفي بقية أنحاء العالم، من النتائج القاتلة للتسرع في رفع قيود الحركة التجارية والاجتماعية، وفي تجاهل دروس الانفلونزا الاسبانية المؤلمة.

ونقل غولوم عن أستاذ التاريخ المساعد بجامعة ولاية أوريغون كريستوفر ماكنايت نيكولز ومدير مركز الدراسات الإنسانية بالجامعة قوله إن الانفلونزا الاسبانية قد تكون واحدة من اللحظات التاريخية القليلة التي يكاد ينعقد إجماع المختصين على ضرورة الاستفادة من دروسها لفهم ومعالجة مشكلات الحاضر».

وقال نيكولز إن الانفلونزا الاسبانية استمرت لوقت كان كافيا لإعادة النظر في سياسات الصحة العامة وفي التدابير الأقدر على محاصرة الوباء وتقليل الخسائر «لكن ذلك لم يحدث». ويؤكد نيكولز ومصدر آخر نقل عنه غولوم، هو جون باري الأستاذ الجانعي والمؤلف، أن الإجراءات المتسرعة كانت ملموسة في الولايات المتحدة وكندا في زمن الانفلونزا الآسيوية، وأن هذا الاندفاع غير المحسوب ربما كان يتكرر اليوم.

وعقب ظهور إشارات التحذير الطارئة للإنسانية كلها من تكرار الأخطاء التي وقعت في مواجهة الانفلونزا الأسبانية، توالت ردود فعل لها ثقلها. وأهم ما في الردود على هذا التحذير أنها تنبهنا إلى خطورة الخلط بين الحقائق والأوهام الشائعة في مواجهة أي أزمة صحية كانت أو اجتماعية أو سياسية.

يقول التحذير الذي ظهر على فيسبوك»أشد جائحة في التاريخ كانت الانفلونزا الاسبانية في العام 1918. وقد استمرت لعامين، وكانت لها ثلاث موجات تسببت

بإصابة 500 مليون إنسان بالعدوى وبوفاة 50 مليونا. وكان معظم الوفيات نتيجة للموجة الثانية. استاء الناس من الحجر الصحي ومن تدابير التباعد الاجتماعي لدرجة جعلتهم ينطلقون إلى الشوارع، بمجرد رفعها في المرة الأولى، غير مبالين بشئ. وبعد ذلك بأسابيع، جاءت الموجة الثانية وسقط عشرات الملايين من الموتى.

وعلق على ذلك، في التاسع عشر مايو من العام 2020، الموقع البريطاني الحقيقة الكاملةFull Fact، بقوله إن ماورد في التحذير يخلط الحقائق بالضلالات. صحيح أن الانفلونزا الاسبانية اجتاحت العالم وأصيب بالعدوى 500 مليون مات منهم عشرات الملايين، لكن هذه ليست أسوأ جائحة في تاريخ العذابات الإنسانية، فالمعروف أن ضحايا الطاعون الأسود كانوا أكثر عددا من ضحايا الانفلونزا الاسبانية.

صحيح أن معظم الوفيات حدثت في الموجة الثانية لكن من يتحدثون عن ذلك يعتمدون على مصادر طبية بريطانية تبين الوفيات في انكلترا وويلز وليس في العالم كله، وهنا يصبح التعميم خطأ بالغ الخطورة. المصير الإنساني واحد، لكن تباين الحصيلة النهائية للوفيات لابد أن يؤخذ بعين الاعتبار، فالموجة الثانية لم تحدث بسبب رفع تدابير العزل وإهمال التباعد الاجتماعي. والحقيقة هي أن التدابير تباينت من بلد لبلد، فلا يمكن التركيز على سبب واحد مشترك للموجة الثانية، كما أن تلك التدابير تضاربت في بلد مثل الولايات المتحدة، التي أبقت على الحجر الصحي وشددت على الالتزام بالتباعد الاجتماعي، في بعض المناطق، ثم راحت تنظم العروض الجماهيرية الواسعة النطاق التي أطلقت العنان للعدوى، في مناطق أخرى مثل فيلادلفيا. وقد يجد القارئ في هذا الكلام تنبيها لخطورة اللقاءات الجماهيرية، وهذا قد يكون جزءا من السجالات السياسية، على جانبي المحيط.

لكن الموقع يمضي لطرح تصورات أكثر جدية عندما يقول ثلاثة أشياء

أولاً: تضارب الإجـراءات الحكومية وفشلها عن الارتفاع لمستوى التحدي تسبب بتفاقم الخسائر في بلدان كثيرة.

ثانياً: ظروف الحرب بما خلقته من أزمات وارتباكات ومن حركة واسعة للجنود عبر البلدان والقارات أمنت شروطا إضافية لانتشار العدوى.

ثالثاً: لأن الجدل بين المختصين حول الطبيعة الحقيقية لما جرى في زمن هذه الانفلونزا التي سبقت الإشارة إليها باعتبارها" الجائحة المنسية» لم يحسم بعد، فلا زال من المحتمل أن فيروس الانفلونزا طور نفسه وأصبح أكثر قدرة على إفشال مقاومة الجنس البشري له فانفجرت الموجة الثانية.

ويعد تاريخ الصحة العامة في الولايات المتحدة، أوضح صورة على الأثر الذي أحدثته الانفلونزا الاسبانية على مرافق الصحة العامة وعلى استعدادات الحكومة الأميركية للطوارئ الصحية، وهو أمر يكتسب أهميته من حقيقة أن الولايات المتحدة صارت، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وعلى نحو متصاعد المثل الأعلى والنموذج المعياري للدولة الوطنية في مختلف انحاء العالم.

تطور إجراءات الصحة العامة

وكانت قدرة الولايات المتحدة على مواجهة الطوارئ

الصحية، وفقا لتقرير نشره المركز الوطني لمعلومات التكنولوجيا البيولوجية NBC في العام 2010، ضمن سلسلة تقارير الصحة العامة Public Health Reports قد بدأت تتسم بعدد من الخصائص، قبيل ظهور الجائحة في العام 1918، ولاتزال أهم سماته التفاوت الكبير بين مركزه في الغرب الصناعي وهوامشه في بقية أنحاء العالم، وفقا لرؤية سمير أمين وآخرين للنظام الدولي المعاصر.

أولى الخصائص التي رصد التقرير تحسنها تتمثل باستخدام تقنيات التفتيش الصحي الممنهج في تنظيف وتغيير البيئة المادية للمدن والقرى، بجهود أجهزة وهيئات عامة تعمل، وفق جداول دورية منتظمة، على التخلص من القمامة والفضلات، وتأمين المياه الصالحة للشرب، وتنظيف المجاري العامة، وكسح المخلفات البشرية، وتنظيم دورات المياه الواقعة قبالة البيوت. ولم تكن دورات المياه موجودة داخل كل بيت في ذلك الزمن، بل وحتى بعد تشييد العمائر الكبيرة كانت دورات المياه – ولفترة طويلة – تخصص لها مساحات قبالة الشقق.

ومن الإجراءات التي ترسخت قبيل الجائحة التفتيش على الحليب والمنتوجات الغذائية كجزء من النشاط الرسمي عبر أجهزة الصحة العامة للدولة الوطنية في الولايات المتحدة، وبدرجات متفاوتة في كل بلد آخر. واكتسبت عمليات رصد المرضى وعزلهم في الحجر الصحي الطوعي أو المفروض بقوة القانون ممارسة مقبولة. وأخيرا، فإن تنامي سلطات وصلاحيات الخبراء والمسؤولين الحكوميين عن الصحة العامة أكسب وزارات الصحة، في مختلف البلدان، سمح لأجهزة الصحة العامة بإرساء تدابير كان يمكن أن تقابل بالرفض في أزمنة سابقة. ولاشك أن استجابة المواطنين والمشروعات التجارية والهيئات والطوائف الاجتماعية، في مختلف بلدان العالم، لهذه التدابير تباينت بقدر تباين الثقة الأهلية في الأجهزة الحكومية، وتدنت في بلدان آسيا وإفريقيا التي خضعت لسلطات احتلال أجنبي هيمنت على الشؤون العامة، فارتبط التحديث في مختلف المجالات وبينها مجال الصحة العامة، بالآخر المختلف دينيا وعرقيا ومصلحةً.

وعلى رغم غياب فهم واضح وراسخ يستند إلى علم الفيروسات لوباء الانفلونزا الاسبانية أو للسبب البيولوجي الكامن وراءها فقد نشط المسؤولون عن الرعاية الصحية في الولايات المتحدة، وفي بلدان كثيرة أخرى، للحد من أثر المرض. وقد لجأ الممارسون، في الولايات المتحدة، لكافة الأنشطة الوقائية الضرورية، وظهرت كثرة من هذه النشاطات في بقية بلدان العالم، ومنها: الحجر الصحي والعزل والدعاية التوعوية والتحذيرات والحملات التي تنهى عن البصق والقيود على الأنشطة التجارية والتفتيش والرصد وكشف الحالات المرضية والتنبيه إلى مناطق انتشار الأمراض المعدية.

ولأن الوباء عند ظهوره كان خطرا مستجدا(وهذه هي حالتنا اليوم مع فيروس كورونا) ولم تكن هناك لقاحات للحماية منه وللحد من انتشاره، فقد اعتمدت الجهات الطبية، أكثر، على السلطة الأخلاقية والسياسية والقانونية. لكن تطور ممارسات الصحة العامة، بالنهاية، تحول قوةً دافعة للحضرنة urbanization ، وتعني الانتقال من القرى للمدن وللتصنيع في البلدان الكبرى، وبخاصة في الولايات المتحدة.

وهنا يعود أرنولد توينبي ليطل علينا بوجهه الوقور

مذكرا بأن النهوض لمواجهة التحدي، والطريقة التي نواجه بها هذا التحدي هما صانعا الحضارة ومقررا سماتها والمنتقلان بها من مرحلة لمرحلة، وربما من تحد لتحد، في متتالية قد تكون بلانهاية، ولابد من النظر إلى هذه المتاهة باعتبارها سلسلة تحولات يفرض كل تحول منها تحديا تتراجع جماعة بشرية في مواجهته فتبيد، كما جرى للسكان الأصليين في أميركا الشمالية واستراليا، أو تنهض لمقاومته فتتجدد قوتها ويعلو شأنها والمثال الكلاسيكي على المواجهة الخلاقة للتحولات، كما يقول توينبي بحق، هو نشوء الحضارة الفرعونية في مواجهة التحولات المناخية في أزمنة سحيقة.

وفي الولايات المتحدة، كما في غيرها من البلدان، خضعت تحولات الأحـوال الصحية للسكان لتأثير التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وحكمت طبيعة مواجهة هذه التحديات مسار التطور الذي مضت إليه الحضارة. وتدل الدراسات الأقرب عهدا إلينا على أن المستوطنات البيضاء الأولى، التي قامت في الريف، كانت تطول أعمار سكانها الذين هربوا، عبر المحيط، من تلوث مدن أوربا في فجر الثورة الصناعية، واستقروا كمهاجرين في بيئة نقية تراعي تقاليد وسلوكيات اجتماعية. زادت متوسطات الأعمار وتراجعت وفيات الأطفال فيها. ويدل على ذلك تنامي عدد سكان أول مستوطنة في أندوفر في نيوانكلند، بحسب دراسة أجراها فيليب غريفن وغيره من مؤرخي المرحلة الكولونيالية (ما قبل الاستقلال عن التاج البريطاني) في الولايات المتحدة، من أقل من 25 ألف نسمة في العام 1700 إلى مايزيد عن الثلاثة ملايين وخمسمئة ألف نسمة، بعد ذلك بقرن من الزمان.

وبالمقابل، ففي مستوطنات فيرجينيا ، نشر البعوض الحمى الصفراء والملاريا بمعدلات فاقت درجة انتشار المرضين في نيو انكلند، كما فاق معدل وفيات الأطفال والكبار في فرجينيا. ويعود السبب في تفاوت القدرة على مواجهة تحديات الوباء وبالتالي تفاوت القدرة على صون الحياة البشرية، بحسب تقرير الصحة العامة، إلى تباين الأسس الاجتماعية والاقتصادية التي قامت عليها المستوطنات في المنطقتين. فمستوطنات نيوانكلند سكنتها عائلات تسعى لحياة مستقرة تتمتع باكتفاء ذاتي يقوم على زراعة مستدامة sustainable، أي زراعة تكفل أساليبها وممارساتها وأدواتها تجدد الموارد الطبيعية، وبخاصة البشر والتربة والمياه والهواء (وهذه كلها أضرت بها بعد ذلك الأسمدة الكيماوية، مثلا، في القرن العشرين)، لتضمن تواصل ارتفاع مستويات الإنتاجية وبقاء البيئة نظيفة وصالحة للبقاء والتجدد.

وبحسب التقرير، فقد تألّف المجتمع الذي استقر في مستعمرات فيرجينيا، في الغالب، من الذكور ونشأ عن فقر النساء في الجيل الأول من المهاجرين وعجزهن عن إقامة مؤسسات اقتصادية ناجحة إلى عجز عن تجنب الوفيات المبكرة والأوبئة المميتة. ونصحح هذا الاستنتاج بالقول إن العزوف عن الزواج واقتناع أعداد كبيرة من الذكور والإناث بأنهم قادرون على مواجهة تبعات الحياة من دون الميزات التي يؤمنها وجود أسرة تعزز وتثري حياة الفرد – ذكرا كان أو أنثى – وتضيء حياته وتضفي عليها مسرة وبهجة، ولو في لحظات عابرة تبقى فترات استراحة المحارب في سياق الكفاح اليومي، وتشد من أزره وترعاه في السلامة والمرض، هذا الاقتناع الخاطئ بلا جدوى الزواج والحياة الأسرية هو أمر وثيق الصلة بتدهور الأحوال الصحية وارتفاع معدل الوفيات في فيرجينيا، أرض العزاب.

وبالمثل، يربط الباحث ديفيد جونز في دورية وليم آند ماري William and Mary Quarterly (العدد الرابع، المجلد الستين – 2003)، موت خمسة وتسعين بالمئة من السكان الأصليين للمناطق الشمالية الغربية من أميركا الشمالية، المعروفين باسم الهنود الحمر، بالتحولات الشاملة التي فرضها التوسع الاستعماري-الاستيطاني الأوربي، مناقضا بذلك الفرضية الشائعة والتي تربط موت هذه الأعداد الهائلة بما حمله المستوطنون البيض من فيروسات مثل فيروس الجدري، حين دخلوا بهذه الفيروسات على بيئة بكر وخالية من الفيروسات. وهذا يعني أن التحولات الاجتماعية لها أبعد الأثر على الأحوال الصحية. وبالمثل، فارتفاع معدلات الوفاة بين الأطفال وتراجع متوسط العمر بين السود الأفارقة، قبل إلغاء العبودية، يعود إلى الظروف الاجتماعية الصعبة التي فرضتها العبودية على مجتمعاتهم.

لكن العلاقة بين الظروف الاجتماعية وبين الأمراض لم تمض في اتجاه واحد، فالظروف التي تسبت بالمرض، من ازدحام وقذارة وتدن في خدمات الرعاية الصحية والنظافة اللازمة للحماية من الأمراض، كل هذا دفع باتجاه التنظيف والتحديث ومكافحة الفقر، كما دفع الوعي بوحدة المصير الإنساني(ظهور العدوى في الهند يعني انتشار العدوى في لوس آنجيلوس) باتجاه تبادل المعلومات اللمتصلة بالمرض والتضافر لمحاصرته والحد من انتشاره.

وهكذا وجدت الإنسانية نفسها في مواجهة أمرين :

سعي لتنظيم التعاون بين البشر، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، تجسد في عصبة الأمم ثم في الأمم المتحدة.

وحداثة زادت الهوة بين الإنسان والطبيعة، وعززت توجهات استهلاكية هددت باستدامة الأمراض والأوبئة.

الفصل التاسع

العودة للطبيعة
وخطر الانفصال عنها

- العودة للطبيعة وقوى الخضر
- هل النباتيون لقمة سائغة
- العلم والدين ما بعد الحداثة
- العولمة في زمن الوباء
- الفيروس صبغ الوباء بالصراعات السياسية

يواجه الإنسان اليوم مشكلة تتلخص في أن أسلوب الحياة الاستهلاكية الذي روجت له وعززته الرأسمالية صار مصدرا لتلوث الطبيعة، من جهة، وضعف مناعة الإنسان من جهة أخرى. ويتضح ضعف المناعة من ظهور أوبئة متصلة بالجهاز التنفسي وانتشار السرطانات، وغير ذلك. وهذان الأمران في مقدمة أسباب انتشار الاوبئة.

فالحداثة فصلت الإنسان عن الطبيعة. ولايعد ذلك مبررا لجعل الحداثة سببا ثالثا مستقلا بذاته، من أسباب انتشارالأوبئة. فالمظهر الاستهلاكي للحداثة، وفصل الإنسان عن الطبيعة هما المتصلان بهذا الموضوع، وبالتالي نبقى في مواجهة سببين لاثلاثة: الثقافة الاستهلاكية، وانتشارضعف المناعة.

ولاشك أن تصاعد الثقافة الاستهلاكية وتزايد انفصال الإنسان عن الطبيعة مرتبطان بازدهار الرأسمالية. ويهمنا هنا أن نشير إلى أن الإسلام لعب دورا مهما في ظهور الرأسمالية، وأن الرأسمالية الغربية مضت بالبشرية إلى المأزق الراهن لأنها أخذت من الإسلام ما يحقق المنفعة المادية المحسوسة والقابلة للتقدير الكمي، ومنعها تعصبها من إدراك حقيقة العلاقة العضوية بين مكونات الإسلام، كرؤية لعلاقة الإنسان بالإنسان، ولعلاقته بالطبيعة، وفوق ذلك كله رؤيته لعلاقته بالإله الخالق.

وقد صعد الإسلام، باعتباره ذروة العقائد الابراهيمية، إلى أعلى الذرى بأمور ظهرت في العهد القديم، عند اليهود، ثم تطورت عبر العهد الجديد المؤسس للمسيحية، وأخيرا وضع لها القرآن صيغتها الفريدة، ما يعني أن علاقة الإسلام بما سبقه هي علاقة اتصال وانفصال. ومن ذلك أمران:

- سيادة الإنسان على الطبيعة. وهذه أسس لها العهد القديم بقصة خروج آدم من الجنة، لكن التقرير القرآني الواضح والحاسم، والمؤسس للفارق بين الخير والشر، لحقيقة أن البشر مستخلفون في الأرض، ارتفع بهذه المسألة لمستوى غير مسبوق. وقد أصبح الشيطان شيطانا، وفق الرؤية القرآنية، لأنه تمرد على المشيئة الإلهية التي جعلت الإنسان خليفة لله في أرضه. واكتسبت تلك السيادة طابعها العظيم والمبهر بتأكيد القرآن على أهمية الإرادة الفردية في تقرير مصير كل واحد منا(كل نفس بما كسبت رهينة) وعلى أهمية الضمير الفردي(إنما الأعمال بالنيات) وعلى تحرير الإنسان من سلطة الكهانة التي تتوسط بين المؤمن وبين الله (وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ).

- إعمال العقل فقد حرص القرآن على تبيان العلاقة بين السبب والنتيجة، وحض على الملاحظة والاستنتاج، وعلى أن كل شئ يعرض لك أو يخطر ببالك هو نسبي ترتبط قيمته بأثره وتتحول بتحولاته، فلا مطلق إلا الله الذي يعلو على كل تحول، لأنه يعلو على المكان والزمان.

وقد احتل هذان الأمران مكانهما اللائق بهما في إطار الحضارة الأوربية التي نقلت ما رأته نافعا من الممارسات والمؤسسات ولم تنتبه لما وراءذلك من قيم خلقية ومن رؤى لاهوتية.

وبعكس موقف ماسينيون، فإن باحثين أوربيين مهمين مثل ماكسيم رودنسون في كتابه المهم"الإسلام والرأسمالية Maxime Rodinson. Islam et capital-isme، 1966)"، ومثل روبير مانتران في كتابه"إسطنبول في النصف الثاني من القرن السابع عشر R. Mantran Is-tanbul dans la seconde moitie du XVII siècle» ومثل فرنان بروديل في كتابه" المتوسط ومحيطه في عهد فيليب الثاني La Méditerranée et le monde méditerranéen

à l'époque de Philippe II» هؤلاء الباحثون وغيرهم أوضحوا ضخامة القوة التحضيرية للإسلام عندما أشاروا للكيفية التي نقلت بها الحضارة الغربية عن مسلمي القرون الوسطى الممارسات التجارية الواسعة النطاق، والعابرة للبحار، والقواعد والبِنى المنظمة لها، بل ومفهوم رأس المال كما عرض له مفكرون مسلمون من أمثال ابن خلدون. وهذه كلها صارت أسس الرأسمالية الصناعية، روح الحداثة.

لكن الحداثة الأوربية نقلت الظاهر وبقي الباطن القيمي واللاهوتي، في الموروث الإسلامي، كامنا غير مرئي- بالنسبة للغرب ولتلاميذه المستغربين - طوال زمن الحداثة، ثم انبثقت أنوار ما بعد الحداثة فعاد الإنسان المعاصر ينظر في مسألة السيادة على الكون، وتسخير الطبيعة، في إطار يتجاوز العلاقة الاستعمالية التي كرستها الاستهلاكية consumerism الصارخة، والحداثة المادية المخادعة. ولعل أبلغ تعبير عن الارتباط بين الاستهلاكية الصارخة والانخداع ببهرج الحداثة والخطر المحدق هو ما جاء في القرآن الكريم، حين قال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾«سورة يونس».

وهنا ربط واضح بين أمور ثلاثة: الاستهلاكية النهمة، وزخرف الحياة المخادع والدمار. ويربط الباحثون المعاصرون بين الاستهلاكية وبين الثورة الصناعية في بريطانيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبين الاستهلاكية وبين الابتعاد عن الطبيعة والركون إلى الآلات والأدوات من سيارات وطائرات ومصاعد وأدوات متنوعة وملابس وإكسسوارات وأصباغ وعطور، فهذا كله مهد لظهور الإنسان الذي لديه أدوات دخلت جسده كأعضاء صناعية، من ركبة أو مفصل أو منظم لضربات القلب أو عدسة عين اصطناعية أو غير ذلك؛ ثم ظهر الروبوت الذي يتزايد حضوره في حياتنا. وقد بلغ الانفصال عن الطبيعة ذروته في النصف القرن الأخير، مع اقتراب عصر النفط من نهايته، بعد أن بلغ ذروته الاقتصادية في سبعينات القرن العشرين، كنتيجة مباشرة لحرب أكتوبر العربية - الإسرائيلية، وهي التي فتحت الباب أمام الانتقال لما بعد الحداثة.

العودة للطبيعة وقوى الخضر

ومع تصاعد قوى ما بعد الحداثة برزت قوى الخضر من أنصار البيئة، فأصبح هناك حزب واحد، على الأقل، للخضر أو لأنصار البيئة في كثير من بلدان العالم. وفي بلد مثل بريطانيا تجد خمسة أحزب للخضر:

- اتحاد الاشتراكية الخضراء الذي تأسس في العام 2003
- حزب الخضر البريطاني الذي انقسم إلى حزب الخضر في انكلترا وويلز
- حزب الخضر في ويلز
- حزب الخضر في إيرلندا الشمالية
- حزب الخضر الاسكتلندي

أما على المستوى الأوروبي فهناك تجمعات بارزة منها:

- حزب الخضر الأوربيين أو الائتلاف الأوربي الحر الذي أنشأه أنصار البيئة بعد الانتخابات التي شكلت البرلمان الأوربي الخامس في العام 1999.
- حزب"أوروبا الإيكولوجية - الخضر Europe Écologie Les Verts" في فرنسا وهو الذي تشكل

في العام 2010 بعد اندماج حزبي الخضر وأوروبا الإيكولوجية (المعنية بالبيئة).

- ائتلاف الخضر، في ألمانيا الذي تشكل في العام 1993بعد أن أسقط الحراك الشعبي جدار برلين فتحقق الاندماج بين فريقي الخضر في الألمانيتين الشرقية والغربية بعد أن توحدتا في العام 1990. ولهذا الحزب اليوم أكثر من ستين مقعدا في البرلمان الألماني، لكنه يمثل أقلية سياسية مؤثرة لها حضور ثقافي وأخلاقي يمضي بها إلى أن تكون أغلبية ثقافية وأخلاقية قوية التأثير وواسعة النفوذ.

- حزب الخضر الهندي الذي تأسس في العام 2014وفاز بأول مقعد له في انتخابات البرلمان الهندي (الجمعية الوطنية الهندية) في العام 2016وبعديد من المقاعد في المجالس المحلية. وإذا كان الحزب الهندي المعني بالبيئة لا زال ضمن قوى الأقلية، فأهميته تعود إلى ارتباطه الراهن بقوى الإصلاح الاجتماعي والسياسي. وهذا الارتباط يساعد دعاة البيئة الهنود على الانعتاق من القيد الذي فرضته زعيمة الهند التاريخية إنديرا غاندي على حركتهم حين رفضت دعاوى أنصار البيئة المحذرين من خطر المصانع ومن الآثار البيئية للتصنيع والتعدين بقولها "إن الفقر هو أخطر الملوثات" وليس دخان المصانع والمسابك ولاظروف العمل في المناجم. ولعل الاتفاق بين جامعة أكسفورد وبين معهد الأمصال الهندي على أن ينتج الأخير مليار جرعة من لقاح كوفيد19- الذي يشتغل عليه علماء أكسفورد بعد إقراره، سيكون أوسع خطوة تتخذها الهند على طريق حماية الإنسان المعاصر من خطر الوباء الذي يقف حزب الخضر الهندي في طليعة المنبهين لربط أخطاره بمختلف الممارسات والسلوكيات والعلاقات الطبقية المهددة للبيئتين الطبيعية والاجتماعية. وكلما تحسن مركز حزب الخضر الهندي كلما تعزز موقف المدافعين عن البيئة في العالم الثالث. فالهند هي أهم قوى العالم الثالث، بعد الصين التي لازال الوعي البيئي فيها محاصرا بالضرورات ذاتها التي جعلت إنديرا غاندي تتحفظ إزاء حركة الخضر العالمية، وفي مقدمة هذه الضرورات محاربة الفقر.

جانب مهم من جوانب المواجهة الراهنة بين الجنس البشري وبين فيروس كوفيد- 19 أحد ناشطي حزب الخضر الهندي وهو برابهاكار كوكدولكار الذي قال في تقرير نشره موقع الحزب في الثالث عشر من يوليو من العام 2020. ويتمثل ذلك الجانب المهم في التناقض الذي يجسده كون البشرية اليوم في حرب مع قوة من قوى الطبيعة هي الكيانات العضوية المتناهية الصغر مثل الفيروسات والبكتيريا وكون الخلاص من أزماتنا الراهنة يفرض علينا الاقتراب من الطبيعة بأكثر مما سمحت لنا الحداثة وثقافتها الاستهلاكية والمادية طوال القرنين التاسع عشر والعشرين (قرني الحداثة) وما انصرم من القرن الحادي والعشرين من سنوات قد تكون اللحظة التي تسبق فجر ما بعد الحداثة.

وحل هذا التناقض، برأي الناشط الهندي، هو في التنمية المستدامة وحماية البيئة. ولن يتحقق هذان الهدفان إلا بعد تحولات جذرية، ستستغرق وقتا طويلا، في أيديولوجياتنا، نحن سكان هذا الكوكب، وفي نظمنا الاجتماعية والاقتصادية. وفي مقدمة هذه التحولات الإفراط في استخدام الموارد الطبيعية لتحقيق ترف يمكن للحياة أن تستمر، هانئة ومستقرة، لا بالاستغناء عنه ولكن بالحد من مبالغاته. ويستشهد الناشط الهندي بتقرير للأمم المتحدة صدر في العام 1982 وجاء فيه إن المواطن السويسري يستهلك من الموارد الطبيعية ما يعادل استهلاك أربعين من مواطني العالم الثالث. وإن انتقل مستوى استهلاك الاثنين، السويسري الغني المترف

وإنسان العالم الثالث الفقير إلى نقطة بين المستويين، تنزل بالأول وترتفع بالثاني، إلى مستوى يضمن استمرار العدالة والازدهار وصيانة الموارد، فقد نشهد ميلاد عالم أفضل طال انتظاره.

وإذا كانت الاستهلاكية قد تضاعفت في السنوات التي تلت ظهور ذلك التقرير، فزاد الأثرياء ثراء واتسع نطاق الطبقة الوسطى عالميا، وعجزت معاهدات مثل معاهدة باريس للتحول المناخي عن وقف الاستهلاكية المدمرة، فالشهور التي انقضت منذ ظهر خطر كوفيد- 19 صدمت أثرياء العالم بما حل بهم من خسائر مالية هائلة، ونبهتهم إلى ضرورة تغيير نمط الحياة، والتخلي عن معارضتهم للحركات البيئية.

وإذا كانت الصين قد بادرت، بعد ظهور العلاقة بين فيروس كوفيد- 19 وبين بيع الحيونات البرية بغرض الأكل، بحظر بيع هذه الحيوانات، فإن الناشط الهندي يتوقع أن تكون هذه بداية علاقة جديدة بين الإنسان وبين الحيوانات البرية، بل وبينه وبين الطبيعة على وجه الإجمال.

وهنا نجد أنفسنا إزاء واحد من أهم مكونات ما بعد الحداثة، وهو تجاوز التناقضات التي تفرضها الثنائيات الحاكمة للحداثة(شيوعي أحمر ضد قيصري أبيض/ حلف وارسو ضد حلف الناتو/ يسار ضد يمين/ جمهوري ضد ديمقراطي إلى البحث عن المشترك بين كل طرفين يبدوان متناقضين.

وبغض النظر عن الثنائيات السياسية الأكثر قابلية للتحول فأهم ثنائيات الحداثة وأقدرها على البقاء، وبخاصة منذ الثورة الصناعية، هي ثنائية الإنسان والطبيعة. لقد أغرقت الثورة الصناعية إنسان القرنين التاسع عشر والعشرين في ثمارها التي دفعته لأن يعتبر البعد عن الطبيعة مقياس التقدم، وكأن الطبيعة هي الحالة التي يتعين الابتعاد عنها والتعالي عليها، وعدم الاقتراب منها إلا لأغراض استعمالية. ولم يعد الاحتكاك بالطبيعة إلا ترفا عابرا يتمتع به الإنسان المعاصر في فترة عارضة، ينزل إبانها إلى الريف أو إلى الغابات أو يقفز في مياه البحر، ثم يعود بعد عطلته العابرة إلى قلاع الحداثة في العواصم والمدن الكبرى، بعد أن يكون قد أفسد الطبيعة بسلوكيات استهلاكية على شواطئ البحار وفي قلب الغابات. لكن مايدعو إليه الناشط الهندي وما تشير إليه القرارات الصينية التي تحدث عنها هي عودة للاشتباك بين حداثة شكلت الصناعة أهم ملامحها وبين نقيضها العتيد وهو الطبيعة.

هل النباتيون لقمة سائغة تحت انياب كورونا؟

أكد أطباء روس أن اتباع نظام غذائي يعتمد على النباتات واستبعاد المنتجات الحيوانية من هذا النظام يجعل مخاطر الإصابة بفيروس كورونا عالية.

ويجمع كثير من الأطباء على أن اللحوم والمنتجات الحيوانية تعد مصادر مهمة للفيتامينات التي لا يمكن للجسم أن يحصل عليها في حال كان يتغذى فقط من النباتات، وهو ما يزيد من خطر الإصابة بفيروس كورونا على خلفية ضعف المناعة.

وكرَّست الأبحاث العلمية قاعدة أنه من غير الممكن الحفاظ على صحة جيدة إذا كان النظام الغذائي يقتصر فقط على النباتات، حيث أن عدم الاستهلاك المنتظم للمواد الغنية بالبروتينات، يؤدي إلى تدمير الخلايا واختلال وظائف الأعضاء، وهو ما يجعل مخاطر الإصابة بأمراض مختلفة، بما في ذلك فيروس كورونا، تزداد بشكل كبير.

ويتم الاحتفال تقليديا باليوم العالمي للنباتيين في

الأول من نوفمبر، وقد تم استخدام المصطلح لأول مرة من قبل الجمعية النباتية، التي أسسها دونالد واتسون في عام 1944 بلندن.

لكن هذا التحول، المهم في التوجهات الإنسانية، لاينبت من فراغ، بل يكون، في معظم الحالات، عودة لفكرة توارت وراء زحام التطورات، ثم طرأت أمور أخرى أبرزتها ودفعت بها للمقدمة. وهنا لابد أن نتذكر أن الحضارة الغربية الحديثة، وإن بهرتها جماليات الدعوة للعودة للطبيعة عند مبدعين أفزعتهم خصائص الحياة التي فرضها التصنيع industrialization والحضرنة، في أعمال شعراء عديدين، من شعراء الرومانسية في أوروبا إلى شعر والت ويتمان في الولايات المتحدة أو الطروحات الفلسفية عند مفكرين مثل روبرت إيمرسون وغيره، فقد بقيت كل هذه الإبداعات عاجزة عن وقف مسيرة الاغتراب التي مضت بالإنسان المعاصر بعيدا عن الطبيعة، لتقذف به في شبكات الشوارع المزدحمة والملوثة وفي الأبراج السكنية المتعددة الطوابق في المدن الكبرى وفي عنابر المصانع والورش والمخازن العملاقة.

بدأت دعوات العودة للطبيعة من منطقة جعلتها قريبة من بعث المعتقدات الوثنية وبخاصة تلك سادت في أوروبا قبل المسيحية أو التي مثلت أساس حضارة السكان الأصليين في القارتين الأميركيتين واستراليا. وهذا ما يمكن إيجاده في الكتاب الذي ألفته عالمة الأنثروبولوجيا (دراسة نشوء وتطور المجتمعات البشرية وثقافاتها) كاثلين رونتري بعنوان «الوثنية الجديدة، والأرواحية، والانتساب للطبيعة»(2012)؛ وفي الكتاب الذي حررته وشـارك فيه كتاب عديدون، وهو«الكوزموبوليتية والوطنية والوثنية الجديدة»(2017). ويتعين أن نشرح المقصود بمصطلحي «الأرواحية» و«الانتساب للطبيعة». والمصطلح الأول يعني الاعتقاد بأن لكل شئ روحا، للنباتات وللجوامد وللظواهر الطبيعية؛ أما المصطلح الثاني فيعني أن ينظر الإنسان لنفسه باعتبارها نبتا في تربة الطبيعة، اكتسب وعيا، عبر عملية تطور لا يصح أن تبرر القطيعة بينه وبين الأصل الطبيعي.

في الكتاب الأول تبين لنا رونتري أن «الانتساب للطبيعة kinship with nature » وحب الطبيعة على النحو

اتباع نظام غذائي يعتمد على النباتات واستبعاد المنتجات الحيوانية يمثل مخاطرة جسيمة لحياة الإنسان

الذي يحب به المرء أبويه وأخوته وأطفاله هما المبدأ الأساسي للوثنية الجديدة ويفترض أن هذين المبدئين يربطان الوثنيين المعاصرين في الغرب بالموجودات التي تتألف منها البيئة المحيطة وبالبشر. وتؤكد الكاتبة أن الانتساب للطبيعة ليس تعبيرا مجازيا، أو أداة بلاغية ترمي لتبيان أهمية الطبيعة بالنسبة للوثنيين الجدد. الأمر يتجاوز التعبيرات البلاغية إلى طقوس دينية وممارسات اجتماعية ترفيهية، يسعد فيها الإنسان والحيوان والنبات معا، كأقارب، يتبادلون العواطف. ولا يشبه هذا عطف الإنسان غير الوثني على حصانه أو حماره أوجمله أو كلبه أوقطته. فهذا عطف لايلغي شعور المرء بفارق بينه وبين هذه الكائنات الأدنى مرتبة منه ومن بني البشر عموما؛ أما في الوثنية الجديدة فهناك شعور عائلي يربط الواحد منهم بحيواناته ونباتاته وبالأشياء الموجودة حوله، باعتبار هذه الأشياء أفراد عائلة واحدة ممتدة باتساع الكون. ولكن هذا الارتباط يبقى في حدود ضيقة لا تسمح له بأن يسيطر على حياة أتباع الوثنية الجديدة، بقدر مماثل من القوة والشمول، الواضحين في سيطرة الوثنية على حياة السكان الأصليين في القارات التي أخضعها البيض(المسيحيون) لسلطانهم وعلى حياة الوثنيين القدماء أينما كانوا.

وهنا نأتي للكوزموبوليتية cosmopolitanism، وهي شعور الإنسان بأنه في وطنه أينما حل. وهي المقابل غير الماركسي للأممية الماركسية التي كان قوامها النضال المشترك والعابر للحدود السياسية والإثنية، بين البروليتاريا (قوى العمل) وحلفائها، ضد عدو واحد هو القوى الرأسمالية أينما كانت. وقد توارت هذه الأممية بسقوط المنظومة السوفييتية، وبانتقال الصين الشعبية إلى مسار متجاوز للماركسية في التنمية، وبتراجع القوى المتناغمة مع الشيوعيتين السوفييتية والصينية في مختلف أنحاء العالم.

وفي الكتاب الثاني نجد المحررة كاثلين رونتري تركز على البعد الكوزموبوليتي، باعتبار الوثنيين الجدد دعاة وحدة بني الإنسان جميعا داخل الأسرة الطبيعية الكبيرة. أما أستاذة اللاهوت وعلم الأديان في جامعة غلاسغو آنا فيسك، وهي ممن ساهموا في الكتاب، فتركز على إحياء جينات السكان الأصليين في القارات المختلفة، ويركز غيرها على أمور سياسية من بينها النزول من مستوى الوطنية الجامعة في بلد واحد لمستوى وطنيات عديدة، أو الرجوع للتقسيمات القَبَلِيَّة، ويكتسب هذا التوجه أهمية كبرى عند من تعرضوا للوثنية الجديدة في أقطار الاتحاد السوفييتي السابق وفي إسرائيل.

وهنا نلمس بعدا آخر للوثنية الجديدة، يرتبط بالتطورات التي تعززها اليوم –وهذه مساهمتنا نحن في تحليل الكتابين وفي تحليل ظاهرة الوثنية الجديدة. فالوثنية الجديدة تعزز الانعتاق من العولمة، لا للرجوع إلى الأممية التي راح زمانها، ولا للقومية الزاعقة كما تجدها في بلدان مثل بولندا وهنغاريا، بل للرجوع إلى كيانات دون وطنية. ويوازن هذا الانكفاء تركيز على الكوزموبوليتية.

العلم والدين وما بعد الحداثة

وقد تكون وراء هذا الانبعاث للوثنية الجديدة عوامل من بينها تخليق نسخة جديدة من التدين تستجيب للعودة العالمية للدين بطريقة تنسجم مع الموروث العلماني القوي المشبع بالميول الإلحادية، والذي تصاعدت قوته في الغرب، ومن ثم في العالم، منذ القرن السابع عشر، ثم اكتسب صبغة إلحادية أكثر قوة ووضوحا، عندما أصبحت المادية الجدلية هي الدين الرسمي لامبراطورية كبرى هي الامبراطورية السوفييتية، بغض النظر عن مدى اقتناع الأغلبية الساحقة من سكانها بالشطط الإلحادي للنخبة المتنفذة. وعلى رغم أن الثقافة الرأسمالية، في

زمن الحرب الباردة، وضعت التدين كمقابل للإلحاد الشيوعي، فقد بدت عبادة المال والتهالك على اللذات الحسية نوعا من الإلحاد المبطن. لكن الأهم من كل ذلك كانت العلاقة الاستعمالية مع الطبيعة بإزالة الغابات وإبادة الحيوانات والأسماك وبالزراعة والرعي الجائرين (وفق مصطلحات منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة والصندوق الدولي للتنمية الزراعية، وتلويث البحار والمحيطات والهواء. ردا على هذا التطرف في العلاقة الاستعمالية مع الطبيعة، جاء احترام الطبيعة الذي أضفت عليه عودة الدين إلى الصدارة منذ نهاية القرن العشرين، مسحة دينية انتقلت به من الاحترام إلى التقديس.

وبالنهاية، فالوثنية الجديدة هي تيار مواكب لانبعاثة التدين الجديدة التي يتصاعد مدها ويشتد اليوم في العالم، ويمضي هذا التيار لاتجاهات هي عكس ما مضت إليه البشرية منذ ظهور الديانات الابراهيمية. وينقسم المنخرطون في هذه الانبعاثة إلى قسمين : شوفينيين وإنسانويين. وأشهر المنتمين للقسم الأول –الشوفيني– هم المتطرفون الإسلامويين وبخاصة تنظيماتهم الغامضة المنشأ والمسارات والغايات، ونرى أن شهرتهم تفوق قوتهم وتفوق قدرتهم الحقيقية على التأثير. وأقوى المنتمين لهذا القسم وأوسعهم نفوذا هم الأنغليكانيون والصهاينة المسيحيون واليهود، وبخاصة في الولايات المتحدة وبقية الأقطار التي يتألف منها اتحاد الناطقين بالانكليزية. أما الإنسانويون الذين يرون في التدين طريقا لإعادة التوازن لحركة الحضارة الإنسانية فهم المقابل للكوزمو بوليتيين في الوثنية الجديدة. ويميل هؤلاء للنظر إلى التدين باعتباره موقفا من الكون يتشارك فيه المؤمنون، على تباين عقائده، ولا يقسمهم إلى شيع وطوائف سوى تباين تعبيراتهم عن ذلك الموقف المشترك. ويتلخص ذلك الموقف المشترك في أن للكون جوهرا باقيا وراء تحولاته الظاهرة، وأن هذا الجوهر هو إرادة حاكمة لهذه التحولات وموجهة لها نحو غاية لا يعلمها إلا صاحب هذه الإرادة.

ويعالج كريستوفر دي بيليغ، مؤلف كتاب"التنوير الإسلامي: الصراع بين الإيمان والعقل، من العام 1798حتى العصر الحديث". ويبدأ الكاتب معالجته لظاهرة العودة إلى الدين بالقول إن هجمة العلمانية تخلي الطريق اليوم للعودة إلى الدين. وبعد ذلك ينتقل إلى دحض وجهة نظر ريتشارد دوكينز، الذي يرفض التدين.

ويرى دوكينز أن روح التقدم المتصاعدة والواسعة الانتشار تنفي حاجة الإنسان المعاصر للإيمان.

ويقول كريستوفر دي بيليغ إن «دوكينز» نشر كتابه «وهم الإله» قبل الأزمة الاقتصادية في 2007–2008، وقبل تدفق موجات الهجرة على أوربا، وقبل تصاعد الهجمات الإرهابية الإسلاموية، في مختلف أنحاء العالم. وكل هذه التحولات أضعفت روح التقدم التي يعول عليها دوكينز، والتي تعني حركة دائبة باتجاه مجتمع أفضل وأقوم. وقد أخلت هذه الروح مكانها، يقول دي بيليغ لروح اليأس التي لاترى في الحاضر والمستقبل سوى مسيرة انحطاط خلقي متواصلة، ترافق مسيرة تقدم تقني متواصل.

وبالمقابل، أي بعكس دوكينز وأشباهه، يرى دي بيليغ أن الإنسانية وقد آلمها اغتراب الفرد واحتراب مختلف الجماعات، تتطلع اليوم إلى الدين بحثا عن مصدر لطاقة روحية جديدة لا تخفف آلامها، فحسب، بل وتضئ لها طريق الخروج من عتمات أزمتها الروحية والخلقية الراهنة.

واجه «دوكينز» رداً في ربيع العام 2018، قبل شهور من انبعاث فيروس كورونا الذي نبه الجنس البشري إلى أن تحديات الوجود ليست في الملموس والمحسوس والمتوقع، وأن اغترار الإنسان بقدراته التكنولوجية

يتراجع أمام قوة أكثر مخلوقات الله ضعفاً وهو الفيروس. وقد عكس الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش في الثاني والعشرين من سبتمبر من العام 2020 هذا الشعور ببعد ديني لكارثة كورونا عندما قال إنها اندفعت كحصان جامح انضم إلى فرسان سفر رؤيا يوحنا الأربعة. والفرسان الأربعة هم فرسان الصراعات والحرب والمجاعة والموت. وترتيب أسماء الفرسان على هذا النحو، وبما أن الشئ يترتب على ماسبقه، يمكن فهمه على اعتبار الصراعات سبب الحروب والحروب سبب المجاعة والموت، وهذا ترتيب طبيعي، على أية حال. وتعكس كلمة الأمين العام، وما تضمنته من إحالة على سفر الرؤيا شعورا قويا من قائد أهم مؤسسات التضامن والتعاون في عالم اليوم بقوة الحاجة إلى الغيرية المعززة للخيرية، للتضامن العابر للوطنيات والإثنيات، بين بني البشر، في مواجهة الخطر الداهم.

لكن هل التضامن يمضي بنا للأممية؟ للعولمة؟ للكوزموبوليتية؟ للشوفينيات الوطنية؟ لقد أخلت الأممية مكانها للعولمة. وبالمناسبة، فهذه هي العولمة الثانية في العصور الحديثة، وقد سبقتها العولمة الأولى، العولمة الأوربية، التي امتدت من العام 1870 وحتى العام 1914والتي يشير إليها الفرنسيون، ومن ورائهم العالم كله، بعبارة الزمن الجميل La Belle Époque. وإذا كانت العولمة الأولى قد انتهت بمجزرة كونية هي الحرب العالمية الأولى، فقد ضمن لنا الزمن الأميركي أن نخرج من العولمة الثانية(إن صدقت التوقعات بأننا نشهد نهايتها) من دون حرب بين قوى نظامية، وإن كان البديل هو حروب الجيل الخامس.

العولمة في زمن الوباء

ولاشـك أن انكفاء كل دولـة على نفسها، ولو نسبيا، وبخاصة انكفاء عملاقي عالمنا المعاصر وهما الولايات المتحدة والصين على نفسيهما، لتداوي كل منهما جراحها ولتسعى لإنقاذ مرضاها واحتواء الوباء داخل حدودها الوطنية، كل هذا ذكرنا بقوة الوطنية في مواجهة العولمة. و تجلت هذه الأنانية الوطنية ،أيضا، عندما انشغلت دول الاتحاد الأوربي بنفسها عن إيطاليا وهي تترنح تحت ضربات فيروس كورونا. ولم تكن مبادرات الصين وروسيا لمساعدة من تناساهم شركاؤهم السياسيون العسكريون والتجاريون الكبار سوى إيماءات رمزية، وبقيت مهمة التصدي للخطر، بالمقام الأول، مهمة قومية، تتصدى لها كل حكومة داخل حدودها. واليوم يتجلى التنافس والغيرة الوطنيتان في سعي كل دولة للتوصل، قبل غيرها، إلى دواء أو لقاح لفيروس كوفيد- 19، وجنى الأرباح المادية والسياسية الهائلة التي قد تترتب على هذا السبق.

وبالرغم من ان الصين كانت منبع الجائحة أواخر العام 2019 الا انها تمكنت من استيعاب التداعيات وحولت الأزمة الى مكاسب فقد صدّرت الصين أكثر من 220 مليار كمامة عام 2020، وفق ما أفادت وزارة التجارة أي ما يعادل 40 كمامة لكل شخص خارج الصين في ظل ارتفاع الطلب على المعدات الواقية بشكل كبير جرّاء تفشي كوفيد- 19.

نائب وزير التجارة الصيني كيان كمينغ استعرض كفاءة الصين الصناعية والتجارية في ظل خضوع القوى الاقتصادية العالمية لتأثيرات الجائحة والتي لم تكن الكمامات فقط هي سلعة التصدير الوحيدة بل صدّرت 2,3 مليار قطعة من معدات الوقاية ومليار وحدة من معدات فحص كوفيد19- العام 2020 «في مساهمة مهمة في المعركة العالمية ضد الوباء".

احصائية الجمارك الصينية اظهرت أن قيمة شحنات الكمامات وحدها بلغت 340 مليار يوان بما يعادل 52,6 مليار دولار .

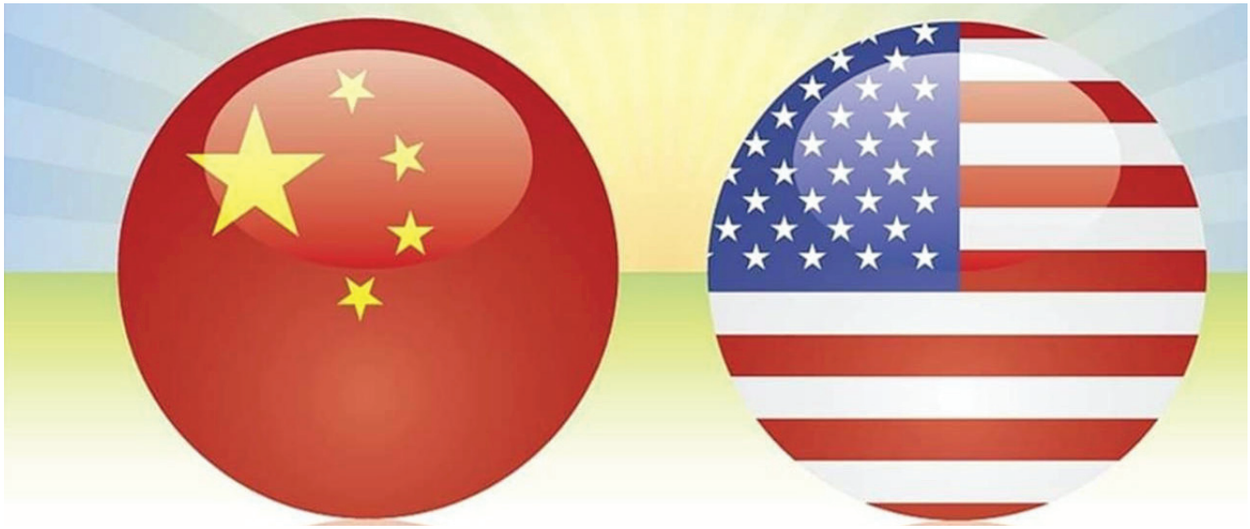

وقد اتخذ التنافس على أولوية تركيب لقاح ضد كوفيد-19 طابعا منفرا عندما أثيرت الشبهات حول احتمال أن يكون إعلان الرئيس الروسي بنفسه عن توصل بلاده للقاح أطلق عليه الاسم التجاري «غام-كوفيد -فاك" لعبة سياسية. وهذا أمر بغيض لأنه يمضي إلى احتمالين لا ثالث لهما: أن تكون دولة في حجم روسيا قد استغلت مأساة كونية لأغراض دعائية يسهل كشفها إن لم تكن قائمة على أساس متين؛ أو أن تكون "اللعبة الكبرى" وهو اسم المحاولات البريطانية ومن بعدها الأميركية لعزل روسيا عن المجرى العام للحضارة الإنسانية (ولو باستغلال أخطاء تورطت فيها روسيا بالفعل) تتواصل اليوم، حتى بالشوشرة على جهود علمية قد يكون فيها ما يخفف آلام الإنسانية. وصار الأمر أكثر غرابة عندما أعلنت حكومة الولايات المتحدةفي السابع والعشرين من أغسطس من العام 2020 فرض عقوبات على معهد روسي مشارك في جهود إنتاج اللقاح ضد كوفيد- 19، وهو معهد أبحاث وزارة الدفاع الروسية. واستمر هذا الإتجاه والمنحى العدائي بإعلان حكومة الولايات المتحدة إضافة خمسة معاهد بحثية إلى قوائم المؤسسات التي تطالها العقوبات، وأن معهد أبحاث وزارة الدفاع الروسية واحد من هذه المعاهد. لقد كان من المتوقع أن يؤدي الشعور بخطر لا يستثني أمة على وجه الأرض إلى مزيد من التعاضد الذي قد يعطي العولمة وجها أكثر إنسانية. هذه المواجهة قالت عنها نيويورك تايمز بأنها محاولة يريد بها كل واحد منهما أن يثبت أنه أكثر رجولة من الآخر. وهذا تعليق غير جدير بالاحترام، بل ويضيف قبح الإعلام إلى قبح المنافسات السياسية.

حقوق الإنسان في مهبّ جائحة «كورونا»

طرح اتخاذ أكثر من ست دول من كل عشر في العالم تدابير لمواجهة وباء كورونا إشكالية على مستوى حقوق الإنسان أو القواعد الديمقراطية، وفقا لتقرير نشرته منظمة «إيديا» غير الحكومية الدولية ومقرها ستوكهولم.

وكشفت الدراسة الصادرة في 9 ديسمبر 2020 وتغطي جميع دول العالم تقريبا، أن 61 في المئة من دول العالم اتخذت إجراءات تعتبر على الأقل "غير قانونية وغير متناسبة ودون حدود زمنية أو غير ضرورية" في مجال واحد على الأقل متصل بالحريات الديمقراطية.

كما أن نسبة 43 في المئة تقع ضمن الأنظمة التي

تعد ديمقراطية، فيما ترتفع النسبة إلى 90 في المئة لدى الأنظمة التي تعد استبدادية، بحسب المنظمة المتخصصة في وضع الديمقراطية في العالم.

وذهب الأمين العام للمنظمة كيفين زامورا أنه إذا كانت مثل هذه النتائج متوقعة بالنسبة للأنظمة الاستبدادية فإن الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن العديد من الديمقراطيات اتخذت إجراءات تطرح إشكالية مستقبلية من أبرزها القيود المفروضة على حرية الصحافة باسم مكافحة التضليل والاستخدام المفرط للقوة (مثل نشر الجنود لتطبيق التدابير ووضع المرضى داخل تجمعات محددة، وما إلى ذلك)، والفساد في عقود التوريد في الحالات الطارئة أو حتى اتهام المهاجرين بأنهم مسؤولون عن نقل الوباء هي من بين المخاوف الأكثر تكرارا.

وذكرت الدراسة أن خمس دول في الاتحاد الأوروبي وهي بلغاريا (3 مجالات مثيرة للقلق) والمجر (2) وكذلك بولندا وسلوفاكيا وسلوفينيا (1). وأن من بين الديمقراطيات الغربية الكبرى كانت الولايات المتحدة هي الوحيدة التي أدرجت في مجالين، وأدرجت إسرائيل (5) والأرجنتين (2) بين الدول ذات الأداء الضعيف.

وصُنفت الهند على رأس الترتيب العالمي مع تدابير تعد "مثيرة للقلق" في 9 من إجمالي 22 مجالا تم تحليلها مثل حرية الحركة والتعبير والصحافة وما إلى ذلك، تلتها الجزائر وبنغلاديش في 8 مجالات.

وقامت المنظمة غير الحكومية بفحص التدابير المختلفة المتخذة في جميع أنحاء العالم لتحديد ما إذا كانت تطرح مشكلة من وجهة نظر ديمقراطية بحتة ودون مراعاة الكفاءة الصحية.

وأشادت الدراسة بالبلدان التي صنفتها كقوة وهي تلك التي حققت نتائج صحية جيدة واحترمت القواعد الديمقراطية، وهي أيسلندا وفنلندا ونيوزيلندا والنرويج وكوريا الجنوبية وتايوان وأوروغواي وقبرص واليابان والسنغال وسيراليون.

الارتداد الكبير!

يرى الناس في مختلف أنحاء العالم أن الأمل الأعظم الآن ربما يتمثل في أن يشكل 2021 عاماً لتحولات مفيدة: اقتصادات تتعافى بسرعة، وشركات متلهفة للتحول إلى الهجوم، بالاستعانة بنماذج أعمال «معدلة الحجم»، وحكومات تتحدث عن «إعادة البناء على نحو أفضل».

مكمن الخطر هنا، الذي لم يقدره أحد حق قدره حتى الآن، هو أن صناع القرار سينتهي بهم الأمر إلى إنفاق القسم الأكبر (والأكثر من اللازم) من العام على التعامل مع الأضرار الحالية والجديدة المترتبة على صدمة مرض فيروس كورونا 2019 (كوفيد 19).

لكن تبقى هناك أربعة أسباب وجيهة للتفاؤل حول عام 2021: الأول والأكثر أهمية، هو أن العلماء كانوا هم وشركات الأدوية يعملون بنشاط شديد لتطوير لقاح «كوفيد 19»، غالباً بدعم كبير من التمويل الحكومي المباشر وغير المباشر، وهناك من العلامات ما يشير إلى أن عدد من اللقاحات ستغطي احتياجات العالم في اسرع عملية إنتاج يشهدها التاريخ الحديث، مما يفتح بالتالي الطريق أمام مناعة القطيع اللازمة لعودة التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية إلى طبيعتها.

ثانياً: كان جزء كبير من القطاع الخاص – بدعم من أسواق رأس المال المفتوحة على مصراعيها والتي توفر قدراً وافراً من التمويل بتكلفة منخفضة – مشغولاً بالتفكير والتخطيط لعالَـم ما بعد الجائحة حيث تتطلع الشركات إلى الخروج من الأزمة، وقد أصبحت أفضل قدرة على إيجاد التوازن بين المرونة والكفاءة، فضلاً عن امتلاك قدر

أكبر من الرشاقة التشغيلية والعقلية المنفتحة، وهو ما لم تتمكن من اكتسابه إلا عندما اضطرت إلى انتهاج نموذج غير مؤكد وغير متكافئ إلى حد كبير في إدارة الأزمات.

ثالثاً: أبرزت الصعوبات الكامنة في الإدارة أثناء الجائحة أوجه القصور العديدة التي تعيب القيادة في الشركات والحكومات المحلية والوطنية. كما كشفت صدمة «كوفيد 19» عن إخفاقات كبرى في التنسيق العالمي والإقليمي، وفرضت ضرورة تقدير المخاطر التالية الأبعد احتمالاً، لكنها أشد تأثيراً على نحو أفضل وأكثر انتشاراً. كل هذا يجب أن يعمل على التعجيل بالتكييف اللازم بشدة لهياكل الحوكمة، التي سادت في السابق، مع حقائق اليوم الأكثر ميوعة.

أخيراً، أفضت التجارب الطبيعية المتنوعة التي فُرِضَت على العديد من البلدان وشرائح من المجتمعات أثناء الجائحة إلى تعزيز قدر أعظم كثيراً من الإقرار بأهمية الاستدامة، والتنوع المعرفي، والمسؤولية الاجتماعية، وربما يسمح هذا التحول بدوره بإدخال تغيير مطلوب بشدة على نماذج التشغيل الاقتصادية الضمنية في العديد من المجالات، وبدلاً من الاقتراض المستمر من المستقبل، يمكننا، بل يتعين علينا، أن نبذل قدراً أكبر كثيراً من الجهد الآن لضمان موارد أكبر لأجيال المستقبل، حتى يتسنى لها هي أيضاً أن تكون أفضل حالاً من الآباء والأجداد.

الخشية أن تُحبَط هذه الاحتمالات الأربعة بسبب عدم القدرة على التغلب بشكل حاسم على الضرر الناجم عن الجائحة، ومن المؤكد أن مثل هذه النتيجة لن تكون أول مرة تتسبب فيها رحلة غير مكتملة في منع الاقتصاد من الوصول إلى وجهة واعدة.

في أعقاب الأزمة المالية التي اندلعت أواخر عام 2008، على سبيل المثال، سارع كثيرون من صناع السياسات إلى الاحتفال بالنصر على التهديد الحقيقي المتمثل في كساد عالمي دام سنوات عديدة، حتى أنهم غفلوا عن المخاطر عندما تعلق الأمر بتأمين النمو القوي الشامل الطويل الأمد في أعقاب الأزمة، وأفضت هذه الزلة في البلدان الغنية بشكل خاص إلى تفاقم الهشاشة البنيوية بأشكالها كافة – الاقتصادية، والمالية، والمؤسسية، والسياسية، والاجتماعية– واستنزاف إمكانات ارتدادها وتعافيها.

ولتجنب تكرار هذا الخطأ في عام 2021، مع خروج العالم من الجائحة، يتعين على صناع السياسات أن يتحركوا مبكراً وبشكل حاسم في ثلاث مناطق:

أولاً: يجب أن نضمن أننا قادرون على التعايش بشكل أفضل مع «كوفيد 19»، مع اعتماد مجموعة من اللقاحات وحتى في هذه الحالة قد لا نحقق المستوى المناسب من مناعة القطيع قبل النصف الثاني من عام 2021، وحتى هذا الجدول الزمني متفائل. الواقع أن العديد من الاقتصادات المتقدمة تحتاج بشكل عاجل إلى كبح جماح معدلات الإصابة بـ«كوفيد 19»، في حين تسارع إلى بناء قدرات الاختبار وتتبع المخالطين، وتعزيز العلاجات، وتحسين الاتصالات، وتحتاج الحكومات وهيئات الصحة العامة بشكل خاص إلى بذل جهود أكبر كثيراً لتعزيز رسالة مفادها أنه في حين ينطوي توخي الحرص بشأن «كوفيد 19» على مصاعب وتضحيات، فإنها الطريقة الوحيدة لحماية الذات والأسرة والمجتمع.

ثانياً: يتعين على الحكومات أن تتخذ الآن الخطوات اللازمة (مثل تحديث البنية الأساسية، والاستثمار في الاقتصاد الأخضر، وإعادة تدريب العمالة وتجهيزها، والإصلاح الضريبي)، لمقاومة الضغوط المتنامية الطويلة الأجل التي تهدد النمو المحتمل، وإذا فشلت في التحرك بسرعة فإن عالم ما بعد الجائحة ستطغى عليه حالات إفلاس الشركات والبطالة الممتدة فترات

طويلة، وستزداد حدة تركز الشركات، وتتجه العولمة إلى الانحسار، وتتدنى القدرة التنافسية، وتتسع فجوات التفاوت في الدخل والثروة والفرصة. وسيكون الاقتصاد العالمي أقل إنتاجية وأكثر تفتتاً، مع تراجع المشاركة والقدرة على الوصول، إلى جانب درجة أعلى من انعدام الأمان المالي بين الأسر. وكل هذا قد يفضي، على جانبي العرض والطلب، إلى نشوء عقبات هيكلية طويلة الأمد، ويصعب التغلب عليها، والتي ستحول دون تحقيق التعافي الاقتصادي.

ثالثاً: يتعين على صناع السياسات أن يعكفوا على معالجة مسألة انفصال التمويل عن الاقتصاد الحقيقي، والتي أصبحت شديدة التطرف إلى حد تعريض الرفاهية الاقتصادية في المستقبل للخطر.

إن آخر ما يحتاج إليه الاقتصاد العالمي الآن هو موجة فوضوية غير منضبطة من تقليص الديون، حيث يتسبب انحلال الإفراط في خوض المجازفة من جانب المؤسسات المالية غير المصرفية في السنوات القليلة الأخيرة في تقويض التعافي الاقتصادي، على قدر ما يشوبه من ضعف، أو حتى إخراجه عن مساره.

من الواضح أن التقاعس عن التحرك السريع في التعامل مع هذه الحتميات الثلاث من شأنه أن يزيد بشكل كبير خطر احتجاز الاقتصاد العالمي بعد الجائحة، داخل نموذج من النمو غير الكافي، وفجوات التفاوت المفرطة الاتساع، وزيادة حدة التمزقات الاجتماعية، ونوبات دورية من التقلبات المالية.

الواقع أن العديد من الناس معرضون بالفعل لخطر الإزاحة الاقتصادية الدائمة، بسبب موروثات مرتبطة بالجائحة والتغيرات البنيوية التي كانت وشيكة فترة طويلة، وأي استجابة سياسية متكاسلة ستستنزف الطاقة، والإبـداع، والتأييد المجتمعي اللازم لضمان الانتقال السلس إلى فرص جديدة منتجة ومجزية.

الواقع أن هندسة انتعاش اقتصادي كبير في عام 2021، ثم الحفاظ على النمو القوي المستدام بعد ذلك، تتطلب ما يزيد كثيراً على توفر لقاح «كوفيد 19»، ولكن بالاستعانة بتدابير جريئة، وقيادة ملهمة، وقليل من الحظ، يستطيع صناع السياسات أن يساعدوا في وضع الاقتصاد العالمي على المسار الصحيح.

جائحة ما بعد الحقيقة

في 31 يوليو 2020، استضافت كُليتين في جامعة أكسفورد ندوة بحضور واسع، تحدث فيها العديد من العلماء المشهورين دولياً، وكانت الجلسة مخصصة في المقام الأول لأعضاء هيئة التدريس الداخليين، لكن بسبب الممارسة المستوحاة من الوباء المتمثلة في نشر النتائج العلمية على أوسع نطاق ممكن، تمت دعوة باحثين آخرين، وأعضاء مهتمين من عامة الناس.

في هذه الندوة تعرَّض وليام. أ. هالستاين صاحب التجربة العريضة في عمله الرائد بمجال فيروس نقص المناعة البشرية الايدز والجينوم البشري والاستاذ في كلية الطب بجامعة هارفارد لإنتقادات حادة برسائل مسيئة في نافذة الدردشة، بعدما قدم شرحاً بشأن الاختلافات الدولية في سياسات الاخفاء في جائحة كوفيد – 19، وفي كل موضوع، أكد لنا صانعو السياسات منذ بداية الوباء أنهم «يتبعون العلم»، ومع ذلك، فإن «العلم» بشأن تلك المواضيع لم يتم ترسيخه بعد، فقد تم الطعن في كل منشور جديد تقريباً، أحياناً من العلماء الزملاء، وأحياناً– بالقوة، بل حتى بالعنف– من أفراد من العامة.

إستطاع بصفته طبيباً وأستاذاً جامعياً، اجتذاب حاشية من المسيئين الذين لديهم الوقت والطاقة لملاحقته

عبر بوابات (افتراضية) لندوة أكاديمية؟ من نظّم هؤلاء المتصيدين؟ ولماذا شعروا بالحاجة إلى ملء صندوق بريده الوارد بالألفاظ والتهديدات؟

في ربيع عام 2020، عندما كان «كوفيد – 19» يجتاح العالم، وكانت الأبحاث تتقدم بوتيرة وحجم غير مسبوقين، وسرعان ما أصبحت قواعد البيانات العلمية مغلقة بالمطبوعات المسبقة التي يصعب الحكم على مصدرها وجودتها، ورغم الإجابة السريعة عن بعض الأسئلة حول الفيروس، فإن العديد من الأسئلة الأخرى لم تتلق الإجابة، وكانت العديد من النتائج غامضة، أو غير كاملة، أو غير متماثلة، أو غير ذات صلة؛ ولكن لكل منها آثار بعيدة المدى على حياة مليارات الناس وسبل عيشهم.

واعتاد أولئك الذين أجروا بحثاً علمياً من أجل لقمة العيش أن يتحسروا على حقيقة أن النتائج التي توصلوا إليها لم تلفت انتباه أي شخص سوى عدد قليل من زملائهم الأكاديميين، وقد تكون الادعـاءات التي لا تُنسى بأن نصف الأوراق العلمية لا تُقرأ أبداً، أو أن الأمر يستغرق 17 عاماً في المتوسط حتى يكون لنتائج البحث أي تأثير حقيقي، ملفقة؛ بيد أنها استوعبت مشكلة حقيقية. إن العلماء من أمثاله ببساطة لم يتوقعوا قط أنه سيقذف بنا إلى عالم ذي صورة معكوسة.

وفي بيئة «أليس في بلاد العجائب؟» تضخمت استجابة الجمهور للعلم لدرجة استحالت السيطرة عليها. إن «الحقائق»، حتى عندما تنتج وتنشر بحسن نية، توضع على الفور في مفرمة لحم أيديولوجية، ويتم تشكيلها داخل قالب سياسي، بينما يصبح عدم اليقين العلمي سلاحاً في أيدي المسؤولين المنتخبين والمصالح غير المنتخبة.

وفي ظل هذه الظروف، يصبح السلوك الطبيعي للعلم تمريناً مشحوناً، فبمجرد أن تضع حقيقة– مهما كانت حذرة– في المجال العام، فإنها تظل هناك، ولا يمكن التراجع، وكلما استعصت علينا الإجابات النهائية عن الأسئلة العلمية الملحة، أصبحت الافتراضات المعيبة للعلماء، والاستنتاجات المبكرة، والمنافسات الأكاديمية، والولاءات السياسية، والحياة الخاصة هي محور القصة، لقد تعرض هذا الطبيب والعالم لوابل من الإساءة، والغضب، والكراهية، والتخويف.

إن المعلومات المضللة، وأنصاف الحقائق الملتوية ليست شيئاً جديداً، ولكن كما جادل الفيلسوف جيسون هارسين، فإن «الوباء المعلوماتي» لما بعد الحقيقة المحيط بـ «كوفيد 19» أكثر شراً من أي شيء شوهد في أزمات الصحة العامة السابقة، وبالنسبة لأولئك الذين يسعون إلى تسليح المعلومات لتحقيق غاياتهم الخاصة، فإن وفرة المسودات العلمية التي تراكمت استجابة للوباء هي هبة من السماء.

وربما يكون «كوفيد 19» قد غيّر العلم بالفعل إلى الأبد، إذ زعزع الوباء وتوابعه ركائز التحقيق النزيه من خلال الإجبار على إعادة النظر في كيفية الإبلاغ عن النتائج الأكاديمية، ونشرها، ومشاركتها مع عامة الناس، وفي المستقبل المنظور، سيكون العلم نوعاً من العمل العام، وسيكون التواصل العلمي معركة عارمة بين الجهات الفاعلة ذات النوايا الحسنة والمتصيدين.

وكيف يمكن للعلم أن ينجو من كل هذا؟ أولاً، سيحتاج العلماء إلى أن نكون أكثر انعكاساً لذاتنا، وأن نطور وعياً متزايداً بهوياتنا وقيمنا والتزاماتنا الأخلاقية كباحثين يعملون من أجل المصلحة العامة.

إن الاضطلاع بهذا الدور يعني الانخراط– وإن كان مؤلماً– مع الملاحظات الناقدة والافتراءات، ومن خلال القراءات الدقيقة للنقد يمكن فهم المناخ السياسي الحالي بصورة أكبر، وتحديد الأساليب المحتملة لحماية المعرفة

التجريبية، ولكن لكي يكون ذلك فاعلاً، على العلماء أن يعلنوا رسمياً العمل المعرفي للدفاع عن الافتراضات الأساسية حول طبيعة الواقع، والطريقة التي يمكن من خلالها معرفة ذلك الواقع.

ويجب أن يصبح العلماء أيضاً أكثر مهارة في التفكيك، وللتغلب على محاولات تشويه النتائج التي توصلوا إليها.

صراع السياسة قبل السلامة

لنأخذ على سبيل المثال إعلان بارينغتون العظيم، وهو خطاب عام حديث وعريضة صادرة عن مجموعة من الأكاديميين المهمين الذين ينادون باستراتيجية مناعة القطيع للتعامل مع «كوفيد – 19». إن اقتراحهم– المتمثل بوجوب محاصرة السكان «الضعفاء» في حين يمضي «غير الضعفاء» في حياتهم دون قيود– يستند إلى معلومات مضللة، ولكن تم تقديمه على أنه علم محترم، ورغم أن العلماء العاديين قد عارضوا هذا الأمر على الفور، فإن الرفض الأكثر فاعلية جاء من المستخدمين العاديين الذين وقعوا العريضة المصقولة للغاية التي نشرت عبر الإنترنت بأسماء مثل «جوني فارتبانتس»، و«البروفيسور نوتاف أوكينغكلو» و«بانانا راما».

هذا الالتباس قد يكون وثيق الصلة بمبادرة كبير خبراء الأمراض المعدية في الولايات المتحدة إلى التحذير من أن توزيع اللقاح بموجب إرشادات الاستخدام الطارئ الخاصة قبل ثبوت أنه آمن وفعال في تجارب كبيرة فكرة سيئة قد يكون لها تأثير شديد على اختبار اللقاحات الأخرى. بدوره شدد الدكتور ستيفن هان، مفوض إدارة الغذاء والدواء، على أن الإدارة ليست مكونة من عناصر الدولة العميقة التي تحاول تأجيل لقاح كورونا، وأكد هان أنه على ثقة تامة من أن العاملين في إدارة الغذاء والدواء يركزون على مصلحة الشعب الأميركي فحسب. لكن هان ذهب أن «قرار الإدارة السماح بعلاج مرضى كورونا باستخدام بلازما دم المتعافين، لم يتم بسبب الضغط السياسي». وفي هذا الشأن لابد التذكير بتقرير نشره موقع STAT الطبي من أن" دراسة نشرها موقع في الثالث عشر من أغسطس – ولم تفحص بعد من قبل مرجعيات طبية مكافئة – أشارت إلى أن استخدام صفائح دم المتعافين لعلاج من يعانون إصابة شديدة بكوفيد– 19، عقب تشخيص حالتهم مباشرة، ارتبطت بتراجع احتمال الوفاة. لكن الدراسة تنطوي على مبررات قوية للتحفظ العلمي، ما يجعل من الصعب تأويل نتائجها".

وبحسب موقع مؤشرات البحث التابع لجامعة ساوث كاليفورنيا، فإن مبررات التحفظ العلمي scientific limitations هي تلك المتصلة بخواص ملموسة في تصميم الدراسة وفي منهجيتها يكون لها تأثير على تأويل النتائج التي خلص إليها البحث.

وفي هذا السياق، تبرز الاتهامات بسلوك الطرق الملتوية، والمجازفة غير الأخلاقية، وسط حديث عن «القومية في توزيع اللقاحات». ويقول لورنس غوستين أستاذ قانون الصحة العالمية في جامعة جورج تاون لـ«بي بي سي»: «لم أر قط رهانات سياسية بهذه الحدة على منتج طبي. السبب وراء الرمزية السياسية، التي أعطيت للقاح كوفيد 19، هو أن القوى العظمى تعتبره انعكاساً لبطولتها العلمية واعترافاً بتفوقها». وقد نشرت صحيفة الغارديان البريطانية تقريراً عن «ستة من أكثر العلاجات الواعدة لعلاج كورونا حتى الآن»، قالت إنها حققت بعض النتائج الإيجابية وهذه العلاجات جرى الحديث عنها قبل البدء بإنتاج عدد من اللقاحات التي اعتمدتها منظمة الصحة العالمية في نهاية عام 2020، وبدأت في خفض عدد الوفيات، وهي كالتالي:

- ديكساميثازون: دواء رخيص للغاية، متوافر بكثرة حول العالم.

- بلازما دم المتعافين: وهي عبارة عن بلازما تحتوي على أجسام مضادة للفيروس.
- ريمديسيفير: يستخدم هذا الدواء الباهظ الثمن في حالات الطوارئ ويقصر مدة الإقامة في المستشفى.
- توسيليزوما: مضاد حيوي يستخدم عادة لعلاج التهاب المفاصل الروماتويدي، لكنه ساعد على تخفيف حدة عوارض كورونا.
- حبوب ضغط الدم.
- استنشاق مضاد الفيروسات إنترفيرون بيتا: تشير دراسة إلى أن جهاز الاستنشاق المستخدم في علاج التصلب يمكن أن يكون فعّالاً في التعافي من كورونا. ويختبر علماء مجموعة من الأدوية حالياً لهذا الغرض، وقد تكون علاجات محتملة في المستقبل، مثل كاموستات وفافيبيرافير، وعقار EIDD-2801.

ويبقى الاتجاه الذي يؤشر إليه التنافس في المجالات الحربية، كما تجسدها تطورات التوتر بين الولايات المتحدة والصين في بحر الصين الجنوبي، وتطورات الحرب التجارية بين واشنطن وبكين، والتنافس الطبي المتعدد الأطراف، هذا الاتجاه معاكس لما ظهر في مطالع التسعينات من القرن الماضي، ما يمكن اعتباره إرهاصا بالعولمة، عندما استقبل فرانسيس فوكوياما نهاية الحرب الباردة وانبثاق فجر العولمة الأميركية بكتابه «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» وتوجه الكتاب يوحي بأنه يقدم تصورا جديدا لمفهوم نهاية الزمان عند الحَرْفِيين من مُؤَوِّلي النصوص الدينية الإبراهيمية.

في كتابه المذكور تصور فوكوياما أن تطور البشر، فكريا وقيميا، مضى بهم نحو عالمية universalization الديمقراطية الليبرالية الغربية كشكل نهائي للحكومات. وحدد فوكوياما القوتين المحركتين للتطور بأنهما" منطق العلم الحديث" و"النضال من أجل الحصول على اعتراف من الآخرين" بعظمة الفرد أو الجماعة المنخرطة في ذلك النضال. والقوة الأولى تمضي بالبشر نحو تحقيق غايات ذات أفق دائم الاتساع، عبر عملية عقلانية لها ضوابطها المختلفة؛ أما الثانية فهي(بالنسبة لفوكوياما وللمعلم الأول لثقافات الصراع في الغرب وهو هيغل) فهي القوة المحركة للتاريخ. وهو اعتبر أن القوتين تمضيان بكافة الثقافات المعاصرة باتجاه تبني الديمقراطية الليبرالية الغربية، كذروة لتطور الإنسانية. وعلى رغم أن فوكوياما تحدث عن عالمية ليبرالية، وليس عن عولمة ليبرالية، فقد بقي كتابه هذا من أهم العلامات على الطريق إلى العولمة.

وفي الرابع عشر من مايو من العام 2020 نشرت الإيكونوميست البريطانية تحقيقا بعنوان"هل قتل كوفيد-19 العولمة" جاء فيه أن العولمة تتعثر حتى قبل ظهور الوباء. فقد لحق الضرر بنظام الانفتاح الاقتصادي الذي حكم العلاقات بين الدول لعدة عقود، بسبب الانهيار التمويلي والحرب التجارية بين الولايات المتحدة والصين. واليوم تعاني العولمة من مصدر متاعبها الثالث مع إجراءات الغلق وحصر النشاط التجاري. ويقول التحقيق إن عدد المسافرين في مطار هيثرو تراجع، في مايو من العام 2020، بمعدل بلغ 97 % مقارنة بالفترة ذاتها من العام السابق؛ وصادرات المكسيك من السيارات تراجعت بمعدل 90 % في إبريل؛ وألغي ما مقداره 21 % من رحلات البواخر التجارية المحملة بالحاويات عبر المحيط في مايو 2020.

وصحيح أن إعادة الفتح حققت انتعاشا نسبيا، لكن العودة السريعة لحركة تجارية غير مقيدة ليست بالأمر الذي يمكن توقعه. وما جرى هو استمرار الطابع البوليسي الذي فرضته الجائحة على السفر والهجرة وتنامي الميل إلى الانكفاء على الذات والبقاء وراء الحدود الوطنية،

في مختلف أنحاء العالم. وكل هذه التطورات من شأنها إضعاف اقتصاد العالم وإشاعة الاضطراب فيه.

وقد نشرت مجلة «فورين أفيرز» الأميركية تقريرا لهنري فاريل وإبراهام نيومان، عن أثر فيروس كورونا على العولمة، يوم 16 مارس من العام 2020، بعنوان «هل قتل فيروس كورونا العولمة كما عرفناها؟» واعتبر الكاتبان أن فيروس كورونا الجديد اختبار بالغ الخطورة للعولمة، بعد أن انهارت أهم سلاسل الإمداد، وسارعت الدول لتكديس إمداداتها الطبيّة وحظر التنقُّل والسفر، وباتت الأزمة تُحتِّم إعادة تقييم شاملة للاقتصاد العالمي المتداخل. وبالوقت ذاته اعتبر الكاتبان أن العولمة ساعدت على الانتشار المتسارع لهذا المرض المعدي، عبر العلاقات الوثيقة التي أنشأتها بين الكيانات التجارية والسياسية، ما جعلها أكثر عُرضة للصدمات العنيفة. والآن يتكشَّف للكيانات التجارية والسياسية مدى ضعفها وهشاشتها.

ولكن هذا، يقول الكاتبان، لا يعني إخفاق العولمة بقدر ما يكشف عن هشاشتها. ولا ترجع هذه الهشاشة لافتقاد العولمة لميزات تفخر بها، بل ربما تعود الهشاشة لهذه الميزات. فقد أفضت الجهود المتواصلة التي بذلتها الكيانات التجارية المختلفة، عبر عقود، لإثبات جدارتها إلى خلق تراكم غير مسبوق للثروة، لكن هذه الجهود قلصت، بالوقت ذاته، حجم الموارد الاحتياطية غير المستغلة. أو المؤجل استغلالها لوقت الضرورة. وتضاؤل الموارد غير المستغلة يجعل النظام الاقتصادي الأوسع نظاما هشا، لأنه يستأصل الخيارات التي يمكن اللجوء إليها في الأوقات الحرجة والتي يشار إليها باسم خِزانات الفشل fail-safes، فإذا كانت كل الموارد مستغلة فما هي الموارد التي يمكنك إضافتها للمعادلة القائمة، في وقت الأزمة، لتكتسب قوة تبدأ بها من جديد؟

ويمكن لغياب تلك الاحتياطيات بالنسبة لبدائل التصنيع أن يتسبب بانهيار سلاسل الإمـداد، كما جرى في بعض القطاعات المتصلة بالرعاية الصحية كنتيجة لفيروس الكورونا المستجد. فقد ارتبك منتجو الإمدادات الطبية الحيوية في مواجهة الزيادة الهائلة في الطلب العالمي، ودخلت الدول في مواجهات بسبب التنافس على الموارد. وكانت النتيجة تحولا في ديناميات القوة بين الاقتصادات الكبرى في العالم، فأصبح أولئك الذين ادخروا الموارد وتحفظوا في استغلالها، ترقبا لظهور طارئ ما، هم الأقدر على محاربة الفيروس وعلى مد يد العون للآخرين، موسعين بذلك نطاق نفوذهم على المسرح الدولي.

وقد درجنا على القول بأن العولمة تخلق سوقا عالمية مزدهرة، وتسمح للمصنِّعين بإنشاء سلاسل إمداد مرنة، عبر استبدال مُوَرِّد بمورد أو استبدال مُكَوِّن بآخر، بحسب الحاجة. وقد أصبحت ثروة الأمم عند آدم سميث هي ثروة العالم، مع استغلال القوى التجارية للتقسيم العولمي للعمل. ونشأت عن التخصص درجات أعلى من الكفاءة، ساعدت بدورها على النمو.

لكن العولمة خلقت، بالوقت ذاتـه، نظاما معقدا للاعتماد المتبادل. احتوت الشركات سلاسل الإمداد، فنشأت مُرَكَّبات مترابطة مضطربة ومشوشة من شبكات الإنتاج جعلت اقتصاد العالم نسيجا متماسكا. واليوم يمكن تصنيع مكون واحد من مكونات منتج ما في عشرات البلدان. وهذا الاندفاع باتجاه التخصص جعل الاستبدال صعبا، وبخاصة فيما يتعلق بالمهارات والمنتوجات غير العادية، بمعنى أنك تبقى مضطرا للجوء لهذا الطرف بعينه لأنه المتخصص في المنتوج الذي تحتاجه أو المهارة التي تلزمك. ومع عولمة الإنتاج، اشتد الاعتماد المتبادل بين الدول، لأنه لم يعد بمقدور أي دولة أن تسيطر على

كافة البضائع والمكونات التي يحتاجها اقتصادها. جرى استيعاب الاقتصادات الوطنية داخل شبكة عولمية هائلة من الموردين.

هذه الهشاشة في النظام الاقتصادي العالمي كشف عنها فيروس كوفيد- 19 المستجد. فبعض القطاعات الاقتصادية، وبخاصة تلك التي تتمتع بدرجة عالية من الموارد الاحتياطية والتي يتوزع انتاجها على عديد من البلدان، بوسعها تحمل ضغوط الأزمة، إلى حد مقبول. لكن بلدانا أخرى تجد نفسها على وشك الانهيار إن منعت الجائحة واحدا من الموردين في البلدان من تأمين منتوج واحد يكون بالغ الأهمية ومستعملا على نطاق واسع. وعلى سبيل المثال، فمنتجو السيارات في كافة بلدان أوربا الغربية يقلقهم النقص في الاليكترونيات الدقيقة لأن منتجا وحيدا هو إم تي إيه للحلول الذاتية الحركة المتقدمة MTA Advanced Automotive Solutions أُجْبِرَت على وقف عمليات واحد من مصانعها في إيطاليا.

كما أنه في مراحل سابقة كان بوسع المُصنِّعين تأمين أكوام من الامدادات الاحتياطية لحماية أنفسهم في لحظة كهذه. ولكن بحكم ظروف العولمة، تؤمن مشروعات تجارية كثيرة بوجهة نظر المدير التنفيذي لشركة آبل تيم كوك الذي يقول إن "قائمة الموجودات بالمخازن " شر بالأساس". وبدلا من إنفاق المال على أجزاء ومكونات ضرورية لتصنيع منتج ما ويجري تخزينها لوقت الحاجة، فالشركات تعتمد على سلاسل إمدادت تؤمن الأجزاء والمكونات حين تنشأ الحاجة إليها، ويطلق على هذه الاستراتيجية اسم يصور طبيعتها تصويرا دقيقا وهو استراتيجية "في الوقت المناسب تماما JIT " وهي استراتيجية رأى المروجون لها أن من شأنها زيادة الكفاءة وتقليل الفاقد بتسلم البضائع وقت الحاجة لها، فلا يبقى عندك ما يزيد على حاجتك اللحظية.

نترك تقرير فورين آفيرز لننقل عن المحاضر المساعد في جامعة كونكورديا الكندية ستيفن سكاليا بعضا من ما قاله حول الموضوع.

يقول سكاليا إن هذه الاستراتيجية تتطلب من المُصَنِّعين أن تكون لديهم القدرة على التوقع الدقيق للطلب. ويمثل نظام الإمداد JIT تحولا عن المنهج القديم وهو منهج "إن لزم الأمر just in case" الذي يقضي بامتلاك قائمة موجودات مزدحمة بمكوناتها تحسبا لنشوء زيادة غير منتظرة في الطلب. وتشير «سكاليا» إلى أن جنرال موتورز تستخدم منهج يقضي بالاعتماد على سلاسل الإمداد القادرة على تأمين المكونات اللازمة لصناعة السيارات عند الطلب. وتتولى شركة بيلي سيت كومباني إمداد جنرال موتورز بالمقاعد التي تحتاجها الأخيرة لإنتاج الشاحنات. وتعمل الشركتان على أن تصل المقاعد إلى خطوط التجميع في الوقت المطلوب في اللحظة التي تنشأ فيها الحاجة، وتركيبها في الشاحنات الجديدة، فور وصولها.

لكن الجائحة الصحية غيرت هذا كله. وما كان يصل وقت اللزوم في السابق أصبح عرضة للتأخير، بحيث يمكن أن يصل بعد فوات الأوان. ولأسباب كان بينها اضطراب أحوال سلاسل الإمداد والشواهد كثيرة فقد تراجع إنتاج الحواسيب المحمولة laptops بما مقداره 50 بالمئة في فبراير من العام 2020. تراجع إنتاج الهواتف الذكية في الربع الثاني من العام بما مقداره 23 بالمئة. لكن ورقة بحثية نشرتها المؤسسة الاستشارية الأميركية إي بي آي ريسيرتش في الرابع من الشهر ذاته توقع تراجع إنتاج الهواتف الذكية (ضمن تراجع عام في إنتاج أدوات الجيل الخامس 5Gdevices) بما مقداره 30 بالمئة في الشهور الستة الأولى من العام 2020. ولا يعنينا هنا سوى حقيقة التراجع الملموس، بحد ذاتها، وربط

هذا التراجع، في تقرير فورين آفيرز وفي ورقة المؤسسة الاستشارية الأميركية، بتأثير وباء كورونا على آليات العولمة والمناهج والممارسات المتصلة بها. وننقل هنا عن فورين آفيرز تركيزها على الربط بين تراجع السلعتين المذكورتين وبين اعتماد إنتاجهما على مكونات تخصص بإنتاجها مُصَنِّعون آسيويون.

الفيروس صبغ الوباء بالصراعات السياسية

لم يفتك الفيروس بالبشر ويحصد ملايين الوفيات حول العالم فقد وصل بنهاية شهر فبراير 2021 إلى ما يقرب من مليونين ونصف المليون ضحية، بل أوجد حالة إنقسام سياسية بين الدول العظمى بسبب الخلافات حول طرق الاحتواء والذي لم يعرف أو يفرق بين الدول وحدودها الجغرافية.

برز تطورين جديدين بأسلوب التعامل الدولي مع فيروس كوفيد – 19، كما رآه المحلل «يان تشونغ هونغ» في مجلة «الفورين أفيزر» ونقلته «الجريدة» عام 2021 كانا كفيلَين بتفاقم تداعيات الجائحة وفشل التعامل معها وهما: التسييس ومسائل الأمن القومي.

كان أصل المرض علمياً لا سياسياً. لم تعارض الصين مثلاً الفرضية القائلة إن وباء سارس بين عامي 2002 و2003 بدأ في "فوشان"، في مقاطعة "غوانغدونغ" الصينية، ولم يتكلم أي بلد آخر علناً عن ضرورة محاسبة الصين، لأنها السبب في تفشي الوباء. لكن بعد أشهر على اكتشاف "كوفيد– 19" في مدينة "ووهان" الصينية، في ديسمبر 2019، أصبحت المسألة المرتبطة بمصدر الفيروس مشحونة سياسياً.

اعتبر الرئيس الأميركي كورونا "فيروساً صينياً" ولام بكين على "إطلاق وباء عالمي". فردّت وسائل الإعلام الصينية الحكومية معتبرةً أن اكتشاف "كوفيد– 19" في الصين للمرة الأولى لا يعني أن أصله صيني. كذلك، أعلنت بكين أن دولاً أخرى قد تكون مسؤولة عن إطلاق الفيروس.

لم يخضع أصل الفيروس وحده للتسييس، بل كان ردّ منظمة الصحة العالمية مسيّساً أيضاً. قبل انتشار وباء "كوفيد– 19"، نادراً ما كانت الولايات المتحدة تُشكك بتنامي نفوذ الصين في هذه المنظمة، حتى أن واشنطن انضمّت إلى بكين لدعم انتخاب الدكتورة مارغريت تشان، وهي صينية من هونغ كونغ، في منصب المديرة العامة لمنظمة الصحة العالمية في عام 2006. (دعمت الولايات المتحدة إعادة انتخابها أيضاً في عام 2012، حين كانت لاتزال على لائحة المرشحين). لكن عندما تشابكت الاستجابة الدولية تجاه فيروس كورونا مع السياسات المحلية، كان يتوق إلى إيجاد كبش محرقة لتبرير سوء تعامله مع الوباء، إلى اتهام منظمة الصحة العالمية بالسماح للصين بالتلاعب بها رغم قلة الأدلة الدامغة على ذلك، ورداً على هذا الموقف، اتّهمت الحكومة الصينية الولايات المتحدة بمحاولة تشويه سمعة الصين للتهرب من مسؤولياتها الخاصة.

أدى التوتر بين الصين والولايات المتحدة إلى إضعاف قدرة منظمة الصحة العالمية على إجراء تحقيق مستقل وشفاف وعميق حول منشأ الفيروس، كذلك، كان التوتر الأميركي الصيني كفيلاً بشلّ مجلس الأمن الذي فشل في إصدار قرار قوي لدفع وكالات الأمم المتحدة إلى محاربة "كوفيد– 19"، أو إنشاء هيئة فرعية لتنسيق الجهود الدولية بهدف احتواء الوباء.

في ظل احتدام الحرب الكلامية بين بكين وواشنطن، ترسخت النزعة القومية في البلدين. فزادت المشاعر العدائية ضد الصين في الولايات المتحدة وانتشرت المواقف المعادية للولايات المتحدة في الصين. اعتبر

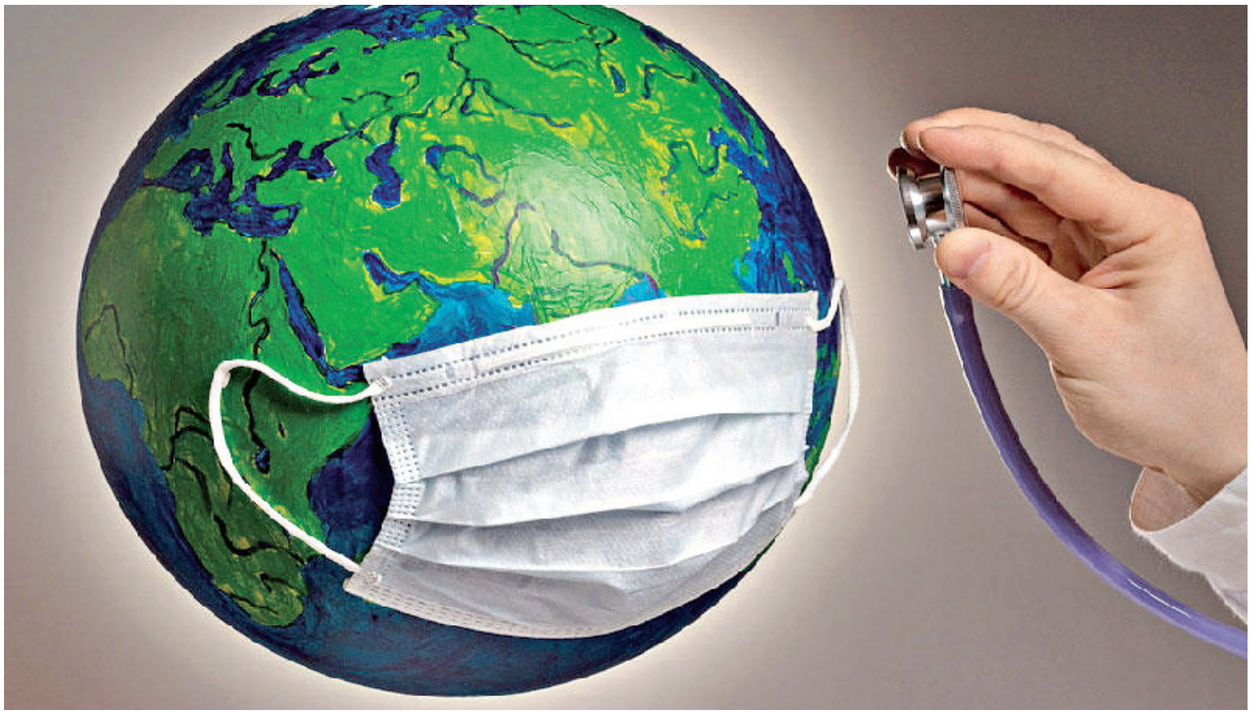

الفيروس صبغ الوباء بالصراعات السياسية

البلدان التعامل مع الوباء معركة بين النماذج السياسية المتنافسة. بنظر بكين، أثبتت قدرة الصين على احتواء الوباء سريعاً مقابل استفحاله في الولايات المتحدة فشل الديمقراطية الليبرالية وتفوّق النظام الاستبدادي حيث يحتكر الحزب الشيوعي الصيني السلطة السياسية. في المقابل، تعتبر واشنطن نشوء الوباء إثباتاً على فشل الحزب الشيوعي الصيني في تقديم أداء إيجابي يصبّ في مصلحة الشعب الصيني والعالم. في الوقت الذي يجازف فيه الرئيس الأميركي المنتخب جو بايدن بتنظيم قمة للدول الديمقراطية لمناقشة مخاطر "كوفيد- 19" بترسيخ هذا الخطاب المثير للانقسام، ما يُمهّد لتجزئة العالم بين معسكرَين سياسيَين يواجهان تحدياً عالمياً مشتركاً.

الأمن القومي

كان ميل دول العالم إلى تصوير الأزمة كأنها جزء من مسائل الأمن القومي كارثياً بقدر تسييس الوباء. على عكس معظم الأوبئة السابقة، اعتبرت الدول الفيروس تهديداً وجودياً، وهذا ما يبرر استجاباتها التي تختلف بطبيعتها عن الإجـراءات السياسية العادية. فرضت الحكومات حول العالم تدابير جذرية، بما في ذلك إغلاق مدن وأحياء كاملة، وفرض حظر التجول، ومنع رحلات السفر، وإعلان حالة طوارئ، ونشر قوات عسكرية. في الولايات المتحدة، لجأ دونالد ترامب إلى قانون الإنتاج الدفاعي لدعم مقاربته تجاه "كورونا" وعيّن جنرالاً برتبة 4 نجوم في منصب رئيس "عملية سرعة الالتفاف"، أي حملة التلقيح في الولايات المتحدة. هذه الحرب الضمنية لم تُجرِّد الدول من واجباتها الأخلاقية بمساعدة الآخرين فحسب، بل إنها رفعت قيمة الإمدادات الطبية الأساسية وزادت صعوبة تأمينها أكثر من أي وقت مضى، بما في ذلك معدات الحماية الشخصية والمكونات الدوائية الفاعلة.

العالم إلى أين؟

نبقى مع فورين آفيرز ومع تقرير نشرته لأستاذ مناهج الحكم في مدرسة جون كنيدي بجامعة هارفارد ستيفن والت في التاسع من مارس 2020. يقول والت إن فيروس كورونا مضى بالعولمة إلى وحدة العناية الفائقة. يشبه والت الأثر المتوقع لفيروس كورونا على أوضاع العالم المعاصر بالأثر الذي أحدثه طاعون العام 430 قبل الميلاد حين أضر بسلطة أثينا، على نحو ملحوظ. ويحدد والت توقعاته بأمرين:

- تنامي سلطة الدولة الوطنية مقابل تراجع العولمة
- انتقال مركز الثقل في النظام الدولي من الغرب إلى الشرق
- بقاء الصراع طابعا عاما للعلاقات بين الدول

يؤسس والت رأيه ذلك على خبرتنا، نحن أبناء القرنين العشرين والحادي والعشرين، بما جرى بعد جائحة الانفلونزا الاسبانية، من تواصل للصراعات بين القوى العالمية. وينطوي المنهج الاسترجاعي الذي يؤسس عليه والت ما انتهى إليه من خلاصات يمكن تبينه بسهولة: من قال إن المستقبل يمكن أن يكون استعادة للماضي؟ ألم يقل اليونانيون القدماء، الذين يستلهم الغرب تجاربهم، بلسان هيراقليطيس «ما من رجل يعبر النهر مرتين»؟ لماذا؟ لأنك حين تجتاز النهر في المرة الثانية يكون ماؤه قد تحرك وتربته تغير تماسكها بفعل الريح والحرارة والرطوبة، وتكون أنت أكبر سنا، ولو بلحظة واحدة، وأكثر خبرة، ربما بفضل عثرة قدم، أو بخبرة جديدة بحركة الموج والريح، مما كنت عند عبوره من قبل. لا تبقى أنت أنت، ولا يبقى النهر على حاله. ألم يقل كارل ماركس إن التاريخ لا يعيد نفسه، فإن أعاد نفسه يكون ذلك، بحسب رأيه هو، على نحو يثير السخرية؟

وبعد تقرير والت بأسابيع نشرت هارفارد بيزنيس ريفيو في العشرين من مايو 2020 تقريرا كتبه الأكاديمي الأميركي البارز(تولى مناصب كان بينها منصب العميد المساعد لمدرسة التجارة بجامعة ساذرن كاليفورنيا) ستيفن آلتمان بعنوان»هل يكون لكوفيد- 19 تأثير باق على العولمة؟». يرفض آلتمان النعي المتكرر للعولمة ويخلص إلى أن قادة العالم يتعين عليهم أن يخططوا للمستقبل وفق رؤية تأخذ بعين الاعتبار مستقبلا تتفاعل فيه القوى العولمية مع القوى المناهضة للعولمة. ومع اعترافه بحقيقة التراجع في مختلف حقول التجارة الدولية، فهو لايرى ما يؤشر إلى انهيار النظام التكاملي للاقتصاد الدولي وهذا يعني أنه يقول «نعم» للتراجع ولتحولات تترتب عليه، و«لا» لاحتمالات تنهي الطابع التكاملي للعلاقات الاقتصادية بين دول العالم ومنظماته التجارية.

وفي سياق عرضه للتحولات التي فرضتها الجائحة على التجارة الدولية يقول آلتمان أمورا مهمة، بينها أن» السياحة تساهم في مجمل الإنتاج العالمي بما يفوق ما تساهم به صناعة المركبات، وتسهل رحلات رجال الأعمال والموظفين في منظمات تجارية التجارة والاستثمار الدوليين». وهذا يعني أن القيود التي فرضتها كورونا على حركة البشر أخطر على الاقتصاد العالمي من القيود التي فرضت على حركة البضائع وحركة المكونات الداخلة في عمليات الاعتماد المتبادل في الصناعة. وما يقوله آلتمان عن السياحة لابد من ربطه بأثر السياحة على الطبيعة. لكننا نبقى مع آلتمان الذي ينبه، وخبراءُ اقتصاديون آخرون، إلى عدة أمور جديرة بالاعتبار :

- يتعين أن ينتقل قادة المشروعات التجارية في عالمنا المعاصر من موقف رصد درجة تفشي الفيروس ونطاق ذلك التفشي وأثر ذلك على الاقتصاد، إلى موقف يبادر إلى تغيير التوازنات لصالح التاثيرات

الإيجابية، بالعمل على تحسين الأحوال الصحية ولتعزيز التعاون الدولي. وقد انتقلت، بالفعل، شركات كبرى إلى مجال إنتاج التجهيزات والأدوات الصحية المطلوبة. ويمكن تعزيز ذلك بجهد من المنظمات التجارية الكبرى لتخفيف التأثير الاقتصادي للجائحة. وتقدم يونيليفر Unilever نموذجا يحتذى بحرصها على الدفع للموردين بسرعة أكبر مما سبق، وعلى تقديم العون لموظفيها ولمن يتعاون معها من المقاولين والعملاء.

- لابد أن نلاحظ أن سلاسل الإمداد تصاعدت أهميتها ويمكن للمواقف المستجدة بهذا الخصوص أن تعيد صوغ التجارة والاستثمار الأجنبي المباشر FDI. ومحور الجدل هنا هو المفاضلة بين تأمين الاحتياطيات redundancy وبين العودة بالاستثمارات والمشروعات reshoring من الأقاليم البعيدة إلى حيث المركز الرئيسي. وهذا يعني تراجع النموذج الذي تدعو إليه شانون أونيل، في تقرير لها نشرته «فورين آفيرز» أول إبريل من العام 2020"عملية تعدد المصانع، وغالبا تعدد البلدان، الداخلة في عملية الإنتاج، وهي العملية المتبعة عند شركات كثيرة في مختلف أنحاء العالم". وتؤكد أونيل أن العودة" ستخلق من المشكلات ما يفوق ما تحله منها، في المديين، القصير والمتوسط". فهل ستبحث المنظمات التجارة الكبرى عن السلامة عبر تنويع للأطراف الدولية التي تتعامل معها، أم أنها ستعمد لزيادة الاعتماد على الموارد المحلية؟ ترجح الاعتبارات الاقتصادية الاحتمال الأول، على أن يقترن بمخزونات وطنية من الأساسيات التي لاغنى عنها، لكن الاعتبارات السياسية قد ترجح الاحتمال الثاني.

- تتميز بعض الصناعات ذات الحساسية السياسية، مثل إنتاج ما يلزم القطاع الصحي وما يلزم الأمن الوطني، والمبيعات للجهات الحكومية لا للمواطنين أو المشروعات الخاصة، وحجم العمالة الوطنية في صناعة ما، أهمية خاصة في الظروف التي تخلقت بفعل الجائحة.

- إذا انتقل التركيز إلى تأمين الاحتياطيات لا إلى العودة بالاستثمارات من الخارج إلى الداخل، يتعين أن نتوقع ضغوطا محدودة لكنها طويلة المدى على العولمة، وهذه الضغوط من شأنها أن تبطئ تنامي التجارة الدولية، بقدر محدود. وسوف تقترن هذه الضغوط بتنويع الشركاء التجاريين الدوليين لكل بلد من البلدان.

هناك رؤية أخرى، رؤية رأسية تعتبر الجائحة رسالة إلهية، تنزل من السماء للأرض.

لاشك أن الناس، في معظم بلدان العالم تقوى نزعاتهم الدينية في وقت الأزمة. وقد وردت في أحد أفلام السينما في السبعينات عبارة تكشف قوة المشاعر الدينية في لحظة التأزم، عندما هتفت إحدى شخصيات الفيلم، وكانت ثورية ماركسية ذات نزعة إلحادية، متوسلة إلى خالق الكون، في لحظة صعبة، بقولها» أغثنا يا من لا نؤمن بك».

ويقول نضال البيابي، في تقرير يحمل العنوان» الانتعاش الديني.. في زمن وباء كورونا»، العاشر من إبريل من العام 2020، على موقع ميدل إيست أونلاين إن التدين الشعبي ينتعش في أوقات التأزم، فيلتزم عادة المؤمنون والمؤمنات بتعاليم وفتاوى المرجعيات الدينية، لكن في الأزمات تصبح الغلبة للتدين الشعبي والتقليدي الذي من أهم سماته المبالغة والمباهاة في ممارسة الشعائر الدينية.

ويعتمد البيابي في تحليله لردود الفعل الدينية في زمن الجائحة على تحليلات رائد علم النفس النمسوي سيغموند فرويد، الذي تجاوز علم النفس كثيرا من طروحاته. ويركز البيابي هنا على ما قاله فرويد بخصوص العلاقة بين السحر والدين، وعن علاقة التدين بالخوف من الموت. وفي حالة الوباء يرتبط التدين، وفقا لفرويد الذي ينقل عن البيابي،بطلب الحماية من القوى العلوية في مواجهة أخطار الطبيعة.

فحينما تعجز "الحضارة" عن حماية الإنسان عندئذ يتقدم الدين لحماية المؤمنين والمؤمنات، على المستوى النفسي، من أخطار الطبيعة. وكما يقول فرويد:" تحتفظ الآلهة بمهمتها الثلاثية: إبعاد قوى الطبيعة، التوفيق بين البشر وبين وحشية القدر كما تتجلى في الموت بشكل خاص، وتعويضنا عن الآلام والحرمان التي تفرضها على الإنسان حياة المتحضرين المشتركة..."

مظاهر الانتعاش الديني بعد انتشار الفيروس:

- من أهم نتائج استطلاع "بيو" الذي أجري في العام الأول لكورونا لـ11537 بالغاً أمريكياً لوحظ أن إنتشار فيروس كورونا وتحوله الى جائحة أثّر تأثيراً بالغاً على الممارسات الدينية للأمريكيين. فأكثر من نصف البالغين في الولايات المتحدة صلّوا من أجل وضع حدّ لانتشار الفيروس التاجي. بينما (15 %) من الذين لا يصلون عادةً صلّوا مؤخراً، و(24 %) من الأشخاص الذين يقولون إنهم لا ينتمون إلى أي دين قاموا بالصلاة أيضاً. واعتبر البعض أن انتشار الفيروس ساهم في "نهضة دينية". ولكن سادت بين أوساط اليمين المسيحي في أمريكا حالة إنكار لخطر كوفيد – 19.

موقع أخبار الأمم المتحدة UN News جدَّد التأكيد على البعد المجتمعي والإنساني للدين، تحت العنوان «رئيس الأمم المتحدة يدعو القادة الدينيين للتوحد في مواجهة كوفيد1- 9». وجاء في التقرير أن قادة الأديان كافة مدعوون من قبل الأمين العام للأمم المتحدة للتضامن في العمل من أجل السلام في مختلف أنحاء العالم وللتركيز على المعركة المشتركة حتى ننزل الهزيمة بكوفيد- 19.

هل «كورونا» رسالة من السماء؟

تبنت الكثير من الاراء الدينية والعلمية والثقافية الإتجاه القائل بأن كورونا رسالة إلهية سماوية وكتب شيرزاد شيخاني بتاريخ 2020/4/11، وجهة النظر التي تعتبر جائحة كورونا رسالة إلهية، لها أنصارها ومؤيدوها وهو منهم وعكست مبالغات الكاتب وجهات نظر شائعة في الشرق والغرب، يمكن أن نصفها بأنها وثيقة الصلة برؤية القيامة، حين يعتبر معلق ما (أو حتى فرد عادي ما) أمرا مثيرا لمخاوفه من نذر نهاية الوجود وقيام الساعة، وهي رؤية تكثر بين المتدينين من المسلمين عامة: والمتدينين المسيحيين الأنغلكانيين بشكل خاص، وهؤلاء يكرسون حياتهم كلها للإنذار بقرب قيام الساعة حتى وهم يرون دعاتهم يكدسون الأمـوال في البنوك ويقتنون أفخم السيارات بما يربحونه من «تجارة الرعب».

يقول شيخاني «قد لا أبالغ حين أقول بأن مايحدث اليوم في هذا العالم بسبب جائحة كورونا، هو وضع لم تشهده البشرية منذ أن خلق الله سيدنا آدم عليه السلام وحتى يومنا هذا. فلم يحدث عبر الزمان أن هاجم كائن صغير لايرى بالعين المجردة، كل المجتمعات البشرية بمثل هذه الشراسة حتى باتت المجتمعات برمتها مهددة بالفناء والإنقراض في حال عجزت المختبرات العلمية من إيجاد العلاج السريع لمواجهة هذا الوباء، أو اذا تحور الفيروس الى أكثر شراسة ليحصد المزيد من الأرواح البشرية». وتتضح مبالغة شيخاني إذا قارنا عذاباتنا في زمن الكورونا الراهن بما عانته البشرية من أهوال، طوال أربعة قرون، من الطاعون، في الشرق والغرب، وبما عانته في القرن العشرين من أهوال الانفلونزا الاسبانية. لكن من الضروري التنبيه إلى أننا نقارن ما يجري بسبب وباء لم تزل مسيرته في عامها الأول، وما زالت تحولاته المرصودة والمحتملة مثار قلق بالغ، بما جرى بسبب أوبئة اكتملت صورها لدينا.

فما هي مرتبة فيروس كورونا، من حيث قدرته على إبذاء البشر، بين الأوبئة والأمراض القاتلة في زماننا هذا؟

تجد على موقع المنتدى الاقتصادي الدولي، بتاريخ 16 مايو من العام 2020، بيانات عن أعداد من قتلتهم الأمـراض يوميا في العام 2017 على مستوى العالم. البيانات كالتالي:

- أمراض القلب – 48 ألف و742 حالة وفاة يوميا
- السرطانات – 26 ألف و181حالة وفاة يوميا
- أمراض الجهاز التنفسي- 10 آلاف و 24 حالة وفاة يوميا
- حالات عدوى المجرى التنفسي الأدنى(القصبة الهوائية ومكونات الرئتين)-سبعة آلاف وعشر حالات
- اضطرابات المخ- ستة آلاف وثمانمئة وتسع وثمانون حالة وفاة
- أمراض الجهاز الهضمي – ستة آلاف وخمسمئة وأربعة عشر ألف حالة وفاة
- اضطرابات حديثي الولادة – أربعة آلاف وتمانمئة وسبعة وثمانون حالة وفاة

- النزلات المعوية – أربعة آلاف وثلاثمئة حالة وفاة
- السكري – ثلاثة آلاف وسبعمئة وثلاث وخمسون حالة وفاة
- أمراض الكبد –ثلاثة آلاف وستمئة وأربع وعشرون حالة وفاة.

وحاصل جمع هذه الوفيات هو 147 ألفا و118 حالة وفاة يوميا، يمكن اعتبارها 150 ألفا، على وجه التقريب. كان عدد من قتلهم كوفيد- 19 في العالم، حتى التاسع والعشرين من أغسطس من العام 2020، قد بلغ842 ألفا و286 شخصا ووصل في منتصف شهر فبراير 2021 الى 2,441,926 مليون وفاة منذ نهاية ديسمبر 2019 و110,262,595 مليون إصابة أي أكثر من خمسة أضعاف ما حصده الموت في ستة أيام بسبب قائمة الأمراض سالفة الذكر. وهذا يمثل، على وجه التقريب، ثلثي ضحايا أمراض الكبد.

لكن وقبل القفز إلى أي خلاصات، نشير للاعتبارات التالية:

- لم نصل إلى الرقم الحقيقي للإصابات بفيروس كورونا وبدقة متناهية نظراً لأن دولاً لا تعلن الارقام كاملة وعدَّد الاصابات لم يتوقف بعد.
- تساهم التباينات في جمع المعلومات والتباطؤ في تسجيل الوفيات في زيادة غموض الموقف
- المقارنة بين حالات الوفاة بسبب فيروس كورونا وحـالات الوفاة لأسباب أخـرى تفيد في تقدير الموقف الراهن، ولاتفيد في استشراف المستقبل القريب للجائحة المستمرة فصولاً.
- على رغم النجاح الذي حققته الإنسانية في مواجهة فيروس الانفلونزا الاسبانية بعد عامين من العذاب، فلاتزال الانفلونزا، خطرا متجددا ودائم التنوع، وليس كوفيد- 19 إلا شكلا من أشكال تجدد هذا الخطر وامتداد لتحدي وجود البشر.

الاستنتاج الذي نلمح إليه، ولانجرؤ على اعتباره خلاصة نهائية أو حتى مرجحة، أنه «بقراءة بسيطة لعدد ضحايا هذا الفيروس، سنجد أن النسبة لاتتجاوز خمسة بالمائة، وهذه نسبة لاتصل بكل الأحوال الى من يقضون بالأمراض العادية كالسرطان وأمراض القلب وحتى حوادث السيارات في العالم، لكن سرعة انتقال المرض وشموله لكل الأجناس البشرية ومن مختلف الأعمار، هو التهديد الحقيقي. لذلك أتصور أن الحياة لن تعود الى ماكانت عليه قبل كورونا. وحتى لو توصل العلم الى إكتشاف لقاح خاص لمحاربته، فمن غير المستبعد أن يتحور الفيروس ويعاود الظهور مجددا في المواسم القادمة، فكيف سنعود الى ممارسة حياتنا الطبيعية؟»في مواجهة احتمال الخطر المتجدد يقول الكاتب» أصبحت على يقين بأن ظهور هذا الفيروس هو إرادة الهية لا خلاف عليها أو لنقل رسالة من الله عزوجل " عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ".

وقد يكون ابتلاؤنا بهذا الوباء، رسالة من الخالق لابلاغنا بما فعلناه نحن البشر بعضنا ضد بعض، وما ألحقناه من خراب ودمار بهذا الكوكب الجميل، وما إقترفت أيدينا من الظلم والفساد في الأرض، ولذلك حق فينا قوله عزوجل " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" وهنا تجد الرؤية المسلمة، المبثوثة في مختلف الأركان القرآنية والنبوية لِبُنْيَةْ عقيدة المسلم، للعلاقة بين العلة والمعلول بمعنى أن «البلاء» نتيجة نشأت عن «ما فعلناه نحن البشر». ونعود لابن كثير وكتابه» البداية والنهاية «لنجده يربط بين

سوء التصرف وبين كافة ما يدهم حياة المرء من اضطراب وخلل، فينسب إلى الفضيل بن عياض أنه قال: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي وامرأتي وفأر بيتي. ونستنتج أنه وضع خلق امرأته بين ما ساءه من تصرفات حماره وخادمه وما أزعجه من فأر بيته، لكن القيمة الكلية لرسالته باقية، وهي ربط صلاح الأمر بصلاح الخُلُق.

ويتضح جوهر الرؤية الدينية للجائحة، بقدر أكبر من التوازن الذي يضمنه عدم الخوض في تفصيلات تترك للإحصائيات وغيرها من أدوات البحث العلمي، لكن مع الأخذ بالاعتبار الاطار الديني بعمق، نتوقف عند رأي شيخ الجامع الأزهر الدكتور أحمد الطيب. وصف وباء كورونا بقوله «إنه لبلاء عظيم لا يعالجه إلا الصبر والدعاء الدائم عقب الصلوات أن يكشف الله عن عباده ما نزل بهم».

وأضاف قائلا «إن الابتلاء بالنسبة للمؤمن من الله كله خير، لأنه يعرضه لثواب عظيم يناله جزاء ما قدم من شكر أو صبر»، موضحا بالقول إن: «الابتلاء نراه في المصائبِ كالفقر والمجاعة والأمراض وفقد الأحبة، وهو ليس أمارة على سوء حالِ المبتلى، فكثيرا ما يكون البلاء طريقا معبدا إلى جنة الرضوان والنعيم المقيم». فالعبد قد تكون له منزلة في الجنة لا يصل إليها بعمله الذي اعتاد عليه لعلو هذه المنزلة وسموها عن درجة عمله، فيبتلى من الله ليبلغ هذه الدرجة بثواب الصبر على قضاء الله.

وقد كان لمنع التجمعات أثره النفسي العميق على المؤمنين من مختلف الديانات عندما بلغ الأمر إغلاق دور العبادة ونقل يوتيوب بالصوت والصورة كيف أن مؤذنا في أحد المساجد المصرية اختنق صوته بالبكاء حين نفذ التعليمات الصادرة إليه من وزارة الأوقاف بأن يقول في ختام الأذان «ألا صلوا في رحالكم» كي يكتفي الناس بالصلاة في البيوت ولا يأتون للصلاة في المسجد.

لكن كل مسلم يدرك خلاصة الحديث النبوي الشهير «وجُعِلَت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً فإيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل». فإن لم يكن يعرف النص فهو يعرف الممارسة المؤسسة عليه. وهذا الحديث أكبر من مجرد تصور مرن لإمكانيات الصلاة لتسهيل الأمور، بل هو يجسد بعدا مهما في عقيدة المسلم، بالفصل بينها وبين كل هيكلية أو مؤسسية. الإسلام دين الضمير، أولا وقبل كل شئ، وبُعْدُه الاجتماعيُّ نابع من اجتماع الإرادات الفردية الحرة المستمسكة بالخلق والمصلحة الجَمْعية والدين.

وكما نادى المؤذنون المسلمون بالصلاة في البيوت تجد أن الكنيسة الانغليكانية، وهي الأكثر تشددا في العالم المسيحي، تعلن على مواقعها عبارة" صلوا في البيت" وتنشر نص صلاة لمن أجبرتهم ظروف العزل الصحي على الصلاة في البيت.

وفي نقاش حول هذه الإشكاليّة مع الباحثة والأكاديمية رولا تلحوق، المختصة بالأنثروبولوجيا وأستاذة العلوم الدينية في الجامعة اليسوعية في بيروت، قالت: «في أحيان كثيرة، يتمسّك الناس بمعتقدات شعبيّة خاطئة، أكثر من تمسكهم بالعقيدة الدينية الأصلية. وغالباً يكون لتلك المعتقدات سلطة على الشعب أقوى من سلطة التعليم الرسمي. وطغيان المعتقدات الشعبيّة في التعاطي مع الوباء المستجدّ، ليس صادماً، فحتى يومنا هذا، نجد أناساً يتعلّقون بخرافات متوارثة عن عبادات وثنية قديمة، ولا علاقة لها بالأديان السماوية، مثلاً عدم كنس البيت يوم الأربعاء، وعدم تفصيل الملابس يوم الاثنين، وعدم خياطتها يوم الخميس، أو القول بالفأل السيء عند فتح مظلّة داخل المنزل».

تنقل المراسلة عن تلحوق قولها إنه لا يخلو فكر إنساني من الوسواس والخوف، لذلك يُستنجد "بمعتقدات شعبيّة صغيرة لكنّ سطوتها كبيرة، ولا نجدها مكتوبة لا في نصّ ديني ولا في كتاب مقدّس ولا في شريعة ولا في تعليم. يمكن للمرجعيات الدينيّة أن تلغي صلاة الجمعة وزيارة الأماكن المقدّسة، ثم لا يمتثل الناس لذلك القرار، وهذا لا علاقة له بالمعتقد بل بالعواطف الدينية».

وترجع سبب تمسك الناس بالمعتقد الشعبي على حساب التعليم والتوجيهات الدينية الشرعية إلى صعوبة الإطار العقيدي وثباته، بالمقارنة مع بساطة العاطفة الشعبية تجاه الدين. تقول تلحوق «فالعقيدة الدينية عمرها ألف عام أو ألفا عام. لا يمكن أن ننتقص منها أو نضيف عليها بحسب عواطفنا وأهوائنا، وهي في الغالب غير مستوعبة بقدر واف إلا عند المتعلّمين أو المتعمّقين بالشأن الديني. يتجه الناس دوماً نحو ما هو عاطفي وبشري وملموس، على حساب ما هو عقلاني وعقائدي ومجرّد. ولهذا فهم يستخدمون حواسهم، فيلجأون إلى رائحة البخور، أو إلى اللمس واللعق».

الجانب النفسي والعقيدة الدينية

وفي رصد يعتمد البعد التاريخي والتطوري في رصد تحولات العقائد ترى هذه الباحثة أن أتباع كل عقيدة دينية يفضّلون التخفّف من الإطار العقائدي الراسخ، ويركزون على ما هو مواهبيّ وخارق وخارج عن القانون، لإرضاء حاجة نفسيّة عميقة لديهم. حيث «تصبو عاطفة المؤمنين نحو ما يتصل بالتقوى، فيقبّلون الجدران، أو يشربون المياه الممتزجة بالتراب، وربما يرون في الشروح الدينية العقلانية خلخلة لإيمانهم، وربما يخاف بعضهم، إن هم أَطَّروا تدينهم بمقاربات علمية وإن كانت متوافقة مع الدين معززة له أو إن هم تعمّقوا في ديانتهم أكثر. وهذا لا يعني أن المظاهر التَقَوية عقيمة، لكنّ المراجع الدينية لا تثبت فعاليتها، حتى في حالات ذات شهرة واسعة.

تبقى حقيقة ثابتة بالنسبة لمعظم الناس، هي أن الإيمان والعبادة والطقوس الدينية إجابة شافية عن الكثير من الأسئلة الوجودية، وخاصة في وجه الأزمنة الصعبة، والمظاهر التي يصعب تفسيرها.

«المعتقدات السحريّة» أولاً

من المنظور الديني إلى الرؤوية العلمية يرى عالم الأعصاب وأستاذ علم النفس في جامعة باريس الثالثة، ألبير مخيبر إنّ «الخوف ليس أقوى من الإيمان على الإطلاق، على العكس، الهدف الأساسي من صوت الإيمان، هو تهدئة الخوف الأصلي عند كلّ الناس، أي الخوف من الموت. الهدف الجوهري من الدين طمأنة الإنسان إلى أنّه إن مات، سيفوز بحياة آخرة». تخصص ألبير مخيبر في دراسة الانحيازات الإدراكية غير الواعية، وقد صدر له، العالم الماضي، كتاب بعنوان «دماغك يخدعك» (دار ألاري – 2019)، يفصّل فيه رأي العلم في تحايل دماغ الإنسان على الوقائع والحقائق، بما يناسبه، ويستخدم أبحاثه العصبيّة في شرح تفاعلنا مع الأخبار الكاذبة.

يبحث الناس عن طمأنة قلقهم من خلال "معتقدات سحريّة"، بحسب تصنيفها العلميّ، إن تلك المعتقدات ليست حكراً على المؤمنين، بل نجدها عند الملحدين أيضاً، وعند جميع البشر.

فالاعتقاد بأن الملحدين منطقيون أكثر من المؤمنين اعتقاد خاطئ، فهناك مؤمنون عقلانيون، وملحدون يصدقون أفكاراً سحرية. مثلاً، هناك من لا يؤمن بقدرة

الصلاة والعبادة على الشفاء، لكنّه يؤمن بالطب البديل غير المثبت علمياً، ويعتقد أن شركات الأدوية تسمّمنا، وأنها توصّلت إلى إنتاج علاجات للأمراض المستعصية لكنها تحجبها عن الناس. المثير أن مختبرات الطب البديل، ومع تفشي كورونا الآن، وخوفاً من الدعاوى القضائية ضدّها، نشرت تحذيرات تدعو الناس إلى الالتزام بتعليمات منظمة الصحة العالمية، وعدم استخدام مستحضرات مختبرات الطب البديل كعلاج لأعراض الفيروس".

نجد معالجة مختلفة للكيفية التي تجاوب بها بعض قادة الرأي في العالم العربي، من المتدينين، مع جائحة كورونا. قدم المعالجة الكاتب سعيد منتسب، وربما كان بوسعنا القول إن اختلاف معالجته يجسد اختلاف خطاب بريطاني موجه للمشرق العربي متماه مع الخطاب الأميركي الأكثر هيمنة على العقل الجمعي في تلك المنطقة، وهو شديد القرب من التوجهات الدينية المحافظة) عن الخطاب الأوسع انتشارا في فرنسا منذ قرنين من الزمان، والأقرب للعلمانية في صورتها المعتمدة منذ ثورة العام 1789حتى بعد التعديلات التي لحقت بهذا الخطاب في العام 1905، وهو خطاب له أنصاره، منذ أجيال، في المغرب العربي، وبقوة تفوق ما لمثيله في المشرق العربي.

كورونا تفرض عالما جديدا للبشرية

ثمة من سيرى أن أثر فيروس كورونا المستجد «كوفيد – 19» على العالم، يوازي أثر التطور في البيولوجيا أو الجاذبية في الفيزياء. فالمفكر الفرنسي، جاك آتالي ينسب له القول «لا شيء سيظل كما كان» أهمية آتالي، من وجهة النظر العربية، تعود إلى أمرين: أنه اختير قبل سنوات ضمن أعظم مئة من مفكري العالم (فورين بوليسي–ديسمبر 2009)؛ ورؤيته للحضارة العربية، كما جاءت في كتابه عن التسامح العربي المسلم في الأندلس قبل أن تجتاحها ظلامية المتشددين الذين زحفوا عليها من موريتانيا، وهو كتاب «أخوية اليقظين La Confrérie des Éveillés» . وتتلخص هذه الرؤية في عبارة سمعها موسى بن ميمون من أبيه الحاخام. وموسى بن ميمون هو الذي يقول عنه اليهود، منذ القرون الوسطى «لم يأت بعد موسى أعظم من موسى»، أي لم يأت بعد النبي موسى أعظم من موسى بن ميمون. والعبارة التي قالها الحاخام الأب لوريثه مؤسس اليهودية الجديدة، كما أوردها آتالي تقول»إن مسلمي قرطبة، مثلنا، بالغو الاهتمام بالسعي وراءالحقيقة والعلم والعقل والفلسفة. وهم يشاركوننا الولع بالنقاش حول طبيعة الكون وأسباب نشوئه وحول مكانة الإنسان بين المخلوقات». فما الذي نفهمه من عبارة آتالي؟

وتتطرق طروحات آتالي إلى وجهة تناسب موقفه من ما يسميه "العقل الديني"، فيتساءل: هل سنشهد نهاية وشيكة يمضي إليها العقل الديني، وانتصارا تاريخيا كاسحا يحرزه العقل العلمي؟ وهل العالم مهيأ الآن، بعد ضمور المساحة التي كان يحتلها رجال الدين، إلى تسليم نفسه للمختبرات العلمية والطبية؟ وهل من الممكن أن يتخلص البشر من الخطاب المنغلق على نفسه، ليتجه نحو ثورة علمية تسعى باستمرار إلى تجاوز نفسها، بحثا عن حقائق قابلة للتحول والتغيير والتطور؟

نعرض لوجهة نظر آتالي في التحولات التي قد تترتب على جائحة كورونا حول ما قاله في مقابلة مع المجلة اليابانية «اليابان إلى الأمام JAPAN Forward » في الحادي والعشرين من مايو من العام 2020. سألته المجلة:

ماهو الأثر المتوقع للأزمة الصحية؟ هل سيتغير العالم بعد الجائحة؟

ورد آتالي

- الأزمة بالغة العمق. والكساد سيطال حتى البلدان

الأقل تضررا، فهذا أسوأ كساد منذ قرن. لكن الحالة الراهنة تشهد بداية وعي بالحاجة لشكل جديد من التنظيم الاجتماعي. يجب أن نعيد توجيه الاقتصاد بحيث يقوم على" صناعات تسعى للحفاظ على الحياة"، يجب أن يكون من غايات الاقتصاد الحفاظ على الصحة وعلى الأغذية وعلى البيئة المناسبة للحفاظ على الحياة، وأن يكون من غايات الاقتصاد الحفاظ على الطاقة والتعليم والبحث الطبي والموارد المائية وتطوير القطاع الرقمي والأمن والديمقراطية، وأمور كثيرة أخرى. وبين الاهتمامات ذات الأولوية قيم التعاطف والغيرية.

وسألته المجلة:

ما مصير النظام الاجتماعي؟

- نعم. فعندما تفترس جائحةٌ ما قارةً من القارات فهي تسقط الصدقية عن المعتقدات والضوابط. هنا نشهد ميلاد شرعية سلطة جديدة. تحدى طاعون القرن الرابع عشر السلطة الكنسية، التي عجزت عن إنقاذ الأرواح، ولم تستطع حتى أن تشرح للناس وهم في غمرات العذاب معنى الموت. عندئذ حل رجال الشرطة محل الكهنة. وفي نهاية القرن الثامن عشر حل الأطباء، باعتبارهم المدافعين عن الحياة بوجه الموت، محل رجال الشرطة. ولدت من رحم الجائحة الدولةُ الجديدة، وبسبب الجائحة صار العقل العلمي يعلو على السلطة الدينية.

وما يقوله آتالي لا ينطوي على ثنائية العقل الديني والعقل العلمي. بل هو يتحدث عن العقل العلمي في مواجهة السلطة الدينية. والفارق كبير.

في هذا الإطار نفهم ما قاله سعيد منتسب بادئا بإحالة على ما قاله عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر الشيخ خالد الجندي من أن «فيروس كورونا المستجد جند من جنود الله. لكسر غرور العالم». ونقل منتسب عن الشيخ قوله خلال تقديمه لبرنامج «لعلهم يفقهون»، المذاع عبر فضائية «dmc» ، أن العالم اتجه إلى الغرور بشكل حقيقي ، منبها إلى ضرورة الانتباه للدرس والعظة وعدم التمادي، موضحًا أن «الهلاك يأتي عند الثقة بالنفس بشكل مبالغ فيه".

ويرى منتسب أن "هذا الركوب على الأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية ليس جديدا. ويقول إن رجال الدين، من مختلف الأديان، درجواعلى التخفي وراء الغضب الإلهي من أجل تفسير تلك الظواهر القاهرة، وأيضا من أجل الإلحاق الجماعي للناس في سجل الإيمان. إنهم بستغلون خوف الناس وعجزهم من أجل الاستقواء على العلم. وهكذا، يقول سعيد منتسب، رأينا، مع تسجيل مزيد من الإصابات والوفيات، كيف يشتغل حراس العقيدة، وكيف يصدرون مواقف غريبة تستهين بالمرض، وأخرى مقززة لا تساهم إلا في تضليل من يتبعون إرشاداتهم بطريقة عمياء، ونشر خرافات وأكاذيب تعري جهلهم وتطفلهم على قضايا ليست من اختصاصهم.

وفي حين أغلقت الجوامع والكنائس والمعابد البوذية والهندوسية أبوابها بدافع احترازي لتجنب الاختلاط والعدوى، انبرى بعض الفقهاء، في مغالطة واضحة، للدفاع عن «المعابد» أمام الحاجة الملحة إلى الأطباء والمستشفيات، وكأن العلم والطب ضد الدين، والحال أن التجربة البشرية، حتى الآن، أثبتت أن الإنسان يحتاج إلى إشباع روحي بقدر حاجته إلى الأطباء والمستشفيات، والمدرسين والمدارس، وأصحاب المهن والتخصصات المختلفة.

ويرى بعض المدافعين على الأديـان أن «المعنى الروحي للأحداث الطبيعية ليس نظريات لاهوتيةً معقدةً، بل هي العبرة الظاهرة التي يتفطن لها أي أحد، فالقول إن الفيروس أظهر هشاشة الإنسان وحدود قوته وعجزه الأصيل وما يستدعي ذلك من دعوته إلى التواضع وكسر كبره، أو القول إن الفيروس أرى الإنسانَ العاقبة السيئة لإفساده في الأرض، وإخلاله بتوازن الطبيعة والإسراف في قطع الأشجار والإضرار بغلاف الأرض بسبب جشع ربح التصنيع وانبعاث الغازات، وأرى الإنسان عاقبة ظلمه في إنفاق المليارات على صناعة الأسلحة وتكديسها في مقابل إهمال الإنفاق على الصحة والتعليم.. إن مثل هذه الدروس الأخلاقية التي تنطق بها الأحداث الطبيعية هي عين التفكر الروحي».

وما بين رأي الدين والعلم نلاحظ بروز الخطاب الديني في واحد من بلدان أوربا الغربية التي ارتبط اسمها بتاريخ انبثاق الرعب من فيروس كورونا. فنينقل عن رئيس الحكومة الإيطالية جوزيبي كونتي قوله: «انتهت حُلول الأرض، الأمرُ الآن متروك للسماء». فهل هذا دليل على تغيير جذري في الفكر الديني؟ وهل يعني ذلك وجود قوة إيمانية خفية ضرورية كدعامة معنوية ضد الأزمات؟ هل من المتوقع أننا سننتقل نحو غرب أكثر تدينا ينحسر فيه الفكر الوجودي أكثر من أي وقت مضى ويتجه نحو قالب فكري أكثر توازنا بين المادة والروح؟ أن بعض من رجال الدين، في الجهات الأربع للأرض، لا زالوا يبيعون الخرافات كبضاعة من بضائع الاستغباء الديني، فهل سيؤثر هذا على درجة تطور التدين العام على نحو تصاعدي؟ ألن تقف الثورة الطبية في علم الفيروسات والميكروبيولوجيا في وجه هذا المنحى؟ من الأكيد، كما يقول الخبراء والباحثون، أن نظرية العلاج الدوائي ستفقد نقاطا هامة أمام انطلاق العالم نحو فلسفة الطب الوقائي، كإجراء يفرضه عامل الهيكل الذهني للكائنات العدائية الدقيقة التي بدأت وستواصل تطورها وتأقلمها مع العضوية الطبيعية والإنسانية، كما أن منظمات الصحة العالمية التي أثبتت فشلها ستحل محلها أدوات دولية جديدة يراها العالم أكثر فاعلية وقدرة على التنسيق والتعبئة والتوعية، مثلما سيتغير عديد الأنظمة الصحية في العالم وتتبدل أولويات شركات الأدويـة العالمية بتغير السوق الصحي. وستحظى المختبرات البحثية باهتمام أكبر في الدول المتقدمة سواء من ناحية الأمن الطبي العام أو العسكري حتى باتجاه السباق نحو السلاح البيولوجي كأداة هجوم ودفاع. وستصبح التهديدات سياسية وعسكرية وبيولوجية أيضا.

أن طريقة الوقاية الثابتة هي أن ندور حول أنفسنا ثلاث دورات، بالتأكيد سينجذب الناس لتصديق صاحب اليقين، حتى وإن كان أسلوبه يعاكس العلم والمنطق ولن يتم التوقف عن سرد القصص لتفسير العالم حتى لو تطوّرنا علمياً، لأنّنا ببساطة لا نمتلك القدرة الفيزيولوجية على فهم وإدراك كلّ المعلومات والمعطيات ورؤية الواقع بكلّ تدرجاته. القصص لا تهدّد وجودنا كفصيلة. العالم هو منافسة بين أناس يريد كل واحد منهم أن يسرد أجمل قصّة، وأن يجعل أكبر عدد من الناس تصدّق قصّته تلك.

عندما يلتقى العلم بالإيمان

إن العلم والطب الوقائي يتجهان، الآن، على قدم وساق إلى سرد أجمل قصة، وهي الكفيلة بإنهاء الخوف، ذلك أن «الخوف ليس أقوى من الإيمان على الإطلاق، على العكس، الهدف الأساسي من صوت الإيمان، هو تهدئة الخوف الأصلي عند كلّ الناس، أي الخوف من الموت. الهدف الجوهري من الدين طمأنة الإنسان أنّه إن مات، سيفوز بحياة آخرة»، وفق ما قاله ألبير مخبير

في بحثه حول «الانحيازات غير الواعية للدماغ». وبالتالي فإن قصة السباق نحو إيجاد اللقاح هي التي ستصنع الفارق غدا بين العلم والتدين، وهذا يعتمد على سرعة الابتكار وحجم اللقاح المطلوب استعماله لكل إنسان مصاب على هذه الأرض.

وبالنهاية، وعلى مستوى الممارسات الفعلية للتدين، فقد خضعت التجمعات الدينية لقواعد لم تحددها سلطات دينية، بل حددتها سلطات الصحة العامة في كل بلد ومنظمة الصحة العالمية، كجهة توجيهية وإرشادية، على مستوى العالم. وبناء على توجيهات منظمة الصحة العالمية، المبينة في توجيهات إرشادية نشرها موقع المنظمة في العشرين من مارس 2020 كتوجيهات إرشادية قابلة للتغيير، خضعت التجمعات الدينية، لأربعة اعتبارات تتعين مراعاتها عند اتخاذ قرار بالسماح بتجمع ديني، داخل أو خارج دور العبادة هي :

- المدى الذي بلغه الوباء في انتشاره ودرجة شراسة الفيروس كما تتجسد في شدة الأعـراض وعدد الوفيات وما هو معروف عن ديناميات انتقال العدوى، في لحظة التجمع.
- التوزيع الجغرافي لتفشي الوباء وعدد المشاركين في كل تجمع ديني وقابليتهم العدوى بالنظر للسن والحالة الصحية وما عدى ذلك من العوامل المرجحة للتعرض للخطر.
- اعتماد أدوات تقويم موثوق بقدرتها على تقرير مدى الخطورة(دقة البيانات المشار إليها في النقاط الثلاث السالفة الذكر).
- تدابير تحسين البيئة المحيطة بالتجمع من نظافة وتعقيم وتهوية واتساع يسمح بالتباعد.

حلول سريعة سريعاً للقضاء على «كورونا»

اجتاح فيروس كورونا المُستجد الكوكب في عام 2020، حيث ضرب آسيا أولاً، وسرعان ما انتقل إلى جميع أنحاء أوروبا والأميركتين، في حين بدا كأنه موجة مُستمرة من الحزن، ومع مرور الأحـداث، والسؤال المطروح دائماً: متى سينتهي هذا الوباء؟!

على الرغم من حدة الوباء، يعتقد الكثيرون ببساطة أنه سينتهي في وقت ما من العام الجديد، لكن هذه الآمال في غير محلها، إذ تتضمن السيطرة على الوباء أربعة عناصر أساسية: القيادة، و«الحكامة»، والتضامن الاجتماعي، ومجموعة الأدوات الطبية، وقد فشلت أغلبية الدول اليوم في تحقيق العناصر الثلاثة الأولى، ما عدا ضمان بقاء وباء كوفيد – 19 خلال العام المقبل.

أما بالنسبة للعنصر الرابع من عناصر السيطرة على الوباء، فيفترض العديد من المُراقبين أن لقاحاً أو علاجاً منقذاً للحياة سيكون متاحاً قريباً، صحيح أن الوباء قد أظهر أفضل ما في العلم والطب، فقد عمل الباحثون في جميع أنحاء العالم بشكل أسرع وتعاونوا بشكل وثيق أكثر من أي وقت مضى، حيث تمكنوا من التعرف على نوع الفيروس وتحديد تركيبته الجينية والعمل على اللقاحات والعلاجات المُحتملة.

لقد علّمَتنا السّنة الأولى من التعامل مع "كوفيد 19" أن التدابير التدريجية لن تؤدي إلا إلى زيادة حدة الوباء، إذ تتطلب الأزمات الوطنية والعالمية اتخاذ إجراءات مُنسقة على الصعيدين الوطني والعالمي، وقد فشلت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وكذلك البرازيل وغيرها من البلدان المُتخلفة، في كلتا الحالتين، وفي الواقع، لا تزال بعض البلدان تسعى وراء تحقيق نظرية مناعة القطيع، على

كورونا تخلق عالما جديدا

الرغم من الأدلة العلمية التي تشير إلى عدم وجود حماية مُماثلة من هذا المرض.

هناك أربعة أنواع شائعة للفيروسات التاجية (رغم قلة ملاحظتها) تصيب ما يصل إلى 15 في المئة من سكان العالم كل عام، والتي تعود عاماً بعد عام، وغالباً ما تُعيد إصابة الأشخاص أنفسهم، إذا افترضنا أن "سارس كوف 2" ليس استثناء، فإن أي دولة تعلق آمالها على استراتيجية مناعة القطيع ستُعرض البقية للخطر.

في النهاية، على الرغم من ذلك، فإن الاستجابة الجماعية تعكس فقط مجموع الأنشطة الفردية، وفي العديد من البلدان، يخشى الأفراد أن يؤدي تطبيق تدابير الحماية إلى التنازل عن الحريات الشخصية، لكن في أوقات الحرب، عندما تكون الأخطار واضحة، أظهر الناس باستمرار مدى استعدادهم للتضحية من أجل إخوانهم المواطنين.

من الواضح أن تحسين التواصل مع الأفراد أمر بالغ الأهمية، فالعالم في حالة حرب مع هذا الفيروس الخبيث، حيث يُشكك القليل من الناس في أهمية الحرية الشخصية، لكن هذا هو الوقت الذي نحتاج فيه جميعاً إلى التخلي عن بعض وسائل الراحة من أجل سلامة من حولنا.

يُذكرنا كل زلزال جديد أو إعصار تسونامي أو مرض ناشئ بأن الطبيعة قوة خطيرة، وإذا كان هناك سبب يدفع العديد من الدول الآسيوية للاستجابة بشكل أسرع وأكثر فعالية لوباء كوفيد 19، فذلك لأنها ما زالت تحتفظ بذكريات مرض السارس، وإنفلونزا الخنازير، وإنفلونزا الطيور، وتُظهر التجارب التي مرت بها في السنوات الأخيرة أن تدابير الصحة العامة التي يتم تطبيقها بشكل صارم من خلال القيادة الجريئة والحكامة الجيدة والتضامن الاجتماعي يمكن أن تُساعد في السيطرة على الوباء والحد من عدد الوفيات بشكل أسرع.

هذا هو أكبر درس يجب الاستفادة منه في عام 2020.

الفصل العاشر

التحول المناخي وصناعة المستقبل

- البحث عن النعمة في النقمة
- من وحدة الوجود إلى وحدة المصير
- أعمدة الحملات العشر
- نحو «تشحيل» العالم لحفظ التوازن
- 750 مليار دولار سندات خضراء
- الهجرة بعد كورونا

من المثير والغريب ان العديد من التحذيرات الاستباقية تصدر من علماء ومفكرين وفلاسفة ومستشرقين الا أن الجميع يتعامل معها بلا أدنى مسؤولية أو إهتمام.

ولعل تحذير الكاتب الأميركي في العام 2017 خير مثال ودليل فقد نبه وحذر ديفيد والاس من أن البشرية في طريقها إلى كوارث مخيفة لم تعد بعيدة، كما يتصور البعض. حذر والاس من اقتراب الزمن الذي ستعيش فيه البشرية كلها- وليس فقط الشعوب والجماعات البعيدة عن مراكز العالم الصناعي المتقدم - تتابع وتشابك المجاعات والفوضى السياسية والانهيار الاقتصادي والتنافس المجنون على الموارد،وفوق ذلك كله حرارة غير محتملة تنبعث من الشمس. وبعد ذلك بعامين أصدر والاس كتابه " الأرض وقد أصبحت غير صالحة للسكنى " الحياة بعد الاحترار"، في فبراير من العام 2019. اعتبر كثيرون أن والاس يبالغ في التشاؤم، في حين أنه كان ينبهنا، نحن سكان الكوكب في المركز الصناعي المتقدم وعلى الهوامش في آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية، على السواء، إلى ضرورة أن نسارع إلى انقاذ كوكبنا من أخطار محيقة به، كما يحيق المكر السئ بأهل السوء.

ينبهنا والاس إلى أن بوسعنا إنقاذ مئة وخمسين مليون إنسان سوف يفقدون حياتهم بنهاية هذا القرن بسبب تلوث الهواء. ولكي يبين المعلقون ضخامة الرقم لفتوا نظر القارئ الغربي إلى أن ذلك يعادل أكثر من ضعف عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية. فما الذي يتعين عمله لتحقيق ذلك؟ يتعين أن نسيطر على ظاهرة الاحترار والتخلص من الانبعاثات السلبية.

ويفسر المحرر العلمي في فوكس ميديا الأميركية عمر عرفان ما يقوله والاس بالإشارة إلى أن الفرصة الأفضل لتجنب الأثر المدمر للاحترار الكوني كانت قبل اثنين وعشرين عاما، وأن الفرصة الثانية متاحة اليوم، حيث يمكننا أن نرجع عقارب الساعة للوراء وننظف الهواء الجوي، بعد أن لم يعد أمامنا، بحسب ما قالته اللجنة الحكومية الدولية لتحولات المناخ(IPCC)، سوى عشر سنوات لتخفيض انبعاثات غاز الدفيئة بمقدار النصف. ولتجنب الكوارث. ويتعين أيضا أن ننظف الهواء الجوي من ثاني أكسيد الكربون الذي يشار إليه باسم الانبعاثات السلبية.

ولكثرة ما سمعنا هذا الكلام يبدو وكأن والاس وعرفان يكرران على مسامعنا ما سبق لنا أن سمعناه وقرأناه مرات لا تحصى في العقود الثلاثة الأخيرة. لكن والاس يذهل قارئه حين يقول إن الضرر الذي ألحقناه، نحن سكان هذه الأرض، بكوكبنا منذ وضعت الأمم المتحدة إطار العمل لمكافحة التحول المناخي في العام 1992 يفوق كل ما ألحقناه بالكوكب من الضرر طوال الألف سنة السابقة على ذلك التاريخ! ويعلق والاس على ذلك بقوله "ما أنزلناه بالبيئة من ضرر نعرف أنه ضرر يفوق ما انزلناه بها عن جهل".

التحول الاجتماعي والتحول المناخي

ومن أهم الأصوات التي ارتفعت منادية بضرورة الإقدام على تحول اجتماعي شامل، كحل وحيد لكارثة التحول المناخي، صوت المؤلفة والناشطة البيئية الكندية نعومي كلاين، في كتابيها «مبدأ الصدمة : نشوء رأسمالية الفوضى»(2007)و«لا للعلامات التجارية: لا فضاء ولا اختيارات ولا وظائف»(2000). وترجع كلاين التحول البيئي وكل ما ترتب عليه من أضرار إلى الليبر الية الجديدة (التي نسميها نحن الرأسمالية المتوحشة) والتي شجعت على تفاقم جنون الاستهلاك وعلى العولمة، وعلى التفاوتات الاقتصادية؛ ولانقول التفاوتات الطبقية لأن مفهوم الطبقة عند الماركسيين يبدو اليوم غير صالح لأن يكون أساسا لفهم النظام الاجتماعي. كل هذه الأمور،

تلقى ما يقارب 40 مليون شخص جرعتهم الأولى على الأقل من لقاح فيروس كورونا

تقول كلاين، وثيقة الصلة بالتدهور البيئي الذي تصاعد على نحو مذهل في نصف القرن الأخير.

وتتخذ كلاين موقفا أكثر حدة في كتابها الأحدث» هذا يغير كل شئ: الرأسمالية مقابل المناخ»(2014). في مقدمة الكتاب تستشهد كلاين بتحذير صدر عن الاتحاد الأميركي للتقدم العلمي. وقبل أن ننقل التحذير ننبه إلى أنه يقوم على واحد من أسس المادية الجدلية، وهي روح المذهب الماركسي حول وأحد من أهم أسسه النظرية وهو مفهوم الطبقة. والمفهوم الذي يقوم عليه التحذير المشار إليه هو «علاقة التحول الكمي بالتحول الكيفي» وما ينشأ عن تلك العلاقة من طفرات. وليس في موقفنا الذي يرفض شيئا يقبل شيئا آخر من مذهب بعينه أي تناقض؛ لأن المذهب الماركسي ليس دينا يتعين أن تقبل به كله أو ترفضه كله، كما يقول الماركسيون الذين يكرهون « الانتقائية» ويعتبرونها سُبَّة. نعم نحن انتقائيون، نأخذ شيئا من هذا المذهب وشيئا من ذاك، لأسباب من أهمها أن الانتقائية قد تكون روح ما بعد الحداثة، التي تجعل الكاتب أو المفكر اليوم أشبه بقَيِّم curator على المتحف، يجمع به تحفة من ذلك المبدع، من تلك الحضارة، من تلك الحقبة الزمنية، وأخرى من مصادر مختلفة. ولهذا السبب فقد يكون فارس الديسكو disco jockeyالذي يأتي بجزء من مقطوعة موسيقية ويخلطه بأجزاء من مقطوعات أخرى، هو فنان هذا الزمان التوليفي ما بعد الحداثي.

نأتي لما نقلته كلاين في مقدمة كتابها بخصوص تحولات المناخ وكيف أنها بلغت درجة بالغة الخطورة من التفاقم. يقول الاتحاد الأميركي للتقدم العلمي" تفترض غالبية التوقعات المتصلة بالمناخ أن التحولات في المستقبل – انبعاثات غاز الدفيئة، والزيادات في درجة الحرارة، وما يترتب على ذلك من ارتفاع في مستوى ماء البحر – هي أمور ستحدث على نحو تراكمي. أن تؤدي زيادة محددة الكمية في الانبعاثات إلى زيادة محددة

الكمية في الارتفاع السلس والتراكمي لمستوى ماء البحر. لكن السجلات الجيولوجية للمناخ فيها حالات من تحول طفيف نسبيا في أحد عناصر المناخ ترتبت عليه تحولات مفاجئة في النظام ككل. وبتعبير آخر، فالمضي بدرجات حرارة الكوكب لما بعد مستوى معين يمكن أن تترتب عليه تحولات فجائية قد يكون من المستحيل الارتداد عنها وقد تكون لها آثار تدميرية هائلة وواسعة النطاق. وعندئذ سوف تنطلق سياقات يمكن أن نعجز عن وقفها، حتى وإن لم نطلق في الهواء الحوي المزيد من ثاني أكسيد الكربون.

هذا الذي نقلته كلاين عن اتحاد أميركي مرموق، وما نقلناه نحن عن والاس قبل أن نأتي إلى كلاين، يعني أن كلاين ليست وحدها من نبه لخطورة التحولات المناخية. لكن كلاين تمضي لأبعد من ذلك، فهي تضرب الرأسمالية في الصميم. هي تقول إن الكربون الذي يقسد الهواء ليس سوى نتيجة من نتائج النظام الاجتماعي-الاقتصادي الرأسمالي. ويمكن استخلاص النقاط التالية من كتابها

- لاخلاص للبشرية إلا بحركات اجتماعية جماهيرية واسعة النطاق، لا نعرف إلى أين سيمضي بنا النظام القائم إن تركنا له الحبل على الغارب إنها تستبعد الإجراءات الإصلاحية المحدودة بكونها «إسعافات أولية band-aid solutions» وتُـدرج ضمن هذه الإجراءات الإصلاحية (وهي مصادر بديلة للربح) الانتقال إلى الغاز الطبيعي كمصدر للطاقة. وتندد كلاين بتجارة الانبعاثات emissions trading، التي اعتبرها البعض حلا، لكنها - وهذا صحيح تماما تؤمن حوافز ربحية ضارة لأنها تسمح لأرباب الصناعات بإطلاق المزيد من غازات الدفيئة المدمرة للبيئة، حتى يتسنى لهم الحصول على مكافآت مالية نظير تخفيض مستوى الانبعاثات. وهذه التجارة عادت على عدد من الشركات بمليارات الدولارات التي جاءت بعد ما تسببوا به من تدهور بيئي.
- وكحل لهذه المعضلة تقترح كلاين التحررمن أصولية السوق market fundamentalism. ونعتبر نحن أن هذه هي الأصولية الخطيرة حقا وصدقا لأن من يتورطون بها يمثلون قوة أساسية في العالم اليوم، وليسوا مجرد جماعات هامشية، مثل الجمعات الأصولية الإسلاموية المسلحة، التي يمكن العالم التخلص منها إن خلصت النوايا. ويرتبط التخلص من أصولية السوق بإعادة الاعتبار للتخطيط الاقتصادي الطويل المدى، ولممارسة إجراءات ضبط النشاط التجاري، مع زيادة الضرائب، وزيادة الإنفاق الحكومي، والارتداد عن الخصخصة إلى وضع البنى التحتية تحت سيطرة الحكومات.
- ومن أهم مقترحات كلاين أن نضع الإصلاح الذاتي قبل إصلاح العالم. وهي تقول «ليست الأرض سجنا لنا، وليست مريضا ممددا أمامنا، وليست ماكينتنا، ولا هي وحشا نواجهه. إنها كل عالمنا. والحل لاحترار الكوكب ليس بإصلاح العالم بل بإصلاح أنفسنا». وتخصص كلاين فصلا كاملا لمناقشة هندسة الكوكب geoengineering وهو مصطلح جديد على لغتنا العربية. ويشير المصطلح لحقل بحثي يحظى باهتمام من كثرة من العلماء والمتبرعين بالتمويل والإعلاميين. وهدف هذا النشاط البحثي هو مكافحة احترا ر الكوكب بتغيير الأرض ذاتها. ومن الأساليب المقترحة لهذا التغيير أن نغطي الصحارى بمادة عاكسة ترد ضوء الشمس إلى الفضاء أو بإضعاف ما يصلنا من ضوء الشمس لتخفيف حرارة الكوكب. وتضم كلاين صوتها لأصـوات كثيرة تحذر من

النتائج البيئية والصحية والأخلاقية التي تترتب على مثل هذه المقاربات التي نجهل ما يمكن أن يترتب عليها كنتيجة للتلاعب بالبيئة.

تحذر كلاين من الاعتماد على حسن نوايا الشركات ومنظمات الأعمال وكبار الرأسماليين الذين يتبرعون بمبالغ طائلة لبحوث تسعى لإنقاذ البيئة، بل هي ترفض الشراكات التي تجمع بين الشركات وجماعات حماية البيئة لأنها ترى أن الرأسمالية هي نفسها السبب الرئيسي للتحولات المناخية، وترى أنه من غير المنطقي أن نتوقع من الشركات أن تقدم اعتبارات الحفاظ على البيئة على اعتبارات الربحية. ونحن نرى هنا أصولية بيئية تمضي بالشك إلى ما يتجاوز القدرة على فتح آفاق الممكن لإحداث التغيير. فهي تتجاهل الأثر الإيجابي الذي ترتب على تخصيص مؤسسة غيتس لمبالغ طائلة لتمويل جماعات تكافح ضد تحولات المناخ.

من أجل سماء زرقاء

وبعيدا عن أي شكل من أشكال التطرف البيئي نجد أن الأمم المتحدة حددت يوم السابع من سبتمبر من كل عام ليكون اليوم الدولي لنقاوة الهواء من أجل سماء زرقاء». وتعتبر الوثائق ذات الصلة الصادرة عن الأمم المتحدة أن مشكلة تلوث الهواء هو مشكلة مركبة مصدرها اختراق جزيئات التلوث الصغيرة، التي لا ترى بالعين المجردة، الرئتين ومجرى الدم والجسم. وهذه الملوثات مسؤولة عن حوالي ثلث الوفيات الناجمة عن السكتات الدماغية وأمراض الجهاز التنفسي المزمنة وسرطان الرئة، فضلاً عن ربع الوفيات الناجمة عن الأزمات القلبية، بينما يتسبب الأوزون الموجود على مستوى سطح الأرض، والناتج عن تفاعل عديد الملوثات المختلفة في ضوء الشمس، بدوره عن الإصابة بالربو وأمراض الجهاز التنفسي المزمنة.

وتعد ملوثات المناخ قصيرة العمر من بين الملوثات الأكثر ارتباطًا بكل من الآثار الصحية والاحترار قريب المدى لكوكب الأرض. وتبقى هذه الملوثات في الأجواء لمدة تصل إلى بضعة أيام أو حتى عدة عقود، لذلك فإن الحد منها قد يكون له فوائد صحية ومناخية فورية تقريبًا لمن يعيشون في أماكن تنخفض فيها المستويات.

ويمثل تلوث الهواء الخطر البيئي الأكبر على الصحة البشرية باعتباره أحد أهم الأسباب التي يمكن تجنبها للحد من الوفيات والأمراض على الصعيد العالمي، حيث يعزى ما يُقدر بستة ملايين ونصف مليون حالة وفاة مبكرة في جميع أنحاء العالم إلى تلوث الهواء داخل المباني وخارجها. وجدير بالذكر أن تلوث الهواء في البلدان النامية، بشكل خاص، يكون أول ضحاياه النساء والأطفال وكبار السن ولا سيما ضمن الفئات السكانية ذات الدخل المنخفض التي تتعرض لمستويات عالية من تلوث الهواء المحيط وتلوثه داخل المباني نتيجة للطهي والتدفئة بوقود الحطب والكيروسين، كما أنه يمثل مشكلة عالمية ذات آثار بعيدة المدى بسبب انتقاله لمسافات بعيدة، خصوصا بدون تدخل حازم للتصدي له. ويُقدر بأن أعداد الوفيات المبكرة الناتجة عن تلوث الهواء المحيط ستشهد زيادة تتجاوز 50 في المائة بحلول العام 2050.

وتترتب على تلوث الهواء تكاليف مرتفعة على المجتمع بسبب آثاره الضارة على الاقتصاد وعلى إنتاجية العمل وتكاليف الرعاية الصحية والسياحة، بين أمور أخرى. ولا ينكر أحد الفوائد الاقتصادية للاستثمار في السيطرة على تلوث الهواء، ما يعني أنه يوجد أساس منطقي اقتصادي لاتخاذ التدابير اللازمة لمكافحة

التلوث، وهناك بالفعل حلول فعالة من حيث التكلفة لمعالجة تلوث الهواء.

يضاف إلى ذلك أن نوعية الهواء الرديئة تشكل تحدياً لجميع البلدان في سياق التنمية المستدامة، ولا سيما في المدن والمناطق الحضرية للبلدان النامية، حيث تكون مستويات تلوث الهواء أعلى من القيم العليا التي استقرت عليها المبادئ التوجيهية لنوعية الهواء الصادرة عن منظمة الصحة العالمية.

ويضع خبراء الأمم المتحدة أسود الكربون Carbon Black في مقدمة ملوثات الهواء الأشد خطورة على صحة البشر. فما هو أسود الكربون؟ هو شكل من أشكال الكربون اللابللوري وهو ينتج عن الاحتراق غير الكامل للمنتجات المحتوية على الهيدروكربونات مثل المشتقات الثقيلة للنفط وبينها قطران التكسير الحفزي (FCC)، وقطران الفحم.

والملوثات مثل الكربون الأسود والميثان والأوزون السطحي هي ملوثات قصيرة العمر وتتسبب في نسبة كبيرة من الوفيات الناجمة عن تلوث الهواء، فضلاً عن آثارها على المحاصيل، وبالتالي على الأمن الغذائي، و تخفيضها يحقق فوائد مناخية مؤكدة.

ولأن ظواهر تلوث الهواء الشديدة التي تحدث في أجزاء كثيرة من العالم أصبحت بمثابة ظواهر موسمية، يمكن الاعتماد على التنبؤ بحدوثها تقريبًا مثل الرياح الموسمية أو أوراق الخريف. ففي أوائل نوفمبر من العام 2019، مثلا، شهدت مدينة نيودلهي ومدن أخرى في شمال الهند مستويات من تلوث الهواء أدت إلى إلغاء الرحلات الجوية وإلى إرغام الأشخاص على ارتداء الكمامات والبقاء داخل منازلهم. وفي أولان باتور، منغوليا، والعاصمة التايلاندية بانكوك، تحدث هذه الظواهر في شهري يناير وفبراير من كل عام تقريبا. وفي كاليفورنيا وأستراليا، تشتعل حرائق الغابات الصيفية بشكل كبير بسبب تغير المناخ، والتي تدمر الموائل، ويغطي الضباب الخانق الناجم عن الحرائق مناطق شاسعة.

هذه أمثلة على الآثار الشديدة للأزمة التي تؤثر على صحة الإنسان والحيوان والكواكب، وتؤدي لوفاة الملاين من الناس كل عام جراء الإصابة بالأمراض الناجمة عن تلوث الهواء فيما يعاني ملايين آخرون ممن يعيشون مع هذه الأمراض من قدر كبير من الإعاقة بسبب تلوث الهواء.

ومع تنامي إدراك المجتمع الدولي لحقيقة أن تحسين نوعية الهواء يمكن أن يعزز التخفيف من آثار تغير المناخ وبأن جهود التخفيف من آثار تغير المناخ يمكن أن تؤدي إلى تحسين نوعية الهواء، تشجعت الجمعية العامة للأمم المتحدة وشددت على ضرورة بذل مزيد من الجهود من أجل تحسين نوعية الهواء من أجل حماية صحة الإنسان.

وجَّهَ الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش إلى الدول الأعضاء رسالة تتعلق بهذا اليوم المخصص لنقاوة الهواء بعنوان «يتنفس تسعة من كل عشرة أشخاص في العالم هواءً غير نقي»، قال فيها إن جسامة هذا التحدي تتطلب اتخاذ إجراءات حاسمة من جانب الحكومات والشركات والمجتمعات لإنهاء الاعتماد على الوقود الأحفوري لصالح الطاقة المتجددة النظيفة بأسعار ميسورة. ففي اليوم الدولي الأول لنقاوة الهواء من أجل سماء زرقاء، دعونا نلتزم بعدم استخدام فحم جديد حتى يمكن أن نصل إلى اقتصادات أنظف وأكثر مراعاةً للبيئة وتمتع الجميع بصحة أفضل».

ولا يهدد تلوث الهواء صحة الناس فحسب، بل له أيضًا آثار سلبية على النباتات والنظم البيئية. حيث أن

تلوث هواء الأوزون وحده مسؤول عن خسائر تبلغ اثنين وخمسين مليون طن من الفاقد من المحاصيل العالمية سنويًا. ويتسبب تلوث الهواء أيضًا في أزمة المناخ حيث تأتي العديد من غازات الاحتباس الحراري وملوثات الهواء من نفس المصادر، مما يعني أن تلوث الهواء ليس فقط ضارًا بصحة الإنسان ونوعية الحياة اليوم، ولكنه أيضًا يجعل المستقبل أقل أمانًا للأجيال القادمة.

البحث عن النعمة في النقمة

لاشك أن النقمة التي حلت بالعالم في صورة وباء يعربد في قاراته الست نَشَّطت العمل ضد كل ما يهدد الحياة الإنسانية، وضد التلوث البيئي بالتالي، بعد أن رفعت وعي قطاعات واسعة وفاعلة في مختلف البلدان بوحدة المصير الإنساني، وبضرورة تبني مقاربات كلية تعنى بالبيئة وبالإنسان كما تعنى بتعزيز المكاسب المادية والمعنوية التي تشغل بال المجتمع الكوني المعاصر. وكما هو الحال دائما، فكل إيجابية تصحبها سلبية ما، والمهم هو: أي الاثنين أكبر حجما وأبقى أثرا، الإيجابي أم السلبي؟

وفي العدد الصادر في مطلع أغسطس 2020 من مجلة «علم البيئة الكلية Science of Total Environment» نشر تقرير عن" الآثار غير المباشرة لكوفيد- 19على البيئة". أظهر التأثيرات الإيجابية والسلبية للنضال العالمي ضد جائحة كورونا على البيئة، وبخاصة في البلدان الأكثر تضررا من الجائحة، مثل الصين والولايات المتحدة وإيطاليا واسبانيا. ويثبت وجود علاقة ارتباط وثيق بين التدابير التي جرى اتخاذها وبين تحسن نوعية الهواء ونظافة الشوطئ وتراجع مستويات التلوث السمعي.

ومن ناحية أخرى، فهناك أيضا تأثيرات سلبية ثانوية مثل انخفاض معدلات إعادة التدوير وزيادة المخلفات والفضلات(القمامة)ما يهدد بمزيد من تلوث الفضاءات المادية (الماء والبر) يمكن أن يضاف لتلوث الهواء. ومن المتوقع أن يُسْتَأنف النشاط الاقتصادي العالمي في معظم البلدان (وإن جاء ذلك ببطء). ولهذا فالتقرير يعتبر أن تقليص مقادير غاز الدفيئة GHG في الهواء، في فترة قصيرة، بغرض تنظيف البيئة، ليس بالأمر القابل للاستدامة.

إضافة إلى ذلك، فعلى الرغم من ما تم إنجازه لجهة تقليص حجم غاز الدفيئة، فهذا الإنجاز محدود نظرا لتراكم هذه الانبعاثات في الهواء الجوي طوال العقود الماضية. ولكي نحقق تراجعا ملموسا يعتدُّ به لابد لنا من إحداث تحولات بنيوية طويلة الأمد في اقتصادات مختلف بلدان العالم. وهذا الأمريقتضي إقرار الالتزامات البيئية التي توصل إليها المجتمع الدولي في صورة قوانين وطنية ملزمة. والأهم أن التراجع الملحوظ في حجم غاز التدفئة في بعض البلدان هو تراجع مؤقت، لا أكثر. ومع انقشاع خطر الجائحة سيعود عدد كبير من بلدان العالم إلى استئناف الممارسات القديمة التي كانت سبب التلوث، وسيتصاعد معدل تراكم غاز التدفئة مجددا.

ومن جهة أخرى، فلابد من الانتباه إلى أن الإدارة الرشيدة للمخلفات المنزلية لها أهميتها البالغة في ظروف الجائحة. ويمكن أن تختلط بهذه المخلفات بعض المخلفات الطبية مثل الكمامات والقفازات الملوثة وبقايا الأدوية المستخدمة أو الأدوية المنتهية الصلاحية. لكن هذا الصنف من المخلفات يتعين أن يعالج بمعزل عن بقية المخلفات نظرا لخطورته الشديدة. ويجب أن يكون موظفو المحليات والبلديات المكلفون بجمع المخلفات الطبية مدربين على كيفية جمعها ونقلها والتصرف بها وفق إجراءات وتدابير السلامة العامة.

وقد حث برنامج الأمم المتحدة للبيئة الحكومات على

معالجة مختلف أنواع المخلفات، وبخاصة المخلفات الطبية والمخلفات المنزلية، باعتبارها واحدة من أهم الخدمات العامة اللازمة لتقليص التأثيرات الثانوية السلبية المحتملة، الصحية والبيئية.

ويحذر التقرير من أن المشكلات التي يتسبب بها فيروس كوفيد- 19 قد تبقى معنا لوقت طويل، وقد تكون مصدر تحديات بالغة الجسامة إن أهملت البلدان أثر الجائحة على البيئة مستقبلاً.

من جهة أخرى، فالمشكلة الأخطر، فيما يتصل بجائحة كورونا، هي أنها تضرب عالما يقف شبه حائر، بالفعل، في مواجهة أخطار جسيمة يسعى لاحتوائها. وتحدد طبيبةُ القلب وأستاذة دراسة المستقبل الإنساني بجامعة استراليا الوطنية آرناغريتا هنتر وأستاذ السياسات العامة بالجانعة ذاتها جون هيوسن المخاطرَ التي يواجهها كوكبنا بعشرة مخاطر كبرى، يوردان قائمة بها، لا علاقة فيها بين الترتيب وبين الأولوية. وهذه المخاطر هي:

- تراجع الموارد الطبيعية المتاحة وبخاصة الموارد المائية
- تداعي الأنظمة البيئية وبخاصة التنوع الحيوي
- تزايد عدد سكان الأرض بما يفوق قدرتها
- الاحترار الكوني والتحولات المناخية التي نشأت عن نشاطات بشرية
- التلوث الكيميائي للنظام الأرضي، بما يشمل الهواء الجوي والمحيطات
- تفاقم معدلات التراجع في الأمن الغذائي ونوعية التغذية
- الأسلحة النووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل
- جوائح تتسبب بها أمراض جديدة ولا علاج متوفرا لها
- ظهور تقنيات جديدة قوية يصعب السيطرة عليها
- العجز العالمي والوطني عن تقدير هذه المخاطر تقديرا صحيحا وعن النهوض بواجب الحماية منها

وفي أواخر العام 2019، وقبيل الإعلان عن ظهور جائحة كورونا، رسميا، بثلاثة أشهر، تشكلت في استراليا لجنة أسمت نفسها «لجنة من أجل مستقبل الإنسانية» كانت ثمرة تظاهرات لمكافحة تحولات المناخ ضمت ثلاثمئة ألف متظاهر من مختلف الفئات والجهات، وشارك فيها عدد من العلماء والخبراء والناشطين. وفي الثاني والعشرين من إبريل من العام 2020 أصدرت اللجنة تقريرا قام على ثلاثة محاور:

من وحدة الوجود إلى وحدة المصير

أن كوفيد- 19 هو درس في ضرورة النظر في قوة العلاقة بين الأخطار المختلفة التي تواجه النوع البشري وبيئته الطبيعية. والنقاشات الدائرة اليوم حول هذا الموضوع يمكن أن تنتقل بالمفهوم الصوفي القديم عن وحدة الوجود إلى مستوى تطبيقي يسمح لنا بأن نحل محله مصطلح"وحدة المصير" التي تشمل كافة مكونات الوجود الحية والجامدة للإنسان وقد ظهرت العلاقة بين هذه المخاطر حينما أدت التدابير المتخذة لمواجهة الجائحة إلى آثار ملموسة على التحولات المناخية مع تقليص حجم التلوث بالكربون، وحينما اتسع نطاق النقاشات الدائرة حول الذكاء الاصطناعي وحول استخدام البيانات، بما فيها تلك المتصلة بملامح وهيئة مختلف الأفراد. وتتضح أهمية استخدام البيانات الشخصية، تحديدا، مما ذكره تقرير بعنوان "لابد من رصد واسع النطاق لمحاربة كوفيد-19-ولا يتعين أن يكون

ذلك مخيفا". وقد نشرت ذلك التقرير مجلة التكنولوجيا التابعة لمعهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا(أهم معهد من نوعه على ظهر الكوكب) بتاريخ 12 إبريل 2020. وأهم ما جاء في التقرير، أننا بحاجة إلى إعادة صوغ مناهج تجميع البيانات الشخصية وتوظيفها على نحو لايضر بالخصوصية الفردية.

مستقبل وحدة المصير الإنساني

ولا يزعم العلماء والخبراء والناشطون الأعضاء في لجنة مستقبل الإنسانية أنهم بصدد طرح حلول لكل مشكلة هدَّدتْ بقاء النوع البشري بيئته الحيوية. كل ما أرادوه هو رسم الخطوط العامة للطريقة التي نفكر بها الآن في هذه المخاطر والبحث عن المشتركات في طرق فهمنا لها، مع التأكيد على أن الفهم العلمي والبحث عن البراهين وتوظيفها في التحليل هي مفاتيح المعالجة الفعالة لهذه المشكلات وصولا إلى حلول ناجعة لها. وتؤكد اللجنة على أهمية إدراك وحدة المصير الإنساني، ما يعني ضرورة الانفتاح على مختلف الطروحات، وإشراك مختلف الفئات والتخصصات في النقاشات الدائرة، لتشمل الخبراء وصناع القرار، ومد دوائر النقاش إلى ما وراء الحدود الوطنية.

وهكذا، فنحن بحاجة للخيال والإبداع وللسرديات الجديدة لمواجهة تحديات تهدد كل مجتمع من مجتمعاتنا كما تهدد حضارتنا، على الإجمال. ويقول تقرير اللجنة: حرائق الغابات في استراليا كانت غير مسبوقة وفيروس كوفيد- 19 هو فيروس جديد يقود العالم لمرحلة جديدة بتحدياتها وأخطارها المستجدة.

الاستعداد للتعايش مع مسيرة طويلة

وتطالب لجنة مستقبل الإنسانية السياسيين وصناع القرار، لا في استراليا وحدها ولكن في كافة بلدان العالم، بالانتقال من التخطيط قصير الأمد لتخطيط يضع في اعتباره مصائر أجيال تالية. ولا يجد أعضاء هذه اللجنة في استجاباتنا للتحديات العشرة ما يبشر بقدرة على التخطيط المستقبلي، خاصة وأن كل الاستجابات، تقريبا، اعتمدت التخطيط قصير الأمد. لكن مشكلة مثل تحولات المناخ لايجدي معها، هذا النوع من التخطيط.

ويكتسب هذا القول مصداقية مقابل ما قاله أحد المسؤولين في منظمة الصحة العالمية في 13 مايو من العام 2020 ونشرته نيويورك تايمز تحت عنوان «مسؤول كبير في منظمة الصحة العالمية: فيروس كورونا قد لايختفي أبدا». وجاء في التقرير إن هذا الفيروس الذي قد لا يختفي أبدا سيصبح من حقائق الحياة التي يتعين التعامل مع وجوده كأحد حقائق الوضع الصحي، لأمد زمني غير محدد. والمسؤول هورئيس قسم الطوارئ الصحية في المنظمة مايك رايان. ويضيف رايان» مرض نقص المناعة المكتسب بقي معنا؛ لكننا وجدنا علاجات له وعرفنا كيفية الوقاية منه، ولم يعد يثير الفزع كما كان في بداية ظهوره. ولا يخفي رايان سخريته، بحسب تقرير نيويورك تايمز، من كل ما يقال عن احتمالات اقتلاع خطر كورونا من جذوره، حتى بعد التوصل للقاح ضده، وهو يقول»لدينا بعض اللقاحات البالغة الفعالية ولم نحسن استخدامها لمكافحة أمراض كان بوسعنا التخلص منها». وضرب رايان مثالا على ذلك بالموجات العالمية الأخيرة الواسعة الانتشار من وباء الحصبة في جزر الباسيفيك. وبمطالعة التقرير تكتشف سر السخرية التي يبديها رايان من تعليق كل الآمال بظهور لقاح ما. فهو يقول إن انتشار الوعي بأهمية اللقاح بين السكان واتساع نطاق خدمات الرعاية الصحية وارتفاع مستوى كفاءة هذه الخدمات ضروريان للاستفادة من أي لقاح ذي جدوى.

زيادة حالات الإصابة بفيروس «كورونا» في استراليا

لقد حققت البشرية انتصارا عظيما بالقضاء النهائي على الجدري. فلماذا لا نحوز نصرا مماثلا في المعركة مع كوفيد- 19 وهو تساؤل أجابت عنه مجموعة اللقاحات التي ستغيَّر من تقدم الفيروس ومحاصرته.

الجدري مرض شديد القابلية للانتقال منشخص لشخص عن طريق العدوى التي يتسبب بها فيروس الجدري الكبير Variola major أو فيروس الجدري الصغير Variola minor. وقد وقع تشخيص أول حالة إصابة طبيعية المنشأ في أكتوبر من العام 1977 في الصومال. وقد أعلنت منظمة الصحة العالمية اقتلاع الجدري، أو القضاء النهائي عليه بعد حملة تطعيم كونية نفذتها المنظمة، وانتهت بالتيقن من القضاء التام عليه في التاسع من ديسمبر من العام 1979. وقد صدر الإعلان الرسمي بنهاية هذا الوباء في الاجتماع الثالث والثلاثين للمنظمة، في مايو من العام 1980. وتنتقل فيروسات الجدري من شخص للآخر عبر رذاذ يصدر عن الشخص المريض ويبلغ القريبين منه.

دروس الانتصار العظيم

بث الأمل وقت الأزمات سلوك مفيد ومطلوب، خصوصاً والعالم يواجه جائحة قاتلة، فمن على موقع أخبار الأمم المتحدة UN News برز تقرير ينعش الأمل بقدرة الإنسانية على تكرار الانتصار التاريخي العظيم. نشر التقرير في 8 مايو من العام 2020وهو اليوم الذي يوافق الذكرى الاربعين للانتصار النهائي على الجدري، وحمل العنوان» دروس من انتصارنا قبل أربعين عاما على الجدري يمكن الاستفادة منها لمكافحة فيروس كورونا اليوم". وقد اعتبر المدير العام لمنظمة الصحة العالمية الاحتفال بالذكرى الاربعين لانتصار الإنسانية على الجدري" تذكرة بما هو ممكن عندما تجتمع الأمم على محاربة المخاطر الصحية".

ولم يكن المدير العام لمنظمة الصحة العالمية تيدروس آدهانوم غبريسوس يبالغ حين وصف القضاء على الجدري بأنه"يعد أعظم انتصارات الرعاية الصحية

في التاريخ». وقد كان الاحتفال بالذكرى الأربعين لهذا الحدث التاريخي افتراضيا، نزولا على فروض الوقاية التي يقصي بها كفاحنا الراهن ضد الوباء الذي تواجهه الإنسانية منذ نهاية العام 2019، وهو وباء كورونا. وأشار المدير إلى دروس كثيرة يمكن تعلمها من الإنجاز العلمي الذي تحقق ضد الجدري والذي قد يفيد في مواجهة كورونا، ثم في الاستعداد لجوائح تالية مستقبلاً.

وتكاد تتماثل الأدوات التي جرى استخدامها لمكافحة الجدري وتلك التي استخدمت لمكافحة إيبولا أو التي تستخدم اليوم لمكافحة كوفيد19-. وفي المقدمة يأتي رصد المرض والكشف عن حالات الإصابة وتتبع الاتصالات وحملات الإعلام الجماهيرية لتنبيه السكان المعرضين للإصابة. لكن الحملة ضد الجدري توفرت لها أداة لم تتوفر بعد للحملة ضد كوفيد- 19 ونعني بذلك اللقاح.

لقد كان فيروس الجدري شديد العدوى ويسبب الحمى والطفح الجلدي الواضح والمتزايد، ويودي بحياة قرابة ثلاثة من كل عشرة من الأشخاص الذين يصيبهم، فيما كانت تبقى مع الناجين منهم ندوب لا تختفي أبدا، وبعض من أصابتهم العدوى فقدوا البصر.

ومع تصاعد الجهود الرامية لاحتواء خطر كوفيد-19 نبه مدير منظمة الصحة العالمية إلى أن التطعيم ضد الجدري لم يكن كافيا بحد ذاته للتخلص من الوباء، قائلا إن اللقاح ضد هذا المرض جرى تركيبه في العام 1796، لكن التخلص النهائي من المرض لم يتحقق إلا بعد 184 عاما. لكن قصة النضال ضد الجدري أصعب وأطول مدى من ما أشار إليه مدير منظنة الصحة العالمية. فالحقيقة هي أن أول لقاح ضد الجدري كان في الصين قبل ذلك بقرون.

اللقاح الذي تحدث عنه مدير منظمة الصحة العالمية هو ذلك الذي طوره الطبيب الانكليزي إدوارد جنر في القرن الثامن عشر بعد أن لاحظ أن الفلاحات اللاتي يصبن بجدري البقر cowpox لا يصبن بمرض الجدري smallpox. وجدري البقر هو أحد الأمراض التي تنتقل من الحيوان للإنسان، وهو أخف وطأة وأقل خطرا من الجدري الذي يكون المصاب به أكثر عرضة للموت.

ونترك موقع أخبار الأمم المتحدةن وما يقوله مدير منظمة الصحة الدولية بنبدأ قصة النضال ضد الجدري خارج إطار المركزية الأوروبية Eurocentrism . فالأصل الطبيعي لمرض الجدري موغل في القدم، وربما كان ظهوره الأول في أولى المستوطنات الزراعية التي بدأ بها تاريخ الحضارة البشرية في شمال شرق إفريقيا، وربما نقله التجار المصريون إلى الهند. وتشير ندوب في وجوه مومياوات من الأسرتين الثامنة عشرة والعشرين إلى أقدم شواهد وجود هذا المرض في التاريخ. وفي رأس مومياء الملك المصري رمسيس الخامس ما يشير لإصابته بهذا المرض. وفي مخطوطات صينية من القرن الثاني عشر إشارات بظهور الجدري.

وهناك ما يشير إلى أن الصينيين عرفوا أنواعا من التطعيم ضد الجدري في أزمنة سبقت لقاح الطبيب الانكليزي إدوارد جنر بقرون. لكن من المؤكد أن المشتغلين بالطبابة (ولانقول الأطباء لأن هذا اللقب له أسسه الأكاديمية) في بعض الأقاليم الآسيوية التابعة للدولة العثمانية عرفوا التطعيم ضد الجدري قبل جنر. ففي العام 1714(قبل ظهور لقاح جنر الذي غير تاريخ الإنسانية بعدة عقود) بعث عضو الجمعية الملكية البريطانية الطبيب إيمايويل تيمونيوس برسالة قرئت في الجمعية في لندن، وذاعت محتوياتها في كافة أنحاء أوروبا، قال فيها:

«يلاحظ كاتب هذا الخطاب الفريد، أولا وقبل كل شئ، أن الجركس والجيورجيين وغيرهم من الآسيويين نشروا هذه الممارسة التي تُؤَمِّن شكلا من التطعيم ضد

البرازيل من أكثر الدول إصابة بفيروس «كورونا»

الجدري، منذ ماريقارب أربعين سنة، انتشر استخدامه بين الترك وغيرهم في القسطنطينية.

صحيح أن الأكثر حذرا كانوا بالغي التمهل في القبول بهذه الممارسة، لكن النجاحات السعيدة التي حققتها مع آلاف من الرعايا في السنوات الثماني الأخيرة، جعلتها فوق كل شك أو ارتياب؛ حيث أن الأشخاص الذين أخضعوا لهذا الإجراء، على اختلاف أعمارهم وجنوساتهم وتنوع أمزجتهم...لم يمت أحدهم بالجدري.

ومن قبلوا بإجراء التطعيم ظهرت عليهم أعراض طفيفة للغاية، وبعضهم لم يكد يشعر بأي توعك أو مرض مطلقا. وأهم شئ هو أن التطعيم لا يخلف ندوبا أو ثقوبا في الوجه".

وعلى الفور تلقت الجمعية الملكية رسالة من قس أميركي يدعى كوتن ماثر أكد فيها أن أحد خدمه السود، وهو شخص وصفه ماثر بأنه بالغ الذكاء والفطنة يدعى وانسيموس، أكد له أن الزنوج الأفارقة عرفوا التطعيم ضد الجدري. فقد سأل القس خادمه إن كان أصيب بالجدري، فقال له الخادم: أُصِبْتُ ولم أُصَبْ. وتساءل القس مندهشا: وكيف كان ذلك؟ فقال له الخادم: خضعت لإجراء أعطوني بمقتضاه شيئا من الجدري يحميني منه إلى الأبد. وقد جاء هذا الخادم من الجنوب الليبي، واشتراه ماثر في العام 1707، ما يعني أن الليبيين عرفوا التطعيم قبل ذلك التاريخ. وتنسجم هذه الرواية مع ما ذهب إليه قس آخر سمع من الأفارقة عن التطعيم ضد الجدري في العام 1716.

وقد كتب طبيب حسن السمعة يدعى جاكوب بيلاريوس من القسطنطينية أيضا يقول إن امرأة يونانية جاءت بالتطعيم ضد الجدري للأتراك في مطالع العقد السابع من القرن السابع عشر.

رحلة طويلة إذن قطعتها الإنسانية قبل أن تبلغ الانتصار النهائي على واحد من أعدى أعدائها وهو الجدري في نهايات العام 1979. ونعود لمدير منظمة الصحة العالمية ليقول لنا» التضامن العالمي هو العامل الحاسم في الانتصار على الجدري. وفي ذروة الحر ب الباردة تعاون

السوفييت والأميركيون للانتصار على العدو المشترك». وبلا شك فإن «قصة مثل قصة اقتلاع خطر الجدري قيها قدرة هائلة على الإلهام». وشأنه شأن الجدري، فإن كوفيد19-هو، برأي مدير منظمة الصحة العالمية، تحد يمكنه أن يقرر مسارات العمل من أجل حماية الصحة العامة، كما أنه اختبار لقوة وفاعلية التضامن الدولي. وفوق هذا كله، فالكفاح ضد كوفيد- 19 هو فرصة للإنتقال من محاربة مرض بعينه إلى تغيير مسارات العمل من أجل الصحة العامة.

كل ماقاله مدير منظمة الصحة العالمية دقيق وبالغ النفع. لكن الانتصار الساحق على الجدري ليس الوسام الوحيد على صدر البشرية في صراعها ضد الموت. ولننظر في سجل انتصاراتنا كما دونته الباحثة شارون باساربا على الموقع المعني بالشؤون الصحيةverywell health، واسم الموقع بالعربية هو"صحة جيدة تماما".

تقول الباحثة إن متوسط العمر في أوروبا، في الفترة بين العام 1500 والعام 1800، ظل يتراوح بين 30 و40 عاما.

ومع بداية القرن التاسع عشر، زاد متوسط العمر المتوقع عند الميلاد بمرور الوقت، مع تحسن الرعاية الصحية، وظهور التطعيمات وإجراءات تطهير المساكن والمرافق والشوارع، ومع إمكانية الوصول لماء الشرب المُنَقَّى، ومع الوعي بأصول التغذية.

وقد يكون مثيرا للدهشة لنا نحن أهل هذا الزمان أن نعلم أن الأطباء الأوروبيين لم يكونوا يغسلون أيديهم قبل وبعد فحص مرضاهم إلا مع انتصاف القرن التاسع عشر. وقد ساعد تصاعد الوعي بأهمية النظافة الشخصية والعامة والاستيعاب المتصاعد لمفهوم العدوى وما يقتضيه من إجراءات احترازية (وهذا مفهوم مستقر في الشرق المسلم منذ القرون الوسطى) على إحداث تحسن ملموس في الصحة العامة. لكن الأمراض بقيت واسعة الانتشار وكان لذلك أثره السلبي على متوسط العمر المتوقع عند الميلاد. فالطفيليات والتيفود والأمراض الناشئة عن العدوى مثل الحمى الروماتيزمية والحمى القرمزية، كانت تفتك بأعداد هائلة من البشر طوال ذلك القرن.

واليوم تتباهى غالبية البلدان الصناعية بمتوسط عمر متوقع لمواطنيها يزيد عن 75 عاما؛ فيما تقول إحصاءات الأمم المتحدة إن متوسط العمر في بلد عربي هو الكويت ارتفع من خمسين عاما في العام 1950 إلى 54,75 في العام 2020 مع توقعات بأن يبلغ 96,84 في العام 2102، كما زاد متوسط العمر في المملكة العربية السعودية من أربعين عاما في العام 1950 إلى 22,75 في العام 2020 مع توقعات بأن يبلغ 84,85 في العام 2102 . وفي مصر ارتفع متوسط العمر من اربعين في العام 1950 إلى 06,72 في العام 2020 مع توقعات بأن يبلغ 45,83 في العام 2102.

وهذه المعطيات تتوافق مع معطيات وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

هذه الانتصارات على المرض لا تنسينا أهمية السعي نحو انتصارات مماثلة في معركة الحفاظ على المجال الحيوي للنوع الإنساني، نحو انتصارات مماثلة في الحرب ضد تحولات المناخ. وهنا ننتقل لتقرير مهم على موقع الترجمان theinterpreter الذي ينشره معهد لووي Lowy Institute في استراليا، وهو معهد معني بأهم شؤون الكوكب، وفي مقدمها قضية تحولات المناخ. وعنوان هذا التقرير المهم هو" هل يمكن للاستجابة التي قابلنا بها كوفيد- 19 أن تكون نموذجا للعمل من أجل المناخ؟".

ارتفاع حالات الإصابة بفيروس «كورونا» في المكسيك

يبدأ التقرير بتحديد ملامح النموذج المنشود، والذي يمكن استلهامه من الاستجابة العالمية لجائحة كورونا:

- تحول في سلوكيات الجماهير الواسعة
- وسياسات يقررها العلم
- والاحتكام في كل فعل نقدم عليه إلى اعتبارات الصالح العام.

ويؤكد الكاتبان أن المحصلة النهائية لإنجازات عام الجائحة، العام 2020 سوف تتضمن أكبر معدل انخفاض سنوي لانبعاثات ثاني أكسيد الكربون في التاريخ. فالضرر الذي تسبب به كوفيد- 19 وما صحبه من إجراءات توقيف النشاط العام في كثير من مدن العالم عطل أساطيل ضخمة من الطائرات وأوقف نشاط أعداد هائلة من المصانع. وقد تراجعت معدلات الحركة في كبريات مدن العالم، على نحو ملحوظ. وتتوقع الوكالة الدولية للطاقة أن يتسبب كوفيد19- بالقضاء النهائي على الطلب على الفحم والنفط والغاز، فلا تعود البشرية تستخدم سوى الطاقة المتجددة.

ويدرك الناس على اختلاف ثقافاتهم طبيعة التحديات التي تواجهها الحضارة البشرية اليوم. وفي الصين يرى 87 بالمئة من الجمهور أن التحول المناخي هو، على المدى الطويل، تحد لايقل خطرا عن كوفيد19-. وتبدو نسبة من يرون الرأي نفسه في بلد مثل استراليا أقل بشكل ملحوظ لكنها تبقى نسبة مرتفعة وهي 59 بالمئة. والأهم هو أن كوفيد19- جعل الناس، في معظم أنحاء العالم، يعتبرون العلم طريق الخلاص والأداة الأكثر كفاءة في دفاع النوع البشري عن نفسه ضد الفناء.

وباستثناءات قليلة تجد أن غالبية السياسيين في معظم بلدان العالم يستخدمون خطابا يقوم على المعرفة ويؤسس طروحاته على البيانات المدققة وعلى احترام وجهات نظر العلماء، فيما يتصل بأمور مثل السماح للأطفال بالذهاب للمدارس وإبقائهم في البيوت، ومثل ضوابط التباعد الاجتماعي. ويرى العلماء أن التزام التفكير العلمي واحترام الرأي الطبي وتجلي أثر هذه المشورة في سلوكيات يومية هي ما كان ينقص المعركة ضد تحولات المناخ.

كذلك يرون أنه من التأثيرات الإيجابية التي نشأت عن النضال ضد كوفيد- 19، تجاوز الخطوط الفاصلة بين اليسار واليمين، في كثير من بلدان العالم كما يتجلى في تبني حكومات محافظة تدابير اقتصادية نادى بها سياسيون ينتمون لليسار الديمقراطي من أمثال السياسي الأميركي بيرني ساندرز. ويدللان على وجهة نظرهما هذه بالمخصصات المالية الهائلة التي أقرتها المجالس التشريعية في عديد البلدان والتي ارتفعت بالإنفاق الحكومي لمستويات غير مسبوقة.

ومن المؤكد أن جائحة كورونا ساهمت في تلك التحولات لكن تجاوز الخطوط الفاصلة بين اليمين واليسار هو من أبرز خصائص ما بعد الحداثة. كما أن أزمة الليبرالية الجديدة التي بدأت في العام 2008 تضغط من أجل زيادة الإنفاق الحكومي في مجالات الصحة وتحديث البنية التحتية في مختلف أنحاء العالم. من المؤكد أن أزمة كورونا ساعدت على ذلك كله، وهو ما يتماشى مع رأي الباحث المكسيكي اليساري الفريدو ساد فيللو(الأستاذ في جامعتي لندن وبرازيليا)في مقال له على مدونة «PPE – التقدم في الاقتصاد السياسي» اليسارية بتاريخ 15 ابريل من العام 2020، بعنوان «فيروس كورونا: الأزمة ونهاية الليبرالية الجديدة». نعم الليبرالية الجديدة تترنح وتوشك على السقوط النهائي، لكننا واثقون من أن الرأسمالية قادرة على استعادة توازنها، ونعتبر أن طروحات بيرني ساندرز، وغيرها من طروحات الاشتراكيين الديمقراطيين، تندرج ضمن محاولات إنقاذ الرأسمالية، تماما كما كان الماركسيون اللينينيون يقولون. والفارق الوحيد بين ما نقوله وبين مادأب الماركسيون اللينينيون على قوله هوأن محاولة إنقاذ الرأسمالية بجعلها أكثر إنسانية- وبالتالي أكثر عقلانية – ليست أمرا مشينا بل هي جهد مشكور.

إذن، الليبرالية الجديدة موجودة في قلب الأزمة التي بدأت في العام 2008. وهذه الأزمة فاقمتها جائحة كورونا التي علمت الجميع(وليس الليبراليون الجدد استثناء هنا) ضرورة التضامن من أجل إنقاذ عالم لم يعد بوسعه أن يبقى متماسكا مع تزايد اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء. أزمة كورونا، كشفت زيف "سردية الأخبار السعيدة" التي يتم الترويج لها من مؤسسات تعمل في إطار الليبرالية الجديدة، بحسب ما قاله أستاذ علم الاجتماع بجامعة بريتوريا(جنوب إفريقيا) ألف نيلسون في حواره مع شيريثا بريس، ونشرته مدونة PPE بتاريخ 18 أغسطس من العام 2020.

يقول نيلسون إن" جوهر السردية الزائفة هو أن الفقر المدقع يتراجع لدرجة جعلته اليوم على أدنى مستوى له في التاريخ الإنساني المُوَثَّق. ولابد أن نلاحظ الدور المهم للغاية الذي تلعبه هذه السردية على المستوى الأيديولوجي، فهي تقول لنا إن النظام الاقتصادي السياسي العالمي يقترب من نهاية دوره. ونضيف لما قاله نيلسون إن نهاية دور الليرالية الجديدة هي نهاية مرحلة من مراحل تاريخ الرأسمالية. ونحن اليوم على أعتاب مرحلة جديدة من هذا التاريخ، لا تعلو فيها اعتبارات الربحية على اعتبارات التضامن بين الإنسان والإنسان، ولا تعلو فيها اعتبارات الربحية على اعتبارات الحفاظ على البيئة، المجال الحيوي للنوع الإنساني.

وفي ما يتصل بمحاولات الحفاظ على البيئة نشير إلى ما نشره معهد غرينهاوس البريطاني، في ديسمبر من العام 2019، عن أهم ثماني حملات لحماية البيئة في العام 2019؛ ثم ما نشره، في إبريل من العام 2020 موقع" THE WORLD UNIVERSITY RANKINGS تراتبية جامعات العالم" عن أهم خمس جامعات تعمل من أجل البيئة في العالم.

أعمده الحملات العشر:

- ائتلاف البيئة البريطاني وهو أكبر لوبي للدفاع عن البيئة في المملكة المتحدة

- مختبر كروثر: كيف ننقذ العالم بغرس الأشجار، وقد أسس المختبر العالم البريطاني توم كروثر في زيوريخ السويسرية في العام 2018 لأداء مهام علمية عالية التأثير (بحسب ما ورد في نيوساينتيست البريطانية في تقرير لفريد بيس بتاريخ 8 يناير من الام 2020) يساعده فيها ثلاثون عالما يخصون معه ما في عالمنا من أشياء ذات صلة بموضوع البيئة، من الأشجار للطفيليات، قبل طرح تصورات تستهدف غرس تريليون شجرة فوق سطح الكوكب.

- حملة من أجل برلمان الكف عن الاستثمارات، ويبدو الاسم DIVEST PARLIAMENT CAMPAIGN غريبا عند ترجمته للعربية. لكن المقصود به هو أن يوقف البرلمان الاستثمارات في الوقود الأحفوري ويحولها لاستثمارات في الطاقة المتجددة والنظيفة. وقد انضم للحملة 360 نائبا حاليا وسابقا في مجلس العموم البريطاني.

- غريد سيرف GRIDSERVE : فتح آفاق المستقبل للمركبات الكهربيةEV.

- عميلنا الأرض Client Earth: تقرير موجز عن تطورات العمل من أجل البيئة في العام 2019. وفلسفة التقرير واضحة وهي أن العميل هو مركز اهتمام المشروع الرأسمالي وبالتالي يتعيَّن اعتبار الأرض العميل الرئيسي المستهدف من كل نشاط للنظام الراسمالي الراهن.

- خريطة النفوذ Influence Map : تمكين المستثمرين في تحولات المناخ. وقد نشر موقع غرينهاوس في 29 أكتوبر من العام 2019 مقابلات مع مجموعة من 21 من أصحاب المشروعات التجارية والناشطين البيئيين أطلق عليها اسم: "الراديكاليون الخضر المستجدون"؛ وقد تكون هذه أولى المرات القليلة التي نجد فيها أصحاب مشروعات تجارية ينخرطون ضمن حركة راديكالية. وهذا له معنى واحد: التغيير اليوم ضرورة مُلِحة.

- حملة يورا وهي حملة تدعو لتصنيع أغذية للكلاب على نحو يوقف –عبر الضغوط الإعلامية والسياسية والتشريعية – ما يحدث الآن من استهلاك عشرين بالمئة مما هو موجود في العالم من لحوم وأسماك لإطعام الكلاب المنزلية.

- انهوا الصداقة مع الفحم Unfriend Coal : وهي حملة تدعو للتوقف النهائي عن استخدام طاقة الفحم.

جامعات الريادة

تضع جامعات الريادة في العالم قضية الدفاع عن البيئة في صدارة اهتماماتها وهي:

جامعة أكسفورد البريطانية، وهي الجامعة التي تحتل المرتبة الأولى بين جامعات العالم، سواء من ناحية الأداء الأكاديمي العام، أي من حيث أدائها لوظائفها التعليمية والتدريبية والبحثية، أو من ناحية دورها في الدفاع عن البيئة ودرء أخطار تحولات المناخ، أو من ناحية الجهود المبذولة لتأمين مستقبل أفضل للبشرية ولكوكب الأرض، على العموم. وعدد طلاب الجامعة عشرون ألفا، قرابة النصف بينهم في المرحلة الجامعية وقرابة النصف الآخر في الدراسات العليا. و95 بالمئة من خريجي الجامعة إما أنهم يلتحقون بوظائف أو بدراسات عليا في الشهور الستة التالية على التخرج. وينتمي العاملون في الجامعة

بنظام صحي قوي و«عزلة قسرية».. كيف انتصرت كوبا على كورونا

من أكاديميين وإداريين إلى مئة من جنسيات العالم ويمثل الأجانب أربعين بالمئة من الطلاب ومن الأكاديميين في أكسفورد.

- جامعة ستانفورد الأميركية وهي جامعة غير حكومية تخرج فيها عدد كبير من رواد الأعمال، ولها دور مشهود في إنشاء وتطوير وادي السيليكون القريب منها، وتعد أهم مركز للتكنولوجيا والابتكارات في العالم. وقد أسسها في القرن التاسع عشر السناتور ليلاند ستانفورد وزوجته جين، تكريما لذكرى ابنهما ليلاند الإبن الذي قتله التيفوئيد في سن الخامسة.

- جامعة هارفارد التي عادت لاحتلال موقع أفضل بين الجامعات الأميركية هذا العام، بعد تراجع نسبي، وإن بقيت ضمن أفضل عشر جامعات في العالم، على الـدوام. وتنتمي هذه الجانعة لرابطة «البرج العاجي» التي تضم أفضل عشر جامعات أميركية. وقد حصل 45 من المنتمين لهذه الجامعة على جوائز نوبل، واحتل 30 من خريجيها منصب رئاسة الولايات المتحدة وحصل 48 منهم على جوائز بوليتزر، وهي سبعة أنواع من الجوائز لمختلف أنواع الكتابة، الروائية والصحفية وغيرها.

- معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا Caltech، وهو معهد نخبوي لايزيد عدد طلابه عن الألف في المرحلة الجامعية وألف ومئتين في الدراسات العليا. و99 بالمئة من من قبلوا للدراسة بالمعهد منذ تأسيسه في العام 1891 هم من العشرة بالمئة الأوائل بين خريجي المرحلة الثانوية. ومن أغرب ما اشتهر به هذا المعهد أمران: الراحة القصيرة بين المحاضرات يوم الخميس لأساتذة الفيزياء وطلابهم، حيث يتناولون البسكويت واللبن ويرتاحون لفترة قصيرة يستعيدون فيها نشاطهم؛ وحرص المعهد على توزيع زيت الزيتون.

- معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا MIT الذي تأسس في منتصف القرن التاسع عشر ويقدم هذا المعهد مساعدات مالية لسد الاحتياجات الأساسية لطلابه.

وهذا أول معهد دَرَّس العمارة في الولايات المتحدة، وقبل بين صفوفه أول طالبة وهي إيلين سوالو ريتشارد في العام 1871وبعد ذلك بعامين تخرجت أول طالبة أجنبية وكانت كندية الجنسية. ولايقبل المعهد سوى 8 بالمئة من المتقدمين للدراسة فيه، ويعمل خريجيه في أكبر الشركات مثل غوغل وأمازون وأبل.

وفي العالمين العربي والمسلم فإن جامعة قطر بالدوحة احتلت الموقع السادس عشر بين أهم مئة جامعة تكافح تحولات المناخ في العالم؛ كما تحتل جامعة إيران للعلوم الطبية الموقع الخامس والعشرين وتحتل جامعة سيستان وبلوشستان الإيرانية الموقع الثلاثين، وتشارك جامعة الملايا في ماليزيا جامعة فالنسيا الإسبانية في الموقع السابع والعشرين؛ وتحتل الجامعة المصرية للعلوم والتكنولوجيا الموقع الأربعين؛ ولجامعة الزراعة الباكستانية في فيصل أباد الموقع الحادي والستون؛ وتحتل جامعة نيد NED للهندسة والتكنولوجيا في باكستان الموقع السادس والستين. واسم الجامعة يتألف من الحروف الثلاثة الأولى لنادرشو يدولجي ديلشو، وهو المحسن الذي تبرع ورثته بمبالغ كبيرة لإنشاء الجامعة في العام 1924، وحل اسمه بعد الاستقلال محل اسم الجامعة القديم أيام الاحتلال البريطاني عندما كانت تدعي جامعة أمير ويلز للهندسة؛ وتحتل جامعة البترا الأردنية الموقع الثالث والسبعين بين الجامعات الأكثر خدمة للبيئة والأكثر فعالية في النضال ضد تحولات المناخ؛ فيما تحتل جامعة الاسكندرية المصرية الموقع الثامن والسبعين في المجال ذاته؛ و تحتل جامعة عبد الله غول التركية الموقع التسعين؛ وتشارك جامعة بنها المصرية جامعة بيرا للداخل البرتغالي في الموقع الثالث والتسعين.

هذا الاهتمام من المجتمعين المدني والأكاديمي بحماية المجال الحيوي للحضارة الإنسانية وبصناعة مستقبل أفضل للإنسانية يتوازى مع اهتمام صناع القرار في معظم دول العالم بالمسألة ذاتها.

وفي ضوء ما تقدم نقرأ تقريراً أوروبياً خرج من بروكسل تحت عنوان «رئيسة المفوضية الأوروبية تعرض خطة عمل للمناخ وانعاش الاقتصاد». يقول إن رئيسة المفوضية الأوروبية أورسولا فون دير لايين عرضت في أول خطاب لها حول حال الاتحاد الأوروبي (الأربعاء، السادس عشر من سبتمبر من العام 2020) خطة العمل المقبلة، مشددة على ضرورة أن تكون أوروبا أكثر قدرة على مواجهة التهديدات الصحية، والتغير المناخي، والأزمة الاقتصادية. وجاء في التقرير أن فون دير لايين، وهي أول امرأة تتولي رئاسة المفوضية الاوروبية، أعلنت أمام النواب في البرلمان الأوروبـي أنها تنوي رفع مستوى الخفض المستهدف لانبعاثات غازات الدفيئة الأوروبية بحلول العام 2030 إلى 55%، علما بأن مستوى الخفض المستهدف محدد الآن بنسبة 40% مقارنة بمستويات العام 1990.

وأكدت أن هذه الزيادة ستكون لها انعكاسات على قطاعات الطاقة والنقل والزراعة، قد تبدو «أكبر مما يجب، بالنسبة للبعض وغير كافية بالنسبة للبعض الآخر».

نحو «تشحيل» العالم لحفظ التوازن

في غمرة وباء جائحة كورونا يرى العلماء أن في كل شر خير لا يعلمه إلا الله، فقد يكون الوباء مجدداً للحياة وموقظاً للهمم ومحفزاً للضمائر ومنبهاً لمن تجاوز جادة الصواب في كل تعاملات الحياة سواء بين البشر أو البشر والطبيعة فالعرف يبدو أن العالم «بطبعته» الأحـدث اليوم، وصل إلى مرحلة تتطلّب نوعاً من "التشحيل" وهو العرف السائد لدى المشتغلين بالزراعة فالقاعدة لديهم أنهم عندما تكبر الشجرة يأتي المزارع

إلى «تشحيلها» والتخص من الجزء اليابس منها كي تزهر وتثمر من جديد، فقد جاء وباء كورونا ليؤكد هذا الأمر، بحيث يخرج العالم بعد كورونا أكثر نظافة وأسطع رونقاً ممّا كان عليه قبلها. وطبعاً لا نقصد بـ"التشحيل" هنا – لا سمح الله – قتل الناس والتخلص منهم أو الدعوة لممارسة «سياسة القطيع» و«البقاء للأقوى» التي دَفَعَ بها رئيس وزراء بريطانيا بوريس جونسون، وكان هو أول ضحاياها، إذ أدخل على عجل المستشفى، وكانت نجاته من الوباء «معجزة» على حد تعبير مستشاره العلمي السير باتريك فالانس.

المشهد الذي يلاحقنا اليوم، ولا تخطئه العين، يتلخصّ في أنه عندما يحتجز وباء كورونا الإنسان في «محجره»، تدبّ، في المقابل، الحياة أكثر في الطبيعة وبين ظهراني كائناتها الحيّة، فقد أطلّت الماعز مؤخراً لتسرح وتمرح على هواها في مدن العالم وبلداته. ففي بلدة "لاندورنو" في "ويلز" البريطانية، سُمح للماعز الأبيض والأحمر والأسود، بالتمتّع بوجباتها المفضّلة والمؤلفة من فضلات الطعام حول المباني.

وفي نيودلهي خرجت القردة إلى الشوارع في مشهد آسر وغير مألوف، ومن دون أن يتعرّض لها أحد. وشاهَدَ سكّان باريس البطّ، وهو يسير على حريّته في الشوارع العريضة لمدينتهم الجميلة. أما في لندن، فقد راحت الغزلان "تتبختر" غير أبهة مما تبقى من حراك بشري وآلي في الشوارع والساحات.

التوحشّ الصناعي ونتائجه

يُجمع علماء كثر في العالم أن التوحّش الصناعي، بخاصة في الغرب، هو الذي أفضى إلى أضرار فادحة بالطبيعة، نتج عنها دمار بيئي مقيم، فضلاً عن جوائح خطيرة غير مسبوقة. ففي القرن الحادي والعشرين وحده، ظهرت جوائح عديدة، قبل كورونا التي باتت ترعب العالم برمته الآن، وهي لا تقلّ خطورة عنها، مثل «فايروس سارس» الذي ظهر أول ما ظهر في الصين، ثم «فايروس انفلونزا الطيور» (إتش 5 إن1) الذي لم يُعرف مصدره الأوليّ حتى الآن؛ ثم "انفلونزا الخنازير" (إتش1 إن1) في المكسيك، و«فيروس إيبولا" في غينيا الإفريقيّة. ولقد تمّت السيطرة عليها جميعاً. والآن المعركة على أشدّها مع "فايروس كورونا" الذي يطغى ويتجبّر على البشرية كلها، فيحصد الأرواح ويشلّ الاقتصادات ويخسف بالحياة العامة وقيم تطورها الاجتماعي والثقافي والحضاري. وبات على المرء، وحفظاً لحياته، أن يغسل يديه عشرات المرات يومياً تحسّباً من العوالق الجرثوميّة القاتلة.

والآن لا يكفي القول إنه بمجرد أن "ينعزل" البشر في بيوتهم، ليصبح بمقدور الحيوانات أن تتجوّل على حريتها في المدن والمناطق الحضرية، فتلكم لحظة ظرفيّة ستنتهي قريباً، وبالتالي سيكون من غير المفيد البناء عليها في شيء، حتى ولو على سبيل الطوباوية السابحة في أحلام ليل مهجور.

برنامج الأمم المتحدة للبيئة استدرك الخطر الذي يُحدِق بالكوكب، كما ليس من قبل، بخاصة بعدما غيّر النشاط البشري كل ركن من أركانه تقريباً، بدءاً من اليابسة، وما فيها، ومن عليها، وصولاً إلى أعماق البحار والمحيطات، وما تكتنفهما من كائنات حيّة متحرّكة.

فبحسب مضمون آخر التقارير الأممية، أن 75 في المائة من الأمراض المُعدية، هي ذات منشأ حيوانيّ، وبالتالي فإن الأمر يستدعي المزيد من حفظ التوازن والاستقرار في النظام الأيكولوجي وعناصره، لأجل صحة الإنسان ومناعته وبقاء دورته في النمو والعطاء، وذلك بالالتزام بجملة خطوات أبرزها:

نيوزيلندا تستأنف 75% من أنشطتها الاقتصادية رغم كورونا

- إدارة سلميّة للنفايات الطبيّة والكيميائيّة الخطرة
- خلق المزيد من الوظائف الخضراء
- تسهيل الانتقال إلى مستقبل خال من الكربون
- إدارة قويّة وعالميّة للتنوّع البيولوجي

قبل زحف جائحة «كوفيد – 19»، كان الغلاف الجوّي للأرض يزدحم بدخان المصانع، ومعها أدخنة مئات ملايين السيارات والآليات وآلاف الطائرات في المجال الجوي العام. فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان؛ اختفت الطائرات من الفضاء الجوّي، وصارت الشوارع خالية تقريباً من السيارات والآليات في أغلب مدن العالم، والمصانع أضحت شبه متوقّفه. وتراجع النشاط الاقتصادي بنسبٍ غير مسبوقة، وأغلقت البيوت على ساكنيها، لتتضح الصورة بعد ذلك، مُسجّلة المؤشرات الإيجابية الآتية:

- تحسّنت جودة الهواء في 337 مدينة حول العالم بأكثر من 12٪
- التئم ثقب الأوزون فوق القارة الجنوبيّة
- تراجعت انبعاثات غاز ثاني أوكسيد الكربون الناجم عن استخدام الوقود الأحفوري بنسبة 35٪
- توقّف وسائل النقل أدّى إلى انخفاض في انبعاثات الكربون بنسبة 23٪

على هذه النتائج يعلّق كيمبرلي نيكولاس، الباحث في مركز دراسات الإستدامة في جامعة «لوند» الأميركية، بأنه لا يمكن أن نحظى بمناخ آمن من المخاطر البيئية بعد الآن، إذا ما عادت حركة الطيران التجاري إلى سابق عهدها (أي قبل وباء كورونا)؛ فعنده أن الشخص الذي يقوم برحلة طيران واحدة بين نيويورك ولندن، ذهاباً وإياباً، يوازي خطر هذه الرحلة على البيئة، واستطراداً

عليه، "خطر" نظيره الذي يستهلك اللحوم الحمراء لمدة عامين كاملين متواصلين.

وبهذا الخصوص البيئي، يعتقد مدير برنامج المؤسّسات المالية في معهد "14CE" لاقتصادات المناخ (مقرّه باريس) أنّ الطبيعة في أزمة مروعة للغاية، وأكثر من أي وقت مضى، وهي مهدّدة بالاحترار العام غير المحتمل، وبالتلوث السام والمميت من فوره.

لذلك، فالمتغيّرات التي طرأت على كوكب الأرض منذ حوالي السنة، جرّاء الاحتراز الإلزامي ضد كورونا، ظهرت وستظهر فائدتها العميقة، إنما، مع الأسف، على مدى زمني قصير، إذ وبمجرد معاودة النشاط البشري الى سابق عهده، فستعود نسب التلوّث والانبعاثات إلى ما كانت عليه من قبل، وربما على نحو أصعب وأفدح هذه المرة.

هكذا فنحن أمام وجه آخر لأزمة أشد خطورة من أزمة كورونا، وقد فتحت لها كوّة واسعة في جدار المنظومة الدوليّة، التي لم يعد بمقدورها التغاضي عنها أو إهمالها، بل قد يتفاجأ العالم كله قريباً بخروج المارد من قمقمه كما يقال، وتحلّ علينا كارثة أخرى، ليست على جدول أجندتنا البشرية الحالية.

فعلماء البيئة يحذرون من أن مستقبل كوكب الأرض في ظلّ ارتفاع درجات الحرارة بمعدل 3 أو 4 درجات مئوية، سيأخذنا إلى مستوى آخر تتجاوز خطورته، بأضعاف، خطورة الوضع الحيوي والبيئي العام الذي تمر به البشرية، جرّاء تداعيات جائحة كورونا. فوفقاً للمسار العلمي المنصوص عنه في اتفاقية باريس للمناخ، والمتعلق بكيفية الإبقاء على درجات حرارة للأرض دون 1.5 درجة مئوية، فإن الأمر، إذا ما تجاوز هذا المعدّل، فسندخل في كارثة بيئية لا يستطيع أحد تحمّل نتائجها الجهنمية على البشرية وسائر الكائنات الحية.

هكذا، فإن إيجاد معادلة بيئية تمكّننا من السيطرة على عوامل لا تتجاوز فيها الأرض درجة حرارة 1.5 خلال السنوات العشر المقبلة (2021–2031) ستكون مهمّة صعبة، وعليه ستبقى "جمهورية الأرض" تئنّ من تصاعد طوفان الأخطار عليها، وعلى كائناتها، طالما لم يتخلّص الإنسان من «خصاله الغريزية البهيميّة الصمّاء»، على حد تعبير المخرج السينمائي الكويتي عبد المحسن حيّات، وسيكون من المستحيل جعل القاطنين على الأرض يعيشون في «جمهورية كونيّة» اعتيادية، كالتي اعتدنا عليها في ما سبق من مراحل وأطوار مديدة.

والتوقّف عن التصويب نحو "جمهورية الأرض" لم يصل، على ما يبدو، إلى أسماع جماعة القوى الصناعيّة الكبرى في العالم، ممن بقوا على وتيرتهم في مواصلة إنتاج السلاح وبيعه إلى دول وشعوب أنهكتها الحروب والمجاعات، علاوة على مخاطر وباء كورونا المعولم، الذي شلّ ما تبقى لها من اقتصادات عاجزة في الأصل؛ فكيف بها، والحال كذلك، ستنفق على فواتير السلاح المتوالية؟!

هكذا تحوّلت الأرض بخطوط طولها وعرضها، يابسةً وماءً وفضاءً، إلى مجرد وعاء ملتهب بالغازات الدفيئة، والغازات الناتجة عن المنشآت الصناعية، ومحطات الطاقة، ووسائل المواصلات على أنواعها، في البرّ والجو والبحر، وكلّه بات يتحكّم بالغلاف الجوي مُسبّباً، إلى جانب إفساد الهواء ومياه الأنهار والينابيع الصالحة للشرب والبيئة عموماً، بحدوث الزلازل والفيضانات وكل أنواع الكوارث الطبيعية. لكأن الأرض تُخرج من أحشائها ما فاضت به عن حاجة التوازن البيوليوجيّة الاعتياديّة لها، وراحت تتمرّد على جلّاديها، وتنتقم منهم شر انتقام، نافضة عن جسدها في النهاية أوساخ «الإنسان المتحضر»!

سندات خضراء

أما آن الأوان الآن ليستريح هذا العالم الحديث من جرائم ساكنيه، جيلاً عن جيل؟!!.. فلقد باتت «حالته المرضيّة" تستدعي فعلاً اللجوء إلى مُزارع مُحترف يُجيد اجتثاث سائر الأذرع الفائضة عن الحاجة فيه.

750 مليار دولا سندات خضراء

ويندرج هذا الهدف في إطار مشروع أوسع للاتحاد الأوروبي من شأنه أن يجعل من أوروبا أول قارة في العالم تنجح في تحييد أثر انبعاثات الكربون بحلول العام 2050 عبر تأسيس توازن بين انبعاثات غازات الدفيئة وامتصاصها. وفي هذا الإطار، فسوف تُمول نسبة 30 ٪ من خطة الانعاش الأوروبية البالغة قيمتها 750 مليار يورو، بسندات خضراء.

وأكدت رئيسة المفوضية الأوروبية "نحن بمثابة رواد لأننا نحدد معيارا اوروبيا متينا على صعيد السندات الخضراء».. وكانت الدول الأعضاء أقرت الخطة هذه في يوليو للخروج من الأزمة الناجمة عن جائحة كوفيد- 19. وفي مواجهة هذا الوباء الذي أدى إلى استجابات وطنية متفرقة ووضع التضامن الأوروبي على المحك، دعت إلى "اتحاد صحة أوروبي" وهو قطاع يدخل في إطار صلاحيات كل دولة.

وفي تصريح يعكس اهتمامات موازية تحد من التركيز على خطر الجائحة، نبَّهت رئيسة المفوضية الأوروبية «إننا بصدد إقامة وكالة بحث وتطوير في المجال الطبي الحيوي المتطور على المستوى الأوروبي كما هي الحال في الولايات المتحدة». والاهتمام الموازي هنا هو التنافس مع الولايات المتحدة بإكساب الاتحاد الأوروبي بعض ما يمكن اعتباره مصادر قوة الاتحاد الأميركي، وهو ما يعني انغماسا أوروبياً في المنافسة العالمية الشرسة للتوصل إلى لقاح لفيروس كورونا المستجد، حذرت

فون دير لايين من أي "موقف قومي يعرض الأرواح البشرية للخطر" . وأضافت "التوصل إلى لقاح لا يكفي. علينا السهر على حصول المواطنين الأوروبيين وفي كل أرجاء العالم عليه. ولا يمكن لأحد منا أن يكون بأمان إذا لم يكن الجميع بأمان".

اهتمامات موازية

أولا: الأزمة الاقتصادية

برغم عظم تداعيات الأزمة الصحية على حياة البشرية ودخول العالم في ربكة حولت الحياة إلى ما يشبه حالة صراع بين التمسك بالحياة، وتفادي الموت بالجائحة كورونا، فلم تنحصر تداعيات الجائحة عند الجانب الصحي بل إمتدت إلى الجانب الاقتصادي وخلقت أزمة موازية أشد قسوة من أزمة الكساد العظيم والأزمة المالية الأخيرة التي اندلعت أواخر عام 2008، ولعل خطاب رئيسة المفوضية الأوروبية، وهي واحدة من أهم صناع القرار في العالم المعاصر، وتركيزه على قضيتين رئيسيتين إضافة إلى القضية الرئيسية وهي حماية العالم من خطر كوفيد- 19. والقضيتان هما تحولات المناخ والأزمة الاقتصادية. وعلاقتها بأزمة كورونا ؟

بداية يتوجب أن نشير إلى وجود أربعة شواغل موازية تزاحم القضايا الرئيسية المشار إليها، تزاحم قضية كورونا وقضيتي المناخ والأزمة الاقتصادية. تلك الشواغل الرئيسية الأربعة الأخرى وهي الإرهاب، والهجرة غير النظامية، والربيع العربي الثاني، وقضايا التحرش الجنسي.

ويصعب النظر إلى الأزمة الاقتصادية باعتبارها اهتماما موازيا. فمن أهم بقايا الموروث الماركسي الذي سقط عن عرشه الامبراطوري في نهاية العقد الثامن من القرن الماضي أن الاقتصاد هو أساس كل ظاهرة تاريخية مهمة. وهذا ما عبر عنه عسكري ومُشَرِّع رفيع المقام وهو نابليون بونابرت عندما قال إن الجيوش تمشي على بطونها في إشارة إلى أهمية الشأن الاقتصادي وكل هذا يضع الاقتصاد، أو مصادر الرزق وأساليب اكتسابه، فوق كل اعتبار.

وفق هذه القاعدة نطالع تقرير إيان بريمر في عدد السابع عشر من سبتمبر من العام 2020 من مجلة تايم الأميركية. وبريمر هو رئيس مجموعة أوراسيا الاستشارية لتحليل المخاطر. يلخص موقف الاقتصاد العالمي في النصف الثاني من أغسطس من العام 2020 في عبارة تقول» نحن في طريقنا إلى كساد عالمي – إلى فترة من البؤس الاقتصادي لم يسبق أن مر به إلا القليلون من الأحياء».

يسلم بريمر بأمرين مهمين: أن شبكات الحماية الاجتماعية موجودة، وإن بدرجات متفاونة من الكفاءة، في مختلف بلدان العالم، غنيها وفقيرها؛ وبأن العقود السابقة وما شهدته من أنشطة تجارية وعولمية عمقت الشعور بأهمية الاعتماد المتبادل بين مختلف دول العالم. لكنه ينفي أن يكون وجود هذين الاعتبارين كافيا للتفاؤل بالقدرة على الإفلات من البؤس الاقتصادي الذي تجرنا باتجاهه الأزمة الصحية العالمية الراهنة.

وفي الطريق إلى فهم أوضح لطبيعة الأزمة التي نتدحرج باتجاهها يتعين تحديد الفارق بين مصطلحين اقتصاديين هما الركود recession والكسادdepression. فالركود هو تراجع النشاط الاقتصادي بكل أشكاله لمدة لاتزيد عن شهور قليلة. أما الكساد فهو انهيار اقتصادي عنيف وطويل الأمد على غرار ما جرى في العام 1929 والسنوات التالية، حتى قيام الحرب العالمية الثانية التي يعتبر بعض المؤرخين أن ذلك الكساد الكبير كان بين أسبابها، ولو على نحو غير مباشر.

ويرى بريمر أن الكساد يتميز عن الركود بعناصر ثلاثة:

- البعد العالمي الذي ينقل الركود في واحد أو أكثرمن اقتصادات العالم الكبرى إلى معظم أنحاء العالم
- التأثير المباشر والعميق على مستوى معيشة الناس في مختلف الطبقات في معظم البلدان، وبدرجة تفوق الأثر السلبي للركود
- طول مدة الأزمة التي قد تتخللها فترات انتعاش مؤقت يحسبه البعض تعافيا يمكن أن ينهي التأزم.

وبغض النظر عن المقارنات المتكررة بين الكساد المتوقع وبين الكساد الكبير في 1929 – 1939 فالمتوقع أن تغير الأزمة الراهنة كل ملامح حياتنا بما في ذلك طرق كسب العيش، كما أنها قد تهدد سلام العالم واستقراره بسبب الحرب التجارية بين الولايات المتحدة والصين، إضافة إلى ما هو ملحوظ من عجز النخب الحاكمة في مختلف أنحاء المعمورة عن التوصل لإجماع حول ما يتعين عمله سواء على المستوى الدولي أو على المستوى القطري.

وعلى المستوى القطري، فشبكات الضمان الاجتماعي التي قامت بواجبها، على نحو متفاوت الكفاءة في كثير من بلدان العالم في العقود الماضية تخضع اليوم لضغوط بالغة الشدة وتبدو على وشك الانهيار.

وإذا كان بريمر ينطلق من التأزم الاقتصادي – الاجتماعي في الولايات المتحدة لرسم ملامح تأزم عالمي مماثل(مع تفاوت الدرجات وفقا لتنفاوت الظروف والعايير) فإننا نحب أن نشير لتقرير أنطوني كوردسمان المعنون «الشرق الأزسط الكبير من الربيع العربي إلى محور الدول الفاشلة».

وتقرير كوردسمان صـادر عن مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية CSIS، وتحديداً عن "كرسي بيرك للاستراتيجيات Burk Chair for Strategy"، بتاريخ السادس والعشرين من أغسطس من العام 2020. ويقيس التقرير أداء كل حكومة من حكومات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (الشرق الأوسط الكبير) وما أنجزته أو عجزت عن إنجازه منذ العام 2011 لإشباع احتياجات شعوبها، ولتحقيق الآمال التي أثارتها أحداث "الربيع العربي"، ولتشخيص الأحوال الراهنة لتلك البلدان وما ينتظرها في المستقبل القريب.

وأهم ما يخلص إليه كوردسمان هو أن المشكلات التي تهدد استقرار هذه الـدول، وربما كانت تهدد وجودها ذاته، هي أضخم وأبعد مدى من خطر الإرهاب، والانقسامات الإثنية والطائفية، وهي الأخطار التي يركز عليها الخطاب الرسمي في الولايات المتحدة وفي الدول القريبة منها. وبالمقابل فالمشكلات التي يركز عليها كوردسمان هي عجز دول المنطقة عن إنجاز إصلاحات حقوقية واقتصادية كافية، وعجزها عن محاربة الفساد وعن التغلب على أوجه القصور في السياسات الوطنية والحوكمة.

ويمكن تطبيق كل هذا على الولايات المتحدة، وربما على روسيا والصين، وقد يبرر ذلك ما يشير إليه بريمر في تقريره الذي نشرته تايم الأميركية من تأثير اقتصادي محبط للارتفاع الذي شهده في الإصابات بفيروس كورونا على الاقتصاد الأميركي، ومن تأثيرات خطيرة مرتقبة، قد تنشأ عن الموجتين الثانية والثالثة للوباء.

وفي كتابه المعنون Us vs. Them : The Failure of Globalism يقول بريمر إن دعاة العولمة بَشَّرُونا بنمو اقتصادي عالمي، يفيد منه القريب والبعيد، والأبيض والأسود والأصفر والأحمر، ويكون أساسا لانتصار القيم الليبرالية. لكن التفاوتات التي نشأت عن العولمة نشرت

الشعبوية في مختلف أنحاء أوروبا. أما في البلدان الأقل تقدما فقد وجد الناس أنفسهم تحت ضغوط اقتصادية زادتها حدة التفاوتات الطبقية والفساد السياسي وقذارة البيئة. وبين أهم ملامح الفوضى الكونية الراهنة يتوقف بريمر أمام قضايا الهجرة.

والإرهاب هو ما يعتبره المسؤولون الأمنيون في أي بلد من بلدان العالم إرهابا، بمعنى أن هذا هو ما يتم التعامل معه أمنيا وقضائيا وسياسيا وإعلاميا كإرهاب، وكل ما عدا ذلك من تعريفات يدخل ضمن الممارسات الأكاديمية.

"كورونا" يكشف للغرب خطأهم بشأن الهجرة

في خضم تنامي العداء للهجرة بالدول الغربية، تفشَّت جائحة كورونا لتفتك بمواطني تلك الدول وتصيب بعض زعمائها الكارهين للمهاجرين، لكن بارقة الأمل جاءت على أيدي المكروهين.

مجلة Foreign Policy الأمريكية نشرت في 17 نوفمبر 2020، تقريراً بعنوان: «فيروس كورونا يقتل الغربيين والمهاجرون ينقذونهم»، تناول قصة العداء للهجرة ودور المهاجرين الحاسم في إنقاذ العالم من وباء كورونا.

تشير النتائج المبكرة إلى أنَّ لقاح كورونا الذي طوّرته شركة "فايزر" الأمريكية بالتعاون مع شركة "بيونتيك" الألمانية، فعال بنسبة تزيد على 90٪، ويؤكد صناع اللقاح انه سيساهم في إنقاذ كثير من الأرواح ويسمح للناس باستئناف حياتهم الطبيعية ويمنح الاقتصادات المتعثرة دفعة إيجابية، وسيتعيَّن، عندئذ على العالم تقديم شكره إلى مهاجرين أتراك استقروا في ألمانيا قبل سنوات عديدة.

وصل أوغور شاهين، المؤسس المشارك والرئيس التنفيذي لشركة "بيونتيك" الألمانية الناشئة في مجال التكنولوجيا الحيوية، إلى ألمانيا عندما كان طفلاً، وكان والده يعمل بمجال السيارات وجاء إلى ألمانيا في إطار برنامج «Guest Worker» الذي أطلقته ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية. كانت زوجة شاهين والمديرة الطبية لشركة "بيونتيك"، أوزليم توريغي، قد انتقلت أيضاً إلى ألمانيا مع والدها الطبيب التركي.

انخرط الزوجان في مجال البحث العلمي وأسّسا معاً شركتهما الناشئة، التي كانت تركز في السابق، على تطوير علاجات مبتكرة للسرطان.

لبناني وكندي

علاوة على ذلك فقد تأسست شركة «موديرنا» الأمريكية للتكنولوجيا الحيوية، التي أعلنت أيضاً عن لقاح واعد، على يد مجموعة تضم اثنين من المهاجرين –هما: عالم الأحياء الكندي ديريك روسي، والمستثمر والعالم اللبناني الأصل نوبار أفيان– أما رئيسها التنفيذي فهو فرنسي.

حظي إنجاز أوغور شاهين وأوزليم توريغي باحتفاء العالم أجمع حتى الرئيس الأمريكي المنتهية ولايته دونالد ترامب، الذي نادراً ما يكون لديه أي شيء جيد ليقوله عن المهاجرين، فضلاً عن المسلمين منهم، إضافة إلى أنَّ إسهاماتهما العلمية كشفت المغالطة في الخطاب المناهض للمهاجرين بأوروبا وأمريكا الشمالية.

رغم النبوغ والذكاء الفردي لشاهين، فإنه على الأرجح ما كان سيستطيع تحقيق الكثير في مجال البحث العلمي لولا انتقاله إلى ألمانيا والاستفادة من التعليم المتميز والفرص البحثية والاستثمارية المتاحة هناك.

تطورات كورونا في كندا

إنجازات لا تُحصى

أدَّت الشركات التي أسّسها رواد أعمال من أصل أجنبي دوراً رئيسياً في دعم الاقتصادات والمجتمعات هذا العام، في وقت اضطر فيه كثيرون إلى العمل من المنزل أو المكوث فيه لأسباب العزل الصحي. في هذه الأثناء، لجأ كثيرون بجميع أنحاء العالم إلى استخدام تطبيق محادثات الفيديو الجماعية «زووم»، الذي أسّسه مهاجر صيني إلى الولايات المتحدة يُدعى إريك يوان.

وهناك تطبيق «DoorDash»، وهو تطبيق توصيل وجبات الطعام الأكثرُ شهرة في الولايات المتحدة، والذي أسّسه مواطن أمريكي من أصل صيني يُدعى توني شو. في السياق ذاته، تأسست شركة «Babylon Health» البريطانية المتخصصة في مجال تقديم الاستشارات الطبية عن بُعد، على يد المواطن البريطاني من أصل إيراني، علي بارسا.

على نطاق أوسع، أدَّت جائحة كورونا إلى تسريع اعتماد الشركات والأسر على التقنيات الرقمية. شارك المهاجرون في تأسيس ما يقرب من نصف الشركات التقنية الناشئة في وادي السيليكون، من ضمنها شركتا "جوجل" و"تيسلا".

ويُقدّم المهاجرون إسهامات كبيرة أيضاً في مجال الرعاية الطبية، إذ ينتمي أكثر من نصف الأطباء الأستراليين إلى أصل أجنبي، وكذلك 38 % من الأطباء في مستشفيات المملكة المتحدة وما يقرب من 30 % من أطباء الولايات المتحدة كانوا مولودين في الخارج. تنتمي أيضاً العديد من ممرضات أوروبا إلى أصل أجنبي.

كان رئيس الوزراء البريطاني، بوريس جونسون، قد أعرب عن امتنانه للعاملين بمجال الصحة في بلاده، لكنه خصَّ بالشكر ممرضة نيوزيلندية تُدعى جيني وممرضاً برتغالياً يُدعى لويس؛ على مساعدتهما في إنقاذ حياته عندما نُقل إلى المستشفى إثر إصابته بفيروس كورونا في أبريل 2020.

وفي إيطاليا، يشكل المهاجرون أكثر من نصف القوى العاملة بمجال الرعاية الاجتماعية.

ولـم تقتصر إسهامات المهاجرين في مساعدة المجتمعات، على فئة رواد الأعمال والعمال ذوي المهارات العالية فحسب، بل يؤدي العمّال المهاجرون ذوو الأجـور المنخفضة أيضاً دوراً كبيراً في دعم مجتمعاتهم لمواجهة أزمة كورونا، إذ يقدمون خدمات تعبئة الطعام وتوصيل الطلبات إلى المنازل ويعملون ساعات طويلة في مستودعات شركة أمازون وينظّفون المستشفيات ووسائل النقل العام.

الهجرة بعد كورونا؟

توقفت حركة الهجرة والانتقالات عموماً في 2020 بسبب جائحة كورونا. لكن بفضل لقاح فايزر-بيونتيك ولقاحات أخرى، يُرجح أن تنشط الاقتصادات مُجدَّداً في 2021 وينشط معها الطلب على الهجرة.

غالباً ما يكون فرض القيود أسهل كثيراً من رفعها. قد تتباطأ العديد من الحكومات الغربية في إلغاء القيود المفروضة على حرية التنقل، لأسباب تتعلّق بالصحة العامة حتى بعد انتهاء الوباء. ومع ذلك، يُرجح أن تنتعش تدفقات الهجرة سريعاً بمجرد إنهاء إجراءات الإغلاق المحلي داخل دول الاتحاد الأوروبي، حيث يستطيع المواطنون التنقل بِحرية عبر جميع الدول الأعضاء البالغ عددها 27 دولة.

مساهمات المهاجرين

ساهم شاب عربي اسمه نورس رحّال 27 سنة في منح العالم لقاحاً مضاداً لفيروس كورونا القاتل، إلا أن هذا الشاب الذي يقيم في ألمانيا يعيش بلا وطن ولا توجد دولة تعترف به كمواطن، بالرغم مما حققه من انجازات أكاديمية تعتبر مبهرة.

مساهمة رحّال في تطوير اللقاح الذي أعلنت عنه شركة "فايزر" الأميركية، كان بارزا، فقد انتقل إلى ألمانيا قبل سنتين من العاصمة السورية دمشق التي دمرتها الحرب، وبقي عديم الجنسية حتى بعد نجاحه الدراسي وتقدمه العلمي، أي أنه لا توجد دولة تعترف به كمواطن.

وأنهى رحّال العمل مع فريق في أحد معاهد "ماكس بلانك" لتطوير نظام يسمح بحقن لقاح كورونا في الجلد، بدلا من حقنه في العضلات.

وقال رحّال: «إن هذه التقنية تستهدف الخلايا المناعية المتخصصة في الجلد التي يمكن أن تؤدي إلى رد فعل مناعي في الجسم. وهي تتطلب جرعة أصغر لكل شخص، وهذه ميزة كبيرة عند تلقيح أعداد كبيرة من السكان».

وحقق رحّال إنجازات أكاديمية تعتبر مبهرة لسبب آخر، إذ غالبا ما يعاني عديمو الجنسية من أجل الوصول إلى التعليم. وكان جَدُّ رحّال من بين عشرات الآلاف من الفلسطينيين الذين فروا من مدينة حيفا الواقعة على البحر المتوسط خلال الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي عام 1948.

وتحظر القوانين في العديد من الدول العربية على المرأة نقل جنسيتها إلى أطفالها، لذلك، وُلد رحّال وشقيقاه وأخته بلا جنسية مثل والدهم.

الهجرة غير النظامية

ودرس العالم الشاب، الذي قضى معظم طفولته في "داريا" التي تعرضت للقصف في دمشق، في مدرسة تديرها وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا). وأكد أنه كان محظوظا لأنه ولد في عائلة تقدر التعليم، فوالده سوري المولد مهندس زراعي وأمه خبيرة اقتصادية.

ودرس رحّال وتخرج في كليّة الصيدلة في جامعة دمشق، ثم غادر إلى ألمانيا في العام 2018. ولم يهرب من سوريا كلاجئ، لكنه تقدم للدراسة في ألمانيا بعد تخرجه في جامعة دمشق. وفي ألمانيا، تقدّم بطلب للحصول على مقعد لدراسة علوم النانو، وتمّكن من الحصول على شهادة ماجستير بأعلى درجة من جامعة "كاسل" ما أهّله للترّشح لجائزة أفضل طالب دولي.

وعمل في أبحاث عن أدوية السرطان وساعد في مشروع لسرد القصص بلغتين للأطفال اللاجئين، ويسعى دائما إلى تحقيق النجاحات، وهو يعمل الآن على الحصول على درجة الدكتوراه في تكنولوجيا اللقاحات في جامعة فيينا.

ومع ذلك، لا يزال انعدام الجنسية يلقي بظلاله على حياة رحّال، حيث أشار إلى أن الخدمات البسيطة مثل تفعيل رقم هاتفه تصبح مشكلة كبيرة دون جنسية. وغيرت السلطات الألمانية وضعه ثلاث مرات، فقد صنفته عديم الجنسية، ثم سوريّا، وأصبح الآن غير محدد وأضاف "عندما تنظر إلى بطاقة هويتك وترى أنك شخص غير محدد، فهذا مؤلم حقا".

وقال الأستاذ كريستوف راديماخر، الذي اختار رحّال للانضمام إلى مشروع لقاح كورونا، إنه اندهش عندما علم بالعقبات التي يتعين على رحّال التغلب عليها. واجتاز لقاحهم الاختبارات الأولية ويخضع إلى مزيد من التجارب مع فريق آخر.

الفصل الحادي عشر

التأثيرات الثقافية وعالم الكتب

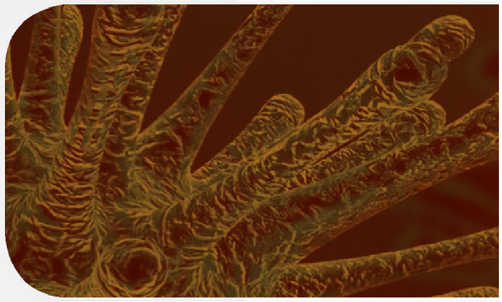

- أصوات في زمن كورونا
- إصدارات عربية وترجمات
- كتب عالمية
- من سيحكم العالم بعد كورونا؟
- رؤية المثقف العربي
- الكمامة... موضة في عالم الازياء
- نيويورك تهزم كورونا

أصوات في زمن كورونا

أحدثت جائحة كورونا صدى معرفي وعلمي كبيرين نظراً لضخامة الأثر الذي تركته على حياة الناس وعلاقاتهم الاجتماعية... ومثلما كانت الكوارث الطبيعية مصدراً لتدوين ما تتركه من أضرار وتصوير حالة الخوف والضحايا الذين ترميهم تلك الكارثة، كذلك الحال مع هذا الوباء، الذي وجد فيه عدد من المفكرين والمثقفين والعلماء طريقاً الى خوض ثمار جديدة ألهبت العقول ودفعت بعدد منهم إلى الولوج لعوالم النفس البشرية وما آلت إليه احوال المجتمعات من تغييرات نادرة.

وفي هذا المقام كانت هناك جولة في عالم الكتب التي أضاءت على تلك الظاهرة الفريدة بتجلياتها ونوازعها من منطلق إنساني وثقافي.

الإنفلونزا العظمى

صدرت ترجمة كتاب الإنفلونزا العظمى "THE GREAT INFLUENZA" عن دار ذات السلاسل، وهي الحكاية الملحمية لأكثر الأوبئة فتكًا على مرّ التاريخ يرصدها جون إم. باري. الكاتب والمؤرخ الأميركي المعاصر الذي اختارته إدارتا جورج دبليو. بوش وباراك أوباما للمشاركة في استراتيجيات مكافحة الأوبئة بالولايات المتحدة.

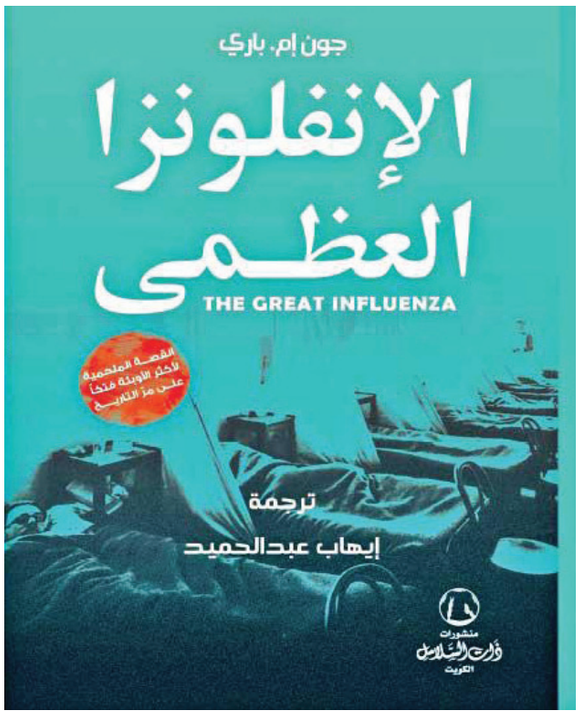

ويقول بيل غيتس عن الكتاب: "أنجز باري عملاً عظيماً في إيضاح التأثير العميق للجائحة، ليس فقط على ملايين العائلات مثل عائلتي، ولكن على مسار التاريخ بأكمله"، كما ذكرت صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» أن "الكتاب الناتج عن بحث مستفيض، والمروي بأسلوب بديع، يثير السؤال الواضح: هل يمكن أن يحدث ذلك مجددًا؟ والإجابة: بكل تأكيد!".

المؤلف جون إم. باري. كاتب ومؤرخ أميركي، مواليد 1947. له كتب: "الطموح والقوة: قصة حقيقية عن واشنطن"، و"المدّ المتصاعد: فيضان المسيسبي العظيم عام 1927 وكيف غيّر أمريكا"، و"روجر وليامز وخلق الروح الأمريكية: الكنيسة، والدولة، وميلاد الحرية"، و"ألعاب القوة: السياسة، وكرة القدم، ورياضات دموية أخرى".

ويقول الكاتب في مقدمة كتابه: "ليست قصة فيروس إنفلونزا عام 1918 مجرد قصة عن الخراب، والموت، والهلاك الذي حلّ بمجتمع يخوض حرباً ضد الطبيعة تواكبت مع حرب ضد مجتمع بشري آخر.

إنها أيضاً قصة عن العلم، عن الاكتشاف، عن كيف يفكر المرء، وكيف يغير طريقة تفكيره، عن كيف استطاع بضعة رجال، في خضمّ فوضى عارمة، التماس التأمل الهادئ، والاحتفاظ برباطة الجأش، لا من أجل التفلسف وإنما من أجل اتخاذ خطوات باتة جازمة.

لقد كانت جائحة الإنفلونزا التي اندلعت عام 1918 أول صدام عظيم بين الطبيعة والعلم الحديث. كانت أول صدام عظيم بين قوة طبيعية ومجتمع شمل أفراداً رفضوا الاستسلام لتلك القوة كما رفضوا استدعاء تدخّل إلهي لإنقاذ أنفسهم منها، أفرادًا كانوا، عوضًا عن ذلك، عازمين على مواجهة تلك القوة مباشرة، بتكنولوجيا قيد التطور وبعقولهم.

أما في الولايات المتحدة، فالقصة تدور بالأساس حول حفنة من الأشخاص الاستثنائيين، الذين يُعدّ بول لويس واحدًا منهم. كانوا رجالًا وحفنة من النساء لم يستسلموا لحالة التخلف العلمي، وطوروا العلوم الأساسية التي يرتكز عليها قدْر كبير من الطب الذي نعرفه الآن. كانوا قد طوروا لقاحات ومضادات سموم وأساليب لا تزال قيد الاستخدام. بل ووصلوا، في بعض الحالات، إلى تخوم المعرفة التي نحوزها في يومنا هذا".

إستطلاعات ميدانية

جانب آخر من الانتاج الثقافي يتمثل في عمل إستطلاعات للرأي العام، كما هو في مبادرة مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية التابع لجامعة الكويت بإصداره دراسة تتعلق بالجائحة على مستوى الكويت، وهي عبارة عن استطلاع ميداني عن الرضا الشعبي عن إجراءات الحكومة وتعاملها مع أزمة فيروس كورونا، وبينت أن 33.61 في المئة من أفراد العينة «موافقون بشدة» على أن الحكومة تعاملت بالشكل المطلوب مع الأزمة، في حين أن 31.13 في المئة من أفراد العينة «موافقون» على ذلك، ليكون الإجمالي 64.74 في المئة في جهة الموافقة. وتصدرت النساء قائمة المستطلعة آراؤهم، بنسبة وصلت إلى 65 في المئة، مقابل 63 للرجال، فيما كانت فئة الشباب طاغية على قبول تعامل الحكومة مع الازمة وبنسبة 72 في المئة، مقابل 33 بين المسنين.

وفي المقابل، فإن الدراسة، التي اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي، وبلغ عدد أفراد عينتها 1090 فرداً، توصلت إلى أن 9.73 في المئة من أفراد العينة «غير موافقين بشدة» على أن الحكومة تعاملت بالشكل المطلوب مع الأزمة، في مقابل 19.38 في المئة «غير موافقين» ليكون إجمالي نسبة غير الموافقين 29.11 في المئة، في حين اتخذ 6.15 في المئة من أفراد العينة موقف الحياد. وتوصلت الدراسة إلى أن «أفراد العينة من الإناث كانوا أكثر رضا عن أداء الحكومة في التعامل مع أزمة كورونا مقارنة بأفراد العينة من الذكور»، كما أن «المستوى التعليمي الأعلى (الدراسات العليا فوق الجامعي) كانوا هم الأقل رضا عن أداء الحكومة في التعامل مع الأزمة، في حين كان أفراد العينة من المستوى التعليمي الأقل (دون الثانوي) هم الأكثر رضا عن أداء الحكومة». وفيما أظهرت الدراسة أن «أفراد العينة الأكبر سناً (فوق 50 سنة) كانوا هم الأقل رضا عن الحكومة، في حين كان أفراد العينة الأصغر سناً (أقل من 18 سنة) هم الأكثر رضا عن أداء الحكومة»، كشفت أن «أفراد العينة في محافظة الجهراء كانوا هم الأكثر رضا عن أداء الحكومة، في حين كان الأفراد في محافظة العاصمة هم الأقل رضا».

إصدارات عربية وترجمات

بعد إنتشار وظهور فيروس كورونا المستجد في البلاد العربية خلال فبراير 2021، اهتمت دور النشر بإصدار بعض الكتب عن هذا الفيروس، رغم شح المعلومات عنه، فلجأ بعضها للترجمة عن كتب عالمية.

الإعلام في زمن كورونا

(الإعـلام في زمن كورونا) كتابٌ جديد للباحثة الإعلامية البحرينية الدكتورة بتول السيد مصطفى، صدر

عن دار الجنان للطباعة والنشر والتوزيع في عمّان، الأردن. وقد تضمن الكتاب في فصله الأول مدخلًا نظريًّا مُوسعاً يتكون من شقّين: الأول يُعطي نبذة تعريفية عن جائحة «كورونا».

والشق الثاني يستعرض التناول الإعلامي للجائحة، انطلاقًا من الإعلام الصحي تحديدًا، إذ أعادته الأزمة إلى الواجهة بعد زمن من انحساره، وقد تم استعراض أبرز الوظائف والمسؤوليات التي يُفترض اضطلاعه بها، وكذلك انطلاقًا من إعلام الأزمات من حيث الأدوار والمراحل والأداء، فضلاً عن مبحث خاص بالإعلام التقليدي والجديد، وطبيعة المعالجة الإعلامية للأزمة (مثيرة، ناقصة، ومتكاملة)، وماهية الخطاب الإعلامي المُستخدم في ذلك (عاطفي، وعقلاني)، مع تصنيف التعاطي الإعلامي مع الجائحة استنادًا إلى ماهية الأنظمة السياسية التي تعمل وسائل الإعلام في ظلها، سواء كانت سلطوية أو ديمقراطية، وكذلك تصنيف الجمهور المتعرض إليها (عنيد، حساس، ولا مبالي).

تضمن الكتاب في فصله الثاني إطارًا تطبيقيًّا، يضمّ ثلاث دراسات مسحية: الأولى حول استخدامات الجمهور البحريني لمصادر المعلومات عن «كورونا» وتأثيراتها، والثانية حول تأثيرات الإعلام المحلي على الجمهور اليمني في أزمة «كورونا»، والثالثة حول اتجاهات النُخب العربية نحو الخطاب الإعلامي لمنظمة الصحة العالمية خلال جائحة «كورونا».

وفي استعراض تفصيلي لملخص الدراسات الثلاث، نشير إلى أن الأولى هدفت إلى تحديد أبرز مصادر المعلومات التي يستخدمها الجمهور البحريني خلال الجائحة، ومعرفة أبرز دوافع الاستخدام، والمضمون والشكل والطرف الفاعل الأبرز للمعلومات التي تتم متابعتها.

وقد خلصت الدراسة إلى أن غالبية أفراد العينة يستخدمون مواقع التواصل الاجتماعي كأبرز مصدر للحصول على المعلومات عن «كورونا» بنسبة 64.2 بالمائة، وأن الدافع الأبرز للاستخدام يتمثل في الوقاية وتجنب الإصابة بنسبة 59.4 بالمائة. الدعم المعنوي بنسبة 24.6 بالمائة. وتمثل التأثير النفسي الأبرز للمعلومات في الارتياح والتفاؤل بنسبة 29.2 بالمائة، والتأثير السلوكي الأبرز في الالتزام بالتعليمات بنسبة 63.2 بالمائة.

أما الدراسة الثانية فقد هدفت بشكل رئيس إلى معرفة مدى تعرض واعتماد الجمهور اليمني على الإعلام المحلي كمصدر للمعلومات خلال أزمة «كورونا»، ورصد مستوى التأثيرات المعرفية والعاطفية والسلوكية المترتبة على ذلك.

وخلصت الدراسة المسحية إلى أن غالبية أفراد العينة يعتمدون على الإعلام المحلي كمصدر للمعلومات بدرجة متوسطة خلال أزمة «كورونا».

الدراسة الثالثة تناولت الخطاب الإعلامي لمنظمة الصحة العالمية خلال جائحة «كورونا»، وهدفت إلى رصد اتجاهات نُخب عربية نحو الاستمالات المُستخدمة في الخطاب، وذلك على اختلاف أنواعها (العاطفية، العقلانية، والتخويف). كما هدفت إلى تحديد الوسيط الإعلامي الأبرز لمتابعة الخطاب من قِبل النُخب، فضلًا عن معرفة مدى التعرض إليه. وارتكزت الدراسة على نظرية تحليل الخطاب الإعلامي من ناحية النص والسياق الظاهريين فحسب، إذ استندت إلى المنهج المسحي. وقد شمل المسح عينة عمدية، وتم استخدام أداة الاستبانة لجمع البيانات من 725 مفردة، مُمثلة بنُخب أكاديمية وإعلامية في دول عربية متفرقة.

وخلصت الدراسة المسحية إلى أن غالبية أفراد عينة النُخب العربية يتعرضون إلى الخطاب الإعلامي لمنظمة الصحة العالمية خلال جائحة «كورونا» عبر مواقع التواصل الاجتماعي، بنسبة 54.8 بالمائة، يليها التلفزيون بنسبة 28.7 بالمائة. وبينت النتائج موافقة 39.9 بالمائة من العينة على أن الخطاب مشحونٌ بمؤثرات عاطفية، في مقابل 18.3 بالمائة ممن يعارضون ذلك، أما المحايدون فمثلوا الغالبية بنسبة 41.8 بالمائة. كما أكدت النتائج موافقة غالبية عظمى من أفراد العينة على أن الخطاب يُثير الحيرة والقلق بنسبة 80 بالمائة، وأنه يُبالغ في التحذير وإثارة الخوف بنسبة 64.3 بالمائة.

عالم ما بعد الجائحة

كتاب جماعي جديد بصيغة الكترونية بعنوان «عالم ما بعد الجائحة قراءات في تحولات الفرد والمجتمع والأمة والعلاقات الدولية»، وبمقدمة جاء فيها «تأبى الكتابة إلا أن تتحدى الحظر وتنشد الحضور، تفتح كتاب الذاكرة وتقاوم النسيان، تحاور المستقبل وتستنطق الأزمة. فللزمن الثقافي إيقاعه ومواعيده ومساحاته التي تأبى الفراغ وتنشد أجوبة الأسئلة الراهنة».

أسرار كورونا

صدر هذا الكتاب عن سلسلة كتاب اليوم في القاهرة، للدكتور حسين الشورى استشاري الكبد والسكر والجهاز الهضمي والسمنة في مصر، ويقدم وصفة طبية حول الفيروس المستجد ويجيب عن أسئلة شائعة تشغل بال الكثيرين منا عن الفيروس.

الجائحة تهز العالم

هذا الكتاب صدر عن مكتبة كلمات للنشر والتوزيع بترجمة محمد الضبع، يطرح فيه مؤلفه الفيلسوف والمفكر السلوفيني سلافوي جيجك.. أفكارا فلسفية تتناول فكرة الفيروس من مفهوم فلسفي، بالمقارنة ما بين الرأسمالية والشيوعية وموقفهما من الفيروس وتداعياته في العالم.

كابوس من الشرق الأقصى

يعد كتاب «فيروس كورونا المستجد الكابوس القادم من الشرق الأقصى» لمؤلفته د. نانسي عليان من أوائل الكتب التي صدرت بالعربية عن «كوفيد19»، وهو يناقش ماهية فيروس كورونا المستجد وجدلية انتقاله وانتشاره حول العالم بشكل غير مسبوق منذ قرن من الزمان. الكتاب صادر عن دار أمجد للنشر والتوزيع.

فتاوى حول كورونا

للمؤلف د. مسعود صبري، في 241 صفحة من القطع الكبير، بهدف التوثيق التاريخي للفتاوى، وبيان جهد الفقهاء المعاصرين في التعامل مع النازلة وقضاياها، واعتبار الاجتهاد والفتاوى في النازلة تمثل سجلاً ومرآة للمجتمع، وإتاحة الفرصة أمام الباحثين والمتخصصين لدراسة الفتاوى تحليلاً وتأصيلاً.

كتب لتوعية الأطفال

أنتج العديد من المؤلفين والأطباء الغربيين، كتبا عن فيروس كورونا للأطفال لتساعدهم على فهم الفيروس وعدم الخوف منه خلال فترة المكوث في البيت، أبرزها:

فيروس كورونا

كتاب الكتروني للأطفال بعنوان «فيروس كورونا»، للمصور جروفالو أكسل شيفلر، يمكن تحميله مجانا، والكتاب يستهدف الأطفال من سن الخامسة إلى التاسعة، وشارك في إعداد الكتاب طاقم العمل في دار النشر نوسى كرو بمساهمة من البروفيسور جراهام ميدلى من كلية لندن للصحة والطب ومن قبل اثنين من مديرى المدارس للأطفال.

«الأطفال فى المنزل خلال كوفيد 19»

كتاب "عبر نافذتي.. الأطفال في المنزل خلال كوفيد- 19"، يبحث فى حياة الأطفال المقيمين فى المنزل من جميع أنحاء العالم من خلال منظورهم الخاص، ويستعرض الكتاب، الذي كتبه Xue Bai، تجربة الأطفال المشتركة في الحياة بعيدًا عن المدرسة والأصدقاء، واكتشاف ما يمكن تعلمه أثناء الإغلاق، ويتم تعليم الأطفال أهمية البقاء إيجابيين ونشر اللطف ودعم الآخرين.

«لماذا نقيم في المنزل»

قام اثنان من طلاب الطب فى أمريكا، هما سامانثا هاريس وديفون سكوت، بإصدار كتاب مصور للأطفال حول الفيروسات التاجية بعنوان (لماذا نقيم في المنزل؟)، لمساعدة الآباء على التواصل مع أطفالهم وسبب بقاء العديد من العائلات في جميع أنحاء البلاد في المنازل. ويشرح الكتاب للأطفال لماذا يعد البقاء في المنزل مهمًا لمنع انتشار الوباء.

ليلي وتيميز سوبر وكوفيد 19

يمكن أن يكون شرح الحجر الصحى لفيروس كويونا للأطفال صعبًا، لأن الأطفال يريدون اللعب فقط، ولذا تم إصدار كتاب جديد للأطفال بعنوان: «ليلى وتيميز سوبر وكوفيد 19»، للمؤلفين مايك فاريل وجاكوب هورن، عن توأمين صغيرين يصادف عيد ميلادهما خلال الوباء، وصنف الكتاب على أنه يحمل قصة فكاهية للغاية عن أم لديها توأمان كان من المفترض أن تذهب بهما إلى ديزني لاند في عيد ميلادهما السادس، لكنها امتنعت عن ذلك بسبب انتشار فيروس كورونا، واحتوى الكتاب على حوارات بسيطة مضحكة للأطفال، تتضمن تعريفا بالفيروس وسبل الوقاية منه.

الكابتن كورونا ومحاربو كوفيد 19

كتاب للأطفال، بعنوان (الكابتن كورونا ومحاربو كوفيد 19) للمؤلفة ميليسا جراتياس من جورجيا في اميركا، قالت المؤلفة عنه إنه يهدف إلى توفير الراحة للأطفال في الأوقات المضطربة، وانها رغبت في تسليط الضوء على العديد من المساعدين والعاملين الذين

يقاتلون لكبح انتشار الفيروس والتصدي له، وتدور قصته حول البطل الخارق الكابتن كورونا وهو يشرح ما هي الجراثيم ؟، ويعلم مجموعة من أصدقائه الصغار كيفية غسل أيديهم بشكل صحيح، كما أن القصة تضم المعلمين والعاملين في مجال الرعاية الصحية.

كتب عالمية

«يوميات ووهان».. كتاب أغضب الصين

تُرجمت إلى اللغة الانكليزية يوميات مؤلفة صينية حاصلة على جوائز، توثق فيها حياتها في ووهان في الأيام الأولى لتفشي فيروس كورونا.

وبدأت فانغ فانغ في نشر رواياتها عن تجربتها في المدينة على شبكة الإنترنت في يناير 2020، في حين كان يعتقد أنّ الفيروس أزمة محلية.

وتمّت قراءة مذكرات الكاتبة التي تبلغ من العمر 65 عاماً على نطاق واسع، ممّا قدم للملايين في الصين لمحة نادرة عن المدينة التي ظهر فيها الفيروس لأول مرة، وغضبت السلطات الصينية من فانغ واعتبرتها خائنة.

وقالت شركة النشر هاربر كولنز التي أخرجت الكتاب للعالم في 350 صفحة، إنّ فانغ "أعطت صوتاً لمخاوف وإحباطات وغضب وأمل الملايين من مواطنيها"، وأنها "تتحدث أيضاً ضد الظلم الاجتماعي وإساءة استخدام السلطة والمشكلات الأخرى التي أعاقت الاستجابة للوباء ووضعت نفسها وسط جدل عبر الإنترنت بسبب ذلك».

في الوقت الذي كان يتم فيه تصفية الأخبار بشكل كبير وكانت منافذ الأخبار المستقلة نادرة، ظهرت فانغ فانغ بسرعة كمصدر موثوق للمعلومات، وتعزز ذلك بسبب خلفيتها ككاتبة معروفة وفي بلد يحتاج إلى كتابة تتكلم بضمير، فقد الجمهور الثقة في الكثير من وسائل الإعلام الرسمية.

وانتشرت كلمات فانغ في الصين ولم يمض وقت طويل قبل أن تجد طريقها إلى خارجها أيضاً.

وباء ما كان يجب أن يظهر

«كوفيد – 19: الوباء الذي ما كان يجب أن يظهر وكيف نتجنب الوباء التالي»، كتاب من تأليف خبيرة الأوبئة، البريطانية ديبورا ماكينزي ظهر في مطلع يونيو 2020، والتي عرفت بأنها تُعدّ التقارير عن الأمراض الناشئة منذ أكثر من ثلاثة عقود، وتستفيد من هذه التجربة لتشرح لنا كيف انتقل كوفيد – 19 من وباء يمكن السيطرة عليه إلى جائحة عالمية.

تروي ماكينزي في كتابها تاريخ أهم الأوبئة الأخيرة، بما في ذلك السارس وميرس وإنفلونزا H1N1 وزيكا وإيبولا، كما تعطينا دورة مكثّفة في علم الأوبئة: كيف تنتشر الفيروسات وكيف تنتهي الجوائح، وتحدّد الدروس التي فشلنا في تعلّمها من الأزمات السابقة، كما تخبرنا بتفاصيل حيّة كيف ظهر كوفيد – 19 وانتشر، وتوضح الخطوات التي عرفت الحكومات أنّه كان بإمكانها اتّخاذها للحؤول دون انتشار الفيروس أو على الأقل الاستعداد له. أمّا بالنسبة إلى المستقبل، فتُقدم ماكينزي حجّة جريئة ومتفائلة: قد تؤدي هذه الجائحة في النهاية إلى تحفيز العالم على أخذ الفيروسات على محمل الجدّ، فمكافحة هذا الوباء وتجنّب الوباء التالي يستلزمان إجراءات سياسية متنوّعة على مستوى العالم، من جانب الحكومات والمجتمع العلمي والأفراد – لكنّ ذلك ليس مستحيلاً.

«نهاية أكتوبر».. رواية ذات بصيرة مدهشة

لا تُعتبر رواية الكاتب الأميركي لورانس رايت "نهاية أكتوبر" بمثابة النبوءة، لكن إصدارها أثناء تفشي أسوأ وباء في الذاكرة الحية ليس من قبيل الصدفة تمامًا أيضًا.

الرواية المكونة من 400 صفحة، منشورات كنوبف، بدأ مؤلفها في كتابتها في 2017 لكنها رأت النور في أبريل 2020، وذاع صيتها لما حملته من نبوءة بتفشي مرض خطير وقاتل. يقول رايت لصحيفة "نيويورك تايمز" الأميركية عن روايته الجديدة: "شعرت ببعض الرعب عندما تخيلت مستقبلًا فظيعًا أصبح حقيقة أكثر فظاعة. واليوم عندما قرأت الصحف وشاهدت الأخبار، تذكرت المشاهد التي كتبتها بالفعل. على سبيل المثال، يؤدي الحجر الصحي دورًا كبيرًا في روايتي. في روايتي، تفشى الفيروس في أثناء موسم الحج، وتم إغلاق مكة التي يزورها ثلاثة ملايين حاج. كنت أعتقد أن هذه المشاهد غير واقعية إلى أن شهدت الصين وقد عزلت 11 مليون مواطن في ووهان. الآن، تحاول الحكومات في جميع أنحاء العالم فرض إجراءات قاسية مماثلة».

اختار رايت أن يجعل "الإنفلونزا" الشخصية المركزية في روايته؛ إذ لا يزال هذا المرض يقتل عشرات الآلاف من الأميركيين في كل عام، ومئات الآلاف في باقي دول العالم. وتخيل في الرواية ما سيحدث إذا نشأت سلالة جديدة من الإنفلونزا، كالإنفلونزا الإسبانية التي تفشت في عام 1918، وقتلت 50 مليونًا على الأقل.

يطرح رايت في الرواية أسئلة مهمة عن عصرنا الحديث، مع سفر المليارات من الناس، والاجتماع والتسوق: ما مدى سرعة تطور هذا المرض؟، ما عدد الذين سيموتون؟، ماذا سيحدث لاقتصادنا وحكومتنا وحضارتنا؟، كم من الوقت يستغرق تطوير لقاح أو إيجاد علاج؟، وماذا يتطلب فعل ذلك من جهود وتمويل؟.

«كورونا».. إنذار كاذب؟

كتاب (كورونا.. إنذار كاذب)، يعتبر من أكثر الكتب مبيعا في ألمانيا، وهو من تأليف الباحثين كارينا ريس وسوتشاريت بهاكدي، وصدر في 26 يونيو ويقع في 160 صفحة.

يتحدث الباحثان الحائزان على عدد من الجوائز العلمية، في كتابهما، عن ما سمّاه «بعض الحقائق عن فيروس كورونا، بعد ان سرى طوفان من الآراء المتناقضة والأخبار المزيفة والمعلومات الخاطئة عن الوباء الجدي، وحول المخاطر التي يشكلها الانقسام حولها داخل الحكومات والمجتمع وحتى بين العائلة والأصدقاء». ويقدم المؤلفان في كتابهما تحليلا عن أهمية الالتزام في هذه الأوقات المربكة والمرهقة، ولماذا كانت تدابير الحماية الصارمة المتبعة في كافة الدول، كإغلاق الأنشطة والأعمال وفرض التباعد الاجتماعي، أفعالا مبررة وضرورية، وما هي التداعيات على المجتمع والاقتصاد والصحة العامة بسبب هذه الجائحة.

كارثة كوفيد 19.. كيف نمنع تكرارها؟

إجماع المفكرين على أن تحذيرات عديدة سبقت الجائحة منذ سنوات طويلة، يمثل حالة إستغراب شديدة، ويفتح أبواباً كثيرة من التساؤلات أقلها كيف يمكن لروايات وكتاب ومفكرين أن يضعوا سيناريوهات إستباقية لجائحة ستجتاح العالم دون أن يحظى هذا الأمر بالدراسة الوافية. إهمال العالم للتحذيرات أمر في غاية الغرابة وجدير بالتوقف أمامه كثيراً والتمعن في انتقادات كل من حذر من أمثال ريتشارد هورتون في كتابه (كارثة كوفيد 19.. ما

الذي حدث وكيف نمنع تكراره؟) الصادر في يونيو 2020 والواقع في 140 صفحة، «تجاهل العالم للتحذيرات التي انطلقت منذ ثمانينيات القرن الماضي، من أن هناك جائحة قد تحدث وتتسبب في مأساة إنسانية مدمرة». هورتون هو بريطاني ومحرر المجلة الطبية The Lancet، وقد رأى في كتابه أن الحكومات الغربية ومستشاريها العلميين وضعوا افتراضات خاطئة حول وباء كورونا ومدى فتكه، وأضاعوا وقتا ثمينا في التردد بينما انتشر الفيروس دون رادع، تاركًا الأنظمة الصحية غير مستعدة لمواجهة سيل من العدوى التي أعقبت ذلك.

يقول هورتون في مؤلفه: "كان من المفترض أن نعيش في عصر أصبح فيه البشر هم أصحاب التأثير المهيمن على البيئة، لكن COVID-19 كشف هشاشة مجتمعاتنا والسرعة التي يمكن أن تنهار فيها أنظمتنا. نحتاج إلى تعلم دروس هذا الوباء ونحتاج إلى تعلمها بسرعة لأن الوباء القادم قد يأتي في وقت أقرب مما نعتقد".

بالاعتماد على خبرته العلمية والطبية، يحدد هورتون في كتابه التدابير التي يجب وضعها على الصعيدين الوطني والدولي لمنع حدوث هذا النوع من الكارثة مرة أخرى.

مخاطر حقيقية.. وإنذارات مضللة

كتاب الدكتور الفرنسي ديديه راوول الذي فجّر قنبلة العصر بتحديه كل مختبرات وشركات الأدوية في العالم، واعتماد دواء بسيط يستند الى مادة الكلوروكين لعلاج كورونا، وهو بعنوان «الأوبئة.. مخاطر حقيقية وانذارات مُضللة» يعرض بالتفصيل تاريخ الفيروسات والأوبئة. يُشرّح أسبابها وكيفية انتقالها. يُفصّل مخاطرها الحقيقية والوهمية. يسخّفها عبر مقارنتها مع امراض تقتل الملايين عبر العالم ولا يجري الحديث عنها. ينتقد الآلة الجهنمية الإعلامية والاحتكارية وتلك المختبرات والمصانع التي تغالي في تخويف الناس لدفعهم الى أحضان اللقاحات والأدوية. ويصل الى نتيجة مفادها ان فيروس كورونا لن يكون أكثر أو اقل خطرا من 20 فيروسا سبقوه.

يتعجّب البروفسور راوول كيف ان الفيروسات التاجية، وهي فيروسات كورونا "المنتشرة بكثرة بين الطيور والثدييات والتي قد تنتقل أيضا الى الانسان، كان يتم تجاهلها تماما في الصحف ومن قبل معظم السلطات الصحية في العالم، وهذا مثير فعلا للدهشة، ذلك لان هذه الفيروسات التاجية تشكل ثالث سبب للالتهابات الفيروسية التنفسية في العالم".

وخلافا للاعتقاد السائد بحداثة هذه الفيروسات، فان البروفسور راوول يقول ان تاريخها بدأ في العام 1965 وتم اكتشافها عند طفل مصاب بانفلونزا، ثم ظهرت لاحقا عند حيوانات مختلفة. وظهر "سارس" ثم فيروسان من عائلة كورونافيروس في العام 2004 باسمي NL63و NKU1 ، ثم فيروس كورونا آخر في المملكة العربية السعودية باسم "Mers-corona " في العام ٢٠١٢ حين تم ادخال مريض الى مستشفى في جدة، ثم في الصين في العام ٢٠١٩، ما يعني اننا امام عائلة واسعة . هنا ايضا يعود البروفسور الفرنسي الى حديث الشكوك، فيقول :" لا نعرف لماذا الجمل الذي حمل فيروس "ميرس كورونا" وجد فقط في السعودية ولم يصل الى المناطق المجاورة . وقد افترضت ان قرود البابون الكثيرة في السعودية، والتي تخالط الجمال وتعيش بين قطعان تضم مئات الحيوانات، كانت هي الحاملة لهذا الفيروس، ذلك ان تلك القردة التي تشكل مجموعات كبيرة، عندها عادات غريبة، ومنها مثلا انها تتخذ من الكلاب حرّاسا لها.

وقد كان من المهم مراقبة العائدين من الحج من السعودية الى فرنسا، ذلك ان الحجاج يذهبون الى الحج من دول مختلفة وبعضهم يحمل فيروسات خصوصا من افريقيا الغربية في خلال الصيف، ويمكن ان ينقلوا العدوى الى اشخاص آخرين لدى عودتهم الى فرنسا، لكننا لم نجد أي أثر لفيروس عند العائدين، ذلك اننا في فرنسا، ولسبب غير مفهوم، لا تنتقل عندنا الانفلونزا الا بشروط مناخية ضرورية، وبالتالي فلا يوجد وباء خارج الفصول (خارج فصل الشتاء)".

ويتابع:" كتبت مقالا آنذاك أسميته " عند العودة من الحج في مكة، توجد الانفلونزا الغبية" (أي لا شيء يذكر). وتعرّضت في حينه الى حملة انتقاد مريرة من قبل زملائي الذين كانوا مأخوذين بعولمة فيروس " ميرس- كورونا" لكن في الحقيقة بقي هذا الفيروس حيث ولد ".

وخلص كتاب البروفيسور الفرنسي الى ان « فيروس كورونا الصيني قد لا يكون الا الرقم 21 بين الفيروسات الموجودة في العالم، ولن يكون لا أكثر ولا اقل خطورة، وقد يختفي مؤقتا كما اختفى سارس منذ أكثر من ١٧ عاما او يختفي نهائيا، وقد يستمر مرتبطا بحالات معينة لها علاقة بالحيوانات، ان المستقبل سيقول كلمته».

«من سيحكم العالم بعد كورونا؟»..

نظام عالمي جديد لا تسيطر عليه أميركا!

«العالم بعد جائحة كورونا، لن يكون كما كان قبلها». ذلك هو الإستنتاج الذي توصل إليه المؤلف ناجح خليل في كتابه «من سيحكم العالم بعد كورونا؟» الصادر في 2020، عن دار المجد العربي للنشر والتوزيع.

الكتاب الواقع في 116 صفحة من القطع المتوسط يرصد خلال فصوله التسعة كيف ابتدأت قصة نشوء

فيروس كورونا في الصين وكيف تخلّقت، وطاف حول التداعيات التي خلفها الوباء على اقتصادات الدول وسياساتها وأمنها وقواها الاجتماعية الحية، كما تابع التغيرات القهرية الناجمة عن ذلك، ناهيك عن الصراع الكبير بين القوتين الكبريين الولايات المتحدة من جهة والصين من جهة أخرى، وأثر ذلك الصراع على العالم.

ويرى الكتاب ان أسس النظام المالي العالمي تزعزعت بشكل كبير، وان أمراً جللاً ينتظر هذا النظام، وانه ان لم يسقط فعلياً فإنه من طريق ذلك، أما الحقيقة الواضحة للعيان بحسب تقديره، فهي ان الاقتصاد العالمي بكل قطاعاته الإنتاجية تلقى ضربة تاريخية غير مسبوقة، قد تمتد آثارها لسنوات، كما ان البطالة في العالم ستصل إلى مستوى يرقى إلى مستوى عصر الكساد، وستنهار أسواق

ناشئة، ودول نامية، كما ستنهار شركات كبرى إذا لم تندمج، وسينهار العديد من أصحاب العمل الكبار، وقد تنهار حكومات ودول.

ويرى ان الدول النفطية ستكون في أمسّ الحاجة إلى إلغاء ارتباط عملاتها بالدولار في المرحلة الأولية استعداداً للمرحلة التالية التي سيتم فيها إلغاء جميع العملات الورقية والاستعاضة عنها بنمط جديد من العملات ومن التعامل.

وبينما يحدد الكتاب أشكال الصراع بين ثلاث دول كبرى هي أميركا وروسيا والصين، فهو يطرح عددا من السيناريوهات المتوقعة لنشوء نظام عالمي جديد، بناء على معطيات وقناعات محددة، تكمن في أن أميركا لن تكون قائدة أو مسيطرة على ذلك النظام الجديد، بل ستنكفئ على وضعها الداخلي وتسحب معظم تفرعاتها في العالم، وأن روسيا ستتجه للتخلص من طاقم بوتين الاقتصادي وستسعى الى تفعيل اقتصادها بقاعدة لا تعتمد عنصري النفط والغاز، وستهتم بتطوير أدوات إنتاجها في قطاعات الزراعة والنقل والمعادن والصناعات الناعمة، والاتصالات، أما الصين فستعود الى الاهتمام بتفعيل اقتصاد الكومونات الزراعية المسنودة بجهود تصنيعية، مع تفكيك مدنها الصناعية الكبرى ونقلها الى مساحات خارجية وبعيدة.

أقلمة العولمة

وبكل ثبات، يقول الكتاب إن «العالم يتجه الآن الى التجزئة في السيادة والتماسك في الإنتاج، مستعينا بمنطق أقلمة العولمة وتوزيعها على 14 اقليما، هي:

- إقليم الصين، كمبوديا، كوريا الشمالية، فيتنام، تايوان، هونغ كونغ.
- إقليم اليابان، كوريا الجنوبية، إندونيسيا، سنغافورة، ماليزيا.
- إقليم أميركا، كندا، استراليا.
- إقليم دول المغرب العربي والشمال الافريقي.
- إقليم مصر والسودان وأثيوبيا ودول افريقية مجاورة.
- إقليم جنوب افريقيا ومحيطها من الدول الافريقية المجاورة.
- إقليم الاتحاد الاوروبي وافشال محاولات بريطانيا للخروج منه.
- المكسيك ومحيطها الأميركي الجنوبي.
- البرازيل ومحيطها الأميركي الجنوبي.
- فلسطين المحتلة، الأردن، العراق، سوريا، لبنان، تركيا.
- إيران، باكستان، بنغلاديش.
- روسيا ومحيطها المكون من خمسة عشر دولة كانت منضوية في الاتحاد السوفيتي.
- القارة الهندية ومحيطها.
- خمس دول كانت منضوية في الاتحاد اليوغسلافي السابق.

وهكذا، بتقدير الكاتب ناجح خليل، يتضح ان من سيحكم العالم هو من سيدير عجلة الانتاج فيه،على أسس يقيّمها ويتابعها وينظمها نظام عالمي جديد له أصوله وفروعه، وهو بعيد عن المركزية التي كانت تعتمدها الولايات المتحدة في قيادتها للنظام العالمي القديم، الذي كان يبدأ وينتهي بها.

وصايا عشر لما بعد كورونا

رسم كتاب فرنسي صدر في مايو 2020 تحت عنوان «وماذا بعد كوفيد- 19؟ الوصايا لعشر لعقد إنساني جديد»، صورة للمجتمع الفرنسي والعالم فيما بعد كارثة انتشار فيروس كورونا، أشار فيها الى أن ظلال هذه الكارثة على المجتمع الدولي لن تقتصر على الوقت الراهن، بل سيمتد تأثيرها بقوة في المستقبل، ملمحا الى عهد جديد مختلف يسمي بـ«عهد ما بعد كورونا»، يجب على الجميع الاستعداد له، والتعاطي مع ما يفرضه من متغيرات جديدة.

الكتاب صدر عن دار «روبير لافون» ويقع في 170 صفحة من القطع المتوسط، ويؤكد مؤلفاه فريدريك لفيبفر، وزير سابق للتجارة، وبيرنارد شوسجرو، وهو خبير في قانون الشركات والعمل، على أن الأزمة الصحية غير المسبوقة التي نشهدها حاليا، كشفت إخفاقات المجتمع الفرنسي، إلا أنها في المقابل زادت من الوعي المجتمعي، وكشفت عن فرص مدهشة يوضحها الكتاب عبر صفحاته في إطار الاستعداد لعهد ما بعد «كورونا»، ومن أبرز هذه الفرص: العمل على إنهاء التبعية الاقتصادية والتكنولوجية للمجتمع الفرنسي، والمضي قدماً نحو الحوكمة، وإضفاء الطابع الإنساني على المجتمع لأنه أقل تدميراً لموارده، وتفعيل نطاق الشراكات بين القطاعين العام والخاص، والبعد تدريجياً عن العمل الإلكتروني الذي جاء على حساب دور العنصر البشرى الذي يتعين دمجه في قلب الاقتصاد الفرنسي في إطار إعادة صياغة الأولويات الرئيسية للدولة.

ومن واقع خبرتهما السياسية والقانونية والعملية، يدعو مؤلفا الكتاب إلى حسن الاستفادة من الأزمة الراهنة، وضرورة التأكيد على أهمية تنوع مصادر دخل الدولة واعتماد اقتصادها على مصادر مختلفة بنسب ومعدلات متباينة، حتى يكون الاقتصاد قـادراً على امتصاص الأزمات وتحمل تبعاتها المختلفة، وتعظيم الاستفادة من التطور التكنولوجي في المجال الاقتصادي بما يعزز من شأنه دور الفرد في قلب الاقتصاد وليس تهميشه، وأيضاً على المواطن ضرورة تنويع مصادر دخله، والاعتماد بشكل أكثر فاعلية على التعامل عبر «الإنترنت»، والعمل الإلكتروني من المنزل، بما ينعكس إيجاباً على وضعه الاقتصادي، الأمر الذي ينعكس إيجاباً أيضاً على الاقتصاد الكلى للدولة.

ويخلص مؤلفا الكتاب إلى التأكيد على أن مجتمع ما بعد «كورونا» سيتسم بدور أوسع للعنصر البشري، مع حسن الاستفادة من التطور التكنولوجي، هذا مع ضرورة إنهاء التبعية والهيمنة الصناعية والزراعية والتكنولوجية، ليس فقط على مستوى الدول، ولكن أيضاً داخل القطر الواحد، أي بين المدن والولايات الرئيسية.

«سيناريو الكابوس» من داخل إدارة ترامب

كتاب بعنوان «سيناريو الكابوس: من داخل استجابة إدارة ترامب للجائحة التي غيرت التاريخ»، وهو من تأليف الصحافيَيْن في «واشنطن بوست»، ياسمين أبو طالب، ودميان باليتا، مقابلات مع أكثر من 180 شخصا، بينهم عدد من كبار موظفي البيت الأبيض وقادة الصحة الحكوميين.

يسأل ترامب، خلال اجتماع في فبراير 2020 في غرفة العمليات، حيث كان مسؤولو الإدارة يناقشون ما إذا كان ينبغي إحضار الأميركيين المصابين في الخارج، إلى البلاد لتلقي الرعاية، «أليست لدينا جزيرة نمتلكها؟» و«ماذا عن غوانتنامو؟»

وبحسب الكتاب، فقد قال ترامب لموظفيه: «نحن نستورد البضائع»، مضيفا: «لن نستورد أي فيروس».

أضاف الكتاب أن المساعدين أصيبوا بالدهشة من اقتراح ترامب بفرض الحجر الصحي على السياح الأميركيين العائدين، في نفس القاعدة التي تحتجز فيها الولايات المتحدة أشخاصا بتهمة الإرهاب، وسرعان ما تخلص المسؤولون من الفكرة عندما ذكرها ترامب مرة ثانية.

يكشف الكتاب أيضا رد فعل ترامب على أزمة اختبارات الفيروس، التي أعاقت الاستجابة الأولية للبلاد في مواجهة الجائحة. وفي مكالمة هاتفية يوم 18 مارس 2020، مع وزير الصحة والخدمات الإنسانية، آنذاك، أليكس عازار، قال ترامب إن «الاختبار يقتلني»، وكان الرئيس الأميركي السابق يصرخ بصوت عال لدرجة أن مساعديه سمعوا كل كلمة في المحادثة.

وفي المكالمة نفسها، صرخ ترامب أنه سيخسر «الانتخابات بسبب الاختبار!»، وتساءل عن «الأحمق الذي جعل الحكومة الفدرالية تقوم بالاختبار؟».

وبحسب الكتاب، فقد أجاب عازار متسائلا: «تقصد جاريد؟»، في إشارة إلى كبير مستشاري الرئيس وصهره، جاريد كوشنر، الذي كان قد أعلن قبل خمسة أيام من تلك المكالمة، أنه سيقود استراتيجية الاختبار في البلاد من خلال الاستعانة بمساعدة القطاع الخاص.

وقال ترامب إنه لا ينبغي أن يكون للحكومة الأميركية دور في الاختبار، وناقش مع عازار سبب رغبة المراكز الأميركية لمكافحة الأمراض والوقاية منها «سي دي سي»، في تتبع الحالات، وقال له إن «السماح لـ(سي دي سي) بتطوير اختبار هو عدم كفاءة فادح».

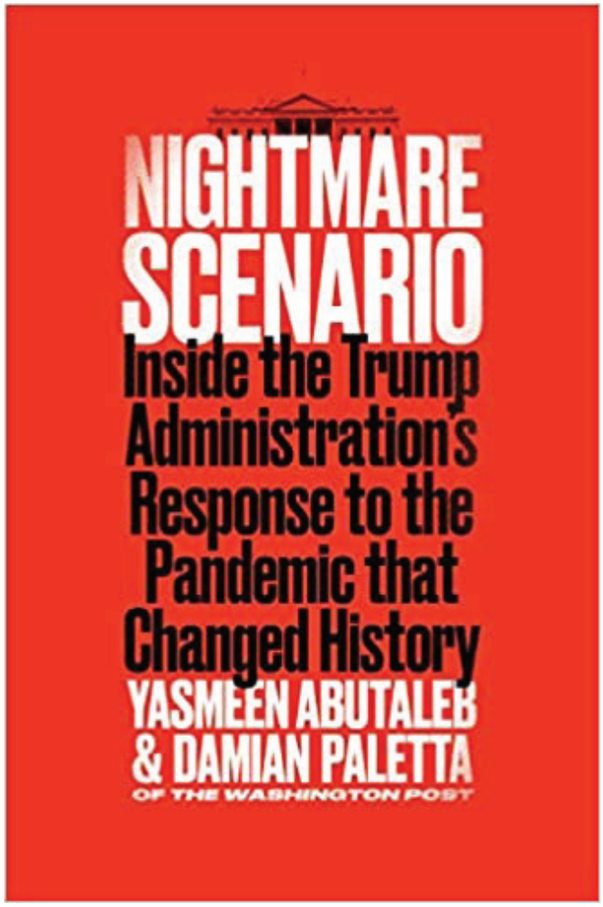

رؤية المثقف العربي لما بعد كورونا

الروائي الكويتي طالب الرفاعي أصدر كتابا بعنوان (لون الغد.. رؤية المثقف العربي لـ«ما بعد كورونا»)، ويتألف من 88 شهادة لكتاب ومثقفين واقتصاديين من الكويت ومن 19 دولة عربية أخرى.

وقال الرفاعي بشأن حافزه لإصدار الكتاب «كانت هناك رغبة بالانتماء لجماعة المفكرين والكتّاب والمثقفين وبشكل موسع، وذلك بغية معرفة رؤاهم وبالتالي استخلاص نتائج تستند إلى أطياف شاسعة من الفكر العربي، ومن جميع أقطار الوطن العربي».

فإذا كان عالم ما قبل «كورونا» قد شهد نوعا من

العولمة الاحتكارية الظالمة، وحالة من الشعبوية تهدد الأنظمة حتى الديموقراطية منها، فإن شهادة الروائي السوداني منصور الصويم المتضمنة في الكتاب تأمل أن تتخلص هذه العولمة من سوءاتها يقول «ستسقط الشعبوية وأوهام الاستعلاء والعنصرية، وستنهد سياجات العزل الإسمنتية، بعدما، للمفارقة، تكسرت أوتادها أمام ضربات «العزلة القاتلة» في زمن كورونا».

الرفاعي يؤكد أن العالم لن يعود إلى سابق عهده، وتوقع جيلا جديدا مغايرا «ملامح جيل ما بعد كورونا بدأت تتضح منذ اللحظة، فهو يجلس في بيته، ويطلب كل ما يحتاجه بتطبيقات الكمبيوتر والتلفون الذكي. ويستيقظ في الصباح، ليذهب إلى مدرسته وهو جالس على سرير نومه. كما أنه يبتعد عن السلام والمصافحة بالأيدي حتى مع أقرب الأهل والاقرباء. وهو جيل كما ملايين البشر حول العالم ينتمي لقضايا ومستجدات بيئته بالقدر الذي ينتمي فيه لقضايا ومستجدات العالم، فهو مواطن (محلي/ عالمي) أو ما أطلقت عليه في الكتاب المواطن المحعالمي. هم جيل يتبضعون بالكمبيوتر، ويأكلون وفق مدارس الطبخ بالكمبيوتر، ويدرسون بالكمبيوتر، ويتريضون وفق برامج الكمبيوتر، ويتعارفون بالكمبيوتر، ويستمتعون عبر شاشة الكمبيوتر وبما يفقدهم مهارة الخوض في تربة الواقع وبستان الحياة اليومية الأجمل والأدفأ. إذا كان الراديو قد أسكت صوت الجدة والجد، والتلفزيون هدم بناء الأسرة، فإن الكمبيوتر والتلفون الرقمي قد سجن كل إنسان في عالمه الخاص، وجاءت كورونا لتوصد ذلك الصندوق البشري بختمها المخيف. ومؤكد أنهم المحظوظون من أبناء أجيال كورونا، القادرون على كسر شرنقتهم الذاتية وعيش أجوائهم الأسرية والمجتمعية الأحب والأقرب».

ومن بين الشهادات الـواردة في الكتاب، يكتب الروائي الجزائري واسيني الأعرج عن عالم ما بعد الوباء والمشكلات التي كشف عنها «لا حل سوى التوجه نحو أنظمة جديدة يكون فيها الإنسان، كل الإنسان، وسعادته وراحته هو الرهان الأسمى»، بينما يكتب القاص والإذاعي العماني سليمان المعمري «الحياة مملة بلا مقاه خارج البيت، وبلا سفر إلى أرض الله الواسعة. حتى روايتي الجديدة لم أعد متحمسا لإكمالها».

ورغم الاعتراف بأن الكوارث قد تتيح أحيانا فرصة للتأمل وإعادة النظر في النظم التي أفضت إليها وقواعد السلوك الإنساني والدولي إلا أن البعض يرى أن الفرصة التي أتاحها «كورونا» سوف «تذهب أدراج الرياح»، كما يقول الروائي السوري خالد خليفة محذرا من أننا قد نبدأ فصلا جديدا من التراشق بالاتهامات «التي تحمل في طياتها معارك نشر النفوذ وتصاعد اليمين الفاشي في العالم بأسره بدل صعود أفكار جديدة أكثر إنسانية». ويتابع خليفة ملقيا بغلالة من الشك حول أوضاع العالم المستقبلية «لا ثقة لي بأن العالم لن يضيع الفرصة».

غير أن المؤلف يذهب للقول في حديث له مع «القبس» الى احتمال بروز شخصية إنسانية جديدة ما بعد الجائحة وسط ضجة ورتم المجتمعات السريع والقلق بعد أن بات بحاجة ماسة للرجوع إلى حضن الطبيعة في البحر والجبل والسهل والحديقة وشاطئ البحر. وهو بالتأكيد بحاجة لتجاوز الثقافة السائلة، وفق تعبير الفيلسوف «زيجمونت باومان» وبناء أنماط من السلوك الإنساني البسيط والحميم والصادق.

على الغلاف الخلفي للإصدار كتب الروائي أمين معلوف ملخصا عن فحوى الكتاب والتساؤل الذي يثيره: «من يقرأ التوقعات والتأملات التي جمعها ونسقها الأستاذ طالب الرفاعي في «لون الغد» تتضح أمامه صورة

عالمنا كما ظهر فجأة تحت مجهر الجائحة. عالم لم يعد يثق بالوعود ولا بالعقائد ولا بالقادة. عالم قويّه هزيل، وعظيمه ضئيل، وثوابته زائفة. عالم عليل تائه، يبحث عن بداية جديدة تغير المسار، وتصلح ما أفسده الماضي، وتعيد كافة العدادات اللعينة إلى الصفر. أليس أملنا جميعا أن تكون وقفة كورونا مقدمة لانطلاق عالمنا، أخيرا، نحو غد مختلف؟».

تأثيرات ثقافية في زمن الجائحة

كثيرا ما يُقال إن معادن الناس تظهر عند الشدائد، وقد كشف وباء كورونا، أن هذا ينطبق على الدول بقدر ما ينطبق على الأشخاص.

وتزامنا مع فرض إجراءات تقييد حركة المواطنين وإلزامهم بالبقاء في منازلهم للحد من انتشار الفيروس، انتشرت ظواهر لافتة، أبرزها الطرق المبتكرة والملهمة والعجيبة التي تعاملت بها المدن والبلدان المختلفة مع الوباء، وأدت إلى ظهور "ثقافة الحجر الصحي" التي تميز طرق تعامل الشعوب المختلفة مع وباء كورونا.

فقد انتشرت مقاطع فيديو لسكان في إيطاليا يصدحون بالغناء الأوبرالي من شرفاتهم أثناء العزل الذاتي. ولم تتوقف مطاعم البطاطس في بلجيكا عن تقديم البطاطس المقلية الفرنسية للزبائن، في حين أن البعض في الدول الاسكندنافية لم يثنهم الوباء عن الذهاب لأعمالهم بالدراجات.

وكشف هذا الوباء عن سمات ثقافية يمتاز بها كل بلد عن غيره، وأعاد إلى الواجهة أهمية الثراء والتنوع الثقافي في العالم.

وبرزت في الأزمة بعض الأساليب والطرق التي ابتكرها سكان البلدان التي يعيشون فيها للتعامل مع العزل المنزلي فيما بات يعرف باسم ثقافة الحجر الصحي.

• فرنسا

لم تنجح كورونا في فك إرتباط بعض الشعوب بعادات محددة ففي فرنسا نجد إن المخابز هي إحدى السمات الأساسية، ولا يمكن لهذا الشعب الاستغناء عن الخبز الفرنسي. وقد سارت الحكومة على خطى نظيرتها الإيطالية، وفرضت إجراءات صارمة لتقييد حركة المواطنين، ومنعت الخروج إلا للضرورة القصوى. وأغلقت جميع المتاجر التي لا تندرج ضمن قائمة الاستثناءات التي وصفها قرار وزارة الصحة الفرنسية بأنها "ضرورية لتسيير الحياة"، مثل المخابز ومتاجر الجزارة والجبن، والمتاجر الصغيرة لبيع المستلزمات الأساسية المعيشية.

ولا تزال كل صباح تدور عجلات عمل نحو 33 ألف مخبز يمارس أعماله كالمعتاد. ويحضر السكان الخبز الطازج يوميا من المخبز مع الحفاظ على مسافة الأمان بينهم وبين غيرهم.

ويصف دومينيك أنراكت، رئيس الاتحاد الوطني للمخابز الفرنسية، خبز الباغيت الفرنسي بأنه بمثابة الشعار الوطني للثقافة الفرنسية. ويقول إن المخابز تلعب دورا مهما في حياة الفرنسيين، من الصغار إلى كبار السن. ويعتمد عليها الفرنسيون للحصول على الطعام، ولا سيما في المناطق التي لا توجد فيها متاجر السلع الغذائية.

• الهند

كتبت تشاروكيسيراماديوراي تقول إنه منذ أن أعلن رئيس الوزراء الهندي نارندرا مودي فرض الحجر الصحي العام الذي يلزم 1.3 مليار نسمة بالبقاء في منازلهم لمدة 21 يوما، لإبطاء تفشي فيروس كورونا، ما زال المواطنون لم يفطنوا بعد إلى عواقب الحجر

المواطنون الهنود لم يفطنوا إلى عواقب الحجر الصحي قبل تفاقم الوباء

الصحي ولا الطرق البديلة لتلبية احتياجاتهم اليومية من التسوق إلى العلاج الطبي في ظل العزلة المنزلية وإغلاق المتاجر.

ولم يكد مودي يعلن التدابير الجديدة، حتى نشر لاعب الكريكيت الشهير فيرات كوهلي وزوجته الفنانة أنوشكا شارما تغريدات على تويتر لتشجيع الناس على اتباع التعليمات و"أن نتحد" معا لمواجهة الوباء. لكن المفارقة أن العقبة الكؤود في الأسابيع القادمة التي ستقف أمام جهود مكافحة المرض هي تعليم الهنود أن يتفرقوا.

ففي هذا البلد الذي يعد ثاني أكبر الدول من حيث عدد السكان، فإن فكرة احترام مسافة الأمان بين الأشخاص معدومة تماما. وربما يدرك من زار الهند من قبل أن الصف هو عبارة عن حلقة من العشرات المحتشدين الذين يصيحون في آن واحد لإيصال صوتهم للبائع.

ولهذا شرعت متاجر السلع الغذائية في تعليم المواطنين الحفاظ على مسافة الأمان من خلال رسم دوائر مرقمة بالطباشير خارج المتاجر.

وعلى مدى الأيام الماضية، يستمع المتصل في الهند إلى رسالة مسجلة عن أهمية تغطية الفم عند السعال وغسل اليدين. ونشر قسم شرطة كيرلا في الهند مقطع فيديو راقص عن أهمية الاعتناء بنظافة اليدين على أنغام الموسيقى الهندية.

- **أستراليا**

إن الأستراليين يعشقون التخييم في إجازة عيد الفصح لأنها تجمع بين الاستمتاع بالطبيعة والاسترخاء وسط التماسيح وأسماك القرش والثعابين والعناكب الفتاكة.

الأستراليون يعشقون التخييم في إجازة عيد الفصح

وكان الأستراليون ينتظرون بفارغ الصبر قدوم عيد الفصح لإقامة حفلات الشواء مع الأهل والأصدقاء في عطلة نهاية الأسبوع قبل حلول الشتاء. لكن التدابير الجديدة التي فرضتها الحكومة لتقييد حركة المواطنين أحبطت خطط الأستراليين للاستمتاع بالإجازة في الهواء الطلق.

وشجع اتحاد شركات التخييم أكثر من 300 ألف أسترالي كانوا يخططون للتخييم في عطلة نهاية الأسبوع، على نصب خيامهم في الحدائق الخلفية أو غرف الجلوس.

وبإمكان المخيمين الاستمتاع بمناظر من الحياة البرية الأسترالية عبر خدمة البث الحي عبر الإنترنت من محمية لون باين للكوالا، وحديقة حيوان ملبون ومتنزهات الحياة البرية في كوينزلاند. وقام اتحاد الكريكيت في أستراليا بمحاكاة المباريات عبر تطبيقات الكمبيوتر وقدم نصائح للصغار حتى يحافظوا على ليقاتهم البدنية.

ورغم أن وباء كورونا المستجد أجبر الكثيرين على البقاء في منازلهم، إلا أن بعض مغني الأوبرا الأستراليين أمتعوا الجيران بأغان ارتجالية من الشرفات لرفع الروح المعنوية للأستراليين.

- **كوريا**

كتبت هاهنا يون تقول إنه قد يبدو غريبا أن تكون مدينة سيول بأسواقها التي تغص بالزوار آناء الليل وأطراف النهار وموظفيها الذين لا يتوقفون عن العمل على مدار الساعة، هي عاصمة بلد يعرف الآن بأنه «أرض هدوء الصباح».

المقاهي في كوريا الجنوبية

لكن إجراءات التباعد الاجتماعي الصارمة التي طبقت في كوريا الجنوبية منذ أسابيع، أطلقت العنان لمواهب وإبداعات الكوريين الذين تنافسوا في نشر مقاطع فيديو ملهمة عن طرق تحضير قهوة "دالغونا" الكورية.

وتمثل المقاهي أهمية كبيرة في الحياة الاجتماعية الكورية. وبحسب رويترز، تضم كوريا الجنوبية أكبر عدد من المقاهي في العالم قياسا بعدد السكان. لكن بعد أن أغلقت المقاهي أبوابها، تفنن الكوريون في تحضير القهوة المحلية في منازلهم ونشروا فيديوهات تعليمية لطرق تحضيرها بخلط القهوة الفورية مع السكر والحليب والثلج لتصبح كثيفة القوام.

ولاقت هذه المقاطع صدى عالميا، وحاول الكثيرون حول العالم تحضير القهوة الكورية بأنفسهم في العزل المنزلي، وحصدت بعض المقاطع 3.5 مليون مشاهدة، وحققت مقاطع تحضير قهوة دالغونا 64 مليون مشاهدة على موقع "تيك توك".

وانتشرت ظاهرة أخرى في كوريا الجنوبية تزامنا مع بداية الحجر الصحي، تتمثل في ترك رسالة شكر مصحوبة أحيانا بهدايا صغيرة لعمال توصيل الطرود للمنازل. إذ تعد رسائل الشكر المكتوبة بخط اليد في كوريا الجنوبية أكثر تعبيرا عن الامتنان من نظيرتها الشفوية أو المرسلة عبر البريد الإلكتروني.

وكانت أكثر العبارات شيوعا في رسائل الشكر والدعوات التي تركها الكوريون لعمال التوصيل تقول: "نأمل ألا يحصد وباء كورونا المزيد من الضحايا".

الاحتفال بالهالووين في ظل الوباء!

ألقى فيروس كورونا بظلال قاتمة على مختلف مناحي الحياة في جميع أنحاء العالم، ومن بينها الجوانب الثقافية لاسيما في شقها الاجتماعي.

وفي الولايات المتحدة، كان لافتا تأثير جائحة كورونا على واحد من أهم الأحداث التي يقيم لها الامريكيون وزنا كبيرا، لجهة اللهو والتسلية والنشاط الاجتماعي المتواتر، ألا وهي الاحتفال بعيد الهالووين. وأفرد الكاتب بيتر روبنشتاين مقالا للحدث في موقع بي بي سي (23 أكتوبر)، متسائلا عن الكيفية التي سيجري بها الاحتفال بالهالووين في ظل الوباء؟

وكتب روبنشتاين: على مدى السنوات الخمس الماضية، انهمك المتحمسون للاحتفال بالهالووين، في الاتصال بفنادق مدينة سيلم في ولاية ماساتشوستس الأمريكية، لكي يتسنى لهم، أن يُحيوا فيها هذه المناسبة، في 2020 تحديدا. ففي هذا العام، سيتزامن الهالووين مع حدث نادر، يتمثل في ظاهرة "البدر الأزرق"، وهي اكتمال القمر مرتين خلال الشهر الميلادي نفسه. وسيؤدي ذلك إلى أن تسبح تلك المدينة الساحلية الواقعة في شمال شرقي الولايات المتحدة، في أجواء خاصة ذات طابع مثير ومخيف، مع حلول الهالووين أواخر أكتوبر.

على أي حال، طالما وُصِمَت سيلم، التي تكتسي بطابع غامض بوجه عام، بأنها شهدت في عام 1692 محاكمات شهيرة للساحرات، أما الآن فهي أحد معاقل الاحتفال بالهالووين في الولايات المتحدة بأسرها. ففي كل خريف، تتحول سيلم بغاباتها وشوارعها التي تصطف على جانبيها البيوت المُشيدة بالطوب الأحمر، إلى ساحة تتواصل فيها لمدة شهر كامل، احتفالات صاخبة ومتنوعة بالهالووين، تشمل تسيير مواكب في الطرقات، وإطلاق رحلات بحرية، وزيارة منازل يُقال إنها مسكونة، بجانب إقامة محال لا حصر لها ولا عدد، تتخصص في بيع المستلزمات المرتبطة بهذه المناسبة.

لكن على الرغم من الآمال التي عُلِقَت على النصف مليون زائر، الذين كانوا قد خططوا مسبقا للاحتفال بالهالووين هذا العام في سيلم، فإن ما سيحدث على الأرض هناك بالفعل خلال الأيام المقبلة، سيختلف كثيرا عما كان متوقعا. فقد أدى استمرار الخطر المتمثل في تفشي فيروس كورونا، إلى إجبار السلطات المحلية على إلغاء كل الفعاليات الاحتفالية الكبيرة. كما اعتبرت الجولة الشهيرة، التي يشهدها مساء يوم الهالووين والمعروفة باسم "خدعة أم حلوى" ويتنقل في إطارها الأطفال وذويهم بين المنازل، غير آمنة سواء للصغار أو لآبائهم. فضلا عن ذلك، تم الاستعاضة عن عروض فناني الشوارع ذوي الملامح المخيفة والحفلات التنكرية التي عادة ما تعم مختلف أرجاء المدينة، بفعاليات أخرى أقل اكتظاظا بالبشر، وأكثر هدوءاً وانسجاما، مع القواعد المتبعة للتعامل مع خطر الوباء.

وتفيد التقديرات بأن حركة السياحة التي تشهدها سيلم في هذا الموسم وحده، تُسهم عادة بنحو 30 في المئة من إجمالي عائداتها السنوية في هذا المضمار، والبالغ إجماليها قرابة 140 مليون دولار. كما تشكل الأموال التي تُدرّها السياحة ما بين 20 في المئة إلى 50 في المئة من إيرادات الشركات العاملة في المدينة كذلك.

لكن التوقعات التي تفيد بإمكانية تراجع حركة

الاحتفال بالهالووين في ظل الوباء!

السياحة على المستوى الوطني في الولايات المتحدة بنسبة 50 في المئة خلال الاحتفال بالهالووين هذا العام، ترجح أن يُمنى القطاع السياحي في سيلم بانتكاسة تستمر تأثيراتها لسنوات عديدة مقبلة، كما تقول كيت فوكس، المديرة التنفيذية لمؤسسة "ديستينايشن سيلم" للتسويق.

وفي العقود الأخيرة، بات الإنفاق في فترة الهالووين، يشكل على نحو متزايد، دفعة كبيرة للاقتصاد. فقد ارتفع حجمه من نحو خمسة مليارات دولار في عام 2006 إلى قرابة تسعة مليارات في العام الماضي. ويمثل ذلك جزءا لا يُستهان به، من الإيرادات السنوية للكثير من الشركات الصغيرة وكبار تجار التجزئة.

ومع أن السهولة التي ينتقل بها فيروس كورونا بين البشر، جعلت الكثير من الأمريكيين يتخوفون من الانخراط في الأنشطة التي عادة ما يقومون بها في أوقات العطلات التقليدية بما في ذلك التسوق، فإن ذلك لم يحل دون أن يستعدوا في الوقت نفسه للاحتفال بالهالووين، وما يتطلبه ذلك من نفقات. وفي هذا السياق، أظهرت دراسة أُجريت في الولايات المتحدة، أنه بينما انخفضت نسبة الأمريكيين الذين يخططون للاحتفال بهذه المناسبة من 68 في المئة في 2019 إلى 58 في المئة خلال العام الحالي، فإن من سيشاركون في فعاليات 2020، سينفقون مبالغ قياسية من الأموال، تصل في المتوسط إلى 92

دولارا لكل شخص، أي بزيادة تصل إلى ستة دولارات للفرد، عما كان عليه الحال قبل عام.

وتقول كاثرين كولِن، المسؤولة البارزة في قسم الرؤى الخاصة بالصناعة والمستهلكين في الاتحاد الوطني لتجارة التجزئة في الولايات المتحدة، إن تفشي الوباء جعل الفعاليات الاحتفالية – على الأرجح – أكثر أهمية أو ذات مغزى أكبر بالنسبة للمستهلكين. وتشير إلى أن حجم الإنفاق الكبير المتوقع خلال الاحتفال بالهالووين هذا العام، يمثل استمرارا لاتجاه إيجابي بدأ خلال العطلات التي شهدها العالم في وقت سابق من 2020. فقد كان الإنفاق خلال عيد الفصح الذي حل قبل شهور، مساويا تقريبا لنظيره الذي سُجِلَ العام الماضي، بينما زاد إنفاق المستهلكين في عيد الأم عن مستواه في 2019، بواقع ثمانية دولارات للفرد. وتوضح كولِن بالقول: "الناس يحاولون أن يُشْعِرون أنفسهم وعائلاتهم من جديد، بأنهم يعيشون حياة طبيعية. ويشكل الاحتفال بالمناسبات المختلفة، وسيلة لذلك».

ورغم توقعات بأن ينخفض حجم الإنفاق الخاص بمشتريات موسم الهالووين بشكل طفيف، ليصل إلى 8 مليارات دولار خلال العام الحالي، فإن الأمريكيين يخططون لشراء الحلوى ومستلزمات الزينة، بمعدلات تماثل نسبيا تلك، التي سُجِلت في 2019. ولعل ذلك ما يجعل الشركات التي يرتبط نشاطها بهذه المناسبة، مؤهلة للبقاء في وضع جيد، إلى أن تعود الأمور إلى طبيعتها. وتقول كولِن: "ربما لن يصبح بمقدورك استضافة حفل ما، وقد لا تتمكن من أن توزع الحلوى دون التعرض لمخاطر العدوى، لكن سيظل بوسعك ارتداء ملابس تنكرية وتزيين الفناء الأمامي لمنزلك.

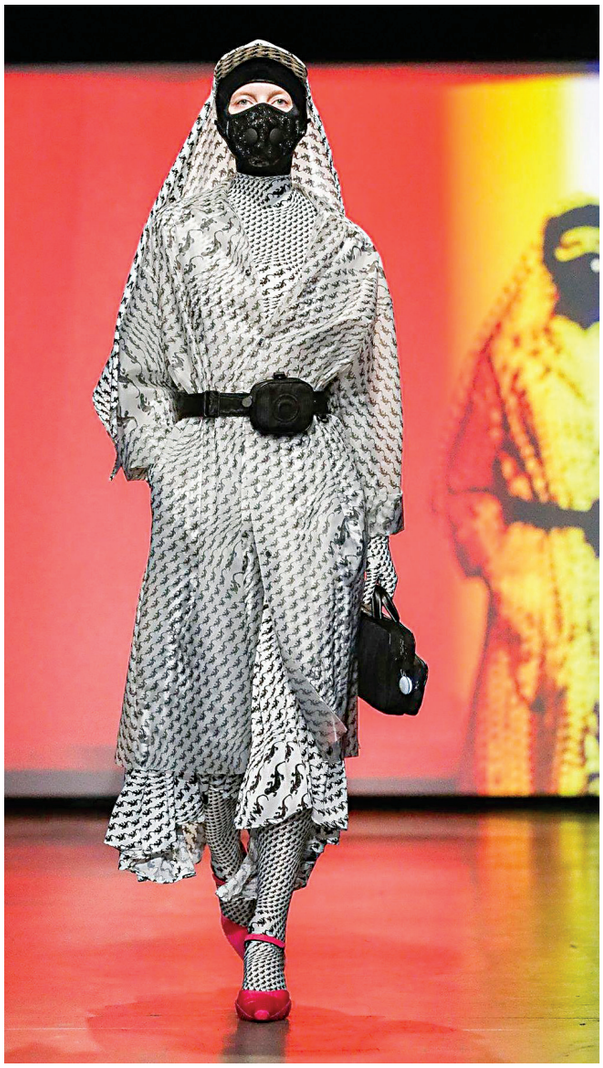

«الكمامة».. موضة في عالم الأزياء

«الكمامة».. موضة في عالم الأزياء

أصبحت كمامات الوجه من الضرورات خلال وباء فيروس كورونا، لكن عالم الأزياء يسعى لجعلها موضة رائجة.

ومع تزايد النصائح لاستخدام الكمامات في المستقبل المنظور، يتفنن الناس بإيجاد طرق لارتدائها بطرق تناسب ثيابهم.

وأصبح الجميع منتبهين إلى هذه الموضة بما في ذلك مصممو الأزياء، إذ تقول إحدى المصممات "أصبحت الكمامة صيحة ضرورية في عالم الموضة"، ونشرت إحداهن صورة لكمامة مطابقة لثيابها التي ارتدتها أثناء حفل زفاف حضرته على تطبيق زووم مع بداية الوباء، وأعجب أكثر من 100,000 شخص بتلك الصورة التي نشرتها.

«بصمات» الفيروس على الموضة الجديدة

تركز تصميمات الموضة الجديدة على ملائمة الملابس لمحادثات الفيديو، حيث لوحظ التركيز على الجزء الأعلى من الجسم في أسابيع الأزياء في ميلانو ولندن.

وقد وضعت إحدى الشركات قريبا من الياقة. وركزت تصميمات معاطفها الجديدة على الجزء العلوي.

وقالت دار الأزياء إنها لم تستوح تصميماتها الجديدة من محادثات "زوم" بل "من العلاقات الإنسانية المعاصرة مع التكنولوجيا".

كبيرة مصممي دار برادا للأزياء في ميلانو قالت: "الموضة تنشأ كرد فعل للواقع. خلال الإغلاق أدركت أهمية التكنولوجيا وكم هو تأثيرها كبير على حياتنا، وهي امتداد لنا بشكل من الأشكال".

وترى، مديرة قسم الموضة في صحيفة صنداي تايمز أن "الأجزاء العلوية القصيرة ووضع شعار الشركة على شكل مثلث تحت العنق سوف يلفت انتباه من يشاهدونك عبر زوم".

ويتوقع أن تنكمش مبيعات الموضة الباذخة سنة 2020 بنسبة 35 في المئة بسبب إغلاق الكثير من المتاجر والالتزام بالبقاء في البيوت، حسب ما ترى "مجموعة بوسطن الاستشارية".

وقد انخفضت مبيعات الملابس في المملكة المتحدة بنسبة 34 في المئة، حسب البيانات من مكتب الإحصاء الوطني، حيث تواجه دور الأزياء صعوبات في جذب المستهلكين.

خبيرة في قطاع المنسوجات إعتبرت إن الموضة تعكس التاريخ وحالة الاقتصاد في منتجاتها، ولهذا تظهر شعارات دور الأزياء في أعلى قطع الملابس، بخلاف العادة.

ولاحظ خبراء الموضة أن المجوهرات اكتسبت شعبية أكبر، بينما انخفضت مبيعات حقائب السيدات والأحذية.

وفي "أسبوع الموضة في ميلان" بدا أثر العمل عن بعد واضحا، مع الميل لتصميم أحذية بدون كعب.

وقالت لورين إندفيك، محررة شؤون الموضة في صحيفة فاينانشال تايمز: "لم أر هذا العدد من التصميمات بخصور مرنة من قبل. كل المصممين يركزون على منطقة ما فوق الخصر، وبما أن الناس لا يخرجون أصبحت الرفاهية والراحة في المنزل هي أساس التصميمات الجديدة".

ولم تعد هناك إمكانية لاستعراض الملابس الفاخرة في الظروف الجديدة، ولذلك يواجه قطاع الموضة أزمة، وفي ظل ازدياد الطلب على غطاء الشعر من الحرير بشكل كبير، حيث ترتديه النساء أثناء المكالمات عبر تطبيق زوم.

الصين تروي يومياتها خلال "الجائحة"

مجموعة بيت الحكمة للثقافة بالقاهرة أصدرت الترجمة العربية لواحد من أهم الكتب الصادرة باللغة الصينية حول جهود الصين لمكافحة مرض فيروس كورونا الجديد (كوفيد- 19)، وهو كتاب «يوميات معركة الصين مع كوفيد- 19».

ويروي كتاب "يوميات معركة الصين مع كوفيد- 19"، حكايات ويوميات الشعب الصيني مع مرض "كوفيد- 19" منذ ظهوره في 2019، وحرر الكتاب اعتمادا على التقارير والسجلات اليومية المتعلقة بتفاصيل معركة الصين مع المرض، وهي تقارير إعلامية صادرة عن الصحف والمحطات الإعلامية، بهدف تسجيل ونشر كل ما يخص تلك الفترة الاستثنائية من التاريخ الصيني.

وصدر الكتاب باللغتين الصينية والإنجليزية عن دار النشر باللغات الأجنبية ببكين، وترجمته إلى العربية إيمان سعيد.

ويقول الدكتور أحمد السعيد رئيس مؤسسة بيت الحكمة، إن كتاب "يوميات معركة الصين مع كوفيد- 19"، والذي ترجم إلى 21 لغة وصدر في العديد من البلدان، يعد مؤشرا ودليلا لكل فرق مكافحة المرض في العالم، بما فيهم العاملون بالقطاعات الطبية وغيرها من القطاعات التي لم تدخر جهدا في صد ومواجهة المرض وتذليل الصعوبات المترتبة على تفشي المرض في كل أنحاء العالم.

وأضاف السعيد، أن الكتاب يعتمد على شهادات قطاعين أساسيين في المواجهة، وهما القطاع الطبي المكون من الفرق الطبية بمختلف مسؤولياتها من الأطباء والممرضين والمسعفين وغيرها بمدينة ووهان التي شهدت بداية انتشار فيروس كورونا الجديد بمقاطعة هوبي، وكذلك المرضى وذويهم وتلك اللحظات الحرجة التي شهدتها مئات الأسر الصينية بالمدينة وغيرها من المدن الصينية.

ولفت إلى أنه بتجميع هذه الشهادات والأخبار والقرارات والسجلات نتمكن من تشكيل صورة واضحة مكتملة عن تجربة الصين الفريدة في كبح خطر المرض وصد هجماته التي كانت في البداية كريح عاتية تعصف بكل شيء.

وأكد أن الكتاب يعد دليلا علميا لطريقة المكافحة الشاملة للمرض وسجلا حيا لما مرت به الصين وخريطة توضيحية لما يمكن أن تقوم به حكومة وشعبا يدا بيد في مواجهة خطر يسلب الأرواح وينشر الظلام.

لبناني ينشر كتابا يوثق «معركة ووهان»

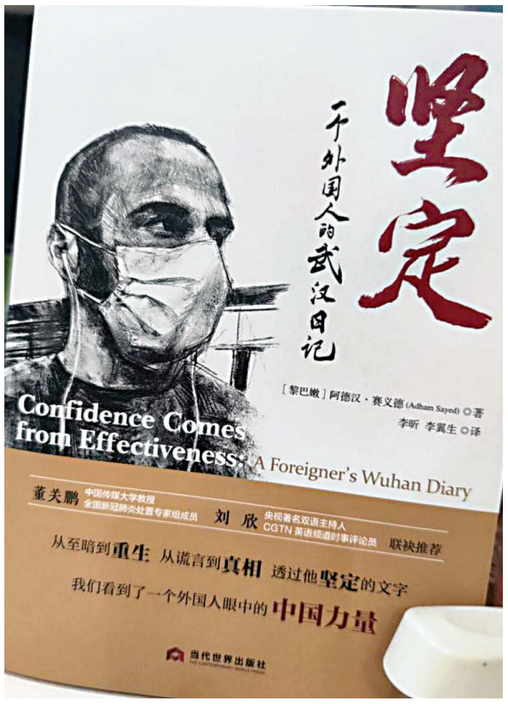

أدهم السيد، طالب لبناني يدرس في مدينة ووهان الصينية، نشر كتابا يوثق معركة المدينة البطولية ضد وباء كوفيد- 19.

ونُشر الكتاب الذي حمل عنوان "الثقة تأتي من الفعالية: يوميات أجنبي في ووهان»، باللغة العربية لأول مرة في يوليو 2020 وتم بيعها بسرعة، وتم لاحقا نشر نسختين صينية وإنكليزية من الكتاب.

قال الشاب اللبناني البالغ من العمر 32 عاما في مقابلة مع وكالة أنباء شينخوا: "إنها بطولة أن يلعب كل الناس في ووهان أدوارهم في الحرب ضد الفيروس، وأريد توثيق ما حدث بالفعل هنا من وجهة نظري".

وتابع قائلا: "أخبرني العديد من القراء أنهم انتهوا من قراءة الكتاب في ليلة واحدة ولم يتمكنوا من التوقف عن القراءة"، مضيفًا أن الكثيرين وجدوا أن الكتاب قد ألقى الضوء على كيف تمكنت الصين من السيطرة على انتشار الوباء وكيف يمكن للناس حماية أنفسهم من الإصابة بالعدوى.

قبل خمس سنوات، غادر السيد مسقط رأسه برجا في لبنان لمتابعة تعليمه العالي في ووهان. الآن، هو طالب دكتوراه في الاقتصاد الكمي في جامعة هواتشونغ للعلوم والتكنولوجيا.

وفي يناير 2020، استأجر السيد شقة مع أصدقائه لمدة يومين للاحتفال بالسنة التقليدية الصينية الجديدة كما فعل لسنوات في ووهان. وفجأة، أدى الإغلاق المفاجئ للمدينة إلى حبسه في الإقامة المؤقتة لأكثر من شهرين.

قال السيد، الذي أبهرته الأوضاع غير المسبوقة، "ربما كانت الليلة الأولى أطول ليلة في حياتي"، وعلى الرغم من توتّره لم يفكر في مغادرة المدينة.

وأضاف: "لقد ساعدني الناس هنا كثيرا عندما كنت في حاجة، لذلك أردت رد الجميل والوقوف مع ووهان خلال الأوقات العصيبة".

وعلى الرغم من إقامته في شقة غير مألوفة، لم يلاحظ السيد أي اختلاف في كيفية معاملته من العاملين في المجتمع المحلي من السكان الآخرين. وأضاف: "اتصل متطوعون ليسألوا عني وقدموا لي الطعام والضروريات التي كانت في الغالب مجانية".

وفي اليوم الخامس من إغلاق ووهان، كتب السيد مقالته الأولى عن الحياة في الحجر الصحي. وقال "قلت لنفسي إنها حرب لكل الناس ودوري هو أن أنقل للعالم ما حدث بالفعل هنا".

وأثناء الحجر الصحي، قضى السيد أكثر من 10

ساعات يوميا في تحديث وضع ووهان، والرد على أسئلة مستخدمي الإنترنت ومشاركة تجربته مع وسائل الإعلام في جميع أنحاء العالم.

وقال السيد، الذي بث هذه اللحظة التي لا تُنسى على وسائل التواصل الاجتماعي: "لن أنسى يوم 30 مارس أبدا عندما خرجت أخيرا من المجتمع السكني، لم استطع منع نفسي عن الابتسام والتصفيق بيدي وشعرت أنني لا أمشي بل أطير".

وأردف: "وصل الربيع إلى ووهان، حيث وضعت الحكومة الناس في المقام الأول واتحدت كل أشكال الحياة بإحكام لمكافحة الفيروس"، مضيفا: "آمل أن يأتي اليوم الذي تهزم فيه جميع الدول الوباء".

معجم «ألكسو» لمصطلحات «كوفِيد 19»

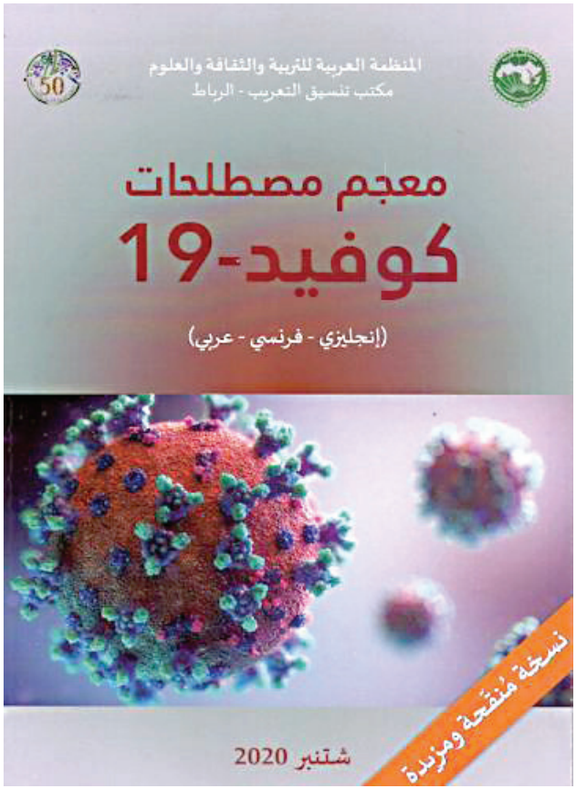

صدر عن مكتب تنسيق التعريب بالرباط، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «ألكسو»، «مُعْجم مُصْطلَحات (كوفيد- 19)» بثلاث لغات: الإنكليزية والفرنسية والعربية.

ويتوخى الإصدار ثلاث غايات، تشمل «الإسهام في توحيد المصطلح المتعلق بفيروس كورونا على المستوى العربي»، و«رصد أبرز المصطلحات المتعلقة بفيروس كورونا ومرض كوفيد 19 من المقالات العلمية، والمواقع المتخصصة، والمجلات الطبية، وتصنيفها وفق المنهجية المعتمدة في وضع المعاجم الموحدة»، و«وضع معجم مُتخصِّص بين يدي المهتمين بالمجال الصحي والوبائي يمكنهم من استعمال أداة مصطلحية مُوحَّدة». وأسهم في إعداد النسخة الأولية من المعجم، التي تشتمل على 188 مدخلاً باللغات الثلاث العربية والفرنسية والإنكليزية، ويتضمن فهرساً عربياً وفرنسياً مصاحباً. وتوج المعجم رصداً قام به قسم المعاجم بمكتب تنسيق التعريب لأبرز المصطلحات المتعلقة بفيروس كورونا من المقالات العلمية والمواقع المتخصصة والمجلات الطبية، وذلك «وفق المنهجية المعتمدة في وضع المعاجم الموحدة»، فجاء المصطلح العربي مع مقابلاته الإنكليزية والفرنسية مشفوعاً بشرح مقتضب للمعنى.

"الجوائح في الأزمنة المعاصرة".. رؤى دينية وفلسفية

تضمن كتاب "الجوائح في الأزمنة المعاصرة رؤى دينية وفلسفية"؛ الصادر حديثا (2020) عن مركز أفكار للدراسات والأبحاث، تسع أوراق بحثية متباينة، من حيث الحجم والمقاربة والمرجعية؛ حيث نجد الباحث في الفلسفة كما نجد خبير علم السياسة والدراسات

الدولية، وكذلك المشتغل في الدراسات الحضارية والثقافية إلى جانب المختص في الأديان المقارنة والفكر الإسلامي.

ونجح التقديم الـذي وضعه الباحثان المغربيان عبد العالي المتقي وعبد الله الهداري في تحويل ذاك التباين، من شرخ وعائق معرفي إلى عنصر جذب وقوة في الكتاب. فالاستهلال كان بمثابة فرش إشكالي، رسم خطوط التماس بين أوراق الكتاب، وضبط حدود التقاطع ومستويات التداخل عند معالجة جائحة القرن.

جاءت الأوراق بين ثلاثة مجالات كبرى؛ "الإنسان والمجال والعمران" من خلال ورقتي "الحجر والعزاء رؤية فلسفية لأصل معاناة الحجر" و"المدينة وصيرورات الحياة تأملات على هامش الجائحة". ثم "الدين والأخلاق والقيم" بثلاثة عناوين، هي: "الإنسان بين رعب الكورونا وعطالة القراءات المخلصة" و"الكون العابد شريك مكافئ للإنسان في الحياة" و"الصحبة وآفاق الإنسان فيما بعد الوباء". فيما أثارت بقية الأوراق الأسئلة الكبرى حول "مستقبل الإنسان والأنا والهوية" في زمن كورونا، فطرحت موضوعات "إدارة الألم زمن الجوائح" و"الكورونا والحركة نحو الإنسانية أو الكورونا لا تقتل على الهوية" و"فيروس كورونا من الأنا إلى النحن» و «أي تربية لما بعد الكورونا؟".

أجمع المشاركون في الكتاب على أن فيروس كوفيد 19 مثّل لحظة فارقة في مسار البشرية، فالعالم قبل هذا الوباء قطعا لن يكون ذاته بعده. ففي غضون أشهر، لا بل خلال أسابيع فقط، قلبت كورونا إيقاع الحياة اليومية، رأسا على عقب، في مختلف أصقاع العالم. فجأة، ارتدت الإنسانية على عقبيها، فاختفت ظواهر وتوقفت أنشطة وعُلقت عادات. مقابل ذلك ظهرت أخرى؛ قديمة أو جديدة، تُجارِي إيقاع الفيروس، في محاولة لاستغلال ما تركه من هوامش محدودة أمام الإنسان.

«يوميات ملائكة الخطوط الأمامية»

كذلك أصدرت مجموعة بيت الحكمة للثقافة، الطبعة العربية من كتاب "يوميات ملائكة الخطوط الأمامية"، الصادر باللغة الصينية عن دار نشر الشعب بقوانغدونغ، وترجمته إلى العربية أمنية شكري.

يجسد الكتاب تجربة ملهمة في التصدي لفيروس كورونا المستجد ليس للصين وحدها، ولكن لفرق مكافحة الوباء في العالم أجمع وعلى رأسهم الفرق الطبية، المسؤول الأول عن مواجهة الوباء والذين وصفهم الكتاب بملائكة الخطوط الأمامية، ويتناول الكتاب شهادات لأفراد الطواقم الطبية على الجبهة الأمامية لمواجهة الوباء، والذين سجلوا مشاعر المودة العميقة تجاه المرضى بمختلف حالاتهم الصحية بما فيها الحالات الحرجة التي تواجه خطر الموت، تلك الشهادات هي أكثر 260 تسجيلا صوتيا ورد إلى برنامج "يوميات الملائكة"، الذي يبث على إذاعة صوت الصين الدولية وكان أول بث له في 29 يناير 2020.

وجاء الكتاب في 298 صفحة و32 فصلًا يوثق كل منها تفاصيل 32 يومًا شهد فيه أفراد الفرق الطبية مشاعر إنسانية لا تنسى. «إلى الفرق الطبية التي تكافح لنحيا"، بهذه الجملة أهدت بيت الحكمة كتاب "يوميات ملائكة الخطوط الأمامية" الصادر عنها باللغة العربية إلى أفراد الطواقم الطبية لمواجهة الوباء، في حين أهدى محررو الكتاب باللغة الصينية "إلى أعز الناس في الخطوط الأمامية الذين ناضلوا ضد الوباء».

التنافس الأميركي ـ الصيني ونهاية النموذج الغربي

عندما سأل الكاتب الفرنسي المعروف أندريه مارلو، ومبعوث الرئيس الفرنسي الأسبق الجنرال شارل ديغول إلى الصين الشعبية، تمهيداً للاعتراف بها، الزعيم الصيني شو أن لاي، عن رأيه بالثورة الفرنسية التي حصلت عام 1789، ردّ الأخير بقوله: «من المبكر إعطاء رأي بهذا الخصوص».

بهذه الحادثة بالغة الدلالة يبدأ باسكال بونيفاس كتابه الأخير الذي خصصه لدراسة التبعات الجيوسياسية لوباء «كوفيد- 19». وأراد بونيفاس من خلال استشهاده بقول الزعيم الصيني التنبيه إلى أن خلاصاته ليست نهائية قطعية، بل إنها مبكرة أولية، لما لهذا الوباء الذي لم يقض عليه بعد، من ارتدادات عميقة للغاية ما زالت تتواتر وتتطور.

وبذلك يكون الكاتب قد حفظ خط الرجعة. لكنه، رغم حذره، خاض في ملف بالغ الأهمية ومن شأنه أن يقلب التوازنات العالمية، وهو ما يحصل مباشرة أمام أعيننا. ولذلك، وزع بونيفاس، وهو رئيس المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية والاستراتيجية ومحلل مرموق، كتابه على 10 فصول، إضافة إلى مقدمة وخلاصات. وخيطه الجامع، وفق قراءته، تراجع الغرب الذي سيطر على العالم منذ الثورة الصناعية وبروز قوى أخرى أبرزها الصين. وما بين هذه الأخيرة وبين الولايات

المتحدة، زعيمة العالم الغربي، تضيع أوروبا العاجزة عن فرض نفسها قوة يؤخذ بها على المسرح العالمي بحيث تصح عليها تسمية «مارد اقتصادي رجلاه من طين». كثيرة العبارات التي استخدمت، والتي يرصدها الكاتب للتدليل على التغيرات التي يتسبب بها الوباء: «لا شيء سيكون كما في السابق»، «سائرون إلى عالم جديد»، «نحن نعيش منعطفاً تاريخياً في العلاقات الدولية»... وغيرها من العبارات المستخدمة بكثافة في الشهور الأخيرة. ورأي بونيفاس الأولي أن فيروس «كورونا» لم يخلق التغيرات من عدم، بل إنه عمقها ووسع أبعادها على المستوى الجيوسياسي والجيوستراتيجي.

في فصل عنوانه «نهاية النموذج الغربي»، يصف الكاتب الولايات المتحدة بأنها في القطاع الصحي «تشبه أي بلد من بلدان العالم الثالث». ويرى أن صورة «القوة المهيمنة» عالمياً تتهاوى مع رؤية أعداد الضحايا وطريقة تعاطيها مع الوباء.

ويرجح الكاتب أن السبب في ذلك اعتبار الغرب الأوروبي والأميركي أن ما حصل في الصين وفي منطقة ووهان تحديداً «لا يمكن أن يحصل عندنا»، وذلك بسبب ما يسميه «الاستعماء الآيديولوجي»، أي النظرة الفوقية للغرب الرأسمالي الليبرالي إلى باقي العالم التي انطلقت في العام 1492 واستمرت 5 قرون، إذ بدا «من البديهي والطبيعي» وجود غرب مهيمن وعالم مهيمَن عليه. لكن الوضع تغير مع موجة «العولمة الثالثة» التي شهدت بروز قوى جديدة مثل جنوب أفريقيا والهند والبرازيل والصين أو ما يختصر بـ«بريكس» ترفض القوى الاستعمارية السابقة.خلاصة باسكال بونيفاس أن لحاق الصين بالولايات المتحدة لا مفر منه، وأن أزمة وباء «كوفيد 19» بيّنت أن واشنطن فقدت قيادة العالم لصالح بكين. وأن سياسة ترمب الذي اختار المواجهة مع بكين ستكون لها نتائج «كارثية»، خصوصاً أن اختياره «الانعزال» قد فتح الأبواب واسعة للصين.

كيف غيرت كورونا المجتمع الأميركي؟

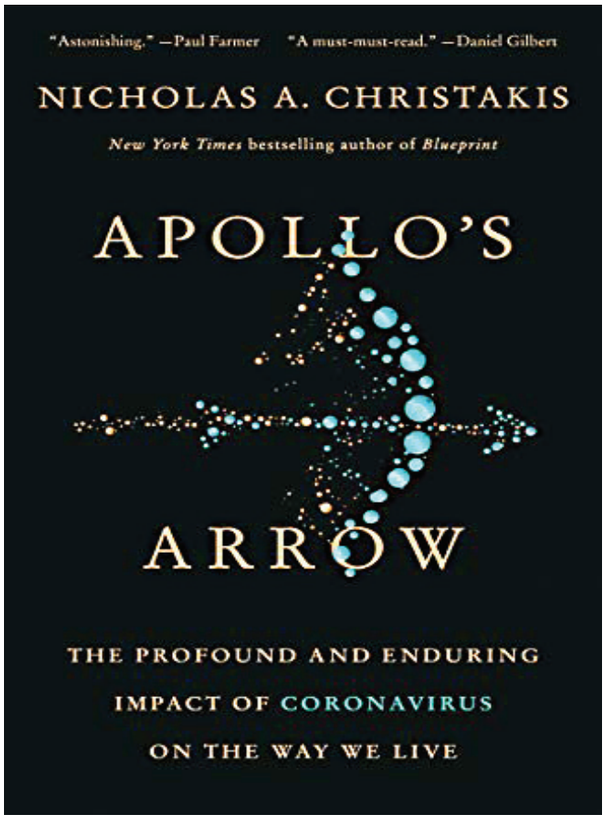

صدر كتاب أميركي جديد (عنوانه سهم أبولو) عن فيروس كورونا، مؤلفه طبيب، هو نيكولاس كريستاكيس أستاذا في العلوم الطبيعية والاجتماعية في جامعة ييل، وهو زميل في معهد الطب التابع للأكاديمية الأميركية الوطنية للعلوم. وفي عام 2009، اختارته مجلة «تايم» كواحد من أهم المؤثرين في العالم (في مجال الكتب والنشاطات الطبية العامة).

الكتاب من منشورات دار ليتيل براون، نيويورك، وعدد صفحاته 384 ورقة من الحجم المتوسط، وقد عرض أمثلة تدعو إلى الخوف والتقزز، وتركز على ضعف النفس البشرية.

واستفاد الكتاب من تجارب مؤلفه التي تمزج الطب، والتاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم الأوبئة، وعلم الوراثة.

وفي جدل فلسفي، أشار الكتاب إلى ماهية «القوة»: هل هي القوى الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية للدول التي تسيطر على أحداث العالم؟ أم هي قوة فيروس لا يرى بالعين؟ وسأل الكتاب: من كان يتوقع: مثلا، يضع الملوك والرؤساء كمامات على وجوههم؟ تعقد المؤتمرات والاجتماعات على مسافات آلاف الأميال؟ تنهار حكومات، ويسقط رؤساء، بسبب كورونا؟ وقال:«لا تخلق الأوبئة مواجهات مخيفة ومرعبة أمام المرض والموت فقط، لكنها، أيضا، تكشف صفات إنسانية نبيلة، يمكن أن تظهر وقت المواجهات المخيفة والمرعبة، مثل: التلطف، والتعاون، والتضحية، والإبداع».

وأضاف: «أيقظت كورونا الأميركيين الذين اعتقدوا أنهم يعيشون حياة أمن، ورخاء، وترف لا نهاية لها. ها هو فيروس لا يرى بالعين المجردة يجبرهم على أن يضعوا قطعة قماش على وجوههم. ويجبرهم على عدم الأكل والشرب في المطاعم والمقاهي. وقد ظنوا أن هذه أشياء مسلم بها».

وأضاف الكتاب: «حدث هذا بعد هجمات 11 سبتمبر عام 2001، عندما استيقظنا، فجأة، ووجدنا أننا لم نتوقع، أبدا، أن يصل الإرهاب إلينا».

لكن، انتهى الكتاب برأي إيجابي أنه، من المفارقات، رب ضارة نافعة.

وكتب:«المجتمع الذي يشعر بأنه محاصر بخطر الفيروس سوف يتعامل بشكل متزايد مع المعلومات العلمية. ولن يقتصر هذا على العلماء والأطباء فقط، بل على عامة الناس».

وأشار الكتاب إلى «الطاعون الإسباني»،أو «الأنفلونزا الإسبانية»التي اجتاحت أوروبا والولايات المتحدة مع نهاية الحرب العالمية الأولى. وقال إنها ساعدت على ظهور ابتكارات جديدة في علم الأحياء الدقيقة والصحة العامة. وأن فيروس كورونا يمكن أن يكون سببا لاستثمارات جديدة في الطب، وعلم الفيروسات، وعلم الأوبئة، وعلم الاجتماع، وعلم الوراثة.

واستشهد بجملة قالها فلاديمير لينين، المؤسس الشيوعي: «لا تظهر أشياء عبر عقود، ثم تظهر عقود عبر أسابيع».

«الذين يتحدثون مع أنفسهم» بسبب الحجر

دار النشر الأميركية (ويلكوم ـ نيويورك) دفعت إلى القارئ كتابا للمؤلف شارلز فيرنيهو، عنوانه "الذين يتحدثون مع أنفسهم.. تاريخ الحديث مع النفس)، من 351 صفحة متوسطة، جراء معانتهم من الحجر المنزلي بسبب جائحة كورونا وتداعياتها.

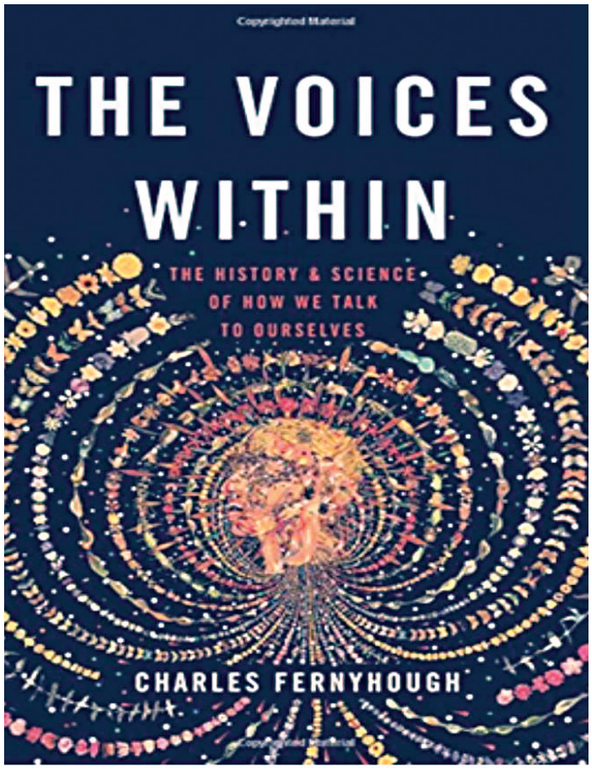

ويرى مؤلف الكتاب وهو أستاذ في علم النفس، ومؤلف كتب كثيرة، منها: «ألف يوم من الدهشة»، أن الحديث مع النفس له خلفية تاريخية وعلمية. عدد الكتاب محاسن ومساوئ الحديث مع النفس، لاسيما خلال مشاكل العزلة والحجر بسبب فيروس كورونا:

في جانب، يدل على إحساس الشخص بنفسه. وثقته فيها. ويساعد على التخطيط للمستقبل، وينفث عما كان يمكن أن يكون قلقا، وإحباطات.

في الجانب الآخر، يمكن أن يقود، فعلا، إلى قلق وإحباط. خاصة إذا اعتقد الشخص أن ما يفعل نوع من أنواع الجنون. لكن، لم ينف الكتاب احتمال جنون حقيقي، رغم أن هذا شيء نادر. مثل هلوسة، وانفصام شخصية، وتخيل أصوات غريبة.

في نفس الوقت، حذر الكتاب من محاربة الشخص لهذه الظاهرة، وقال إنها ظاهرة طبيعية، وهي جزء من التفكير، سواء الواعي أو غير الواعي (الباطني).

"كارثة أميركية".. نيويورك تهزم كورونا

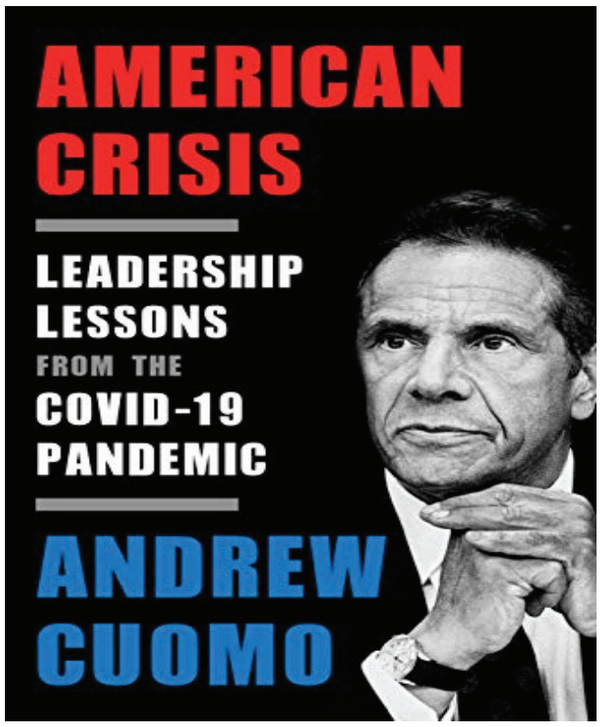

أصدر أندرو كومو، حاكم ولاية نيويورك، كتاب «أميركان كراسيز» (كارثة أميركية: دروس في القيادة في مواجهة وباء كوفيد- 19»، وهو إصدار حديث يقع في 320 صفحة متوسطة من منشورات دار (كراون).

ويوثق الكتاب الأحـداث التي صاحبت انتشار الفيروس في نيويورك منذ أول حالة، أول مريض في مستشفى، أول وفاة، وهكذا، بين تسجيل ما حدث، وتقديم نصائح، وبعض الفخر بالنفس.

كتب في مقدمة الكتاب:«عادة، لا أغلق تليفوني عندما أنام، لأن عمل حاكم ولاية مدته 24 ساعة كل يوم، لهذا، يدق التليفون عدة مرات طول الليل. عندما أحس بالتعب، أغلق التليفون قبل أن أنام. لكن، لا يعني هذا أن أي شخص لا يستطيع الاتصال بي، وذلك لأن رقمي يدق، أيضا، في مكتبي في مبنى الولاية، حيث يوجد أشخاص يتابعون التليفونات، وكل شيء غير ذلك، ليلا ونهارا».

وكتب: «أهم مهمة كانت قمع الخوف وسط مواطني الولاية».وقال إنه عمل هو وفريقه ليل نهار لحماية المواطنين في ولاية نيويورك، «ليس فقط من الوباء، ولكن، أيضا، من الخوف». ولم يخف غضبه على الرئيس ترامب. ووصفه بأنه «رئيس غير قادر على القيادة، ومدمن لسياسة المواجهات». ووصف الحاكم إصدار أمر تنفيذي بإغلاق أماكن العمل غير الهامة. كانت الحافلات وقطارات المترو مفتوحة، رغم زيادة الازدحام، وزيادة المشردين الذين يبحثون عن مأوى في مترو الأنفاق تحت الأرض. وكتب أنه، في أبريل، كان مئات الآلاف من سكان نيويورك عاطلين عن العمل. وانخفضت عوائد الضرائب بالمليارات. وتأثرت كثيرا وظائف الدخل المنخفض في قطاعات البيع بالتجزئة، والنقل، والمطاعم.

قصة نهاية نظام عالمي

"موسوعة كورونا.. قصة نهاية نظام عالمي»، للكاتب هشام عبد العزيز، ترصد ردود أفعال المواطنين

والحكومات والمؤسسات حول العالم تجاه جائحة هي الأسرع في الانتشار والأكثر تأثيرا على السياسات والسلوك البشري.

بين عناصرها يمكن للقارئ أن يطالع تفاعل البشرية مع وباء عالمي.. من «المريض صفر» في الصين إلى «سكب الألبان في الصرف الصحي» في كندا.. ومن «كنيسة شينتشونجي» في كوريا الجنوبية إلى «استقالة وزيري صحة» في البرازيل.. ومن «مبادرة أكياس الأرز» في الفلبين إلى «عمو علوش» في الجزائر.. ومن «حجر أنجيلا ميركل» في ألمانيا إلى «آلة غسل الأيدي» البدائية في كينيا.. ومن «ارتفاع أسعار المساكن والإيجارات في ضواحي باريس» إلى «علاج الرئيس» في مدغشقر.. ومن «قبو يوم القيامة» في النرويج إلى «تقسيم أيام الأسبوع بين الرجال والنساء في الخروج للشوارع» في بنما.. وغيرها ... في نحو 600 عنصر يمكن لقارئ الموسوعة أن يتلمس طبيعة انهيار نظام عالمي بدأ الدخول في نفق مظلم، فيما تبدو من بعيد ملامح نظام عالمي جديد.. تعتبر هذه الموسوعة باكورة الأعمال الرصينة التي تحاول رصد ما فعله فيروس كورونا منذ ظهوره في ديسمبر 2019، في مدينة ووهان الصينية، وحتى لحظة نشر الموسوعة في أغسطس 2020.

لقد حاول الكاتب أن يرصد ردود الفعل الإنسانية تجاه هذه الحالة الوبائية «النموذجية» كما يسميها، من مختلف جوانبها؛ العلمية والسياسية والثقافية والاجتماعية والدينية والرياضية، إلى جانب ردود الفعل الشعبية والخرافية من جهة ما أشيع عن بعض الوصفات العلاجية الشعبية من أطعمة ومشروبات وما شابه. وقسم المؤلف موسوعته الى سبعة أبواب، هي:

الباب الأول شؤون علمية وطبية، الباب الثاني ما يتعلق بالأغذية والمشروبات والوصفات الشعبية، الباب الثالث يهتم برصد ما يتصل بالأبعاد السياسية والاقتصادية معا، لشدة تلازمهما، الباب الرابع لرصد الأبعاد الاجتماعية والمبادرات التضامنية والتوعوية حول العالم والباب الخامس لرصد الأبعاد الثقافية والفنية، الباب السادس للأبعاد الدينية والمذهبية وأخيرا، الباب السابع محاولة تلمس الأبعاد الرياضية تجدر الإشارة إلى أن العناصر داخل كل باب من الأبواب السبعة ليست- على كثرتها- كل ما يمكن أن يدرج في هذا الباب، فوباء كورونا كان ظاهرة عالمية واستدعى ردود فعل متنوعة في أكثر من مائتي دولة لشعوب متباينة الثقافات والمعتقدات والأمزجة وهو ما يعني استحالة رصد كل ما رشح في الكرة الأرضية من ردود فعل، حسب قول المؤلف.

ديوان شعر في فترة «العزل الطويلة»

«أن أكتبَ.. خير لي من أن أجازف وأعيش".. عبارة للشاعر فِرناندوا بيسوا (1888–1935)، الذي يوصف بأنه من أعظم شعراء اللغة البرتغالية.عبارة اقتبسها الشاعر المصري محمد الكفراوي ليستهل بها ديوانه الشعري الرابع، الذي حمل عنوان "مكان مشبوه"، وكأنه أراد أن يبلغنا مسبقا بأجواء القصائد التي نوشك على الاصطدام بها بين دفتي الديوان، الصادر حديثا عن دار النشر الأردنية "خطوط".

يمكن وصف الديوان كاملا بأنه يعبر تعبيرا دقيقا عن الأثر النفسي الذي تركته فترة العزل الطويلة التي وجد العالم نفسه مدفوعا إليها، هربا من جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد– 19)، التي أصابت عشرات الملايين، وأودت بحياة نحو مليوني إنسان آخر.

فما أن تفتح الديوان حتى تقع عيناك على قصيدة الاستهلال بعنوان "مُولَعٌ بالأذَى"، ويشكو فيها الشاعر من أنه لا يستحق ما يعانيه من هذه الحياة، يقول:

لَمْ أَفقَأْ عَينَ أرمَلةٍ
لَمْ أَسْلُخْ جِلْدَ طِفلٍ
لَمْ أغرِسْ أَسنَانِي فِي لَحمِي
ولوْ بِضعَةِ سَنتِيمتراتٍ قَليلةٍ
على سبيلِ التّسليةِ أو التغييرِ
الشياطينُ التي تتراقصُ في المرآةِ
أمامَ عينَيّ مباشرةً
طيّبةٌ لدرجةٍ مخجلةٍ

وتزداد نبرة السخط إلى حد التفكير في أن يؤذي الشاعر جسده، من خلال لوحة مغرقة في التشاؤم، جعلته يبدو زاهدا في هذه الحياة، التي لا يرى لها أية قيمة.

فتحت عنوان "دعوة للتخريب"، يقول:

طَوالُ هذِه السَّنواتِ
أُحَاولُ أنْ أُخرِّبَ جسدِي
نُدبةٌ هُنا.. غُرزةٌ هُناك
حُروقٌ وبُثورٌ مقصودةٌ
أمراضٌ لا نهايةَ لها
زرعتُها بعنايةٍ وقُمتُ بِرِعَايتِها.
أكثرُ من مرّةٍ
حاولتُ أنْ أُفْقِدَهُ التّوازنَ
أجْعَلُه أَعرَجَ أَحيانًا
أبْكمَ أحيانًا أُخرى.
لمْ يكُن قَصدِي الإيذاءُ
بِقدرِ ما كنتُ أُريدُ
أنْ أُسرِّبَ لِهَذَا الجَسدِ
ـ هذهِ الكُتلةُ الصماءُ التي لا تَعنِي شيئًا
على الأقلِ بالنسبةِ لِي ـ
إحساسًا بالإمَاتةِ.
كمْ هيَ نقيةٌ وخفيفةٌ فكرةُ الفناءِ
أمّا الوجودُ فثَقِيلٌ ثقيلٌ مثلُ دابةٍ مُزعِجةٍ
لا تَعِي شيئًا ولا تكُفُّ عن الحركةِ.

وكأن الكفراوي يتحدث بلسان كل البشر المتألمين تحت وطأة جائحة فيروس كورونا، حيث اضطربت الأنفس بين بحور الخوف وإحصائيات الإصابات والوفيات اليومية في مختلف أنحاء الأرض، يأتي الحديث في القصيدة التي استمد منها الشاعر اسم ديوانه كاملا "مكان مشبوه"، رغم أن ذلك جاء في سياق قصيدة تحمل عنوان "نهاية مناسبة».

يقول محمد الكفراوي:

فُرصُ النّجَاةِ شِبهُ معْدُومةٍ
وعلى كُلٍّ مِنّا أنْ يَبحثَ

عنْ نِهَايةٍ مُنَاسِبَةٍ لِحَيَاتِهِ.
سبقَ أنْ قُلتُ لكُمْ
إنَّ الأرضَ مكانٌ مشبوهٌ
وغَيرُ آمنٍ بِالمرّةِ
فهِيَ فِي أحسنِ حَالاتِها
مليئةٌ بالأوحَالِ والأوبِئَةِ.
حاولتُ أكثرَ مِن مرَّةٍ أنْ أُقنِعَكمْ
بأنَّ أجسَادَكُم نَفسَها
عِبارةٌ عن براميلَ مِن الدمِ
قابلةٍ للانفِجارِ فِي أيّةِ لَحظَةٍ
وسَتُصبِحُ عاجِلًا أو آجِلًا
وجبةً دسِمةً للحَشراتِ والدُّود.

كيف نتجنب الوباء التالي؟

ديبورا ماكنزي، صحفية متخصصة بالشأن العلمي، أصدرت كتاباً ترجم الى 19 لغة بعنوان «كوفيد – 19» الوباء الذي ما كان يجب أن يظهر وكيف نتجنب الوباء التالي» وكانت من اوائل الصحفيين الذين حذروا من إمكانية تحول الفيروس الى جائحة تسرد في المقدمة، لماذا أقدمت على هذا المشروع، تقول: «بالنسبة إلى صحفيّة علميّة مثلي تكسب رزقها من الكتابة عن الأمراض أنّ هذه الجائحة لم تكن مفاجِئة بالضبط. فالعلماء يحذّرون منذ عقود، وبإلحاح متزايد، من أنّ هذا الأمر سيحدث، وكان صحفيّون مثلي ينقلون تحذيرات أولئك العلماء من أنّ الجائحة قادمة، ولسنا مستعدّين لها.

أنا لا أدّعي قدرة لا أملكها على التوقع، إذ قال صحفيّون وعلماء آخرون ما قلتُ وأكثر، فمنذ عام 1992، حذّر كبار علماء الأمراض المعدية في الولايات المتّحدة من «الأمراض الناشئة»، معلنين أنّ تهديد «الميكروبات المسبّبة للأمراض... سيستمرّ، لا بل قد يزداد حدّة في السنوات القادمة».

إذاً بالإضافة إلى السؤال، كيف حدث ما حدث، ثمّة سؤال كبير آخر هو: هل يمكن أن يتكرّر؟ وهل يمكننا أن نواجه وضعاً كهذا بشكل أفضل في المرّة القادمة؟ الجواب على السؤالين نعم، إذ يجري حاليًّا وضع تخطيط حقيقي للجائحة، لأن جائحة كوفيد – 19 قد لا تكون أسوأ ما ينتظرنا، وحتّى كوفيد – 19 ما زال يخفي ربّما بعض الحيل في جعبته.

حتى ذلك الحين، ومهما بدا لنا الفيروس مروّعاً في بعض الأحيان، إلا أنّنا يجب أن نشعر بالامتنان لأنه ليس أسوأ من ذلك. في الواقع، كوفيد – 19 لم يسجّل معدّل وفيات هائل. فبحسب أفضل التخمينات وأنا أكتب هذه السطور، تبيّن أن هذا الفيروس أقل فتكاً ممّا كنّا نخشى

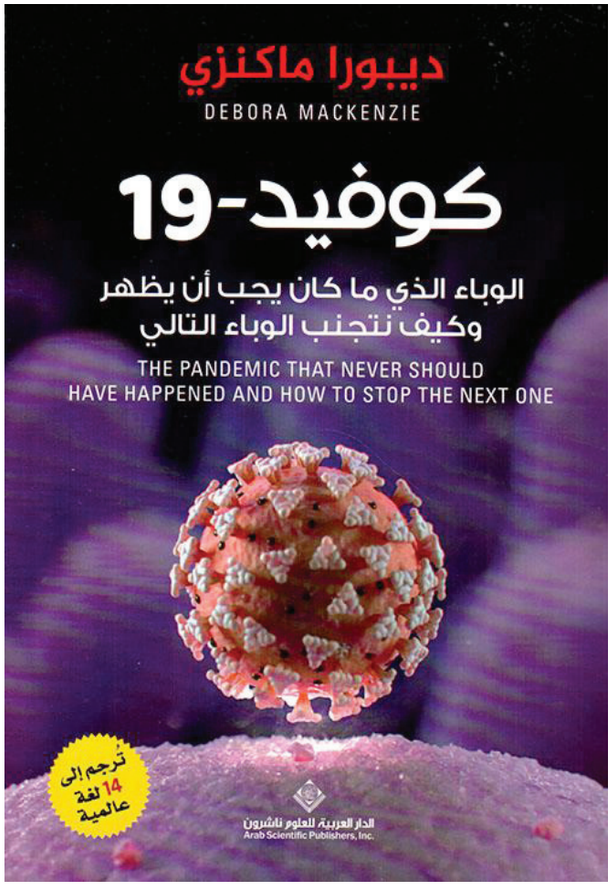

في البداية، ولكن ربّما لا يزال أكثر فتكًا بعشر مرات من الإنفلونزا العادية. وكان السارس أكثر فتكًا بعشر مرات منه. لحسن الحظ، لم يتعلم السارس أن ينتشر بسرعة مثل كوفيد – 19، وإذا كان حظنا جيداً، فإن كوفيد – 19 لن يتعلم أبداً أن يفتك بقدر السارس، إذ كيف سيكون حالنا لو أن هذه الجائحة تسببت بمعدل وفيات أكبر بعشرة أضعاف؟

بالنسبة إلى التوقع، أنا واحدة من عديد من الصحفيين الذين حذّروا من خطر انتشار جائحة منذ تسعينيّات القرن الماضي، والبعض حذّر من هذا الأمر في وقت سابق. فمنذ عام 2008 على الاقلّ، حذّر مدير الاستخبارات الوطنية الأميركية الرئيس الأميركي من أنّ انتشار فيروس تنفّسي جديد وخبيث هو أخطر تهديد تواجهه البلاد. وفي عام 2014، وصف البنك الدولي ومنظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية، منتدى الدول الغنيّة، الجائحة أنها الخطر الكارثي الأوّل، والذي يتفوّق على الإرهاب. وكان بيل غيتس يحذّر منذ سنوات من أنّنا لسنا مستعدّين لمواجهة جائحة.

أمّا في هذا الكتاب، فسوف أعطيكم الصورة الكبيرة. سنلقي نظرة معمّقة على ما حدث وما إذا كان باستطاعتنا إيقافه منذ البداية، قبل النظر إلى الماضي القريب لتعلم التاريخ الطبيعي لبعض الظواهر الطبيعية المذهلة التي تسبّب لنا الأمراض القاتلة. سنرى كيف كان ينبغي أن تعدّنا الأوبئة السابقة ومخاطر الأوبئة، وسنتعلّم من الدروس التي فشلنا في تطبيقها قبل ظهور كوفيد – 19 وبعده، بعد ذلك، يمكننا التحدّث عمّا يتعيّن علينا فعله بشكل أفضل قبل أن يضربنا وباء آخر».

الفصل الثاني عشر

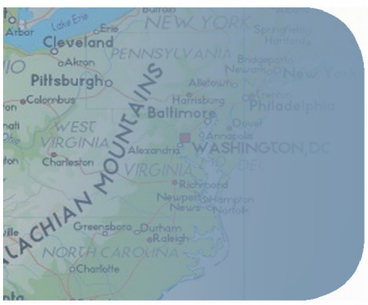

القارة الكبرى وسط المحيطات

- الولايات المتحدة الأميركية – كندا – المكسيك
- جائحة اليأس في أميركا اللاتينية
- أمريكا الوسطى
- كورونا أعاد كوبا إلى العالم
- أميركا الجنوبية بؤرة الوباء

الولايات المتحدة الأميركية

من حيث الجغرافية فالولايات المتحدة الأمريكية هي جمهورية دستورية اتحادية تضم خمسين ولاية ومنطقة العاصمة الاتحادية. تقع معظم البلاد في وسط قارة أمريكا الشمالية حيثُ تقع 48 وِلاية اضافة الى واشنطن العاصمة بين المحيطين الهادئ والاطلسي. وتحدها كندا شمالا وروسيا غربا عبر مضيق بيرينغ. أما ولاية هاواي، التي تعد أرخبيلا، فتقع في المنتصف من المحيط الهادئ. كما تضم الدولة عددا من الأراضي والجزر في الكاريبي والمحيط الهادئ.

تأتي الولايات المتحدة في المركز الثالث من حيث المِساحة (3.79 مليون ميل مربع أو 9.83 مليون كم^2)، وتحتل المرتبة الثالثة من حيث عدد السكان (307 مليون نسمة). وتتميَّز بأنها واحدة من أكثر دول العالم تنوّعاً من حيث العرق والثقافة، وذلك نتيجة الهجرة الكبيرة إليها من بلدان مختلفة.

تمتلك أكبر اقتصاد وطني في العالم كالإقتصاد رأسمالي مختلط تغذيه وفرة الموارد الطبيعية والبنية التحتية المتطورة والانتاجية العالمية. تحتل البلاد المرتبة التاسعة في العالم من حيث إجمالي الناتج المحلي الاسمي للفرد الواحد، والمرتبة السادسة من حيث إجمالي الناتج المحلي للفرد ومن حيث تعادل القوة الشرائية. ويقدر إجمالي الناتج المحلي لعام 2019 بنحو 21،374 تريليون دولار أميركي ، مايعادل نحو 23 في المئة من المجموع العالمي.

يعد الاقتصاد ما بعد صناعي حيث يساهم قطاع الخدمات بنسبة 67.8 % من إجمالي الناتج المحلي إلا أنها من القوى الصناعية الكبرى. تعد تجارة الجملة والتجزئة أكثر الأنشطة التجارية انتشاراً من حيث صافي الدخل الذي تجلبه. وهي من الرواد في تصنيع المنتجات الكيماوية. كما أنها ثالث أكبر دولة منتجة للنفط في العالم وتعد أكبر مستورد له. كما أنها الدولة الأولى في العالم في إنتاج الكهرباء والطاقة النووية بالإضافة إلى الغاز الطبيعي السائل والكبريت والفوسفات والملح. في حين أن الزراعة تمثل أقل بقليل من 1 % من إجمالي الناتج المحلي، كما أن الولايات المتحدة هي أكبر منتج للذرة، وفول الصويا. تعد بورصة نيويورك أكبر بورصة في العالم من حيث حجم الدولار. كما تعد كل من كوكا كولا وماكدونالدز أكثر العلامات التجارية شهرة في العالم.

ينفق نظام الرعاية الصحية في الولايات المتحدة أكثر من أية أمة أخرى، سواء من ناحية نصيب الفرد من الإنفاق أو نسبة إجمالي الناتج المحلي.

خلافاً لما هو الحال في سائر البلدان المتقدمة، لا تعد تغطية الرعاية الصحية في الولايات المتحدة شاملة. في عام 2004، دفع التأمين الخاص 36 % من النفقات الصحية الشخصية، بينما غطت المدفوعات الإضافية 15 %، ودفعت الحكومات الفيدرالية والمحلية 44 %. في عام 2005، كان 46.6 مليون أميركي، وهو ما يعادل 15.9 % من السكان، من دون تأمين صحي وهي أعلى من نسبة عام 2001 بنحو 5.4 مليون شخص. أظهرت دراسة في عام 2009 أن غياب التأمين الصحي ترافق مع ما يقرب من 45,000 حالة وفاة في العام. في عام 2006، أصبحت ماساتشوستس أول ولاية تطبق نظام تأمين صحي شامل. بينما يعمل قانون فدرالي تم تمريره في أوائل عام 2010 على خلق نظام رعاية صحية شبه شامل في أرجاء البلاد بحلول عام 2014

يبلغ متوسط أعمار الأمريكيين 77.8 سنة عند الولادة، وهو أقصر بعام واحد عن نظيره في أوروبا الغربية، وأقل من النرويج وسويسرا وكندا بثلاث أو أربع أعوام. على مدى العقدين الماضيين، انخفض مأمول الحياة من المركز الحادي عشر إلى الثاني والأربعين في العالم.

كورونا في أميركا

أكثر الدول تضررا من جائحة فيروس كورونا، هي الولايات المتحدة الأمريكية وهي جائحة عالمية ضربت كل الدول دون استثناء ولا زالت مستمرة.

وظهر المرض للمرة الأولى في مدينةووهان الصينية في أوائل ديسمبر عام 2019، وقد أعلنت منظمة الصحة العالمية رسميًا في 30 يناير أن تفشي الفيروس يُشكل حالة طوارئ صحية عامة تبعث على القلق الدولي، وأكدت المنظمة في 11 مارس تحول الفيروس الى جائحة.

وحتى تاريخ منتصف شهر فبراير 2021 أبلغ عن وفاة 2،441،926 مليون شخص وإصابة 110،262،595 ملايين.

يناير: الإصابة الأولى

بالرغم من إعلان السلطات الصحية في الولايات المتحدة عن أول اصابة بفيروس كورونا في 20 يناير 2020، إلا أن الفيروس انتشر بسرعة خاطفة في ارجاء الدولة وخلف وراءه العديد من الاصابات والضحايا، حتى اضحت الولايات المتحدة اكثر الدول تضررا. ففي 20 يناير تم تأكيد أول حالة اصابة بالفيروس في

ولاية واشنطن عند رجل عاد من ووهان في 15 يناير، وتم في 29 يناير تأسيس «فرقة عمل البيت الأبيض لفيروس كورونا»، بينما أعلنت إدارة الرئيس الامريكي دونالد ترامب حالة الطوارئ الصحية العامة في 31 يناير، وقيدت الدخول للمسافرين من الصين الذين ليسوا من مواطني الولايات المتحدة.

فبراير ومارس: أول وفاة

في 29 فبراير تم الإبلاغ عن أول حالة وفاة في الولايات المتحدة بولاية واشنطن، وفي 3 مارس ألغت المدارس في منطقة سياتل الفصول الدراسية، وبحلول 15 مارس أغلقت المدارس في جميع أنحاء البلاد.

في 6 مـارس وقـع الرئيس ترامب على مرسوم مخصصات المساعدات للتأهب والاستجابة للجائحة، الذي قدم تمويلًا بمقدار 8.3 مليار دولار للولايات الفدرالية.

في 26 مارس، أصبحت الولايات المتحدة الدولة التي تحوي أكبر عدد من الإصابات المؤكدة بكورونا، مع أكثر من 82 ألف حالة.

أبريل: أكثر من 1.5 مليون إصابة

في 3 أبريل سجلت الولايات المتحدة 884 حالة وفاة بسبب الفيروس في غضون 24 ساعة، وتجاوز عدد الحالات في ولاية نيويورك وحدها الـ 100 ألف إصابة.

في 11 أبريل، أصبحت الولايات المتحدة الدولة التي لديها أعلى حصيلة رسمية للوفيات نتيجة الفيروس، بأزيد من 20 ألف حالة وفاة.

في 14 أبريل أوقف ترامب تمويل منظمة الصحة العالمية.

وتزايدت أعداد الاصابات والوفيات حتى 24 أبريل، حيث تم تأكيد 889,309 حالة في الولايات المتحدة، ووفاة 50,256 مريضًا.

إعادة فتح الأعمال

بعد مرحلة إغلاق وإرتباك، شهد شهر مايو إعادة فتح الاقتصاد والأعمال في الولايات المتحدة، غير أن الدولة أحصت في ختام الشهر (31 مايو) 960 وفاة إضافية بفيروس كورونا خلال أربع وعشرين ساعة، حسب إحصاء لجامعة جونز هوبكنز، ليرتفع العدد الإجمالي للوفيات في البلاد جراء الفيروس إلى 103,758 آلاف.

وأحصت الولايات المتحدة رسميا وقتها 1,769,776 إصابة بالفيروس، أي أكثر بكثير من أي دولة أخرى.

إستقرار مؤقت

في يونيو بدأت حصيلة الوفيات في الولايات المتحدة تتناقص عن الالف حالة يوميا، لكن ذلك لم يستمر طويلا. ففي مطلع يونيو ارتفع عدد الوفيات مرة أخرى جراء الفيروس الى 106 آلاف و241 إثر تسجيل 630 حالة جديدة، وفي 15 من الشهر ذاته تم تسجيل 382 وفاة وفق جامعة جونز هوبكنز، حيث تجاوز عدد الوفيات 117 ألف حالة وفاة، وكذلك الإصابات بعدما وصل الإجمالي إلى أكثر من مليونين و100 ألف حالة، وفق بيانات الجامعة.

لكن في 26 يونيو واجهت الولايات المتحدة "مشكلة خطيرة"، بحسب تحذيرات اطلقهاأنتوني فاوتشي، كبير خبراء الأمراض المعدية، بالتزامن مع تسجيل ارتفاع حاد في حالات الإصابة في 16 ولاية أمريكية.

وشهدت أمريكا أعلى مستوى إصابات يومي على الإطلاق بتسجيل 40 ألف إصابة جديدة في 25 يونيو، مما

رفع عدد الإصابات المؤكدة الى نحو 2.4 مليون حالة إضافة إلى 125 ألف حالة وفاة.

وجرى تعليق خطط تخفيف إجراءات الإغلاق في تكساس وفلوريدا وأريزونا بسبب ارتفاع حالات الإصابة.

وشهدت تكساس، التي كانت في طليعة الولايات الساعية إلى تخفيف إجراءات الإغلاق، الآلاف من الحالات الجديدة، مما دفع الحاكم الجمهوري غريغأبوت إلى الدعوة لتعليق تنفيذ قرار إعادة فتح الأنشطة التجارية.

وسجلت تكساس 5996 حالة إصابة جديدة إضافة إلى 47 حالة وفاة أخرى، وهي أعلى حصيلة ضحايا يومية في مدة شهر.

وتجاوزت فلوريدا أعلى معدل لحالات الإصابة الجديدة داخل الولاية وسجلت 8942 حالة جديدة. وشهدت الولاية حتى ذلك التاريخ 122,960 حالة إصابة و 3,366 حالة وفاة.

وشهدت ولايات أخرى، بما في ذلك ألاباما، وكاليفورنيا، وإيداهو، وميسيسيبي، وميسوري، ونيفادا، وأوكلاهوما، وساوث كارولينا، ووايومنغ، زيادات قياسية يومية في عدد الحالات المؤكدة آنذاك.

يوليو: ملامسة الـ4 ملايين إصابة

بدأت ذروة الجائحة مع نهاية يونيو تواجه الولايات المتحدة تزايدا متسارعا في أعداد المصابين بفيروس كورونا لا سيما في الولايات الواقعة غرب البلاد وجنوبها.

وفي 23 يوليو سجلت الولايات المتحدة أكثر من ألف وفاة لليوم الثاني على التوالي، فيما أحصت ولليوم التاسع على التوالي، أكثر من 60 ألف إصابة جديدة، وفق معطيات جامعة جونز هوبكنز بوتيرة مذهلة وسريعة.

وأفادت جامعة جونز هوبكنز وإحصاء لوكالة الأنباء رويترز بأن عدد الوفيات في الولايات المتحدة بسبب فيروس كورونا ارتفع بواقع أكثر من ألف لليوم الثاني على التوالي يوم بعد تسجيل أعداد قياسية من الوفيات في ولايات مثل ألاباما ونيفادا وتكساس.

وأظهرت بيانات جونز هوبكنز (لغاية 23 يوليو) أن إجمالي الإصابات بالفيروس في الولايات المتحدة ارتفع إلى أكثر من 3,9 مليون إصابة، بينها 63,967 إصابة سجلت خلال يوم واحد.

كما تسبب الفيروس بوفاة 1059 شخصا في الولايات المتحدة خلال ذلك اليوم، لترتفع بذلك الحصيلة الإجمالية للوفيات الناجمة عن الوباء الفتاك في هذا البلد إلى 142,942 وفاة، وفق الجامعة ومقرها مدينة بالتيمور بولاية ميريلاند.

أغسطس: أرقام مفزعة

في 15 أغسطس أعلنت الولايات المتحدة تسجيل أكثر من 1000 حالة وفاة يومية بسبب فيروس كورونا، وذكرت شبكة (سي إن إن) الأمريكية أن جامعة جونز هوبكنز سجلت 1.029 حالة، مما رفع إجمالي الإصابات بالفيروس الى 5 ملايين و361 ألفا و613 حالة، و169 ألفا و489 حالة وفاة.

وفي 28 من الشهر ذاته، ارتفع عدد الإصابات في الولايات المتحدة الى 6 مليون و91 ألف و352 حالة إصابة، بينما ارتفع عدد الوفيات الى 185 ألف و786

حالة وفاة، الأمر الذي يجعل الولايات المتحدة متقدمة بفارق شاسع عن غيرها من البلدان في تعداد الإصابات والوفيات بالفيروس.

الوفيات تتخطى الـ200 ألف

استمر فيروس كورونا في حصد أرواح الكثير من ضحاياه حول العالم، بينما ظلت الولايات المتحدة أبرز دولة متضررة من الوباء الفتاك.

وفي 23 سبتمبر تجاوز عدد الوفيات الناجمة عن انتشار الفيروس في الولايات المتحدة 200 ألف، وهو أعلى رقم تسجله دولة.

وأفاد إحصاء بأن نحو 800 شخص في المتوسط يُتوفون أسبوعيا في الولايات المتحدة بسبب «كورونا»، ويمثل هذا انخفاضا عن ذروة بلغت 2806 وفيات في يوم واحد تم تسجيلها في 15 أبريل.

وخلال الأشهر الأولى للجائحة اعتبر كثيرون أن حاجز 200 ألف حالة وفاة هو الحد الأقصى لعدد الأرواح التي يُحتمل أن تُفقد في الولايات المتحدة جراء كورونا.

لكن إحصاءات أشارت إلى أن 6 من بين كل 10 آلاف مقيم في الولايات المتحدة توفوا بسبب الفيروس، وهو من أعلى المعدلات بين الدول المتقدمة.

أميركا وعقاب الصين

مع اشتداد أزمة كورونا وأرتفاع أعداد الوفيات دعا الرئيس الأميركي دونالد ترامب، الجمعية العامة للأمم المتحدة، إلى معاقبة الصين بسبب «مسؤوليتها» عن انتشار فيروس كورونا.

وقال ترامب في نص كلمة أمام الدورة 75 للجمعية العامة للأمم المتحدة نشر البيت الأبيض مقتطفات منه "أوقفت الصين في أولى أيام انتشار المرض حركة النقل داخل البلاد، لكنها سمحت مع ذلك للطائرات بمغادرة أراضيها ونشر الإصابات في باقي أنحاء العالم».

ووصف ترامب عدة مرات في كلمته المرض بـ "الفيروس الصيني" قائلا يجب على الأمم المتحدة تحميل بكين المسؤولية عن إجراءاتها.

عودة ضربات كورونا

عادت ضربات الجائحة من جديد وكان شهر أكتوبر صادما في الولايات المتحدة، لجهة تزايد الاصابات بفيروس كورونا وملامستها الـ8 ملايين اصابة، بالتزامن مع سخونة الأجـواء السياسية مع قرب الانتخابات الرئاسية في نوفمبر.

وفي 11 أكتوبر أعلنت السلطات ان البلاد سجلت أعلى مستوى من الإصابات بكورونا في شهرين، بإحصاء أكثر من 58 ألف إصابة جديدة بالفيروس، بينما بلغ معدل دخول المستشفيات في منطقة الغرب الأوسط مستويات قياسية لليوم الخامس على التوالي.

وعلى الرغم من استمرار تراجع الوفيات بالمرض على مستوى الولايات المتحدة فإن البلد يسجل متوسط 700 وفاة يوميا وضعاً طبيعياً، وسط توقعات بتسارع وتيرة الإصابات بالفيروس خلال الشتاء بوتيرة أعنف نظراً لطبيعة الطقس خلال فصل البرودة الشديدة.

ووفقا لتحديث جديد لنموذج جامعة واشنطن الذي يتم الاستشهاد به على نطاق واسع، فإن من المتوقع ارتفاع معدل الوفيات اليومي في البلاد بما يزيد على ثلاثة أمثال

بحلول منتصف يناير إلى 2250، ليصل إجمالي الوفيات إلى 395 ألف حالة بحلول الأول من فبراير 2021.

وفي 13 أكتوبر ذكرت جامعة «جونز هوبكنز» أن عدد حالات الإصابة الإجمالي بفيروس كورونا هناك ارتفع إلى 7 ملايين و817 ألفا و863 شخصا على الأقل، وذلك بعد تسجيل 13 ألفا و664 حالة إصابة في ذلك اليوم. وأشارت الجامعة – حسبما نقلت شبكة "سي إن إن" الإخبارية – إلى أن عدد حالات الوفاة جرّاء الفيروس داخل الولايات بلغ 215 ألف و355 حالة، بعد تسجيل 270 حالة وفاة.

واستمر معدل الاصابات في الارتفاع، مما أقلق خبراء الصحة في امريكا، وتم تسجل 59494 حالة إصابة جديدة في جميع أنحاء الولايات المتحدة في 19 أكتوبر لوحده، وفقا لبيانات جامعة هوبكنز.

وسجلت 35 ولاية زيادات في حالات الإصابة الجديدة بنسبة تفوق 10 في المئة، خلال الأسبوع الماضي مقارنة بالأسبوع الذي سبقه. في حين أظهرت ثلاث ولايات فقط، هي لويزيانا وكنتاكي وفيرمونت، انخفاضا في الحالات الجديدة بنسبة تزيد عن 10 في المئة هذا الأسبوع مقارنة بالأسبوع السابق.

وبشكل عام، أصاب الفيروس أكثر من 7.9 مليون شخص، وأدى لوفاة أكثر من 217 ألفا في الولايات المتحدة أنذاك.

وفي 23 أكتوبر، سجلت أمريكا ثاني أعلى عدد من اصابات كورونا اليومية منذ بدء الجائحة، وكان أقل بقليل من ذروة الإصابات في منتصف الصيف مع تسارع العدوى في كل مناطق البلاد تقريبا.

وأظهرت أرقام أن عدد الإصابات الجديدة بلغ 76195، مقتربا من الرقم القياسي البالغ 77299 والمسجل في 16 من يوليو.

ولم تسجل عددا أكبر من الحالات في يوم واحد سوى الهند عندما بلغ عدد الإصابات الجديدة لديها في 17 سبتمبر 97894.

ويرتفع عدد الوفيات في الولايات المتحدة أيضا حيث سجلت 916 حالة يومذاك، بعد يوم من تسجيل أكثر من 1200 حالة وفاة جديدة للمرة ألأولى منذ أغسطس.

وتابعت البلاد تسجيل أرقام اصابة غير مسبوقة، ففي 24 أكتوبر بلغ اجمالي الاصابات 8.5 مليون اصابة منذ بدء الجائحة، بعد احصاء 79963 اصابة جديدة في ذلك اليوم، بحسب تقارير رسمية، مع تحذير منظمة الصحة العالمية من أن الدول في نصف الكرة الشمالي، باتت على «منعطف خطر».

وسجلت أمريكا 8.5 مليون إصابة منذ بداية الجائحة، لكن أعداد الوفيات انخفضت خلال الأيام الست الماضية، عما كانت عليه في ذروة العدوى خلال أبريل، حين كانت تتجاوز ألفي وفاة في اليوم.

وبحسب بيانات "مشروع تعقّب كوفيد"، ارتفعت أعداد دخول المستشفيات لتزيد عن 41 ألف حالة 2020. وهذا هو الرقم الأعلى الذي يسجل منذ نهاية أغسطس، لكنه لا يزال أقل مما سجل في أبريل ويوليو.

ولليوم الثاني على التوالي (25 أكتوبر)، سجلت الولايات المتحدة حصيلة قياسية في اصابات كورونا، بإحصاء 88973 إصابة جديدة، وهي حصيلة أعلى بكثير من 79963 إصابة التي تم تسجيلها في اليوم السابق.

وبلغ إجمالي الوفيات في الولايات المتحدة 224 ألفا و751 من أصل ثمانية ملايين و568 ألفا و625 إصابة،

وهي أعلى حصيلة في العالم.

كانت بالفعل عتبة الثمانين ألف إصابة يوميّاً خلال يوليو، لا سيّما بسبب بؤر إصابة في ولايات جنوبيّة مثل تكساس وفلوريدا، حيث كان الفيروس وقتذاك خارجاً عن السيطرة.

أمّا حاليّاً، فإنّ أسوأ حالات تفشّي الفيروس تُسَجّل شماليّ البلاد وفي الغرب الأوسط، في وقتٍ تشهد نحو 35 ولاية من أصل 50 زيادةً في عدد الإصابات.

وبقي عدد الوَفَيات على مدار 24 ساعة مستقرّاً على نطاق واسع منذ بداية الخريف، مع تسجيل ما بين 700 و800 وفاة جديدة. وتم تسجيل 906 وفيات في 25 أكتوبر.

واتهم الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما خليفته دونالد ترمب بأنه «فشل» في إدارة وباء كوفيد- 19، خلال تجمع حاشد لدعم المرشح الديموقراطي جو بايدن في ميامي. وقال «بعد ثمانية أشهر من بدء هذا الوباء، لا تزال الإصابات الجديدة تحطم الأرقام القياسية».

نوفمبر: ربع مليون وفاة

وعلى مدى شهر نوفمبر 2020، واصلت الاصابات بفيروس كورونا الارتفاع مع تفاقم حالات الوفيات التي بلغت ذروتها ببلوغ أكثر من 250 ألف حالة وفاة، في جميع أنحاء البلاد.

ووفقا لجامعة جونز هوبكنز في 19 نوفمبر، سجلت البلاد 250,029 حالة وفاة، وحوالى 11.5 مليون حالة إصابة.

ديسمبر: 18 مليون إصابة

وفي ديسمبر ارتفعت الاصابات في الولايات المتحدة الى 18 مليونا و230 ألفا و242 حالة؛ وذلك عقب تسجيل 195 ألفا و33 حالة إصابة جديدة في 23 ديسمبر.

وذكرت جونز هوبكنز حسبما نقلت شبكة "سي إن إن" الأمريكية أن حصيلة الوفيات جراء الإصابة بالفيروس في البلاد ارتفعت إلى 322 ألفا و765 حالة، عقب تسجيل 3 آلاف و401 حالة وفاة جديدة في التاريخ ذاته.

يشار إلى أنه تم توزيع ما لا يقل عن 4 ملايين و624 ألفا و325 جرعة لقاح ضد فيروس كورونا في الولايات المتحدة، وتم إعطاء ما لا يقل عن 614 ألفا و117 جرعة من اللقاح، حتى ذلك التاريخ، وفقا للمراكز الأمريكية لمكافحة الأمراض والوقاية منها.

يناير: 417 ألف وفاة

أما في يناير 2021 فقد تجاوزت الولايات المتحدة عتبة الـ25 مليون إصابة بفيروس كورونا منذ بدء انتشار الوباء، وذلك بعد بضعة أيام من تسلم الرئيس جو بايدن، منصبه.

وأحصت جامعة جونز هوبكنز المرجعية (23 يناير) إصابة 25 مليونا وثلاثة آلاف و695 شخصا، لافتة إلى أن أكثر من 417 ألف شخص قضوا بالفيروس في البلاد.

فبراير: 460 ألف وفاة

مع اقتراب دخول فصل الربيع في الولايات المتحدة، بدأ عدد الإصابات في التراجع على خلفية برنامج التطعيم الذي انطلق في البلاد، مع تزايد المخاوف من دخول السلالات الجديدة وانتشارها.

وكان متوسط عدد حالات الإصابة اليومية في

الولايات المتحدة قد بدأ في التراجع منذ يناير، ولكن، مع بقاء أكثر من 120 ألف حالة إصابة جديدة في كل يوم كمعدل، وفقا لشبكة الـ بي بي سي. وليس واضحاً ما إذا كان الانخفاض الأخير سيستمر أم لا، وخاصة أنه لدى الولايات المتحدة الآن حالات إصابة بالسلالات الجديدة الأسرع انتشارا من الفيروس، اللاتي اكتشفن لأول مرة في المملكة المتحدة وجنوب أفريقيا والبرازيل.

وبشكل عام، كان هناك نحو 30 مليون حالة مؤكدة في الولايات المتحدة، وهو أعلى رقم على مستوى العالم.

ولكن، نظراً لأن الاختبارات كانت محدودة للغاية في ربيع 2020، من المحتمل أن يكون الرقم الحقيقي أعلى من ذلك بكثير في الربيع الحالي.

وأشارت إحدى الدراسات التي أجراها علماء في المراكز الأميركية لمكافحة الأمراض والوقاية منها، إلى أن الرقم الحقيقي وصل إلى 100 مليون إصابة بحلول نهاية 2020.

وبحسب الاحصائيات التي ترصدها جامعة جونز هوبكنز، كان يناير، هو الشهر الأكثر فتكاً بالأرواح جراء الإصابة بالوباء في الولايات المتحدة، حيث تم الإبلاغ عن 95000 حالة وفـاة، أي أكثر من خُمس إجمالي المتوفين البالغ عددهم آنذاك 460 ألف.

ولا يزال متوسط عدد الوفيات مرتفعاً جداً، إذ يصل عددهم في الوقت الحالي إلى 3000 حالة وفاة يومياً. ولكن ثمة علامات تشير إلى انخفاض طفيف في الأيام الأخيرة.

بيد أن نسبة الوفيات هي مقياس يبدو متخلفا عن نسبة حالات الإصابة الجديدة أو المصابين المحالين إلى المستشفيات، لأن الأمر قد يستغرق عدة أسابيع بالنسبة لمن هم أكثر تضرراً، حتى يفارقوا الحياة نتيجة الإصابة بالمرض.

لذلك، من المرجح أن تتجاوز أعداد الوفيات، 500 ألف حالة بحلول نهاية فبراير الحالي في الولايات المتحدة، التي لديها بالفعل أعلى حصيلة وفيات بالفيروس على مستوى العالم.

وكانت هناك بعض المشاكل الأولية مع طرح اللقاحات في الولايات المتحدة، فقد حددت الحكومة هدفاً يقضي بتطعيم 20 مليون شخص بحلول نهاية 2020، لكنها تمكنت من تطعيم ثلاثة ملايين فقط، إلا أن الأمور تحسنت بشكل أفضل في يناير.

ووضع الرئيس جو بايدن هدفاً يتمثل في توفير 100 مليون لقاح بحلول يومه المائة في منصبه، لكنهم كانوا فعلياً في طريقهم إلى تحقيق ذلك حتى قبل توليه منصبه.

في 21 يناير، أي اليوم التالي لتسنم بايدن منصبه رسمياً، تم تطعيم ما يعادل مليون جرعة من اللقاح تقريبا في اليوم.

ويبلغ متوسط عدد اللقاحات التي تعطى للمواطنين في الولايات المتحدة حالياً، 1.3 مليون لقاح يومياً، وقد رفع بايدن هدفه إلى 1.5 مليون لقاح يومياً.

ومع تسارع وتيرة طرح اللقاح ، يأمل العديد من الأميركيين أن تعود الحياة إلى شكل من أشكال الحياة الطبيعية خلال الأشهر القليلة المقبلة، لكن الخبراء يقولون إنه لا يزال أمامنا طريق طويل.

وتقول الدكتورة كيري ألتوف، أستاذة علم الأوبئة في جامعة جونز هوبكنز: "سوف تمر عدة أشهر قبل أن نرى، ليس بالضرورة عودة الحياة إلى طبيعتها؛ ولكن ظهور حالة طبيعية جديدة".

وتضيف: "أنا مترددة في تحديد موعد لذلك، يبدو أنه في كل مرة نكتشف فيها شيئاً حول هذا الفيروس، نكتشف مفاجأة أخرى لم تكن في الحسبان"، في إشارة إلى السلالات الجديدة من الفيروس التي ظهرت في الأشهر الأخيرة.

وتوضح ألتوف قائلة "إن الوضع الطبيعي الجديد" سيتطلب استمرار مسؤولي الصحة العامة في توصيتهم للناس بالتباعد الاجتماعي وارتداء الكمامات والتحذير من أي تجمعات اجتماعية كبيرة سواء كانت في الأماكن المغلقة أو حتى في الهواء الطلق.

وتتابع: "يشعر الكثير من الناس في الولايات المتحدة بالإرهاق من هذا الفيروس. إنه أمر طبيعي تماماً ونحن بحاجة إلى أن نتعاطف ونتقبل ذلك، لكن هذا الفيروس لن يختفي، لذلك علينا الاستمرار في حماية أنفسنا وعائلاتنا ومجتمعاتنا".

16 ألف مليار دولار تكلفة «كورونا» على الاقتصاد الأميركي

عرف الاقتصاد الأميركي في 2020 أسوأ عام له منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، لكن حملة التلقيح الجارية ضد فايروس كورونا المستجد وخطة الدعم الاقتصادي الأخيرة تحييان الآمال بانتعاش في العام الحالي 2021.

وتسببت الأزمة الناجمة عن تفشي كوفيد – 19 في انكماش بنسبة 3.5 % للناتج المحلي الإجمالي مقارنة مع العام 2019، بحسب التقديرات الأولية التي نشرتها وزارة التجارة الأميركية في 28 يناير 2021.

وهذه النسبة أكبر مما توقعه البنك المركزي الأميركي الذي قدّر أن يبلغ الانكماش 2.5 %، كما في العام 2009 خلال مرحلة الكساد التي تلت الأزمة المالية.

وتأثر النمو في الولايات المتحدة بعودة انتشار

الفايروس في الخريف بعد فترة تراجع في الصيف. ولذلك فرضت الولايات قيودا جديدة، أثرت سلبا على النشاط الاقتصادي.

وتوضح الوزارة أن "انكماش إجمالي الناتج الداخلي في 2020 يعكس تراجع الإنفاق الاستهلاكي والصادرات والاستثمارات الخاصة والعامة، التي تم تعويضها جزئيا بمدفوعات من الحكومة الفيدرالية"، مشيرة إلى أن الواردات انخفضت أيضا.

وتراجع الإنفاق الاستهلاكي للأسر الذي يشكّل ثلاثة أرباع الاقتصاد الأميركي، بنسبة 3.9 % مقارنة بالعام الماضي.

دراسة جديدة كشفت أن تكلفة فيروس كورونا على الاقتصاد الاميركي تصل الى 16 تريليون (16 ألف مليار) دولار، وفق دراسة نشرت في "ذا جورنال أوف أميركان ميدكال أسوسييشن" المجلة الأسبوعية العريقة، وشارك في إعدادها لورانس سامرز وزير الخزانة الأمريكي السابق، وأحد أكبر المستشارين الاقتصاديين للرئيسين الأميركيين السابقين باراك أوباما وبيل كلينتون، وديفيد كاتلر الاقتصادي البارز من جامعة "هارفرد".

الدراسة حددت الخسائر (على المدى البعيد) للأفراد الذين أصيبوا بالوباء وتداعت حالتهم الصحية بطريقة مزمنة بـ2.6 مليون دولار، إضافة إلى 1.6 مليون دولار كخسائر مادية ناتجة عن مشاكل الصحة العقلية للفرد الواحد.

وبالنسبة لبقية الخسائر المادية فقد تبلغ بالإجمال 7.6 تريليون دولار، تعود إلى "ناتج اقتصادي محدود"، وذلك يعني، بحسب الكاتبين، أن كورونا سيكون قد ضرب النموّ في الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي لمدة عشر سنوات وهذا بالفعل أعظم تهديد للازدهار الاقتصادي والرفاهية تواجهه الولايات المتحدة الأمريكية منذ الكساد الكبير، بحسب ما ذكره القائمون عليها.

رقم قياسي في عجز الموازنة

سجلت الموازنة الفيدرالية عجزًا قياسيًا بلغ 3.1 تريليون دولار في نهاية العام المالي 2019ـ2020، وفقا للبيانات الصادرة عن وزارة الخزانة، فيما سجل العجز الحالي 2020ـ2021 ضعف العجز القياسي السابق للموازنة المسجل إبان الأزمة المالية العالمية منذ حوالي عشر سنوات.

ويُرجح أن الفجوة الواسعة بين دخل وإنفاق الحكومة الفيدرالية في الولايات المتحدة جاء نتيجة لحزمة الإنقاذ المالي للاقتصاد في مواجهة فيروس كورونا، والتي تضمنت إنفاق أموال طائلة لمساعدة الشركات والعاطلين عن العمل في مواجهة التدهور الذي حل بالاقتصاد الأمريكي.

إرتفع عجز الموازنة إلى 26.9 تريليون دولار، وهو ما يتجاوز قيمة إجمالي الناتج المحلي للولايات المتحدة الذي تراجع في الربع الثاني من العام الجاري إلى 20 تريليون دولار.

واتسعت الفجوة المالية في الموازنة الفيدرالية منذ تولي الرئيس السابق دونالد ترامب رئاسة الولايات المتحدة، إذ تخطى عجز الموازنة حاجز تريليون دولار هذا العام حتى قبل انتشار فيروس كورونا، ذلك للمرة الأولى منذ 2012.

خطة بايدن للانعاش الاقتصادي

حزمة المساعدات الاقتصادية التي عرضها الرئيس جو بايدن من شأنها السماح للولايات المتحدة بالخروج من أسوأ أزمة عرفتها منذ ثلاثينات القرن الماضي، في حين لا يزال ملايين الأميركيين عاطلين عن العمل.

ووعد الرئيس الأميركي "بآلاف مليارات الدولارات"، وإعطاء الأولية لتسريع وتيرة التلقيح، بحسب وكالات، وبقي معدل البطالة مستقرا في ديسمبر 2020 عند نسبة 6,7 %، والأسوأ من ذلك هو خسارة 140 ألف وظيفة خلال الشهر ذاته، ما يعني أن الكثير من العاطلين عن العمل توقفوا عن البحث عن فرصة جديدة ولم يتم احصاؤهم.

ويتقاضى نحو 20 مليون أميركي مساعدة بطالة، أو تعويض عن خسارة المدخول في كل برامج المساعدة المتوافرة.

وأقرت الولايات المتحدة خطة مساعدات جديدة نهاية ديسمبر بقيمة 900 مليار دولار، ورأى بايدن أن الخطة غير كافية وأكد مرارا إنها مجرد "سلفة"، وأضاف قائلا: "نحتاج أكثر إلى مساعدة مباشرة للعائلات والشركات الصغيرة"، وقدّم بايدن خطة طوارئ بقيمة 1.9 تريليون دولار.

وكان الأميركيون تلقوا مطلع يناير 2021 نحو 600 دولار للشخص في الوقت الذي أعرب فيه عن تأييده مرات عدة لمبلغ ألفي دولار، قبل إقرار خطة التحفيز.

ويرى الرئيس الأميركي أن "عشرات مليارات الدولارات" ضرورية للسماح للسلطات المحلية والوطنية المحافظة على عمل المدرسين، وعناصر الشرطة والإطفاء والعاملين في مجال الصحة العامة، وأكد أن ثمة حاجة إلى أموال أيضا للسماح للمدارس بإعادة فتح أبوابها.

وساهمت خطة أولى أقرت في نهاية مارس 2020، عندما لجمت جائحة كوفيد19- النشاط الاقتصادي بشكل مفاجئ، في رفع النفقات العامة، وبلغت قيمة الخطة 2200 مليار دولار، وهي أكبر خطة تحفيز اقتصادي في الولايات المتحدة، وشملت مساعدات للعاطلين عن العمل وقروضا للشركات الصغيرة، وشيكات مباشرة للأسر الأميركية.

معدلات البطالة

فقد الاقتصاد الأميركي بسبب جائحة كورونا 20.5 مليون وظيفة خلال شهر أبريل على 2020 فقط، مسجلا أسرع وتيرة هبوط في الوظائف منذ الكساد الكبير في ثلاثينيات القرن الماضي، وسط توقعات بأوضاع أسوأ.

معدل البطالة ارتفع إلى 14.7 % متخطيا المستوى القياسي المسجل بعد الحرب العالمية الثانية، وهذه الوضعية هي الأسوأ منذ 90 عاما.

وبسبب جوانب إجرائية فإن هذه البيانات لا تعكس تماما حجم الأضرار الاقتصادية التي سببتها الجائحة، وهو ما يعني أن الرقم الحقيقي للوظائف المفقودة ومعدل البطالة يمكن أن يكونا أعلى.

وقال الرئيس الأميركي دونالد ترامب إن هذه الأرقام «كانت متوقعة تماما وغير مفاجئة»، وتعهد خلال ظهوره في مقابلة مع قناة «فوكس نيوز» التلفزيونية الأميركية باستعادة عافية الاقتصاد الأميركي.

كبير المستشارين الاقتصاديين للبيت الأبيض لاري كودلو قال إن أرقام البطالة المتوقعة في مايو ستكون

مفجعة، أما كيفن هاسيت المستشار الاقتصادي لترامب فتوقع أن تصل أرقام البطالة في التقرير المقبل إلى 25 %.

وتعد هذه الخسائر تقريبا ضعف ما تكبدته الولايات المتحدة خلال الأزمة المالية 2007–2009 التي اعتبرت حينها أسوأ انكماش اقتصادي على الإطلاق خلف ضغوط على إدارات العمل الفدرالية والمحلية تحديات كبيرة بسبب الزيادة غير المسبوقة في طلبات إعانة البطالة.

وأدت جائحة فيروس كورونا إلى توقف العديد من قطاعات الاقتصاد الأميركي، حيث قدم أكثر من 33 مليون أميركي طلبات للحصول على إعانة بطالة خلال تلك الفترة.

وفي أبريل2020 أقر مجلس النواب الأميركي حزمة اقتصادية تصل لنحو 3 تريليونات دولار، لدعم الأفراد والشركات في مواجهة الأضرار الناجمة عن فيروس كورونا.

كما وافق المجلس على زيادة إضافية تعادل 600 دولار لمتلقي إعانة البطالة، ليرتفع إجمالي الإعانة إلى 972 دولارا أسبوعيا.

إن تبعات الهزة المالية العالمية والتي تعرضت إليها عام 2008، على سوق الوظائف وطلبات الإعانة الأميركية، لا يشكل إلا جزءا بسيطا من التبعات التي فرضها فيروس كورونا 2020.حيث ظهر أن أعلى معدل لطلبات إعانة البطالة الجديدة في السوق الأميركية خلال الأزمة المالية العالمية، سجل في 19 فبراير 2009، بـ 667 ألف طلب جديد.

إلا أن هذا الرقم يعتبر أقل بـ10 مرات من أعلى رقم سجلته السوق الأميركية لمعدل طلبات الإعانة في نهاية مارس، والبالغ 6.86 ملايين طلب إعانة جديد.

وإحدى أبرز تبعات الأزمة المالية العالمية داخل السوق الأميركية، انهيار شركات وبنوك ومؤسسات رهن عقاري في الولايات المتحدة، أبرزها «ليمان براذرز» و«بنك أوف أميركا» وخسائر حادة لعملاق التأمين «المجموعة الأميركية الدولية».

إلا أن أزمة فيروس كورونا، عطلت مختلف جوانب الاقتصاد الأميركي وقطاعاته، باستثناءات قليلة لقطاعات الأدوية والمستحضرات الطبية، نتج عنها عمليات تسريح واسعة.

وخلال كامل شهر مارس 2020، بلغ إجمالي عدد طلبات الإعانة الجديدة في الولايات المتحدة 10.66 ملايين طلب، أعلى رقم شهري في تاريخ الولايات المتحدة حتى تاريخه.

وفي كامل أبريل 2020، كسر عدد طلبات إعانة البطالة الرقم السابق المسجل في مارس، بتسجيله 20 مليون طلب جديد، وفق بيانات وزارة العمل الأميركية.

وواصل الاتجاه النزولي لعدد طلبات الإعانة أسبوعيا، خلال مايو، لتسجل الطلبات الجديدة خلال كامل ذلك الشهر 10.8 ملايين طلب جديد، و7.8 ملايين طلب جديد في يونيو.

بينما بلغ إجمالي عدد الطلبات الجديدة خلال يوليو 5.46 ملايين طلب جديد، و3.5 ملايين طلب جديد خلال النصف الأول من أغسطس.

خلال وقت سابق من أغسطس، قال مكتب إحصاءات العمل الأميركي إن معدل البطالة في الولايات المتحدة، انخفض بأقل من نقطة مئوية (0.9 نقطة) إلى 10.2 % في يوليو، من 11.1 % في يوليو.

يعني ذلك، أن عدد العاطلين عن العمل تراجع بمقدار

1.4 مليون شخص إلى 16.3 مليون شخص، بينما تراجع عدد العاطلين عن العمل الذين سُرِّحوا مؤقتا بمقدار 1.3 مليون في يوليو إلى 9.2 ملايين شخص.

فيما ارتفع عدد الأشخاص الذين يعملون بدوام جزئي بمقدار 803 آلاف إلى 24.0 مليونا، وانخفض عدد الأشخاص العاملين بدوام جزئي لأسباب اقتصادية –قُلِّصت ساعات عملهم بسبب تباطؤ قطاعات الأعمال والتجارة– بمقدار 619 ألفا الى 8.4 ملايين شخص.

وبلغ معدل البطالة في الولايات المتحدة ذروته بنسبة 14.7 % في أبريل ، في ظل قيود شلت أكبر اقتصاد في العالم إبان الموجة الأولى من تفشي جائحة كورونا.

اقتصاد امريكا 2

مساعدات اقتصادية وإلغاء رسوم جمركية

عندما أحدث وباء «كورونا» ضرراً على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، صوّت الديمقراطيون والجمهوريون في مجلس النواب على خطة مساعدات هائلة بقيمة 2200 مليار دولار تضمنت بشكل خاص إعانات بطالة بقيمة 600 دولار كل أسبوع. ويعتبر بعض الاقتصاديين هذه الخطة ضرورية لإنعاش النشاط الاقتصادي وتأثراً بجائحة كورونا، ألغت قرار فرض رسوم جمركية بنسبة 10 % على واردات الالمنيوم من كندا، في خطوة من شأنها تهدئة الحرب التجارية مع أحد أكبر شركائها التجاريين.

وكان الرئيس الأميركي دونالد ترامب قد فرض، في أغسطس 2020، رسوماً جديدة ضد كندا الجارة الشمالية لبلاده، والتي تعد رابع منتج للألمنيوم على مستوى العالم، وتصدر 84 % منه نحو السوق الأميركية.

ومن أبرز السلبيات التي آفرزتها جائحة كورونا، أن حدة الصراع التجاري بين الولايات المتحدة والعديد من الاقتصادات العالمية الكبرى، منها كندا والاتحاد الأوروبي والصين التي تصاعدت حدة التوترات التجارية معها قبل الجائحة، بينما كانت واشنطن وبكين قد اتفقتا مطلع 2020 على هدنة تجارية بعد أكثر من عشرين شهراً من المفاوضات الماراثونية بينهما لوقف حرب الرسوم الجمركية الانتقامية المتبادلة واستهداف الشركات الكبرى.

وتبدو الولايات المتحدة أكثر تضرراً من الجائحة، بينما تظهر الصين في موقف أكثر قوة، إذ سرعان ما طوقت تداعيات الوباء وأعادت الاقتصاد إلى عجلة الإنتاج.

تريليون دولار لتحفيز الاقتصاد

حجم الحزمة المالية يعكس عمق الأزمة وابعادها فإعلان الرئيس الأميركي دونالد ترامب ووزير ماليته ستيفن منوشن في (17 مارس 2020)، تقديم حزمة تحفيز بقيمة تريليون دولار لمساعدة الأسر والشركات الأميركية المتضررة من التباطؤ الاقتصادي المفاجئ بسبب جائحة كورونا، تشمل إعانات نقدية للمواطنين من أصحاب الدخول المنخفضة، وللشركات الصغيرة والمتوسطة المتضررة من الأزمة الحالية، مع التأكد من حصول المرضى على إجازات مدفوعة الأجر، وتأخير دفع الأقساط لأغلب أنواع القروض، يعكس جزء من المصاب والتداعيات ولاتزال الجائحة في بداية المشوار.

وفي الوقت الذي لا يتوقف فيه ترامب عن إعلان ثقته بعودة الاقتصاد الأميركي إلى أفضل حالاته سريعاً، لا تبدو أسواق الأسهم ومؤشرات وول ستريت موافقة على

ذلك، حيث يستمر النزيف في الأسعار، ولا ترتد مرتفعة إلا لدقائق معدودة، عقب إعلان أي تدخلات حكومية أو حزم إنقاذ، ثم لا يلبث وقودها أن ينفد سريعاً، لتعاود الهبوط بإصرار! وبينما كان واضحاً أن التباطؤ الشديد سيصيب كل قطاعات الاقتصاد الأميركي بلا استثناء، أثبتت التطورات الأخيرة في الإجراءات الحكومية في البلدان المختلفة أن بعض القطاعات ستكون الأكثر عرضة للتأزم، وستعاني شركاتها من مشكلات قد تؤدي إلى إفلاسها تماماً، لو لم تتلقّ حزم إنقاذ سريعة من حكوماتها. وعلى رأس تلك القطاعات، كانت 3 قطاعات مهمة، يرتبط بصورة ما بعضها ببعض، هي قطاع شركات الطيران وقطاع صناعة الطائرات وقطاع الفنادق.

شركات طيران عملاقة على حافة الإفلاس

قطاع الطيران يعد من أبرز القطاعات التي تعرضت لضغوط مالية وتعثرات حادة حيث تصنف الأزمة الحالية واحدة من أكبر الأزمات التي يمكن أن يواجهها، بعد أن أغلقت العديد من البلدان مطاراتها، ومنع البعض الآخر الرحلات من جهات بعينها، ضمن الجهود المبذولة لمنع انتشار الفيروس، الأمر الذي سبّب إلغاء آلاف الرحلات، وضغط على إيرادات شركات الطيران حول العالم. واعتبرت تقارير إقتصادية أن التأثير على الصناعة من جراء الأزمة الحالية يفوق بمراحل ما تعرضت له بعد أحداث 11 سبتمبر 2001. طبقاً لتقرير مركز الطيران المعروف باسم CAPA والمتخصص في معلومات وأبحاث كل ما يخص صناعة الطيران والسفر، أن ما يقرب من 400 شركة طيران، من أصل 800 شركة حول العالم، قد تتعرض للإفلاس، لو لم تحصل على إعانات مالية من حكوماتها، بسبب تراجع الطلب على خدماتها خلال الفترة الحالية.

وفي مذكرة للموظفين، تعكس حجم الأزمة وقال أوسكار مونيز، الرئيس التنفيذي لشركة يونايتد إيرلاينز: «في أول أسبوعين من شهر مارس 2020، استقبلت الشركة على طائراتها عدداً يقلّ عن ذات الفترة من العام الماضي بمليون مسافر، وتشير توقعاتنا إلى انخفاض إيرادات الشركة خلال الشهر بنحو 1.5 مليار دولار، مقارنة بالعام الماضي 2019».

وفي محاولة لتعويض مليارات الـدولارات التي تبخرت في الهواء، قرر العديد من شركات الطيران تخفيض المبالغ التي يحصل عليها رؤساؤها، بالإضافة إلى تعليق جزء كبير من عملياتها.

وأعلن مونيز، وسكوت كيربي، رئيس مجلس إدارة يونايتد، تنازلهما عن راتبهما الأساسي لفترة 6 أشهر، وتخفيض رواتـب كبار المديرين فيها بنسبة 50 %. وخفض جاري كيللي، الرئيس التنفيذي لشركة طيران ساوث وست راتبه بنسبة 10 %.

وبينما لا يحصل دوج باركر، الرئيس التنفيذي لأمريكان إيرلاينز على راتب منذ عام 2015، تكتفي الشركة بمنحه أسهماً فيها مقابل عمله بها، وهو ما يعني أن مدخولاته ستنخفض بصورة كبيرة خلال الفترة القادمة. كذلك أكدت شركة كوانتاس إيروايز، أن رئيسها التنفيذي آلان جويس لن يحصل على راتب ولا مكافآت خلال الفترة الباقية من السنة المالية المنتهية في آخر سبتمبر 2020.

"بوينغ".. قد تتحول إلى "خردة"

قبل إتمام تعافيها من أزمة 737 ماكس، البالغة كلفتها نحو 19 مليار دولار، تواجه شركة تصنيع الطائرات الأميركية بوينغ، أكبر مُصَدِّر في الولايات المتحدة،

أزمة جديدة مع اقتراب شركات الطيران في جميع أنحاء العالم من الإفلاس، في حال عدم تمكّن الشركات من إتمام عمليات شراء الطائرات التي طلبتها. وحتى إذا حصلت شركات الطيران على خطة إنقاذ فيدرالية ولم تنفد سيولتها، تشير التوقعات إلى أنها لن تكون على استعداد لتسلُّم المزيد من الطائرات، بينما تقضي النسبة الأكبر من طائراتها أغلب الوقت على الأرض في المطارات. وبعد أن خفضت شركة التقييم الائتماني "ستاندرد آند بورز" تصنيفها لبوينغ (في 12 مارس 2020)، لتصبح على بعد خطوتين فقط من "الخردة"، وهو أدنى تصنيف ائتماني لها منذ ما يقرب من 40 عاماً. وأعترف ترامب: "بأنه يجب أن تحصل بوينغ على مساعدات مالية من الحكومة الفيدرالية"، مع ضرورة توفير الحماية لها، بالإضافة إلى ما وعد به شركات الطيران، التي قد تمثل نجاتها طوق الإنقاذ الحقيقي لبوينغ. وقبل أزمة 737 ماكس، قال ترامب إنه يعتبر بوينغ "أفضل شركة في العالم».

1.5 مليار.. خسائر أولية لقطاع الفنادق

خلال شهر فبراير 2020 الذي منع فيه فيروس كورونا الملايين من ممارسة طقوسهم المعتادة في السفر، خسرت الفنادق الأميركية نحو 1.5 مليار دولار من الإيرادات، وفقاً لاتحاد السفر والفنادق الأميركي، الذي توقع أن مليون وظيفة أُلغيَت في فنادق الولايات المتحدة. وخفضت شركة ماريوت للفنادق (10 مارس 2020) تخفيض ساعات العمل للموظفين، مع بدء تسريح عدد قد يصل إلى الآلاف من العاملين لديها. وقالت الشركة إن "تسريح العمال سيحرمهم الأجر، لكنه سيحافظ على صحتهم". والتقى رؤساء فنادق ماريوت وهيلتون وهيات مع ترامب في البيت الأبيض، لعرض الظروف الحالية التي تمرّ بها الصناعة، وطلب المساعدة. وقال مسؤول في هيلتون إنها "أغلقت فندقين تديرهما في واشنطن العاصمة ونيويورك، ومنحت العاملين تسريحاً مؤقتاً».

حجم تفشي الوباء مقارنة ببقية العالم؟

في أول فبراير 2020، أي بعد يومين من تسجيل الولايات المتحدة أول حالة إصابة بفيروس كورونا، قال الرئيس دونالد ترامب إن الوضع «تحت السيطرة التامة «، وأكد للشعب أن الأمور «ستكون على ما يرام».

وبعد مضي أربعة أشهر (أي في مايو)، انتشر الفيروس في جميع الولايات الخمسين مخلفا 100 ألف حالة وفاة، من بين أكثر من 1.6 مليون إصابة مؤكدة.

وفي 28 مايو أظهرت نتائج احصاءات عن حجم تفشي الوباء مقارنة ببقية أنحاء العالم، مشيرا الى ان عدد الوفيات في الولايات المتحدة أصبح هو الأعلى في العالم في أوائل أبريل 2020، وارتفع بشكل كبير منذ ذلك الحين ولم يكن الرئيس الأسبق دونالد ترامب عازفاً عن إثارة الرعب لدى المواطنين بل تبرع بأن هناك عدداً يتراوح بين 50 و60 ألف شخص قد يموتون أثناء تفشي المرض، وقد تم تجاوز هذا المؤشر القياسي ولا يزال هناك حوالي ألف حالة وفاة يوميا في المتوسط.

وبدلا من التركيز على الوفيات ذاتها، إختار ذكر معدل الوفيات، أي عدد الأشخاص الذين توفوا بالنسبة لعدد السكان، كدليل على أن الولايات المتحدة تعاملت مع الفيروس بشكل أكثر فعالية من بعض الدول الأخرى.

فقد شهدت بلجيكا، التي يبلغ عدد سكانها 11.5 مليون نسمة وفاة 82 شخصا من بين كل 100 ألف شخص خلال تفشي فيروس كورونا، بينما شهدت الولايات المتحدة، التي يبلغ عدد سكانها حوالي 330 مليون نسمة، ما يقرب من وفاة 30 شخصا من بين كل 100 ألف شخص.

ولكن إذا نظرت إلى نيويورك، وهي الولاية الأكثر تضررا في الولايات المتحدة، فإن معدل الوفيات هناك يقترب من 150 شخصا من بين كل 100 ألف شخص، مما يدل على وجود الكثير من الاختلافات في جميع أنحاء الولايات المتحدة.

وتظهر الاحصاءات ان أحد الأسباب التي أدت إلى أن يكون المنحنى البياني الذي يمثل عدد الوفيات اليومية في الولايات المتحدة مستوياً بدلا من تراجعه هو الحجم الهائل للبلاد، فبدلا من حدوث تفش واحد كبير، كان هناك العديد من مراكز العدوى التي تطورت في أوقات مختلفة وانتشرت بمعدلات مختلفة.

ففي نيويورك، ضرب الفيروس في وقت مبكر وانتشر بسرعة وبلغ ذروته في أوائل أبريل 2020، أما في بقية الولايات المتحدة فقد كان عدد الوفيات اليومية بطيئا في تراجعه.

كما شهدت بعض الولايات الأخرى التي تأثرت بشدة في وقت مبكر، مثل لويزيانا وميشغان، انخفاضا كبيرا في عدد الوفيات اليومية مثلما حدث في نيويورك.

في الحرب على «كورونا»

لماذا فشلت أميركا ونجحت كندا؟

يقارن البروفيسور دانا بول غولدمان، رئيس مركز «ليونارد شيفر» للسياسات الصحية بجامعة جنوب كاليفورنيا، ما بين تعامل الولايات المتحدة وكندا في مواجهة أزمة كورونا، قائلا: «نتشابه مع الجيران في أشياء كثيرة. لدينا أفضل المؤسسات الصحية والأكاديمية في العالم، والأنظمة السياسية متشابهة تقريبا. لكن مع الأسف نجحت كندا في إنقاذ أرواح الآلاف من مواطنيها، بينما انهارت المنظومة الصحية الأميركية بسبب فيروس كورونا».

ويضيف غولدمان-"كان يمكن للولايات المتحدة أن تكون في وضع مشابه لكندا في حال كان النظام الصحي الأميركي يعتمد نموذج 'الرعاية الصحية الشاملة'. لكن ما حدث هو العكس، إذ قاد الجمهوريون حربا على قانون الرعاية الصحية (أوباما كير)، ورفض الرئيس دونالد ترامب الإنصات لتحذيرات مبكرة من تفشي وباء كورونا في الولايات المتحدة، مما عقد الموقف فكانت النتيجة هي وفاة حوالي 132.360 ألف شخص بعد تصدر الولايات المتحدة لعدد الإصابات العالمية بإجمالي 3.067.780 (إلى حدود 9 يوليو 2020 بحسب قاعدة بيانات جامعة جونز هوبكنز).

مشاكل بنيوية تنخر المنظومة

يرصد البروفيسور غريغوري ستيفنز، الأكاديمي بجامعة نيو إنغلاند، أهم الأعطاب في المنظومة الصحية، فالنموذج الأميركي للرعاية الصحية مبني على جني الأرباح، والنتيجة هي نظام صحي جدّ مكلّف ماديا للطبقات الفقيرة والمتوسطة، إذ يتمتع الأغنياء بتغطية صحية جيدة، لكن الفقراء والطبقة المتوسطة قد يموتون بسبب أمراض لم تعد تقتل الناس في الدول الغنية.

ورغم أن الولايات المتحدة تأتي على رأس العالم المتقدم إلا أنه يوجد بها ملايين الأشخاص من دون تأمين صحي، لأن أسعاره مكلفة للغاية. كما أن أسعار الأدوية والتحاليل الطبية مكلفة جدا، مما يدفع الأميركيين إلى تجنب مراجعة الطبيب، إلا في حالة الطوارئ الشديدة. آنذاك، يُلزم القانون المستشفيات باستقبال المرضى حتى لو كانوا لا يمتلكون تأمينا صحيا. لكن حتى هذا الإجراء

ليس بالمجان، إذ يضطر المريض إلى تسديد فواتير زيارة المستشفى بالتقسيط.

ويرى غريغوري ستيفنز أن انسحاب الدولة من القطاع الصحي "نتج عنه نظام فوضوي يهدد صحة ملايين الأمريكيين، فهناك حوالي 10 % من الأمريكيين بلا تأمين، كما أن أسعاره جد مكلفة للطبقات المتوسطة والفقيرة. والأسوأ من كل ذلك، هو أن التأمين الصحي لا يغطي كل الأمراض، لأن الشركات تمنح التغطية الصحية على الأمراض العادية والموسمية مثل الأنفلونزا، لكن الأمراض المعقدة مثل السرطانات لا يغطيها التأمين، مما يتطلب دفع تكاليف إضافية من أجل العلاج».

وتعد أسعار الأدوية مشكلة أخرى تنخر المنظومة الصحية في أمريكا، إذ تقوم الشركات المنتجة بمضاعفة أثمانها سنويا، مما اضطر البعض إلى السفر إلى دول أخرى لاقتناء الأدوية" كما أوضح ستيفنز، وهو ما يجري منذ يوليو 2019، إذ تأسست مجموعة أطلقت على نفسها اسم "قافلة الأنسولين إلى كندا" وتقوم برحلات يومية من مدينة منيابوليس في ولاية مينيسوتا إلى إقليم أونتاريو الكندي لشراء عقار الأنسولين لعلاج مرض السكري. وبلغ سعر قنينة الأنسولين بالولايات المتحدة 340 دولارا، بينما يباع في كندا بأقل من 36 دولارا، حسب رئيسة منظمة "تي.1 انترناشونال غير الربحية والتي تساعد الطبقات الفقيرة لشراء الإنسولين، إليزابيت فيستر.

ديون طبية في أمريكا

يؤكد الخبير الأميركي في إصلاح الرعاية الصحية وأستاذ أستاذ الطب الوقائي بجامعة كاليفورنيا، الدكتور مايكل كوزينو، أن الولايات المتحدة «تمتلك واحدا من أسوأ النظم الصحية بين الاقتصادات المتقدمة، لأن ما يزيد عن 28 مليون شخص يعيشون بلا تأمين صحي حسب إحصاء عام 2018 والكثير من الأميركيين يحملون ديونا طبية بملايين الدولارات. ويموت المئات سنويا بسبب أمراض يمكن الوقاية منها. وأكبر مشكلة على الإطلاق هي ارتفاع تكاليف العلاج، فالدراسات تظهر أن الأميركيين يتجنبون الحصول على الرعاية التي يحتاجون إليها، بما في ذلك الحالات الخطيرة، مثل سرطان الثدي، بسبب عوائق التكلفة.

كل هذه نقاط ضعف تسيء لدولة غنية تمتلك أكبر اقتصاد في العالم"، فالملايين الذين لا يتوفرون على تأمين صحي "يتجنبون الذهاب إلى المستشفيات عندما يحتاجون إلى اختبار أو علاج. وعندما تتفشّى الأوبئة مثل كورونا، فإن هذه الشريحة هي التي تنقل الفيروسات بسرعة شديدة بدون علم السلطات الصحية. وهذا ما حدث».

لكن عندما تكون التغطية الصحية متاحة للجميع، فإن الفئات الفقيرة والمهمشة، مثل المهاجرين غير الشرعيين على سبيل المثال، يذهبون لتلقي العلاج في المستشفيات بالمجان. وهذه السياسة الصحية مفيدة للمجتمع في أوقات الأزمات، إذ تسهل السيطرة على الأوبئة عندما يكون الجميع قادرا على الوصول للعلاج. وتابع "هذا لم يحصل في أميركا. الفئات الفقيرة والمهمشة تحولت إلى نقاط ساخنة لنقل الفيروسات لأنها غير مؤمّنة وغير قادرة على دفع مئات الدولارات للمستشفيات مقابل العلاج».

ويتفق ستان هيوستن، أخصائي الأوبئة والأمراض المعدية والبرفسور في جامعة ألبرتا الكندية، مع ما يقوله الدكتور مايكل كوزينو، إذ يؤكد أن "كندا استطاعت التغلب على فيروس كورونا، لأن الرعاية الصحية مجانية للجميع. التغطية الشاملة على النموذج الكندي (ما يسمى 'الرعاية الصحية أحادية الدافع') يمنح الحكومة الكندية سلطات تنسيقية يفتقر إليها نظرائهم الأميركيون، فحينما

تتحكم الحكومة في نظام الدفع مقابل خدمات الرعاية الصحية، بدلاً من ترك القرارات للمستشفيات وشركات التأمين، فإنها تتمتع بقدر كبير من السلطة لقيادة النظام الصحي في أوقات الأزمات».

ويضيف "في كندا مثلا، عندما يعاني أحد المستشفيات من ارتفاع في الحالات ويحتاج إلى شحنة طارئة من معدات الوقاية، تستطيع الحكومة التدخل والعمل على نقلها من مستشفى أقل احتياجا. هذا لا يحدث في أمريكا، لأن المستشفيات تتنافس فيما بينها من أجل جني المال، ومن مصلحتها عدم مساعدة مستشفيات أخرى. بالإضافة إلى ذلك، لا تستطيع الحكومة إجبار هذه المستشفيات على القيام بأي شيء في هذا المجال. وفي حالة الأوبئة، تكون الحكومة غير قادرة على تنسيق الجهود العلاجية للرد بسرعة على تفشي الوباء».

وبالإضافة إلى تنسيق الجهود للتصدي للوباء، فإن نظام الرعاية الشاملة لديه ميزة أخرى في وقت الأزمات وهو سرعة إجراء الاختبارات وحجر المصابين لتطويق الوباء، بحسب هيوستن. وعلى سبيل المثال، فإن تايوان، التي تعتمد هذا النظام، "استطاعت التغلب على تفشي فيروس كورونا بسرعة، رغم أن ملايين المواطنين من تايوان يزورون الصين شهريا إلا أن عدد الوفيات الإجمالية بالفيروس لم تتجاوز سبع حالات (حتى 7 يوليو 2020). وكل مواطن لديه سجلات طبية رقمية في نظام موحد (غير مشتت بين الشركات الخاصة على الطريقة الأميركية). وخلال أزمة كورونا، أضافت البلاد سجلات السفر إلى هذا الملف الطبي عبر الإنترنت، بحيث يمكن لكل طبيب التحقق مما إذا كان المريض قد زار منطقة متأثرة بالفيروس".

يقول ديفيد فيزمان، عالم الأوبئة في جامعة تورنتو الكندية، إن النظام الهيكلي الفيدرالي الأمريكي والكندي متشابه، لكن التعاطي السياسي مع فيروس كورونا مختلف، إذ: "أبدى رئيس الوزراء الكندي، جاستن ترودو، منذ البداية احترامه للخبراء ولمستشاريه في القطاع الصحي. وفي المجمل، فإن الحكومة الكندية تدعم المقاطعات سواء كانت تابعة للمحافظين أو الليبراليين. لكن في أمريكا حدث العكس تماما. الرئيس ترامب قوّض بشكل مباشر استجابة السلطات الصحية لتفشي الفيروس، ودخل في مشادات كلامية مع حكام بعض الولايات الديمقراطية، وهمش الخبراء وبعض المستشارين في القطاع الصحي، وأقال مديري بعض الوكالات الفيدرالية المهتمة بالصحة العامة».

ويرى فيزمان أن "جهوزية أمريكا للأوبئة معرّضة دائما لمشاكل بسبب غياب نظام رعاية صحية شامل، لكن تصريحات ومواقف الرئيس الأسبق دونالد ترامب المشككة في العلماء والمختصين، كلفت الولايات المتحدة المزيد من الأرواح". وعلاوة على ذلك، يقول ستان هيوستن إن إدارة الرئيس دونالد ترامب للأزمة كانت "كارثية، فمنذ البداية أظهر عدم احترامه للعلماء والخبراء. وفي المجمل طريقة تسييره للأزمة قوّضت أي محاولة حكومية لاحتواء تفشي الفيروس».

وتعرض ترامب لانتقادات شديدة داخل الولايات المتحدة بسبب تعامله مع فيروس كورونا، إذ قلل من خطر الفيروس في المراحل المبكرة، بل وصف فيروس كورونا بـ "خدعة ابتكرها الديمقراطيون" لتقويض مواقفه الانتخابية، خلال تجمع انتخابي في ولاية كارولينا الجنوبية في 28 فبراير الماضي 2020. ثم أثار الجدل بتصريحات اقترح فيها حقن مرضى كورونا بالمطهرات.

«وعندما اندلعت أزمة كورونا كانت أمريكا تمتلك أقل من 160 ألف جهاز للتنفس الاصطناعي، وعدد الأسرّة والأطباء لكل ألف شخص أقل من المعدلات في إيطاليا وكوريا الجنوبية، بحسب تقديرات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية. وفي الولايات المتحدّة 2.8 سرير لكل ألف شخص، و2.6 طبيب لكل 1000 شخص، "وهو معدل قليل جدا مقارنة مع بلدان غنية أخرى"، كما يقول ستيفنز. ويشير إلى أن "السبب في قلة الأطباء هو التكلفة المرتفعة للتعليم الطبي في الولايات المتحدة، وعدد الأسرة قليل لأن عدد الأشخاص المؤمّنين قليل أيضا».

ويتفاقم هذا النقص، بحقيقة مؤلمة أخرى وهي أن الولايات المتحدة لديها معدلات أعلى من دخول المستشفيات بسبب الأمـراض المزمنة التي تشمل قصور القلب الاحتقاني والسكري والربو، وهي أمراض يمكن الوقاية منها بالرعاية الروتينية في أوقات مبكرة، لكن الأمريكيين يفشلون في زيارة الأطباء عندما تظهر عليهم أعـراض المرض بسبب التكاليف المرتفعة لزيارة الطبيب. ونتيجة هذا التحدي المتمثل في ازدحام المستشفيات الأمريكية بالآلاف من الأشخاص المصابين بأمراض السكري والربو خلال أزمة فيروس كورونا. فإن المستشفيات تستقبل مرضى كان يمكن علاجهم في أوقات مبكرة لو كان النظام الصحي يعمل بشكل أفضل، والآن يتعين على هذه المستشفيات استيعاب تدفق هائل للمرضى من شتى الأنواع، وليس الحاملين لوباء كورونا فقط».

يقول الدكتور ستيفنز، إن "السياسيين لم يستمعوا لتحذيرات الخبراء بالاستثمار في الصحة العامة تحسبا لتفشي الأوبئة. الحكومة التي يجب أن تحمينا على مدار عقدين هي التي حرمت المؤسسات العامة من تجهيز البلد لمحاربة الأوبئة. والنتيجة رأيناها جميعا عندما ضرب كورونا أمريكا، إذا لم يكن في المستشفيات ما يكفي من أجهزة التنفس الاصطناعي والأسـرّة، ولم يكن هناك أيضا ما يكفي من الأجهزة الطبية اللازمة مثل أغطية الوجه وأشياء بسيطة مثل المطهرات". "خلال العقد الماضي، خفضت الحكومة الفيدرالية ميزانية مركز مكافحة الأمراض والوقاية منها بنسبة 10 في المائة. وفي العامين الماضيين، عانى المركز – وفروعه في الولايات – من شح في الموارد بسبب خفض ميزانيته.

ويرى الخبراء أن الولايات المتحدة ارتكبت خطأ كبيرا عندما خفضت الموارد المالية المخصصة لأنشطة "مركز مكافحة الأمراض والوقاية منها" في الخارج بحوالي 80 في المئة، وقيام الرئيس دونالد ترامب في 2018 بإلغاء وحدة الأمن الصحي العالمي والدفاع البيولوجي The Global Health Security and Biodefense unit ، داخل إدارة مجلس الأمن القومي، والمسؤولة عن مراقبة انتشار الأمراض والأوبئة ومكافحة تفشيها.

ويحاول الأمريكيون التغلب على تبعات فيروس كـورونـا، غير أن الرئيس دونالد ترامب والحزب الجمهوري يخوضان معركة لدفن قانون الرعاية الصحية (أوباما كير) الهادف إلى توفير تأمين صحي شامل لكل أمريكي بتكاليف منخفضة. ويدفع الجمهوريون بقانون بديل لإسقاط «أوباما كير» بداعي «خفض كلفة التأمين الصحي»، إلا أن الخبراء يحذرون من أن هذا المقترح سيؤدي إلى حرمان 14 مليونا مستفيدا من التأمين في الولايات المتحدة.

وحقق الرئيس الأسبق ترامب ما يشبه الانتصار أمام المحكمة العليا التي أيدت، مقترح الجمهوريين الذي سيسمح لأصحاب العمل ممن لديهم اعتراضات دينية أو أخلاقية بتقييد حصول السيدات على خدمات مجانية

لتحديد النسل. ويفرض قانون أوباما كير للرعاية الصحية على أرباب العمل تغطية هذه الخدمة. ورغم أن هذا يعد انتصارا صغيرا، إلا أنه سيؤدي إلى فقدان 126 ألف امرأة لتغطية تحديد النسل، وقد يمهد لسقوط "أوباماكير" كليا عندما تعود المحكمة العليا إلى النظر في مصير هذا القانون.

والمفارقة أن "الولايات المتحدة هي البلد الوحيد بين البلدان المتقدمة التي لا يتمتع مواطنوها بالتأمين الصحي الشامل. الجمهوريون يشنون حربا على قانون الرعاية الصحية "أوباما كير"، لأنه يعطي بعض الامتيازات البسيطة للطبقات المتوسطة».

واليوم، فإن فيروس كورونا يؤكد مجددا ضرورة أن يكون التأمين الصحي حقا من حقوق الإنسان لجميع الأمريكيين بلا استثناء».

وأمام إجتياح الوباء لملايين الأمريكيين برزت آراء تحمل مسؤولية الوضع الحالي إلى "شركات الأدوية التي تتلاعب بصحة المواطن الأمريكي. فهذه الشركات تمنح سنويا ملايين الـدولارات للحملات الانتخابية للسياسيين، وهؤلاء يردون لها الجميل بسياسات تتربّح منها هذه الشركات. وفي الأخير، فإن الضحية الوحيدة لهذه المصالح المتبادلة هو المواطن الأمريكي».

لكن أزمة كورونا أظهرت هشاشة النظام الصحي الأمريكي الذي يعتمد بشكل كلي على الشركات الخاصة، التي لايهمها صحة المواطنين وأن «المستشفيات وشركات الأدوية تهتم بتحقيق أقصى درجات الربح، ولا أحد يستطيع أن يلومها اليوم على غياب أجهزة التنفس الاصطناعي أو الأسّرة. فكل مستشفى عبارة عن شركة. الشركات لا تستثمر في أشياء غير مربحة مثل الأوبئة».

البروفيسور دانا بول غولدمان يرى أن حوالي 27 مليون أمريكي سيفقدون وظائفهم بسبب تبعات كورونا على الاقتصاد، ولن يكون بمقدور هؤلاء وعائلاتهم تأمين أنفسهم من دون مساهمات الشركات التي تشغّلهم، مما يعني أن ملايين إضافية من الأمريكيين سيصبحون بلا تأمين، داعيا الحزب الجمهوري إلى وقف حملته لإسقاط القانون الوحيد (أوباما كير) الذي يتيح للفقراء الحد الأدنى من التغطية الصحية. ويحذر غولدمان من عودة ظهور فيروس كورونا بقوة في الخريف أو الشتاء المقبل، "وإذ بقيت مستويات البطالة قياسية، سيكون "أوباما كير" هو الحل الوحيد الذي سيعتمد عليه الملايين من العمال وأبنائهم من أجل الحصول على العلاج من الإنفلونزا الموسمية وأمراض أخرى"، مشددا على أن "الحرب الحالية على الرعاية الصحية لملايين الأمريكيين فكرة سيئة ومتوحشة في خضم وباء عالمي لا نعرف بعد كل تداعياته. إنها وصفة أخرى للفوضى».

أمريكا في ظل ترامب

دأب الرئيس الجمهوري على إتخاد قرارات صارمة بشأن معالجة أزمة كورونا، كان من نتائجها خلق أزمات سياسية مع الدول وتعميق الخلافات الداخلية فعلى صعيد العلاقة مع كندا أرغمت شركة "3m" المصنعة للأقنعة بناءاً على طلب الحكومة أيقاف تصدير أقنعة التنفس "N95" إليها وإلى دول أميركا اللاتينية.

وحذرت الشركة من أن طلب الحكومة لديه تداعيات إنسانية جسيمة ويمكن أن تدفع دولاً أخرى كي تقوم بالمثل.

فقد استندت الولايات المتحدة إلى قانون الانتاج الدفاعي الذي يعود إلى عصر الحرب الكورية، لتطلب من "3 أم" تقديم أقنعة أكثر.

ويعود القانون إلى عام 1950 ويسمح للرئيس إجبار الشركات على تصنيع منتجات للدفاع الوطني.

وقالت الشركة إنها تصنع حوالى 100 مليون قناع "أن 95" في الشهر – ثلثهم مصنوع في الولايات المتحدة، والباقي يتم إنتاجه في الخارج.

ولا تصنّع كندا أي من اقنعة "أن 95" محلياً، وقال رئيس الـوزراء جاستن تـرودو إن "خلق عقبات أو تخفيض التجارة سيكونان خطأً».

وأضاف "هناك آلاف الممرضين في ويندسور يعملون في ديترويت كل يوم، ويعتمد الأمريكيون عليهم. هناك منتجات طبية وسلع اساسية اخرى تنتقل عبر الحدود في الاتجاهين... هذه أشياء يعوّل عليها الأمريكيون».

لقد وجهت انتقادات واسعة للرئيس ترامب لتقليله من خطر الفيروس في المراحل الأولى ومن أهمية تسجيل الولايات المتحدة أعلى عدد في العالم للوفيات المتعلقة بمرض كوفيد- 19، بالرغم من إصابته نفسه بالمرض.

كان ترامب قد قارن معدلات الوفاة في دول أخرى مع معدلات الوفاة في الولايات المتحدة، زاعماً بأن الأخيرة أقل بكثير.لكن المقارنات بين الدول ليست عملية بسيطة، حيث توجد أساليب مختلفة في الإبلاغ عن البيانات الخاصة بفيروس كورونا.

إبطاء إجراء الفحوصات والعقار المضاد

في تجمع انتخابي، أبلغ الرئيس دونالد ترامب الحشود قائلاً: «قلت لجماعتي، أبطئوا من عملية إجراء الفحوص، من فضلكم».لكنه بعد ذلك قال إن تعليقه كان فيه نوع من السخرية.

غير أنه وصف عملية إجراء الفحوص بأنها "سلاح ذو حدين"، وقال إن زيادة الفحوص يمكنها أن تعطي انطباعاً مبالغاً به عن ارتفاع في حالات الإصابة.

وفي شهر مايو2020، أعلن أنه يتناول العقار المضاد للملاريا «هيدروكسيكلوروكواين» كإجراء احترازي ضد الإصابة بمرض كوفيد- 19.لكن لا يوجد دليل على أن هذا الدواء يمكنه محاربة الفيروس.

ونصح بشكل متواصل باستخدام هذا الدواء، خلافاً لنصيحة دكتور فاوتشي، الذي قال: " نحن نعرف أن كل دراسة جيدة – وأعني بدراسة جيدة دراسة عشوائية مراقبة تكون فيها البيانات راسخة وقابلة للتصديق – أظهرت أن عقار "هيدروكسيكلوروكواين" ليس فعالاً في علاج كوفيد- 19.»

كما أن إدارة الغذاء والدواء الأمريكية نصحت ضد استخدام العقار في علاج مرضى فيروس كورونا في أعقاب صدور تقارير عن وجود "مشاكل خطيرة في ضربات القلب" ومشاكل صحية أخرى.

وقالت منظمة الصحة العالمية إنه "لا يوجد دليل حالياً" على أن العقار فعال كعلاج أو أنه يقي من كوفيد- 19.

منع تمويل مراكز التحكم بالأمراض

كان لدى مراكز التحكم بالأمراض والوقاية منها، وهي هيئة حكومية مسؤولة عن الصحة العامة في الولايات المتحدة، خلافات مع الرئيس خلال انتشار الوباء حول الإرشادات المتعلقة بالإغلاق والإجراءات الأخرى.

في ذلـك الوقت، كـان المشرعون الأمريكيون يتفاوضون حول مساعدات كبيرة للتخفيف من أضرار فيروس كورونا، وكانت هناك تقارير في وسائل الإعلام

الأمريكية تتحدث عن أن إدارة ترامب تمارس الضغط من أجل خفض التمويل المقدم لمراكز التحكم بالأمراض والوقاية منها.

لكن البيت الأبيض نفى منع التمويل قائلاً: "ففي ميزانيتنا الأخيرة، شهدت مراكز التحكم بالأمراض والوقاية منها زيادة في مخصصاتها بواقع 635 مليون دولار، وهي زيادة بنسبة 8 %."

إجراء الفحوص في دور الرعاية يحظى بأهمية كبيرة، حيث أن كبار السن هم أكثر عرضة للإصابة بفيروس كورونا.

في المراحل الأولى من الوباء، كانت هناك أعداد كبيرة من الوفيات في دور رعاية المسنين في الولايات المتحدة وفي العديد من الدول الأخرى.

وقال البيت الأبيض إن 4.9 مليون جهاز فحص سريع جرى تسليمها إلى حوالي 14,000 دار معتمدة للرعاية.

وبحسب أرقام مراكز التحكم بالأمراض والوقاية منها، فإن هناك 15,600 دار للرعاية تضم 1.3 مليون مقيم.

وتقول البروفيسورة ديبرا باكرجيان، من مدرسة "بيتي آيرين مور" للتمريض في كاليفورنيا إن "إجراء فحص للمقيمين في دور الرعاية وللعاملين فيها كان صعباً، كما كان الحال بالنسبة لقطاعات الرعاية الصحية الأخرى».

الولايات الزرقاء

في خضم معركة الانتخابات الرئاسية تحول الوباء إلى مادة للمواجهة السياسية واتسمت تصريحات الرئيس دونالد ترامب بالتهور معتقداً أن استبعاد الولايات الزرقاء سيكون من شأنه إنخفاض الوفيات وأن الديمقراطيين مسؤولين عن إرتفاع الضحايا فإذا أخرجت نيويورك وبعض الولايات الأخرى التي يديرها الديمقراطيون من الصورة، ستتغيَّر الأرقام.

بدورها اللجنة الوطنية الديمقراطية ردت قائلة إن "مرض كوفيد ليس مسألة تتعلق بولاية حمراء أو زرقاء». ومن بين الولايات الخمس التي تضم أعلى أعداد للوفيات بفيروس كورونا، اثنتان يديرهما جمهوريون: تكساس وفلوريدا. صحيح أنه في المرحلة الأولى من انتشار المرض كانت الولايات التي يديرها ديمقراطيون مثل نيويورك ونيوجيرسي الأكثر تضرراً، وكان من نصيبها الغالبية العظمى من حالات الوفاة. ولكن مع تقدم الوباء، حصدت الولايات التي يقودها جمهوريون حصة متزايدة من الوفيات.

إنقاذ 36 ألف شخص

قدّرت دراسة أن عدد الوفيات بسبب فيروس كورونا كان ليكون أقل بنحو 36 ألف شخص، لو فرضت الولايات المتحدة الإغلاق قبل أسبوع من الموعد الذي بدأ فيه، في مارس 2020.

كما قدرت أبحاث جامعة كولومبيا أنه كان من الممكن تجنب حوالى 83% من الوفيات لو تم اتخاذ الإجراءات قبل أسبوعين، مشيرة إلى أن عدد الوفيات كان ليكون أقل بـ 54 ألف شخص، لو بدأت المدن تغلق أبوابها في الأول من مارس.

ووصف الرئيس دونالد ترامب الأمر بأنه «اغتيال سياسي».

ووفقًا لبيانات جامعة جونز هوبكنز، كان هناك أكثر من 93400 حالة وفاة مرتبطة بالفيروس حتى ذلك التاريخ.

وكان ترامب حث المواطنين على الحد من السفر بعد خمسة أيام من إعلان منظمة الصحة العالمية أن تفشي فيروس كورونا يعد وباءً عالمياً.

ثم انفردت الولايات بإجراءات الإغلاق في أوقات مختلفة، مع إغلاق ولاية كاليفورنيا ونيويورك، بينما أصبحت جورجيا واحدة من آخر الولايات التي طبقت مثل هذه الإجراءات.

ويقول النقاد إن تطبيق إدارة ترامب المعيب والمؤجل، يعني أن الولايات كان لديها معلومات محدودة عن مدى تفشي المرض في فبراير وأوائل مارس 2020.

وكانت نيويورك مركز تفشي المرض في الولايات المتحدة، وقد شهدت أكثر من 28 ألف حالة وفاة و360 ألف إصابة بـ»كوفيد – 19»آنذاك وبإعتراف حاكم المدينة أندرو كومو «لو كانت هذه الدولة تعرف أكثر وفي وقت سابق، لكان بإمكاننا إنقاذ المزيد من الأرواح».

معدل الوفيات السنوية ارتفع 14.5%

أظهر تقرير حكومي (21 أكتوبر 2020) أن الولايات المتحدة سجلت نحو 300 ألف حالة وفاة إضافية في عام 2020 خلال جائحة كورونا مقارنة بالسنوات الماضية.

إن ما لا يقل عن ثلثي هؤلاء توفوا بسبب كورونا وإن عدد الوفيات الناجمة عن الفيروس أكبر من الأرقام المعلنة على الأرجح.

وقدر التقرير الصادر عن «المراكز الامريكية لمكافحة الأمراض والوقاية منها» أن 299,028 ماتوا في الفترة ما بين 26 يناير والثالث من أكتوبر أكثر من متوسط أرقام السنوات الماضية. فقد بلغت 216 ألفا في منتصف أكتوبر. وأضافت «ربما يقلل هذا من التأثير الكلي للوباء على الوفيات».

وقالت لورين روسن من المركز الوطني للإحصاءات الصحية التابع للمراكز الأميركية لمكافحة الأمراض والوقاية منها «ثمة عوامل عديدة قد تسهم في زيادة الوفيات بشكل غير مباشر بسبب الوباء، ومن بين هذه العوامل اضطراب الرعاية الصحية».

وكان مركز السيطرة على الأمراض يتتبع عدد الوفيات التي تم الإبـلاغ عنها ومقارنتها مع التعدادات التي شوهدت في سنوات أخرى.وقد جرت العادة، بين بداية فبراير ونهاية سبتمبر من كل عام الإبلاغ عن حوالي 1.9 مليون حالة وفاة، لكن في عام 2020، اقترب عدد الوفيات من 2.2 مليون حالة وفاة، أي بزيادة 14.5 في المئة، وفقا لتقارير لوكالة الأسوشيتد برس.

تقول مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها إن حوالي 200 ألف حالة وفاة تعزى بالفعل إلى فيروس كورونا، ولكن من المحتمل أن يكون كوفيد – 19 عاملا في العديد من الوفيات الأخرى أيضا، على سبيل المثال، قد يتردد شخص يعاني من أعراض الأزمة القلبية في الذهاب إلى مستشفى كان مشغولا بمرضى فيروس كورونا.

الجزء الأكبر من الوفيات الإضافية، أي حوالي 95,000 وفاة، كان في فئة كبار السن، الذين تتراوح أعمارهم بين 75 و84 عاما، حيث كان معدل الوفيات بينهم 21.5 في المئة أكثر من العام العادي.

لكن أكبر زيادة نسبية، 26.5 في المئة، كانت في الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين 25 و44 عاما، غير أن وفيات الأشخاص الذين تقل أعمارهم عن 25 عاما سجلت انخفاضا طفيفا.

تجارب ثلاث دول ورؤساء

من أبرز المفارقات في خضم اجتياح كورونا لثلاث من أكبر الدول تضرراً هو الإصرار على لغة التهدئة فكانت قاسماً مشتركاً بين قادة الدول الثلاث الرئيس الأميركي دونالد ترامب والرئيس البرازيلي جايير بولسونارو ورئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي والتقليل من خطورة الفيروس في مراحله الأولى، ثم تباطؤوا في اتخاذ إجراءات احترازية بصورة سريعة وجادة معه منذ بدء انتشاره في دولهم.

ولعبت طبيعة النظام السياسي الفدرالي في الدول الثلاث دورا كبيرا في عدم اتخاذ خطوات تنسيقية موحدة حازمة بين الحكومة المركزية في العاصمة وبين بقية ولايات وأقاليم الدولة المترامية الأطراف.

وترك الرئيس دونالد ترامب إلى حد كبير استجابة الفيروس التاجي لحكام الولايات، وهو ما حدث بصورة كبيرة مشابهة في البرازيل والهند.

ويرى جيرمي يوودا أستاذ سياسات الصحة العامة العالمية في جامعة مينيسوتا أنه "عندما تجد استمرار زيادة نسب الإصابات بفيروس كورونا بنسب عالية في عدد قليل من الدول فإن عليك النظر لطريقة إدارة قيادتها لمواجهة الفيروس".

وأكد يوودا أنه "على الرغم من الاختلافات الظاهرة بين الولايات المتحدة والبرازيل والهند فإن ما يوحدها ويجعلها معرضة بشكل فريد لفيروس كورونا المستجد هو الافتقار إلى القيادة الحكومية الرشيدة بشأن التصدي للوباء".

وعلى العكس من الدول الثلاث اتخذ قادة بعض الدول إجراءات حاسمة منذ البداية كألمانيا وكوريا الجنوبية ونيوزيلندا، وتم تشديد الإغلاق مبكرا وبحزم، ولم يتم تخفيف الإجراءات إلا بعد ظهور علامات على بدء السيطرة على انتشار الفيروس، وهو ما لم تشهده الولايات المتحدة ولا الهند ولا البرازيل.

وقلل ترامب لأسابيع من خطورة الفيروس، كما استهزأ الرئيس البرازيلي بولسونارو عدة مرات بخطورة تفشي الفيروس في بلاده، وسخر من توصيات منظمة الصحة العالمية، ودفع إلى إبقاء اقتصاد البرازيل مفتوحا، واصفا أي خيارات أخرى بأنها "طريق إلى الفشل".

وفي الهند لم تكن حكومة رئيس الوزراء ناريندرا مودي مستعدة للتصدي للفيروس، حيث تم رفع الإغلاق في جميع أنحاء البلاد مبكرا بسبب الخوف من وقوع أزمة غذائية وقيام الكثير من المواطنين باحتجاجات واسعة النطاق مناهضة للحكومة.

على الجانب الآخر صورة مختلفة ففي الولايات المتحدة والبرازيل والهند هناك زعماء قللوا من خطورة الفيروس، ووجهوا رسائل مختلطة، ويتشاجرون ويختلفون علنا مع غيرهم من المسؤولين السياسيين ومسؤولي الصحة العامة الذين حاولوا جعل قضية انتشار فيروس كورونا المستجد أكثر أهمية.

وأقال بولسونارو وزير الصحة، واستقال وزير صحة آخر بسبب الخلاف على طريقة تعامل الحكومة في مواجهة تفشي انتشار الفيروس، ويشغل المنصب حاليا جنرال من الجيش البرازيلي.

الرئيس ترامب من جانبه لايخفى اعتراضه على توصيات مسؤولي قطاع الصحة العامة، ويهاجم الإعلام المؤيد له مدير المعهد الوطني للأمراض المعدية

الدكتور أنتوني فاوتشي على خلفية تبنيه مواقف تختلف عما يفضله الرئيس.

ورفض ترامب وبولسونارو لعدة أشهر ارتداء كمامة الوجه، واضطر الرئيسان لارتدائها لاحقا في مناسبات محدودة، حتى بعد اصابة كليهما بالفيروس، حيث يعتبران أن ارتداء الكمامة يعد من "الحريات الخاصة" التي يجب أن تترك للمواطنين لتقرير ارتدائها من عدمه.

في الواقع فالعمل الجماعي العالمي المشترك يعد حجر أساس للتوصل إلى اكتشاف مصل يساعد في القضاء على الفيروس، فيما يقود البلدان الثلاثة حاليا زعماء ذوو اتجاهات شعبوية قومية، وهذا التوجه الأيديولوجي يتعارض مع تفشي مرض جديد تماما ويتطلب تعاونا عالميا للتصدي بفعالية له. مكافحة فيروس كورونا المستجد تتجاوز التقدم التكنولوجي والطبي، ولا ترتبط بالخصائص المحددة لنظام الرعاية الصحية في دولة أو أخرى، الجوهر هو استعداد الحكومة والقيادة السياسية لتولي زمام المبادرة وتقديم التوجيه الفعال للمواطنين، وهذا ما تفتقده هذه الدول الثلاث.

إصابة ترامب بـ"كورونا".. غضب وإنتقاد!

في 2 أكتوبر مع 2020 أعلن الرئيس الأميركي دونالد ترامب إصابته وزوجته ميلانيا بفايروس كورونا وأنهما سيخضعان للحجر الصحي داخل البيت الأبيض في وقت كانت تحتدم فيه منافسات الانتخابات الرئاسية والحملات الانتخابية التي يواجه فيها صعوبات مع تقدم غريمه ومنافسه الديمقراطي جو بايدن في استطلاعات الرأي.

وجاءت إصابة الرئيس الأميركي قبل خمسة أسابيع من الانتخابات الرئاسية الأميركية، المقرر أن تجرى في الثالث من نوفمبر 2020.

ويواجه انتقادات لاذعة من قبل خصمه المرشح الديمقراطي، بشأن طريقة استجابة إدارته لمكافحة فيروس كورونا وهو ما جعله يسجل عدة نقاط على حسابه في أول مناظرة رئاسية بينهما.

لكن وفقاً لتقديرات سياسية لم تنجح المناورة بسبب تقليل الرئيس من أهميته وتعامله بنوع من الاستهتار حيال دعوات خبراء في مجال الصحة لضرورة أخذ الحيطة والحذر حيث لم يتردد علانية في إبداء رفضه لارتداء الكمامة التي تعد قاعدة هامة ضمن إجراءات من الإصابة بالفايروس فيما وجهت إليه انتقادات شديدة حتى من داخل معسكره الجمهوري لتعاطيه الفوضوي مع أزمة تفشي الوباء.

عندما خرج الرئيس دونالد ترامب لإلقاء التحية على أنصاره أمام مستشفى «والتر ريد» العسكري قرب واشنطن... وأثار غضب وانتقاد خبراء في الصحة.

جيمس فيليب كبير الخبراء المكلفين بحالات الكوارث في جامعة جورج واشنطن إعتبر إن «كل شخص كان في السيارة خلال تلك الجولة الرئاسية غير الضرورية إطلاقا يتعين عليه الآن أن يخضع للحجر الصحي 14 يوما». ومن وجهة النظر هذه قد يمرضون، قد يموتون من أجل عرض سياسي. تلقوا أمرا من ترامب لتعريض حياتهم للخطر للقيام بعرض، هذا جنون.

ووصف رئيس دائرة الأخلاق الطبية وسياسات الصحة في جامعة بنسلفانيا الأميركية زيكي إيمانويل جولة الرئيس خارج المستشفى بالمعيبة، فقد «جعل

أمريكا في المقدمة.. إصابات كورونا

عناصر حمايته الخاصة في السيارة نفسها مع مريض بكوفيد19-، ونوافذها مغلقة أيضا يعرضهم من دون داع لخطر الإصابة بالعدوى، ومن أجل ماذا؟ حملة علاقات عامة».

وتصاعد الجدل آنذاك، من احتمالات أن يكون قد عرض العديد من الأشخاص لإصابة بالفيروس حتى بعد أن جاءت فحوص هوب هيكس مستشارة ترامب إيجابية. ويشير جدول زمني عرضه مستشارو ترامب وأطباؤه إلى أن الرئيس التقى أكثر من 30 فردا من المانحين لحملته الانتخابية في ولاية نيوجيرسي، حتى بعد معرفة إصابة هيكس بالفيروس، وقبل ساعات قليلة على إعلان ترامب النتيجة الإيجابية لفحصه.

وعبر خبراء في الصحة العامة عن قلقهم إزاء ما تسمى "بؤرة البيت الأبيض"، التي نسبت إلى الاحتفال الذي أقيم في 26 سبتمبر 2020 في حديقة الـورود، احتفاء بترشيح ترامب للقاضية إيمي كوني باريت لعضوية المحكمة العليا.

يومها ما قال أطباء لا يشاركون في علاج ترامب إن الكشف عن أنه بدأ بتناول عقار ديكساميثازون، وهو عقار يستخدم على نطاق واسع في مكافحة أمراض أخرى لتقليل الالتهابات، دليل على أنه عانى من أعراض شديدة.

وكشف الفريق الطبي لترامب أنه بدأ تناول العقار المذكور بعد معاناته من انخفاض في مستوى الأكسجين، لكن حالته تحسنت.

وتقول جمعية الأمـراض المعدية بأميركا إن ديكساميثازون مفيد لمرضى الحالات الحرجة والشديدة من فيروس كورونا الذين يحتاجون إلى أوكسجين إضافي. لكن الدراسات تشير إلى أن العقار غير مفيد،

وربما يكون ضارا بالنسبة للأفراد الذين لديهم أعراض متوسطة.

وحصل ترامب (74 عاما) على جرعتين من عقار ريمديسيفير المضاد للفيروسات ضمن فترة علاجية تستمر 5 أيام، إضافة إلى عقار ديكساميثازون، وهو من عائلة الستيرويدات، ويستخدم لعلاج مرضى الحالات الحرجة المصابين بفيروس كورونا

وبعد مرحلة التقليل من أهمية كورونا وحالة اللامبالاة التي روج لها ثم عاد مرة أخرى ليؤكد أنه تعلم الكثير من فيروس كورونا بطريقة مباشرة. وأضاف أنه تلقى تقريرا رائعا من الفريق الطبي ويشكرهم "على العمل الرائع الذي قاموا به».

يوم 12 أكتوبر عاد ترامب إلى الحملة الانتخابية في فلوريدا، للمرة الأولى، منذ أن أعلن إصابته بكورونا، زاعماً أنه قوي، وأعرب عن أمنيته في تقبيل النساء والرجال.

وظهر في المؤتمر الانتخابي بمكان مفتوح دون كمامة للوقاية، مدافعاً عن إدارته للجائحة، كما تحدث مراراً عن "تعافيه" من الفيروس.

وأمام الآلاف من أنصاره الذين كانوا يقفون متلاصقين ومعظمهم لا يضع كمامات، قال: "تعافيت منه الآن. يقولون إنني محصن. أشعر أنني قوي جداً". ومضى يقول "سأقبل الفتيان والنساء الجميلات"، لتتعالى صيحات الجمهور.

إصابة ترامب.. هل هي "مفاجأة أكتوبر"؟

تساءلت وسائل إعلام أمريكية عما إذا كانت إصابة الرئيس دونالد ترامب وزوجته ميلانيا بفيروس كورونا، هي «مفاجأة أكتوبر» لانتخابات الرئاسة الامريكية.

و"مفاجأة أكتوبر" هو مصطلح في السياسة الأميركية يشير إلى حدث كبير يقع في شهر أكتوبر قبل الانتخابات الرئاسية المقررة دائما في نوفمبر، ويكون من شأنه تغيير دفة استطلاعات الرأي أو دعم مرشح أو إلحاق الضرر بآخر وبالتالي خلط الأوراق وتغيير الحسابات السياسية قبيل التصويت.

وذكر موقع "ماركت ووتش" الأمريكي أن السؤال الذي يحاول محللون الإجابة عليه هو ما إذا كانت إصابة ترامب بكورونا هي تلك "المفاجأة" وما هو مدى تأثيرها قبيل الانتخابات.

ونقل الموقع عن روني نيم، كبير المحللين في شركة " سكويرد فاينانشال" للخدمات المالي، قوله: إن "كيفية تعافي ترامب من كورونا يمكن أن تغير قواعد اللعبة للانتخابات».

وأضاف: "إذا تعافى بسرعة يعني هذا أنه كان محقا بشأن الفيروس، وسيكون بمثابة دفعة كبيرة لحملته. لكن اذا ساءت حالته كثيرا، سيظهر ذلك أن سياسة التعاطي مع الوباء أسيء تقديرها».

وأبدى مارشال غيتلر، رئيس أبحاث الاستثمار في مجموعة BDSwiss رأيا مغايرا، حيث أشار أن إصابة ترامب بكورونا ستصب في صالح الديمقراطيين.

وقال: "حتى لو تمتع بصحة جيدة بما يكفي للاستمرار، فما الرسالة التي سيصل إليها مؤيدوه الذين صدقوه عندما قلل باستمرار من خطورة الفيروس، وقال إنه سيختفي؛ وقال إن تجاوب إدارته على الفيروس كان 'مثاليًا؟»".

وتابع: علاوة على ذلك، تستند شخصية ترامب بأكملها على هالة "الفوز"؛ وإذا ظهر أنه ضحية، فقد يتسبب ذلك في تشكك الناس في النصيحة التي كان يقدمها بشأن الفيروس حتى الآن. وسيخيب أملهم من زعيمهم، ومن المرجح أن يصوتوا للديمقراطيين».

ومصطلح "مفاجأة أكتوبر" يشير إلى مؤامرة مزعومة غير مثبتة للتأثير على نتيجة الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام 1980، التي دارت بين الرئيس الديمقراطي جيمي كارتر وخصمه الجمهوري حاكم كاليفورنيا السابق رونالد ريغان.

وآنذاك، أثير ادعاءً بأن ممثلي حملة ريغان الرئاسية تآمروا مع إيران لتأجيل الإفراج عن رهائن أمريكيين إلى ما بعد الانتخابات لإحباط الرئيس كارتر من تحقيق مفاجأة أكتوبر.

بين اسبانيا وأمريكا..

استعدوا لعامين من ارتداء الكمامات !

حذرت عالمة فيروسات إسبانية بارزة من أن معظم سكان العالم سيحتاجون لارتداء أقنعة واقية «لمدة عامين» على الأرجح؛ خوفاً من فيروس «كورونا»، وقالت الدكتورة مارغريتا ديل فال، رئيسة المجلس القومي للبحوث الإسباني: «سوف نتغلب على ذلك خلال سنتين تقريباً؛ لكن لا يتعين علينا أن نتوقع أن يكون ذلك كالجري لمسافة مائة متر. الأمر يشبه السباق». ومثل الولايات المتحدة، وجد مسؤولو الصحة الإسبان، كالدكتورة ديل فال، أنفسهم على خلاف مع السياسيين المتقاتلين حول كيفية إدارة أزمة فيروس «كورونا».

في ظل دخول إسبانيا دائرة أكثر الدول تضرراً في أوروبا، وفرضت مزيداً من القيود الجديدة على أمل إبطاء الانتشار المتسارع مرة أخرى لفيروس «كورونا». وارتداء الكمامات يعتبر أمراً مطلوباً، خارج المنزل وتقتصر التجمعات على ستة أشخاص.

ويعكس تحذير الدكتورة ديل فال مشاعر اختصاصي الأمراض المعدية الأميركي الدكتور أنتوني فوتشي الذي حذر بالقول إنه حتى لو تم تطعيم 75 أو 80 في المائة من سكان الولايات المتحدة، «فلن يتم القضاء على الحاجة إلى توخي الحذر وإتباع تدابير الصحة العامة لدينا.

وتم اكتشاف فيروس «كورونا» لأول مرة في الولايات المتحدة وإسبانيا على حد سواء في يناير 2020.

وفي الأشهر العشرة منذ عام 2020 تقريباً، اقتربت كل دولة من نقطة التحول لأنظمة الرعاية الصحية الخاصة بها، وأصبحت الأقنعة هي القاعدة، وتراجعت الحالات إلى معدلات مقبولة.

وبدأ الأميركيون والإسبان على حد سواء في الاستمتاع بالطقس الدافئ، وفرصة التجمع في أماكن آمنة في الهواء الطلق.

وقالت الدكتورة ديل فال: «أعتقد أنه عندما كان الناس يأكلون ويشربون في الخارج، كانوا يتخذون إجراءً واحداً، الهواء الطلق يعتبر أمراً جيداً، لكنهم كانوا ينسون مقياساً ثانياً؛ إما الإبقاء على مسافة آمنة وإما ارتداء الأقنعة». وأشارت إلى أنه في الوقت الذي تم فيه رفع طلبات البقاء في المنزل، بدأت الشوارع والمطاعم ووسائل النقل العام في إسبانيا تبدو مزدحمة تماماً كما كانت قبل الوباء. لكن الوجود على مقربة من أشخاص آخرين سيظل يمثل مشكلة ما دام الفيروس ينتشر في العالم.

إختفاء الفيروس

توقعات الأطباء حول المدى الزمني الذي سيبقى فيه هذا الفيروس لم تكن متوافقة، فالأكاديمي في جامعة جونز هوبكنز مارتي مكاري: توقع أن يختفي الوباء من أميركا على الأغلب بحلول أبريل 2021، فمعدل الاصابات اليومي إنخفض بنسبة 77% منذ يناير 2021، وهذا ماسيسمح للأمريكيين بإستئناف حياتهم الطبيعية استناداً إلى عدد التطعيمات التي اعطيت بالاضافة إلى عدد المصابين الذي تجاوز 28 مليوناً، يمكن أن يساهم في تشكيل مناعة القطيع بحلول ربيع 2021.

وأعـرب الأكاديمي في جامعة جونز أن مناعة القطيع ستحمي من انتشار سلالات جديدة من فيروس «كورونا» و«عندما يتم كسر سلسلة انتقال الفيروس في أماكن متعددة، سيكون من الصعب انتشاره، وهذا يشمل السلالات الجديدة».

وتبدو توقعات مكاري، أكثر تفاؤلاً مقارنة بغيره من الخبراء، فمثلاً أنتوني فوتشي، كبير خبراء الأمراض المعدية في الولايات المتحدة أن تعود الحياة إلى طبيعتها بحلول الخريف. أما أوغور شاهين، الشريك المؤسس لـ«بيونتك»، المساهم في صناعة لقاح «فايزر بيونتك»، فقد توقع أن تعود الحياة إلى طبيعتها في بريطانيا وأوروبـا والولايات المتحدة مع دخول فصل صيف 2021 ومع أن هؤلاء الخبراء تحدثوا عن مناطق بعينها في العالم فإنهم يعطون مؤشرات يمكن القياس عليها في بقية أنحاء العالم، وهي توزيع اللقاح والإصابات الفعلية بالوباء.

كندا

هي البلد الثاني عالمياً من حيث المساحة الكلية، وحدودها المشتركة مع الولايات المتحدة من الجنوب والشمال الغربي هي الأطول في العالم.

تقع في أمريكا الشمالية تتألف من10 مقاطعات وثلاثة أقاليم، وتقع في القسم الشمالي من القارة وتمتد من المحيط الأطلسي في الشرق إلى المحيط الهادي في الغرب وشمالاً في المحيط المتجمد الشمالي.

أراضي كندا مأهولة منذ آلاف السنين من قبل مجموعات مختلفة من السكان الأصليين. مع حلول أواخر القرن الخامس عشر بدأت الحملات البريطانية والفرنسية استكشاف المنطقة ومن ثم استوطنتها على طول ساحل المحيط الأطلسي. تنازلت فرنسا عن ما يقرب من جميع مستعمراتها في أمريكا الشمالية في عام 1763 بعد حرب السنوات السبع. في عام 1867، مع اتحاد ثلاث مستعمرات بريطانية في أمريكا الشمالية عبر كونفدرالية تشكلت كندا باعتبارها كياناً فدرالياً ذا سيادة يضم أربع مقاطعات.

يعد ذلك اتسعت فيها مساحة كندا وتوسع حكمها الذاتي عن المملكة المتحدة. تجلت هذه الاستقلالية من خلال تشريع وستمنستر عام 1931 وبلغت ذروتها في صورة قانون كندا عام 1982 الذي قطع الاعتماد القانوني لكندا عن البرلمان البريطاني.

دولة فيدرالية يحكمها نظام ديمقراطي تمثيلي وملكية دستورية حيث الملكة إليزابيث الثانية قائدة للدولة. الأمة الكندية أمة ثنائية اللغة حيث الإنكليزية والفرنسية لغتان رسميتان على المستوى الاتحادي.

تعد واحدة من أكثر دول العالم تطوراً، حيث تمتلك اقتصاداً متنوعاً وتعتمد على مواردها الطبيعية الوفيرة، وعلى التجارة وبخاصة مع الولايات المتحدة اللتان تربطهما علاقة طويلة ومعقدة. كندا عضو في مجموعة الدول الصناعية السبع ومجموعة الثماني ومجموعة العشرين وحلف شمال الأطلسي ومنظمة التنمية والتعاون الاقتصادية ومنظمة التجارة العالمية ودول الكومنولث والفرنكوفونية ومنظمة الدول الامريكية والأمم المتحدة.

تمتلك كندا واحداً من أعلى مستويات المعيشة في العالم حيث مؤشر التنمية البشرية يضعها في المرتبة الثامنة، وهي على قائمة أفضل عشر دول تجارية، وأكبر المستوردين الأجانب للبضائع الكندية هم الولايات المتحدة والمملكة المتحدة واليابان. تخصص نحو 1.88 % من ناتجها المحلي الإجمالي للبحث العلمي والتطوير، وانجبت البلاد 15 من الحائزين على جائزة نوبل في الفيزياء والكيمياء والطب. وتصنف الأولى كأكثر دولة تعليما في العالم، ويبلغ تعدادها 38,446,000 نسمة حسب إحصاء 2020، واللغة الرسمية في البلاد الانكليزية والفرنسية.

تُقدم الرعاية الصحية في كندا عبر أنظمة الرعاية الصحية الإقليمية الممولة من القطاع العام، بالاعتماد على أحكام قانون الصحة الكندي لعام 1984، ويعتبر الكنديون أن الحصول على الخدمات الصحية الممولة من القطاع العام أمر بديهي، يضمن تأمين الرعاية الصحية الوطنية حصول جميع المواطنين على الرعاية الصحية أينما كانوا في أنحاء البلاد. ومع ذلك، يُدفع نحو 30 % من الرعاية الصحية للكنديين للقطاع الخاص.

تمتلك كندا واحدة من أعلى معدلات السمنة لدى البالغين بين دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (أو-إي-سي-دي) وحوالي 2.7 مليون حالة من مرض السكري (من النوعين 1 و 2 مجتمعين). تسبب أربعة أمراض مزمنة: السرطان (السبب الرئيسي للوفاة) وأمراض القلب والأوعية الدموية وأمراض الجهاز التنفسي ومرض السكري 65 % من أسباب الوفيات في كندا. وأفاد المعهد الكندي للمعلومات الصحية في عام 2017 أن الإنفاق على الرعاية الصحية بلغ 242 مليار دولار، أو 11.5 % من الناتج المحلي الإجمالي لكندا في ذلك العام. يصنف نصيب الفرد من الإنفاق في كندا بين أعلى أنظمة الرعاية الصحية في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية.

كندا ورحلة الاصابات بـ«كورونا»

في 26 يناير2020 أعلنت سلطات الصحة العامة في تورونتو الكندية عن تسجيل أول حالة إصابة بفيروس كورونا لأحد السكان الذي عاد الى المدينة من مدينة ووهان الصينية المصنفة كبؤرة أولى لانتشار المرض على مستوى العالم.

فبراير: ارتفاع الإصابات الى 12

أعلنت السلطات الكندية، 27 فبراير، ارتفاع عدد الإصابات بفيروس كورونا في البلاد إلى 12 شخصا، بعد تسجيل إصابة لسيدة في مدينة تورونتو.

وسبق أن أعلنت كندا، في وقت سابق من شهر فبراير، إجلاء 364 من رعاياها المحاصرين في مدينة ووهان الصينية، على خلفية انتشار "كورونا».

مارس: أول حالة وفاة.. والاصابات تتجاوز الألف

سجلت بتاريخ التاسع من مارس عام 2020، أول حالة وفاة بفيروس كورونا، في ولاية بريتش كولومبيا.

وقال مسؤول وزارة الصحة بالولاية، بوني هنري، إن المتوفى هو أحد حالتين تم اكتشاف إصابتهما بالفيروس في 2 مارس.

وأضاف أنه "تم تشخيص إصابة إحدى العاملات في مركز الرعاية بالفيروس وعزلها إثر ذلك، عدا عن إصابتين بين المقيمين في المركز، وأوضح أن عدد المصابين في الولاية بلغ 32.

في 30 مارس، تجاوز عدد الإصابات حاجز الألف إصابة، ليستقر عند 1128 إصابة، فيما بلغ عدد حالات الوفاة 23 حالة. ومع تزايد الحالات لجأ رئيس الوزراء الكندي جاستن ترودو، إلى إغلاق الحدود بين كندا والولايات المتحدة، في خطوة تهدف إلى منع التنقّلات غير الضروريّة والحدّ من انتشار الفيروس.

أكبر حصيلة وفيات يومية

أعلنت السلطات الصحية، ارتفاع حصيلة المتوفين من 2904 إلى 3082 حالة، في زيادة بنسبة 6 %، ويشير هذا الرقم إلى ارتفاع كبير في معدل زيادة الوفيات بالفيروس على أساس يومي، حيث سجلت في البلاد 27 أبريل 128 حالة، وفي 28 أبريل 149، وفي 29 أبريل 138 كما واصل العدد العام للإصابات المسجلة بالفيروس ذلك اليوم بواقع 1683، ليصل إلى 52056 حالة، ويمثل هذا الرقم ارتفاعا جديدا للمعدل اليومي للإصابات، حيث سجلت في 27 أبريل 1536 حالة جديدة، وفي 28 أبريل 1692، وفي 29 أبريل 1348.

قفزة للوفيات 5 % في يوم واحد

وفي 5 مايو 2020 أعلنت هيئة الصحة العامة، عن ارتفاع عدد الوفيات بنسبة 5% بالمقارنة مع حصيلة اليوم السابق له،

وحسب بيانات الهيئة، فإن إجمالي عدد الوفيات بسبب الفيروس بلغ 4111 حالة، بينما ارتفع إجمالي عدد المصابين إلى 62458.

وفي وقت سابق كان رئيس الوزراء الكندي جاستين ترودو قد أعلن أن كندا ستساهم بـ 850 مليون دولار في الجهود الدولية لتطوير لقاح ضد الفيروس كورونا وتخصيص 9 مليارات دولار لحملة دعم المواطنين المتضررين من تفشي الوباء.

كندا ورحلة الاصابات بـ«كورونا»

في 19 مايو بلغ عدد الوفيات 5943 حالة، وارتفع عدد المصابين الى 78 ألف و78 إصابة.

يونيو: 8575 حالة وفاة

عند الرابع من شهر يونيو، ارتفع عدد من الوفيات في عموم كندا إلى 7 آلاف و558 حالة، بحسب بيان صادر عن وزارة الصحة الفيدرالية، بينما ارتفع عدد المصابين إلى 93 ألفًا و947 شخصًا.

وخلال يومين، ما لبث عدد الوفيات ان ارتفع الى 7751 حالة، مع بلوغ عدد الإصابات 94 ألفًا و328 شخصًا، غير أن الوفيات تصاعدت في 18 من الشهر ذاته الى 8307 حالات، فيما بلغ عدد المصابين 101 ألف و74 شخصًا.

وفي 10 يونيو سجلت كندا 145 وفاة بالفيروس، لترتفع الحصيلة إلى 8004، فيما ارتفعت الإصابات إلى 98 ألفا و228. وحتى 28 يونيو بلغ عدد الوفيات 8575 حالة، وبلغ عدد المصابين 104 آلاف و865.

يوليو: تصاعد أعداد الإصابات

أعلنت كندا في 31 يوليو ان اجمالي الإصابات بفيروس كورونا بلغ 116300 إصابة فيما تم تسجيل 8900 وفاة حتى ذلك التاريخ.

كذلك، أعلن رئيس الوزراء جاستن ترودو أنه أصبح ممكنا منذ صباح ذلك اليوم تنزيل تطبيق تتبع الاتصالات الذي يهدف إلى تتبع انتشار الوباء.

وقال "لقد قمت بتنزيل التطبيق في وقت سابق وأشجعكم على أن تفعلوا الأمر نفسه».

وتنزيل هذا التطبيق المجاني الذي تم تطويره بالشراكة مع الشركتين الكنديتين "شوبيفاي" و"بلاكبيري"، أمر طوعي.

وتطبيق "أليرت كوفيد" متاح في عموم كندا لكنه مرتبط حاليا بنظام أونتاريو الصحي فقط. وأوضح ترودو أن "المحافظات الأخرى ستتبعها قريبا». وسيقوم التطبيق بتنبيه المستخدمين الذين كانوا على اتصال مع شخص ثبتت إصابته بالفيروس.

أغسطس: 9094 حالات وفاة

وفي 21 أغسطس، أعلنت السلطات الكندية بلوغ عدد الوفيات بكورونا 9094 حالة، ووصلت الإصابات إلى 125 ألفًا و395.

سبتمبر: 1351 إصابة في يوم واحد

وفي 14 سبتمبر أعلنت تسجيل 1351 إصابة جديدة، في أعلى حصيلة يومية منذ مطلع مايو مع إعادة فتح المدارس، وزيادات الإصابات المرتبطة بالتجمعات الكبيرة، بينما وصل عدد الوفيات إلى 1248.

ودعت كبيرة الأطباء الكنديين تيريزا تام، لتكثيف الجهود لمنع انتشار الفيروس، وإلا سيكون هناك ارتفاع كبير في الإصابات، مما سيتطلب فرض إجراءات الإغلاق من جديد.

أكتوبر: استمرار غلق الحدود مع امريكا

في 1 أكتوبر سجلت 1471 حالة إصابة جديدة بفيروس كورونا، مما جعل البلاد تتجاوز حاجز الـ160 ألف إصابة بالفيروس.

وارتفع إجمالي الإصابات هناك إلى 160 ألفًا و229 إصابة، من بينها 9316 حالة وفاة، بنسبة وفيات بلغت 5.8 %.

وفي 8 أكتوبر وصل عدد حالات الإصابة بالفيروس إلى 175 ألفا و 380 حالة بحسب بيانات جمعتها جامعة جونز هوبكنز.

وأشارت البيانات إلى أن عدد الوفيات بلغ 9593 حالة.

وفي 16 أكتوبر أعلن رئيس وزراء كندا رفضه فتح الحدود مع الولايات المتحدة قبل السيطرة على الوباء.

وقال: "لقد التزمنا بالحفاظ على سلامة الكنديين ونواصل تمديد إغلاق الحدود لأن الولايات المتحدة ليست في مكان نشعر فيه بالراحة عند إعادة فتح تلك الحدود".

وكان مقررا أن تنتهي اتفاقية إغلاق الحدود بين الولايات المتحدة وكندا في 21 أكتوبر، ولكن من المرجح أن يتم تمديدها للمرة السابعة منذ أن دخلت حيز التنفيذ لأول مرة في مارس 2020.

وفي 25 أكتوبر بلغ عدد المصابين 216104 مصابين، بينما ارتفع عدد الوفيات الى 9946 حالة.

نوفمبر: اغلاق كامل في تورنتو 28 يوما

أعلنت السلطات الكندية، 23 نوفمبر 2020، فرض

الإغلاق الكامل في مدينة "تورنتو" وجزء كبير من ضاحيتها (منطقة بيل)، ولمدة 28 يوما، على خلفية تزايد الإصابات بفيروس كورونا.

وقال رئيس وزراء مقاطعة أونتاريو، "الوضع خطير جدا ويتطلب اتخاذ إجـراءات أخرى ضرورية لمنع سيناريو أسوأ"، بحسب شبكة "سي تي في نيوز" الكندية.

وبنهاية نوفمبر، وصل إجمالي عدد الإصابات في كندا إلى 376 ألفا، وفقا لإحصاء من جامعة جونز هوبكنز، ونحو 12 ألف وفاة مرتبطة بفيروس كورونا.

ديسمبر: تسجيل نصف مليون إصابة

في ديسمبر 2020، تجاوزت عتبة نصف مليون إصابة بفيروس كورونا المستجد، وبلغت الوفيات 14128 وفاة.

وارتفعت الإصابات التي يقطنها نحو 38 مليون شخص، من 400 ألف إلى 500 ألف خلال 15 يوما، في حين أن البلاد لم تبلغ عتبة 100 ألف إصابة إلا منتصف يونيو أي بعد ثلاثة أشهر على ظهور الفيروس.

وفي نهاية الشهر ذاته، أكدت تسجيل أول إصابتين بفيروس كورونا المتحوّر، الذي ظهر في بريطانيا آنذاك، ويملك قدرة أكبر على العدوى.

نائبة رئيس قطاع الصحة في مقاطعة أونتاريو، أوضحت إنّ "الإصابتين هما لزوجين من دورهام»، وتمّ عزلهما.

يناير: 769 ألف إصابة

لغاية 29 يناير 2021 سجَّلت نحو 769 ألف إصابة بفيروس كورونا و19 ألف وفاة، وفق إحصاءات رسمية.

وكانت تشهد منذ ديسمبر 2020 تسارعًا حادًا في انتشار الفيروس، ما استدعى إعادة فرض إغلاق في المقاطعتَين الأكثر تضرّرًا من الجائحة، أونتاريو وكيبيك. وفي المقاطعة الناطقة بالفرنسيّة.

وأعطت أوتاوا الضوء الأخضر لاستخدام لقاحَي فايزر/ بايونتيك وموديرنا، وأطلقت حملة تطعيم تاريخيّة في منتصف ديسمبر.

وعلقت رحلاتها الجوّية إلى بلدان أميركا الجنوبيّة، في تشديد للإجراءات الهادفة إلى إبطاء انتشار الوباء، وأعلنت أنه سيتعيّن على المسافرين الوافدين إليها قضاء فترة حجر صحّي في الفنادق على نفقتهم الخاصّة.

تأتي الإجـراءات الجديدة مع تزايد شعور مسؤولي الصحّة العامّة بالقلق حيال انتشار طفرات جديدة من كوفيد- 19 سريعة الانتشار، إضافة إلى ازديـاد عدد الكنديّين الذين يقضون إجازات خارج البلاد هذا الشتاء.

فبراير: 21 ألف وفاة

ارتفعت حصيلة الإصابات إلى 854 ألفا و190 إصابة حتى تاريخ 23 فبراير 2021، كما ارتفعت الوفيات جراء الاصابة الى 21 ألفاً و 720 حالة وفاة.

الآثار الاقتصادية للجائحة

واجهت الحكومة الكندية منذ اليوم الأول لظهور الاصابات بإجراءات صارمة بشأن التباعد والوقاية في الوقت الذي بـادرت فيه إلى دعم القطاعات الاقتصادية المتضررة ومساعدة الافراد الذين توقفت مداخيلهم.

فقد أعلنت تخصيص مبلغ 728 مليون دولار لمواجهة

الوباء. وسيساهم التمويل في معالجة تأثير الفيروس وفي دعم المزيد من البحوث، بما فيها تطوير اللقاحات.

وقد حثّ رئيس الوزراء الكنديين الأخذ بتوصيات مسؤولي الصحة العامة للمساعدة في الحد من انتشار الوباء ولتجنب إرهاق نظام الرعاية الصحية.

69 مليار دولار لمن فقدوا وظائفهم

أنفقت الدولة مبلغ 37 مليون دولار كندي على المواطنين القادمين من الخارج مقابل قضاء فترة الحجر الصحي في الفنادق، منذ مارس وحتى 20 أغسطس عام 2020.

وأوضحت في بيان أنها استأجرت 3222 غرفة فندق لاستيعاب المواطنين الذين جلبوا من الخارج ثم قامت الحكومة بتمديد فترة برنامج المساعدة لحالات الطوارئ؛ الخاص بدعم من فقدوا أعمالهم بسبب فيروس كورونا.بعد أن تم استقطاع 37 مليار دولار كندي من الميزانية من أجل استمرار دفع تلك المساعدة التي تقدم بمقدار ألفي دولار شهريًا لكل من فقد عمله وبلغ إجمالي المساعدات التي دفعتها حتى 27 سبتمبر نحو 69 مليار دولار من أجل هذه المساعدات.

هبوط قياسي في مبيعات المصانع

بدأت الآثار تتمدد وتطال الاقتصاد فقد أظهرت بيانات رسمية (15 يونيو) أن مبيعات الصناعات التحويلية سجلت هبوطاً قياسياً بلغ 28.5 بالمائة في إبريل، مع تضرر أنشطة القطاع من جائحة فيروس كورونا.

وعدلت هيئة الإحصاءات أيضا رقم المبيعات لشهر مارس بالخفض إلى 9.8 بالمائة من تراجع مبدئي بلغ 9.2 بالمائة.

وسجلت كل الصناعات التي ترصدها هيئة الإحصاءات وعددها 21، انخفاضات في إبريل بينما قال أربعة أخماس المصنعين إن الجائحة أثرت على عملياتهم، ومن حيث الحجم هبطت المبيعات 26.0 بالمائة، وهو أيضا هبوط قياسي.

واستأنف معظم المصنعين الإنتاج في مايو مع بدء الأقاليم الكندية العشرة إعادة فتح اقتصاداتها تدريجياً، وهو ما يُتوقع أن يعزز المبيعات مقارنة مع الشهر السابق.

"الموجة الثانية" تفرض العزل

أعلنت كندا في 16 سبتمبر 2020، انها لا تستبعد فرض عزل عام في البلاد، للسيطرة على مخاطر الموجة الثانية من تفشي فيروس كورونا.

وقالت باتي هاجدو وزيرة الصحة الكندية، إنها لا تستبعد فرض عزل عام جديد إذا دعت الحاجة لذلك، وسط ارتفاع حالات الإصابة الجديدة، واضافت: "نرى أعداد الاصابات ترتفع، لكن فرض عزل عام اقتصادي كامل سيكون صعبا للغاية بالنسبة للبلاد ولا نستبعد ذلك لأن الأمر يتعلق بحماية صحة الكنديين".

كنداأجرت "تحسينات كبيرة" في نظام الرعاية الصحية، وهي مستعدة بشكل أفضل بالمعدات والإمدادات مما كانت عليه خلال الموجة الأولى في الربيع.

وفي 24 سبتمبر أعلن رئيس الوزراء الكندي جاستن ترودو عن بدء الموجة الثانية، محذرا من العواقب المترتبة على عدم الالتزام بالاشتراطات الصحية. وقال "الموجة الثانية في ولاياتنا الكبرى ليست بصدد البدء، بل قد بدأت بالفعل، ونحن على أعتاب الخريف الذي قد يكون أسوأ بكثير من الربيع».

وناشد المواطنين لاتخاذ إجـراءات احترازية ضد الفيروس، بما في ذلك ارتداء الكمامة في الأماكن العامة والتلقيح ضد الإنفلونزا هذا الخريف وتحميل التطبيق للإنذار بوجود أشخاص تأكدت إصابتهم بالفيروس على مقربة من مستخدم التطبيق.

وأعـرب عن قناعته بأن الكنديين سيتمكنون من السيطرة على الموجة الثانية من الفيروس، مشيرا إلى أنه "لا يمكن تغيير الوضع الحالي، ولكن تصرفات الناس الآن ستؤثر على الوضع الوبائي الذي سيكون بعد فترة».

زيادة في أعداد المشردين

تسببت الجائحة في ارتفاع أعداد المشردين الذين يعيشون في شوارع كندا، وفقا لنتائج دراسة أجراها التحالف الكندي لإنهاء التشرد (CAEH)، من خلال شركة "نانوس" لإجراء الأبحاث واستطلاعات الرأي، وتم الكشف عن نتائجها في 12 أغسطس 2020.

وتوقعت الدراسة أن يكون عدد المشردين في البلاد أكثر من العدد المسجل والمقدر بـ235 ألف شخص.

وأشـارت الدراسة إلى أن التداعيات الاقتصادية لتفشي الفيروس، جعلت الكثير من الكنديين غير قادرين على دفع أجور منازلهم، لافتة إلى أن المشردين يمثلون 5% تقريبًا من إجمالي السكان، وعددهم لا يقل عن 1.6 مليون شخص.

تمديد حظر دخول السفن وإغلاق المقاهي

أظهرت السلطات الكندية، تمديد حظر دخول السفن التي يزيد عدد ركابها على 100 إلى موانئها حتى 31 أكتوبر، ضمن تدابير الوقاية من فيروس كورونا.

وقال وزير النقل، إن الحظر يأتي ضمن التدابير المتخذة ضد الفيروس، ويشمل أيضا السفن السياحية.

وكانت الحكومة قد اتخذت قرار حظر دخول السفن التي يزيد عدد ركابها عن 500 في مارس حتى 1 يوليو.

ووفق معطيات موقع «Worldometer» المتخصص برصد ضحايا كورونا، بلغت حصيلة إصابات كورونا في كندا 90 ألفا و190، توفي منها 7073، وتعافى 48 ألفا و103.

وفي مـوازاة ذلك خلقت ضغوط الجائحة خسائر لاتعد ولا تحصى حيث تتغيَّر الأرقـام بشكل لحظي لكن بعض الأرقام المثيرة تعطي دلالات ومنها خسارة شركة "ستاربكس" للمقاهي الأمريكية، في العاشر من يونيو، المتوقعة جراء جائحة كورونا تقدر بـ2.2 مليار دولارفضلاً عن قرار إغلاق نحو 200 فرع لها في كندا وهو قرار نهائي.

تفاقم التصرفات العنصرية تجاه الآسيويين

بات المواطنون الآسيويون الذين يعيشون في كندا، مستهدفين بشكل متزايد لحوادث التمييز العنصري والعرقي خلال الأزمة.

وأظهر مسح اجرته هيئة الإحصاء الكندية، أن المواطنين الآسيويين وعلى رأسهم الصينيون، أصبحوا مستهدفين بشكل متزايد، وأضحوا في مرمى الإساءات العنصرية من قبل المجتمع الكندي.

وأن 30 في المائة من الكنديين من أصول صينية و27 في المائة من الكوريين و22 في المائة من الفلبينيين تعرضوا لإساءات عنصرية خلال وباء كورونا.

وذكر المسح أن معظم الهجمات العنصرية وقعت في مدينتي مونتريال وفانكوفر، وأن 80 في المائة من الهجمات تنطوي على أفعال لفظية و20 في المائة جسدية مثل البصق والعنف المباشر في الأماكن العامة.

منع القناع الصيني في كندا

منعت الحكومة الكندية توزيع مليون قناع "كي. إن. 95" مستوردة من الصين غير مطابقة لمعاييرها، على العاملين الصحيين الذين يواجهون فيروس كورونا المستجد "كوفيد- 19".

وكالة الصحة العامة "حددت نحو مليون قناع (كي. إن. 95) على أنها غير مطابقة للمواصفات"، ولا يمكن بالتالي توزيعها على العاملين الصحيين الذين تمت تعبئتهم في مواجهة فيروس كورونا. وهذه الأقنعة "لم توزع على الأقاليم والمناطق" التي تشارك في مكافحة الفيروس، مشيرا إلى أنه "سيتم تقييمها لتحديد استخدامها المحتمل في بيئات أخرى" خارج الإطار الصحي.

اختبار "الغرغرة" لكشف "كورونا"

أطلقت مقاطعة كولومبيا البريطانية، في كندا، طريقة غرغرة جديدة للطلاب الذين تتراوح أعمارهم بين 4 و19 عاما، بديلا عن المسحات المزعجة التي تؤخذ من الأنف لاختبار الإصابة بفيروس كورونا.

وقالت مسؤولة الصحة الإقليمية في كولومبيا البريطانية: «إنها واحدة من الأولى من نوعها حول العالم».

وقال مركز كولومبيا البريطانية للسيطرة على الأمراض إن الاختبار الجديد للكشف عن الإصابة بفيروس كورونا دقيق تماما مثل الاختبارات باستخدام مسحة الأنف، لكنه أسهل بكثير بالنسبة للأطفال وأوضحت"هذه غرغرة بمحلول ملحي جديد حيث تضيف القليل من المحلول الملحي العادي لذلك الماء المعقم في فمك وتحركه قليلا ثم تبصقه في أنبوب صغير وهذه طريقة أسهل لجمعها بالنسبة للشباب وصغار السن».

مسؤولو الصحة العامة في كولومبيا البريطانية أوضحوا أنهم قاموا بمقارنة نتائج هذا النوع من الاختبارات لدى كل من الأطفال والبالغين ووجدوا أن معدل اكتشاف "كورونا" كان مشابها للغاية لمسحة الأنف.

وسوف تمنح كولومبيا البريطانية الأطفال الأولوية للاختبار الجديد، لكنها تأمل في توسيع نطاقها ليشمل البالغين مستقبلا.

صورة.. تكشف تفوق كندا على أمريكا

أظهرت صورة واحدة الفرق الشاسع بين الدولتين المجاورتين، كندا والولايات المتحدة، في التعامل مع جائحة فيروس كورونا.

وأوضحت صورة لقاربي سياحة، أحدهما كندي، وآخر أميركي، وسط شلالات نياغرا الواقعة بين البلدين، الالتزام الكبير للكنديين بإجراءات التباعد، على عكس الأمريكان.

وظهر على متن قارب الجهة الكندية، الذي يتسع لأكثر من 700 شخص، 6 ركاب فقط، خلال رحلتهم للشلالات الشهيرة، بينما ظهر مقابله القارب الأمريكي مكتظا بالركاب المتلاصقين.

ووفقا لصحيفة «الغارديان»، فإن القارب الأمريكي سمح باستقبال نصف السعة الكاملة، مما يعني أنه استقبل

أكثر من 250 راكبا، بينما لم يسمح القارب الكندي، بركوب أكثر من 6 أشخاص على متنه.

ويقع الجانب الأمريكي من الشلالات في ولاية نيويورك التي سجلت آنـذاك 414 ألف حالة إصابة بكورونا، و32 ألف حالة وفاة.

وفي الجانب الكندي المقابل، سجلت مقاطعة أونتاريو التي يقع فيها الشلال، 38 ألف حالة إصابة حتى ذلك الوقت، و2755 حالة وفاة.

إقامة دائمة لـ«أبطال كورونا»

في مسعى جديد أعلنت وزارة الهجرة أنها ستمنح الإقامة الدائمة لطالبي اللجوء، الذين عرّضوا أنفسهم للخطر من أجل تقديم الرعاية لمرضى كوفيد- 19.

وسيكون بإمكان هؤلاء الحصول على الإقامة لهم ولعائلاتهم، في حال كانوا قد تقدّموا سابقاً بطلبات بحلول مارس 2020، «حتى ولو رفضت حينها».

هذا الإجراء سيطبق على طالبي اللجوء الذين ساعدوا بشكل مباشر برعاية مرضى كورونا في أي منزل، أو عيادة، أو دار لرعاية المسنين "بما أن هؤلاء الأفراد يواجهون مستقبلا غير مؤكد في كندا، فإنّ الظروف الحالية تستحق إجراءات استثنائية، تقديراً لخدماتهم الاستثنائية خلال فترة الوباء".

ويعمل غالبية طالبي اللجوء في كيبيك، المنطقة الكندية الأكثر تضرراً من الوباء، مع ما يقرب من 61 ألف إصابة بفيروس كورونا، و5,715 وفاة حتى ذلك التاريخ، وهذه الأرقـام تشكل نحو نصف إجمالي الإصابات والوفيات في كندا، التي بلغت 121 ألف إصابة و9,050 وفاة آنذاك.

وترتبط دور الرعاية بنحو 80 بالمئة من الوفيات بفيروس بكورونا.

تطبيق تتبع انتشار الفيروس

وفي محاولة للحد من انتشار الوباء أعلنت إطلاق تطبيق عبر الهواتف المحمولة، لتتبع انتشار الفيروس الجديد. وسيكون تنزيل التطبيق طوعياً.

وهذه التكنولوجيا المطورة عبر شراكة بين «شوبيفاي» الكندية و«بلاكبيري» ستتاح على المستوى الوطني. وقال رئيس الحكومة «نعمل على تطوير تطبيق للهواتف المحمولة على المستوى الوطني سيبلغ المستخدمين إذا تعرضوا لمرض (كوفيد ــ 19)».

وشدد على أنه «لن تُجمع معلومات شخصية وتُشارك، ولن تُستخدَم خدمة تحديد المواقع. خصوصية الكنديين ستُحترم»، مشيراً الى أنه تمت استشارة مفوضية حماية الحياة الخاصة.

وعند ذلك الإعلان كانت كندا قد تجاوزت مائة ألف إصابة بفيروس كورونا، وفقاً لأرقام رسمية. وقد تباطأ انتشار الفيروس بشكل ملحوظ منذ أسابيع في أنحاء البلاد، وبدأت معظم المقاطعات بالخروج من الحجر. وسجلت كندا أكثر من 8300 وفاة جراء الفيروس حتى ذلك التاريخ.

انتهاء صلاحية ملايين الكمامات

هل الكمامات لها صلاحية طبية؟ معلومة جوهرية ربما لا يعلم بها الكثيرين ولا يهتمون بمدى صلاحية الكمام من عدمه، لكن كندا الأكثر تقدماً في الرعاية الصحية أكدت ذلك.

مسؤولون في إقليم أونتاريو الكندي، أعلنوا إن

عشرات الملايين من الكمامات التي خزنها الإقليم في أعقاب تفشي فيروس سارس لحماية المواطنين والعاملين بالرعاية الصحية تحسباً لأي وباء جديد انتهت صلاحيتها في الشهر الرابع من عام 2020، الأمر الذي يثير تساؤلات حول مدى استعداد أكبر إقليم كندي سُكانا للتصدي لتفشي فيروس كورونا.

وكان إقليم أونتاريو قد خزن قبل 13 عاما 55 مليون كمامة من نوع إن 95 ومعدات طبية أخرى بعد أن تضرر من وباء سارس أكثر من أي إقليم آخر في كندا في عامي 2002 و2003. لكن المسؤولين في الإقليم أكدوا انتهاء تاريخ صلاحية الكمامات المخزنة.

وقال مسؤولون في قطاع الصحة العامة، إن الكمامات يمكن أن تكون أقل فاعلية بعد مرور تاريخ انتهاء الصلاحية المحدد من جانب جهة الإنتاج.

وقد أوصت المراكز الأميركية لمكافحة الأمراض والوقاية منها باستخدام الكمامات التي يمر تاريخ انتهاء صلاحيتها في حالات وجود نقص فيها لدرجة الأزمة. وعبر الأطباء في أونتاريو عن القلق إزاء وجود حالات نقص في إمدادات الوقاية من الأمراض مثل الكمامات وذلك على ضوء الزيادة الكبيرة في الطلب عليها في وجود مرض مثل فيروس كورونا الذي ظهر في الصين ثم انتشر في عدد من مناطق العالم.

عدم المشاركة في أولمبياد طوكيو 2020

أكدت اللجنة الأولمبية الكندية، في بيان رسمي عدم المشاركة في أولمبياد طوكيو 2020، متوجهة إلى «اللجنتين الأولمبية والبارالمبية، وبمساندة من الرياضيين ومنظمتها وحكومة كندا، اتخذت القرار الصعب بعدم إرسال رياضييها للمشاركة في الألعاب الأولمبية بل وطالبت اللجنتين الأولمبية والبارالمبية الدوليتين ومنظمة الصحة العالمية بتأجيل الألعاب لمدة عام».

ولم تكن اللجنة الأولمبية الكندية الوحيدة التي تُعلن عدم مشاركة رياضييها في الأولمبياد، إذ أشارت اللجنة الأولمبية الأسترالية إلى أنها لن تُرسل رياضييها إلى الألعاب بسبب تفشي فيروس «كورونا».

وذكرت أن «الأولوية لرياضيينا هي صحتهم وكل من يحيط بهم، وحماية عائلاتهم. أمسى من الواضح أن الألعاب لن تُقام في يوليو. إن رياضيينا ملتزمون إيجابياً بالتدريبات والتحضيرات، لكن التوتر والضغط أصبحا تحدياً كبيراً بالنسبة لهم».

وكانت اللجنة الأولمبية الدولية أكدت أنها لم تتخذ قرار تأجيل الألعاب الأولمبية الصيفية في طوكيو 2020، لكن مع ارتفاع الضغوط من الاتحادات الرياضية الأولمبية في كل دول العالم بسبب انتشار «كورونا»، اضطرت الى اعلان التأجيل.

منطقة كندية خالية من كورونا

بينما يواصل عدد الإصابات بمرض كوفيد- 19 ارتفاعه في العديد من المناطق في كندا، فإن منطقة واحدة تمكنت من الإفلات ويمكن وصفها بأنها المنطقة الوحيدة في القارة الأمريكية الشمالية التي لم تشهد أي إصابات على الإطلاق.

ففي شهر مارس 2020، وبينما كانت الدول المختلفة تغلق حدودها الواحدة تلو الأخرى مع ارتفاع أعداد المصابين بفيروس كورونا، اتخذ المسؤولون في منطقة نونافوت الكندية الشمالية قرارا يجنب سكان المنطقة

التعرض لأي مخاطر. فقد قرروا تطبيق إجراءات تعد الأكثر صرامة تشمل منع دخول أي شخص تقريبا من خارج المنطقة إليها.

وكان يتعين على سكان نونافوت العائدين إليها من المناطق الجنوبية قضاء أسبوعين تحت الحجر في فنادق تطبق فيها إجراءات العزل في مدن وينيبيغ ويلونايف وأوتاوا وأدمونتون على نفقة حكومة المنطقة المحلية.

وفرضت إجـراءات مشددة في هذه الفنادق، إذ كان رجال أمن يقومون بواجبات الدورية فيها وتقوم ممرضات بفحص المعزولين للتأكد من سلامتهم من الإصابة. ولغاية 19 أكتوبر، قضى نحو 7 آلاف من سكان نونافوت فترة عزل في هذه الفنادق في طريق عودتهم إلى ديارهم.

ولم يخل الأمر من صعوبات وتحديات، فقد حاول بعض المعزولين انتهاك قواعد الحجر مما أدى إلى تمديد فترات عزلهم مما أدى بدوره إلى تأخر إدخال آخرين إلى مراكز العزل. كما اشتكى البعض من نوعية وجبات الطعام المقدمة فيها.

ولكن، وبينما كان فيروس كورونا يواصل انتشاره في كندا، وبينما كانت حالات الإصابة ماضية في الارتفاع، ما زالت نونافوت خالية تماما من الإصابات.

ويبلغ عدد المقيمين فيها نحو 36 ألف نسمة، ويحد المنطقة من الشمال المحيط المتجمد الشمالي وإلى الغرب منطقة الأراضي الشمالية الغربية. ويقيم السكان في 25 تجمعا منتشرا في أرض تبلغ مساحتها مليوني كيلومتر مربع – أي حوالي ثلاثة أضعاف مساحة ولاية تكساس الأمريكية.

وتمكنت كندا بشكل عام من إيقاف تفشي الوباء في أشهر الصيف، وذلك من خلال فرض إجراءات إغلاق مشددة في الربيع الماضي ثم تخفيفها عند قدوم الصيف. وحتى مطلع أكتوبر 2020، سجلت 191,732 حالة إصابة في البلاد ككل و9,699 حالة وفاة.

ولكن بقدوم الطقس الـبـارد، تتصاعد وتيرة الإصابات بشكل حاد في مناطق عديدة من البلاد وخصوصا في ولايتي كيبيك وأونتاريو ذات الكثافة السكانية العالية.

كما يتزايد عدد المرضى المحالين إلى المستشفيات في المناطق التي تشهد ارتفاعا كبيرا في عدد الإصابات، وحذّر مسؤولون صحيون من إمكانية أن يُغرق تفش كبير النظام الصحي برمته. إضافة لذلك، بدأ الوباء بالعودة إلى دور رعاية المسنين.

وأعادت أجزاء من ولايتي أونتاريو وكيبيك العمل ببعض من إجراءات الإغلاق في محاولة للسيطرة على انتشار الوباء، إذ حظرت مدينتا مونتريال وتورونتو تناول الوجبات في داخل المطاعم كما أغلقتا مرافق التمارين الرياضية.

فالمناطق المطلة على المحيط الأطلسي، والتي تتضمن أربع ولايات تقع إلى الشرق من كيبيك، تمكنت من الحد من انتشار الوباء وطبقت قيودا على السفر والتنقل إذ يسمح للسكان المحليين بالتنقل بحرية بينما تفرض إجراءات عزل لمدة أسبوعين على القادمين من الخارج.

إلا أن البلاد ما زالت متأخرة في ما يخص قدرات الفحص، وشهدت مراكز الفحص في بعض المناطق ازدحاما كبيرا عند عودة التلاميذ إلى المدارس.

ويجري الآن فحص نحو 77 ألف مواطن كندي يوميا، ولكن الهدف هو فحص 200 ألف يوميا في شتى أرجاء البلاد.

أكبر حزمة مساعدات منذ الحرب العالمية الثانية

قررت الحكومة الفيدرالية الكندية توفير 100 مليار كندي (نحو 77 مليار دولار أمريكي) لدعم اقتصاد البلاد في مرحلة ما بعد وباء كورونا.

وقالت وزيرة المالية، إنها «أكبر حزمة مساعدات اقتصادية في بلدنا منذ الحرب العالمية الثانية»، وسيؤدي الإنفاق إلى رفع العجز إلى مستوى تاريخي يبلغ 381.6 مليار دولار كندي بحلول مارس 2021، وتشمل الخطة واسعة النطاق، مساعدات لقطاعات الأعمال المتضررة بشدة، واستثمارات في دور الرعاية طويلة الأجل وتوزيع لقاح كوفيد – 19 ويأتي الإعلان في الوقت الذي تكافح فيه البلاد موجة ثانية حادة من إصابات كوفيد – 19.

وتشمل الخطة تعهدات بتخصيص مليار دولار كندي لمساعدة المقاطعات والأقاليم على تحسين السيطرة على عدوى كوفيد – 19 في مرافق الرعاية طويلة الأجل.

كما ستكون الصناعات، التي كانت معرضة بشكل خاص للإغلاق الاقتصادي مثل السياحة والسفر والفنون، مؤهلة للحصول على قروض تجارية تصل إلى مليون دولار كندي، لمدة 10 سنوات، وبالنسبة للعائلات ذات الدخل المنخفض والمتوسط في كندا، توجد تعهدات بتوفير 1200 دولار كندي لكل طفل أقل من 6 سنوات.

وستضخ السلطات مليار دولار كندي إضافي لاتفاقيات لقاح كورونا. وقالت فريلاند «حصلت كندا على مجموعة اللقاحات الأكثر تنوعا في العالم».

وأضافت أن كندا حصلت على سبعة عقود شراء لقاح مختلفة، تكفي لتلقي كل كندي 10 جرعات مجانا، ولدفع تكاليف هذه الخطة، ستشهد كندا أكبر عجز في الميزانية منذ الحرب العالمية الثانية، الحكومة دافعت عن العجز القياسي باعتباره معقول التكلفة، بفضل أسعار الفائدة المنخفضة، وبسبب ضرورته للاقتصاد.

وتوقع زعيم المعارضة أن يصل العجز الجديد إلى 400 مليار دولار كندي، ووصف خطة الإنفاق بأنها «مروعة»، وأثرت عمليات الإغلاق على اقتصاد البلاد.

ففي نوفمبر 2020، أعلنت هيئة الإحصاء عن معدل بطالة بلغ 8.9 %، مما يعني أن هناك 1.8 مليون كندي غير قادرين على العثور على وظيفة.

ويعد إعلان حزمة المساعدات الجديدة من بين التحديات الرئيسية الأولى التي تواجه البلاد، أظهر تحليل أجرته هيئة الإذاعة الكندية (سي بي سي نيوز) أن حكومة البلاد الفدرالية أنفقت نحو 952 مليون دولار يوميا في مكافحة جائحة كورونا، وأن إجمالي الإنفاق بلغ 240 مليار دولار. وان مسارات فورة الإنفاق التي دامت لنحو 8 أشهر، توزعت على أكثر من 100 اجراء وبرنامج، لمعالجة الأزمات الناتجة عن الإغلاق وما طال أصحاب المشاريع من خسائر.

وقد تم ربط التحديث المالي بإجمالي الإنفاق الحكومي على الوباء عند 322.3 مليار دولار للسنة المالية الحالية التي تنتهي في 31 مارس 2021، ومع ذلك، يتضمن هذا الرقم الأموال التي تم التعهد بها حديثا، والمبالغ المدرجة في الميزانية التي لم يتم انفاقها بعد.

حملة التطعيم ضد كورونا في كندا

رئيس وزراء مقاطعة كيبيك أعلن في بدء التطعيم ضد فيروس كورونا المستجد في المقاطعة، بدءا من 12 ديسمبر 2020، بعد خمسة أيام على إعطاء وزارة الصحة الكندية الضوء الأخضر للقاح تحالف فايزر-بايونتيك ضد كوفيد19- وحدد الفئات المستهدفة بنزلاء وعاملين في دارين للمسنين، أحدهما في مونتريال والآخر في كيبيك، سيتم تطعيمهم أولا.

يذكر أنه خلال الموجة الأولى للجائحة، سُجّلت في دور رعاية المسنين نسبة 80 % من إجمالي حالات الوفيات في المقاطعة.

وكان لقاح «فايزر» الذي اتفقت الحكومة الكندية على توريده اليها قد وصل الى البلاد في 14 ديسمبر، وقال رئيس الوزراء الكندي جاستن ترودو، إن الجرعات وصلت وسيتم البدء في أخذ التطعيمات بشكل فوري.

وأوضح أن الجرعات الأولية البالغ عددها 30 ألف جرعة ستصل إلى 14 موقعا عبر كندا. وسيكون الأشخاص الأكثر عرضة للإصابة، ومن بينهم كبار السن في منشآت الرعاية طويلة الأجل، والعاملون في مجال الرعاية الصحية، في مقدمة أول من يحصل على اللقاح.

وفي 28 يناير 2021، أعلن مكتب رئيس الوزراء الكندية استلام 4 ملايين جرعة من لقاح فايزر بحلول نهاية مارس القادم، وكان رئيس الوزراء جاستن ترودو قد أعرب عن "احباطه" جراء بطء وتيرة حملة التطعيم في البلاد. وحتى 25 فبراير 2021، تم تقديم 1.590.281 جرعة في عموم كندا، منذ انطلاق التطعيم فيها في 14 ديسمبر 2020، أي بمعدل 4.21 جرعة لكل 100 نسمة، وتستخدم كندا لقاحي "فايزر" و"موديرنا" وكلاهما على جرعتين.

مكسيكيون يستنجدون بـ"قديسة الموت"

يستنجد رجال ونساء في مدينة تولتيتلان المكسيكية بهيكل عظمي ضخم يمثل "سانتا مويرتي" أو "قديسة الموت" طلباً للحماية بعدما أصبح تفشي وباء كورونا في بلادهم خارجاً عن السيطرة.

تدور هذه المشاهد في المدينة الواقعة في ولاية مكسيكو حيث أقيم تمثال لـ"غريم ريبر" يبلغ ارتفاعه 22 متراً لهذا الهدف.

وكما هو الحال في كثير من البلدات والقرى المكسيكية، تجمع مثل هذه الطقوس عدداً متزايداً من المصلين القلقين بشأن الانتشار المستمر لوباء كورونا ويلجأون إلى الصلاة لعدم وجود علاج آخر، وفقاً لوكالة فرانس برس (12 أكتوبر).

وفي تيبيتو، وهو حي شهير في مدينة مكسيكو، يركع الكثير من المصلين بصمت أمام مذبح عليه جمجمة طالبين بإخلاص الحماية من الفيروس وتداعياته الاقتصادية.

ويتدفق العشرات إلى هذا الشارع المزدحم مع بداية كل شهر، ممسكين بدمى ترمز إلى "قديسة الموت" فيما يقدم البعض الآخر تقدمات من الزهور والحلويات والكحول.

ويضع عدد قليل منهم الكمامات من دون احترام قواعد التباعد الجسدي، وفي الأرجاء، يجول باعة ويبيعون هياكل عظمية بأحجام مختلفة والشموع، فيما

يضع البعض وشم "قديسة الموت" على رقبتهم أو صدرهم.

وفقاً للمؤرخين، تعود جذور تكريم "قديسة الموت" إلى القرن السادس عشر عندما كان السكان الأصليون يكرّمون هيكلاً عظمياً في قرى وسط المكسيك.

وتعد المكسيك رابع دولة من حيث عدد الوفيات بفيروس كورونا مع تسجيلها 83.781 وفاة وأكثر من 817.503 إصابة (حتى 12 أكتوبر).

المكسيك.. 54 ألف حالة وفاة

تحولت المكسيك، منذ 12 أغسطس 2020، إلى واحدة من أخطر بؤر «كورونا» على مستوى العالم، حيث باتت في الدرجة السادسة من حيث عدد الإصابات، بينما احتلت الدرجة الثالثة من حيث عدد الوفيات.

وأعلنت وزارة الصحة بهذا البلد آنذاك عن تسجيل 6686 حالة إصابة مؤكدة جديدة بالفيروس و926 حالة وفاة إضافية، ليرتفع العدد الإجمالي للإصابات إلى نحو 500 ألف، والوفيات إلى حوالي 54 ألفا.

وتكافح الحكومة من أجل تحقيق توازن بين الحاجة إلى كبح الجائحة وإعادة فتح اقتصادها المتعثر الذي انكمش بأكثر من 17 % في الربع الثاني.

ومن المرجح أن يكون العدد الحقيقي للمصابين أعلى بكثير من الحالات المؤكدة، حسب تصريحات حكومية.

أزمة توزيع اللقاح.. شكوى رسمية للأمم المتحدة

في 18 فبراير 2021، أعربت المكسيك عن عدم رضاها عن الطريقة التي يتم بها توزيع لقاحات فيروس كورونا في جميع أنحاء العالم، وتقول إن هناك تفضيل للبلدان الأكثر ثراء وتترك الأفقر في الخلف.

وقال وزير الخارجية المكسيكي إن وفد بلاده لدى الأمم المتحدة قدم شكوى إلى لمجلس الأمن الدولي، بشأن «عدم المساواة» وعدم الإنصاف، التي تمنع الوصول إلى اللقاحات».

فالدول التي تنتج لقاحات لديها معدلات تطعيم أعلى وأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي لديها معدلات أقل بكثير. وهذا ليس عدلاً.

هذا السلوك يمكن أن يعرض للخطر برنامج التوزيع العادل «كوفاكس». ويهدف كوفاكس إلى توزيع نحو ملياري جرعة من اللقاح في جميع أنحاء العالم بحلول نهاية 2021، يذهب الكثير منها إلى البلدان الفقيرة.

والواقع أن حجب اللقاحات عن الدول الأقل ثراءاً سوف تصبح لبنة أخرى في جدار عدم المساواة بين في يملك ومن لا يملك؟.

أميركا اللاتينية

جائحة اليأس في أميركا اللاتينية

في مواجهة جائحة كورونا 2019، كان أداء العديد من المناطق سيئاً، لكن أداء أميركا اللاتينية كان أسوأ من معظمها، من حيث الخسائر في الأرواح، وسُبل العيش التي فُقدت.

واعتباراً من نوفمبر 2020، أُدرِجَت 9 بلدان من أميركا اللاتينية ضمن قائمة الـ 20 دولة التي سجلت أعلى معدل للوفيات بالفيروس، نسبة إلى تعدادها السكاني، وتوقّع صندوق النقد الدولي أن ينخفض إنتاج المنطقة بنسبة 8.1 في المئة عام 2020، حيث لا تعاني سوى منطقة اليورو فقط انخفاضاً إقليمياً يفوق هذه النسبة، ونتيجة لذلك، سيضاف نحو 15 مليون أميركي لاتيني إلى من يعيشون في فقر مدقع.

حول الرؤية الشاملة لانعكاسات الوباء على دول القارة بمجملها، كانت هناك دراسة واسعة اشترك بها

وزير مالية كولومبيا الاسبق وكبير الاقتصاديين في البنك المركزي الارجنتيني ووزير مالية تشيلي، عرضتها «الجريدة» بالاتفاق مع «بروجيكت ستدبكيت» عام 2020 بالقول: التفسير الأول الذي يتبادر إلى الذهن أن ضعف الأداء في المنطقة هو ضعف القيادة، حيث ادّعى الرئيس البرازيلي جاير بولسونارو، في البداية، أن الجائحة كانت مجرد خدعة إعلامية، أما الرئيس المكسيكي أندريس أوبـرادور، فقد استمر أسابيع ينفي أن «كورونا» يمثّل تهديداً، واستمر في معانقة المؤيدين ومصافحتهم، فقط ليعكس المسار فجأة ويفرض إغلاقاً صارماً، ولكن حتى في البلاد التي تصرفت مبكراً، كانت تدابير الاحتواء غير فعالة في تقليل عدد حالات «كوفيد 19»، حيث عانت الأرجنتين وبيرو، اللتان طبّقتا إجراءات إغلاق صارمة جداً، وتشيلي وكولومبيا، اللتان اتبعتا نهجاً أكثر مرونة، من نتائج صحية مزرية مماثلة.

ويرجع جزء من الأسباب وراء ذلك إلى أن نقطة انطلاق أميركا اللاتينية كانت أبعد ما يكون عن المثالية، إذ يعاني عدد ضخم من السكان مشاكل صحية موجودة من قبل، كما أدى انتشار الترتيبات المعيشية التي تجمع أجيالاً متعددة في مكان واحد إلى تسهيل انتقال العدوى، وإصابة الأشخاص الأكثر عُرضة للخطر، كما أن أسواق العمل غير الرسمية الكبيرة جعلت فرض عمليات الإغـلاق مهمة صعبة التنفيذ، كما أن ارتفاع معدل الوظائف التي تتطلب التعامل بين الأفراد وجهاً لوجه، بما في ذلك البيع بالتجزئة، وندرة فرص العمل عن بُعد (بسبب ضعف الشبكات وانخفاض مستوى المعرفة الرقمية) لم يساعد أيضاً، أضف إلى ذلك أن نقص كفاءة الحكومات ترك النظم الصحية غير مستعدة، على الرغم من تنفيذ عمليات الإغلاق المبكرة التي أخّرت الوصول إلى ذروة العدوى.

لا شيء من هذا كله يبرر حقيقة مفادها أن العديد من صانعي القرار لم يبذلوا سوى القليل من الجهد، وبعد فـوات الأوان، لكنه يساعد في تفسير سبب تحقيق استراتيجيات مختلفة لنتائج مماثلة، ويُظهر أداء أوروغواي، قصة النجاح الوحيدة في المنطقة، ما كان يمكن أن يحققه مزيج من الوصول الشامل للرعاية الصحية، وزيادة الإشراف والإدارة الرسمية لأسواق العمل والحماية الاجتماعية، وقدرات الدولة القوية نسبياً، والقيادة الحكيمة، لجميع دول أميركا اللاتينية.

توقعات محبطة

تسببت أزمة «كوفيد 19» في إلحاق أضرار اقتصادية ضخمة بأميركا اللاتينية، لأسباب ليس أقلها أن المنطقة عانت خمس ضربات متزامنة، وبصرف النظر عن الصدمة الصحية الأولية، فقد تضررت الاقتصادات من انخفاض أسعار السلع الأساسية، والانخفاض الكبير في حجم الصادرات، وخسارة التحويلات من الخارج وعائدات السياحة، وتدفقات رأس المال غير المسبوقة إلى الخارج في وقت مبكر من الأزمة، ونتيجة لذلك نفدت السيولة النقدية من العديد من الشركات الكبيرة والصغيرة واضطرت إلى الإغلاق.

وعـزز التعافي الاقتصادي السريع في الصين منذ ذلك الحين أسعار السلع الأساسية، وانتعشت التحويلات من الخارج أيضاً، لكن الصورة الحالية لتدفقات رأس المال لا تزال مختلطة؛ ففي حين تمكنت أميركا اللاتينية من تجنب حالة ذعر طويلة الأمد، عادة ما تُعادل التدفقات الخاصة إلى الخارج تأثير التدفقات الداخلة من توزيع السندات الحكومية في الخارج، ومن المحتمل أن تحقق المكسيك فائضاً

في الحساب الجاري عام 2020، حيث تقترب أميركا الجنوبية كلها من تحقيق التوازن، في حال بقاء ظروف التمويل الخارجي مستقرة.

ويشير أداء الحساب الجاري أيضاً إلى أن الإنفاق المالي المعاكس للدورة الاقتصادية من حكومات أميركا اللاتينية، لم يكن كافياً لتعويض الانخفاض في الاستهلاك الخاص والاستثمار، وفي الوقت الذي طبقت الحكومات في الاقتصادات المتقدمة مجموعة واسعة من التدابير المالية التقديرية التي تصل إلى 20 في المئة من الناتج المحلي الإجمالي، يضع صندوق النقد الدولي النسبة المقابلة في أميركا اللاتينية عند 7 في المئة، حيث وظّفت 4 بلدان فقط (بيرو والبرازيل وتشيلي وبوليفيا) حزماً يبلغ مجموعها 10 في المئة أو أكثر من الناتج المحلي الإجمالي، وهذا الرقم يشمل القروض والضرائب المؤجلة، إضافة إلى الإنفاق العام الإضافي.

كان بإمكان بعض البلدان، مثل المكسيك، أن تزيد إنفاقها، لكنها اختارت عدم القيام بذلك، في حين افتقرت العديد من البلدان الأخرى إلى المرونة المالية، أو كانت غير قادرة على دخول أسواق رأس المال بمعدلات معقولة.

وفيما يخص الوظائف، تُعد التوقعات في أميركا اللاتينية محبطة أيضاً، فرغم تطبيق برامج الإجازات الحكومية التي لا تزال تموّل تعليق التوظيف المؤقت، وتحد من القضاء على الوظائف ذات الأجور المنتظمة، انخفض التوظيف بنسبة تتراوح بين 10 و25 في المئة (في ليما، وهي حالة متطرفة، انخفض معدل التوظيف بأكثر من 50 بالمئة في يونيو 2020)، واعتباراً من سبتمبر، انخفض عدد العاملين في المنطقة كلها بأكثر من 25.3 مليون فرد منذ بداية الجائحة، مع تأثر النساء والشباب بهذا الانخفاض على نحو غير متناسب، وعانى الأشخاص الذين تقل أعمارهم عن 24 عاماً أكبر الخسائر في وظائفهم، إذ تراوحت نسبتهم بين 5 في المئة بالمكسيك و44.4 بالمئة في تشيلي.

علاوة على ذلك، لن «يعود الوضع إلى طبيعته» بعد الجائحة، ففي الغالب ستعمل الرقمنة (التحول الرقمي) والوسائل الحديثة على خفض الطلب على الوظائف التي تتطلب اتصالاً مادياً مكثفاً مع الآخرين، وستدفع الشركات إلى أتمتة عملياتها وتبسيطها على حساب الوظائف.

أوجه قصور

بشكل عام، أفصح أداء أميركا اللاتينية الضعيف خلال فترة الجائحة عن أوجه قصور متفشية في قدرات الدولة، والتي تمتد إلى ما هو أبعد من الأنظمة الصحية الواضح ضعفها في المنطقة، إذ افتقرت بعض الحكومات إلى المعلومات اللازمة لتحديد الأسر الفقيرة وتزويدها بالمساعدة المالية؛ في حين حصلت دول أخرى على مثل هذه المعلومات، ولكن لا يمكنها سوى تحرير شيك بدلاً من تحويل الأموال إلكترونياً.

وربما ساهمت قوائم الانتظار والطوابير الناتجة عن هذا العجز الإلكتروني خارج فروع البنوك في انتشار الفيروس، وبعد فترة طويلة من إعادة فتح المدارس في أوروبا وآسيا، ظلت الفصول الدراسية في معظم أميركا اللاتينية مغلقة، بسبب الصعوبات اللوجستية المستمرة، وهذا يضيف آثاراً سلبية دائمة، من حيث المهارات، إلى التدمير المستمر للوظائف، خصوصاً بين الأسر ذات الدخل المنخفض.

وتتمثل نقطة ضعف بنيوية أخرى في سوق العمل المزدوج في أميركا اللاتينية، الذي يعرض العمال ذوي الدخل المنخفض لصدمات الدخل على نحو

غير متناسب، فنحو نصف العاملين في المنطقة هم من أصحاب الأجور غير الرسمية، أو يعملون لحسابهم الخاص من دون شهادة جامعية؛ في بوليفيا ونيكاراغوا وباراغواي وبيرو، أكثر من ثلثي العمال غير مسجلين رسمياً، وأثناء عمليات الإغلاق، اعتمد الكثير من هؤلاء العمال على التحويلات النقدية الحكومية التي لم تعوّضهم إلا عن جزء فقط من دخلهم المفقود، لعدم قدرتهم على الاستفادة من المعاملات الرسمية مثل إعانات الأجور وبرامج الإجازات.

في المقابل، تقدم العديد من دول أميركا اللاتينية أوجه حماية سخية للعاملين ذوي الأجور المرتفعة، إذ قدمت كولومبيا إعانة تعادل 40 في المئة من الحد الأدنى للأجور لجميع الوظائف الرسمية في الشركات التي تعرّضت لخسائر بالإيرادات، بل ذهبت حكومة الأرجنتين إلى أبعد من ذلك، إذ ضاعفت مدفوعات إنهاء الخدمة، وفي النهاية حظرت تسريح العمال تماماً، لكن هذه الحماية تذهب إلى أقلية من الموظفين الرسميين، في حين يظل معظم العمال غير الرسميين والمستقلين من دون حماية، فكانت العواقب المترتبة على ذلك واضحة ومؤلمة في النصف الأول من العام الحالي، إذ انخفض دخل أبناء الطبقات العليا بنسبة أقل كثيراً من انحدار دخول الأشخاص القابعين أسفل الهرم الاجتماعي.

فرصة للإصلاحات الاقتصادية والسياسية

تُعد أزمة «كوفيد 19» بمنزلة فرصة لحكومات أميركا اللاتينية من أجل تقوية الدولة، وإصلاح أسواق العمل المختلة، وتسريع عملية البحث عن عقد اجتماعي جديد، وهذا يعني إعادة التفكير في سُبل الحماية الاجتماعية (بما في ذلك التحرك نحو التغطية الصحية الشاملة)، وتذليل العقبات أمام التوظيف الرسمي، وتعزيز استقرار دخل العمال المستقلين، لكن التغييرات الضرورية صعبة سياسياً. فسرعان ما تزعج عمليات إعادة هيكلة الهيئات الحكومية وقواعد سوق العمل أصحاب المصالح الراسخة القوية، وهذا هو السبب في بقاء الحكومات، سواء من اليمين أو اليسار، حتى الآن على مسار يتسم بأقل قدر من المقاومة.

ومع استعداد الكثير من دول أميركا اللاتينية لإجراء انتخاباتها المقررة في عام 2021، فالمسألة الحاسمة هي ما إذا كان المناخ السياسي الإقليمي سيتحسن أو يزداد سوءاً في أعقاب الجائحة، ومن شأن الأزمات أن توحد المواطنين، لكن الجائحة زرعت أيضاً العديد من الانقسامات: بين المهنيين المحترفين القادرين على العمل من المنزل وعمال المصانع الذين لا يستطيعون ذلك، وبين كبار السن الضعفاء والشباب الخاضعين لقيود حكومية، وبين العمال الرسميين الذين يتلقون إعانات للأجور، والعاملين لحسابهم الخاص الذين فقدوا كل دخلهم.

ربما يسير منحنى انتشار عدوى الفيروس بأميركا اللاتينية في طريقه إلى الاستقرار، لكن منحنى الفقر وإفلاس الأعمال هناك مستمر في الارتفاع، وإذا أعقبت صدمة الصحة العامة أزمة اقتصادية مطولة تطحن العديد من الناس في طريقها، ستتزعزع الثقة بالحكومة والمؤسسات بشدة، وستصبح السياسة أكثر انقساماً.

باختصار، لا يزال من الممكن أن تتحول جائحة «كوفيد – 19» إلى جائحة عدم استقرار ويأس.

16 مليون طفل لاتيني فقراء

حذّرت منظمة الأمم المتحدة للطفولة (يونيسف) والمنظمة غير الحكومية «سايف ذي تشلدرن» في 27

مايو 2020، من أن 16 مليون طفل إضافي سيصبحون فقراء بحلول نهاية العام 2020 في أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي إذا لم تفعل الحكومات شيئا للتخفيف من حدة الأزمة الاقتصادية الخطيرة الناجمة عن فيروس كورونا.

وفي المجموع، سيكون واحد من كل طفلين (46 %) فقيرا بحلول نهاية العام بزيادة قدرها 22 % مقارنة بالعام 2019، إذا لم تتخذ الدول المعنية تدابير «سريعة وواسعة النطاق» وفق ما قالت المنظمتان في بيان.

ووفقا للمنظمتين، فإن الأزمة الاقتصادية الناتجة عن الوباء ستوسع بشكل ملحوظ الفجوة بين أطفال الأسر الفقيرة وأطفال الأسر الغنية، في حين من المتوقع أن ينخفض الناتج المحلي الإجمالي في أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي بنسبة 5,3 %.

وقد تكون أمريكا الجنوبية الأكثر تضررا مع زيادة تقارب 30% في الأطفال الذين يعيشون ضمن أسر فقيرة، بزيادة 11 مليونا عن العام 2019.

أما في منطقة الكاريبي، فيمكن أن تصل هذه الزيادة إلى 19% بينما قد تصل في أمريكا الوسطى والمكسيك إلى 13%. ودعت المنظمتان السلطات إلى زيادة برامج الحماية الاجتماعية خصوصا من خلال المساعدة النقدية للعائلات والوجبات المدرسية. ووفقا لليونيسف و«سايف ذي تشلدن»، فإن الفقدان الفوري للدخل يعني أن وصول العائلات إلى الغذاء الكافي والرعاية الطبية والتعليم لأطفالها أصبح أصعب.

البطالة والفقر في القارة الضعيفة

توقعت اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية، أن تكون فنزويلا أكثر الدول التي ستشهد تراجعاً اقتصادياً بنسبة 26% بسبب تداعيات جائحة كورونا، تليها الأرجنتين بنسبة 10.5% والإكوادور 9% وتشيلي 7.9%، كذلك كولومبيا، التي تشهد تراجعا بنسبة 5.6% في 2020.

وقالت اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية (18 يوليو) إن الناتج المحلي الإجمالي العالمي سينخفض في عام 2020، بنسبة 5.2%، وسيكون الانخفاض 7% في الاقتصادات المتقدمة و 1.6% في الاقتصادات الناشئة، وقد سمح الرفع التدريجي للقيود الصحية وتنفيذ السياسات التوسعية بالتعافي البطيء.

وتتوقع اللجنة أن يبلغ معدل البطالة في الإقليم اللاتيني، حوالي 13.5 % في نهاية 2020، وهو ما يمثل مراجعة صاعدة (2 %) للتقدير المقدم في أبريل وزيادة 5.4 % فيما يتعلق بالقيمة المسجلة في 2019 (8.1 %).

وحسب التوقعات، فإن عدد الأشخاص الذين يعانون من الفقر سيرتفع بمقدار 45.4 مليون في عام 2020، حيث سيصل العدد الإجمالي للأشخاص في هذه الحالة من 185.5 مليون في عام 2019 إلى 230.9 مليون في عام 2020، وهو رقم يمثل 37.3 % من سكان أمريكا اللاتينية.

وسيرتفع عدد الأشخاص الذين يعيشون في فقر مدقع بمقدار 28.5 مليون، من 67.7 مليون شخص في عام 2019 إلى 96.2 مليون في عام 2020، وهو رقم يعادل 15.5 % من إجمالي عدد السكان.

ومن المحتمل أن تصل صادرات السلع من أمريكا اللاتينية والكاريبي، إلى 20 % من الناتج المحلي الإجمالي، تتركز في الولايات المتحدة (8.5 % بالنسبة للناتج المحلي الإجمالي)، الصين (2.2 %) والاتحاد الأوروبي (1.9 %). وبهذه الطريقة، فإن انخفاض النمو العالمي، فضلاً عن استهلاك واستثمار هؤلاء الشركاء التجاريين، يعني ضمناً انكماشاً حاداً في الطلب الخارجي على المنطقة.

أسوأ ركود اقتصادي

أشارت توقعات لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي (سيبال) إلى أن اقتصاد هذه المنطقة سيسجل في العام 2020 أسوأ ركود في تاريخه الحديث بسبب جائحة كورونا.

وأوضحت لجنة سيبال، 22 أبريل، أنه من المحتمل أن يسجل اقتصاد أمريكا اللاتينية والكاريبي في العام 2020 انكماشا بنسبة 5.3 %.

وقالت اليشيا بارسينا رئيسة اللجنة، خلال تقديمها توقعات اللجنة «نتوقع ارتفاعا قويا في البطالة وتفاقم الفقر وعدم المساواة».

وأضافت أن "هناك حاجة إلى إجراءات استثنائية للتعامل مع أزمة غير مسبوقة، لن يكون هناك تقدّم بدون تعاون وتضامن دوليين».

وكان اقتصاد هذه المنطقة حقق نموا ضعيفا بنسبة 0.4 % في المتوسط في الفترة بين 2014 و2019.

وكانت آخر مرة يسجل فيها اقتصاد هذه المنطقة مثل هذا التراجع القوي المتوقع له بسبب كورونا، في عام الأزمة المالية عام 1930، عندما انكمش بنسبة 5- %، وفي عام 1914 بنسبة 4.19 %.

وتوقعت لجنة سيبال تراجع الصادرات بنسبة 15 %، وتوقعت أن تعاني الدول المصدرة للمواد الخام في أمريكا اللاتينية بالدرجة الأولى بسبب تراجع الطلب من الصين.

ومن المتوقع أن تعاني أمريكا الوسطى، التي سينكمش اقتصادها بنسبة 2.3 %، من «تراجع السياحة وانخفاض النشاط مع الولايات المتحدة، شريكها التجاري الرئيسي ومصدر التحويلات المالية الخارجية».

كما يتوقع أن تواجه منطقة الكاريبي أيضا انخفاضا في النشاط السياحي وتراجعا بنسبة 2.5 % في ناتجها المحلي الإجمالي.

عزل وإغلاق حدود

بعد ما تزايد تفشي وباء كورونا في دول أمريكا اللاتينية، اعتبارا من شهر مارس 2020، تزايدت إجراءات العزل في القارة، حيث أغلقت كل الحدود البرية تقريبا وعلقت استحقاقات انتخابية، على أمل احتواء انتشار الفيروس.

كانت فنزويلا أول دولة في أمريكا اللاتينية تفرض العزل منذ 17 مارس، تلتها الأرجنتين التي اتخذت إجراء مماثلا 21 مارس ثم السلفادور في اليوم الذي يليه، وبعدها فرضت بوليفيا فرض عزلة إجبارية تليها كولومبيا.

وفي 21 مارس قالت الرئيسة البوليفية بالوكالة جانين أنييز "يجب علينا البقاء في المنزل 24 ساعة على 24، لأنها الطريقة التي يمكن فيها دحر الفيروس".

وظهرت انعكاسات أخرى للوباء في بوليفيا، البلد الذي تهزه منذ أكتوبر 2019 أزمة اندلعت على إثر انتخابات، وادت الى إرجاء الاقتراع العام الذي كان مقررا في الثالث من مايو 2020 ليتمكن البوليفيون من اختيار رئيس خلفا للمستقيل إيفو مورالیس.

كما تم تأجيل الاستفتاء الدستوري الذي كان مقررا في نهاية أبريل 2020 في تشيلي، التي تهزها أزمة اجتماعية خطيرة أيضا، إلى 25 أكتوبر.

وفي كولومبيا اندلعت حركات تمرد في عدد من سجون البلاد في 20 مارس، وأكد الرئيس الكولومبي إيفان دوكي في تغريدة على تويتر "التصميم على ضمان

الطمأنينة في البلاد وطمأنينة السكان المحرومين من حريتهم"، وقال "نحن نحمي أراوحنا لكننا لا يمكن أن نقبل عصيانات".

أما في البرازيل، فلم يكف الرئيس اليميني للبرازيل جايير بولسونارو عن التقليل من خطورة الوباء وإدانة "الهستريا" المحيطة به، ما دفع حاكمي الولايتين الأكثر تضررا ساو باولو وريو دي جانيرو إلى المبادرة باتخاذ إجراءات تقييدية.

وأعلن جواو دوريا حاكم ساو باولو التي تضم 45 مليون نسمة أن الولاية "ستخضع لحجر لمدة 15 يوما حتى الرابع من أبريل".

في ولاية ريو دي جانيرو أغلقت الشواطئ والحانات والمطاعم بقرار من الحاكم ولسون ويتزل، الذي أعلن أنه يريد تعليق الرحلات البرية والبحرية والجوية مع الولايات الأخرى بسرعة.

وفي تشيلي، أعلنت وزارة الصحة فرض حظر تجوال اعتبارا من الساعة العاشرة مساء بالتوقيت المحلي وحتى الخامسة صباحا في كل أنحاء البلاد، للحد من تفشي الفيروس.

وبينما أغلقت كل الحدود البرية تقريبا وعلقت الرحلات الجوية القادمة من الدول الأكثر تضررا، عززت دول عدة إجراءات العزل الجزئي.

ففي جواتيمالا فرض منع للتجول في مناطق عدة وتم تمديده في أخرى، ومددت باراجواي حتى منتصف أبريل تعليق الدروس وكل النشاطات الثقافية والرياضية.

وتنعكس الأزمة بقوة على المشهد السياسي. ففي الإكوادور استقال وزيري الصحة والعمل في 20 مارس.

فقد غادرت وزيرة الصحة كاتالينا أندرامونيو منصبها بسبب خلافات حول الموازنة المخصصة لمكافحة الوباء، مع أنها لم تدل بأي تصريحات علنية. أما وزير العمل أندريس ماديرو الذي ثبتت إصابته بالفيروس، فقد أكد في رسالة استقالته أنه يريد حماية صحته.

3 مليار مستخدم للخدمات المصرفية الرقمية

أظهرت دراسات في امريكا اللاتينية ان فيروس كورونا يمهد الطريق لاختفاء النقود الورقية، وتوقعت ان يستخدم نحو 3 مليار شخص في القارة الخدمات المصرفية الرقمية عبر الانترنت، بنهاية العام 2021.

وبسبب كورونا، أصبح التسوق عبر الإنترنت أمرًا طبيعيًا اليوم للسكان الذين لم يشتروا أبدًا عبر تلك الوسيلة، وحتى وقت قريب لم يتخيل أحد تقريبا أنه فى أسواق مكسيكو سيتى أصبح الدفع إلكترونيا عن طريق بطاقات "CoDi" التي تعتبر طريقة جديدة يتم رؤيتها فى المتاجر.

وأوضح سيسيدى لا بينيا ميندوزا، مدير التجارة الرقمية والمنظمات الدولية التابعة لرابطة الإنترنت فى أمريكا اللاتينية (ALAI)، أن الوباء الذى أدى إلى عمليات رقمية متقدمة، فإن بيئة المدفوعات الرقمية سيستمر فى الانتشار، وفي غضون 5 سنوات، سيكون هناك استخدام جذري للدفع من خلال الوسائط الرقمية.

وقال الخبير إجناثيو إيه كارباير، مدير النظام البيئي لبرنامج Fintech التابع للجامعة الكاثوليكية في الأرجنتين (UCA)، إن العديد من الدراسات، توقعت أنه بحلول عام 2021 سيكون هناك أكثر من 3 مليارات من مستخدمي الخدمات المصرفية عبر الإنترنت، بزيادة 53% عن 2020، والذين سيصلون إلى الخدمات

المصرفية من الهواتف المحمولة والأجهزة اللوحية أو أجهزة الكمبيوتر الشخصية أو الساعات الذكية.

230 مليار دولار خسائر السياحة

أكدت رئيسة المجلس العالمى للسياحة والسفر، أنه نتيجة لوباء فيروس كورونا، قد تخسر أمريكا اللاتينية ما يصل إلى 230 مليار دولار في السياحة لأنها من أكثر القطاعات تضرراً بعد إغلاق الحدود. وأوضح المجلس في احصائية له (13 سبتمبر) أنه سيكون فقدان لـ 12.4 مليون وظيفة في أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي هذا العام بسبب وباء كورونا، وبحسب التحذير الذى أطلقنه غلوريا غيفارا، رئيسة مجلس السفر والسياحة العالمي، أن السبب الذي يمكن أن يؤثر أيضًا على التعافي السياحي السريع في أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي، عدم وجود بروتوكولات موحدة لتوفير الأمن الصحي عند رفع القيود على الحدود.

وقالت غيفارا: "لا بلد يمكنه الهروب من التأثير"، إلا أنه في المكسيك، وجهة أمريكا اللاتينية التي تستقبل أكبر عدد من السياح، ستصل الخسائر بسبب انخفاض حركة المسافرين إلى 129 مليار دولار في نهاية العام، أي أقل بنسبة 66 % عن عام 2019 ، مع خسارة نحو 5 ملايين وظيفة، أي 69 % من القوى العاملة في القطاع المحلي.

وفي جميع أنحاء العالم قد يصل التأثير على العمل إلى 197.5 مليون عاطل جديد عن العمل وخسائر تقترب من 5.5 مليار دولار.

وفي عام 2019 ، بلغ نشاط الصناعة في أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي 358 مليار دولار.

«الدولرة» لإنقاذ الاقتصاد

تعاني أمريكا اللاتينية من ازمة اقتصادية كبرى بسبب أزمة كورونا، لذا اتجهت بعض الدول إلى الدولرة فى محاولة للخروج من مشاكل الاقتصاد، واعتمدت ثلاث دول هناك العمل الأمريكية رسميا لأسباب مختلفة، وهي بنما والاكوادور والسلفادور، على الرغم من أن العديد من الدول الآخرى تستخدمها بشكل غير رسمى، كفنزويلا. وقالت صحيفة «الاوردن مونديال» الإسبانية (12 سبتمبر) إن الازمة الاقتصادية فى امريكا اللاتينية أدت إلى انخفاض كبير فى العملات، مما أدى إلى انتشار الدولار الأمريكي فى الدوائر الاقتصادية للعديد من دول أمريكا اللاتينية، وتعنى الدولرة اعتماد الدولار الأمريكى كعملة، واستبدال العملة المحلية عند تحديد الأسعار أو طريقة الدفع، ويمكن أن تكون الدولرة رسمية أو شاملة .

واشارت الصحيفة فى تقريرها إلى أن فنزويلا لم تقر بشكل رسمي الدولرة ولكن المواطنون اتجهوا من تلقاء أنفسهم إلى استخدام الدولار الأمريكي بسبب التضخم المفرط للعملة الفنزويلية البوليفار، الذى يعاني من تضخم، ولذلك 50 % من معاملات الدولة تتم بالدولار.

وأشار التقرير إلى أن بنما تعتبر أولى دول امريكا اللاتينية التي تتجه الى الدولرة، وكان ذلك في عام 1903، وذلك جنبا الى جنب عملتها الرسمية بالبوا.

انخفاض متوقع لاقتصادات القارة

حددت اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي ECLAC أن ينخفض الاقتصاد فى المنطقة إلى 9.1 % بنهاية العام 2020، بسبب مباشر من تداعيات فيروس كورونا الذي ينهش في القارة.

وأشارت فى تقرير إقتصادي، إلى أن بعض الحكومات فى أمريكا اللاتينية بدأت في تخفيف اجراءات الاحتواء، واضطرت حكومات أخرى إلى الاستمرار فيها أو حتى تكثيفها نظرا للزيادة المستمرة فى الحالات اليومية للفيروس.

وتعتبر المكسيك من أوائل الدول فى امريكا اللاتينية، التي تشهد انخفاضا اقتصاديا فى 2020، بمعدل 7.9 % باستثناء منطقة جيانا، التي تعتبر مثالا للنموذج القوي حيث يصل الانكماش فيها الى 5.4 %.

واكد محللون ان الاقتصاد البرازيلي سيدخل في نهاية 2020 حالةً من الركود، مع انخفاض بنسبة 5.6 % ، على الرغم من أن المنظمات الدولية، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، أكثر تشاؤمًا وتضع هذا التراجع بين 8 % و 9 %.

أما فى كولومبيا، فإن التوقعات حول الناتج المحلي الاجمالي للبلاد في الربع الثاني من العام الجاري ليست مشجعة حيث ينتظر البلاد سيناريو سيء جدا، حيث قدر المحللون ومراكز الدراسة والحكومة انكماشا بنسبة 10 % و17 % مما يؤدي بطبيعة الحال الى انخفاض الدخل وزيادة البطالة.

اللقاحات الواعدة لأميركا اللاتينية

وفقاً للخبراء فالتطعيم لن يصل إلا لـ 20٪ من سكان دول أميركا اللاتينية التي تنتظر اللقاحات المعتمدة من منظمة الصحة العالمية.

وستكون هناك موافقة سريعة لوصول اللقاح البريطانى الى امريكا اللاتينية وهو بمثابة أمل حقيقى لاستخدامه فى الفئات الأكثر ضعفا والعاملين الصحيين فى الخطوط الأمامية والأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن 65 عاما، وجزء من اللقاح سينتج فى العاصمة الارجنتينية بوينيس آيريس، ثم يذهب الى المكسيك لتقسيمه وتعبئته للتوزيع.

روسيا وعدت بنحو 400 مليون جرعة من لقاح فيروس كورونا سبوتنك Sputnik V، لأمريكا اللاتينية، بحسب مدير صندوق الاستثمارات المباشرة لروسيا، الذي أشار إلى اتفاقيات تم توقيعها مع البرازيل والمكسيك، وان الاخيرة ستتلقى في نوفمبر 32 مليون جرعة من اللقاح الذي طوره مركز الأبحاث.

في حالة البرازيل، أوضح ديميتريف أنه كان هناك اتفاق مع ولاية باهيا لتوريد 50 مليون جرعة، واتفاق مع بارانا يتضمن التجارب البشرية ونقل التكنولوجيا، وشدد على أن "كل دول أمريكا اللاتينية تقريبا" أقامت اتصالات مع موسكو وأن نتائج المرحلتين الأولى والثانية من اللقاح قد قدمت لتبديد الشكوك.

خطر المجاعة يفاقم الأزمة

هناك نحو 14 مليون شخص مهددين بخطر مجاعة شديدة في أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي، بسبب أزمة فيروس كورونا ووفقاً لبرنامج الغذاء العالمي وأن الأشخاص الذين يعانون من نقص الغذاء سيتضاعف عددهم أربع مرات، ليصل إلى 13.7 ملايين في نهاية العام 2020.

وقال البرنامج، إنه يقوم بمشروعات في بوليفيا وكولومبيا وكوبا وجمهورية الدومينيكان والإكوادور والسلفادور وغواتيمالا وهايتي وهندوراس وبيرو وجزيرة نامية في منطقة البحر الكاريبي، لتدارك الأزمة المتوقعة.

في الوقت نفسه توقعت اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي، انخفاضًا في معدلات الاقتصاد بالمنطقة بنسب كبيرة.

وأشارت إلى أن التأثيرات ستكون أقوى على عمال اليومية في القطاع غير الرسمي الذين سيكونون الأكثر تضررا.

وفي 22 مايو 2020، توقعت اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي، في تقريرها الخاص عن كورونا، أنه ومع نهاية هذا العام، ستدفع أزمة كورونا حوالي 30 مليون شخص إلى الفقر في أمريكا اللاتينية، و215 مليون شخص في منطقة البحر الكاريبي.

أمريكا اللاتينية و«الكاريبي».. صراع ضد ندرة لقاحات

تصارع دول أمريكا اللاتينية ودول الكاريبي وأميركا الوسطى، الزمن لمواجهة المخاطر المتزايدة لفيروس كورونا المستجد، بينما لم تتمكن معظم دول المنطقة من الحصول على لقاحات مضادة لكوفيد 19، وتتعثر تلك التي عقدت صفقات بهذا الخصوص في مسار عمليات التطعيم.

وأظهرت إحصاءات أن حالات الإصابة في أمريكا اللاتينية تجاوزت للمرة الأولى نظيراتها في الولايات المتحدة وكندا معا، مع اتساع رقعة العدوى في البرازيل والمكسيك وبيرو وكولومبيا والأرجنتين.

ويجعل عدد الإصابات الآخذ في الزيادة السريعة أمريكا اللاتينية أكثر مناطق العالم تضررا بالجائحة، إذ تمثل 26.83 في المئة من الحالات عالميا. ويبلغ مجمل الإصابات في أمريكا اللاتينية في نهاية شهر فبراير 2021 أربعة ملايين و327160 حالة مقارنة مع أربعة ملايين و308495 في الولايات المتحدة وكندا، وفقا للإحصاء الذي استند إلى بيانات قدمتها حكومات كل دولة.

وتعتبر البرازيل أكثر بلد منكوب بكورونا في المنطقة اللاتينية ومحيط دول الكاريبي، وتجاوزت الحصيلة الإجمالية للوفيات فيها (25 فبراير 2021) عتبة الربع مليون، بعد عام من تسجيل الإصابة الأولى في البلاد التي تعاني من نقص في اللقاحات وموجة إصابات ثانية مميتة.

وأفادت وزارة الصحة البرازيلية أن العدد الإجمالي للوفيات بلغ في فبراير 2021، 251.498، وهي ثاني أعلى حصيلة في العالم بعد الولايات المتحدة التي تجاوز عدد الوفيات فيها جراء الفيروس نصف مليون، ويعد شهر فبراير الأقسى في البرازيل منذ تفشي الوباء، حيث بلغ معدل الوفيات 1.149 يومياً.

أما على مستوى القارة فوصل إلى ما لا يقل عن 570.383 شخصا، حسب احصائيات متفرقة لوزارات الصحة في عدد من دول القارة اللاتينية، ويمثل ذلك أكثر من ربع الوفيات في جميع أنحاء العالم (أكثر من مليوني حالة)، وتعتبر البرازيل الدولة الأكثر تأثرا في المنطقة تليها المكسيك بأكثر من 140 الف حالة ، وكولومبيا بأزيد من 48 الف حالة، ونحو 46 ألف حالة في الأرجنتين.

وسجلت وزارة الصحة في كوبا 18.151 ألف إصابة اجمالية حتى 27 يناير 2021، وذكرت شبكة «سي إن إن»، أن عدد الوفيات بلغ 170 حالة منذ بدء الجائحة وفقا للبيانات الرسمية.

وفى اوروجواي، أعلنت السلطات أن معدل الإصابة أصبح 25 حالة لكل 100 ألف حالة في الأسبوع الواحد.

بطء التطعيمات

واجهت القارة صعوبات عدة بالسيطرة على الفيروس خلال ديسمبر 2020، بعد أن عادت الأعداد لترتفع من جديد، بينما تواصل العديد من دول أمريكا اللاتينية تسجيل أرقام قياسية في أعداد الوفيات.

حملات التطعيم باللقاح إنطلقت في العديد من بلدان العالم، بقيت أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي في حالة انتظار وترقب بإستثناء البرازيل وشيلي وكوستاريكا والأرجنتين والمكسيك والإكوادور في عمليات تطعيم توصف بالمتواضعة.

فقد أخضعت الدول المتقدمة اللقاحات المتوفرة لمنطق السوق، وضغطت كي تستأثر بها، بينما تعاني العديد من هذه الدول من انخفاض كبير في ناتجها الداخلي بنسبة تناهز 8 بالمائة، وهو ما أثر بشكل كبير على إمكانيات مواجهتها لقانون العرض والطلب، لدرجة أن المدير العام لمنظمة الصحة العالمية ، تيدروس أدهانوم حذر من أن العالم مهدد بـ«فشل أخلاقي كارثي» بسبب عدم تكافؤ سياسات توزيع اللقاحات.

ورغـم مبادرة المنظمة الدولية بإيجاد «برنامج كوفاكس» الذي يهدف إلى ضمان الوصول العادل والمنصف للقاحات على مستوى العالم، فإن عشر دول صغيرة في المنطقة فقط، من هايتي إلى بوليفيا، سيتاح لها الوصول المجاني للقاح، وستحصل عليه سبعة وعشرون دولة أخرى بمعدل تفضيلي. لكن «كوفاكس» لن يتمكن في أحسن الأحوال من الحصول سوى على ملياري جرعة لعام 2021، وهو ما يكفي لتغطية 20% فقط من السكان المعنيين في أحسن الأحوال. كما لن يتم تسليم الجرعات الأولى إلا مع حلول شهر مارس 2021.

هذا النهج سوف يؤدي بالعالم إلى كارثة، لأنه في حال لم تتمكن مختلف هذه البلدان من الحصول على اللقاحات، سيواصل الفيروس تنقله، ما يهدد بحصول جائحة أخرى أو أكثر مستقبلا، كما سيلزم الدول التي قامت بحملات تلقيح واسعة، إلى الإبقاء على شروط السلامة، وهو ما سيكون له تأثيرات على إمكانيات عودتها للحياة الطبيعية.

صفقات متعثرة:

حسب الوحدة الاقتصادية Economist Intelligence Unit، وهـي شركة استشارية مرتبطة بمجلة دي إيكونوميست The Economist ، لن تنهي أي دولة في أمريكا اللاتينية حملة التطعيم الخاصة بها قبل منتصف عام 2022 ، أو حتى عام 2023 لثمانية منها.

فرغم محاولات العديد من دولها عقد صفقات لشراء اللقاحات المتوفرة، إلا أن جلها تعثر. ولم تتمكن جواتيمالا ونيكاراغوا من الإعلان عن أي اتفاق، كما تقلصت قدرة بيرو على التفاوض لشراء لقاح، بسبب أزمتها السياسية الخطيرة ورفضها الموافقة على شرط يقضي بتقديم ضمانات للشركة مقاضاتها في حالة حدوث آثار جانبية نتيجة لاستخدام اللقاح الذي طورته شركة فايزر الأمريكية، ما أجبرها على التوجه نحو الصين للتفاوض معها بخصوص شراء لقاحها، سينوفارم.

في المقابل هناك خمس دول، وهي الأرجنتين والمكسيك وبوليفيا وباراغواي وفنزويلا أساسا على لقاح سبوتنيك 5 الروسي، حيث حصلت على 20 مليون جرعة منه، رغم الجدل الذي تثيره هذه الصفقة داخل البلاد، لكون نتائج المرحلة الثالثة من التجارب السريرية الخاصة باللقاح، لم تظهر بعد.

أما المكسيك، فقد تجاوزت الهند لتصبح ثالث أكبر دولة من حيث حصيلة عدد الوفيات نتيجة لوباء فيروس كورونا. كما أصبحت تحتل المرتبة 13 عالمياً من حيث عدد الإصابات، حيث سجلت مليوناً و825 ألفاً و519 حالة مؤكدة. وقد غدت المكسيك أول دولة في أميركا اللاتينية تبدأ بتطعيم مواطنيها ضد فيروس كورونا.

وكان من المقرر أن يتلقى 750.000 من المتخصصين الصحيين جرعتين قبل نهاية شهر يناير. ولكن تم إعطاء أقل من 660.000 جرعة أولى، وتلقى 31.000 شخص فقط كلا الجرعتين. ومن المتوقع أن تصدر السلطات المكسيكية تصريحًا باستخدام لقاح سبوتنيكv وبمجرد الحصول على الموافقة، يمكن للدولة استخدام طائرات سلاح الجو الوطني لإحضار 24 مليون جرعة من روسيا وهذا ما تعهد به الرئيس المكسيكي.

وفي بوليفيا تم شراء 5.2 مليون جرعة من اللقاح الروسي، وصلت منها 20 ألفا بنهاية يناير 2021، تتعرض السلطات لانتقادات واسعة خاصة من قبل المعارضة اليمينية. ونفس الأمر في البرازيل، حيث أصبح اللقاح وسيلة تناحر سياسي وخاصة بين الرئيس والمعارضة. تمكنت السلطات من عقد صفقة مع الصين للحصول على لقاحها. أما في تشيلي، فقد تم تطعيم حوالي 57000 شخصا بلقاح بفايزر، ليبقى العدد ضئيلا جدا مقارنة مع وعود السلطات التي كانت أكدت أنها ستطعم جميع السكان، والبالغ عددهم 18 مليون نسمة، أواخر النصف الأول من عام 2021.

ولا تقف الصعوبات المرتبطة بحملات التطعيم عند اللقاحات، إذ تتجاوزها إلى إشكاليات تتعلق بالتعقيدات اللوجستية القائمة لتخزين اللقاح وإيصاله في البلدان الضخمة وشبكات الطرق غير المستقرة. كما هو الحال في كولومبيا، حيث سيتم حجز لقاح Pfizer، الذي يتطلب ثلاجات فائقة وهو ما سيجبر السلطات على تخصيصه للمدن الكبرى، ما سيضاعف الهوة جغرافيا في بلد يعاني أصلا من فوارق طبقية.

1.2 تريليون دولار.. خسائر التعليم

تقترب أمريكا اللاتينية ودول الكاريبي من بداية عام دراسي جديد وتواجه معظم البلدان نفس الأزمة وهي كيفية تعليم الطلاب بأمان في خضم الموجة الثانية الشرسة من وباء كورونا، الذي انتشر في المنطقة، وتتعرض البرازيل وجيرانها الإقليميون لخطر فقدان عام دراسة آخر، بسبب الخوف والمعلومات المضللة والوباء والاقتصاد المنهار.

إن معظم دول أمريكا اللاتينية ودول الكاريبي أغلقت مدارسها في مارس 2020 وأبقتها مغلقة لمدة 174 يومًا في المتوسط، متخلية عن أربعة أضعاف عدد ساعات الدراسة في أي منطقة أخرى في العالم.

المستشارة التربوية من منظمة اليونيسف لأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي أوضحت «لم يكن ٪87 من 160 مليون طالب في المنطقة ملتحقين بالفصول الدراسية منذ ثمانية أشهر، وأكثر من نصف الـ5.7 مليون طالب تغيبوا عن الامتحانات في مدارس القارة خوفا من كورونا، كما أن المدارس القارة اللاتينية فشلت بشكل كبير في اجراء اختبارات لفيروس كورونا».

محللو البنك الدولي يقدرون أن خسارة التعلم التراكمية يمكن أن تطرح ما يصل إلى 1.2 تريليون دولار من الدخل المستقبلي من أمريكا اللاتينية، أو 20 % من الدخل المتوقع، ومن المتوقع أيضًا أن ينخفض أداء الطلاب البالغين من العمر 15 عامًا في اختبارات الكفاءة الدولية PISA، قبل الوباء، كانت نسبة الطلاب الذين لم

يستوفوا الحد الأدنى من مستويات الكفاءة 53 %، لكن هذا الرقم الآن سيكون بين 60 % و68 % في العام الدراسي الجديد.

على الرغم من أن الطلاب من المنازل ذات التعليم العالي يتأثرون بشكل هامشي فقط بإغلاق المدارس، في بلدان مثل بوليفيا والسلفادور والمكسيك وبنما وبيرو، تتراكم "خسائر تعليمية" لأقرانهم الأقل حظوة تصل إلى 60 %، وفقًا لتقديرات الخبراء الاقتصاديين.

ووفقا لتقديرات اليونيسيف، فإن مكاسب التعليم التي حققتها أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي على مدى العقود الماضية معرضة الآن لخطر الانتكاس، مشيرة إلى أنه على الرغم من الجهود الحكومية، فإن طفلًا واحدًا فقط من كل طفلين من المدارس الحكومية يحصل على تعليم جيد عن بعد في المنزل مقارنة بـ 3 من كل 4 أطفال من المدارس الخاصة.

الانتعاش الاقتصادي.. معطّل

يهدد التأخير في تلقي اللقاحات، اقتصادات أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي، حيث إن البطء الشديد الذي تعاني منه عمليات التطعيم بجانب ارتفاع عدد الاصابات بالوباء، سيؤديان إلى إعاقة الانتعاش الاقتصادي.

مدير إدارة نصف الكرة الأرضية الغربي بصندوق النقد الدولى قال: «اذا فشل التطعيم وسياسة الصحة العامة وسيره عكس الاتجاه الذى شهدناه فى الأشهر الأخيرة، فمن الواضح أن هذا التعافي أصبح في خطر».

الإشارة إلى أن الانتعاش الاقتصادي يتعثر بالفعل بعد اجراءات الاغلاق التي اتخذتها بعض الدول، فمنذ يناير 2021 انخفضت التوقعات للنمو في الربع الأول للأرجنتين والبرازيل وتشيلي وكولومبيا والمكسيك، إلى جانب مخاوف بشأن الزيادة في عدد الحالات والقيود الجديدة.

لقد سجلت المنطقة تراجعاً بأكثر من 7 % عام 2020، استنادا الى تقارير صندوق النقد الدولي، وهو أكبر انخفاض في العالم، ووفقا لتوقعات صندوق النقد الدولي فلن يعود الانتاج في القارة إلى مستوياته التي كان عليها قبل الوباء، إلا في 2023، خاصة أن عام 2021 بدأ بداية صعبة للغاية في القارة مع موجة ثانية وانتشار سلالات جديدة وبطء عملية التطعيمات.

ففي البرازيل، مثلا، عانت البلاد من أكبر انخفاض على الاطلاق في نهاية العام الماضي، مما يشير إلى تباطؤ حاد في أكبر اقتصاد في أمريكا اللاتينية. وفي الوقت نفسه، ضعف انتعاش المكسيك مع تباطؤ النمو من 12.1 % إلى 3.1 % في الربعين الأخيرين من 2020.

وعلى النقيض، فإن تشيلي تعتبر الدولة الوحيدة التي ستحقق تقدما اقتصاديا، وتبرز بشكل إيجابي، لكن التعافي القوي يتوقف على زيادة توافر اللقاحات في الأشهر المقبلة، حيث تعمل البلاد على تطعيم 75 % من سكانها في غضون 6 أشهر فقط.

وقامت كل من وكالة موديز بمراجعة توقعاتهما للنمو فى التشيلى، وقالت إنه سيعود الى مستويات ما قبل الوباء قبل ثلاثة الى 6 أشهر من معظم البلدان الأخرى في المنطقة.

وبالمعدل الحالي، ستستغرق البرازيل عامين ونصف للوصول إلى مستوى التطعيم بنسبة 75 %، وهو الحد الذي يعتبره الخبراء ضروريًا للعودة إلى الحالة الطبيعية. وستستغرق المكسيك 3.6 عاما والأرجنتين أكثر من 10 اعوام .

أمريكا الوسطى

أمريكا الوسطى هي المنطقة الواقعة وسط الأمريكيتين تمتد من المكسيك شمالاً إلى كولومبيا جنوباً وجغرافيا تعرف أيضا بأنها الجزء الجنوبي من قارة أمريكا الشمالية. ومساحة المنطقة تبلغ 507.966 كم2 واجمالي سكانها 46.761.485 نسمة. يحد المنطقة البحر الكاريبي من الشرق والجنوب الشرقي وخليج المكسيك من الشمال والمحيط الهادي من الغرب والجنوب الغربي.

بالنظر للخواص الطبيعية للمنطقة، يلاحظ أنها عبارة عن برزخ، يعد امتداداً لبرزخ تيونتيبيك في المكسيك شمالاً ويمتد جنوباً حتى برزخ بنما الذي يتصل بدوره بقارة أمريكا الجنوبية.

أغلب أجزاء أمريكا الوسطى جزء من الصفيحة الكاريبية، وبالتالي فهي نشطة جغرافياً، إذ تصيبها بعض الزلازل من فترة لأخرى، كما تثور فيها البراكين أحياناً. وهي خصبة وذات إنتاج زراعي متميز بسبب تربتها البركانية.

دول أمريكا الوسطى هي بليز وبنما وغواتيمالا والسلفادور وكوستاريكا ونيكاراغوا وهندوراس، وحسب تعريف الأمم المتحدة، فإن أمريكا الوسطى تشمل المكسيك إضافة إلى الدول السابقة، بينما يستثني تعريف الاتحاد الأوروبي المكسيك وبليز من المنطقة.

في عام 1823، اتحدت غواتيمالا والسلفادور وكوستاريكا ونيكاراجوا وهندوراس فيما عرف باسم جمهورية أمريكا الوسطى الفيدرالية، والتي لم تدم طويلاً وحُلّت عام 1840.

تتميز دول المنطقة بمناخها الموسمي الماطر، لذلك تنتشر فيها الكثير من الغابات التي تحتوي على مختلف أنواع الأشجار، والكائنات الحية، وتحتوي أيضاً على العديد من المناطق السياحية، التي يزورها الكثير من الأشخاص من مختلف دول العالم.

تداعيات الوباء على القارة

لم تكن دول أمريكا الوسطى والكاريبي استثناءً من من التداعيات المريرة لفيروس «كورونا» الذي فتك بجميع دول العالم تقريبا؛ وإنْ بنسب متفاوتة.

وحتى 17 أكتوبر بلغت حصيلة الوفيات الناجمة عن الإصابة بالفيروس بكل من الدومنيكان لـ2192، وغواتيمالا لـ3478، والهندوراس لـ2552، وبنما لـ2546. وارتفعت الإصابات إلى 120 ألفًا و450 حالة في الدومنيكان، والى 100 ألف و431 في غواتيمالا، بينما بلغت الاصابات في الهندوراس 86 ألفًا و89، وفي بنما تم تسجيل 123 ألفا و498 اصابة.

وفي هذه الاجـواء، أعلن رئيس غواتيمالا أليخاندرو جياماتي، 18 سبتمبر، أن «الفحوص أثبتت إصابته بالفيروس».

لقد أنهكت تداعيات جائحة "كورونا" كاهل الناس في العديد من دول العالم، ومن بينها سكان منطقة امريكا الوسطى والكاريبي، حيث اضطرت الازمة الطيّار خوان سالازار الى تحضير الخبز المنزلي يبيعه في بنما. فبعدما علّقت شركة الخطوط الجوية البنمية عقد عمله معها نتيجة تراجع نشاط الرحلات الجوية، أصبح بيع الخبز عمله الجديد.

وكان خوان البالغ من العمر 40 عاما طيارا في الجيش الكولومبي، ثم في شركة الطيران البنمية، لكنه اليوم أصبح خبازا، بهدف تأمين معيشته وإعالة زوجته وابنتيه، وقال: "لم أكن أملك أي خبرة في مجال المخبوزات، لكني أحضر اليوم الخبز بالجبن اللذيذ والمقرمش في فرن متواضع، بمساعدة زوجتي ديانا كارولينا"، ويضيف بفخر أنه تمكن من بيع ما يصل إلى 23 كيلوغراما في يوم واحد بفضل الطلبات التي تلقاها عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

وليست قصة هذا الطيار- الخباز فريدة من نوعها في أميركا الوسطى التي تعاني من العنف والبؤس، جراء تداعيات الفيروس المرعب، ففي كوستاريكا، لم يعد ألبرتو ليزانو البالغ من العمر 48 سنة، يغني "أمور إترنو" في الحفلات، فقد استبدل ملابسه المزخرفة بوزرة يضعها لحماية ملابسه خلال تغيير الإطارات وإصلاح كهرباء محركات السيارات في مرآب حيث وُظف كمساعد ميكانيكي.

ويقول المغني "كانت لـدي مواعيد لعروض مجدولة ألغيت بين ليلة وضحاها. كانت لدي حفلات مقررة في جاكو (شاطئ على المحيط الهادئ)، في سان خوسيه، وفي أماكن كثيرة، ألغيت جميعها». وأقفلت المقاهي والمطاعم التي يغني فيها ألبرتو عادةً منذ بدء تفشي كورونا كتدبير صحي وقائي، الأمر الذي جعله من دون مدخول يومي ما اضطره للعمل في مجال الحرف اليدوية لكنه لم يستمر في ذلك.

في السلفادور، لجأ كارلوس أباريسيو البالغ من العمر 34 عاما والذي كان مهاجما في فريق لكرة القدم، إلى بيع منتجات الألبان والعسل والشوكولا بمساعدة زوجته دانيلا، بعدما توقفت المباريات نتيجة لتفشي كورونا.

وتشتري دانيلا التي عملت في مجال الإعلانات، البضائع، فيما يوصل كارلوس الطلبات إلى المنازل.

ويُعلق كارلوس أباريسيو قائلا "إنها حياة مختلفة تماما، لقد اعتدت البقاء في الملعب. لكن الوباء فرض علينا مصيرا جديدا».

ويستعين الزوجان بالأقنعة والقفازات والمعقمات للوقاية من الفيروس واستكمال عملهما.

وتتغلب دانيلا الآن على هواجس وتحفظات كانت لديها وتقول "إنها تجربة صعبة للغاية، كانت لدينا ديون في بداية الوباء... أما اليوم فنعيش بهدوء وسط الفوضى،

لدينا ما يكفي من الطعام، ندفع ما يلزم لتعليم أطفالنا، ونحن قادرون على دفع كل المستحقات".

«كورونا» أعاد كوبا إلى العالم

تصنف كوبا مع مجموعة دول الكاريبي وبالمعنى الجغرافي الأوسع فهي تنتمي الى دول أميركا اللاتينية والتي تتوزع بدورها على أميركا الشمالية، وأميركا الوسطى والكاريبي وأميركا الجنوبية.

واجهت كوبا العديد من التحديات على المستوى المحلي، النظام الصحي هش للغاية ولم يعد كما كان عليه، لذا يواجه المهنيين الصحيين العديد من التحديات مثل نقص الإمـدادات الطبية وسوء الظروف الصحية وتدني الأجور.

يوجد في كوبا أيضًا الكثير من السكان المسنين أكثر من أي دولة أخرى في القارة. مع الوضع بعين الاعتبار أن ربع السكان هم من المعرضين للخطر، فإن النظام الصحي الضعيف يمكن أن يؤدي إلى ارتفاع عدد القتلى خلال الوباء. بالإضافة إلى ذلك، كان الاقتصاد الكوبي غير مستقر خلال العامين الماضيين، وهو مهدد بتدهور أعمق بسبب تراجع السياحة والتحويلات النقدية. نتيجة لذلك، بدأت الحكومة بإضفاء الطابع المركزي على عملية صنع القرار الاقتصادي، من أجل تجنب أزمة اقتصادية أعمق مثل الأزمة التي عانت منها البلاد بعد نهاية الحرب الباردة.

حصدت كوبا ثمرة إعدادها الجيد «لجيشها الأبيض» الممثل في الأطباء والممرضين، وجرى استثمار ذلك في إرسال أعداد منهم الى مختلف دول العالم لتقديم المساعدة، مما عكس جانبا مشرقا لهذه الجزيرة التي يحظى التعليم الطبي فيها بأهمية خاصة منذ تفجر ثورة الزعيم الكوبي الراحل فيدل كاسترو.

وللمساعدة في احتواء جائحة كورونا، غادر أكثر من 1455 طبيبا كوبيا في 22 لواء إلى 21 دولة من بينها إيطاليا والكويت وأندورا وجامايكا وبليز وقطر.

ففي 15 أبريل وصلت مجموعة تضم 52 طبيبا وممرضا كوبيا الى إيطاليا، ملوحين بأعلام البلدين، للمساعدة على وقف انتشار الفيروس بمنطقة لومبارديا، الأكثر تضررا من الجائحة.

ومع وجود 60 ألف إصابة وأكثر من 5 آلاف وفاة في ذلك الوقت، كانت إيطاليا في حاجة ماسة إلى طواقم طبية إضافية للتعامل مع الأزمة.

وفي 8 أغسطس، أعلنت السلطات الكويتية وصول الفريق الطبي الكوبي الثاني لمساندة الكوادر الطبية في البلاد بمواجهة الفيروس، وذكرت وزارة الصحة الكويتية، أن الفريق الطبي الكوبي مكون من 39 طبيباً؛ بتخصصات في العناية المركزة والباطنية، وفق صحيفة الأنباء الكويتية.

وبقي الفريق في الكويت ستة أشهر، في إطار مذكرة تفاهم صحي موقعة بين البلدين.

وتعد هذه الدفعة الطبية الثانية؛ حيث سبق أن أرسلت كوبا، في يونيو، فريقاً طبياً من 300 شخص، بينهم أطباء وممرضون في تخصصات منها العناية المركزة والباطنية والحوادث وغيرها.

جامعة جونز هوبكنز التي تتخذ من الولايات المتحدة مقرا لها، ذكرت أن البلاد التي يبلغ عدد سكانها 11.5 مليون نسمة، سجلت 1467 إصابة فقط، و58 وفاة (وفق حصيلة سابقة بتاريخ 4 مايو)، بينما كان هناك أكثر من 30 ألف إصابة، ووفاة أكثر من 1200 في ولاية فلوريدا الأمريكية التي تبعد 103 أميال فقط عن كوبا.

وبموجب النظام الاشتراكي في كوبا، يعمل جميع

الأطباء لمصلحة الدولة، كما أن نظامي الرعاية الصحية والتعليم يتبعان القطاع العام ويقدمان خدماتهما بالمجان للشعب. وهناك 8.2 أطباء لكل ألف شخص في كوبا، وهي واحدة من أعلى النسب في العالم، وفق البنك الدولي.

في 2005، عرض الرئيس الكوبي حينها فيدل كاسترو، إرسال 1500 طبيب إلى الولايات المتحدة للمساعدة في جهود الإغاثة عقب كارثة إعصار كاترينا في مدينة "نيو أورلينز».

ورغـم أن واشنطن رفضت المساعدات، إلا أن مجموعة من المتخصصين في الرعاية الصحية تشكلت تحت مسمى "لواء هنري ريف الطبي"، وساعدت في الخطوط الأمامية خلال أزمات مثل وباء إيبولا في غرب إفريقيا، والـزلازل والكوليرا في هايتي، ونيبال (عام 2015).

وعلى مر السنين، أرسلت كوبا أكثر من 400 ألف من المؤهلين في المجال الطبي في بعثات إلى 164 بلدا.

وتعمل بعض البعثات الطبية الكوبية في البلدان مجانا، فيما تدفع دول أخرى من أجل الحصول على خدماتها الطبية.

ويختلف الراتب الذي يدفعه البلد طالب الخدمة لكل وافد كوبي ضمن البعثة، ولكن الأطباء يحصلون على 20 ـ 25 في المئة من الراتب، وهو ما يزيد على ما يتقاضونه في بلدهم، فيما يذهب الباقي إلى الدولة التي تستخدم الدخل لتمويل نظام الرعاية الصحية في البلاد.

وتمثل البعثات الطبية المصدر الرئيسي للنقد الأجنبي لكوبا، لا سيما في سياق الحصار الذي تفرضه الولايات المتحدة على البلاد منذ 60 عاما، وخلال أوقات الجائحة التي لا تتلقى فيها البلاد إيرادات سياحية.

صناعة اللقاحات والتطعيم

أحرزت كوبا تقدماً في مجال التكنولوجيا الحيوية، لا سيما في الوقت التي تقوم فيه هافانا بتطوير أربعة لقاحات مرشحة ضد فيروس كورونا المستجد، لافتة إلى أن بدء المرحلة الثالثة من التجارب السريرية للقاح الكوبي سوبيرانا2- (السيادة2-)، من شأنه أن يجعلها البلد الأول في أميركا اللاتينية.

موقع "بزنس إنسايدر" الأميركي أشار إلى أنه مع تقدم اللقاحات الكوبية المرشحة (جميعها في المرحلة الأولى أو الثانية من تجاربهم السريرية)، ستكون واحداً من أوائل الدول في العالم التي تقوم بتحصين سكانها بالكامل في عام 2021، ضد فيروس كورونا ومن دون مساعدة من الغرب.

بدورها نوهت شبكة "بي بي سي" البريطانية إلى أنه بينما ركزت بعض الدول جهودها على استيراد لقاحات ضد فيروس كورونا المستجد، فإن دول أخرى، مثل كوبا، تركز على إنتاج لقاحات خاصة بها.

صحيفة "نيويورك تايمز" الأميركية إعتبرت ان التقدم الذي أحرزه اللقاح الكوبي سوبيرانا- 2 (السيادة- 2) الذي سيدخل مرحلة الاختبار النهائية في آذار/ مارس عام 2021.

في هذا السياق، أكدت الأمم المتحدة في موقعها الإخباري أن قدرة كوبا على تطوير لقاح ضد فيروس كورونا هي نتيجة سنوات طويلة من الجهود والاستثمار في صناعة المستحضرات الصيدلانية الحيوية.

بدورها سلطت منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية "اليونيدو" الضوء على تطور التكنولوجيا الحيوية في كوبا، وقالت إن التقدم الذي تحظى به كوبا من شأنه أن يجعل البلاد أقرب إلى إنتاج أول لقاح أميركي لاتيني ضد فيروس كورونا.

أمريكا الجنوبية

أمريكا الجنوبية هي إحدى قارات العالم الجديد تقع في القسم الغربي لخط غرينتش في نصف الأرض الغربي، معظم كتلتها تقع في نصف الأرض الجنوبي، مع جزء صغير نسبيًا في نصف الكرة الشمالي.

يمر بها خط الاستواء في أجزائها الشمالية، تبلغ مساحتها: 17,840,000 كم^2 وعدد سكانها 422.5مليون نسمة (إحصاء 2016).

تعتبر البرازيل والأرجنتين من أهم دول القارة التي يحدها من الشرق المحيط الأطلسي ومن الغرب المحيط الهادي أما من الشمال فتحدها أمريكا الشمالية والبحر الكاريبي، يحدها من الجنوب التقاء المحيطين الأطلسي والهادي بالإضافة إلى القارة القطبية الجنوبية.

أمريكا الجنوبية هي موطن أعلى شلال في العالم، شلالات أنجل في فنزويلا؛ ونهر الأمازون هو أكبر نهر (من حيث الحجم)؛ وجبال الأنديزهي أطول سلسلة جبال، وصحراء أتاكاما هي المكان الأكثر جفافاً على وجه الأرض، وموطن أكبر الغابات المطيرة، غابات الأمازون؛ وأعلى عاصمة، لاباز ببوليفيا؛ وبحيرة تيتيكاكاكأعلى بحيرة ملاحة تجارية في العالم، ومحطات البحوث فيبويرتو تورو التشيلية في أنتاركتيكا، كأقصى مكان جنوب الأرض مأهول بصورة دائمة. الموارد المعدنية الرئيسية في أمريكا الجنوبيةهي الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والنفط، وأدت هذه الموارد الموجودة في أمريكا الجنوبية إلى ارتفاع دخل البلدان ولا سيما في أوقات الحرب أو بسبب النمو الاقتصادي السريع للبلدان الصناعية في أماكن أخرى. لكن رغم ذلك فالتركيز على إنتاج سلعة واحدة والاعتماد عليها كأحد أهم صادرات البلد الأساسية كثيرًا ما أعاق تنمية القطاعات الاقتصادات المتنوعة، فالتذبذب والتقلبات في أسعار السلع الأساسية في الأسواق الدولية أدت تاريخيّاً إلى ارتفاعات كبيرة وهبوط حاد في اقتصادات دول أمريكا الجنوبية، كثيرًا ما تتسبب في زعزعت الاستقرار السياسي. حاليّاً تبذل

الجهود لتنويع الإنتاج وعدم الاعتماد على مصدر دخل وحيد. تعتبر البرازيل هي أكبر دولة في أمريكا الجنوبية، حيث تشمل حوالي نصف عدد السكان ومساحة الأراضي في القارة.

شهدت بلدان أمريكا الجنوبية خلال العقدين الماضيين نموا اقتصاديًا كبيرًا، وهو ما يمكن ملاحظته في العديد من هذه البلدان في بناء ناطحات السحاب مثل برج غران كوستانيرا في شيلي، وكذلك أنظمة النقل مثل مترو بوغوتا. ومع ذلك تعرف هذه المنطقة نسبة عالية من التضخم في جميع بلدانها تقريبا، فأسعار الفائدة لا تزال مرتفعة والاستثمار لا يزال متدنيًا. وعادة ما تكون أسعار الفائدة مرتفعة مرتين بينها وبين الولايات المتحدة. على سبيل المثال، معدلات الفائدة تصل إلى حوالي ٪22 في فنزويلا و٪23 في سورينام. تبقى شيلي هي الاستثناء، حيث تنفذ سياسة السوق الحرة منذ تأسيس الديكتاتورية العسكرية عام 1973، ومنذ عودة الحكم الديمقراطي في أوائل التسعينات دأبت الدولة على زيادة الإنفاق الاجتماعي، أدى ذلك إلى الاستقرار الاقتصادي وانخفاض أسعار الفائدة. وتعتمد أمريكا الجنوبية اعتمادًا كبيرًا على تصدير السلع والموارد الطبيعية. حيث تتصدر البرازيل (سابع أكبر اقتصاد في العالم والأكبر في أميركا الجنوبية) الدول المصدرة بمبلغ إجمالي لصادراتها ب204 مليار دولار تليها شيلي ب 120 مليار ثم الارجنتين ب 46 مليار دولار. وتعتبر الفجوة الاقتصادية بين الأغنياء والفقراء في معظم دول أمريكا الجنوبية الأكبر مقارنةً مع القارات الأخرى. ففي فنزويلا وباراغواي وبوليفيا وغيرها من دول أمريكا الجنوبية، يستحوذ ٪20 من السكان على أكثر من ٪60 من ثروة المنطقة، في حين أن ٪20 من السكان يمتلكون أقل من ٪5 من الثروة. ويمكن رؤية هذه الفجوة الواسعة في العديد من المدن الكبيرة في أمريكا الجنوبية حيث تقع مدن الصفيح والأحياء الفقيرة متاخمة لناطحات السحاب والشقق الفاخرة المملوكة للطبقة العليا.

القارة... بؤرة وباء

حتى 17 أكتوبر 2020، أعلنت دول أمريكا الجنوبية أرقاما رسمية لأعداد الوفيات والاصابات بفيروس كورونا، وتعتبر القارة «بؤرة وباء» بحسب توسيف منظمة الصحة العالمية.

وسجلت البرازيل حتى ذلك التاريخ، 5.2 مليون إصابة مؤكدة بفيروس كورونا، و153214 حالة وفاة، بحسب وزارة الصحة البرازيلية.

وفي المكسيك أعلنت وزارة الصحة ان عدد الوفيات الناتجة عن «كورونا» في البلاد بلغ 86059 حالة، بينما بلغ العدد الإجمالي لحالات الإصابة المؤكدة منذ تفشي الوباء 847108 حالات.

أما في كولومبيا، فذكرت وزارة الصحة ان الوفيات الناتجة عن الوباء بلغت 28803 وفيات، بينما ارتفع عدد الإصابات الى 952 ألف إصابة، فيما سجلت البيرو 33648 حالة وفاة و862 ألف إصابة بالمرض.

وقريبا من تلك الأرقام، سجلت الأرجنتين 26107 حالات وفاة و979 ألف إصابة،

فيما أحصت بوليفيا 8439 حالة وفاة و140 ألف إصابة، وسجلت تشيلي 13588 وفاة و490 ألف إصابة.

وأظهرت الاحصائيات في القارة ان أوروغـواي سجلت أقل الخسائر جراء الوباء، حيث أحصت 51 حالة وفاة و2501 إصابة، حتى ذلك التاريخ.

"علاج سحري".. خطره أكبر من «كورونا»

حذرت مؤسسات طبية مرموقة من خطر يسير المشرعون في بوليفيا قدما نحو السماح باستخدام مادة ثاني أكسيد الكلور من أجل علاج المصابين بفيروس كورونا.

وقال تقرير لموقع بيزنس إنسايدر الأميركي (17 سبتمبر)، إن الأشعة السينية للأشخاص الذين تناولوا ثاني أكسيد الكلور في بوليفيا، تظهر تورمات خطيرة في المريء.

ويؤمن الكثير من البوليفيين في قدرة مادة التبييض ثاني أكسيد الكلور، على الشفاء من عدة أمراض، بما في ذلك فيروس كورونا، وذلك رغم تحذير وزير الصحة بالبلاد من سميتها.

وأضاف تقرير الموقع أن الإصابات جراء ثاني أكسيد الكلور، أتت تزامنا مع حملة لإضفاء الشرعية على المادة السمية التي أطلق عليها المدافعون عنها اسم "المحلول المعدني الخارق" أو «MMS".

ووصف أطباء للموقع الأميركي، تحدثوا على شرط السرية، أن الإصابات الناجمة عن تناول ثاني أكسيد الكلور، أشبه بتأثير "مفاجئ ومتفجر».

ورغم أن المشرعين مضوا قدما في سن القانون، فإنه واجه عقبة رفض الرئيسة البوليفية جانين آنييز التوقيع عليه، مما يعني أنه قد ينتهي به الأمر أمام المحكمة البوليفية العليا.

وقال تقرير الموقع إن المادة السمية تصنع بالفعل في مختبرات الجامعات رغم عدم تقنينها بعد، وسيتم منحها لمرضى كورونا لاحقا. بل كثير من الناس يستخدونها حاليا.

وأفادت تقارير محلية بوجود العديد من الإصابات، وحدوث حالة وفاة، بعد تناول المادة. وفي يوليو، أفادت تقارير بوجود 13 إصابة في عدة مدن، فيما توفيت امرأة جراء المادة بحسب توقعات الأطباء.

وحصلت الحركة على زخم أكبر بعدما تساؤل الرئيس الأميركي دونالد ترامب، أبريل الماضي، عن إمكانية حقن المطهر في أجساد المرضى لعلاجهم من فيروس كورونا.

واتهمت المتحدثة باسم البيت الأبيض وسائل الإعلام الأميركية آنذاك "بإخراج كلام ترامب عن سياقه بشكل غير مسؤول من أجل نشر عناوين أخبار سلبية"، ورفض خبراء ما اقترحه الرئيس الأميركي مؤكدين أن ذلك قد يؤدي إلى التسمم.

يذكر أن إدارة الغذاء والدواء الأميركية حذرت من استهلاك مادة ثاني أكسيد الكلوريد السامة، لما تسببه من "قيء وإسهال شديد، وانخفاض ضغط الدم الذي يهدد حياة الإنسان بسبب الجفاف، وفشل وظائف الكبد».

نساء بوليفيا يلجأن للولادة بالمنزل

قررت البوليفية إيرما أرانثيبيا وضع مولودها السابع بالمنزل في إطار اتجاه سائد في هذا البلد الواقع بجبال الأنديز، حيث تتجنب النساء اللائي يوشكن على الولادة الذهاب إلى المستشفيات الممتلئة بما يفوق طاقتها الاستيعابية بمرضى «كوفيد- 19».

ووضعت أرانثيبيا أطفالها الستة في مستشفيات عامة، حيث يغطي التأمين الصحي التكاليف بينما لا يمتد ذلك إلى الولادة في المنزل.

ولكن مع تزايد الخوف من تفشي الوباء، حيث سجلت بوليفيا أكثر من 8300 حالة وفاة بسبب فيروس كورونا (حتى 13 أكتوبر)، تقول إن الأمر يستحق أن تستأجر قابلة كي تلد طفلها السابع.

وقالت أرانثيبيا : "سيولد الطفل هنا في المنزل دون تلقي الرعاية الطبية العامة.. مع بداية الجائحة تعقدت الأوضـاع في مراكز الرعاية الصحية، ومن الصعب الذهاب إلى هناك».

وفي بوليفيا هناك 200 امرأة حاصلة على تصريح بممارسة القبالة، وقبل شهرين فقط كانت إحداهن تقوم بتوليد حالتين فقط في المنزل شهرياً، أما الآن فلدى كل واحدة منهن جدول يضم نحو 15 حالة في الشهر.

وقالت القابلة لينا سفينتزين: "في السابق، لم يكن هناك سوى بعض الأمهات اللائي كن يخترن الولادة في المنزل، أما الآن فهناك العديد ممن يخترن ذلك تخوفاً من الذهاب إلى المستشفى».

وتقدم بعض المستشفيات الخاصة خدمات رعاية خاصة للأمهات الحوامل ممن لا يستطعن الاستفادة من نظام الصحة العامة في البلاد، في حين فتحت مستشفيات أخرى جناحاً للأمهات المصابات بـ"كوفيد19-"، وذلك مع ثبوت إصابة 80 % من الأمهات الحوامل في بوليفيا بفيروس كورونا.

وسجلت البلاد 138 ألف حالة إصابة مؤكدة بمرض "كوفيد19-" حتى 13 أكتوبر 2020.

بوليفيا والأكوادور.. سحب الجثث من الشوارع

أعلنت قوة الشرطة لمكافحة الجريمة في بوليفيا كشفت في احصائية، أن عناصرها سحبوا أكثر من 400 جثة من الشوارع والمنازل في كل أنحاء البلاد، من بينهم 85 بالمئة توفوا بسبب فيروس كورونا.

وقامت الشرطة بين 17 الى 22 يوليو بسحب حوالي 191 جثة في كوشابامبا وسط البلاد، و141 في لاباز، و68 في سانتا كروز، الواقعة شرق البلاد.

كما تم سحب 11 جثة أيضا في بوتوسي، جنوب غربي، وتسع في شويويساكا في الجنوب الشرق.

وبوليفيا التي تعدادها 11 مليون نسمة، سجلت رسميا 140 ألف اصابة بالفيروس و8439 حالة وفاة، منذ بدء انتشار الوباء وحتى 17 أكتوبر.

وشهدت الأكوادور المجاورة لبوليفيا وضعا مماثلا، حين اضطرت السلطات إلى جمع الجثث من الشوارع والمنازل في غواياكيل، المدينة الساحلية في غرب البلاد مع تسارع انتشار الوباء.

شفاء الرئيسة المؤقتة

يدلي البوليفيون بأصواتهم، في 18 أكتوبر 2020 لانتخاب رئيس جديد، في ختام حملة انتخابية محتدمة تخللتها أزمة «كورونا» وتدهور الاقتصاد.

وينبغي أن يذهب 7.3 مليون ناخب مجدداً إلى مراكز الاقتراع للاختيار من بين ستة مرشحين، بعد عام من الالتباس الذي لفّ نتائج فاز فيها الرئيس إيفو موراليس بولاية رابعة.

وتم تعيين جانين أنييز رئيسة موقتة لإدارة البلاد وواصلت الهيئات عملها في وقت كانت بوليفيا تواجه تفشي فيروس كورونا الذي أودى بحياة ثمانية آلاف شخص.

وفي 28 يوليو، أعلنت آنييز شفاءها من فيروس كورونا، وشكرت مؤيديها عبر "تويتر"، مؤكدة عودتها إلى العمل بشكل طبيعي.

وكانت آنييز أعلنت إصابتها بالفيروس في 9 يوليو، على خلفية إصابة عدد من كبار المسؤولين في الدولة، بينهم رئيس مجلس الشيوخ وزراء عدة بفيروس كورونا. واضطرت سلطات البلاد الى تأجيل الانتخابات الرئاسية التي كان يزمع إجراؤها في سبتمبر إلى أكتوبر بسبب الوباء.

رقم قياسي في بيرو

أودى فيروس كورونا بحياة 33600 شخصا في بيرو، التي تظهر الاحصائيات الرسمية انها أكثر دولة تضررت من الوباء بالرغم من تنفيذها أقصى عملية إغلاق في العالم. ونقلت صحيفة «تلغراف» البريطانية (18 أكتوبر) عن دانيال جون، السياسي السابق في حزب المحافظين، والرئيس المؤسس لمبادرة التجارة الحرة، أن «الرقم الحقيقي لعدد الضحايا أعلى بكثير." في البلد الذي يبلغ عدد سكانه 32 مليون نسمة.

وقال جون: تتمتع بيرو بنظام صحي متهالك، وتعتمد على اختبارات الأجسام المضادة الصينية بدلاً من اختبارات تفاعل البوليميراز المتسلسل (PCR)، لذلك لم يتم تشخيص العديد من المصابين بالفيروس، لقد تحدثت إلى أشخاص من مواطني بيرو، بمن فيهم طبيب ومسؤول حكومي، اعتقد كل منهم أن العدد الحقيقي للوفيات كان أقرب إلى 80 ألفًا".

واضـاف: صحيح أن بيرو بلد فقير، لكن وضعها كان جيدا في بداية الأزمة، وقد أصدرت مرسومًا يجب اعتباره بالتأكيد أصعب إغلاق على هذا الكوكب في 16 مارس، عندما كان هناك 28 حالة مؤكدة فقط مصابة، أغلقت بيرو حدودها وفرضت حظر تجول، وكانت العواقب الاقتصادية وخيمة، ومع ذلك لم ينجح ذلك في إيقاف الفيروس أو حتى إبطاء انتشاره فقد أعلنت حالة الطوارئ في 23 أغسطس، بسبب ارتفاع عدد الوفيات والاصابات بين الاطفال بفيروس كورونا، إذ توفي ـ وفقا لبيانات وزارة الصحة ـ 108 من الأطفال بفيروس كورونا، معظمهم بسبب مضاعفات موجودة مسبقًا مثل اللوكيميا أو السرطان، بينما سجلت إصابة 23 ألف طفل به في مستشفى سان بورجا للأطفال.

وقبل ذلك بأسبوعين، نمت الإصابات بكورونا في بيرو بمقدار 100 ألف إصابة، وهو أسوأ رقم قياسي منذ اندلاع المرض في البلاد في مارس ووفاة 17 شرطيا، وفق ما أعلنت السلطات في 26 أبريل،وأصيب 1300 شرطي آخرين بالوباء، ويعود ذلك لعمليات التدخل التي ينفذونها لردع الأشخاص المخالفين لإجراءات الحجر.

وأفاد مسؤولون أن 17 شرطيا في توفوا بعد إصابتهم بالفيروس أثناء عملهم في إنفاذ تدابير الإغلاق، فيما أقرت السلطات في وقت سابق بإصابة 1300 شرطي بالوباء.

وقالت وزارة الداخلية هناك انها خصصت 50 مليون سولا بيروفيا (15 مليون دولار) لشراء معدات حماية كالكمامات والقفازات للشرطة.

ترامب الاستوائي.. في البرازيل

تم تسجيل أول إصابة بفيروس كـورونـا في البرازيل في 26 فبراير، وفي 29 أبريل سجلت البلاد عددا قياسيا من الوفيات بلغ 474، وتخطت بذلك عتبة الـ5 آلاف وفاة بفيروس كورونا، وفقما أعلنته وزارة الصحة، وبذلك، تجاوزت البرازيل بعدد الوفيات المسجلة على أراضيها، الحصيلة الرسمية لوفيات "كورونا" في الصين، حيث ظهر الوباء لأول مرة أواخر عام 2019، التي بلغت 4633.

لكن في 22 يونيو أصبحت ثاني أكثر دول العالم

تسجيلا للإصابات بالفيروس بعد الولايات المتحدة، حيث تجاوزت الإصابات حد المليون إصابة، بينما بلغت الوفيات 50 ألف وفاة جراء المرض.

ومنذ وصول الفيروس الى البرازيل، وهي أكبر اقتصادات أمريكا اللاتينية، أدت سرعة انتشاره إلى تآكل الدعم للرئيس جايير بولسونارو وإثارة مخاوف من حدوث انهيار اقتصادي بعد نمو ضعيف على مدى سنوات.

وواجه بولسونارو الذي يطلق عليه أحيانا لقب "ترامب الاستوائي" انتقادات على نطاق واسع بسبب أسلوب معالجته للأزمة. ورفض بولسونارو التباعد الاجتماعي ووصفه بأنه إجراء يقضى على الوظائف وأكثر خطورة من الفيروس نفسه. وشجع أيضا عقارين مضادين للملاريا بوصفهما علاجا لكورونا وهما الكلوروكين والهيدروكسي كلوروكوين على الرغم من عدم وجود أدلة كافية على فعاليتهما ضده.

لقد أصبحت ثاني أكبر بؤرة لحالات الإصابة بفيروس كورونا في العالم بعد الولايات المتحدة بعد تأكيدها آنذاك إصابة 330890 شخصا بالفيروس متجاوزة بذلك روسيا، بينما بلغت الوفيات 21048.

وصنفت منظمة الصحة العالمية (23 مايو) أمريكا الجنوبية «بؤرة جديدة» لتفشي جائحة كورونا، وقال مسؤول الحالات الطارئة في المنظمة إن «أمريكا الجنوبية باتت بؤرة جديدة للمرض، نرى عدد الإصابات يزداد في العديد من الدول الأمريكية الجنوبية، القلق يشمل العديد من هذه الدول، ولكن من الواضح أن البرازيل هي الأكثر تضررا حتى الآن».

وفي 17 يوليو بلغ الرقم الرسمي لعدد الإصابات مليوني و12 ألف و151 إصابة بحسب أرقـام وزارة الصحة، وارتفع عدد الوفيات الى 74 ألف شخص. وفي 22 أغسطس أظهرت بيانات وزارة الصحة البرازيلية ارتفاع إجمالي عدد حالات الإصابة في البلاد إلى 3 ملايين و532330 حالة منذ بداية الجائحة بينما ارتفعت الحصيلة الرسمية للوفيات إلى 113 ألف و258 وفاة، وفي شهر سبتمبر إرتفعت الإصابات بواقع 13439 ليصل العدد الإجمالي إلى 4558068 حالة.

وتمثل الحصيلة انخفاضا لمؤشر الإصابات الجديدة حيث سبق أن سجلت يوم 17 سبتمبر 36303 حالات، وفي 18 سبتمبر 39797، وفي 19 سبتمبر 33057، وفي 20 سبتمبر 16389.

كما ذكرت وزارة الصحة البرازيلية أنها رصدت 377 وفاة جديد جراء فيروس كورونا في 21 سبتمبر لتصل حصيلة ضحايا الجائحة في البلاد إلى مستوى 137272 حالة.

ويشير هذا العدد إلى ارتفاع طفيف لمؤشر الوفيات اليومية جراء الفيروس بعد أن شهد هذا العدد تراجعا كبيرا سابقا، حيث بلغت الحصيلة يوم 17 سبتمبر 829 حالة، وفي 18 سبتمبر 858، وفي 19 سبتمبر 739، وفي 20 سبتمبر 363.

ووصلت في 15 أكتوبر 2020 إلى 30914 إصابة و754 وفاة جديدة ما يمثل ارتفاعا لكلا المؤشرين، ليصل العدد الإجمالي إلى 5.2 مليون حالة.

وتأتي هذه الحصيلة بعد أن سجلت يوم 14 أكتوبر 27235 إصابة، وفي 15 أكتوبر 28523 حالة.

كما ذكرت وزارة الصحة البرازيلية أنها رصدت 754 وفاة جديدة جراء الفيروس في 15 أكتوبر، لتصل حصيلة ضحايا الجائحة في البلاد إلى مستوى 153214 حالة.

بولسونارو يتجاهل آلام شعبه

تعرض الرئيس البرازيلي جاييربولسونارو لانتقادات حادة داخل بلاده بسبب تعاطي ادارته مع أزمة تفشي فيروس كورونا، وقد أظهر بولسونارو منذ البداية استخفافا كبيرا بالمرض وصل حد السخرية منه، حتى بعد ان اصبح هو شخصيا فريسة له.

وفي 10 أغسطس ارتفعت حدة الانتقادات الموجهة الى الرئيس البرازيلي، ففي وقت تخطت فيه بلاده عتبة الـ100 ألف حالة وفاة، تظاهر هو بأن الأمر عادي ولا يستحق القلق، تجاهل بوسلونارو مشاعر الحزن العميقة التي يمر بها شعبه، ولم يتطرق إلى الإعلان عن تجاوز عدد ضحايا الفيروس 100 ألف وفاة.

وفيما غزت الرسائل المتضامنة مع العائلات المكلومة والمنتقدة للحكومة شبكات التواصل الاجتماعي، التزم الرئيس البرازيلي الصمت حيال هذا الرقم الرمزيّ المحزن، وتحدث عن عدد المتعافين وفوز فريقه المفضل لكرة القدم «بالميراس» ببطولة الدوري في ولاية ساو باولو.

واكتفى بالقول «نأسف لكل الوفيات الناتجة من كوفيد- 19 وتلك الناتجة من بقية الأمراض».

وتداولت في حينه جدول يتحدث عن "3 ملايين شخص جرى إنقاذهم أو (مرضى) بصدد التعافي".

ويشمل هذا الرقم مليونين و94 ألفا و293 مريضا تعافوا من كورونا و817,642 مصابا آخر تتابع الأجهزة الصحية أوضاعهم، وفق أرقام الحكومة، لكن الجدول تجاهل تجاوز البلاد وقتها عتبة 100 ألف وفاة جراء الوباء.

ويتحدث الجدول أيضا عن "معدل وفاة لكل مليون مواطن هو الأدنى بين الدول الكبيرة".

وعلى عكس السلطة التنفيذية، أعلنت المؤسستان التشريعية والقضائية، الكونغرس والمحكمة العليا، حدادا رسميا على أرواح مئة ألف برازيلي أودى بهم الفيروس.

لم تصل البلاد إلى هذا الرقم صدفة. لقد تراكم يوما بعد آخر، نتيجة أخطاء وتقصير حكومة طلّقت العلم لصالح الظلامية، كما وصفت في حينه واطلق على الرئيس وصف «مرتكب إبادة».

وأصيب جاييربولسونارو (65 عاما) نفسه بـ"كورونا" في 7 يوليو، لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة التقليل من أهمية المرض الذي اعتبره "أنفلونزا خفيفة"، وانتقاد تدابير الحجر التي فرضتها حكومات الولايات البرازيلية.

وقال بولسونارو لاحقا إنه تحسن بفضل هيدروكسي كلوروكين.

وفي 31 يوليو،اتهم رئيس البرازيل السابق لولا دا سيلفا، الرئيس الحالي بادعاء الإصابة بمرض كوفيد- 19 بهدف الدعاية والترويج لعقار هيدروكسي كلوروكين.

وقال دا سيلفا (74 عاما) إن بولسونارو كأنه رئيس المصنع الذي ينتج هذا الـدواء. وانتقد لولا علاقة جاييربولسونارو بنظيره الأمريكي دونالد ترامب قائلا إنه لم ير مطلقا مثل هذه العلاقة من الخنوع مع الولايات المتحدة.

ووصف لولا "باللامسؤولة" الطريقة التي يتعامل بها الرئيس بولسونارو مع الوباء الذي قلل زعيم اليمين المتطرف بشكل متكرر من أهميته.

وفي 31 أغسطس، عادرئيس البرازيل، جاييربولسونارو، إلى الظهور في الأماكن العامة بدون كمامة، عند افتتاح محطة للطاقة الشمسية لمجمع فندقي في ولاية جوياس،

مما خلق العديد من الانتقادات اللاذعة له بسبب انتشار كورونا.

تحصين الاقتصاد البرازيلي

مع بلوغ كورونا ذروتها ودخـول التداعيات الى مفاصل الاقتصاد حيث باتت تهدد مصالح المواطنين وتمس حياتهم بادرت الحكومة إلى خطّة بقيمة 147,3 مليار ريال برازيلي (26 مليار يورو) لدعم اقتصاد البلاد في مواجهة تداعيات فيروس كورونا.

وقال وزير الاقتصاد إنّ هذه الأموال ستستخدم خلال الأشهر الثلاثة المقبلة لدعم الشركات الصغيرة والمتوسطة والعائلات ذات الدخل المنخفض والمتقاعدين.

وفي مطلع مـارس 2020، أقـرّت حكومة الرئيس جاييربولسونارو خطة طوارئ بقيمة 5 مليارات ريال لدعم قطاع الصحة البرازيلي.

تضرر قطاعات داعمة للاقتصاد البرازيلي أبرزها الزراعة والصناعة والتجارة والمواد الغذائية المختلفة، جراء تفشي فيروس «كورونا» في الصين التي تعد من أهم أسواق هذه القطاعات خصوصاً «صادرات اللحوم وفول الصويا وخام النفط تراجعت بحدة إلى الصين ما أثر سلبا على الاقتصاد البرازيلي».

ويمثل فول الصويا حوالي 30 % من إجمالي صادرات البرازيل إلى الصين، تلاه النفط بنسبة 24 % وخام الحديد 21 %.

ورأى خبراء الاقتصاد أن هذه التأثيرات السلبية للفيروس مؤقته؛ إذ ترتبط بمدة تفشي المرض، مضيفا الصين تعد أكبر الدول المستوردة للحوم البرازيلية، الأمر الذي أثر على حجم الصادرات.

كما تضررت 60 % من صناعة الإلكترونيات بسبب الفيروس وفق تقرير لغرفة الصناعة الكهربائية والإلكترونية، وتسبب في نقص استيراد المكونات من الدول الآسيوية، وخاصة الصين.

وكشف موقع «فولها دي ساو باولو» الإخباري البرازيلي عـن أن 20 % مـن الشركات فـي قطاع الإلكترونيات ستضطر للإغلاق الجزئي، وأن 57 % من الشركات المرتبطة بالصين تواجه مشاكل في تلقي المواد والمكونات والمدخلات التي تدخل في صناعة الأجهزة الكهربائية والإليكترونية.

وقال لوكاس ميلو، المدير التجاري في شركة "سو إنيرجي" البرازيلية المتخصصة في توزيع وتركيب الألواح الشمسية، إن الصين مسؤولة عن 100 % من توريد الوحدات الكهروضوئية، و70 % من المحولات العاكسة.

مضيفا "إيقاف بعض المصانع الصينية في هذا القطاع أدى إلى تراجع قيمة المشتريات الجديدة».

11 مليار دولار لحماية الوظائف

بعد مرحلة عدم الجدية توالت المبادرات فقد أعلن بنك التنمية الوطني، اعتزامه ضخ 55 مليار ريال برازيلي (نحو 11 مليار دولار) لحماية الوظائف إزاء تبعات انتشار فيروس كورونا.

وفي الاتجاه نفسه سارع البنك الحكومي لإعلان «4 تدابير ستضخ 55 مليار ريال في النظام المالي البرازيلي».

وسيستخدم المبلغ لتمويل تعليق سداد الفوائد والقروض المباشرة وغير المباشرة للشركات البرازيلية المستحقة لبنك التنمية لمدة 6 أشهر، وزيادة عرضها للقروض على الشركات المتوسطة والصغرى.

الاقتصاد البرازيلي

وبعد دخول البرازيل مرحلة حرجة أقرَّ مسؤولوها بأنه يتحتم التعامل مع الفيروس باهتمام خاص، فهو قد يكون فتاكا لبعض شرائح المجتمع كالأشخاص الأكبر سنا أو الذين يعانون مشكلات صحية، وهذا ما يقلقنا كثيرا، الحياة تأتي في المرتبة الأولى، لكن من المهم كثيرا أيضا ألا يخسر شخص عمله، في تصريح يعكس تطورا في خطابه الذي كان يصر فيه على التقليل من أهمية وباء كورونا والتنديد بـ"الهستيريا" حول انتشاره.

تفاؤل بتعافي الاقتصاد

توقعت الحكومة، أن اقتصاد البلاد سيبدأ في التعافي من آثار الفيروس بحلول أكتوبر 2020.

وقال محافظ البنك المركزي البرازيلي، إن أكبر اقتصاد في أمريكا اللاتينية سيبدأ في التعافي من أزمة فيروس كورونا في الربع الأخير من العام "أعتقد أن الربع الأخير سيشهد تحسنا».

ورفض الرئيس البرازيلي جاييربولسونارو مرارا ضراوة تفشي فيروس كورونا، وانتقد إرشادات العزل الاجتماعي، قائلا إن الخسائر الاقتصادية ستقتل عددا من الناس أكبر من الفيروس.

وكرر بولسونارو، حجته في برازيليا قائلاً من المتوقع أن تعوض الحكومة الاتحادية البرازيلية الولايات بأكثر من 100 مليار ريال (19.09 مليار دولار) في شكل العائدات الضريبية التي فقدت بسبب سياسات العزل العام التي أثرت سلبا على الاقتصاد.

خفض التصنيف الائتماني

خفضت مؤسسة التصنيف الائتماني الدولية فيتش، 6 مايو، النظرة المستقبلية لتصنيف البرازيل من مستقرة إلى سلبية مع تجدد الغموض السياسي في البلاد بالتزامن مع جائحة فيروس كورونا.

في الوقت نفسه أبقت فيتش على تصنيف البرازيل حاليا عند مستوى "BB-"، عائدة إلى الخلاف بين الرئيس البرازيلي جاير بولسوناور والبرلمان، ما يهدد قدرة الحكومة على تطبيق الإصلاحات الاقتصادية المطلوبة لعلاج العجز المالي وخفض معدل الدين العام.

المحلل الاقتصادي المقيم في نيويورك والمسؤول عن تصنيف البرازيل في مؤسسة فيتش أوضح إن الجائحة والركود المرتبط بها ستزيد أعباء الدين العام للبرازيل ويقضي على المرونة المالية ويزيد احتمالات التعرض لمخاطر الصدمات الاقتصادية.

ملياردير برازيلي يموّل المعركة ضد "كورونا"

دخلت مؤسسة الملياردير جورجي ليمان ومؤسسات تجارية أخرى معركة الحرب ضد تفشي فيروس كورونا، وأعلن ليمان رسميا (8 أغسطس) تمويله بناء مصنع لإنتاج لقاح لمرض كوفيد- 19 الناجم عن كورونا تطوره جامعة أكسفورد وشركة الأدوية أسترا زينيكا.

وقالت مؤسسة ليمان في بيان إن تكلفة المصنع 100 مليون ريال برازيلي (18 مليون دولار) وسيتم التبرع به لأهم مختبر للبحوث والتطوير في مجال الطب الحيوي في البرازيل، وهو مؤسسة أوسوالدو كروس المعروفة أيضا باسم فيوكروس.

وقالت إن المصنع سيكون جاهزا لإنتاج 30 مليون جرعة لقاح شهريا، اعتبارا من بداية عام 2021، واصفة إياه بـ«مشروع الأمل».

سقوط الاقتصاد قبل التعافي

مسؤولون حكوميون أعربوا عن تفاؤلهم بتعافي الاقتصاد من الأسوأ، واعلنوا في الوقت ذاته تخوفاتهم من العواقب التي ستنجم من تفشي فيروس كورونا في البلاد والتداعيات الصحية والمالية والاجتماعية العميقة التي سيخلفها في البلاد، وصعوبة اجراء إصلاحات اقتصادية في الوقت الراهن.

القائمين على الاقتصاد أبلغوا إن الإصلاحات سيجري تسريعها في غضون 60 إلى 90 يوما، بينما قال وزير الخزانة إنه يبدو أن الضربات الأكبر للاقتصاد حدثت في أبريل ومايو 2020.

وحذروا من سقوط الاقتصاد في دائرة الكساد إذا فشل صناع السياسة الاقتصادية في استئناف الإصلاحات الاقتصادية بعد تلاشي جائحة فيروس كورونا المستجد لكن الجهات الاقتصادية تعتزم الدفع من أجل تنفيذ خطة إصلاح تتضمن الاستثمار في مشروعات البنية التحتية وتعديل كامل للقواعد الضريبية والمالية، والحكومة أمضت الشهور الثلاثة الماضية في مكافحة تداعيات انتشار فيروس كورونا المستجد ومساعدة العمالة غير الرسمية، وحان الان وقت التركيز على الإصلاحات، إن الركود الاقتصادي الحالي الناجم عن الجائحة، يمكن أن يصبح كساد إذا لم ننتبه في الوقت الذي جمدت فيه الحكومة أجندة الإصلاح الاقتصادي عندما بدأ فيروس كورونا المستجد ينتشر في اكبر اقتصاد في أمريكا اللاتينية. ونظرا لارتفاع أعداد العاطلين وزيادة الضغط

على المستشفيات بسبب الفيروس حولت الحكومة تركيزها من إجراءات التقشف إلى الإنفاق العاجل.

وبات الرهان على أعضاء البرلمان البرازيلي لكي يعود الاقتصاد إلى مسار الإصلاح من خلال التصويت لصالح مجموعة القوانين الاقتصادية الأساسية التي سيتم طرحها.

كـان البنك المركزي قد أعلن تراجع قيمة الاستثمارات الأجنبية المباشرة التي وصلت خلال أبريل إلى أقل مستوى لها منذ نحو ربع قرن، مع اتجاه الشركات الدولية إلى تعليق خطط الإنفاق المحلية في ظل تباطؤ الاقتصاد العالمي نتيجة تداعيات جائحة فيروس كورونا.

وذكر تقرير البنك المركزي أن إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر خلال أبريل بلغ 234 مليون دولار، في حين كان المحللون يتوقعون وصوله إلى 1.5 مليار دولار.

في الوقت نفسه وصل إجمالي صافي الاستثمار المباشر الوافد خلال 12 شهرا حتى نهاية أبريلإلى أقل مستوى له منذ أكتوبر 2019.

وكانت بيانات رسمية قد أظهرت أن قطاع الخدمات الذي يشكل أكثر من ثلثي النشاط الاقتصادي في أكبر اقتصاد في أمريكا اللاتينية، انكمش بوتيرة قياسية في أبريل، وإنه الآن أصغر بنسبة 27% مما كان في 2014.

بينما، أكد وزير الخزانة على الحاجة لاستئناف إصلاحات المالية العامة في أقرب وقت ممكن، محذرا من أن العجز الأولي المتوقع في الميزانية والبالغ حوالي 700 مليار ريال (133 مليار دولار) قد يصل إلى 800 مليار ريال إذا لم تكن الحكومة حذرة.

الصين تنقذ قطاع الزراعة البرازيلي

هناك ثلاث عوامل ساهمت في انتعاش قطاع الزراعة البرازيلي، على عكس كل القطاعات الاقتصادية لهذا البلد الذي يرزح تحت تداعيات فيروس كورونا وهي الحرب التجارية بين بكين وواشنطن والطلب الصيني وانهيار الريال.

ووفقا لتحقيق ميداني اعلن احمد المهندسين الزراعيين أنه ذاهب لتمضية إجازة في أوروبا بمجرد انتهاء الوباء، فهذا المهندس الزراعي يحقق إيرادات كبيرة في ولايته ماتوجروسو في وسط البرازيل الغربي حيث تبدو المشاريع الزراعية الخاصة في وضع ممتاز هذا العام بفضل الطلب الصيني القوي.

ويقود مسلكا ترابيا طويلا إلى مزرعة "جاسانا" التي يملكها رودريجو والممتدة على 2350 هكتارا في منطقة فيرا على بعد 60 كيلومترا من سوريسو المصنفة عاصمة المشاريع الزراعية الخاصة.

وتضم المنطقة 1,5 مليون هكتار من المحاصيل الزراعية (15 ألف كيلومتر مربع)، ما يوازي مساحة لبنان بمرة ونصف المرة على سبيل المقارنة.

وباتت حقول الصويا والـذرة، المحورة وراثيا بمعظمها، جافة تماما حاليا، إذ انتهى الحصاد قبل أسابيع قليلة وبيعت المحاصيل إلى شركات تجارية كبرى في المنطقة، بينها "كارجيل" و"دريفس" و"كوفكو". وتشكل الصين السوق الأبـرز لهذه المنتجات، إذ استحوذت على 72,6 % من المبيعات خلال الأشهر السبعة الأولى من السنة.

وإضافة إلى طلب الصين التي تؤمّن بهذه الطريقة الغذاء لدواجنها، وفّرت الحرب التجارية بين بكين وواشنطن وانخفاض قيمة الريال البرازيلي بنسبة 25 %

في مقابل الدولار، دعما للمشاريع الزراعية الخاصة التي تشكل أكثر من خُمس إجمالي الناتج المحلي في البرازيل.

وسجلت صادرات الصويا، أبرز منتج تصدّره البرازيل، ازديادا بنسبة 36,3 % لناحية الكمية و33,3 % لجهة القيمة السوقية بين يناير ويوليو، مقارنة مع الفترة عينها من 2019. وصدرت البلاد ما يقرب من 70 طنا مقابل 23,8 مليار دولار.

ومن شأن هذا الارتفاع أن يتسبب بتراجع في مخزون الصويا في البرازيل، أكبر البلدان المصدّرة لهذه النبتة في العالم، إلى أدنى مستوياته التاريخية رغم المحاصيل القياسية هذه السنة.

ويأتي هذا الأداء الجيد ليتباين مع الوضع في باقي القطاعات الإنتاجية في الاقتصاد الأكبر في أمريكا اللاتينية. ففي هذا العام، من المتوقع أن يشهد إجمالي الناتج الداخلي تراجعا تاريخيا بنسبة 6 % بسبب كورونا، رغم نمو القطاع الزراعي بنسبة 2 %، وفق معهد البحوث في الاقتصاد التطبيقي.

الاقتصاد ينجو.. بأقل الخسائر

رغم أن البرازيل هي أكبر دولة في أميركا اللاتينية، وثاني أكبر دولة في العالم من حيث أعداد المصابين بفيروس «كورونا»، فإن الاقتصاد البرازيلي يسجل أقل معدل انكماش في المنطقة بفضل الاستجابة الاقتصادية السريعة لجائحة «كورونا» وإجراءات التحفيز المؤقتة. فالمؤشرات الاقتصادية الرئيسية، مثل مؤشر الناتج الصناعي ومبيعات التجزئة، تجاوزت توقعات المحللين، مع استئناف نشاط المتاجر والمصانع وإنفاق الحكومة مليارات الدولارات كمساعدات عاجلة لمواجهة تداعيات جائحة «كورونا».

كبير محللي منطقة أميركا اللاتينية في مؤسسة «آي إن جي فايننشيالماركتس» قال إن بيانات التردد على أماكن العمل تشير إلى أن تعافي البرازيل سيكون أسرع من الدول المجاورة.

وقال ماركو أوفيدو، رئيس أبحاث اقتصادات أميركا اللاتينية في بنك «باركليز»، إن البرازيل استفادت من إبقاء قطاعات اقتصادية محددة مفتوحة أثناء تطبيق إجراءات الإغلاق، للحد من انتشار فيروس «كورونا». وحذر المحلل الاقتصادي من أنه يجب ألا تؤدي العودة إلى العمل إلى تجاهل توصيات التباعد الاجتماعي في مواجهة الفيروس.

كذلك توقعت مجموعة «يو بي إس غروب» المصرفية، تراجع حدة ركود الاقتصاد بفضل إجراءات التحفيز الاقتصادي الحكومي، وانخفاض الفائدة إلى مستوى قياسي، وهو ما يساعد في تخفيف حدة تداعيات أحد أسوأ حالات تفشي فيروس «كورونا» على مستوى العالم.

أما كبير خبراء الاقتصاد في المجموعة السويسرية، والمدير السابق للبنك المركزي البرازيلي قال إن اقتصاد البلاد سينكمش خلال العام الحالي بمعدل 5.5 في المائة من إجمالي الناتج المحلي، وليس بمعدل 7.5 في المائة كما كان يتوقع من قبل، فالمنحة المالية الطارئة التي قررت الحكومة تقديمها للعمالة غير المنتظمة، والتي عرفت باسم «قسائم كورونا» نجحت في دعم دخول هذه الشريحة من المواطنين، في حين ساهم تعافي اقتصاد الصين، وهي أكبر شريك تجاري لها، في ارتفاع أسعار سلع التصدير الأساسية، وفي حين حذر البنك المركزي من أن التعافي السريع للاقتصاد أمر غير مضمون، فإن وزير الاقتصاد أكثر تفاؤلاً بشأن النظرة المستقبلية.

السجون الأكثر تعرضاً

تعاني البرازيل من أكثر حالات إصابة بفيروس كورونا فى امريكا اللاتينية، وتعتبر الثانية على مستوى العالم بعد الولايات المتحدة الامريكية من ناحية تفشي الوباء مع حوالي 112 ألف حالة وفاة وأكثر من 3.5 مليون حالة إصابة في النصف الأول من عام 2020، غير أن السجون غير المستقرة فى الأساس والمكتظة تعتبر الأكثر تعرضا للخطر.

الوباء أدى الى تفاقم نقص الخدمات الصحية وترك السجناء دون رؤية أسرهم لفترات طويلة، حيث أصبحت السجون المكتظة شرا جديدا في الدولة الواقعة بأمريكا الجنوبية.

ومنذ اكتشاف الحالة الأولى فى ابريل 2020 في أحد سجون ريو دي جانيرو، انتشر فيروس كورونا بسرعة بين أكثر من 748 ألف سجين، ثالث أكبر عدد سجناء فى العالم، على الرغم من الزيارات وعمليات النقل التي تمت فى نهاية مارس .

أن اكتظاظ السجون الذي يصل إلى 300 % في الزنزانات ذات التهوية والإضاءة السيئة والمياه والنظام الغذائي السيء، تعتبر من الظروف التي تجعل من السهل انتشار فيروس كورونا بها.

الباحثين في مجال الصحة العامة أشاروا الى اصابة 2.3 % من مجموع السجناء، وتوفي نحو 100 سجين بسبب الفيروس، وفقا لادارة السجون الوطنية (Depen)، لكن هناك نقص في الإبلاغ عن الحالات، كما هو الحال في جميع أنحاء البرازيل.

وفى السجون، تم إخضاع 7.8 % فقط من المعتقلين لاختبار كورونا، وحذر العديد من الخبراء من أن الوضع الحقيقيالواقعى يثير الرعب.

وهناك 38 % من مجموع 2095 سجينًا في سجن سوروكابا الثاني في ساو باولو مصابون بالفيروس، وعلقت الباحثة سانشيز "هذا المعدل مرتفع للغاية، وانتشار الفيروس مثير للرعب"، مشيرًة إلى أن الرقم يفوق مثيله في الأحياء الفقيرة في ريو دي جانيرو مع أعلى معدل انتشار للمرض، بنسبة تصل إلى 25 %.

وأدى تعليق الزيارات والتصاريح بالخروج للعمل لدى السجناء إلى أعمال شغب وهروب جماعي؛ كما كانت هناك أعمال شغب بسبب الخوف من أن يأخذ عملاء السجن الفيروس إلى السجون ، كما حدث أخيرًا.

وفي 8 أغسطس ، أعربت لجنة الدول الأمريكية لحقوق الإنسان (IACHR) عن "قلقها" بشأن الانتشار السريع للفيروس في السجون البرازيلية، وطالبت السلطات باتخاذ تدابير للحد من الاكتظاظ والسماح بالإفراج عن السجناء.

قال منسق نواة سجن مكتب الدفاع العام في ساو باولو، أنه "في هذه الفترة من الوباء، هناك زيادة في انتهاكات حقوق الإنسان للسجناء".

وتؤكد وزارة العدل أنها اتخذت "جميع الإجراءات" المتعلقة بها، حيث ذكرت وزارة العدل أنها أطلقت سراح 49747 سجينًا بما يمثل 6 % من إجمالى المساجين، ومع ذلك فإن الخبراء والمحامين العامين يؤكدون أنها غير كافية.

25 ألف وفاة في الارجنتين

أعلنت وزارة الصحة الأرجنتينية، 17 أكتوبر، أن حصيلة جائحة كورونا في البلاد تجاوزت عتبة 25 ألف وفاة من أصل نحو 950 ألف إصابة مؤكدة بالفيروس.

وقالت الوزارة إن العدد التراكمي للإصابات المسجلة في الأرجنتين، الدولة الأميركية اللاتينية البالغ عدد

سكانها 44 مليون نسمة، وصل يومها إلى 949.050 مصابا توفي منهم 25.342 شخصا.

وبعدما فرضت السلطات الأرجنتينية إجراءات حجر صارمة على كامل أنحاء البلاد استمرت أشهرا طويلة، عادت عجلة الحياة في البلاد إلى الدوران تدريجيا، لكن التجمّعات العامة الكبيرة والتجمعات في الأماكن المغلقة لا تزال محظورة.

ووفقا لتعداد أعدته وكالة فرانس برس، فإن الأرجنتين هي خامس أكثر دولة تضررا في العالم من الفيروس لجهة أعداد المصابين بالفيروس، والدولة الثانية عشرة عالميا لجهة أعداد الوفيات الناجمة عن الفيروس.

وكانت الارجنتين قد سجلت في 6 أكتوبر رقما "مرعبا" بإصابات كورونا، واظهرت احصائيات رسمية نقلتها وكالات أنباء عالمية، أن الفحوصات أثبتت إصابة نحو 6 من كل 10 من الأرجنتينيين بكورونا، مما يمثل انعكاسا لانخفاض مستويات الفحص والتطبيق الفضفاض لقواعد العزل العام.

الارجنتين.. انخفاض النشاط الاقتصادي بـ20.6 %

على خلفية «كورونا» انخفض النشاط الاقتصادي في الأرجنتين في مايو 2020 بنسبة 20.6% مقارنة مع الشهر نفسه من العام الماضي، وبنسبة 26.3% في أبريل مقارنة مع ذات الشهر في 2019.

ومددت الأرجنتين، في 24 يوليو، تجميد صرف رواتب البرلمانيين والسيناتورات لمدة 6 أشهر إضافية، جـراء تعمق أزمتها الاقتصادية؛ على خلفية تفشي الفيروس في البلاد.

وكانت الأرجنتين أقرت تجميد صرف تلك الرواتب في 27 ديسمبر 2019، بسبب الأزمة الاقتصادية التي تشهدها البلاد، وبعد أن تعقمت تلك الأزمة على خلفية تفشي كورونا تقرر بموجب مرسوم جديد، تمديد تجميد تلك الرواتب لـ6 أشهر إضافية.

وذكر المرسوم أنه «بسبب الأزمة الاقتصادية التي تسبب فيها فيروس كورونا بالأرجنتين، فإن الدولة اتخذت سلسلة من التدابير بهدف ضمان حصول كافة الشعب على الحد الأدنى من الأجور، ووصوله للغذاء، وبهدف حماية العمالة، والحيلولة دون غرق الشركات».

وتعيش الأرجنتين ذات الـ44 مليون نسمة على وقع أزمة اقتصادية تعمقت بشكل أكبر على خلفية تفشي فيروس كورونا في البلاد.

وتعاني الحكومة الأرجنتينية في إعادة هيكلة ديونها المستحقة للدائنين، كما أن عملتها المحلية، البيزو، تفقد قيمتها بشكل كبير أمام العملات الأجنبية.

الفصل الثالث عشر

استراليا نصف الكرة الجنوبي ونيوزيلندا قاهرة الفيروس

- عنصرية وحرب تجارية
- الاقتصاد أهم من كبار السن
- نيوزيلندا الأكثر سعادة في العالم
- تدفع ثمن كفاحها ضد كورونا
- دروس في التجربة

أستراليا

أستراليا، أو رسميًّا كومنولث أستراليا، دولة تمثُل قارة بمفردها، تقع منعزلة في نصف الكرة الجنوبي، جنوب شرق آسيا وغرب المحيط الهادي، وتبلغ مساحتها الاجمالية 7,617,930 كيلو متر مربع وتعد أكبر جزيرة في العالم، عاصمتها كانبيرا، ويحيط بها من الشمال بحر تيمور وبحر أرفورا ومضيق تورز، ومن الشرق بحر كورال وبحر تسمان ومن الجنوب ممر باس، ويحيط بها من الجنوب والغرب المحيط الهندي.

لم تكن أستراليا دولة قبل 1901، بل كانت ستة مستعمرات مستقلة تديرها بريطانيا. وفي استفتاء عام 1901، صوت الأستراليون تأييدًا لأن يتحدوا سوياً في دولة واحدة، تدعى الكومنولث الأسترالي.

وأستراليا دولة متقدمة، حيث تحتل المركز الثالث عشر في التقدم الاقتصادي والمركز السادس عشر في تصنيف مؤشر التنافس العالمي 2010–2011 للمنتدى الاقتصادي العالمي، كما تصنف في مراكز متقدمة في العديد من التصنيفات العالمية مثل: التنمية البشرية وجودة الحياة والرعاية الصحية والعمر المتوقع والتعليم العام والحرية الاقتصادية وحماية الحريات المدنية والحقوق السياسية، وهي عضو في الأمم المتحدة ومجموعة العشرين ودول الكومنولث وأنزوس ومنظمة التنمية الاقتصادية و«إيبك» ومنظمة التجارة العالمية ومنتدى جزر المحيط الهادي، كما تعدّ الأولى في معيار جودة المعيشة خارج أوروبا.

أكثر من 80 في المئة من سكان أستراليا من أصول أوروبية، والباقي من عرقيات آسيوية، مع أقلية أصغر من السكان الأصليين، وتعدّ الكثافة السكانية 2.8 نسمة لكل كيلومتر مربع، ويعدّ من أدنى المعدلات في العالم. على الرغم من أن اللغة الإنجليزية هي اللغة الأكثر

استخداما أو اللغة الشعبية في أستراليا، لكنها ليست اللغة الرسمية للبلاد، لكن اصطلح على اعتبارها لغة شبه رسمية.

تمتلك أستراليا سوق اقتصادية ذات إنتاج محلي مرتفع مع انخفاض معدل الفقر، ويعدّ الدولار الأسترالي العملة الرسمية للدولة، وفي عام 2006 بعد اندماج البورصة الأسترالية وبورصة العقود الآجلة بسيدني، أصبح سوق الأوراق المالية بأستراليا تاسع أكبر سوق في العالم.

وتصنف الثالثة في مؤشر الحرية الاقتصادية 2010 وفي المركز الثالث عشر كأكبر اقتصاد والتاسعة من حيث الناتج المحلي الإجمالي للفرد.

كان معدل العمري الافتراضي في عام 2006 يبلغ 78.7 عاماً للذكور و83.5 عاماً للإناث، ويعدّ إجمالي الإنفاق على الصحة (بما في ذلك القطاع الخاص) حوالي (9.8%) من إجمالي الإنتاج العام،وتقدم أستراليا خدمة الرعاية الصحية الشاملة منذ 1975 وتعرف باسم ميديكير. وتنظم الولايات المستشفيات وخدمات العيادات الخارجية، بينما تمول الكومنولث شركات الأدوية وتدعم الممارسة العامة للصيدلة.

ظهور الجائحة في أستراليا

وفق عملية الرصد الرسمية فإن الظهور الأول لفيروس كورونا كان في مدينة ووهان وسط الصين في 12 ديسمبر 2019، إلا أن بكين لم تكشف عنه رسميا إلا في منتصف يناير 2020، ومنذ ذلك التاريخ أعلنت منظمة الصحة العالمية حالة الطوارئ على نطاق دولي لمواجهة تفشي الفيروس، الذي انتشر لاحقا في عدة بلدان؛ ما تسبب في حالة رعب سادت العالم أجمع.

غير أن المعلومات الرسمية في أستراليا تشير إلى أن السلطات هناك شرعت، منذ 23 يناير2020،في إجراء الفحوصات على القادمين الى الدولة، من المدينة الصينية ووهان التي عرفت لاحقا بانها مركز تفشي الوباء على مستوى العالم.

يناير.. الإصابة الأولى

سجلت أوّل إصابة على أراضيها بالفيروس في 25 يناير 2020، وقالت السلطات المحلية إن الشخص المصاب، وهو رجل من ولاية فكتوريا، وصل إلى ميلبورن قبل أسبوع آتيا من مدينة ووهان الصينية مركز الوباء.

وعقب الإعلان عن تلك الحالة تم، تسجيل 4 حالات إصابة جديدة بالفيروس لأربعة رجال في مدينة سيدني.

فبراير.. سفينة موبوءة

الأول من فبراير، تم الإبلاغ عن حالة الإصابة العاشرة بالفيروس لامرأة في فيكتوريا عادت من ووهان.

وكانت أستراليا أجلت 164 من مواطنيها كانوا على متن سفينة «أميرة الماس» الخاضعة للحجر الصحي بميناء يوكوهاما قرب العاصمة اليابانية طوكيو، وأعلنت إصابة 9 من الذين أجلتهم بالفيروس.

وحتى نهاية فبراير سجلت 23 إصابة بالفيروس في عموم البلاد، وجميع الحالات لأشخاص عائدين من الصين.

مارس .. أول حالة وفاة

الأول من مارس لعام 2020 أبلغت عن أول حالة وفاة بسبب فيروس كورونا، لرجل من ولاية بيرث (78 عامًا)، كان أحد الركاب من سفينة (أميرة الألماس)، وخضع للعلاج في غرب أستراليا.

وفي 2 مارس، تم الإبلاغ عن أربع حالات جديدة، اثنتان منها كانت أولى حالات انتقال المجتمع للفيروسمن داخل البلاد، في حين كانت جميع الحالات السابقة الأخرى قادمة من بلد آخر.

في 4 مارس، تم الإبلاغ عن حالة الوفاة الثانية للمرأة المسنة (95 عاما) في دار لرعاية المسنين في دوروثيهندرسون لودج.

في 5 مارس، تم الإبلاغ عن حالتين جديدتين جنوب أستراليا، احداها لطفل عمره 8 أشهر انتقلت اليه العدوى من أمه.

في 10 مارس، وصل مجموع الإصابات الإجمالي إلى 100.

في 12 مارس، كشف رئيس الوزراء عن حزمة تحفيز بقيمة 17.6 مليار دولار من أجل "حماية صحة الأستراليين، وتأمين وظائفهم ، وإعادة الاقتصاد إلى الارتفاع"من الأزمة.

وفي 28 مارس بلغت ذروة الإصابات بتسجيل 459 إصابة فيما بلغت الوفيات الى 16 عموم البلاد.

أبريل.. ارتفاع الاصابات

استمر منحنى تسجيل الإصابات مع تسجيل حالات شفاء، وفي 9 أبريل أعلنت السلطات أنها سجلت أدنى زيادة لها في حالات الإصابة بفيروس كورونا في أكثر من 3 أسابيع، وقال وزير الصحة إنه تم تسجيل 96 حالة إصابة جديدة، في المرة الأولى التي تقل فيها الإصابات عن 100 حالة جديدة منذ 17 مارس.

وبذلك ارتفع عدد الإصابات بالفيروس في أستراليا منذ تفشي الوباء إلى ما مجموعه 6010 إصابة، و51 حالة وفاة.

مايو.. استئناف أنشطة

في 10 مايو أعلنت سلطات ولاية نيو ساوث ويلز ان أكبر ولايات استراليا التي توجد بها سيدني ستسمح للمقاهي والمطاعم والملاعب وحمامات السباحة غير المغطاة باستئناف نشاطها في 15 مايو بعد أن أظهرت الاختبارات المكثفة تباطؤ انتشار فيروس كورونا بشكل كبير.

وتعد نيو ساوث ويلز أكثر الولايات تضررا من الفيروس حيث بلغ نصيبها من حالات الإصابة المؤكدة والوفاة نحو 45 في المئة من إجمالي الحالات باستراليا.

وتتوافق هذه الخطوات مع خطة مؤلفة من ثلاث خطوات لتخفيف اجراءات العزل العام أعلنت خطوطها العريضة الحكومة وتتضمن عودة نحو مليون شخص للعمل بحلول يوليو عام 2020.

وكانت الولاية قد أعلنت في وقت سابق أن المدارس ستستأنف نشاطها من 16 مايولكن مع السماح للطلاب بالحضور يوما واحدا في الأسبوع بشكل تدريجي.

ولتاريخ شهر مايو 2020 تسبب الفيروس بخسارة 230 ألف مواطن وظائفهم لترتفع نسبة البطالة إلى 7.1%، وليبلغ عدد الوظائف التي خسرها الاقتصاد الأسترالي منذ بدء أزمة فيروس كورونا 835 ألف وظيفة.

وفي إطار مكافحة الوباء، باشرت في 21 مايو برنامجا يهدف إلى النزول إلى مجاري الصرف الصحي لتقفي أي أثر له في المياه القذرة، للوقاية من بؤرة وبائية جديدة. وبدأت مدينة ميلبورن في جنوب شرق البلاد تحليل مياه المجاري والبراز، لكشف آثار محتملة للفيروس. وبناء على النتائج، ستعتمد سياسة هادفة لتشخيص الإصابات وتعقب الأشخاص الحاملين للفيروس في الأحياء المعنية.

يونيو.. نكبة فيكتوريا

اعتبرت ولاية فكتوريا منطقة موبوءة، وأعلنت عن أول وفاة بفيروس كورونا منذ أكثر من شهر، لرجل في الثمانينات من العمر لفظ أنفاسه الأخيرة.

وأغلق المسؤولون الحدود بين أكثر ولايتين سكانا في البلاد لأجل غير مسمى، ابتداء من في 6 يونيو، في إطار إجراءات غير مسبوقة لاحتواء تفشي فيروس كورونا في مدينة ميلبورن.

ولأول مرة منذ ظهور الوباء، تم إغلاق الحدود بين فيكتوريا ونيو ساوث ويلز، منذ 100 عام. وكانت آخر مرة تم فيها منع التنقل بينهما في عام 1919 خلال جائحة الانفلونزا الاسبانية.

وفي 10 يونيو، أعلنت السلطات الصحية عن عدم تسجيل أي حالة إصابة مجتمعية بالفيروس في البلاد

وذلك لأول مرة منذ وصول تفشي الفيروس إلى الذروة في مارس.

وفي 25 يونيو، نشرت ألف عنصر في ميلبورن، بعد ظهور بؤرة إصابات جديدة بفيروس كورونا.

وظهرت البؤرة الجديدة في فندق في ميلبورن ينزل فيه الأستراليون العائدون من الخارج وكذلك في أحد متاجر "إتش آند إم" شمال المدينة.

وبنهاية يونيو اعلنت وزارة الصحة الفيدرالية أن إجمالي عدد الإصابات وصل الى 7500 إصابة و103 وفيات، اعتمادا على قواعد صارمة للتباعد الاجتماعي.

يوليو.. أعلى معدل للاصابات

بالرغم من تحقيقها قدرا أكبر من النجاح في التعامل مع وباء كورونا مقارنة بالكثير من الدول الأخرى، غير أن عدد الإصابات ظل يتزايد بمعدل كبير في ولاية فيكتوريا.

وإضطر رئيس الوزراء الأسترالي سكوت موريسون إلى إلغاء الجلسة التالية للبرلمان الاتحادي في كانبيرا، وسط تنامي تفشي فيروس كورونا، خاصة في ميلبورن وسيدني، أكبر مدينتين في البلاد.

وفي 22 يوليو أعلنت عن 501 حالة إصابة جديدة، مسجلة الرقم الأعلى من الإصابات منذ بدء انتشار الوباء على أراضيها فيما حذرت السلطات من مرحلة جديدة حرجة في أكبر مدينتين في البلاد.

وكانت الـذروة السابقة للوباء في 28 مارس حين أحصيت 459 حالة.

أما في 30 يوليو فقد سجلت أسوأ يوم لها من حيث الإصابات بعد أن أبلغت ثاني أكبر الولايات من حيث عدد السكان عن 700 حالة إصابة جديدة و13 وفاة، وكان الرقم القياسي السابق للحالات في يوم واحد 518، لكن الموجة الثانية في ولاية فيكتوريا التي تركزت على دور الرعاية للمسنين، أجبرت السلطات على إغلاق ميلبورن عاصمة الولاية، والولايات الأخرى على إغلاق حدودها.

وكإجراء احترازي طلبت ولاية فيكتوريا من نحو 5 ملايين شخص في أنحاء ميلبورن، ثاني أكبر المدن من حيث عدد السكان، وضع الكمامات أثناء الخروج وعدم ترك المنازل إلا للضرورة.

وامتد التفشي في فيكتوريا إلى الولايات المجاورة على الرغم من إغلاق الحدود الداخلية.

أغسطس.. عدد قياسي للوفيات

أعلنت ولاية فيكتوريا حال الكارثة وفرضت تدابير اغلاق جديدة (2 أغسطس)، بعد ارتفاع كبير في حالات الإصابات، تمتد حتى منتصف سبتمبر، عقب تسجيل 671 حالة إصابة جديدة و7 وفيات، ليرتفع عدد الإصابات آنذاك إلى 11557 اصابة والوفيات إلى 123.

وسجلت استراليا عددا قياسيا للوفيات اليومية بالفيروس وذلك رغم تراجع عدد الإصابات الجديدة في ولاية فيكتوريا، البؤرة الحالية للعدوى بالبلاد.

وأعلن مسؤولون في فيكتوريا وفـاة 19 شخصا بالفيروس في 10 أغسطس وهو أعلى محصلة يومية للضحايا منذ ظهور الوباء وذلك رغم وجود ولايات أخرى لم تعلن بعد أرقام الإصابات والوفيات.

وفي 22 أغسطس اقتربت حصيلة الوفيات من 500 شخص، وسط بواعث للأمل مع تراجع معدل الإصابات في ميلبورن، التي تسجل أعلى معدل إصابات، على نحو سريع منذ فرض إغلاق صحي هناك قبل ثلاثة أسابيع، ليرتفع إجمالي الوفيات في ولاية فيكتوريا وحدها إلى 398 حالة و485 حالة على مستوى البلاد.

وفي 29 أغسطس سجلت ولاية فيكتوريا أدنى زيادة فى حالات الإصابة الجديدة منذ نحو شهرين ولكن السلطات حذرت من أنها لن تتعجل رفع قيود التباعد الاجتماعي.

وسجل مسؤولو الولاية 94 حالة إصابة جديدة و18 حالة وفاة في ذلك اليوم، وسجلت فى المجمل نحو 25500 حالة إصابة و601 حالة وفاة جراء الجائحة حتى ذلك التاريخ.

اما في 30 أغسطس، فقد بلغ عدد حالات الإصابة المؤكدة بالفيروس 25670 حالة، وفقًا لبيانات جمعتها جامعة «جونز هوبكنز» و«بلومبرج نيوز»، بينما بلغ عدد الوفيات في البلاد 611 حالة، بعد مرور حوالي 31 أسبوعا منذ الإبلاغ عن أول حالة.

سبتمبر.. مظاهرات ضد الإغلاق

سببت حالات الإغلاق نوعا من التذمر بين الاستراليين، مما اضطر الشرطة الى اعتقال العشرات من الأشخاص كانوا وسط مظاهرات مناهضة لإجراءات الإغلاق شارك فيها المئات في كل أنحاء البلاد.

وواجهت الشرطة انتقادات في وقت سابق لاعتقالها امرأة حاملا بسبب قيامها بالترويج للاحتجاج على الانترنت.

فيما أعلن رئيس الوزراء إن سبعا من ولايات البلاد الثماني وافقت على فتح حدودها الداخلية اعتبارا من ديسمبر 2020، وحذّر من أنه "في غياب لقاح للمرض، قد يتعين علينا أن نعيش على هذا المنوال لسنوات صعبة مقبلة.»

وتضاعفت حالات الإصابة المؤكدة أكثر من ثلاث مرات خلال شهرين وبلغت 26,000 حالة، مع ارتفاع عدد الوفيات إلى 748.

وفي فيكتوريا يوجد 75 % من العدد الإجمالي لحالات الإصابة في استراليا، و 90 % من حالات الوفاة جميعها، والولاية تستحوذ على حوالي ربع النشاط الاقتصادي في البلاد.

أكتوبر.. العودة لـ"صفر" وفيات

مع التشديد في عمليات الإغلاق وفرض القيود أتت ثمار ذلك حيث أعلنت عدم تسجيل أي وفيات بفيروس كورونا لليوم الثالث على التوالي (10 أكتوبر) لكن مدينة ميلبورن التي أصبحت بؤرة تفشي الفيروس تواجه عزلاً عاماً مطولاً حيث ما زال عدد الإصابات الجديدة يتجاوز العدد المستهدف لإعادة الفتح.

وبلغت الحصيلة على الصعيد العام 27244 إصابة و897 حالة وفاة، وهو عدد يقل كثيراً عن معظم الدول الغنية.

نتائج مشابهة

شهدت أستراليا أيضا استجابات مشابهة بدرجة كبيرة للنتائج الإيجابية لتطبيق الإجراءات الاحترازية والخطوات الوقائية للتصدي للجائحة، ويعتبر من النقاط

المهمة أيضا ملاحظة أن معظم الولايات والأقاليم الأسترالية وصلت إلى نفس الوضع القائم في نيوزيلندا، ولكن تشهد فيكتوريا، وبدرجة أقل نيو ساوث ويلز، انتشارًا كبيرًا وتفشي لحالات العدوى.

استعداد لاستئناف السفر

بينما أعلنت السلطات المعنية استعدادها لاستئناف حركة السفر بعد تراجع الاصابة بفيروس كورونا، سجلت البلاد 19 إصابة جديدة بالمرض بينها 12 في ولاية فيكتوريا، وتوفي مريض آخر جراء الفيروس مما رفع عدد وفيات المرض هناك إجمالا إلى 898.

رئيس الوزراء أعلن إن بلاده تجري محادثات مع اليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة ودول أخرى في جنوب المحيط الهادي بشأن استئناف حركة السفر في ظل تراجع الإصابات بالفيروس.

وكانت أغلقت حدودها في مارس 2020 لإبطاء الانتشار، وتجاهد بقوة لإنعاش قطاع السياحة للمساعدة في الخروج من أول ركود تشهده فيما يقرب من ثلاثة عقود.

وعلى الرغم من تمكنها من احتواء التفشي بصورة أفضل من دول أخرى، فإنها تشهد موجة ثانية في ولاية فيكتوريا التي تبقي مدينة ملبورن تحت إجراءات عزل صارمة، لكن أعداد المصابين بالمرض هناك تتراجع منذ أوائل أغسطس2020.

5 أشهر بلا إصابات

شهر نوفمبر 2020 حمل في مطلعه أنباء تشير الى عدم تسجيل أي اصابة بفيروس كورونا، وذلك لأول مرة منذ 5 أشهر وهذا ما أكده مسؤولو الصحة.

واقتربت أستراليا خطوة أخرى نحو عودة الحياة الطبيعية، وقامت بفتح بعض الحدود الداخلية وتخفيف القيود في المناطق المتأثرة بالجائحة بعد عدم تسجيل أي إصابات أو وفيات جديدة في معظم أنحاء البلاد.

ولم تسجل ولاية الجنوب، أي حالات إصابة مجتمعية جديدة، ورفعت عزلاً عاماً صارماً في وقت مبكر عما كان مقرراً، وقال رئيس وزراء الولاية، إن التحرك السريع جنّب الولاية كارثة.

وبلغ عدد الحالات النشطة في الولاية 37 حالة، بعد أن أجبر تفشٍّ مرتبط بمسافر عائد من بريطانيا 4500 شخص على دخول الحجر الصحي.

وخففت ولاية فيكتوريا المجاورة، القواعد الخاصة باستخدام الكمامات، وسجلت الولاية 90 في المئة من حالات الوفاة والتي بلغت حتى ذلك التاريخ إجمالا 907 حالات.

909 إجمالي الوفيات

خلال ديسمبر 2020 جرى تكثيف، فحوصات الكشف عن فيروس كورونا، للحد من الإصابة التي بدأت في الظهور مجددا في سيدني، كما اتخذت ولايات وأقاليم أخرى خطوات مماثلة وسط مخاوف من تفشي الوباء.

وسجلت ولاية نيو ساوث ويلز، التي تضم نحو ربع سكان أستراليا، 7 حالات إصابة جديدة بكورونا في 25 ديسمبر، منها 6 حالات مرتبطة بانتشار المرض في الضواحي الشاطئية الشمالية بسيدني، التي فرضت حالة من العزل على أكثر من ربع مليون شخص لمدة أسبوع.

وأجرت ولاية فيكتوريا المجاورة 11 ألف اختبار، ولم تسجل أي إصابة على مدى ثمانية أسابيع متتالية.

وتم احتواء تفشي الفيروس إلى حد كبير في الضواحي المتضررة ولم يتم تسجيل سوى عدد قليل من الحالات في جميع أنحاء البلاد.

لكن بالرغم من ذلك، أعلنت ولاية نيو ساوث ويلز، في 29 ديسمبر 2020حالة التأهب في الولاية وطلبت من الناس توخي درجة عالية من الحذر بعد رصد سلالة من الفيروس مختلفة عن السلالة المعروفة.

وتم رصد السلالة الجديدة في الضواحي الساحلية بشمال سيدني في منتصف ديسمبر، حيث زاد عدد المصابين بها إلى 129 وتقرر فرض عزل عام على 250 ألفاً من سكان المدينة (حتى التاسع من يناير 2021).

وأعلنت نيو ساوث ويلز عن ثلاث حالات ربما كانت كلها مرتبطة بالسلالة التي ظهرت هناك، لكن مع ذلك فقد تجنبت أستراليا، بدرجة كبيرة، أعداد الإصابات والوفيات مقارنة بالكثير من الدول المتقدمة الأخرى، بحسب احصاءات لجامعة جونز هوبكنز، وسجلت نحو 28300 إصابة و909 وفيات منذ بدء الجائحة، لغاية يناير 2021.

حذر من تجدد الاصابات

أعلنت وزارة الصحة في 31 يناير 2021، عدم تسجيل أي إصابة جديدة لمدة أسبوعين كاملين، لاسيما بعد انحسار الوباء داخل سيدني. ومع ذلك، لا تزال أجزاء من الولاية في حالة تأهب بعد العثور على أجزاء من الفيروس في شبكة الصرف الصحي في واريـوود وليفربول ومالابار، خوفا من تجدد ظهور الإصابات مرة أخرى.

وكانت السلطات المعنية قد وافقت في 14 يناير على استخدام لقاح فايزر المضاد للفيروس.

وقال رئيس الخزانة الاسترالي، إن بلاده ستبدأ برنامجها للتطعيم ضد كورونا في فبراير كما هو مقرر، بعد وصول أولى جرعات اللقاح.

انطلاق التطعيم

أكدت السلطات الصحية (4 فبراير 2021) سعيها لتطعيم كافة الشعب ضد فيروس كورونا بحلول أكتوبر 2021.

وأنها سوف تحصل على 150 مليون جرعة من اللقاحات المختلفة وتشمل 20 مليون جرعة من لقاح فايزر، و 53.8 مليون جرعة من لقاح أكسفورد/ استرازينيكا، و51 مليون جرعة من لقاح نوفافاكس، و25.5 مليون ضمن مبادرة كوفاكس لتوزيع اللقاحات.

وفي 12 فبراير فرضت إجراءات عزل عام للمرة الثالثة ولمدة خمسة أيام لاحتواء كورونا في ملبورن، ثاني أكبر مدن البلاد من حيث عدد السكان.

وأعلن رئيس وزراء ولاية فيكتوريا تدابير العزل وتشمل حظر التجمعات العامة وحفلات الزفاف والتجمعات الدينية، وذلك على خلفية ظهور بؤرة إصابات جديدة مرتبطة بفندق للحجر الصحي في ملبورن، عاصمة الولاية، تتألف من 13 حالة تم ربطها بسلالة متحورة من الفيروس ظهرت أول الأمر في بريطانيا.

وفي 22 فبراير، شرعت في تطعيم سكانها، بدءا بعمال الصحة ومرافق العزل الصحي والمسِنين، والذين سيتلقون وحدهم 1,4 مليون جرعة من لقاح «فايزر/ بيونتيك».

على أن تتمكن الحكومة من تطعيم 60 ألف شخص خلال الأسبوع الأول من الحملة التي يُفترَض أن تنتهي في أكتوبر 2021.

وسبق انطلاق حملة التطعيم مظاهرات نظمها الآلاف (21 فبراير)، للتعبير عن رفضهم لتلقي اللقاح انطلاقا من وجهة نظر توصف إعلاميا بأنها مستلهَمة من «نظرية المؤامرة». وتخللت هذه المظاهرات، التي احتضنتها عدة مدن أسترالية، اشتباكات مع الشرطة واعتقالات واستخدام الغازات المسيلة للدموع من طرف الشرطة لتفريق المتظاهرين، في ظل خشية الحكومة من تأثير الرافضين للتطعيم على الرأي العام والإضرار بمساعي مكافحة الوباء. غير أن الاستطلاعات أكدت رغبة 80 بالمائة من الأستراليين في تلقي اللقاح.

وأستراليا من بين أكثر دول العالم نجاحا في التصدي للجائحة وهو ما يرجع بصورة كبيرة إلى إجراءات العزل الحاسمة وإغلاق الحدود. وسجلت البلاد نحو 22200 إصابة و909 وفيات، نهاية فبراير 2021.

"عنصرية" و"حرب تجارية".. بين أستراليا والصين

عادت استراليا في 26 سبتمبر، الى سؤالها الأول الذي اطلقته منذ بدء تفشي فيروس كورونا وتنقّله بين دول العالم، عن منشأ هذا الوباء الذي اربك حياة الناس في كوكب الأرض، متهمة الصين بأنها وراء هذا الاجتياح الفيروسي الهائل.

وخلال خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة اعلن رئيس الوزراء، إن دول العالم يجب أن تفعل كل ما بوسعها لمعرفة منشأ المرض، في تصريحات قد تؤدي إلى تصاعد التوتر بين بلاده والصين.

وتابع :«هذا الفيروس تسبب في كارثة لعالمنا وشعوبه. علينا أن نبذل كل ما بوسعنا لنفهم ما حدث، وذلك لسبب واحد، هو منع تكرار ذلك هناك إلزام واضح بتحديد المصدر الحيواني لكوفيد- 19 وكيف انتقل للبشر».

تلك التصريحات تسببت في توتر العلاقات بين استراليا والصين.

سفير بكين لدى كانبيرا حذَّر من أن دعوات إجراء تحقيق قد تؤدي لتدهور العلاقات التجارية بين البلدين. وتفرض الصين عقوبات تجارية على أستراليا منذ ذلك الحين.

وعلى خلفية إشتداد الغضب حذرت وزارة الثقافة والسياحة الصينية المواطنين بتجنب السفر إلى أستراليا، مرجعة ذلك إلى وجود «تمييز وعنف» ضد الصينيين بسبب جائحة فيروس كورونا، بعد أن حدثت زيادة مثيرة للقلق في حوادث التمييز العنصري والعنف ضد الصينيين والآسيويين، فيما لم تقدم الوزارة أي أمثلة محددة على مثل هذا التمييز أو العنف لكن الحكومة الاسترالية رفضت هذه الاتهامات، وقالت إنه ليس لها أساس من الصحة.

وقال آسيويون من خلفيات متعددة إنهم تعرضوا لمضايقات منذ ظهور الفيروس المسبب لمرض "كورونا"، بعضها في الولايات المتحدة.

وتعرضت العلاقات لقدر أكبر من الضغوط آنذاك، بعد أن دعت أستراليا إلى إجراء تحقيق دولي في منشأ الفيروس كورونا، الأمر الذي أوشكت ان تندلع فيه "حرب تجارية" بين البلدين بسبب فرض رسوم جمركية على واردات الشعير الاسترالي ووضع استيراد اللحم البقري من مصادر أسترالية عدة.

وتبلغ الصادرات الأسترالية من خام الحديد إلى الصين 63 مليار دولار سنوياً (بينما تبلغ جملة صادرات الحديد الأسترالية 96.5 مليار دولار) بينما يذهب 16

مليار دولار من الغاز الطبيعي الأسترالي إلى الصين (إجمالي صادرات الغاز الطبيعي 48.8 مليار دولار).

وتستقبل الصين لحوماً أسترالية تقدر قيمتها سنوياً بـ 3.5 مليار دولار (إجمالي صادرات اللحوم الأسترالية تبلغ 10.8 مليار دولار سنوياً). وتبلغ صادرات الذهب إلى الصين سنوياً بـ 23 مليار دولار تستقبل منه ما يعادل 3 مليارات دولار أيضاً.

وتعتبر أستراليا وجهة تعليمية مهمة للطلاب الصينيين الذين ينفقون سنوياً 12 مليار دولار في المؤسسات التعليمية لديها. وفي 2018 بلغ إجمالي الصادرات الأسترالية إلى الصين 123.3 مليار دولار ما يعادل 6.7 في المئة من الناتج المحلي الإجمالي الأسترالي.

عجز كبير في عمال الزراعة

تسعى الحكومة إلى سد النقص في العمالة الزراعية قبل موسم جني الفاكهة الصيفي، في ظل عدم قدرة الرحالة والعمال الموسميين على السفر وسط الجائحة. وروج رئيس الوزراء لعدة حوافز للشباب الأسترالي وحملة التأشيرات للتوجه إلى المناطق الإقليمية من أجل سد ذلك العجز.

وترغب الحكومة في تشجيع حملة التأشيرات للبقاء في أستراليا والسماح للرحالة العاملين في المزارع بالبقاء مع أحد أصحاب العمل لأكثر من ستة أشهر والبقاء لمدة عام إضافي. وسيتمكن الشباب من كسب 300 دولار أسترالي (215 دولارا أمريكيا) في أسبوعين من العمل بالمزارع دون التأثير على مدفوعات الرعاية الاجتماعية. ويواجه النشاط الزراعي عجزا في العمالة بنحو 26 ألف شخص خلال الأشهر الست المقبلة بسبب قيود السفر الناجمة عن جائحة كورونا.

لقاح مجاني.. للأستراليين

من المقرر أن يكون الأستراليون "من بين أوائل الشعوب في العالم" الذين يحصلون على لقاح ضد فيروس كورونا، بعد أن توصلت الحكومة إلى اتفاق بقيمة 17 مليار دولار أسترالي (12 مليار دولار أمريكي) مع شركات الأدوية للحصول على تطعيم جماعي مجاني بدءًا من أوائل عام 2021.

وأيدت الحكومة استعدادها لجلب التطعيمات، إذا أثبتت "التجارب الواعدة نجاحها"، فستحصل أستراليا على 84,8 مليون جرعة لقاح من جامعة أكسفورد وعملاق الأدوية شركة أسترازينيكا، إضافة إلى ترشيح لقاح من جامعة كوينزلاند الأسترالية وشركة التكنولوجيا الحيوية ومن خلال تأمين اتفاقيات الإنتاج والإمداد، سيكون الأستراليون من بين الأوائل في العالم الذين يتلقون لقاحا آمنا وفعالا، إذا اجتازت -أي اللقاحات- اختبارات المرحلة المتأخرة".

وستضمن الدولة توفير 3,8 مليون جرعة في وقت مبكر من يناير 2021، مع توفير باقي الجرعات تدريجيا على مدار العام. وسيجري توفير اللقاحين مجانا للأستراليين و"يجري تصنيعهما بالكامل تقريبا في ميلبورن".

حمى شراء مناديل المرحاض

ربما يكون أسوأ سيناريو يمكنك أن تواجهه هو أن تعلق في المرحاض بسبب عدم وجود مناديل ورقية.

ظهر هذا الكابوس، على مدار شهر مارس 2020، في تهديد كثيرين في أستراليا، لينضموا إلى قائمة الخائفين من فيروس كورونا، مما دفعهم إلى التدافع على شراء مناديل المرحاض بكميات كبيرة.

ويأتي هذا الاتجاه إلى الشراء المكثف لهذه السلعة رغم التأكيد على أن البلاد لا تعاني من عجز في هذه المنتجات، في ضوء أنها تُصنع محليا.

ومع ذلك، ظلت الأرفف التي كانت تحمل المناديل الورقية تفرغ في دقائق معدودة في سيدني، أكبر المدن، ويعاد تعبئتها مرة أخرى فتنفد مجددا، مما دفع إحدى سلاسل المتاجر الكبرى إلى وضع حد أقصى لشراء المناديل الورقية، لا يتجاوز أربع عبوات منها.

وتصدرت وسوم تتناول ظاهرة الشراء المكثف للمناديل الورقية قائمة الوسوم الأكثر انتشارا على مواقع التواصل الاجتماعي.

التأنق لإخراج القمامة

لجأ بعض المواطنين إلى التأنق وارتـداء أفضل الملابس، لا لشيء سوى إخراج أكياس القمامة، بعد ما أصبح ذلك النشاط الوحيد لخروجهم أثناء الحجر الصحي المفروض بسبب فيروس كورونا.

وأظهرت التقارير المصورة خلال شهري مارس وأبريل، آلاف الأشخاص وهم يتبعون التقليد ويلتقطون الصور لأنفسهم أثناء إلقاء القمامة وهم في تمام الأناقة، ونشر الصور على مواقع التواصل الاجتماعي، كنوع من الدعابة ونشر الروح الإيجابية وكسر حدة الملل والتوتر المصاحبين للحجر.

خسائر مليارية أسبوعياً

ذكرت الخزانة العامة، أن إجراءات الإغلاق تكبد النشاط الاقتصادي خسائر تبلغ 4 مليارات دولار أسترالي (2.58 مليار دولار أمريكي) أسبوعيا.

و"الصدمة الاقتصادية" الواسعة دفعت إجمالي الناتج المحلي إلى التراجع بشدة بما يتراوح بين 10 و12 % في الربع المنتهي في 30 يونيو، وأن "الاقتصاد سيخسر 50 مليار دولار أسترالي خلال ذلك الربع لكن الأمور ستزداد سوءا إذا استمرت القيود الرامية إلى التعامل مع الفيروس.

علماً بأن الـ4 مليارات دولار أسترالي تعادل خسارة حوالي 4 ملايين أسترالي من أصحاب الأجور المتوسطة خلال أسبوع.

كان معدل البطالة قد تراجع إلى 5.1 % خلال فبراير وسط احصائيات غير رسمية تؤكد بلوغه 10 % في الربع الثاني من العام 2020، وهو أعلى مستوى له منذ 26 عاما. وتعهدت الدولة بإنفاق حوالي 320 مليار دولار أسترالي لدعم الاقتصاد المحلي في مواجهة تداعيات الأزمة.

الدعم لـ30 مليون شخص

تَلقَّتْ الشركات وعداً بأنها ستحصل على دعم مالي قدره 1500 دولار أسترالي (922 دولارا أمريكيا) عن كل عامل لديها كل أسبوعين مقابل عدم تسريح أي من العمال في ظل تداعيات انتشار الوباء.

وجاء هذا التعهد في شهر مايو 2020 كجزء من خطة الحكومة لدعم الوظائف والمعيشة بقيمة 130 مليار دولار، حيث من المتوقع احتياج نحو 6 ملايين مواطن إلى دعم مادي.

وسيستمر صرف الدعم لمدة 6 أشهر ويمثل نحو 70% من متوسط الأجر الشهري.

ركود تاريخي

أدخلت الجائحة البلاد في حالة «ركود اقتصادي تاريخي» يحدث لأول مرة منذ 3 عقود.

وقال مكتب الإحصاءات إن الناتج المحلي الإجمالي للبلاد تراجع بنسبة 7 % في الربع الثاني مقارنة بالربع السابق.

ويمثل هذا الربع الثاني على التوالي من التراجع لأستراليا، بعد أن تقلص الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 0.3 % في الربع الأول، فضلاً عن كونه أكبر انخفاض له منذ بدء السجلات في العام 1959. كما أنه كان أسوأ من الانخفاض المتوقع له بنسبة 5.9 %.

الانخفاض مرده إلى تفشي الوباء وإجراءات الإغلاق التي اتخذتها البلاد لاحتواء الفيروس، رغم أنها كانت تواجه بالفعل عدة مشاكل أخرى، إذ دمرت البلاد في وقت سابق من العام 2020 بسبب أسوأ حريق غابات شهدته منذ عقود، أعاق الإنفاق الاستهلاكي والسياحة، وفقاً لمجلس تصدير السياحة.

كما انخفض استهلاك الأسر في الربع الأخير بأكثر من 12 %، بينما انخفض الإنفاق على الخدمات بنحو 18 % في ظل إغلاق المطاعم والفنادق.

وقال أمين الخزانة، جوش فريدنبرغ: "فعلنا كل ما في وسعنا لتخفيف الضربة التي تلقاها المجتمع الأسترالي من فيروس كورونا. أولويتنا كانت وستبقى إنقاذ الأرواح والتأكد من أن نظام الرعاية الصحي في أستراليا لديه القدرة على اختبار وتتبع وعلاج الحالات».

ويعد الركود استثنائياً للاقتصاد، الذي تمتع بنمو استمر 29 عاماً، يرجع إلى شهية الصين الشرهة للسلع، مثل خام الحديد والفحم، بينما ارتفعت الصين لتصبح ثاني أكبر اقتصاد في العالم، غير أن أزمة كورونا عمقت الخلاف بين البلدين.

الاقتصاد.. أهم من كبار السن!

عكس توجه رئيس الوزراء في معالجة الوباء آراء سادت في عدد من بلدان العالم تفضيلها حماية الاقتصاد في البلاد على المحافظة على حياة كبار السن المصابين بكورونا.

وانتقد البعض ما أسماه «الدكتاتورية الصحية»

لكورونا، فالتكلفة الاقتصادية للإغلاقات تعني أنه يجب السماح للعائلات أن تفكر في ترك أقاربهم من كبار السن المصابين بالفيروس بأن يموتوا، وبالسماح للطبيعة أن تأخذ مجراها.

ورغم ان إبقاء شخص مسن على قيد الحياة لمدة عام إضافي يكلف الحكومة حوالي 200 ألف دولار استرالي (110 ألف جنيه إسترليني)، وهو أكثر بكثير مما تدفعه في العادة لأدوية منقذة للحياة.

إن هدف الحكومات انتقل من منع إرباك المستشفيات بأعداد كبيرة من مرضى كورونا إلى الوصول إلى صفر حالات عـدوى، في محاولة للمحافظة على جميع الأرواح بأي ثمن.

ورغم أن علاج الجائحة، بما في ذلك الإغلاقات المطولة، خلق «عقلية شيء بلا مقابل» لدى الشباب الذين يعيشون في إجازات مدفوعة من العمل فمن غير الممكن أن يبقي 40 % من القوة العاملة تعتمد على المساعدات الحكومية، وأن يتم جمع العجز الذي لم تشهده البلاد منذ الحرب العالمية الثانية، بينما يدخل العالم في حالة ركود لم يشهده منذ الكساد العظيم، تسبب به رد الحكومة بقدر الفيروس نفسه.

الاقتصاد الأسترالي يتعافى من الركود

منذ بداية العام 2020، دخلت اقتصادات العالم كافة حالة من الركود الاقتصادي، لاسيما مع الإغلاقات التي فرضها فيروس كورونا وحالة الشلل التي ضربت معظم القطاعات الإنتاجية لبلدان العالم.

وأستراليا لم تكن بمنأى عن هذه الكارثة الاقتصادية حيث دخلت البلاد مرحلة ركود اقتصادي للمرة الأولى منذ العام 1991، بعد أن تراجع ناتجها المحلي الإجمالي بنسبة 7 % في الربع الثاني من 2020 بسبب تفشي فيروس كورونا.

وحينها قال مكتب الإحصاء: "إن هذا أكبر انكماش ربع سنوي يعاني منه اقتصاد البلاد في تاريخها، علماً بأن اقتصاد أستراليا لم يتوقف عن النمو حتى خلال الأزمة المالية العالمية في 2008".

فالجائحة تسببت بهذا الانكماش غير المسبوق في تاريخ البلاد والذي يقزم كثيراً الأرقام القياسية السابقة" وفي الربع الأول من 2020 انخفض الناتج المحلي الإجمالي في أستراليا بنسبة 0.3 %. أما في الربع الثاني فكان الانخفاض أكبر بكثير وبلغ 7 %.

التخفيف من التداعيات

خصصت الحكومة مئات مليارات الـدولارات للتخفيف من التداعيات الاقتصادية للجائحة، لكن الاقتصاد تضرّر بشدة من القيود التي فرضت قبل أشهر لاحتواء الوباء.

وخرجت من حالة الركود الاقتصادي في الربع الثالث من العام 2020 بتسجيلها نمواً في إجمالي الناتج المحلي بنسبة 3,3 % على أساس سنوي.

وبعدما تمكنت من السيطرة على الجائحة، تأتي هذه الأرقام لتبرهن على استئناف نشاط الشركات وزيادة الإنفاق الاستهلاكي في البلاد.

وتمكنت من تحقيق مؤشرات إيجابية لصالح الاقتصاد البلاد ولعل من أبرزها:

1 ـ تم إعفاء نحو 11 مليون مواطن ضريبياً.

2 ـ حصل 3.8 مليون مواطن على مساعدة من برنامج الدعم الحكومي "Job Keeper" وهو برنامج تم تصميمه لمساعدة الشركات المتضررة من إغلاقات التي تسبب بها فيروس كورونا لتغطية تكاليف أجور موظفيها، لمنع الشركات من تسريح موظفيها ولمساعدة

الموظفين على الاحتفاظ بوظائفهم والاستمرار في كسب الدخل.

3 ـ المحافظة على نحو 700 ألف وظيفة من خلال برنامج دعم اقتصادي.

4ـ تم تقديم المساعدة لنحو 1.5 مليون أسترالي ضمن برنامج "Jobseeker" للبحث عن فرص عمل جديدة.

5ـ نشاء نحو 42 ألف وحدة سكنية جديدة.

6 ـ دعم نحو 320 ألف برنامج تدريبي بمختلف المجالات.

7ـ تقديم رواتب لأكثر من 106 آلاف متدربين.

8ـ تحسين كفاءة استخدام الطاقة وتجنب انبعاث نحو 300 مليون طن متري من ثاني أكسيد الكربون.

9ـ إدخال نحو 246 صنفا دوائيا جديدا لقائمة الأدوية المدعومة صحيا من قبل الحكومة.

10ـ تقديم ما يقارب 42 مليون خدمة واستشارة صحية عن بعد.

11 ـ تقديم الدعم لأكثر من 412 ألفاً من ذوي الاحتياجات الخاصة ضمن برنامج المخطط الوطني للتأمين على الإعاقة، وهو مخطط للحكومة يمول التكاليف المرتبطة بالإعاقة، تم تشريع المخطط في عام 2013 ودخل حيز التنفيذ الكامل في عام 2020. تدار الخطة من قبل الوكالة الوطنية لتأمين الإعاقة وتشرف عليها لجنة الجودة والضمانات NDIS.

12ـ تأمين دعم مالي لـ39 ألف موظف يقدم خدمات دعم ورعاية مسنين في منازلهم.

13ـ توقيع خمس اتفاقيات تصدير دولية.

14 ـ توقيع ثلاث اتفاقيات لتوريد لقاح المضاد لفيروس كورونا.

وخسر حوالي مليون شخص في هذا البلد وظائفهم في حين أن بعض الذين كانوا أكثر حظاً منهم تقلص عدد ساعات عمله أو تضاءل راتبه.

وأطلقت الحكومة والبنك المركزي حزمة تحفيز ضخمة وضخت مليارات الدولارات في الاقتصاد في محاولة لمساعدة المتضررين وإنعاش الاقتصاد، وفي نوفمبر 2020، خفّض المركزي الأسترالي سعر الفائدة الرئيسي إلى 0,1 % في محاولة لتسريع الانتعاش.

نيوزيلندا الأكثر سعادة في العالم

نيوزيلندا (New Zealand) جزيرة معترف بها على أنها دولة تتبع للسيادة البريطانية، وتنتمي إلى مجموعة من الجزر تعرف بمسمى بولينيزيا، ويتم تعيين حاكم لها من قبل بريطانيا يدير شؤونها الداخلية والخارجية، ولنيوزيلندا حكومة دستورية ومستقلة وبرلمان ينتخب كل 3 سنوات وفقاً للدستور الصادر في عام 1852م، ومدينة ولنجتون العاصمة الرسمية للدولة.

تقع نيوزيلندا في جهة الجنوب الغربي من المحيط الهادئ، جنوب شرق أستراليا، وليس لها حدود برية مع أي دولة، وتقع في قارة أوقيانوسيا، وهي قارة في جنوب غرب المحيط الهادئ تضم أستراليا والجزر المحيطة بها من ضمنها نيوزيلندا، وتقسم إلى جزيرتين، هما الجزيرة الشمالية التي تصل مساحتها الجغرافية إلى 114,669 كم^2، والجزيرة الجنوبية التي تصل مساحتها إلى 149,883 كم^2، تشاركهما مجموعة من الجزر الصغيرة التي تتنوع بين جزر مأهولة بالسكان وأخرى نائية، ومن أشهر جزر نيوزيلندا جزيرة ستيورات وجزيرة تشاتام. تاريخياً كانت تعتبر أكبر دولة بين جزر بولينيزيا، وفي عام 1840م قامت بريطانيا باستعمارها وضمّها لحكمها بشكل رسمي، وسيطرت على كافة السياسات الخاصة بها، وفي عام 1907م تمّ الإعلان عن تأسيسها كدولة تتبع مباشرةً إلى الحكم البريطاني؛ إلا أنها لم تحصل على الاعتراف الدولي بوجودها حتى عام 1947م.

حرصت على تطوير اقتصادها من خلال الانتقال من الاقتصاد الزراعي إلى الصناعي عبر دعم الصناعات الإنتاجية والتكنولوجية؛ وصارت من بين الدول المصنعة مما ساهم في ارتفاع نسبة دخل الأفراد، كما حرصت الحكومة على توفير مجموعة من الخطط الاستراتيجيّة لدعم اقتصادها وتحديداً أثناء الأزمة الاقتصاديّة العالمية (2008)، لكن تمكن الاقتصاد النيوزلندي من المحافظة

على استقراره منذ عام 2015م بالاعتماد على تطوير الأسواق المالية، واستقطاب العديد من الاستثمارات الدولية التي أدّت إلى تطوير البنية التحتية للاقتصاد، ودعم الإنتاج المحلي.

يصل العدد التقديري لسكان نيوزيلندا إلى 4,474,549 مليون نسمة، وتعود أصول أغلب السكان إلى المهاجرين من أوروبا بنسبة 71,2 %، وتشكل قبيلة الماوري (السكان الأصليون لنيوزيلندا) نسبة 14,1 %، أما النسب المتبقية فهي موزعة على المهاجرين من الشعوب الآسيوية، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينيّة. تعتبر اللغة الإنجليزية بحكم السياسة البريطانية هي اللغة الرسمية والتي تنتشر بين السكان بنسبة 89,8 %. وتستخدم مجموعة من اللغات الأخرى، ومنها لغة الماوري، وتعتبر المسيحية هي الدين الرسمي والأكثر انتشاراً بين السكان، وأيضاً تنتشر مجموعة من الديانات الأخرى.

تصنف من بين افضل 10 دول في العالم من حيث الرعاية الصحية والنظام التعليمي، كما تم تصنيفها على مدار جميع العشر سنوات الماضية واحدة من أسعد 10 دول أو شعوب في العالم، أما من حيث الأمن فقد صنفت كثالث أكثر دول العالم أمانا وفق تصنيف 2019. وفي العام ذاته شهدت هجوما إرهابيا هز البلاد وراح ضحيته 49 شخصا اثر هجوم على مسجدين.

فبراير.. أولى الحالات

يوم 28 فبراير 2020 أعلنت رئيسة الوزراء النيوزيلندية، عن تسجيل أول إصابة، وقالت إن الحالة تعود إلى سيدة نيوزيلندية تبلغ من العمر 60 عاما قدمت من إيران وأظهرت الفحوصات اصابتها به، وتم لاحقا رصد 20 حالة مؤكدة في مناطق أوكلاند ولينغتون ووايكاتو وكانتربيري وأوتاغو وساوثلاند.

لكن قبل هذا التاريخ، كانت قد اتخذت العديد من الإجراءات لكبح دخول الفيروس للبلاد، ففي 28 يناير انشأت وزارة الصحة المركز الوطني للتنسيق الصحي (NHCC) استجابة لتفشي المرض، كما اصدرت السلطات في 3 فبراير قرارا يمنع المسافرين الأجانب الذين غادروا من الصين من دخول البلاد، مع السماح فقط للمواطنين والمقيمين الدائمين وعائلاتهم بالدخول.

مارس: إصابات محدودة

تم تسجيل الإصابة الثانية المؤكدة في 4 مارس، لسيدة نيوزيلندية وصلت الى اوكلاند قادمة من ايطاليا، وتم في اليوم التالي تسجيل اصابة جديدة وهي اول حالة لانتقال المرض بالعدوى محليا، لرجل من اوكلاند اصيب به بواسطة احد اقربائه العائد من ايران.

وفي 30 مارس اعلنت السلطات ان العدد الاجمالي للاصابات بفيروس كورونا بلغ 368 حالة.

أبريل: السيطرة على التداعيات

يمكن اعتبار أبريل، بالنسبة لنيوزيلندا، شهر البداية الصارمة في تنفيذ الضوابط اللازمة للسيطرة على تداعيات أزمة كورونا، حين بدأت في تطبيق حزمة من الإجراءات المرتبطة بتلك التداعيات، ففي الثامن من الشهر أعلنت رئيسة الوزراء جاسيندا اردين انها ووزراء حكومتها الى جانب الرؤساء التنفيذيين في المؤسسات الكبرى تخلوا عن 20% من رواتبهم لمدة 6 أشهر مقبلة، للاعتراف بالتأثير الذي حصل على جميع المواطنين.

وفي اليوم ذاته، اعلن وزير التعليم عن طرح الحكومة حزمة تعليم عن بعد وتقديمها 87.7 مليون دولار نيوزيلندي (نحو 55 مليون دولار أميركي) لتطوير قناتين تلفزيونيتين تعليميتين.

وفي 8 أبريل 2020 أيضا، أعلنت وزارة الشؤون الخارجية والتجارة تقديم أموال بقيمة 4 ملايين دولار نيوزيلندي لمساعدة الحكومة على معالجة الآثار الصحية والاقتصادية والاجتماعية لـ"كورونا"، وذكرت خططًا من أجل تقديم مليون دولار نيوزيلندي لوزارة الصحة في تونغا لمساعدتها على مواصلة مكافحة الفيروس.

في 14 أبريل، تعهد وزير المالية بأن الحكومة ستبقي معدل البطالة أقل من 10 %، وفي اليوم نفسه، أعلن وزير الدفاع المدني بيني هناري أن الحكومة تمدد حالة الطوارئ الوطنية لمدة سبعة أيام أخرى حتى 21 أبريل.

في 14 أبريل، أعلنت رئيسة الوزراء عن حزمة دعم بقيمة 130 مليون دولار نيوزيلندي لطلاب التعليم العالي، وفي 15 أبريل، أعلنت رئيسة الوزراء تخفيض أجور جميع الوزراء الحكوميين والرؤساء التنفيذيين للقطاع العام بنسبة 20 %، وأكد زعيم المعارضة أنه سوف يخفض أجره بنسبة 20 %.

في 16 أبريل، حددت رئيسة الوزراء القواعد والمبادئ التوجيهية لمستوى تنبيه الحكومة وقد تضمنت السياسات الرئيسية السماح للأشخاص بالسباحة والصيد

أثناء حظر القوارب؛ إعادة فتح دور الطفولة المبكرة؛ والمدارس حتى السنة العاشرة على أساس طوعي؛ تخفيف قيود العمل؛ السماح لعشرة أشخاص بحضور الجنازات وحفلات الزفاف؛ والسماح للمطاعم بتقديم خدمات الوجبات السريعة.

في 23 أبريل، أعلن مسؤول حكومي كريس فافوي أن الحكومة ستستثمر 50 مليون دولار نيوزيلندي في حزمة الإغاثة الإعلامية لدعم وسائل الإعلام النيوزيلندية.

سجلت البلاد أعلى حصيلة إصابات يومية منذ بدء تفشي الفيروس بلغت 15 حالة، ونجحت سياسة العزل الصارمة التي اتبعتها السلطات هناك في كبح انتشار الفيروس، وبدأت حالات التعافي تزيد مع استقرار في تسجيل إصابات في الحدود الدنيا طوال شهر ابريل، مع ثبات حالات الوفاة في نحو 10 حالات فقط. وكانت البلاد تستعد للخروج من حالة الاغلاق القصوى في 28 ابريل.

مايو: دراسة عن سر النجاح

استعادت البلاد قدرا من حياتها الطبيعية وبدأت في تخفيف القيود المفروضة منذ منتصف مايو، باستثناء الحدود التي ما تزال مغلقة.

وكشفت دراسة حديثة عن سر نجاح نيوزيلندا في القضاء على "كورونا" مشيرة الى ان امتثال المواطنين لممارسات النظافة الأساسية والثقة في السلطات بلغت 100 %.

واستطلعت الدراسة التي اجراها باحثون في جامعة ماسي النيوزيلندية آراء اكثر من 1000 شخص بعد انتهاء إجـراءات الاغلاق للتعرف على استجابة المواطنين للجائحة. المحاضر في كلية الاتصالات والصحافة والتسويق في جامعة ماسي قال: "لقد تكاتف الجميع في البلاد، ويرجع ذلك جزئياً إلى أننا كنا نؤمن بقدرات خبرائنا السياسيين والصحيين."

لقد: "تجاوزت نيوزيلندا الجائحة عبر الرسائل الصحية البسيطة والواضحة، وكان يتم التواصل بلطف وتعاطف كبير مع الناس، حتى عندما كانوا يطالبون بتغييرات صعبة."

وسجلت نحو 22 وفاة وحوالى 1500 إصابة بفيروس كورونا حتى ذلك التاريخ، بعد فرضها ضوابط صارمة على الحدود.

يونيو: ضوابط على الحدود

رفعت، في شهر يونيو، معظم قيود احتواء الوباء باستثناء الضوابط على الحدود، وعادت الحياة إلى حد كبير إلى طبيعتها مع فتح المدارس، والمطاعم والحانات والملاعب الرياضية.

وقد سجلت البلاد في يونيو حالتي إصابة جديدتين تعودان لشخصين قادمين من بريطانيا تم عزلهما فورا لمنع الانتشار.

وفي 8 يونيو اعلنت الانتصار على فيروس كورونا حيث خلت من أية حالة نشطة، لكن ما لبث أن عاد الفيروس للظهور مجددًا في 16 من الشهر ذاته.

في 29 يونيو، أعلن وزير الصحة استثمار 150 مليون دولار نيوزيلندي للحصول على معدات الوقاية الشخصية من صندوق الإنعاش والاستجابة لفيروس كورونا الذي تبلغ قيمته 50 مليار دولار نيوزيلندي والذي كُشف عنه في ميزانية البلاد للعام 2020..

استقالة وزير الصحة رغم النجاحات

بالرغم من النجاحات التي تحققت في نيوزيلندا خلال مواجهتها لفيروس كورونا، إلا ان ذلك لم يكن مُرضيا لدى البعض، مما أدى الى تقديم وزير الصحة لاستقالته من منصبه في 2 يوليو، بعد انتقادات لقيادته وإجراءاته خلال الجائحة، وذكر أنه «أصبح مصدر إرباك وإهمال في سياق استجابة الحكومة المستمرة للجائحة في نيوزيلندا والإصلاحات الصحية».

في 15 يوليو، أصدرت رئيسة الوزراء هيكلية استجابة الحكومة للجائحة والتي شملت عمليات إغلاق محلية في حال حدوث تفشي مجتمعي آخر للفيروس، استندت الهيكلية إلى سياسات إغلاق محلية مماثلة لتلك المطبقة في كل من فيكتوريا ونيو ساوث ويلز وهونغ كونغ وسنغافورة وكوريا الجنوبية.

في 21 يوليو، أعلن وزير الصحة أن الحكومة ستستثمر 302 مليون دولار نيوزيلندي في الخدمات الصحية بما في ذلك 150 مليون دولار نيوزيلندي على مدى عامين لشركة فارماك، و30 مليون دولار نيوزيلندي لخدمة تقصي المخالطين الوطنية، و23 مليون دولار نيوزيلندي لدعم توفير اللقاح عند اكتشافه، و35 مليون دولار نيوزيلندي للحصول على مزيد من أجهزة التنفس الصناعي ومعدات التنفس، و50 مليون دولار نيوزيلندي لإمدادات معدات الوقاية الشخصية، و14.6 مليون دولار نيوزيلندي لخدمات الرعاية الصحية عن بعد.

إعادة الإغلاق لأكبر مدن البلاد

بعد تسجيل إصابات محلية للمرة الأولى منذ أكثر من مائة يوم عاوت إعادة إغلاق مدينة اوكلاند. وأعلنت تسجيل 4 إصابات داخل عائلة واحدة في أوكلاند، تبين أن مصدر هذه العدوى لا يزال مجهولاً. وقالت: فقد وقعت «بعد 102 يوم، من أولى الإصابات بكورونا التي تسجل خارج المنشآت المخصصة للعزل أو الحجر... ولم تسجل نيوزيلندا، حيث أودى الوباء بـ22 شخصاً بين سكانها البالغ عددهم خمسة ملايين نسمة، أي حالة انتقال للعدوى على أراضيها منذ الأول من مايو.

وفي 12 أغسطس فُرض حجْر على دور رعاية المسنّين جرّاء عودة الفيروس إلى الظهور في البلاد، عللت ذلك رئيسة الوزراء بالقول "أدرك مدى صعوبة الأمر بالنّسبة إلى من لديهم أحبّاء في هذه المؤسّسات (دور رعاية المسنّين)، لكنّها الوسيلة الأقوى لحمايتهم والعناية بهم"، مشدّدةً على ضرورة تجنّب أن تتحوّل دور الرعاية هذه بؤرًا لانتشار الفيروس.

وفي 17 أغسطس أعلنت نيوزيلاندا إرجاء الانتخابات المقرّرة في 19 سبتمبر وحتى 17 أكتوبر 2020 بسبب الطفرة الجديدة في تفشّي فيروس كورونا في البلاد وما تسبّبت به من عرقلة للحملة الانتخابية.

وفرضت السلطات حجراً على أوكلاند، حيث بلغ عدد الإصابات المؤكّدة بالفيروس لغاية 16 أغسطس 49 إصابة، في طفرة أتت بعد أكثر من مئة يوم من عدم تسجيل أي عدوى محلية في البلاد بأسرها.

استثناء أوكلاند

14 حالة إصابة جديدة بفيروس كورونا تم تسجيلها في نيوزيلندا في الأول من شهر سبتمبر، اربكت السلطات واخافت المواطنين، ارتفاعا من 9 إصابات سُجلت في اليوم السابق، في أعلى حصيلة إصابات يومية بالفيروس منذ منتصف ابريل.

وسجلت حالات الإصابة الـ14 لليوم الثاني والعشرين على التوالي، حيث تكافح لكبح جماح حالة التفشي غير المعهودة بالفيروس في البلاد طيلة الفترة الأخيرة.

وارتفع اجمالي حالات الإصابة بفيروس كورونا إلى 1752 حالة إصابة، من بينها 22 حالة وفاة، بنسبة وفيات بلغت 1.3 % تقريبًا. ولم تسجل أية حالة وفاة جديدة بمرض "كورونا" منذ 28 مايو، كما شهدت تعافي 1598 مصابًا بنسبة شفاء بلغت 91.2 % تقريبًا.

وفي 21 سبتمبر قررت السلطات رفع القيود التي فرضتها في كل أنحاء البلاد، باستثناء أكبر مدنها أوكلاند التي اعتبرت بؤرة تفشي الموجة الثانية من الإصابات بالفيروس.

الانتصار الثاني على الوباء

أعلنت رئيسة وزراء نيوزيلندا جاسيندا أرديرن، في 5 أكتوبر، رفع القيود التي كانت قد فُرضت في أوكلاند لمواجهة موجة ثانية من جائحة كورونا قائلة إن بلادها تغلبت الآن على الفيروس «مرة أخرى».

وفي ظل عدم وجود حالات إصابة مؤكدة جديدة في أوكلاند منذ 12 يومًا، قالت أرديرن إن الفيروس بات الآن تحت السيطرة، وهنّأت السكان على تحملهم حجرا ثانيا.

وإثر فرض إغلاق مشدد على المستوى الوطني بين أواخر مارس وأواخر مايو، ساد اعتقاد بأن البلاد على وشك القضاء على فيروس كورونا في مرحلة ما بعد مرور مئة ويومين بدون تسجيل أي عدوى.

غير أن بؤرةً جديدة للوباء ظهرت في أوكلاند في أغسطس مما أجبر المدينة التي يبلغ عدد سكانها 1.5 مليون نسمة على الإغلاق لمدة ثلاثة أسابيع تقريبًا حتى بداية سبتمبر.

وصرحت أرديـرن: "لقد تمسك سكان أوكلاند ونيوزيلندا بالخطة التي نجحت مرتين الآن، وتغلّبوا على الفيروس مرة أخرى».

ويأتي هذا النجاح في وقت مناسب بالنسبة إلى أرديرن، إذ إن الناخبين دُعوا إلى المشاركة في الانتخابات البرلمانيّة في 17 أكتوبر. وتُعتبر حظوظ رئيسة الوزراء بالبقاء على رأس الحكومة مرتفعة.

من جانبه، قال وزير الصحة: إن أخبار القضاء على فيروس كورونا كانت علامة فارقة للبلاد.. يحتفل النيوزيلنديون مرة أخرى من خلال أفعالهم الجماعية بعد أن سحقوا الفيروس». وأكد أن الأنظمة التي تم تطويرها وتقويتها عملت منذ الموجة الأولى من كورونا بشكل فعال للغاية لمطاردة الفيروس وعزله والقضاء عليه.

وأدت الموجة الثانية إلى 186 إصابة جديدة بين السكان وأجبرت على إعادة المدينة إلى حالة إغلاق صارم. وبلغ عدد الوفيات بسبب الجائحة في 25 حالة وفاة.

9 اصابات «وافدة»

خلال نوفمبر 2020 سجلت تسعة اصابات مؤكدة بفيروس كورونا، وأعلنت وزارة الصحة ان جميعها وافدة من الخارج وأن الحالات حجزت في مراكز متخصصة كاجراء احترازي، فيما ارتفع بذلك إجمالي عدد الاصابات الى 1722 حالة اصابة منذ بداية الجائحة، وكان يوم 18 نوفمبر هو آخر يوم تم تسجيل اصابة بالفيروس فيه.

ديسمبر: لا اصابات

مضى شهر ديسمبر 2020 من دون تسجيل أي اصابات

جديدة بفيروس كورونا في نيوزيلندا، وبقي اعدد الاصابات ثابتا عند 1722 حالة اصابة منذ بداية الجائحة، وفقا لاحصاءات رسمية.

أخبار سارة

حمل شهر يناير 2021 أخبارا سارة الى النيوزيلنديين، جراء تحقيق بلادهم أفضل استجابة لجائحة كورونا بين جميع دول العالم، بحسب تحليل جديد أجراه «معهد لووي» وهو مركز أبحاث أسترالي.

وقارن مركز الأبحاث بين الطرق التي تمكنت من خلالها 98 دولة عبر «البيانات المتاحة للجمهور والقابلة للمقارنة» من إدارة الجائحة في الأسابيع الـ 36 التي أعقبت الحالة الـ100 المؤكدة لمرض كوفيد 19 الذي يسببه فيروس كورونا.

وكشف التحليل، الذي أخذ في الاعتبار عدد حالات الإصابة والوفيات والاختبارات لكل ألف شخص، أن نيوزيلندا تمكنت من إدارة تفشي المرض بشكل أفضل، وتبعتها فيتنام وتايوان وتايلاند، بينما احتلت أستراليا المرتبة الثامنة.

وحظيت بإشادات عالمية واسعة لطريقة تعاملها مع الوباء، إذ لم تسجّل إلا 25 وفاة جراء الإصابة بالفيروس في أوساط سكانها البالغ تعدادهم خمسة ملايين نسمة.

العودة للإغلاق

أكد مسؤولو الصحة، ظهور أول حالة إصابة بفيروس كورونا مطلع العام 2021، عقب نحو شهرين من «صفر اصابات»، مما أثار حالة استنفار وإجراءات عاجلة لتتبع الحالة شمال أوكلاند.

وأظهرت فحوصات أجريت لامـرأة (56 عاما)، عادت من أوروبا، نتيجة إيجابية بالفيروس، بعد 10 أيام من قضائها أسبوعين إلزاميين في العزل الإجباري، على الرغم من أنها «لاحظت الأعراض قبل عدة أيام من الفحص.

وكإجراء احترازي، طلبت السلطات من أكثر من 600 شخص، كانوا في الحجر الإجباري في الفندق، بعزل أنفسهم في منازلهم وإعادة إجراء فحوصات كورونا.

وفي 15 فبراير، دخلت أوكلاند، كبرى مدن نيوزيلندا، في إغلاق في محاولة لاحتواء أول بؤرة إصابات بالنسخة المتحورة من «كورونا»، وأمرت رئيسة الوزراء بفرض الإغلاق بعد رصد ثلاث إصابات لدى عائلة واحدة.

ويشمل الإجراء مليوني نسمة طُلب منهم البقاء في المنزل وستبقى المدارس والمتاجر مغلقة، باستثناء الشركات التي تعتبر «أساسية».

وزارة الصحة أكدت أن الأبحاث أظهرت أن اثنين من المرضى مصابان بالنسخة المتحورة من الفيروس التي ظهرت في بريطانيا. لكنها لم تتمكن بعد من تحديد كيفية وصول النسخة المتحورة الى الارخبيل الذي كان وصل كما يبدو الى مرحلة القضاء على الوباء.

وأعادت السلطات ايضا، إغلاق أكبر مدن البلاد في 28 فبراير، بعد اكتشاف إصابة واحدة بكورونا.

وأعلنت رئيسة الوزراء جاسيندا آرديرن، أوكلاند، لمدة سبعة أيام.

ويأتي الإجراء الأخير بعد نحو أسبوعين من الإغلاق المفاجئ الذي عاشه أكثر من مليوني شخص في أوكلاند، والذي استمر لثلاثة أيام، جراء رصد إصابة عائلة مكونة

من ثلاثة أفراد بالسلالة البريطانية من الفيروس.

والإغلاق المفروض، ضمن المستوى الثالث، سيتيح للناس مغادرة منازلهم فقط لإجراء عمليات التسوق الضرورية والذهاب إلى الأعمال المصنفة أساسية، مع الإبقاء على إغلاق الأماكن العامة. وستعيش بقية أنحاء البلاد ضمن المستوى الثاني من القيود، بما يشمل تقييد التجمعات العامة.

وتعتبر نيوزيلندا واحدة من أنجح الدول في السيطرة على الوباء منذ بدء الجائحة، ولم تسجل على أراضيها سوى 2372 حالة إصابة خلال الأزمة، وفقا لمرصد جامعة «جونز هوبكنز» لحالة تفشي الوباء حول العالم.

حزمة اقتصادية

في 17 مارس أعلنت عن حزمة اقتصادية بقيمة 12,1 مليار دولار نيوزيلندي (7,3 مليار دولار أمريكي) من صندوق مخصص لمواجهة «الأيام الصعبة» في البلاد على خلفية وباء كورونا.

وأقر وزير المالية بأن "الركود أمر شبه مؤكد" ومن المرجح أن يكون أشد من الانكماش بعد الأزمة المالية العالمية لعام 2008، لكنه أشار إلى أن الحزمة التي تركز على دعم الأجور والإعفاءات الضريبية وتعزيز الرعاية الصحية ستساعد على احتواء تداعياته.

وسيتم تخصيص نحو 5 مليارات دولار نيوزيلندي لدعم الأجور للشركات، و2.8 مليار دولار نيوزيلندي لدعم الدخل، و2.8 مليار دولار نيوزيلندي لتخفيف ضرائب الأعمال، و600 مليون دولار نيوزيلندي لصناعة الطيران.

وتعادل حزمة الحوافز المعلنة نحو 4 % من الناتج المحلي الإجمالي للبلاد. وسيذهب جزء كبير من الإنفاق الجديد إلى الشركات التي فقدت أكثر من 30 % من دخلها نتيجة للانكماش، بينما تذهب أموال أخرى نحو التكاليف الصحية، ودعم الدخل، وصناعة الطيران.

وقال روبرتسون إن الحكومة تجري مفاوضات منفصلة لمساعدة شركة طيران نيوزيلندا، الناقل الوطني.

ولدى الحكومة حاليًا مستوى دين صافٍ يعادل نحو 20 % من الناتج المحلي الإجمالي، وهو أقل بكثير من العديد من البلدان الأخرى ومنحها ذلك المجال لاقتراض المزيد.

جاء هذا الإعلان بعد أن خفض البنك المركزي النيوزيلندي (16 مارس) سعر الفائدة القياسي من 1 % إلى مستوى قياسي منخفض قدره 0.25 %. وقال البنك الاحتياطي النيوزيلندي إن الأثر السلبي لوباء كورونا على الاقتصاد النيوزيلندي سيكون كبيرا.

ميزانية إعادة البناء معاً

في 14 مايو، كشفت نيوزيلندا عن ميزانيتها التي أسمتها ميزانية «إعادة البناء معا» بقيمة 50 مليار دولار نيوزيلندي (30 مليار دولار أمريكي)، حيث تتطلع إلى تعزيز الاقتصاد وتوفير الوظائف وسط أزمة وباء كورونا.

وفي خطاب أمام البرلمان أعلنت رئيسة الوزراء: "تم تطبيق عمليات إغلاق واسعة على مستوى العالم، ومع ذلك نحن هنا، بعد أن أغلقنا حدودنا، ودخلنا في إغلاق، وبنينا بشكل جماعي جدار دفاع ضد فيروس يضيق الخناق على العالم الميزانية، التي تحدد أولويات التمويل الحكومية للعام المالي، لم تكن للعمل كالمعتاد، ولكن لتركيز لا هوادة فيه على الوظائف، والتدريب، والتعليم، والدور الذي يمكن أن تؤديه الحكومة.

وزير المالية اعتبر أن الميزانية تم تسليمها في ظل تهديد يحدث مرة في الـ100 عام لنيوزيلندا، مضيفا: "الاستثمارات في الميزانية ستشهد عودة البطالة إلى مستويات ما قبل كورونا في غضون عامين، ويمكن أن تشهد نمو الاقتصاد مرة أخرى سريعا، ربما العام المقبل».

التعهدات تمت بالتركيز على توفير الوظائف للعاطلين في البلاد، بعد أن أوصلت تداعيات جائحة كورونا البلاد في أصعب موقف مالي لها منذ الكساد الكبير في ثلاثينيات القرن العشرين.

12.2 % نسبة انخفاض الناتج المحلي

أعلنت هيئة الإحصاء، (16 سبتمبر) أن الناتج المحلي الإجمالي انخفض بنسبة 12.2 % في الأشهر الثلاثة المنتهية في 30 يونيو، جراء الأثر الاقتصادي لفيروس كورونا، وهو أكبر انخفاض منذ أن بدأت السجلات المماثلة في عام 1987.

وبيّن كبير المديرين في الهيئة، أن النتائج أظهرت انخفاضاً واسع النطاق في النشاط الاقتصادي بسبب قيود كورونا، ولفت إلى أن بعض الصناعات تأثرت أكثر من غيرها بإغلاق الحدود والقيود، وأن صناعات مثل البيع بالتجزئة والفندقة والمطاعم والنقل شهدت انخفاضاً كبيراً في الإنتاج، لأنها كانت الأكثر تضرراً بشكل مباشر من حظر السفر الدولي والإغلاق الصارم على مستوى البلاد.

تدفع ثمن كفاحها ضد "كورونا"

سجّل الاقتصاد النيوزيلندي في الربع الثاني من 2020 انكماشاً تاريخياً لأول مرة منذ 10 سنوات، بلغت نسبته 12.2 % وفقاً لبيانات رسمية نشرت في منتصف سبتمبر وأكّدت أيضاً دخول البلاد رسمياً حالة ركود اقتصادي، في نتيجة مباشرة للأزمة الناجمة عن وباء كورونا.

وقالت هيئة الإحصاء النيوزيلندية إنّ «تراجع الناتج المحلّي الإجمالي الفصلي بنسبة 12.2 % هو الأكبر على الإطلاق في تاريخ نيوزيلندا».

وسجّل هذا الانكماش في الربع الثاني (أبريل – يونيو) وهي فترة شهدت فيها البلاد تدابير إغلاق صارمة لاحتواء الوباء.

وكان الربع الأول من العام سجّل تراجع اجمالي الناتج المحلّي بنسبة 1.6 %.

وبما أن الاقتصاد سجّل فصلين متتاليين من التراجع، تكون بذلك نيوزيلندا قد دخلت رسمياً مرحلة ركود اقتصادي.

التعافي الاقتصادي مستمر

على الرغم من النجاح الذي حققته في الحدّ من تفشّي الفيروس وتداعياته على مستوى استجابة الصحّة العامة، فإنها لم تكن بمنأى عن الخسائر الاقتصادية التي نتجت عن إغلاقها لأنشطتها الاقتصادية وعن التباطؤ الاقتصادي العالمي بشكل عام.

فمع تراجع الناتج المحلّي الإجمالي بنسبة 12,2 في المئة في الربع الثاني من العام 2020، تشهد أوّل ركود لها منذ الانكماش الاقتصادي العالمي في العام 2008، وفقا لتقارير اقتصادية منسوبة للبنك الدولي.

وبرز التأثير الأكبر في قطاع السياحة، الذي استأثر بقرابة 6 في المئة من الاقتصاد في العام 2019، وتمكّنت البلاد من تفادي مواجهة ارتفاع كبير في البطالة لأنها قدّمت إعانات كبيرة للرواتب.

ان استجابة نيوزيلندا الاقتصادية للجائحة، ركّزت على الاقتراض الحكومي الطويل الأمد لتمويل رزمة شاملة من وسائل الدعم المالي للعمّال والشركات، وتشمل هذه الوسائل رزمة طوارئ أولية تؤمّن إعانات الرواتب ودعماً للشركات يتراوح بين الحدّ من الضرائب وتأجيلها إلى تسهيل شروط القروض واتفاقات مستهدفة لتمويل الديون.

وارتكزت موازنة العام 2020 التي تمّ إقرارها في مايو على هذه الجهود، فموّلت المزيد من إعانات الرواتب والدعم للقروض وخدمات تطوير الأعمال والاستثمارات للبنى التحتية والدعم للعمّال، بما في ذلك التدريب والتدرّج.

وإدراكاً منها بالاعتماد على الاقتصاد العالمي، عملت على إنشاء فرص تصدير جديدة للشركات وتعزيز جهودها لإبرام اتّفاقات تجارة حرّة حول العالم والمحافظة عليها.

التقارير الاقتصادية أظهرت أن الناتج المحلي الإجمالي يتعافى من آثار الجائحة بشكل ملحوظ، استنادا الى بيانات الربع الثالث للعام 2020.

انتعش بنسبة 14 % في الأشهر الثلاثة المنتهية في 30 سبتمبر 2020، وهو أقوى نمو فصلي على الإطلاق.

الاحتفال بـ100 يوم من دون "كورونا"

في 9 أغسطس، احتفلت نيوزيلندا بمرور 100 يوم دون ظهور حالات إيجابية للإصابة بفيروس كورونا. ووفقا لما جاء في تقرير موسع، نشره موقع NZHerald، استغرق الأمر منذ ظهور أول حالة معروفة، والتي وفدت إلى نيوزيلندا من الخارج في 26 فبراير، وحتى اكتشاف آخر حالة عدوى إيجابية في 1 مايو، 65 يومًا للتصدي والقضاء على الوباء.

واشتمل التقرير، على توصيات وتصورات لكيفية الحفاظ على منجزات نيوزيلندا في القضاء على جائحة كورونا، وكيفية استفادة باقي الدول من الإجراءات والخطط المطبقة لتحقيق أمل القضاء على الجائحة.

3 إجراءات احترازية

اعتمدت على ثلاثة أنواع من الإجراءات للقضاء على فيروس كورونا المُستجد:

1. فرض رقابة مستمرة ومحكمة على الحدود والمنافذ الجوية والبرية والبحرية لمنع دخول الفيروس البلاد.

2. حظر التجوال والإغلاق والتباعد الجسدي لوقف انتقال العدوى في المجتمع

3. تطبيق الضوابط الاحترازية على كافة المستويات من خلال إجراء اختبار الكشف عن فيروس كورونا وتتبع جهات الاتصال والحجر الصحي.

وبشكل جماعي، أسهمت هذه الإجراءات على خفض عدد الحالات والوفيات مقارنة بالبلدان ذات الدخل المرتفع في أوروبا وأميركا الشمالية التي اتبعت استراتيجية قمع للتصدي للجائحة والقضاء عليها.

3 استثناءات

تعد نيوزيلندا واحدة من عدد قليل من الدول تضم أيضا فيجي وتايوان، والتي لم تتعرض إلى تفشي موجة جديدة من العدوى وظهور الحالات الإيجابية بعدما كان قد تم السيطرة على الموجة الأولى مثلما هو الحال مع الصين وهونغ كونغ وتايوان وكوريا الجنوبية وفيتنام ومنغوليا وأستراليا وفيجي.

الالتزام المبكر نسبيًا

نيوزيلندا التزمت مبكرًا بشكل نسبي باستراتيجية واضحة المعالم للقضاء على «كورونا» وتم الالتزام بتنفيذها بدقة وإحكام. أثبت الإغلاق المكثف فعاليته العالية في القضاء على انتشار العدوى بالفيروس بسرعة. وتظهر الاختلافات بيانيًا في مؤشر نشرته جامعة أكسفورد أن نيوزيلندا وأستراليا من أقل الدول تضررًا في حين تعد بلجيكا من أكثر الدول الأعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD تضررًا.

دروس من التجربة

ثمة عدد من الدروس الأساسية المستفادة من تجربة نيوزيلندا مع جائحة كورونا، إذ كانت الاستجابة القوية والحاسمة ضد الوباء فعالة للغاية في تقليل الحالات والوفيات، إذ حققت أدنى معدل وفيات بسبب الفيروس على مستوى الـدول الأعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية.

كما انخفض إجمالي الوفيات الناجمة عن كافة الأسباب أثناء فترة الإغلاق. وتشير هذه الملاحظة إلى أنه لم يكن لفترة الإغلاق آثار سلبية شديدة على الصحة بصفة عامة، على الرغم من أنه سيكون لها بالتأكيد بعض الآثار السلبية طويلة المدى.

ويبدو أن القضاء على الفيروس قد سمح لمواطني وسكان نيوزيلندا بالعودة إلى العمل شبه الطبيعي بسرعة كبيرة، مما قلل من الأضرار الاقتصادية مقارنة بأستراليا. لكن من المرجح أن يستمر التأثير الاقتصادي خلال الأشهر المقبلة.

التدابير الحاسمة

اشتملت التدابير الحاسمة التي ساعدت على تخطي هذه الفترة، الالتزام باستخدام أقنعة الوجه المصنوعة من القماش، وتحسين استخدام الأدوات الرقمية المناسبة، وتطبيق نهج قائم على العلم لإدارة وإحكام الرقابة على منافذ وحدود البلاد.

يعتمد الحفاظ على التباعد الجسدي على اعتماد نهج استراتيجي للغاية لإدارة المخاطر. يتضمن هذا النهج اختيار مزيج مثالي من التدخلات واستخدام الموارد بالطريقة الأكثر فعالية للحفاظ على مخاطر تفشي كوفيد19- عند مستوى منخفض باستمرار. ويمكن أن تساهم عدة إجراءات في تحقيق هذا الهدف خلال الأشهر القليلة المقبلة، مع السماح أيضًا بزيادات تصاعدية في أعداد المسافرين دوليًا كما يلي:

إعادة التخطيط لمزيد من إحكام الرقابة والسيطرة على حدود البلاد ومنع تفشي الأمراض بسبل مختلفة، مع تعميم استخدام تطبيقات التواصل الاجتماعي الأكثر حداثة وإتباع نظام "تنبيه وتحذير" من الجائحة بمستوى مُحسن.

- التأكد من حيازة جميع النيوزيلنديين لقناع وجه مصنوع من القماش، قابل لإعادة الاستخدام، مع تضمين الحث على استخدامه في نظام "التنبيه والتحذير».

- إجراء تمارين ومحاكاة لاختبار مدى نجاح إجراءات إدارة التصدي للوباء والوقاية منه، بما يشمل تحديد "أيام لارتداء أقنعة الوجه بشكل جماعي" لإشراك العامة في الاستجابة ورد الفعل.

المتابعة بعناية ودقة لنتائج السفر بدون فرض حجر صحي بين الولايات والمدن الخالية من الحالات الإيجابية، ولا سيما العديد من جزر المحيط الهادئ وتسمانيا وتايوان (والتي قد تتطلب تتبعًا رقميًا للمسافرين القادمين في الأسابيع القليلة الأولى).

• إعداد خطط محكمة للانتقالات محليًا لمجموعات الزوار لفترات طويلة مثل طلاب التعليم العالي، الذين سيظلون بحاجة بشكل عام إلى الالتزام بالحجر الصحي المُدار بعناية.

الاقتصاد الأخضر

لا ينبغي أن تكون العودة إلى ممارسة العمل كالمعتاد خيارًا لمرحلة التعافي من جائحة كورونا. إذ تشير دراسة استقصائية حديثة، أجرتها جامعة ماسي، إلى أن سبعة من كل عشرة نيوزيلنديين يدعمون نهج التعافي الأخضر، أي باتباع خطوات الاقتصاد الأخضر وهو اقتصاد قائم على صناعات تهدف للحد من المخاطر البيئية وإلى تحقيق التنمية المستدامة دون أن تؤدي إلى حالة من التدهور البيئي، مثل صناعة السيارات الكهربائية وصناعات التكنولوجيا وغيرها.

إلغاء إحياء ذكرى الهجوم على المسجدين

أعلنت رئيسة وزراء نيوزيلندا جاسيندا أرديرن (14 مارس 2020) إلغاء التكريم الوطني لضحايا الاعتداء الذي طال مسجدين في كرايست تشيرتش قبل عام من ذلك التاريخ، وذلك بسبب مخاوف من تفشي فيروس كورونا.

وكان من المتوقع أن يجذب الحدث، حشدا كبيرا بينهم كثيرون من مختلف أنحاء نيوزيلندا ومن خارجها.

"إنه قرار براغماتي. النصيحة التي تلقيناها (..) هي أن هناك أشخاصا سيسافرون من أنحاء مختلفة من البلاد، ومن الخارج. وإذا كانت هناك حالة (إصابة بالفيروس)، فقد يكون من الصعب تتبع أولئك الذين اتصلوا" مع الشخص المصاب.

وفي 15 مارس 2019 قُتل 51 شخصا بهجوم على مسجدين في مدينة كرايست تشيرتش شنّه الأسترالي برنتون تارنت، وهو من اليمين المتطرف.

مقهى يمنع دخول رئيسة الوزراء

اكتشفت رئيسة وزراء نيوزيلندا أنه لا توجد استثناءات فيما يتعلق بتدابير التباعد الاجتماعي، بعد رفض أحد المقاهي دخولها، لأنها كانت مكتملة الزبائن، حسب إرشادات الوقاية من فيروس كورونا.

وقررت رئيسة الوزراء جاسيندا أرديرن وخطيبها كلارك غيفورد، تناول وجبة الفطور، 16 مايو، في مطعم أوليف في العاصمة ويلنغتون، بعد يومين من تخفيف إجراءات الإغلاق، التي شملت إعادة فتح المطاعم.

ورغم فتح المطاعم فإن قواعد التباعد الاجتماعي لا تزال سارية، وتشترط الحفاظ على مسافة متر واحد على الأقل.

وعلى تويتر، كتب أحد المستخدمين: "يا إلهي، جاسيندا أرديرن حاولت للتو الدخول إلى مقهى أوليف، ومنعت من الدخول لأن المكان ممتلئ».

ورد خطيبها، قائلا: «أنا من يتحمل المسؤولية عن ذلك، لم أهتم بالتنظيم والحجز في أي مكان. كان من اللطيف منهم اللحاق بنا في الشارع عندما خلت إحدى الطاولات. الخدمة أكثر من ممتازة».

استجلب الحدث تعليقات واسعة، كالقائل إن الانتظار في مقهى شيء يمكن لأي شخص أن يتعرض له خلال تدابير التباعد الاجتماعي في نيوزيلندا، رئيسة الوزراء تقول إنها انتظرت مثل أي شخص آخر.

وحظيت رئيسة الوزراء بإشادة على نطاق واسع لاستجابتها السريعة والحاسمة للوباء، حيث أغلقت

نيوزيلندا حدودها، وفرضت حظرا صارما في مارس، ونجحت إلى حد كبير في بلوغ هدفها المتمثل في القضاء على فيروس كورونا.

فوز ساحق لـ«قاهرة كورونا»

حقق حزب العمال النيوزيلندي فوزاً ساحقاً في الانتخابات التشريعية (17 أكتوبر)، تمثل بنجاح رئيسة الوزراء جاسيندا أرديرن التي تعزز موقعها بنجاحاتها في مكافحة وباء كورونا، بتحقيق غالبية مطلقة غير مسبوقة.

وبعد فرز ثلاثة أرباع صناديق الاقتراع، جاء حزب العمال في الطليعة بنسبة 49،2 في المئة، وسيشغل 64 من أصل 120 مقعداً في البرلمان.

ولم يحقق أي حزب نيوزيلندي الغالبية المطلقة منذ إصلاح النظام الانتخابي في 1996، وهو ما يعني أن كافة رؤساء الوزراء الذين ترأسوا الحكومة مذاك حكموا بواسطة ائتلاف.

وأقرت زعيمة المعارضة جوديث كولنز بالهزيمة ومهنئة بالنتائج المذهلة التي حققها حزب العمال.

ويبدو أن الحزب القومي المعارض الذي حقق 27 في المئة بحسب النتائج الأولية، ما يساوي 35 مقعداً في البرلمان، قد مني بأسوأ هزيمة لع منذ أكثر من 20 عاماً.

وخلال حملتها، وصفت أرديدن البالغة 40 عاماً والتي تتولى الحكم منذ 2017، هذا الاقتراع بأنه «انتخابات كوفيد» إذ اعتمدت في حملتها على نجاح إدارتها في السيطرة إلى حد كبير على الوباء في البلاد.

فائض في «اللقاح».. تهبه للدول المجاورة

بدأت حملة التطعيم ضد فيروس كورونا في 19 فبراير 2021، يوم أعلنت وزارة الصحة أن مجموعة، تضم 25 من القائمين بالتلقيح في مدينة أوكلاند، ستكون أول متلقية للقاح «فايزر»، وسيتم إعطاء لقاحات لنحو 12 ألف من عمال الحدود في غضون ما بين أسبوعين وثلاثة أسابيع، يعقبهم المخالطون لهؤلاء العمال من أفراد أسرهم، قبل أن يصبح باقي السكان مؤهلين.

وحددت السلطات المعنية أن برنامج التلقيح في مختلف أنحاء نيوزيلندا سيستغرق عاما كاملا.

يشار الى ان الحكومة كانت قد أعلنت في 3 فبراير 2021، موافقة هيئة تنظيم الأدوية (ميدسيف) مؤقتا على استخدام لقاح «فايزر» المضاد لفيروس كورونا.

عدد جرعات اللقاح المتاحة للنيوزيلنديين يتجاوز عدد السكان البالغ خمسة ملايين نسمة، حيث وقعت الحكومة صفقات مع جامعة أكسفورد / أسترازينيكا ونوفافاكس لجلب 18.3 مليون جرعة إضافية، يتطلب كلا اللقاحين جرعتين، مما يعني أنه سيتمكن أكثر من تسعة ملايين شخص من التطعيم.

وقبل هذه الاتفاقيات، حصلت بالفعل على 750,000 جرعة تجريبية من Pfizer / BioNTech و 4 ملايين من Janssen وبالنظر إلى أن عدد سكان نيوزيلندا يبلغ خمسة ملايين شخص فقط، تتوقع الدولة أن يكون لديها ثلاثة أضعاف عدد اللقاحات المطلوبةولهذا بادرت بتقديم اللقاحات الفائضة للدول المجاورة.

كما ستقدم 65 مليون دولار لمساعدة دول المحيط الهادئ في الحصول على اللقاحات.

الفصل الرابع عشر

أوروبا تحت وقع الوباء

- العاصفة الاقتصادية
- كيف انهارت أسوار المناعة؟
- طريق واحد للنجاة
- التضامن اجباري
- هل يتفكك الاتحاد ؟
- الجسد الهرم للقارة العجوز

لم تشهد القارة العجوز عبر التاريخ اصعب من جائحة كورونا على كافة المستويات الاقتصادية والصحية او توقف الحياة اجباريا فالواقع الاقتصادي والتجاري أظهر بوضوح تلك المصاعب ، فعاصفة الوباء التهمت علامات تجارية عملاقة واغرقت اساطير صناعية وتجارية في دوامة التعثر ومعها تبخرت مئات الألاف من الوظائف وهو راس جبل الجليد للأثارالسلبية للأزمة، فإفلاس الشركات وفقدان ملايين الوظائف لم يكن سوى جزء محدود من تداعيات الجائحة .

فاقمت الجائحة الصحية الأزمة الإقتصادية في اوروبا وتحولت الى وباء مدمر فقد ضربت عدداً من الشركات العالمية والرموز الإقتصادية البارزة على مر التاريخ مثل "فلايبي" البريطانية و"ليفل" بفرعيها النمساوي والفرنسي وهزم قطاعات مختلفة منتجة والتهم "كوفيد-19" ملايين الوظائف حول العالم لمختلف القطاعات المنتجة خصوصا التي مثلت لعقود طويلة مرتكزا لنواحي الحياة .

فأمام تلك المصاعب زادت الضغوط والمعاناة واضطرت العديد من الرموز الإقتصادية التاريخية والشركات الكبرى اللجوء إلى تسريح عدد كبير من موظفيها في صراع من اجل ان تبقى على قيد الحياة ، مثل شركات الطيران "لوفتهانزا" (22000) "بريتيش إيرويز" (12 ألفا) إيزي جيت (4500)، «فيرجين أتلانتيك" (3150)، "إير فرانس" (7500)، "ساس" 5000 ، «راين إير" (3250) إير لينجوس" (900) "آيسلندایر" (ألفان)، و"براسلز إيرلاينز"(ألف)، و"ويز إير" (1000) ، "رولز- رويس" و"إم تي يو" سيلغيان ابرز مصنعي المحركات في العالم (9000) وظيفة .

لقد طالت الكارثة العنقودية كل القطاعات الإقتصادية التشغيلة وغير التشغيلية ومن أبرزها القطاعات المدرة للأرباح عالميا قطاع السياحة الذي عانى من صعوبات كبيرة وحادة ،عكستها وتيرة إلغاء وشطب وظائف بالجملة للقطاع الـذي يمثل شريان حياة ومصدر استراتيجي للمداخيل العامة ، فشركة "توي" السياحية إستغنت عن ثمانية آلاف وظيفة.

ولم يسلم قطاع السيارات من آثار الكارثة فبعد الإعلان عن إلغاء 15 ألف وظيفة في "رينو" المؤشر الرئيسي للأزمة في قطاع صناعة السيارات في أوروبا، حددت شركة "بي إم دبليو" الألمانية ستة آلاف وظيفة على قائمة الشطب، وأغلقت "نيسان" بعض مصانعها المترامية حول العالم من بينها مصنعا في برشلونة يعمل فيه ثلاثة آلاف عامل ، و شركة "فولفو كارز" وضعت على القائمة إلغاء 1300 منصب تنفيذي في السويد.

وفي المملكة المتحدة معقل صناعة السيارات الفارهة لم تسلم من اثار الجائحة كورونا التي اجبرت عمالقة السيارات الفاخرة على شطب الاف الوظائف التشغيلية فأكثر من ستة آلاف وظيفة وضعت على طريق الشطب في الشركات الرائدة صاحبة العلامات الأكثر بريقا حول العالم وهي "جاجوار لاند روفر" "أستون مارتن"، "بنتلي"، و"ماكلارين" .

لم تكن عمالقة السيارات الأخرى محصنة ضد الموج الجارف فمجموعة "فولفو جروب" رائدة صناعة الشاحنات الكبيرة حددت نحو 4100 وظيفة في مصانعها حول العالم للتخلص من شاغليها .

في المسار الإجباري ذاته كانت شركة "دايملر» العملاق الألماني لصناعة السيارات لجأت الى تجرع نفس الكأس المرة من الجائحة الصحية واستهدفت قائمة شطب قوامها نحو 20 ألف وظيفة خلال الأعوام

المقبلة، ضمن سلسلة اجراءات تحوطية تهدف الى خفض العمالة المكلفة في ظل تراجع المبيعات وتراجع الطلب الحاد الذي يتوقع ان يتباطئ لفترة غير قليلة.

كان الوباء مدمرا بالنسبة إلى العديد من العلامات التجارية التي اضطرت لإغـلاق متاجرها في ظل تدابير الإغلاق. في ألمانيا، ستلغي متاجر «كارشتات كاوفهوف» ستة آلاف وظيفة. وفي المملكة المتحدة، قامت مجموعة «إنتو» التي تملك مراكز تسوق ضخمة بتقديم طلب لإشهار إفلاسها كما فعلت سلسلتا «ديبينامز» و»برايت هاوس». ومن المتاجر التي وقعت ضحية الأزمة «جون لويس» التي ستلغي 1300 وظيفة ومجموعة «دي أي واي» و»ترافيس بيركنز» ستلغيان 2500 وظيفة.

وفي فرنسا، تم وضع عديد من ماركات الملابس (أندري وناف ناف وكامايو وأوركسترا- بري ماما...) تحت الحراسة القضائية مثل مجموعة "ألينيا" للأثاث.

وفي قطاع المطاعم، أفلست السلسلة الألمانية "فابيانو" بينما أغلقت السلسلة البريطانية "ذي ريستورنت جروب" 125 مطعما و(ثلاثة آلاف وظيفة) من سلاسل "فرانكي آند بينيز"، "جارفنكلز"، و"كوست - تو - كوست" بعدما أشهرت إفلاس مطاعمها "تشيكيتو"، "فود آند فيول"، و"كارلوتشيو" .

حتى القطاع الذي شهد على مر العصور صراعات عالمية للسيطرة على منابعه اوالتحكم في مصادره لتحقيق نـوع من الأمــان والإطمئنان والإستقرار الإقتصادي وهوقطاع الطاقة الذي عانى كثيراً، ونزف وواجه انخفاضا في الطلب وتراجعا حادا للأسعار ، ففي المملكة المتحدة، ألغت شركة النفط العملاقة "بي بي" 10000 وظيفة والموردان البريطانيان "سنتريكا" و"أوفو" نحو 5000 و2600 وظيفة على التوالي.

ووضعت مجاميع عالمية اخرى برامج تدريجية للهبوط الإجباري بتعداد القوى العاملة حتى وان كانت منتجة مثل مجموعة الخدمات اللوجستية السويسرية «كونه - ناجل» حيث ان معادلة إلغاء واحدة من كل أربع وظائف وضعت مصير أكثر من 15000 ألف وظيفة على طريق الشطب .

ومن المقرر أن تلغي مجموعة صيدليات "بوتس" أربعة آلاف وظيفة في المملكة المتحدة. وفي العمل الإنساني، ستغلق "أوكسفام" 18 مكتبا وتلغي نحو 1500 وظيفة.

عمق الأزمة الإقتصادية القادم من نافذة الجائحة الصحية فاق التوقعات وقدرات القطاع الخاص حول العالم واجبر حكومات الدول للنهوض والتحرك ماليا لنجدة مكونات الإقتصاد واساسات اركان الدولة التجارية والاقتصادية بهدف محدد يتمثل في الحد والتخفيف من الأضرار والتداعيات ،واتخذت تلك الإجراءات مسارات متباينة فقد هبت ألمانيا لمساعدة "لوفتهانزا" و"كوندور" وفعلت فرنسا وهولندا الإجراء ذاته مع "إير فرانس-كي إل إم". واختارت إيطاليا والبرتغال تأميم شركتي الطيران "أليطاليا" و"تاب".

وأضـر تعطل التجارة العالمية بسبب الجائحة بالمصانع عموما في القارة الأوروبية وهي محرك الصادرات الأساسي في أوروبا وشريان الدخل الحيوي .بينما أدت إجراءات العزل المحلية لاحتواء الفيروس لسحق الإنفاق الاستهلاكي .

العاصفة الإقتصادية

وأغلقت ألمانيا، في منتصف مارس 2020، المدارس والمحلات التجارية والمطاعم والملاعب والمنشآت الرياضية وأوقفت العديد من الشركات الإنتاج للمساعدة في إبطاء تفشي الفيروس.

العاصفة الإقتصادية

واجهت الدول الأوروبية، كغيرها من دول العالم ازمات ومشكلات اقتصادية كبيرة بسبب تفشي وباء فيروس كورونا، الذي دفع دول منطقة اليورو والاتحاد الأوروبي، إلى فرض قيود صارمة على حركة التنقل بين الحدود، واغلاق جزئي في مفاصل اقتصاداتها، لمنع تفشي الجائحة، وقالت كريستين لاجارد رئيسة البنك المركزي الأوروبي إن من المرجح أن ينكمش اقتصاد منطقة اليورو بين ثمانية بالمئة و12 بالمئة عام 2020 نتيجة الصعوبات والآثار الناجمة عن أثر جائحة فيروس كورونا.

لقد واجه الإقتصاد شبح انكماش يتراوح بين 5 و12 بالمئة، في ظل جائحة لا يمكن معها ان تكون التوقعات او التصورات المستقبلية معتدلة بل يمكن القول ان التصور "المعتدل" عفا عليه الزمن بالفعل وإن النتيجة الفعلية ستكون بين التصورين "المتوسط" و"الحاد". هذه الازمة الكبيرة دفعت ، دول الاتحاد الاوروبي الى رفع او تخفيف اجراءات العزل الصارمة، وهو ما اثار قلق ومخاوف كل الجهات، التي تخشى من تفشي الفيروس مجدداً خصوصا في ظل عدم وجود علاجات او ادوية خاصة بهذا المرض، والمؤمل أن تتوفر في الأسواق العالمية مع مطلع عام 2021.

واضافت الجائحة تحدي للقارة الاوربية فوق تحدياتها بشأن استمرار الخلافات والازمات بين دول الاتحاد الاوروبـي، الامر الذي قد يؤدي إلى اشتعال التوترات السياسية التي يمكن أن تفكك دوله، وهو ما دفع بعض الحكومات الى تقديم خطط ومشاريع جديدة

لدعم الاقتصاد والابتعاد عن الخلافات القديمة التي تمخضت خلال أزمة عام 2008 المالية.

وبدت التوقعات التشاؤومية تسيطر اكثر حول مستقبل ومصير الاتحاد الأوربي وانه بات اقرب الى التفكك او في أعقاب جائحة فيروس كورونا ما لم يصدر التكتل سندات دائمة لمساعدة الأعضاء الذين عصفت بهم الجائحة بشكل مأساوي مثل الضعفاء مثل إيطاليا. وقال الخبير الدولي سوروس إن الضرر الذي لحق باقتصاد منطقة اليورو من فيروس كورونا المستجد سيستمر "لفترة أطول مما يعتقد معظم الناس".

دول الإتحاد إتفقت على خطة تعتبر الأضخم في تاريخ الاتحاد الأوروبي بقيمة ألف مليار يورو لدعم اقتصادات الدول المتضررة من تفشي وباء كوفيد- 19، وتنتظرها بفارغ الصبر. لكن يبدو أن هذه المهمة ستكون صعبة، فالخطة تستند الى مشروع منقح لموازنة طويلة الأمد للاتحاد الأوروبي، إلا أن الموازنة نفسها لم تكن موضع توافق بين دول الاتحاد الـ27 حتى قبل مرحلة الوباء، فقد أخفقت في شباط/ فبراير 2020 في اقرار الموازنة التي تبلغ قيمتها ألف مليار يورو، وتمتد بين عامي 2021 و2027.

ولم تساهم العاصفة الاقتصادية التي ضربت الاتحاد أيضاً في رص الصفوف بين دول الشمال ودول الجنوب الأكثر تضرراً من الأزمة الصحية، بل أوجدت الأزمة خلافاً جديداً بينها، يرتبط بطبيعة الدعم الاقتصادي الذي سيقدّم للدول الأعضاء: هل يكون عبر قروض يمكن تسديدها في وقت محدد، أم عبر إعانات؟ ويشكّل مشروع (فون دير لاين) مزيجاً بين الخيارين، يرجح أن يؤدي إلى الإفراج عما يصل إلى ألف مليار يورو عبر أداة إنعاش جديدة، تمول من إصدار سندات من جانب المفوضية باسم الاتحاد الأوروبي.

وتوالت الاقتراحات تحت ضربات الأزمة المثقلة فقد قدمت باريس وبرلين خطة قيمتها 500 مليار يورو، توزع عبر آلية غير مسبوقة لتشارك الديون، فيما يعدّ تغييراً جذرياً في المبادئ الألمانية بهذا الصدد، فألمانيا كانت، حتى الآن، معارضة بشدة لهذه الفكرة.

وبموجب المشروع، يجري توزيع الأموال على شكل مخصصات، وليس قروض، على الدول والقطاعات الأكثر تضرراً، وهو ما تعارضه الدول "المقتصدة" (هولندا، النمسا، الدنمارك، السويد). ويبقى تحديد المبالغ التي ستخصص لتمويل النهوض الاقتصادي، فضلاً عن الشروط التي يجب توافرها لدى الدولة المعنية للاستفادة منه، وهما أمران يعتمدان على قدرات بروكسل على الاقتراض.

وعلى خطة الإنعاش أيضاً أن تتضمن سبل وفاء المفوضية بالتزاماتها السياسية، فهي وضعت التكنولوجيا الرقمية والتحول في مجال الطاقة، بصلب مشروعها للنهوض بالقارة العجوز. يضاف إلى ذلك العمل على تطوير "الاستقلالية الاستراتيجية" للاتحاد الأوروبي، ليصبح أكثر مناعةً أمام الأزمات، وأقل اعتماداً على الخارج لا سيما على الصين. وإلى جانب آلية النهوض المساوية لنحو ألف مليار يورو والموازنة المعادلة لها، فعّلت أيضاً آلية الاستقرار الأوروبية البالغة 240 مليارا، وهي عبارة عن تمويلات طارئة في منطقة اليورو، مع 200 مليار يورو ستقدم للشركات، و100 مليار يورو عبر آلية "سور» أو "الدعم للتخفيف من مخاطر البطالة في حالات الطوارئ" للحد من وطأة البطالة الجزئية. وصادقت المفوضية أيضاً منذ بدء الأزمة على مساعدات حكومية بقيمة 2130 مليار يورو، أفرجت الحكومة الألمانية عن نصفها لدعم شركاتها.

واقترحت المفوضية الأوروبية تأسيس صندوق حجمه 15 مليار يورو (16.6 مليار دولار) لتمويل شركات استراتيجية يعتريها الضعف بفعل أزمة كوفيد- 19. ويأتي الاقتراح، الذي يحتاج إلى موافقة حكومات ومشرعي الاتحاد الأوروبي، بعد أن أصبحت الشركات في أنحاء العالم مهددة بعروض استحواذ عدائية مع انخفاض الأسعار الأسهم وباتت هناك خيارات تمويل أقل خلال أزمة فيروس كورونا.

وكانت الأنظار والأمال على الصندوق الجديد الذي قد يشتري حصصا أو يعرض قروضا على الشركات الاستراتيجية في قطاعات مثل الرعاية الصحية والفضاء والدفاع والتقنيات الرقمية والصديقة للبيئة. وزادت المخاوف بشأن تعرض بعض الشركات الأوروبية للتهديد في مارس 2020 بعد تقارير ذكرت أن الإدارة الأمريكية تدرس الدخول في شركة كيورفاك ومقرها ألمانيا، وهي شركة متخصصة في التكنولوجيا الحيوية تعمل على تقنية جديدة قد تخفض تكاليف اللقاحات. وردت المفوضية الأوروبية بأن تعهدت بمبلغ 80 مليون يورو لكيورفاك.

وفي خضم الأزمة القاسية برزت التساؤلات عن الضرائب الجديدة ؟التي قد تضطر اوروبا الى اللجوء اليها وتستهدف عمالقة التكنولوجيا مثل غوغل وفيسبوك وأمازون فى محاولة لإنقاذ اقتصادها. وترى أوروبا أن التجارة الإلكترونية والتكنولوجيا هي بعض القطاعات التي حققت أفضل أداء اقتصادي خلال جائحة كورونا، مما سيجعل هذا القطاع يتكبد المزيد من الضرائب في الاتحاد الأوروبي.

لكن منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD هدفها المتمثل في الوصول إلى خطة ضريبية رقمية من يوليو إلى اكتوبر 2020، ويمكن تنفيذها في عملية متعددة المراحل من الممكن أن تستمر حتى نهاية 2021، وفى غضون ذلك قالت المفوضية الاوروبية إنها تستأنف المحادثات على المستوى الأوروبي إذا لم تتفق منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية هذا العام، حيث تدفع الشركات الرقمية في المتوسط ضرائب فعالة بنسبة 9.5 % في الاتحاد الاوروبي.

وأعادت أزمة كورونا حلقات النقاش حول الضرائب والاستفادة منها، وقال كوبهام، مدير جمعية العدالة الضريبية في هولندا إن "هولندا ودول آخرى تشعر بضغط أكبر من العام الماضي، مؤكدا طلب المواطنين المتزايد على إظهار الشفافية ويضرب مثالا لألمانيا حيث نشهد ضغوطا على الشركات في ألمانيا لتتحلى بالشفافية ولإظهار أنها تدفع الضرائب في بلادها". لتنفيذ خطة التعافي الأوروبية، تعتقد بعض الأطراف أنه يجب إيجاد موارد جديدة لتعزيز الميزانية الأوروبية على المدى الطويل. اقترحت المفوضية الأوروبية في وقت سابق ثلاث أنواع من الضرائب بقيمة إجمالية تبلغ 20 مليار يورو سنويًا.

كما إقترحت المفوضية الأوروبية ميزانية مشتركة للاتحاد الأوروبـي بين 2021 و2027 تبلغ بنحو 1.1 تريليون يورو، وذلك بالتزامن مع صندوق جديد للتعافي سيحشد 500 مليار يورو في صورة منح وقروضا قيمتها 250 مليار يورو للدول الأعضاء لمساعدتها في تحفيز النمو الاقتصادي المتضرر بفعل جائحة كورونا كخيار إيجابي وفق رؤية رئيس مجموعة وزراء مالية مجموعة اليورو ماريو سينتينو، الذي اعتبر إن خطط ألمانيا وفرنسا إن صندوق إنعاش اقتصادي الذى يصل إلى 500 مليار يورو، للتصدي لتداعيات وباء كورونا، وستكون خطوة

صوب اتحاد مالي وقال إن "هذه المبادرة خطوة شجاعة في الاتجاه الصحيح للتغلب على هذه الأزمة"، مشيرا إلى أن "المقترح الألماني الفرنسي سيكون خطوة عظيمة صوب اتحاد مالي ووحدة نقدية سليمة، حتى لو كان صندوق الإنعاش مؤقتاً فحسب».

وتوالت الجهود للحيلولة دون التفكك للقارة العجوز حيث ان هذا الخيار سيضربها في مقتل فالاقتصاد الأوروبـي سيخسر 22.7 % من قيمته إذا تم تفكيك الاتحاد الاوروبي، حيث يمكن تخفيض القيمة مجتمعة بنسبة تتراوح بين 17 % و22.7 % في حالة تفكيك السوق الموحدة وعدم إحزار أي تقدم في مختلف البرامج والاجراءات المشتركة التي يمكن أن يطورها في السنوات القادمة نتيجة لأزمة كورونا.

وحلل البرلمان الأوروبي الفوائد الاقتصادية التي انتجها وما هي الآثار السلبية التي يواجهها الاتحاد في مواجهة الانتعاش الاقتصادي المستقبلي بعد كوفيد19 إذا توقفت عملية التكامل، وحذَّر التقرير الصادر عن البرلمان أن تفكيك السوق الأوروبية الموحدة سيكلف اقتصاد المنطقة بين 480 مليار يورو و1.38 تريليون يورو سنويا، وهو ما يمثل ما بين 3 % و8.7 % من الناتج المحلي الإجمالي المشترك لجميع البلدان.

الإعتماد على الغير... أمن قومي

لم تكن الجائحة الصحية لفيروس كورونا المستجد "كوفيد- 19 التي اجتاحت العالم بالمطلق ذات وجه سلبي احادي ، بل لقنت الدول الكبرى الملقبة بالدول المتقدمة او الأكثر تطورا وتحضرا ، العديد من الدروس والعبر لعل من اقلها" في أوروبا، انها أظهرت أن القارة العجوز تعتمد أكثر مما يجب على دول أخرى في بعض الإمدادات الطبية وهو ما شكل منعطفا خطيرا لإستراتيجية هذا القطاع الحيوي الذي يمثل امنا قوميا.

ولعل من ابرز الدول التي استشعرت تلك الحرج والمسؤولية بعمق هي المانيا وضاعفت من مسؤوليتها تجاه أزمة فيروس كورونا للمحافظة على كيان الإتحاد واستدامة روح التضامن ، مع القناعة المتزايدة من ان السوق الموحدة لا تزال العمود الفقري لاقتصاد القارة.

وشكلت الجائحة الصحية منعطفا بارزا وقناعة لا تقبل الشك او المناقشة تتمثل في ضرورة تجنب الاعتماد على مصدر وجانب واحد بما يعني اهمية تنويع مصادر الامداد الدولية لمدى أكبر، على أن تقلص أوروبا اعتمادها على الموردين غير الأوروبيين خصوصا في قطاع الاحتياجات الطبية والصحية وهو القطاع الذي يمس حياة الجميع.

وتمخضت هذه الأزمة عن الإلتفات السريع الى مراجعة السياسات الاستراتيجية للقطاع الصناعي ، واعادة النظر في الاستراتيجية الصناعية الأوروربية بأهداف متجددة مبنية على دروس الجائحة الصحية ، على ان ترتكز على اساس جديد شعاره تعزيز القاعدة الصناعية مقترنا بظروف اطارية لا سيما للشركات الصغيرة ومتوسطة الحجم .

كيف إنهارت أسوار المناعة ؟

القارة العجوز في ذهول ، والتساؤلات تتسارع ، ماذا يحدث للأنظمة الصحية رمز التقدم الصحي والرعاية الفريدة في العالم ؟ وكيف انهارت أسوار المناعة أمام فيروس كورونا المستجد حتى باتت معظم الدول الأوروبية «مكشوفة» أمام المرض القاتل وتهاوت سريعا بلا مقاومة تذكر وخسرت اولى الجولات بأسرع مما كان يتوقع اكثر المتشائمين ؟

بالرغم من ابتعادها قليلا في بداية انتشار فيروس كورونا داخل مدينة ووهان الصينية، إلا إنها وبعد أسابيع قليلة باتت مركزا ثانيا للوباء ربما خطف الأضواء من معقله الأساسي ، وصنفت اوروبا بسرعة البرق بالأكثر تضررا جراء انتشار الفيروس اللعين «كورونا».

الوباء الأسود والذي بات العدو الأول للبشرية ، لا يزال يوسع انتشاره في العالم حاصدا المزيد من الأرواح، حتى أصبحت أوروبا بؤرة وباء كورونا الحالية، وإيطاليا تحديدا تدفع أغلى الأثمان، وكذلك إسبانيا ، وصولا لبريطانيا وألمانيا وفرنسا ، وغيرها من دول الريادة الاقتصادية والصحية .

وباتت تئنّ أوروبا وجعًا تحت قبضة كورونا، والذي افترس الآلاف من سكانها، ودخلت سباقاً محموماً مع الزمن لإبطاء سرعة تفشّي الفيروس المستجدّ، الذي حصد أرواح الآلاف من البشر منذ انتشاره .

عداد الأرقام مستمر في تسجيلِ الوفيات والإصابات، ليضع بقاء القارة أمام مصير مجهول . وكشف الفيروس امام عنجهية الريادة للقارة الأوروربية أن العامل الديموغرافي ، وإن كان من المتوقع أن يعمق أزمة كورونا، إلا أنه ليس العامل الوحيد في هذه الأزمة، فهناك عوامل أخرى تؤثر على قدرات الدول في مواجهة الأوبئة، ومنها كفاءة النظام الصحي، وقدرة مؤسسات الدولة على فرض الالتزام بالإجراءات الوقائية ، وثقافة المجتمع ووعيه، والقدرة على استيعاب الضغوط الاقتصادية متوسطة وطويلة الأجل التي ربما تنهك الدول بشكل اسرع من اي تأثيرات او تداعيات اخرى ربما تعجل بانفلات وخروج عن السيطرة والدخول في نفق مظلم .

و قد كان لبعض الدول الكبرى الأعضاء في الاتحاد ان دخلت في مرحلة وضع طوارئ بصورة لا مثيل لها منذ الحرب العالمية الثانية لخوض المعركة ضد فيروس كورونا، وإن مراكز للتنسيق الإستراتيجي أقيمت في مختلف العواصم الكبرى، وبقيت الرموز الحضارية والإقتصادية في العالم رهينة لتأثيرات سلبية محتملة للأزمة على العلاقات الأوروبية إذا لم يخرج الاتحاد منها متحدا ومنتصرا .

وفرضت ازمة كورونا تحديات استثنائية غير معتادة او مألوفة ، على القارة الأوروبية حتى في اليات التعاون والتضامن ، وبرزت دعوات تحذر من التراخي او التمادي في استخدام الشعارات الرنانة والبراقة، كون المرحلة التي ترزح تحت الجائحة لا يصلح معها و لا يمكن حيالها إن يستخدم "التضامن كأداة.. اذ من الأسهل أحيانا القيام بالدعاية و إظهار الصور الجميلة لكن النتيجة ستكون مؤلمة ومكلفة .

طريق واحد للنجاة...

يجب أن نتّحد كي نقوى على مواجهة فيروس كورونا ، ذلك كان الشعار الأكثر توافقا بين كبار القادة، وسمع صداه في انحاء العالم ، مغلفا بقناعة مفادها اننا لن نتخطى هذه الأزمة دون تضامن أوروبي قوي على المستويين الصحي والاقتصادي.

وعلى غرار التدخلات الإنقاذية لإطفاء الحرائق سريعة الإشتعال اتّخذ الاتحاد الأوروبي مجموعةً من التدابير , وواصل بذل الجهود على الصعيد الأوروبي وبين البلدان بحدّ ذاتها. كي تُثبت أوروبا للعالم تضامنها في هذه الظروف العصيبة وانطلقت الاجراءات .

كانت فرنسا أوّل من حثّ الاتحاد على تدارك فداحة

هذه الأزمة من خلال المطالبة بعقد اجتماع استثنائي للمجلس الأوروبي والدعوة إلى تنسيق التدابير المتّخذة على الحدود من أجل تجنّب التخاذل والتخلي عن الآخرين .

واتّخذ رؤساء الدول والحكومات سبعة تدابير عاجلة مستحقة لتنسيق الجهود في مجال الصحة العامة وحماية الأوروبيين والتخفيف من حدّة الآثار الاجتماعية والاقتصادية المترتبة على هذا الوباء :

1 – حيازة معدات طبية مشتركة ، كتجهيزات الوقاية وأجهزة التنفّس والمستلزمات المخبرية , وإنشاء أول احتياطي مشترك للمعدات الطبية وإبرام صفقات عمومية مشتركة لشراء تجهيزات الوقاية الفردية. في اطار تنسيق الجهود من أجل تعزيز القدرات الإنتاجية. وبموازاة ذلك , فرض الحصول على تصريح يخول تصدير تجهيزات الوقاية الفردية إلى خارج أوروبا.

2 – دعم البحوث العلمية الهادفة إلى إيجاد لقاح مضاد لفيروس كورونا وتخصيص ميزانية اولية بقيمة 140 مليون يورو.

3 – توحيد الجهود من أجل تمكين المواطنين الأوروبيين المسافرين العالقين خارج الاتحاد الأوروبي من العودة إلى بلدانهم.

4 – تيسير نقل السلع والبضائع داخل الاتحاد الأوروبي، بفضل قنوات إمداد ذات أولوية على الحدود الداخلية للاتحاد من أجل تموين المستشفيات والمتاجر والمصانع على وجه الخصوص، و تيسير تنقّل الأشخاص عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، ولا سيّما العاملين على الحدود أو المواطنين الأوروبيين العائدين إلى مكان إقامتهم.

5 – التصدي للأزمة من خلال إعادة تخصيص 37 مليار يورو من ميزانية الاتحاد الأوروبي بموجب سياسة التماسك.

6 – دعم المنشآت والعاملين من خلال تبسيط القواعد لتيسير الحصول على مساعدات الدولة.

7 – تعليق ميثاق الاستقرار من أجل تمكين الدول الأعضاء من الخروج عن قواعد الميزانية لمواجهةً تفشي جائحة كورونا.

لغة الأرقام تتحدث

حتى تعيش الأجيال القادمة التي لم تعاصر مأساة الجائحة التي عاقبت العالم اجمع ، فإن لغة الأرقام من اللغات الفريدة التي يمكنها ان تعبر بوضوح عن النتائج والأثار المفزعة لحجم الإصابات او التداعيات الإقتصادية الناجمة عن تبعات الفيروس، فالمبالغ المرصودة بتريليونات الدولارات لمكافحة انتشار الفيروس تارة او كحزم تحفيز لإنعاش الإقتصاد للحيلولة دون اختناقة ، ابلغ صورة وادق تعبيرا عن فداحة وعمق الأزمة .

وبدت المعالجات عبر ضخ المليارات في شراين اقتصادية وقنوات متعددة على غرار شبكة عنكبوتية متصلة ببعضها البعض وهكذا كان حال الإقتصاد العالمي كل جزء مركب على الأخر ولنا في حركة السياحة والسفر عبرة وصورة لهذا الترابط المخيف بين شرايين الإقتصاد المتشابكة والمترابطة لكل القطاعات، فعندما اوقفت الدول حركة الطيران ، انهارت الفنادق واساطيل النقل بشتى انواعها وافلست مكاتب السياحة ، وتضررت شركات التأمين التي كانت تستفيد من وثائق السفر كما طالت قطاع البنوك نتيجة تراجع الصرف واستخدام

البطاقات المصرفية حول العالم وتراجع الإنفاق الاستهلاكي ، وتراجعت حركة التجارة والمبيعات الداخلية لكل المنتجات في جموع الأسواق العالمية، وهكذا بدأت تتدفق تريليونات الـدولارات لمواجهة الجائحة :

– ضخ 40 مليار يـورو من المصرف الأوروبـي للاستثمار لدعم المنشآت الوسيطة الحجم والمنشآت الصغيرة والمتوسطة.

– تقديم 37 مليار يورو من ميزانية الاتحاد الأوروبي بموجب سياسة التماسك ومنها 650 مليون يورو لفرنسا.

– تخصيص 140 مليون يورو للبحوث الرامية إلى إيجاد لقاح.

– تخصيص 179 مليون يـورو لدعم الموظفين المسرّحين من وظائفهم والمستقلّين.

– رصد أكثر من 125 مليون يورو "للآلية الأوروبية للحماية المدنية" المشاركة في تمويل الرحلات الجوية للعائدين إلى أوطانهم , وشراء المعدات.

– تقديم أكثر من 3.6 ملايين يورو للمركز الأوروبي للوقاية من الأمراض ومكافحتها.

– تقديم 500 مليار يورو في إطار رزمة من التدابير الرامية إلى دعم اقتصادات الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي.

– 750 مليار يورو لدعم البرنامج الاستثنائي الطارئ الذي أعدّه المصرف المركزي الأوروبي في ظل أزمة تفشي جائحة كورونا والذي خصصت لإعادة شراء جزء من ديون الدول والمنشآت في منطقة اليورو في الأسواق المتضررة .

التضامن اجباري

وسط حطام كورونا تجلت قناعة مؤكدة ومشتركة جلية وضوح الشمس لا تحتمل اي تأويلات هي انه ليس بوسع أي بلد أن يتجاوز هذه الأزمة منفردا لذا يتوجب التضامن الإجباري حتى يتلاشي هذا الوباء.

انطلقت القارة الأوروبية نحو هدف وحيد من مرتكز اساسي هو توحيد الإجراءات التي اتُّخذت والتفكير معًا في سبل إنهاء هذه الأزمة باتساق واتفاق متناعم يبدأ من من إرسال إشارة واضحة تُظهر اتّخاذ إجراءات منسّقة ومتضامنة , وأن تُستحدث الوسائل والأساليب اللازمة لها.

وجرى تفعيل عدد من الآليات الأوروبية الخاصة بالتنسيق وتبادل المعلومات والممارسات الخاصة بإدارة الأزمات ، لا سيّما في المجال الصحي.

وتحت ضغوط الجائحة الصحية ترجمت البلدان الأوروبية تضامنها مع بعضها البعض يوميًا وعلى نحو ملموس وذلك من خلال استقبال المرضى بغية مساعدة البلدان الأكثر تضررًا من جراء تفشي هذا الوباء وعبر منح المعدات الطبية وإقامة البرامج البحثية المشتركة.

وتجلت صور التضامن الأوروبي في مواقف مختلفة ومتباينة فقدّمت فرنسا مليون كمامة و24 ألف ثوب طبي وقميص طبي واقٍ لمساعدة إيطاليا، أول بلد أوروبي طالته وتمكنت منه هذه الأزمة بشراسة.

كما سمحت فرنسا ايضا والتزامًا بالتضامن الأوروبي بتصدير أكثر من 2.2 مليون كمامة منتجة في فرنسا إلى بلدان أوروبية أخرى ، رغم الحاجة المتزايدة إلى

الكمامات في فرنسا في ظل سرعة تفشي الوباء في أراضيها.

ومكنت الأوروبيين العالقين خارج الاتحاد الأوروبي من العودة إلى بلدانهم وشاركت على نحو فاعل في الجهود الجماعية بوضع عشرات الرحلات الجوية التجارية تحت تصرّف الأوروبيين ، وأتاحت عودة 650 ألف شخص إلى أوروبا في ايام قليلة اوالعودة إلى بلدانهم بفضل التنسيق القنصلي بين بلدان الاتحاد الأوروبي.

ومع يقين فرنسا أن بعض البلدان المجاورة تعتمد على عاملين فرنسيين على الحدود في خدماتها الأساسية، لا سيّما في نظامها الصحي، اتّخذت منذ البداية تدابير تتيح للعاملين الفرنسيين على الحدود مواصلة عملهم، على غرار تيسير عبور الحدود، والإبقاء على الضمانات المنبثقة عن قانون العمل، والحماية الاجتماعية والضريبية.

في المقابل وتجسيدا للتضامن عرضت ألمانيا وسويسرا والجمهورية التشيكية ولوكسمبرغ وهولندا والنمسا على فرنسا الاستعداد لاستقبال اي اعداد من المرضى اصحاب الحاجة الى العناية المركّزة .

كشف اخطاء سيادية

انتشار وباء كورونا حول العالم وتمكنه من بعض القارات بشكل اشرس من غيرها كشف اخطاء استراتيجية بالجملة في سياسات مهمة وحيوية تمس الأمن القومي للدول الكبرى التي تصنف بأنها من دول السيادة والريادة، فليس سرا حجم وكم الإنكشافات في مختلف القطاعات ، الا ان القطاع الصحي هو الذي كشف العورة واظهر الثغرة فانعدام الاستقرار الدوائي" لمجمل الدول الأوروبية ، لا سيما منها الأكثر تطورا في المجال العلمي والصناعي برز بقوة ووقفت دول صناعية عملاقة في موقف صعب وكانت محل استغراب العالم اجمع قياسا الى ما تملكه من امكانات صناعية وتكنولوجيا متقدمة في مختلف المجالات .

والأخطاءالتي كشفتها « كورونا « ستظل الأغلى كلفة في التاريخ الحديث والقديم ، باعتراف دول الاتحاد الأوروبي التي اقرت بأنها تدفع اليوم ثمن اخطاء الماضي المتراكم منذ التسعينيات المتمثل في عدم إيلاء الأهمية لصناعات الأدوية الأساسية .

وليست الدول الأوروبية وحدها هي التي استيقظت على اخطاء استراتيجية من هذا النوع بل معها الولايات المتحدة، استفاقت هي الأخرى بجبروتها السياسي والصناعي والتكنولوجي والعلمي ، على واقع مؤلم، مفاده الاستسلام إلى ما ستصدره الصين أو الهند إليها من أدوية، في تجربة مؤلمة لم يسبق ان تعرضت لها قارة اوروبا التي تعالج العالم اجمع وباتت فجأة في مركز ضعف واصبحت صحة المواطنين الأوروبيين تعتمد بشكل كبير على الصين، خصوصا مع استمرار تفشي وباء «كوفيد19» وخروجه عن السيطرة والإمكانات الصحية المتاحة .

وطيلة 30 عاما، كل دول العالم والولايات المتحدة وعلى رأسها الدول الأوروبية، تخلت عن سيادتها واستقلالها الدوائي لصالح الصين، التي تصنع أكثر من 80 % من الأدوية الأساسية، التي تبيعها الصيدليات الأوروبية.

وحتى المواد الطبية الخام بات أغلبها يستورد من

الصين بما يمثل 97 %، وكلها مواد كيماوية ومضادات حيوية عامة وأساسية.

وكانت تجربة مريرة ان حذرت تسع مستشفيات جامعية أوروبية كبرى، حكوماتها من خطر نقص الأدوية الأساسية لرعاية مرضى "كورونا» في وقت تصنَّف فيه مستشفيات أوروبا بأنها تمثل الوجهة والمقصد للباحثين عن افضل واعلى درجـات الرعاية الصحية فكيف تستغيث.

هل يتفكك الإتحاد أم يزداد تماسكا !!

أزمة «البريكست» التي عاشها الإتحاد الأوروبي والمتمثلة في اجراءات خروج وانفصال بريطانيا عن الإتحاد الأوروبي ، اوجدت مناخا صعبا في انحاء القارة على الصعيد الاقتصادي واربكت حسابات سوق العمل وتعاملات القطاع المصرفي وكبريات الشركات في الاتحاد بسبب التشابكات التجارية ، وعاد شبح التفكك يطل براسه ويخيم من جديد على القارة ويشكل إنتكاسة أسوأ بكثير من انسحاب بريطانيا، بدعم من «كارثة العصر»، فهي اشبه بشبح جائر وضيف ثقيل وبكلفة باهظة وارباكات غير مسبوقة وضعت القارة العجوز في مفترق طرق ما بين التضامن الإجباري او التفكك والإنهيار، فرضت على الجميع لحظة فارقة ومصيرية، فبداية الأزمة بدا التضامن من منظور انساني صحي ، لكن الواقع الاقتصادي كان له كلمة ورأي اخر ليبقي معه التساؤل مطروحا ومستمرا ؟!

هل يفكك فيروس كورونا الاتحاد الأوروبي ويقضي على حلم الاستدامة التي تمسكت بها الدول الكبرى رغم قرار بريطانيا بالخروج ، وكم عام سيصمد في وجه الجائحة الواقع أن هذا التساؤل سيبقى مطروحا لعقود من الزمن كلما حلت كارثة او ازمة لطالما فرطت بريطانيا العقد وفتحت الباب امام الأخرين لإحتمالية الخروج عندما يريد أي عضو في الإتحاد؟

هل التضامن سيستمر طويلا ام ستكتب كورونا نهاية مؤلمة لهذا الاتحاد و يفشل عند أول اختبارصعب وحقيقي له منذ نشأته؟ هل قرار التفكك سيؤجل الى نهاية الكارثة الوبائية للخروج الآمن ... ، سيبقى التساؤل معلقا والإجابة عليه غير حاسمة لسنوات بل لعقود .

القاعدة البسيطة تقول في الاتحاد قوة ، وهوخيار لا بديل له امام الأزمة غير المسبوقة التي تجتاح العالم ، وتأثرت بها على وجه الخصوص دول أوروبية كبرى مثل إيطاليا وإسبانيا وراح آلاف الأوروبيين ضحايا لتفشي فيروس كورونا المستجد (كوفيد 19) دون ان تشفع الإمكانات او التاريخ والحضارة والتقدم لأي دولة من دول الاتحاد الأوروبي لمجابهة الوباء أو قف نزيف الأزمة الإقتصادية، ولم يقف الأمر عند حد الخسائر البشرية أو الاقتصادية، بل تحول مصير الاتحاد بالكامل لرهينة انحسار الفيروس او ازدياد شراسته ، بشكل يهدد استمرارية كيانه تحت وطأة عدداً من الممارسات والقرارات التي اتخذتها عدة دول ألقت بظلالٍ من الشك على مدى جدوى استمرار هذا التكتل.

ومقابل مقولة في الإتحاد قوة تقول حكمة اخرى كل شيء مباح في الحب و ..الحرب، كون مجابهة كورونا تحول الى حالة اشبه ما تكون بالحرب !

لكن القراءات والدلائل والمعطيات تؤكد على حقيقة واحدة اذا خرج الإتحاد متماسكا من ازمة كورونا واستمر لخمس سنوات سيستمر لعقود مقبلة فدرس كورنا مختلف ومن محفزاته انه يحث على الاتحاد والاندماجات بين المؤسسات الإقتصادية.

لماذا تأخر العمل الجماعي؟

عندما اندلعت الشرارة الأولى لإنتشار فايروس لم تكن هناك جدية او قراءة دقيقة عن حجم الفاجعة المترتبة على تحول الفيروس إلى وباء وتأثيراته بدليل ان الفيروس تمكن من بعض الدول بين عشية وضحاها ووقعت فريسة سهلة.

وصنفت بضع الدول الكبرى على انها منكوبة بشكل اسرع من دول تقع في العالم الثالث وتصنف على انها دول دون النامية ، وشراسة الجائحة تمكنت من اسواق اوروبية ريادية مثل ايطاليا واسبانيا وفرنسا كانت على شفى اللحاق بهما وفي هذه المرحلة الحرجة لم يكن دعم دول الاتحاد للدول المنكوبة مثل إيطاليا وإسبانيا على المستوى المتوقع مطلقاً .

لكن المبرر الوحيد والتفسير الدقيق لذلك هو استمرار حالة سوء التقدير لعمق وقوة وشراسة الأزمة التي ضربت كل دول العالم، كما أنها غير مسبوقة على الأقل منذ 100 عام مضت ، بالتالي كان التعامل معها وإدارتها صعب للغاية بالنسبة لكل الدول التي لم ينجو احدا من تأثيرات الجائحة فجندت كل دولة امكاناتها لحماية مواطنيها واقتصادها واسواقها المالية وقطاعاتها التجارية كأولوية فالدولة التي تشعر أنها في أزمة يصعب جداً عليها أن تقدم خلالها دعماً لدول أخرى وتلتفت لها.

غير أن الدول القيادية في الاتحاد الأوروبي لا يمكنها في ظل ازمة طاحنة معطلة للاعمال ومدمرة للثروات أن تلبي طلبات جميع الدول الأعضاء خصوصاً الأكثر تضرراً ، لأن الأزمة أكبر بكثير من حجم الاتحاد تقنياً واقتصادياً ، كما أن جميع الدول الأعضاء تعاني من نقص حاد على المستوى الصحي وليست بمستوى واحد من الامكانات .

وامام الانتشار السريع للفيروس كورونا لم يسعف الوقت الاتحاد للوصول إلى توافق أو إجماع حول آلية المساعدة وبناء استراتيجية تصدي للفيروس، لهذا ترك الباب مفتوحاً للدول الأعضاء في كيفية بناء آلية للتصدي للفيروس كل حسب إمكانياته وقدراته .

وعلى خلفية "تباطؤ" دول الاتحاد في دعم دولة مثل إيطاليا ظهرت مشاهد ذات دلالات عميقة ، الأول كان مشهد المدرعات والعربات الروسية التي تجوب شوارع إيطاليا حاملة على متنها مساعدات وأطقم طبية.

والثاني هو مشهد الأطباء الكوبيين الذين وصلوا إلى إيطاليا أيضاً والترحيب الهائل الذي قوبل به أطباء الدولة التي تفرض أمريكا عليها حظراً منذ عقود،والثالث هو مشهد تقبيل الرئيس الصربي لعلم الصين اعترافاً منه بدعمها ومساندتها لبلاده.

فاتورة الوباء الثقيل

لمعرفة عمق الأزمة لا بد من الوقوف على الأرقام والأثار السلبيةالناتجة عنها فعندما تشير احد البيوت الأستشارية العالمية الموثوقة بأن تقديرات ضحايا الأزمة الاقتصادية ضخم ورقعة الأثار شاسعة حيث يواجه حوالي 60 مليون موظف في جميع أنحاء الاتحاد الأوروبي والمملكة المتحدة خطر فقد وظائفهم ، وفقاً لشركة الاستشارات الإدارية، ماكنزي.

وأن معدل البطالة قد يرتفع من حوالي 6 % إلى أكثر من 11 % ويبقى مرتفعاً لسنوات إذا لم يتم احتواء المرض بسرعة.

و أن واحدة من كل 4 وظائف في جميع أنحاء الاتحاد الأوروبي والمملكة المتحدة معرضة لخطر انخفاض ساعات العمل أو الأجور أو الإجازات المؤقتة أو تسريح العمال الدائم.

وان إيطاليا، ثالث أكبر اقتصاد في منطقة اليورو ومصدرا رئيسيا للآلات والمنسوجات والسلع الأخرى، أول دولة غربية متطورة تعطل معظم صناعتها، مما أدى إلى توسيع نطاق الإغلاق على الشركات الصغيرة غير الضرورية لشركات الصناعات الثقيلة.

ومن بين الشركات التي أوقفت أو قللت الإنتاج فيات كرايسلر، وفيراري، وإطارات بيريلي، ونظارات لوكستيكا، صانع نظارات راي بان وأوكليس .

وقدر لوبي "كونفيندوستريا " الصناعي تكلفة الأزمة على الاقتصاد الوطني، بما يتراوح ما بين 70 مليار إلى 100 مليار يورو (77 مليار دولار – 110 مليار دولار) شهريا، إذا تم إغلاق 70 بالمائة من الشركات، كما هو متوقع.

أزمة كورونا الصادمة تفوقت على توقعات الجميع وخيرت العالم بين الحياة والمحيا أو المصير المحتوم، فالإضطرار إلى مواصلة إجراءات التباعد الاجتماعي، سيبلغ معه معدل البطالة في الاتحاد الأوروبي ذروته عند 11.2 % في العام 2021، مع احتمال عدم الوصول إلي تعافي تام حتى العام 2024 .

حجم الكارثة الإقتصادية على اوروبا تترجمه مفاوضات الأيام الخمسة و المناقشات المشحونة في بروكسل لقادة الاتحاد الأوروبي ، والتي نتج عن اتفاق القادة على خطة تاريخية، وميزانية إجمالية تبلغ 1.83 تريليون يورو (2.10 تريليون دولار لتمويل تعافي أوروبا من أزمة فيروس كورونا.

فقدان التوازن والانكماش الاقتصادي

يُصنّف الوباء الحالي على أنه أكبر أزمة صحية واقتصادية تواجه أوروبا منذ عام 1918، فاندلاع الفيروس الخبيث لم يفتك فقط بآلاف الأوروبيين، اوجمد قطاعات كبيرة وحيوية، بل هدد بانكماش اقتصادي بنحو 10 % لعام 2020 ، بل إنه أيضاً هدد بتقويض هالة الكفاءة الخاصة بوحدة وتكامل وجاهزية القارة العجوز، باعتبارها ملاذ الطب الآمن وبلاد الرعاية الصحية المتكاملة، وبها تستوطن كبرى شركات الأدوية العالمية، وقد شاء القدر أن يدفع رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون، المصاب بفيروس كورونا المستجد، ضريبة التلكؤ في إغلاق البلاد، واتباع توصيات العزل على غرار دول أوروبية مجاورة، حتى إنه استخف مطلع مارس 2020 بانتشار الفيروس قائلا إنه: "صافح الجميع وبينهم مرضى بكوفيد- 19 "خلال زيارة إلى مستشفى في لندن.

خلال إدارته للأزمة، بدا الاتحاد الأوروبي، الذي افتقد التنسيق تماماً، فاشلاً في سياساته الوقائية والصحية والاجتماعية، ومتعثرا في ردة فعله سواء فيما يتعلق بعدم التضامن الكافي خاصة مع إيطاليا أحد مؤسسيه، أو الإغلاق المتأخر للحدود، ولم يكن الفشل في إدارة الأزمة الحالية إلا انعكاساً للفشل السياسي والدبلوماسي السابق، والذي بلغت ذروته مع انفصال بريطانيا عن التكتل "بريكست"، بل إن البنك المركزي الأوروبي بدا في بداية تفجر الأزمة وكأنه غير معني بها، ومع مرور الأيام اتضح أن التقييم الوردي للاتحاد الأوروبي في بداية الجائحة يتناقض بشكل صارخ مع أزمات نقص الأقنعة والمعدات الطبية وأجهزة التنفس الاصطناعي

التي تفجرت لاحقاً بعد بضعة أسابيع من تفشي الوباء، وأدت مبالغات حكومات الاتحاد وادعاء القدرة على احتواء كورونا، إلى تفاقم الأزمة وازديادها سوءاً.

مع هذا، ينبغي أن ندرك أن هناك سبعة عوامل رئيسية تضافرت لتجعل من الفيروس القاتل أزمة حقيقية في القارة الأوروبية، وهي: المفاجأة، ونقص المعلومات، وتصاعد الانتشار، وفقدان السيطرة، وتفشي حالة الذعر، وغياب الحل الجذري السريع، وضعف التنسيق بين دول التكتل العريق، ولو عقدنا مقارنة سريعة في سرعة الاستجابة والتعامل مع الجائحة، بين دول أوروبا ونظيرتها في شرق آسيا مثل الصين واليابان وتايوان وكوريا الجنوبية، فسنجد أن الدول الآسيوية كانت الأسرع في تنفيذ إجراءات احتواء انتشار الفيروس، عبر فرض حظر التجول على جميع مظاهر الحياة، فيما كان البطء السمة الغالبة على الدول الأوروبية، فقد احتاجت إيطاليا لأسابيع حتى تخبر العالم عن أولى الحالات المصابة، ومن ثم فرضت حظراً على مركز الوباء في شمال البلاد، وكذلك تلكأت إسبانيا وفرنسا وبريطانيا في اتخاذ الإجراءات الاحترازية، مما سمح بسرعة انتشار الفيروس، وهذا معناه أن الدول الآسيوية استثمرت أفضل وأسرع في الإمكانيات المتاحة سواء بالنسبة للكوادر الطبية أو المعدات الصحية أكثر من نظيرتها الأوروبية التي وصفت في الأخير بالموبوءة.

ضربات موجعة لقطاعي التصدير والتجارة

وجه الفيروس الغامض الأكثر قسوة وشراسة على مر التاريخ عدة ضربات مفصيلة للهيكل الاقتصادي لكل دول العالم ، ولم تكن قارة اوروبا الأكثر نشاطا وحيوية اقتصادية استثناءا بل تضررت اكثر من غيرها بسبب حجم تعاملاتها التجارية وسيادتها الإقتصادية كوعاء عالمي لكبريات البنوك والشركات ورؤس الأموال، كونها تمثل محورا استراتيجيا وملتقى اقتصادي عالمي حيوي ، فطالت المعاناة كل القطاعات وتلقى قطاع التصدير في إيطاليا ضربة قاسية جدا بعد تسجيل العديد من الإصابات بالفيروس في بعض المناطق التي تتصدر شركاتها ومصانعها قائمة الصادرات الوطنية.

فوفقا للتقديرات التي تعكس التأثر الاقتصادي فإن المبيعات في المناطق المتأثرة بتفشي كورونا في شمال إيطاليا مثل: لودي، وكريمونا، وبافيا، وبيرغامو، وميلانو، ومونزا، وبادوفا، والبندقية، وتريفيزو، وبياتشينتزا، وبارما، وموديا، وريميني- تقدر قيمتها بـ138 مليار يورو من أصل 465 مليارا هي القيمة الإجمالية لحجم الصادرات الإيطالية سنويا.

ايضا خلال أسبوع الموضة الأخير في مدينة ميلانو التي تتواجد فيها أشهر محلات الأزياء والمجوهرات والعطور الفاخرة الإيطالية على مستوى العالم- جرت العديد من عروض الأزيـاء التي يتابعها عادة آلاف الصحفيين والمصورين من كافة أنحاء العالم، في نسق غير عادي واجواء مختلفة خلف أبواب موصده وبمدرجات خالية من المتفرجين بسبب كورونا.

فقد كانت قيمة الأرباح الإجمالية الناجمة عن مبيعات قطاع الموضة الإيطالي في عام 2019، مسجلة عائدات تجاوزت قيمتها تسعين مليار يورو ، في حين تراجعت بسبب الجائحة نحو 65 % .

حتى الأقتصاد الراقي ومعقل اموال وخزينة ألأرصدة في العالم سويسرا عانت وتجرعت مرارة الأزمة من الجائحة فقد هبت سريعا وخصّصت الحكومة السويسرية

ضربات موجعة لقطاعي التصدير والتجارة

أكثر من 65 مليار فرنك لدعم الاقتصاد الوطني، بعد أن تعرض جزء كبير من النشاط الاقتصادي في البلاد للتوقف بشكل مؤقت. وبلغت اول حزم التنشيط في ابريل 2020 بقيمة 40 مليار فرنك خصصت كقروض طارئة متاحة للشركات التي تُكافح لتجاوز الأزمة.

تبعتها خطة لتقديم قروض إضافية يصل مجموعها إلى 154 مليون فرنك لفائدة الشركات الناشئة. وقد صوت البرلمان الفدرالي بالموافقة على حزمة الإنقاذ المالية الاستثنائية بمليارات الفرنكات.

كما أتاحت الحكومة حبل نجاة للشركات والمؤسسات التجارية المهددة بالإفلاس، حيث يمكن لها تأجيل التصريح بصعوباتها المالية أمام المحاكم، مع منح الشركات الصغيرة الحجم فترة سماح لمدة ثلاثة أشهر على الأقل لتسديد ديونها.

السياحة...افلاسات وخسائر بالمليارات

مع ارتفاع انتشار حدة الجائحة وارتباك الدول واغلاقات الحدود وتوقيف حركة الطيران واغلاق المنتجعات والفنادق وكل مناطق التجمعات البشرية بدا واقعا شبح الافلاسات تخيم على كثير من شركات السياحة والطيران حول العالم وسيطرة الأرقام السلبية عن ما سواها وقع العاملين في قطاع السياحة يتحت سبف الجائحة وعانوا اكثر من باقي القطاعات من تداعيات خطيرة نتيجة التوقف الإجباري للتنقل واغلاق الحدود والمطارات وفقد قطاع السياحة اكثر من مناسبة موسمية وفقدت اوروبا وجبالها البيضاء المكسوة بالثلوج خلال فترة عيد الفصح ، التي تشهد حالات ازدحام في المدن الإيطالية التاريخية العريقة بحشود السواح الذين يأتون لزيارتها من كافة أرجاء المعمورة.

ووقف قطاع السياحة على حافة الهاوية تحت وطأة إلغاء حوالي 80 % من الحجوزات في المدن و95 % في الجبال ومختلف المدن السياحية أوروبيا .

وكذلك قطاع السياحة في المناطق الجبلية التي يزورها السياح للتزلج وقضاء العطل في أجواء صحية وهادئة، قد انهار تماما، مما دفع الكثير من رجال الأعمال إلى إغلاق فنادقهم لقلة الزوار المحليين والأجانب، خاصة من دول شرق أوروبا التي قررت إخضاع رعاياها العائدين من إيطاليا للحجر الصحي لمدة 14 يوما.

وليس ادل على حجم وقوة ضربة كورونا من قيمة خسارة قطاع السياحة في إيطاليا التي زادت عن عشرة مليارات يورو ما بين مطلع مارس إلى اخر مايو ما يعني ان القطاع فقد 30 مليار في 6 اشهر فقط بسبب تفشي فيروس كورونا المستجد في البلاد.

واعترفت فدرالية القطاع التجاري السياحي الإيطالي بذلك بتأكيدها ان البلاد ستفقد أكثر من 31.6 مليون سائح في هذه المدة، في ضوء التطورات الأخيرة لوتيرة تفشي الفيروس.

وزاد من عمق الخسائر الإجراءات الاحترازية المشددة وشمولها إغلاق المدارس والجامعات والملاعب الرياضية وتجميد كافة الأنشطة الثقافية والترفيهية لكرنفال البندقية الأشهر في أوروبا ، والرحلات المدرسية التي يبلغ مردودها وحدها وفقا لتقديرات فدرالية- أكثر من 360 مليون يورو سنويا.

إن الخسائر التي كانت متوقعة بداية الأزمة اواخر يناير وبدايات فبراير 2020 لم تكن سوى قمة جبل جليد، ولا سيما أن تأثير انتشار كورونا بدأ في الظهور بشكل واضح على العديد من القطاعات الإنتاجية في انحاء اوروبا ، وخاصة قطاع السياحة الذي يُشكل نسبة كبيرا من قيمة الناتج المحلي الإجمالي في مختلف دول القارة العجوز سنويا.

فقد تجاوز حجم مبيعات هذا القطاع خلال في ايطاليا على سبيل المثال في عام 2019، 146 مليار يورو، ولا سيما أن هذا القطاع الإنتاجي الضخم في البلاد يشمل هياكل إقامة ومرافق سياحية يبلغ عددها حوالي 216 ألفا، في حين يبلغ عدد وكالات السياحة والسفر نحو 12 ألفا.

وتدفع صناعة الطيران أيضًا ثمنًا باهظًا للأزمة، في حين لا يُتوقع أن تعود الحركة الجوية إلى طبيعتها قبل عام 2023.

وأعلنت شركة إيرباص الأوروبية لتصنيع الطائرات عن خسارة صافية قدرها 1,9 مليار يورو في النصف الأول من العام: لقد استخدمت 12,4 مليار يورو من احتياطها النقدي خلال الأشهر الستة الأولى من عام 2020 وخفضت معدلات إنتاجها بنسبة 40 %.

واتجهت منافستها الكبرى بوينغ لزيادة التخفيض في معدلات إنتاجها وتسريح مزيد من الموظفين ووقف إنتاج طائرة "جمبو جيت» 747 الأسطورية في عام 2022. وقد خسرت في الربع الثاني ما مجموعه 2,4 مليار دولار.

كما جاءت الأرقام لدول اخرى مذهلة، إذ كشفت ألمانيا، أكبر اقتصاد في أوروبا، عن هبوط تاريخي بنسبة 10,1 % في ناتجها المحلي الإجمالي في الربع الثاني من 2020 .

في هذه الأثناء، سجل الناتج المحلي الإجمالي الأميركي خلال الفترة نفسها، انخفاضًا بنسبة 32,9 %

السياحة...افلاسات وخسائر بالمليارات

تقريبًا ما يعكس حجم فاجعة كورونا الاقتصادية . وهي اعنف ضربة يسجل فيها أكبر اقتصاد عالمي انكماشاً.

والناتج المحلي الإجمالي هو مرآة الرؤية الخلفية، إنه يبين بوضوح قعر المنحنى و الثقب الأسود للأزمة».

وقد إضطرت شركات النفط لخفض قيمة أصولها مع الانهيار المتواصل لأسعار النفط الخام والانخفاض التاريخي في الطلب، مع خسائر فادحة بلغت 8,4 مليار دولار لشركة توتال و18,1 مليار دولار لشركة شل الانكليزية الهولندية خلال اشهر الأزمة لا سيما اشهر الربع الثاني من 2020 .

وفي القطاع الصناعي، كشفت الشركات الكبيرة أيضًا عن حصيلة كئيبة إذ سجلت شركة صناعة الصلب "أرسيلوميتال" خسارة صافية قدرها 559 مليون دولار في الربع الثاني لعام 2020 فترة ذروة الجائحة كورونا .

واعتبرت ايطاليا الجائحة بالنسبة لها مثل فيضان جديد» في إشارة إلى كارثة فيضان أرنو عام 1966 الذي دمر المدينة. كما قال: «أناشد جميع الرعاة ومن يحبون فلورنسا: ساهموا في صندوق النهضة الخاص بنا» مثلما فعل المانحون الأجانب بعد فيضان عام 1966.

مدينة فلورنسا احد ابهى المدن السياحية الايطالية تكبدت خسائر وعجز يقارب 200 مليون يورو (220 مليون دولار) نظرا لفقدان الدخل من السياحة.

وتعرف فلورنسا، باسم مهد النهضة، هي واحدة من المدن الإيطالية الأكثر اعتمادا على السياحة، وهو قطاع أصيب بحالة شلل بسبب جائحة كورونا .

انهيار صناعة السيارات

تضرر العالم بأسره جراء أزمة فيروس كورونا بوتيرة

غير مسبوقة ومن بين القطاعات الاستراتيجية التي انهارت هي قطاع السيارات فقد تصدر مشهد القطاعات الأسواء تأثرا ومن أشد قطاعات الاقتصاد تضررًا من تفشي الفيروس، بسبب إجراءات الإغلاق التي توالت منذ بدء الأزمة وتراجع الطلب على السيارات، وأجبار الشركات على إغلاق مصانع ومعارض السيارات في مختلف أنحاء أوروبا.

ولتلمس عمق الأزمة يمكن ملاحظة التدرج في نسب تأثر القطاع خلال ثلاثة اشهر من مارس وحتى مايو 2020 وهي أشهر ذروة الجائحة فقد تعرض تسجيل السيارات الجديدة للانخفاض بنسبة 55.1 % في مارس 2020 في الاتحاد الأوروبي، ثم بنسبة 78.3 % في أبريل في ذروة تدابير الاحتواء، وتراجعت المبيعات في جميع أسواق الاتحاد الأوروبي، وأعلنت كرواتيا والبرتغال وإسبانيا عن أكبر انخفاضات بنسب 26.2 بالمئة و47.7 بالمئة و72.7 بالمئة على التوالي.

كما تراجعت عمليات التسليم من مجموعة رينو بنسبة 52.5 % ولدى «بي أس أ» (بيجو وسيتروين وأوبل) بنسبة 56.4 %، وفق جمعية المصنّعين الأوروبيين للسيارات.

واستمرت الأزمة تسيطر على مبيعات السيارات الأوربية الجديدة وواصلت تسجيل انخفاضًا كبيرًا في ظل تفشي أزمة فيروس كورونا واستمرت الأرقام الصادمة حيث انخفضت تسجيلات السيارات الجديدة في ذروة ازمة كورونا خلال مايو2020، بما نسبة 56.8 % .

وجرفت خسائر القطاع العملاق في الاقتصاد الأوروبي الاف الوظائف واجبرت عمالقة السيارات على التحوط واتخذت شركة «جاغوار ولاندروفر» قرارات قاسية ، بإلغاء 1100 وظيفة في المملكة المتحدة وتسجيل خسارة ما قبل الضرائب بقيمة 500 مليون جنيه استرليني في الربع الأول من السنة، واتجهت رينو الى نفس الخيار واضعة 15 ألف وظيفة حول العالم بينها 4600 في فرنسا على طريق الالغاء .

ورسمت مراكز أبحاث السيارات مشهدا قاتما عن استمرار انخفاض إنتاج السيارات في ألمانيا بنسبة 26 % خلال 2020إلى 3.4 ملايين وحدة، وهو الأدنى خلال 44 عاماً، ما يؤدي إلى فقدان 100 ألف وظيفة.

وبالارقام سجلت شركة رينو الفرنسية في النصف الأول من 2020 أكبر خسارة صافية في تاريخها بلغت 7,3 مليار يورو، متأثرة بشريكتها اليابانية نيسان وأعلنت شطب 15 ألف وظيفة، ومنيت شركة فولكس فاغن الألمانية العملاقة عن خسارة قبل الضرائب بلغت 1ٍ4 مليار يورو في النصف الأول 2020 .

الجسد هرم للقارة العجوز

بدت القارة العجوز كجسدٌ هرم أنهكته العدوى. هكذا بدت أوروبا، وهي تُنازع في صراعها مع فيروس كورونا. فعلى الرغم من الخلافات البينية التي كشفها الوباء داخل الاتحاد الأوروبي، إلا أنها بدت كتلةً متشابهة، من باريس إلى برلين وروما وفيينا وبروكسل. فكلّ عواصمها كأنها شارعٌ في عاصمةٍ واحدة، خاليةٍ من كلّ شيء، ما عدا القلق من المستقبل الذي بات يحسب بالأسابيع والأشهر، لا بالسنين. مع كل أزمةٍ تعصف في أوروبا، هناك من يقول إن الاتحاد الأوروبي اعتاد الوضع، لا بل هو يعيش أزمته منذ عشر سنوات على الأقل، لكن جائحة كورونا لا تشبه في الواقع الأزمة اليونانية في عام 2010، ولا أزمة اللاجئين والمهاجرين في عام 2015، ولا حتى الخروج البريطاني من الاتحاد بريكست في أزمة لاتشبه إلا نفسها.

انهيار صناعة السيارات

فعلى غفلةٍ من احتقار اليمين المتطرف للعدل والإنسانية ، عبَر الفيروس فضاء شنغن من دون أن يطلب تأشيرة.

ووسط هذه الجائحة المميتة، شهد "إعادة تشكيل سيئة للصراع" بين شمال القارة وجنوبها فترغب تسع دول ، بما في ذلك فرنسا، في تقاسم عبء الديون المقبلة، التي ستكون هائلة، لإعادة تنشيط الاقتصاد من خلال ما بات يسمى "كورونا بوند"، وهي قروض أوروبية لمكافحة ويلات الفيروس، لكن ألمانيا وهولندا، وإلى جانبهما النمسا وفنلندا، مترددة في الدفع للدول التي تعتبر أنها خاضعة لإدارات سيئة.

الأمر دفع رئيس المفوضية الأوروبية السابق، أحد الآباء المؤسسين للاتحاد الأوروبي، جاك ديلور، وهو في الـ94 من عمره، إلى إطلاق تعليق نادر، حذّر خلاله من الانقسام المميت الذي يشهده الاتحاد الأوروبي حالياً. وقال ديلور: "إن المناخ الذي يسود بين رؤساء الدول والحكومات في ضعف التضامن الأوروبي يشكل خطراً قاتلاً على الاتحاد الأوروبي".

لكن وسط الحطام والركام ، راهن البعض على خروج القارة أقوى بعد الوباء لاسيما بعد استعادة السيادة الصحية، وإعادة توجيه السياسات العامة نحو صحة جيدة... والانتقال إلى مجتمع أكثر اعتدالاً، وأكثر احتراماً للناس وللحياة .

وتبني اجـراءات التحول الجذري للبيئة والطاقة على المستوى الأوروبي والسماح بتوسيع الاقتصاد الاجتماعي والتضامن. كشروط اساسية للعودةاكثرقوة او تكون كل هذه السياسات لا معنى لها إلا إذا كانت تقودها قوة عامة وطنية وأوروبية قوية، مدعومة بمؤسسات ديمقراطية قائمة على الذكاء الجماعي، وسيادة القانون وفصل السلطات، وإلا فإن الانجراف الاستبدادي الذي نلاحظه في جميع أنحاء أوروبا سيكون البديل".

الهروب الكبير للاستثمارات

خلُص مسح مالي علمي دقيق لمجموعة إرنست آند يونغ للخدمات المهنية خلال ذروة ازمة الفيروس كورونا إلى أن ما يزيد عن ثلث مشروعات الاستثمار الأجنبي

المباشر في أوروبا التي تم الإعلان عنها في 2019 تأجلت أو ألغيت بالكامل، وبواقع 65 في المائة من أصل 6412 مشروعا تجري بالفعل أو مستمرة «لكن بطاقة وعمالة أقل». وكشف المسح الذي يركز على الجاذبية الاستثمارية لأوروبا إلى أن 25 في المائة تأجل، بينما ألغيت عشرة في المائة من تلك المشاريع. كما أظهر المسح أن فرنسا تفوقت على بريطانيا وألمانيا كأبرز وجهة للاستثمارات الدولية في أوروبا للمرة الأولى. وسجلت فرنسا 1197 مشروع استثمار أجنبي العام الماضي، بارتفاع 17 في المائة مقارنة مع 2018 متفوقة على بريطانيا التي سجلت 1109 مشاريع بارتفاع خمسة في المائة، وألمانيا التي سجلت 971 دون تغيير عن العام السابق. ومن المتوقع أن يقوم ثلثا قادة الشركات الذين شملهم مسح إرنست آند يونغ في نهاية أبريل 2020 بتعديل خططهم للاستثمار في فرنسا هذا العام، ومن المتوقع أن يؤجل 15 في المائة منهم الخطط إلى 2021. ولا يتوقع أي منهم إلغاء مشاريع أو زيادتها.

ومنذ تفشي فيروس كورونا أعادت الحكومة الفرنسية التركيز على احتواء التداعيات الاقتصادية وتهدف إلى تعزيز التعافي عبر دفع الشركات الفرنسية لإعادة نقل أنشطة الإنتاج إلى فرنسا.

ولعل من اكبر الأخطاء التي اكتشفتها غالبية الدول لاحقا ان اجراءات العزل والإغلاق كان مبالغا فيها وهي التي خنقت الاقتصاد ودفعت في اتجاه هجرة رؤس الأموال الأجنبية وتأثر الاستثمارات المباشرة ويؤكد تلك النظرية عودة ارتفاع المستويات الاقتصادية بمنطقة اليورو حيث انتعشت بأقل من المتوقع بعد ان بدأت الحكومات في تخفيف إجراءات العزل العام الهادفة للحد من تفشي فيروس كورونا .

وزاد من التأكيد على دقة النظرية العزل والاغلاق خنق الاقتصاد نتيجة المسح الشهري للمفوضية الأوروبية بتسجيل ورصد تحسن ملموس للاقتصاد في دول منطقة اليورو البالغ عددها 19 دولة بتحسن نسبته 67.5 نقطة في مايو 2020 الذي بدأ يشهد تخفيف القيود من أدنى مستوى على الإطلاق عند 64.9 في أبريل 2020 الذي يمثل ذروة الاغلاق والعزل.

البؤرة الملتهبة تزداد اشتعالاً

فجأة تحولت أوروبا بؤرة مركزية لفايروس كورونا المستجد، وبدأت عدة بلدان تتسارع فيها وتيرة عدد الإصابات كانتشار النار في الهشيم، لا سيما إيطاليا وإسبانيا، بالإضافة إلى ألمانيا وبريطانيا، ما دفع منظمة الصحة العالمية الى الاعلان رسميا بأن القارة العجوز تحولت الى بؤرة تفشي وباء فيروس كورونا، ووصفت التطور الدراماتيكي بأنه «منعطف مأساوي» .

وزاد من الأمر تعقيدا وسوداوية ان منظمة الصحة العالمية حذرت أنه في ذروة انتشار الفيروس في اوروبا انه من «المستحيل» معرفة متى يبلغ إنتشار الفيروس ذروته على المستوى العالمي ما رسم صورة قاتمة ومصير شبه مجهول.

وتعكس الإجراءات الصارمة حجم النكسة الصحية على الوضع العام فقد سارعت فرنسا، بإغلاق دور الحضانة وكافة المؤسسات التعليمية، بما فيها الجامعات، ستغلق وحتى إشعار آخر بغرض مكافحة انتشار فيروس كورونا المستجد وتم الطلب من الأشخاص الذين تخطوا السبعين عاما البقاء في منازلهم، تحت وطأة "أسوأ أزمة صحية تشهدها فرنسا منذ قرن"، وتم منع التجمعات لأكثر من 100 شخص، وإغلاق متحف اللوفر وقصر فرساي وبرج إيفل حتى إشعار آخر.

وسارعت بلجيكا بإ غلاق كل المدارس والمقاهي والمطاعم كما تم الغاء كافة التجمعات بغض النظر عن حجمها وطبيعتها ، وذلك في محاولة لمكافحة الإنتشار.

وفي الاتجاه نفسه سارعت البرتغال نحو إغلاق المدارس في كافة أنحاء البلاد وقررت حكومتها وقف منظومة التعليم في البلاد، في مسعى للحد من انتشار فيروس كورونا المستجد وهذا الإجراء الذي يشمل ما يزيد قليلا عن 1,6 مليون طفل ومراهق يدرسون في المدارس العامة والخاصة في البلاد ورفعت من حال الطوارئ التي تشمل تعبئة الدفاع المدني وقوات الأمن وتطبيق حزمة إجراءات استثنائية .

وهرولت إسبانيا الى اعلان حالة التأهب في كل أنحاء البلاد، للحد بشكل أفضل من تفشي الفيروس، لخمسة عشر يوما، واتخذت الحكومة سلسلة إجراءات استثنائية بهدف تعبئة كافة موارد الدولة من أجل حماية أفضل لجميع المواطنين.

واندفعت المانيا نحو إلغاء "الفعاليات غير الضرورية" التي يقل عدد المشاركين فيها عن ألف شخص وتم إغلاق دور الحضانة والمدارس موقتا واعلنت أكبر خطة مساعدة للشركات في تاريخها منذ مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، تشمل قروضا «بلا حدود» لا تقل قيمتها عن 550 مليار يورو، وذلك من أجل التصدي للآثار الاقتصادية للفيروس. مصحوبا باستعدادات جادة بعدم وجود حد أقصى ما يعكس حجم الكارثة .

النمسا سارعت هي الأخرى الى تعلق الرحلات الجوية من وإلى فرنسا وإسبانيا وسويسرا وأعلنت النمسا حزمة إجراءات للحد من انتشار الوباء، بينها غلق المحلات التجارية غير الأساسية، تعليق الرحلات الجوية مع فرنسا وإسبانيا وسويسرا .

ولم تكن الاجراءات اقل حدة في شرق اوروبا فقد سارعت سلوفاكيا و التشيك بإغلاق الحدود وأغلقت لاتفيا وليتوانيا المدارس وحظرتا التجمعات الجماهيرية وأغلقت سلوفينيا حدودها في وجه الأجانب (باستثناء البولنديين) وأعلنت أوكرانيا إغلاق حدودها ايضا .

وفي اسبانيا حولت كورونا مدريد الى مدينة أشباح بمتاجرها المغلقة وشوارعها وساحاتها المهجورة ، كغيرها من المدن الأوروبية، في إطار التدابير المتخذة للحد من التفشي السريع لوباء كورونا المستجد وباتت إسبانيا ثاني أكثر بلدان أوروبا تضررا بالفيروس بعد إيطاليا.

في عين العاصفة الاقتصادية

شهدت القوى الاقتصادية العظمى في القارة الاوروبية وهما الاقتصادان الألماني والفرنسي حالة من الركود التاريخي وهما الملقبان بقاطرة الاقتصاد للقارة العجوز قياسا الى حجم الانتاج والتصنيع والقوة الراسمالية للدولتين وباتت كل انواع المخاطر من البطالة – وضعف الادخار – الاغلاق القسري ، ضعف الانتاج – وتردي الأوضاع الصحية تخيم على اقصاد المانيا وفرنسا وترقب الجميع تباعاتها القاسية حيث اخذت الأزمة تمحو في بضعة أشهر فقط النمو المحقق خلال سنوات عديدة،مع نظرة تشاؤمية سلبية مستقبلية بشأن النمو الذي شهد تراجعات واضطرابات حادة وتقلص بنحو 10 % في الأشهر الثلاثة الأولى للازمة اي منذ شهر مارس وحتى يونيو2020 ، وفقاً لأكبر معاهد الأبحاث الاقتصادية في البلاد، وهو أكبر انخفاض منذ بداية الحسابات الفصلية في عام 1970 وضعف حجم أكبر انخفاض في الأزمة المالية لعام 2008 .

وفي موازاة ذلك كان على الشاطئ الأخر النزيف الاقتصادي مستمر في الاقتصاد الفرنسي وانطلقت صافرات التحذير والانذار من البيوت الاقتصادية فحذر بنك فرنسا من أن إغلاق مساحات شاسعة من النشاط الاقتصادي لاحتواء انتشار الوباء يخفض 1.5 % من النمو الفرنسي لكل أسبوعين من استمراره .

وانتشرت التوقعات الأكثر سلبية في التاريخ الحديث من البنوك المركزية فتوقع البنك المركزي الفرنسي أن ينخفض الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 6 % في الأشهر الثلاثة الأولى للازمة الصحية بانعكاسات سلبية على الناتج الاقتصادي الفرنسي الذي سجل أعلى معدل تباطؤ وتراجع منذ الحرب العالمية الثانية.

ولم يكن التباطؤ الاقتصادي مستغربا ازاء انخفاض نشاط الأعمال الفرنسي بنحو الثلث، ومن المقرر أن يكون الانخفاض في الاقتصاد الفرنسي على نطاق مماثل للربع الثاني من عام 1968، عندما انخفض الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 5.3 % بسبب حركة الاحتجاج الطلابية.

وتفاقمت اثار الأزمة الاقتصادية بالدرجة الأولى بسبب عمليات الإغلاق للتعامل مع فيروس كورونا والتي ادت بالتبعية إلى تجميد عمل العديد من الشركات وأجبرت معظم الناس على البقاء في منازلهم، ما أدى إلى تراجع الاقتصادات الكبرى في أوروبا بصورة كبيرة. وأطلقت الحكومات في برلين وباريس وعواصم أخرى برامج ضخمة لتقديم مئات المليارات من اليورو لدعم الشركات والعمال الذين تضررت دخولهم بسبب التباطؤ.

التباعد بين البشر والجماد

لم تقتصر المعاناة الناجمة عن الجائحة الصحية على الصحة العامة للإنسان في شتى بقاع الكرة الأرضية ، بل غطت كل كائن على وجه البسيطة و لم تستثني احداً وطالت حتى الجماد ، الذي اشتكى واستمع انينة وشكواه من فقدانه لمسة البشر الذي هجر وتجنب كل شيئ خوفا وتجنبا من التقاط المرض المدمر الذي وجد اسطح الجماد مكانا للعيش عليها ولو لفترة زمنية منتظرا ومترقبا فريسة بشرية ينتقل اليها ليتكاثر ، فكان التباعد الإجباري غير قاصر على البشر بل حتمت قسوة الجائحة ان يكون التباعد حتى بين البشر والجماد ، وتعكس تلك الشمولية والإستثنائية لجائحة كورونا تفرد الأزمة والجائحة من جهة اثارها وتبعاتها ومنحتها تلك الشراسة خصوصية ستبقى ميراثا ثقيلا عبر التاريخ المعاصر.

واستنفر الفيروس الصغير غير المرئي جيوش العالم واحدث اضطرابات غير مسبوقة في خطتها وتمركزاتها واثار القلق في صفوفها فقد قلصت الجيوش في مختلف أنحاء أوروبا عملياتها وفرضت لوائح أكثر صرامة على أفرادها في محاولة لمنع إنتشار الفيروس بينهم إذ يعيشون ويعملون متجاورين مما يجعلهم أكثر عرضة للإصابة.

وهدد إنتشاره قطاع اخر يمثل عمق استراتيجي للدول فكان من المهم منع انتشار الفيروس في الجيوش سواء لاعتبارات أمن أوطانها أو لأن الوحدات الخاصة في القوات البرية والبحرية والجوية استدعيت لمساعدة الحكومات في التصدي للفيروس في كثير من الدول.

وعلى هذا الصعيد نشرت ألمانيا 15 ألف جندي لمساعدة السلطات المحلية في التغلب على الأزمة

بينما استدعت بولندا آلاف الجنود للقيام بدوريات في الشوارع التي يسري عليها الإغلاق وتعقيم المستشفيات وتعزيز حرس الحدود بحسب وزارة الدفاع البولندية. وأبرزت التطورات على متن حاملة الطائرات الأمريكية تيودور روزفلت خطر انتشار المرض بسرعة بين الجنود.

ورست حاملة الطائرات التي تعمل بالطاقة النووية والتي يعمل عليها 5000 فرد في جوام ، وهي أرض أمريكية، لفحص جميع من على متنها.

وفي فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وهي من بين أكثر الدول تضررا من الجائحة تم تقليص العمليات العسكرية أو تعليقها في بعض الأحيان.

وباشر الجيش الفرنسي عملية إنزال غير مسبوقة لـ1900 عنصر من البحرية سيتم وضعهم في الحجر الصحي، عقب عودة حاملة الطائرات النووية شارل ديغول ورسوها في مدينة طولون بسبب اكتشاف حالات إصابة بكوفيد- 19 على متنها.

وهكذا باتت الحياة رهينة لتوافر القاح في طريق ما زال طويلا للوصول الى نهايته حيث ان النفق شديد الظلمة بسبب التحذيرات العنيفة من الخوف أن يستدعي الكثير من التفاؤل التراخي او الوقوع تحت اي نوع من "الأوهام " ... لأن العالم ما زل بعيدا عن المخرج

مشهد عالمي جديد

استنفرت طواحين الابحاث والدراسات حول العالم في جميع البيوت الاستشارية الاقتصادية والبنوك الرائدة عالميا واستنفرت روادها لاستكشاف واستشراف المستقبل الوالعالم الجديد تحت وطأة كورونا وبرز واقع جديد وفق الدراسات البحثية الصادرة عن بنك الاستثمار العالمي بنك أوف أميركا ميريل لينش ، الذي خلص الى مشهد جديد سيفرض نفسه اجباريا حيث تنبأ ان الشركات الأوروبية تحديدا والأميركية بالتوازي قد يجدان انفسهما مضطرين لدفع تكاليف تبلغ نحو تريليون دولار خلال السنوات الخمس المقبلة، إذا ما قررت نقلت عملياتها التصنيعية خارج بر الصين الرئيسي.

ولم تكن الجائحة فقط الدافع الأوحد لإعادة ترتيب العمليات التصنيعية فقد تصاعدت توجهات الشركات الأميركية على وجه التحديد لنقل عملياتها بعيداً عن الصين في خضم حرب تجارية ضروس بين أكبر اقتصادين بالعالم ومعركة رسوم متبادلة على سلع تلك الشركات ألقت بالفعل بظلالها على الأداء المالي لها ومثلت ضغطا وهاجسا اضافيا.

لكن الثابت يقينا ان ازمة الفيروس اعاد صياغة الاقتصاد العالمي وغير التوجهات فوفق الدراسات التي لم تتوقف واظهرت دراسة لبنك أوف أميركا ميريل لينش، أن الجائحة حفزت بالفعل من توجه الشركات الأميركية نحو نقل عملياتها بعيداً عن الصين في تغيير لسياسة استمرت لعقود حيث كانت تلك الشركات تتوجه إلى الصين بسبب وفرة العمالة الرخيصة وتراجع تكاليف الإنتاج.

وتوصلت الدراسة الى خلاصة مفادها أنه حتى قبل الجائحة كان هناك توجه من الشركات في أوروبا وأميركا نحو توطين عملياتها في خضم الحرب التجارية والضرر الذي لحق بتلك الشركات بفعل تصاعد حدة التوتر التجاري بين بكين وواشنطن بالإضافة إلى حزمة من العوامل الأخرى من بينها اعتبارات الأمن القومي والتغير المناخي. لذلك الاعتبارات تولدت الدوافع

لدى نحو 75 % من الشركات لوضع خطط جديدة لتنويع اعتمادها على السوق الصيني في عملياتها التصنيعية التي بالكاد توقفت في الوقت الذي أغلقت فيه الصين اقتصادها لوقف تفشي الفيروس ، وابدى ما يقارب نحو 67 % من الشركات والمستثمرين المصنعين عالميا أن توجه الشركات نحو توطين عملياتها والخروج بعيداً عن الصين سيكون السمة المميزة لمشهد الاقتصاد العالمي الجديد في زمن ما بعد الجائحة .

سباق بين «التعافي الأوروبي» واللقاحات

خبراء في قطاع المال والأعمال يجمعون على ان «التعافي الاقتصادي» في بلدان الاتحاد الأوروبي يحتاج إلى سنوات نتيجة الاغلاقات المتكررة وتوقف دوران قطاعات إنتاجية عن العمل.

أحدث الدراسات تظهر أن أوروبا ما تزال في قبضة الجائحة، إذ أدى ظهور طفرات جديدة إلى إجبار العديد من الدول الأعضاء على إعادة تطبيق تدابير الاحتواء أو تشديدها.

وما لم يتم مجاراة وتيرة التطعيمات الواقية في كوفيد – 19 فإن الاقتصاد الاوروبي سيتعرض لضربة محتملة في العام 2021 تكلفة 108 مليار دولار وفق دراسة لمجموعة آليافز للتأمين وأوبلرهيرمس» وخسارة 14 مليار دولار يومياً من الناتج الاجمالي.

وإذا لم يتمكن من تحقيق النجاح في زيادة نطاق عمليات التطعيم سيضطر إلى الابقاء على اجراءات الاغلاق، وتقدر التكلفة المالية لتأخر إعادة فتح الاقتصاد لمدة تتراوح بين شهر وشهرين بين 50 و 100 مليار يورو.

ولغاية الاسبوع الأول من فبراير 2011 ثم توفير 2.9 جرعة لكل 100 شخص وهو معدل يقل بشدة عن المعدل في بريطانيا الذي يبلغ 14.7 جرعة لكل 100 شخص وفي الولايات المتحدة يبلغ 100 جرعة لكل 100 شخص.

لكن الاتحاد الأوروبي يعتزم تطعيم 75 % من السكان بحلول صيف 2021.

أسوأ انخضاض في التاريخ الاجمالي سجله في الربع الثاني من العام 2020 بعدما ضرب الوباء معدلات النمو، إذ انكمش الاقتصاد بنسبة 9 , 11 %.

تجاه هذا الواقع المرير، تبدو «خطة الانعاش» موازية لحجم الأزمة بعد أن وافق اعضاء البرلمان الأوروبي على «خطة المرونة والتعافي» ما يمهد الطريق للدول الأعضاء إلى حوالي 850 مليار دولار بصورة تروض ومنح للتغلب على آثار الأزمة الاقتصادية.

بريطانيا فازت بالتطعيم

إقتربت بريطانيا في تحقيق هدفها المتمثل بتطعيم 15 مليون من الفئات الأكثر عرضة للخطر في منتصف فبراير 2021 بعد أن تم تحصين أكثر من 13 , 5 مليون شخص منذ أن انطلق أكبر برنامج للتطعيم في تاريخ المملكة المتحدة مطلع ديسمبر 2020.

رئيس الوزراء بوريس جونسون تعهد بتطعيم جميع المدرجين ضمن الفئات الأربع ذات الاولوية والتي تشمل من تتجاوز أعمارهم الـ 70 عاماً وبالأخص المقيمين في دور الرعاية وموظفين حكوميين.

ونتيجة الإغلاق الذي التزمت به بريطانيا تراجعت إعداد الاصابات والوفيات وبهذا سارت الحكومة بنهج تدريجي وعلى مراحل بإتجاه تخفيض القيود بشكل مستدام.

عملياً دفعت الحكومة الشركات المختصة بمزيد من إنتاج لقاحات جديدة، كما فعلت «شركة نوفافاكس» والتي طورته وأظهر فعاليته بنسبة 89,3 في المئة، بعد أن كانت الحكومة ضمنت توفير 60 مليون جرعة من هذا اللقاح الجديد وتسلمه في النصف الثاني من عام 2021 وطلبت 100 مليون جرعة من لقاح أكسفورد – استرازينيكا و 40 مليون جرعة من لقاح «فايزر – بيونتيك» و 17 مليون جرعة من لقاح «موديرنا».

الخطة البريطانية تهدف إلى حصول كل فرد في المجموعات الأربع ذات الأولوية، حتى 15 مليون شخص على جرعة أولى بحلول منتصف فبراير 2021.

المتطوعون ضحايا الفيروس

وسط الحذر الذي يعيشه البشر في كل انحاء المعمورة والتشدد في الإحترازات الصحية وقرارات الحظر التي تفرضها الدول لتجنب انتشار العدوى بفيروس كورونا كوفيد – 19 ، بادرت بريطانيا بإصابة اصحاء عمدا ، وهذا الأمر صنف من بين ابرز الغرائب للجائحة وتداعياتها .

لكن هذا التوجه يأتي في اطار استكمال ابحاث علمية والتفوق في مجابهة الفيروس لتكون بذلك وزارة الصحة البريطانية أول دولة تصيب متطوعين أصحاء بفيروس كورونا في إطار ما يسمى بدراسة التحدي البشري للفيروس.

وأظهرت الاختبارات الأولى في ألدراسة والتي تشمل متطوعين لم يتلقوا لقاح «كوفيد– 19» بعد .

إن برنامج التحدي البشري سيعمل على تحسين وتسريع تطوير اللقاحات والعلاجات ضد كوفيد – 19، وبدأت المجموعة الأولى من المتطوعين الآن دراسة خصائص .

«هؤلاء البالغين الذين تم اختيارهم بعناية سيتعرضون للفيروس في بيئة آمنة وخاضعة للسيطرة مع إتاحة مسعفين وعلماء لمناظرتهم والاعتناء بهم على مدار الساعة .

ومن أجل ألدراسة اختار العلماء ما يصل إلى 90 متطوعا من الشباب يتمتعون بصحة جيدة ومن غير المرجح أن يصابوا بحالة شديدة من كوفيد 19، وهو المرض الرئوي الناجم عن فيروس كورونا. ويتم تعريضهم في البداية لأقل جرعة من الفيروس اللازمة للعدوى.

والهدف من الدراسة هو البحث في كيفية تفاعل الجهاز المناعي مع الفيروس وكيفية تفاعل جزيئات الفيروس مع البيئة وهي أول تجربة تحد بشري تجرى في جميع أنحاء العالم بخصوص فيروس كورونا المستجد.

والوزير أصيب بعد اللقاح

تعرض وزير الصحة البريطاني السابق جيريمي هنت لإصابة بفيروس كورونا بعد ايام قليلة من تلقيه اللقاح قرر عزل نفسه صحياً إثر إصابته بفيروس كوفيد– 19، بعد بضعة أيام من خضوعه للتطعيم ! الوزير السابق كان يتهيأ لترؤس اجتماع للجنة الصحة التابعة لمجلس العموم البريطاني لكنه تلقى اتصالاً من الخدمة الصحية الوطنية يفيده بأن نتيجة فحص أجراه أثبتت إصابته.

وقد حصل على الجرعة الأولى من اللقاح في 2 مارس 2021 لكن الأطباء ينبهون دوما الى ان الجرعة قد تستغرق أسابيع قبل أن تحدث المناعة المنشودة .

الفصل الخامس عشر

معاً نصنع عالماً جديداً... إن إتحدَّنا

- ظهور العدو الخفي
- حدود التفاؤل
- تعمق اللامساواة

هل حان الوقت لتعيد الإنسانية الاعتبار لمقولة الحَكَّاء اليوناني القديم آيسوب «متحدين نقف صامدين؛ ومتفرقين نتهاوى»؟ تلك المقولة قلبها الرئيس الأميركي الثالث، كاتب إعلان الاستقلال الأميركي توماس جيفرسون رأسا على عقب، ليجعلها «متحدين نتهاوى، متفرقين نقف صامدين». من تلك اللحظة صار التشرذم، بدعوى التعددية ديانة العالم المعاصر. لكن الخطر الداهم المتمثل بجائحة كورونا يحتم أن نعيد النظر في الصياغة الأميركية للمقولة اليونانية. وغني عن القول أننا نعيش في عالم يسير- حتى الآن – وفق ماتراه وما تؤمن به الولايات المتحدة.

تقول حكاية آيسوب ظل الأسد يحوس خلال حقل تعيش فيه ثيران أربعة. حاول أكثر من مرة أن يهاجم الثيران؛ لكنهم وقفوا بحيث صار رأس كل واحد منهم في ذيل أخيه. ولأن الأسد يهجم على الثور من الخلف فقد كان قرنا الثور الواقف وراء ذلك المعرض للهجوم يصد الأسد فيتراجع. لكنهم اختلفوا فيما بينهم ومضى كل واحد منهم ليرعى وحده في مرعاه المختار، في ركن من أركان الحقل. عندئذ هاجمهم الأسد، واحدا بعد الآخر، وسرعان ما قُضِي على الأربعة». ويلخص آيسوب الدرس المستفاد من قصته بقوله»متحدين نقف صامدين؛ ومتفرقين نتهاوى». ويعرف الناطقون بالعربية هذه القصة في صيغة أخرى تتلخص حكمتها في عبارة «أكلت يوم أكل الثور الأبيض». لكن الحكمة في الحكايتين واحدة: وهي في الاتحاد قوة.

لكن دعوة الرئيس الأميركي الثالث توماس جيفرسون التي شاركه الإيمان بها الرئيس الرابع جيمس ماديسون تحولت من دعوة للتنوع العقدي وللفصل بين الكنيسة وبين الدولة، تطبيقا لمبادئ التنوير، إلى فردانية متوحشة وإلى صراع على الثروات والمكانات بين الفرد والفرد وبين الدولة والدولة. وأخيرا، مع ظهور رجال من أمثال برنارد لويس وصمويل هنتنغتون (ومن ورائهما روكفلر) تحولت إلى صراع بين حضارة واحدة هي الحضارة المسيحية اليهودية وبين الحضارات الثلاث الكبرى التي تتقاسم معها كوكب الأرض، وهي الحضارات المسلمة والبوذية والهندوسية. لكن جائحة كورونا بدأت تهدم هذا كله، لتعيدنا إلى حيث تركنا الحكيم اليوناني القديم آيسوب الذي كان هو أيضا صاحب حكاية الأب الذي بَيَّن لأولاده كيف أنه من السهل على المرء أن يكسر عصا واحدة، لكن من الصعب أن يكسر حزمة من العصي، موضحا لهم بذلك الحكمة ذاتها: أن الاتحاد قوة. فهل تستعيد هذه الحكمة قوتها بعد أن يهدم فيروسُ كورونا العالمَ القديمَ بقيمه وعلاقاته؟

أهم ما جاء في إعلان زعماء العالم في الذكرى الخامسة والسبعين لقيام منظمة الأمم المتحدة هو تكرار الحديث عن «إعادة البناء وعلى نحو أفضل من أجل عالم يتسم بقدر أكبر من المساواة، عالم أكثر قوة، وأكثر استدامة». هذا توجه نحو بناء عالم جديد؛ نحو صياغة جديدة للعالم القديم. لكن هذا العالم الجديد لن يتشكل إلا بانتصارنا على العدو الجديد / القديم وهو الوباء. لقد عرف العالم الوباء منذ القدم، لكن وباء كورونا المستجد هو عدو جديد.

نحن صنعنا بانتصارنا على الانفلونزا الاسبانية عالما جديدا، انتقلت فيه القيادة من المملكة المتحدة إلى الولايات المتحدة على مرحلتين: جاءت الأولى بعد الحرب العالمية الأولى وجاءت الثانية بعد الحرب الثانية، وكانت العتبة نحو التغيير في الحالتين حربا مدمرة هلك فيها ملايين البشر. لم يقتصر التحول في الحربين على تغيير القيادة، ولا على حصر القيادة في الأنكلو-ساكسون البروتستانتيين الأطلسيين الناطقين

بالانكليزية. التحول الذي أحدثته تلك الحرب كان أوسع نطاقا، فقد خلفت وراءها عالما جديدا تماما.

قضت تلك الحرب على الامبراطوريات الكلاسيكية العظمى الثلاث: العثمانية والهابسبورغية والروسية، ونقلت مركز القوة إلى غرب أوروبا وامتداده الأميركي عبر الباسيفيك. وقامت على أنقاض الامبراطوريات الثلاث دول وطنية. وبعد الحرب الأولى ظهرت عصبة الأمم. وكان هدفها الأول هو حل المشكلات بين الدول قبل أن تنشب بينها حروب. لكن أهم مافي عصبة الأمم أنها كانت «بروفة» لمنظمة الأمم المتحدة، لتحويل الفوضى العالمية إلى كيان أكثر تنظيما. ولنتذكر أن العالم استخدم في هذه الحرب أسلحته التقليدية، ما يجعل هذه الحرب تندرج في فئة الجيل الأول من الحروب، وفق رؤيتنا التي تختلف عن الرؤية المعتمدة لدى مؤرخي الحروب.

وعلى رغم أن قيام الأمم المتحدة كان أهم ما جرى بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن أشياء أخرى وقعت في نهاية تلك الحرب وبعدها، رسمت ملامح عالم جديد. أبشع هذه الأشياء كان، ولاشك، استخدام الولايات المتحدة السلاح النووي مرتين ضد اليابان، عندما قصفت المدينتين اليابانيتين هيروشيما وناغاساكي في أغسطس من العام 1945. وفي أغسطس من العام 1949 امتلك الاتحاد السوفييتي أول قنبلة نووية. وهكذا استحالت الحرب بين عملاقين يتصارعان على العالم، كما تصارع الفرس والروم في مطالع القرون الوسطى، وكما تصارعت روما وقرطاجنة قبل الميلاد. ولهذا السبب ظهر شئ فريد سماه العالم الحرب الباردة، وكان خطوة واسعة نحو إنهاء الحروب الكبرى. وهذه الحرب الباردة بين عملاقين نوويين وقعت على هوامشها حروب محلية دامية خاضتها قوى تابعة لهذا المعسكر أو ذاك.

وكان هذا –وفق رؤيتنا – هو الجيل الثاني من الحروب: حروب محلية محدودة الأثر تحت سقف حدده الرعب النووي الذي كان ولايزال أبشع صور الدمار الشامل الذي تندرج تحته الأسلحة الغازية والكيماوية والبيولوجية. وقد يكون كوفيد– 19 ، من صنع طرف بشري استهدف عدوا محددا، ضمن هذا النوع الأخير من أسلحة الدمار الشامل.

ظهور العدو الخفي

تبدو هذه العبارة منطوية على معنى متناقض كيف يكون ظهورٌ لشيءٍ خفي؟ إن ظهر لايكون خفيا، وإن كان خفيا فهو لايظهر. لكن هذا هو ما حدث، فقد انشغل العالم لعدة عقود، بالحرب ضد العقيدة الشيوعية وهي عدو لم يتمثل بالاتحاد السوفييتي ككيان له وضعه القوي في مجلس الأمن، مجلس إدارة العالم الموجود في نيويورك، وله سفراؤه في معظم بلدان العالم، بل تمثل في الفكرة التي كان يفترض أن الاتحاد السوفييتي يروج لها وإن ارتبط بعلاقات وثيقة مع بعض من حاربوها.

هذا العدو تتوقف حملات البحث عنه خارج دول المنظومة السوفييتية، وعلى اتساع خريطة العالم. كانت الحرب ضد الشيوعية حربا ضد ما يمكن – في كثير من البلدان – أن يخفيه المرء في ضميره ولا ينطق به لسانه، إلا سرا ولا يعمل من أجلها إلا خفية. ولهذا كثر التفتيش، في كثير من البلدان، في العقول والضمائر. وعرفت الولايات المتحدة المكارثية، واسمها مأخوذ من اسم السناتور جوزيف مكارثي الذي شن حملة طاردت المثقفين والفنانين وموظفي الحكومة والناس العاديين الذين يشتم من أحاديثهم أو من تصرفاتهم، بأساس أو بغير أساس، الميل للشيوعية. وكان ممثل من الدرجة

الثانية أو الثالثة يدعى رونالد ريغان من عملاء الشرطة في فترة المكارثية، وساعده ذلك على أن يصبح حاكم ولاية ثم رئيسا للجمهورية. وتستعيد الولايات المتحدة منذ سبتمبر من العام 2019، في إطار التفتيش في ماضي الرئيس دونالد ترامب تفاصيل حياة المحامي الذي كان أحد من ساعدوا ماكارثي في اصطياد المتهمين بالشيوعية، وهو روي كوهن الذي يقال إنه عرف دونالد ترامب الشاب وأثر فيه تأثيرا عميقا، لدرجة أن ترامب يحن إلى أيام صداقته بهذا الرجل المثلي الذي يلقب "بالثعبان" ويردد كثيرا عبارة"أين روي كوهن صديقي؟" وهو اسم الفيلم التسجيلي"Where Is My Roy Cohn?" الذي يعرض لحياة ذلك الرجل وللمكارثية ولموته بمرض إيدز. هذا النوع من البشر كان شديد الحماس لمطاردة كل من يبدو ميالا لشئ يدعى الشيوعية، وتدمير حياته ربما من دون مبرر.

وفي مصر ورثت جمهورية يوليو، حتى العام 1959، عن النظام الملكي الحرب ضد الشيوعيين، ولم يمنع ذلك الاتحاد السوفييتي المتهم بالترويج للشيوعية من التعاون معها بتوجيه إنذار ساعد في إجلاء القوات المعتدية عن أراضيها، في حرب السويس الأولى، ثم بإمدادها بالسلاح وبمساعدتها في بناء السد العالي. وتعاون الاتحاد السوفييتي أيضا مع بلدان لا تؤمن بالعقيدة الشيوعية في العالم العربي.

استمرت الحرب ضد هذا العدو الذي كثر الحديث عنه والاستعداد لقهره منذ مارس من العام 1946 حين ألقى السياسي البريطاني ونستون تشيرشل خطابا تحدث فيه عن الستار الحديدي الذي يفصل الاتحاد السوفييتي بنظامه الشيوعي عن العالم كله، وحتى ديسمبر من العام 1991 حين طُوي العلم الأحمر ذي المنجل والمطرقة ولم ينشر بعدها في روسيا كعلم للدولة، أبدا.

ولم يعرف أحد على وجه التحديد ما هي الشيوعية وأين توجد. قال السوفييت إنهم لم يبلغوا مرحلة الشيوعية بعد لكنهم يمضون باتجاهها. واتهمهم التروتسكيون، أتباع واحد من أهم مؤسسي الاتحاد السوفييتي وهو القائد العسكري الذي انشق على جوزيف ستالين وهو ليون تروتسكي، بأنهم ضد الشيوعية والشيوعيين. وفي حين زعم التروتسكيون أنهم الشيوعيون الحقيقيون فقد اتهمهم السوفييت بأنهم عملاء الغرب. وجاء الدور على الصينيين فاتهموا السوفييت بخيانة الماركسية اللينينية واتهمهم السوفييت بأنهم باعوا أنفسهم لريتشارد نيكسون وهنري كيسنجر اللذين فتحا الباب للنهضة التي تعيشها الصين اليوم في العام 1972. لكن الأهم من ذلك أن الاتهام بالشيوعية كان تهمة يمكن توجيهها لأي كان، وبالغت الولايات المتحدة في تصوير الخطر الشيوعي حتى تحول البحث عن شيوعيين في مختلف أنحاء العالم إلى مايشبه عملية مطاردة السحرة في أوروبا القرون الوسطى. ولكن ظهر زيف الحديث عن ذلك الخطر حينما انهار الاتحاد السوفييتي من دون طلقة رصاص واحدة وبعد لقاء لم يستمر طويلا بين آخر زعيم سوفييتي وهو ميخائيل غورباتشوف وبين الرئيس الأميركي جورج بوش الأب في مالطة.

وبذلك لم يبق هناك مبرر لمطاردة عدو غير ملموس وغير محدد الملامح تسبب في تحول مهم في مفهوم العداوات بين الدول، وأحل المجابهات الفكرية، في أحوال كثيرة، محل المواجهات العسكرية بين الكبار. وكان لابد من تخليق عدو جديد يكون أضعف كيانا وأقل وضوحا. فبالنهاية كان العدو في زمن الحرب الباردة له صلة بقوى موجودة على الخريطة. ربما شكك خصوم الاتحاد السوفييتي من غلاة اليساريين في أهليته لأن يعتبر نفسه شيوعيا، لكن الاتحاد السوفييتي كان لايكف عن

القول إنه "في طريقه للشيوعية" وكان بالنهاية كيانا ماديا له رموزه المادية وأدواته العسكرية والمدنية التي يدافع بها عن نفسه. وفوق هذا كله، فقد كان شديد الخطر، ولو نشبت مواجهة معه بطريق الخطأ لكان من المحتمل أن تُنزل بالعالم دمارا غير مسبوق.

وبعد أن اختفي العدو غير المادي والقادر على إنزال الضرر بالنظام العالمي عبر خلاياه النائمة غير المحددة المكان – كما زعم كثيرون في الغرب – ظهر العدو الخفي الأقل قوة والأقل ظهورا ونؤكد أنه أقل خطرا بما لايقاس، وهو الإرهاب. وإذا كان تنظيم القاعدة هو أشهر كيان إرهابي – قبل ظهور داعش – فتنظيم القاعدة هذا ولد واكتسب قدرا من الشهرة في الحرب ضد الشيوعية، أي أن عدوا غير مادي ويمكن تصور وجودفيروساته في أي مكان(الشيوعية) كان وثيق الارتباط بميلاد عدو خفي وغير محدد المكان حل محله (الإرهاب). والأهم هو أن العدوين اللذين تتالى ظهورهما، يرتبطان بفكرة بأكثر مما يرتبطان بموقع جغرافي أو بقوة مادية. ونذكر بأن الخطر الشيوعي بالنسبة لمعظم بلدان العالم كان خطرا داخليا محتملا، يرتبط بجماعات من مواطنيها المشكوك بتبنيهم للماركسية بأكثر مما كان يرتبط ببلد بعيد مثل الاتحاد السوفييتي الذي ارتبط الكثيرون معه بعلاقات تعاون حتى وهم يعتقلون المتهمين بالشيوعية. وهكذا كانت الشيوعية كخليفتها، وهو الإرهاب، خطرا غير واضح الموقع والحجم والقوة.

ليس للجماعات الإرهابية مكان محدد تحديدا جازما. وعدد القوات المنخرطة تحت ألويتها غير محدد تحديدا جازما. ويمكن أن يُنسب لهذه الجماعات، أحيانا، أي عمل وقع في أي مكان في العالم أو أن تنسب هي لنفسها عملا لا علاقة لها به. وقد استخدمت الولايات المتحدة خطر الإرهـاب لتدشين مرحلة جديدة من نشاطاتها العسكرية والسياسية بعد أن انطوت صفحة الحرب الباردة، وبخاصة بعد الاعتداء على برجي مركز التجارة العالمي وعلى مبنى البنتاجون في الحادي عشر من سبتمبر من العام 2001. ونرى أن الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة وحليفاتها ضد أخطار إرهابية، حقيقيةً كانت أو مزعومة، في أفغانستان والعراق وفي غيرهما تمثل الجيل الثالث من الحروب.

ثم بدأ ظهور الجيل الرابع من الحروب بعد انفجار الأحداث المشار إليها باسم الربيع العربي في العام 2011. وفي هذا الجيل من الحروب لا يعرف أحد منا نحن البشر العاديين الذين لا يعلمون شيئا عن ما يدور في الغرف المغلقة للقيادات السياسية والعسكرية والأمنية العليا ولا ما يدور بين أباطرة العالم، لا يعرف أحد منا الحد الفاصل بين القوات النظامية والميليشيات المسلحة غير المحددة الهوية. فأين هو الحد الفاصل بين القوات التركية والميليشيات المسلحة المناهضة لنظام دمشق في الحرب الأهلية السورية؟ وأين هو الحد الفاصل بين قوات النظام السوري أو القوات الإيرانية وبين ميليشيا حزب الله وغيره من العناصر الأفغانية والباكستانية الشيعية المسلحة المؤيدة لنظام دمشق؟ وأين هو الحد الفاصل بين القوات الروسية وبين مرتزقة مجموعة فاغنر في الجزء الشرقي من ليبيا؟ وبين القوات التركية والميليشيات المسلحة في غرب ذلك البلد؟

لكن ظهور فيروس كوفيد- 19 يمضي بالعالم نحو جيل خامس من الحرب التي قد تقف فيها البشرية صفا واحدا بوجه عدو مشترك. وإذا كان كثيرون يصفون الحرب الدائرة اليوم ضد كوفيد- 19 بأنها الحرب العالمية الثالثة، إيكونوميك تايمز Economic Times الهندية ترى أنها تختلف عن الحربين العالميتين الأولى والثانية من حيث أنها حرب" مع عدو خفي يمكن أن يضرب في أي

مكان وفي أي وقت". كل الحروب السابقة كانت حروب جماعة بشرية ضد الأخرى، واليوم تبدو الحرب العالمية الثالثة، إن جاز أن نطلق هذا الإسم على حرب الإنسانية ضد الفيروس كوفيد- 19، حرب البشر جميعا ضد عدو مشترك.

عرضنا في ما سبق لأجيال الحروب الخمسة كما نراها، رابطين الانتقال من جيل لجيل بتطورات النظام الدولي منذ الحرب العالمية الأولى، التي نعتبرها بداية الزمن الأميركي، وإلى اليوم. فكيف يرى المفكرون الاستراتيجيون العالميون مراحل تطور الحروب؟ هم يرون أننا ننتقل من الجيل الرابع للحروب باتجاه الجيل الخامس، وإن كان أحد العسكريين الروس تحدث عن جيل سادس من الحروب وتبعه في ذلك كثيرون، لكن فهم العسكريين في الشرق والغرب لهذه التحولات هو فهم تقني مختلف عن الفهم السياسي-التاريخي الذي طرحناه. وفيما يلي عرض لما يمكن اعتباره الفهم المقبول عالميا لأجيال الحروب ، منذ طرح المفكرون الاستراتيجيون الأميركيون وليم ليند والكولونيل كيث نايتينغيل والكابتن جون شميت والكولونيل جوزيف ستون والليفتنانت كولونيل غيري ويلسون مفهوم" أجيال الحروب" في العام 1989 . وبعد الأجيال الخمسة التي استقر عليها الاستراتيجيون في العالم كله، سنعرض حرب الجيل السادس وفق الطرح الروسي الذي لقي قدرا يعتد به من القبول عالميا:

يعتبر المعنيون بمفهوم أجيال الحروب أن حروب الجيل الأول تتمثل بحروب الأمم القديمة وحروب القرون الوسطى التي يعتبر المؤرخون الغربيون أنها انتهت في بداية القرن السادس عشر. وهو تحديد دقيق لنهاية القرون الوسطى كمرحة من تاريخ العالم، لأن اكتشاف رأس الرجاء الصالح ووصول الأساطيل التجارية والحربية إلى الهند كانت البداية المبكرة وقبل الصناعية للنظام الرأسمالي العالمي الذي هو أساس الحداثة، وأن القرن السادس عشر كان نهاية التفوق العسكري للعالم المسلم وبداية صعود القوى الغربية المسيحية. وفي حروب تلك الأزمنة كان الفيصل هو العنصر البشري ونوعية المقاتلين ومستوى تدريبهم ودرجة تمرسهم بالقتال وقدرتهم على احتمال المكاره وعلى الإقدام وهذا ما يتم ملاحظته في ثقافة العسكرية العربية لازالت تركز على هذا العنصر.

وتظهر حروب الجيل الثاني بظهور التكتيكات الحديثة المبكرة، من القرن السادس عشر، وهو القرن الذي بلغت فيه الامبراطوريات المسلمة الثلاث، التي يسميها المؤرخون العسكريون الأميركيون امبراطوريات البارود Gunpowder Empires: العثمانية والصفوية والمغولية الهندية أوج القوة. وبقراءة ما كتبه الجبرتي ونقولا الترك عن المواجهة بين بونابرت والمماليك في امبابة، على مشارف القاهرة، يتبين أن سر انتصار جيش بونابرت الساحق كان تفوق التكتيكات الفرنسية على البسالة المملوكية، على رغم أن المماليك كانوا مزودين بأحدث الأسلحة النارية الخفيفة من المصانع الانكليزية، لكن التكتيكات الفرنسية كانت أرقى. وقد واصلت الجيوش الغربية تطورها مع التطوير المتواصل باتجاه الأسلحة الآلية والنيران غير المباشرة التي تصيب هدفها بناء على حساب الاتجاه وعلى التصحيح بالملاحظة، وليس على التصويب المباشر.

وينصب التركيز في حروب الجيل الثالث على تكتيكات تستند على التقانات الحديثة لتحقيق السرعة والخفة المباغتة لتجاوز خطوط العدو والتسبب بانهيار قواته من الخلف. ومثل ذلك نهاية المجابهة، أو الحرب التي تقوم على مواجهة بين قوتين متقابلتين، على

المستوى التكتيكي، ما يجعل الهدف هو المناورة الأمهر وليس الصدام وجها لوجه.

وتعود القوات المتحاربة، في حروب الجيل الرابع، إلى الأشكال غير المركزية من العمل الحربي، مجسدة بذلك توجهات ما بعد الحداثة. وفي هذه الحروب لا يظهر الخط الفاصل بين العملين العسكري والسياسي، ولابين العسكريين والمدنيين، ولم تعد الحرب عملا تنفرد بإدارته الدولة الوطنية، ما يجعل الصراع بين طرفين صراعا شاملا تخوضه أمتان بعسكرييهما ومدنييهما. وقد يكون هذا أكبر خطر يتهدد الحضارة الحديثة، لأنه يهدد بتجييش للأمم على النمط الهتلري والستاليني، ويؤسس لصراعات تترك في النفوس أثرا عميقا لا ينتهي بإعلان وقف القتال. وأن إسرائيل، منذ أن كانت مشروعا استيطانيا تحت الرعاية الأوروبية، تكاد تكون مثالا لهذا التجييش الذي يضع الجميع – مدنيين وعسكريين – على خط المواجهة وإن بدأت قطاعات متزايدة من مدنييها وعسكرييها تتململ من تجييش يبدو بلانهاية. ويقول وزير الدفاع الأميركي السابق روبرت غيتس، في ما يعد توضيحا لطبيعة الجيل الرابع من الحروب» تحولات العالم المعاصر تجعل التمييز الحاسم بين الحرب التقليدية والحرب غير النظامية أمرا غير ذي معنى في الواقع.... فامتلاك القدرة على تدمير القدرة العسكرية للطرف الآخر لايضمن لنا تحقيق أهدافنا الاستراتيجية– وهذه مسألة اتضحت في العراق، على نحو خاص».

تعتمد حروب الجيل الخامس، برأي خبراء عسكريين أميركيين بارزين، على القدرة على تدمير هدف محدد من غير أن تراه العين البشرية، رؤية مباشرة. وإن كان هذا صحيحا فهو يعني أن تقنيات حروب الجيل الخامس بدأت مع ظهور المدفعية طويلة المدى ونيران مدفعية البحرية التي استخدمت أسلحة نارية ذات خِزَن. ويمكن القول إن القنابل الألمانية الطائرة في 1– وفي2– التي تعد من الصور المبكرة للصواريخ الجوالة التي كان الألمان يمطرون بها انكلترا في الحرب العالمية الثانية ويسمونها «سلاح الاقتصاص» هي البداية الفنية لحروب الجيل الخامس. ولكن اعتبارات الدقة تحتم حصر حروب الجيل الخامس في استخدام الأسلحة المعتمدة على الليزر وعلى نظام التموضع العالمي (GPS). ويعد استخدام الطيارة بدون طيار لضرب أهداف معينة بصواريخ هيلفاير Hellfire أفضل نموذج لتقنيات حروب الجيل الخامس. ويمكن القول إن حروب الجيل الخامس بدأت في العام 2002 واستخدمت أدواتها لتدمير البنية التحتية والأهداف البشرية المعادية.

ضابط الاستخبارات الأميركي في إفريقيا شانون بيب في العام 2009 وصف حروب الجيل الخامس بأنها" عاصفة عنف تحدث تدميرا مفاجئا وشاملا ولايميز بين هدف وآخر، يحركه الإحباط بأكثر مما تحركه تصورات متجانسة بخصوص المستقبل". ويرى ضابط مشاة البحرية ستانتون كوير أن حروب الجيل الخامس تخوضها تنظيمات مثل تنظيم القاعدة(لم تكن داعش ظهرت بعد) بهدف إقامة نظم سياسية بديلة، وهو ما يسقط الفكرة القائلة إن "الدول هي كائنات قابلة للحياة في العالم الحديث". وهكذا يظهر أن حروب الجيل الخامس هي حروب تفجر الدول من الداخل وبقوة فاعلين غامضي الهوية، ما يعني أنها امتداد لحروب الإرهاب. إنها حروب تدور بين قوى تمثل ثقافات مختلفة وتشنها تشكيلات وحدت بينها الرؤية ولا تنتمي بالضرورة لتنظيم رسمي، ويمكن أن تتلاقى هذه التشكيلات عبر الحدود.

وقد ظهر مصطلح حروب الجيل السادس في أعقاب عاصفة الصحراء في العام 1991 وكان من طرحه هو الجنرال الروسي فلاديمر سليبتشنكو، مشيرا إلى تحويل

الحرب التقليدية إلى حرب معلومات وحرب تقوم على تطوير دقة نظم الضرب ما يجعل حشد القوات بالمعنى التقليدي مقدمة لكارثة، وهو ما يحتم تطوير أساليب تجعل الحرب حرب نظم ضد نظم. لكن سليبتشنكو اعتبر عاصفة الصحراء مجرد مقدمة ستتطور بعدها حروب الجيل السادس. ويعطي المعلق الباكستاني سامسن شرف حروب الجيل السادس طابعا أكثر غموضا وأكثر إثارة للرهبة، عندما يقول إنه «مع تضارب الملاحظات بخصوص كوفيد- 19 فلا تتعجب إن تبين أنه من تطورات الميكروبيولوجيا البشرية الصنع. وإن كان الأمر كذلك فهو يجعل اتفاقية الأسلحة البيولوجية غير ذات أهمية. وإن لم يظهر حل لألغاز الحريق الذي نشب على متن سفينة حربية أميركية وعلى متون سبع سفن إيرانية في موانئها، ولغز تدمير منشآت تخصيب إيرانية وتدمير قاعدة جوية تركية في ليبيا، فسوف يعني ذلك أن العالم دخل مرحلة جديدة من الحروب عن بعد مع تنوع بالغ في الوسائل». ويُذكر أن الهجوم على القوات التركية في الوطية في ليبيا (وهو ما يقصده المعلق الباكستاني) أثار تكهنات بأن الدول التي نفذته أو سهلت تنفيذه ربما دول تتعارض مصالحها معها وهذه التكهنات تشير إلى عنصر الغموض أو التشتت المميز لما يمكن تسميته بحروب الجيل السادس.

تبدو حروب الجيل الخامس، بالمعنى الذي نقصده وليس بالمعنى الذي يقصده محترفو الحرب في الشرق والغرب، أملا تتجنب به الإنسانية الغرق في محيطات الدم والدمار التي ستنشأ عن حروب الجيل السادس. وقد يكون من الممكن اعتبار نقلة كهذه تحولا من الجيل الأول للحروب إلى الجيل الثاني منها. ونعني بالجيل الأول من الحروب تلك العداوات التي جعلت من الإنسان ذئبا لأخيه الإنسان. وقد بدأت تلك الحرب عندما قتل قابيل هابيل، عندما ملأت الغيرة قلبه «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (سورة المائدة). فهل يرقى الإنسان بنفسه لحروب الجيل الثاني التي يتضافر فيها جميع البشر لقهر عوامل الدمار الطبيعية وتعزيز كل ما هو جميل ونافع في الطبيعة؟ هل يتراجع، ولو نسبيا، دور منظومات القتل والترويع من جيوش وميليشيات وعصابات مسلحة؟ وهل تظهر جيوش جديدة مهمتها هي الدفاع عن البشر، في العموم وعلى اختلاف جنسياتهم، ضد أعداء البشر، في العموم وعلى اختلاف جنسياتهم؟

هذه الجيوش موجودة وفيالقها منخرطة منذ قرون في حرب لا تهدأ، دفاعا عن الحياة والأحياء. لكنها لم تجد من يشير إليها باعتبارها جيوشا إلا بعد ظهور كوفيد- 19 وعندئذ بدأ الحديث عنها باسم «الجيوش البيضاء»، وهو الاسم الذي أطلق على هيئات الرعاية الطبية في مختلف أنحاء العالم. وقد كان تصرفا واضح الدلالة أن تأتي المساعدات الطبية الروسية والصينية إلى غرب أوروبا في مركبات عسكرية. ولا يقل أهمية عن ذلك وقوف العسكريين في أكثر من بلد لتحية الطواقم الطبية المنخرطة في الكفاح ضد فيروس كورونا، ولعل أبرز صور هذا الأمر وقوف وحدات من الجيش الصيني لتحية الأطباء بعد انتصارهم المبهر على الفيروس في مدينة ووهان الصينية وتكررت الاستعانة بوحدات الجيش النظامية مثلما تمت الاستعانة «بالجيش الأبيض» والمقصود الفرق الطبية، ولأن للقوات المسلحة أهمية قصوى في دول الشرق الأوسط العربية، كما في إيران وتركيا وإسرائيل، فهذا التحول في النظر إلى مصادر القوة قد تكون له أهميته كمؤشر على ظهور عدو جديد قد ينسي البشر العداوات المتبادلة أو قد يخفف من حدتها.

حدود التفاؤل و احتمال حرب عالمية ثالثة

التفاؤل بوقوف البشر صفا واحدا للدفاع عن الحياة ضد عدو الحياة غير المرئي هو تفاؤل يحد منه عاملان اثنان، على الأُقل:

احتمال أن يكون فيروس كورونا بداية لنوع جديد من أسلحة الدمار الشامل، بحيث تحل الفيروسات محل الأسلحة النووية أو الكيماوية.

أن الأثر الاقتصادي للجائحة قد يحتم علينا أن نتوحد في الحرب لاضد الفيروس وحده بل وضد التفاوت المتصاعد في المدخولات على مستوى العالم كله.

وفيما يتصل باحتمال أن تكون جائحة كورونا قفزة جديدة في ميدان الأسلحة البيولوجية نقلت القناة الرقمية الأميركية WHDH عن الخبير الاستراتيجي الهندي الميجور جنرال آستانا، وهو أستاذ بجامعة جواهر لال نهرو، في السادس والعشرين من مايو من العام 2020 قوله إن جائحة كوفيد- 19 برهنت على القدرات العالية للفيروسات كأسلحة دمار شامل. جاء ذلك في تقرير على موقع القناة تحت العنوان «كوفيد- 19 يضيف بعدا جديدا لحرب عالمية ثالثة غير معلنة». ويعتبر الخبير الاستراتيجي الهندي أن التنافس بين القوى العظمى ورَّط العالم، بالفعل، في «حرب عالمية ثالثة غير معلنة» ذات أبعاد وأدوات حربية مختلفة عن كل ما عرفناه من قبل. وهو يرى أن هذه الحرب العالمية الثالثة غير المعلنة مختلفة أيضا من حيث الكثافة والمسارات وقد تنتهي بنا إلى نظام دولي جديد.

تعمق اللامساواة والتفاوتات تتفاقم

وفي الخامس عشر من مارس من العام 2020 نشرت نيويورك تايمز تقريرا بعنوان «فيما يؤدي انتشار فيروس كورونا إلى تعميق اللامساواة، تزيد اللامساواة من انتشار الفيروس». وهذا العنوان يُجْمِل الخلاصة التي نرمي إليها في هذا الجزء من حديثنا عن احتمالات المستقبل، وهو أن كورونا قد تصبح جبهة النضال التوأم لجبتهي نضال أخريين، على الأقل، هما جبهة النضال ضد مواصلة العسكرة ونشر العداوات بهدف تنشيط صناعة وتجارة السلاح، وجبهة النضال ضد التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية.

وتقول نيويورك تايمز إن الجائحة توسع هوة التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية، ما يجعل الفيروس أشد خطرا، وهذه دائرة مفرغة متصاعدة القوة يرى الخبراء أن أثرها قد يبقى لسنوات طويلة مقبلة. وكانت بحوث سبق إجراؤها على الانفلونزا قد بينت أن الفقر والتفاوتات تتزايد في زمن الجائحة كما أنها ترفع معدلات انتقال العدوى ومعدلات الوفاة.

ومن الآثار الجانبية المحتملة لاقتران انتشار الفيروس بانتشار الفقر، أن تكتسب الشعبوية اليمينية قوة إضافية وأن تتعمق الأحقاد العرقية وتتصاعد معدلات ما يسمى في الغرب وفيات اليأس despair deaths، وهو مصطلح نظن أنه غير متداول في العربية ويشار به للوفيات التي تنجم عن إدمان الكحول وعن انتشار الميول الانتحارية وعن الجرعات الزائدة من العقاقير والمواد المخدرة. وتنقل نيويورك تايمز عن الأستاذة المساعدة بجامعة واشنطن المتخصصة بالصحة العامة ودراسات الكوارث قولها «هذه الأمور يتصل بعضها ببعض، أوثق الاتصال. فأوجه الخلل الاجتماعي تتفاقم عقب كل كارثة، والجائحة الراهنة مرشحة لأن تكون المثال الكامل على ذلك الاتصال».

ويزيد من الشعور بخطورة التفاوتات الاقتصادية نتائج

دراسة حديثة: العالم يشهد ظهور ملياردير كل يومين". ما يعكس وتيرة الاستقطاب الاجتماعي والاقتصادي فيما خلصت دراسة لجمعية أوكسفام الخيرية البريطانية كشفت عن أن ثروة أغنى 26 شخصاً حول العالم خلال العام 2018 تعادل ثروة نصف سكان الأرض. وكشفت الدراسة عن أن ثروات الأثرياء ظلت ترتفع بنحو مليارين ونصف المليار دولار في اليوم الواحد طوال أيام العام 2018 بنسبة زيادة تبلغ نحو 12 % على مدار العام.

لكن في المقابل، فإن «ثروة النصف الأكثر فقراً من سكان الأرض انخفضت بنحو 11 % خلال العام الماضي»، وبتأثير جائحة كورونا. في المقابل، تعزز، طوال السنوات التي سبقت ظهور الجائحة، وضع الأثرياء من كبار رجال الأعمال في البلدان الصناعية، "أوضحت البيانات أن معدلات الضرائب على الشركات في الدول الثرية تراجعت من مستوى 62 % في عام 1970 إلى 38 % في 2013" .

وأشارت الدراسة إلى أنه في دولة مثل البرازيل فإن ما يدفعه أفقر 10 % من السكان من ضريبة الدخل يزسد عن ما يدقعه الـ10 % الأكثر ثراء.

وفي العشرين من يناير من العام 2019 وخلال جلسات القمة العربية التنموية الاقتصادية والاجتماعية التي عقدت في بيروت قال النائب الأول لرئيس البنك الدولي الدكتور محمود محيي الدين أن تكلفة الخسائر في النشاط الاقتصادي بسبب الحروب والنزاعات والصراعات في المنطقة العربية تزيد عن 900 مليار دولار، لتضيف عبئاً على تراكمات سابقة.

وعلى الرغم من نجاح الأقاليم الاقتصادية حول العالم في تخفيض نسبة من يعانون من الفقر المدقع، إلا أن هذه النسبة قد زادت عربياً إلى الضعف حيث قفزت من 2.6 % إلى مستوى 5 % خلال الفترة من 2013 وحتى العام 2015.

يبقى الإقليم الاقتصادي العربي هو الأسوأ من حيث عدالة توزيع الدخل حول العالم، إذ يستحوذ أغنى 10 % من السكان على 61 % من الدخل القومي، في حين أن الـ10 % الأغنى في أوروبا لا يتجاوز نصيبهم 37 % وفي الصين 41 % وفي الهند 55 %.

الاحتمالان وهما احتمال نشوب حرب عالمية ثالثة ولو بطريق الخطأ واحتمال أن يتواصل تصاعد التفاوتات الاقتصادية، قد يخففان من غلواء التفاؤل وقد يمنعان من الاسترسال في رسم ملامح عالم سعيد لن يتحقق إلا بكثير من الجهد... لكنهما- أبدا - لا يدعوان لليأس. مانراه في تأثير جائحة كورونا على المسارات المحتملة لمستقبل الإنسانية هو ما يراه فريد زكريا حين يكتب في الواشنطن بوست تحت العنوان «الجائحة قلبت الحاضر رأسا على عقب، لكنها تعطينا فرصة لإعادة صوغ المستقبل». وفي مقاله هذا يؤكد زكريا أن الفعل الإنساني سوف يقرر ما إذا كان عالم مابعد كورونا هو عالم الفوضى والحرب الباردة أم عالم التعاون.

فريد زكريا عالم السياسة والمؤلف ورئيس تحرير الطبعة الدولية للنيوزويك ونجم السي إن إن وأحد أكثر الناس في العالم المعاصر معرفة بحقائق هذا العالم استبعد في احتمالات المستقبل، كما يراها، احتمال المواجهات المسلحة، وربط الفوضى بالحرب الباردة وليس بصدامات عسكرية. وهذا يضعف الاحتمال الأول، الأشد خطرا، وهو احتمال حرب عالمية ثالثة.

هل بوسعنا أن نشعر بحد أدنى من الارتياح؟ ممكن.

المحتويات CONTENTS

■ إهداء 3
■ إستهلال 4
■ كلمة محمد جاسم الصقر رئيس غرفة تجارة وصناعة الكويت 6

المدخل:

الإنسان والاوبئة
حروب الجيل الخامس

● في تاريخ الآلام: شواهد وشهادات 13
● الطاعون الكبير 16
● الجوائح عند الشعراء الروائيين والمصلحين 21
● في موسم كثرت فيه الوفيات 53

الفصل الأول:

الإرادة الإنسانية وبناء الحضارة

● أحزان مدينة النور 72
● وحدة المصير الإنساني 79
● الخطر الداهم للعدو التافه 83
● نداء لتنبيه العالم من غفلته 101
● عبروا الحاجز؟ 107

الفصل الثاني:

كورونا... من أين جاء وكيف انتشر... بين الطب وأشياء أخرى

● ما هو «كوفيد – 19» طويل الأمد؟ 113
● نظريات حول فاشية كورونا؟ 114
● الخفافيش أم مختبر ووهان... هو السبب؟ 119
● لماذا النساء والأطفال أقل عرضة؟ 129
● نجوم ومشاهير حول العالم 138
● كيف تعزز جهازك المناعي؟ 156
● مستقبل الفيروسات 162
● سلالات فيروس كورونا الجديدة 180

الفصل الثالث:

رحلة كفاح الكويت ضد كورونا

● عام المواجهة والتحدي 221
● دور تاريخي للبنك المركزي وقطاع المصارف 225
● خطة التحفيز الاقتصادي 236
● أرقام كويتية في ظلال الجائحة 242
● حلم اللقاح وبدء التطعيم 256
● اللقاح للجميع 258
● قرارات الحظر 262
● عودة الى الحياة الطبيعية 264

المحتويات CONTENTS

الفصل الرابع: الجائحة تعيد صياغة الحياة

- مستقبل الطاقة والاقتصاد في العالم 277
- مجاهل كورونا الغامضة 293
- التجارة الإلكترونية بعد كورونا 299
- الروبوتات قادمة للسيطرة 306
- دروس من الجائحة 331
- الوجه الآخر لـ «كورونا» 342
- كورونا وتداعياتها على النساء 363

الفصل الخامس: اللقاح الشامل والحق المتكافئ في الحماية

- لقاح «كورونا» يكتب حياة جديدة للبشرية 377
- ما هي مكونات اللقاح 378
- كيف تطور اللقاحات 380
- فاعلية اللقاحات الصينية 391
- ٧ معلومات مغلوطة عن اللقاحات 396
- قومية اللقاح أكبر العقبات 404
- انطلاق حملات التطعيم 408
- اللقاح والحق المتكافئ في الحماية 425
- كيانات برزت مع الجائحة 432
- الفروق بين اللقاحات 438

الفصل السادس: الطواعين في المنطقة العربية

- الحضارات والطواعين 447
- نظرية الداء والدواء عند المسلمين 452
- تاريخ ابن حنين 454
- طبقات ابن جُلجُل 455
- البداية والنهاية لابن كثير 456
- كتاب الإفادة والاعتبار 459

الفصل السابع: الموت الأسود: طاعون القرن الرابع عشر وموروثه الباقي

- الحضارة المشرقية 465
- أطروحة المركزية الصينية 471
- تتابع الطواعين في الشرق العربي 472
- كورونا تضعف العولمة 479

المحتويات CONTENTS

الفصل الثامن: الانفلونزا الإسبانية بداية القرن الأميركي

- الانفلونزا الاسبانية في المشرق العربي 491
- الوباء والتطرف 494
- تطور إجراءات الصحة العامة 496

الفصل التاسع: العودة للطبيعة وخطر الانفصال عنها

- العودة للطبيعة وقوى الخضر 504
- هل النباتيون لقمة سائغة 506
- العلم والدين ما بعد الحداثة 508
- العولمة في زمن الوباء 510
- الفيروس صبغ الوباء بالصراعات السياسية 520

الفصل العاشر: التحول المناخي وصناعة المستقبل

- البحث عن النعمة في النقمة 542
- من وحدة الوجود إلى وحدة المصير 543
- أعمدة الحملات العشر 551
- نحو «تشحيل» العالم لحفظ التوازن 553
- 750 مليار دولار سندات خضراء 557
- الهجرة بعد كورونا 562

الفصل الحادي عشر: التأثيرات الثقافية وعالم الكتب

- أصوات في زمن كورونا 567
- إصدارات عربية وترجمات 568
- كتب عالمية 572
- من سيحكم العالم بعد كورونا؟ 575
- رؤية المثقف العربي 578
- الكمامة... موضة في عالم الازياء 586
- نيويورك تهزم كورونا 595

المحتويات CONTENTS

الفصل الثاني عشر:

القارة الكبرى وسط المحيطات

- الولايات المتحدة الأميركية – كندا – المكسيك 603
- جائحة اليأس في أميركا اللاتينية 647
- أمريكا الوسطى 660
- كورونا أعاد كوبا إلى العالم 662
- أميركا الجنوبية بؤرة الوباء 664

الفصل الثالث عشر:

استراليا نصف الكرة الجنوبي ونيوزيلندا قاهرة الفيروس

- عنصرية وحرب تجارية 688
- الاقتصاد أهم من كبار السن 691
- نيوزيلندا الأكثر سعادة في العالم 694
- تدفع ثمن كفاحها ضد كورونا 701
- دروس في التجربة 703

الفصل الرابع عشر:

أوروبا تحت وقع الوباء

- العاصفة الاقتصادية 711
- كيف انهارت أسوار المناعة؟ 714
- طريق واحد للنجاة 715
- التضامن اجباري 717
- هل يتفكك الاتحاد؟ 719
- الجسد الهرم للقارة العجوز 726

الفصل الخامس عشر:

معاً نصنع عالماً جديداً... إن إتحدَّنا

- ظهور العدو الخفي 738
- حدود التفاؤل 744
- تعمق اللامساواة 744

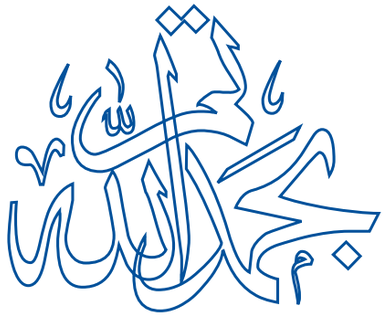

مطابع الخط
Al-Khat Printing Press
Tel.: (965) 24844545 - Fax: (965) 24844949
www.alkhatpress.com

خصائص الموسوعة

رحلة كفاح الكويت ضد كورونا وما شهدته من تطورات

- الاولى من نوعها نظراً للشمولية التي تتسم بها وعمق التغطية المعلوماتية وحجم التنوع في رصد الآثار الناجمة عن الجائحة.
- تتناول عرض المراحل التاريخية للأوبئة وترسم رؤوية لمستقبل البشرية وفقاً لقراءات ذات قيمة معرفية.
- أوسع تغطية علمية شاملة من نوعها، موسوعة مرجعية ذات مصداقية توثق قصة «فيروس كوفيد - 19» وتاريخ الفيروسات ومستقبلها ومن كافة الجوانب والأبعاد.
- حروب الجيل الخامس والصراع بين الانسان والأوبئة
- خمسة عشر فصلاً تغطي مختلف جوانب وأبعاد الطواعين والجوائح وتحيط بتاريخ الأوبئة منذ ظهورها.

الرعاة

الكويتية KUWAIT AIRWAYS

amd AL Mojil Drug Co. (K.S.C.C.) شركة المعجل للادوية (مقفلة)

AHMADIAH الشركة الأحمدية للمقاولات والتجارة ش.م.ك (مقفلة)

ALAFCO

Zbeel زبيل www.myzebeel.com

9 789921 766493

منشورات ذات السلاسل الكويت

الناشر ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع P.O.Box 12041 Al-shamiyah, 71651 Kuwait

Thatalsalasil

Thatalsalasilbookstore

www.thatalsalasil.com.kw

+965 22466266/55

+965 22438304

info@thatalsalasil.com.kw